المجلد الثالث
٢٠٠٣

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية سنوية مُحكَّمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثالث

٢٠٠٣م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. على الغمراوى

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام–حمامات القبة–القاهرة

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

- ترسل المراسلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلك البحوث على العنوان التالى كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكترونى tm_jmih@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣س أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

ب: عرض الكتب

ثانيا: القسم الأجنبي

ا: أولا البحوث والدراسات

B: Book Review

المشاركون في العدد*

ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية– جامعة تاوريدا الوطنية – أوكرانيا.
بيتر فرانكوبان	مدرس التاريخ البيزنطى، جامعة اكسفورد، إنجلترا.
جوان مونفيرر سالا	أستاذ الدراسات السامية، جامعة قرطبة، أسبانيا.
حاتم الطحاوى	مدرس تاريخ العصور الوسطى، جامعة الزقازيق، مصر.
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي – جامعة عين شمس– مصر.
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة الزقازيق – مصر.
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس– مصر.
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس مصر.
ماريا فايوو	مدرس التاريخ البيزنطى، جامعة اكسفورد، إنجلترا.
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي – جامعة عين شمس – مصر.
محمد مؤنس عوض	أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد – جامعة عين شمس– مصر.
وفاء عبد الله مزروع	مدرس تاريخ العصور الوسطى، المملكة العربية السعودية.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائيا.

تقديم

يسعد هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامى والوسيط أن تقدم للقارىء عامة والباحث بصفة خاصة العدد الثالث، الذى يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراسات والبحوث المكتوبة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية؛ وجميعها تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية.

وقد رأت هيئة التحرير أن تصدر العدد الثالث على شرف عالم جليل يشار إليه بالبنان، كواحد من أبرز مؤرخى مصر لتاريخ العصور الوسطى، وهو العالم الجليل المرحوم أ.د. علـى الغمـراوى، الذى تمر عشر سنوات على وفاة سيادته جسداً، بينما لا تزال روحه تـتعلق بهـا أفئدة كل من صافحه أو جالسه يوماً ما. وقد تفضل الدكتور محمد مؤنس بكتابة ورقة عن سيادته يحصى فيها أعماله وإسهاماته في شتى المجالات العلمية والأدبية.

أمـا عن هذا العدد فنقدم فيه دراسة تتسم بالجدية والطرافة للمرحوم أ.د. رأفت عبد الحميد، عن " التاريخ بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية"، وهى من البحوث التى ألقاها سيادته ولم يسعفه الوقت لنشرها. وقد استطاع تلميذه الـ د.طارق منصور، أن يحصل على نسخة من مخطوطة المقالة ليتضمنها هذا العدد، لتزيده ثراءً. وفى هذه المقالة يناقش أ.د. رأفـت عبد الحميد أهمية الوثيقة التاريخية والفارق بينها وبين الرواية الشفهية وأثر ذلك على التدوين التاريخى.

ويـأتى بعد ذلك بحث السيدة الدكتورة/ زينب عبد المجيد، عن جامعة أكسفورد في العصـور الوسطى"، وهو بحث يتسم بالعمق والجدية وحداثة الموضوع، وقد تمكنت سيادتها مـن تغطية تاريخ نشأة جامعة أكسفورد وتطورها التاريخى من شتى الجوانب، بحس تاريخى عال يحسب لها.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فيقدم في ورقته الشيقة مدخلاً للباحثين في العصور الوسطى إلـى مواقـع الانترنت التى تعنى بالدراسات البيزنطية بصفة خاصة، ويعكس هذا عنوان ورقته "مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على الانترنت "، والتى يجمل فيها خبرته في هذا المجال حتى يهتدى بها الباحثين وكل من يسعى إلى السير في دروب بيزنطة.

وتـأتى دراسـة السـيدة د/ محاسـن محمد على الوقاد المطولة عن "الحجابة زمن سـلاطين المماليك" لتزيد من ثراء العدد. حيث حرصت هيئة التحرير على نشر هذه الدراسة في عدد واحد، بدلاً من اقتسامها على عددين، حتى تتم الفائدة للقارىء. والدراسة التى تقدمها سيادتها عن الحجابة زمن سلاطين المماليك، تمكنت فيها من الإلمام بشتى جوانب الموضوع، بالإضـافة إلى تحملها عبء إعداد عدد كبير من الإحصائيات والجداول التاريخية التى أثرت

الدراسة، وأضافت إليها الكثير. ومن ثم فهى دراسة تتشرف هيئة التحرير بتقديمها إلى القراء الأعزاء بكل فخر وتقدير.

وتـأتي بعـد ذلـك ورقة الدكتور/ محمد مؤنس عوض، عن "أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنين ١٢ – ١٣م" والتى يمكن القول أنها دراسة مميزة في حقل الصليبيات ومنهج الكتابة التاريخية فيها.

أمـا آخـر الـبحوث العربية فهو بحث الدكتورة/ وفاء مزروع من المملكة العربية السـعودية، وهو بعنوان "الفيكنج وإغارتهم على الإمبراطورية الكارولنجية"، وهو بحث طيب حاولـت الباحثة فيه أن تقدم صورة تاريخية لغارات الفيكنج على مملكة الفرنجة في العصور الوسطى سواء في عهد شارلمان أو خلفاءه.

ونـأتي إلى عروض الكتب العربية حيث يقدم الكتور/ حاتم الطحاوى عرضاً لكتاب المؤرخ الأمريكى جون اسبوزيتو عن "التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة؟".

ونـأتي إلـى قسـم البحوث الأجنبية حيث شارك فيه عدد من الأساتذة من إنجلترا وأسبانيا ومصر وأوكرانيا، حيث يقوم الدكتور/ بيتر فرانكوبان وهو أستاذ للدراسات البيزنطية بجامعـة أكسفورد، دراسة بعنوان " Some notes on Byzantine foreign policy in the 9th – 11th centuries: was there really such a thing as steppe diplomacy? " ليست ببعيدة عن الدبلوماسية البيزنطية في منطقة الأستبس.

أمـا أ.د. مونفيرر سالا، الأستاذ بقسم الدراسات السامية بجامعة قرطبة، فيقدم بحثاً بعـنوان " From Greek into Arabic; some notes about translation and exegesis in a 13th cent. Christian Arabic work " يقدم فيه دراسة مهمة مع تعليقات عن نص عربى من التراث المسيحى في العصور الوسطى.

ويأتي بحث الدكتور/ طارق منصور وهى بعنوان " Ibn Manglī between the Arab and Byzantine Worlds: New Evidences " ليقدم فيه دراسة مقارنة بين مؤلف مملوكـى، ابـن مـنجلى، وليو السادس الحكيم ليثبت فيها أن الأول نقل كثيراً من النصوص الواردة في تكتيكا ليو الحكيم إلى العربية، محاولاً الإجابة على عدد من الأسئلة المهمة في هذه الدراسـة المقارنة؛ والتى كانت ورقة ألقاها في المؤتمر الدولى للدراسات اليونانية والشرقية، الذى عقد باليونان في عام ٢٠٠٠م.

أخـيراً تقـدم السـيدة الدكتورة/ إيرينا فونتشنكو، من جامعة تاوريدا بأوكرانيا بحثاً بعنوان " La musique dans la vie des barbares et des Grecs qui habitaient le littoral septentional de la mer noire

أمـا عن عروض الكتب الأجنبية فتقدم الدكتورة/ ماريا فايوو، مدرسة التاريخ البيزنطي بجامعـة أكسـفورد، بإنجلـترا، عرضـاً لكـتاب باليونانـية عـن الإسـلام عـنوانه "

' Αναστασίου Γιαννουλάτου,' Αρχιεπισκόπου Τιράνων και ' πάσης Αλβανίας,' Ισλάμ. Θρησκειολογική επισκόπησις, (Islam. A General Survey), 1st edition 1975, (Athens, 2001).

ولا يسـع هيـئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طارق منصـور، نائـب رئـيس تحريـر الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السـمنار" ودأبـه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العدد من الحولـية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانـه ممـا يسـعد أمانـة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلي مكانة علمية مرموقة ترتجيها وإليها نسعي.

هيئة تحرير الحولية



الأستاذ الدكتور على محمد الغمراوى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

١٩٢٦-١٩٩٣م

أولاً. القسم العربى

أ: البحوث والدراسات

من مؤرخي مصر الرواد لمرحلة العصور الوسطى
أ.د. على الغمراوى (١٩٢٦ - ١٩٩٣م)

د. محمد مؤنس عوض*
مصر

فى الصفحات التالية أتناول بالعرض سيرة حياة مؤرخنا الراحل أ.د. على الغمرواى؛ أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة عين شمس سابقاً، كذلك أتعرض لمؤلفاته سواءً الكتب أو البحوث؛ لإلقاء الضوء على آثار ذلك المؤرخ البارز الذى رحل جسداً ولا تزال روحه العلمية متوهجة في عقول تلاميذه.

ولد أ.د. على محمد محمود الغمراوى فى ٢٦ يناير عام ١٩٢٦م بالمنيا بصعيد مصر وفيما بعد انتقلت عائلته إلى القاهرة، وتلقى تعليمه فى مدارس بنبا قادن الابتدائية ثم مدرسة الأمير فاروق الابتدائية، وكذلك مدرسة الأمير فاروق الثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة (التى كانت تعرف باسم جامعة فؤاد الأول) فى قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، وحصل على درجة الليسانس من القسم المذكور عام ١٩٤٦م، ثم اتجه إلى دراسة القانون فالتحق بكلية الحقوق بالجامعة المذكورة في المدة من ١٩٤٦م إلى ١٩٥٠م، وعمل بالمحاماة على مدى ثلاث سنوات من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣م، وفى العام الأخير تم تعيينه معيداً في كلية الآداب – جامعة عين شمس بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية. ومن بعد ذلك غادر أرض الكنانة في بعثة عام ١٩٥٤م خلال شهور الصيف للإطلاع على مكتبات باريس، ولندن، وذلك بتوجيه من أستاذه الراحل أ.د. سليم سالم أستاذ اللغة اللاتينية بكلية الآداب – جامعة عين شمس، وبعد أربعة أعوام أى في عام ١٩٥٨م تم إيفاده إلى إيطاليا لدراسة المخطوطات اللاتينية فى مكتبات روماء، وفلورنساء، وميلانو، وفينيسيا.

على أية حال، تكللت جهوده بالنجاح عندما حصل في العام المذكور وأعنى به عام ١٩٥٨م على درجة الماجستير فى مجال النقد اللاتينى من كلية الآداب – جامعة عين شمس وكان موضوع الرسالة هو: خطبة شيشيرون في الدفاع عن الممثل الكوميدى روسكيوس وعنوانها:

Cicero's Oration pro Q. Roscio Comoedo, Editing the text with commentary.

وقد قام بنشر النص والتعليق عليه. وهى لا تزال توجد فى مكتبة كلية الآداب – جامعة عين شمس، وكان الحدث المحورى فى حياة ذلك المدرس المساعد بالقسم المذكور حينذاك؛ إيفاده عام ١٩٥٩م فى إجازة دراسية من جانب جامعة عين شمس للدراسة فى ألمانيا الغربية (حينذاك) للحصول على الدكتوراه من جامعة ميونخ Münichen وقد أكد لى شخصياً، أنه على الرغم من حصوله على الماجستير من مصر إلا أنه أدرك بعد فترة وجيزة كأنه لا يعلم

* استاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

شـيئاً عن الدراسات اليونانية، واللاتينية بالمقارنة بعلم الباحثين الألمان المتخصصين فى دراسة اللغة اللاتينية وخاصة فقة تلك اللغة philology.

ويلاحـظ أنه خلال دراسته للدكتوراه، وفى عام ١٩٦٥م عمل باحثاً في مهمة علمية خاصـة فـى لجنة معجم تراث العصور الوسطى بأكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ من أجل إصـلاح الأغلاط المطبعية فى مجموعة معالم ألمانيا التاريخية قبل إدراج مفرداتها فى المعجم، وهى مجموعة للمصادر اللاتينية لتاريخ أوربا فى العصور الوسطى.

وفـى عـام ١٩٦٧م حصل على الدكتوراة في الفلسفة من جامعة ميونيخ بعد حوالى ثمـانى سـنوات من البحث المضنى هناك. وكان تخصصه الرئيسى الدراسات الهندوجرمانية (الهند أوربية). أما التخصص الفرعى الأول دراسات العصور الوسطى (فى الغرب الأوربى). أما التخصص الفرعى الثانى الدراسات الحيثية.

ويلاحظ أن موضوع رسالته للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة ميونيخ هو:

دراسـات معجمـية لأسماء النباتات اللاتينية عند ديسقوريدس وابوليوس المنحول، وهى باللغة الألمانية – وقد نشرت فى ميونيخ عام ١٩٦٧م، وعنوانها بالألمانية هو:

Lexikographische studien über die lateinischen pflanzennaen bei Dioskurides und pseudo – Apuleeius, Münichen 1967.

ويلاحـظ أنـه لـم يقم بترجمتها إلى اللغة العربية، وظلت حتى أخريات أيامه باللغة الألمانية، وأن سعى إلى الإفادة منها في مجال دراسة الطب في أوربا العصور الوسطى.

مهمـا يكن من أمر؛ عين مؤرخنا مدرساً فى قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب – جامعة عين شمس وذلك عام ١٩٦٧م، ثم نقل ليعمل مدرساً لتاريخ العصور الوسطى بقسـم الـتاريخ بنفس الكلية على يدى أ.د. حسن حبشى، أ.د. عزت عبد الكريم، ثم أعير إلى جامعـة الكويـت خلال المرحلة الواقفة بين عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٥، وخلال وجوده هناك تمت ترقيـته أسـتاذاً مسـاعداً لتاريخ العصور الوسطى، وفى عام ١٩٧٨م رقى أستاذاً، وبعد ذلك بعامين ١٩٨٠م أعير للتدريس بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالـرياض بالمملكـة العربية السعودية وأشرف على عدد من الباحثين السعوديين فى دراساتهم العلـيا، وقد تنقل بين ثلاثة مدن فى المملكة أولها أبها حيث عمل فى كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعـية ثم انتقل إلى الرياض، ومن بعدها عمل فى معهد الدعوة بالمدينة المنورة الذى كان يتـبع الجامعة المذكورة التى ظل يعمل بها حتى عام ١٩٩٢م تقريباً وقد وافته المنية – رحمه الله تعالى – في يوم ٥ يوليه ١٩٩٣م.

أما مؤلفات الأستاذ الدكتور على الغمراوى فيمكن إجمالها على النحو التالى:

أولاً: الكتب:

- موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

- ملحمة البطولة الجرمانية، ط. القاهرة ١٩٧٢م.
- مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى للوسيط، ط. القاهرة ١٩٧٥م.
- البحوث النقدية الحديثة فى تاريخ العصور الوسطى الجزء الأول، بحوث القرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين، ط. القاهرة ١٩٧٨م.
- الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل اصطفان بن باسيل عن كتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب De Materia Medica (دراسة فى المنهج التطبيقى لتاريخ الطب العربى).
- المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأولى في العصور الوسطى وأطوار البحث التاريخى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

ثانياً: البحوث والمقالات:

- المصادر الهيجيوغرافية قبل النهضة الكارولنجية مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت العدد (٢)، عام ١٩٧٢م.
- "مبحث فى دراسة البطريسطيقا" المجلة التاريخية المصرية عدد عام ١٩٧٣م.
- "نظرات هستوغرافية فى التاريخ الأوربى في العصور الوسطى فيما قبل القرن العاشر الميلادى"، مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت، العددان (٣)، (٤)، عام ١٩٧٣م.
- "المؤلفات الدينية فى أدب الفقهاء اللاتين من القرن السادس الميلادى حتى القرن الثامن الميلادى" مجلة كلية الآداب – جامعة الكويت، العدد (٦)، عام ١٩٧٤م.
- "محاضرة الأستاذية" ألقاها بمناسبة حصوله على الأستاذية عام ١٩٧٨م، ونشرت مع محاضرات أخرى لأساتذة آخرين فى كتاب تذكارى من جانب جامعة عين شمس.
- "أهمية كتاب الحشائش عن الأطباء والعلماء اليونانيين والمسلمين المفردة عند ابن سينا وابن البيطار"، مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (٦) عام ١٩٨٢م.
- "تقرير ببليوغرافي عن بحوث فرنسا ونشراتها فى القرن الثامن عشر الميلادى الخاصة بالتاريخ الأوربى الوسيط" مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السابع عام ١٩٨٣م.
- "معالم ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historia (مجموعة مصادر التاريخ والتراث الألمانى فى العصور الوسطى) مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة (١)، عام ١٩٨٦م.
- "أثر الثقافة الإسلامية في الفكر الأوربى". محاضرة فى كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض عام ١٤٠٣هـ.

- فهرســة دائــرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية نشر فى مجلة معهد الدعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمدينة المنورة.

كتب وبحوث لم تنشر بعد:

- إنجيل برنابا وأناجيل الكنيسة (كتاب فى الرد على النصارى).
- تفســير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار مخطوطة بكلية الحرم المكى الشريف، رقم ١٣٦ طــب، نشــر وتحقــيق (مــن اقع الأصل اليونانى لكتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب، المعروف بكتاب الحشائش).

ثالثاً: الترجمة:

- نورمــان كانتور، التاريخ الوسيط، بالاشتراك مع أ.د. قاسم عبده قاسم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة الزقازيق. وهو العمل الوحيد الذى ساهم فيه بأمر الترجمة.

تلك هى المؤلفات التى ألفها الراحل أ.د. على الغمراوى على مدى رحلته العلمية بين إنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، والمملكة العربية السعودية، والكويت، ومصر، طالباً للعلم، وباحثاً، ومؤلفاً.

وواقــع الأمــر؛ أن الراحل الفاضل يوصف وبحق بأنه موسوعى الثقافة ومظهر ذلك إجادتــه للغــات الآتــية: العربــية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، واليونانية، واللاتينــية، ثــم الاطــلاع على التراث الكلاسيكي اليونانى واللاتينى، بصورة جعلته يوصف بالوصف السالف الذكر.

ونظــراً لدراســاته الكلاســيكية؛ فقد تحمس تحمساً شديداً لذلك التراث، ولذلك نصح تلامــيذه بدراســة اللغتين اليونانية واللاتينية، كمقدمة ومدخل إلى اللغات الأوربية الحديثة التى أتقنها بل أمتد به الأمر إلى تعلم اللغة السواحيلية التى قطع فيها هى الأخرى شوطاً.

وحيــث أن تخصصــه اللغوى في مجال فقة اللغة اللاتينية؛ فقد اتسم بالعمق، والبحث مــن أصول المفردات وكذلك الظواهر التاريخية، وهى سمة اتسم بها الراحل الفاضل ولاحظها كل من تعامل معه وناقشه في العديد من القضايا التاريخية وأحسب نفسى من هؤلاء على مدى أعوام طويلة منذ عام ١٩٧٨ إلى عام وفاته عام ١٩٩٣م.

ومــن ســمات فكــر أ.د. على الغمراوى، ما يوصف "بالتشعيب" بمعنى أن يأتى إليه المــرء كــى يسأله عن موضوع يتصور أنه محدد أو صغير، ومع المناقشة يتم توسيع نطاق النقاش إلى زوايا أبعد وأعمق بصورة كانت تدعو المرء إلى الدهشة.

وكــان المنطق دوماً وراء كل استنتاجاته، ونلاحظ دائماً أنه كان يعلى من شأن العقل بصــورة كبيرة، كذلك لجأ إلى أسلوب الحوار، والنقاش مع تلاميذه فى مرحلة دبلوم الدراسات العلــيا للوصــول ذاتياً إلى الأفكار التى أراد لنا التوصل إليها، ولذلك فالدارسة معه تحولت إلى

نوع ما من "المتعة العلمية"، وأتذكر كيف أنه طرح على طلابه عام ١٩٧٩م في مرحلة دبلوم الدراسات العليا فرع التاريخ الإسلامي والوسيط موضوع نظرية هنري بيرين Henri Pirenne التي عرضها في كتابه محمد وشارلمان Mohamed and Charlemagne والتي أظهر فيها أن المسلمين يتحملون مسئولية تحطيم الوحدة القديمة للبحر المتوسط. وطلب من تلاميذه البحث في مؤلفات ذلك المؤرخ الاقتصادي البلجيكي ونقده، وبذلك قدم لنا فرصة ذهبية لتعلم أصول النقد التاريخي مع التحلي بروح الموضوعية الواجبة. وطلب من تلاميذه الاسترشاد بكتابه المدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، الذي صدر في القاهرة عام ١٩٧٥م وهو أهم كتبه على الاطلاق، ومن خلال الدراسة معه أدركنا كيف أثرت دراسته للقانون على فكره، فقد كان منطقياً وقوي الحجة، ويتناول الفكرة التي يريد تفنيدها فيحللها ويفككها ويظهر ما فيها من القصور ولا يتركها إلا بعد أن يكون قد درسها بعمق بصورة كما – أسلفت – تدعو إلى الدهشة والتأمل.

وأود أن ألفت نظر القارىء إلى أن الدراسة اللغوية والقانونية والتاريخية للراحل الفاضل جعلته بالفعل يملك العديد من الزوايا التي أثرت عقول تلاميذه من طلاب الدراسات العليا خاصة خلال دبلوم تاريخ العصور الوسطي واليوم أدرك جيداً كيف كانت محاضراته حينذاك تجارب علمية في البنيونة أو التفكيكية قبل أن ندرسها نظرياً من خلال مؤلفات ميشيل فوكو.

من ناحية أخرى؛ تحمس الراحل الفاضل لدراسة الغرب الأوربي دراسة غربية تماماً بعيداً عن اتصاله بالشرق، وكثيراً ما ردد أن العلاقات مع الشرق تخرج عن نطاق تاريخ العصور الوسطى، غير أنه فيما بعد طور فكرته، وأشاد بتاريخ تلك المرحلة بل واشرف في المملكة العربية السعودية على عدة رسائل في مجال تلك الظاهرة التاريخية الكبرى في القرون الوسطى. بل تناول المصادر الأوربية لتاريخ الحروب الصليبية في كتابه البالغ القيمة المعنون بـ: المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربي في العصور الوسطى وأطوار البحث التاريخي من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ويعد تناوله في هذا الشأن من أهم الدراسات البيبلوغرافية المصدرية بالعربية عن مرحلة الحروب الصليبية.

وإذا كان ابتعاث أ.د. علي الغمراوي إلى ألمانيا قد أدى إلى حصوله على درجة الدكتوراه في فقه اللغة اللاتينية التي كان دائماً يفتخر بأنه العربي الوحيد الذي حصل على الدكتوراه من هناك في ذلك التخصص النادر؛ فإن سفره إلى هناك ترك أثراً لا يمحى في شخصيته إذ أدرك المرء بعد التعامل معه لعدة أعوام أنه امتلك صفتين رئيسيتين أولهما الدقة الشديدة ثم الصرامة العلمية، وهو أمر أدركه طلاب الدراسات العليا خلال السنة التمهيدية عام ١٩٧٩ – ١٩٨٠م خاصة في قاعة البحث في العصور الوسطى وكذلك في مادة اللغة اللاتينية،

ولم يكن يتسامح البتة فى أى خطأ علمي فى نطق كلمة من الكلمات، أوعنوان كتاب من الكتب بأى لغة أوربية.

ولقـد ظلت اللغة الألمانية لديه اللغة المفضلة بعد العربية واللاتينية واليونانية، وحافظ بعـد عودته من ألمانيا على درجة إتقانه لها، ولذلك، فعندما زار قسم التاريخ عام ١٩٨٠م وفد مـن جامعـة هامبورج الألمانية، ألقى سيادته كلمة ترحيبية به لقيت استحساناً من أعضاء ذلك الوفد.

أمـا المملكة العربية السعودية؛ فكان لها تأثير كبير على أ.د. على الغمراوى خاصة خلال سنوات عمره الأخيرة، حيث تعمق لديه الشعور الدينى خاصة من خلال مجاورته للحبيب المصـطفى محمـد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، حيث عمل هناك فى معهد الدعوة التابع لجامعـة الأمـام محمـد بن سعود الإسلامية، وهناك اهتم بقضايا الاستشراق، والمستشرقين، وموقفهـم من الإسلام فى مختلف القضايا، كذلك اهتم بإنجازات الحضارة الإسلامية خاصة فى موضـوعات الطب وتأثيره على أوربا العصور الوسطى، كذلك ألف واحداً من أهم مؤلفاته في مجـال مقارنة الأديان وهو "إنجيل برنابا وأناجيل الكنيسة"، وقد طالعته مع أحد الورثة وللأسف الشديد لم يظهر للنور بعد!!!.

يضـاف إلـى ذلك؛ أنه فى تلك المرحلة أشرف أ.د. على الغمراوى على عدة رسائل عن الحروب الصليبية وبلاد الشام خلالها وظاهرة الجهاد الإسلامي أثناء تلك الأحداث العاصفة التـي شـهدتها تلـك المنطقة، ولا ريب فى أن "المرحلة السعودية" أثرت فكر أستاذى بصورة كبيرة.

ومـن زاويـة أخرى؛ اهتم مؤرخنا الفاضل بالنباتات والأعشاب الطبية، وكتب الطب العـربى فـى هـذا الشأن وما ساهم به المسلمون من ترجمة لمؤلفات يونانية تتعلق بالأعشاب خاصـة كـتاب ديسـقوريدس عن الحشائش والذى أفاد منه كافة الأطباء المسلمين الكبار فى العصـور الوسـطى خاصـة من خلال ترجمة أصطفان بن باسيل. وكثيراً ما أشار أ.د. على الغمـراوى إلـى الدقـة الكبيرة التى اتسم بها المترجمون العرب مثل حنين بن إسحاق، وابنه اسـحق، واصطفان بن باسيل وغيرهم في الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن الأخيرة إلى لغـة الضاد، ويلاحظ أن اتجاهه نحو التراث الطب العربى توافر لديه أصلاً خلال دراساته فى ألمانيا.

علـى أيـة حال؛ بعد عودته إلى مصر حرص على إيجاد مجموعة من الباحثين تهتم بدراسـة الطب العربى والترجمات العربية للمؤلفات الطبية اليونانية. ووجد باحثة مهتمة بذلك المجـال فى صورة عليه حنفى (أ.د. عليه حنفى رئيس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بآداب عين شمس فيما بعد) فحصلت تحت أشرافه على درجة الماجستير فى الحقل العلمي المذكور.

وبصفة عامة؛ كان أ.د. على الغمراوى متشدداً في ضرورة معرفة الباحث المتصدي للكتابة التاريخية لعدد من اللغات الأوربية، ورأى أن من يعرف لغة واحدة كمن لديه نافذة واحدة فى بيته، وكلما عرفت لغات أكثر كلما زادت معارفك بالعالم المحيط بك قديماً وحديثاً، ودائماً أظهر سخطه من الباحث الذى يأتى إليه طالباً منه ترجمة أحد النصوص التاريخية بلغة أوربية إلى اللغة العربية. بل وجدته يرفض ذلك عدة مرات، حفاظاً على وقته، وإظهاراً لعدم تقديره لمن يطلب منه ذلك.

من زاوية أخرى؛ مازلت أتذكر لذلك العالم الفاضل مقولته لى بأنه من المستحيل التوصل إلى الحقيقة التاريخية التي لا يعرفها إلا الله تعالى وحده، وكافة جهود المؤرخين هى عبارة عن محاولات للاقتراب منها دون إمكانية معرفتها بصورة كاملة أو هى قريبة من الاكتمال، كذلك دائماً كان يردد أن أفضل مادة لكتابة التاريخ ما لم يكتب بقصد أن يكون تاريخاً بمعنى أن يكون هناك نص عبارة عن رسالة مرسلة من أحد الأشخاص إلى صديق من مدينة أخرى وتم اكتشاف هذه الرسالة فتكون بذلك مصدراً تاريخياً عظيم القيمة على اعتبار أنها بعيدة عن الرسمية أو تعمد كتاباتها لتكون مصدراً من مصادر الكتابة التاريخية.

زد على ذلك؛ أفدت من أ.د. على الغمراوى من خلال منهجه القائم على النقاش، والمحاور للتوصل إلى ما هو أقرب إلى الحقيقة التاريخية، وذلك من خلال جهد جماعى، وطول ممارسة، وعدم الكلل أو الملل من المناقشة. وحرصه الشديد على جذب تلاميذه إليه من خلال طرح عناصر جديدة فى المناقشة تجذبهم، وبانتهاء الجلسة معه، يدرك المرء أن شيئاً ما فى تفكيره تغير للأفضل، وبعد انتهاء العام المخصص للسنة التمهيدية للماجستير أدركت كيف أثر ذلك المؤرخ الكبير فى عقول تلاميذه وفى كاتب هذه السطور شخصياً.

من ناحية أخرى؛ أمتلك مؤرخنا صفة "الكارزما Charisma" الآثرة على نحو يصعب الفكاك من تأثيرها الكبير، وارتبط بتلاميذه وارتبطوا به وظل محافظاً عليهم من خلال صداقة قوية، لم تتغير يوماً أو تتبدل إلا إلى الأفضل.

وأود أن أوضح للقارئ، أن مؤرخنا يوصف بالفعل بأنه عشق تخصصه العلمى، ولذلك رفض أية مناصب إدارية فلم يتول رئاسة قسم أو منصب وكيل أو عميد كلية الآداب – جامعة عين شمس، وتعليل ذلك، اعتقاده الكامل بأن الباحث العاشق لعلمه؛ عليه التفرغ تماماً لواجبه العلمي، وأن يتعامل مع الورق والقلم تأليفاً أو ترجمة أو تحقيقاً وأن مثل تلك المناصب من شأنها إبعاده عن رسالته العلمية التى من أجلها خلقه الله تعالى، وذلك تصوره الشخصى بطبيعة الحال الذى التزم به طوال حياته ولم يناقض نفسه حيال ذلك البتة.

ولا أغفل؛ اتساع دائرة علاقاته الإنسانية مع الجميع فلم يكن يتعامل مع الآخرين من خلال كونه أستاذاً جامعياً بل مجرد إنسان يشارك الآخرين أفراحهم وأحزانهم، وهكذا ففى كل مكان عمل فيه ترك ذكرى طيبة حتى من الناس البسطاء الذين تعاملوا معه، وقد لاحظت ذلك

عـندما عملت في مدينة أبها بجنوب غربى المملكة العربية السعودية فوجدت العديدين يذكرونه ذكراً جميلاً، وكذلك عندما سافر زملائى إلى المدينة المنورة لاحظوا نفس الملاحظة مما عكس تعلقه بالآخرين وتعلقهم به على المستوى الإنسانى وهو المستوى الباقى بعد رحيل الأشخاص

وأود تقديـم مقـتطفات مـن إسهامات مؤرخنا من أجل الاقتراب قدر المستطاع من أسـلوبه فى الكتابة التاريخية، وقد ذكر فى كتابه ملحمة البطولة الجرمانية، "شغلت أوربا وعالم البحر المتوسط منذ القرن الخامس حتى مطلع القرن الثامن غزوات مغولية وجرمانية وإسلامية نجـم عنها تغير في نظام الحكم والمجتمع، وكان للجرمان على خلاف المغول والمسلمين أكبر الشـأن فـى تقريـر مصـير القارة الأوربية، ولذلك آثار منشأهم حماسة كثير من المؤرخين وبخاصـة فيألمانـيا حيـث ألهبـت دراسة هجرات الشعوب Voelkerwanderungen شعور الألمـان القومـى، كمـا أصبحت نظم الجرمان السياسية والقانونية والاجتماعية كذلك موضع اهتمام الدارسين بسبب المؤثرات التى أحدثتها فى الحضارة الأوربية الوسيطة.

كـان المعتقد فى الثلاثينات الأولى من القرن العشرين أن الحياة الجرمانية شابهت فى مخـتلف الـنواحى حـياة العـالم الرومانى وأن استمرار النظم الرومانية فى القرنين الخامس والسـادس كـان نتيجة لضآلة تأثير الغزوات الجرمانية على المجتمع الأوربى، وقد أيد وجهة الـنظر هـذه العالم النمساوى الفونس دوبس Alphons Dapsch فى كتابه الأسس الاقتصادية والاجتماعـية للحضـارة الغربية، ووصل إلى التقارب في المستويات الثقافية والاقتصادية بين الـرومان والشعوب الجرمانية، وكذلك مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne الـذى أكـد أن الغـزوات الجرمانية لم تشكل في الحقيقة انهياراً جانحاً في التطور الاقتصادي والاجـتماعى لأوربـا، ومـنذ الحـرب العالمية الثانية وإلى حد كبير بفضل دراسات العلماء الفرنسـيين ضـعف تفسـير دوبس وبيرين لحضارة الجرمان، ورأينا رجوعاً إلى وجهة النظر القديمـة عـن العواقـب المشئومة للغزوات الجرمانية، فقدم سالان Salin دليلاً أثرياً معارضاً للفرضـية الـتى ذهـب إليها دوبس، كما ناقش كورسيل Courcelle فى كتابه "التاريخ الأدبى للغـزوات الجرمانية" بطريقة حاول أن يجعلها مقنعة وجود الاهتمام بوجهات نظر المعاصرين الكثيبةعن دلالات الغزوات[1]".

ومن الجلى البين؛ من خلال السطور السابقة كيف أن أسلوبه في الكتابة التاريخية عبر عـن منهجية تهتم بالأبعاد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية دون إغفال التراث الشعبى وكل ذلك ضمن إطار من التحليل والبحث فى أصول حركات التاريخ فى أوربا العصور الوسطى.

---

[1] على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٣.

مهمـــا يكـــن مـــن أمـــر، ينبغى ألا نغفل – عند دراستنا لسيرة ذلك المؤرخ الرائد – الجوانب المأساوية التى واجهته فى حياته والتى انتهت بوفاته[2].

تلـــك صفحات قليلة عن مؤرخ رائد من مؤرخى مصر لمرحلة العصور الوسطى فى صورة أ.د. على الغمراوى رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

[2] فـــى الأعـــوام الثلاثة الأخيرة من حياة مؤرخنا نكب بعدة نكبات متلاحقة؛ إذ توفيت ابنته الوحيدة "فادية"، ومن بعدهـــا بعـــام توفيت زوجته حزناً على رحيلها، ثم أصيب هو شخصياً بمرض السرطان، وكان منكباً على كتابة كـــتابه "المجموعـــات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى" على الحاسوب، وقد طالعت مخطوطـــة الكتاب مع سيادته قبل رحيله وقد أوصى بضرورة طباعته لما فيه فائدة كبيرة للباحثين وبالفعل تمت طباعته بعد وفاته ومن الانصاف القول بأن أ.د. فتحى أبو سيف قام بدور فعال في ظهور الكتاب للنور بالاشتراك مع إدارة كلية الآداب – جامعة عين شمس فى عهد عميدها أ.د. محمد حسن وهبه.

التاريخ
بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية

د. رأفت عبد الحميد
مصـــر

"قال الراوى... يا سادة يا كرام "

عبارة تبتدىء بها كل سيرة وصلت إلى أيدينا من السير الشعبية المعروفة، "سيرة عنترة بن شداد" و "سيرة الملك سيف بن ذى يزن ملك اليمن"، و "سيرة حمزة العرب الأمير حمزة البهلوان" ؛ و "السيرة الهلالية" أو قصة "الزير سالم أبو ليلى المهلهل" و "تغريبة بنى هلال" و "سيرة الأميرة ذات الهمة" و "سيرة الظاهر بيبرس" وغير ذلك، على حين تستفتح شهر زاد كل ليلة من لياليها عند حكيها لحكاية جديدة أو استمرارها في واحدة كانت قد بدأتها بالفعل من قبل، بقولها الشهير "بلغنى أيها الملك السعيد" وكلمة "بلغنى" هى شكل آخر من أشكال "قال الراوى" فالدلالة واحدة.

وقد ينص أحياناً في بداية السيرة على اسم واحد من هؤلاء الرواة، قد يكون أخرهم، وقد لا يأتى ذكر لأحد منهم على الإطلاق، ففى "سيرة الملك سيف ملك اليمن"، نجد مثالاً لذلك حين يقال: "قال الراوى أبو المعالى رواى سيرة أبى الأمصار وسائل النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار"،[1] مع العلم أن "أبا المعالى" لقب للراوى وليست اسما لعلم، بينما يأتى الاسم منسباً في سيرة "الظاهر بيبرس" عندما نصادف في أولها عبارة "قال الراوى وهو الدينارى رحمه الله تعالى"،[2] على حين تنفرد "سيرة الأميرة ذات الهمة" بإيراد أسماء عشرة من الرواة تقدمهم على هذا النحو: "..وإن من روى هذه السيرة العجيبة، وما فيها من الأحاديث المطرفة الغريبة، هو على بن موسى المقانبى، وابن بكر المازنى، وصالح الجعفرى، ويزيد بن عمار المزنى، وعبد الله بن وهب اليمانى، وعوف بن فهد الفرازى، وسعد بن مالك التميمى، وأحمد الشمشاطى، وصابر المرعشى، ونجد بن هشام العامرى، قالوا جميعاً والله أعلم...".[3]

وتفصح هذه السير، أو ان شئت الدقة فقل هذه الروايات الشفوية المتواترة في مجموعها، عن الهدف الأساسى من وضعها، وهى كلها تتفق عليه وإن اختلفت عباراتها، مثل "... وهذه قصة غريبة الوجود، والمستعان بالله تعالى الواحد المعبود، الذى جعل سير الأولين عبرة للقوم الآخرين، وأخبار الأمم الماضين (هكذا) اعتباراً للباقين".[4] أو "... أن سير الأولين

---

[1] سيرة فارسى اليمن الملك سيف بن ذى يزن، بيروت ١٩٨٥، جـ١، ص٣.
[2] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول، ص١١.
[3] سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، بيروت ١٩٨١، المجلد الأول ص٥.
[4] سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يون، بيروت ١٩٨٥، جـ١ ص٣.

صارت عبرة للآخرين لكى يرى الإنسان العبر التى حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السابقة وما جرى لهم فينزجر (هكذا)، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين...".[٥] أو "... ان الله سبحانه وتعالى جعل سير الأولين عبرة للآخرين، وموعظة للجاهلين، وتنبيهاً للغافلين، يتعظم بها أصحاب العقول الكاملين".[٦]

ولا أظن أن هذا الهدف الذى تسعى إليه الرواية الشفهية التى تصبح بمقتضى التقادم موروثاً شعبياً، يبعد كثيراً عن الهدف الذى تضعه الدراسات التاريخية نصب أعينها، وإن اختلفت الفكر والمضامين والمصادر، ولننظر مثلاً إلى ذلك العمل التاريخى الرائع الذى وضعه المؤرخ الأشهر تقى الدين المقريزى تحت عنوان "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وهى دراسة إطارها المحيط هو التاريخ، ولكنها في جوهرها تضم عدداً من ميادين الدراسات الإنسانية المختلفة، كالجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والعمارة والفنون والآداب والتخطيط، أو بعبارة أخرى ننقلها عن أستاذنا محمد عبد الله عنان[٧] متمثلة في قوله: "... فهذا الأثر فوق كونه عرضا مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة، وسيرها منذ الفتح الإسلامى، هو مجمع فريد من صور العمرانية والاجتماعية والفنية في العصور الوسطى، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى، وأحوال المجتمع المصرى، وظواهره النفسية والأخلاقية، وحياته العامة.. وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد، تراث المدينة الإسلامية في مصر، يعرضه لنا المقريزى في صور قوية باهرة ممتعة، وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث. فإذا ملك أو أمير كبير يقترن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة أو تلك، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها، فإنه يستقصى كل ما يتعلق به أو بها من الأخبار، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر إلى الأمير، ومن الأمير إلى الحرب، ومن هذه إلى المآدب والرياض، وهو خلال ذلك كله يعنى بعرض صور هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى، ويقدم إلينا المجتمع القاهرى في أثوابه المختلفة ذاهية وقائمة، ويعنى بشرح النظم السياسية والادارية والاقتصادية التى توالت على مصر، ورسوم البلاط القاهرى في عصوره المختلفة، وأحوال الخلفاء والسلاطين في الحياة العامة والخاصة، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم وأطوارهم، وأحوال المنشآت العامة كالثكنات والسجون والمعاهد والمدارس والمساجد والزوايا والتكايا وغيرها، وحياة الشعب الخاصة، وعادات الأفراد وتقاليدهم وأحوالهم في المعاملات والملبس والمآكل والأفراح والأتراح والجد والهزل".

هذه المساحة المعرفية الواسعة المتعددة الجوانب، عنونها المقريزى بـ "المواعظ والاعتبار"، ومن ثم فليس هناك اختلاف في الهدف – كما أشرنا منذ قليل – بين الدراسات

---

[٥] ألف ليلة وليلة، بيروت بدون تاريخ، جـ١ ص٥.

[٦] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول ص١٠.

[٧] مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٣١ذ، ص٥٠ – ٥١.

التاريخية الوثائقية والروايات الشفهية أو الموروث الشعبى، والمقريزى نفسه يعبر عن ذلك بقلمه الخاص حين يقول: "علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانه وخطراً، لما يحويه من المواعظ، والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذا الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى، لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به رامقة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة".[8] وهذه العبارات التى أوردها المقريزى لا تبتعد كثيراً عما أورثه السير الشعبية التى تعد النموذج الحى المتجسد للرواية الشفهية، عن الهدف المبتغى من وراء سردها أو قصها على مسامع العامة.

غير أن هذا لا ينجو بنا بعيداً عن الجانب الوثائقى في الدراسات التاريخية، وهو عصبها، فكما أسلفنا من القول إن "الراوى" يبتدىء روايته بالقول عمن أخذ: "قال الراوى"، فإن المؤرخ يدعم دراسته وتاريخه بقوله "تحدثنا الوثيقة" أو "تخبرنا المصادر"، والباحث المدقق يفتتح مطالعته لأى كتاب في التاريخ، بالصفحات الأخيرة من الكتاب، بحثاً عن المصادر والوثائق التاريخية التى اعتمد عليها المؤلف في كتابه، وتحدد القيمة العلمية تبعاً لمدى اصالة تلك الوثائق والمصادر، ومن البديهى أن أى باحث أو مؤرخ لا يمكن مطلقاً أن يقف فوق جسر الصدق ما لم تكن الوثيقة مصدر بحثه وركيزة دراسته، شريطة أن تكون الوثيقة نفسها صادقة لم تمسسها يد التزييف، تلك قضية أخرى.

وقد وقف مؤرخنا الأشهر "ابن خلدون" على هذه الناحية وحدثنا عنها بكل الدقة عندما كتب في "مقدمته" يقول: "... والتاريخ في باطنه نظراً وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأمم وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس في الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقرها ووضعوها."[9]

وابن خلدون هنا كما هو ظاهر في عبارته، يفصل بين المؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة في منزلة القضاء.. وكاتب التاريخ المتطفل على كتابته بكل ما تفصله كلماته من بعد عن الانتقاء.

ولنكمل حديث ابن خلدون لنرى إلى حد بعيد البعد عن الوثيقة في الدراسة التاريخية ضرباً من العبث، والعبث نفسه في عدم تمحيص كل ما يكتب، والتغاضى عن الدقة في كل ما يقال ويدون، وتلك آفة نفر ليس بالقليل ممن يتصدون لكتابة التاريخ، ومن ثم فإنه يمكننا القول قياسا على شهادة العلامة ابن خلدون، "كثيرون يكتبون التاريخ، وقليل منهم المؤرخون"، فالمؤرخ بالدرجة الأول قاض وليس قاصاً ولا مجرد ناقل، يقول العلامة مكملاً حديثه الذى

---

[8] المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة بدون تاريخ، الجزء الأول ، ص٢.

[9] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، بيروت بدون تاريخ، ص٤.

توقفنا عنده منذ قليل: "... واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا نزهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل".[١٠]

واضح تماماً أن ابن خلدون يقف موقفاً جاداً من أولئك الذين يكتبون التاريخ بأيديهم ويقولون إنما قال بهذا الأسلاف، ونحن على آثارهم مقتدون، دون تمحيص وتدقيق، ومناقشة، وتحليل، ونقد بعد كل ذلك عميق وأصيل. هؤلاء النفر لا يعدون من المؤرخين وإن حسبوا أنفسهم كذلك وإن عدهم أناس هكذا.

والذي يلفت النظر ويدل على فراسة العرب وسبقهم في العديد من ميادين المعرفة الإنسانية، أن ابن خلدون فصل في صدر مقدمته بين الرواية والتاريخ، أو بتعبير أكثر دقة بين التاريخ المروى أو الرواية الشفهية والتاريخ الوثائقى، وميدان هذا وذاك، وما يحتاجه عامة الناس والجمهور، وما يسعى إليه خاصة الدارسين وأعيانهم، وهذا بيت القصيد في بحثنا هذا، يقول: "... فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلب بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفى باطنه ...".[١١]

وهذه العبارات الأخيرة تنصرف دون مناقشة إلى الرواية الشفهية أو التاريخ المروى، الذى تنمو فيه الأقوال "بزيادة الروايات جيلاً بعد جيل، يضيف إليها راو بعد راو، ومحدث بعد آخر، ويتفنن كل منهم في إضافة قصة على هامش الرواية، أو طرفة لطيفة، أو مثل جرت به الألسنة مع الزمان، ويضيف إليها من عندياته ما يشوق السامعين، وتلك براعة في فن الإلقاء، وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله "وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال"، حيث يتحلق الناس حول هذا الراوى أو ذاك في إصغاء عجيب.

وإذا كنا قد فصلنا بحزم بين من يكتبون التاريخ والمؤرخين، وأكدنا على أن المؤرخ هو الذى يضع الوثيقة نصب عينيه، مخضعاً إياها للتحليل والمناقشة والمقارنة والتمحيص

---

[١٠] ابن خلدون، المقدمة، ص٤.

[١١] المصدر نفسه، ص ٣- ٤.

والنقد، فإن هذا يدفعنا مباشرة إلى إثارة هذا السؤال الجوهرى.. أين موضع الرواية الشفهية من الكتابة التاريخية؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ كان في أصل نشأته روايات شفهية جرت بها ألسنة الناس، أو تناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، وتمثلت عند العرب في أشعارهم، حتى عد الشعر ديوان العرب، فسجلوا بالقريض أفراحهم وأتراحهم، ومجالس سمرهم، وحلهم وترحالهم، وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وساعدت ملكة الحفظ لديهم في نقل هذا التاريخ والاحتفاظ به لفترة زمنية طويلة، والعرب هنا لم يبتعدوا عن الأصل التاريخي لكلمة Istoria اليونانية، والتى كان يقصد منها في بلد الإغريق قديماً البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وهى معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، ثم تطورت الكلمة لتضم إلى ذلك معرفة الأحداث التى رافقت نمو هذه الظواهر.[١٢]

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن هذه المفاهيم لم تكن واردة في أول الأمر، بالمعنى الذى نقصده، لدى هؤلاء الشعراء العرب الذين تركوا شعرهم ودونوا فيه تلك الأحداث التى عايشوها أو حدثوا عنها فيما بعد تمجيداً وافتخاراً. فأيام العرب، ترجع في أصلها إلى الأدب أكثر مما ترجع إلى التاريخ، فقد كانت تروى بالدرجة الأولى لإيناس السامعين ولإمتاعهم؛ حقا لقد كانت تحتوى على عناصر تاريخية من حيث أنها سجلت أحداث كبرى (كحرب البسوس، وداحس الغبراء، وغير ذلك)، ومن حيث أنها اعتبرت مثل تلك الأحداث متصلة بنواح معنوية معينة،[١٣] وقد لعبت فنون وأشكال هذه "الأيام" و"القصائد" التى خلدتها، دوراً هاماً في تشكيل علم التاريخ عند المسلمين.

فمن الأمور التى لا يتطرق إليها الشك أن التاريخ الإسلامى نشأ في أول أمره معتمداً اعتماداً كاملاً على الرواية الشفهية، حتى عرف المشتغلون به بادىء ذى بدء بالرواة أو الإخباريين، ولم يكن هناك آنذاك ما ينتقص من قدر هذه الرواية لأن ملكة الحفظ العربية كانت لها السيادة على الكتابة أو التدوين إبان العصور الجاهلية وصدر الإسلام، وإن نظرة سريعة إلى كتب السيرة النبوية والمغازى نجدها كلها تورد أخبارها بقول مؤلفها: حدثنا فلان عن فلان، وحول هذا يقول الأستاذ أحمد أمين[١٤] "... لو تتبعت في ابن جرير الطبرى سلسلة رواياته وجدت أن الرواة الثالثة أو الأربعة الذين يتصلون به وبحياته كانوا في العصر العباسى، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين، نعنى بذلك أن الحوادث التى دونت كانت معروفة في العصر الذى يؤرخ له، وابن اسحق وأمثاله إنما دووا ما كان معروفاً وجمعوه".

---

[١٢] روزنتال (ف) ، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بيروت ١٩٨٣ ص١٦.

[١٣] المرجع السابق، ص٣٢.

[١٤] فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦١ ص١٥٦.

من هنا كان أول ما دون في التاريخ الإسلامى – بطبيعة الحال – يعتمد على الذاكرة الإنسانية، أو بتعبير آخر، الرواية الشفهية، ولعل من يقرأ ما دون من الذاكرة يتجلى له أن أغلب التاريخ العربى الإسلامى الأول مستمد من السمع والمشاهدة، ومن ثم جاء تدوين المؤرخين الأوائل لما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بـ "الإسناد" بمعنى دفع الخبر إلى قائله، وهكذا كان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ.[15]

وهذه السلسلة الطويلة من "العنعنة" التى نشهدها مثلاً عند ابن هشام في السيرة النبوية، والواقدى في المغازى، والطبرى في تاريخ الرسل والملوك، تؤكدا أمرين أساسيين على قدر كبير من الأهمية، أولهما: الدور الكبير الذى لعبته الرواية الشفهية في تدوين التاريخ الإسلامى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الأقل، والثانى: دور الرواة أو الحفاظ على هذه الروايات ونقلها جيلاً بعد جيل، مع محاولة التيقن الكامل من عدم انقطاع ثبت السند أو العنعنة حتى لا تمسى الرواية ضعيفة الإسناد فلا يؤخذ بها.

لا غرو إذن أن ينشأ علم التاريخ عند المسلمين في أحضان علم الحديث، لأن هذه الطريقة عينها هى التى اتبعت في جمع الأحاديث النبوية، ولما كان تحرى الدقة والأمانة حتماً مقضياً عند جمع هذه الأحاديث، فقد انسحب ذلك بالتالى على الروايات الشفهية التى تتصل بحياة الرسول وصحبه مكونة سيرته ومغازيه صلى الله عليه وسلم، ولما كان المسلمون حريصين في الناحيتين على التزام جادة الصدق والضبط في جمع مادتى الحديث والسيرة، فقد أصبح منهاج "الجرح والتعديل" ميزان الحقيقة في كل من هذه وتلك، وابن خلدون يشير إلى مثل هذه الناحية ويؤكد على ضرورة "البحث والروية" والبعد عن "الغفلة وضعف النظر"[16] ويشاركه في هذا الرأى "السخاوى".[17]

وقد حرص كثير من الخلفاء المسلمين على أن يكون إلى جوارهم دوماً من "يقص" عليهم أو "يروى" لهم أخبار الأمم السالفة التى سبقت الدعوة الإسلامية، وشيئاً عن أحوال ملوكهم وسادتهم، حتى أن الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان، كان كما يحدث عنه المسعودى "يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر من يواصل له الروايات الخاصة بسير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فتمر بسمعة كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات".

---

[15] عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣ ص٢٠٣ – ٢٠٤.

[16] ابن خلدون، المقدمة، ص٣١.

[17] السخاوى، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنثال، ترجمة/ صالح أحمد العلى، بيروت بدون تاريخ، ص ٩٢ – ٩٣.

والموروثات الشعبية تحمل رؤية الشعب لتاريخه وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشى بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا والنظام الأخلاقى الذى حكم حركته في الزمان والمكان.

والموروثات الشعبية تتضمن الأسطورة، السيرة الشعبية، والحكايات والألغاز، والأمثال والأغانى والنكات، وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائى.

ولعل الفرق الجوهرى بين التسجيل الرسمى للتاريخ والتسجيل الشعبى هو أن الأول قصد به أن يكون تاريخاً، أى أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذى تمت به كتابته، أما التسجيل الشعبى فهو تسجيل شفاهى تراثى تتناقله الأجيال وتزيد عليه، وتعدل في مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية، دون أن يقصد به أن يكون تاريخاً يقرأه الناس في الأجيال التالية، ذلك أن الموروثات الشعبية تعبير تلقائى عن الناس في حياتهم اليومية، وعن رأيهم في أحداث تاريخهم ورؤيتهم له، وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية، أن نستعيد صورة الحدث التاريخى من ذمة الماضى، فإن هذه الصورة تظل باهتة لا حياة فيها ما لم نفهم أهل العصر الذى ندرسه من خلال عاطفتهم ووجدانهم وقيمهم الأخلاقية، ومثلهم العليا التى حركتهم آنذاك، والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى، أو النتاج الثقافى لأمة من الأمم.[18]

ولعل أروع تعبير يمكن أن يؤتى به الآن، هو ما جرى على لسان طجورج ماكولى تريفيليان" G.M.Trivilian عندما قال: "لا تتألف روح الشعر في تدوين التاريخ من خيال يطوف في الفضاء، ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها، وبالنظر على أن الحقيقة قد وقعت فعلاً فإنها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسبر غوره، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنه يوضحان مدلولها.[19]

ويصل الائتلاف بين الرواية الشفهية والموروث الشعبى ذروته ويصبحان شيئاً واحداً في السير أو الملاحم التى أشرنا إليها في صدر بحثنا هذا، وهى خاصة بالتراث العربى، ويقابلها في أوروبا أيضاً الكثير مثلها ويسبقها بعضها أحياناً، فالموروث الشعبى يجد ضالته في شخصية محورية تاريخية حقيقية فعلاً، لعبت دوراً معيناً في مسيرة التاريخ الإنسانى، وتنسج حوله خيوط روايات تكون "ملحمة" شعبية، ولا يخفى على أحد أن المشاعر الشعبية تبحث عن شخصية البطل الذى ترتجيه في حاضرها ولا تجده ماثلاً بين ظهرانيها، فتستدعيه من ذاكرة التاريخ الرسمى، وتصنع منه البطل الذى تتطلع إليه ليخرج بها بقوته الخارقة وذكائه المتقد وحيله البارعة وشخصيته الجذابة، من هذا الواقع الذى تحياه، وتنطلق به، إلى آفاق أخرى تؤملها أكثر إشراقاً وسعادة.

---

[18] قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، القاهرة ١٩٩٣، ص١٦ – ١٧.

[19] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق اسكندر، بيروت بدون تاريخ، ص٢.

وكان نظم الشعر كما يقول "جوردون شايلد" – من العوامل المساعدة في تذكر الأحداث حين كانت الكتابة غير مستعملة، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى ظهور ملاحم البطولة والقصص الشعبية، ونمت تلك التقاليد الشعرية لازدياد تواتر الرواية المنقولة عنها، وكانت المبالغة مستحبة في الإشادة بالمفاخر والأمجاد لإثارة حواس المستمع وانتباهه، ومن الأمثلة الشائعة على ذلك ما جاء في التوارة مثل سفر القضاة مثلاً".[٢٠]

وأجدنى هنا ملزماً بأن القلم لـ "إيمرى نف Emery Neff."[٢١] ليلقى الضوء على ما قدمناه تواً فيقول: "إن الروايات المختلفة الكثيرة في نص الإلياذة والأوديسة التى جاءت في الشروح الهامشية القديمة، على مخطوط بالبندقية نشره العالم الفرنسى سنة ١٧٨٨، واقتباسات قدامى المؤلفين من شعر هوميروس ومنهم أفلاطون وأرسطو وفرجيل، وهى اقتباسات لم ترد في مخطوطاتنا، أقنعت "ولف" Wolf (الذى كتب تقديماً لدراسة أعمال هومـــيروس عام ١٧٩٥) بأن فن الكتابة لم يكن معروفاً عند الإغريق في عصر هوميروس، وأعتقد "ولف" أن هوميروس جمع معظم الملحمتين شفوياً معتمداً على القصص الأسطورى القومى، إلا أن المنشدين قد أضافوا إلى جمعه وغيروا فيه طيلة أربعة قرون تقريباً، ونقلوه بطريق الحفظ حتى دون كتابة في أثينا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، بل إن النص قد تناوله بعد ذلك النحويون والناشرون بالتعديل، وهذا يؤكد الحقيقة الذائعة لقائله بأن الشعب الإغريقى كان حقيقة لا مجازاً هو الشاعر العظيم هوميروس!! وقد أكد المؤرخون في جملتهم أن الملاحم الهومرية ألفت وانتقلت بطريق الرواية الشفوية، بل إن قوة الذاكرة الخارقة عند الشعوب الأمية الحديثة، أثبتت إمكان هذا النقل الشفوى واحتماله، حتى ليقال إن الشيوخ في جزر "هبريديس" يحفظون من الشعر الغالى ما يفوق الإلياذة طولاً، وبالرغم من أن العلماء قد عجزوا حتى الآن عن الاتفاق على ما إذا كان للقصائد الهومرية مؤلف واحد أو أكثر، فإنه أصبح من الواضح أن القصائد المنسوبة إلى هوميروس أشبه بالملاحم الشعبية إلى حد كبير منها بالإنشاء المقصود الذى يقوم به شاعر واحد، كما هو الشأن في "إينيادة" "فرجيليوس". وينقل "إيمرى نف" عن "نيبور" Neibuhr قوله: "من المشكلات التى قد تستعصى على الحل إنشاء ملحمة شعرية لا تعتمد على موضوع عاش قروناً في الأغانى والقصص الشعبية باعتباره ملكاً شائعاً للأمة".[٢٢]

ويأخذ "هرنشو"[٢٣] Hearnshaw مع بحثه الرائع ليؤكد لنا هذا المعنى بقوله: "إن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء

---

[٢٠] شايلد (ج)، التاريخ، ترجمة عدلى برسوم عبد الملك، القاهرة بدون تاريخ، ص٥٢ – ٥٣.

[٢١] المؤرخون وروح الشعر، ص١٢١ – ١٢٢.

[٢٢] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ص١٢٢.

[٢٣] هرنشو (ف)، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة ١٩٤٤، ص١٥.

نحن هنا إذن أمام كم هائل من الروايات الشفهية تناقلها حفاظ العرب أمة بعد أمة، شعرا كان أو نثراً، وإن كان الشعر هو الغالب لسهولة حفظه، وقد وجد المؤرخون المسلمون الأوائل أمامهم كل هذه الروايات الشفهية فجمعوها، وزاد الأمر كثرة دخول الشعوب المختلفة ذات التاريخ في الإسلام مثل الفرس وجماعات من الروم والمصريين ونفر من بنى يهود، وهؤلاء جميعاً رووا تواريخهم، وحدثوا المسلمين بها وبتاريخ الأمم الأخرى، ويكفي نظرة واحدة إلى تاريخ الأمم والملوك للأمام الطبرى، وقد قدمته هنا بلفظ "الأمام" لأن الرجل كان مفسراً ومؤرخاً، وهذا ما أسلفنا عنه الحديث منذ قليل عند القول بأن المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا رواة ومحدثين أو مفسرين، نقول إن نظرة واحدة إلى تاريخ الطبرى تكفي للوقوف على هذا الكم الهائل من الروايات الشفهية التى يوردها هؤلاء المؤرخون الأوائل بعد أن سمعوها وجمعوها، وهو حريص في الوقت ذاته على أن يرويها بسندها، فنراه يذكر مثلاً "... حدثنى ابن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال: "أو" أو "حدثنا شعيب عن سيف عن الربيع وأبى المجالد وأبى عثمان وأبى حارثة، قالوا:" وهكذا.

ورغم أن ابن خلدون يهاجم في مقدمته نفراً من المؤرخين الأوائل ويذكرهم بأسمائهم، لاعتمادهم على مجرد النقل لما سمعوا أو رأوا وتدوينهم لذلك دون تمحيص، إلا أن هذا لا يلغى مطلقاً الأهمية الكبيرة التى كانت عليها هذه الروايات الشفهية الذائعة والمنتشرة وفى الوقت نفسه المحفوظة شعرا بصفة خاصة أو نثراً، في كتابه التاريخ الإسلامى في أول الأمر. غير أن المسلمين لم يقفوا بتواريخهم عند هذه المرحلة، بل تجاوزوها بمراحل متعددة، ودخل التاريخ من بعد عندهم في مجال العلوم، بل اعتبروه – على حد قول السخاوى – من أحسن العلوم واشهدها، نذر السخاوى نفسه للدفاع عنه وذم من ذمه، وتبيان أهميته وأبعاده وأهدافه، في كتابه الذائع "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، وافرد له بن خلدون الصفحات الطوال في مقدمته الرائعة.

وتشكل الرواية الشفهية الركيزة الأساسية في الموروث الشعبى الذى يحكى مسيرة الشعوب نفسها، وطموحاتها وآلامها، ونبض الحياة الاجتماعية بكل جوانبها، والحياة الاقتصادية من حيث ممارسة الناس لها وتعايشهم في كنفها، بعيداً عن سيرة الحاكم سلطانه، ومن هذا المنطلق يلتف الموروث الشعبى حول جوهره، ويشكل الاثنان معاً – كما حدث في كثير من الأزمان وعند كثير من الشعوب، الأسطورة وهى التى خرج من رحمها التاريخ منذ البداية. وفى العصور الوسطى بصفة خاصة في الشرق الاسلامى أو الغرب المسيحى على السواء، يجد المؤرخ نفسه مدفوعا إلى الاعتماد أحياناً على بعض هذه الروايات أو الموروث الشعبى أو الأسطورة، ليكمل بأى منها ما نقص في المصادر أو الوثيقة التاريخية. ومن ثم فليس غريباً القول إن الرواية الشفهية تعد ضرورة أحياناً لتفسير ما غمض أو صعب فهمه في بعض جوانب الوثيقة التاريخية.

الإنسان إلى صناعة الكتابة، بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة، ويتناقلونها ابناً عن أب على شكل روايات شفوية، وكان الغرض الذى من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية، هو من غير نفس الغرض الذى ندري من أجله اليوم التاريخ ونكتبه" وهذا ما أشرنا غليه من قبل في صدر هذا البحث.

وتتسم الروايات الشفهية التى تكون الموروث الشعبى بالتلقائية والبساطة من ناحية، كما أنها تدور حول أمور تتعلق بثقافة المجتمع وتقاليده وعاداته وأخلاقه من ناحية أخرى، ويتم ذلك كله بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التى تخدم الأغراض والغايات الاجتماعية الثقافية للمجتمع، والموروث الشعبى يحمل أفكاراً ثابتة حقاً تمثل المنحى الثقافى للجماعة.

جامعة أكسفورد فى العصور الوسطى

د. زينب عبد المجيد عبد القوى*
مصر

فوق المراعى المائية Water-meadows على ضفاف نهر التيمز Thames ونهر أيزيس Isis عند نقطة الالتقاء بنهر شيرويل Cherwell تقع مدينة أكسفورد،[1] على بعد خمسين ميلاً شمال غرب لندن بحذاء المنطقة العليا اليابسة لشبه جزيرة منخفضة بين مجرى نهر شيرويل وأعلى التيمز من ناحية الشرق والغرب ، بينما من جهة الجنوب يؤدى انحدار إلى ممر من المراعى الرخوة التى تؤدى إلى جسر المدينة . وهى المنطقة التى يضيق عندها نهر التيمز قبل أن يتسع مجراه ويصبح عميقاً بعد اتصاله برافده شيرويل ، وهذه المنطقة كانت فى الأصل عبارة عن مخاضة كان رعاه الثيران من الأنجلوسكسون الغربيين يعبرون النهر بقطعانهم عندها ، متجهين إلى الحقول الرخوة الواقعة على حافة المنحدر ، الذى يشكل لساناً أرضياً بين نهر التيمز ورافده شيرويل . نشأت مدينة أكسفورد فوق هذا المكان التى يعنى اسمها "مخاضة الثيران" عند هذه النقطة التى تعتبر ملتقى ثلاثة طرق أحدها قادم من الشمال ، والآخر من الشرق ، والثالث من الغرب . وعلى الرغم من أن نهر التيمز كان الطريق المائى الذى تتصل لندن من خلاله بقلب انجلترا ، فلم ينشأ على مجراه سوى مدينة أكسفورد.[٢]

وفى ضوء الغموض الذى يحيط بالتاريخ الباكر لنشأة مدينة أكسفورد التى لم يرد لها ذكر فى المصادر التاريخية المعاصرة قبل عام ٩١٢م . حيث وردت أول إشارة بأنه فى هذا العام قام الملك الأنجلوسكسونى إدوارد الكبير (٨٩٩-٩٢٤م) أثناء الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية "بالاستيلاء على لندن وأكسفورد ، وجميع الأراضى التى أزعنت له بالطاعة

---

* مدرس تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق.

[١] تظهر مدينة أكسفورد فى الوثائق الملكية والمصادر المعاصرة لتاريخ انجلترا فى العصور الوسطى باسم :
Oxoniensius, Oxoniensis, Oxoniam, Oxoniae, Oxineford; Oxeneforda,
ويدل أصل الاسم Oxen فى اللغة الانجليزية الحديثة على معنى الثيران ، وفى ضوء الطبيعة الجغرافية للمكان الذى شهد ميلاد المدينة فى الحقبة الانجلوسكسونية على أن هذا الاسم يعنى "مخاضة الثيران" انظر :
Historical letters of the Reign of Henry III, ed. by Shirley in (Rolles Series) London, 1866, Vol. II 1236-1273, pp. 251, 301; Roberti Grosseteste, Epistolae, ed. By Luard in (Rolles Series) London, 1861, p. 346; Stubbs, Select Charters and Other Illustrations of English : From the Earliest times to the Reign of Edward the First (Oxford, Ninth Edition, 1913) pp. 106, 199; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, ed. By Stubbs in (Rolles Series) London, 1965, vol. I, pp. 35, 76, 332.

[٢] Mallet, History of the University of Oxford, London, 1968, vol. I, pp. 1, 2; Green, "Oxford in the Middle Ages", (ed.) in English Historians Selected Passages, Oxford, 1957, pp. 141-144; A Short History of the English People, London, 1960, Vol. I, p. 124;
ابراهيم الجزيرى ، مظاهر الحضارة فى انجلترا الانجلوسكسونية خلال عصر الملك ألفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، عام ٢٠٠١ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، حاشية رقم (٨٠) .

والولاء"[1] . وقبل ذلك التاريخ ووفقاً لتخمين المؤرخ باركر Parker كانت المدينة مجرد مكان حصين في قلعة هيل Castle Hill الأثر الوحيد الباقى من أكسفورد فى القرن العاشر[2] .

وقلما نسمع عن أكسفورد حتى القرن الحادى عشر . بيد أنه بدءً من هذا القرن غدت المدينة هى المكان المفضل لانعقاد مجلس الواتانجيموت Witenagemot ، أى مجلس الرجال الحكماء، أثناء حقبة الملكية الانجلوسكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) ، ومقراً لإقامة عدد من الملوك الانجلوسكسون مثل ايدموند الحديدى Edmund Ironside الذى لم يحكم سوى بضعة شهور من عام ١٠١٦م ، وكانيوت Canute (١٠١٦-١٠٣٥م) . وهارولد عام ١٠٦٦م . وغداة الغزو النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦م . ومن منطلق رغبة وليم الفاتح فى إحكام قبضته القوية على انجلترا . قام بتعيين البارون النورمانى روبرت دى أولى Robert d'ailly رئيساً لشركة أكسفورد ، حيث قام بإنشاء القلعة الشهيرة للمدينة عام ١٠٧١م . والتى صممت للأغراض الحربية والكنسية على السواء . حيث قام هذا البارون مع بارون نورمانى آخر يدعى روجرايفرى Roger d'Ivri ببناء كنيسة تعليمية Collegiate Church تكريساً للقديس جورج داخل القلعة عام ١٠٧٤م . ولم يلبث ابن أخيه أن أسس ديراً مهيباً فى أوسنى Oseney بين جزر نهر التيمز عام ١١٢٩م.[3]

فى ضوء ذلك نقول أن المدينة لم تحظ على المستوى الكنسى بأية هيبة تاريخية مثل كاتدرائيتى كانتربرى ويورك . ولم ترق إلى المرتبة الأسقفية التى من الممكن أن تضفى عليها هالة من القداسة والشهرة . وليس بها كنيسة كاتدرائية أو ديراً لأحد كبار القديسين ، باستثناء دير راهبات القديسة فريدازوايد St. Frideswide الذى تم تأسيسه عام ٧٢١م.[4] علاوة على عدد من الكنائس الأبروشية مثل كنيسة القديس مارتن التى تعد من أوائل الكنائس الأبروشية فى أكسفورد ؛ وكنيستها بالطبع هى كنيسة المدينة، وكنيسة القديسة مالدريد St. Mildred التى أقيمت تكريساً لقديسة من مملكة مرشيا Mercia أثناء الحقبة

---

[1] Roger Wendover, Flores Historiarum, ed. H.G.Hewlett, in Rolles Series, London, 1886-89, vol. I, p. 237; Rashdall, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, Vol. III, pp. 6, 7.

[2] Rashdall, op. cit., p. 7.

[3] Lyte, A History of the University of Oxford: From the Earliest Times to the Year 1530, London, 1886, p. 3; Mallet, op. cit., p. 17; Rashdall, op. cit., p. 7.

[4] يذكر المؤرخين رشدال وماليت اعتماد على حوليات دير القديسة فريدزوايد أسطورة فحواها أن فريدزوايد أبنة الملك ديدانيوس Didanus الذى حكم عام ٧٢٦م قد لاذت بالفرار من العاشق الذى طاردها ، يقال أنه ملك Leicesler الشرير ، حتى حصن فى غابة بينسى Binsey . حيث سالت منها الدماء . واستجابة لصلواتها . تفجر ينبوع من الماء فى هذا المكان ، وأصيب هذا الملك الجائر بالعمى . لتشهد المعجزات على مكانتها السماوية ، وندماً على خطيئة تم تأسيس هذا الدير فوق هذه البقعة . وللهدف من رواية هذه الأسطورة كما يذكر رشدال فى حديثه عن الوجود التاريخى لمدينة أكسفورد أن تأسيس هذا الدير يكون بمثابة إشارة باكرة بأن المدينة وجدت بعد ذلك ، انظر :
Rashdall , op.cit., Vol. III, p. 6; Mallet, op. cit., vol. I, p. 17.

الانجلوسكســـونية، وكنيسة القديس بطرس فى الشرق ، وكنيسة القديسة مريم المجدلية خارج أســـوار المدينة؛ ودير كنيسة القديس أوغسطين؛ وكنيسة القديس ميخائيل عند البوابة الشمالية للمديـــنة، ودير أبنجدون الذى امتدت ممتلكاته إلى هينكسى Hinksey ، ويتهام Wytham ، وغابة بيجلى Bagley[١] . وكان رئيس هذا الدير ، الذى يعتبر مؤسسة كبيرة وثرية ، يفرض علـــى أصـــحاب القوارب فى أكسفورد ضريبة مرور تقدر بحوالى مائة من سمك الرنجة عن كل قارب يمر فى أيام الصوم الكبير[٢] .

علـــى أية حال ، ففى داخل أروقة المدارس الملحقة بتلك المؤسسات الدينية يمكن أن نمـــيز المراكز الأصلية للتعليم[٣] . ففى أيام القديس بندكت النورسى نفسه St. Benedict of Nursia (ت. ســـنة ٥٤٣م) صـــور العـــالم الأرســـتقراطى الـــرومانى كاســـيودوروس Cassiodorus الأديـــرة باعتـــبارها أكثر الأماكن ملائمة للتعليم ، وأنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد[٤] ، وقد تمكنت هذه المؤسسات من جذب العديد من الدارسين الفقراء من جميع أنحـــاء انجلترا ، إن المدارس القديمة ليس فى انجلترا فقط ، بل فى جميع أنحاء أوروبا كانت ملحقـــة بالأديرة أو الكاتدرائيات ، ونظراً لعدم وجود دليل مضاد فإن التناظر يرغمنا على حد تعبير المؤرخ الأنجليزى بودريك Brodrick على اعتبار الكنيسة الأم المرضعة للجامعة[٥] .

ففـــى الوقت الذى قدر لجامعات شمال أوروبا أن تنمو فى صلب المدارس المرتبطة بالمؤسســـات الدينـــية ســـواء أكانت كاتدرائية أو ديرية أو كنسية فى ضوء ما اصطلح على تســـميته بالمدرسة العامة Studium Generale ، والتى تطورت فيما بعد إلى جامعة والتى تمـــثل المرحلة الأولى من تاريخ نشأة الجامعات[٦] . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ أو مصطلح الجامعـــة أو الجماعـــة Universilas لم يستخدم فى هذه الفترة الباكرة على الاطلاق . وإنما التعبـــير الـــذى شاع استخدامه فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، وعلى غـــرار نقابـــات الـــتجار والصـــناع ومجـــالس المـــدن هو جماعة الدارسين Universitas

---

١ Mallet, op. cit., vol. I, p. 18, Lyte, p. 2.

٢ Mallet, op. cit., p. 17.

٣ Brodrick, A History of the University of Oxford, London, 1894, p. 2 ; Green, op. cit.,p.125.

٤ كانـــتور ، الـــتاريخ الوســـيط (ت. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ ، جـــ١ ، ص ٢٢٣ .

٥ Brodrick, op. cit., p. 2; Rashdall, op. cit., p. 9.

٦ Mallet, op. cit., p. 3; Lyte, p. 4 ; Brodrick, op. cit, p. 2 ; Willson, A History of England (2nd. London, 1972) p. 121;
جوزيـــف نســـيم يوســـف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ياسر عبد المعـــبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا فى العصر الوسيط ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٧ .

Universitas Magistrorium et وجماعـــة الأســـاتذة والدارســـين ، Scholarium
.Scholarium[1]

وفـــى ضـــوء اســـتقراء الواقـــع التاريخى للحياة الأكاديمية فى القرنين الثانى عشر والثالــث عشـــر والأصـــل التاريخى لكلمة جامعة ، التى كانت تستخدم آنذاك بمعنى الجماعة للدلالة على جماعة الدارسين سواء كانوا أساتذة أو طلاب؛ وليس بمعنى المكان الذى يقيم فيه هــؤلاء أو حــتى المــدارس التى تجمعهم؛ أى ليس ثمة ضرورة أن تكون الجامعة مرتبطة بـــالمدارس . وفـــى هذا الصدد يذكر المؤرخ راشدال Rashdall أنه ليس من الضرورى فى الأســـاس الـــربط بين المؤسسة التى يشار إليها بكلمة الجماعة ، وتلك التى يشار إليها بمعنى المدرســـة العامـــة لأن جماعات الأساتذة والدارسين قد وجدت بالفعل قبل أن يخرج مصطلح المدرســـة العامـــة إلـــى حيز الاستخدام[2] . وتوجد بالفعل أمثلة قليلة تدل على وجود هذه مثل الجماعـــات أو الهيئات فى المدارس التى لم تصبح مدرسة عامة Studia generalia . وعلى أيـــة حـــال فقـــد كانـــت الجامعـــة فى الأساس عبارة عن نقابة تعليمية سواء من الأساتذة أو الدارســـين، ومـــثل هـــذه النقابات خرجت إلى حيز الوجود مثل النقابات الأخرى ، بدون أى تفويـــض واضح من الملك ، البابا ، الأمير ، أو رجل الدين . فقد جاء ظهورها عفوياً وتلقائياً مثل الموج الهادر الذى اكتسح مدن أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.[3]

وفـــى ضوء ذلك كان مصطلح الجامعة ينطبق بشكل خاص على جموع الأشخاص الذيـــن يـــرتادون مراكز الدراسة الكبرى، ويستخدم بالفعل كمرادف لكلمة مدرسة Studium للدلالة على المؤسسة نفسها.[4]

وبـــالفعل فـــإن كلمـــة جامعـــة فى الفكر الانجليزى فى العصور الوسطى تدل على مؤسســـة تعليمـــية بمعـــنى المدرسة العامة ، ليس للدلالة على المكان الذى تدرس فيه جميع المواد، ولكن المكان الذى يتلاقى فيه الدارسون من جميع الجهات . وهذا الاستخدام للفظ يبدو أنـــه انجليزى الأصل ، لأن جامعة أكسفورد قد ذكرت بالفعل بمعنى المدرسة أو المدارس فى كـــل المراســـيم الملكية التى صدرت فى أعوام ١٢٣٨ ، ١٢٤٠ ، ١٢٥٣م . بينما كان المقر الأكـــبر للتعليم على ضفاف نهر السين حتى عام ١٢٦٣م يسمى فى المصادر المعاصرة باسم جماعة الأساتذة والدارسين[5] .

---

١ Knowles, The Evolution of Medieval Thought, London, 1970, p. 153; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 6; Lyte, op. cit., p. 4, Willson, op. cit., p. 121.

٢ Lyte, op. cit., p. 5; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 15.

٣ Lyte, op. cit., p. I; Rashdall, op. cit., p. 15.

٤ Lyte, op. cit., p. 4.

٥ Lyte, op. cit., p. 4; Rashdall, op. cit., vol. I, p. 15.

سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ١٧٥ .

وبالـــرغم من وجود شبه إجماع بين المؤرخين الإنجليز المحدثين على ارتباط أصل مـــدارس أكســـفورد بالكـــنائس الديرية ، فإن المؤرخ الإنجليزى رشدال Rashdall فى ثنايا حديثة عن الأصل التاريخى لجامعة أكسفورد يؤكد بأنه جاء متفرداً ، بمعنى أنها انفردت عن ســـائر جامعـــات شـــمال أوروبا بأنها لم ترتبط في تطورها بأية كنيسة كاتدرائية أو ديرية ، لاسيما وأن المدينة لم يوجد بها كنيسة كاتدرائية كما سبق الإشارة ، ولكن يمكن تبرير وجهة نظـــر هـــؤلاء المؤرخين الإنجليز من وجهة نظر المؤرخ رشدال بأن الأساتذة والدارسين فى مـــدارس أكسفورد كانوا تحت إشراف عضو ينتمى إلى المؤسسة الديرية ، على غرار أساتذة بـــاريس الذيـــن كـــانوا تحت سلطة ما اصطلح على تسميته باسم مستشار كاتدرائية نوتردام Chancellor of Notre Dame وأن المـــدارس الـــتى تأسســـت فـــى البداية قد وجدت فى المـــناطق المتاخمة لدير القديسة مارى ، وهى كنيسة أبروشية استخدمت بواسطة الجامعة من أجل اجتماعاتها، مما يعنى أن هذه المدارس لم توجد حتى فى المناطق المجاورة لدير القديسة فـــريدزوايد، والـــذى تأسســـت المدينة فى ظله ، وبمجرد أن استكملت الجامعة تكوينها كان الأســـاتذة والطـــلاب تحت سلطة مستشار Cancellarius or Chancellor ، ينتخب رسمياً بواســـطة الأساتذة ، بيد أنه يستمد سلطته وصلاحيته من أسقف لنكولن Lincolniensis or Lincoln الذى تتبعه المدينة كنسياً.[1]

وفى ضوء الاستقراء التاريخى للتاريخ الباكر لجامعة أكسفورد فإن الباحث يتفق مع وجهـــة نظـــر المـــؤرخ رشدال ، وأؤكد على أن اصطلاح المدرسة العامة ليس المقصود به اعتبار أن جامعة أكسفورد كانت فى الأصل مدرسة ديرية ، ذلك أن المدارس الديرية الكثيرة فـــى أكســـفورد ، والتى سبق الإشارة إليها فى مقدمة هذه الدراسة ، شأن قريناتها فى شمال غرب أوروبا ، والتى اقتصرت الدراسة فيها على ما يسمى الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها الثلاثـــية Trivium وتشـــمل الـــنحو والبلاغة والمنطق ، والرباعية Quadrivium وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان التعليم داخل أروقة هذه المدارس الديرية منصباً على الإنجيل واللاهوت ، ولا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشئ ليصبحوا من رجال الدين.[2]

وفى محاولة لفض الاشتباك بصدد اعتبار جامعة أكسفورد في الأصل مدرسة ديرية، إنمـــا يـــنطوى من وجهة نظر الباحث فى ضوء هذه الدراسة على خطأ فادح ، لأن ارتباطها بالأديـــرة إنمـــا جـــاء من خلال أن الجامعة فى تاريخها الباكر لم يكن لها أبنية خاصة بها ، فاســـتخدمت فى إلقاء المحاضرات الغرف والقاعات الملحقة بالكنائس والأديرة ، والتى كانت خاضعة بدورها للإشراف الكنسى لأسقف لنكولن . ومن ثم فإن القول بأن جامعة أكسفورد قد

---

١ Rashdall, op. cit., vol. III, pp. 9-11.

٢ Mallet, op. cit., pp. 5-6.

جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، كانتور ، المرجع السابق ، جـــ٢ ، ص ٣٨٧ .

خرجـت مــن عــباءة المدرسة العامة الملحقة بالأديرة أو الكنيسة ، ينبغى تفسيره وفهمه فى ضوء هذه الخلف.

ونتســاءل هنا لماذا اتخذت أكسفورد من بين جميع المدن والأماكن فى المملكة لتقام بها أول وأعرق جامعة قومية ؟

لا مــراء أن مــدارس أكســفورد الــباكرة ، والتى تتوارى خلف ضباب كثيف من الغمــوض ، إنمــا تديــن بشهرتها إلى الموقع الاستراتيجى للمدينة على ضفاف نهر التيمز ، وعلــى الحدود بين مقاطعتى وسكس Wessex ومرشيا Mercia ، وبفضل هذا الموقع غدت أكسفورد ، أثناء فترة الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية ، مدينة رئيسية يتبارى للاستيلاء علــيها ملــوك مقاطعــتى وسكس ومرشيا ، اللتين كانتا أكبر مقاطعات الشطر الجنوبى من المملكــة، حيث النصف الأكثر أهمية وحضارة فى المملكة[1]؛ كما يمكن الوصول إليها بسهولة مــن لندن . وبالتالى يكون موقعها ملائماً كمدينة جنوبية للدارسين القادمين من أقصى الشمال والغــرب ، إن الأهمية الاستراتيجية الناتجة عن هذا الموقع هى التى أدت فى عهد وليم الفاتح إلــى بــناء بــرج القلعة ، فى الغرب من المدينة ، والتى تعد واحدة من أفخم وأروع القلاع الانجلــيزية؛ عــلاوة على إقامة الأرل داخل قلعتها، والزيارات المتكررة للملوك الانجليز فى القرن الثانى عشر ، فقد قام هنرى الأول (١١٠٠-١١٣٥م) آخر ملوك الحقبة النورمانية ببناء قصــر بالقــرب مــن ضفة نهر التيمز عند بيمونت Beaumont ، الأمر الذى يعكس إيثار السلطة الملكية لهذه المدينة، التى تبوأت مكانتها كواحدة من المراكز الرئيسية للحياة السياسية فــى جــنوب انجلــترا، حيث أمست المكان الملائم لاجتماعات المجلس الكبير الذى اصطلح المؤرخــون علــى تســميته بالبرلمان، وأيضاً المجامع الكنسية ، وإضافة لهذا الثقل السياسى للمديــنة ، فإن الزيادة المطردة فى الأهمية التجارية للمدينة ، وانفرادها بوجود تجمع لعدد من أكثر اليهود الانجليز ثراء فى قلب المدينة، مما يشير إلى ازدهار تجارتها[2] . وفى هذا الصدد كــان بــرجوازية المدينة فخورين لتمتعهم بحرية مماثلة لتلك التى حظيت بها مدينة لندن[3] . وأخــيراً تعتــبر أكسفورد أفضل مدينة تعطى مثالاً للتغير الذى طرأ على أرضها على أيدى الــنورمان ، حيــث شهدت المدينة طفرة هائلة فى العمل الصناعى والتجارى ، وعالم المال والثروة .

---

[1] Rashdall, op. cit., p. 7; Mallet, op. cit., p. 15; Green, op. cit., p. 124.

[2] Rashdall, op. cit., p. 8; Mallet, op. cit., p. 16; Green, op. cit., p. 124-125.

[3] يقصد بذلك العهد أو الامتياز الذى ظفرت به أكسفورد فى عهد الملك هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) . والذى تضمن منح مواطنى أكسفورد حرية التجارة بجميع اعفاءتها والرسوم المألوفة على الحقول والغابات والمراعى والممتلكات الأخرى . واعفاءهم من المكوس الجمركية فى جميع أنحاء انجلترا ونورماندى ، فى البر والبحر ، وعدم مقاضاة أحد ممن يقاضيهم خارج مدينة أكسفورد ، لمزيد من التفاصيل عن هذا العهد انظر :
Charter of Henry II to Oxford A.D., 1155-1162, Stubbs (ed.) op. cit., pp. 198-199.

وفى ضوء هذه المقومات فإن العقل لا يقبل فكرة أن تقام أولى الجامعات الانجليزية وأكثرها أهمية فى أى مكان آخر غير مدينة أكسفورد التى يحق لها أن تشعر بالرضا والزهو لهــذا المركز الأكاديمى الذى جاء مطابقاً وموقعها الملائم[١] ، الذى هيأ لها أن تكون واحدة من أكـــثر المـــدن ملائمـــة لإيواء وإطعام الآلاف من الغرباء واحتضان تلك الجموع الهائلة من الدارسين.[٢]

إن الجامعـــات الباكرة فى أوروبا لم تكن تنتمى إلى مؤسسين أشخاص ، ولا تواريخ مؤكدة لتأسيسها ، وحيث يقيم الأساتذة المشهورون يكون الارتحال إليهم من المناطق الموحشة والنائـــية وســـط المخاطـــر اليومـــية للحياة فى العصور الوسطى. وتهفوا إليهم عقول وأفئدة الدارسين الذين يرتادون أماكنهم بحماس هائل وأعداد كبيرة ، وبالتالى ظهور ما اصطلح على تسميته "المدرسة العامة" حيث يجتمع الدارسون من جميع الجهات.[٣]

ومـــن المؤكد وجود مدارس فى أكسفورد أثناء حكم الملك هنرى الأول ، إذ يستدل مـــن الرسائل الخمسة Epistolae لثيوبالدستامبس Theobaldus Stampensis[٤] ، وتحديداً رسالتيه الموجهتين إلى كل من فاريتوس Pharitus رئيس دير أبنجدون Habendonensis or Abinagdon فـــى انجلـــترا (١١٠١-١١١٧م)، وروسلينوس Roscellinus أحد رجال الديـــن فى انجلترا، الذى اضطر للفرار منها تحت وطأة معارضة من رجال اللاهوت ، يذكر

---

١ Rashdall, op. cit., p. 9.

٢ Rashdall, op. cit., p. 8.

٣ Mallet, op. cit., p. 2.

٤ أولى هذه الرسائل المنسوبة إلى ثيوبالد كانت موجهة إلى أسقف لنكولن ، وتتضمن تفنيد لاهوتى لاذع لهؤلاء الذين يشكون فـــى الكتب المقدسة . والثانية إلى فاريتوس رئيس دير أبنجدون فى انجلترا بعنوان "الأطفال غير المعمدين لا يمكن أن يـــنالوا السعادة الأبدية" إذ يقول فيها "... الأطفال غير المعمدين هم بلا شك من الهالكين ، أما المعمدون فإذا انتقلوا على الفـــور ، فهم بالتأكيد من الخالصين . فإذا ما أراد أعداء الحقيقة أن ينبحوا ضد هذا الرأى الكاثوليكى ، فأنا على استعداد لانتقادهم كتابة وشفهياً كخطاة آثمين وكلاب لئيمة .." أما الرسالة الثانية التى يذكر نفسه فيها كأستاذ فى جاين بفرنسا فقد كتـــبها إلى مرجريت ملكة اسكتلندا التى توفيت عام ١٠٩٣م . ممجداً فيها سخائها إذ يقول : ".. إذا ما بدوت مقصراً فى تسجيل مديحى لكى ، فلا ترجعين ذلك قط إلى جفائى وكسلى ، لأنه لو تحولت جميع أعضائى إلى ألسنة ، ما استطاعت إزاء كل ما لديك من أمور تستحق الإشادة أن توفيها حقها من المديح .." ويختتم رسالته بأن يكون له شرف الانضمام إلى كهنـــتها ، وأن يكـــون لها بمثابة ملاك المشورة لكى تتفقه الأمور القويمة" والرسالة الرابعة إلى صديقه فيليب Philipp معزياً إياه لما يلقاه من إهانات قائلاً : ".. قال أحد الحكماء أفضل أن يعتبرنى الناس لئيماً لذنب يسير أقترفه علناً ، على أن يعتبرونى باراً ، مع ذنب جسيم أقترفه أمام الله .." وفى هذه الرسالة يقدم نفسه باعتباره استاذ فى جاين . أما الرسالة الخامســـة والأخـــيرة عبارة عن تفنيد لادعاءات روسليوس ويلومه بشدة لقوله أن أبناء الكهنة الذين جاءوا نتيجة خطيئة الجســـد غـــير صـــالحين للكهنوت . إذ يقول فى رسالته : ".. إذا كنا مولودين من أب واحد ، ومن أحشاء كنيسة مقدسة واحدة" ، " لا مكان لكيل الاتهامات ، ولا داعى لتكبر هذا على ذاك .. إن الرب مخلصنا ، إنما تجسد فى صورة البشر وخدم الحر والعبد ، ليقدم المكافأة السماوية بتساوى المجد والكرامة لجميع الذين يؤمنون به .." ، لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذه الرسائل الخمسة فى :
Theobaldus Stampensis, Epistolae, in Patrologia Latina, (ed.) Migne, Paris, 1854, Tome, CLXIII, pp. 759-770.

أنه كان استاذ فى أكسفورد "Magister Oxenefordiae"؛ فى حين يذكر نفسه فى رسالتين آخرتيـــن بأنه كان أستاذ فى جاين Gadumensis or Gaen[1] . ويستدل من مضمون رسائله بأنه رجل لاهوت شهير وليس راهباً ، وأنه فرنسى أو نورمانى ، وقام بالتدريس فى أكسفورد فى فترة ما قبل عام ١١١٧م ، تحت رعاية قساوسة دير القديسة فريدزاويد ، لعدد يتراوح بين ســتين أو مائة دارس تقريباً ، ويعتبر بالفعل أول الأساتذة الذين وردت أسمائهم فى السجلات الباكرة لمدارس أكسفورد.[2]

ولـــم تلبث مدارس أكسفورد عام ١١٣٣م أن اجتذبت عالم لاهوت شهير من أساتذة بـــاريس يدعـــى روبـــرت بوللوس أو بوللين Robert Pullus or pullen ، حيث مكث فى أكسفورد زهاء خمس سنوات محاضراً فى الكتاب المقدس؛ وجلس جون السالزبورى John of Salisbury أمامه كدارس.[3]

وبعـــد ســـنوات قلـــيلة مـــن رحيل روبرت بوللين ، جاء إلى انجلترا عالم القانون اللمـــباردى الشهير فاكاريوس Vacarius[4] . ووفقاً لرواية كل من جيرفاس راهب كاتدرائية كانـــتر بـــرى Gervasii Cantuariensis ، وروبرت تورين Roberti de Torugnion ،

---

[1] Loc. cit.

[2] Rashdall, op. cit., pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 20, 20

[3] كـــان روبـــرت بوللين انجليزياً من مقاطعة استر Exter ، من نتاج المدارس الفرنسية ، ومؤلف لكتاب "ثمانية كتب فى الأحكـــام Sententiorum Libre Octs . وعرض عليه هنرى بوكليرك Henry Beauclerc أحد رجال بلاط هنرى الـــثانى ، الـــذى كان تواقاً لخدمة هذا العالم المبجل ، وظيفة الأسقف ، بيد أنه "اكتفاء بالطعام والملبس" لم يبد قبولاً لأية وظـــيفة عليا أكثر من وظيفة رئيس شماسة روشيستر Rochester ، وبعد فترة من عودته إلى باريس توجه إلى روما ، حيث تم تعيينه عام ١١٥٤ مستشاراً للبلاط البابوى ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Lyte, op. cit., p. 10; Bordrick, op. cit., p. 5; Mallet, op. cit., p. 21; Rashdall, op. cit., p. 18.

[4] ولد فاكاريوس الذى يعنى اسمه "راعى البقر" عام ١١١٥ أو ١١٢٠م ، فى اقليم لمبارديا . درس القانون فى مدرسة بافيا Pavea الـــتى تأسست لدراسة القانون عام ١١٢٠م . ومن المؤكد أنه جاء إلى انجلترا قبل عام ١١٤٩م ببضعة سنوات تلبـــية لرغـــبة ثـــيوبالد رئـــيس أساقفة كانتربرى ، لمساندته فى تسوية نزاعه مع هنرى بلوا Henry of Blois أسقف ونشيســـتر ، الـــذى كـــان يرغب فى استرداد وظيفة ممثل البابوية فى انجلترا ، بيد أن المؤرخ ليبرمان Liebrmamn يدحض ما ذكره جيرفاس فى روايته بأن فاكاريوس جاء إلى انجلترا كمحامى للتقاضى والبت بين اثنين من رجال الكنيسة همـــا هنرى ورئيس الأساقفة حيث كان الاثنان من وجهة نظر ليبرمان بحاجة إلى سلاح القانون الكنسى فقط . الذى كان يـــدرس علـــى يد رجال الدين الانجلو نورمان قبل مجئ فاكاريوس بوقت طويل . وعاش فاكاريوس فترة من الوقت فى مدينة كانتربرى ، حيث المدارس مزدهرة ، وحيث اعتاد رجال القانون الإيطاليين أمثال فاكاريوس مساعدة الأساقفة فى مراســـلتهم للبلاط البابوى فى الدعاوى القانونية . وقد تملك الذعر الشديد الملك ستيفن الذى لم يستطع أن يتجاهل التقدم السريع فى مجال دراسة علم ينذر بتهديد الأسس الإقطاعية للملكية الانجلونورمانية ومن ثم يجب تفسير السياسة العدائية للملـــك ســـتيفن تجـــاه فاكاريوس فى ضوء الغريزة السياسية للملكية الانجليزية . وليس من منطلق الكراهية الشخصية لفاكاريوس ، لذا فقد طالبه الملك بالامتناع كلية عن إلقاء محاضراته ، كما صدر مرسوماً ملكياً يمنع الانجليز من امتلاك أية كتب عن القانون الأجنبى ، وتم إحراق عدد كبير من المخطوطات ، ولم تفلح هذه السياسة القمعية ورغم أنه لم يرتق أية وظيفة كنسية مهمة ، فقد حظى فى أخريات أيامه باحترام البابا ، ففى عام ١١٩٨ فوضه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) للدعوة لحملة صليبية فى مقاطعة يورك بانجلترا ، لمزيد من للتفاصيل انظر :
Liebrmann, "Magister Vacarius" in E.H.R. April, 1896, pp. 305-314.

اللذين عاصرا حياة هذا العالم القادم من جامعة بولونيا بإيطاليا، فقد قام بالتدريس فى أكسفورد معلماً للقانون المدنى ، تحت رعاية ثيوبالد Theobald رئيس أساقفة كانتربرى عام ١١٤٩م، أثناء حكم الملك ستيفن (١١٣٥-١١٤٥م)[١] . ويعتبر بدون منازع أول معلم للقانون المدنى فى انجلترا . لذا ليس ثمة غرابة أن يرتاده أعداد كبيرة من الدارسين فى أكسفورد ، واستجابة للدارسين الفقراء قام بعمل ملخص دقيق فى تسعة كتب عرف باسم "كتاب الفقراء" Liber Pauperum، عبارة عن موجز لمجموعة القانون المدنى للإمبراطور جستنيان ، احتل مكانة بارزة فى المواد الدراسية وحظى بالشعبية بعد تصنيفه ضمن الكتب المدرسية فى أكسفورد فى نهاية القرن الثانى عشر.[٢]

ومن الجدير بالذكر أنه بدون تشجيع التاج والكنيسة على السواء ما كان من الممكن أن تحقق مدارس أكسفورد الشهرة التى حظيت بها قبل نهاية القرن الثانى عشر.[٣] لاسيما بعد أن شهدت أروقتها قيام واحد من أبرز العلماء البولونيين – فاكاريوس – بالتدريس منذ أربعينيات هذا القرن ، وأن كثيرين مما عملوا فى الجهاز الإدارى الملكى ، فى الشطر الأخير من عهد هنرى الأول تلقوا تعليمهم فى فرنسا وإيطاليا ، ويذكر فى هذا الصدد أن الملك هنرى الأول أجر لمدارس أكسفورد مزرعة المدينة مقابل إيجار سنوى قدره ثلاثة وستون جنيهاً ، وتتألق مدارس أكسفورد بعد إنشاء دير أوسنى Oseney عام ١١٢٩م ، وضم كنيسة القديس جورج التعليمية إلى داخل القلعة واستخدامها فى إيواء الدارسين الشبان ، مما ساهم فى زيادة عدد طلبة أكسفورد[٤] .

وفى عهد هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) ووفقاً لما تذكر المصادر المعاصرة ، فقد بدا قصره وكأن هناك مدرسة كل يوم ، واقتداء بخطى أبيه جيوفرى بلانتجنت كونت انجو Anjou جمع حوله أبرز المؤرخين ودارسى القانون ورجال الكنيسة من أشهر الرجال المتعلمين فى عصره ، مثل جون السالزبورى ، وارتقاء أحد تلاميذ دير القديس البانس St. Albans نيقولاس برسكبير الكرسى الرسولى فى روما تحت اسم البابا أدريان الرابع

---

١ Gervasii Cantuariensis, Actus Pontificum, ed. By William Stubbs, in the Hist, Wrks of Gervase of Canterbury, vol. II (Rolles Series) 1965, pp. 384, 385; Chronica Roberti de Torigneio, ed. by Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, vol. IV (Rolles Series) London, 1964, pp. 158-159; Rashdall, op. cit., p. 19; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21, Bordricke, op. cit., p. 4; Davis, England Under the Normans and Angevins, 1066-1270, London, 1930, pp. 191, 192; Green, op. cit., p. 124.

٢ Chronica Roberti de Torigneio, p. 159; Liebrmann, op. cit., p. 309; Davis, op. cit., p. 192, Rashdall, op. cit., p. 21; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21.

٣ Bordrick, op. cit., p. 6.

٤ Loc. cit;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

Adrian IV (١١٥٤-١١٥٩م) . وكانـــت تلـــك هى المرة الوحيدة فى التاريخ التى أدار فيها الشئون البابوية رجلاً انجليزياً.[١]

وغدا مقر رئيس أساقفة كانتربرى بمثابة مركز أدبى وعلمى زائع الصيت ، استحق أن يُنعـــت باســـم "معســـكر الرب وبوابة السماء". وأطلق على انجلترا فى عهد هنرى الثانى "فـــردوس الدارسين" دليلاً وبرهاناً على وجود نشاط تعليمى حقيقى علاوة على ذلك فقد ساهم التواجد الدائم للملك فى أكسفورد فى زيادة أهمية المدينة.[٢]

وفـــى هـــذا التوهج العلمى وفى ثنايا النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت رئيس أســـاقفة كاتدرائـــية كانتربرى على مدى الفترة من ١١٦٤-١١٧٢ . والذى أضطر فى أثناءه رئـــيس الأساقفة للإقامة فى أحد الأديرة التابعة لطائفة السيسترشيان فى بونتجنى Pontigny بفرنســـا . وأيضاً النزاع السياسى بين هنرى الثانى والملك الفرنسى لويس السابع . فإن تاريخ جامعـــة أكســـفورد يجـــب أن يؤرخ من عهد هنرى الثانى[٣] ، فمن بين سلسلة المراسيم التى أصدرها الملك الإنجليزى ضد توماس بيكيت وأتباعه ، المرسوم الذى تضمن فقرة تنص على "مـــن الآن فصـــاعداً لا يسمح لأى شخص بالعبور من انجلترا إلى القارة ، أو من القارة إلى انجلـــترا ، بـــدون إذن صريح من التاج ، ومن يخالف ذلك يقبض عليه ويسجن ، واستدعاء جمـــيع رجال الدين الذين يمتلكون إيرادات فى انجلترا ، من خلال حكام المقاطعات ، للعودة فـــى غضون ثلاثة أشهر ، إذا كانوا حريصين على أملاكهم وإيراداتهم ، وإذا لم يحضروا فى الوقـــت المحـــدد توضع أموالهم وممتلكاتهم فى قبضة الملك[٤] ، وقد أسفر ذلك عن عودة عدد كبـــير مـــن الأساتذة والدارسين معظمهم من رجال الدين إلى انجلترا إذعاناً للأمر الملكى عام ١١٦٧م، حيث أصبح من المتعذر على الدارسين الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا[٥] .

ويوجـــد شـــبه اجماع بين المؤرخين الانجليز المحدثين على أن تاريخ ميلاد جامعة أكسفورد باعتبارها "مدرسة عامة" يبدأ بهذه العودة الاضطرارية التى حدثت عام ١١٦٧ نتيجة للنزاع الكنسى والسياسى آنذاك . بيد أن الباحث يضيف إلى ذلك أن جامعة أكسفورد إنما تدين

---

١ Mallet, op. cit., p. 19;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

٢ Mallet, op. cit., p. 19.

٣ Rashdall, op. cit., p. 23; Mallet, op. cit., p. 22.

٤ من الجدير بالذكر أن الفقرة الخاصة بعودة الدارسين ورجال الدين من فرنسا ، عبارة عن دمج للبند الثانى والثامن من هذا المرسوم الملكى الذى يتضمن عشرة بنود . انظر النص اللاتينى لهذا المرسوم فى :

Willeimo Cantuariensi, Vita S. Thome, in, Materials for the History of Thomas Becket, vol. I, (ed.) Robertson, (Rolles Series), London, 1965, pp. 53-55;

ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت انظر :

Knowles, Thomas Becket, Stanford, 1970, pp. 1-183.

٥ Rashdall, op. cit., p. 24;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

بنشأتها بل ووجدوها أيضاً إلى المدارس القديمة الملحقة بالأديرة أكثر من هذه الهجرة المفاجئة التى حدثت بعد مرسوم الملك هنرى الثانى مع الأخذ فى الاعتبار أن أصل جامعة أكسفورد كمدرسة عامة ملحقة بالأديرة لا يعنى أبداً كونها مدرسة ديرية كما سبق ذكره .

على أية حال ، فقد تطلع هؤلاء الأساتذة والدارسين العائدين للبحث عن مركز جديد للتعليم ، وتنظيم مقاعدهم فى مكان آخر ، ووجدوا فى أكسفورد المرفأ الملائم ، ومن ذلك الحين فصاعداً كثرت الأدلة والإشارات التاريخية بأن أكسفورد قد أصبحت بالفعل مكاناً للدراسة أى مدرسة عامة فى ضوء اصطلاح العصر ، تذخر بالأساتذة والدارسين والتخصصات من جميع الجهات ، وأحد مراكز التعليم الكبرى فى السنوات الأخيرة من حكم هنرى الثانى راعى الحركة الفكرية فى انجلترا آنذاك[١] .

إن أول إشارة عن مدارس أكسفورد بعد عام ١١٦٧ إنما وجدت فى ثنايا الوصف الشيق الذى تم سرده من قبل الرحالة والمؤرخ الويلزى جيرالد بارى Gerald de Barri ، الذى اشتهر بالاسم اللاتينى جيرالد كامبرنسيس Geraldus Cambrensis والذى يتحدث عن زيارته لأكسفورد عام ١١٨٦[٢] . عندما قرأ كتابه الرصين "طبوغرافية أيرلندا" أمام الأساتذة والدارسين المجتمعين فى أكسفورد على مدى ثلاثة أيام ، ووفقاً لراويته حيث يتحدث عن نفسه بضمير الغائب قائلاً : "عندما حان الوقت ، وتم انجاز العمل ، لم يرغب فى إخفاء علمه ومعرفته ، ويأبى أن يخفى شمعته تحت غطاء ، بل يود أن يضعها فى شمعدان ليشع ضوئها على الجميع ، لذا قرر قراءة كتابه علناً أمام جمع ضخم فى أكسفورد ، حيث يوجد بها أشهر رجال الاكليروس الإنجليز علماً ، وأمام هذا الحشد الكبير قسم عمله إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم استغرق يوماً ، واستغرقت القراءة ثلاثة أيام متتالية ، ففى اليوم الأول استقبل فى مقر إقامته الطلبة الفقراء من المدينة؛ وفى اليوم الثانى جميع الأساتذة والبارزين من تلاميذهم فى التخصصات Faculties المختلفة؛ وفى اليوم الثالث باقى الدارسين ، بالإضافة إلى الكثير من

---

١ Mallet, op. cit., p. 23.

٢ ولد جيرالد فى ويلز عام ١١٤٧ ، ورحل إلى باريس للدراسة ، ثم أصبح محاضراً مشهوراً فى المجموعة الثلاثية Trivium من الفنون السبعة الحرة ، وفى ضوء روايته عن تميزه كما ذكر فى حوليته ، أنه عندما كان أساتذة الآداب يرغبون فى اختيار نموذج للدارسين الممتازين ، كان الاختيار يقع عليه . وعندما عاد إلى موطنه الأصلى انجلترا ، أرتقى منصب رئيس شمامسة بريسون Brecon . بيد أنه لم يتمكن من ارتقاء منصب أسقف كنيسة القديس ديفيد ، ولم يترك مدارس باريس إلا بعد أن أتم دراسته فى القانون الكنسى واللاهوت ، وفى عام ١١٨٤م تم تعيينه واحداً من قساوسة الملك هنرى الثانى ، وبعدئذ أرسله الملك مرافقاً لابنه الأمير جون إلى ايرلندا ، وأسفرت هذه الرحلة عن كتابة أثنين من أهم أعماله هما وصف طبوغرافية ايرلندا ، والفتح الانجليزى لجزيرة ايرلندا . لمزيد من التفاصيل انظر :
Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, vol. I, (Rolles Series) London, 1861, pp. 72-73; Rashdall, op. cit., p. 25; Lyte, op. cit., pp. 12, 13; Bordrick, op. cit., p. 6; Mallet, op. cit., p. 23.

الفرســان وســكان المديــنة . وكان هذا عملاً نفيساً ونبيلاً ، يحتاج إلى شعراء العالم القديم لتمجيده وتخليده ، حيث لم يحدث ذلك من قبل فى انجلترا"[1] .

لا مــراء أن هــذا الوصف إنما يزيح النقاب عن تأكيد راسخ لوجود مؤسسة علمية أكبر من مجرد مدرسة عادية سواء كانت كاتدرائية أو ديرية . وفى ثنايا هذا الوصف تتراءى أيضــاً الســمات المميزة للمؤسسة العلمية من خلال المدرسة العامة Studium generale . وهــو الاصــطلاح الذى أطلق فى العصور الوسطى وفى انجلترا تحديداً على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة . والتى يتطلب قيامها اجتماع الأساتذة والدارسين فى العديد من التخصصات فى مكان ما . وهذا ينطبق على هؤلاء المستمعين لقراءة جيرالد[2] . علاوة على ذلك ووفقاً لراوية المؤرخ رشدال أنه من بين الأشخاص الذين تم شفائهم بزيارة ضريح القديس توماس بيكيت ، شــخص يدعــى روبــرت ، والذى تولى رئاسة دير القديسة فرايدزوايد فى أكسفــورد عام ١١٤١م. حيــث سمح له بمقعد للوعظ فى حضور الدارسين من مختلف أنحاء انجلترا . وكان أول من سمح له باستخدام مقعد عندما يقوم بالوعظ[3] .

وخــتاماً لهــذا الســيل المــتدفق من الأدلة التاريخية التى تعكس اجماع المؤرخين المحدثيــن بــأن البداية الحقيقية لظهور مؤسسة علمية فى أكسفورد ، إنما يرجع إلى الأحداث الــتى أســفرت عن الرحيل الجماعى للدارسين الإنجليز فى باريس بمقتضى المرسوم الملكى عــام ١١٦٨م، وبالــتالى الحرمان من حرية المرور إلى مركز كبير للتعليم الأوروبى . فمن الطبــيعى أن تــتذبذب أعداد الذاهبين إلى مدارس أكسفورد وتتأرجح مع كل تغيير يطرأ على العلاقــات السياسية بين فرنسا وانجلترا، لاسيما فى الفترة من ١١٧٥-١١٨٥م؛ حيث شهدت هــذه الفترة سلسلة متتالية من المنازعات بين المملكتين[4] . ولعل أبرز مثال على ذلك ما حدث للمــؤرخ والرحالة جيرالد ويلز ، الذى منع نتيجة لهذا النزاع من الذهاب إلى باريس لدراسة اللاهوت عام ١١٩٢م[5] .

---

١ Giraldus Cambrensis, op. cit., p. 73; Lyte, op. cit., pp. 13-14, B ordricke, op. cit., pp. 6,7; Mallet, op. cit., p. 24;

كان كتاب "طبوغرافية ايرلندا" بمثابة تجربة جديدة وفريدة ، بيد أنه لم يحظ بالقبول من جانب معاصريه ، من منطلق كيف يتسـلى لرئـيس شماسة أن يبدد وقته فى تسجيل حياة الأيرلنديين المتصلبين فى الرأى ، ووصف المناظر الطبيعية وجمع التراث لبلد بربرى خام ، وأن ذلك مضيعة للوقت لا تليق برئيس الشماسة ، انظر : Lyte, op. cit., p. 13.

Lyte, op. cit., p. 13.

٢ Rashdall, op. cit., p. 25.

٣ Ibid, p. 28, Knowles, Thomas Becket, p. 23.

٤ Rashdall, op. cit., p. 30;

ولمزيد من التفاصيل عن النزاع والعلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا فى عهد هنرى الثانى انظر :

زينــب عــبد المجــيد ، الانجلــيز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١ ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

٥ Giraldus Cambrensis, op. cit., Tome, I, p. 93.

علـــى أية حال ، بدأت مدارس أكسفورد التى أصبحت تذخر بالتخصصات والأساتذة والدارسين من جميع الجهات تحظى باهتمام السلطة الملكية ، وفى العامين السابع والثامن من عهـــد الملك ريتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩م) تميط السجلات الملكية اللثام عن الأموال التى كانـــت تمـــنح لإعالـــة الدارسين فى مدارس أكسفورد من المنح والهيئات الملكية . فقد منح ريتشـــارد الـــذى ولـــد فى قصر بيمونت Beaumont بأكسفورد مكافأة مالية أسبوعية تقدر بنصـــف مـــارك لدعـــم دارس فى أكسفورد من هنغاريا Hungary (المجر) يدعى نيقولاس Nicholas . وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن أول دارس حفظت السجلات اسمه كان أجنبياً. بـــيد أنـــه يجب تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أن جامعات العصور الوسطى بصفة عامة كانت تتسم بطابع عالمى وليس قومى[1] . ويشير المؤرخ ريتشارد ديفز Richard of Devizes فى حوليـــته عـــن الملـــك ريتشارد الأول لكثرة أعداد الدارسين فى أكسفورد ، وأن المدينة كانت تســـتطيع بالكـــاد إطعامهم[2] . وفى عام ١١٩٧ استضاف سامسون Samson رئيس والقديس إيدمونـــد St. Edmund فى بيورى[3]، عدداً كبيراً من أساتذة أكسفورد عند زيارتهم للمدينة . وفـــى هـــذا العـــام أيضاً قام توماس ماربرج Thomas de Morleberge رئيس دير إيفهام Evesham بتعلـــيم القـــانون الكنســـى والمدنـــى فـــى أكســـفورد[4] . ويؤكـــد الكسندر نيكام Alexander Neckam الـــذى كتب عام ١٢٠٠م تقارب واتصال مدارس أكسفورد بكل من سالرنو Salerno وبولونيا بإيطاليا، ومونبلييه Montpellier وباريس، وأدرك نتيجة لذلك أن نبوءة مرلين Merlin "بازدهار الحكمة والمعرفة فى أكسفورد " قد تحققت الآن[5] .

---

[1] يؤكـــد الطابع العالمى لجامعات العصور الوسطى المرسوم الهام الذى أصدره الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠م) فى مجمع رونكاجليا Diet of Roncaglia عام ١١٥٨م . والذى نص صراحة على الإدارة الآمنة ، وحماية الدارسين الأجانب الذين ينتقلون أو يسافرون عبر أراضيه ، انظر :
Lyte, op. cit., p. 14; Mallet, op. cit., p. 14.

[2] Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in the Chronicles of Stephen, Henry II, and Richard I, vol., III, p. 437.

[3] يعد دير القديس إيدموند واحداً من أعظم الأديرة فى انجلترا فى العصور الوسطى ، ويستدل من مقدمة الحولية الخاصة بهذا الدير ، والتى كتبت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . أن الملك كانيوت Canute (١٠١٣-١٠٣٦م) قام بتأسيسه تخلـــيداً لذكرى القديس إيدموند ملك شرق انجليا Anglia ، الذى قتل أثناء محاربة الدانيين فى العشرين من نوفمبر عام ٨٧٠م . انظر تفاصيل ذلك فى :
The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp. 1212-1310, (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964, p. XI; Rashdall, op. cit., p. 32.

[4] Loc. Cit.

[5] يحتل الكسندر نيكام مكانة بارزة فى التاريخ الفكرى لانجلترا فى نهاية القرن الثانى عشر ، وأمضى سنوات كثيرة مدرساً فـــى أكسفورد ، وقس فى دير جيرنسيستر Girencester . ووفقاً لما ورد فى حوليته فقد ولد فى نفس الليلة التى شهدت ميلاد ريتشارد الأول ملك انجلترا ، فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١١٥٧م وأمضى فترة حداثته وتلقى تعليمه الباكر فى دير القديس الباس St. Albans . وأمضى بعدئذ سنوات عديدة للدراسة فى باريس . وباعتباره من قساوسة دير القديس أغسطين فى جيرنسيستر فقد خدم كل من الملك والبابا ؛ ففى الثلاثين من أغسطس عام ١٢١٣ وأثناء وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية ، أمره الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بمرافقة جون هاستنجز John Hastings رئيس شرطة

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد فى أقدم مراحلها تدين بالكثير لجامعة باريس ، التى لم تـــتخذ صـــفتها الرســـمية كجامعة إلا فى أوائل القرن الثالث عشر تحديداً عام ١٢٠٠م . ففى ضوء الروابط التى كانت تربط بين انجلترا وفرنسا من خلال الممتلكات الانجليزية فى فرنسا ممـــثلة فـــى دوقيات نورماندى ، بريتانى Brittany، أكوتين Aquitaine ، وكونتيات مين Maine ، أنجـــو Anjou ، لـــو مارش Le March وبواتو Poitou . وعلاوة على السيادة الفكرية لباريس فى أوروبا الغربية ، كان يتوجه إليها أكثر الشباب الإنجليز طموحاً فى القرن الثانى عشر مثل جون السالزبورى ، توماس بيكيت ، ستيفن لانجتون ، روبرت جروستيت ، روجـــر بـــيكون وغيرهم . وكان حتماً مقضياً أن يجلبوا معهم عند عودتهم إلى وطنهم أفكاراً مستمدة من تجربتهم فى باريس، والتى غدت نموذجاً للتنظيم الأكاديمى فى أكسفورد . لذا فمن الطبيعى أن تكون الكثير من النظم واللوائح الداخلية لجامعة أكسفورد مستقاه من ذلك المصدر . فعلـــى غرار نظام الأروقة الأربعة فى جامعة باريس فى ضوء تقسيم الطلبة إلى مجموعات أربعـــة تمـــثل الـــبلاد الـــتى ينتمون إليها، وهى رواق الفرنسيين ، رواق الشماليين ، رواق البيكارديـــن (الشمال والشمال الشرقى من فرنسا وهولندا) ورواق الإنجليز، تحول إلى رواق للدارســـين الألمـــان ، بعد انقطاع العلاقات السياسية والثقافية بين انجلترا وفرنسا غداة حرب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م)، قامت جامعة أو بمعنى أدق مدارس أكسفورد على أساس نظام الأروقـــة الأربعـــة . بـــيد أن هذا التقسيم جاء قصير الأجل وسرعان ما اقتصر التقسيم على أســـاس أبـــناء الشمال Northermeris الذى يضم الدارسين القادمين من اسكتلندا . أما أبناء الجنوب Southermers فهم الطلاب القادمون من ويلز وأيرلندا[1] .

كـــل رواق مـــن هـــؤلاء أى رواق أبناء الشمال ورواق أبناء الجنوب يقوم باختيار مراقب Proctor . بيد أن هذين المراقبين كان يتم اختيارهما من بين الأساتذة وتحديداً أساتذة الآداب ولـــيس الدارسين . وهؤلاء المراقبين ورد ذكرهم لأول مرة عام ١٢٤٨م عند مثولهم أمـــام الملـــك هـــنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) لتقديم شكاوى الجامعة ضد انتهاكات اليهود

نيلوورث Kenilworth للتحرى بصدد الحقوق الملكية فى دير نيلوورث . وفى نفس العام أى ١٢١٣م تولى رئاسة دير جيرنسيستر . وفى عام ١٢١٥م كان ضمن الحاشية الملكية التى تتأهب لحضور المجمع اللاتيرانى الرابع الذى دعى إليه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وعقد بمدينة روما عام ١٢١٥م . لمزيد من التفاصيل انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Russell, "Alexander Neckam in England", in E.H.R., vol. XLVIII, January, 1932, pp. 260-268; Rashdall, op. cit., p. 28.

[1] Lyte, op. cit., p. 15; Brodricke, op. cit., p. 7, 8; Mallet, op. cit., p. 40; Rashdall, op. cit., pp. 56, 57; Traill and Mann, Social England, Oxford, 1975, vol. I, pp. 613, 614; Willson, op. cit., p. 122.

نظـــير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، ص ١١٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الهيكل التنظيمى للدارسين فى جامعة باريس انظر ، ياسر عبد المعبود ، المرجع السابق ، ص ص ٥٤ – ٦٥ .

وسكان مدينة أكسفورد[1] . ويتضح أيضاً من بنود اتفاق السلام الذى أبرم عام ١٢٧٤م بعد اندلاع واحدة من منازعات الشغب بين الدارسين من أبناء الشمال والجنوب ، والذى نص على ضرورة دمج هؤلاء الدارسين فى جماعة واحدة ، والتصويت أيضاً باعتبارهم أبناء أمة واحدة . وبهذا يتلاشى مبكراً التصنيف العرقى الذى شهدته أولى الجامعات الإنجليزية ، رمزاً وتأكيداً لإتمام الوحدة القومية التى كانت انجلترا أسبق الممالك الأوروبية فى تحقيقها[2] .

وفى أواخر عام ١٢٠٨م شهدت مدينة أكسفورد حادثة كان لها أكبر الأثر على مسيرة تطور الجامعة ، ففى الوقت الذى كان فيه النزاع بين الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) والبابا أنوسنت الثالث قد بلغ أوج ذروته، قتلت امرأة شابة فى بيت عرف فيما بعد وتخليداً لهذه الحداثة باسم قاعة العذراء "Maiden Hall" على يد أحد الدارسين فى أكسفورد مما أسفر عن اندلاع ثورة من الغضب العارم من جانب سكان المدينة؛ حيث ألقى القبض على العديد من الدارسين . وعندما يأس السكان من العثور على الطالب القاتل ، قبضوا على

---

[1] جاء أول ظهور للمراقبين Proctors فى طيات أحداث الشغب الذى اندلع فى مدينة أكسفورد فى مايو عام ١٢٤٨م . حيث تعرض دارس اسكتلندى مرموق وحسن الخلق أثناء مروره بكنيسة القديس مارتن فى كارفاكس Carfax للهجوم من جانب أبناء المدينة ، وعند فراره إلي وسط المدينة في الشارع الرئيسي إنهال عليه وابل من الحجارة وفضلات الذبائح من حوانيت الجزارين . ولم يلبث أن سقط صريعاً متأثراً بالجراح التى لحقت به نتيجة الضرب المتكرر من مطارديه . ونظراً لعدم اكتراث المسئولين بالمدينة بهذا الأمر ، توقف أساتذة الجامعة عن إلقاء المحاضرات ، وأقسموا على مغادرة جميع الدارسين لمدينة أكسفورد إذا لم يتم القصاص . وعدم دفن جثة الطالب لحين تلق ردوداً ملائمة ومرضية من الملك وأسقف لنكولن . ولم يتوان روبرت جروستيست Robert Grossetest أسقف لنكولن (١٢٣٥-١٢٥٣م) لحظة واحدة فى إعلان عقوبة الحرمان الكنسى عن القتلة ، والبحث عنهم بمساعدة أبناء المدينة . بيد أن أساتذة الجامعة لم يقتنعوا بإنهاء المسألة عند هذا الحد والإصرار على ضرورة الحصول على ضمان بعدم تكرار منازعات مماثلة . ومن ثم أرسلوا مراقبين ممثلين عنهم لعرض شكواهم أمام الملك فى وودستوك Woodstock . ولم يتردد الملك فى منح عهد يتضمن امتيازات للجامعة ، أمر فيه بضرورة أن يتم التحقيق فى أى أخطاء أو أضرار تقترف فى حق الدارسين فى أكسفورد ، بواسطة محلفين من أبناء المدينة ، وأشخاص محايدين من المناطق المجاورة . وفى حالة تعرض أى دارس للقتل أو الإصابة الخطيرة من جانب أبناء المدينة ، تفرض غرامة على كل السكان . وعقاب النواب المحليين بشكل منفصل إذا ثبت تقصيرهم فى أداء واجباتهم . وأمر بضرورة أن يقسم كل عمدة Mayer ونائب Bailiff في أكسفورد عند تولى مهام مناصبهم على احترام حريات الجامعة وتقاليدها الراسخة ، وأن يدعى مستشار الجامعة دائماً لسماع أداء هذا القسم . وبهدف التغلب على أحد الأسباب الرئيسية للنزاع بين الجامعة والمدينة منع اليهود من تقاضى أكثر من ثلاثة وأربعين فى المائة كفائدة على القروض المقدمة للدارسين ، وأمر الملك أيضاً بضرورة الحضور الشخصى لكل من المستشار والمراقبين أو من خلال مندوبيهم عند توزيع الخبز والبيرة . ولمزيد من التفاصيل بهذا الشأن انظر :
Lyte, op. cit., pp. 43-44; Rashdall, op. cit., p. 57.

[2] شهدت الفترة من ١٢٧٦-١٢٨٤ تكريس الاهتمام الرئيسى للملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧م) لإخضاع ويلز . ففى عام ١٢٨٤م أصدر قانوناً يقضى بضمها إلى التاج الانجليزى ، وتطبيق القوانين الانجليزية . وفى عام ١٣٠١ أضفى على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز . وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى انجلترا حتى يومنا هذا . وجاءت جهوده فى هذا الصدد تتويجاً لجهود اسلافه الرامية لتوحيد الجزر البريطانية ويلز ، ايرلندا ، اسكتلندا فى مملكة واحدة ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881, p. 89; Rashddall, op. cit., p. 33-35.

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ -٢٢٨ .

طالبيــن أبـــرياء كانا يقيمان معه بدلاً منه، وتم ايداعهما السجن، وشنقهما بعد ذلك . ولم يكن مفاجأة من الملك الواقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى والتهديد بالعزل من جانب البابا ، وفـــى محاولـــة لتهدئة غضب الجموع الثائرة أن يبدى موافقته على إعدام اثنين من الدارسين وحبس ثلاثة . ولم يتردد البابا في وضع المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة وأعلن منع التدريس فـــى أكســـفورد . وأغلقت معظم مدارس أكسفورد[1] وعلى حد تعبير المؤرخ ماكسويل لوت Maxwell Lyte " بـــدا لفـــترة من الوقت كما لو أن التعليم الانجليزى سوف يضطر للرحيل عـــن أكسفورد لمكان آخر أكثر هدوء"[2] . وبالفعل ذهب بعض الدارسين لمواصلة دراساتهم فـــى بـــاريس ، وتوجـــه الـــبعض الآخر إلى ريدنج Reading ، وميدستون Maidstone ، وكمبريدج Cambridge . بحيث لم يبق دارس واحد فى أكسفورد[3].

وفـــى عام ١٢١٤م الذى شهد إذعان الملك جون للبابوية ، صدر أول مرسوم بابوى يتسم بكونه عهداً بالامتياز حق لجامعة أكسفورد أن تتباهى به ونص على :

".. تمـــتع الدارســـين فـــى مـــدارس أكسفورد لمدة عشر سنوات بالإعفاء التام من إيجـــارات البـــيوت التى يقيمون بها . وأن يقيم سكان المدينة مأدبة عشاء لمائة من الدارسين الفقـــراء كل عام فى عيد القديس نيقولاس Nicholas راعى الدارسين وأن تدفع المدينة مبلغاً ســـنوياً يقدر بحوالى اثنين وخمسين شلناً توزع على الدارسين الفقراء، وأن تدفع هذه الأموال إلـــى رئيس دير أوزنى Oseney ، ورئيس دير القديسة فرايدزوايد، وأن يكون توزيعها من اختصـــاص أســـقف لنكولـــن أو مستشاره . وأن يقسم سكان المدينة على تزويد الدارسين فى المستقبل بالمؤن بأسعار ملائمة . وفى حالة القبض على أى دارس فى المستقبل ينبغى تسليمه إلـــى أسقف لنكولن ، أو إلى رئيس شماسة أكسفورد أو نائبه أو إلى المستشار المعين من قبل الأســـقف للإشـــراف على الدارسين ، أو لأى مندوب آخر معتمد من السلطة الأسقفية . وكل الأســـاتذة الذين استمروا فى التدريس بعد انسحاب الطلاب بعد إحداث شغب ١٢٠٨م ، وفى تحد سافر للسلطة الكنسية والأكاديمية ، يمنعوا بمقتضى الأمر البابوى من التدريس لمدة ثلاث سنوات ، وحرية كل الأساتذة والدارسين فى العودة واستئناف محاضراتهم"[4] .

---

[1] Lyte, op. cit., p. 17; Brodricke, op. cit., p. 9; Rashdall, op. cit., p. 33.

[2] Lyte, op. cit., p. 16.

[3] Brodricke, op. cit., p. 9, Lyte, op. cit., p. 18.

[4] فـــى ثـــنايا أحداث عام ١٢٠٨م شرعت السلطات الكنسية فى أكسفورد فى وضع المدينة تحت طائلة حرمان كنسى أكثر صرامة من ذلك الحرمان الذى فرضه البابا أنوسنت الثالث على المملكة ، مما أدى إلى معاناة سكان المدينة روحياً ومادياً . فقـــد ترتب على رحيل الدارسين عن المدينة ، ترك البيوت والقاعات التى يقيمون بها بلا مستأجرين . وركود النشاط التجارى بالمدينة . واستمر هذا الحال لأكثر من أربع سنوات ، حتى مجئ المبعوث البابوى نيكولاس Nicholas أسقف تسكاليوم Tusculum إلى انجلترا عام ١٢١٣م . وتقدم سكان المدينة إليه بالتماس مناشدين إياه بالعفو والحماية والتعهد بالالـــتزام بقـــراره . وبناءً على أمره وتكفيراً عن أحداث عام ١٢٠٨م ، على سكان المدينة المتهمين بالمشاركة فى هذه الأحداث الحضور حفاة الأقدام ، عراة الأجساد ، حاملين الأسواط فى أيديهم ، إلى مقابر الطلاب القتلى ، وإعادة دفنهم فى

وفي ضوء هذا المرسوم البابوى الذى جاء تأكيداً وتتويجاً لاعتراف البابوية بحقوق الدارسين في أكسفورد ، وتكفيراً عن الاعتداء الذى تعرض له الدارسون من قبل سكان المدينة عام ١٢٠٨م، يذكر المؤرخ الانجليزى ماليت Mallet أن كل الجامعات فى العصور الوسطى كانت تبتهج بالحصول على الحماية البابوية ، ودعم حقوقها بالتأييد البابوى . ومن ثم وعلى غرار جامعة باريس التى تدين للبابوية بأول اعتراف بوجودها كمؤسسة علمية، تدين جامعة أكسفورد للبابوية بأول عهد امتياز ، وبداية هذه الحصانات القوية التى جعلت جماعة الأساتذة والدارسين هى الأسمى تقريباً داخل أسوار المدينة[1] .

وتتراءى أهمية المرسوم البابوى عام ١٢١٤م فى أنه تضمن أول إشارة عن منصب المستشار Cancellarius or Chancellor، وأن تعيينه كان من اختصاص أسقف لنكولن . بيد أن مستشار الجامعة المشار إليه فى المرسوم كان موجوداً بالفعل تحت اسم رئيس المدارس Magister Scholarum or Head of the Schools . ويرى المؤرخ الانجليزى رشدال أن هذا النائب المعين من قبل أسقف لنكولن إن لم يكن ينتخب بواسطة الأساتذة أنفسهم ، كان على الأقل يتم اختياره من بينهم . لذا فقد بدا مركز المستشار فى أكسفورد من الناحية العملية مغايراً تماماً لمستشار جامعة باريس المقيم فى كاتدرائية نوتردام . ونظراً لأن مدينة أكسفورد تبعد عن أسقفية لنكولن بمسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً، فقد وجد أساقفة لنكولن من الملائم والضرورى تعيين مستشار مستقل فى أكسفورد للإشراف وحماية رجال الدين الدارسين بها . ونظراً لعدم وجود كنيسة كاتدرائية أو أسقفية فى مدينة أكسفورد ، فإن الأسباب التى من الممكن أن تدفع المستشار للإصطدام مع الجامعة غير قائمة . وعلى النقيض من جامعة باريس لم يكن مستشار جامعة أكسفورد عضواً معادياً للجامعة ، وإنما يدين بوجوده للجامعة؛ لاسيما وأن أسقف لنكولن الذى يستمد منه سلطته وصلاحيته يقطن بعيداً متقلاً بأعباء أسقفيته الكبيرة الممتدة جنوباً حتى نهر التيمز . ومن ثم لم يكترث كثيراً بتفاصيل الإدارة في مدارس أكسفورد . لتبدو مدارس أو جامعة أكسفورد من البداية أكثر استقلالاً ، وبمنأى عن قيود الجو الأسقفى الذى خيم بظلاله على جامعة باريس . وبالتالى ليس ثمة ضرورة لأن تلهث مدارس أكسفورد وراء استجداء التأييد البابوى للتحرر من نير السلطة الأسقفية، لينتقل مستشار جامعة أكسفورد تدريجياً إلى مركز مدير أو رئيس الجامعة، والحصول بالتالى على مركز فى جماعة الأساتذة Universitas Magistorium. وهو المركز الذى ظل مستشار كاتدرائية نوتردام فى باريس غيوراً دائماً للحرمان منه . وتظفر

مكان يتم اختياره بعناية . والتهديد بتجديد عقوبة الحرمان الكنسى بواسطة أسقف لنكولن فى حالة التقصير عن تنفيذ ذلك . وفور الإذعان لذلك تم رفع عقوبة الحرمان الكنسى وعودة الدارسين واستئناف المحاضرات فى أكسفورد ، انظر ذلك فى:
Lyte, op. cit., pp. 18, 19; Mallet, op. cit., p. 28; Brodricke, op. cit., pp. 9, 10; Rashdall, op. cit., pp. 34-35.

[1] Mallet, op. cit., p. 25.

الجامعة فى النهاية بالسلطات القضائية التى يتمتع بها المستشار والبت فى أى قضية يكون أحد الطلاب طرفاً فيها[1] .

علـــى أيـــة حال ، فإن مستشار الجامعة الذى تم الإشارة إليه لأول مرة فى المرسوم البابوى عـــام ١٢١٤م ، كان فى البداية يعين من قبل أسقف لنكولن الذى يستمد منه سلطته وصلاحيته بيد أنه من البداية كان يتم اختياره من بين الأساتذة باعتباره أستاذاً فى اللاهوت أو القـــانون الكنســـى . الأمـــر الـــذى جعل اعتماده على الأسقف – كما سنرى – يكاد يتضاءل ويتوارى والسلطات القضائية التى ظفر بها من الأسقف آلت إلى الجامعة[2] .

ويذكر المؤرخ الانجليزى بودريك Brodrick أن الجدل لا يزال قائماً بصدد التاريخ الذى غدت فيه مدارس أكسفورد جامعة لها مستشار خاص بها بالمعنى القانونى ، رغم وجود خـــتم يـــرجع تاريخـــه إلـــى عـــام ١٢٠٠م ويحمـــل عـــبارة Sigillum Cancellariet Universitatis Oxoniensis . ولـــم يتقرر على وجه اليقين ما إذا كان المستشارون الأوائل قـــد اســـتمدوا ســـلطتهم أساساً من أسقف لنكولن باعتباره أسقف الأبروشيه، أو كانوا مديرين منتخبين Elective Rectors للمدارس يتم اقرار انتخابهم بواسطة أسقف لنكولن . بيد أنه من المؤكـــد أن الرئـــيس الفعلـــى للجامعـــة أصبح يسمى مستشاراً Cancellarius وليس رئيس المـــدارس[3] . ويضـــيف إلى ذلك المؤرخ الانجليزى لوت Lyte بأنه حتى أوائل القرن الثالث عشـــر كان مستشارو المدارس فى أكسفورد يعملون ببساطة بصفتهم مندوبين عن الأسقف . ولكن خلفائهم – كما سنرى – بدأوا يذوبون تدريجياً فى الهيئة الأكاديمية وفى النهاية أصبحوا مستقلين تماماً عن السلطة الأسقفية[4] .

وبـــدءً مـــن منتصف القرن الثالث عشر كان المستشار يعامل باعتباره ممثلاً مستقلاً للجامعـــة ، بينما لم يكن النائب الرسمى للأسقف فى الجامعة هو المستشار بل رئيس شمامسة أكســـفورد Archdeacon ، الـــذى يمـــثل أعلى سلطة كنسية مقيمة بالمدينة . وتبدأ القائمة الرســـمية للمستشـــارين فى أكسفورد فى عام ١٢٢٠ عندما يذكر أسماء ثلاثة أشخاص شغلوا ذلك المنصب . وبدءً من هذه الفترة يمكن أن نحدد تاريخ انتخاب المستشار . وفى عام ١٣٢٢ أصبح ارتقاء منصب المستشار يتم بالانتخاب من خلال اجتماع كنسى ، رغم أنه ظل خاضعاً لفترة طويلة لإقرار تعيينه من جانب الأسقف[5] .

---

١ Ibid, p. 27; Lyte, op. cit., p. 19; Brodricke, op. cit., pp. 9, 11; Rashdall, op. cit., p. 52.

٢ Rashdall, op. cit., pp. 81, 82; Mallet, op. cit., p. 27.

٣ Brodrick, op. cit., pp. 11-12.

٤ Lyte, op. cit., p. 19.

٥ Brodrick, op. cit., p. 12.

وبدءً من منتصف القرن الثالث عشر بدأت الجامعة فى تسجيل قوانينها . ولعل من أهم القوانين فى تلك الفترة رفض منح درجة اللاهوت لأى دارس إلا بعد الحصول على درجة الآداب أولاً[1] . ولهذا التشريع قصة!

فقد قدر للعقد الثاني من القرن الثالث عشر، وعلى حد تعبير المؤرخ ماليت Mallet ،أن يشهد حدثاً سعيداً للروح والفكر فى أكسفورد . ففى العام الذى شهد اغتيال توماس بيكيت فى كاتدرائية كانتربرى عام ١١٧٠م ولد القديس دومنيك St. Dominic فى أسبانيا . وبعد ذلك بإحدى أو أثنى عشر عاماً ولد فى أسيس Assis بإيطاليا ورع آخر هو القديس فرانسيس St. Francis [2] .

وفى عام ١٢٢١م جاء إلى انجلترا مجموعة صغيرة من الرهبان الدومنيكان ، الذين اشتهروا فى انجلترا باسم الأخوة السود Black Friars . وبعد ذلك وفى عام ١٢٢٤ قدم الرهبان الفرنسيسكان الذين عرفوا باسم الأخوة الرماديين Grey Friars طبقاً لألوان مسوحهم الدينية . وعلى عكس جماعات الرهبان الأقدم الذين يطيب لهم المقام فى المناطق النائية الهادئة ، وبهدف الحصول على مريدين جدداً تجد الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان للإقامة فى المدن المزدحمة ، لاسيما تلك التى بها جامعات . لذا ولوا وجوهم شطر أكسفورد . فقد رسخ أقرانهم فى باريس أقدامهم فى ارتباط وثيق بالجامعة . ومن ثم كانوا تواقين للحصول على مكانة مماثلة فى المركز الرئيس للتعليم فى انجلترا . علاوة على الرغبة فى جذب المزيد لاعتناق الديانة المسيحية ، فقد كانت أكسفورد ملاذاً مفضلاً لليهود الذين سكنوا فى الجزء الجنوبى من المدينة بأعداد كبيرة . وكان الحى الواقع بين الشارع الرئيسى ودير القديسة فريدزاويد معروفاً بحى اليهود . وقد حالف النجاح جهودهم طيلة الخمس وعشرون عاماً

---

[1] Rashdall, op. cit., p. 69.

[2] من الجدير بالذكر أنه حتى بداية القرن الثالث عشر كان الهدف الأساسى للنظام الديرى يتمثل فى ضمان الخلاص لأرواح الرهبان ، وبعد انطفاء جذوة الحماس للعمل التبشيرى فى قلوبهم كرسوا أنفسهم تماماً لقاعدة أنانية فى الحياة والعزلة عن العالم الخارجى فى أروقة أديرتهم الفسيحة . ولم يعتبروا أن من واجبهم القيام بالوعظ علناً ، وزيارة المرضى ، وسماع اعترافات التائبين ، ومن ثم كان أثرهم ضئيلاً نسبياً على الناس . ونتيجة لفشل النزعة التطهرية فى القرن الحادى عشر ، والانسحاب الديرى فى القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافها من عوامل وتشجيع نمط جديد من النظام الديرى جاء مزيجاً بين نقيضين من النظم الديرية . هذا الشكل الجديد المنظم من النسك أتاح لأتباعه حياة تقليدية تتسم بالزهد والفقر والطاعة ، كما أتاح لهم فى الوقت نفسه أن يعملوا ويساهموا بشكل شخصى ومباشر فى خدمة ورفاهية المجتمع . وكانت التجارب التى مر بها هذا النظام الديرى الجديد هى الخلفية التى برزت منها جماعة الأخوة الفرنسيسكان والدومنيكان فى القرن الثالث عشر . وبهدف العمل على نشر الكاثوليكية باقتلاع جذور الهرطقات الدينية ، وبرعاية البابوية وخدمة أهدافها ، اتجه الرهبان من هاتين التنظيمين إلى هداية الناس بمخاطبة فكرهم وعقولهم ، وتكملة العمل المعتاد لقساوسة الكنائس الأبروشية . لمزيد من التفاصيل بصدد ذلك انظر : Mallet, op. cit., p. 54;
Lyte, op. cit., p. 23; Rashdall, op. cit., p. 66; Green, op. cit., pp. 139-140;
كانتور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ ، موريس كين ، حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، ص ١٦٢ .

الأولـــى مـــن إقامـــتهم فى أكسفورد . وغدت لهذه الجماعات الدينية السيادة على حلبة الحياة الفكـــرية فى القرن الثالث عشر ليس فقط فى انجلترا ولكن فى جميع أرجاء أوروبا، وصاروا رواد أجـــرأ فكـــر فلسفي فى الكنيسة فى العصور الوسطى ويكفى الرهبان الفرنسيسكان فخراً أنهم قدموا آدم مارش وروجر بيكون فى عصر واحد[1] .

وفـــى الوقـــت الـــذى بســـطت فيه مدارس أكسفورد راحتيها للأخوة الفرنسيسكان والدومنـــيكان لـــتعلو بهمـــا لا عليهما، بارتقاء اثنين منهم لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى[2]، علاوة على التأييد الملكى[3]، لم يلبث أن بات الصدام بينهم وبين الجامعة قاب قوسين، بعد فترة قصـــيرة ســـاد فيها التفاهم والانسجام بينهم وبين الجامعة، قام خلالها الفرنسيسكان بالاستعانة بأساتذة اللاهوت العلمانيين فى مدارس أكسفورد للتدريس فى مدارسهم الديرية . بيد أنه بهدف وضـــع حـــد لـــتكاثر الأساتذة من الأخوة ، وضمان سيطرة الجامعة على الخريجين منهم من جهـــة، وإصـــرار الرهـــبان الفرنسيسكان والدومنيكان من جانبهم على رفض الحصول على

---

[1] فـــور اســـتقلال الأخـــوة الدومنيكان فى قلب أكسفورد ارتبطوا مبكراً بالجامعة بتأسيس مدرسة للاهوت . وكذلك أقرانهم الفرنسيسكان ، والذين قدر عددهم لحظة وصولهم لانجلترا تسعة من الرهبان بزعامة اجنيليوس البيزى Agnellus of Pisa أربعة منهم من رجال الدين ، ثلاثة منهم انجليز الأصل ، فى حين كان الباقى علمانيين من الإيطاليين والفرنسيين . وسرعان مـــا ذاع صيتهم ، وجذبوا لمدارسهم أعظم العلماء شهرة ، فهذا هو روبرت جروستيست (١١٧٥-١٢٥٣م) عالم اللاهوت البارز ، وأول محاضر فى مدارس الفرنسيسكان والراعى الحميم له فى انجلترا والذى نادى بأن سلطة الكتاب المقدس تسمو فوق البابا والمجامع الكنسية ولصوص الكنيسة ، وأول من أدرك ضرورة دراسة اللغتين اليونانية والعبرية . أيضاً آدم مارش Adam March الذى اعترف به واحداً من أبرز رجال الكنيسة فى منتصف القرن الثالث عشر . وأبدى تعاطفه مع قضية الأيـــرل سيمون مونتفورى ، أثناء النزاع البارونى الشهير ، مخاطباً إياه بقوله "أن الرجل الحكيم أفضل من الرجل القوى ، وأن الذى يستطيع كبح جماح غضبه أفضل من الذى يعصف بالمدينة " . وأيضاً روجر بيكون Roger Bacon . أحد أساتذة أكســـفورد البارزين . وأول انجليزى ينخرط فى صفوف الدومنيكان . وكرس نفسه لدراسة الكيمياء والفيزياء والرياضيات والميتافيزيقا . وذهب إلى باريس محاضراً فى فلسفة أرسطو ، وغير هؤلاء الكثير . ولمزيد من التفاصيل انظر :
The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 87; Little, the Franciscan Scfool At Oxford in the Thirteenth Century, (ed.) in Archivum Franciscanum Historicum, XIX, October, 1926, pp. 803-804; Mallet, op. cit., pp. 57-63, Lyte, op. cit., pp. 24-25; Rashdall, op. cit., p. 68; Brodrick, op. cit., p. 51, Lunt, op. cit., pp. 182-183.

[2] هذيـــن الراهبيـــن مـــن الفرنسيسكان والدومنيكان اللذان ارتقيا منصب رئيس أساقفة كانتربرى هما روبرت كيلاردباى Robert Kilwardy ، وينتمى لطائفة الدومنيكان ، وارتقى منصب رئيس الأساقفة عام ١٢٧٢ ، وذاع صيته فى النحو والمنطق واللاهوت . أما الآخر فهو باتهام Patcham من طائفة الفرنسيسكان ولعب دوراً بارزاً فى الشئون السياسية . وتعلم فى أكسفورد العلوم واللاهوت والشعر والرياضيات . وقام الأول بزيارة الجامعة عام ١٢٧٧ ، والثانى عام ١٢٨٤ . وأسفرت هاتين الزيارتين عن إدانة الأخطاء الناجمة عن تدريس فلسفة أرسطو . لمزيد من التفاصيل انظر :
Mallet, op. cit., p. 70.

[3] فـــيما يـــتعلق بالدعم الملكى لهؤلاء فى عام ١٢٦٤م منح الملك هنرى الثالث Friars Minors برجاً صغيراً على سور المدينة القريب من مقرهم . وفى عام ١٢٥٨م منحهم عشرة شجرات بلوط لبناء مقر لمدارسهم . وكان من عادة الملوك الإنجلـــيز عند زيارتهم للمدينة منح مبالغ مالية لمؤسسات الأخوة الموجودة بها . وأصبحت هذه الأموال فى نهاية القرن الثالـــث عشـــر تحـــدد بمعدل أربعة دينار لكل راهب من الأخوة . ويتوج وجودهم فى انجلترا بتأسيس مدرسة اللاهوت بمحاضر من الفرنسيسكان فى دير كاتدرائية كانتربرى عام ١٢٧٥م ، الأمر الذى أثار مخاوف الرهبان فى الكاتدرائية ، انظر تفاصيل ذلك فى :
Gervasii Cantuariensis, op. cit., vol. II, p. 285; Little, op. cit., p. 819.

درجـــات علمية فى أى تخصص باستثناء اللاهوت والقانون الكنسى، حيث كان هدفهم يرمى إلـــى إعـــداد الـــرجال المتمرسين للعمل الرعوى . لذا أمرهم أعظم أساتذتهم بدراسة الكتاب المقـــدس ولـــيس كـــتاب الأحكام Sentences لبطرس اللمباردى وكانت تقاليدهم تمنعهم من الحصول على درجات علمية فى الآداب[1] .

وأصـــرت الجامعـــة علـــى أن التقاليد تقضى بأن المرشح للحصول على درجة فى اللاهـــوت يجـــب أن يكون متخرجاً فى الآداب ، وأثيرت هذه المشكلة بالفعل عام ١٢٥٣م . عـــندما تقـــدم الراهـــب الفرنسيسكانى زائع الصيت توماس من يورك Thomas of York بالـــتماس مـــؤداه الترخيص له بالتخرج فى اللاهوت بيد أنه لم يدرس فى الآداب . وسمح له بالترخـــيص بالـــتدريس ، والحصـــول على درجته فى اللاهوت لخبرته وكفاءته ، مما يجعله مؤهلاً لأن يمنح استثناء Graces يتبوأ بمقتضاه درجة ممارس استثنائى Ordinary regent فـــى الكتاب المقدس . وفى محاولة لرأب الصدع وحسم النزاع أصدرت الجامعة قانوناً ينص علـــى عدم السماح لأى شخص فيما بعد بالحصول على درجة فى اللاهوت ما لم يكن دارساً لـــلآداب أولاً وأن يلقى محاضرة فى كتاب الأحكام لبطرس اللمباردى ، والذى يتطلب تعليماً فلسفياً فى الميتافيزيقا والجدل ، قبل أن يسمح له بأن يحاضر فى الكتاب المقدس[2] .

ونســـتطيع أن نقـــول فـــى ضـــوء هـــذا النزاع الذى اندلع بين الجامعة والرهبان الفرنسيســـكان والدومنـــيكان ، لاســـيما بعد أن تم تعيين محكمين Arlitrators من الطرفين للـــتعامل مع المسألة برمتها ، التى عرضت أمام البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م) عام ١٣١٣م، وإقـــرار قـــرار المحكميـــن مـــن جانب الملك إدوارد الثانى (١٣٠٧-١٣٢٧م) عام ١٣١٤م، بـــأن الجامعة كسبت النقاط الرئيسية موضع الخلاف وتأييد قوانينها ودعم سلطتها . ومـــن ناحية فقد قدمت تنازلاً يبدو باهتاً -- من وجهة نظرى - للأخوة الرهبان مؤداه أن أى أســـتاذ يـــرفض الاســـتثناء graces الذى يمنح الراهب الحق فى التخرج فى اللاهوت بدون الدراســـة فـــى الآداب أولاً مطالـــب بأن يبرهن للأساتذة الممارسين أو النظاميين Regent Masters بأن اعتراضه ليس قائماً على سوء نية أو قصد[3] . علاوة على قرار الجامعة بعدم تنفيذ القوانين إلا بناءً على تصويت أغلبية الأساتذة الممارسين فى التخصصات الثلاث الآداب

---

[1] Rashdall, op. cit., pp. 67-68; Mallet, op. cit., p. 72, Liule, op. cit., p. 823.

[2] من الجدير بالذكر أن الأخوة الدومنيكان والفرنسيسكان القائمين بتدريس اللاهوت فى مؤسساتهم التى خارج مدن الجامعة ، لـــم يكـــن الأمر يتطلب ترخيصاً من أى سلطة خارج مؤسستهم ، وذلك بمقتضى مرسوم البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١م) عـــام ١٢٥٧م . والـــبابا كليمنـــت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) عام ١٢٦٥م . ولم يكن المحاضرين الفرنسيسكان خاضـــعين بأيـــة طريقة لمستشار الكنيسة الكاتدرائية فى الأسقفية التى يدرسون بها . بيد أنه فى أكسفورد لابد أن يحظى المحاضر من الأخوة الفرنسيسكان قبل الاعتراف به مدرساً بالموافقة من جانب كل من مؤسسته الدينية والجامعة . انظر : Munimenta Academica, Rolls Series, ed. By Anstey, London, 1868, vol. I, p. 25, Little, op. cit., pp. 82, 822, Mallet, op. cit., p. 73, Lyte, op. cit., pp. 53, 54.

[3] Mallet, op. cit., pp. 74-75; Little, op. cit., p. 823, Rashdall, op. cit., p. 71.

والطب والقانون بدلاً من اثنين؛ بالإضافة إلى الأساتذة غير الممارسين أو المتفرغين Non Regent Masters . ويضيف المؤرخ رشدال بإيضاح أكثر أنه بناء على شكوى جماعات الرهبان المتسولين Mendicants Orders ، بأن القوانين كانت تصدر بدون اهتمام كاف من الأقسام أو التخصصات Faculties الرئيسية الآداب ، اللاهوت ، القانون والطب . فقد تقرر بأنه من الآن فصاعداً عدم إصدار أى قانون من قبل الجامعة إلا بناء على قرار الإجتماع العام للأساتذة الممارسين General Congregation of Regent Masters ، وأن تسلم مسودات القوانين المقترحة للأساتذة فى كل قسم قبيل التصويت فى الاجتماع بخمسة عشر يوماً . وحظيت هذه القرارات بموافقة الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان ، والإذعان للجامعة بيد أن النزاع بين الطرفين لم يتوارى تماماً، وظل يطفوا على السطح من حين لآخر[1] .

وفى سياق هذا العرض لا يفوتنا الحديث عن أقوى التحديات التى طرحتها حركة التعليم الجديدة فى هذه الجامعات الناشئة . لقد صارت مؤلفات أرسطو بمتناول الغرب بفضل الترجمات التى أعدت فى الأندلس وصقلية والبروفانس . وحتى الربع الأخير من القرن الثانى عشر كانت ترجمة هذه المؤلفات تتم نقلاً عن النصوص العربية ، وليس نقلاً عن النصوص اليونانية الأصلية[2] . وبحلول عام ١٢٠٠ بدأت ترجمة مؤلفات أرسطو عن اليونانية مباشرة . وكان توماس الأكوينى Thomas Aquinas العالم الدومنيكانى أول فيلسوف مسيحى يمتلك

---

[1] لا مراء أن النزاع بين الجامعة والرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان يعكس فى جوهره العداء الشديد بينهم ورجال الدين العلمانيين لا سيما وأن معظم أعضاء الجامعة فى أكسفورد مثل أقرانهم فى باريس كانوا من الكهنوت العلمانيين . ومن الجدير بالذكر أن نفقات الإجراءات القانونية للجامعة ضد الرهبان كانت تمول من خلال ضريبة على الأملاك الكنسية فى المملكة . وبعد تسوية القضايا الأكاديمية بين الطرفين ، تحول النزاع بينهما إلى مشكلة السن التى تسمح بها التنظيمات الرهبانية للانخراط فى سلك الرهبنة . وفى عام ١٣٥٨ أصدرت الجامعة قانون ضد ما أسمته خطف الأولاد الذين يقل عمرهم عن ثمانية عشر عاماً . للالتحاق بمؤسساتهم لتعليمهم التسول وتبديد الوقت ونص القانون صراحة بأن النبلاء والعوام يخشون إرسال أبناءهم إلى الجامعة ، مخافة اغوائهم من قبل الرهبان المتسولين بالانضمام إليهم قبل بلوغهم سن الرشد . مما يؤدى إلى تعكير صفو السلام فى الجامعة وقلة عدد الدارسين فيها . وإذا حدث عكس ذلك فلن يسمح لأى خريج من مدارس أديرة هؤلاء بإلقاء أو حضور محاضرات فى أكسفورد خلال العام التالى للاختطاف من وجهة نظر الجامعة . وهناك قوانين أخرى فى هذا الصدد . مما دفع البابا أوربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) عام ١٣٥٦م للتدخل ضد الجامعة لصالح الرهبان وأمر رئيس أساقفة كانتربرى ، والأساقفة بالإصرار على قيام المستشار بإلغاء ما أسماه القوانين البغيضة . فى الوقت الذى ناشدت فيه الجامعة والمؤسسات الدينية الأربعة الدومنيكان الفرنسيسكان ، الأوغسطنيين ، والرهبان البيض Carmelites . الملك والبرلمان للتدخل مما أسفر عن صدور مرسوم بموافقة البرلمان تم بمقتضاه تخفيف القيود على قبول الدارسين فى تلك المؤسسات . مع حظر كل المراسيم البابوية ، أو استئناف الدعاوى التى يرفعها الرهبان على الجامعة فى بلاط روما ، وإعلان بطلانها ، واستمرت العداوة على حالها ، ولعل المصدر الأساسى لشعبية كالفن Wyclif كان يتمثل فى إنكاره الشديد للرهبان المتسولين . وكان انهيارهم من أهم نتائج الحركة التى تزعمها ، إلى جانب أسباب أخرى . لمزيد من التفاصيل بصدد تطور هذا النزاع انظر :
Brodrick, op. cit., p. 53; Rashdall, op. cit., pp. 74, 75; Green, op. cit., pp. 138-142, Mallet, op. cit., pp. 75-76.

[2] كانتور ، المرجع نفسه ، ص ٤٩٢ .

الـترجمة الجديـدة الكاملة فى منتصف القرن الثالث عشر . وكانت هذه الترجمة بالطبع أكثر دقة من الترجمة اللاتينية المنقولة عن اللغة العربية[1] .

ومن الجدير بالذكر أنه عندما بدأت شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو تتوفر بين أيدى المفكريـن الغربييـن فـى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، اكتشفوا أنهم ليسوا أول من تـناول مشكلة العلاقة بين العلم والدين، لأن بعضاً من أعظم العقول فى العالم الإسلامى مثل ابـن سـينا وابن رشد كانوا قد تناولوا بالفعل نتائج الفكر الأرسطى على عقائدهم الأصلية . وكـان على المفكرين المسيحيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن يختاروا بين رفض المذهـب أو الفكـر الأرسطى القائل بالفصل بين العلم والدين ، وبين محاولة إثبات الانسجام الـنهائى بينهما . ولم يتورع الفيلسوف العربى المسلم ابن رشد عن الفصل بين عالم العلم كما يمـثله أرسـطو وعالم الدين كما يمثله القرآن . وواجه التناقض بين العلم والدين بالاعتراف الصـريح بوجـود "حقيقة مزدوجة" . فهناك حقيقة واحدة للعلم ، وحقيقة أخرى للدين، وليس بمقدور العقل البشرى أن يوفق بينهما[2] .

ولعل العمل العظيم الذى صاغه توماس الاكوينى باسم خلاصة اللاهوت Summa Theologiae ، والـذى حاول من خلاله إظهار التوافق أو المزج بين العلم والدين . وجعل الفكـر الأرسـطى يتناغم مع حقائق الحياة المسيحية ، والبرهان على صحة العقيدة المسيحية بالفعل ، وأن الكشف عن الحقيقة يتدفق من خلال الكتاب المقدس والكنيسة ، بينما تنساب قوة العقـل عبر قنوات الفلسفة وفكر أرسطو . بيد أن كل من العقل والكشف عن الحقيقة يستمدان مصـدرهما مـن الـرب . وعلـى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت Mallet أن خلاصة اللاهوت هى فى الحقيقة خلاصة الفلسفة Summa Philosphiae[3].

---

[1] من الجدير بالذكر أن الكسندر هالس Alexander of Hales . والذى يعد من أوائل الأساتذة الفرنسيسكان العظام ، أول لاهوتى يبدى ترحيباً بالفلسفة الجديدة فى ثوبها العربى ، وكان انجليزياً لا يبارى فى بلاغته ، ومكث طويلاً فى مدارس باريس . ومن جهة أخرى فقد كان روبرت جروستيست أسقف لنكولن وعالم اللاهوت الشهير ، وآخرون للحصول على الـترجمات الجديـدة لمؤلفـات أرسطو . ولا مراء أن الغزو اللاتينى والاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م جعل المصادر اليونانية أكثر شيوعاً . وأمست الترجمات المستقلة للمترجمين العرب لمؤلفات أرسطو فى الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة متداولة . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Mallet, op. cit., p. 77;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢- ٤٩٤ .

[2] نفس المؤلف ، نفس المرجع ، ص ٤٩٥- ٤٩٨ .

[3] Mallet, op. cit., p. 80.

كانتور ، المرجع نفسه ، ص ٦٢٩ .

وإلـــى توماس الاكوينى يرجع الفضل فى تغيير الآراء بصدد الخلافات القديمة حول مشـــكلة الكلـــيات Universals أو الأفكار المجردة . فقد تمسك هذا الدومنيكانى العظيم بمبدأ الفردية القائم على أساس أن الفردية توجد فى الجوهر وليس الشكل[1] .

وعـــن صـــدى تأثـــير هـــذه الفلســـفة الأرسطية بهذه الشروح التى صاغها توماس الاكويـــنى، علـــى أروقة الدراسة فى مدارس أكسفورد ، وفى ضوء أن الأساتذة من الرهبان الدومنـــيكان ، كـــانوا يعـــتقدون منذ البداية أنه من الممكن التوفيق بين فلسفة أرسطو والفكر الكنسى الكاثوليكى. وكانوا بلا شك الأداة التى انتشرت بها فلسفة أرسطو على نطاق واسع فى انجلـــترا . وفـــى الوقت الذى أوصت فيه كلية الآداب فى باريس عام ١٢٥٤ بأن تصنف كل كـــتابات أرســـطو باعتـــبارها كتـــب مدرســـية Text Books ، وأن تكون فلسفته الطبيعية والميتافيزيقية هى "القاعدة الصائبة والمفيدة" ، نجد باتهام Patcham رئيس أساقفة كانتربرى، الـــذى ينتمى إلى الرهبان الفرنسيسكان ينكر صراحة ما أسماه البدع الدنيوية التى آتى بها هذا الدومنـــيكانى الكبـــير . أيضاً رئيس الأساقفة الذى جاء بعده ويدعى كيلوردباى Kilwardby بالـــرغم من انتماءه للرهبان الدومنيكان ، لم يتورع عن أن يدين صراحة هذه الآراء الفلسفية لـــتوماس أكويـــناس وفلسفة أرسطو برمتها أثناء زيارته لأكسفورد فى مارس عام ١٢٧٧م . ووافـــق الأســـاتذة فـــى أكسفورد على هذه الإدانة . بيد أن ذلك لم يمنع الدومنيكان والرهبان السيسترشـــيان والأوغسطينين الدارسين فى أكسفورد من تأييده وانتشار أفكاره . وتداول هذه الفلسفة التى سيطرت بالفعل على عقول الدارسين . ذلك أن الإغراء باكتشاف كنوز جديدة من العلـــم والمعـــرفة ، وســـحر وجاذبية هذه الفلسفة التى تحمل بصمة أكثر معلمى الماضى – أرسطو – تبجيلاً ومكانة برهن على أنه أقوى من أن يقاوم.[2]

---

[1] يذكر جون السالزبورى John of Salisbury الذى درس فى باريس بأن مدارس أكسفورد قبل تولى الملك هنرى الثانى الحكم مباشرة كانت مسرحاً لخلافات منطقية حول طبيعة الكليات . ويقصد بذلك هل المفاهيم العامة الكامنة في أذهاننا مثل العدالـــة ، الحقيقة ، الجمال ، الكنيسة والدولة .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج أذهاننا ؟ وهل المفاهيم الأكثر بساطة ، مـــثل شـــجرة ، حصان ، كرسى .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج عقولنا أم مجرد تصورات عقلية خالصة . وانقسم العلمـــاء إلى قسمين القسم الأول الواقعيين أو المثاليين Realism من معتنقى فلسفة أفلاطون بأن الكليات هى أشياء لها وجودهـــا المســـتقل خارج نطاق للعقل الإنسانى المفرد . والفريق الآخر عرف باسم الإسميين Nominalism بزعامة روســـيلين Rosselin أحـــد كبار الأساتذة البارزين في المدارس الفرنسية وأعلن أن الكليات ليست أشياء ولكنها مجرد كلمات أو أسماء . لا تتمتع بأى وجود مستقل خارج نطاق العقل الإنسانى . حتى جاء أبيلارد وأظهر موقفاً معتدلاً بقوله أن الكليات ليست أشياء أو مصطلحات وإنما مفاهيم مفيدة ، ولكنها ليست حقيقية بالضرورة . ومن المؤكد أنه ألقى ظلالاً مـــن الشـــك حول حقيقة الدعم العقلى لتعاليم الدين من منطلق أن أفهم أولاً واقتنع ثانياً . ولمزيد من التفاصيل عن جون السالزبورى وتأثيره الفكرى انظر :

كانتور ، المرجع نفسه ، ص ص ٤٥٠ ، ٤٥٤ . وبصدد مشكلة الكليات انظر ص ٤٦٣ – ٤٦٦ ،

Brodrick, op. cit., p. 5, Mallet, op. cit., p. 80.

[2] Lyte, op. cit., p. 25, Mallet, op. cit., pp. 77, 81; Rashdall, op. cit., p. 122.

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد قد شهدت انطلاقة قوية فى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) . ففى ضوء أحداث الشغب التى اندلعت بين الدارسين وسكان مدينة باريس عـــام ١٢٢٩م ، والـــتى أســـفرت عـــن تشتت جامعة باريس ، وفى الوقت الذى اقتضت فيه الالـــتزامات القومية للمملكة ضرورة التأكيد على هيبة الملك باستعادة وانتزاع بقايا الممتلكات الإنجلـــيزية فى فرنسا من الطبيعى أن يجد الملك فى ذلك الحدث فرصة سانحة لإذلال الملكية الفرنســـية ، ووفقاً لرواية المؤرخ ماكسويل لويت وجه خطاباً رسمياً إلى أساتذة وطلبة باريس مبدياً تعاطفه معهم فى محنتهم ، والوعد بحريات وامتيازات جمة فى حالة حضورهم للدراسة فى انجلترا . وبدت تلك دعوة جذابة لاسيما للدارسين الانجليز فى باريس وأسفرت بالفعل عن حضـــور لفيف من الأساتذة والدارسين إلى المدارس الشهيرة على الضفة الأخرى لنهر التيمز سواء فى أكسفورد أو كمبريدج.[١]

وكـــان للـــتدفق المفاجئ لهؤلاء الدارسين الأجانب أثر سيئ على النظام فى الجامعة الناشـــئة ، فقـــد تحدى بعض الطلبة المستشار والأساتذة علناً . وعبر أحد المؤرخين على تلك الفـــئة المشاغبة من الدارسين بقوله "أن هؤلاء كانوا يعيشون بلا نظام ، ولم يكن لهم معلم إلا مـــن يعلمهـــم كـــل صنوف الشر" ، مما اضطر الملك هنرى الثالث للتدخل بعد أن ساد عدم الاكتراث بالقانون فى أكسفورد . وفى عام ١٣٣١م أصدر عدة مراسيم تهدف إلى تقوية سلطة المستشار ، بمنحه حق سجن الطلبة المشاغبين فى قلعة أكسفورد ، وأن يكون اطلاق سراحهم حسب إرادته ، ومعاملتهم وفقاً للقانون الكنسى . وأمر حاكم المقاطعة بأن يعلن أن أى دارس لا يكون تحت إشراف أحد الأساتذة فى المدارس لا يمكن اعتباره دارساً . ومن ثم يتحتم على ما أسماهم الدارسين المزيفين Pseudo-clerks مغادرة المدينة فى غضون أسبوعين[٢] .

وفـــى عام ١٢٣٨ وقع صدام بين الجامعة والمبعوث البابوى الكاردينال أوتو Otho المقيم فى دير أوزنى Oseney . ووفقاً لرواية المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris ففى الثالـــث والعشـــرين مـــن أبريل من العام المذكور توجه فريق من الدارسين إلى الدير لتحية المبعوث البابوى ، بيد أنهم ردوا على أعقابهم بفظاظة من جانب الحارس Janitor . فى نفس الوقـــت ألقـــى رئـــيس طهاة المبعوث البابوى والذى كان شقيق المبعوث البابوى، إناءً مملوءً بالمـــاء الســـاخن فى وجه دارس أيرلندى فقير كان يستجدى الطعام على باب المطبخ . الأمر الـــذى أثـــار حنق الدارسين ، وقام أحد الدارسين من ويلز بتسديد قوس صوب رئيس الطهاة وأطلـــق عليه سهماً أرداه قتيلاً فى الحال . وحاول آخرون إشعال النار فى البوابات الضخمة الموصـــدة أمـــامهم ، واتهام المبعوث البابوى بكل ما تجود به مفرادتهم من شتائم قائلين "أين

---

[١] Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans from the Latin by Giles, London, 1852, vol. III, p. 149.

[٢] Lyte, op. cit., p. 31.

ذلــك المرابى، ذلك المتاجر بالدين ، هذا المسرف المبدد للإيرادات ، المتعطش للمال ، الذى يخــدع الملــك ، الذى يثرى الأجانب من المال الذى ينهبه منا"[١] . مما دفع المبعوث البابوى للفــرار . وبإيعاذ من الملك تم إيداع عشرين أو ثلاثين من الدارسين بعضهم من أسر عريقة الســجن فى قلعة ولنجفورد Wallingfords . وبناء علي طلب المبعوث البابوى تم نقلهم فى عــربات مفــتوحة مــثل المجرميــن إلى قلعة لندن مكبلين بالقيود الحديدية . وأعلنت عقوبة الحــرمان الكنســى علــى كــل المسئولين على أحداث الشغب ، ومنع المحاضرات وتوقفت الجامعة، ووضعت المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية[٢] . وأعلن المبعوث البابوى مهدداً أنــه لــن يعيد الجامعة إلى عطفه إلا إذا استجدى كل أعضاء الجامعة العفو منه علناً . وبناء على ذلك تجمعوا فى كاتدرائية القديس بولس St. Paul فى لندن ، وساروا بمصاحبة الأساقفة الذين ناصروا قضيتهم إلى حيث يقيم المبعوث البابوى فى مشهد درامى . وبعد خلع أرديتهم ، وعباءاتهم ، وأحذمتهم، وأحذيتهم رمزاً للندم ، قبل خضوعهم . وأصدر فى التاسع والعشرين مــن مايو ١٢٣٨م مرسوماً تم بمقتضاه رفع عقوبة اللعنة ، واستئناف المحاضرات ، والعفو الشــامل لجميع الدارسين . بيد أنه اشترط أن يدفع كل منهم مبلغاً من المال يعادل نفقة أسبوع لروح شقيقه.[٣]

ويشهد عام ١٢٤٤ أول خطوة مهمة على طريق إعلاء سلطة وصلاحية المستشار ، ففى هذا العام اندلع حادث شغب مغايراً تماماً فى نوعه لأحداث الشغب التى كانت تموج دوماً بهــا مديــنة أكسفورد فى العصور الوسطى . فقد قام الدارسون بهدف الانتقام لبعض أعمال الابــتزاز مــن جانــب الــيهود بمهاجمة حى اليهود بالمدينة ، ونهبوا بيوت دائنيهم العامرة بالخــيرات ، وأســفر ذلــك عن إيداع خمسة وأربعين من الدارسين السجن . وأصدر الملك مرســوماً لصــالح الجامعة يقضى بحق المستشار فى الانفراد بحسم كل المنازعات التى تثار بصــدد إيجــارات البيوت التى يقيم بها الدارسين ، سعر الخيول ، المؤن ، الملابس ، وجميع العقود الخاصة بالمنقولات والتى يكون أحد الدارسين طرفاً فيها.[٤]

---

١ Matthew Paris's, op. cit., vol. I, pp. 126, 127; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 35, Mallet, op. cit., p. 36, Rashdall, op. cit., p. 88.

٢ Matthew Paris's, op. cit., vol. I, p. 128.

٣ أستطيع أن أقول أن هذه الأحداث التى جرت وقائعها بين الدارسين والمبعوث البابوى فى أكسفورد جاءت انعكاساً أيضاً لموجة عارمة من الأستياء عمت الأوساط السياسية والكنسية ضد الابتزازات المالية للبابوية ، والتى بلغت ذروتها فى عهد الملك هنرى الثالث . وكان المبعوث البابوى مدركاً لذلك ، الأمر الذى جعله من شقيقه رئيساً للطهاه له خوفاً من دس السم .. انظر :

Matthew Paris's, vol. I, p. 128, Mallet, op. cit., p. 36.

٤ Roberti Crosseteste . op.cit.,pp.lvii ,lviii ; The Chronicles of the Reigns of Edward I.and Edward II ,vol.I ,p.71 ; Lyte ,op.cit., p.42 ; Mallet , op.cit.,p.38 ; Rashdall , op.cit. , p.85.

واستحق هذا المرسوم الذى تم تأكيده وتجديده من جانب عدد كبير من الملوك الانجليز أن ينعت باسم العهد الأعظم أو ماجنا كارتا Magna Carta الجامعة . لأنه تضمن النواة الأولى لمعظم الامتيازات اللاحقة للجامعة . وأضفى على المستشار سلطة لا يستطيع أى مبعوث بابوى أو أسقف منحها أو إلغائها[١] .

وفى عام ١٢٤٥ وضع البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) الجامعة تحت حمايته الخاصة مؤكداً ضمان امتيازاتها المختلفة . وأصدر مرسوماً وعد فيه بعدم استدعاء الأساتذة والدارسين فى أكسفورد للمحاكمة خارج المدينة بواسطة الأسقفية المقدسة أو مبعوثيها بسبب أى اتفاقيات تبرم داخل المدينة[٢] .

وتتأكد امتيازات الجامعة عام ١٢٥١ م نتيجة للنزاع بين الدارسين وأبناء المدينة ، الذى أسفر عن إيداع اثنين من الدارسين السجن ، وأغلقت المدارس مرة أخرى . لذا ناشدت الجامعة الملك هنرى الثالث الذى جاء إلى أكسفورد فى أوائل فبراير عام ١٢٥١م ، بأنه من الآن فصاعداً يجب نقل كل الدارسين المقبوض عليهم من قبل السلطة المدنية إلى الحبس تحت رعاية المستشار . وأبدى الملك وعداً بتسليم الدارسين الذين يتم القبض عليهم فى منازعات طفيفة إلى المستشار ، الذى يستطيع بصفته نائباً لأسقف لنكولن فى المدارس أن يفرض العقوبة ، ولكنه احتفظ للأسقف أو نائبه الذى تعينه خصيصاً لذلك ، بالسلطة الوحيدة على الدارسين المتهمين بجرائم خطيرة . بيد أن أعضاء الجامعة عبروا صراحة عن عدم رضاهم بهذه التسوية . وأبدى الملك من جانبه حزماً صارماً بهذا الصدد . وعندما تم إلقاء القبض على ثلاثة من الدارسين بعد ذلك بوقت قصير ، أمر الملك بضرورة تسليمهم للمستشار لكى تتم محاكمتهم طبقاً لتقاليد الجامعة إذا لم تكن الجروح قاتلة.[٣]

وتتوالى امتيازات الجامعة فى القرن الثالث عشر ، فقد حظيت الجامعة بامتيازات أخرى عام ١٢٥٥م على حساب حريات المدينة . فقد أمر الملك بتعيين أربعة من حكماء المدينة ، وثمانية من أبناء المدينة لمساعدة حاكم المقاطعة والنواب فى مراعاة النظام . وأن يصبح كل مالك بيت مسئولاً عن أى شخص يقيم تحت سقف منزله أكثر من ثلاث ليال . وصدرت الأوامر لتجار الخمور ببيع النبيذ للدارسين وأبناء المدينة بنفس الأسعار . كما منع تجار التجزئة من اعتراض المؤن الواردة للأسواق أو شرائها بعد بيعها مرة أخرى قبل الساعة التاسعة صباحاً ، كما صدر مرسوماً يقضى بعدم صلاحية التحليل نصف السنوى للخبز والبيرة إلا إذا تم فى حضور مستشار الجامعة أو نائبه[٤] . ونظراً لأن تعاطى الطلبة

---

١ Lyte, op. cit., p. 42.

٢ Munimenta Academica, (ed.) by Anstey, in (Rolls Series) London, 1868, pp. 26-28; Lyte, op. cit., p. 45.

٣ Brodrick, op. cit., p. 14; Lyte, op. cit., p. 45; Rashdall, op. cit., p. 85.

٤ Lyte, op. cit., p. 46.

للخمور يعتبر مصدراً دائماً للمتاعب ، وكان نصف أبناء أكسفورد يخمرون النبيذ ويبيعونه ، كمـا كـان الشراب جزءاً من أى احتفال أكاديمى ، لذا كان من الطبيعى أن يكون المستشار ملـزماً مـن الـتأكد بـأن أصحاب الحانات فى أكسفورد يحافظون على جودة الخمور التى يبـيعونها. بـيد أن ذلـك لـم يمنعهم من صنع الخمور من مياه الجداول ، التى تصب فيها المجـارى، وتصـبح شوارع المدينة مسرحاً لشجار نتيجة لذلك . بيد أن أهم ما تضمنه عهد ١٢٥٥م أنه منح مستشار الجامعة حق استلام الدارسين المعتقلين فى سجن القلعة بسبب جرائم خطـيرة ، وعقاب العلمانيين من سكان المدينة باعتقالهم إذا ألحقوا ضرراً بالدارسين حتى يتم تقديم التعويض الذى يراه الطرف المتضرر والمستشار والجامعة ملائماً[١] .

وفـى عـام ١٢٥٦م أقر الملك بضرورة أن يتم تقدير إيجار المنازل والغرف التى يسـكنها الدارسون والمؤجرة من سكان المدينة ، بواسطة لجنة مشتركة من الدارسين وأبناء المدينة مرة كل خمس سنوات بدلاً من كل عشر سنوات[٢] .

لا مـراء أن هـذه الأحداث والتطورات إنما تؤكد أن جامعة أكسفورد التى حظيت بتأييد الملك ، والبابا وأسقف لنكولن على السواء ، غدت تحتل مكانة مرموقة فى عيون العالم فـى منتصـف القـرن الثالـث عشر ، والتى يتحدث عنها المؤرخ متى الباريسى باعتبارها المدرسة الثانية للكنيسة . ولتلك التسمية قصة .

فـى عـام ١٢٥٧ م أظهـر هـنرى ليكسنجتون Henry Lexington الذى خلف روبرت جروستيست فى منصب أسقف لنكولن ، ميولاً غير ودية تجاه الدارسين فى أكسفورد، وتوجـه تسـعة مـن معلمى الآداب لمقابلة الملك فى دير القديس البانز St. Albans لتقديم شـكوى ضد ما اعتبروه اعتداء الأسقف على حريات الجامعة[٣] . وعقد المؤرخ متى الباريسى الـذى كـان آنذاك راهباً فى دير القديس البانز لقاء مع الملك ، وناصر قضيتهم بحماس وقال مخاطـباً الملـك : "سـيدى ، باسم الاله اهتم بالكنيسة المتداعية بالفعل ، لأن جامعة باريس مدرسـة كثيريـن مـن الأساقفة أصابها صدع عظيم ، وإذا تعرضت جامعة أكسفورد وهى

---

١ Lyte, op. cit., p. 46; Mallet, op. cit., p. 153.

٢ Lyte, op. cit., p. 45.

٣ كانت جامعة أكسفورد فى هذه المرحلة قد بدأت فى صياغة أعرافها غير المكتوبة إلى قوانين مكتوبة . وكان النزاع يدور حـول هـل يحـق للجامعة إدارة أمورها بنفسها أم من خلال أسقف لنكولن ؟ ولأن الأساتذة كانوا يحاضرون بمقتضى الترخيص الذى يمنحه المستشار . فقد اعتبر الأسقف الجديد ذلك انتهاكاً لحقه الخاص ، مستنداً فى ذلك على أنه بناء على التماس سلفه روبرت جروستيست أعلن البابا أنوسنت الرابع مرسوماً يقضى بأن لا يسمح لأحد بالتدريس فى أى تخصص مـا لم يخضع للاختبار والموافقة من جانب الأسقف أو نائبه . وهذا القرار يبرهن بوضوح على أن مستشار الجامعة ما زال يعتبر نائب للأسقفية . وبالرغم من أن المستشار يعتبر من الناحية النظرية نائباً للأسقف ، بيد أنه باعتباره أستاذاً فى اللاهوت والقانون الكنسى بالجامعة كان دوماً معبراً عن مصالح الجامعة . وسلطته تعلى فى المدى البعيد سلطة الجامعة . وبمرور الوقت فإن دمج السلطة الأكاديمية والكنسية ، المدنية والجنائية فى أيدى مستشار مدارس أكسفورد لم يحدث أن حصل عليها رئيس أى جامعة أخرى باستثناء جامعة كمبريدج . انظر ذلك فى :
Rashdall, op. cit., pp. 45, 116, 117; Lyte, op. cit., pp. 39, 40.

المدرســة الثانية للكنيسة ، وربما تكون أساس الكنيسة ذاته لنفس الصدع والاضطراب ، فإننا نخشى أن تنهار الكنيسة كلها".[1]

وبــناء علـــى ذلــك صـــدرت الأوامر للمبعوثين من مدارس أكسفورد بالمثول أمام المجلــس الكبــير للملك ، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان ، والذى كان على وشــك الانعقــاد فـــى ويسمنيســتر . وربما كانت نقطة الخلاف الأساسية بين أسقف لنكولن والجامعة ، أن الأسقف من منطلق تأكيد سلطته على الجامعة حاول منع المستشار من فرض عقوبــة روحــية بدون الحصول على إذن خاص منه . بيد أنه تم إقرار سلطة المستشار عام ١٢٦٢م بحقــه بإصــدار عقوبة الحرمان الكنسى ضد نواب المدينة ، فى حالة تجاوز سلطته باحتجاز الدارسين المتهمين فى سجن المدينة.[2]

وبالرغم من مؤازرة التاج للجامعة لم تلبث أن تعارضت حقوق المستشار مع حقوق الــتاج حــول حسم القضايا التى تحدث بين اليهود والدارسين ، مع الأخذ فى الاعتبار أنه قبل إنشــاء صندوق دير القديسة فرايدزوايد بمقتضى مرسوم البابا عام ١٢١٤ – والمشار إليه آنفاً – وغــيره من الصناديق لتقديم القروض للدارسين الفقراء ، كان اليهود هم الفئة الوحيدة التى تقدم القروض فى مدينة أكسفورد وكانت لهم تعاملات ضخمة مع الدارسين خلال حكم هنرى الثالــث[3] . ولــم يكــن القانون الكنسى المناهض للربا ينطبق على أعضاء الطائفة اليهودية . وكانــت القضايا التى تنشب بينهم وبين المسيحيين تحال إلى محكمة مختلطة[4] . ورغم تحديد سعر الفائدة من جانب الملك بمقدار بنسين عن كل جنيه فإن الخلافات الكثيرة كانت تطفو على السطح بين الدائنين اليهود والمدنيين المسيحيين ، واللجوء لمستشار الجامعة للبت فيها . وفى عام ١٢٦٠م أخذ رئيس شرطة قلعة أكسفورد على عاتقه إثارة موضوع سلطة المستشار على الــيهود ، مدعياً أنهم لا يشكلون جزء من المجتمع العادى للمدينة . وأحال الملك الأمر برمته إلـــى لجــنة مـــن المحلفين من سكان المدينة ، جاء قرارها رغم العداء بين المدينة والجامعة لصــالح سلطة المستشار بموافقة كاملة من الملك ، بحق المستشار إقرار السلام بين الطرفين

---

[1] يذكــر المــؤرخ ماثيو الباريسى فى ثنايا حديثه عن مكانة أكسفورد فى القرن الثالث عشر ، بأنه فى عام ١٢٥٢م عرض بونــيفاس رئيس أساقفة كانتر برى شكواه ضد أسقف وينشيستر أمام الجامعة "لكى يعلن ذلك الخطأ الذى ارتكبه الأسقف علـــى حشــود الدارسين المجتمعين هناك للدراسة من أنحاء متفرقة من العالم . لكى تعرف الأمم البعيدة بذلك الخطأ من حكايات الدارسين . وحضر إليه جمع غفير من الدارسين ، قابلوه بالترحاب باعتباره رئيساً للأساقفة ، وقدموا له كميات كبيرة من اللحم والشراب لطعامه ، وعندما لاحظ رئيس الأساقفة وحاشيته كرم ضيافتهم ، وفخامة مظهرهم ، وولائهم ، وجاذبية شخصياتهم ، اضطروا للاعتراف بأن جامعة أكسفورد جديرة بأن تصنف باعتبارها منافساً لجامعة باريس" انظر:
Matthew Paris, Chronica Majora, ed. Lusrd, Rolls Series, London, 1884; vol. IV, pp. 265, 353; vol. V, p. 618; Lyte, op. cit., p. 58.

[2] Loc. cit.

[3] Loc. cit.

[4] Stubbs, The Constitutional History of England, Oxford, 1873, vol. II, p. 530.

وتطبيق العمل السريع على أى منهما[1] . ويبدو من وجهة نظر الباحث أن قرار أبناء المدينة بالثناء على المستشار إنما كان بدافع الرغبة من جانبهم فى إذلال اليهود ، لأنهم بقدر ما كانوا يكرهون الدارسين ، فإن كراهيتهم لليهود كانت أشد وأقوى .

وللوقوف على أسباب المنازعات التى كانت تندلع دوماً فى أكسفورد بين الجامعة وتحديداً الدارسين وسكان المدينة ، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الجامعة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لم يكن لها أبنية خاصة بها أو ممتلكات من أى نوع . فالمدارس التى كانت تلقى فيها المحاضرات والغرف التى يسكنها الطلبة كانت جميعها مستأجرة من سكان المدينة . وكان العمل الأكاديمى يتم فى الكنائس الأبروشية أو الديرية المستأجرة لهذا الغرض . وكان لفقر الجامعة فى هذه المرحلة ميزة تعويضية ، لأنه ترك للجامعة حرية الاستقرار فى المكان الذى تريده . وطالما أصبح العامل المادى عديم الجدوى ، حيئنذ يكون باستطاعة الدارسين مغادرة أكسفورد وحينئذ ينطوى رحيلهم على خسارة مادية لسكان المدينة ويمثل فشلاً زريعاً لكل من الكنيسة والملكية . وإذا كان البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) تصريحاً رسمياً للأساتذة فى باريس بالتوقف عن إلقاء المحاضرات عندما تتعرض حريات الجامعة للخطر . ففى أكسفورد كان القلق العام فى المدارس يفهم على أنه يعنى أن الدارسين يمكن أن يتفرقوا إذا لم تلق شكواهم الاهتمام العاجل. ومن ثم فإن التهديد بمغادرة أكسفورد وإغلاق المدارس يصبح السلاح الذى يستطيعون إشهاره فى وجه سكان المدينة[2] ، لاسيما وأن أكسفورد على حد تعبير المؤرخ ماليت الوحيدة بين مدن انجلترا فى العصور الوسطى التى تضمنت مركزين يبدو وكأنهما يتمتعان بالحكم الذاتى Self-governing أى الجامعة والمدينة . وفى الوقت الذى كانت فيه نقابة التجار قادرة على حماية حريتها وإقرار حقوقها ضد الدارسين كانت الجامعة تحتاج دوماً إلى حماية التاج.[3]

وفى أثناء النزاع الشهير بين هنرى الثالث والبارونات الثائرين بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، أبدت الجامعة تعاطفاً مع البارونات المعاديين للملك ، ولم تمانع فى منحهم قرضاً استهلك جزء كبيراً من النقود التى أوصى بها وليم درهام لمعلمى الآداب الفقراء. حينئذ أمر هنرى الثالث كل الدارسين مغادرة أكسفورد . وانضم عدد كبير منهم إلى البارونات . وغامر الملك باقتحام أكسفورد ، وأقسم تحت وطأة الغضب من الدمار الذى ألحقوه برجاله ، بأنه سوف يشنقهم جميعاً فور الاستيلاء على المدينة . بيد أن الملك لم ينفذ تهديده بناءً على استنكار أتباعه ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى فقدان كل النبلاء والأتباع المؤيدين

---

١ Lyte, op. cit., pp. 58-59.
٢ Ibid; p. 41.
٣ Mallet, op. cit., pp. 39-40.

لــه ، فمــن لهــم أبناء وأقارب بين الدارسين . وبعد شهر واحد من وقوع الملك وولى عهده الأمــير إدوارد فــى الأسر على يد الأول فى معركة لويس Lewes بمقاطعة سكس ، والتى أدت إلــى قلب أوضاع الأطراف المتحاربة رأساً على عقب ، أصدر الأيرل المنتصر مراسيم باسم الملك يأمر بعودة الدارسين المشتتين إلى أكسفورد[1] .

ونســتطيع تفســير هذا الموقف العدائى للجامعة تجاه الملك رغم انحيازه لها وإعلاء شأنها فى عهده فى ضوء حقيقة أن الجامعة لم تكن بمنأى عن حالة الاستياء العام فى المملكة نتيجة تردى الأوضاع السياسية داخلياً وخارجياً فى عهد هنرى الثالث ، وربما إيمانهم بعدالة المطالــب البارونــية والتى قدمها الأيرل الثائر فى اجتماع المجلس الكبير الذى عقد فى مدينة أكسفورد عام ١٢٥٨ والتى عرفت فى التاريخ الانجليزى بشروط أكسفورد[2] .

علــى أية حال ، فقد حظى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بأهمية خاصة فى تــاريخ تطور جامعة أكسفورد ، بظهور ما اصطلح على تسميته الكليات Colleges ، وهى مؤسســات خيرية ذات هدف تعليمى لإعالة الدارسين الفقراء . وخلال فترة العصور الوسطى كانت الغالبية العظمى من الدارسين العلمانيين يقيمون إما فى غرف مستأجرة من أبناء المدينة أو فى قاعات Halls مع الأخذ فى الاعتبار أن منع الدارسين من الإقامة فى بيوت الأهالى لم يــتم الغاءه إلا فى عهد الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م)[3] . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الــدارس الثرى الذى ينتمى لأسرة عريقة يستطيع أن يأخذ مسكناً خاصاً به . فى حين أن الدارس الذى يعانى الفاقة يقيم فى حجرة منفردة مهملة أعلى البيت . ومن ثم نجد أن الدارسين الذيــن يجدون مشقة فى دفع تكاليف المعيشة لا يرون ثمة مهانة فى قبول المساعدة من رجل ثــرى ، حيــث نجد الكثير من الدارسين يدينون بالفعل إلى كاهن أو أحد النبلاء بالتعليم الذى يهيــئ لهم البداية الأولى للحياة . ولا مراء أن فكرة الكفالة على أساس دائم للإقامة فى بيوت بمــا فــيها الأكل والإقامة للدارسين الفقراء كانت بدون شك الدافع الرئيسى الذى أدى لظهور فكرة الكليات[4] .

وتــبدأ الجــذور التاريخية لنظام الكليات فى تاريخ أكسفورد الباكر بعدد من الملوك والنــبلاء والأســاقفة يدفعون نفقات تعليم الطلبة الفقراء الذين ولدوا فى ضياعهم الإقطاعية . وكان الأغنياء المتحمسين للتعليم يقررون إعالة عدد من الدارسين فى الجامعة ، وتوفير إقامة خاصــة لهــم ، ووضع القواعد لضبط سلوكهم ، فى عصر يعتبر التبرع أو الهبة Chantry بهــدف إعالــة دارس أو أكــثر من الأعمال النبيلة وتعبيراً عن التقوى والورع فى العصور

---

١ Lyte, op. cit., pp. 65-66; Mallet, op. cit., pp. 52-53.

٢ ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثالث والبارونات انظر :
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨- ١٨٩ .

٣ Rashdall, op. cit., p. 175.

٤ Rashdall, op. cit., p. 175; Mallet, op. cit., p. 84.

الوسطى[1] . ولعل أصدق مثال على ذلك ما قام به أحد الأثرياء ويدعى الآن باسيت Alan Basset ، حيث أوصى بمبلغ مائتى مارك تؤخذ من ضيعته ، تدفع بمعدل ثمان ماركات سنوياً لاثنين من القساوسة الذين يتولون إقامة القداس يومياً لروحه وروح زوجته ، وأيضاً للدراسة فى مدارس أكسفورد أو أى مكان آخر . ويجب الاعتراف بفضل آلان باسيت باعتباره أول من أقدم على وقف بعض المال للإنفاق على دارس فى أكسفورد [2] .

وفى عام ١٢٤٩ م أوصى وليام درهام William of Durham أحد أساتذة باريس البارزين بمبلغ ثلاثمائة وعشرة مارك لجامعة أكسفورد ، بهدف إعالة عشرة أو أكثر من معلمى الآداب من أبناء كونتية درهام فى منازل يتم توفيرها فى أكسفورد من هذا المال . وقد وضعت الجامعة هذه الأموال فى خزينة عرفت باسم صندوق وليم وليام درهام . أنفقت بعضاً منه فى منح قروض بدون فائدة للدارسين . وفى أثناء النزاع البارونى الشهير فى عهد هنرى الثالث اقترض البارونات الذين جاءوا لحضور اجتماع عام ١٢٦٤م[3] ، مبالغ ضخمة من ذلك الصندوق ، وفى ضوء ذلك لا يمكن اعتبار وليم درهام مؤسس لأقدم كلية فى أكسفورد ، لأنه لم يهدف أن يكون المتلقين لصدقاته فى شكل جماعة منظمة تتمتع بحقوق عامة . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ كلية Collegium هو المرادف اللاتينى للكلمة التى تستخدم الآن بمعنى هيئة أو مؤسسة Corporation . ومن ثم فإن ما قام به وليم درهام عبارة عن منحة مالية Exhibition-fund تدار بواسطة الجامعة[4] .

ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة للمال الذى أوصى به وليم درهام ، وأموال أخرى من متبرعين آخرين ، تم فى عام ١٢٨٠م إنشاء ما يعرف باسم كلية الجامعة University College والتى عرفت آنذاك باسم الدار الكبرى للجامعة "Gtreat University Hall" عبارة عن مجموعة صغيرة مكونة من أربعة من المعلمين غير القادرين على العيش بمستوى رفيع مع دارسين آخرين ، ويتم اختيارهم بواسطة المستشار ومعلمى اللاهوت . وكانوا جميعاً مطالبين بدراسة اللاهوت ، ولأن الجامعة لم تعتزم أن يشكل هؤلاء الدارسون مؤسسة مستقلة عن الجامعة ، فقد كان مسموحاً لهم فقط بقدر محدود فى إدارة شئونهم . ويعين الزميل الأكبر سناً The Senior Fellow رئيساً Head . وكانت السلطة الفعلية كلية فى يد المستشار والأساتذة الممارسين Regent Masters فى اللاهوت . وحصل الدارسون المقيمين بها على مخصص سنوى مقداره خمسين شلنا لكل منهم سنوياً . وصدرت القوانين المنظمة للمقيمين بهـا وفقاً لقواعد صارمة عام ١٢٩٢ م . بيد أن مصطلح كلية لم يخرج إلى حيز الوجود إلا

---

١ Rashdall, op. cit., p. 175.
٢ Mallet, op. cit., p. 84; Rashdall, op. cit., p. 175.
٣ Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., pp. 10, 71, Mallet, op. cit., p. 84
٤ Munimenta Academica, pp. 780-783; Lyte, op. cit., p. 87.

عام ١٢٨٠م ، لأن القوانين الباكرة التى أعدت من خلال الجامعة لإنشاء هذه المؤسسة صدرت فى هذا العام[١] .

وفى عام ١٢٦٠م خصص جون باليول John Balliol الذى يعد واحداً من أكثر بارونات الشمال قوة وثراء ، مبلغا من المال للإعالة الدائمة للدارسين الفقراء فى أكسفورد . وبعد وفاته زادت زوجته الأميرة الاسكتلندية ديرفورجيلا Dervorguilla من قيمة المنح المالية بما يكفى لإعالة ستة عشر دارساً بمرتب سنوى يقدر بسبعة وعشرين ماركاً لكل دارس. بيد أن مؤسسة باليول خصصت لدارسى الآداب فقط ، الذين بعد حصولهم على درجة الماجستير فى الآداب M.A لا يسمح لهم بالاستمرار وبالتالى ترك أماكنهم . وهؤلاء الدارسون تحت إشراف رئيس Principal كانوا يقومون بانتخابه.[٢]

ونظراً لأن المؤسس الأصلى قد أغفل أن يضع كليته أى مؤسسته تحت رعاية زائر حيث من المعتاد أن يكون أسقف لنكولن هو الزائر Visitor . كذا وبمقتضى قوانين عام ١٣٤٠م قسمت سلطة الزائر بين مستشار الجامعة وأسقف درهام واثنين من المدرسين . ولكن بمقتضى قانون تم إعداده تحت إشراف السلطة البابوية بواسطة سيمون سدبرى Simon Sudbury أسقف لندن عام ١٣٦٤م . جعل أسقف لندن زائر . ومن جهة أخرى فقد منحت القوانين البابوية الجديدة الكلية امتيازاً فريداً بعدئذ بحقها فى انتخاب زائرها.[٣]

وفى نفس الوقت أسس وولتر مرتون Walter Merton أسقف روشيستر Rochester مؤسسة تعليمية أى كلية ، من خلال تخصيص ريع ضياعه الإقطاعية فى مالدن Malden لإعالة أحد عشر دارساً من الحاصلين على درجة الليسانس فى الآداب للحصول على درجة الماجستير ، بدخل سنوى يقدر بأربعين شلن لكل منهم . وانطلاقاً من تقديره التام للنهضة الفكرية فى عصره وعدم استعداده لرؤية سيطرة المؤسسات الدينية على مؤسسته حيث المبشرين المتحمسين لخدمة الهيمنة والسيادة البابوية ، أنشأ مؤسسته بهدف تعليم رجال

---

[١] فى ضوء قوانين عام ١٢٩٢م ، ونظراً لقلة عدد الدارسين بكلية أودار الجامعة ، تم اتخاذ إجراء يتم بمقتضاه قبول دارسين آخرين من ذوى الأخلاق الطيبة للإقامة والسكن ولكن على نفقتهم الخاصة وعرف هؤلاء باسم العامة Commoners . أى الدارسين غير الأعضاء الأساسيين فى المؤسسة . وتم إنشاء مكتبة واستعارة الكتب وفقاً لشروط صارمة . وكانت اللغة اللاتينية هى لغة الحديث اليومى والعيش كدارسين وفقاً لأسلوب القديسين . وعدم الشجار أو استخدام الألفاظ البذيئة . وفرض نظام تدريجى للعقاب بمعنى أن من يهين زميله سراً تفرض عليه غرامة شلن ، وإذا كانت الإهانة أمام الزملاء تكون شلنين . وإذا حدثت الإهانة فى الشارع أو فى الكنيسة أو فى مكان للترفيه تكون الغرامة ستة شلن وثمانية دينار . وبمقتضى القوانين التكميلية الصادرة عام ١٣١١م سمح للدارسين بملأ الأماكن الشاغرة فى مؤسستهم . وللزملاء Fellows أى المعلمين الأربعة حق التصويت بصدد انتخاب الزملاء الآخرين فى المستقبل . بيد أن المستشار ومعلمى اللاهوت ومراقبى الجامعة لهم حق رفض الأشخاص المنتخبين . لمزيد من التفاصيل بصدد هذه القوانين انظر :
Munimenta Academica, vol. II, pp. 56-61; Lyte, op. cit., pp. 82-84; Brodricke, op. cit., p. 17; Mallet, op. cit., pp. 87-89.

[٢] Rashdall, op. cit., p. 181; Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., p. 71; Mallet, op. cit., pp. 97-98.

[٣] Rashdall, op. cit., p. 182; Mallet, op. cit., pp. 102,104.

الديـــن العلمانيين ، لإعداد مجموعة من الرجال القادرين على إسداء عمل جيد للكنيسة والدولة علـــى الســـواء . وتجسيداً لذلك أصدر تشريعاً يحث دارسيه جميعاً على دراسة الفنون الحرة والفلسفة قبل الإقدام على دراسة اللاهوت[1] .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن الدارسين فيكلية مرتون كانوا خاضعين لإشراف مراقب Warden ، الـــذى كان اختياره يقع على عاتق أقدم سبع دارسين ، ومن الممكن اختياره من بيـــنهم إذا أرادوا ذلـــك . بيد أنه كان يتم إبعاده حسب إرادة أسقف وينشيستر . ومن المقرر زيـــادة عدد الدارسين تبعاً لزيادة الإيراد . وكانوا ملزمين باجتياز المقرر العادى فى الآداب ، والانـــتقال بعده لدراسة اللاهوت . وللمراقب حق منح الترخيص لأربعة أو خمسة من الطلبة الممتازيـــن من المقيمين بالمؤسسة لدراسة القانون الكنسى أو المدنى . ويبدو أن الطلبة الأكبر ســـناً كانوا يعملون كمعلمين للأصغر سناً والذين كانوا تحت رعاية معلم النحو المقيم . وعند مخاطـــبة بعضـــهم بعضاً يستخدمون تعبير زميل Fellow . بيد أن هذه الكلمة لم تكن تعنى المعـــنى الحـــرفى الذى تدل عليه الآن . وإنما استخدمت بواسطة روبرت مرتون تعبيراً عن روح المســـاواة والصـــداقة التى يجب أن تسود بين متلقى هباته . وكان انجاز العمل الإدارى مـــنوطاً بعدد كبير من الدارسين المقيمين بالمؤسسة أمكن توظيفهم لإدارة شئون الكلية . يعمل ثلاثـــة مـــنهم أمناء للخزانة ، وخمسة آخرون لمراجعة الحسابات . والأكبر سناً فى كل قاعة dormitory يسمى عميد Dean . ويكون مسئولاً عن حسن سلوك وعمل الساكنين الآخرين. وفى عام ١٢٧٦م أصبح الزائر رئيس أساقفة كانتربرى[2] .

وكـــان يتم قبول الأولاد الفقراء من أقارب المؤسس بشرط ألا يزيد العدد على ثلاثة عشر ، وبرر مرتون الإحسان الذى أسبغه على أقاربه بأنهم كانوا سيحصلون على ممتلكاتهم بالقانون لأنه حرمهم من الميراث بمنح ممتلكاته لمؤسسة تعليمية[3] .

ومن الجدير بالذكر أن الدارسين الأوائل فى كليات الجامعة ، باليول ، ومرتون كانوا يعيشـــون فـــى غرف منعزلة وحجرات عارية مكشوفة مكونة من طوابق من الطين . وكانوا يعانون دائماً من البرد . وحتى عهد أسرة تيودور (١٤٨٥-١٦٣٥م) لم تكن الطوابق الخشبية والحوائـــط المكســـوة بالخشب ، والأسقف المغطاة بالجص قد بدأت بعد . وحتى عهد الملكة اليزابيث الأولى لم تكن التدفئة أو مفروشات الأسرة وفيرة . وبدأ بعدئذ تشييد أعداد هائلة من المداخن. وأصبحت الوسائد والمخدات شائعة الاستعمال[4] .

١ Lyte, op. cit., pp. 72, 73; Brodrick, pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 113-116.

٢ Lyte, op. cit., pp. 73-80; Brodrick, op. cit., pp. 18-20; Rashdall, op. cit., p. 196.

٣ Lyte, op. cit., p. 80.

٤ Mallet, op. cit., p. 87.

لا مــراء أن تأسيس ما اصطلح المؤرخون القدامى والمحدثون على تسميته بالكليات فــى ضوء هذه الكليات الثلاث الباكرة يمثل حدثاً مهماً فى التاريخ الأكاديمى لجامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر.[١]

وبانــتهاء الحرب البارونية وتأسيس هذه الكليات الباكرة بدأت فترة جديدة فى تاريخ ازدهــار الجامعة واحتلت أكسفورد مكانتها بجانب باريس بين أشهر مراكز التعليم في الغرب الأوروبــى وأصبح رجال التعليم فى أكسفورد زعماء للفكر الأوروبى . ويذكر فى هذا الصدد أن دانتى Dante استمع إلى المحاضرات في أكسفورد وتجول فى شوارعها[٢] . وتتأكد مكانة أكســفورد بحلــول القرن الرابع عشر ، وتزداد توهجاً فى أعين أوروبا نتيجة لتدهور جامعة بــاريس ، واحــتجاج رجال التعليم فى أكسفورد بشدة على الاستبداد الروحى للبابوية ، التى أنحــط شــأنها وباتت أسيرة لنفوذ وتأثير الملكية الفرنسية فى أفينون Avignon زهاء ستين عاماً . وسرعان ما تبع عودة البابا إلى روما الانشقاق الكبير The great Schism (١٣٧٨-١٤١٧م) . وتناثر أشلاء الكرسى الرسولى بين عدد من البابوات فى روما ، أفنيون ، وبيزا فى آن واحد ، وفى الوقت الذى أجهدت فيه انجلترا طاقاتها فى حملات عسكرية مضنية ضد التاجيــن الفرنسى والاسكتلندى . ورغم كل الأحداث السياسية التى مزقت القارة الأوروبية فى القــرن الــرابع عشر . فقد شهد هذا القرن ازدهارا كبيرا فى مجال الآداب والفنون والتعليم . ولم تكن جامعة أكسفورد بمنأى عن هذه الصحوة الفكرية ومواصلة مسيرة تطورها[٣] .

---

[١] شــهدت جامعــة أكسفورد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مولد عدد كبير من الكليات مثل كلية اكستر Exter College عام ١٣١٤م ومؤسسها وولتر ستابلدون Walter Stapledon أسقف إكستر . وكلية أوريل Oriel عام ١٣٢٤م . وكلــية الملكــة Queen College عام ١٣٤١م على يد روبرت أجلسفيلد Robert Egglesfied قس للملكة فيليبا Philippa زوجة الملك إدوارد الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧م) . وكلية كانتربرى وأسسها سيمون سلاب Simon Islap رئيس أساقفة كانتربرى عام ١٣٦١م . والكلية الجديدة New College على يد وليام ويكهام William of Wykeham أسقف ونشيســتر عــام ١٣٧٩م . والذى حصل علي ترخيص من الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) بتأسيس كلية تتسع لســبعين دارســاً فى التخصصات المختلفة من الطلاب للفقراء والمعوزين ، الحاصلين على تعليم كاف فى النحو . وأن يكونوا دون العشرين من العمر . وأن يدرس عشرة منهم القانون المدنى ، وعشرة آخرون القانون الكنسى . أما الخمسون الــباقون فقد تقرر أن يتجهوا لدراسة الفنون الحرة أو الفلسفة أو اللاهوت . وإذا كان وولتر مرتون هو المؤسس الحقيقة لــنظام الكلــيات الإنجليزية . يعتبر وليم ويكهام المؤسس الثانى . ثم تأسست كلية لنكولن عام ١٤٢٩م بواسطة ريتشارد فلــمج كان أحد أتباع ويكلف Wyclifite ، للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقة التى نجا من الوقوع فى براثنها على حد تعبيره . ووجدت كليات أخرى علاوة على عدد لا حصر له من الكليات الديرية . واعتقد أن الحديث تفصيلاً عن هذه الكليات أمر لا يتسع صفحات البحث للوفاء به ويحتاج إلى دراسة مستقلة . ولمزيد من التفاصيل انظر :
Brodrick, op. cit., pp. 31, 31; Rashdall, op. cit., pp. 185-222.

[٢] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., p. 138.

[٣] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., pp. 28-33.

ففى عام ١٣٢٢م طالبت الجامعة ليس فقط بحق انتخاب المستشار وإنما عزله أيضاً. ووافق أسقف لنكولن على التخلى عن حقه فى تعيين المستشار بدون تردد[1] . بيد أنه عندما تجدد النزاع ثانية عام ١٣٥٠م بين لنكولن، الذى أعاد مرة أخرى إثارة مسألة أحقيته فى تعيين المستشار ، لجأت الجامعة ، التى تحصنت بما تم الاتفاق عليه سابقاً، إلى رئيس الأساقفة ، الذى حث أسقفه على إقرار تعيين المستشار فى غضون ستة أيام فقط من انتخابه ، ليس ذلك فقط فقد بادر رئيس الأساقفة بإقرار تعيين المستشار دون مراعاة لأسقف لنكولن الذى أصر بدوره على أحقيته فى الانفراد بذلك وتأكيد مكانته الكنسية . وبث الأسقف الغاضب شكواه ضد رئيسه للبابا فى روما ، والذى انحاز بدوره للجامعة ، وبارك مسلك رئيس الأساقفة . وفى عام ١٣٦٧ ذهب البابا أربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) إلى أبعد من ذلك بإلغاء إقرار التعيين كلية من جانب أسقف لنكولن ، وأن الانتخاب الشرعى للمستشار من خلال أساتذة الجامعة الممارسين Regent Masters يعد كافياً ، لتتحرر الجامعة نهائياً من ربقة السيطرة الأسقفية[2] . ولم يكن متوقعاً لرئيس شمامسة أكسفورد والذى يمثل أعلى سلطة كنسية مقيمة بالمدينة ، أن يكون أسعد حظاً من الأسقف فى الحد من تزايد سلطة المستشار ليحظى المستشار فى النهاية بصلاحية رئيس الشمامسة Archidiaconal على دارسيه .

---

[1] يرجع المؤرخين رشدال وماليت بداية النزاع بين أسقف لنكولن والجامعة إلى أيام الأسقف أوليفر ستون Oliver Sutton ، الذى أصبح منذ لحظة ارتقاءه المنصب الأسقفى متورطاً فى نزاع مع الجامعة . وفى مواجهة هذا الأسقف انعقد مجلس الجامعة Congregation عام ١٢٨٠م . وتم القسم على مراعاة الحقوق الأربعة التالية باعتبارها أساساً لسلطة وتقاليد الجامعة من البداية وهى ١- استدعاء الدارسين المتهمين فى قضايا مع أبناء المدينة أمام المستشار . ٢- إثبات صحة وصايا الدارسين أمر من اختصاص المستشار . ٣- حق الاستجواب والتحقيق فى القضايا المتعلقة بالجنوح الأخلاقى للدارسين والعقود التى يبرمها المعلمين من اختصاص الجامعة . ٤- عدم الالتماس من جانب المدرسين فى أى محكمة سوى محكمة المستشار . علاوة على ذلك أظهر المستشار والمراقبون إصراراً بأن سلطة الأسقف تنحصر فقط فى الاستئناف فى القضايا الأخلاقية التى باء اللجوء فيها للمستشار أو مجلس الجامعة بالفشل . وأصر الأسقف العنيد بدوره على ضرورة حضور المستشار شخصياً أمامه لإقرار أو اعتماد تعينه . واعترض على مطلب الجامعة بحق انتخاب مستشارها . مما أدى إلى نزاع حاد وتوقف فى المحاضرات فى أكسفورد . واضطر رئيس الجامعة – المستشار – لتحذيره بأن الجامعة لن ترضخ لهذا القيد غير المألوف" . وبناءً على تدخل الملك والبرلمان اضطر الأسقف للإذعان . بيد أنه فى أوائل القرن الرابع عشر احتج الأسقف الجديد Dalderly على ما أسماه مؤامرات الجامعة وتجاوزاتها . وأثار الصعوبات بصدد تعيين المستشار وذكر الأساتذة بأن عليهم ترشيح المستشار فقط ، وأن التعيين من سلطة الأسقف وحده ، وهدد بالحرمان الكنسى ضد كل من يصدر قوانين تلحق ضرراً بمركزه أو أسقفيته . بيد أن الجامعة لم تيأس حتى تجدد النزاع عام ١٣٢٢م . حيث وافق الأسقف كما أشرنا فى المتن على التخلى عن التعيين بدون تردد . بناءً على صيغة عرضية لكرامة الطرفين . وظلت مقبولة لمدة خمسين عاماً فقط . حيث تغاضى أسقف لنكولن عن الحضور الشخصى للمستشار ، وأنه قام بإقرار واعتماد تعيينه بدافع من كرمه فقط . لمزيد من التفاصيل انظر :
Mallet, op. cit., pp. 166, 167; Rashdall, op. cit., pp. 118-120.

[2] فى الوقت الذى استمرت فيه الصيغة التوفيقية التى أسفر عنها نزاع ١٣٢٢م بصدد إقرار تعيين المستشار – كما سبق ذكره – مقبولة لمدة خمسين عاماً من الطرفين . بيد أن هذه الفترة لم تمر دون نزاع من حين لآخر ففى عام ١٣٦٧م فوض الأسقف أقدم أساتذة اللاهوت Senior Professor لتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى على هؤلاء الذين بالتآمر يطالبون بانتخاب المستشار انظر : Munimenta Academica, pp. 168-172;
Mallet, op. cit., p. 167; Rashdall, op. cit., pp. 120-123, Brodrick, op. cit., p. 42.

ومـــن ناحية أخرى لم يتوان رئيس الأساقفة من البداية على التشجيع على استقلال الجامعة . وبالـــتالى لـــم يكن من السهل على الجامعة منازعة رئيس الأساقفة فى سلطته ، وآرائه بصدد العقيدة تحظى دوماً بالطاعة . وكانت زياراته الرسمية للجامعة باعتباره زائراً Visitor بمثابة أحـــداث أكاديمـــية هامة . بيد أنه فى نهاية القرن الرابع عشر أذعن رئيس الأساقفة كورتناى Courtenay لمرســـوم البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩-١٤٠٤م) الذى أعفى بمقتضاه الجامعة مـــن ســـلطة رئـــيس الأساقفة والأساقفة جميعاً . ولكن خليفته أرندل Arundel حصل على مســـاعدة الملـــك والبرلمان بتنحية هذا المرسوم جانباً ، وأقنع الباباجريجورى الثالث عشر (١٤٠٦-١٤١٥م) بإلغائه عام ١٤١١م.[١]

ونســـتطيع أن نقول فى ضوء ما سبق أن التباين بين السلطة التى يمارسها مستشار مـــدارس أكسفورد باعتباره نائباً لأسقف لنكولن ، والسلطة التى آلت إليه كرئيس لجماعة لها أساتذة سرعان ما تلاشت . ذلك أن اعتماده على الجامعة جعله من الناحية العملية مستقلاً أكثر فأكـــثر عن الأسقف الذى كان يستمد منه سلطته لاسيما وقد أثبت التاج دوماً أنه صديقاً حميماً للمستشار ، بل ساعده على توسيع نطاق حقوقه وحريته[٢] .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن الأساتذة الممارسين الذين ينتخبون المستشار إنما يختارون عالمـــاً فـــى القانون الكنسى أو اللاهوت . ولهؤلاء الأساتذة ليس فقط حق الاختيار بل رفض المرشـــح لمنصـــب المستشار . وفى أثناء أجازته يعمل العضو، أى الأستاذ الأكبر سناً ، فى تخصص اللاهوت كنائب له . وفى حالة غياب المستشار عن أكسفورد من الممكن تعيين نائبه للقـــيام بمهامه ، بيد أن غيابه كان يمنع باستمرار بسبب الأضرار الكثيرة الناجمة عن ذلك لا ســـيما مـــن جانـــب أسقف لنكولن . لذا ووفقاً لما تمدنا به حولية معاصرة، قد يفقد المستشار منصـــبه إذا غـــاب عـــن أكسفورد شهراً[٣] . وإذا ثبت عجزه عن تحقيق العدالة يحق لمجلس الجامعـــة اســـتدعائه لـــتقويم أساليبه أو الرحيل . وبدءاً من عام ١٣٢٢ كان يتم انتخابه لمدة عاميـــن ، ومـــن الممكـــن إعادة انتخابه لفترة ثانية . ولم تصبح وظيفته دائمة إلا فى القرن الخامس عشر[٤] .

وعلـــى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت "بدا هذا المسئول المنتخب أى المستشار الـــذى يديـــن للأســـاتذة باستقلاله، وكأنه حاكماً حقيقياً أثناء فترة رئاسته للجامعة ، فقد كانت ســـلطاته واسعة وهيبته ليست موضوع شك ، مشاركاً فى حكم وإدارة المدينة ، فهو المسئول الوحيد عن توزيع الخبز ، النبيذ ، البيرة ، وفحص الموازين والمكاييل ، والتأكد من عدم بيع الطعام الفاسد ، وإدارة الشوارع ، وطرد كل الدارسين المثيرين للفوضى ومصادرة أسلحتهم .

---

١ Mallet, op. cit., pp. 167, 168.

٢ Mallet, op. cit., p. 169.

٣ Munimenta Academica, vol. II, p. 127; Mallet, op. cit., p. 170.

٤ Mallet, op. cit., p. 170.

وصــار لزاماً على التجار الالتزام بقوانينه ، ويسعى الحرفيون للحصول على موافقته لتنظيم نقاباتهم ، وخضوع المتسيبون ذكوراً وإناثاً لعقابه . وكان العمدة ونواب المدينة ملزمين بتقديم العــون له فــى القــبض علــى المخالفين . والتزام حاكم المقاطعة بإيداعهم السجن بناءً على طلــبه"[1]. وتــتوج سلطة المستشار بالعهد الذى منحه الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) يمــنع بمقتضاه الملك ونوابه من النظر فى قضايا من اختصاص محكمة المستشار. وفى عام ١٤٠٦ مــنح الملــك هنرى الرابع (١٣٩٩-١٤١٣م) الجامعة امتيازاً يعطى للمستشار تعيين مسئول جديد باسم Seneschalor Steward ، له حق محاكمة أعضاء الجامعة وأبناء المدينة مــن زوى الامتــيازات الخاصة ، والاتباع الذين لم يتمتعوا بحصانة الدارسين مثل الكتاب ، الحلاقيــن ، الطهــاه ، الغســالين ، والحمالين .. الخ فى الجرائم الجنائية المتهم فيها هؤلاء ، والحكــم وفقــاً للقــانون العلمــانى . وتــم إقرار هذا الامتياز الذى لا يضاهى ، علاوة على الصــلاحية القديمــة لمحكمــة المستشار بمقتضى قانون برلمانى خاص . وأصبح المستشار الرئــيس المعترف به للمجلس الكبير Magna Congregatio or great Congregation ، أى مجلس الجامعة[2] .

علاوة على المستشار وفى ضوء الحديث عن الهيكل التنظيمى لجامعة أكسفورد كان يوجــد أثنيــن مــن المراقبين المنتخبين Proctors بواسطة قسم الآداب Faculty of Arts أحدهمــا يمثل المعلمين من أبناء الشمال ، والآخر من المعلمين من أبناء الجنوب كما سبق أن ذكــرنا فى بداية هذه الدراسة . وكانا بمثابة الرسميين للجامعة ككل ، وأقدم مسئولين تنفيذيين فى الجامعة . ومن مهامهما مساعدة المستشار فى أداء وظيفته ، وتنفيذ القوانين ، والإشراف علــى الانتخابات ، وتنظيم العمل الأكاديمى ، والمشاركة فى احتفالات التخرج ، وإعداد قوائم بأســماء المخالفين ، والتأكد من تنفيذ العقوبات والغرامانات ، والإشراف على إنفاق وحسابات الجامعــة ، وتحصيل رسوم الدرجات العلمية . ويستطيعان إذا اتحدا استخدام الفيتو Veto أى الاعــتراض فــى مجال التشريع ، والدعوة إذا لزم الأمر لانعقاد مجلس الجامعة للتحقيق فى

---

[1] Ibid, pp. 170, 171; Brodrick, op. cit., p. 47.

[2] من الجدير بالذكر فى ضوء كثرة القضايا المعروضة للبت أمام المستشار لم يكن ثمة مراعاة تامة لتحقيق العدالة والنظام علــى وجه الدقة . وكان المتهمون فى الجرائم الكبرى يستفيدون من أخطائه . ونظراً لإصرار الأساتذة الممارسين على التقاضــى أمام المستشار أو من يفوضه بحيث أصبحت أعباء التقاضى تثقل كاهل المستشار أو نائبه . كان يتم الاستعانة بالدارسين الحاصلين على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى أو المدنى لمساعدة الدكاترة على اجتياز تلك المحاكمات. وكــان الاســتئناف يرفع للمستشار أولاً أو نائبه ثم إلى مجلس الأساتذة الممارسين وغير الممارسين . وكان حق الدفاع مكفولاً للدارسين . بيد أنهم كانوا على حذر من المحامين الذين يوكلونهم . لذا نص التشريع الجامعى على ضرورة البت سريعاً فى القضايا ، وكبح عدد المحامين الزائد عن الحد . لأنهم يشجعون على رفع القضايا بل وإخفاء الحقيقة من أجل الكسب المادى . لمزيد من التفاصيل انظر :

Munimentica Academica, pp. 231, 232; Mallet, op. cit., p. 174; Rashdall, op. cit., p. 103.

سلوك المستشار ، بل وإبعاده من منصبه أى أنها باعتبارهما ممثلين للأساتذة يمتلكان سلطة كبيرة فى عقاب والإطاحة برئيس الجامعة المبجل.[1]

وبعد المستشار والمراقبين يأتى ما اصطلح على تسميتهم Bedels أى المحضرين[2]. وعددهم ستة ، اثنان منهم ينتمون لقسم أو مدرسة اللاهوت ، واثنان عن مدرسة القانون ، واثنان عن مدرستى الطب والآداب . وهؤلاء بمثابة موظفين منتخبين من قبل الجامعة لتنفيذ أوامرها . ويظهرون فى كل الاحتفالات الرسمية بما فى ذلك الجنازات . والذهاب إلى المدارس لتسليم قرارات الجامعة ، وإحصاء الأصوات أثناء التصويت على القرارات فى مجلس الجامعة ، وتحصيل الغرامات واصطحاب المخالفين إلى السجن . وهؤلاء المحضرين تحدد أجورهم وفقاً للقانون . وثلاثة منهم من أصل عريق وأعلى مكانة من الثلاثة الآخرين ، لذا صار لزاماً عليهم إمداد زملائهم الأدنى بالطعام وعشرة شلنات سنوياً لشراء الأحذية . ونظراً لأهميتهم ليس غريباً أن تتدخل شخصيات مرموقة فى الترشيح لتلك الوظائف[3] .

وكانت إدارة الجامعة بأيدى الأساتذة سواء الأساتذة الممارسين The Masters Regents ، والأساتذة غير الممارسين أى المتفرغين Non Regents Masters أى الذين توقفوا عن التدريس . ولهؤلاء سلطة غير متاحة لأمثالهم فى أى مكان آخر عدا أكسفورد حيث يشاركون فى صياغة وإعداد القوانين ، وفى شئون الجامعة الهامة الأخرى . وكان مجلس قسم أو مدرسة الآداب يعرف أحياناً باسم The Black Congregation أى مجلس زوى البزة السوداء ويقصد بذلك لون الرداء الأكاديمى . وتتم دعوته للانعقاد بواسطة المراقبين للاجتماع على حده فى كنيسة القديسة ملدريد St.Mildred . ومنذ البداية رسخ هذا المجلس حقه بأن يستشار أولاً ، بمعنى أن كل قانون مقترح إصداره ، وحتى المقترحات الخاصة بتغيير القوانين ومنح الاستثناءات Graces يجب أن تعرض أولاً أمام هذا المجلس قبل اعتمادها من الجامعة ، علاوة على حق هذا المجلس بالاجماع رفض صدور أى قانون غير مرغوب فيه ، وأن القانون الذى لا يوافقون عليه لا ينفذ ، واعتراف الأقسام الرئيسية الأخرى اللاهوت ، القانون ، الطب ، بحق هذا المجلس فى التشاور والمستقل وليس عرقلة صدور قانون آخر . ومن المشكوك فيه على الأقل فى الأيام الباكرة من تاريخ جامعة أكسفورد أن يحظى أى قانون تم رفضه من جانب المعلمين الممارسين فى الآداب فى هذا

---

[1] Mallet, op. cit., p. 175; Rashdall, op. cit., p. 53.

[2] نظراً لأن هذا البحث موجه إلى القارئ العربى وجدت من الأفضل استخدام تعبير المحضرين كما سبق واستخدمت مصطلح الأروقة بدلاً من تعبير الأمم Nations المذكور فى المراجع الغربية الحديثة . الباحثة .

[3] فى ١٥٠١م من عهد الملك هنرى السابع تيودور (١٤٨٥-١٥٠٩م) تسبب انتخاب أحد المحضرين Bedels فى أكسفورد فى حدوث انقسام حاد فى الدوائر الملكية . ففى حين أيد أمير ويلز وأسقف لنكولن أحد المرشحين ، كانت جدة الأمير الليدى مرجريت تفضل مرشحاً آخر ، والملك والملكة يشجعان مرشحاً ثالثاً . وفاز مرشح لليدى مرجريت . انظر تفاصيل ذلك فى :
Munimenta Academica, p. 321-333; Rashdall, op. cit., p. 126; Mallet, op. cit., p. 176.

المجلس بموافقة الجامعة . بيد أنه بمرور الوقت تلاشت سلطة هذا المجلس وتوقفت اجتماعاتهم المستقلة[1] .

علاوة على هذا المجلس يوجد مجلس الأساتذة الممارسين لكل الكليات The Congregation of Regent Masters ، ويعرف باسم المجلس المصغر Parva Congregatio or Lesser Congregation ؛ وفيه يتم تناول كل ما يتعلق بعمل الجامعة مثل التمويل ، والإدارة ، المحاضرات ، الدراسة ، الدرجات العلمية ، ويعقد فى جناح المرنمين بكنيسة القديسة مارى . يأتى بعد ذلك المجلس الكبير Magna Congregatio or Great Congregation الذى يضم الأساتذة الممارسين وغير الممارسين ، والذى يعتبر بمثابة البرلمان الحقيقى للجامعة . وعلى حد تعبير المؤرخ رشدال الهيئة العليا المهيمنة على الجامعة القادرة على سن قانون دائم.[2]

وعن كيفية العمل التشريعى فى الجامعة كان يتم صياغة القانون فى مجلس قسم الآداب أولاً . وفى البداية كان من الضرورى لإصدار أى قانون موافقة الأساتذة الممارسين وغير الممارسين فى الأقسام أو التخصصات Faculties الأربعة، الآداب ، اللاهوت ، القانون، الطب . بيد أنه فى القرن الرابع عشر أدخل مبدأ التصويت بالأغلبية ، وبعد ذلك غدا لكل كلية حق إصدار القوانين الخاصة بها . وإن كانت تفاصيل النظام والإدارة والتعليم بصفة عامة تتم من خلال المجلس الكبير أى مجلس الجامعة ، وتسرى على جميع الأقسام ، والتى لم يكن لها عمداء آنذاك.[3]

وفيما يتعلق بتفاصيل النظام التعليمى ، بداية لم يتضح لنا أن الطالب المستجد كان يخضع لأى امتحان للقبول[4] . ونظراً لعدم وجود نظام Matricula or Matriculation فى البداية ، أى الكشوف التى يدون فيها أسماء الدارسين المستجدين ، كان يطلب من كل طالب أن يسجل اسمه لدى أحد الأساتذة الممارسين ، واختيار الأستاذ الذى يجب أن يستمع إلى محاضراته ، والإصغاء لتحذير الطلبة القدامى بعدم التسرع فى اختياره ، ويعتبر ذلك أقدم

---

١ Rashdall, op. cit., p. 61; Brodrick, op. cit., p. 66; Mallet, op. cit., pp. 176, 178.

٢ Mallet, op. cit., p. 177; Rashdall, op. cit., p. 36.

٣ Rashdall, op. cit., p. 65; Mallet, op. cit., p. 179.

٤ Brodrick, op. cit., p. 21.

وأقــرب صـــيغة بديلة لنظام القبول[1] . ومن جهة أخرى لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ، فقد يكون فى أى سن ، وقد يكون غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره.[2]

وكـــان الأساتذة يجلسون على مقاعد مرتفعة قليلاً عن الدارسين الذين يجلسون على وســـائد من القش على الأرض ، "بهدف نزع كل مشاعر الخيلاء والغرور من نفوسهم" على حد تعبير المؤرخ ماليت . بيد أن ذلك من وجهة نظر الباحث يرجع إلى فقر موارد وإمكانيات الجامعـــة فى البداية . وكانت الكتب موجودة فى شكل مخطوطات باهظة الثمن ، مكدسة فى حجـــرات شديدة البرودة فى الأديرة . وكان التدريس يتم بطريقة شفوية Viva voce ، حيث المدرســـون يقرأون والطلبة يستمعون ، قد يفهمون أو لا يفهمون . لذا كانت الفرصة الوحيدة لاكتســـاب المعرفة تعتمد على قوة الذاكرة ، والتعلق بشفاه المدرس – على حد تعبير المؤرخ بودريـــك Brodrick – الـــذى يحاضـــر لجمـــوع متباينة من الدارسين من مختلف الأعمار والقـــدرات . وكان التدريس باللغة اللاتينية ، التى يعد اتقانها أمراً ضرورياً ، باعتبارها اللغة المشتركة المتداولة بين المتعلمين آنذاك . ونستطيع التعرف على طريقة التدريس فى أكسفورد فـــى القـــرن الخامس عشر من قانون صدر عام ١٤٣١م ، يفرض على الأساتذة قراءة النص أولاً ، ثم شرحه بعدئذ ، ثم تناول الفقرات التى تحتاج إلى تعليق خاص ، بيد أن الخروج على الـــنص كـــان ممـــنوعاً . وكان التحليل والتقسيم الفرعى للنصوص ، ومعرفة وجهات النظر المؤيـــدة والمعارضة ، وطرح الاسئلة ، واقتراح الإجابات من الأساليب التى تروق للأساتذة والدارسين على السواء حتى أمست غريزة النقاش تسرى فى دمائهم[3] .

لامـــراء أن التعلـــيم الجـــامعى فى أكسفورد في العصور الوسطى كان يتطلب وقتاً طويلاً وشاقاً للباحثين عن شرف نيل درجة علمية ، حيث يقضى الطالب فى تخصص الآداب أربـــع سنوات فى سماع المحاضرات التى تبدأ عادة فى الساعة الثامنة صباحاً؛ العامين الأول والـــثانى لدراســـة البلاغة والنحو والمنطق والفلسفة ويصبح بعدهما طالب الآداب سوفسطائياً عامـــاً Sophista generalis ، والعامين الثالث والرابع فى دراسة المنطق ، وفلسفة الأخلاق لأرســـطو ، والهندسة ، علاوة على محاضرتين مسائيتين فى اللغة اليونانية[4] . وبانتهاء العام

---

[1] فـــى البداية كان نظام Matricula أى الكشوف التى يدرج فيها أسماء الدارسين ، قاصراً على الجامعات التى قامت على أساس على رابطة الطلبة مثل بولونيا . بيد أن جامعة أكسفورد قامت على أساس رابطة الأساتذة . وعلى غرارها جامعة باريس كان للأساتذة قوائم أو كشوف خاصة بهم ، يتعرف من خلالها الطالب على الأساتذة ، وبالتالى اختيار الأستاذ الذى سوف يدرس على يديه . انظر تفاصيل ذلك فى :

Mallet, op. cit., p. 180.

[2] ول ديورانت ، قصة الحضارة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥، جـ٦ ، ص ٤٩ .

[3] Mallet, op. cit., pp. 184; 186; Brodrick, op. cit., p. 22.

[4] للوقوف على التفاصيل الدقيقة بصدد المناهج الدراسية ومواعيد وأيام المحاضرات للدارسين فى الآداب انظر الدراسة القيمة الموجزة التى قام بها :

الـرابع يصـبح الطالـب مهيـئاً لاجتياز مناقشات فى النحو والمنطق مع أحد الاساتذة يسأل ويجيـب. وبنجاحه فى ذلك يكون مؤهلاً لمواجهة لجنة من أربعة أساتذة يتم اختيارهم سنوياً، لكـى يقـنعهم أنـه مـن كل الوجوه ، التعليم ، السلوك ، حتى الهيئة شخصاً ملائماً للتخرج Determination or Determination . ثـم يتوج ذلك باحتفال يضم الأصدقاء حيث تقدم الهدايـا النفيسة ، الأمر الذى يجعل من التخرج حدثاً لا ينسى فى حياة الطالب ، والذى ينتقل بذلـك إلى مصاف الخريجين ، وحصوله على درجة البكالوريوس فى الآداب Bachelor of Arts . وبـناء علـى تصـريح Licens من المستشار يبدأ فى إلقاء المحاضرات العارضة Cursory أى غـير الأساسية ، بجانب حضور المحاضرات لنفسه . وعند هذه الدرجة إن لم يكـن قـبلها كـان يتوقف الكثيرون من الدارسين فى أكسفورد[1] . وبعد ذلك كان يتعين على الطالـب أن يدرس ثلاث سنوات أخرى للحصول على درجة الماجستير، حيث كان يتلقى في العام الأول تكون المحاضرات صباحاً فى الميتافيزيقا والهندسة ، وفى المساء التاريخ واللغتين اليونانـية والعـبرية؛ والعامين الثانى والثالث فى دراسة الفلك والميتافيزيقا والفلسفة الطبيعية لأرسطو ، وأيضاً التاريخ واللغتين العبرية واليونانية، بهدف تمكين الخريج من دراسة الفنون الحرة السبعة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية ، وتأهيله لتدريسها، علاوة على الفلسفة بفروعها الثلاثة واللغات والتاريخ[2] . وبعدئذ يصبح الطالب جاهزاً للاستقبال فى صحبة الأساتذة . وفى احتفال رصين يتم دعوة تسعة من الاساتذة الممارسين بالاضافة إلى أستاذه الذى يقوم بتقديمه، لكـى يـتحدثوا من واقع معرفتهم الشخصية عن أخلاقياته وانجازاته ، فى حين يؤكد خمسة

---

[1] Holland, T. "The Ancient Organisation ofUniversity of Oxford" Macmillan's Magazine, vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210; Mallet, op. cit., p. 186; Brodrick, op. cit., pp. 62, 63; Rashdall, op. cit., p. 143.
Holland, op. cit., p. 207; Mallet, op. cit., p. 188.

[2] يذكـر المـؤرخ الانجلـيزى المعاصـر بروديـك Brodrick أن تاريخ إدخال منهج جامعى ، أو مجموعة من الكتب والموضـوعات – المقرر الدراسى – لكى يدرسها الطلبة للحصول على درجات فى التخصصات المختلفة ، يرجع إلى القوانين التى قدمها المبعوث البابوى للكاردينال روبرت دى كورسون Robert de Courcon لجامعة باريس ، فى بداية القرن الثالث عشر . بيد أن منهج جامعة أكسفورد كان يختلف قليلاً فى الفترة بين عصر رجال التعليم وعصر النهضة . وبمقتضى القانون الصادر عام ١٤٣١م كان المنهج الدراسى فى مدارس الآداب ، يتضمن علم النحو الذى احتل المرتبة الأولـى مـن خلال مؤلفات برسكيان Priscian ، ودوناتوس ، تدرس بهدف تلقين قواعد الإعراب أو علم العروض . وكانـت أشـعار فرجـيل Poetra Virgilii ، أوفيد Ovid ، ليفى Livy ، تاكيتوس Tacitus ، وغيرهم من الشعراء والمؤرخيـن الـرومان تدرس باعتبارها نماذج للأسلوب الأدبى . وكانت مصنفات The Categorise أرسطو وكتاب بورفـيرى Porphyry المعـروف باسـم Isagoge . وكتاب Topics لمؤلفه بؤثيوس هى الكتب الدراسية فى مدارس المـنطق ، كما كانت كتابات شيشرون Gicero ، وكونتليان Quntilian فى البلاغة . علاوة على مؤلفات كاسيدورس Cassiodorius ، أورسـيوس Orosius ، ومارتـيانوس كابيلا Murtianus Capella ، وايسيدورسيفيل Isidore Seville ، عـلاوة على مؤلفات أرسطو فى الفلسفة بفروعها الثلاثة الأخلاق ، الطبيعة ، الميتافيزيقا والتى تندرج تحت اسـم Nichomochen Ethics . وقـد احتل المنطق قمة الدراسات باعتباره أداة للجدل والإقناع بعد تكملته بالبلاغة ، لمزيد من التفاصيل أنظر :
Brodrick, op. cit., pp. 64, 65; Holland, op. cit., p. 207; Lyte, op. cit., p. 9; Mallet, op. cit., p.188.

آخرون صدق ما قاله هؤلاء الأساتذة . وفى نهاية مراسم الاحتفال يتقدم أمام المستشار ويقسم أمامه راكعاً على ركبتيه باسم الثالوث المقدس . ويصبح عضواً فى جماعة الأساتذة ، ويتسلم رمزاً لذلك الكتاب ، القلنسوة ، الخاتم ، وقبله المباركة من أستاذه[١] .

وتجـــدر الإشارة لحقيقة هامة مؤداها انفراد جامعتى أكسفورد وكمبريدج من بين كل جامعات أوروبا بعدم وجود ثمة شئ يشبه الامتحان بالمعنى الحديث . وكان النجاح فى اجتياز المناقشات بمثابة اختبار للكفاءة والجدارة وأيضاً المرادف الحقيقة للامتحان . ومن حق الأستاذ الممتحـــن إيقاف الطالب فى حالة الخروج عن الموضوع ، والجنوح لموضوعات أخرى ، أو استخدام حجج غير مقنعة[٢] .

ونتيجة لزيادة أعداد الخريجين الراغبين فى الإعفاء من التدريس[٣] ، فقد نص القانون الصـــادر عـــام ١٤٣١م بأن يقوم المراقبون فى نهاية كل فصل دراسى بحصر عدد الأساتذة الممارســين المستعدين للتدريس ، وتقسيمهم طبقاً للأقدمية إلى عشر مجموعات متساوية فى العـــدد قـــدر المستطاع ، على أن يقوم الأساتذة الأصغر سناً بتدريس علم النحو ، وتخصيص الموضـــوعات الرئيسية higest subjects للأساتذة القدامى، وعدم قيام أى شخص بتدريس أى كتب سوى تلك المنصوص عليها فى القانون، والتى سبق الإشارة إليها[٤] .

علـــى أية حال فإن الطالب الذى اجتاز المقرر الدراسى فى الآداب ، وأصبح استاذاً ممارســـاً يســـتطيع الانـــتقال لدراســـة التخصصات الأرفع والأسمى مثل الطب ، والقانون ، واللاهـــوت، حيـــث مجـــالات الفكر الأرحب ، وهكذا أمست الدراسة فى الآداب أولاً أساساً للدراسة فى التخصصات الأخرى[٥] .

وهـــناك فروع أخرى من العلوم تم تدريسها فى أكسفورد فى العصور الوسطى مثل الطب . بيد أن موقف الكنيسة والأفكار المرتبطة بالفلسفة التعليمية Scholasticism ، حالت دون تطـــور علـــم الطـــب فى الاتجاه الصحيح ، حيث المناقشات الشفهية أهم من الملاحظة والبحـــث ، والطبيـــب بدون تنجيم أى بدون علم الفلك مثل العين التى لا ترى . حتى روجر بـــيكون اعـــتقد أن أهـــم الأدوية المركبة جزئياً من اللؤلؤ والأحجار يجب أن تتعرض لتأثير

---

[١] Holland, op. cit., p. 208; Mallet, op. cit., p. 189.

[٢] من الجدير بالذكر أن الطالب الذى لم يتقدم إلى مرحلة أبعد من درجة البكالوريوس كان يسمى السيد Dominus ، انظر حاشية رقم (٥) فى :

Mallet, op. cit., p. 188; Munimenta Academica, p. 246.

[٣] تجدر الإشارة أن الأساتذة الممارسين كانوا ملزمين بالتدريس لمدة عامين بعد التخرج ، إلا إذا تم إعفائهم من هذا الالتزام ، وفـــى هذه الحالة ينظر إليهم باعتبارهم أساتذة غير ممارسين Non Regents Masters . بيد أنه يتم دعوتهم لحضور اجتماع مجلس الجامعة أى الاجتماع الكبير للمدارس انظر :

Brodrick, op. cit., p. 66.

[٤] Ibid, pp. 65, 66.

[٥] Holland, op. cit., p. 209, Mallet, op. cit., pp. 189, 190.

السنجوم لمدة ثمانية أيام . ومن جهة أخرى لم تقدر الجراحة حق قدرها، فقد نظر إليها أطباء باريس في القرن الرابع عشر ، ويرجح أطباء أكسفورد باعتبارها فناً يدوياً وصنيعاً . وفى الوقت الذى كان بوسع الجراحين في أكسفورد الحصول على ترخيص بمزاولة المهنة ، لم يكن باستطاعتهم الحصول حتى على أدنى درجة علمية . ولم يكن وضعهم فى أكسفورد يزيد عن وضع بائعى العقاقير والعطارين الذين يبيعون الأعشاب فى الشارع الرئيسى بالمدينة . وكان التشريح ما يزال في المهد مصدراً للخوف[1]، رغم أنه فى سالرنو عام ١٢٣٨ أمر الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى بتشريح جثة كل خمس سنوات . وكان أبقراط Hippocrates مؤسس الطب وجالين Galen هما الأساس . وهناك ذكر لكتب اسحاق اليهودى ، ونيقولاس السالرنى[2] .

وفى الوقت الذى كانت القاعدة المعتادة تقضى بالتخرج من الآداب أولاً . لم تكن درجة الآداب للمشتغلين بالطب . ومن جهة أخرى فإن قضاء أربع سنوات من الدراسة للحصول على درجة البكالوريوس فى الطب أمراً ضرورياً للموافقة على ممارسة الطب فى أكسفورد . وبناء على امتحان يعقد من خلال الأساتذة الممارسين وللحصول على درجة الدكتوراه فى الطب بالنسبة لأساتذة الآداب ، كان الأمر يتطلب قضاء عامين آخرين من الدراسة فى الطب ، يرجح قضاءهما فى الممارسة العملية . ووفقاً لما ورد فى حولية أكاديمية معاصرة . فإن قضاء عامين فى الممارسة المهنية قبل الحصول على درجة دكتور فى الطب M.D أمراً مؤكداً بهدف منح بعض الخبرة العملية للحصول على هذه الدرجة . وكانت الممارسة فى المستشفى أمراً متاحاً بيد أنها ضئيلة . وربما كانت تبذل بعض المحاولات للتعامل مع المرضى[3] .

على أية حال ، لم تبدأ الدراسة الأكاديمية لعلم الطب إلا فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن تلاشت سيطرة الكنيسة[4] .

علاوة على ذلك فقد حظيت دراسة القانون الرومانى بشقيه المدنى والكنسى بأهمية كبرى، وأمست مجموعة القوانين المدنية للإمبراطور جستنيان ، والديكرتيوم Decretum [1]

---

[1] Mallet, op. cit., p. 190.

[2] كان لجوء أبقراط إلى التجربة بمثابة حجر الأساس للعلوم الطبية فى العصر الحديث . ثم جاء جالين بعده بحوالى ستمائة عام ليلقى بظلاله على تاريخ الطب لمدة تزيد عن ألف عام . وقد حظيت آرائه بالقبول لدى معظم علماء اللاهوت فى العصور الوسطى سواء من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين . وتضمنت مؤلفاته كل ما يرغب طلبة الطب معرفته علم النفس ، التشريح ، علم النبات . وكانت كتبه البالغ عددها اثنين وعشرين مجلداً فى نسخها اللاتينية ، العربية ، السريانية ، العبرية تملأ المدارس فى كل مكان . وكانت الترجمات العربية هى الجسر الرئيسى لعبور الطب اليونانى إلى أوروبا الغربية . انظر :

Munimenta Academica, vol. II, pp. 406-409; Mallet, op. cit., pp. 191, 192; Rashdall, op. cit., p. 156.

[3] Munimenta Academica, vol. II, p. 406; Mallet, op. cit., p. 190.

[4] Mallet, op. cit., p. 194.

تـدرس فـي مدارس القانون في أكسفورد[٢]، وبات القانون المدني الدراسة المفضلة للدارسين الأكـثر طموحاً ، باعتباره الطريق المؤدي إلى الثروة والمجد . فقد كتب روجر بيكون أشهر أسـاتذة أكسفورد عام ١٢٧١م قائلاً : "إن رجال القانون يحصدون كل المكافآت والوظائف ، فـي حيـن لا يمتلك دارسي اللاهوت والفلسفة الأموال اللازمة للعيش ، أو اقتناء الكتب ، أو لإجـراء الـتجارب اللازمـة لكشف أسرار العلم . ولا يمتلك رجال القانون الكنسي الوسائل الضـرورية للعـيش والدراسـة إلا على أساس معرفتهم السابقة بالقانون المدني لأن دارسي القـانون المدنـي يزدادوا ثراء ومجداً بالعمل لدى جميع الأساقفة والأمراء .. لذا فإن اشتهاء دراسة القانون المدني كان يجذب غالبية الدارسين، وأن المحامي المدني أكثر جدارة من رجل اللاهـوت بالثناء في كنيسة الرب . حتى لو كان عليماً بالقانون المدني فقط، وجاهلاً بالقانون الكنسي واللاهوت، وسرعان ما يتم اختياره للوظائف الكنسية المرموقة"[٣] .

يؤكـد المؤرخ الأمريكي المعاصر نورمان كانتور ما ذكره العالم الانجليزي روجر بـيكون[٤]، بأنـه كـان بمقـدور من يتخرج من إحدى جامعات العصور الوسطى بعد دراسة القـانون ، أن يدخـل في خدمة أي حاكم علماني ، وأن يواصل تدريبه بعد تخرجه في مجال القانون الكنسي بحيث يعمل في خدمة الكنيسة . فإذا ما اتبع المسار الأول كان من المحتمل أن يصير يوماً الوزير الأول لأحد الملوك الأقوياء المتصارعين مع البابوية، وإذا ما اتخذ السبيل الـثاني أي دراسـة القـانون الكنسي كان من الممكن أن يختتم حياته العملية بارتقاء العرش

---

[١] تعـرف هذه المجموعة باسم قوانين جراتيان Decrtum Gratiani ، وهي عبارة عن مجموعة من القرارات والمراسيم والأحكـام الـبابوية . صدرت حول مختلف أمور نظام القانون الكنسي . وكانت في الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأسـاقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى . وقد جمعها المشرع والمبعوث البابوي جراتيان سنة ١١٤٠-١١٤١م تحـت عنوان "ترتيب القوانين الكنسية المتنافرة" Concordantia Discordautium Canonum . والمجموعة تحتوي على ما يقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة ، مثل الدساتير الرسولية ونصوص آباء الكنيسة ، والقوانين الصـادرة عـن المجامع الكنسية ، فضلاً عن المراسيم البابوية Decretals سواء كانت أصلية أم مزورة . وجميع هذه المصـادر الـتي تتناول النظام الكنسي رتبت على نسق علمي وفقاً للمنهج المدرسي . وسرعان ما اعتبرت بمثابة كتاب أساسي في القانون الكنسي في مدارس القانون في بولونيا وباريس وأكسفورد . وصارت مرجعاً ثقة في المحاكم في جميع أنحاء أوروبا . وهي تشكل الجزء الأول من "مجموعة القوانين الكنسية" Corpus Juris Canonici ، انظر كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٣٥ ، حاشية رقم (١) .

[٢] Mallet, op. cit., p. 194.

[٣] Lyte, op. cit., p. 55.

[٤] مـا ذكره روجر بيكون بصدد إعلاء أهمية دراسة القانون المدني إنما جاء صدى لاستياء البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) . الـذي بـذل قصارى جهده لقصر دراسة القانون المدني على تخوم الامبراطورية الرومانية المقدسة فقط . وأصدر مرسوماً عام ١٢٥٤م يقضي بألا يتقدم أي أستاذ في القانون ، أو محامي ليس ضليعاً في الفنون الحرة لأي وظيفة أو منصب كنسي من أي نوع في فرنسا ، انجلترا ، اسكتلندا ، ويلز ، أسبانيا ، أو المجر . واقترح على حكام تلك البلاد تحريم كل المحاضرات في القانون الروماني القديم تحريماً مطلقاً في كل الأماكن التي لا تعترف في محاكمها العادية بذلك القـانون . بيد أن تلك الإجراءات القمعية لم تستطع الصمود أمام إقبال الدارسين على الدراسة المكثفة للقانون المدني . انظر تفاصيل ذلك في :

Lyte, op. cit., pp. 55, 56.

البابوى نفسه . وبحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت البابوية تجند كل العاملين فى جهازها الإدارى تقريباً من خريجى مدارس القانون الأوروبية.[1]

وكانت درجة البكالوريوس فى القانون المدنى فى أكسفورد تتطلب أربع سنوات من الدراسة بالنسبة لأساتذة الآداب ، وست سنوات بالنسبة للآخرين؛ ودرجة الدكتوراه عامين أو ثلاثة من المحاضرات والمناقشات . ولم تكن القواعد الخاصة بالحصول على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى تشترط الحصول على درجة علمية فى الآداب . ولكن قضاء خمس سنوات فى دراسة القانون المدنى ، ودراسة كتاب الديكرتيوم لجراتيان ، ومراسيم البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) . وبالنسبة لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى كان الأمر يتطلب قضاء عامين آخرين من الدراسة ، وعام آخر زيادة الذين لم يحصلوا على درجة فى القانون المدنى[2] .

أما بالنسبة للاهوت العلم الأرفع مقاماً، لم تكن ستة عشرة أو تسعة عشر عاماً من الدراسة بالشئ الكثير . وأساتذة الآداب الذين قضوا سبع سنوات فى الدراسة كان عليهم الدراسة لمدة سبع سنوات أخرى للحصول على درجة البكالوريوس في اللاهوت لكى يسمح لهم بإلقاء محاضرات عن كتاب الأحكام Sententiarum or Sentences لبطرس اللمباردى، الذى كان يحتل المرتبة الثانية بعد الإنجيل . ثم قضاء عامين آخرين من الدراسة للحصول على درجة الدكتوراه[3] . والدارسين الذين لم يكونوا من الخريجين فى الآداب كان عليهم قضاء عشر سنوات دراسة فى اللاهوت للحصول على درجة البكالوريوس فى اللاهوت، وثمان سنوات لدراسة الفنون الحرة أى قضاء ما يقرب من تسعة عشر عاماً على الأقل للحصول على درجة دكتوراه فى اللاهوت[4] .

وبالطبع فقد أمست تكاليف اجتياز هذا النظام الدراسى المسهب والمعقد ، والحصول على درجات علمية سواء فى الآداب ، الطب ، اللاهوت والقانون ، باهظة للغاية . وعلى حد تعبير المؤرخ ماليت "فإن الكثيرين من الرجال الذين ذهبوا إلى أكسفورد ، واحتشدوا فى كنائسها ، وغنوا فى حاناتها ، وتشاجروا فى دروبها ، وتناقشوا فى مدارسها، وجدوا المعايير الأكاديمية تفوق طاقتهم ، ولم يستطيعوا مواصلة التعليم باعتباره عبئاً على وقتهم ونقودهم"[5] .

---

[1] كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

[2] Munimenta Academica, vol. II, pp. 399, 400, Mallet, op. cit., pp. 194, 195;

ولمزيد من التفاصيل بصدد المنهج الدراسى فى القانون المدنى والكنسى انظر :

Rashdall, op. cit., pp. 156, 157.

[3] Munimenta Academica, vol. II, p. 389, Rashdall, op. cit., vol. II, pp. 158, 159; Mallet, op. cit., p. 195;

[4] Munimenta Academica, vol. II, pp. 389, 390.

[5] Mallet, op. cit., p. 201.

وكانت الرسوم الخاصة بمنح الدرجات العلمية تتفاوت من تخصص لآخر ، ففى حين كانت الرسوم الخاصة بالآداب تقتصر على إقامة وليمة للأساتذة لمدة أسبوع، بينما كانت درجة البكالوريوس فى القرن الخامس عشر فى أى تخصص تمنح مقابل أربعة بنسات ، وبالنسبة للدرجات الأعلى كانت الرسوم باهظة . لذا اتخذت بعض التدابير لتوفيق هذه التكاليف مع قدرة المرشحين لهذه الدرجات على الدفع . وكان الأستاذ الجديد فى الآداب يبتهج بالتخلص من عبء إطعام الأساتذة الممارسين مقابل ما يعادل عشرون جنيهاً . وكان مسموحاً للخريجين الأثرياء بدفع نفقات تخرج زملائهم الفقراء[١] .

وفيما يتعلق بمرتبات الأساتذة فى مدارس أكسفورد فقد اعتمدت أساساً على الرسوم التى تؤخذ من الدارسين[٢] ، ووفقاً للنظام السائد – كما سبق الإشارة – بأن يقوم الطالب باختيار الأستاذ الذى سيدرس على يديه ، ودفع رسوم للجامعة مقابل ذلك ، ونتيجة لذلك فإذا لم يكن بوسع الأستاذ أن يجتذب الطلاب لمحاضراته لا يعود له شئ آخر يعول عليه ، ولابد لحياته أن تنتهى بالفشل الذريع والفقر المدقع . ومن المحتمل أن هذه الرسوم لم تكن عالية، فقد كان الطالب يدفع أثنى عشر بنساً فى العام أو ثلاثة بنسات فى الفصل الدراسى مقابل محاضرات المنطق . والحد الأدنى لرسوم المحاضرات فى الفيزياء ثمانية عشر بنساً . وتقدر رسوم الدراسة فى النحو بثمانية بنسات فى الفصل الدراسى الواحد . وفى التخصصات الرئيسية عامة مثل الآداب ، الطب ، اللاهوت ، القانون، كانت الرسوم أعلى، ولم يكن مسموحاً للأساتذة بتخفيفها . وفى القرن الخامس عشر كانت الرسوم فى مدارس الآداب تجمع وتوزع بالتساوى على الأساتذة الممارسين، بيد أنها لم تكن كبيرة بالشكل الكافى.[٣]

وفى الجامعات ذات الأصل الكنسى ، وأحياناً الجامعات ذات الأصل العلمانى ، نجد كثير من الأساتذة يشغلون وظائف كنسية ذات دخل ، وذلك بصفتهم رجال دين وليس باعتبارهم أساتذة . ومن ثم جرت العادة فى القرن الثالث عشر على ألا يطلب الأساتذة الذين يتقاضون مرتبات من وظائفهم الكنسية رسوماً من الطلبة . بيد أن ذلك بالطبع لا يعنى مجانية التعليم للدارسين . وفى عام ١٣٢٢م واقتداء بما حدث فى باريس التمست جامعة أكسفورد من البابا جون الثانى والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤م) منح نفس الامتيازات التى أسبغتها البابوية على دكاترة الفلسفة واللاهوت فى باريس أى الإنعام عليهم بوظائف كنسية[٤] .

---

١ Ibid, p. 196.

٢ لمزيد من التفاصيل بصدد مرتبات الأساتذة ورسوم الدارسين فى جامعات العصور الوسطى انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Gaines Post, "Master's Salaries and Student-Fees inMediaeval Universities", Speculum, vol. 7, 1932, pp. 181-198.

٣ Mallet, op. cit., p. 199.

٤ حظى أساتذة اللاهوت فى مدارس باريس بأهمية خاصة ، ففى عام ١٣١٦ أمر البابا جون الثانى والعشرون أساقفة الكنيسة بتزويد الأساتذة والدارسين للاهوت فى باريس بوظائف كنسية ذات دخل لمواجهة تدهور التعليم . وبدأت جامعة باريس

لامــراء أن الحاجــة إلــى توفير مرتبات كافية للأساتذة ، والنفقات الباهظة للتعليم الجــامعى مــن العوامل التى عرقلت التعليم فى مدارس أكسفورد منذ نشأتها . ومن ثم تأتى أهمية التبرعات والتى بدونها كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الانجلــيزى المعاصــر آلان جوبان Alan Gobban "تدين جامعتى أكسفورد وكمبريدج فى العصــور الوســطى بدرجة كبيرة لسخاء العديد من المتبرعين من أصول اجتماعية متباينة ، الملــوك ، الملكــات ، رؤســاء الأســاقفة ، الأســاقفة ، رجــال الدين ، النبلاء ، التجار ، والــبرجوازية . وبدون الدور المحورى لهؤلاء المتبرعين ما استطاعت الجامعات الانجليزية فــى العصــور الوســطى أن تتخطى الوضع الذى كانت عليه فى أوائل القرن الثالث عشر ، محصــورة فــى إطار مجموعة من الأساتذة والدارسين يعيشون ، ويتعلمون ، ويدرسون فى أماكن مزدحمة وغير ملائمة تماماً".[١]

وبالرغم من المساهمة الفعالة التى أسدتها الملكية الانجليزية للمجتمع الأكاديمى بوجه عــام، فقــد تراءى التبرع الملكى فى صورة أقل من المتوقع منه ، فيما يتعلق بالدعم المادى للدارســين ، إن الدعــم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر لاسيما فى عهد الملك هنرى الثالث ، إنما جاء انعكاساً لخدمة الأغراض السياسية للملكية الانجليزية ، ولم يخرج عن كونه آداة دبلوماســية لدعم إبرام سلسلة من التحالفات العسكرية مع البارونات الفرنسيين المجاورين لخصــمه اللــدود الملك الفرنسى بتقديم منح دراسية لأبنائهم وأقاربهم؛ وعلى سبيل المثال لا الحصــر فقد دعم تحالفه العسكرى مع كونت أفرجين Auvergne بتقديم منحة دراسية لشقيق الكونت ، والإنعام عليه بوظيفة كنسية بهدف توفير دخل ثابت أثناء الدراسة . أيضاً هناك منح نقدية قدمت لعدد من الأقارب وأبناء العاملين فى الحاشية الملكية لهنرى الثالث وأشهر هؤلاء إيمــر لوزجــنان Aymer of Lusignan الأخ غــير الشقيق للملك هنرى الثالث، الذى جاء للدراســة فى مدارس أكسفورد عام ١٢٤٧م، حيث تم منحه مبلغ مائتى مارك نقداً وامتيازات أخرى[٢] .

وكانــت المــبالغ المالية التى تمنح للدارسين باستثناء أقارب الملك المقربين تتراوح عادة بين خمس وعشر ليرات سنوياً . وكان الملك إدوارد الأول قد أرسل اثنين من النبلاء من جاسكونى للدراسة فى أكسفورد ، وخصص لهما خمسة وثلاثون ماركاً فى العام ، علاوة على

تحمل إلى بلاط روما قوائم باسماء المرشحين الذين يرجى من البابا الانعام بوظائف كنسية ذات دخل . انظر :
Gaines post, op. cit., p. 186.
١ Goblan, "English University Benefactors in the Middle Ages", History, July 2001, vol. 86, pp. 288, 289.
٢ Lyte, op. cit., p. 14;
ولمزيد من التفاصيل عن الدعم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر انظر الدراسة المهمة التى قام بها :
Pegues, "Royal Support of Students in the Thirteenth Century" Speculum, January, 1956, pp. 457-462; Lyte, op. cit., p. 42.

أثنى عشر جنيهاً لكل منهما . ونظراً لأن الملكية الانجليزية تمثل متبرع متقلب الأحوال نوعاً مـــا للجامعات الانجليزية، فقد وجدت الجامعة عوضاً عن ذلك فى تبرعات العائلات من أسر النبلاء . وتشير الاحصائيات على مدى الفترة من ١٣٠٧-١٤٨٥م وجود ما لا يقل عن ثمانية وثمانون فرداً من اثنين وأربعين من عائلات النبلاء كانوا يدرسون فى الجامعات الانجليزية ، أثنيـــن وستين منهم فى أكسفورد ، وتسعة عشرة فى كمبريدج ، مما أضفى على الجامعة بعداً سياسياً واجتماعياً، وتخفيف بعض الأعباء التى ينوء بها كاهل أقرانهم من الدارسين الفقراء[١].

ومن جهة أخرى تعكس تبرعات الأساقفة الإنجليز دورهم الحاسم فى تطور الجامعة أكـــثر مـــن أى فئة أخرى فى المجتمع الإنجليزى ، بتأسيس الكليات لإعالة الدارسين الفقراء وتقاضـــى مخصصـــات مالية ، كما سبق الإشارة[٢] . وفى عام ١٢٨٨م تكفل أسقف هيرفورد Herford بـــنفقات دراســـة شابين فى أكسفورد بلغت فى أسبوعين ما يقرب من أربعة عشر جنـــيهاً . بيد أن التبرع بتأسيس كليات لم يكن قاصراً على رجال الكنيسة فقط، فهناك سيدات مـــن طبقة النبلاء ممثلين فى أرملتين على درجة من الثراء هما اليزابيث بورج الأبنة لأيرل كلارى وحفيدة الملك إدوارد الأول ، وصديقتها الحميمة مارى كونتية بيمبروك Pembroke الحفيدة الكبرى للملك هنرى الثالث[٣] .

وتحتل خزائن أو صناديق القروض Loan Chest مكانة بارزة فى مجال التبرعات للجامعـــات الانجلـــيزية . فقـــد قامـــت فكرتها على أساس تقديم قروض بدون فائدة للأساتذة والدارسين على السواء مقابل إيداع رهن مثل مخطوط ، الكتاب المقدس ، رداء ، كوب ، أو صـــليب ، كضمان للنقود المقدمة إذا لم تسدد فى غضون إثنى عشر شهراً . ويتم بيع الرهن فـــى حالـــة الإخفاق فى السداد، والأموال الباقية من بيع الرهن تعاد للمقترض الذى لم يستطع الســـداد ، وفـــى حالـــة وفاته تمنح لعامة الناس لصالح روحه . وفى الأيام الأولى من إنشاء خزائـــن القروض كان حق الاقتراض قاصراً فقط على الدارسين الذين لا يزيد دخلهم السنوى علـــى ماركين اثنين . بيد أن معظم المتقدمين بعد ذلك كانوا من الدارسين الذين لا يملكون أى إيـــرادات . ويعتبر إنشاء هذه الصناديق علامة بارزة للحد من نشاط اليهود الذين قبل إبعادهم

---

[١] Gobban, op. cit., pp. 295, 296; Mallet, op. cit., p. 141.

[٢] لمزيد من التفاصيل بصدد الدخل الذى يتقاضاه الدارسون المقيمين بكليات أكسفورد انظر :
Munimenta Academica, vol. I, pp. 55, 556; 655; Gobban, op. cit., p. 296.

[٣] يرجع أول ظهور لخزائن القروض فى عام ١٢٤٠م ، حين أمر روبرت جروستيت أسقف لنكولن بإيرادات جديدة للجامعة تقدر بمبلغ أثنان وخمسين شلن فى العام . وأن أى إضافات أخرى سوف تودع فى خزائن رئيس دير القديسة فرايدزوايد ، ووضع هذه الخزانة تحت رعاية رجل دين يعين بواسطة رئيس الدير وبموافقة المستشار ، وأثنان من الرجال الثقاة الذين تنتخـــبهم الجامعـــة . وحددت القروض بمبلغ مارك واحد ، وثلاثين شلن ، وأربع بنسات للأستاذ ، ثمانية شلنات لطالب البكالوريوس ، وخمس شلنات للسفسطائى أى الذى أمضى عامين فقط من الدراسة فى الآداب . ويعتبر تأسيسها ضرورة ملحة آنذاك انظر :
Munimenta, Academica, vol. II, pp. 8, 10; Mallet, op. cit., p. 34.

مـن انجلـترا عام ١٢٩٠م يتقاضون فوائد باهظة على القروض المقدمة للدارسين الإنجليز . وكان مؤسس خزائن القروض من جموع شتى ، أثنان كانا رؤساء أساقفة كانتربرى ، وخمسة أسـاقفة ، وأثـنان مـن القساوسـة فـى حين تضم قائمة المتبرعين بتأسيسها من المؤسسين العلمانيين إليانور القشتالية Eleanor of Castile زوجة الملك إدوارد الأول توماس بيفورت Thomas Beaufort دوق إكسـتر Exeter ، إيـلا لونجسبى Ela Longespee كونتيسة ورسـيك Warmick ، وهـنرى لاسـى Henry of Lacy أيـرل لندن وغيرهم . بحيث استطاعت الجامعة فى غضون مائة عام من إنشاء أول صندوق لتقديم القروض عام ١٢٤٠م أن تتـباهي بالكثـير من الأموال التى تم وقفها للجامعة، والتى تقدم للمقترضين خدمة لا تقدر بثمن، واستحقت بالفعل أن تكون تخليداً لدافعيها[١] .

وهـناك تبرعات لدفع مرتبات للمحاضرين فى مدارس أكسفورد فى القرن الخامس عشـر ، مقدمة من أشقاء الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م) وهماجون دوق بيدفورد ، وهمفـرى دوق جوسيسـت Humphrey of Clouceste . وقام همفرى عام ١٤٣٦م بدفع مرتـبات محاضـرين فى الفنون الحرة والفلسفة بفروعها الثلاثة . بيد أنه فشل فى استمرارية توفـير الدخـل المطلوب لهم، وتوقف التبرع بوفاة الدوق . وفى السنوات الأخيرة من القرن الخـامس عشـر قامـت الليدى مرجريت كونتيسة ريتشموند Richmond وأم الملك هنرى السابع بمنح وقف مالى لمنصب أستاذ فى اللاهوت . أيضاً قدم الملك هنرى السابع منح مالى لدفـع مرتـبات أسـاتذة فى اللاهوت والقانون المدنى والطب واللغتين اليونانية والعبرية عام ١٥٤٢م[٢] .

واتخـذ التـبرع صـوراً أخرى مثل المساهمة فى تشييد أبنية للجامعة ، مثلما فعل تومـاس جوبهـام Thomas Gobham أسـقف وركسـتر Worcester بتمويل بناء دار اجـتماعات الجامعة فى أكسفورد، وفى عام ١٣٢٠ اعتزم وضع كتبه فى حجرة فوقها للعمل كمكتبة للجامعة[٣] .

وتحتل التبرعات مكان الصدارة فى تمويل بناء مدرسة اللاهوت فى أكسفورد ملحقاً بهـا مكتبة الدوق همفرى فوقها . واستغرق إتمام ذلك ما يقرب من خمس وستون عاماً حتى خرج إلى حيز الاستخدام عام ١٤٨٨م . ومن الجدير بالذكر أن أغلبية هؤلاء المتبرعين فعلوا ذلـك اسـتجابة لالتماسـات الجامعة طلباً للمال . وأخيراً جون راسل John Russell أسقف لنكولـن ، ومستشـار الجامعة والمحاضر السابق فى القانون الكنسى فى مدارس أكسفورد ،

---

١ Gobban, op. cit., p. 299; Mallet, op. cit., p. 34.

٢ Rashdall, op. cit., p. 163; Mallet, op. cit., p. 199; Gobban, op. cit., p. 303.

٣ Rashdall, op. cit., p. 164; Gobban, op. cit., p. 303.

يعتـــبر واحـــداً مـــن العديد من الأساقفة الذين تبرعوا لإعادة بناء مدارس القانون الكنسى فى أكسفورد فى الفترة بين ١٤٨٢ و ١٤٩٠م.[١]

وهكـــذا قدر للتبرعات أن تساهم بقسط كبير فى أن يكون للجامعة أبنيتها المستقلة . وبـــدون تحفـــظ نســـتطيع فى ضوء ما سبق أن نؤرخ وجود مبانى مستقلة للجامعة بدءاً من منتصـــف القـــرن الخامس عشر بعد أن كان التدريس يتم قبل ذلك فى أروقة الغرف الملحقة بالكنائس والأديرة حيث كانت كنيسة القديسة مارى مركز حياة الجامعة .

وأخـــيراً ، وختاماً لهذه الدراسة يتفق الباحث مع ما ذكره المؤرخون المحدثون بأنه بـــدون تلـــك التـــبرعات مـــن المنح الدائمة كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . بيد أن رسائل الدارســـين فى مدارس أكسفورد إلى ذويهم كانت تئن دوماً بحاجتهم الماسة للمال، ناهيك عن الطـــلاب الفقـــراء الذين اضطروا للحصول على ترخيص من المستشار للإستجداء والتماس الصدقات التى لم تكن عيباً آنذاك.[٢]

---

[١] Gobban, op. cit., p. 304.

[٢] لمزيد من التفاصيل بصدد شكاوى الدارسين وحياتهم انظر :
Haskins, "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters" A.H.R., vol 3; January, 1898; pp. 203-229; Richardson, "Business Training in Medieval Oxford". A.H.R., vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270; Mallet; op. cit., p. 303;
هاسكنز ، نشأة الجامعات ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأجنبية :

- Annales Londonienses and Annales Paulini, The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, (ed.) William Stubbs, Rolles Series, London, 1965.
- Auctor Willeimo Cantuariensi, Vita S: Thomae, (ed.) Robertson, in Materials for the History of Thomas Becket, Vol. I, Rolles Series, London, 1965.
- Charter of Henry II to Oxford, A.D., 1155-1162, (ed.) W. Stubbs, Select Charters, Oxford, 1921.
- Chronica Roberti de Torigneio; (ed.) Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richad I, Vol. IV, Rolles Series, London, 1964.
- The Chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964.
- The Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs, Rolles Series, London, 1881.
- Gervasii Cantuariensis Opera, Actus Pontificum (ed.) W. Stubbs, in the Historical Works of Gervase of Canterburi, Vol. II, Rolles Series, London, 1965.
- Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, Vol. I, Rolles Series, London, 1861.
- Matthew Paris's, Chronica Majora, (ed.) Luard, Vol. IV., Rolles Series, London, 1884.
- Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans. From the Latin by Giles, Vol. III, London, 1852.
- Munimenta Academica; (ed.) Anstey, Vol. II, London, 1868.
- Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I (ed.) R. Howlette, Vol. III, Rolles, Series, 1964.
- Roberti Grosseteste, Epistolae, (ed.) Luard, Rolles Series, London, 1861.
- Roger Wendover, Elores Historiarum, (ed.) H.G. Hewlett, 3 Vols., Rolles Series, London, 1886.
- Rolles Series, The Chronicles and Memorials of Grest Britain and Ireland during the Middle Ages, London, 1858.
- Royal and Other Historical Letters of the Reign of Henry III, (ed.) Shirly, Vol., I, 1216-1235, Rolles Series, 1862.
- Theobaldus Stampensis, Epistolae, *Patrologia Latina*, (ed.) Migne, Paris, 1854, CLX III, pp. 759-770.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Brodrick, G.G., A History of the University of Oxford, London, 1984.
- Davis, H.W.G., England Under the Normans and Angevins 1066-1272, London, 1930.
- Gobban, A. B., "English University Benefactors in the Middle Ages", *History*, July, 2001, Vol. 86, pp. 287-312.
- Green, J.R., Ashort History of the English People, Vol. I., London, 1960.
- Green, J.R., "Oxford in the Middle Ages", English Historians Selected Passages, Oxford University Press, 1957, pp. 141-144.
- Hashins, G.H., "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters", *A.H.R.*, Vol. 3, January, 1989, pp. 203-229.
- Holland, T.E., "The Ancient Organisation of the University of Oxford"., *Macmllan's Magazine*, Vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210.
- Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought, London, 1970.
- Knowles, D., Thomas Becket, Stanford, 1970.
- Liebrmann, F., "Magister Vacarius", *E.H.R.*, April, 1896, pp. 305-314.
- Little, A.G., "The Franciscan School at Oxford in the Thirteenth Century", *Archivum Franciscanum Historicum*, Annus XIX, October, 1926, pp. 803-874.
- Lunt, W.E., A History of England, London, 1928.
- Lyte, H.G.M., A History of the University of Oxford: from the Earlest Times to the Year 1530, London, 1886.
- Mallet, G.E., A History of the University of Oxford, Vol. I The Mediaeval University and the Colleges Founded in the Middle Ages, London, 1968.
- Pegues, F., "Royal Support of Students in the Thirteenth Century", *Speculum*, January, 1956, pp. 454-462.
- Post, G., "Master's Salaries and Student-Fees in Mediaeval Universities", *Speculum*, Vol. 7, April, 1932, pp. 181-198.
- Rashdall, H., The Universites of Europe in the Middle Ages, Vol. III, Oxford, 1936.
- Richardson, H.G., "Business Training in Medieval Oxford", *A.H.R.*, Vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270.
- Russell, J.G., "Alexander Neckham in England"., *E.H.R.*, Vol. XLVIII, January, 1932, pp. 260-268.

- Stubbs, W., The Constitutional History of England, Vol. II, Oxford, 1873.
- Stubbs, W., Select Charters and Other Illustrations of English Constitutional History from the Earliest Times to the Reign of Edward the First, Oxford, 1921.
- Traill, H.D., Mann, J.S., Social England: from the Earliest Times to the Present Day, Vol. I, Oxford, 1965.
- Willson, D.H., A History of England, London, 1972.

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

- ابراهيم الجزيري ، مظاهر الحضارة في انجلترا الأنجلوسكسونية خلال عصر الملك الفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، ٢٠٠١م .
- جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م .
- ديورانت (ويل) قصة الحضارة ، جـ٦ من المجلد الرابع ، ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- زينب عبد المجيد عبد القوى ، الإنجليز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م .
- كانتور (نورمان . ف) التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ٢٠٠٢م .
- موريس كين ، حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- نظير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م .
- ياسر عبد المعبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ٢٠٠٣م .

مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت

عبد العزيز رمضان *

مصر

شهدت الدراسات البيزنطية طفرة ملحوظة خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين ، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى إقبال عدد كبير من الباحثين الأوربيين والأمريكيين وكذلك الروس على التخصص في هذا المجال ، واصبح كل يوم يمر بظهور بحث أو كتاب جديد ، وبصورة موازية حرص المتخصصون والمؤسسات والمراكز المتخصصة على مواكبة ثورة الاتصالات والمعلوماتية التي شهدها عالمنا المعاصر في الآونة الأخيرة ، وذلك من خلال الإفادة من شبكة الاتصالات العالمية Internet في نشر أحدث البحوث والمراجع ، واطلاع الباحثين في مختلف أنحاء العالم بأخر الإصدارات ، والإعلان عن المؤتمرات الدولية وأماكن انعقادها وموعدها والبحوث التي ستلقى من خلالها ، وكذلك أخر أخبار المراكز البحثية و المنح الدراسية و الاكتشافات الأثرية ، و أخبار المتخصصين أنفسهم .

وهذه الدراسة مجرد محاولة لإطلاع الباحثين المصريين والعرب على أهم المواقع المتخصصة في مجال الدراسات البيزنطية ، وما تحتويه من إصدارات وقوائم ببليوجرافية ومقالات بحثية وغيرها .

ويعتبر موقع مؤسسة Dumbarton Oaks والمسمى www.doaks.org بالولايات المتحدة الأمريكية من المواقع الهامة و الأكثر إفادة للمتخصصين ، إذ يقدم خدمات بحثية مجانية تتيح للباحث الاطلاع على أخر إصدارات المؤسسة و أسعارها و طريقة الحصول عليها ، وكذلك أخر المؤتمرات العلمية التي عقدت أو في طريقها إلي ذلك مستقبلا ، سواء في مؤسسة الدومبارتون ، أو في غيرها من الجامعات والمؤسسات والمراكز البحثية المتخصصة ، ومحاور هذه المؤتمرات وكيفية الاشتراك بها ، وفى حالة اكتمال البرنامج تقدم أسماء المشاركين فى المؤتمر و عناوين البحوث التي ستلقى به ؛ كذلك يقدم صورا إلكترونية مجانية لأهم منشورات المؤسسة من الدراسات والمصادر المترجمة وأعمال المؤتمرات العلمية التي تعقد فيها ، والتي لا يستطيع الباحث نسخها على جهاز الحاسب الآلي الخاص به إلا عن طريق برنامج Acrobat Reader (PDF) ، كما يقدم قوائم ببليوجرافية لموضوعات بعينها ، أو لرسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت أو سجلت في الجامعات الأمريكية .

---

* مدرس م. تاريخ العصور الوسطي ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.

أشكر صديقي الدكتور طارق منصور الذي اقترح على فكرة هذا البحث ، ولماها في ذهني بعد أن كانت جنينا يلح إلى الخروج للنور ، فله منى كل شكر وإعزاز وتقدير .

كذلـك يقـدم موقـع مركـز دراسـات العصـور الوسـطى بجامعـة فوردهـام Fordham University Center for Medieval Studies www.fordham.edu الـذي يشـرف عليه الباحث الكندي باول هالسال Paul Halsal ، وهـو باحـث له نشاط ببليوجرافي كبير ، خدمات مجانية للباحثين ، ولعل أهم ما يقدمه هذا الموقـع هـو كـتاب تاريخ العصور الوسطى المصدري Medieval Source Book الذي يعـرض نصـوص كثير من المصادر البيزنطية المترجمة إلي اللغة الإنجليزية ، سواء أكانت هـذه المصـادر كـتابات تاريخـية أو هجيوجرافـية أو كنسية ، كما يقدم هذا الموقع قوائم ببليوجرافية عن موضوعات معينة ٠

ومـن أهـم المواقع المتخصصة في الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت، موقع جمعـية الارتقـاء الدراسـات البيزنطـية Society for the Promotion of Byzantine Studies- www.byzantium.ac.ukSPBS بإنجلـترا ، والـذي يقـدم أخر أخبار النشاط البحثي الجاري والمستقبلي ، وتقارير عن مؤتمرات الجمعية التي عقدت أو ستعقد فيما بعـد ، وبـرامج هذه المؤتمرات والمشاركين بها ، و يقدم كذلك قائمة بما نشرته الجمعية من أعمـال هـذه المؤتمـرات أو التـي لا زالت تحت الطبع ، بالإضافة إلى قوائم مرتبة أبجديا لمنشورات أعضاء الجمعية من الكتب والمقالات في الدوريات المتخصصة ، سواء المنشورة حديثا أو التي لا تزال في إطار الإعداد أو حتى التي لا تزال مجرد فكرة لم توضع بعد موضع التنفـيذ ، كذلـك يقدم أرشيفا لمنشورات الأعضاء الكاملة يتم البحث فيه وفقا للترتيب الأبجدي لأسـمائهم ، ويقدم تقارير عن الرحلات والدراسات الميدانية الحديثة والحالية التي تتم في أسيا الصـغرى والـيونان ، بالإضافة إلى أرشيفا يحتوى على ملخصات أبحاث الدراسات الميدانية السـابقة وما توصلت إليه من نتائج ، وفضلا عن ذلك يقدم مشاريع ترجمة المصادر والتأليف المشـترك ، كمـا يعلن هذا الموقع بصفة دورية عن المناهج الدراسية في الأقسام والمعاهد الجامعـية الإنجليزية المتخصصة في الدراسات البيزنطية ، سواء لطلاب مرحلة الليسانس أو مـرحلة الدراسات العليا ، وعن فرص المنح البحثية التي تتيحها الجمعية للباحثين والدارسين ، وأيضـا تلـك التـي تقدمها المراكز والمعاهد الجامعية الأخرى ، بالإضافة إلى قائمة بجميع المجموعـات والمصادر والدوريات والدراسات المتاحة في مكتبات لندن ، الأكاديمية منها أو التجارية ، وأخيرا يقدم قائمة بأهم المواقع المتخصصة المتصلة به ٠

القوائم الببليوجرافية Bibliography

تقدم المواقع المتخصصة في الدراسات البيزنطية خدمات ببليوجرافية قيمة للباحثين ، منها قوائم عن " الدراسات البيزنطية فى مدارس الدراسات العليا بشمال أمريكا تحت عنوان" Resources for Byzantine Studies in North American Graduate School الذي يوجد على موقع مؤسسة الدومبارتون ، ويقدم قائمة بأسماء الأقسام والمعاهد ومدارس الدراسات العليا المتخصصة في مجال الدراسات البيزنطية بأربعة وثلاثين جامعة ، ورؤساءها وأعضاء هيئة التدريس بها ، و المناهج الدراسية المقررة على الدارسين ، وعدد الدارسين الحاليين المسجلين في درجة الماجستير والدكتوراه ، وعدد الرسائل التي نوقشت خلال العشر سنوات الماضية.

كذلك يقدم موقع الدومبارتون خدمة البحث في فهارس مكتبتها ، عن طريق استخدام مفاتيح الدخول Key Wards إما باسم المؤلف أو عنوان الكتاب أو بالموضوع ، كما يقدم دليلا بكيفية استخدام المكتبة من قبل زائريها ، والوصول إلى المصادر والمجموعات الموجودة بالمكتبة .

ويقدم هذا الموقع أيضا الخدمات الشرائية للباحثين لأحدث المنشورات ، والخصومات التي يمكن الحصول عليها ، وذلك من خلال قائمتين تحمل إحداها عنوان Publications والأخرى New Titles ، و يتم تحديثهما بصفة دورية كلما صدرت دراسات أحدث .

ومن أهم القوائم المتاحة على هذا الموقع أيضا ، قائمة بعناوين رسائل الماجستير والدكتوراه التي سجلت أو نوقشت في الجامعات الأمريكية ، بالإضافة إلى أسم صاحب الرسالة والأستاذ المشرف ، و أسم الجامعة والقسم الذي سجلت أو نوقشت فيه ، وهذه القائمة تحمل عنوان Byzantine Dissertations in North America ، و تضم قسمين رئيسيين، الأول بعنوان رسائل تحت الإعداد Dissertations in Progress ، ويحتوى على ٥٩ رسالة مسجلة حاليا في التخصصات التالية :

الأدب والآثار Art and Archaeology ، و تاريخ الأدب والآثار Art History and Architecture ، والتاريخ History ، وتاريخ المسرح History of Theater ، وتاريخ العلم History of Science ، واللغة والأدب Language and Literature ، والديانة Religion ، واللاهوت Theology and Liturgy .

أما القسم الثاني فيحمل عنوان " رسائل نوقشت منذ عام ١٩٩٥م " Dissertations Completed Since 1995 ، ويضم عناوين ٥٤ رسالة نوقشت في نفس التخصصات السابقة بالإضافة إلى تخصصات أخرى هي : الكتابة التاريخية Historiography ، والموسيقى Music ، وجدير بالذكر أن أخر تحديث updated لهذه القائمة تم فى سبتمبر ٢٠٠١م .

وعلـــى موقـــع الدومـــبارتون أيضا توجد قائمة ببليوجرافية خاصة بالمرأة البيزنطية Bibliography on Women in Byzantium ، التـــي يقـــوم علـــى نشـــرها مديرة شعبة الدراسات البيزنطية بالمؤسسة ، أ.د. مارى أليس تالبوت Alice-Mary Talbot ، ويشارك فـــيها عـــدد كبـــير من المتخصصين ، وتعد هذه القائمة استكمالا لقوائم أخرى عن المرأة في العصـــر الرومانـــي المـــتأخر والبيزنطـــي الباكر ، وهى Bibliography on Women in Antiquity ، و Bibliography on Women in Late Antiquity ، و المنشـــورتان على موقع porterj@duke.usak.ca ، .

ومـــن قوائـــم الببليوجرافيا المتاحة على شبكة الإنترنت ، قائمة " المصادر البيزنطية المـــترجمة " Byzantine Sourses in Translation ، والتي يقدمها هالسال Halsal على موقـــع فوردهـــام www.fordham.edu ، وتتميز هذه القائمة بأنها تتيح للباحث عناوين المصـــادر البيزنطية المترجمة إلى اللغات الأوربية الحديثة ، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروســـية والإيطالـــية وغـــيرها من اللغات ، وقد اتبع هالسال في عرض هذه القائمة أسلوبا مـــنظما يتـــيح للباحـــث الوصـــول مباشـــرة إلى ما يبتغيه ، حيث بدأها بمجموعات المصادر البيزنطـــية ســـواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة ، وبعد ذلك الكتابات التاريخية والحوليات ، ثم الوثـــائق السياســـية ، والوثـــائق القانونية ، ثم المصادر التي وصفت مدينة القسطنطينية ، ثم وثـــائق تـــاريخ الكنيسة ، و أدب اللاهوت ، ثم الأدب البيزنطي ، و مجموعات الرسائل ، والكـــتابات الفلســـفية ، والكـــتابات العلمـــية ، ثم المصادر الأجنبية التي تحدثت عن التاريخ البيزنطـــي ، وبعـــد ذلك يقدم هالسال قائمة أخرى بعناوين أهم الدراسات الحديثة . وفيما يلي محاور القائمة كما توجد على شبكة الإنترنت :

A: Byzantine Source Collections

TABLE I Byzantine Source Collections - In Original Languages
TABLE II Byzantine Source Collections - In Translation

B: Byzantine Historiography

TABLE I Byzantine Historians
TABLE II Byzantine Chroniclers
TABLE III The Greek Tradition
TABLE IV The Latin Tradition

C: Byzantine Political Documents

TABLE I Byzantine Political Structures
TABLE II Fiscal Texts
TABLE III Byzantine Military Texts

D: Byzantine Legal Documents

TABLE I Byzantine Legal Texts - Collections and Codes
TABLE II Byzantine Legal Texts - Decrees, Edicts

E: Byzantium - Contemporary Descriptions

F: Byzantine Church History Documents

TABLE I Church Document Collections
TABLE II Church Councils
TABLE III Monastic Documents
TABLE III Church History Documents
TABLE IV Liturgical Documents
TABLE V Canon Law

G: Byzantine Theological Literature [post 500 CE]

TABLE I Where to Find Texts of 4th and 5th-century Christian Writers
TABLE II Discourses/Treatises
TABLE III Sermons and Homilies
TABLE IV Spirituality
TABLE IV Controversy with: Heretics; Latins; Jews; and Muslims

H: Byzantine Literature

TABLE I Poetry
TABLE II Other Fictional Literature
TABLE III Criticism and Belles Lettres
TABLE IV Selected Secondary Works

I: Byzantine Letter Collections

J: Byzantine Philosophy

K: Byzantine Science

L: Non-Greek Sources for Byzantine History

TABLE I Eastern Sources
[Arabic, Armenian, Coptic, Persian, Syriac,Turkish]
TABLE II Northern and Western Sources
[Latin, Russian, Slavonic, Western Vernaculars]
TABLE III Crusades

M: Modern Byzantine History Writing

TABLE I Byzantine History: Overviews
TABLE II Byzantine History: Specific Periods
-----Postscript: Byzantine Jewry
TABLE III Byzantine History: Military

وعلى موقع فوردهام أيضا توجد قائمة ببليوجرافية أعدها هالسال عن مجموعات الوثائق والمخطوطات البيزنطية ، وتحمل عنوان :
Byzantine Manuscript Indices : Bibliography

كما يوجد على نفس الموقع مقال لهالسال بعنوان " تقليد الكتابة التاريخية البيزنطية " The Byzantine Historiography Tradition ، ملحقا به قائمة بأسماء المصادر التاريخية والحوليات البيزنطية سواء المترجمة إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، أو التي لا تزال بلغاتها الأصلية .

كما يقدم موقع جامعة نوتردام University of Notre Dame www.byzantine.nd.edu قائمة كبيرة تحتوى على عناوين جميع المجموعات والمخطوطات والمصادر والدراسات الموجودة بمكتبة معهد العصور الوسطى والدراسات البيزنطية بالجامعة Institute of Medieval and Byzantine Studies ، مع كود ورقم التصنيف و عدد النسخ ، وتحمل هذه القائمة عنوان Byzantine Studies at Notre Dame .

كذلك يوجد على موقع جامعة شمال فلوريدا University of North Florida www.unf.edu قائمة ببليوجرافية كبيرة عن القديس البيزنطي : The Byzantine Saint A Bibliography ، و يعرض فيها لعناوين سير القديسين والقديسات ، و أهم البحوث والدراسات التي تتناول هذا الموضوع . والمحاور الرئيسية لهذه القائمة كما توجد على شبكة الإنترنت كالتالي :

- What is a Saint?
  - Sainthood: General

- Hagiography: General
- Canonization: General
- Byzantine Sainthood: General
- Byzantine Hagiography
- Byzantine Sainthood: Saint-Making/Canonization
- Locating Information on Saints
- Internet Bibliographies

- Biography
- The Novel
- The Pagan Holy Man
- Martyrs: Pagan and Christian Sources
- The Life of Anthony
- Early Monasticism I: Egypt and Pachomius
- Early Monasticism II: Palestine
- Early Monasticism III: Syria
- The Christian Holy Man in Society: Ascetics
- The Christian Holy Man in Society II: Bishops
- Women Saints I: The Early Church
- Women Saints II: The Byzantine Period
- Thaumaturgy (Wonder-Working), Miracles and Healing
- From Hagiography to Legend
- The Metaphrastic Effort
- Middle Byzantine Sainthood
- Later Byzantine Sainthood
- Byzantine Monasticism and Sainthood
- Post-Byzantine Greek Saints
- The Theotokos
- Saints in Art
- Saints in Liturgy
- Slavic Saints
- Major Collections

كذلــك يوجد على موقع الدومبارتون قائمة بأسماء القديسين والقديسات البيزنطيين ، وبــيانات النصوص الأصلية لسيرهم ، وما ترجم منها إلى اللغات الأوربية الحديثة ، أو ما هو في إطار الترجمة حاليا in preperation ، و اسم من يعمل في هذه الترجمة ، وهذه القائمة من إعداد أ.د. أليس مارى تالبوت وتحمل عنوان :

Survey of Translations of Byzantine Saints' Lives

سير القديسين Hagiography

تزخر مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت بالعديد من النصوص الكاملة لعدد من سير القديسين والقديسات ، بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات الخاصة بهذا المجال ، ولعل أشهر هذه الدراسات " قاعدة بيانات الكتابات الهجيوجرافية " Hagiography Database على موقع الدومبارتون ، والتي تحتوى على نصوصا كاملة باللغة اليونانية لكافة سير القديسين والقديسات البيزنطية من القرن الثامن وحتى القرن العاشر ، بالإضافة إلى مقدمة هامة تحتوى على أسماء قديسين وقديسات هذه الفترة مرتبة ترتيبا أبجديا ، وبعض المعلومات الأساسية عن كل منهم ، وقد تم نشرها حديثا في إصدار يحمل عنوان

Dumbarton Oaks Hagiography Database of 8th –10th.Centuries

وعلى موقع الدومبارتون أيضا توجد نصوص كاملة لبعض السير المترجمة حديثا إلى اللغة الإنجليزية ، مثل سيرة القديسة ماريا \ مارينوس St. Maria\ Marinos (القرن الخامس) ، والقديسة ماترونا البرجية St. Matrona of Perge (القرن السادس) ، والقديسة ماريا المصرية St.Mary of Egypt (القرن الرابع والخامس) ، والقديسة ثيوكتيستى الليسبوسية St.Theoktiste of Lesbos (القرن التاسع) ، و القديسة اليزابيث St. Elisabeth of Wonderworker (القرن الخامس) ، والقديسة أثاناسيا الايجينية St.Athanasia of Aegina (القرن التاسع) ، والقديسة ثيودورا السالونيكية Theodora of Thessalonike (القرن العاشر) ، والقديسة ماريا الصغرى Mary the Younger (القرن التاسع والعاشر) ، والقديسة ثومايس الليسبوسية St. Thomais of Lesbos (القرن العاشر) ، والقديسة ثيودورا الأرتية St. Theodora of Arta (القرن الثالث عشر) وهذه السير تم نشرها سنة ١٩٩٦م في كتاب واحد يحمل عنوان Holy Women of Byzantium : Ten Saints Lives in English Translation ، وقامت على نشره أ.د. تالبوت ضمن سلسلة Byzantine Saints Lives in Translation التي تصدرها مؤسسة الدومبارتون ، وعلى نفس الموقع يوجد النص الكامل لسيرة القديس لازاروس من جبل جاليزيون St. Lazaros of Mt. Galesion (القرن الحادي عشر) مترجمة إلي الإنجليزية ، والتي نشرت في نفس السلسلة تحت عنوان The Life of St. Lazaros of Mt. Galesion : An 11th .Century Pillar Saint.

وعلى موقع فوردهام نشر هالسال النصوص الكاملة لعدد من السير سواء بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الإنجليزية ، وقد اعتمد فيها على السير المترجمة بالفعل من قبل آخرين ، ليقدم هذه الترجمات إلى أكبر قطاع ممكن من الباحثين ، خاصة و أن بعضها نشر في كتب نفذت طبعتها أو في رسائل علمية لم تنشر بعد ، ولذلك يشير في نهاية كل سيرة إلى بيانات الترجمة الأصلية لها ، وهى كالتالي :

Clarke , W.H., The Life of St. Macrina , London , 1916.

- سير القديسين دانييل الاستيليتى St. Daniel the Stylite (القرن الخامس) ، و ثيودور سـيكيون St. Theodore Sykeon (القـرن السابع) ، و يوحنا المعطاء St.John the Almsgiver (القرن السابع) ، المأخوذة من كتاب :

London , 1948. ،Baynes , N., Three Byzantine Saints

- سـيرة القديسـة ماترونا البرجية Matrona of Perge (القرن السادس) المأخوذة من رسالة دكتوراه للباحث الليبي خليفة بن ناصر

Khalifa Ben Naser ,Gender and Sanctity in Early Byzantine Monasticism , Arbor University Microfilms

- سيرة القديسة ايرينى الصغرى St. Irene the Younger (القرن التاسع) المأخوذة من كتاب :

Rosenqvist , J.O., The Life of St. Irene Abbess of Chrysobalanton , Uppsala ,1986.

- الخمسـة فصـول الأولى من سيرة القديسة ماريا الصغرى St. Mary the Younger (القرن التاسع و العاشر) ترجمة هالسال .

- الـنص اليونانـي الأصلي لسيرة القديسة ثومايس الليسبوسية St. Thomais of Lesbos (القرن العاشر).

- سيرة القديس روميلوس St. Romylos (القرن الرابع عشر) والمأخوذة من المقال التالي

M.Bartusis ; Kh. Ben Naser ; A. Laiou , Days and Deeds of a Hesychast Saint: A Translation of the Greek Life of Saint Romylos Byzantine Studies/Etudes Byzantines, 9:1 (1982), 24-47

ومـن أهم مجموعات السير المنشورة على موقع فوردهام ، كتاب The Golden Legend or Lives of Saints ، والـذي يـتكون مـن سبع مجلدات تتناول سير القديسين والقديسـات مـنذ ظهـور المسيحية إلى القرن الثالث عشر ، بالإضافة إلى جزء خاص ببدء الخليقة وقصص الأنبياء ، وقد قام على جمعه أسقف جنوه جاكوبوس دى فوراجينى Jacobus de Voragine سـنة ١٢٧٥م ، ونشـر لأول مرة سنة ١٤٧٠م ، وترجمه وليم كاكستون William Caxton إلـى الإنجلـيزية ونشـره سنة ١٤٨٣م ، وأعيد نشره مرارا حتى عام ١٩٣١م ، و أهمـية هـذا الكـتاب بالنسبة للباحثين في مجال الدراسات البيزنطية ، يكمن في عرضه لمجموعة من سير قديسي وقديسات بيزنطة و مصر والشام إبان فترة الحكم الروماني والبيزنطـي ، ومنهم على سبيل المثال القديسة ماريا المصرية Mary of Egypt ، والقديسة ثـيودورا السكندرية Theodora of Alexandria التي عاشت في عصر الإمبراطور زينون

Zeno ، و القديس جورجوني Gorgone في عصر الإمبراطور دقلديانوس ، والقديس البيزنطي يوحنا خريسوستوم John Chrysostom ، وغيرهم كثيرين .

كذلك يقدم موقع معهد العصور الوسطى والدراسات البيزنطية بجامعة نوتردام عام ٢٠٠١م أول ترجمة إنجليزية لسيرة القديس جورج أماستريس The Life of St. George of Amastris (القرن التاسع) ، و التي لم تنشر بعد في آي إصدار ، وقد قام على ترجمتها عدد من الباحثين المتخصصين بالمعهد ، وهم ديفيد جينكينز David Jenkins ، وستيفانوس الكيسوبولوس Stephanos Alexopoulos و سارة ديفيد Sarah David ، ودارين هايتون Darin Hayton ، و أندريا ستيرك Andrea Sterk ، اعتمادا على النص اليوناني الأصلي الموجود على موقع الدومبارتون في Dumbarton Oaks Hagiography Database .

كذلك هناك دراسة قيمة للباحث توماس هيد Thomas Head ، عن تطور كتابة سير القديسات في العصور الوسطى ، وعنوانها " Women and Hagiography in Medieval Christianity " ، ويتناول فيها بعض سير القديسات البيزنطيات ، كما يلحق هذه الدراسة بقائمة ببليوجرافية تعرض لأهم الدراسات الحديثة التي تناولت هذا الموضوع .

المصادر التاريخية Historical Sources

تقدم المواقع المتخصصة على شبكة الإنترنت النصوص الكاملة لعدد من المصادر التاريخية البيزنطية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية ، وهى كالتالي :

- يوسيبيوس القيسارى ، سيرة الإمبراطور قسطنطين

Eusebius of Caesarea , The Life of the Blessed Emperor Constantine

------------------------ قصيدة مديح فى الإمبراطور قسطنطين

Eusebius of Caesarea , Orotion in Praise of the Emperor Constantine

والمأخوذتان من كتاب :

Nicene and Post-Nicene Fathers, 2nd Series, ed. P. Schaff and H. Wace, (Edinburgh: repr. Grand Rapids MI: Wm. B. Eerdmans, 1955) Vol. I .

- بروكوبيوس ، التاريخ السري

Procopius of Caesarea , The Secret History

والمأخوذ عن كتاب :

Procopius: Secret History, translated by Richard Atwater, (Chicago: P. Covici, 1927; New York: Covici Friede, 1927), reprinted, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, ١٩٦١.

- ليوتبراند الكريمونى ، تقرير سفارته إلى القسطنطينية ٩٦٣م
Liutprand of Cremona: Report of his Mission to Constantinople
والمأخوذ عن :
Ernest F. Henderson, , Select Historical Documents of the Middle Ages , (London: George Bell, 1910), pp. ٤٤٠-٤٧٧.

- مزمنة مؤرخ القرن الحادي عشر ميخائيل بسللوس
Michael Psellus: Chronographia
والمأخوذة عن :

Michael Psellus: Chronographia, trans E.R.A Sewter, (New Haven: Yale University Press, 1953)

وهـنـاك دراسـة متخصصـة عن بسللوس على موقع نوتردام تحمل عنوان " رؤى بسللوس الفلسـفية " The Philosophical Views of Michael Psellos ، تـرجمها ديفيد جينكينز David Jenkins إلى الإنجليزية عن الأصل الروسي للباحث فالدينبيرلج V.Valdenber

Философские Взгляды Михаила Лселла , Визангийский Сборник (1945)249-55.

- آنا كومنينا ، الألكسياد
Anna Komnena The Alexiad

والمأخوذ عن
Anna Comnena (Komnene). The Alexiad. Edited and translated by Elizabeth A. Dawes. London: Routledge, Kegan, Paul, ١٩٢٨.

- فلهاردوين ، الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية
Geoffrey de Villehardouin , Memoirs or Chronicle of The Fourth Crusade and The Conquest of Constantinople.
والمـأخوذة عن ترجمة Frank T. Marzials والتي تحمل نفس العنوان ، والمنشورة بلندن ١٩٠٨م.

كذلك يقدم موقع فوردهام نصوصا مختارة من بعض المصادر التاريخية ، وهى كالتالي :

- نصـوص مـن حولية مؤرخ القرن الثالث عشر ثيودوروس سكوتاريوتيس Theodoros Skoutariotes ، التـي تحمل عنوان Synopsis Chronika ، وتتحدث عن أباطرة القرن

الحـــادي عشر ابتداء بباسيل الثاني وحتى رومانوس السابع ديوجينيس ، وقد ترجمها نيكوس كونكونـــاس Nikos Konkounas اعـــتمادا علـــى الـــنص اليونانـــي الأصـــلي الوارد في Konstantine Sathas, Messaionki Bibliothiki, vol. VI , pages ١٥٩-١٦٧.
هـــذا بالإضــــافة إلـــى النصوص الخاصة بهؤلاء الأباطرة عند كل من ميخائيل بسللوس في مزمنـــته ، وميخائـــيل اطالـــياتس فـــي تاريخه ، مترجمة إلى الإنجليزية اعتمادا على ترجمة بسللوس السالفة الذكر ، وعلى النص الأصلي لاطالياتس

Attaliates, Historia , ed , E. Bekker, CSHB, (Boon, 1864)

كذلك يعرض لنا موقع فوردهام نصوصا كاملة أو مختارة من بعض المصادر العربية والروسية والأرمينية ، والمتعلقة بالتاريخ البيزنطي ، وهى كالتالي :-

بأوستوس بوزانداقى ، تاريخ الأرمن ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن الخامس)

Pawstos Buzandaci , History of the Armenians (full text)-

غزار بأربيقى ، تاريخ الأرمن ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن الخامس)

– Ghazar Parbeci , History of the Armenians (full text)

سيبوس ، التاريخ ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن السابع)

Sebos , History (full text)

– يوحنا ماميكونيان ، ترجمة روبرت بيدروسيان ، تاريخ تارون (القرن العاشر)

John Mamikonean , History of Taron (full text)

– أريستاكيس اللستيفرتى ، ترجمة روبرت بيدروسيان ، التاريخ (القرن الحادي عشر)

Aristakes Lastivertci , History (full text)

– الحولية الجورجية ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرنين الثاني عشر والثالث عشر)

The Georgian Chronicle (full text)

– كيراكوس جاندزاكيتسى ، تاريخ الأرمن (القرن الثالث عشر)

– Kirakos Gandzaketsi , History of the Armenians (full text)

توفما ميتسوبيتسى ، تاريخ تيمورلنك و خلفائه

(Tovma Metsobetsi , History of Tamerlane and his Successors (full text
– نصـــوص مخـــتارة من حولية نوفجورود The Chronicle of Novgorod ، والحولية الروســـية الأولــــى Russian Primary Chronicle ، وجمـــيعها خاصة بالعلاقات البيزنطية الروسية أو بالتاريخ الروسي المحلى ٠

– نصـــوص مختارة من وصف بعض الرحالة والسفراء العرب للقسطنطينية ، كوصف سفارة عربـــية مـــن البلاط العباسي إلى الإمبراطور باسيل الأول فى نهاية القرن العاشر An Arab Ambassador in Constantinople ، ووصـــف الـــرحالة المسلم ابن بطوطة للقسطنطينية فـــي منتصــــف القرن الرابع عشر ، بالإضافة إلى وصف الرحالة اليهودي بنيامين التطيلى لها النصف الثاني من القرن الثاني عشر ٠

المصادر العسكرية Military Sources

يقـــدم لنا نوقع الدومبارتون مصدرا عسكريا هاما نشرته المؤسسة حديثا ، وهو " مالك الحزين البيزنطي : فن الحصار " ، ويضم مخطوطتين تم نسخهما في القرن العاشر الميلادي

Heron of Byzantium , Siegecraft , Two Tenth - Century Instructional Manuals

النصوص التشريعية Legal Texts

يقـــدم موقـــع فوردهـــام عـــددا كبـــيرا من النصوص القانونية المختارة من تشريعات الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Codex Theodosianus والإمبراطور جستنيان Institutes و Digest و Codex Justinianus و Novellae ، خاصـــة بالأوضـــاع القانونية لليهود والعبـــيد والأطفال والزواج المختلط بين العبيد والأحرار ووضعية الأراضي الزراعية ، كذلك يقدم النص الكامل لقانون الفلاح والمنشور في :–

W. Ashburner, trans., "The Farmer's law", Journal of Hellenic Studies, 32 (1912), 87-95

موقع فوردهام نصوصا مقتبسة من تشريعات ليو الثالث المعروفة بالايكلوجا تخص كذلك يقدم المتفق عليها في كتابة عقود الزواج ،والجرائم الجنسية المقترفة من قبل أحد الزوجين الصـــيغة أو الاغتصاب بالإكراه ، وهى مأخوذة من :–

Freshfield, E., trans., A Manual of Roman Law : The 'Ecloga" (Cambridge, 1926) pp. 72-74 ; 108-12.

Religious Sources المصادر الدينية

أولا : المواعظ والرسائل Letters and Homilies :-

يعرض موقع فوردهام عددا كبيرا من المواعظ الرسائل الدينية للقديس يوحنا الذهبي الفم John Chrysostom (القرنيين الرابع والخامس) ، ويوحنا الدمشقي John of Damascus ، ويوحنا موسخوس John Moschos ، ويوحنا كليماخوس John Klimakos ، وثيودور رئيس رهبان دير ستوديوس القسطنطيني Theodore of Studious (القرن التاسع).

ثانيا : لوائح تنظيم الأديرة البيزنطية

Byzantine Monastic Foundation Documents

وهي مجموعة كاملة لكافة اللوائح والوثائق الخاصة بالأديرة البيزنطية الباقية من القرن السابع وحتى نهاية القرن الخامس عشر (٦١ وثيقة) ، وهو عمل قام على ترجمته من اليونانية القديمة والحديثة والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية فريق عمل يضم عددا كبيرا من المتخصصين في مجال الدراسات البيزنطية ، وقد نشرته مؤسسة الدومبارتون فيما يزيد عن ٢٤٠٠ صفحة تضمهم ثلاث مجلدات ، كما أتاحت نسخة منه على موقعها ليفيد منه أكبر عدد ممكن من الباحثين ، وبيان محتواها كالتالي :-

Introduction / 122k

Early Monastic Rules / 122k

Chapter One: Traditional Private Religious Foundations / 61k

Introduction

Seventh Century

1. Apa Abraham: Testament of Apa Abraham, Bishop of Hermonthis, for the Monastery of St. Phoibammon near Thebes, Egypt (trans. Leslie S. B. MacCoull) / 61k

Eighth Century

2. Pantelleria: Typikon of John for the Monastery of St. John the Forerunner on Pantelleria (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

Ninth Century

3. Theodore Studites: Testament of Theodore the Studite for the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople (trans. Timothy Miller) / 92k

4. Stoudios: Rule of the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople (trans. Timothy Miller) / 153k

Tenth Century

5. Euthymios: Testament of Euthymios for the Monasteries of Psamathia and Ta Agathou (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 31k

6. Rila: Testament of John of Rila (trans. Ilija Iliev) / 61k

7. Latros: Testament of Paul the Younger for the Monastery of the Mother of God tou Stylou on Mount Latros (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

Eleventh Century

8. John Xenos: Testament of John Xenos for the Monastery of the Mother of God Antiphonetria of Myriokephala on Crete (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 31k

9. Galesios: Testament of Lazarus of Mount Galesios (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 92k

10. Eleousa: Rule of Manuel, Bishop of Stroumitza, for the Monastery of the Mother of God Eleousa (trans. Anastasius Bandy) / 122k

Chapter Two: Athonite Monasteries / 61k

Introduction

Tenth Century

11. Ath. Rule: Rule of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 153k

12. Tzimiskes: Typikon of Emperor John Tzimiskes (trans. George Dennis) / 92k

13. Ath. Typikon: Typikon of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 122k

14. Ath. Testament: Testament of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 61k

15. Constantine IX: Typikon of Emperor Constantine IX Monomachos (trans. Timothy Miller) / 61k

Chapter Three: The Protectorate / 92k

Introduction

Tenth Century

16. Mount Tmolos: Typikon of Nikephoros Erotikos for the Monastery of the Mother of God and the Old Age Home called Ta Derma on Mount Tmolos (trans. John Thomas) / 31k

17. Nikon Metanoeite: Testament of Nikon the Metanoeite for the Church and Monastery of the Savior, the Mother of God and St. Kyriake in Lakedaimon (trans. Anastasius Bandy) / 61k

Eleventh Century

18. Nea Gephyra: Testament of Nikodemos for the Monastery of Nea Gephyra near Lakedaimon (trans. Stephen Reinert) / 31k

19. Attaleiates: Rule of Michael Attaleiates for his Almshouse in Rhaidestos and for the Monastery of Christ Panoiktirmon in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 214k

20. Black Mountain: Regulations of Nikon of the Black Mountain (trans. Robert Allison) / 214k

21. Roidion: Typikon of Nikon of the Black Mountain for the Monastery and Hospice of the Mother of God Tou Roidiou (trans. Robert Allison) / 92k

Chapter Four: Early Reform Monasteries of the Eleventh Century / 92k

Introduction

22. Evergetis: Typikon of Timothy for the Monastery of the Mother of God Evergetis (trans. Robert Jordan) / 244k

23. Pakourianos: Typikon of Gregory Pakourianos for the Monastery of the Mother of God Petritzonitissa in Backovo (trans. Robert Jordan) / 244k

24. Christodoulos: Rule, Testament and Codicil of Christodoulos for the Monastery of St. John the Theologian on Patmos (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 183k

Chapter Five: Imperial and Royal Monasteries of the Twelfth Century / 61k

Introduction

25. Fragala: Testaments of Gregory for the Monastery of St. Philip of Fragala in Sicily (trans. Patricia Karlin-Hayter and Timothy Miller) / 92k

26. Luke of Messina: Typikon of Luke for the Monastery of Christ Savior (San Salvatore) in Messina (trans. Timothy Miller) / 61k

27. Kecharitomene: Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene for the Convent of the Mother of God Kecharitomene in Constantinople (trans. Robert Jordan) / 305k

28. Pantokrator: Typikon of Emperor John II Komnenos for the Monastery of Christ Pantokrator at Constantinople (trans. Robert Jordan) / 244k

29. Kosmosoteira: Typikon of the Sebastokrator Isaac Komnenos for the Monastery of the Mother of God Kosmosoteira near Bera (trans. Nancy Patterson Sevcenko) / 336k

38. Kellibara I: Typikon of Michael VIII Palaiologos for the Monastery of St. Demetrios of the Palaiologoi-Kellibara in Constantinople (trans. George Dennis) / 92k

39. Lips: Typikon of Theodora Palaiologina for the Convent of Lips in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 153k

40. Anargyroi: Typikon of Theodora Palaiologina for the Convent of Sts. Kosmas and Damian in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

Chapter Eight: Later Private Religious Foundations / 61k

Introduction

Twelfth Century

41. Docheiariou: Rule of Neophytos for the Monastery of St. Michael the Archangel of Docheiariou on Mount Athos (trans. Robert Allison) / 61k

42. Sabas: Founder's Typikon of the Sabas Monastery near Jerusalem (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

43. Kasoulon: Rule of Nicholas for the Monastery of St. Nicholas of Kasoulon near Otranto (trans. Timothy Miller) / 61k

44. Karyes: Typikon of Sabbas the Serbian for the Kellion of St. Sabbas at Karyes on Mount Athos (trans. George Dennis) / 61k

Thirteenth Century

45. Neophytos: Testamentary Rule of Neophytos for the Hermitage of the Holy Cross near Ktima in Cyprus (trans. Catia Galatariotou) / 153k

Fourteenth Century

46. Akropolites: Testament of Constantine Akropolites for the Monastery of the Resurrection (Anastasis) in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

47. Philanthropos: Typikon of Irene Choumnaina Palaiologina for the Convent of Christ Philanthropos in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

48. Prodromos: Testament of Neilos for the Monastery of St. John the Forerunner (Prodromos) on Mount Athos (trans. Stephen Reinert) / 31k

49. Geromeri: Testament of Neilos Erichiotes for the Monastery of the Mother of God Hodegetria in Geromeri (trans. George Dennis) / 61k

50. Gerasimos: Testament of Gerasimos for the Small Monastery of St. Euthymios in Jerusalem (trans. George Dennis) / 31k

51. Koutloumousi: Testaments of Chariton for the Monastery of Christ Savior of Koutloumousi on Mount Athos (trans. George Dennis) / 122k

52. Choumnos: Rule and Testament of Makarios Choumnos for the Nea Mone of the Mother of God in Thessalonike (trans. Alice-Mary Talbot) / 92k

53. Meteora: Canonical Rule of Athanasios the Meteorite for the Monastery of the Transfiguration (Metamorphosis) (trans. George Dennis) / 61k

Fifteenth Century

54. Neilos Damilas: Testament and Typikon of Neilos Damilas for the Convent of the Mother of God Pantanassa at Baionaia on Crete (trans. Alice-Mary Talbot) / 92k

Chapter Nine: Independent and Self-Governing Monasteries of the Fourteenth and Fifteenth Centuries / 61k

Introduction

Fourteenth Century

55. Athanasios I: Rule of Patriarch Athanasios I (trans. Timothy Miller) / 61k

56. Kellibara II: Typikon of Andronikos II Palaiologos for the Monastery of St. Demetrios-Kellibara in Constantinople (trans. George Dennis) / 31k

57. Bebaia Elpis: Typikon of Theodora Synadene for the Convent of the Mother of God Bebaia Elpis in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 275k

58. Menoikeion. Typikon of Joachim, Metropolitan of Zichna, for the Monastery of St. John the Forerunner on Mount Menoikeion near Serres (trans. Timothy Miller) / 153k

Fifteenth Century

59. Manuel II: Typikon of Emperor Manuel II Palaiologos for the Monasteries of Mount Athos (trans. George Dennis) / 61k

60. Charsianeites: Testament of Patriarch Matthew I for the Monastery of Charsianeites Dedicated to the Mother of God Nea Peribleptos (trans. Alice-Mary Talbot) / 183k

61. Eleousa Inv.: Inventory of the Monastery of the Mother of God Eleousa in Stroumitza (trans. Anastasius Bandy, with Nancy Sevcenko) / 61

Glossary / 61k (Text revised 7/8/99)

Appendix A: Concordance with Previous Lists / 31k

Appendix B: The Regulation of Diet in the Byzantine Monastic Foundation Documents / 92k

Appendix C: Topical Interrelationships of the Families of the Typika of the Byzantine Monastic Reform Movement / 31k

General Bibliography / 92k

Indexes (draft texts)

People and Places

General Index

أخـــيرا يقدم موقع الدومبارتون خدمة أخرى للباحثين في مجال الدراسات البيزنطية ، تتمـــثل فـــي إتاحته لنصوص كاملة لبعض الإصدارات الحديثة للمؤسسة ، بالإضافة إلى أعداد دوريـــة Dumbarton Oaks Papers بدايـــة من العدد رقم ٥٣ الصادر في عام ١٩٩٩م ، وفيما يلي قائمة بهذه الإصدارات المتاحة ومحتوياتها :-

- الـــتاريخ الاقتصادي لبيزنطة من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر ، نشر أنجليكى لايو (ثلاث أجزاء)

The Economic History of Byzantium from the 7th Through the 15th Century

والبحوث المنشورة به هي :

Preface

Introduction

Angeliki E. Laiou | Writing the Economic History of Byzantium

Angeliki E. Laiou | Political History: An Outline

Part One: The Natural Environment, Resources, Communications, and Production Techniques

Bernard Geyer | Physical Factors in the Evolution of the Landscape and Land Use

Angeliki E. Laiou | The Human Resources

Anna Avramea | Land and Sea Communications, Fourth--Fifteenth Centuries

George Makris | Ships

Anthony Bryer | The Means of Agricultural Production: Muscle and Tools

Klaus-Peter Matschke | Mining

Maria K. Papathanassiou | Metallurgy and Metalworking Techniques

Jean-Pierre Sodini | Marble and Stoneworking in Byzantium, Seventh--Fifteenth Centuries

Anna Muthesius | Essential Processes, Looms, and Technical Aspects of the Production of Silk Textiles

Part Two: The Sixth Century, Background

Cécile Morrisson and Jean-Pierre Sodini | The Sixth-Century Economy

Case Study
James Russell | Anemourion

Part Three: Structures, Organization, and Development of Production

Agriculture
Jacques Lefort | The Rural Economy, Seventh--Twelfth Centuries

Angeliki E. Laiou | The Agrarian Economy, Thirteenth--Fifteenth Centuries

Pierre Toubert | Byzantium and the Mediterranean Agrarian Civilization

Volume 2

Urban Economy
Gilbert Dagron | The Urban Economy, Sevent--Twelfth Centuries

Klaus-Peter Matschke | The Late Byzantine Urban Economy, Thirteenth--Fifteenth Centuries

Charalambos Bouras | Aspects of the Byzantine City, Eighth--Fifteenth Centuries

Paul Magdalino | Medieval Constantinople: Built Environment and Urban Development

Charalambos Bouras | Master Craftsmen, Craftsmen, and Building Activities in Byzantium

Anthony Cutler | The Industries of Art

Nicolas Oikonomides | Writing Materials, Documents, and Books

Véronique François and Jean-Michel Spieser | Pottery and Glass in Byzantium

Christopher Entwistle | Byzantine Weights

Case Studies
Clive Foss and Jane Ayer Scott | Sardis

Klaus Rheidt | The Urban Economy of Pergamon

Aspasia Louvi-Kizi | Thebes

Maria Kazanaki-Lappa | Medieval Athens

G. D. R. Sanders | Corinth

Vasso Penna | Numismatic Circulation in Corinth from 976 to 1204

Anne Bortoli and Michel Kazanski | Kherson and Its Region

Ivan Jordanov | Preslav

Konstantin Dochev | Turnovo, Sixth--Fourteenth Centuries

Part Four: Exchange, Trade, and Markets

Angeliki E. Laiou | Economic and Non-Economic Exchange

Angeliki E. Laiou | Exchange and Trade, Seventh--Twelfth Centuries

Klaus-Peter Matschke | Commerce, Trade, Markets, and Money, Thirteenth--Fifteenth Centuries

John Day | The Levant Trade in the Middle Ages

Cécile Morrisson and Jean-Claude Cheynet | Prices and Wages in the Byzantine World

Special Topics
Haris Kalligas | Monemvasia, Seventh--Fifteenth Centuries

Part Five: Economic Institutions and the State

Cécile Morrisson | Byzantine Money: Its Production and Circulation

John Day | A Note on Monetary Mechanisms, East and West

Nicolas Oikonomides | The Role of the Byzantine State in the Economy

Legal Aspects of the Economy
Eleutheria Papagianni | Legal Institutions and Practice in Matters of Ecclesiastical Property

Eleutheria Papagianni | Protimesis (Preemption) in Byzantium

Eleutheria Papagianni | Byzantine Legislation on Economic Activity Relative to Social Class

Demetrios Gofas | The Byzantine Law of Interest

Olga Maridaki-Karatza | Legal Aspects of the Financing of Trade

Part Six: General Traits of the Byzantine Economy

Angeliki E. Laiou | Economic Thought and Ideology

Angeliki E. Laiou | The Byzantine Economy: An Overview

List of Abbreviations

- العملات البيزنطية ، تأليف فيليب جريرسون

Ph. Grierson , Byzantine Coinage

-السحر البيزنطي ، نشر هنرى ماجيورى

Byzantine Magic , ed. H. Maguire

ومحتواه كالتالي:

Henry Maguire, Introduction

Matthew W. Dickie, The Fathers of the Church and the Evil Eye
James Russell, The Archaeological Context of Magic in the Early Byzantine Period
Henry Maguire, Magic and the Christian Image
Alexander Kazhdan, Holy and Unholy Miracle Workers
John Duffy, Reactions of Two Byzantine Intellectuals to the Theory and Practice of Magic: Michael Psellos and Michael Italikos
Marie Theres Fögen, Balsamon on Magic: From Roman Secular Law to Byzantine Canon Law
Richard P. H. Greenfield, A Contribution to the Study of Palaeologan Magic
Robert Mathiesen, Magic in Slavia Orthodoxa: The Written Tradition
Abbreviations and Index

- الحدائق البيزنطية

Byzantine Garden Culture

ومحتواه كالتالي :

The Study of Byzantine Gardens:Some Questions and Observations from a Garden Historian
Joachim Wolschke-Bulmahn

The Scholarship of Byzantine Gardens
Antony Littlewood

Paradise Withdrawn
Henry Maguire

Byzantine Monastic Horticulture:The Textual Evidence
Alice-Mary Talbot

Wild Animals in the Byzantine Park
Nancy P.Sevcenko

Byzantine Gardens and Horticulture in the Late Byzantine Period,1204 1453: The Secular Sources
Costas N.Constantinides

-الحروب الصليبية من وجهتي نظر بيزنطة والعالم الإسلامي ، نشر انجليكى لايو

ومحتواه كالتالي :-

The Land of War:Europe in the Arab Hero Cycles

Nadia Maria El-Cheikh
Byzantium through the Islamic Prism from the Twelfth to the Thirteenth Century

Robert W.Thomson
The Crusaders through Armenian Eyes

Alexander Kazhdan Ý
Latins and Franks in Byzantium:Perception and Reality from the Eleventh to the Twelfth Century

Elizabeth Jeffreys and Michael Jeffreys
The "Wild Beast from the West ":Immediate Literary Reactions in Byzantium to the Second Crusade

Tia M.Kolbaba
Byzantine Perceptions of Latin Religious "Errors ":Themes and Changes from 850 to 1350

IV The Crusades and the Economy of the Eastern Mediterranean

Olivia Remie Constable
Funduq,Fondaco,and Khan in the Wake of Christian Commerce and Crusade

Angeliki E.Laiou,with an Appendix by Cécile Morrisson
Byzantine Trade with Christians and Muslims and the Crusades

David Jacoby
Changing Economic Patterns in Latin Romania:The Impact of the West

V Art and Architecture

Oleg Grabar
The Crusades and the Development of Islamic Art

Charalambos Bouras
The Impact of Frankish Architecture on Thirteenth-Century Byzantine Architecture

Sharon E.J.Gerstel

Art and Identity in the Medieval Morea

List of Abbreviations

Index

الحجابة زمن سلاطين المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م*

د. محاسن الوقاد*

مصر

عــرف عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣هــ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م، عديداً من الوظــائف العســكرية والديوانية والدينية، ومن بين هذه الوظائف، كانت وظيفة الحجابة التى وضـــعها القلقشــندى فى المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية، التى تحتل مكانة رفيعة في المجــتمع المملوكـــى، والــتى رغــم أهميتها في ذلك العصر فأنها لم تحظ باهتمام الباحثين. ويلاحــظ أن أغلــب الدراسات التى تناولت العصر المملوكى بالبحث والدراسة، لم تتعرض لــلإدارة الســلطانية إلا بشكل مقتضب؛ أما عن موضوع الحجابة إبان ذلك العصر، فلم تحظ حــتى الآن باهتمام الباحثين، ولذلك أخذت على عاتقى القيام بعمل دراسة تتناول الحجابة زمن سلاطين المماليك، مالها وما عليها فى المجتمع المملوكى.

بادىء ذى بدء ينبغى علينا تعريف الحجابة لغة واصطلاحاً، ثم بيان دراسة جذورها التاريخية حتى عصر سلاطين المماليك.

الحجــاب فــي اللغـــة الســتر، وهو من ألقاب النساء، وكان يوصف بالمناعة فيقال "الحجــاب المنــيع" وقــد ورد فــي نــص للمقريزى قوله "السِتر الرفيع"؛ فقيل "الستر الرفيع والحجاب المنيع الملكة الرحيمة، عصمة الدنيا والدين".[١]

وحَجَــب بيــنهما - حجــباً حالَ و _ الشيء: ستره و - فلانا: منعه من الدخول أو المــيراث، احتجب: استتر (استحجبَه) ولاه الحجابَة، والحاجبُ: البواب (ج) حجبة، وحُجَّاب، وحــرفة الحاجــب (الحَجْــبُ): المنع و - (شرعاً): منع الشخص من الميراث كله أو بعضه لوجود شخص آخر.[٢]

---

* أتقــدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذى ا.د. احمد عبد الرازق على ما أعطاني من وقته لمناقشة كثير من النقاط حول هــذا البحث، كما أتقدم إلى ا.د. قاسم عبده قاسم بالشكر والتقدير على كرم سيادته وما قدمه لى من ملاحظ وتعليقات مهمة أفادت البحث.

* مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

1 المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشرة محمد مصطفى زيادة، جـ١ ق٢، القاهرة ١٩٣٦م، ص٣٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢م، جـ١ ق٢، ص٢٨٦، حيث يشيران إلى أن الملكة شجر الدر كانت تطلق عليها هذه الألقاب في دعاء الخطبة أثناء فترة سلطنتها.

2 الفــيروز ابادى، القاموس المحيط، القاهرة ١٩٧٧م، جـ١ ص١٨١؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ط١ ١٩٨٠م، ص١٣٥؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٥١.

والحاجب اسم فاعل من الحجب وهو المانع من الدخول، وهو في أصله اسم وظيفة تطلــق على من يقف بين الإمام يبلغه أخبار الرعية ويأخذ لهم الأذن منه[3]، وقيل للستر حجاب لأنه يمنع المشاهدة وقيل للبواب حاجب لأنه يمنع من الدخول، وجمع الحاجب حجاب.[4]

أمــا فــي القــرآن الكــريم فللفــظ معنى "الستر" فقد جاء في سورة الأحزاب "وإذَا سَأَلْتمُوهُنَّ متاعاً فسألُوهُنَّ من وراء حِجابٌ"[5] ، وسيفصل في الآخرة حجاب بين أصحاب الجنة وأصــحاب الــنار "وبينهما حجَابٌ"[6] والظاهر أن اللفظ في هذا المقام مرادف للأعراف ولذلك فســر مــن قديــم بأنه "سور" إشارة لما ورد في سورة الحديد[7] وجاء في سورة فصلت[8] أن الكافريــن قــالوا للنبى "ومن بيننَا وبَينَكَ حِجَابٌ" وجاء في سورة الشورى[9] "وما كَانَ لَبشَرٍ أن يُكَلّمهُ اللهُ إلاَّ وحياً أو مِن وراء حَجابٍ" كما كان الحال مع موسى.[10]

والحجابــة موضوعها أن صاحبها كانت مهمته أن يفصل بين الأمراء والجند أحياناً بــرأيه هو فقط، وأحياناً بعد مراجعة السلطان أو النائب إن كان، وصار له أتباع من الحجاب قد يزيدون عن عشرة؛ وكانت مهمتهم جميعاً لا تتعدى المحاكمات والخدمة؛ وقد كان أعلاهم الحاجب الثانى الذى كان يسمى حاجب الميسرة، وكان المصرف في الحكم في القاهرة، ويليه حاجب ثالث وهكذا.[11]

ويعتــبر الحاجب أحد أفراد الحاشية التى تحيط بالقضاة[12]، وكانت مهمتهم الأساسية حراســة بــاب القاضى[13]، وطلب الإذن لذوى الحاجات[14]، وتنظيم المجلس، ومنع الناس من

---

3 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥١.

4 الفيومى، كتاب المصباح المنير، القاهرة ١٩٢٦م، ص١٦٦ - ١٦٧.

5 سورة الأحزاب الآية ٥٣.

6 سورة الأعراف الآية ٤٦.

7 الطبرى، التفسير، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ، جـ٢٧، ص١٦.

8 سورة فصلت الآية ٥.

9 سورة الشورى الآية ٥١.

10 الطبرى، التفسير، جـ٢٥، ص٢٥؛ دائرة المعارف الإسلامية، م٧، القاهرة ١٩٣٣م، ص٣١٠ - ٣١١.

11 القلقشــندى، صــبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، جـ٤، ص١٩، جـ٥، ص٤٤٩؛ ضــوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، ط١، ١٩٠٦م، ص٢٤٧؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٨٠٧ هامش ٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، أعلام العرب عدد ١٤، القاهرة ١٩٦٣م، على إبراهيم حسن، الجيش والبحرية في عصر المماليك، القاهرة، بدون تاريخ ص٥.

12 ابــن حجــر، رفع الأصر عن قضاة مصر، ص١٣٧؛ جمال جرجس يوسف،القضاء في العصر المملوكى مع تحقيق مخطوطــة نزهة النظار في قضاة الأمصار، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٢م، ص ١٠١ - ٢٠١.

13 حسن إبراهيم، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة ١٩٤٤م، ص٣٥٦.

14 السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شلبى، ط١، القاهرة ١٩٤٨م، ص٦٠ - ٦١؛ انظر ايضــا عبد الخالق حسين محمد، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراة غير منشورة جامعة القاهرة، كلية دار العلوم ١٩٨١، ص ٢٥٢.

المزاحمة، أو إساءة الأدب، ولو أدى إلى استعمال السوط لتأديب المخالفين للنظم؛ وكان بعض القضـــاة يبالغ في تحجبه وعدم الظهور للناس والاكتفاء بحكم نوابه، وكانت الأمانة أهم صفاته حتى لا يجد الخصوم سبيلاً على التأثير فيه عن طريق الرشوة.[١٥]

أمـــا فيما يتعلق بالحجابة في صدر الإسلام، فقد عرفت وظيفة الحجابة في مكة قبل الإســـلام، وكانت تعنى حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها، ثم عرفت في الإسلام بدلالة جديدة، إذ أصـــبح الحاجب يطلق على من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم عملية الاتصال به.[١٦] وعلى الرغم من أن الخلفاء الراشدين لم يمنعوا أحداً من الدخول عليهم، إلا أن كـــل خلـــيفة مـــنهم أتخذ حاجباً طوال مدة خلافته، فيذكر المؤرخون أنه كان لأبى بكر حاجب يسمى "شديداً" وحاجب لعمر بن الخطاب اسمه "يرفأ"، وحاجب لعثمان بن عفان "مولاه" "حمران"، ولعلى بن أبى طالب حاجب يسمى "قنبر" وهكذا في كل خليفة.[١٧]

وتجدر الإشارة على أن وظيفة الحجابة بلغت شأنا كبيرا بعد محاولة الخوارج اغتيال كـــل مـــن الإمـــام علـــى بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، لاسيما أن الرعية قد أخذوا يـــتزاحمون علـــى بـــاب الخليفة لأسباب شتى مما أضطر خلفاء بنى أمية وولاتهم إلى اتخاذ الحُجْـــاب.[١٨] وقد استمّرت الحجابة في الدولة العباسية، بل وازدادت أهميتها وسلطتها تدريجياً، فقويـــت بذلك شوكة الحجاب فصاروا يمنعون الناس عن مقابلة الخليفة إلا فى الأمور المهمة، إذ صـــار بين الناس والخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكانة على ما يـــراه الحاجـــب، ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون على الخليفة نفسه ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام.[١٩]

15 عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، ص١٢٨.

16 ابـــن خلدون، المقدمة، ط٥ بيروت ١٩٨٤م، ص٢٢٤؛ القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣٤١؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، ١٩٩٦م، جـــ١، ص٣٦٠ – ٣٦١.

17 القلقشـــندى، صـــبح الأعشى، جـــ٥، ص٤٤٩؛ حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط١ القاهرة ١٩٣٩م، ١٨٦.

18 القلقشـــندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٢٧٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩١؛ على إبراهيم، تاريخ المماليك، ص١٩١؛ النظم الإسلامية، ص١٨٦.

19 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٢٧٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩١؛ حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، ص١٨٧؛ جـــرجى زيـــدان، تاريخ التمدن الاسلامى، طبعة دار الهلال، القاهرة ١٩٨٦م، جـــ١، ص٢٥٩، وقد كان للواثق أبو جعفر هارون حاجبه ايتاخ، وللمعتز حاجبه سماء، وللمهدى حاجبه باك باك وللمعتضد حاجبه صالح الأمين وللمكتفى حاجبه خفيف السمرقندى، كما كان للمقتدر حاجب يدعى سوسنا وللقاهر حاجباً يدعى على، وللراضى حاجب يدعى محمد بن ياقوت وكذلك للمستكفى والمطيع وهكذا، انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣.

وقد عرفت الحجابة في مصر الإسلامية على عهد الدولة الطولونية، وأطلق على من يتولاها اسم "حاجب الباب"[٢٠]، وفى زمن الدولة الفاطمية كان متوليها يطلق عليه فى ذلك الحين اسم "صاحب الباب"[٢١]، ثم عرفت من بعدهم في عهد الدولة الأيوبية وأطلق على صاحبها اسم حاجب أمير المؤمنين،[٢٢] وقد عرفها الأيوبيون عن طريق دولة الأتابكية والدولة النورية.[٢٣]

وفى عصر المماليك عظمت الحجابة حتى أصبحت تضاهى وظيفة نيابة السلطنة في الأهمية والمرتبة، ولعل هذا ما دفع القلقشندى ليضعها في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية التى يشغلها الأمراء، حيث قسم هذه الوظائف إلى خمس وعشرين وظيفة وهى على التوالى: النيابة،[٢٤] الأتابكية،[٢٥] رأس نوبة،[٢٦] أمير مجلس،[٢٧] أمير سلاح،[٢٨] أمير آخور،[٢٩] الدوادارية،[٣٠] الحجوبية، أمير جاندار،[٣١] الأستادارية.[٣٢]

---

20 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٦٦. Zaky- Mohamed Hassan, *Les Tulunides*, Paris, 1933, pp. 193-194.

21 ابـن الصيرفى، قانون ديون الرسائل، ط١، القاهرة ١٩٠٥م، ص١٦٦؛ *The Encyclopedia of Islam*, Leiden 1986, vol 3, p.47.

22 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣١٤.

23 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٤٧؛ *The Encyclopedia of Islam*, vol. 3, p.47.

24 يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة، والنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فـي التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان، وهناك نواب أقل درجة أشبة بالحكام المحليين، لا يختص الواحد منهم إلا بما يتعلق بحدود نيابته، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦، سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة ط٢ ١٩٧٦م، ص٤٨٣؛ انظر ايضاً ليلى عبد الجواد، نائب السلطنة في القاهرة عصر دولة المماليك البحرية، مجلة المؤرخ المصرى، القاهرة العدد ١ يناير ١٩٨٨م، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص١٥٩ – ٢١٩؛ محمد عبد الغنى الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٥٨، القاهرة ١٩٩٩م.

25 أتابك لفظ تركى، معناه مربى الملك وكان آل سلجوق إذا امتاز أحد ولاتهم وأرادوا تشريفه اضفوا عليه هذا اللقب أمعاناً فـي تكـريمه، وقد استطاع بعض أولئك الأتابكية تأسيس بيوت حاكمة صغيرة عندما ضعفت دولة السلاجقة وعرفت هذه الدويلات الصغيرة باسم الأتابكيات، النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٥م، جـ٢٧، ص١١؛ محمد الأشقر، نائب السطنة، ص٥٤ هامش ٢٠؛ قتيبة الشهابى، معجم أرباب السلطان في الدولة الإسلامية من العصر الرشيدى حتى بدايات القرن العشرين، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٥– ١٦.

26 رأس نوبة وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناة. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٤٠.

27 يـتولى صاحب هـذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير، كما كان يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم القلقشـندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨، جـ٥، ص٤٥٥؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٢٥٩ وما بعدها؛ سعيد عاشور العصر المماليكى، ص٤١٥.

28 أمير سلاح هو المختص بحمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة والمتحدث في السلاح خانة السلطانية وما يستعمل بهـا، ومـا يقـدم إليها، ويطلق منها، وقد صنفه القلقشندى في المرتبة الخامسة بين كبرى الوظائف التى يشغلها عسكريون بالقصر السلطانى، ثم علت مرتبته فصار يلى أتابك العساكر مباشرة كما يفهم من ابن شاهين الظاهرى، حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٢٢٤ وما بعدها، أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٩.

وحتى لا يحدث ما خشيه المانعون لاتخاذ "الحجاب"، خوفا من رشوتهم أو تمييزهم بين الناس، اشترط فيمن يشغل هذه الوظيفة صفات من أهمها وأبرزها: العدالة، والعفة والأمانة. بالإضافة إلى حسن المنظر، وسلامة المخبر، ومعرفته بمقادير الناس، وبعده عن الهوى والمعصية، واعتدال أخلاقه بين الشراسة واللين.

كما كان يوصى القضاة في سجلات تعيينهم أن يكون الحاجب: "تقى الجيب، مأمون المشهد والغيب، مستشعر التقوى، في السر والنجوى، سالكاً للطريقة المثلى، غير متجهم للناس... فلينتخبه من بين أصحابه، وممن يرتضيه من أمثاله وأضرابه".

ويبدو أن عدم الاذن لبعض الشخصيات في الدخول على القاضى كان يؤلمها فقد ذكر القاضى "سراج الدين يونس الأرمنتى قاضى قائلاً: جئت إلى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢، واردت الدخول فمنعنى الحاجب، وجاء الجلال العسلوجى فأدخله وغيره، فتألمت وأخذت ورقة وكتبت فيها:

"قل للتقى الذى رعيته *** راضون عن علمه وعن عمله"

"انظر إلى بابك... *** يلوح من خلله"

"باطنه رحمة وظاهره *** يأتى إليك من قبله"

ثم دخلت وجعلت الورقة في الدواة، وظننت أنه ما رأنى وقمت، فقال: اجلس، ما في هذه الورقة؟ فقلت: يقرؤها سيدنا، فقال: أقرأها أنت، فكررت عليه وهو يرد على، فقرأتها فقال: ما حملك على هذا؟ فحكيت له، فقال: هل وقف عليها أحد؟ فقلت: لا فقال: قطعها. [٣٣]

ويستشف من المصادر المملوكية المعاصرة أن عدد شاغلى هذه الوظيفة من الحجاب كان في تزايد مستمر طوال العصر المملوكي؛ ويشير المقريزى في عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م

---

29 أمير آخور، وظيفة يقوم صاحبها بالأشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وبغال وجمال، وكانت مهمته خطيرة في السلم والحرب فقد كان عليه أن يكون متأهباً دائماً لسفر السلطان أو إنتقاله في ليل أو نهار، وأن يعد موكب السلطان حسب ما جرت به العادة. انظر سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤١٤؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الاسلامية، ص٤٠؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، ص١٧٤ وما بعدها.

30 الدوادار أى ممسك الدواة والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه، سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٣٨.

31 الجاندار الأمير الذى كان يستأذن السلطان في دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان، كما كان يشترك مع الدوادار في تقديم البريد. لمزيد من التفاصيل انظر حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص١٩٥ وما بعدها؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٢٦؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الاسلامية ص٤١.

32 الاستادار، وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان في الأسفار وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم. القلقشندى، صبح الأعشى جـ٤، ص٢٠، جـ٥ ص٤٥٧؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٣٩ وما بعدها؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٤١.

33 عبد الخالق حسين، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥٢-٢٥٣.

بأنه "كان العادة أولاً أن يوجد حاجب واحد، ثم أستقر حاجب الحجاب وحاجب ثان ثم زيد في الأيام الإشرافية حاجب ثالث.[٣٤]

وبعد أقل من عام يعود المقريزى فيذكرنا في حوادث عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م أنه "خلع على الأمير منكلى الطرخانى مزيد حاجباً رابعاً وخلع على الأمير جلبان العلائى فكان حاجب خامس، ولم يعهد قبل ذلك خمسة حجاب في الدولة التركية"[٣٥] فعد ذلك من النوادر كما يذكر ابن أياس".[٣٦]

وإذا كان المقريزى يبدى دهشته على تلك الزيادة فإن ابن تغرى بردى يعلق على ذلك بقوله "وعد ذلك من الاشياء التى استحدثها الملك الظاهر برقوق".[٣٧]

وفى عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م خلع السلطان برقوق على الأمير قطلوبغا الصفوى واستقر حاجب الحجاب، وخلع على الأمير بتخاص واستقر حاجب ميسرة، وعلى الأمير قديد واستقر حاجباً ثالثاً وعلى باشاه واستقر حاجباً رابعاً.[٣٨]

وفى عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م قدم البريد يحمل أخباراً بتعيين سيدى أبو بكر بن سنقر الجمالى حاجباً ثالثاً، وفى العام التالى ٧٩٧هـ/١٣٩٤م أنعم على الأمير فارس بن قطلق خجا بإمرة مائة وتقدمة ألف وخلع عليه واستقر حاجب الحجاب عوضاً عن الأمير بتخاص المستقر في نيابة الكرك.[٣٩]

وبعد ثمانية أعوام ، وفى عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، يحدثنا الصيرفى أنه: "في يوم الثلاثاء سابع عشرة خلع على الأمير منكلى بغا الدوادار فاستقر حاجبا... فصارت الحجاب سبعة في الديار المصرية".[٤٠]

وفى اليوم التالى مباشرة أى في يوم ثمان عشر من ربيع الأخر عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م يشير المقريزى بقوله "خلع السلطان الناصر فرج على أحد الأمراء فاستقر حاجباً ثامناً"، ولم يعهد بمصر مثل ذلك فيما سلف".[٤١]

---

34 المقريزى، السلوك، جـ٣، ق٢، ص٤٤١.

35 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٤٤٢، ٤٨٠؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢٨.

36 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣ – ٣٢٤.

37 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢٨.

38 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٥.

39 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٠٠، ٤١٧.

40 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤١ – ٤٢.

41 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص٩٩٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦٢، ص١٩٧.

ويــبدو أن عــدد الحجــاب قد ظل على هذا المنوال في التزايد المطرد على أن بلغ عددهــم في أواخر عصر المماليك الجراكسة إلى ما يقرب من عشرين حاجبا، كانوا جميعهم من غير الأمراء.[٤٢]

ويعلــق ابــن تغرى بردى على ذلك بقوله:"والسُكات أجملُ فإن تلك الحجاب الثمانية كــان فــيهم ثلاثة أمراء ألوف وثلاثة طبلخاناه، وأما يومنا هذا ففيه بمصر أزيد من عشرين حاجــبا، ما فيهم أمير خمسة بل الجميع أجناد، وفيهم من جنديته غير كاملة، والحاجب الثانى أمير عشرة فسبحان الحكيم الستار".[٤٣]

ومما يلفت النظر أن هذه الزيادة في عدد حجاب مصر المملوكية قد بدأت في أواخر القــرن الثامــن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، ثم أخذت صورة سريعة ومطردة، فلم يمض ســوى اقل من عشرين عاماً فقط إلا وكان عدد الحجاب قد وصل إلى ثمانية حجاب وهو أمر أدهــش بعض المعاصرين لهذه الأحداث فنجد المقريزى، إضافة إلى ابن تغرى بردى، يعبر عن دهشته بقوله "وهذا بخلاف العادة".[٤٤]

ولعلنا إذا دققنا النظر فى الأمر وبحثنا عن السبب الخفى الذى ساعد على هذا التزايد المطــرد فــى عدد الحجاب لما اندهشنا مثلهما، ذلك لأنه إذا كان القلقشندى قد وضع وظيفة الحجابــة في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية، إلا أن مجرى الأحداث يشير إلى أن هذه الوظــيفة قــد تعاظمــت أهميتها بدرجة كبيرة عقب إلغاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظيفة نائب السلطنة عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م.

وتؤيــد الأحــداث هذا الرأى، فيحدثنا ابن تغرى بردى بقوله "وأما الحجوبية فوظيفة جلــيلة في الدولة التركية وليست هى الوظيفة التى يليها حجبة الخلفاء، فأولئك كانوا يحجبون الــناس عن الدخول على الخليفة، وليس من شأنهم الحكم بين الناس والأمر والنهى، وهو مما جــدده السلطان الظاهر بيبرس، لكنها عظمت في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون حتى عدلت النيابة.[٤٥]

ولــم يقتصر الأمر على مجرد أن الحجابة قد عدلت وظيفة نيابة السلطنة، بل وصل إلــى درجــة أن حلت محلها في المرتبة والأهمية، بحيث انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات نائــب الســلطنة،[٤٦] ولعله في حديث ابن تغرى بردى عن أُلماس حاجب الحجاب ما يؤيد ما

---

42 ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤، ص٣٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٩٧؛ عــبد المــنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، القاهرة ١٩٨٢م، ص٤٥ – ٤٦.

43 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٩٧.

44 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٣٠١؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٩٧ وما بعدها.

45 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٨٥؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة، ص٢٥١.

46 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣١٤.

يذهب إليه الباحث؛ إذ يخبرنا في عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م بأن ألماس هذا "قد ولى الحجوبية وليس بالديار المصرية نائب سلطنة فعظم أمر ألماس في الحجوبيه، فصار هو فى محل النيابة... ويركبون الأمراء وينزلون فى خدمته ويجلس فى باب القلعة فى منزلة النائب، والحجاب والأمراء وقوف بين يديه".[47]

ومما يؤيد وجهة نظر الباحث هى أن الزيادة السريعة في عدد الحجاب بمصر في هذه المدة اليسيرة قد ارتبطت بصورة أو بأخرى بإلغاء السلطان الناصر محمد لوظيفة نائب السلطنة مما ترتب عليه تعاظم أهمية الحجابة، يضاف إلى ذلك أن الفترة الفاصلة بين كليهما لا تتعدى فترة النصف قرن إلا قليلاً.

وقد برز في عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة طائفة من الحجاب المميزين، فكثيراً ما كان السلطان يوليهم هذه الوظيفة مادامو حائزين لرضاه، فإذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم. ونتبين ذلك من كثرة عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب في تلك الفترة من عام ٧٠٩ - ٧٤٠هـ/١٣٠٩ - ١٣٣٩م إذا بلغ عددهم أربعة عشر حاجبا على ما رواه صاحب "تاريخ سلاطين المماليك" وهم سنقر الكمالى، بكتمر الحسامى، لاجين العمرى، الطنبغا محمد بن الوزيرى، طينال بيبرس، الماس الجاشنكير، قطلوبغا المعزى، أمير مسعود بن الخطير، جاريك قفجق، أيدغدى الخوارزمى، أقول، محمود ابن خطير، برسبغا.[48]

ومما تجدر الإشارة إليه أن تزايد عدد الحجاب في العصر المملوكى لم يقتصر على الديار المصرية فحسب بل، وصلت هذه الزيادة على سائر نيابات وأقاليم الدولة، فيذكر القلقشندى "أنه وجد في نيابة دمشق على عهد المنصور قلاوون ثلاثة حجاب، وربما كانوا أربعة ثم تزايدوا في أيام الظاهر برقوق واصبحوا خمسة أو ستة، بينما وصلوا في نيابة حلب إلى أربعة حجاب، أما في طرابلس فكان عددهم ثلاثة، وبالنسبة لحماة فوصل عددهم إلى أثنين".[49]

ويلاحظ أن نسبة تزايد عدد الحجاب في نيابات السلطنة المملوكية لا يمكن مقارنتها بمصر، وذلك يرجع إلى بعض الاعتبارات الخاصة بوضعية مصر على اعتبارها حاضرة الحكم المملوكى، فقد وجد بها نظام إدارى معقد ومتسع، فضلاً عن الأهمية الكبرى التى تمتعت بها مصر بالنسبة لسلاطين المماليك.

ونتيجة لتزايد عدد الحجاب في مصر المملوكية كان لابد وأن يقابله من ناحية أخرى تزايد مستويات ومراتب الوظيفة، فقد أصبحنا نسمع عن الحجوبية الأولى أو الكبرى وحاجب

---

47 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠٧ - ١٠٨.

48 زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٧ - ١٤٨؛ على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك، ص١٩٢.

49 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨٦.

الحجـــاب، الـــذى يعتبر منصبه من أهم مناصب السلطنة عدا نائب السلطنة، وكان يعبر عن حاجـب الحجـــاب في ديوان الإنشاء بأمير، أما عن التسمية ذاتها فترجع إلى أنه كان لحاجب الحجـــاب أعوانـــه يساعدونه في أداء عمله، إذ كان يتبعه عدد من الحجاب فيأتى بعده مباشرة نائبه وكان كلاهما أمير مائة مقدم ألف.[٥٠]

وتـــأتى بعـــد ذلـــك الحجوبية الثانية أو الصغرى أو حاجب الميسرة وهو أحد أتباع حاجب الحجاب وكان يتصرف بالحكم في القاهرة،[٥١] ثم يأتى بعده حاجب ثالث ورابع وخامس وهكـــذا إلـــى ما يزيد عن عشرة برسم المحاكمات والخدمة؛[٥٢] وقد بلغ عددهم أواخر عصر سلاطين المماليك عشرين حاجبا كان جميعهم من غير الأمراء[٥٣] كما ذكرنا انفاً.

وقـــد ترتـــب على تعدد مراتب ومستويات وظيفة الحجابة في العصر المملوكى، أن تفاوتـــت الشـــروط الـــتى يجـــب توافرها في شاغلى هذه الوظيفة من مرتبة لأخرى، فيشير القلقشـــندى إلى أن الذى جرت به العادة خمسة حجاب أثنان من مقدمى الألوف أولهما حاجب الحجـــاب ونائـــبه[٥٤] ويضع ابن شاهين حاجب الحجاب في المرتبة السابعة بين الأمراء أرباب الســـيوف الـــتى تقضى وظائفهم أن يكونوا من جملة أمراء الطبلخاناه، ويضع الحاجب الثالث وســـبعة حجـــاب بين الأمراء العشرينات والعشروات.[55] أى أنه كلما تناقصت درجة ومرتبة الوظيفة كلما تناقصت أمرة شاغلها.

ومـــن الجدير بالذكر أن وجود الحجاب في عصر دولة سلاطين المماليك لم يقتصر علـــى القاهـــرة حاضـــرة الدولـــة فحســـب، بـــل وجد الحجاب في سائر أقاليم الدولة، فوجد بالإســـكندرية حاجب كان يسمى رسميا "الحاجب بثغر الإسكندرية المحروسة" وكان يكتب إليه عـــن الأبـــواب السلطانية،[٥٦] وكان إما برتبة طبلخاناه أو أمير عشرة، وفى الحالة الأولى كان يكاتـــب "بالمجلس السامى" وفى الحالة الثانية "بمجلس الأمير"، وكان يوجد على جانبه حاجب برتبة جندى.[٥٧]

---

50 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩؛ ضوء الصبح، ٢٤٥، ٢٤٩.

51 حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص٣٨٨.

52 Van Berchem, M., *Materiaux pour un corpus inscriptorum, arabicarum, Egypte*, I, Le Caire 1894-1903 p. 567.

53 ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٥.

54 القلقشندى، صبح الأعشى،جـ٤، ص١٩؛ ضوء الصبح، ص٢٤٧.

55 ابـــن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤ – ١١٥؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ط بيروت ١٩٨٨م، ص ١٠٣ – ١٠٤.

56 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص١٥٦؛ ضوء الصبح، ص٢٧٤.

57 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٧٤.

أمـــا عن نيابة الوجه القبلى والبحرى فلم تكن على قاعدة النيابات الأخرى من حيث ترتيب الحجاب أو ركوب المواكب.[٥٨]

وقـــد عرفت وظيفة الحاجب في النيابات خارج الديار المصرية، بمراتبها المختلفة، ففـــى دمشق كان حاجب الحجاب عادة برتبة أمير مائة مقدم ألف، أما الحاجبان الثانى والثالث فكـــان كلاهما برتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرة وفى بعض الأحيان كان يعين بدمشق أربعة حجـــاب أحدهـــم الحجـــاب برتـــبة أمير مائة مقدم ألف، أما الثلاثة الباقون فكان منهم أمراء طبلخاناه أو طبلخانات وعشرون وعشرة وغير ذلك.[٥٩]

وكـــان ترتيـــبهم في المواكب أن يكون حاجب الحجاب والذى يليه في الرتبة ميمنة والـــثانى ميسرة؛ وهكذا كان الحال في حلب على ما يبدو؛ أما في غزة فكان حاجب الحجاب برتـــبة أمـــير طـــبلخاناه، ومن دونه أمير عشرة، ووجد في طرابلس أيضاً حجاب من أرباب السـيوف وكـــان بها ثلاثة حجاب أكبرهم أمير طبلخاناه وهو صاحب الحجاب، أما الآخران فكـــان كلاهمـــا أمير عشرة، كما كان حاجب الحجاب في نيابة حماة أمير طبلخاناه، بينما كان الثانى أمير عشرة[٦٠] ويبدو، طبقاً للمصادر المملوكية، أن وظيفة الحجابة قد ظهرت في عصر الدولـــة المملوكية في عام ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م؛ والدليل على ذلك عندما ركب الملكان الأشرف والمعـــز بالصـــناجق السلطانية[٦١] وشقا القاهرة والمعز يحجب الأشرف، والأمراء تتناوب في حمل الغاشية[٦٢] واحدا بعد واحد، والمقصود هنا أن المعز أيبك كان يؤدى وظيفة الحاجب في ذلك الموكب، أى أنه كان راكباً أمامه بعصا في يده.[٦٣]

وإن كـــان ابـــن إياس قد ذكر في حوادث عام ٦٩٤هـــ/ ١٢٩٤م بقوله "لما تسلطن كتـــبغا أخلـــع على الأمير بهادر، وجعله حاجب الحجاب، وهو أول من أحدث هذه الوظيفة، وجعلهـــا وظـــيفة كبـــيرة، ولـــم يكن قبل ذلك شيء يقال له حاجب الحجاب فعظم أمرها من يومئذ."[٦٤]

---

58 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٦.

59 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص١٨٦، ضوء الصبح، ص٣٢٩ – ٣٣٠.

60 القلقشـــندى، صـــبح الأعشى، جـــ٨، ص٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـــ١، ص٣٨٩، ٣٩٣.

61 الصناجق السلطانية، من شعار السلطنة، وهى عبارة عن رايات صفر صغار، المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٤٤٣، هـــ١.

62 من شعار السلطنة، وهى غاشية سرج من أديم محزوز بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يديه (أى السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة، كالميادين والأعياد ونحوها. المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٤٤٣ هـــ١.

63 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٥، ص٤٥١؛ المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٣٧٠.

64 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق١، ص٣٨٧.

رسوم الحجابة ونظمها:

جرت العادة عند تعيين أحد الحجاب بالقاهرة فإنه يكتب له تقليد بذلك حسب تقاليد ذلك العصـــر، والدلـــيل على ذلك أن مراسيم السلاطين كانت توجه فى بعض الأحيان إلى النواب والحجـــاب، كمـــا يتضح من وثيقة باسم السلطان الغورى بتاريخ سنة ٩١١هـــ/ ١٥٠٥م جاء فـــيها "مرســـوم شريف إلى كل واقف عليه وناظر إليه من الجنابات العالية والمجالس السامية الـــنواب والحجاب... ضاعف الله تعالى نعمة الجنابات العالية وأعز المجالس السامية"[٦٥] وكان إذا عيـــن أمـــير المائة نائباً كتب له عن السلطان مرسوماً فى قطع النصف بالمجلس العالى، ويفتـــتح بـــالحمد لله، في حين كان مرسوم الطبلخاناه يكتب فى قطع النصف بالمجلس السامى بالياء، ومرسوم أمير العشرة فى قطع الثلث.[٦٦]

وتجدر الإشارة إلى ترتيب موكب الحاجب مع نائب السطنة، فقد كان الحجاب يسيرون وراء نائب السلطنة في يومى الاثنين والخميس، ويمر النائب راكباً حتى يأتى إلى مقعد مرتفع عـــن الأرض به دكة صغيرة مصنوعة من الخشب، فيترجل على جانب المقعد ويجلس على تلـــك الدكـــة، ويجلـــس حاجب الحجاب على مصطبة لطيفة معدة لجلوسه، فيجلس على يسار النائـــب قاضى القضاة الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى والحنبلى ثم قاضى العسكر الشافعى يليه الحنـــبلى، ومفـــتى دار العدل الشافعى ثم الحنفى ثم الوزير صفا مستقيماً، ويجلس كاتب السر أمـــام النائب على مقربه منه وعن يمينه ناظر الجيش ثم كتاب الدست على ترتيب منازلهم في مقابلـــة الصـــف الذى فيه قضاة القضاة ومن معهم، ويجلس باقى الموقعين بين الصفين مقابل صـــاحب الحجاب حتى يصلوهما فيصيرون كالحلقة المستديرة، ويقف الحجاب الصغار أسفل حاجـــب الحجـــاب، وترفع القصص،[٦٧] فيأخذها الحجاب الصغار ويناولونها لحاجب الحجاب، الـــذى يـــناولها بـــدوره لكاتـــب السر فيقرؤها عليه، ثم ينفض المجلس ويمد السماط فيأكلون وينصرفون.[٦٨]

الألقاب والخلع والزى:

أمدتـــنا المصـــادر التاريخـــية بـــالعديد مـــن الألقاب الخاصة بالحجاب فى العصر المملوكى، وفيما يلى عرض لهذه الألقاب كما وردت في المصادر المملوكية المعاصرة.

كانـــت ألقـــاب أمـــراء المئين التى تدخل فيها فئة الحجاب يخاطبون بأجل الألقاب، ونظـــراً إلـــى انقســـام أمراء المئين إلى طبقات فيما بينهم فإن ألقابهم كانت تتفاوت أيضاً تبعاً لذلك. وقد ذكر ابن فضل الله العمرى أن ألقاب أمراء المئين بالأبواب السلطانية كانت الجناب

---

65 حسن الباشا، الألقاب، ص٣٨٩.

66 حسن الباشا، الألقاب، ص٢٥٧.

67 القصص جمع قصة وهى الطلب أو الالتماس. انظر على إبراهيم، تاريخ المماليك، ص٢٤٤.

68 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣٢٤ – ٣٣٠.

الكريم ثم الجناب العالى ثم المجلس العالى، وبدمشق الجناب العالى ثم المجلس العالى، وبحلب المجلس العالى ثم المجلس السامى بالياء، وبطرابلس السامى بالياء.[69]

كما نعت الحاجب بأوصاف مختلفة فظهر مثلاً حاجب أجل، وحاجب أعظم، وحاجب بـــزرك، وحاجب أعلى، وحاجب كبير، وحاجب الحجاب، وأمير حاجب، وحاجب ثان وثالث ورابـــع، وحاجب ميمنة، وحاجب ميسرة، وحاجب خاص،[70] وحاجب دار،[71] وكان يعين بعد لفظـــة الحاجب اسم الإقليم الذى يعمل به مثل الحاجب بثغر الإسكندرية المحروسة، والحاجب بحمـــاة المحروسة، وحاجب الشام، وحاجب المملكة الحلبية، وحاجب النوبة. كما كان يضاف إلـــى لفظة الحاجب اسم الوظيفة أو الديوان الذى يعمل به كأن يقال حاجب القاضى، وحاجب الديوان.[72]

والحاجب الثانى هو نائب حاجب الحجاب في عصر سلاطين المماليك، وكان يسمى أيضاً الميمنة.[73]

أمـــا حاجـــب الحجاب فهى مشتقة من وظيفة الحاجب وهى تعنى من غير شك كبير الحجاب ورئيسهم، وقد ظهرت لأول مرة في عام ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م حين خلع الخليفة العباسى المتقى على بدر الخرشنى وقلده الحجابة وجعله حاجب حجاب.[74]

ويـــبدو أنـــه منذ القرن ٦هـ/ ١٢م كان حاجب الحجاب يسمى أحياناً بأمير حاجب وبأمير حاجب الحجاب مما يشير إلى سعة نفوذه وازدياد سلطانه.[75]

واســـتعمل حاجب الحجاب في عصر المماليك بدلالة كبير الحجاب سواء في الديار المصـــرية أو في النيابات الشامية مثل دمشق وحلب، ولو أن التعريف الرسمى لهذه الوظيفة كـــان "أمـــير حاجـــب"، كما كان يطلق عليه أيضاً اسم أمير حاجب الحجاب وكان يشغل هذه الوظيفة أمير برتبة أمير مائة مقدم ألف.[76]

أما عن الحاجب الكبير، فقد وردت صيغة الحجوبية الكبرى، في كتابات على الآثار العربـــية ترجع إلى أواخر عصر المماليك منها كتابة أثرية بمرسوم من حوالى سنة ٨٧٢هـــ/ ١٤٦٧م بالمدرسة الشمسية بطرابلس باسم السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى أشير فيه إلى

---

69 ابن فضل الله العمرى، التعريف بالمصطلح، ص٧٣ – ٧٤؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٨.

70 انظر مثلاً الراوندى، راحة الصدور، ص٤٦٢، ٥٠٥؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٣.

71 انظـــر البيهقى (أبو الفضل)، تاريخ البيهقى، ترجمة إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٥٥

72 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، جـــ١ ص٤٠٢ – ٤٠٣.

73 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٣.

74 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ٣، ص٢٧٢؛ حسن الباشا، الألقاب الاسلامية، ص٤٠٥.

75 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٦.

76 الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٧.

إيطـال "معلـوم الحجوبـية الكبرى" بطرابلس وقدره ١٣ درهماً على النحيرة، ومرسوم أخر بـتاريخ الثانى من المحرم سنة ٩٠٨هـ/٨ يوليو ١٥٠٢م بجامع طرابلس باسم حاكم طرابلس جـاء فيه "برسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلماً فى ديوان الحجوبية الكبرى واستادارية الديـوان الشـريف..." ويتضح من الكتابة الأولى أنه كان يأخذ بطرابلس ضريبة على الذبائح تذهـب إلـى الحاجب الكبير أشير إليها بمعلوم الحجوبية الكبرى، وقد أبطلها السلطان قايتباى بهـذا المرسـوم؛ أمـا الكتابة الأثرية الثانية فتذكر ديوان الحجوبية الكبرى والمشرف عليه، وتشـير أيضـاً إلـى أن المشـرف على هذا الديوان كان يفرض له ضريبة على الدخان أى الصناعات التى تسبب دخاناً.[٧٧]

كـان الحاجـب لا يمارس مهام منصبه قبل أن يخلع عليه السلطان خلعة التشريف وحسبنا دليلاً على ذلك ما جاء في المصادر من أن السلطان الظاهر بيبرس خلع على الملوك والأمـراء والـبحرية والحجاب وأرباب العمائم والوزراء والقضاة وحضروا بالخلع وذلك في عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م.[٧٨]

وفـى عـام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م أطلق السلطان من التشاريف ما عم به سائر من في خدمـته مـن ملك وأمير ووزير ومقدمى الحلقة ومقدمى المماليك والبيوت السلطانية، وجميع الكتاب والقضاة، وسائر أرباب الوظائف.[٧٩]

وفي عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م فوض السلطان ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فركب بشعار السلطنة[٨٠] من قلعة الجبل إلى باب النصر وعبر القاهرة وخرج من باب زويلة إلى القلعة وسائر الأمراء وغيرهم في خدمته، وخلع على سائر أهل الدولة.[٨١]

وتخـبرنا المصادر المملوكية أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنعم على الأمير سـيف الديـن أُلماس أمير حاجب بأُطلس كامل وعلى كل من الأمير سيف الدين أقول وبدر الدين مسعود بن خطير بخلعة طرد كامل وذلك في عام ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م.[٨٢]

---

77 Van Berchem, *Materiaux pour un corpus*, v. 25, pp. 59,73,74.

78 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٥١٩.

79 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٦١٢.

80 المقصـود بشـعار السلطة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها في المواكب الحفلة، مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين ونحوها. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٤٣ هامش ١.

81 القلقشـندى، صـبح الأعشى، جـ٤، ص٥٢، ٥٤، جـ١١، ص٤٢٦؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٠٨؛ المقريزى، السـلوك، جـ١ ق٢، ص٥٧٠؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٨ – ١٠٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٧٢؛ ماجد، نظم سلاطين المماليك، جـ٢، ص٦٥.

82 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٤٥.

ونقرأ في المصادر المملوكية أيضاً في أحداث عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م أن السلطان الناصر فرج خلع على الأمير مبارك شاه الحاجب بنيابة الوجه القبلي ورسم له أن يحكم من جزيرة القط إلى أسوان ويولى من يختار ويعزل من الولاة من يختار.[83]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م "خلع السلطان على الأمير نوروز وركبا فرسا خاصاً بسرج وكنفوش ذهب وطلع الأمير جكم وهو خائف، ولم يطلع قنباى ولا قرقماش، وجهز إليهما خلعتان على أن يكون قنباى نائباً بحماة، وقرقماش حاجباً بدمشق، ونزل جكم بغير خلعة".[84]

وفى عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م خلع السلطان برقوق على الأمير ألطنبغا العثمانى حاجب الحجاب بدمشق، فلبس التشريف وباشر العمل من الغد.[85]

ويخبرنا ابن إياس أيضاً في أحداث عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨ بأن السلطان جقمق خلع على الأمير يشبك المشد حاجب الحجاب، وقد حضر التجريدة وهو مريض ثم عوفى.[86]

ويشير السخاوى في حوادث عام ٨٥٠هـ/ ١٤٠٢م بأنه خلع السلطان جقمق على جانبك اليشبكى بكامليه بسمور طوش عند استقراره حاجبا وشاد دواوين بالإضافة إلى ولايته، وقيد له فرس بسرج ذهب وكنبوش زركش،[87] ولعله من الصعوبة بمكان، بل من المتعذر تماماً تحديد الأجزاء التى كانت تتألف منها الخلعة، فهذه الكلمة لا تعنى بالضرورة الملابس فقط ولكنها تعنى أشياء أخرى، قد تكون فرسا كامل القماش، وإن كان أميزها الملابس،[88] التى تتألف من فوقانى من الأطلس الاحمر[89] الرومى من آسيا الصغرى وتحته أطلس أصفر رومي وعلى الفوقانى طراز زركش ذهب وتحته سنجاب[90] وله سجف من ظاهره مع الغشاء

---

83 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٠٣..

84 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥١.

85 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٤٧، العينى، السيف المهد، ص٢٤٧.

86 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٩٦.

87 السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ١٨٩٦م، ص١٤٧ – ١٤٨.

88 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٢ – ٥٤، جـ١١، ص٤٢٦، المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٧٠؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص٩٧، ١٦٣، ٢١١؛ النويرى، حوادث ٧١١هـ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٧٢؛ ماجد، نظم دولة المماليك، جـ٢، ص٦٥؛ ماير (ل.م)، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٠٣.

89 يقال حرير أطلس، يعنى حريرية، خيوط ستان اى حرير ناعم جداً، عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, I, Leiden,1881 ,p. 281.

90 السنجاب، حيوان أكبر من الفأر وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء يلبسه المتنعمون وهو شديد الحيل، إذا أبصر الاشعة صعد الشجرة العالية وفيها يأوى ومنها يأكل ويوجد كثير في بلاد الصقالبة والترك وهو سريع الحركة عن الإنسان، وأحسن جلوده الأزرق الأملس. الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، ١٣١٣هـ/١٨٩٥؛ ومن ذيله فروة نفيسة كانت تستعمل لتزين الملابس كالقماقم، المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٩٨؛ Dozy, *Supplement*, I, p.634؛ ماير، الملابس المملوكية، ١٠٥.

قـندس،[٩١] وكلوته زركش بذهب وكلاليب ذهب وشاش لانس[٩٢] رفيع موصول به، في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان، مع نقوش باهرة من الحرير الملون، مع منطقة ذهب، ثم تخـتلف أحـوال المـنطقة بحسـب مقاديرهم، فأعلاها ما عمل بين عمدها[٩٣] بواكير وسطا ومرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية[٩٤] واحدة من غير ترصيع.[٩٥]

ودون هـذه الرتبة في الخلع كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نـوع لونـه تفاوت بينهما، وتحت سنجاب بقندس إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بطراف رقم، بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب والحياصة لا تكون ببيكارية.[٩٦]

بالإضـافة إلى ذلك كان أمراء المئين (الحجاب) يمنحون تشاريف أخرى في أوقات خاصة تكون عبارة عن أقبية من الحرير والكنجى أو نحوه.[٩٧]

وكان من عادة السلطان أن يعد لكل عيد خلعة على أنها لمبلوسه من نسبة خلع أكابر المئين، ولكنه لم يلبسها، وإنما كان يختص بها بعض أمراء المئين يخلعها عليه.[٩٨]

أمـا عن الإنعامات التى كان يمنحها السلطان، فقد كانت تتفاوت بحسب مزية المنعم عليه عند السلطان وقربه منه.[٩٩]

وكـان لخاصـة أمراء المئين، ومنهم الحجاب بطبيعة الحال، أنواع من الإنعامات: كالعقـارات الضـخمة الـتى ربمـا أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار وكساوى القماش المنوع، وكان السلطان إذا خرج إلى الصيد أنعم على أكابر أمراء المئين سنا وقدرا كل واحد

---

91 القـندس، وقـندز، نـوع مـن الجـرو الأوربـى يسـتخدم جلده، انظر ماير، الملابس المملوكية، ص٤٧ هامش ١؛ Dozy, *Supplement*, p. 410

92 عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplement*, p. 551.

93 أسماء دروع، ربما قد تكون مبطنة، عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplement*, p.542.

94 ببيكارية، جمعها بواكير وهى قطع معدنية هندسية مرصعة بالزمرد واللؤلؤ، انظر Dozy, *Supplement*, p.136.

95 القلقشـندى، صـبح الأعشـى جـ٤، ص٥٢ – ٥٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧ – ٢٧٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٥؛ ودون هذه الرتبة في الخلع نوع يسمي طردوحش يعمل بدار الطراز بالإسكندرية والقاهرة ودمشق وهو مجـوخ جاخـات مزين بأشرطة مكتوبة بالقاب السلطان، يفصل بين هذه الجاخات نقوش، وطراز من القصب، وعليه فرو سلجاب وقندس، وتحت القباء الطرد وحش قباء من المفرج الإسكندرانى الطرح، وكلوته زركش بكلاليب وشاش، وحياصة ذهـب، فتارة تكون ببيكارية، وتارة لا يكون بها بيكارية، انظر المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٨٨، هامش٢، ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٦.

96 ماير، الملابس المملوكية، ص ١٠٦ – ١٠٧.

97 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٢ – ٥٣.

98 العمـرى، مسالك الأبصار، جـ١، ص٥٥، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، جـ١ ص٢٥٥؛ وكان السلطان يخلع على أكابـر الأمراء في الميادين خلعة من المفرج المذهب، كما كان أمراء المئين ينالهم حظ كبير من الكسوة، فكان السلطان إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض أمراء المئين، وكان يفرق في كل موكب ميدان على أميرين، بالـنوبة، حتى يأتى على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نوبته في ذلك، للقلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦١؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٥، القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٩.

99 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٦.

منهم بألف مثقال من الذهب، هذا وقد كان أمراء المئين يحظون بأكثر إنعامات السلطان من الخيول، ذلك أنه قد جرت عادة السلطان أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين كل سنة، أما المرة الأولى فعند خروجه إلى مرابط خيوله على القرط في أواخر ربيعها حين كان ينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وكان خيول أمراء المئين منهم مسرجة ملجمة كنابيش من زركش، وأما المرة الثانية فكانت عند لعب الكرة بالميدان الكبير، وكانت خيول أمراء المئين في هذه المناسبة مثلها مثل خيول الطبلخانات - مسرجة ملجمة بفضة يسيرة بلا كنابيش، وكانت لخاصة المقربين من أمراء المئين والطبلخانات زيادات في ذلك بحيث كان يصل بعضهم على مائة فرس في كل سنة.[100]

وكان أمراء المئين يحظون بأقرب الأماكن إلى السلطان عند جلوسه في بعض المناسبات مثل جلوسه على السماط بالأيوان الكبير.[101]

أما بالنسبة لمن يعين حديثاً في منصب من المناصب وكان يحصل أحياناً على خلعة تسمى "خلعة الاستقرار"[102] وإذا امتدت خدمة أحد الموظفين الرسمية أو ثبت في وظيفة ثم حامت حوله بعض الشكوك، ثم أريد استمراره مع ذلك في العمل فكان يحصل أحياناً على خلعة تسمى "خلعة الاستمرار"[103] وعند وصول موظف كبير من أحد الأقاليم وجب تهنئته بسلامة الوصول بأن يخلع عليه "خلعة القدوم"[104] وعند استئذانه في الرحيل عن السلطان قبل سفره وجب منحه "خلعة السفر"[105] وإذا استقبل السلطان أميرا في مجلسه بعد تغيبه لمرضه، كان يمنح ثوب التشريف يطلق عليه "خلعة العافية"[106] للدلالة على شفاء الأمير وفى حالة الصفح عن أمير معزول وجب أن يمنح "خلعة الرضاء"[107] أو "خلعة الرضا"،[108] وكانت هذه الخلعة تمنح أحياناً دون أن يشغل صاحبها آية وظيفة.[109] وحتى الإقالة كانت تعتبر فرصة لتقديم خلعة يطلق عليها "خلعة العزل".[110]

100 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٤؛ ضوء الصبح، ص٢٦١؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٦.
101 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٧.
102 السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٨٤.
103 السخاوى، التبر المسبوك، ص٢١٥، ٣٨٩.
104 السخاوى، التبر المسبوك، ص٩٦.
105 زيترشين، تاريخ المماليك، صفحة ٩٨؛ المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص٨٦٥؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٩.
106 ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.
107 السخاوى، التبر المسبوك، ص٤٥؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.
108 السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٧؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.
109 السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، جـ٧، ص١٩٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص١٦٢؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.
110 ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

وكان رفض خلعة التشريف يعتبر إساءة خطيرة، إذ كان ذلك يعنى إعلان العصيان أو على الأقل المجاهرة بالعداء وعلى العكس من ذلك كان قبول خلعة التشريف علامة للتعبير عن الخضوع والولاء للسلطان.[١١١]

وكانت ثياب التشريف تصنع أصلاً في المصانع السلطانية، ولكن في العصر الجركسي كانت تصنع خاصة وتباع في سوق الشرابشيين[١١٢] في القاهرة، وبمضى الوقت حرم بيعها في السوق الحرة، ووضعت تحت رقابة "ناظر الخاص"[١١٣] واصبح لا يمكن لأى شخص ابتياعها عدا السلطان نفسه، الذى كان يمكنه شراء تلك الثياب من السوق رأسا.[١١٤]

وأخيراً نستشف من المصادر أن المناطق أى الأحزمة كان ضمن خلع التشريف، حيث كان السلطان هو صاحب الحق الوحيد في منح المناطق إلى الأمراء كجزء من خلع التشريف.[١١٥]

أما عن أزياء الحجاب فلم تمدنا المصادر المعاصرة بمعلومات مباشرة عن زى الحجاب ولكن يمكن للباحث أن يستشف بصورة غير مباشرة عن هذه المصادر ما كان يرتديه الحجاب، حيث كان الحجاب من أمراء المئين ومقدمى الألوف والطبلخاناة، ولذلك فإن ما تحدثت عنه المصادر المملوكية المعاصرة بشأن ملابس هؤلاء يمكن تطبيقها بالقياس على الحجاب.

أمدتنا المصادر التاريخية بوصف تفصيلى لزى أمراء المئين،[١١٦] الذى كان يختار منهم الحجاب، وكان هذا الذى يتميز بالأناقة الباهرة حتى قال المقريزى عنهم "أنهم تأنقوا وتفاخروا فيه".[١١٧] فكانوا يلبسون فوق ثيابهم ثوبين متميزين: القباء[١١٨] "الفوقانى" أقصر من

---

111 مايرء الملابس المملوكية، ص١١٠ – ١١١.

112 الشرابشيين، لفظ فارسى من كلمة شربوش ومعناه غطاء للرأس وهى معربة عامية بمعنى طربوش، محمد التونجى، المعجم الذهبى، بيروت، ١٩٦٩، ص٣٤١؛ والشرابشيين مفردها شربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة، المقريزى، الخطط ، جـ٣، ص١٦٠، وفى دوزى قلنسوة يرتديها الأمراء بغير عمامة، وقد بطل استخدامها في الدولة الجراكسية، انظر محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في مصر المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م، ص٩٧. وايضاً Dozy, *Dictionnaire*, pp. 220 223

113 ناظر وجمعه نظار، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، وناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان.انظر سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام، ط٢ ١٩٧٦م ص٤٨٠.

114 المقريزى، الخطط، جـ٢ ص٩٩؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٣.

115 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ص٤؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٧٤٥.

116 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٢؛ المقريزى، الخطط، جـ٣ ص٣٦٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٤؛ ماجد نظم المماليك، جـ٢، ص٥٢.

117 المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠م، ص٦٩.

118 القباء جمع أقبية، ثوب يلبس فوق الثياب سمى بذلك لإجتماع أطارفه. انظر العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٠؛ Dozy, *Supplément* , I, p. 352.

"التحتاني" ويكون طوله وأكمامه أقصر بلا تفاوت كبير عرف فيما بعد بالسلارى،[119] نسبة إلى الأمير سلار نائب السلطنة، الذى أوجده، وكان قبل ذلك عبارة عن بغلطاق[120] يزدان باللؤلؤ والجواهر، والقباء التحتانى من قماش أملس أطلس ايضاً، لونه اصفر، محلى بشعر سنجاب ومبطن داخله وأطراد بسجف[121] بفرو قندس.

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م شرع الأمراء في ارتداء "أقبية قصيرة الأكمام" فوق القباء، ولكن أكمامها أكثر اتساعاً من أكمام القباء التحتانى الضيقة.[122]

ويخبرنا العينى في أحداث عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م أن الحاجب جمال الدين الموصلى حين مات كانت عليه أقبية أطلس وكلوتات زركش.[123]

ومن المحتمل أن يكون هذا القباء كان مطابقاً تماماً للقباء السلارى الذى أدخله الأمير سلار[124] نائب سلطنة الناصر محمد بن قلاوون لأن القباء "السلارى" أو السلارية كان يطابق معطفا عرف من قبل "بالبغلطاق"، هذا وقد ورد وصف الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة وانه كان يلبس تحت البغلطاق الفرجية وكان من المألوف وقبل أيام سلار توزيع الأردية "البغلطاق" كمنح وهدايا،[125] ثم اصبح من المألوف عمل "السلارى" من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة، مثل القطن البعلبكى، من فراء السنجاب الرمادى، ومن الأطلس ذى الخيوط المعدنية، وكان يحلى أحياناً بزخارف فخمة وأحياناً آخر تنثر عليه اللآلىء والأحجار الكريمة،[126] وكانت التخفيفة مع السلارى يعتبران من الأزياء المملوكية الصميمة، أما في

---

119 وصف القباء السلارى بأنه قصير الطول والكم، المقريزى، الخطط، جـ٣، ص١٦٠ وايضاً Dozy, *Supplément*, I, p. 678.

120 بغلطاق، جمعها بغالطيق أو بغالطق وهي لفظة فارسية تعنى قباء له كم قصير من قماش بعلبك. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٤، هامش ٥.

121 انظر Dozy, *Supplément*, I, p.43.

122 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٠٧.

123 العينى، عقد الجمان، في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٠، جـ٣، ص٢٢٥.

124 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٩٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٧٩ - ١٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٥؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٨؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص١٢٨.

125 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ١٥٥؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٤؛ Dozy,R., *Noms des vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845, pp. 81- 82, 84; Quatremére,M., *Histoire des sultans mamlouks, de l'Égypt*, Paris, 1845, pp. 70-71.

126 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٥١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٧٥.

عصـــر المماليك الجراكسة، فقد شاعت الملوطة وهى عبارة عن عباءة عارية، كانت خاصة بأمراء المئين وكان يلبس فوقانى غير مزرر له ياقة معها "تخفيفة صغيرة".[١٢٧]

وفـــى فصـــل الشـــتاء وبخاصـــة في الأيام الممطرة، كان الأمراء يرتدون عباءات مصـــنوعة من خامة خشنة لها وبر يطلق عليه اسم "جوقة" ولكن في ايام المماليك الجراكسة تغيرت الأمور تغيراً عظيماً واصبح يرتديها عامة الناس.[١٢٨]

وفـــى الشـــتاء أيضاً كانت تصنع الملابس من الصوف الملون أو من الحرير غالى الثمـــن، وكانت تبطن بالفراء، وجرت العادة أن يستعمل الأمراء فراء السمور[١٢٩] والوشق[١٣٠] والقماقم[١٣١] والفنك أى السنار والسنجاب والرمادى والقندس.[١٣٢]

وفـــى فصل الصيف كانت جميع الملابس "الفوقانية" بيضاء وتصنع من قماش رخو يطلق عليه اسم "نصافى" أو ما يماثله من أقمشة أخرى.[١٣٣]

أمـــا مناطق الأمراء أى أحزمتهم التى عرفت أيضاً باسم الحياصة[١٣٤] فكانت تصنع من معدن ثمين أفخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب وصنعت أحياناً من الذهب الخالص

---

127 مـــن المعـــروف أن الملوطة صارت أيضاً رداء لغير العسكريين، ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص٣٠٥، ٣٠٧، ٣٥١؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٥.

128 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨.

129 الســـمور، بفـــتح السين والميم المشّددة المضمومة وهو حيوان برى يشبه السنور وزعم بعض الناس أنه النمس، وهو حـــيوان جـــرىء ليس في الحيوانات أجرأ منه على الإنسان، لا يؤخذ إلا بالحيل ولحمه حار والترك يأكلونه وجلده لا يدبغ كسائر الجلود. الدميرى، حياة الحيوان، ص٢٨؛ ويتخذ منه نفيس الفراء التى يلبسها الملوك وأكابر الأعيان لحسنها ودفائها، ولحســـنه مـــا كان منه شديد النعومة مائلاً إلى السواد. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٢، ص٤٩؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١ هامش ١١٤ .

130 الوشق، نوع من فراء الذئاب. الدميرى، حياة الحيوان، جـــ٢، ص٣٢٤.محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١.

131 القماقم، حيوان يشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وأرطب ولهذا هو أبيض ويشبه جلده جلد الفنك وهو أعز قيمة من الســـنجاب، تؤخـــذ منه الفراء التى تستعمل في الزينة عند الأغنياء كسلاطين المماليك وأمرائهم وأشباههم من الأثرياء في القاهـــرة في العصور الوسطى. الدميرى، حياة الحيوان، جـــ٢، ص١٩٧؛ المقريزى، السلوك، جـــ٢ ق١، ص٩٨؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١.

132 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٢١٧، السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٤٦.

133 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ ابن إياس بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٥٩، ٢٦٢.

134 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٩٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ والحياصة، المنطقة بكسر الميم. وهى ما يشد في الوسط وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه كان له منطقة، ولم يستخدم الحياصة الملوك، وإنما يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف وتختلف بحسب درجة الأمير، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص ومنها ما ليس كذلك. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٢ ص١٣٤؛ وكان السلطان إذا ركب للعـــب الكـــرة وزع حوائص من ذهب على بعض الأمراء، القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٥٥؛ والحياصة سير في الحزام، والحياصة سير طويل يُشد به حزام الدابة، ابن منظور، لسان العرب، جـــ٧، ص٢٨٥؛ والحوائص مفردها حياصة ويقصد بها الحزام الذى يوضع حول الوسط ويكون مرصعاً بالأحجار الكريمة انظر Dozy, *Dictionnaire*,pp.145-146-147 أيضاً العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٥ هامش١؛ ماجد، نظم المماليك، جـــ٢، ص٣٤، ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٧ هامش ٤ وكان لها سوق اسمه الحوائصيين وهى المناطق، انظر الخطط جـــ٣، ص١٦٦.

المرصــع[١٣٥] بحجــر اليشم وكان من المألوف أن ترصع بالأحجار الكريمة،[١٣٦] ومن ثم كان للمناطق أو الحوائص قيمة عظيمة الشأن.[١٣٧]

ففــي عــام ٧٢٠هـــــ/ ١٣٢٠م ارتدى الأمير ألُماس الحاجب أطلساً كاملاً بكلوته زركش وحياصة ذهب بمناسبة نزوله مع نائب السلطنة بمصر الأمير سيف الدين أرغون.[١٣٨]

وفــي عام ٧٣٢هـــ/ ١٣٣١م أرتدى الأمير سيف الدين ألُماس الحاجب أطلس تمام بحياصة مجوهرة بمناسبة زواج ابن السلطان الناصر محمد.[١٣٩]

وجــرت العادة أن يشد السيف على القباء من الجانب الأيسر، أما الصولق[١٤٠] والكذلــك،[١٤١] فكان يشدان إلى الجانب الأيمن، ويفهم من المصادر المملوكية أن الصولق الذى كان يرتديه الأمراء، كان مصنوعا من الجلد البلغارى الأسود، وكان أحياناً كبير الحجم بقدر يتسع لأكثر من نصف ويبة من الغلال ومفروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع.[١٤٢]

أما فيما يتعلق بأغطية الرأس فنلاحظ أن الشربوش كانت له المكانة الأولى، إذ يعتبر بصــفة خاصـــة الطابع المميز لطبقة الأمير، وقد وصف المقريزى الشربوش بأنه 'مثل شيء يشبه التاج' ويبدو كما لو كان مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة (أى لا يلف حوله مــنديل) وتشــير المصـــادر التاريخية إلى أن لبس الشربوش قد وجد في عصر الأيوبين أو المماليــك البحرية، على حين يؤكد المقريزى أن لبس الشربوش قد أبطل في عصر المماليك الجراكسة.[١٤٣]

---

135 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ ماجد، نظم المماليك، جــ٢، ص٧٦.

136 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، السلوك، جــ١ ق٣، ص٧٢٦.

137 المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جــ١، ص١٧٣؛ وفي خلال عصر المماليك البحرية، أى في أيام المنصور قلاوون كان الأمراء يرتدون حوائص تساوى الواحد منها ٣٠٠ دينار، ويعتبر السلطان الناصر محمد بن قــلاوون أول مــن أدخل الحوائص الذهبية من أجل الأمراء. وظل استخدام المناطق شائعا في عصر خلفائه وأيام السلطان الناصر فرج، كما كان بعضها يرصع بالأحجار الكريمة، ويبدو أن الحوائص كانت أكثر قطع الملابس رواجا، وكان الأمراء يحرصــون علــى ارتــداء الحوائص المرصعة بالأحجار الكريمة، القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩، ص١٧٧، ٢١٦.

138 ابن إيبك، كنز الدرر، جــ٩، ص٢٩٨.

139 ابن إيبك، كنز الدرر، جــ٩، ص٣٦٠.

140 الصــولق، حقيبة من الجلد، مفرد صوالق – ربما لوضع المال وغيره. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٥ هامش ٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤ ص٤؛ماير، الملابس المملوكية، ص٤٠ هامش ٤؛ Dozy, *Supplément*, I, p.848

141 الكذلك، خنجر، القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤؛ Dozy, *Supplément* ,II, p.463.

142 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٨.

143 المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩؛ السلوك، جــ١ ق٢، ص٤٩٣؛ هامش ١ ص٢٥١ هامش ١، ص٥٠١.

وإلى جانب الشربوش كانت هناك الكلوتة وهى أخف من الشربوش العادى ولكنها لا تقـل عنه مكانة من الناحية الرسمية[١٤٤] وأضحت الكلوتة رمزا لأمراء المئين، وكان السلطان يرتدى كلوته صفراء وهى خاصة أيضا بالأمراء وباقى العسكريين، يحيط بحافتها شريط وبند يطلق عليه اسم "تضريب" وأبازيم تطلق عليها اسم كلاليب وتلبس دون عمامة.[١٤٥]

وفى عصر المماليك البحرية كانت الكلوتة صغيرة الحجم، وتصنع عادة من الصوف الملطـى يحـيط بحافـتها شريط عريض، وظلت لفترة قصيرة يلف حولها منديل صغير.[١٤٦] وواصـل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، ما قام به أبوه من إصلاح فى الزى فغير لباس الـرأس الذى كان يصنع أحياناً من خامة صوفية خشنة وأصدر أمره إلى أمرائه بالظهور بين ممالـيكهم بالكلوتة المطرزة زركش أو حسب ما أورده القلقشندى، بكلوتة حمراء والعمائم من فوقها.[١٤٧]

وقـد وجـد نوع آخر من لباس الرأس وهو "الطاقية" وجمعها "طواقى" وكانت تشبه "الكوفية" التى كان يلبسها أصلا الصبيان والبنات ثم لبسها الرجال والنساء. وفى عهد سلاطين الممالـيك الجراكسـة لبسها الأمراء من جميع الطبقات وكانت تصنع عادة من ألوان مختلفة، وكان ارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريباً، وقمتها مدورة ومسطحة، وفى عصر السلطان فرج بن برقوق عرف نوع من الطواقى التى أطلقت عليها المصادر التاريخية اسم الطواقى الجراكسة، وحدث تغير بسيط في الجزء العلوى فيها فصنع غالباً على هيئة قبة صغيرة، كثر فيها الحشو بمادة الورق وزينت بفراء القندس بعرض ثمن ذراع تقريباً.[١٤٨]

أمـا عـن لـباس القـدم فقـد اشتمل غالباً على حذاء برقبة طويلة يطلق عليه اسم "خف"،[١٤٩] وكان المألوف صنع خف الشتاء من جلد أصفر اللون يطلق عليه اسـم "أديم"[١٥٠]

---

144 العمـرى، مسـالك الأبصار، ص٣٤ هامش ٦، والكلوتة جمعها كلوتات، وهى غطاء للرأس يلبس وحده أو بعمامة؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١١٠، ١١١؛ والكلوتة كلمة فارسية انظر Dozy, *Supplément* , II, p.484 ويقـال أيضاً الكلاوت مفردها كولاه أو كلاه أو كلا لنظر زيترشتين، تاريخ المماليك، ص٢١١؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٩٣، جـ٢ ق١، ص٨٠ هامش ١؛ ماير، الملابس المملوكية، ص

145 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٦، ص٣٩؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨، ٢١٧.

146 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٧.

147 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨-٩٩.

148 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٠٤.

149 حذاء برقبة طويلة، العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤، هامش ٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٦٣ هامش ٥.

150 أدَمَ أدما أصلح وألفٌ والصانعُ الجلد، أصلحه بنزع الزائد من أدمته الأديم: الجلد وأديمُ كل شيء: ظاهر إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، طبعة ١٩٧٢م، جـ١ ص١٠؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١١٤.

مستورد من الطائف، أو من جلد أسود مستورد من بلغاريا؛ وكانت الأخفاف ذات الرقاب تلبس أيضاً في فصل الصيف، وكانت تزود أحياناً بأربطة؛ وكان يرتبط بالخف مهاميز[125] مكفتة بالفضة أو الذهب، إلا أن هذا كان سارياً فقط في عصر المماليك البحرية، أما فى أواخر عصر المماليك الجراكسة فقد غدا من المستحيل التمادى في مثل هذا البذخ[126] وكان من المعتاد ارتداء حذاء فوق الخف يطلق عليه اسم "سقمان".[127]

إقطاعات ورواتب الحجاب:

أنتقل النظام الإقطاعي كاملاً عن السلاجقة إلى الدولة الأتابكية، فالدولة الأيوبية ثم إلى دولة المماليك، وهى الدولة الإقطاعية الكبرى؛ ويعتبر عصر سلاطين المماليك العصر الذى اكتملت فيه النظم الإقطاعية آنذاك، فقد نشأ المماليك في ظل هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم الكبرى على أنقاض سادتهم من الأيوبيين، واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده، وكانت القاعدة العامة في التوزيع الإقطاعى، وحدة القيراط إذا كان خراج مصر يقسم إلى أربعة وعشرين قيراط يوزع أجزاؤها على القرى توزيعا متناسبا مع طاقتها، وفى عصر المماليك، اختص السلطان بأربعة قراريط "للكلف والرواتب وغيرها" على حين أن عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات أى المنح والزيادات، أما العشر الباقية فهى للتوزيع بين الأجناد.[128]

وكان الإقطاع بالنسبة للحجاب، دليلاً واضحاً على قدر منازلهم وقوة نفوذهم، وقد كانت الإقطاعات بلادلوأراضى يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيفما يشاء. على أن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضى بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة، من خراج الأراضى، والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشر وغير ذلك من المكوس على اختلاف أصنافها، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهاتها ويختلف باختلاف حال أربابها، ويفهم من المصادر التاريخية أن السلطان أحياناً كان ينعم بإقطاع الحاجب على حاجب آخر ويسمى هذا إقطاع النقل، ومن ذلك ما حدث في عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م عند قدوم الأمير تنكز نائب الشام إلى القاهرة ومعه بعض مماليكه والأمير بدر الدين بن مسعود الخطير أحد حجاب

---

125 المهاميز مفردها مهماز، والمهماز آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف، ومؤخرة اصبع محدب الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت واسرعت في المشى، وهي من الذهب أو الفضة وأحياناً حديد مطلى بالذهب أو الفضة. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص١٣٦؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤ هامش٧؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٧-٩٨، ٢١٧؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٦٤، هاشم١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٩٨، محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٩٧.

126 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٩٨.

127 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨؛ عن هذه الكلمة انظر، Dozy, Supplément, I, p.73.

128 إبراهيم طرخان، النظم الاقطاعية، ص٣٠،٢٣، ٦٣-٦٤.

دمشـــق، فشكا منه وسأل أن يكون حاجبا صغيراً رفيقاً للأمير ألماس الحاجب وأنعم بإقطاعه على أخيه شرف الدين محمود بن الخطير.[129]

وكثـــيراً ما كان يأخذ الحاجب موجود بعض الأمراء ومن ذلك ما حدث عام ٧٧٨ هـــ/ ١٣٧٦م فقـــد أخلع على الأمير سودون الشيخونى واستقر حاجب الحجاب، وأنعم عليه بجمـــيع موجـــود الأمـــير مبارك شاه، وفى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م أخلع على الأمير سودون الشيخونى للمرة الثانية وقرر حاجب حجاب، وأنعم عليه بإقطاع الأمير تغرى برمش.[130]

وفـــى عـــام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م قبض على الأمير جركسى الحاجب، وانعم بموجوده علـــى الأمير قرا يوسف، وفى نفس العام تنكر جكم على الأمير تنكربغا حاجب طرابلس وأخذ موجـــوده ثم قتل.[131] وهذا يدل على أن الحجاب نالوا الإقطاعات مثلهم في ذلك مثل موظفى دولة المماليك.

وجـــرت العـــادة أن يقوم السلطان بتوزيع براءات الإقطاع، سواء أكانت أمثلة[132] أم مناشـــير،[133] إنمـــا الغالب توزيع الأمثلة وهى أولى وثائق الإقطاع، وربما كان ذلك لسهولة تغـــيير ما يحتمل حدوثه من تغير في الإقطاع، إذا شكا المقطع أو تظلم أو بدا لولى الأمر بما يستدعى ذلك، وربما اقتصر السلطان على توزيع مثالات الأمراء المقدمين، والعادة أن توزع بـــراءات الإقطـــاع على أيدى النواب أو ينتدبهم السلطان لهذا الأمر، وسواء أكان التوزيع في مصـــر أم خارجها فإنه يتم في موكب حافل، ففى مصر يعقد هذا الحفل بالقلعة، ويعرف بيوم العرض، أو مجلس العرض.[134]

وفـــى خـــتام الحديث عن إقطاع الحجاب لا يفوتنا أن نتحدث عن الراتب الذى كان يتمـــتع بـــه الحاجب، وقد عرض بعض المؤرخين المحدثين للدخل الذى تمتع به المملوك منذ شرائه وحتى ارتقائه المناصب العليا بالدولة، وترقيته إلى الرتب العليا بالدولة "أعنى الحجابة" وما في مستواها نقلاً عن القلقشندى والمقريزى، فمثلاً كان مرتب كل منهم كما يلى:

	الحد الأدنى	الحد الأقصى	
مقدم الحلقة	٢٥٠	١,٥٠٠	دينار

129 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٢٨١.

130 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٩٠، ٣٠٢.

131 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٢.

132 الأمثلة، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦٣، ص٦٥، ٩٦، ١٩١.

133 منشور وجمعه مناشير، وهى في الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص١٥٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى ص٤٧٧.

134 المقريـــزى، الســـلوك، جـ١ ق٣، ص٨٤٤، ٨٤٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٩٣ – ٩٥، جـ١٠ هامش ٤؛ على إبراهيم حسن، الجيش والبحرية في عصر المماليك، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٦.

أمير عشرة (الحاجب الثالث وسبعة حجاب)	٧,٠٠٠	٩,٠٠٠	دينار
أمير أربعين طبلخاناة (الحاجب الثانى)	٢٣,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	دينار
أمير مائة مقدم ألف (حاجب الحجاب)	٨٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	دينار

كل هذا بخلاف ما كان مقرراً لكل منهم من اللحم والتوابل والعليق والزيت والكسوة والشمع لكل منهم على قدر منازلهم.[١٣٥]

أما عن النفقة التى كان يقوم بمنحها السلطان للحجاب عند السفر، فتشير المصادر المملوكية المعاصرة في حوادث عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أن السلطان منح الحاجب أيدكار مبلغ ألف وأربعمائة دينار ذهب وستين ألف درهم فضة.[١٣٦]

وفيما يتعلق بالنفقة التى أرسلها السلطان للأمراء في عام ٨٩٣هـ/١٣٩٠م فقد وصفها ابن إياس بقوله "بعث السلطان نفقات الأمراء المقدمين والعشرات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار، وكان الأمراء المعينون للتجريدة أحد عشر أميرا مقدم ألف ومنهم تانى بك الجمالى حاجب الحجاب، ثم نفق على الجند فأعطى لكل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة شهور ثمانية آلاف درهم وثمن جمل سبعة أشرفية، فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار حتى عُد ذلك من النوادر، ولم يُسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية أن أحداً من السلاطين فعل مثل

---

[135] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢ ص٣٥٠ – ٣٥١؛ على إبراهيم دراسات في تاريخ المماليك، ص٣٤٦؛ محمود نديم، أحمد فهمى، الفن الحربى للجيش المصرى في العصر المملوكى البحرى، القاهرة، كلية الآداب ١٩٧٣م، ص٤٠؛ جمال جرجس، القضاء، ص١٤٥؛ Ayalon, D., *Studies on the Structure of Mamluks Army*, XVI, I, pp. 37-38, 257-296.

[136] ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص١٨٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٥٩.

ذلـك، فكانت نفقة الأتابكى أزبك وحده ثلاثين ألف دينار، وكانت عادة نفقة الأتابكية إلى دولة الظاهر برقوق عشرة آلاف دينار ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة قط، فكان كما يقال:

تهب الألوف ولا تهاب ألوفها . . هان العدوّ لديك والدينار[137]

وفيما يتعلق بالنفقة التى منحها السلطان للحجاب عند خروجهم للتجريدات العسكرية، فيـبدو أنها قد تقلصت عما مضى، فنقرأ في المصادر في حوادث عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ما نصه "أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين، فأرسل إلى الأمير أنصباى حاجب الحجاب أربعة آلاف ديـنار" ويتعجـب ابن إياس من ذلك بقوله:"وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم على تجاريد ابن عثمان، فكان يرسل للأتابكى أزبك عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء أرباب الوظائف لكل واحد منهم خمسـة عشـر ألف دينار وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عُد ذلـك مـن النوادر الغريبة ولم يفعل الأشرف قايتباى ذلك إلا في آخر تجاريد ابن عثمان عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار وكسور.[138]

وأحياناً كان السلطان يفرق على الأمراء التقادم الآتى من مشايخ العربان مثلما حدث فـي عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م فقد فرق السلطان الغورى على الأمراء التقادم التى حصل عليها، فـأعطى الأتابكى سودون العجمى ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات، وأعطـى الأمـير أركماس أمير مجلس مائتى دينار وفرس وأربعين رأس غنم وأربع بقرات، وأعطـى الأمير أنصباى حاجب الحجاب مثل ذلك، ثم خلع على الأمراء المقدمين من أرباب الوظائف كاملة مخملة أحمر بسمور، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور قبل صعوده إلى القلعة.[139]

وقـد يبدو لنا من خلال هذا العرض أن الدخل الذى كان يدره الحجاب في حد ذاته دخـلاً جيداً، ومع ذلك فقد كان نهمهم وطمعهم في المزيد من العائد المادى من أبرز الدوافع التى دفعتهم إلى ظلم الرعية وإلى المزيد من الرشوة.

ويخبرنا المقريزى في خططه بقوله: "وصار الحاجب اليوم اسماً لجماعة من الأمراء ينتصـبون للحكم بين الناس لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر كل يوم على رأس نوبة النقباء، وفيهم غير واحد ليس لهم آمرة الإقطاع وإنما يرتزقون من مظالم العباد".[140]

ويوضـح لنا أيضاً فى كتابه السلوك الأساليب التى اتبعها الحجاب فى ابتزاز أموال العامـة بقوله: "وأما الحجاب فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شاك

---

137 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٥١ – ٢٥٢.

138 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص٣، ٢٩.

139 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٢٩٤.

140 المقريزى، الخطط، جـ٣ طبعة بولاق، ص٦٠.

إلـــيهم ومشكو عليه من أحد من الحجاب إلا وفي بابه رجل يقال له رأس نوبة، يضمن له في كـــل يـــوم قدراً معلوماً من المال يقوم له به ومن هذا المال المضمون يقيم أوده، فيسقط رأس نوبـــة على النقباء الذين تحت يده ما ضمنه للحاجب وما لابد له من صرفه على عياله ومؤن فرســـه وأجـــرة سائسها، وما أعتاده الحجاب من المحرمات التى لا يتركونها ما وجدوا إليها ســـبيلاً، ومـــا يرصـــده ويدخره عنده عدة له في وقت مكروه ينزل به في عزله أو مصادرة الحاجب له أو غير ذلك من العوارض، فيتناول من كل واحد من النقباء شيئاً مقرراً عليه عند مضـــيه فـــي طلـــب غريم يقال له الإطلاق، فإذا حضر الغريم فتح عليه رأس نوبة أبوابا من أنواع مكرهم الذى تفقهوا فيه، فيحتاج إلى بذل المال له ولدوادار الحاجب وللحاجب بحسب ما يقتضيه رأيهم، فربما بلغ الغرم في الشكوى الآلاف من الدراهم، فأنهم يسلسلون قضايا ظلمهم حـــتى يستمر المشكو في الترسيم الأيام والأشهر وجميع ما يتحصل للحجاب من هذه الوجوه فإنهم يصرفونه فيما لا تجيزه أمة من الأمم من أنواع قبائح المحرمات ولا يكلفون حمل شيء منه إلى السلطان". [١٤١]

ونلاحـــظ أن الـــنص الـــذى ذكره المقريزى لا يحتاج إلى آية إضافة أو تعليق فمن الواضح أن المشكو البائس المغلوب على أمره عليه أن يدفع للنقيب الذى يحضره لرأس النوبة ولـــدوا دار الحاجـــب وللحاجب نفسه، أى أن هذا الجيش الجرار من الأعوان يعيش على ظلم من يوقعه حظه وبؤس قدره بين أيديهم من عامة الشعب المطحون. [١٤٢]

وقـــد كانت هذه التكاليف ترهق عامة الشعب، ونظراً للشكاوى الكثيرة المتلاحقة فإن المراســـيم والأوامـــر كانـــت تصـــدر بهدف الحد من استبداد الحجاب بعامة الشعب، فيحدثنا المقريـــزى بقو له "نـــودى فـــي الناس من قطع طيبغا الحاجب خبزه وقت العصر فليحضر ويأخذه". [١٤٣]

أمـــا ابن حجر العسقلانى فيخبرنا أنه في عام ٨٨٣هـــ/ ١٤٧٨م بأنه "أمر السلطان القضاة والحجاب وغيرهم أن لا يحبسوا أحدا على دين واستمر ذلك على شوال منها". [١٤٤]

أمـــا ابـــن إياس فيذكر في حوادث عام ٨٩١هـــ/ ١٤٨٦م "رسم السلطان على لسان القاضـــى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمع رؤس النوب والنقباء الذين بأبواب الأحكام، ويكتب علـــيهم قسائم بأنهم لا يأخذون من الأخصام إذا طلبوا من أبوابهم أكثر من نصفين فضة لكل نقيب حسبما رسم السلطان بذلك، فجمعهم وكتب عليهم قسائم بذلك، فأقام هذا الأمر مدة يسيرة

---

141 المقريزى، السلوك، جـــ٤ ق١، ص٣٩٠، ٣٩٢.

142 اســـماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير- جامعة عين شمس، كلية الآداب ١٩٨٨غير منشورة، ص٢٠٩.

143 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق١، ص١٣٩.

144 ابن حجر، أبناء الغمر، جـــ٣، ص٤٣٩.

ثم عادوا لما كانوا عليه".[145] وقيل: لا شيء أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب، وإذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم . . على أنه لابدّ سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها . . وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لى . . ولم ير الحاجب أن يأذنا
فلن ترانى بعدها عائدا . . ولن تراه بعدها مستأذنا[146]

ولعل هذه الصورة التى أوضح الباحث معالمها تبين مدى التدهور الذى آلت إليه وظيفة الحجابة زمن سلاطين المماليك، بعد أن أقبل الحجاب وأعوانهم على أخذ الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل واستغلالهم أبشع إستغلال ومدى ما عاناه الشعب من جراء حكم الحجاب.

اختصاصات الحجاب

أولا : الحجاب والقضاء :

اتسعت سلطة الحجاب في العصر المملوكى وأزداد نطاقها، ويبدو أن اتساع سلطة الحجاب زمن سلاطين المماليك كانت وراء هذه المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب على هذه الوظيفة، فقد حدثتنا المصادر المعاصرة بأن عمل الحجاب في هذه الفترة لم يقتصر على استئذان السلطان للمقابلة بل شمل إدخال الناس على السلطان وهو جالس في قصره بالقلعة، ولم تقتصر مهمته على ذلك فحسب، بل شملت مهام أخرى كثيرة، فقد كانت حاجب الحجاب بمثابة قاض كبير له أعمال، وكان عمله في بادىء أمره الفصل في الخصومات المدينة وفى جميع ضروب النزاع الذى يقع بين الجنود والمماليك والأمراء إما بنفسه أو بعد استشارة السلطان أو النائب، فينصف ضعيفهم من قويهم، والحكم بين الأمراء في المسائل الديوانية وأمور الإقطاعات، وإليه تقديم ما يرد وما يعرض على السلطان، وعرض الجند وما ناسب ذلك، وكان الحاجب يقف أحياناً بين يدى السلطان في المواكب ليبلغه رغبات رعيته ومطالبهم، كما كان يركب أمامه وهو يعمل عصا في يده وينظر في المظالم، إلا أنه يمكن القول بأن نفوذ الحاجب حتى الآن لم تتعد نطاق القضاء الحربى، إذ أن حاجب الحجاب كان بمثابة رئيس للمحكمة الإدارية في الجيش، وكان السلطان يستشيره في الحالات الخطيرة

---

[145] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٢٨.
[146] الأبشيهى، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت ١٩٨٣، جـ١ ص٢٠٩ – ٢١٠.

الشـأن، وقـد يعقـد مجلسه بحضور الأمراء وكاتب الجيش وناظر الجيش ويكون نظره في مخاصمات المماليك ومشاكلهم التى بينهم وبين الديوان.[١٤٧]

وكـان مـن ضـمن اختصاصات الحاجب أحياناً الحكم بين الأجناد والكتاب وأعيان التجار.[١٤٨]

أما فيما يتعلق بالقضاء المدنى أو الشرعى فنقرأ في المصادر المملوكية بأنه لم يكن للحاجـب حـق النظر في الأمور الشرعية كالفصل في الخصومات التى تقع بين الزوجين أو الحكم في قضايا الديوان، حيث كان ذلك من أدق اختصاصات قضاة الشرع.[١٤٩]

ومن الجدير بالذكر أن أحكام الحجاب لم تكن مقتبسة من أحكام الدين الإسلامى، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصى وبين بعض القوانين السابقة المرعية عند أمم غير إسلامية مثل التتار القدامى.[١٥٠]

ويشـير المقريـزى إلـى أن الحاجب كان يحكم بين المغول الذين استوطنوا مصر حسب قوانين الياسة أو اليسق[١٥١] فيذكر بقوله: "كانت أحكام الحجاب أولاً يقال لها حكم الياسة وهى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زماننا اليوم أصلها ويتساهلون في التلفظ بها ويقولون في هذا الأمر مما لا يمشى في الأحكام الشرعية وإنما هو من حكم الياسة".[١٥٢]

---

147 المقريـزى، الخطـط، جـ٣، ص٣٧٩؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة القاهرة ١٩٧٩م، ص٥٦.

148 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٣٠؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٨-٢٩.

149 المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٦٠.

150 محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٤٧م، جـ١، ص٥٤.

151 ويروى المقريزى عن الياسة أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في الشرق قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب أسماه (ياسـة) ونقشه في صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض فصارت الياسة حكما يتباقى في أعقابه، وجملة ما شرعه جنكيز خان أنه من زنى قتل ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن، ومن لاط قتل ومن بال في الماء أو على الرماد قتل، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين يتخاصمان فأعان أحدهما على الآخر قتل، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على ما كان في يده قتل، ومـن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل، وإن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، وإن من ذبح حيوان كذبيحة المسلمين ذبح إلى غير ذلك من الأحكام". Irwin-Robert, *The Middle East in the Middle Ages the Early Mamluk Sultans 1250-1382*, London, 1986, pp. 52-53.
Poliak. A. N, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon*, 1250-1900, London, 1939, pp. 14-15.

152 المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٦٣ وعن الياسة انظر Ayalon, D, "The Great Yâssa of Chiṅgiz Khân", SI, XXXVI, 1972. Hassanein Rabie, *The Financial System of Egypt A.H.564-741/A.D.1169-1941* London, 1972, p.61.

وقـد حرف أهل مصر كلمة ياسة إلى سياسة ثم أدخلوا عليها الألف واللام فصارت (السياسة) وأصبح يقصد بها كل الأحكام التى لا تدخل في نطاق الشرع.

أمـا عـن السبب الذى من أجله عهد للحجاب أن يحكموا بأحكام الياسة بين المغول الذيـن استوطنوا مصر، هو أنه بعد واقعة عين جالوت الشهيرة وهزيمة التتار أسر منهم خلقاً كثـيراً صاروا بمصر والشام، ثم كثر الوافدون منهم في أيام السلطان الظاهر بيبرس وملأوا مصـر والشـام، وخطب للملك يوشى بن جنكيز خان على منابر مصر فغصت أرض مصر والشـام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم بها، ويشير المقريزى عن ملوك مصر وأمـرائها وعساكرها في دولة المماليك ما نصه:" قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكيز خان وبنيه وامتزج بدمهم ولحمهم مهابتهم وتعظيمهم، وكانوا إنما دبوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن فجمعوا بيـن الحـق والباطل وضموا الجيد إلى الردىء" ولعل المقريزى قد أراد بذلك أن يمهد لبداية العمـل بأحكـام الياسة في مصر فنجده يعود ويخبرنا بأنهم "أى ملوك مصر فوضوا لقاضى القضـاة كـل مـا يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج. وناطوا به أمر الأوقـاف والايـتام وجعلوا إليه النظر في القضايا الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحـو ذلـك واحتاجوا في ذلك لأنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسة ولذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا من عوايديهم والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منهم على مقتضى ما في الياسة".[١٥٣]

وكما أشار الباحث من قبل أن وظيفة الحجابة قد تعاظمت عقب إلغاء الناصر محمد بـن قلاوون وظيفة نائب السلطنة عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، وتؤيد الأحداث هذا الرأى، ويمكن تصـور فداحة ذلك الحدث من سلطات الحاجب واختصاصاته التى زادت بصورة لم تعهد من قـبل، فأصـبح مجلـس نظره ينظر في كل جليل وحقير، بل أصبح يغير على أعمال القضاة العاديـة، وأتـيح له أن يـتدخل في أدق اختصاصات القاضى وينظر في خصومات المدنيين فضـلاً عـن خصومات المماليك، التى كانت من اختصاصاته، وبذلك بدأ نفوذ الحاجب يمتد تدريجـياً مـن القضـاء الحـربى إلى القضاء المدنى، وأصبح يتدخل في أدق الاختصاصات القضـائية ويذكـر بعض المؤرخين أن ابتداء حكم الحجاب بين الناس بمصـر كان في عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م أثناء سلطنة الكامل شعبان حين عين الأمير سيف الدين بيغرا أمير حاجب

---

[153] المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٦٣.
Poliak, *Feudalism in Egypt*, pp. 14-15.

كبـــير يحكـــم بين الناس.[154] كما كان نائب السلطنة يحكم، فكان يجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم، ثم عين السلطان الأمير رسلان بصل حاجبا ثالـــثاً مـــع بيغرا يحكم بالقاهرة، ولم تكن العادة قد جرت من قبل أن يحكم الحجاب بين الناس غـــير أمـــير حاجب كبيراً أو حاجب الحجاب، ولم تلبث أن انكمشت سلطة الحاجب إلى العادة القديمة في سلطنة المظفر حاجي بن الناصر حسين استقر سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة، ولكـــن حيـــن تولـــى الأمـــير سيف الدين جرجى الحجابة في سلطنة الملك الصالح صالح بن قلاوون رسم له أن يتحدث في أرباب الديوان ويفصلهم عن عزمائهم بأحكام السياسية،[155] ولم تكـــن عـــادة الحجـــاب فيما تقدم أن يحكموا في الأمور الشرعية، وكان سبب ذلك تظلم تجار العجـــم للسلطان الصالح صالح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٥٣هـــ/ ١٣٥٢م مـــنُ تلاعـــب التجار بالقاهرة بالأحكام الشرعية، مما أدى إلى عدم دفع أثمان بضائعهم بحجة الإعسار والإفلاس، فأمر السلطان الأمير جرجى أمير حاجب بإرغام التجار على تسديد أثمان البضـــائع الـــتى اشـــتروها مـــن تجار العجم دون الالتجاء إلى القضاء الشرعى، ومنع قضاة الشريعة من الفصل في أمر التجار والمدنيين، ومنذ ذلك الوقت تمكن الحجاب من التحكم على الناس بما شاءوا.[156]

ومـــنذ هـــذه اللحظة حدث تطور خطير في النظام القضائى في مصر زمن سلاطين المماليـــك، واصبح الحاجب يحكم في الأمور الشرعية التى كانت من شأن القضاة فيما مضى، أى أن الأمـــراء المماليـــك أربـــاب السيوف تدخلوا في القضايا والأحكام الشرعية التى كانت مقصـــورة علـــى القضاة، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل القضاء بإضافة عنصر جديد على

---

[154] المعروف نقلاً عن المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٢١٩، أن وظيفة الحجوبية الكبرى – حاجب الحجاب – اقتصرت فيما سلف من تاريخ الدولة المملوكية على " النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الاقطاعات، ونحو ذلك غير أنه لم يكـــن عجـــبا أن تؤدى أحوال ذلك العصر إلى امتداد هذه الوظيفة أو غيرها من الوظائف إلى غير ما اختصت به، لأسباب تنافســـية شخصية مثلما حدث حين عين السلطان شعبان صديقه الأمير بيغرا حاجباً كبيراً، وجعل له الحكم بين الناس، كما جعل له سلطة مكاتبة الولاة في مختلف الأعمال والأقاليم، وهذا فيما يبدو فضلاً عن قديم لختصاص الحجوبية الكبرى، حتى صـــارت هـــذه الوظيفة تلى نيابة السلطنة. انظر أيضاً السلوك، جـــ٢ ق٣ ص٦٨٤ هامش ٤ *The Encyclopaedia of Islam*, vol, 3 p.4.

[155] المقصود بأحكام السياسية هنا السلطة القضائية الممنوحة في دولة سلاطين المماليك لمتولى الحجوبية الكبرى والحجاب عامـــة للحكم في قضايا المماليك والأمراء، حسب قانون مستقل عن حدود الشريعة الإسلامية، وأصل هذا النوع من القضاء المملوكى هو الشريعة المغولية – أى الياسة التى ترجع إلى ايام جنكيز خان كما ذكرنا سابقاً المقريزى، السلوك، جـــ٢ ق٣ هـــامش١؛ الخطط، جـــ٢، ص٢١٩؛ Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine*, and Lebanon, 1250-1900, London, 1939, pp.14-15; *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p.48.

[156] المقريـــزى، الخطط، جـــ٢، ص٢١٩-٢٢٠؛ السلوك، جـــ٢ ق٣، ص٨٦٣-٨٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ١٠، ص١٢٢؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٠٧-٢٠٨.

أربـــاب الشـــرع وهـــو طائفة الحجاب التى أخذت تتدخل في الأحكام الشرعية وتزاحم قضاة الشرع فيها.

تلك هى الطفرة التى حدثت في حياة الحجاب، والنكسة التى حدثت في حياة القضاة، وقـــد شكل هذا الحدث ظاهرة خلال دولة المماليك وما أوجدته من صراعات وحزازات فيما بين القضاء والأمراء.[١٥٧]

والجديـــر بالملاحظة هو أن القضاء لم يكن يطلق عليه شرعياً إلا نادراً لأنه لم يكن فـــي البلاد قضاء غير شرعى، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه، غير أن القضاة كان يقال لهم أحياناً قضاة شرع، لما لكلمة شرعى في بعض المواقف والأحيان من تأثير ومعنى خاص.[١٥٨]

وإذا كـــان الأمـــر قد بدأ بالسماح للحجاب بالفصل في اختصاصات القضاة، فقد زاد الأمـــر بزيادة عدد الحجاب وما يعنيه ذلك من زيادة التدخل، فيشير المقريزى في حوادث عام ٧٧٩هـــ/ ١٣٧٧م خلع على الأمير سودون الشيخوني والأمير بلوط الصرغتمشي واستقرا حاجبين كباراً يحكمان بين الناس.[١٥٩] وفى نفس العام خلع السلطان المنصور على بن الأشرف شـــعبان على الأمير خليل بن عرام واستقر حاجب الحجاب، وعلى الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر واستقر حاجباً ثانياً.[١٦٠]

ونقرأ في كتاب السلوك أيضاً في حوادث عام ٧٨٤هـــ/ ١٣٨٢م ما يلى:"وخلع على الأمـــير مـــنكلى الطـــرخانى فزيد حاجب رابع وخلع على الأمير جلبان العلائى فكان حاجباً خامساً، ولم يعهد قبل ذلك خمسة حجاب في الدولة التركية"،[١٦١] بل إن ابن قاضى شهبة يشير أن عدد الحجاب قد وصل إلى ثمانية.[١٦٢]

وإذا كـــان الحجـــاب قـــد تصدوا للفصل في قضايا الديوان وهذا من صميم الأعمال الشرعية، فإن المقريزى يروى لنا لوناً جديداً من التدخل أيضاً في أخص الأمور الشرعية ألا وهو الفصل في قضايا الزندقة والكفر والإلحاد، فقد اتهم شخص بأمور توجب الكفر، وهذا من صـــميم اختصـــاص قضاة الشرع، وهكذا، فيجد الباحث أن الحجاب قد استحوذوا على الفصل فـــى القضـــايا الدينـــية الشـــرعية بفروعها المختلفة، فإذا كانوا قد اختصوا بالنظر في قضايا الديوان، وذلك فى عام ٧٥٣هـــ/ ١٣٥٢م، فإنهم فى عام ٧٩١هـــ/ ١٣٨٨م نظروا فى قضايا الإلحاد والزندقة.[١٦٣]

---

157 جمال جرجس، القضاء في العصر المملوكى، ص١٤٦.

158 محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـــ١، ص٥٣.

159 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق١، ص٣٠٤.

160 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٢٠٥.

161 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٤٨٠.

162 ابن قاضى شهبة، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، ص١٥٩.

163 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٦٣٦-٦٣٧.

وفـــى نفس العام أى ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م ذكر المقريزى أن "الأمير الكبير حكم بحقن دم رجل وإطلاقه فأفرج عنه ولم يعهد قط أن أحداً من أمراء الترك ولا ملوكهم حكم فى شيء مـــن الأمور التى من عادة القضاة الحكم فيها".[١٦٤] والمقريزى هنا لا يخفى دهشته وعجبه من هذا الحدث.

ويجول بخلد الباحث سؤال: هل كان تدخل الحجاب في الفصل في القضايا الشرعية عمـــلاً اقتضـــته المصلحة العامة؟ للإجابة عن هذا التساؤل يجب دراسة سيرة الحجاب ومدى اســـتغلالهم لمـــثل هذه الامتيازات القضائية، والدور الذى أسهموا فيه بالنسبة للقضاء، وكذلك أعمالهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم بالقضاة.

ويخـــبرنا المقريزى بالحالة قبل أن ينظر الحجاب في الأحكام الشرعية، والحالة بعد ذلـــك ومـــدى استغلالهم للنفوذ القضائى الذى تيسر لهم بمقتضى هذه الامتيازات، فيقول " هذا وستر الحياة يومئذ مسدول وظل العدل صاف وجناب الشريعة محترم وناموس الحشمة مهاب فلا يكاد أحد يزيغ عن الحق ولا يخرج عن قضية الحياء إن لم يكن له وازع من دين كان له نـــاه مـــن عقـــل ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة وذهـــب الحـــياء والحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء وتعنت منذ عهد المحن التى كانـــت في عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م الحجاب وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكماً خفى معه نور الهدى وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون".[١٦٥]

ولعل أول بادرة تطالعنا بها كتب التاريخ المملوكى المعاصرة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الحجاب قاموا بدور الوسيط الذى يقرب وجهات النظر فيما بين السلاطين والطالبين للرشـــا بـــل وقـــد مـــارس الحجاب أنفسهم أخذ أموال الناس بغير حق وأصبح نظرهم مجالاً للرشـــوة، فتســـلطوا على المتقاضين،[١٦٦] حتى أصبحت وظيفة الحجابة تعرف برذالة الحاجب وسفالته، وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله.[١٦٧]

والملاحـــظ دائماً أن تزايد سلطة الحجاب كانت تتناسب عكسياً واحترامهم ومهابتهم للقضـــاء، فـــيذكر المقريـــزى مـــا نصه: "ولقد عهدنا دائماً أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهـــم يفرّ من باب الحاجب ويصير إلى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحـــد بعـــد ذلـــك فى أخذه من باب القاضى، وكان فيهم من يقيم الأشهر والأعوام فى ترسيم القاضـــى حمايـــة له من أيدى الحجاب، ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل

---

[164] المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٦٣٧.

[165] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٢١.

[166] إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية ص٢٠٩.

[167] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٢٠.

جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسياً، وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك، ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره من المنكر بما لم يمكن يعهد مثله، فإنه يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار فلا ينكر ذلك أحد البته".[١٦٨]

وقد أراد المقريزى بهذا النص أن يسوق لنا مثالاً بالغ الأهمية لما كانت عليه مكانة الحجاب في عصره، ومكانة القضاة طوال العصور، وما أصبحت عليه في عهده، فهو يحكى لنا عن مظاهر الاحترام والتبجيل التى حظى بها القضاة والقضاء، وليس أدل على ذلك من أن من خاف على نفسه من ظلم أو قهر أو جور ولجأ إلى منزل أحد القضاة أمن على نفسه وروحه لأنه يصبح في حماية الشرع.

ومثلما أخذ الحجاب حق الفصل في القضايا الشرعية، وتسلطوا على المتقاضين، فإن الأمر انعكس كذلك بالنسبة لمكانة القضاة واحترامهم، فقد ضاعت هذه المكانة، واختفى ذلك الاحترام، واخذ الحجاب يطاردون المستجيرين، بل وذهبوا يعتدون على منازل القضاة، واستشرى خطرهم على أبعد من ذلك فكانوا يعزلونهم.

وقد سجل لنا المقريزى في عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩ أى بعد ثلاثين عاما من بداية السماح للحجاب بالفصل بين أصحاب الدعاوى الشرعية واقعة تدعم بالتأكيد ما يرمى إليه الباحث فيذكر ما نصه: وأما السكندرى فإن رجلا احتمى به خوفا من بطش الأمير مأمور الحاجب، كما جرت العادة بأن من خاف جور من يعتدى عليه يركن إلى قاض من القضاة، فيصير في حماة الشرع النبوى ما أقام، ولا يجسر أحد على أخذه من تلك القاضى، احتراماً له وتعظيماً لحرمة الدين، فشكى الأمير مأمور ذلك إلى الأمير الكبير برقوق، فرسم بعزله وطلب الرجل المحتمى بالقاضى، وضربه ضرباً مبرحاً بالمقارع، هو وولده، وشهرهما بالقاهرة، ونودى عليها: هذا جزاء من يتجاهى على الحاجب. فكان هذا أيضاً من الحوادث التى لم تعهد، واتضع بها جانب القضاة، وانبسطت أيدى الحجاب في الأحكام بما تهوى أنفسهم وزين لهم شيطانهم بغير علم ولا دين يردعهم.[١٦٩]

وأحياناً كانت سلطة القضاة تسير مع سلطة الحجاب جانباً إلى جانب، فيشير الصيرفى في حوادث عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م ما نصه: "اجتمع قضاة القضاة وحاجب الحجاب بالمدرسة الصالحية بين القصرين وأحضروا الأمير الطنبغا دوادار جنتمر وقد اجتمع من الخلق عدد كبير وأدعى عليه قاضى القضاة المالكى ما يوجب إراقة دمه فضربت عنقه".[١٧٠]

---

[168] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٩ – ٢٢٠.

[169] المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٦٠-٣٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٤٥.

[170] ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٩.

لــم يكن تسلط الحجاب ونفوذهم القضائى بخافيا عن القضاة، ولم يخف كبار القضاة التصـــريح بانـــتقاد تصـــرفات الحجـــاب؛ وقـــد كانت المشكلة الحقيقية فيما بينهم هى تقسيم الاختصاصات، وعادة كان يلجأ المتخاصم إلى القاضى رمز القوة والنفوذ فلمن تكون الغلبة؟!.
لعل في رواية ابن حجر العسقلانى الإجابة الشافية لهذه التساؤلات، إذ يخبرنا في حوادث عام ٨٢٣هـــ/ ١٤٢٠م أن "القاضى الحنفى لجأ إليه أحد الأشخاص يشكو له غريمه ولجأ خصمه إلـــى الحاجـــب الكبير، فلما أرسل القاضى الحنفى إلى الحاجب الكبير يطلب من عنده غريمه، فضرب الحاجب الرسول".[١٧١]

وفـــى الحقيقة إن السماح للحجاب بالحكم في الأمور الشرعية وتمسكهم بهذا الحق لم يكن راجعاً على تضلعهم الدينى أو لتدينهم أو لنصرة الحق إذ أن مؤرخى تلك الحقبة يؤكدون ذلـــك فيشير المقريزى بقوله: "أنهم يحكمون بغير علم ولا دين"[١٧٢] والكارثة الكبرى أنهم كانوا يحكمـــون إسمياً وفقاً للمذاهب الأربعة وهم أبعد الناس عن الفقة وأجهلهم بالدين ولعل خير ما يدلـــل على قصورهم الفقهى وجهلهم المطبق بالشريعة الإسلامية، ما رواه ابن حجر في عام ٨٣٦هـــ/ ١٤٣٢م فقـــد اتهم أحد الفقهاء وسيق إلى المحاكمة أمام الأمير قرقماش الشعبانى الحاجـــب وعـــرف بالموضـــوع أحـــد أصدقاء الفقيه، فذهب إلى الأمير الذى بادره بقوله ما حاجـــتك؟ قـــال: هذا الفقيه الواقف تحت مقعدك ادفعه من غريمه إلى قاضى من قضاة الشرع فقال: أو لست أنا احكم بالشرع؟ فقال لا! لأنك لا تعرفه فأستعظم ذلك القول فقال له: "شخص وجب عليه قطع يده اليمنى فلما أريد قطعها أخرج يسراه من كمه الأيمن فقطعت، فما حكم الله فـــي ذلـــك؛ أيسقط قطع يمناه أم لا؟ وماذا يجب في قطع يسراه؛ فبهت قليلاً قرقماش قليلاً ثم قال: خذ صاحبك وأمضى" فقال سلام عليك، وأخذ صاحبه ومضى".[١٧٣]

ورغم قصور بعض الحجاب الفقهى، وجهلهم بالعلوم الشرعية، إلا أنهم لم يتراجعوا أو يتورعوا فى الحكم فيها.

وممـــا يـــدل على تدخل الحجاب في اختصاصات القضاة بصورة سافرة والحكم في بعـــض القضـــايا المـــتعلقة بزنا الرجل بالمرأة ما يرويه ابن إياس في حوادث عام ٩١٩هــ/ ١٥١٣م أن شخصـــاً من نواب الحنفية يدعى غرس الدين خليل كانت له زوجة حسناء فاجها شـــخص من نواب الشافعية يدعى نور الدين على المشالى، وأثناء صعود الرجل للمرأة شاهده شـــميس ابن أخت القاضي نور الدين الدمياطى وكان يهوى هذه المرأة وهى تتمنع عليه، مما أدى بـــه إلـــى أن توجه إلى الإمام الليث واعلم خليل زوج المرأة، فقبض عليها هى والرجل، وذهـــب إلـــى دار حاجـــب الحجاب ومثلوا بين يديه، فأمر الحاجب بضرب الرجل والمرأة،

---

171 ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٩٤م، جـــ٣، ص٢١٩.
172 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص ٢١٩ وما بعدها.
173 ابن حجر، إنباء الغمر، جـــ٣، ص٥٠٢؛ جمال جرجس، القضاء، ص١٥٨ – ١٥٩.

واشـــهرهما في القاهرة، وكان يوماً مهولاً؛ ثم رجعوا إلى بيت الحاجب فقرر على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب، ولما علم السلطان الغورى بحكاية المرأة أرسل لمثول القضاة الأربعة بين يديه ووبخهم بالكلام بقوله: "والله افتخرتم يا قضاة الشرع نُوابكم شئ يشرب الخمر وشئ يـــزنى وشـــئ يبيع الأوقاف، وفى ذلك تسميعة لقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة" ثم طلب المحضر الذى كتبه القاضى شمس الدين برجمها فوافق السلطان، وأسفرت القضية على شـــنق الـــرجل والمـــرأة.[١٧٤] ولعل ذلك يؤدى بنا إلى التساؤل التالى ما هى الدوافع الحقيقية الكامـــنة وراء تشـــبث الحجـــاب بالســـلطات القضائية المخولة إليهم رغم جهلهم التام بالعلوم القضائية والشرعية؟ ولعل تفسير ذلك هون طمع الحجاب في الحصول على الأموال وأرزاق العباد والسيطرة على ثروات مصر وخيراتها.

الحُجاب والمراسم السلطانية:

لـــم تقتصـــر ســـلطات واختصاصات الحجاب على الشئون القضائية فحسب، سواء أكانـــت تدخـــل فى نطاق القضاء العسكرى أو نطاق القضاء المدنى أو الشرعى، بل تطرقت اختصاصـــاته إلى مجالات أبعد من ذلك بكثير، مثل استقبال السفراء والوفود الرسمية القادمة إلى مصر من النيابات والممالك الخارجية. وقد وصف لنا القلقشندى وصفاً شاملاً عن طريقة استقبال السفراء الذين يفدون إلى مصر في مهمات رسمية من قبل الملوك وعن كيفية إنزالهم فـــي دار الضـــيافة ومقامهم فيها، وكيف كانوا يمثلون بين يدى السلطان لعرض ما معهم من الكتـــب علـــيه بقوله: "ولقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكـــته، كاتب نائب تلك الجهة السلطان وعرفه بوفوده واستأذنه فى حضور الأشخاص إليه، فتـــبرز المراسيم السلطانية بحضوره، فإذا وقع الشعور بحضوره، فإن كان المرسل ذا مكانة عظيمة من الملوك خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه وأنزل بقصور السلطان".[١٧٥]

وقـــد كان الحجاب أنفسهم بمثابة رسل وسفراء من قبل السلطان إلى الملوك والحكام فـــي الممالك الخارجية فيشير المقريزى في عام ٦٣٣هـــ/ ١٢٣٥م بقوله "سافر الأمير ناصر الجزرى الحاجب إلى اليمن من جهة عيذاب في الرسالة عن السلطان" ويحدثنا كذلك في نفس العام عن "توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب إلى الملك بركة رسولاً".[١٧٦]

وأحياناً كان الحاجب يكلف بأن يتم ذلك في سرية تامة فيحدثنا المقريزى أنه في عام ٦٨١هـــــ/ ١٢٨٢م "رسم السلطان لحاجبين باستقبال رسل الملك أحمد أغا سلطان بن هولاكو

---

[174] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٣٠ وما بعدها.

[175] القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٥٨ – ٥٩؛ على إبراهيم حسن تاريخ المماليك، ص٢٠٩؛ *The Encyclopedia of Islam*, p.48.

[176] المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٥٣٨؛ على إبراهيم، تاريخ المماليك ص٢٠٦.

وأمـــرهما بـــأن يبالغا في الاحتراز على الرسل وإخفائهم عن كل أحد، فاحترز عليهم حتى لم يشاهدهم أحد وسارا بهم في الليل حتى قدموا قلعة الجبل".[١٧٧]

وتطالعـنا أغلـب الكـتابات المملوكية المعاصرة بالعديد من المواقف التى قام فيها حاجـب الحجاب باستقبال أهم السفراء الوافدين إلى مصر فيشير الصيرفى في عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣ بأنه "ركب السلطان للقاء غياث الدين أحمد بن أويس، فوصل إلى مطعم الطيور فجلس فيه حتى دنا ابن أويس، فلما رأى السلطان ترك عن جواده ومشى خطوات عديدة، فمشى إليه الأمـير بـتخاص حاجب الحجاب ومن حضر مع السلطان من الأمراء، وسلموا عليه وصار الأمير بتخاص يعلمه باسم كل أمير ووظيفته ومنزلته وهم يقبلون يده".[١٧٨]

ويشير ابن إياس في حوادث ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م بأنه "قدمت رسل ابن عثمان، متملك الـروم إلـى سـاحل بولاق، فخرج إليهم الحاجب بالخيول السلطانية حتى ركبوها على حين أنزلوا بدار أعدت لهم".[١٧٩]

وأحـياناً كان الحجاب يسافرون مع الرسل كما حدث في عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م فقد خلع على رسل تمرلنك وعين للسفر معهم منكلى بغا أحد الحجاب.[١٨٠]

ولعلـه مـن الواضـح تماماً أن الأمر يشبه إلى حد كبير طريقة استقبال السفارات والوفـود الرسمية، وان الحاجب كان بمثابة مندوبٍ عن السلطان لاستقبال الشخصيات المهمة التى تفد على مصر آنذاك.

بالإضـافة إلـى اختصاصات الحجاب السابقة كان من مهام الحجاب أيضاً الخروج لاستقبال زوجات السلاطين، ومن ذلك ما يرويه المقريزى في أحداث عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م حيـن خـرج الأمير أقبغا عبد الواحد وبعض الحجاب لاستقبال الخاتون دلنبية زوجة السلطان الناصـر محمد بن قلاوون، فركبت الخاتون في الحراقة[١٨١] السلطانية الكبرى وركبت حاشيتها فـي الحـراريق الأخـرى واستقر ركابها عند ساحل مصر حيث حملت إلى القلعة في عجلة موشاة بالذهب والطنافس.[١٨٢]

إلـى جانـب هذه الاختصاصات كانت توجد بعض الأعمال والأشغال الثانوية التى يتولى الحاجب القيام بها إلى أجل مسمى فتطالعنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بأنه كان

---

177 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٠٧.

178 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٧٥.

179 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٨٨.

180 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٨٦.

181 حراقة وجمعها حراريق: نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النار (كالنار الأغريقية)، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو. واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التى تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج، سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٣٠؛ Quatremére, *Histoire des sultans mamlouks*, p.143.

182 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٢٠٤ – ٢٠٥.

يخـــتار الحاجب في كثير من الأوقات من قبل السلطان وينتدب لنيابة الغيبة في القاهرة، وذلك حيــنما يكــون السلطان مضطراً إلى مغادرة الديار المصرية، لأى سبب كان، وغالباً ما كان ينتاب في حكم القاهرة وينزل في بيت منجك اليوسفى،[183] بل وقد رسم لأحد الحجاب أن يقيم بداره في باب السلسلة أثناء نيابته للغيبة.[184]

وفـــى عام ٧٩٣هــ/ ١٣٩٠م جاءت الأخبار بأن منطاش تزايد أمره فخرج السلطان بــرقوق للقائـــه وترك بالقاهرة بعض الأمراء مثل قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب، والأمير بتخاص السودونى ومن الحجاب والأمراء العشراوات عشرين أميرا.[185]

ونقرأ في المصادر المعاصرة ايضاً أنه في عام ٨٠٢هــ/ ١٣٩٩م استناب السلطان بالديـــار المصـــرية الأمـــير بيـــبرس ابن عمته وبعض الأمراء المقدمين منهم الأمير أقباى الطـــرنطاى حاجـــب الحجاب الذى نزل في بيت منجك اليوسفى، كما ترك الأمير مبارك شاه الظاهرى الحاجب وكاشف الجيزة.[186]

وفـــى عـــام ٨٠٤هــ/ ١٤٠١م خرجت العساكر المصرية إلى عرب تروجة وترك الســـلطان فـــرج بـــن بـــرقوق بالقاهرة أميرين أحدهما بيبرس أتابك العساكر والأخر بشباى الحاجب الثانى وبعض الأمراء الصغار.[187]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٨٤٨هــ/ ١٤٤٤م أن القاهرة تعرضت لفتنة كبرى ارتجـــت لها الأرض وذلك عندما جاء رسول من عند شاه رخ بن تمرلنك ومع هدايا للسلطان احتوت على كسوة للكعبة فأمر السلطان بإخفائها عن الأمراء وأرباب الدولة، فتسامع الأمراء بذلـــك، وتحركـــت طائفة من المماليك الجلبان ونهبوا الدار التى نزل بها الرسول هم والعوام، فلمـــا بلـــغ الســـلطان ذلك، رسم لحاجب الحجاب والوالى أن يدركوا رد النهب، وقام حاجب الحجاب بالقبض على جماعة من المماليك والعوام وهدأت الفتنة.[188]

وفـــى أثناء سفر السلطان فرج ترك بالقاهرة نائب الغيبة الأمير أرغون أمير آخور في باب السلسلة وفى القاهرة الأمير إينال الصصلانى الحاجب الثانى.[189]

---

183 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٤٨، ٣٤٠.
184 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ٩، ص١٠٢.
185 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ١ ق٢، ص٤٤٦.
186 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٤٨.
187 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص١٤٥.
188 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ٢، ص٢٤٤-٢٤٥.
189 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٢٦٤.

وقـد امــتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى الخروج لاستقبال النواب ومن ذلك ما حدث عــام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م فقد وصل الأمير كمشبغا الحموى نائب حلب فرسم السلطان برقوق للأمير سودون النائب والحجاب وأعيان السلطنة بالخروج لاستقباله.[١٨٩]

ومــن مهام الحجاب أيضاً القيام بخدمة القضاة ففى عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م خلع على الشــيخ الأمام الفقية جمال الدين يوسف بن القاضى شرف الدين الملطي واستقر قاضى القضاة الحنفــية ونــزل في خدمته كاتب السر بدر السراتى والأمير فارس حاجب الحجاب، والأمير تمربغا المنجكى حاجب ميسرة وغيرهم من الأكابر والأعيان.[١٩٠]

بالإضــافة إلــى اختصاصات الحجاب السابقة كان من مهام الحجاب أيضاً الخروج وراء المحمــل، ففــى عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م عُين كزل العجمى الحاجب بإمارة الحاج وجبى من الحاج مالاً كثيراً.[١٩١]

وفــى عــام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م أدير المحمل ولم يكن له بهجة بسبب انشغال الناس بســفر السلطان الأشرف برسباى، وقد أمر السلطان جماعة من الأمراء بالخروج وراءه منهم الأمير قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب.[١٩٢]

وفــى عــام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م خرج المحمل من القاهرة وكان أمير ركب المحمل برسباى البجاسى حاجب الحجاب.[١٩٣]

ويشــير ابــن إيــاس أيضاً في أحداث عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م إلى تعيين إينال الفقية الحاجــب الــثانى بالركب الأول للمحمل[١٩٤] ونقرأ في المصادر المملوكية المعاصرة أيضاً في حــوادث عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م أن السلطان الغورى عين الأمير طومان باى حاجب ثان فى آمرة الحاج بالركب الأول وكان من أمراء الطبلخاناة.[١٩٥]

ويفهــم مــن الصيرفى أن اختصاصات الحجاب امتدت إلى الصعود إلى القلعة مع جهــاز أبناء الأمراء، ومن ذلك ما حدث عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م فقد صعد جهاز الست فاطمة بنــت الأمــير منجك إلى القلعة، وكان أمام الجهاز الأمير إيدكار ماشى الحاجب، واعتبر ذلك من الأيام المشهودة.[١٩٦]

---

[189] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٢.

[190] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٦١.

[191] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٧٩.

[192] ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٤٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٤٥.

[193] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤٩.

[194] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٧٠.

[195] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٣٠٩، ٣٦٠.

[196] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٩٤.

بالإضافة إلى اختصاصات الحجاب السابقة كان من عادة الحجاب المشي وراء زوجات السلاطين والأمراء أثناء صعودهن ونزولهن من القلعة، ففي عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م صعدت خوند الخاصكية زوجة العادل طومان باى في محفة زركش وكان أمامها الرؤس والنوب والحجاب والخاصكية، وهم بالشاس والقماش بالإضافة إلى الوالي ونقيب الجيوش.[197]

مهام الحجاب العسكرية:

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى القيام بأعمال التعبئة العسكرية حيث كانوا يحثون الناس على الجهاد في سبيل الله، ومن ذلك ما يرويه ابن إياس في أحداث في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م حيث ركب شيخ الإسلام وقضاة القضاة، والأمير أقباى حاجب الحجاب، والأمير مبارك شاه الحاجب ونودى بالقاهرة "بالجهاد في سبيل الله، لعدوكم الأكبر تمرلنك فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأسر العباد، وأخرب الدور والمساجد والجوامع وجعلها إسطبلات للدواب وهو قاصدكم يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم، ويسبى حريمكم..".[198]

وأحياناً كان الحاجب يستناب لشغل إحدى الوظائف العسكرية كوضع مؤقت إلى أن يتم شغل هذه الوظيفة، فيحدثنا ابن تغرى بردى في حوادث عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م بأنه طلب الأمير قبلاى الحاجب ورسم له بالتوجه لحفظ الكرك إلى أن يتم تعين نائب جديد.[199]

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى الخروج على رأس التجريدات الحربية، فنقرأ في المصادر المعاصرة أنه في عام ٧١٤هـ/ ١٣١٤م خرج العسكر من القاهرة ومعهم ركن الدين بيبرس الحاجب ووصلوا إلى دمشق وأقاموا بها حتى نهاية العام.[200]

وفي عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون تجريدة إلى اليمن مع الأميرين ركن الدين بيبرس الحاجب وطينال الحاجب.[201]

ونقرأ في المصادر المعاصرة أيضاً عن تجريدة أخرى عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م حيث عين الأتابك[202] برقوق تجريدة عظيمة للخروج إلى العربان وكان من بين أفرادها الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب.[203]

---

197 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٧٢.

198 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٠١.

199 ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٠، ص٩٣.

200 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص١٣٩.

201 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣١٨.

202 أتابك أى مقدم العسكر والقائد العام للجيش المملوكى، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ص١٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٠٩.

203 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٦٦ – ٢٦٧.

وتشـــير المصـــادر أيضـــاً إلى تجريدة في عام ٧٩١هـــ/ ١٣٨٨م متجهة إلى حلب بصحبة الأمراء المقدمين وأيدكار العمرى حاجب الحجاب.[٢٠٤]

وتخـــبرنا المصـــادر أيضاً عن تجريدة تمت في عام ٨٠١هـــ/ ١٣٩٨م، حيث رسم السـلطان بـرقوق بتجهيز ستة من الأمراء المقدمين وعدد من أمراء الطبلخانات والعشرات. وكان تمربغا المنجكي أمير حاجب من بين الأمراء المقدمين، ورسم لكل واحد من الطبلخانات بعشرة آلاف درهم، ولكل من العشرات بخمسة آلاف درهم فشرعوا في التجهيز للسفر.[٢٠٥]

وهـناك تجـريدة خرجت في عام ٨٠٣هـــ/ ١٤٠٠م حيث برز المرسوم السلطانى للأمير أسنبغا الحاجب بالقاهرة بالتوجه إلى الشام وحلب لمحاربة تيمورلنك.[٢٠٦]

وفى عام ٨٠٥هـــ/ ١٤٠٢م تم تعيين جريدة لمحاربة الفرنج، وكان من بين أفرادها جماعـة من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخاناة[٢٠٧] والمماليك السلطانية وآقباى حاجب حجاب القاهرة ويشباى الحاجب واتجهوا جميعاً إلى دمياط والإسكندرية.[٢٠٨]

وتشـــير المصادر المملوكية إلى تجريدة خرجت إلى الرّها في عام ٨٣٤هـــ/ ١٤٣٠ م، وقد اشترك فيها الأمير قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب.[٢٠٩]

أمـا تجـريدة عـام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م فقد خرجت إلى حلب، وعين فيها ثمانية من الأمراء المقدمين وكان يشبك المشد الشعباني حاجب الحجاب من ضمن أفرادها.[٢١٠]

وفى عام ٨٥٦هـــ/ ١٤٥٢م خرجت تجريدة إلى البحيرة وكان باشى العسكر خشقدم حاجب الحجاب على رأسها.[٢١١]

وتجـريدة عـام ٨٦٧هـــ/ ١٤٦٢م المتجه إلى قبرص، وكان باشى العسكر الأمير بردبك البجمقدار حاجب الحجاب.[٢١٢]

وبالنسـبة لتجريدة عام ٨٦٨هـــ/ ١٤٦٣م المتجهة إلى البحيرة عين السلطان الظاهر خشقدم عليها الأمير أزبك من ططخ حاجب الحجاب وعدداً من الأمراء المماليك السلطانية.[٢١٣]

---

204 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٩٤.

205 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٩.

206 ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٧٣.

207 الطبلخاناة، لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل الذى يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلآت. أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٤٣.

208 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٦٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٢ – ٦٧٣.

209 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣٦.

210 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٨٠.

211 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٩٥.

212 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٠٣.

213 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤١٨.

ونقـرأ أيضـا فـي أحداث عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م أن السلطان الظاهر خشقدم أمر بخـروج تجـريدة إلـى شاه سوار بن دلغادر وكان على رأسها حاجب الحجاب الأمير تمر وبعض أمراء الطبلخاناة والعشرات.[214]

ويفهـم كذلك من مؤرخي العصر المملوكي أنه في عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م خرجت تجـريدة أخرى على حماة لتأديب سيف أمير آل فضل لأنه قتل آزدمر نائب حلب، وكان على رأسها برسباى قرا حاجب الحجاب وعدد من الأمراء.[215]

وهـناك التجريدة المتجهة إلى حلب بسبب على دولات ابن دلغادر وعين فيها ططر حاجب الحجاب عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.[216]

ونتـيجة لاضـطراب الأمور في بلاد الشام وتدهورها أمر السلطان الغورى بتعيين تجريدة لتهدئة الأمور هناك، وصحب هذه التجريدة قيت الرجبى حاجب الحجاب.[217]

مهام الحجاب المدنية:

تطالعـنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بما لا يدع مجالاً للشك في أن الحاجب قد اتسعت مجالات اختصاصاته فنجده يشرف في كثير من الأحيان على شئون الرى وإصلاح الجـور وشق الترع وحفر القنوات، فيذكر ابن إياس في حوادث ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م بأنه "أبتدأ الأمـير بكتمر حاجب الحجاب بحفر بركته المعروفة ببركة الرطلى، وأجرى عليها الماء من الخليج الناصرى وعمل لها جسراً بينها وبين الخليج".[218]

ويحدثـنا ابن أياس أيضاً في حوادث عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م بقوله: "أوفى النيل ستة عشـر ذراعـاً، فـنزل الأمـير فـارس حاجب الحجاب، وخلق المقياس، وفتح الخليج على العادة".[219]

وتشـير المصـادر المعاصرة أيضاً في أحداث عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، توقف النيل عـن الزيادة فرسم السلطان لحاجب الحجاب بالتوجه إلى الروضة وحرق الخيام وتشتت الناس لكثرة ما يحدث هناك من المفاسد.[220]

وفى عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م أوفى النيل فتوجه بعض الحجاب وكسروا السد.[221]

---

214 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٧، ٢٩.
215 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٦٥.
216 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٠٢.
217 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٨١، ٤١٤.
218 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٥٥ - ٤٥٦.
219 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٤٦.
220 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٧.
221 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٩.

ويحدثنا الصيرفى أيضاً في حوادث عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م بأنه "كان وفاء النيل ست عشر ذراعاً، فرسم السلطان للأمير قرقماش حاجب الحجاب بتخليق المقياس وفتح الخليج."[222]

ويشير المقريزى أيضاً في حوادث ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م كان وفاء النيل ست عشر ذراعاً وفتح الخليج على العادة، وقد نزل الأمير أسنبغا الطيارى الحاجب إلى هذه الخليج.[223]

وفى عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م كان وفاء النيل وفيه يقول ابن إياس "وقد أوفى وزاد عن الوفاء عشرين أصبعاً، حتى نودى عليه ثانى يوم كسره بتكملة السبعة عشر ذراعاً، فعد ذلك من النوادر؛ وتوجه إليه حاجب الحجاب لفتح السد".[224] وتمدنا المصادر المعاصرة بالمعلومات عن اشتراك الحجاب في مباشرة أعمال حفر الترع والقنوات، ففى عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م أمر السلطان الغورى بحفر الخليج ورسم للأمير أنصباى حاجب الحجاب بالتوجه إلى قناطر الإوز ومباشرة أعمال الحفر بنفسه، وهناك أقيمت الخيام وبعد انتهاء عمليات الحفر احتفل بهذا الحدث.[225]

كما كانت هناك بعض الواجبات والأعمال الاستثنائية التى تتطلب من الحاجب القيام بها تبعاً لخطورة هذه الأعمال، ومن بين هذه الأعمال ما يرويه الصيرفى في حوادث عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م من قيام إيدكار الحاجب بالتحقيق في إحدى قضايا المشاجرات التى حدثت بين جماعة من النصارى وبعض المسلمين فيذكر ما نصه "أن جماعة من مبيض النصارى عملوا عرساً واجتمع عندهم فيه عدد كبير من الملاهى وأمثالهم، فصعد المؤذن ليسبح الله تعالى ويوحده على العادة في جوف الليل، فلما سمعوه أولئك النصارى بادروا إلى سبه وإهانته وأنزلوه من المنارة بعد ضرب مبرح .. فبلغ هذا الأمر الفادح خطيب الناحية فوثب عليهم ليخلصه منهم فأوجعوه ضرباً وسبا وأرادوا قتله وقتل من معه وقد أمر السلطان الظاهر برقوق ورسم للأمير إيدكار الحاجب أن يتوجه بالكشف عن هذه القضية، فتوجه إليها وكتب محضر بقبح أفعالهم وحملهم معه إلى السلطان فرسم للقاضى المالكى أن يحكم فيهم فسجنهم".[226]

ومن بين مهام الحاجب أيضاً ما يرويه ابن الصيرفى في حوادث عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م عندما جلس السلطان الظاهر برقوق لتوزيع الصدقة على الفقراء فاجتمع عنده من

---

[222] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٢٢٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣٩.

[223] المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٣، ص١٠٧٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٩٥، ص١٣٩.

[224] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٤٢.

[225] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٢٢٨.

[226] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٦٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٧٣ - ٢٧٤.

الخلائـــق مـــا لا يحصى عددهم، حتى أنه من شدة الزحام مات منهم بباب الإسطبل ٤٧ نفساً تولى غسلهم وتكفينهم وتجهيزهم الأمير فارس حاجب الحجاب.[٢٢٧]

وفـــي عـــام ٨١٨هـــــ/ ١٤١٥م وقع غلاء عظيم بمصر وقل الخبز من الأسواق، وصـــار الناس يتزاحمون على الأفران والطواحين، ونهبت الناس الأفران وشون القمح، فرسم السـلطان أن يكون على كل فرن جماعة من المماليك السلطانية، وكان حاجب الحجاب جالساً على الفرن الواقع في منطقة التبانة ومعه عدة مماليك يدفعون الناس عن الزحام والنهب.[٢٢٨]

وأحـــياناً كـــان الحاجب يكلف من قبيل السلطان بمهمة المهاجمة على أوكار الفساد والفحشـــاء وتتبع أماكن الفساد، فتشير المصادر أنه في عام ٧٨٧هــ/ ١٣٨٥م خرج الحجاب في يوم النوروز إلى أماكن النزهة والمتفرجات وقام بالقبض على العوام وضربوهم بالمقارع وقطعوا أيدى منهم، والبعض الآخر شنق، فأنكف الناس عما كانوا يفعلونه في ذلك اليوم.[٢٢٩]

وتشير البعض المصادر أنه في عام ٨٣٢هــ/ ١٣٢٨م "تتبع الأمير قرقماش حاجب الحجـــاب مواضع الفساد فأراق الخمور، وحرق الحشيشة المغيبة للعقل، وهجم على مواضع الفحشاء، ومنع الاجتماع فيها."[٢٣٠]

وفـــي عـــام ٩١٠هــــ/ ١٥٠٤م أمر السلطان حاجب الحجاب ووالى القاهرة بتتبع مواضـــع الفســـاد وكـــبس بـــيوت النصارى وكسر ما عندهم من جرار الخمر وحرق أماكن الحشيشة.[٢٣١]

وفـــي عـــام ٩١٧هــــ/ ١٥١١م أمر السلطان الغورى حاجب الحجاب والوالى بأن يـــتوجها ويكبسا على المتفرجين في الروضة، فذهب أنسباى حاجب الحجاب مع والى القاهرة ونادوا بالأمان وأن أحداً لا يتجاهر بالمعاصي.[٢٣٢]

بالإضافة إلى اختصاصات الحاجب السابقة، كان الحاجب يكلف أحياناً بالقضاء على الفتـــن والثورات وبالضرب على أيدى الجناة والمجرمين بل نجده أحياناً يشارك في معاقبتهم جمـــيعاً، ففـــي إحـــدى الثورات التى قام بها العربان ببلاد الصعيد رسم للأمير فارس حاجب الحجـــاب ومعـــه عدد من المماليك السلطانية للكبس عليهم، واستطاع في أقل من ستة أيام أن يسيطر على الثورة ورجع بصحبته خمسمائة رجل قبض عليهم.[٢٣٣]

---

[227] الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ١، ص٤٢٥.

[228] الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ٢، ص٣٥٦-٣٥٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـــ٣، ص٦٩ - ٧٠.

[229] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٣٦٥.

[230] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص١٢٢.

[231] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٤٤.

[232] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٣١.

[233] الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ١، ص٤٠٠.

وتذكــر المصـــادر المعاصــرة في أحداث عام ٧٩١هــ/ ١٣٨٨م أن العامة الزعر والـتركمان نهبوا الكثير من أهل القاهرة فتصدى لهم منكلى الحاجب وسيدى أبو بكر الحاجب ونادوا "أن من تعرض لكم من الزعر والتركمان فاقتلوه".[٢٣٤]

وفـــى عـــام ٨٧٥هـــــ/ ١٤٧٠م عين السلطان الأشرف قايتباى الأمير تمر حاجب الحجـاب، والأمـــير قانصـــوه الخسيف الإينالى بأن يخرجا إلى الشرقية بسبب فساد العربان، ورسم لهما السلطان بأن من وجده من بنى سعد وبنى وائل يقبضوا عليه .[٢٣٥]

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى المساهمة في إخماد الحرائق التى تعرضت لها البلاد، ففي عام ٧٧٩هــ/ ١٤٧٤م وفى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وقع حريق بظاهر باب زويلة عند دار التفاح[٢٣٦] فاحترقت هذه الدار والربع،[٢٣٧] ولولا سور المدينة لاحـــترق نصـــفها، وعندما تزايد أمر النار نزل الأمراء بمماليكهم لإطفاء النار ومعهم الأمير تغـــرى برمش حاجب الحجاب ووصلوا إلى مكان الحريق، وهناك نزلوا عن خيولهم وصاروا يهجمون على السقائين في بيوتهم حتى يأتوا بماء القرب واستمرت النيران مشتعلة لمدة ثلاثة أيام حتى تم إخمادها.[٢٣٨]

وفـــى عـــام ٧٨٨هـــــ/ ١٣٨٦م وقـــع حريق في بركة الرطلى بالقرب من قنطرة الحاجـــب فاحترقـــت عدة بيوت وتوجه حاجب الحجاب والوالى مع عدد من المماليك وقاموا بإطفاء الحريق.[٢٣٩]

ســـاهم الحجاب أيضاً في حفظ الأمن داخل البلاد وضبط أمور السلطنة أثناء غياب الســـلطان، ففـــى عام ٧٧٨هـــ/ ١٣٧٦م عين السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن عمر بن قلاوون جماعة من الحجاب لحفظ القاهرة وحاراتها وخططها.[٢٤٠]

---

[234] الصيرفي، نزهة النفوس، جـــ١، ص٢١٦.

[235] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص٦٠.

[236] كانـــت دار التفاح فندقاً تجاه باب زويلة، يرد إليه الفواكة على اختلاف أصنافها، مما ينبت في بساتين ضواحى القاهرة، وكـــان بدمشق أيضاً دار مشابهة لها، أسمها دار البطيخ والفاكهة، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٥٣؛ السلوك، جـــ١ ق١، ص١٨٤ هامش ٣؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص١٠٤، هامش١٤٠، حياة الحجى، أحوال العامة في حكم المماليك، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط١، الكويت ١٩٨٤م. ص٨٨.

[237] الرباع جمع ربع وهو مجموعة من المساكن المؤجرة للغير تجمع حول صحن، ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحـــد، ويصل ارتفاع الربع إلى اربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقة تدور حول الصحن، وتوجـــد مجموعـــة من الجوانب بالجهة المطلة على الشارع من الطابق الأرضي، والربع مخصص لسكن الطبقات الشعبية بأجور شهرية زهيدة. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ١٠، ص٣٠٣ هامش٣؛ المقريزى، الخطط، جـــ٣، ص٣٨٣؛ حسين مصطفى رمضان، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٨٧م، ص٢٠٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤١٨.

[238] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٢٢١.

[239] ابـــن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٣٦٩.انظر. Meinecke, M., *Die mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien, 648-11250 Bis 923/1517*, 1992, p.466.

وتذكـــر المصـــادر أيضاً أن الحجاب تتبعوا النساء لمنعهن من الخـــروج، ففى عام ٨٤١هـــ/ ١٤٣٧م تـــزايد الوباء بمصر واجتمع السلطان الأشرف برسباى والقضاة الأربعة ومشـــايخ العلم، وشكا السلطان من تزايد الطاعون بالقاهرة فقالوا له: "إنما يظهر الطاعون في قوم إذ فشا فيهم الزنا وأن النساء قد تزايد خروجهن في الطرقات، وهن متبرجات ليلاً ونهاراً فـــي الأســـواق" فأشار بعض العلماء بمنع النساء من الخروج، إلا في الحمام فقط، ونادى في مصـــر والقاهـــرة بمنع النساء من الخروج فتتبع الوالى والحجاب النساء في الطرقات لمنعهن من الخروج.[٢٤١]

بقـــى أن نشـــير فـــي الـــنهاية بأنه إلى جانب هذه المهام كان للحاجب بعض المهام الأخرى المتمثلة في تطبيق الشريعة الإسلامية وأقامة منار الشرع، ففى عام ٩١٠هـــ/١٥٠٤م رسم السلطان الغورى لحاجب الحجاب ووالى القاهرة بكبس بيوت النصارى وكسر ما عندهم مـــن جـــرار الخمر، وتتبع أهل الفساد بالإضافة إلى حرق أماكن الحشيش والبوزة، كما سبق وأشرنا.[٢٤٢]

وكـــان مـــن مهـــام الحجاب أيضاً القضاء على الفتن التى يقوم بها بعض العامة في مصـــر ففـــى عـــام ٧٧٠هـــ/ ١٣٦٨م اجتمعت طائفة من الزعر بأرض اللوق[٢٤٣] وصاروا يشـــالقون الـــناس بالحجارة، فقتل منهم جماعة، وتزايد الأمر، فسمع الوالى وحاجب الحجاب الأمـــير علاء الدين بن كلفت والأمير أقبغا اليوسفى حاجب الحجاب، فركبوا جميعاً وتوجهوا على أرض اللوق وقبضوا على المشالقين وضربوا بالمقارع.[٢٤٤]

مكانة الحجاب في المجتمع المملوكي:

يتضـــح من خلال العرض السابق مدى ما وصلت إليه الحجابة في العصر المملوكى مـــن أهمية، بل أن الأمر وصل إلى أبعد من ذلك بكثير، فقد أصبحت للحجاب مكانة اجتماعية

---

240 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص١٧١.

241 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص١٨٢.

242 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٧٦.

243 لاق الشىء يلوقه لوقا، ولوقه لينة وهذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينه وإلى الآن في أرض مصر إذا ما نزل عليها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث للينها بل تلاق لوقا المقريزى، الخطط، جـــ٣، ص١٨٩ – ص١٩٠، وقد ظهـــرت أرض اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طروحات أخرى في أوائل عهد دولة المماليك البحرية، وقد بدأت عمارة اللوق منذ عهد الخديوى إسماعيل وأكتظت بالمبانى والعمائر حتى صارت كلها مشغولة بالدور والقصور، سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، ١٩٨٣، جـــ٥، ص٩٤؛ وقال عنها القلقشندى، "سكنها رعاع الناس وأوباشهم". القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٣٥٨.

244 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٨٨.

وسياسية عظيمة في المجتمع المملوكى، والدليل على ذلك أن حاجب الحجاب قرقماس قد تزوج من ابنة السلطان الناصر فرج بن السلطان الظاهر برقوق.[245]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م إلى زواج الأمير أنصباى حاجب الحجاب من ابنة الأشرف قانصوه خمسمائة، والتى كانت لها زفة يقصر دونها الوصف كان من بين الحضور الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمين وقد ارتدوا الشاش والقماش وبأيديهم الشموع الموقدة وشقوا من الصليبية بهذا الموكب الحافل حتى دخلوا إلى قاعة الفرح ببيت يشبك الدوادار.[246]

ومما يدل على مكانة الحجاب الاجتماعية في العصر المملوكى، أن السلطان عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م نزل من القلعة متجهاً إلى دار تمر حاجب الحجاب من أجل زيارته في مرضه ثم عاد إلى القلعة.[247]

ويتساءل الباحث هل وقع الحجاب تحت طائلة القانون رغم المكانة العالية التى وصلوا إليها ؟ للإجابة عن هذا التساؤل ينبغى أن نتعرض إلى ما أطلق عليه في مصطلح العصر المملوكى اسم المصادرات ونتعرف من خلالها هل طبقت على الحجاب أم لا؟[248]

والمصادرة هي عقوبة مقررة واجبة النفاذ هدفها المال سواء كان بالضمان أو المطالبة أو بالاستيلاء عليه بالقوة لصالح الدولة دون أن يكون للشخص المعاقب حق الاعتراض، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن المصادرة عمل تعسفي مجاف للعدالة ودليل على فساد الإدارة، وفى عصر المماليك رادف لفظة المصادرة أربعة ألفاظ أخرى هى الغرامة، والحوطة، والعقوبة، والجناية، فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد.[249]

نقرأ في المصادر المملوكية عن مصادرة الحاج بهادر الحاجب الذى صادره شاد الدواوين في عهد السلطان لاجين في عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م،[250] أما عن سبب المصادرة فكان بذنب أستاذه قراسنقر وظلمه.[251]

وبكتمر الحسامى الحاجب الذى صادره السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م،[252] بسبب اتهامه بتدبير محاولة لقتل السلطان، وقد بلغت قيمة المصادرة

---

245 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٢٦.

246 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص١٩٦.

247 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٨٣، جـ٤، ص١٩٦.

248 انظر ثبت مصادرات الحجاب رقم ٥-٦ الوارد في ختام البحث.

249 البيومى إسماعيل الشربينى، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١١٠، ١٩٩٧م، ص٢٣؛ انظر أيضاً حياة ناصر الحجر، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك ص٥٢ وما بعدها.

250 الكتبى، عيون التواريخ، ص٨٦؛ العينى، عقد، الجمان، جـ٣، ص٣٦٣-٣٦٤.

251 البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٠٣.

252 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٢٨، ٤١.

مائة ألف دينار، وجمال الدين بكتمر الحاجب الذى صادره أيضا السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م[253] وكانت سبب المصادرة تآمره على قتل السلطان ووصل مبلغ المصادرة إلى مائة ألف دينار وانتهى به المطاف إلى السجن.[254]

ونقرأ أيضاً عن سيف الدين الُماس الحاجب الكبير الذى قام بمصادرته شاد الدواوين وشاهد الخزانة، حيث تمت مصادرته في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م، وكان سبب المصادرة تآمره على قتل السلطان إلى جانب ثروته المشبوهة وحجه بدون إذن السلطان حيث أُلزم بحمل ٢,٣٩٠,٠٠٠ درهم نقرة،[255] وانتهى به الأمر إلى القتل خنقاً.[256]

وتشير المصادر أيضاً إلى على بن مقلد حاجب العرب بدمشق الذى قبض عليه وصودر في عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان منفذ المصادرة هو ناظر الخاص، أما عن سبب المصادرة فكان تأديبه، وقد تعرض للضرب والتعذيب حتى قتل.[257]

ونستشف من المصادر أيضاً عن مصادرة بكتمر الحسامى الحاجب الذى تعرض للمصادرة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م وكان سبب مصادرته عزل جد أولاده نائب الكرك، أما عن مبلغ المصادرة فكان أشياء نقدية وعينيه.[258]

كما يتحدث المؤرخون عن محمد بن بكتمر الحاجب الذى صودر في عهد السلطان المظفر حاجى بن الناصر محمد بن بن قلاوون في عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م بسبب تآمره على قتل السلطان بسبب لهوه، وكان مبلغ المصادرة تمثل في مصادرة بيته وماله وخيله، ووصل به المطاف إلى السجن، وقد نفذ المصادرة شاد الدواوين وأمير سلاح.[259]

---

253 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص١٤٤.

254 البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٠٨.

255 الدراهم وجد منها أربعة أنواع، أجودها وأعلاها قيمة ما عرف باسم النقرة ويتكون من فضة ولحاس ووزنه ١٦ قيراطاً أى ينقص عن المثقال. وقدر كل سبعة مثاقيل بعشرة دراهم وزنا وقيمة هذا الدرهم ٢٤ فلساً، وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية، ويكون فيها دراهم صحاح وقراضيات مكسرة، وقدر وزن الدرهم النقرة بست عشرة حبة خروب، فتكون معاً خروبتين ثم درهم، والخروبة ثلاث حبات من حب البر المعتدل، إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٢٤.

256 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٣٦٣، ٣٧٥؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٧٣، حياة الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص٤٠.

257 الصفدى، أعيان العصر، ص٣٦، ٤٥، أبو الفدا، المختصرفى أخبار البشر، طبعة لبنان ١٩٦٨م، ص١٠٩.

258 ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، القاهرة ١٩٩٢م، جـ٧، ص١٧٤؛ ابن الوردى تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٨٦٨م، جـ٢، ص٣٠٨.

259 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣، ص٧٣٠؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٢٠.

ويخـبرنا المقريـزى عن مصادرة علاء الدين على بن كلفت الحاجب الذى صادره السلطان الأشرف شعبان بن حسين عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م بسبب تبعيته لألجاى ومن عصبته حيث وصل به الأمر إلى السجن.[٢٦٠]

وتـتحدث المصـادر عن سلطان شاه بن قراجا حاجب ثان الذى تعرض للمصادرة علـى يد السلطان الأشرف شعبان بن حسين في عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م نتيجة لتبعيته لألجاى أيضاً.[٢٦١]

ومـن الحجـاب الذين تعرضوا للمصادرة والنفى ورجعوا مرة ثانية إلى مناصبهم، نذكـر عبد الله بن بكتمر الحاجب الذى تمت مصادرته في عهد السلطان المنصور شعبان في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م بسبب خلاف بينه وبين أحد رجال الدولة، ووصل مبلغ المصادرة إلى ١٠,٠٠٠ دينار، وانتهى به الحال إلى النفي، ثم رجع مرة ثانية.[٢٦٢]

ونقـرأ فـي المصـادر أيضـاً عن محمد بن بكتمر الحاجب الذى صودر في عهد السـلطان الظاهـر بـرقوق عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م حيث الزم بحمل ٢٠٠٠,٠٠٠ درهم إلى الخزانة الشريفة.[٢٦٣]

ويذكر المؤرخ السخاوى أيضاً أن عبد الرازق بن أبى الفرج الحاجب والوزير الذى تعـرض للمصـادرة في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، وقد صـودر على يد هذا السلطان، وعن أسباب مصادرته، فقد جمع نفقة للجند بدون إذن السلطان ممـا ترتب عليه عزله، وقد وصل مبلغ المصادرة إلى ١٠٠,٠٠٠ دينار وانتهى به الحال إلى الإفراج عنه.[٢٦٤]

نقرأ أيضاً في المصادر المملوكية عن مصادرة الأمير تنكزبغا حاجب طرابلس الذى تمـت مصادرته على يد نائب طرابلس في عهد السلطان الناصر فرج عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م وقد قتل في النهاية.[٢٦٥]

---

260 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢١٥ – ٢١٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦٠، ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٢٢،١٢٠.

261 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٢٠.

262 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٣٣، البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٢٠ وما بعدها.

263 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥.

264 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص١٠٦٤؛ بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٢٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص ١٩١؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٣٩.

265 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٤.

أمـــا كزل العجمى حاجب الحجاب وأمير الحاج الذى صادره السلطان الناصر فرج بن برقوق في عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م بسبب سوء سيرته مع الحجاج وأخذ الأموال منهم، فقد انتهى به المطاف إلى الهرب وبلغت قيمة مصادرته حوالى ٢٠٠,٠٠٠ درهم.[٢٦٦]

وتخـــبرنا المصادر المملوكية أيضاً عن آقبغا شيطان الذى كان يشغل كل من الولاية والحجوبية والحسبة في آن واحد، ثم قبض عليه في عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودى، وكان منفذ المصادرة الإستادار فخر الدين "وجعل في باشة حديد وأخذ جميع موجوده."[٢٦٧]

كمـــا يـــتحدث المؤرخـــون عن الزينى فرج الحاجب الذى تمت مصادرته في عهد الســـلطان قنصـــوه الغورى في عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م على يد المحتسب بسبب امتناعه عن حراســـة بعـــض الجســـور، وقد بلغت مصادرته ٥,٠٠٠ دينار وانتهى به الحال إلى الإفراج عنه.[٢٦٨]

هكـــذا واصـــلت الدولـــة المملوكية مصادراتها للحجاب حيث سجلت كتابات بعض المؤرخين المعاصرين ما يقرب من خمس عشرة حالة مصادرة.

بقـــى أن يجيـــب الباحث على استفسار حول معاملة الدولة للحجاب المحكوم عليهم بالســـجن؟ للإجابـــة عن هذا التساؤل تشير المصادر إلى حوادث عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م فقد قبض على جمال الدين بكتمر الحسامى الحاجب بتهمة التآمر على السلطان وصودر وأخذ منه مائة ألف دينار وسجن، وفى عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م أفرج عن الأمير بكتمر وخلع عليه بنيابة صـــفد، وأنعـــم علـــيه بمائتى ألف درهم، وقد تمت معاملته أثناء اعتقاله معاملة تنطوى على التســـامح والكـــرم والعطـــف، وعبارة المقريزى خير دليل على ذلك إذ يقول: "ولم يفقد غير ركوب الخيل، بل أن السلطان أرسل له في السجن بجارية حملت منه وولدت ولداً".[٢٦٩]

وفـــى عـــام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م تم القبض على الأمير كزل الحاجب واعتقل بسجن الإسكندرية وتمت معاملته بصورة حسنة.[٢٧٠]

وتشـــير المصـــادر أيضـــاً إلـــى المؤيد شيخ الذى قام بالقبض على ثلاثة من أمراء الألوف أحدهم حاجب الحجاب قجق، واعـــتقلوا جميعاً بسجن الإسكنـــدرية عام ٨١٧هـ/

---

266 المقريزى، السلوك، جـ٤، ق١، ص٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦٠.

267 المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٤٤١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٧؛ محاسن الوقاد، الألقاب والكنى الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٢، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٢٧.

268 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٣٨.

269 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص١٤٤، ١٦٢ – ١٦٣.

270 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٥٧.

١٤١٤م.[٢٧١]

وقد تعرض بعض الحجاب إلى الضرب من قبيل بعض الأمراء، ففى عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م اجتمع المماليك وتوجهوا خلف الأمير يشبك بن أزدمر، ووصلوا إلى خانقاه سرياقوس وضربوا الحاجب محمد بن جلبان الصغير، مما أدى إلى وقوع فتنة بسبب هذا العمل.[٢٧٢]

الحجاب والشعارات المميزة (الرنوك):

بعد أن تحدثنا عن الوظائف التى كان يقوم بها الحاجب إبان العصر المملوكى، يتبادر إلى الذهن تساؤل هل كان للحاجب رنك[٢٧٣] يدل على وظيفته؟ وهل كان رنك الحجاب ثابت الشكل أم اختلف من حاجب لآخر ومن درجة لأخرى داخل وظيفة الحجابة نفسها؟

درج السلاطين والأمراء المماليك بل وموظفو الإدارة السلطانية على اتخاذ شعارات لهم، وهى المعروفة باسم الرنوك؛ وقد اختلفت من شخص لآخر حسب مقامه ووظيفته.. ونظراً لأن الحاجب كان من موظفى الإدارة السلطانية فقد اتخذ له رنكاً مميزاً، فقد كان رنك الحجاب عبارة عن البغل، وهو يمثل عادة سائراً من اليمن في اتجاه اليسار أو العكس حاملاً فوق ظهره ما يشبه خرجاً للبريد على هيئة قبة يعلوها هلال،[٢٧٤] ولذا حاول البعض أن يربط بينه وبين رنك الشطب أو البريدى، واعتقدوا أنه يرمز إلى شعار البريدى أيضاً الذى لم يرق له استخدام رنك غفل من الشارات والرموز، فاتخذ من هذا الرسم شعاراً له،[٢٧٥] استناداً إلى أن لفظة بريد، الفارسية الأصل كانت تعني مقصوص الذنب، لأنه كان من عادة الفرس أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا ذنبه ليكون ذلك علامة على أنه صار من بغال البريد.[٢٧٦]

---

271 الصيرفى، نزهة النفوس جـ٢، ص٣٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، جـ١٤، ص٢٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص١١٣٩.

272 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢١٢.

273 جرت العادة عند تأمير المملوك أن يعطى رنكاً أو شعارا يشير إلى وظيفته، والرنك جمعه رنوك وهى كلمة فارسية بكاف معقودة كالجيم المصرية تنطق رنج بمعنى لون. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٦٧٢؛ على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص١٩٦؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص١٧٠؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١م، ص٤٨؛ الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادى والعشرون ١٩٧٤م، ص٦٧؛ وقد استخدم في مصطلح المؤرخين بمعنى الشارة أو الشعار الشخصى الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له، علامة على وظيفة الإمارة التى يعين عليها، فيكون رنك الدوادار الدواة والمقلمة، ورنك الأمير آخور نعلة الفرس ورنك السلاح دار القوس وهكذا. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٦٧٢؛ انظر أيضاً محمد مصطفى، الرنوك في عصر المماليك، مجلة الرسالة، العدد ٤٠٠ مارس ١٩٤١م، ٢٦٨ وما بعدها L.A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933, pp. 1-7.

274 Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.8, PL.2.

275 أحمد عبد الرازق، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، ص٧٨؛ الرنوك الإسلامية، ص١١٢؛ سند أحمد سند، البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٢٥.

276 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٦٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص٢٩٨؛ أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٩٥م، ص٨٧؛ الرنوك الإسلامية، ص١١٢.

بيد أن محاولة لحصر التحف والآثار المملوكية التى ظهر عليها هذا الرمز مصحوباً ببعض الأسماء والوظائف تكشف لنا عن وجود هذا الشعار على مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ترجع إلى عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م عليها كتابة أثرية نصها "مما عمل برسم تربة الأمير المرحوم علاء الدين على ولد المقرّ المرحوم السيفي بكتمر الحاجب تغمده الله برحمته"،[٢٧٧] ومن الملاحظ أن هذه الكتابة مصحوبة برنك على هيئة حصان له سرج فخم.[٢٧٨]

ويظهر هذا الرنك أيضاً منقوشاً على بوابة خان العسل بحلب، الذى أمر بتشييده موسى الناصر حاجب المملكة الحلبية، وفرغ منه في شهر جمادى الآخر عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م،[٢٧٩] مما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الشعار كان رمزاً للحاجب.[٢٨٠]

وتوجد أيضاً مجموعة من الرنوك تشير إلى بعض الوظائف مصحوبة بأسماء ووظائف حجاب لا علاقة لها بالرنك المصاحب لها، فهناك كتابة أثرية على مشكاة ترجع إلى ما بعد عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م باسم الأمير الكبير يلبغا الناصرى الأشرف أمير حاجب بالأبواب الشريفة،[٢٨١] والكتابة مصحوبة برنك السيف،[٢٨٢] شعار السلحدار.[٢٨٣]

ولدينا أيضاً كتابة أثرية على إناء من نحاس أحمر في مجموعة مدام ماسبيرو M^me Maspero[٢٨٤] في باريس تعود إلى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م باسم المقر الأشرف العالى المولوى الأمير الكبيرى تمر أمير حاجب الحجاب بالقاهرة، والكتابة مصحوبة برنك يتألف من ثلاثة مناطق:في العليا بقجة وهى تركز إلى شعار الجمدار، وفى الوسطى سيف أحدب يتقاطع معه كأس شعار الساقى، وفى الثالثة كأس.[٢٨٥]

وهناك كتابة أخرى مصحوبة برنك يتألف من ثلاثه مناطق في العليا بقجة، وفى الوسطى كأس بها داوة شعار الدوادار بين فرعى سروال، وفى السفلى كأس على إناء نحاس

---

277 Wiet, G., *Catalogue général du Musée Arabe du Caire, Lampes et bouteilles en verre émailé,* Le Caire, 1982, p.128; Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.260; Et. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet (eds.), *Répertoire chronologique d' épigraphie arabe*, Le Caire, 1944, tome 13, p. 253.

278 انظر شكل ١ بنهاية البحث Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.260.

279 Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp. 168-169; Et. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chromologique d' épigrahie*, tome 15. p.236; Ernst Herzfeled, *Matériaux pour un corpus inscriptorum arabicarum Deuxième partie, Syrie du nord*, tome 1-Vol 1 (texte), Le Caire, 1955, pp.346-347, fig 106.
Sauvaget, J., *Caravansérails syriens du moyen âge, II. Caravansérails Mamelouks*, Ars Islamica, 1940, p. 6.

280 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص١١٣.

281 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩؛ Wiet, *Catalogue général du Musée Arabe*, p.174; Lane-Poole, *Art of the Saracens in Egypt*, Librairie Byblos Arts et Métiers, 1886, p.218.

282 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩؛ Mayer, *Saracenic Heraldry*, p. 248 انظر شكل ٢ الوارد بالبحث.

283 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص١٠٠.

284 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩.

285 انظر شكل ٣ الوارد بالبحث Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.231, PL.23.

يـرجع إلى ما بين سنتى ٨٩٤هـ/٩٠٣هـ/ ١٤٨٩ - ١٤٩٧م برسم المقر الأشرفى السيفى قانصوه الغورى أمير حاجب بحلب المحروسة.[340]

أخـيراً هناك كتابة أثرية من طرابلس مصحوبة برنك على هيئة سيف مرووب على درع مقسمة ثلاثة أقسام[341] بوقفية على واجهة مسجد السقراوية بتاريخ عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م باسـم سـيف الديـن آقطـرق الحاجب الذى جعل النظر فيها "إلى من كان أمير حاجب كبير بطرابلس".[342]

ويمكـن تفسـير هذا الأمر بأن صاحب الرنك المذكور، شغل في وقت من الأوقات الوظـيفة التى يشير إليها ذلك الشعار، ثم انتقل فيما بعد إلى الوظيفة المصاحبة لهذا الرنك أو علـى الـتحفة المشار إليها، أو الكتابة الأثرية، وفاته أن يسجل الرمز الدال على هذه الوظيفة الجديدة، فقد جرت العادة كما سبق وأن ذكرنا أنه إذا منح أحد الأمراء رنكاً معيناً ظل محتفظاً بـه طوال حياته،[343] بل قد يضيف إليه رنك الوظيفة الآخرى التى يتقلدها أو ينتقل إليها مثل حالة الأمير قايتباى الجركسي.[344]

تدهور وظيفة الحجابة:

مـن الوظـائف الـتى ساعدت الرشوة على تدهورها وظيفة الحجابة التى وضعها القلقشـندى في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية وكان صاحبها يعرف بحاجب الحجاب ويعاونـه فـي العـادة عدد آخر من صغار الحجاب وصل عددهم في أواخر عصر المماليك الجراكسـة إلـى ما يقرب من عشرين حاجباً كان جميعهم من غير الأمراء الذين نجحوا في الوصول إلى مناصبهم بالبذل والبرطلة.[345]

---

340 Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp.178-179. PL.28, LXVIII; Artin, Y., *Contribution à l'étude du Balson en Orient*, London, 1902, Pl. 88: idem, "Trois différént armories de Kaït Bay", *Bulletin de l'instutute égyptien*, 9(1888), fig. 2; Leaf, W., Devolpments in the System of Armorial Insignia during the Ayyūbid and Mamluk Periods", *Palestine Exploration Quarterly*, January-June, 1983, Fig. 23. انظر شكل ٤ الوارد بالبحث. هناك نقش ينسب إلى قنصوه الغورى يؤكد عمله حاجباً للحجاب في حلب المحروسة نشـره هرزفـيلد فـي مجموعـة النقوش العربية، ورد فيه وبسملة... لما كان بتاريخ شهر رمضان من سنة ست وتسعين وثمانمائـة بـرز المرسـوم الكـريم العـالى السيفى قانصوه الغورى حاجب الحجاب بالمملكة الحلبية المحروسة... انظر Herzfeld, *Matériaux*, p.392.

341 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢١٠.

342 Wiet, *Répertoire chronologique d'Épigraphie arabe*, tome 15, pp. 215-216; Mayer, *Saracenic Heraldry*, p. 71; Van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptonum arabicarum*, pp.109-110, fig. 10.

343 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٩٥،٩٣؛ Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.7

344 السخاوى، التبر المسبوك، ص١٢٢، ٢٥٦؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٩٥؛ Wiet, *Lampes*, p.99.

345 أحمـد عـبد الـرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩م، ص٣٢ - ٣٣؛ حياة الحجى، السلطة والمجـتمع في سلطنة المماليك، فترة حكم سلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، الكويت، ١٩٩٧م، ص٦٥ وما بعدها.

وقد عرف المقريزى مصطلح البراطيل بقوله: "وهي التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبها وقضاتها وعمالها، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك في ولاة النواحي، ثم أفحش فيه الظاهر برقوق "أى أن هذه الظاهرة برزت في مصر منذ القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى، ولكننا لم نسمع في بدايتها أنها قد أضرت أو أثرت على مجريات الأمور العامة بالدولة ولكن الخطير في الأمر أن الظاهر برقوق هو الذى تمادى وأفحش في هذا النظام في عصره وتفاقم في عهد من بعده من السلاطين حتى أن هذه الظاهرة صارت القاعدة المقررة وذلك يتضح من أقوال المؤرخين المعاصرين وكان لها أسوأ الآثار كما سنعرض.[٣٤٦]

هناك العديد من الأسباب والظروف التى ساعدت على تدهور وظيفة الحجابة زمن سلاطين المماليك تمثلت في تدخل الحجاب في غير اختصاصاتهم وتعديتهم وتدخلهم في أعمال القضاة، بالإضافة إلى شراهتهم في جمع الأموال بأى صورة من الصور. ويفهم من المصادر المعاصرة أن الأمر قد تفاقم زمن السلطان المؤيد شيخ، الذى اعتلى كرسى السلطنة في عام ٨١٠هـ/١٤١٢م والدليل على ذلك ما سجله المقريزى في أحداث عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م من أنواع الظلم التى عمت أرجاء البلاد وشملت جميع الحكام ما بين محتسب ووال وحجاب وقضاة، ونائب غيبة واستادار. حقيقة أن هذا المؤرخ قد نجح في إعطاء الباحث صورة واضحة لما كان عليه المجتمع زمن المؤيد شيخ، إلا أنه لم يخرج من التعميم إلى التخصيص، وإنما ركز كلامه عن أنواع الظلم الذى عانى منها المجتمع في هذه الفترة ومن بينها الرشوة التى صارت على زمن هذا السلطان مورداً رسمياً من موارد الدولة المالية.[٣٤٧]

وقد صور لنا المقريزى حال الحجاب على عصره ومدى التدهور الذى أصاب وظيفة الحجابة فقال: "وأما الحجاب فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شاك إليهم، ومشكو عليه، فما من أحد من الحجاب إلا وفى بابه رجل يقال له رأس نوبة، يضمن له في كل يوم قدراً معلوماً من المال، يقوم له به، ومن هذا المال المضمون يقيم أوده، فيسقط رأس نوبة على النقباء الذين تحت يده ما ضمنه للحاجب، ومالا بد له من صرفه على عياله، ومؤونه فرسه، وأجرة سايسها، وما اعتاده من المحرمات التى لا يتركونها ما وجدوا إليها سبيلاً، وما يرصده ويدخره عنده عدة له في وقت مكروه ينزل به من عزله، أو مصادرة الحاجب له، أو غير ذلك من العوارض فيتناول من كل واحد من النقباء شيئاً مقرراً عليه عند مضيه في طلب غريم، يقال له الإطلاق. فإذا حضر الغريم فتح عليه رأس نوبة أبواباً من أنواع مكرهم الذى تفقهوا فيه، فيحتاج إلى بذل المال له، ولدوادار الحاجب، وللحاجب، بحسب ما يقتضيه رأيهم. فربما بلغ الغرم في الشكوى الآلاف من الدراهم، فإنهم يسلسلون قضايا

---

[346] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١١٠؛ جمال جرجس، القضاء في العصر المملوكى، ص١٦٤.

[347] أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٣٢ وما بعدها.

ظلمهــم حتى يستمر المشكو في الترسيم الأيام والأشهر. وجميع ما يتحصل للحجاب من هذه الوجــوه فــإنهم يصرفونه فيما لا تجيزه أمة من الأمم من أنواع قبائح المحرمات، ولا يكلفون حمل شيء منه إلى السلطان.[٣٤٨]

ولا يحــتاج هذا النص إلى تعليق أو إضافة فمن الواضح أن المشكو البائس عليه أن يدفــع للنقيــب الذى يحضره لرأس النوبة والدوادار الحاجب وللحاجب أى أن هذا الجيش من الأعــوان يعــيش علــى ظلم من يوقعه سوء حظه وبؤس قدره بين أيديهم من عامة الشعب المغلــوب علي أمره. وقد ساق الباحث هذا النص كاملاً لأنه دليل على أن نظام بيع الوظائف كان من العوامل التى أدت إلى خراب مصر زمن سلاطين المماليك.

أسهمت الرشوة في تدهور هذه الوظيفة بعد أن أصبحت من السمات المميزة لعصر ســلاطين الممالــيك، وبعد أن أصبحت الطريق الوحيد إلى الوظائف المهمة في الدولة، وكان ذلــك بطبيــعة الحــال على حساب الجدارة والكفاءة اللتين أصبحتا لا وجود لهما أمام طوفان الأمــوال المبذولة، مما أفضى إلى خراب الدولة خاصة بعد أن أصبحت الرشوة هى الطريق إلى مجال الوظائف العسكرية التى كانت بمثابة العمود الفقرى لدولة سلاطين المماليك.[٣٤٩]

ويــبدو أن الأهمية الزائدة للوظيفة واتساع نطاق اختصاص الحجاب زمن سلاطين المماليك كانت وراء هذه المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب على هذه الوظيفة، فقد كانــت وظــيفة الحجابــة من بين أهم الوظائف التى تولى بالرشوة ويسعى في ذلك راغبوها فتولاه بعض الحجاب من غير الأمراء بالبذل فكان أن تدهورت تلك الوظيفة كغيرها.[٣٥٠]

وقــد كتــب المقريــزى معلقاً على نظام بيع الوظائف بقوله: "أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الأعمال والكشف، وسائر الوظايف، لا سبيل أن ينالها أحد إلا بمــال، يقوم به أو يلتزم بأدائه، ويكتب به خطة، فتطاول كل نذل رذل وسفلة إلى ما سنح بخاطره من الأعمال الجليلة والرتب العلية، فدهى الناس من ذلك بداهية دهياء، أوجبت خراب مصر والشام، كما ستراه فيما يمر بك على طول السنيين في أوقاته".[٣٥١]

أمــا تعلــيق الصــرفى علــى نظــام بــيع الوظائف فيذكر بقوله: "هذا الأمر من المنكرات".[٣٥٢]

---

[348] المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٣٩٠ – ٣٩١.

[349] أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٤٣.

[350] إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية، ص٢٠٩.

[351] المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٢٤.

[352] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٦٧.

أمـــا ابـــن إيـــاس فقد شارك أيضاً في السخط على نظام بيع الوظائف بقوله: "وهذه الأمـــوال العظـــيمة الـــتى سعى بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله".[٣٥٣]

وتـــتحدث المصـــادر عـــن الأشخاص الذين نجحوا في الوصول إلى وظيفة الحجابة بالـــبذل والـــبرطلة ومن هؤلاء الطنبغا مملوك طراباى الذى استقر في حجوبية غزة في عام ٨٥١هـــ/١٤٤٧م،[٣٥٤] وعبد العزيز بن محمد الصغير الذى صار في عام ٨٥٣هـــ/١٤٥٠م مـــن جملة الحجاب بالقاهرة بعد أن قدم للسلطان جقمق عدة خيول،[٣٥٥] ويشير النوروزى الذى عمـــل بكل من حجوبية طرابلس ودمشق بالبذل لعدم تأهله،[٣٥٦] ومن بين الذين تولوا حجوبية هـــذه النيابة أيضاً تشير المصادر إلى يشبك داودار قالى باى البهلوان الذى استقر فيها بالبذل فـــي عام ٨٥٩هـــ/١٤٥٥م لكونه من الأوباش ولم تسبق له رئاسة،[٣٥٧] وإلى شاذبك الصارمى الذى صار حاجباً للحجاب بها بالبذل.[٣٥٨]

كمـــا تحـــدث الســـخاوى عن قاسم بن جمعة الشباسى الذى بذل مالا لتولى حجوبية الحجاب بحلب في عام ٨٥٣هـــ/١٤٥٠م.[٣٥٩]

ويضيف ابن تغرى بردى إليهم العلائي الأزبكى المتكلم في عد الغنم بالبلاد الشامية الـــذى بذل خمسة وأربعين ألف دينار لتكون معه مضافة لعد الأغنام، بيد أن الشهابى أحمد بن قليـــب حاجب طرابلس لم يكن يقبل مثل هذا التعدى الصارخ على وظيفة فتسارع بعرض بذل قـــدرة خمســـون ألف دينار على الوظيفتين نكاية للأزبكى، الذي يبدو أنه قبل التحدى فوقعت الـــزيادة بيـــنهما حتى وصل المبلغ المعروض على السلطان الظاهر خشقدم ستة وسبعين ألف ديـــنار، وفى هذا يقول ابن تغرى بردى: "وهذا شيء لم نسمع مثله في سالف الأعصار، وما يكـــون شـــأن هاتيـــن الوظيفتين حتى تصلا إلى هذا الحد" وحسماً للموقف اقترح الشهابى بن العيـــنى على السلطان أن يظل كل منهما على وظيفته في مقابل سبعين ألف دينار ثلاثين على الأزبكى، والباقى على ابن قليب.[٣٦٠]

---

353 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٥، ص٢٧.

354 السخاوى، التبر المسبوك، ص١٧٤ – ١٧٥؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

355 السخاوى، التبر المسبوك، ص١٧٤؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

356 السخاوى، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص٢٨٠.

357 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ١٦، ص٩٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص٢٨٠؛ رقم ١١٠٠؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

358 السخاوى، الضوء اللامع، جـــ٣، ص٢٩٠ رقم ١١٠٣.

359 السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٧٠.

360 ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ص٥٢٨؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٦.

ولم يقتصر أمر البذل على تولى وظيفة الحجاب فقط بل عداه إلى الانتقال منها كذلك فقد روى ابن تغرى بردى أن الأمير خير بك النوروزى حاجب صفد استقر في عام ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨م في نيابة غزة عوضا عن طوغان العثمانى وذلك بمال كبير بذل في ذلك لوضاعته في الدولة.[361]

وقد بات واضحاً أن البذل والبرطلة قد أفضيا في النهاية إلى توصل أوباش الناس إلى الرتب العليا في الدولة كما أفضيا كذلك إلى انصرافهم عن مباشرة مهامهم ووظائفهم وأعبائهم إلى جمع المال من كل صوب وحدب إما لتعويض ما سبق أن بذلوه للحكام على هذه الوظائف، وإما لجمع أكبر قدر ممكن،[362] بعد أن أيقنوا أن فترة ولايتهم لن تطول إلا بتجديد البذل والبرطلة.[363]

والتاريخ المملوكى ملىء بالكثير من هذه المهازل، فيشير ابن تغرى بردى في حوادث عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد قبض على أحد مماليكه ويدعى ركن الدين بيبرس والذى كان قد ولاه الحجوبية، ثم جرده إلى اليمن فلما بلغها أخذ براطيل من صاحبها وتراخى في أمر السلطان.[364]

وقد ترتب على البذل أيضاً أن قصر متوسط مدة الوظيفة وبالتالى كثرة عدد متوليها من الحجاب في فترة ما.. فنتبين من أغلب مصادر التاريخ المملوكى أن متوسط مدة الوظيفة قد تراوح بين العام والعامين وإن لم يمنع ذلك أن يتولاها الحاجب خمسة أعوام متتالية.[365] الأمر الذى أدى إلى تزايد عدد الحجاب في عهد السلطان الواحد كلما تزايدت أهمية الوظيفة وتزايد مقدار البذل فيها ويتضح ذلك للباحث من عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إذ بلغ عدد من تولاها في تلك الفترة أى من عام ٧٠٩ – ٧٤٠هـ/ ١٣٠٩ – ١٣٣٩م أربعة عشر حاجبا هم سنقر الكمالى، بكتمر الحسامى، لاجين العمرى، الطنبغا محمد بن الوزيرى، طينال بيبرس أمير أخور، الماس الجاشنكير، قطلوبغا المعزى، أمير مسعود بن الخطير، جاريك قفجق ايدغدى الخوارزمى أقول، محمد بن خطير برسبغا، ويبدو أن كثيراً ما كان السلطان يولى الحجاب هذه الوظيفة ماداموا حائزين على رضاه، فإذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم، فيشير الصيرفى في حوادث عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م "خلع على الأمير إينال الصصلائى خلعة الرضا

---

361 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٣٨٧؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٣٥.

362 ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٣٠ – ٤٣١.

363 ابن حجر أنباء الغمر، جـ٣، ص٤٧٦؛ المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٣، ص٨٧٠ – ٨٧١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣٦٠ – ٣٦١؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص٢٣٧ – ٢٣٨؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص١٣٨.

364 النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٠٠.

365 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٥٦.

لما كثر فيه من القيل والقال".[366] هذا في حالة الرضا من السلطان، أما حالة غضبه عليهم فإن الأمر ينتهي بعزلهم أو القبض عليهم وسجنهم أو قتلهم.

وقد تعددت أسباب غضب السلطان على الحجاب وكذلك تعددت أسباب عزلهم، فيحدثنا الصيرفي في حوادث عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م بأنه خلع على الأمير بردبك الاسماعيلى واستقر حاجبا ثانيا بالديار المصرية عوضا عن الأمير إياس الجلالى بحكم عزله وكان السبب في ذلك أن إياس الجلالى لا يخلو شهر من الشهور ولا جمعة من الجمع إلا ويشكو للسلطان من ضعف حاله وعجز إقطاعه وكثرة مصروفه، فوقع أنه يوما من الأيام فعل عادته وأمعن في الكلام فغضب السلطان عليه ورسم أن يحبس في بيته وأخرج عن إمرته وعزله عن الحجابة.[367]

أما المؤرخ السخاوى فيشير في حوادث عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م بأنه تم عزل علان المؤيدى من حجوبية الحجاب لشكوى نائبها منه، ولكنه استمر في وظيفة بسفارة كاتب السر،[368] حيث عرف السلطان أن سبب التنافر بينه وبين النائب قيام الحجاب بإزالة المنكرات من حلب وأمره بالمعروف فيها، ثم لم يلبث أن قدم كل منهما إلى أستاذه محجته فأل السلطان إلى النائب وعزل الآخر ورسم له بالتوجه إلى طرابلس بطالا،[369] وقرر عوضه في الحجوبية قاسم بن جمعة الشباسى بمال بذله.[370]

وقد ترتب على البذل والبرطلة كذلك ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف في آن واحد إلى جانب وظيفة الحجوبية، مما أفضى ليس فقط إلى فساد هذه الوظائف وتدهورها، بل إلى تدهور الجهاز الإدارى برمته بعد أن سرى الفساد في جميع أركان الدولة.[371]

وتطالعنا أغلب الكتابات المملوكية بما لا يدع مجالاً للشك بأنه في كثير من المجالات كان الحاجب يجمع بين أكثر من وظيفة إلى جانب الحجابة، فيروى ابن إيبك في أحداث عام ٧١٠ هـ/ ١٣١٠م أن الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب تولى الوزارة بمصر إلى جانب الحجابة عوضاً عن الوزير فخر الدين،[372] وفى عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م تولى الأمير سيف

---

366 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٣٠.

367 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٣٠.

368 كاتب السر، ناظر ديوان الانشا وهو المسئول عن قراءات الكتب للسلطان والرد على الرسائل وقراءة القصص بدار العدل. البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٨، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٠٢.

369 البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو إضطرارا إلى الأعتكاف والاختفاء، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد، المقريزى، السلوك، جـ١ ق١، ص٧٣.

370 السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٧٠.

371 أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص١٣٨.

372 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢٠٨.

الدين طينال الحاجب نيابة طرابلس عوضا عن شهاب الدين قرطاى الحاجب ثم انتقل منها إلى نيابة غزة وذلك في عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.[٣٧٣]

ويذكر ابن إياس في حوادث عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م أنه خلع على بكتمر العلمى حاجب الإسكندرية وقرر تعيينه في نقابة الجيش.[٣٧٤]

وفى عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م خلع على الأمير مامور القلمطاوى واستقر في نظر خانكاه سرياقوس إلى جانب حاجب الحجاب.[٣٧٥]

ويخبرنا ابن إياس أيضا أن خليل بن عرام جمع بين أكثر من وظيفة منها حجوبية الحجاب والوزارة والأستادرية، ونيابة الإسكندرية وغير ذلك من الوظائف وذلك في عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م.[٣٧٦]

وقد جمع علاء الدين الطبلاوى بين عدة وظائف منها ولاية الشرطة والحجابة واستادار خاص الخاص وناظر الكسوة والكعبة ومحتسب القاهرة وولايتها ودار الضرب والمتجر، وقد شق القاهرة في احتفال كبير في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م.[٣٧٧]

ويشير الصيرفى في حوادث عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م بأنه خلع على الأمير فارس حاجب الحجاب واستقر ناظرا للشيخونية والصرغتمشية.[٣٧٨]

وفى عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م خلع على الأمير مبارك شاه الحاجب بنيابة الوجه القبلى.[٣٧٩] وفى نفس العام أيضا خلع على الأمير شهاب الدين الحلبى واستقر في ولاية القاهرة على عادته عوضا عن شهاب الدين أحمد وأضيف إليه ولاية مصر والحجوبية الصغرى.[٣٨٠]

وفى حوادث عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م خلع على بهاء الدين رسلان نقيب الجيوش واستقر حاجبا مضافا لما بيده من نقابة الجيش.[٣٨١] وفى نفس العام خلع على الأمير تغرى بردى متولى القاهرة واستقر حاجبا صغيرا مضافا لما بيديه من الولاية.[٣٨٢]

---

373 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٧٢.

374 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٣٢.

375 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٢٥١.

376 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥..

377 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٦٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٧٣.

378 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٢٩.

379 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧٢.

380 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٧.

381 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١١٨.

382 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٣٨.

وقـد جمـع الأمير ناصر الدين محمد بن كلفت التركمانى بين الحجوبية وولاية القاهرة عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م.[٣٨٣]

وفـى عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م جمع مبارك شاه بين الحجابة والوزارة،[٣٨٤] وفى عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م أضيف إلى ناصر الدين محمد شد الدواوين.[٣٨٥]

وأثـناء عـام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م جمع الأمير أرسطاى بين عدة وظائف نذكر منها رأس نوبة كبيرة ثم تولى الحجابة الكبرى في القاهرة بالإضافة إلى نيابة الإسكندرية.[٣٨٦]

وخلـع علـى الأمير منكلى بغا العجمى في عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م واستقر في حسبة القاهرة مضافا إليه الحجوبية الصغرى أيضا.[٣٨٧]

ومـازال الباحـث يتتبع الوظائف الأخرى التى خلعت على الحجاب إلى جانب وظائفهم، ففى عـام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م خلـع على الأمير التاج استادار الصحبة الشريفة واستقر في ولاية القاهرة إلى جانب الحجوبية.[٣٨٨]

وفى نفس العام جمع الأمير طرباى حاجب الحجاب بين أكثر من وظيفة إلى جانب الحجوبية، فقد تولى ناظر جامع عمرو بن العاص والجامع الأزهر ومدرسة الأمير الجاى.[٣٨٩]

ويشير ابن إياس في حوادث عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م إلى على ناصرى محمد بن العطار الذى جمع بين عدة وظائف منها نيابة الإسكندرية وحجوبية حماة ونظر القدس والخليل.[٣٩٠]

بل أن الصيرفي يندهش عندما يحدثنا في عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م بأنه رسم باستقرار خليل بن شاهين الشيخى ناظر الإسكندرية وحاجبها في نيابة الثغر مضافا لما بيده من الحجوبية، فيعبر عـن دهشته هذه بقوله: "فياليت شعرى إذا كان النائب هو الحاجب فماذا يصنع؟ فإن الحاجب معد للوقوف بين يدى النائب وهو أمر لم يعهد من قبل".[٣٩١]

---

383 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٨٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٤٦.

384 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٦٦.

385 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١١١٣؛ ومشد الدواوين، موظف مالى له سلطة المراقبة والإشراف والتفتيش وغالباً يلجأ إلى الشدة في عمله، البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر، ص٤٠٥.

386 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٥٠.

387 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٦٥.

388 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٨٧.

389 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٩٨.

390 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٠١.

391 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٨٨.

والواقــع أن حالـــة الـــبذل من قبل خليل بن شاهين الظاهرى تعتبر أصدق دليل على تدهور وظـــيفة الحجابة، فقد أرسل خليل بن شاهين ثلاثة آلاف دينار، ووعد بمثلها، الأمر الذى أثار دهشة كتاب هذا العصر، لأنه لم يحدث من قبل أن يكون النائب حاجبا، ويعبر المقريزى عن ذلــك بقولـــه: "ولـــم ندرك مثل ذلك" لاسيما وأن مهمة الحاجب هى الوقوف بين يدى النائب والتصرف بأمره ولكن "هى الأيام كلها قد صرن عجائب حتى ليس فيها عجايب".[٣٩٢]

ويشـــير السخاوى إلى جانبك اليشبكى الذى جمع بين ولاية القاهرة والحجوبية ثم أضيفت إليه الحســـبة في عام ٨٥٤هـــ/ ١٤٥٠م.[٣٩٣] وتمر بن محمود شاه الظاهرى الذى جمع بين ولاية القاهرة وحجوبية الحجاب.[٣٩٤]

ويذكـــر ابـــن إيـــاس فـــي أحداث عام ٩٠٤هـــ/ ١٤٩٨م أن الأمير يلباى جمع بين حجوبية طـــرابلس والنيابة[٣٩٥] وفى عام ٩٢٢هــــ ١٥١٦م يشير ابن إياس بقوله: "أخلع السلطان على الأمـــير طقطـــباى حاجـــب الحجـــاب وجعله متحدثاً في كشوفية البحيرية عوضا عن يوسف البدرى، مضافاً لما بيده من الحجوبية الكبرى".[٣٩٦]

وفى كثير من الأحيان كان الحاجب ينتقل إلى نيابة السلطنة، ففى عام ٧٧٥هـــ/ ١٣٧٣م خلع السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الأمير أقتمر عبد الغنى الحنبلى حاجب الحجاب ونقل من وظيفة الحجوبية إلى نيابة السلطنة بمصر.[٣٩٧]

هكذا، يتبين لنا مدى التدهور الذى آلت إليه هذه الوظيفة زمن سلاطين المماليك الجراكسة بعد أن أقبل الحجاب وأعوانهم على أخذ الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل.

والآن قـــبل الحديث عن الأعمال أو الآثار الفنية الباقية للحجاب، فإن ثمة ملاحظات علـــى الباحث أن يقف عندها استنادا إلى الرسومات البيانية التالية والجداول الخاصة بالحجاب على طول العصر المملوكى الواردة في نهاية البحث.

---

392 المقريزى، السلوك، جـــ٤، ق٢، ص٩١٧؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٤٥.

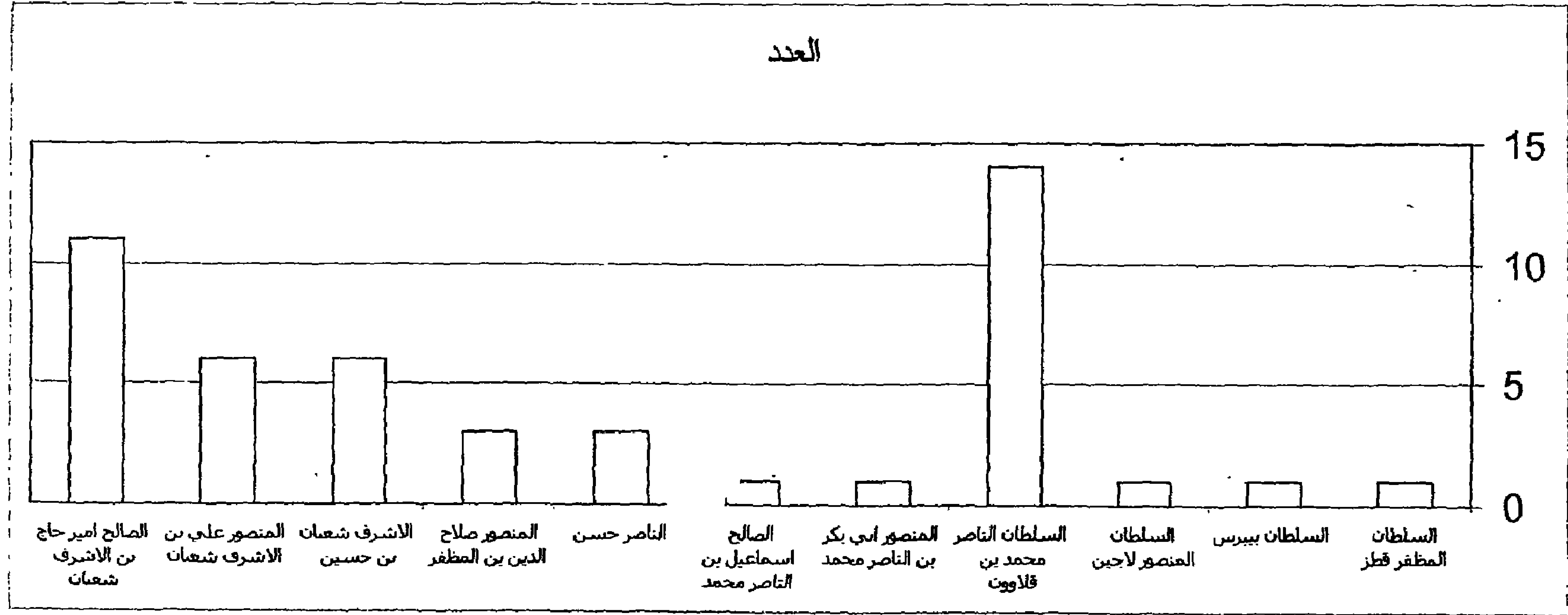
393 السخاوى، الضوء اللامع، جـــ٣، ص٦١ – ٦٢؛ التبر المسبوك، ص٢٦٢.

394 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص١٠٧.

395 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص٤٢٣.

396 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٥، ١١٦.

397 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص١٢٣.

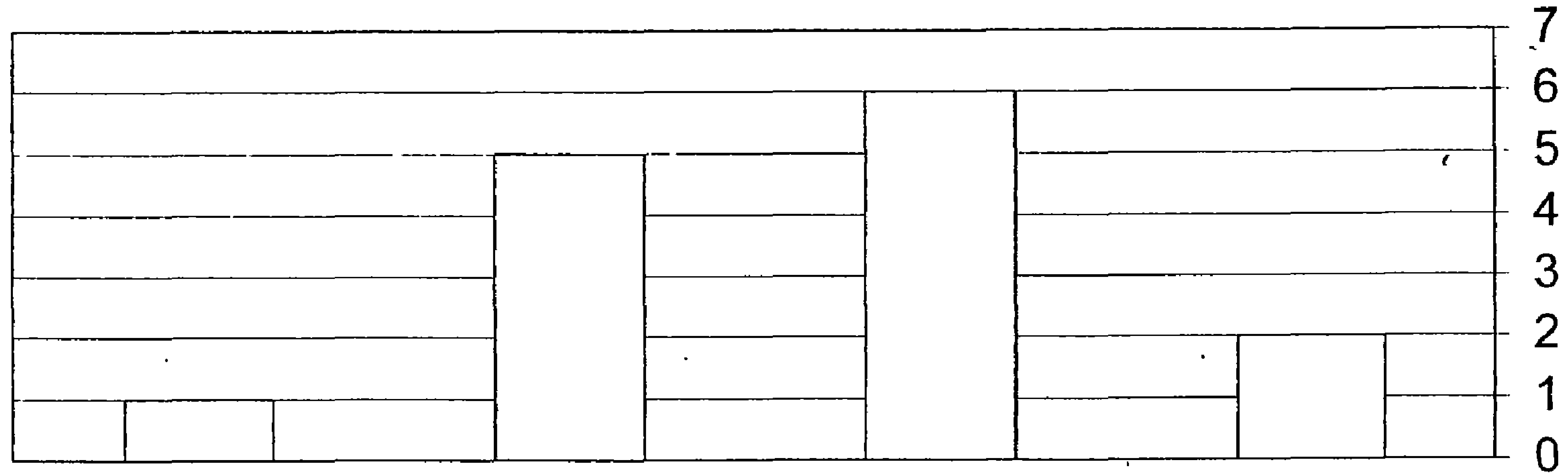


شكل (١) التوزيع العددي لحاجب الحجاب بدولة المماليك البحرية

12
10
8
6
4
2
0

السلطان الظاهر برقوق
الصالح المنصور امير الحاج س الاشرف
سلطنة برقوق الثانية
الناصر فرج بن برقوق
سلطنة فرج بن برقوق الثانية
الصالح محمد بن الظاهر
الاشرف برسباي
سلطنة ابي المحاسن الاشرف
الظاهر جقمق
الاشرف اينال
خشقدم
الاشرف قايتباي
الناصر محمد بن قايتباي
الاشرف جاب بلاط
قانصوة الغوري

شكل (٢) التوزيع العددي لحاجب الحجاب بدولة المماليك الجراكسة



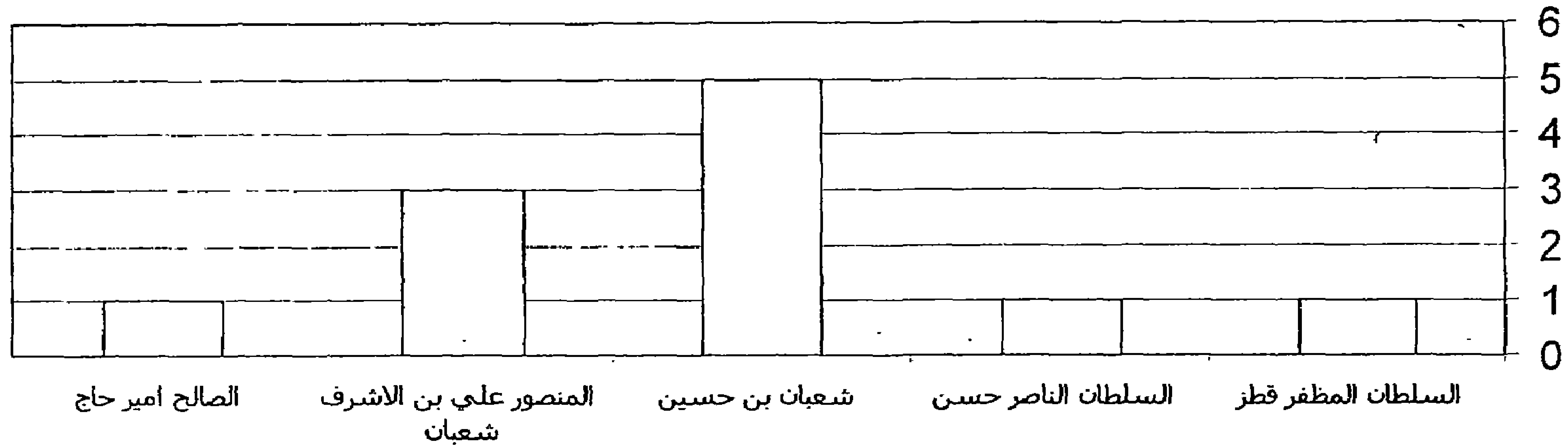
شكل (٣) التوزيع العددي لوظيفة الحاجب بدولة المماليك البحرية

المماليك الجراكسة العدد

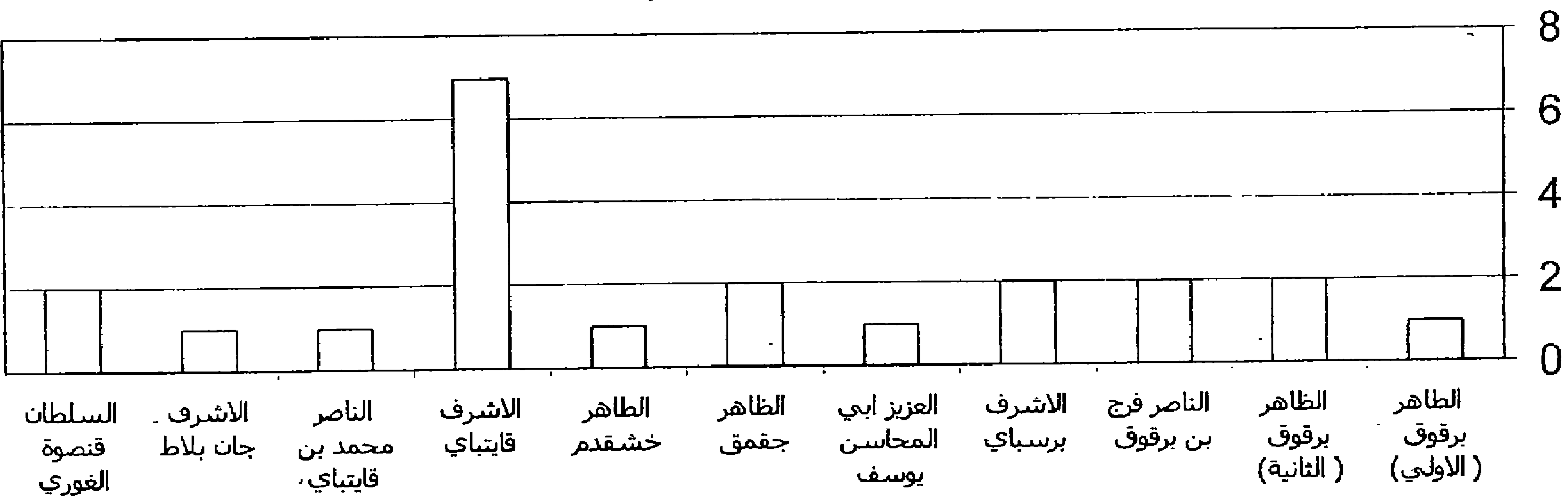
12
10
8
6
4
2
0

سلطنة الطاهر برقوق الاولي
سلطنة الظاهر برقوق الثانية
الناصر فرج بن برقوق
الاشرف برسباي
العزيز ابي المحاسن يوسف
الظاهر جقمق
الاشرف اينيال
الاشرف قايتباي
قنصوة الغوري

شكل (٤) التوزيع العددي للحاجب بدولة المماليك الجراكسة



شكل (٥) التوزيع العددي لحاجب ميمنة في دولة المماليك البحرية



شكل (٦) التوزيع العددي لحاجب ميمنة في دولة المماليك الجراكسة

يمكـــن القول بأن عصر سلاطين المماليك قد شهد تعيين العديد من الحجاب بمصر مـــا بين حاجب حجاب (أمير حاجب أو حاجب كبير)، وحاجب، وحاجب ثان (حاجب ميمنة)، وحاجب ميسرة، وحاجب ثالث، وحاجب رابع، وحاجب خامس، وحاجب صغير.

ويستشـــف من الجداول البيانية السابقة والجداول الواردة في ختام البحث، أن بعض الحجـــاب شـــغلوا هذه الوظيفة عدة سنين مثل أقباى بن عبد الله الطرنطاوى في ثبت حاجب الحجـــاب، والـــبعض الآخر استقر في الوظيفة لمدة عام واحد ثم ترك المنصب بسبب ولايته لنـــيابة الشام، ثم عاد للمرة الثانية في منصب الحجوبية مثل أقتمر عبد الغنى التركى في ثبت حاجب الحجاب.

وقد شغل بعض الحجاب المنصب لمدة ثلاث سنوات مثل أيدكار بن عبد الله العمرى في ثبت حاجب الحجاب. أما إينال بن عبد الله الأزعرى في ثبت حاجب الحجاب وطوغان بن عبد الله السيفى في ثبت حاجب الحجاب قد شغل المنصب لمدة ست سنوات، وبيبرس العلائى حاجب الحجاب دمشق فقد تولى الوظيفة من عام ٧٠٤هـــ/ ١٣٠٤م ومات في عام ٧١٢هـــ/ ١٣١٢م أى أنه ظل في منصب الحجوبية لمدة تسع سنوات.

وبالنســـبة لـــتغرى بردى البكلمشى المعروف بالمؤذى في ثبت حاجب الحجاب، فقد شغل الوظيفة لمدة أربع سنوات مثل جانبك القرمانى الذى شغلها أيضاً أربع سنوات، والبعض الآخر شغلها لمدة خمس سنوات مثل سودون القاضى الظاهرى في ثبت حاجب الحجاب.

وهـــناك مـــن اســـتقر فـــي هذه الوظيفة لمدة سنتين مثل سودون قراسقل وطوغان العثمانى في ثبت حاجب الحجاب.

وتكشـــف الجداول والإحصائيات عن أشخاص شغلوا الوظيفة أكثر من عشر سنوات مثل طيطق الأحمدى الحاجب الثانى بمصر.

وهناك من تولى هذه الوظيفة أكثر من مرة مثل أقتمر عبد الغنى التركى وطرنطاوى البشـــمقدار الناصرى حاجب الحجاب ويكشف الثبت أيضاً ان جميع من تولى وظيفة الحجابة في العصر المملوكى كان من طبقة المماليك وليس من عامة الشعب.

ويفهم كذلك من دراسة تراجم هؤلاء الحجاب أن هذه الوظيفة كانت دائماً ذات بريق أخـــاذ يســـيل لعاب الطامعين، والدليل على ذلك كثرة حالات البذل والبرطلة والمبالغ الكبيرة التى بذلت على هذه الوظيفة زمن سلاطين المماليك.

وينـــبغى الإشـــارة إلـــى أن بعض هؤلاء الحجاب قد استطاع أن يجمع بين الحجابة ووظـــائف آخرى كنيابة السلطنة، مثل سودون بن عبد الله الفخرى الشيخونى في ثبت حاجب الحجـــاب، وجانبك الحاجب ، وسودون بن عبد الله المظفرى حاجب حلب ونائبها ومنكلى بغا بـــن عـــبد الله الصلاحى محتسب القاهرة وأحد الحجاب وعلى بن عبد الله الأمير علاء الدين الطـــبلاوى والـــى القاهـــرة، ونقيب الجيش، وأمير حاجب وتغرى بردى البكلمشى المعروف

بالمؤذى حاجب الحجاب الذى تولى وظيفة الدويدارية الكبرى وأقتمر عبد الغنى التركى نائب الشـــام وحاجب الحجاب وخليل بن عرام نائب الإسكندرية وحاجب الحجاب، وعلى بن قشتمر التركى نائب الإسكندرية وحاجب ثانى ومبارك شاه الظاهرى الذى شغل منصب الحجوبية إلى جانــب نـيابة الإسكندرية والوزارة والاستادارية والتاج الوالى الذى اجتمعت له عدة وظائف مثل ولاية القاهرة والحجوبية وشد الدواوين، والمهندارية.

بقيـت ملاحظــة أخـيرة هــي أنه من بين هؤلاء الحجاب من لم نعثر على تاريخ استقرارهم في المنصب، و لم نعثر أيضاً على تاريخ وفاتهم، و تعرضوا للمصادرة والقتل بل وهلك بعضهم تحت العقوبة.

وتعكــس الرســومات البيانية السابقة أن أقل عدد للحجاب زمن السلاطين المماليك الــبحرية كـــان في عهد السلاطين قطز وبيبرس والمنصور لاجين، حيث تذكر لنا المصادر حاجـبا لكل منهم. أما أكبر عدد للحجاب فقد وصل ١٤ حاجبا في عهد السلطان الناصر محمد بــن قلاوون، على اثر إلغائه وظيفة نائب السلطنة وانتشار البذل والبرطلة من أجل الحصول علــى الوظــائف العالــية، يلــيه ١١ حاجباً في عهد السلطان الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان.

أمـــا فـــي عهــد سلاطين المماليك الجراكسة فقد بلغ عدد الحجاب أوجه في عهدى الســـلاطين خشقدم والأشرف قايتباى، حيث بلغوا ١١ حاجبا لكل منهما، ولعل السبب الرئيسى فـــي هذه الزيادة هو ما كانوا يبذله الأمراء من رشاوى وهدايا من اجل الحصول على منصب الحجابـــة؛ كمـــا كان للرضى السلطانى عن بعض الأمراء دوره في توليهم الحجابة. ويليهما السلطان الناصر برقوق الذى بلغ عدد الحجاب في عهده ٩ حجاب.

الحياة الثقافية والأعمال الفنية للحجاب

دور الحجاب في الحياة الثقافية:

والآن إذا ما أردنا التحدث عن دور الحجاب في الحياة الثقافية في المجتمع المملوكى لا نجــد فـــي بطون المصادر التاريخية المملوكية التى أرخت لتلك الفترة إشارات تفيد وجود إنجـــازات علمية أو أدبية للحجاب، إلا إشارة بسيطة عابرة أوردها ابن إياس تتعلق بالحاجب خلـــيل بن عرام فيذكر "كان خليل بن عرام فكه المحاضرة وله مشاركة في العلم، وكان فطنا ذكـــياً، وله نوادر وحكايات يذاكر بها، وكان ألف تاريخاً مفيداً في وقائع الأحوال، والتوفيات وغير ذلك، وفيه يقول الشهاب أحمد بن العطار:

أيا ابن عرام قد سُمرتَ مشهرا *** وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

مازلت تجهد في التاريخ تكتبه *** حتى رأيناك في التاريخ مكتوباً[398]

وقـد أسهم بعض الحجاب أيضاً في الحياة الفنية زمن سلاطين المماليك، يشهد بذلك بعـض الـتحف التى صنعت برسمهم، ووصلنا بعض منها تمثلت في المصنوعات الزجاجية الأمر الذى يبين مدى الثراء الذى عاشه هؤلاء الحجاب زمن المماليك.

التحف الزجاجية:

ازدهـرت صـناعة الـزجاج بعامة في عصر المماليك، وساعد على ذلك ما ورثه صـناع الزجاج في ذلك العصر من تقاليد صناعية راسخة ترجع إلى آلاف السنين، ثم أخذت تتقدم فيها على مر السنين.

ولقـد تفـوق صـناع الزجاج في عصر المماليك في صناعة الزجاج المموه بالمينا والذهب الذى لاقى إقبالاً شديداً في شتى أنحاء العالم،[399] ومن هذه التحف التي تخص الحجاب المشكاوات.[400]

ولديـنا مشـكاة باسـم الأمير أُلماس على رقبتها ثلاثة رنوك بها شارة هذا الأمير، وعليها كتابة نصها "مما عمل برسم الجامع المعمور يذكر الله تعالى وقف المقر العالى السيفى ألمـاس أمـير حاجـب الملكى الناصرى والمعروف أن الجامع المذكور بنى عام ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م. وعلـى قـاعدة هذه المشكاة توقيع الصانع في كتابة تقرأ "عمل العبد الفقير على بن

---

398 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥ – ٢٧٦.

399 حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م٢، ط١، القاهرة، ١٩٩٩م. ص٢٥٧.

400 أطلق علماء الآثار والفنون الإسلامية كلمة مشكاة على الإناء الزجاجى الذى كان يوضع فيه المصباح، وكان مـن فوائـده حفـظ نار المصباح من هبات الهواء وتحويلها إلى ضوء ينتشر. حسن الباشا، الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦؛ ص٢٧٠؛ موسوعة العمارة، ص٢٥٦؛ ولقد وردت كلمة مشكاة في سورة النور الآية (٣٥).الله نُـورُ السَمَوَتِ والأرض مثلُ نُوره كمشكوة فيّها مصبَاحُ المصبَاحُ في زُجَاجةٍ الزجاجةُ كأنهَاَ كَوكبٌ دُرىٌ...". والمشـكاة فـي اللغة هى كل كوة غير نافذة وربما قصد بها في القرآن الكريم موضع الفتيلة أو الزجاجة التى يستصبح فيها تشبيها لها بالمشكاة أو ربما قصد بها الحديدة التى يعلق عليها القنديل انظر، حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار، ص٢٥٦. أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية في العصرين ص٢٦٧. أما المشكاة نفسها فكانت تعلـق فـي داخل المساجد وغيرها بسلاسل من الفضة أو النحاس الأصفر تشبك بالمقابض التى تلف حول بدن المشكاة، وكانت السلاسل تجمع أحياناً عند كرة مستديرة أو بيضية تتصل بها سلسلة تنزل من السقف انظر، دليل متحف الفن الإسلامى، دار الآثار العربية سابقاً، القاهرة، ١٩٥٢م، ص١٣٥؛ حسن الباشا، موسوعة الآثار، ص ٢٥٦. وتشبه المشكاة في شكلها العام إناء الزهور، فهى ذات بدن منتفخ ينساب إلى أسفل، وينتهى بقاعدة، ولها رقـبة علـى هيـئة قمع متسع وألوانها بين الأحمر والأخضر والأبيض والوردى، انظر، حسن الباشا، الآثار الإسلامية، ص٢٧٠ – ٢٧١؛ موسوعة العمارة والآثار، ص٢٥٦.

محمـــد أمكـــي غفـــر الله"؛[401] هكذا، يشير النص التاريخي الوارد على بدن هذه المشكاة إلى وظيفة أمير حاجب، والتي كان يتوليها ألماس عام ١٣٣٠م.

وتمـــثل الكـــتابة على المشكاوات الخاصة بالحجاب أهمية قصوى بالنسبة للدراسات الاجتماعية والتاريخية والأثرية والتي يطلق عليها الكتابات التذكارية، إذ إنها تتضمن في كثير مـــن الأحـــيان اســـم من صنعت برسمه المشكاة مصحوباً بألقابه الفخرية والوظائفية وبعض الأدعـــية المناسبة له، خاصة إذا كان من بين السلاطين أو كبار الأمراء، بالإضافة على اسم المكـــان الذة صنعت برسمه المشكاة لتوضع فيه مثل "برسم الجامع المعمور" الذى ورد على مشكاة ألماس الحاجب من سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م. المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى، وقد يرد علـــى المشـــكاة أيضـــاً اســـم الصانع الذى قام بصنعها مثل "عمل العبد الفقير على بن محمد أمكـــى.... أو الـــرمكى، نســـبة إلـــى مدينة رمكة ببلاد الشام الذى نجده مدوناً على المشكاة السابقة.[402]

التحف المعدنية:

يعتـــبر العصـــر المملوكى بمثابة العصر الذهبى للصناعات المعدنية، إذ وصلت فيه منـــتجاتها إلـــى قمـــة نضجها الصناعى الفنى، وقد ساعد على ذلك إقبال السلاطين والأمراء المماليـــك على أقتناء التحف المعدنية، مما كان له أكبر الأثر في كثرة المنتجات المعدنية التى اتســـمت بدقـــة صـــنعها وغنى زخارفها بالكثير من العناصر النباتية والهندسية بالإضافة إلى رســـوم الكائنات الحية الآدمية والحيوانية ورسوم الطير المحلق بجناحيه في الهواء مما أضفى على الزخارف حياة وحركة نلمسها في معظم ما وصلنا من تحف معدنية من هذا العصر، ولا ننســـى الكتابة العربية التى نقشت بالخطين الكوفى والنسخ أو بخط الثلث الذى اشتق من الخط الأخير.[403]

---

[401] دليل متحف الفن الإسلامى، ص١٣٥ – ١٣٦؛ محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامى، ط١، القاهرة ١٩٥٤م، ص٩٤ – ٩٥؛ Lamm, C. J., *Mittelaterliche Gläser und steinscnittarbeiten aus dem Nahen Osten*, Berlin, 1930, pp. 437-438; Wiet, Lampes, p.123 No 3154.
Max Herz, B., *Catalogue raisouné des monuments exposes dans le musée national de l'art arabe*, Le Caire, 1906, pp. 314-316 no 4; Gayet, AL, *L'art arabe*, Paris, 1893, p. 241; Lane Poole, *Art of the Saracens in Egypt*, pp. 210, 219; Hiba Alī Yūsuf, *Le clairage á l'époque Mamlūke en Egypte*, Paris, 2001, p .PL. XLII; Gayet. AL., L'art arabe, p. 247; Max Herz, Catalogue,pp. 314-316.

[402] أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية في العصريين الأيوبى والمملوكى، ص٢٦٨.
Herz, *Le museé national de l'art arabe*, pp. 314-316; Lamm, C. J., *Mittelalterliche Gläser und steinsch nitt arbeiten aus dem Nahem Osten, Berlin*, 1930 , p. 488.
Lamm, *Mittelalterliche Gläser*, pp. 437-438.

[403] محمد الأشقر، نائب السلطنة المملوكية، ص٢٧٤.

وقــد وصلنا العديد من التحف المعدنية التى نجد من بينها تحفا صنعت برسم بعض الحجــاب.[٤٠٤] ومن التحف التى صنعت برسم بعض الحجاب نذكر سلطانية من النحاس مطلية بالقصــدير، تحمــل رنك باسم تمر أمير حاجب الحجاب المتوفى عام ٨٨٠هــ/١٤٧٥م، "مما عمل برسم المقرّ الأشرف العالى المولوى الأميرى الكبيرى تمر أمير حاجب الحجاب بالقاهرة المحروسة عز أنصار".[٤٠٥]

وهــناك طــبق مــن النحاس المطلى بالقصدير، وآخر من البرونز ظهر عليه رنك الحاجب أزبك من ططخ المتوفى عام ٩٠٤هــ/١٤٩٩م :مما عمل برسم الجناب الكريم العالى المولــوى الأمــيرى الكبيرى المخدومى السيفى نوروز أمير دوادار المقر السيفى أزبك أتابك العساكر المنصورى".[٤٠٦]

المنشآت المعمارية للحجاب

لــم يســهم الحجــاب بنصيب وافر في حركة الإنشاء والتعمير التى شهدها عصر ســلاطين المماليك، وسوف تحاول الباحثة ذكر بعض الأعمال المعمارية التى تركها الحجاب ســواء كانت عمائر دينية مثل المساجد الجامعة والمدارس، أو عمائر مدنية كالدور والقناطر والرحاب.

أولاً:العمائر الدينية "الجوامع":

١- جامع ألُماس أثر رقم ١٣٠:[٤٠٧]

يقع هذا الجامع عند تقاطع أول الحلمية بشارع القلعة (محمد على) بناه الأمير سيف الديــن ألُماس حاجب الحجاب، واتم عمارته في عام ٧٣٠هــ/ ١٣٢٩م[٤٠٨] وبهذا الجامع رخام كثير نقله من بلاد الشام.[٤٠٩]

---

[404] Esin-Atil, *Art of the Arab World*, Washington D.C., 1975, p. 92; Art of the Mamluks, p.197.

[405] Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.231 pl. LXVIII.

[406] Wiet,G., *Catalogue General du musee arabe du Caire objets en cuivre*, Le Caire, 1932, Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp. 244-245.

[407] فهرس الآثار المصرية – بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة ١٩٥١م ص٢.
Lane-Poole, *Art of the Saracens*, pp.210-211; Herz Max, *Catalogue raisouné*, pp.316-317; Lamm-Johan, *Mittelterlich Glgser*, pp. 437-438; Mayer, Saracenic Heraldy, pp. 241-242;
Ét. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, p.262; Wiet, *Lampes*, p.123.

[408] الأمير سيف الدين آلماس الحاجب هو أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، رقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء، وعظمت منزله آلماس، عندما خرج الأمير أرغون إلى نيابة حلب، وبقى منصب النيابة شاغراً، وصار ألماس في منزلة النيابة إلا أنه لم يسم بالنائب. المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٣٠٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧٩م، جــ٣، ص١٧٤ – ١٧٥؛ Mayer, *Saracenic Heraldey*, p.241; Ét. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chronologique d'épigraphie*

٢- جامع أسنبغا أثر رقم ١٨٥:
بدأ الأمير أسنبغا في بناء هذا الجامع عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م ومات قبل إتمامه.[٤١٠]

ثانياً: المدارس:

انتشر زمن سلاطين المماليك الاهتمام بتشيد المدارس التى تثير الإعجاب بسبب ضخامتها وزخرفتها التى بنيت بفن معمارى رفيع[٤١١] ولم يكن للحجاب نصيب وافر في بناء هذه المدارس.

١- المدرسة السبوبكرية (مدرسة الأمير أسنبغا): أنشأ هذه المدرسة الأمير سيف الدين اسنبغا بن بكتمر الأبوبكرى.[٤١٢] ويحدثنا المقريزى عن مدرسة أسنبغا فيقول "تقع هذه المدرسة بجوار درب العباسى قريباً من حارة الوزيرية بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين أسنبغا ووقفها على الفقهاء الحنفية، وبنى جوارها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبا للأيتام وذلك في عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، وبنى قبالتها جامعا فمات قبل إتمامه.[٤١٣]

٢- مدرسة خليل بن عرام: أنشأ حاجب الحجاب خليل بن عرام مدرسة عند قنطرة أمير حسين بن جندر المطلة على الخليج الحاكمى من حكر النوبى خارج القاهرة، مات ودفن بها.[٤١٤]

ārabe, p.260 No 5579; Wiet, *Lampes*, p.123; Lamm, *Mittelalterliche Gläser*, p.488.
ألماس بضم الألف وسكون اللام وفتح الميم معناه باللغة التركية "خالد".أحمد فكرى، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط١ بيروت ١٩٩٣م، جـ١، ص١٣٦.

409 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٠٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٣، ص١٧٤؛ فهرس الآثار الإسلامية، ص٢. وعن الوصف المعمارى لجامع آلماس الحاجب انظر سعاد ماهر مساجد مصر، جـ٣، ص١٧٦.

410 فهرس الآثار الإسلامية، ص٢.

411 جاستون فييت، القاهرة مدرينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٦م، ص١٦٦؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة المملوكية، ص٣٠٠.

412 جلب إلى مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون وتربى في طباق القلعة، وقد ظهرت مواهبه وهو في سن مبكرة مما جعل السلطان يقربه منه ويضمه إلى بلاطه، تدرج في الوظائف العسكرية حتى وصل إلى نيابة الإسكندرية ثم نيابة حلب، وكانت أسعد أيام أسنبغا في عهد السلطان الأشرف ابو المعالى زين الدين شعبان بن حسين. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠ - ٣٩١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣١٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٤، ص٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٤٢، ١٦٢.

413 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠-٣٩١؛ وعن الوصف المعمارى للمدرسة انظر سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٤، ص٢٧ وما بعدها.

414 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥.

ثالثاً: العمائر المدنية:

١- دار الحاجب:

أنشـــأها الأمـــير ســـيف الدين بكتمر الحاجب، تقع هذه الدار فيما بين الخرنقش[٤١٥] وحـــارة بـــرجوان، ولمـــا عمر الأمير بكتمر هذه الدار جعل بها اصطبلاً، وقام بتركيب باب بخوخـــة ممـــا يلي حارة برجوان، واشترط عليه الناس أن لا يمنع المارة من العبور في هذا المكـــان، فوفى بما اشترط، واصبح الناس يمرون من هذا الطريق في وسط الاصطبل سالكين من حارة برجوان إلى الخرنقش، وكان يقال لها خوخة الحاجب.[٤١٦]

٢- دار بيبرس الحاجب:[٤١٧]

تقـــع هـــذه الـــدار بخـــط حارة العدوية[٤١٨] بالقاهرة داخل باب الزهومة،[٤١٩] وكانت مشهورة به.

٣- دار الحاجب:

تقـــع خـــارج باب النصر تجاه مصلى الأموات، أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصـــورى أحد المماليك الزراقين، وهو الذى قام بفتح جزيرة أرواد، وتولى عمارة ومأذنة المدرســـة المنصورية عندما تهدمت في الزلزلة، توفى عام ٧١٤هـــ/ ١٣١٤م، فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ولم تزل بها ذريته.[٤٢٠]

٤- دار أُلماس:

---

415 حى الحرنفش كان ميداناً للخلفاء الفاطميين، وكان لهم سرداب تحت الأرض مدخله من باب القصر يمرون فـــيه إلـــى الميدان المذكور راكبين، ثم جعل مصرفا للماء لما بنيت المدرسة الصالحية، ولما تولى المعز أيبك الـــتركماني الســـلطنة بـــنوا به أصطبلات. وكلمة الخرنقش تعنى ما يتحجر مما يوقد به في مياه الحمامات من القمامـــات والمخلفات وغيرها، ويمكن تحديده الآن بحى الجمالية. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٣٥٢؛ ابـــن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ٤، ص٤٧ هامش٥؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـــ٥، ص٢٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـــ٢، ص١٢؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص٩٥ هامش ٦٧.

416 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٥٤.

417 بيـــبرس بـــن عبد الله المنصورى الحاجب، من مماليك الملك المنصور قلاوون، وترقى إلى أن صار أمير أخوراً، واستمر إلى أن عزله الملك الناصر محمد عند حضوره من الكرك بالأمير أيدغمش وولاه الحجوبية. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـــ٣، ص٤٧٤ ترجمة ٧٢٠.

418 انظر المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٦.

419 عـــرف بهـــذا الاســـم (أى باب الزفر) لأنه لا يدخل اللحم وغيره إلا منه فأختص بذلك، وحل مكان باب الـــزهومة المدرســـة الصـــالحية أى مدرســـة السلطان الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الدولة الأيوبية، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٣٧٤؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص٤٢ هامش ٣٢.

420 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٥٥.

تقـــع هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه وبين حدرة البقر بجوار جامع ألْماس أنشــأها الأمـــير ألْماس الحاجب واعتنى برخامها عناية كبيرة وجلبه البلاد، فلما قتل في عام ٧٣٤هــ/ ١٣٣٣م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقلع ما في الدار من الرخام، ونقل إلى القلعة، وهذه الدار باقية إلى وقت وفاة المقريزى عام ٨٤٥هــ/ ١٤م.[421]

٥- دار طينال:[422]

تقــع هــذه الـــدار بخط الخراطين في داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صلاح، وكـــان موضعها وما حولها في الدولة الفاطمية مارستانا، أنشأ هذه الدار الأمير طينال، وهذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين وتعتبر من الدور الجليلة، ولطينال أيضاً قيسارية بسويقة أمير الجيوش.[423]

رابعاً: الرحاب:

ومن أعمال بعض الحجاب المعمارية نشير أيضاً إلى رحبة بيبرس الحاجب، ويجب أن نـــنوه أن الـــرحاب كانت تقام أمام دور الأمراء لاستقبال القادمين أو كاستراحات للمارين عبر الطريق إلا أنها قد اندرست.[424]

رحبة بيبرس الحاجب:

أنشـــأها الأمير بيبرس بن عبد الله المنصورى الحاجب بخط حارة العدوية عند باب ســـر الصناعة، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره كانت بها، وبهذه الرحبة الآن (زمن المقريـــزى) فـــندق الأمير الطواشى زمام الدور السلطانية زين الدين مقبل، ولذلك يعرف هذا الخط بفندق الزمام.[425]

خامساً: قنطرة الحاجب:[426]

أنشـــأها الأمـــير ســـيف الدين بكتمر الحاجب في عام ٧٢٦هــ/ ١٣م، ولما عمرت القـــنطرة، اتصـــلت العمائـــر فيما بينها وبين كوم الريش، وعمر قبالتها ربع،[427] عرف بربع الزينى، وكان على ظهر القنطرة صفان من الحوانيت عليها سقيفة تقى حر الشمس وغيره.[428]

---

421 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٦٤.

422 الأمـــير طينال أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون اقامه ساقيا ثم حاجباً صغيراً ثم جعله أمير مائة مقدم ألف، فباشر ذلك مدة ثم أخرجه لنيابة طرابلس، ثم صفد، وتوفى في عام ٧٤٣هــ/ ١٣٤٢م، وكان تترى الجنس قصير إلى الغاية مليح الوجه، مشكورا في أحكامه محبا لجمع المال، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٦؛ Van Berchem, *Matériaux* , pp. 89-90.

423 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٤؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ص١٧٥.

424 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٦.

425 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٤٩، محمد الأشقر، نائب السلطنة، ص٣٢٧.

426 ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جـــــ١ ق١، ص٤٥٩. Michael Meinecke, *Die mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien (648/1250 Bis 923/1517)* teil II, Glückstadt, 199, p.466, no 78.

الخاتمة

وفى الختام تكشف لنا الدراسة عن مدى أهمية الدور الذى لعبه الحاجب في العصر المملوكى والذى برز بصورة كبيرة في عصر دولة المماليك الجراكسة.

ونتيجة لتزايد عدد الحجاب في مصر عصر سلاطين المماليك كان لابد وأن يقابله تزايد مستويات ومراتب الوظيفة فأصبحنا نسمع عن الحجوبية الأولى أو حاجب الحجاب.

ويبدو أن الأهمية الزائدة للوظيفة واتساع نطاق اختصاصات الحجاب زمن المماليك كانت وراء المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب لأجل هذه الوظيفة.

وقد ارتبطت الزيادة السريعة في عدد الحجاب بمصر بإلغاء السلطان الناصر محمد لوظيفة نائب السلطنة مما ترتب عليه تعاظم أهمية الحجابة.

ويلاحظ أن تزايد عدد الحجاب لم يقتصر على الديار المصرية فحسب بل وصلت هذه الزيادة إلى سائر نيابات وأقاليم الدولة المملوكية.

وقد تزايد عدد الحجاب في عهد السلطان الواحد كلما تزايد مقدار البذل فيها خاصة فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد وصل عدد الحجاب في عام ٧٠٩هـ/٧٤٠هـ إلى أربعة عشرة حاجباً.

وقد ترتب على ظاهرة البذل والبرطلة على وظيفة الحجاب أن قصر متوسط مدة الوظيفة وبالتالى كثرة عدد متوليها من الحجاب في فترة ما.

لقد عادلت الحجابة وظيفة نيابة السلطنة بل وصل الأمر إلى درجة أن حلت محلها في المرتبة والأهمية بحيث انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات نائب السلطنة.

يضاف إلى ذلك شراهة الحجاب في جمع الأموال بأى صورة من الصور، وقد تفاقم الحال زمن المؤيد شيخ الذى اعتلى كرسى السلطنة عام ٨١٠هـ/١٤١٢م.

كذلك ترتب على البذل أيضاً ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف في آن واحد، وأيضاً الاستنابة فيها، بل وأحياناً إلى التنازل عنها نظير مبلغ من المال مما أفضى ليس فقط إلى فساد هذه الوظائف وتدهورها، بل إلى تدهور النظام المملوكى كله، بعد أن سرى الفساد في جميع أركان الدولة، حتى سقطت في النهاية فريسة، سهلة أمام الغزو العثمانى في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

---

427 الربع جمع رباع وهو مجموعة من المساكن المؤجرة للغير تجمع حول صحن ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحد، ويصل ارتفاع الربع إلى أربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقة تدور حول الصحن، وتوجد مجموعة من الحوانيت بالجهة المطلة على الشارع من الطابق الأرضى، والربع مخصص لسكن الطبقات الشعبية بأجور شهرية زهيدة. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠ ص٣٠٣ هامش٣؛ حسين مصطفى، طوائف الحرفيين، ص٢٠٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤١٨؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص٤٤، هامش ٤٦.

428 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٢٠.

الجداول والأشكال

١- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى*

٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م

أولاً: حاجب الحجاب:

الاسم	تاريخ تولية	تاريخ عزله	تاريخ وفاة	المصادر
أيـاجي بن عبد الله الحاجب أحد أمـراء السلطان المنصـور قـلاوون، ولي الحجوبية بمصر	٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م	؟	٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م	شافع بن علي، الفضل المـأثور مـن سـيرة السـلطان الملـك المنصور، تحقيق عمر عـبد السلام، بيروت، ١٩٩٨م، ص٤٥، ٥١؛ العيـني، عقد الجمان، جـ١، ص٤٠ - ٤١؛ المقريـزي، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٣٨؛ ابـن تغـري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص١١٩، ترجمة رقم ٥٦٥؛ الدليل الشافي، جـ١، ص١٥٨ رقم ٥٦٤؛ بيـبرس المنصـوري، الـتحفة المملوكـية، ص١٠٠؛ ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق١، ص٣١٠؛ جـ٤، ص ٦٧.
سـنقر الرومي حاجب الحجاب	٦٦٠هـ/ ١٢٦١م	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق١، ص٣١٧.

---

* هذا الثبت مؤرخ بسنة الاستقرار - الوفاة كلما أمكن.

قطلوبك بن عبد الله المنصوري حاجب الحجاب بمصر	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	٧١٦هـ/ ١٣١٦م	ابن تغري بردى، الدليل الشافي، جـ٢، ص٥٤٧، رقم ١٨٧٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٧؛ رقم ٣٢٦٤ وفيه "سجن بالكرك إلى أن قتل في سنة ٧١٦ هـ"؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص١٣.
بيبرس العلائي حاجب حجاب دمشق	٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م	؟	٧١٢هـ/ ١٣١٢م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤٢ ، رقم ١٣٧٩.
ألماس بن عبد الله الناصري حاجب الحجاب	٢١ رجب عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م	عزل وقبض عليه يوم الأربعاء ٢٠ من ذي الحجة عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	صفر ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ليدن، ١٩١٩م، ص ١٤٧؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص٢٤٠؛ الصفدي،الوافي، جـ٩ ، ص٣٧٠ رقم ٤٢٩٦ ؛ أعيان العصر، جـ١ ، ص٦١٥ رقم ٣٣٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٣٨ رقم ١٠٦٣؛ ابن تغري بردى، المنهل الصافي، جـ٣، ص ٨٩ رقم ٥٤٩؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٥٤، رقم ٥٤٨؛ ابن إيبك، كنز الدرر، ٢٩٨، ٢٩٢، ٣٤٤،

				حياة ناصر الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، الكويت ١٩٩٧م، ص ٤٠.
محمد بن الوزير حاجب حجاب دمشق	جمادى الأولى عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
قطلوبغا المغربى	٢٤ من جمادى الآخر عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، مدة أقامته في الحجابة شهرين ونصف	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
علم الدين أسحق حاجب حجاب حلب	٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٤٨٨ رقم ٢٤٧.
طرنطاى الناصرى حاجب حجاب دمشق	تولى الحجابة للمرة الثانية في شعبان عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م .	٧٣٢هـ/ ١٣٣١م	٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ٥٧٩-٥٨٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣١٨، رقم ٢٠١٠.
بدر الدين مسعود بن الخطير حاجب الحجاب	٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م .	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٤٤، ٣٧٤.

أيدغدى الخوارزمي أقول حاجب حجاب دمشق	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
جاريك قفجق سيف الدين	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص١٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٧٤.
محمود بن خطير	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
برسبغا الحاجب	٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م	؟	؟	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص ٤٧٤؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٨؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤، حياة ناصر الحجي، أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٩٥م، ص١٨١؛ Hayat Nasser AL-Hajji, The internal affairs in

				Egypt During the third Reign of Sultan AL-Nāsir Muhammad B.Qālawūn, 709-741/1309-1341, Third Edition, Kuwait, 2000, pp. 88, 125-126.
بشتاك الناصرى حاجب الحجاب	؟	قبض عليه عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور جـ١ ق١، ص٤٧٦، ٤٨٩.
سيف الدين الحسنى حاجب الحجاب	٧٥١هـ/ ١٣٥٠م	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٠٥، رقم ٥١٤؛ الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص٤٨٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٥١٧.
أقتمر بن عبد الله المعروف بعبد الغنى التركى حاجب حجاب القاهرة	؟	٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م بسبب ولايته نيابة الشام	٧٨١هـ/ ١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٣ رقم ١٢؛ الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٢٠ رقم ١٠٠٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٩٣، رقم ٤٩٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٤١، رقم ٤٩٧؛ النجوم الزاهرة،جـ١١، ص٢١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ٢، ٥٧٢، ٣٠، ٧١، ٢٨٩، ٣٠٠؛ محمد أحمد دهمان،

				ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، ١٩٨٤ م ص٢٣٠.
الجاى اليوسفى حاجب الحجاب	٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م	٧٢٣هـ/ ١٣٦١م	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٧، ٥٨١؛ جـ١ ق٢، ص١١٩.
أسنبغا بن بكتمر الأمير سيف الدين الأبو بكرى حاجب حجاب مصر	٧٦٣هـ/ ١٣٦١م	؟	٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م	المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص١١١، ترجمة ٩٧٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩ ص ١٤٠؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص٤٣٦ ترجمة ٤٦١؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٢ رقم ٤٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٨.
طغاى تمر النظامى حاجب الحجاب	٧٦٣هـ/ ١٣٦١م	٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٧؛ جـ١ ق٢، ص٧٥.
طيبغا العلاى علاء الدين حاجب الحجاب	٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م استقر للمرة الثانية ربيع الأول ٧٦٨ هـ/١٣٦٦م	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥، ٤٣، ٥٣.
أرغون شاه الأشرفى	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

اليوسفى حاجب الحجاب				ص٥٨.
قشتمر المنصورى حاجب الحجاب	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣.
أقبغا اليوسفى حاجب الحجاب	٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٨٨ – ٨٩.
قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب بالقاهرة	٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م	؟	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص١٤٤، رقم ١٥٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٦، ١٩٨.
أقتمر عبد الغنى الحنبلى حاجب الحجاب	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦	؟	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	ابن طولون، إعلام الورى بمن ولى نائباًمن الأتراك بدمشق الشام الكبرى، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٩، رقم ٣٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٦، ص٢٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٩٥، ٢٨٩، ٣٠٠.
طيدمر البالسى حاجب الحجاب	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	؟	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦، ١٩٢، ١٩٧.
بلوط الصرغتمشى حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	نفي عام ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢٠٠، ٣٥٨.
تغرى برمش حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م استقر للمرة	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢١٤،٢٣١،٢٩٠.

	الثانية ٧٨٣ هـ/١٣٨١م			
طشتمر بن عبد الله الشعبانى حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	؟	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٦ رقم ٢٣.
مأمور بن عبد الله القلمطاوى حاجب الحجاب بمصر	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	نفى ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م	ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم م، كاليفورنيا، ١٩٦٣، ص٦٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص١٩٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٢٢؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص٥٧٠ رقم ١٩٥٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٣١، ص ٤٤٠، ٢٩٠.
قطلوبغا بن عبد الله الكوكاى نسبة إلى معتقه الأمير كوكاى، حاجب الحجاب القاهرة،	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٥١١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٩٨؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٤٦ رقم ١٨٧٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٩ رقم ١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٦٤.
أياس	٧٨٣هـ/	؟	٧٨٤هـ/	ابن حجر، إنباء الغمر،

الصرغتمشى حاجب الحجاب	١٣٨١م		١٣٨٢م	جـ١، ص٢٦٥، رقم٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٨٧.
سودون بن عبد الله الفخرى الشيخونى نائب السلطنة وحاجب الحجاب	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٥١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٣٤، ٢٥٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٣٥، ٥٠٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢و ص١٩٠، ٢٠٠، ٣٠٢، ٤٨٢.
طرنطاوى السيفى الكاملى حاجب حجاب دمشق	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٨.

ثانياً: الحاجب:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
سيف الدين قطلوبك الحاجب	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	؟	بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣١٢؛ الصفدى، أعيان العصر، جـ٤، ص ١٢٢؛ ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص ٤٩٢.
كرت أو كرد الحاجب	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	٦٩٩هـ/١٢٩٩م	بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣١٠؛ ابن حجر، نيل الدرر

				الكامنة، ص٣٦٤.
بكتمر بن عبد الله الحاجب الأمير سيف الدين	٧١١هـ/ ١٣١١م	؟	٧٣٨هـ/١٣٣٧م	ابن حبيب تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٨٢م، جـ٢، ص ١٨٣؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ١٩٠ – ١٩٢، رقم ٤٦٧٦؛ أعيان العصر، جـ١، ص٧٠٣ رقم ١٤٠٥؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٣١٤؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٢٦٤، ص٣٢٠؛ بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص ٢٢٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٧ رقم ١٣٠٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٢٧٧؛ المنهل الصافي، جـ٣، ص ٣٨٦، رقم ٦٧٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٩٤ رقم ٦٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص ١٤٥؛ محمود رزق

				سليم، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ٣١٩.
بكتمر الحسامى حاجب دمشق	٧١١هـ/ ١٣١١م	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	٧٢٤هـ/١٣٢٣م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢١ رقم ١٣٠٩؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص ٣٥٨.
علاء الدين ألطنبغا الحاجب الناصرى	٧١٣هـ/ ١٣١٣م	؟	٧٤٢هـ/١٣٤١م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ٩، ص ٣٦١؛ أعيان العصر، جـ١، ص٦٠٠، رقم ٣٢٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٢٦٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٠٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٥٣، رقم ٥٣٤؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٠؛ النجوم الزاهرة،جـ١٠، ص ٤٧٣ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ٢٢٢؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص١٦ رقم ١٦؛ محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق، ص١٨٠ وما بعدها.

طينال الأشرفى الحاجب	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٩٤، ٢٥٠؛ ابن ايبك، كنز الدرر،جـ٩، ص٢٨٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٣٤، رقم ٢٠٦٦. Van Berchem, Matériaux pour un corpus, pp. 89-90.
بيبرس بن عبد الله المنصورى الحاجب	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٥١، رقم ٤٨٤٥؛ أعيان العصر، جـ٢، ص٧٨ رقم ٤٩٦؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص٢٨٧، ٣٩٧؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣، ص٦٣٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص٤١ رقم ١٣٧٧.
شهاب الدين قرطاوى حاجب دمشق	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢٢١، ٢٩٧، ٣٧٨.
أرغون التاجى حاجب طرابلس	٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م	؟	٧٦٥هـ/٧٦٦م/ ١٣٦٣-١٣٦٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١١، ١٥.
قمارى الحموى	٧٦٥هـ/	؟	٧٦٦هـ/١٣٦٤م	ابن إياس، بدائع

الحاجب	١٣٦٣م			الزهور، جـ١ ق٢، ص١١، ١٧.
أرسلان السيفى حاجب الإسكندرية	٧٦٧هـ/ ١٣٦٥	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٤.
على بن محمد ابن كلفت علاء الدين أحد الحجاب	٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م	؟	٧٨٠هـ/١٣٧٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٨٨، ٢٣٩.
نصرات حاجب الإسكندرية	٧٧١هـ/ ١٣٦٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٩٥، ٩٧.
يَلو حاجب دمشق	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٨، ٣٣١.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بكجرى سيف الدين الحاجب الثانى	٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣١٠.
طيطق الأحمدى الحاجب الثانى بمصر	٧٥٢هـ/ ١٣٥١م	٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م	٧٦٣هـ/١٣٦١م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣٢١، رقم ٢٠٢٢.
ضروط الحاجب الثانى	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣.
قطلوبغا المنصورى الحاجب الثانى	٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م.	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦.

ملكتمر من بركة الحاجب الثانى	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠١.
يلبغا الناصرى الحاجب الثانى	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ١٣٢، ١٧٣، جـ٢ ،ص١٥،ص٣٥٢.
طيدمر البالسى الحاجب الثلى	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	؟	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦، ١٩٢، ١٩٧.
جمال الدين عبد الله بن بكتمر	٧٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٠٥.
على بن قشتمر التركى الحاجب الثانى	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٨ رقم ٣٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢١٤.
أيدكار العمرى الحاجب الثانى	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
يلبغا الناصرى حاجب ميسرة	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠٣، جـ٢، ص ١٥.

خامساً: حاجب ثالث:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
جمال الدين عبد الله بن بكتمر حاجب ثالث	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٢.

سادساً: حاجب رابع:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
إياس الصرغتمشى	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٨٧.
منكلى بُغا الطرخانى حاجب رابع	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣.

سابعاً: حاجب خامس:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
جلبان العلاى حاجب خامس	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣.

ثامناً:حاجب الصغير:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
طنبغا المجدى الحاجب الصغير	٧٤١هـ/ ١٣٤٠م	؟	؟	الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤.
قرمش بن أقطوان	٧٤١هـ/ ١٣٤٠م	؟	؟	الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤ حياة

				ناصر الحجى، دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، ط١، الكويت ١٩٨٦م، ص ٢٥١-٢٥٢.
طشتمر بن عبد الله الشعبانى الحاجب الصغير بدمشق	٧٦٧هـ/ ١٣٦٥	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٦، رقم ٢٣.
تمراز الطازى	٧٧٣هـ/ ١٣٧١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠٥.

٢- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الثانية

٧٨٤هـ-٩٢٣هـ/١٣٨٢م-١٥١٧م

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أيدكار بن عبد الله العمرى حاجب ميسرة، ثم حاجب الحجاب زمن السلطان برقوق	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٥٤، ٣٥٤، ٣٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٤٣٧؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٥٧ - ١٥٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٦٦ رقم ٥٩٣؛ الصيرفى؛ نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٥١.
طرنطاى سيف الدين حاجب حجاب دمشق	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣١٨ - ٣١٩، رقم ٢٠١٢؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص٣١، رقم ٤٢؛ محمد دهمان، ولاة دمشق، ص٢٥٠.

أقبغا الماردينى حاجب الحجاب	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٩٩، ٤٠٤.
تمربای بن عبد الحسنى، الامير سيف الدين حاجب الحجاب زمن السلطان الصالح	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٩٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣٧٢؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٩ رقم ٧٧٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢٢٢، رقم ٧٧٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣١٩، رقم ١٣٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٠٦.
بتخاص السودونى سيف الدين حاجب الحجاب	٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م	؟	٨١٣هـ/١٤١٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٣٥، ٨٠٣.
قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب	٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٤١٦.
فارس بن عبد الله القلطلقجاوى الظاهرى حاجب الحجاب بمصر زمن السلطان برقوق	٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٥١٩، رقم ١٧٩١؛ السخاوى، الضوء اللامع جـ٦، ص١٦٤ رقم ٥٧٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١

				ق١، ص٤٩٣، ٥٨٣.
بيقجاه طيفور الشرفى حاجب حجاب دمشق	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٢١، ٥٨٢.
اقباى بن عبد الله من حسين شاه الطرنطاى المعروف بالحاجب، استمر في هذا المنصب عدة سنوات	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨١٢هـ/١٤٠٩م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، تحقيق عدنان درويش، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٠٦ رقم ٣٤٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٦ رقم ٤٧٧؛ النجوم الزاهرة،جـ١٣ ص١٧٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٦٥ رقم ٤٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣١٣، رقم ٩٩٣؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القاهرة، ١٩٤٧م، جـ١، ص ٢٤٥.
باشباى من باكى حاجب حجاب دمشق	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨١١هـ١٤٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٨١، ٦٢٥، ٦٩٤ ، ٧٩٢.

سودون الحاجب الصغير ثم حاجب حجاب غزة	٨٠٢هـ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
دقماق المحمدى أمير حاجب	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧٣.
على بن عبد الله ابن محمد علاء الدين الطبلاوى*	؟	؟	٨٠٢هـ/١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣، ص٧١٧، ٧٤٤، ٨١٨، ٨٢٧؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ١، ص٥١١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٢٢٦؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٩ رقم ١٥٩٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٥، ص٢٥٢ رقم ٨٤٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٠٦، ٣٣٠، جـ٢، ص٦٦؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص٢٤٩، ٢٥٢ – ٢٥٤، ٤٠٠؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص٨٤.
مراد حاجب حجاب طرابلس	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

* الطبلاوى نسبة إلى طبلة – قرية بالمنوفية بالوجه البحرى.
ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٩.

				ص٦٧٦.
سودون الظريف الشمسى حاجب الحجاب	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٣٣، ٧٤٨.
أسن بيه – أيضا أسن باى التركمانى حاجب حجاب دمشق	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٣.
ارسطاى من خجا على حاجب الحجاب	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٦
ألطنبغا ططق المعروف بالعثمانى حاجب حجاب دمشق	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	٨٢١هـ/١٤١٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٥١، ٥٢٨، جـ٢ ، ص٤١.
فارس التنمى حاجب حجاب دمشق	٨١٠هـ/ ١٤٠٧م	؟	٨١٠هـ/١٤٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٨١، ٧٨٥.
كزل بن عبد الله العجمى، حاجب الحجاب زمن الناصر فرج	٨١٠هـ/ ١٤٠٧م	؟	٨٤٥هـ/١٤٤١م	ابن حجر، إنباء الغمر، ص٤٤٣٢ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٥٥٧ رقم ١٩٠٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص٢٢٨ رقم ٧٧٩، وفيه مات في ربيع الأول عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٨٥.
شيخ الطنبغا القرمشى حاجب	٨١١هـ/ ١٤٠٨م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص٤٠٣.

حجاب دمشق				
إينال بن عبد الله الصصلائى حاجب حجاب بمصر	٨١٥هـ/ ١٤١٢م	؟	٨١٨هـ/١٤١٥م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٣٢٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٧٧؛ العينى، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى" تحقيق فهيم محمد شلتوت مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٣٠٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٣٦؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٩٤ – ١٩٥ رقم ٦١٦؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ١٧٢ رقم ٦١٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢ ص ٣٥٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٢٧ رقم ١٠٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٨٢٦، جـ٢، ص ٢٣.
قجق حاجب الحجاب بالقاهرة	٨١٦هـ/ ١٤١٣م	٨١٧هـ/ ١٤١٤م	؟	العينى، السيف المهند، ص٣١٨، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٨.

سودون بن عبد الله القاضي الظاهري حاجب الحجاب	٨١٧ – ٨١٨ هـ/١٤١٤-١٤١٥م	؟	٨٢٢هـ/١٤١٩م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٧٤، ٢٠٦ ،رقم٤٧،العيني، السيف المهند، ص٣٣٤،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٥٨؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص١٤٩ – ١٥٠، رقم ١١٤٢؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٣١، رقم ١١٣٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١ ص ٤٦١، رقم ٥٩١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٤ رقم ١٠٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٦،ص٥٠.
سودون قراسقل ابن عبد الله الظاهري حاجب الحجاب المعروف بسودون قراسقل يعني لحيته سوداء	٨١٨هـ/ ١٤١٥م،ثم تولى حجوبية طرابلس في عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م	؟	٨٢٠هـ/١٤١٨م	العيني، السيف المهند، ص٣٣٤، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص ١٥٩-١٦٠؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٣٣٢-٣٣٣ رقم ١١٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣ ص٢٨٣ رقم ١٠٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٢، ٣٢.

الطنبغا بن عبد الله المرقبى حاجب الحجاب	٨٢٠هـ/ ١٤١٧م	؟	٨٤٤هـ/١٤٤٠م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٣، ص١٢٣٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٣٨ رقم ١٠٥٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٤٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص١٥٢-١٥٣ رقم ٥٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص٣٣، ص٢٢٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٩ رقم ١٠٢٦.
إينال بن عبد الله الأزعرى الشيخى	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص٣١٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٢٣٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٩، ١٩٥؛ المنهل الصافي، جـ٣ ص ٢٠٣؛ الدليل الشافي، جـ١ ص١٧٤ رقم ٦١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٦٤، ٦٩.
طراباى حاجب الحجاب	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٧٢.

جقمق العلاى حاجب الحجاب	٨٢٥هـ/ ١٤٢١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٧٧.
أزبك الأشقر الرمضانى حاجب حجاب مصر	٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م	؟	٨٣٣هـ/١٤٢٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨٦، ١٢٧.
جرباش قاشق الكريمى حاجب الحجاب	٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠٠، ص٣٣٧.
قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب	٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م	؟	٨٤٢هـ/١٤٣٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١١٠، ص٢٠٦.
طوغان بن عبد الله السيفى تغرى بردى حاجب حجاب حلب	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٧، ص٢٤ رقم ١٢٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٧٣ رقم ١٢٨١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤ ص١٢، رقم ٤٤.
كمشبغا بن عبد الله الظاهرى المعروف بكشبغا حجى، أمير حاجب	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٤، ص٥٦١، رقم ١٩٢٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦ ص٢٣٠ ، رقم ٧٩٢.

يشبك الشعبانى حاجب الحجاب	٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م	؟	٨٤٩هـ/١٤٤٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٥٤.
تنبك بن عبد الله من برد بك الظاهرى حاجب الحجاب في عهد الظاهر جقمق	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٦٣هـ/١٤٦٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص١٩٥؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٤ رقم ٧٥٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢١٥ رقم ٧٥٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٤٢ رقم ١٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢١٢، ٢٢٧.
تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى المعروف بالمؤذى حاجب الحجاب بمصر	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٤٦هـ/١٤٤٢م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٩٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٤٩٦؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٥٤ وما بعدها رقم ٧٦٥؛ الدليل الشافى، جـ٤ ص٢١٧ رقم ٧٦٣؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص٤٤؛ الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧، رقم ١٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٣٥.

تغرى بردى المؤيدى حاجب الحجاب	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الوهور، جـ٢، ص ٢٠٠.
سودون بن عبد الله الأبوبكرى المؤيدى حاجب حجاب طرابلس	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣١٣؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ١٧٣ – ١٧٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٠.
سودون بن عبد الله النوروزى حاجب حجاب دمشق	٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م	؟	٨٤٧هـ/١٤٤٣م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص١٧٢ – ١٧٣؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٣٥ رقم ١١٥٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٧ رقم ١٠٨٩.
خشقدم بن عبد الله الناصرى حاجب الحجاب بمصر	٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م	؟	٨٧٢هـ/١٤٦٧م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣٧٨-٣٦١؛ المنهل الصافى، جـ٥، ص٢١٠ – ٢١١ رقم ٩٨٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢٨٦ رقم ٩٨٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٧٥ رقم ٦٨١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٧، ص ٣١٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص

				٢٧٨، جـ٤، ص٨.
كرتباى من مصطفى المعروف بالأحمر حاجب حجاب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	٩٠٤هـ/١٤٩٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٨٣، ص٤٠٧.
مغلباى البجاسي حاجب حجاب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٩٨.
طوغان بن عبد الله العثماني حاجب حجاب حلب	٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م	٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م	٨٥٢هـ/١٤٤٨م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٥٣٢؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص ٢٣ رقم ١٢٨٣؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٣٧٣ رقم ١٢٨٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٣ رقم ٤٥.
جانبك بن عبد الله القرمانى الظاهرى حاجب حجاب مصر	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٨٨؛ المنهل الصافى، جـ٤ ص ٢٣٧ رقم ٨٢٣؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢٣٨ رقم ٨٢١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٥٩ رقم ٣٧؛ ابن إياس،

				بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤١.
برسباى بن عبد الله البجاسى حاجب الحجاب	٨٦١هـ/ ١٤٥٦م	؟	٨٧١هـ/١٤٦٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص٣٥٢؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٧٩ وما بعدها؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم ٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤٢ – ٤٤٣؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص٦٢ رقم ٧٤.
أحمد بن القليب شهاب الدين حاجب حجاب طرابلس	٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٩.
سودون قراقاش المؤيدى حاجب حجاب مصر	٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	؟	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٨.
بيبرس الأشرفى سيف الدين حاجب الحجاب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٦٤؛ جـ٣، ص٣١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢١ رقم ١٠٣.

يشبك البجاسى الأشرفى حاجب حجاب حلب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	٨٩٠هـ/١٤٨٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨١.

يلباى الأينالى المؤيدى حاجب الحجاب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨١.
برد بك الجمالى ويعرف ببرد بك الفارسى الظاهرى الأقرع حاجب الحجاب	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	٨٧٥هـ/١٤٧٠م	ابن طولون، أعلام الورى، ص٦٢ رقم ٧٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٤٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨٩، جـ٣، ص٥١.
تغرى بردى من يونس حاجب حجاب حلب	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٩٤.
جانى بك الناصرى حاجب الحجاب بدمشق	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	٨٦٩هـ/١٤٦٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٩٠، ٤٢٨.
أبو بكر باكير ابن صالح الكردى حاجب حجاب حلب	٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤١٣.
أزبك من ططخ الأشرفى حاجب الحجاب	٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م	؟	٩٠٤هـ/١٤٩٨م	ابن طولون، أعلام الورى، ص٦٤ رقم ٧٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٢٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤١٧.

جانى بك قلقسيز الأشرفى حاجب الحجاب	٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	٨٨٣هـ/١٤٧٨م	ابن طولون، اعلام الورى، ص٦٧ – ٦٨، رقم ٤٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٢٩، ٤٧٤.
شرا مرد المؤيدى حاجب حجاب دمشق	٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٥.
على بن الأزبكى حاجب حجاب طرابلس	٨٧١هـ/ ١٤٦٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٤٩.
برد بك المحمدى ويعرف بهجين	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	٨٨٢هـ/١٤٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٢، جـ٣، ص١٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم٣٠.
تمر الوالى	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٧٠.
تمر من محمود شاه الظاهرى حاجب الحجاب	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	٨٨٠هـ/١٤٧٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٧٠،جـ٣، ص١٠٧.
محمد بن مبارك شاه التركمانى الحلبى ناصر الدين حاجب حجاب دمشق	٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م	؟	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٠، ص١٠٧.
مغلباى سُرق الأشرفى حاجب حجاب حلب	٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	؟	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٣٤ – ١٣٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٣.

دولات باي النجمي الأشرفي حاجب حجاب دمشق	٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	٨٨٢هـ/١٤٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٣، ١٢٧.
أزدمر الإبراهيمي الطويل حاجب الحجاب	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م	٨٨٥هـ/١٤٨٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٠٦، ٤٠٩.
يشبك العلاي حاجب حجاب دمشق	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	٨٩٠هـ/١٤٨٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١١٢.
برسباي قرا المحمدي حاجب الحجاب	٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م	٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م	٨٩٤هـ/١٤٨٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٥٨، ٢٦٥.
تغري بردي ططر الشمسي حاجب الحجاب	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م	؟	٨٩٣هـ/١٤٨٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩١، ٢٥٤.
سيباي حاجب حجاب دمشق	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩١.
تاني بك الجمالي حاجب الحجاب	٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م	؟	٩٠٨هـ/١٥٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٤٩،٤٦٥،جـ٤،ص ٤٨.
قانصوه الغوري حاجب حجاب حلب	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٨٤، جـ٤، ص٤٢ عبد العظيم حامد خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية

				الآداب، جامعة عين شمس ١٩٧٣م، ص ٤٧. Mayer, Saracenic Heraldry, A Survey, Oxford 1933. p.179; Van Berchem, Materioux pour un corpus, pp.392-393.
اينال الخسيف حاجب حجاب دمشق	٩٠١هـ/ ١٤٩٥م	٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م	٩٠٢هـ/١٤٩٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٤٢.
جانم المعروف بالمصبغة حاجب حجاب مصر	٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م	٩١١هـ/١٥٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٥٩؛جـ٤،ص٩١.
قيت الأشرفى، حاجب الحجاب	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م أعيد للمرة الثانية ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٧٧، ٤٤٠.
قانصوه من كسباى بن سلطان جركسى المعروف بابن اللوقا حاجب حجاب دمشق	٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٩٨؛ جـ٥، ص٧١.
يلسباى المؤيدى حاجب حجاب طرابلس	٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م	؟	٩١٣هـ/ ١٥٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٢٣.
أنردمر من على باى الأشرفى حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٤هـ/١٥٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٢، ١١٩.

أصطمر من ولي الدين حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٤هـ/١٥٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٥٣،جـ٤،ص١٤٥.
بردبك المحمدى الأينالي حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٥٤.
تمرار جوشن حاجب حجاب دمشق	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٠هـ/١٥٠٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٦٩،جـ٤،ص٦٧.
تمر من جانم الظاهرى حاجب حجاب حلب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٧١.
جان بردى الغزالى حاجب حجاب حلب	٩٠٧هـ/ ١٥٠١م	؟	٩٢٧هـ/١٥٢٠م	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٩٦؛ ابن إياس، بدائعالزهور، جـ٤، ص٢٣، جـ٥، ص٣٨٢.
خايربك من ملباى أخو قانصوه البرجى	٩٠٧هـ/ ١٥٠١م	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م	٩٢٨هـ/١٥٢١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٨،جـ٥،ص٤٨١ - ٤٨٢.
أنصباى من مصطفى حاجب الحجاب	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٦٧.
يخشباى حاجب حجاب دمشق	٩١٧هـ/ ١٥١١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٥٠.
طراباى من يشبك من حيدر حاجب حجاب دمشق	٩٢١هـ/ ١٥١٦م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٦٣، جـ٥،ص٧١.
طقطباى حاجب الحجاب	٩٢٢هـ/ ١٥١٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص

				١١٦، محمــود رزق، عصـــر ســـلاطين المماليك، جــ١، ص ٣٢٣.

ثانياً: الحاجب:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أركماس السيفى حاجب طرابلس	٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٣٥١.
اسند مر السيفى حاجب طرابلس	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٣٩١.
علــى بــن الطبلاوى، علاء الدين الحاجب	٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٤٧٣.
تمربغا المنجكى الحاجب	٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٥١٣، ٥٣٩.
ســمز المحمدى الحاجب	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٥٤٣.
قـــرابغا الأسنبغاوى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق١، ص٥٤٣.
مقــبل الرومى السيفى العمرى الحاجب	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٥٤٣.
ســـودون المـــأمورى الحاجب	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	ابــن إيــاس، بدائــع الــزهور، جــ١ ق٢، ص٥٦٤.

شهاب الدين أحمد بن الزين والى القاهرة وحاجبها	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
عمر بن الطحان ركن الدين أو بهاء الدين حاجب غزة	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
تغرى برمش الحاجب	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٩٤.
عبد الرازق بن دلغادر الحاجب	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٢٩.
أبو يزيد الحاجب	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٣٩.
قرقماش الرماح الأينالى حاجب دمشق	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥١، ٦٧٦.
محمد بن علاء الدين بن كلفت التركمانى ناصر الدين الحاجب	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥٧.
بهاء الدين أرسلان الحاجب	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٦٩.
أزدمر حاجب حلب	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٦.
محمد بن شهرى، ناصر الدين حاجب	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	٨١٠هـ/١٤٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٣، ٧٧٧.

حلب				
جانبك الحاجب ونائب الإسكندرية	٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٥٣٩.
برد بك العجمى حاجب حلب	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠٧.
يشبك طاز حاجب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٩٨.
عبد العزيز بن محمد الصغير الحاجب	٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٣٥.
يلباى المؤيدى حاجب دمشق	٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م	؟	٨٩٦هـ/١٤٩٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢١٥، ٢٨٤.
قانصوه من بيبردى الغورى الأشرفى، الحاجب بحلب	٨٩١هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤، جـ٥،ص٧٠،٤٧ Mayer, Saracenic Heraldry, p.179.
باكير بن صالح الكردى حاجب حلب	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤.
يونس الأشرفى حاجب دمشق	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٠٠هـ/١٤٩٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤، ٣٠٦.
قانى بك حاجب دمشق	٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٦.
صالح الكردى حاجب حلب	٩٠١هـ/ ١٤٩٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣١٦.

فرج بن بُرْد بك زين الدين الحاجب	٩١٢هـ/ ١٥٠٦م	؟	٩١٩هـ/١٥١٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٩٨، ٣٥٤.
برد بك الحاجب	٩١٩هـ/ ١٥١٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٥٤.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
قطلوبغا السيفى تمرباى الحاجب الثانى	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٢٢، ٤٢٦.
تمربغا المنجكى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥١٣،٥٣٩.
يعقوب شاه الكمشبغاوى شرف الدين الحاجب الثانى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٤٣،٥٧٩.
باشباى من باكى الحاجب الثانى	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	٨١١هـ/١٤٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٨١،٦٢٥، ص ٦٥٥، ٧٩٢.
مبارك شاه الحاجب الثانى	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٩٤.
جانبك بن عبد الله الثور الحاجب الثانى	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	؟	٨٤١هـ/١٤٣٨م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٢١٣؛ المنهل الصافى، جـ٤ ص ٢٣٠ رقم ٨٢٠؛ الدليل الشافى، جـ٥ ص

				٢٣٧ رقـــــم ٨١٨؛ الســـخاوى، الضـــوء اللامع، جـ٣، ص٥٦ رقم ٢٢١.
أسنبغا الطيارى الحاجب الثانى	٨٤١هـ/ ١٤٣٧م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٢، ص ١٨٤.
يلـــبغا الـــبهاى الحاجب الثانى	٨٤٢هـ/ ١٣٤١م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٢، ص ٢٠٤.
ســـمام الحسنى الحاجب الثانى	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٢، ص ٣١١.
نوكـــار من بابا الناصــــــــرى الحاجب الثانى	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٢، ص ٣١١.
جكـــم المحمدى الخشقدمى	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٢، ص ٤٧٠.
قـــانى باى آص الشاقى الطويل	٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م	؟	٨٨٠هـ/١٤٧٥م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٣، ص ١٠٧،٣١.
أزبـــك فُســـتق الظاهرى حاجب ثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٣، ص ١٠٩.
سيباى الظاهرى الحاجب الثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٣، ص ١٠٨.
قنـــبك جُشـــحة العـــلاى الرماح الحاجب الثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	٨٨٩هـ/١٤٨٤م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٣ ق٢، ص ١١٤،٢٠٦.
تانى بك الأينالى	٨٨٦هـ/ ١٤٨١م	؟	؟	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــ٣، ص

				١٨٠.
أيسنال الفقيه الحسني الظاهري	٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م	؟	٩٠٣هـ/١٤٩٧م	ابن طولون، اعلام الوري، ص٧٨ وما بعدها رقم ٨٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣،ص٢٤٩، ٣٨٨.
برسباي الصغير	٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٠.
ماماي جوشن المحمدي	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٨٨.
أسنباي الأصم	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٦٦.
علي الجركسي الحاجب الثاني	٩١٨هـ/ ١٥١٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٨٥، ٣١٠.
مصرباي الأقرع	٩٢٢هـ/ ١٥١٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١١٠.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أيدكار بن عبد الله العمري حاجب ميسرة	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزي، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر جـ١، ص٢٥٤، ٣٥٤ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٣٧؛ المنهل الصافي، جـ٣، ص

				١٥٧ – ١٥٨؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص ١٦٦ رقم ٥٩٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٥١.
دقماق المحمدى سيف الدين حاجب ميسرة	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦٤، ٧٤٤.

خامساً: الحاجب الثالث:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
مبارك شاه الحاجب الثالث يقول ابن إياس "استقر حاجباً ثالثاً، بتقدمة ألف، ولم يقع ذلك فما تقدم"	٨٢٠هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦٦.

سادساً: الحاجب الصغير:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
سودون الحاجب الصغير	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.

٣- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى

حسب سنة الوفاة فقط

أولاً: حاجب الحجاب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أياز بن عبد الله النجمي، الأمير فخر الدين المعروف بالمقرى حاجب الحجاب في دولة الظاهر بيبرس	؟	؟	٦٨٧هـ/١٢٨٨م؛ وفى المنهل الصافى في عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م	الصفدىّ، الوافى بالوفيات، جـ٩، ص ٤٥٨ رقم ٤٤١٣؛ أعيان العصر، جـ١، ص٦٣٨-٦٣٩ رقم ٣٤٨؛ العينى، عقد الجمان حوادث عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٤٥؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٩٩-١٢٠ رقم ٥٦٦؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص٢٣١؛ ابن شداد، تاريخ الملك الناصر، ص٣٤، ٢٤٣
أقوش حاجب الحجاب	؟	؟	٧٠١هـ/١٣٠١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤١٤.
شمس الدين خضر الناصرى	؟	؟	٧٠٧هـ/١٣٠٨م	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.

جمال الدين بن الإمام حاجب الحجاب	؟	؟	٧١٠هـ/١٣١١م	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
قطلوبك بن قراسنقر حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٢٩هـ/١٣٢٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٨-٣٣٩ رقم ٣٢٦٥.
سيف الدين أقول المحمدى حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٣٨هـ/١٣٣٧م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٦، ص ٤٦٤ رقم ٥٠٥؛ نكت الهيمان في نكت العميان، القاهرة ١٩١١م، ص١٧٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣٢٥ رقم ٢٠٣٧؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦ ص ٤١٩ رقم ١٢٦٠؛ الدليل الشافى، ص ٣٦٦ رقم ١٢٥٦.
مغلطاى بن عبد الله المرتينى حاجب الحجاب	؟	؟	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٥ ص ١٢٥ رقم ٤٨٣٠؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٣٨ رقم ٢٥٢٠.
قبلاى بن عبد الله سيف الدين الناصرى	؟	؟	٧٥٠هـ/١٣٤٩م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٢٨ رقم ٣٢٣٧ وفيه "مات في سنة ٧٥٦

				هـ"؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ٢ ص٥٣٣ رقم ١٨٢٨.
المهمندار سيف الدين حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٦٣هـ/١٣٦١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٦.
جركتمر الماردانى حاجب الحجاب زمن السلطان الناصر حسن	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٧١ رقم ١٤٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٩.
أسندمر حرفوش العلاى الحاجب	؟	؟	٧٧٢هـ/١٣٧٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٩.
يلبغا بن عبد الله الناصرى حاجب الحجاب زمن الأشرف شعبان ابن حسين	؟	؟	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٣٤؛ الدليل الشافى، جـ٢ ص ٧٩٤ رقم ٢٦٧٥.
يعقوب شاه حاجب الحجاب	؟	؟	٧٧٩هـ/١٣٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣، ١٩٩، ٣٣١.
موسى بن الأزكشى الأمير سيف الدين حاجب حجاب القاهرة	؟	؟	٧٨٠هـ/١٣٧٨م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٩٤؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٤٨ رقم ٢٥٥٣.
جوبان الجركسى	؟	؟	٧٨٢هـ/١٣٨٠م	ابن حجر، إنباء الغمر،

حاجب حجاب حلب				جـ١، ص٢٢٢، رقم٩ .
طشتمر القاسمى حاجب الحجاب	؟	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٩١.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بيليك بن عبد الله المحسنى الصالحى الحاجب المعروف بأبى شامة، زمن السلطان المنصور قلاوون .	؟	؟	٦٩٥هـ/١٢٩٥م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٦٨ رقم ٤٨٦٤؛ ابن الفرات، تاريخ الفرات، جـ٨، ص٢١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٤٧٩؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص٥١١ رقم ٧٤٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢١١ رقم ٧٤٥.
جمال الدين اقوش الكرجى الموصلى الحاجب	؟	؟	٦٩٩هـ/١٢٩٩م	بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٣٨، ١٥٧؛ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣١٧؛ الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٥٦٠- ٥٦١؛ الوافى بالوفيات، جـ٤، ص

				١١٣؛ ذكر العينى أن: جمال الدين أقوش مات في عام ٦٩٣هـ؛ ابن حجر، نيل الدرر الكامنة، ٤٥٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٤٦.
أيبك الأشكرى عز الدين الحاجب بدمشق	؟	؟	٧١٤هـ/١٣١٤م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦٤٥ رقم ٣٤٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٢١.
كتبغا بن عبد الله حاجب دمشق زمن الأمير تنكز الناصرى	؟	؟	٧٢١هـ/١٣٢١م	المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٢٣٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٥٠ رقم ٣٣٠٢؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٥٤، رقم ١٨٩٨.
أوران سيف الدين الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٣٣هـ/١٣٣٢م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦٣٦ رقم ٣٤٤؛ الوافى بالوفيات، جـ٩ ، ص٤٤١ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤١٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ١١٤.
برسبغا بن عبد الله الحاجب الناصرى زمن	؟	؟	٧٤٢هـ/١٣٤٢م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٣٠؛ الوافى

السلطان الناصر محمد				بالوفيات، جـ١٠، ص ١١٤، المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣، ص٦٠٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٨٢، رقم ٦٥٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٨٧ رقم ٦٥٤.
بيبرس بن عبد الله السلارى حاجب صفد	؟	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٥٢ رقم ٤٨٤٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤٢ رقم ١٣٧٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٤٧٨ رقم ٧٢٣؛ الدليل الشافى، جـ٤، ص ٢٠٥ رقم ٧٢١.
جقطاى الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٧٤ ، رقم ٤٥٥.
قطلوتمر الخليلى حاجب دمشق	؟	؟	٧٤٦هـ/١٣٤٥م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٩، رقم ٣٢٦٧.
أُلْمس بن عبد الله الناصرى الحاجب ثم حاجب حجاب	؟	؟	٧٤٦هـ/١٣٤٥/	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦١٥ رقم ٣٣٣؛ الوافى بالوفيات، جت٩ ، ص٣٧٠، رقم ٤٢٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١،

				ص٤٣٨، رقم ١٠٦٢؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٣رقم ٥٤٥؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص٨٤، سرجع د. هبه.
شرف الدين الحاجب بحلب	؟	؟	٧٥٦هـ/١٣٥٥م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٥، رقم ١٩٠٥، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٣٨٤.
جمال الدين عبد الله الدمرتاش الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٦٢هـ/١٣٦٠م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٣، ص٨ رقم ٩١٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣١١.
باكيش اليلبغاوى الحاجب	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٩٩م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤.
سلطان شاه بن قرا الحاجب	؟	؟	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٠.
قبلاى سيف الدين الناصرى الحاجب	؟	؟	٧٥٦هـ/١٣٥٥م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣ ص ٢٤٣ رقم ٦١٧؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٩١، وما بعدها.
على بن طغريل الأمير علاء الدين حاجب	؟	؟	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ١٢٧، رقم ٢٧٥٨؛

دمشق				ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٧ رقم ١٥٨٧.
علاء الدين أقطون الكمالى حاجب صفد	؟	؟	٧٣٤هـ/١٣٣٤م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٥٥٧، رقم ٣٠١، الوافى بالوفيات، جـ٩ ، ص٤٣٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٩٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٥٠٥ رقم ٥٠٧.
طيفور بن عبد الله الظاهرى حاجب حجاب دمشق زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٣، ص١٥ – ١٦؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص٤٠ وما بعدها رقم ١٢٩٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٣٧٦ رقم ١٢٩١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٤ رقم ٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦١.
يلبغا بن عبد الله السودونى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١١٠٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٣ ص٣١؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٩٤ رقم ٢٦٧٦؛ السخاوى، الضوء

				اللامـــع، جــ١٠، ص ٢٩٠ رقم ١١٣٥.
جقمــق بن عبد الله الصـــفوى حاجــب حجاب حلـــب زمـــن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص٣٣٤؛ ابن تغــرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٥٩؛ ابن إياس، بدائع الــزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٩، ٥٧٧، ٦٦١، ٦٦٣؛ المـــــنهل الصـــافى، جـ٤، ص ٢٧٤ رقم ٨٤٨؛ الدليل الشـــافى، جـ١، ص ٢٤٥ رقـــم ٨٤٦؛ الســـخاوى، الضـــوء اللامع، جـ٣، ص٧٠ رقم ٢٨٦.
مـــبارك شاه بن عـــــبد الله الظاهرى حاجب الحجاب	؟	؟	٨١٦هـ/١٤١٣م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـــ٢، ص١٦؛ ابن تغـــرى بردى، الدليل الشـــافى، جـ٢، ص ٥٧١ رقـــم ١٩٦٢؛ الســـخاوى، الضـــوء اللامــع، جـــ٦، ص ٢٣٧ رقم ٨٢٢.
جرباش بن عبد الله الظاهـــرى المعـــــروف بكباشة*	؟	؟	٨١٨هـ/١٤١٥م	ابـــن تغـــرى بردى، الـــنجوم الزاهرة، جـــ١٤، ص١٣٦؛ المنهل الصـــافى، جـــ٤، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ رقـــم

* كباشة اسم فروة من جلود الأغنام معروفة، كان يلبسها جرباش هذا لما كان صغيراً عند لعبه بالرمح من تحت ثيابه لتحمل عنه الضرب فسمي بها. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص٢٥٥.

				٨٣٥؛ الدليل الشافى، جـ٤، ص٢٤٢ رقم ٨٨٣.
الناصرى محمد ابن العطار حاجب حجاب حماة	؟	؟	٨٢٨هـ/١٤٢٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠١.
إياس الظاهرى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٣١هـ/١٤٢٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١١٩.
جانبك بن عبد الله الحمزاوى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٣٦هـ/١٤٣٣م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٥٠٥ رقم ٨ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،جـ١٥ ، ص١٨٠؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٢٢ رقم ٨١٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٣٦ رقم ٨١٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٦٩ رقم ٧٢٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٥٦ رقم ٧٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٥٠.
تاج بن سيفا بن عبد الله الشويكى* المعروف بالتاج	؟	؟	٨٣٩هـ/١٤٣٥م	المقريزى، السلوك، جـ٤، ص٢٣٧، ٢٥٥ ، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢١١، ٣٣١، ٣٣٨، ٩٨٣-

* نسبة إلى الشويكة مكان بظاهر دمشق. ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٢٦، رقم ٨.

الوالـــي حاجب الحجاب				١٩٨٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٢٦ رقم ٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ٢٠٢؛ جـ١٥، ص ١٩٨ – ١٩٩؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٥، رقم ٧٥٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣١٥، ٣٤٤، ٣٥٦، ٣٥٩؛ جـ٣، ص ٣٥٧ – ٣٥٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٤ – ٢٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٥؛ Ahmad, Abd ar-Raziq, La hisba et le muhtasib en Egypt, pp. 163-266, no. 114-116.
شاهين بن عبد الله الزرد كاش حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص٢١٢-٢١٣ رقم ١١٨٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٤٢ رقم ١١٧٧؛ الضوء اللامع، جـ٣ ص٢٩٥ رقم ١١٣٠.
سودون بن عبد الله الظاهرى المعروف بسودون	؟	؟	٨٤٣هـ/١٤٤٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٧٨-٤٧٩؛ المنهل الصافى، جـ٦،

ص١٧٩ وما بعدها رقم ١١٦٢؛ الدليل الشافي، ص٣٣٧ رقم ١١٥٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٨٣ رقم ١٠٧٤.				المغربى* حاجب حجاب زمن الأشرف برسباى
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٥١١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٥٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ١٩٥ رقم ٦٥٨.	٨٥٠هـ/١٤٤٦م	؟	؟	قانى باى بن عبد الله الجكمى المعروف قانى باى طاز حاجب الحجاب بحلب
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٥٢٢؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٢٧، رقم ٦٥٢؛ الدليل الشافى، جـ١ ص١٨٦ رقم ٦٥١؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص١٩١؛ الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم ٣٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢،ص٢٥١، ٢٥٩.	٨٥١هـ/١٤٤٧م	؟	؟	برسباى بن عبد الله الحمزاوى حاجب حجاب دمشق زمن السلطان الأشرف برسباى
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،جـ١٦	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	؟	؟	يشبك بن عبد الله النوروزى

* يقول عنه ابن تغرى بردى: "كان تصوره غير صحيح، فهمه غير مستقيم، قل أن يجلس بمكان ولا يبحث فيه مع أحد، وكان عنده تشوق وظن بنفسه ولهذا المقتضى سُمى المغربى. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص١٨٠.

حاجب حجاب طرابلس ثم دمشق				، ص١٩٩؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٨٨، رقم ٢٦٠٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٨٠ رقم ١١٠٠ وفيه "مات في المحرم عام ٨٦٣هـ".
جانبك اليشبكى الجكمى	؟	؟	٨٥٧هـ/١٤٥٣م	السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٦٢؛ جـ٤، ص٦١-٦٢ رقم ٢٤٩.
سودون بن عبد الله المؤيدى حاجب الحجاب زمن السلطان المؤيدى شيخ	؟	؟	٨٦٤هـ/١٤٥٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣١٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٣٦، رقم ١١٥٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٢.
علان حلق بن عبد الله حاجب حجاب حلب	؟	٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م	٨٦٤هـ/١٤٥٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٣٥، الدليل الشافى، جـ١، ص ٤٤٤ رقم ١٥٣٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٥ ص١٥٠ رقم ٥٢٢ وفيه "توفى سنة ٨٩٤هـ وهو خطأ لأن الطاعون الذى توفى فيه كان في سنة ٨٦٤هـ وقد عظم بالشام وغزة، السخاوى

				التبر المسبوك، ص ٤٧٠.
قراجا الظاهرى حاجب حجاب مصر	؟	؟	٨٧٢هـ/١٤٨١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٠.
فرج بن أغلبك حاجب حجاب حلب	؟	؟	٨٨٥هـ/١٤٨٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٧٧.
بلاط اليشبكى حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٨٧٨هـ/١٤٧٣م	ابن طولون، إعلام الورى، ص٨١ رقم ٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٥-٤٢٦؛ جـ٣، ص٩٢.
طقتمر بن عبد الله الكلتاى حاجب حجاب طرابلس ثم حلب	؟	؟	٨٨٧هـ/١٣٨٥م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص ٣٢٥ رقم ٢٠٣٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦ ص ٤١٩ رقم ١٢٦٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٦٦ رقم ١٢٥٧.
عبد الله بن بكتمر الحاجب	؟	؟	٧٨٦هـ/١٣٨٤م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٥٢٦ ؛ابن قاضى شهبه تاريخ ابن قاض شهبة تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م، جـ٣ ص١٤٤- ١٤٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٠١؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص٨٢ – ٨٣

				رقم ١٣٢١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٨٤ رقم ١٣١٨؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ١١١ رقم ٣٣.
تانى بك قرا الأينالى	؟	؟	٩٠٥هـ/١٤٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٢٠، ٤٣٠.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أياس الصرغتمشى فخر الدين الحاجب	؟	؟	٧٨٥هـ/١٣٨٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٦.
جلبان الحاجب سيف الدين	؟	؟	٧٩٠هـ/١٣٨٨م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٩٤ رقم ١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣٨٢؛ ذكر ابن إياس أنه توفى عام ٧٨٨هـ/.
أيبك عز الدين الزويزانى الحاجب	؟	؟	٧٩٩هـ/١٤٩٦م	الصفدى، أعيان العصر، ص٦٤٥ رقم ٣٥٥.
محمد بن عبد الله بن بكتمر ناصر الدين بن جمال الدين الحاجب	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٩٣ رقم ٨١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٨؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص

				٦٤٣ رقم ٢٢١٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢ ص٦٧ رقم ٣٢٨.
باشاه الحاجب بمصر	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢.
نوروز بن عبد الله الخضرى حاجب حلب	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٧٦٢ رقم ٢٥٩٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٥٠ رقم ٨٧٢.
بيقجا طيفور حاجب دمشق	؟	؟	٨٠٢هـم١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٨٢.
تغرى برمش الحاجب	؟	؟	٨٠٣هـ/١٤٠٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٩٤.
ينتمر بن عبد الله المحمدى الحاجب زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٢٥ ؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٧٩٦ رقم ٢٦٨١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٩١، رقم ١١٤١.
بيدمر بن عبد الله الظاهرى الحاجب زمن السلطان برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص٤٩٩، رقم ٧٣٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٠٩ رقم ٧٣٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٢

				رقم ١٠٧.
ترمش حاجب طرابلس	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ٥٥٦.
تنكز بغا الحطي حاجب طرابلس	؟	؟	٨٠٧هـ/١٤٠٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٥.
آق سنقر بن عبد الله الأشرفى شمس الدين الحاجب زمن السلطان الأشرف برسباى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٧م	السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٨، رقم ١٠٢١.
تمراز بن عبد الظاهر، سيف الدين الحاجب المعروف بتمراز الأعور، شغل منصب الحاجب في زمن المؤيد شيخ، وفترة أخرى زمن الأشرف برسباى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٧م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص١٠٥، ١٨٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص ١٤٦ - ١٤٧ رقم ٧٩٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢٢٥ رقم ٧٨٨.
جلبان بن عبد الله العمرى الحاجب بالقاهرة ثم غزة	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٥، ص٧ رقم ٨٥٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٤٨ رقم ٨٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧٧ رقم ٣٠٠.
أبو يزيد بن عبد	؟	؟	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى،

الله الظاهـــــرى الحاجب بمصر زمن برسباى				الدليل الشافى، جـ٢، ص٨٣٦، رقم ٢٨١٦؛ السـخاوى، الضـوء اللامـع، جـ١١، ص ١٥٠ رقم ٤٩١.
الزينى قاسم بن تمرباى الحاجب	؟	؟	٨٧١هـ/١٤٦٦م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٢، ص ٤٤١.
العلاى على بن الفيسـى حاجب مصر	؟	؟	٨٧٤هـ/١٤٦٩م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ٣٧.
جانـبك الأبيض الحاجب	؟	؟	٨٧٧هـ/١٤٧٢م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ٧٩.
أبو بكر بن سنقر الجمـالى سيف الدين الحاجب	؟	؟	٨٨٣هـ/١٤٣٤م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٩٩، رقم ١٠٢؛ السـخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧٣.
أبو بكر جركسى الحاجب بمصر	؟	؟	٨٨٦هـ/١٤٨١م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ١٧٨.
تمربغا الحاجب	؟	؟	٧٨٨هـ/١٣٨٦م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٢٤٩، ٣٦٨.
تمر بن عبد الله الشـهاب سيف الدين الحاجب	؟	؟	٧٩٨هـ/١٣٩٦م	ابـن حجـر، الـدرر الكامنة، جـ٢، ص٥٣ . رقـم ١٤١٨، إنباء الغمـر، جـ١، ص ٥١٦ رقـم ١٤؛ ابـن تغـرى بردى، المنهل الصـافى، جـ١ ص ٢٢٤ رقـم ٧٨٤؛

				الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٣٤ رقم ٢٤٦.
سودون بن عبد الله المظفرى حاجب حلب زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٧٩١هـ/١٣٨٩م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص٦٨٦؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٧٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٣٨٥ رقم ١٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٨٥؛ المنهل الصافى، جـ٥، ص١٠٢ رقم ١١٢٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٢٨ رقم ١١٢٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٢٧٧ رقم ١١٦.
مغلباى دجاج حاجب دمشق	؟	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	٩١٥هـ/١٥٠٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٧١، جـ٤،ص١٥٥.
برد بك تفاح حاجب دمشق	؟	؟	٩١٩هـ/١٥١٣م	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٤٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٧١، جـ ٤، ص٣٣٨.
منكلى بغا بن عبد الله الصلاحى، محتسب القاهرة وحاجبها	؟	؟	٨٣٦هـ/١٤٣٢م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ٢، ص ٢٦٩، ٢٩٠، ٣٦٣، ٨٩٩، ٩٠٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣ ص١١، ص٣٩،

				١٣٨، ٥٠٩؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٤٥ رقم ٢٥٤٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٦٧ رقم ٧٢٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ١٧٣ رقم ٧٣١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٨٦؛ Ahmed Abd ar-Raziq, La hisba et le muhtasib en Egypte, p.162 no.113 .
خشكلدى الحاجب المعروف بنصف وجه	؟	؟	٩١٢هـ/١٥٠٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، حـ٤، ص ١٠٧.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أبو بكر سنقر زين الدين وقيل سيف الدين الحاجب الثانى زمن الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٣هـ/١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٧١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٣، ص٢٢؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٨١٦، رقم ٢٧٤٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١١، ص

				٣٦ رقم ٩٣.
إياس بن عبد الله الجلالى الحاجب الثانى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص١٦٠، رقم ٥٦٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣٢٤، رقم ١٠٥٧.
جانى بك البواب الحاجب الثانى	؟	؟	٨٤١هـ/١٤٣٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٤.
بتخاص العثمانى الحاجب الثانى في عهد السلطان خشقدم	؟	؟	٨٧٤هـ/١٤٦٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٨، ٣٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢، رقم٥.
سودون بن عبد الله السودونى الحاجب الثانى	؟	؟	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٥٥١؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ١٧٨ - ١٧٩ رقم ١١٦١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٣٧ رقم ١١٥٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧٩ رقم ١٠٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٥٦.
سنقر الحاجب الثانى بدمشق	؟	؟	٨٤٨هـ/١٤٤٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٤٥.
قُنق العِزى الحاجب الثانى	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

				ص٨٠.
قاني بك الأزدمري الحاجب الثاني	؟	؟	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٢.
محمد بن تنم عبد الرازق الحاجب الثاني	؟	؟	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٥.

رابعاً: الحاجب الصغير:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بيد مر الحاجب الصغير بمصر	؟	؟	؟	السخاوى، الضوء اللامع،جـ٣، ص٢٢.

٤-ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى

بدون تاريخ الاستقرار أو العزل أو الوفاة*

أولاً: حاجب الحجاب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أسنبغا العلاى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٩٥.
بدر الدين بكتوت الشمسى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
بيبرس أباجى الحلبى، ركن الدين حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
جركسى السودونى حاجب حجاب طرابلس ثم دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٦.
خليل بن عرام الأسكندرانى صلاح الدين حاجب الحجاب، عاصر المنصور على بن الأشرف شعبان عام ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٢٣ - ٢٢٤ رقم ١٢.

* لم تمدنا المصادر بهذه التواريخ مما يتعذر معه نسب هذه الأسماء إلى عصر سلطان مملوكى بعينه.

سودون صوفى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٩٣.
شمس الدين سنقرجا الكنجى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
قطلوتمر حاجب الحجاب	؟	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٤، ص ١٢٧ رقم ١٣٨٢؛ الوافى بالوفيات، جـ ٢٤، ص٢٦١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٢٥٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص٢١٣.
لاجين العمرى حاجب الحجاب	؟	٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٠٨٧؛ زيتر شتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٧.
قطلبك بن الجاشنكير حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢١٦.
يشبك السودونى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص١٤، ص ١٣٤.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
ألجبغا الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ق٢، ص ٥٤٩، ٥٦٢، ٦٧٠.

أسندمر الناصرى حاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٣٢.
بدر الدين الوزيرى الحاجب	؟	؟	؟	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢١١.
بكتمر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٥٦، ٤٥٩.
بكتمر العلمى حاجب الإسكندرية	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٣٢.
تكلياى حاجب دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٥١.
جلبان	؟	؟	؟	المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٥٥٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣٨٠؛ المنهل الصافى، جـ٥، ص٦، رقم ٨٥٣؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٤٨ رقم ٨٥٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ١٤٧.
جركسى الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٢ – ٧١٣.
خشقدم الأرديغاوى حاجب طرابلس	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٩.

سنقر الكمالى الأمير عز الدين الحاجب، زمن السلطان الناصر محمد	؟	٧١٢هـ/ ١٣١٢م	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ٤٨٤، ٧٥٤؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص١١٨، ١٩٥؛ العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص٢٣٣، ٢٥٨، ٣٢٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٧٣ رقم ١٩٠٣؛ زيتر شتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧ – ١٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٦٧.
سلامش حاجب غزة	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٢٢.
سودون باشاه الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٦.
شاهين بن عبد الله الأيدكارى حاجب حلب في أوائل دولة المؤيد شيخ	؟	؟	؟	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ص ٢١١ – ٢١٢، رقم ١١٧٩؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٤١ – ٣٤٢ رقم ١١٧٦.
الصارم الجرمكى الحاجب	؟	؟	؟	بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٩٨.
طيدمر الاسمعيلى	؟	؟	؟	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص

الحاجب				٣٣٤ رقم ٢٠٦٥.
قجق الحاجب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص١٢.
قراتنبك الحاجب	؟	؟	؟	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢١٦ رقم ٣٧٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص٢١٤.
محمد بن بكتمر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٣٥.
محمد بن جلبان العلاى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٢، ٧٣٢.
مظفر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٢١٠.
مُعَيقل الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٤.
موسى الهذبانى شرف الدين حاجب دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٣.
سيف الدين بهادر الحاج	؟	؟	؟	العينى، عقد الجمان، جـ٣، ص٣٤٥.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
تانى بك الأليأسى الحاجب الثانى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٤٩.

قانصوه من نفيس الحاجب الثاني بحلب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٨٣.
يعقوب شاه الحاجب الثانى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣، ١٣١.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
تمر بغا ميسرة	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٥٢٨.

٥- ثبت بمصادرات الحجاب

أولاً في العصر المملوكى الأول

اسم الحاجب	اسم السلطان	القائم بالمصادرة	حجم المصادرة	العام	المصادر
الحاج بهادر الحاجب	السلطان لاجين	شاد الدواوين	أمواله	٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م	العينى، عقد الجمان، جـ٣، ص٣٦٣-٣٦٤.
بكتمر الحسامى الحاجب	السلطان الناصر محمد ابن قلاوون	السلطان الناصر	١٠٠,٠٠٠ دينار	٧١٠هـ/ ١٣١٠م	ابن تغرى بردى، جـ٩، ص٤١.
جمال الدين بكتمر الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	١٠٠,٠٠٠ دينار	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	ابن كثير، البداية جـ١٤، ص٧٣؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق ١ ص١٤٤.
سيف الدين الماس الحاجب	السلطان الناصر محمد	شاد الدواوين وشاهد الخزانة	٢,٣٩٠,٠٠٠ درهم نقرة	٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	المقريزى، السلوك، جـ٢، ق ٢، ص٣٦٠، ابن تغرى بردى، جـ ٩، ص٣٠٢، ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٧٣ حياة الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص٤٠.
على بن مقلد الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	مال	٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٣،

					ص٣٦، ٤٥.
بكتمر الحسامى الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	اشياء نقدية وعينية	٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م	ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص١٧٤؛ ابن الوردى، تقسمة المختصر، جـ٢، ص٣٠٨.
محمد بن بكتمر الحاجب	المظفر حاجى بن محمد	شاد الدواوين وأمير سلاح	أمواله ومنزله وخيوله	٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م	المقريزى،السلوك، جـ٢ ق٣ ص ٧٣٠، ابن تغرى بردى، جـ١٠، ص١٦٠.
علاء الدين على بن كلفت الحاجب	السلطان الأشرف شعبان بن حسين	السلطان	أمواله	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص٢١٥، ٢١٦؛ ابن تغرى بردى، جـ١١، ص٦٠ – ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص١٢٠ – ١٢١.
سلطان شاه بن قراجا الحاجب الثانى	السلطان الأشرف شعبان بن حسين	السلطان	أمواله	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ٢، ص١٠٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦٠ – ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور،

حاجب طرابلس	ابن برقوق			١٤٠٤م	بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٣ – ٧١٤.
كزل العجمى الحاجب	الناصر فرج ابن برقوق	السلطان	٢٠٠,٠٠٠ درهم	٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م	المقريزى، السلوك جـ٤، ق١، ص٤٣٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٤٥٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦٠.
آقبغا شيطان والى القاهرة ومحتسبها وحاجبها	المؤيد شيخ المحمودى	الاستادار فخر الدين	أموال	٨٢١هـ/ ١٤١٨م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٤٤١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٧

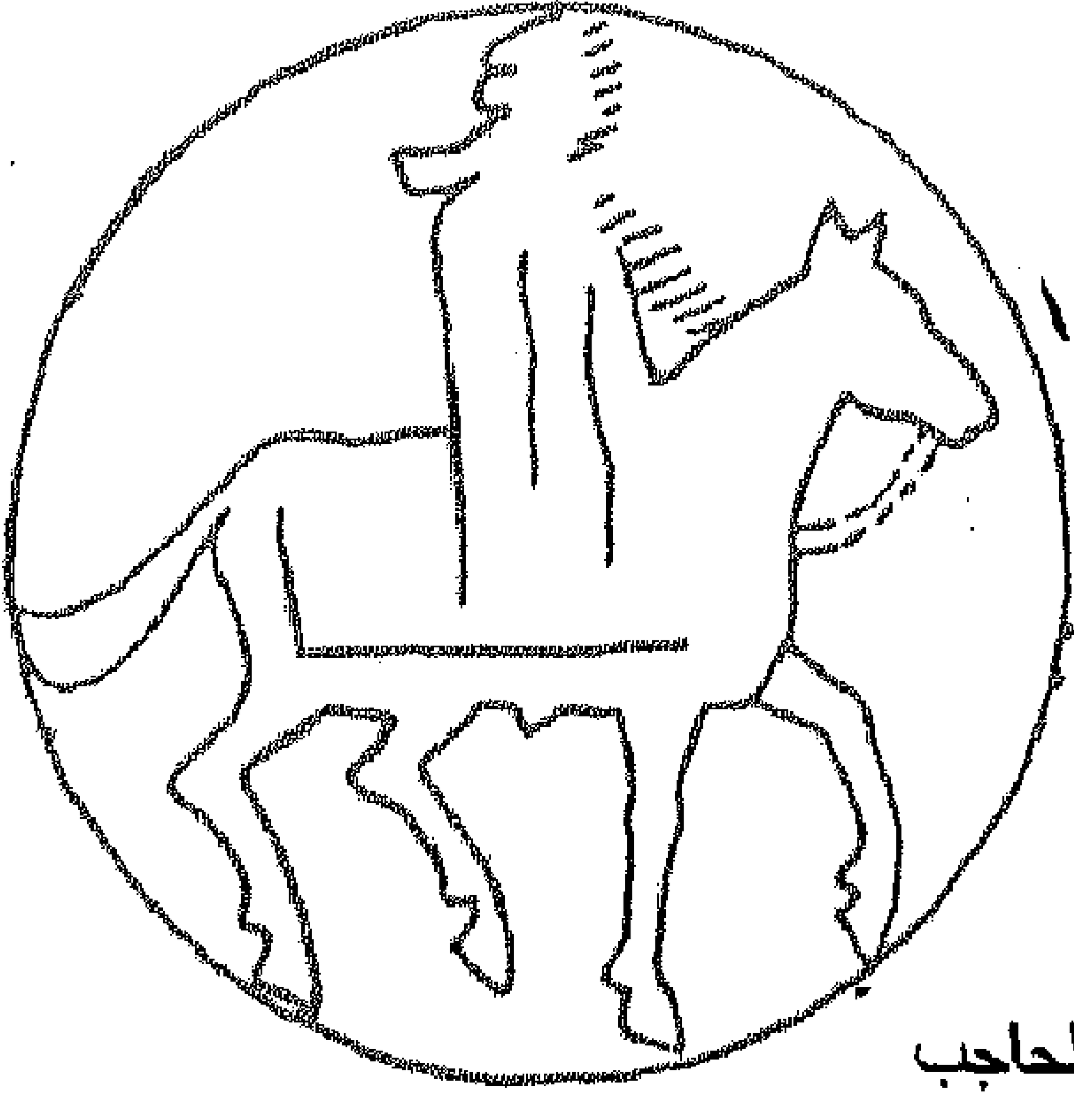
					جـ١ ق٢، ص ١٢٠ – ١٢٢.
عبد الله بن بكتمر الحاجب	المنصور على بن شعبان	؟	١٠,٠٠٠ دينار	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص٣٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص٢٣٣.

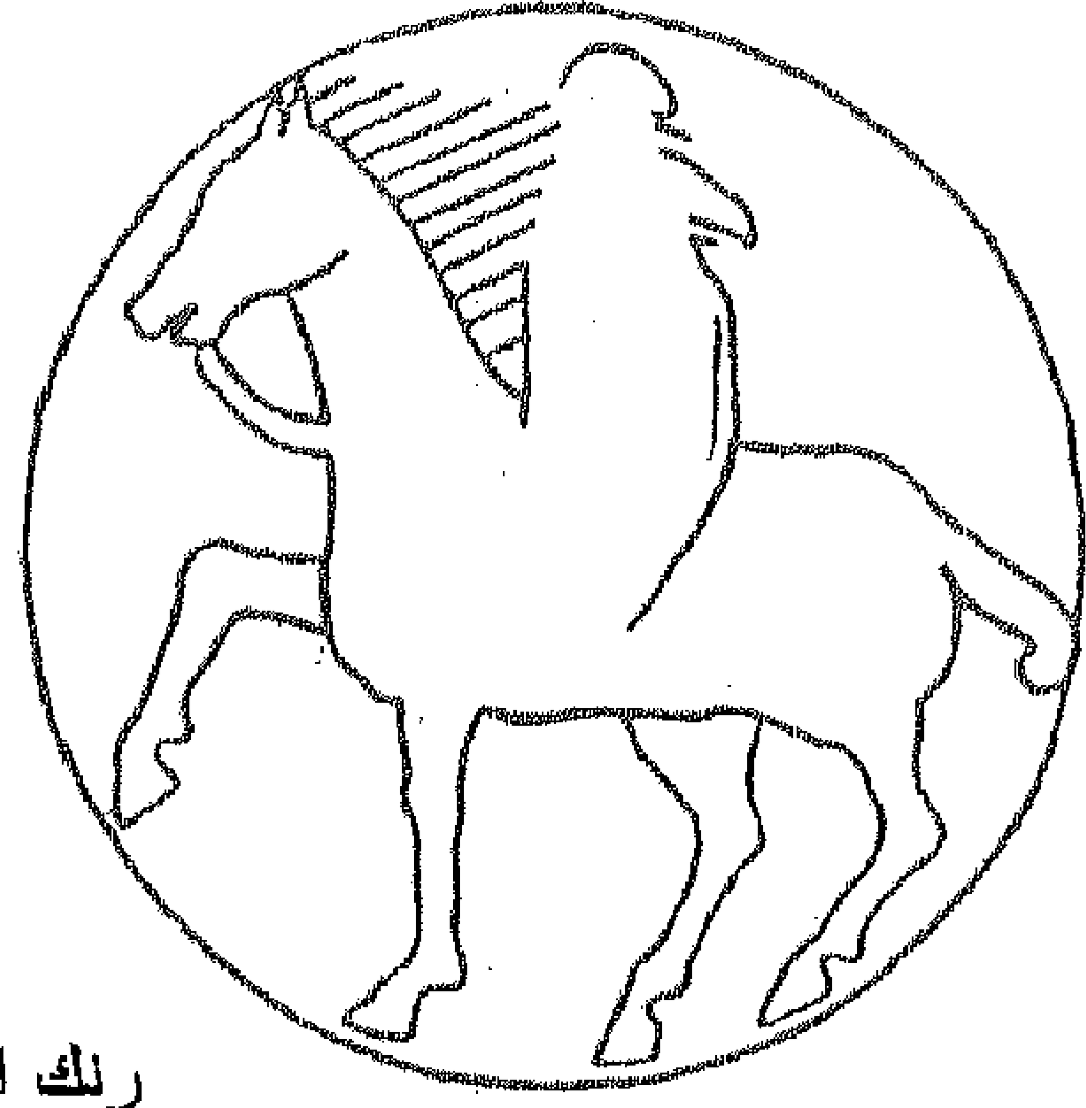
٦- ثبت بمصادرات الحجاب
ثانياً في العصر المملوكى الثانى

اسم الحاجب	اسم السلطان	القائم بالمصادرة	حجم المصادرة	العام	المصادر
محمد بن بكتمر الحاجب	الظاهر برقوق	؟	٢٠٠,٠٠٠ درهم	٧٩٤هـ/ ١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥.
عبد الرازق ابن أبى الفرج الحاجب	السلطان الناصر فرج ابن برقوق	السلطان	١٠٠,٠٠٠ دينار	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ١٠٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور،جـ١ ق٢، ص٦٢٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٩١.
تنكز بغا	الناصر فرج	نائب طرابلس	أمواله	٨٠٧هـ/	ابن إياس،

الأشكال

شكل رقم ١

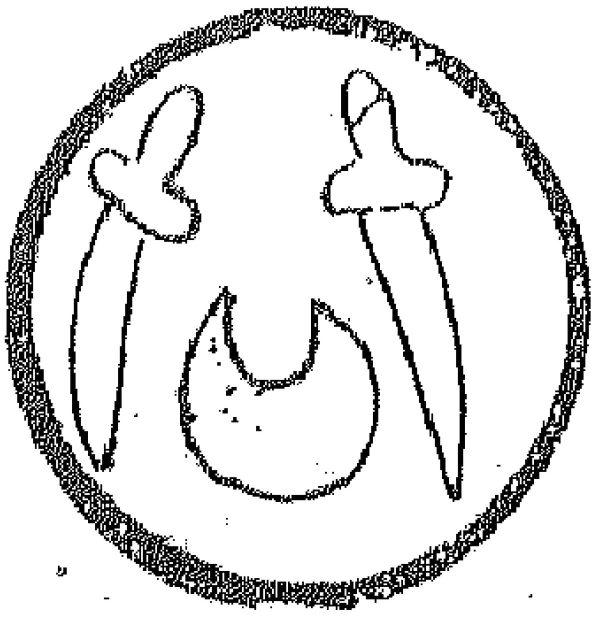


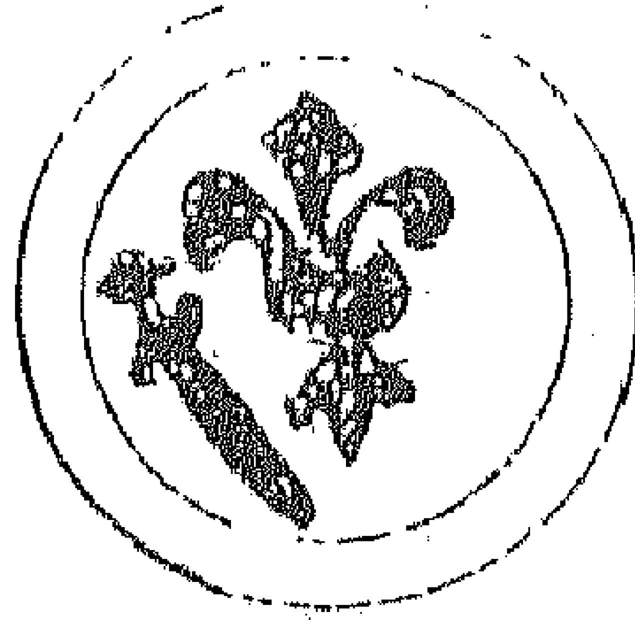


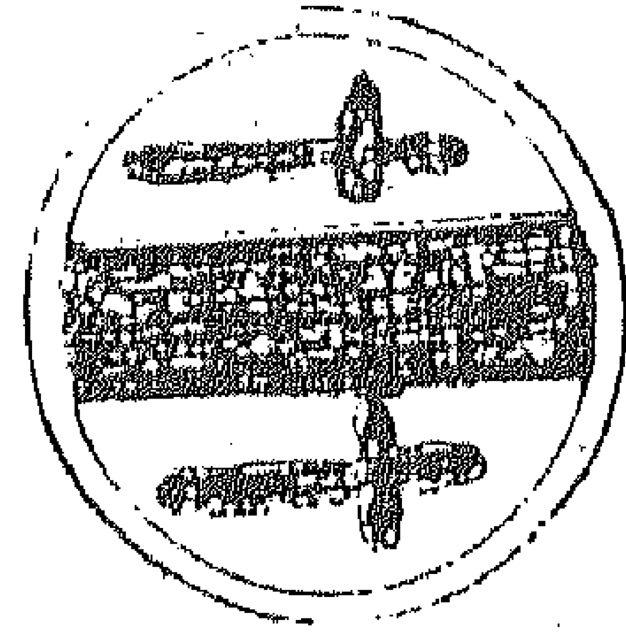
رنك الحصان شعار الحاجب

نقلا عن Ernst Herzfeld, Materiaux, p. 346

شكل رقم ٢







نماذج من رنوك السيف

نقلا عن احمد عبد الرازق، الرنوك، ص ١٠١.

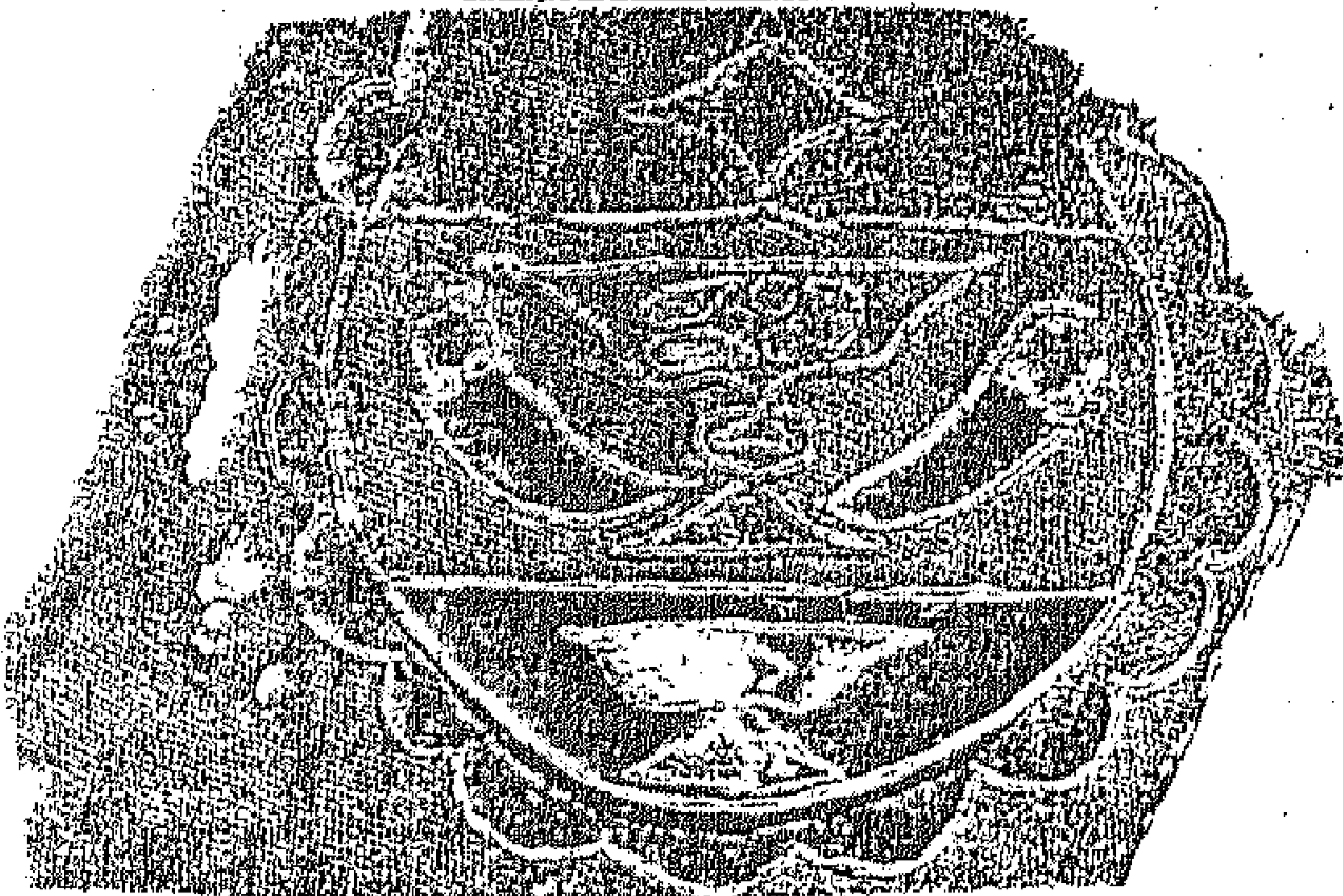
شكل رقم ٣



رنك البقجة المقطوعة بالسيف

نقلا عن Mayer, Saracenic Heraldy, Pl. Lxviii

شكل رقم ٤



رنك الحاجب قانصوه الغوري

نقلا عن Esin Atil, Art of the Mamluks, p. 241.

شكل رقم ٥



مشكاة الأمير ألماس الحاجب

نقلا عن .Wiet, Lampes, catalogue général, Fig. 3154

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المخطوطة:

- الخـــالدى (بهاء الدين محمد بن لطف ت ٩٣٧هـ/١٥٣٠م)، المقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الانشا، مخطوط مصور بجامعة، القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥.

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة:

- ابـــن إياس (محمد بن أحمد بن إياس المصرى)، بدائع الزهور في وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر، طبعة محمد مصطفى، ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
  - فهارس بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ابـــن إيـــبك الدوادار أبو بكر عبد الله بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر (وهو الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر) تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابـــن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، منتخبات من حـــوادث الدهـــور فـــي مـــدى الأيـــام والشهور، ٤ أجزاء نشره وليم بوبر، كاليفورنيا، ١٩٣٠م.
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـــ١٢، جـــ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت، جـــ١٤ تحقيق جمال محمد محـــرز، فهـــم شـــلتوت القاهرة ١٩٧١م، جـــ١٥ تحقيق إبراهيم طرخان ١٩٧١م، جـــ١٦ تحقيق جمال الشيال، فهيم شلتوت، القاهرة، ١٩٧٢م
  - المـــنهل الصـــافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، ونبيل عبد العزيز، القاهرة، ١٩٨٥ – ١٩٩٤.
  - الدليل الشافى على المنهل الصافى، تحقيق محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٩م.
- ابـــن حبيـــب (الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيـــام المنصور وبنيه جـــ١، جـــ٢، جـــ٣، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سـعيد عـــبد الفتاح عاشور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ١٩٨٢، ١٩٨٦م.

- ابــن حجــر (الحــافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٠٢هـــ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أجزاء، نشره محمد سيد جاد الحق، ط٢، القاهرة ١٩٦٦م.
-أنباء الغمر بأنباء العُمر، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٩ – ١٩٧٢م.
-رفــع الإصــر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، محمد أبو سنة، جزءان، القاهرة ١٩٥٧م.
-ذيل الدرر الكامنة، تحقيق عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـــ/١٤٠٥م)، المقدمة ط٥، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابــن شــاكر الكتبيى (محمد بن شاكر أحمد الكتيبى ت ٧١٤هـــ/١٣١٤م)، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥١م.
-عيون التواريخ، تحقيق حسام الدين القدسى، القاهرة ١٩٨٠م.
- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩١.
- ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسبان ١٩٨٣م.
- ابــن الصيرفى (علىَ بن داود إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهرى، ت ٩٠٠هـــ/١٤٩٥ م)نــزهة الــنفوس والأبــدان فــي تواريخ الزمان الأجزاء من ١-٣ تحقيق حسن حبشى، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ – ١٩٧١ – ١٩٧٣م.
-إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريتر، كاليفورنيا ١٩٦٣م.
- ابن طولون (شمس الدين محمد بن على بن طولون الدمشقى ت ٩٥٣هـــ/١٥٤٦م)، اعلام الــورى بمــن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى أو تاريخ الشام من قــيام دولــة المماليك في مصر إلى صدر العهد العثمانى، تحقيق عبد العظيم حامد، القاهرة، ١٩٧٣م.
ابــن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلس)، العقد الفريد تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٣م.
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩ – ١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.

- ابـــن الفــرات (ناصــر الديــن محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هــ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، جــ٧، ٩ اربع مجلدات، نشرة قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.
- ابـــن قـــاض شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر ت ٨٥١هــ/١٤٤٧م)، تاريخ ابن قاض شهبة م١ جــ٣ تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤هــ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابـــن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت ٧١١هــ/١٣١١م)، لسان العرب طبعة، بولاق، ١٣٠١هــ، وطبعة بيروت، ١٩٢٦.
- أبـــو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هــ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية بدون تاريخ.
- ابـــن الـــوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠هــ/ ١٣٤٩م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٨٦٨م.
- الأبشـــيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح ت ٨٥٠هــ/١٤٤٦م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة لبنان ١٩٨٣م.
- البيهقى، تاريخ البيهقى، ترجمة إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٥٦ م.
- بيـــبرس المنصـــورى (ابن عبد الله الدوادارى ت ٧٢٥هــ/١٣٢٤م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح، بيروت، ١٩٨٧.
-زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، د.ت.
- الدمـــيرى (كمـــال الديـــن محمد بن عيسى الدميرى ت ٨٠٨هــ/١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، ١٣١٣هــ/١٨٩٥م.
- الـــراوندى محمـــد بـــن علـــى بن سليمان؟، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة الســلجوقية نقلـــه إلـــى العربـــية إبراهيم الشواربى، عبد النعيم حسنين، فؤاد الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.
- زيترشتين ، تاريخ سلاطين المماليك، نشرة Zettersteen K.V ، ليدن، ١٩١٩م.
- السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هــ/١٣٦٩م)، معيد النجم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شلبى ط١، القاهرة، ١٩٤٨م.

- السـخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، طبعة بولاق، ١٨٩٦.
-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٢ جزء في ١٢ مجلد، القاهرة،١٣٥٣هـ
- السـيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط١، بيروت ١٩٩٧م.
- شافع (شافع بن على الكاتب العسقلاني المصرى ٦٤٩ - ٧٣٠هـ)، كتاب الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور، بيروت، ١٩٩٨م.
- الشـجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فسبادن، ١٩٧٨م.
- الصـفدى (صـلاح الدين خليل ابن إيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافى بالوفيات، فيسبادن، ١٩٧٠م.
- أعـيان العصـر وأعـوان النصر، تحقيق على أبو زيد، نبيل أبو عمشة، بيروت ١٩٩٧م.
- الفهارس العامة،أعداد قسم الدراسات والبحوث،دار الفكر،دمشق، ١٩٩٨م.
- نكت الهيمان في نكت العميان، القاهرة، ١٩٩١م.
- الصـيرفى (أبـى القاسم على بن منجب بن سليمان)، قانون ديوان الرسائل ط(١)، القاهرة ١٩٠٥م.
- الطبرى (أبو جعفر بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تفسير الطبرى، جامع البيان عن تأويل القـرآن، طـبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ ، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ.
- العمـرى (شـهاب الدين بن فضل الله العمرى ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت، ١٩٨٨م.
- مسـالك الأبصـار فـي ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م.
- العيـنى (بدر الدين محمود العينى ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي" تحقيق فهيم شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٧م.

- عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، الحوادث من ٦٤٨ إلى ٦٦٤هـ تحقيق محمد محمد أمين، هيئة الكتاب ١٩٨٧م، حوادث ٦٨٩ – ٦٩٨هـ تحقيق محمـد محمد أمين ١٩٨٩م، الحوادث من ٨١٥هـ إلى ٨٢٤هـ/ تحقيق عبد الرازق طنطاوى، ط١، ١٩٨٥م.
- الفيروز آبادى، القاموس المحيط، القاهرة، ١٩٧٧م.
- الفـيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى) ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ، كتاب المصبح المنير، ط٦، القاهرة ١٩٢٦م.
- القرآن الكريم.
- القطـب اليونيـنى (قطب الدين أبو الفتح بن محمد أحمد بن قطب الدين اليونينى الحنبلى ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان م١ ط١، الهند، ١٩٥٤م.
- القلقشـندى ،شـهاب الديـن أحمد بن على القلقشندى ت سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤ أجزاء، طبعة دار الكتب ابتداء من عام ١٩١٣
- ضـوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، تصحيح محمود سلامة، ط١، القاهرة، ١٩٠٦م.
- المقريـزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لبنان، ١٩٥٩م.
- السـلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى، جـ١ جـ٢ في ستة أقسـام ونشـره سعيد عاشور، جـ٣ جـ٤ في ستة أقسام أخرى عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ١٩٧٣م.
- إغاثـة الأمـة بكشـف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م.
- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، نهاية الأرب فـي فنون الأدب، جـ٣ تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٩٠م، جـ٣١ تحقيق الباز العرينى، القاهرة ١٩٩٢م.

ثالثاً: المراجع العربية:

- إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٢م.
- إبراهيم طرخان ، مصر في دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م.
- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى،القاهرة ١٩٦٨م.

- أحمد عبد الرازق أحمد، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية، المصرية، م٢١، ١٩٧٤م.
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩م.
- شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م.
- الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الرنوك الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- أحمد فكرى، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
- إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية، ٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م رسالة ماجستير، غير منشورة جامعة عين شمس كلية الآداب ١٩٨٨م.
- البيومى إسماعيل الشربينى، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١١٠، ١٩٩٧م.
- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٨ القاهرة، ١٩٩٨م.
- جمال جرجس يوسف ، القضاء في العصر المملوكي مع تحقيق مخطوطة نزهة النظار في قضاة الأمصار، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٢م.
- جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٨م.
- حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ط١، القاهرة، ١٩٣٩م.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م.
- موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م٢، ط١، القاهرة، ١٩٩٩م.
- حسين مصطفى رمضان ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٨٧م.
- حياة ناصر الحجى ، أحوال العامة في حكم المماليك دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط١، الكويت ١٩٨٤م.

- دراســات فــي تــاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، ط١، الكويت، ١٩٨٦م.
- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك فى القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٩٥م.
- السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية، من سنة ٦٦١هــ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هــ/ ١٣٨٢، الكويت، ١٩٩٧م.
- دليل متحف الفن الإسلامي، دار الآثار العربية سابقاً، القاهرة، ١٩٥٢م.
- زكى محمد حسن، فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٠م.
- سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، ١٩٨٣م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩م.
  - الظاهر بيبرس، أعلام العرب العدد ١٤، القاهرة ١٩٦٣م.
  - المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٥م.
  - العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ســند أحمــد سند، البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٠.
- علــى إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة، ١٩٤٤م.
  - الجيش والبحرية في عصر سلاطين المماليك القاهرة، بدون تاريخ.
- عبد الخالق حسين محمد ، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة كلية دار العلوم ١٩٨١م.
- عبد العظم حامد خطاب ، قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م.
- عــبد المــنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، القاهرة، ١٩٨٢م.
- فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة ١٩٥١م.
- قتيبة الشهابى ، معجم أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدى حتى بدايات القرن العشرين، دمشق ١٩٩٥م.

- ليلى عبد الجواد ، نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية، مجلة المؤرخ المصرى، القاهرة، العدد ١، يناير ١٩٨٨م.
- مايسة محمود محمد داود ، المشكاوات الزجاجية في العصر المملوكى رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، القاهرة، ١٩٧١م.
- ماير (ل.م)، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م.
- محاسن محمد على حسين الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٥٢، القاهرة، ١٩٩٩م.
  - الألقاب والكنى الشعبية الساخرة عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣ – ١٢٥٠ – ١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط جامعة عين شمس، م٢، ٢٠٠٢م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز ط١، ١٩٨٠م.
- محمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، دمشق، ١٩٨١م.
- محمد التونجى ، المعجم الذهبى، بيروت، ١٩٦٩م.
- محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، ١٩٦٠م.
- محمد عبد الغنى الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩م.
- محمد مصطفى ، متحف الفن الإسلامى، ط١، القاهرة، ١٩٥٤م.
  - الرنوك في عصر المماليك، مجلة الرسالة، العدد ٤٠٠ مارس ١٩٤١م.
- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القاهرة، ١٩٤٧م.
- محمود نديم ، الجيش في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٣م.
  - الفن الحربى للجيش المصرى في العصر المملوكى البحرى، القاهرة، ١٩٨٢م.

رابعا المراجع الأجنبية:

- Abd ar-Rāziq, A., "La hisba et le muhtasib en Egypt au temps des Mamluks", *Annales Islamologiques*, XIII, Le Caire, 1977, pp.115 – 178.

- Abd ar-Rāziq, A., "Les muhtasibs de Fastat au temps des Mamluks, "*Annales Islamologiques*, le Caire, 1978, pp. 127 – 146.
- Artin, Y, "Toris différentes armoiries de kait Bey", BIE, 2e série, no9, 1888, le caire, 1889.
- Artin, Y, Contribution à l'étude de blazon en Orient, London, 1902.
- Ayalon, D., "The Great Yâssa of Chingiz Khân," SI, XXXVI, 1972.
- Ayalon, D., "Studies in the Structure of Mamluk Army", BSOAS, 1954.
- Dozy, R, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdan,1845.
- Dozy, R, Supplément aux dictionnaires arabes, I – II, Leiden, 1881.
- The Encyclopaedia of Islam, art HADJIB, vol III, Leiden, 1986, pp.45-47.
- Ernst. Herzfeld, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum. deuxiéme partie : syrie du nord inscriptions et monuments d'Alep. tome 1 – vol – 1 (texte), le Caire, 1955.
- Esin Atil, Art of the Arab World, Washington, 1975.
- Esin Atil , Renaissance of Islamic Art of the Mamluks, Washington, D.C.,1981.
- Ēt Combe, J. Sauvaget et G. Wiet (eds), Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, le Caire, tome 13, 1944, tome 15, 1956.
- Gayet, AL., L'art arabe, Paris, 1893.
- Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A. H. 564 – 741/A.D.1169 – 1941, London, 1972.
- Hayat Nasser AL – Hajji, The internal affairs in Egypt During The Third Reign of sultan AL – Nāsir Muhammad B.Qàlawūn, 709 – 741/1309 – 1341, Third Edition, Kuwait, 2000.
- Hiba 'Ali Yūsuf, L'eclairage à l'époque Mamlùke en Egypt, Paris, 2001.
- Lamm, C. J., Mittelaterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen osten, Band / text, Berlin, 1930.
- Lane – Poole, The Art of the Saracens in Egypt, Librairie byblos Arts et Métiers Beirut, 1886.
- Northrup, L., From Slave to Sultan the Career of AL – Mansùr Qālawùn and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria (678 – 689 A.H./1279 – 1290 A.D.) Germany 1998.

- Mayer, L. A., Saracenic Heraldry, A Survey, Oxford, 1933.
- Max. Herz, B., Catalogue Raisouné des monuments exposés dans le musée national de l'art arabe, Le Caire, 1906.
- Meinecke, M., Die mamlukische Architektur in Ägypten und syrien, 648 /1250 Bis 923 / 1517, Glückstadt, 1992.
- Quatremére. M., Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, Paris, 1844 – 1845.
- Poliak, A. N., Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250 – 1900, London, 1939.
- Irwin, R., The Middle East in the Middle ages the Early Mamluk sultanate 1250 – 1382. London, 1986.
- Sauvaget, J, Caravanseŕails syriens du moyen âge, II.Caravausérails Mamelouks, Ars Islamica.
- Schmoranz. G., Old Oriental Gilt and Enameled Glass. Vessels Extant in public Museums and private collections Reproduced in their original coloring, London, 1899.
- Van Berchem, M., Matériaux pour un corpus inscriptonum arabicarum deuxiéme partie, Syrie du nord in Scriptionset monuments.
- Wiet, G., Catalogue général du musée arabe du Caire lampes et bouteilles en verre émaillé, Le Caire, 1982.
- Wiet, G., Catalogue Général du musée arabe du Caire objets en cuivre, Le Caire, 1932.
- William Leaf, Developments in the System of Armorial Insignia during the Ayyūbid and Mamluk Periods, London, 1983.
- Zaky M. Hassan, Les Tulunides, Paris, 1933.

أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنين ١٢-١٣م/ ٦ - ٧هـ

د. محمد مؤنس عوض*

مصـــر

إن البحث في إشكالية عصر تاريخى ما؛ من شأنها تعميق دراسة ذلك العصر، ومن المقرر أنه لا يوجد عصر ما من عصور التاريخ دون أن توجد فى ثناياه إشكاليته الخاصة به النـــابعة مـــن ظـــروفه ذاتهـــا، وأود التقرير بأن عصر الحروب الصليبية التى شنها الغرب الكاثولـــيكي على مسلمى بلاد الشام وأعالى العراق ومصر وشمالى أفريقيا على مدى القرنين المذكوريـــن، يوصـــف وبحق بأنه عصر معقد في تركيبته السياسية، والاقتصادية، والدينية، والعرقية إلى آخر تلك المفردات بحيث يمكن القول أنه العصر "الأنموذج" فى إشكاليات الكتابة التاريخـــية؛ فقد شهد الصدام العنيف – على كافة الأصعدة والمستويات – بين حضارة الغرب الأوربـــى وحضارة الشرق الإسلامى، وتعددت الشعوب، والأقوام، والأعراق التى دخلت فى آتون ذلك الصراع، وبالفعل كان صراعاً عالمياً فى تلك المرحلة من مراحل القرون الوسطى، وطـــوال تلـــك القـــرون لم يحدث أن شهد العالم صداماً عنيفاً بمثل تلك الصورة ودفع مئات الآلاف حـــياتهم دفاعاً عن معتقداتهم سواء كانوا على صواب أم على باطل، كذلك تصارعت المـــثل والمبادىء السامية مع الدوافع المادية الدنيوية، وبمرور الأعوام والعقود سقطت أقنعة الرهـــبان وتـــم إدراك أن المصـــالح الاقتصادية كان لها القدح المعلى فى العديد من المواقف الحاسمة من تاريخ ذلك الصراع.

زد علـــى ذلك؛ أن رقعة الصراع جغرافياً اتسعت بصورة غير مسبوقة ومن الممكن وصفه فى بعض مراحله بأنه صراع بحر متوسطى بين غربى ذلك البحر وشرقه، واستهدف فيما استهدف لتينة الشرق وتنصيره وسلب ونهب ثرواته بالصورة التى جعلت المؤرخ البارز يوشع براور يصفه بأنه حركة الاستعمار – أى الاستخراب – الأوربى في العصور الوسطى وفـــيما بعد خرج المشروع الصليبى عن نطاق البحر المذكور ليشمل مناطق في داخل القارة الأوربية ذاتها ومنها ما كان يطل على بحر البلطيق.

ومـــن الســـمات الـــبارزة لذلـــك العصر الذى عرف بعصر الحروب الصليبية، أن مســـمياته تناقضـــت مع واقعة بصورة حادة؛ فالبابوية التى عُدت مؤسسة دينية صرفة، لعبت الأدوار السياسية الكاملة، ومارست العمل فى دهاليزها وتجردت من المبادىء أحياناً من أجل تحقـــيق أهدافهـــا بميكيافيلية نادرة، على نحو يثبت أن المشروع الصليبى ذاته يعد – وبحق–

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية الآداب– جامعة عين شمس.

لعــبة سياســية كــبرى هندست لها البابوية، ووضعتها موضع التنفيذ، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الأوربى الوسيط، وعلاقاته بالشرق.

تلــك مقدمـــة موجزة، من أجل تهيئة القارئ للموضوع الأساسى الخاص بإشكالية دراســة تــاريخ الحــروب الصليبية، وفى واقع الأمر أن هناك جملة زوايا يمكن إجمالها فى الآتى:

أولاً: الرؤية الرسمية للمصادر التاريخية المعاصرة:

فمــن المعــروف؛ أن المؤرخيــن الذيــن عاصروا أحداث تلك الحروب سواءً من المســلمين أو الصليبيين أو البيزنطيين كتبوا كتاباتهم التاريخية وهم فى كنف السلطة السياسية القائمة، فالكتابة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر توصف بالفعل أنها تابعة للسلطة، وأمتزجــت فيها الدعائية جنباً إلى جنب مع الحقائق التاريخية، وبالتالى فإننا نملك بالفعل مادة تاريخــية مهمة عن الحروب الصليبية، ولكن من وجهة النظر الرسمية. وواقع الأمر؛ أن تلك المشــكلة لا ترتبط بذلك العصر فقط بل بعصور تاريخية متعددة قديماً ووسيطاً – بصفة عامة – وبدرجـــة أقل حديثاً، وهى تحمل فى طياتها جوانب إيجابية وسلبية معاً؛ فالمؤرخ الذى أفاد مـــن الوثـــائق الرســـمية، وعاصر القادة الذين صنعوا الأحداث له أهمية كبرى لأنه بدونه ما وصـــلت إليـــنا تلك المادة التاريخية المصدرية. بيد أن هناك جوانب سلبية أخرى، إذ أن ذلك المـــؤرخ اتجه أحياناً إلى الدعاية السياسية لأرباب السلطة من الملوك والأباطرة، والسلاطين، والأمراء. ومن الصعب فى ذك العصر الفصل بين "الدعاية السياسية"، و"الكتابة التاريخية" إذ أن هناك مؤلفات متعددة وصلت إلينا احتوت الزاويتين بجلاء لا ينكر.

وخـــير مثال دال على "الدعائية" فى ذلك العصر ما ألفه المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير[1] الذى ألفه كتابه "الباهر" وخصصه لتناول دولة أتابكة الموصل الزنكيين، وفيه يتأكد لنا أن ارتــباطه بــتلك الأسرة؛ جعله بوقاً دعائياً لها، وذلك على الرغم من إدراكنا للدور البارز الـــذى لعبته الموصل، وتلك الأسرة فى جهاد الصليبيين، وتوجيه ضربة قاضية لأولى إمارات الصـــليبيين فـــي المنطقة ونعنى بها الرها Edessa عام ١١٤٤م بالإضافة إلى إسهامات نور الديـــن محمود ودوره فى ضم دمشق عام ١١٥٤م، وإسقاط الدولة الفاطمية فى عام ١١٧١م/ ٥٦٧هـــ.

ولا نغفـــل زاوية محورية هنا، تتمثل فى أن المعاصرة حجاب، فالمؤرخ المعاصر، علـــى الرغم من علو شأنه كما أسلفت، عندما اقترب من القادة البارزين الكبار خاصة أولئك

---

[1] أود أن ألفــت نظـــر الباحثين إلى أن الباحثة العراقية ميسون عبايجى تقوم بإعداد أطروحة علمية عن ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية، وذلك من جانب مركز دراسات الموصل التابع لجامعة الموصل بالعراق الشقيق تحت إشراف أ.د. جزيل عبد الجبار الجومرد.

الذين كانت لهم شخصية مؤثرة فى الآخرين وتوصف بالفعل بأنها "كارزمية"[2] انبهر بهم، ولم ير فيهم إلا ما أحب هو نفسه أن يراه، وتلك زاوية لا علاج لها؛ لأن المؤرخ المتأخر نقل عن المعاصر، وأفادت الرؤية جيلاً بعد آخر حتى وصلت إلى المؤرخ المحدث على طبيعتها تلك.

وأصـــدق دلـــيل علـــى ذلك؛ أن مؤرخ الصليبيين البارز وأعنى به وليم الصورى[3] Wiliam of Tyre فى كتابه عن تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر A history of the deeds done beyond the sea، وجه نقده لسياسات الصليبيين فيما قبل الملك عمورى الأول (١١٦٣- ١١٧٤م)، أمـــا فى عهد الملك المذكور فقد اتسمت كتاباته بالوقوع في نطاق "الكاريـــزما" أو المحبوبية أو التأثيرية التى كانت لذلك الملك الصليبى البارز، ولا ريب فى أن إعجـــاب وليم الصورى بالملك عمورى ساعد على توجيه منظوره التاريخى خاصة من خلال إعجابه بحملاته العسكرية التى استهدفت الجار الفاطمى الذى كان يعانى من الانهيار الداخلى، واعتبر رجل المنطقة المريض في القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

ومـــن ناحـــية آخرى؛ نلاحظ أنه كنتيجة للجانب الرسمى فى الكتابة التاريخية صار لديـــنا تـــاريخ للحكام ولا نملك تاريخاً للشعوب فالمؤرخون الذين انتموا إلى شرائح اجتماعية عالـــية المستوى منهم من نظر إلى العامة نظرة احتقار ودونية بصورة انعكست على كتاباته ذاتها، وهكذا؛ تتأكد لنا المقولة التى تذهب إلى أن "التاريخ تصنعه الشعوب وينسبه المؤرخون إلـــى الحكـــام"، وذلك على الرغم من أن تلك الشعوب أفرزت قادتها وحكامها، كما أنها دفعت الثمـــن غالياً فى مواجهة ما حل بها من عدوان سافر من جانب قوى استعمارية أجنبية طامعة فى خياراتها، واصدق مثال دال على ذلك الشعوب الإسلامية ذاتها، التى لا نملك – فى الغالب الأعـــم – تاريخاً فى ذلك العصر بل نملك تاريخاً لحكامها أنفسهم، ولاريب فى أن المؤرخين الرســـميين يـــتحملون جانـــباً بـــارزاً مـــن تلك المسئولية، ونخلص من كل ذلك إلى أن حجم "الرسمية" يطغى بجلاء على "الشعبية" فى تاريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغـــرب فى القرون الوسطى، وقد يرد البعض بأن الف ليلة وليلة بها بعض من أصداء تلك الحـــروب، غير أن ذلك محدود لا يتفق كماً وكيفاً مع تلك الأحداث الصاخبة التى أكتويت بها

---

[2] عن تلك الزاوية أنظر ما ورد بشأنها في كتابي: الحروب الصليبية من قضايا السياسية والمياه والحياه والعقيدة ط. القاهرة ٢٠٠١م.

[3] عن وليم الصورى انظر:

Krey, "William of Tyre the making ofAn Historian in the middle Ages", Speculum, vol. Xvi, 1941, pp. 149-166.

Davis, "William of Tyre", in Relations between East and West in the Middle Ages, ed. Derck, Edinburgh 1971, pp. 64 – 75.

Vissey, "William of Tyre and the art of Historiography", M.S., vol. XXXV, 1973, pp. 433-455.

Crawford, "William of Tyre and the Maronites", Speculum, vol. XXX, 1955, pp. 222-228.

Edbury and Rowe, "William of Tyre and the patriarchal election of 1180", E.H.R., vol. XCLL, 1979, pp. 1-25.

شـــعوب المنطقة. ونفس الأمر ينطبق على شعوب الغرب الأوربى ذاتها فتغيب الدور الشعبى قضية شرقية وغربية على حد سواء ولم تكن زاوية شرقية فقط.

مـــع ملاحظـــة وجود استثناء فى صورة ما يعرف بالساجا Saga وهى عبارة عن الملاحـــم النـــثرية النرويجـــية وهى خاصة بتاريخ النرويج فى أقصى شمال غربى أوربا وقد ارتبطت ببطولة قادة النرويج فى العصور الوسطى، ومن أمثلتها تلك الخاصة بالملك سيجورد Sigurd الذى قام بحملة صليبية إلى بلاد الشام خلال المرحلة من ١١٠٧- ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـ[4].

ومع ذلك، فإن الساجا تعد مصدراً تاريخياً خاصاً بتلك الدولة ولا تتعداها إلى مناطق أخـــرى، أمـــا بالنســـبة للـــدول الأخرى خاصة انجلترا وفرنسا وألمانيا فهى تعانى فى عصر الصليبيات من نفس تلك المشكلة.

ثانياً: اتجاهات المؤرخين المذهبية وأثرها على الكتابة التاريخية:

مـــن الملاحـــظ؛ أن المـــيول الذهبية لمؤرخى تلك الأحداث أثرت تأثيراً بارزاً على كـــتاباتهم التاريخـــية، وفـــى هـــذا المجال؛ نلاحظ بجلاء أننا لا نملك تصوراً تاريخياً للدولة الفاطمية من زاوية شيعية صرفة بل من خلال وجهة النظر السنية المعادية لمؤرخين ارتبطوا بالعصرين الأيوبى والمملوكى، ونفس الأمر يمكن أن يقال بالنسبة للفرق والقوى الدينية التى وجدت فى بلاد الشام فى ذلك العصر سواءً بالنسبة للدروز أو الإسماعيلية النزارية[5]، لقد كان عداء المؤرخين السنيين لتلك القوى شديداً ووصفوهم بالتالى بأوصاف بالغة السوء، وضاعت عن عمد أو من خلال أحداث الصراع الحربى بين المسلمين والصليبيين آية كتابات تعبر عن وجهـــة نظـــرهم إلا مـــا ندر فى صورة شذرات هنا وهناك. وأورد التقرير؛ أن تلك الآراء أوردهـــا على الرغم من الدور السيئ الذى قامت به عناصر الإسماعيلية النزارية فى اغتيال قادة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين حينذاك مثل شرف مودود وغيره من كبار القادة.

وعلـــى الـــرغم من أن لدينا قدراً من المصادر الشيعية فى صورة المؤرخ الشيعى الحلـــبى ابـــن أبى طىء[6] الذى وصلت إلينا بعض النقول من مؤلفاته فى صورة ما أورده أبو

---

[4] عن الساجا انظر:

The Oxford reference dictionary, London 1962, p.726, Wright, the Geographical lore in the time of the Crusades, New york 1965, p.346, the Oxford English dictionary, vol. Lx, Oxford 1973, p.82, Dictionary of the Middle Ages, Newyork 1989, p.616.

ولنظـــر هذه الدراسة: محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية الملك سيجورد ودوره في دعم الحركة الصليبية (١١٠٧ – ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـ)"، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٧ – ص٦٠.

[5] عن ذلك انظر:محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية المسيحية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس.م ١٩٨١م، ص١٩٧ – ٣٤٣.

[6] تقـــوم الباحـــثة شـــيرين شلبى عشماوى المدرسة المساعدة بكلية البنات – جامعة عين شمس بإعداد أطروحة علمية عن المؤرخ ابن أبى طىء بأشراف المؤرخة الرائدة أ.د. سيدة إسماعيل كاشف.

شـامة المقدسي (ت١٢٦٧م/ ١٢٦٧م) وابن الفرات (ت ١٤٠٥م/ ١٤٠٥م)، إلا أن هذا القدر محدود.

وعلـى الجانب الآخر؛ لدينا رؤية البابوية واضحة، بينما لا نملك رؤية الوالدنسيين والكتاريين الذين عارضوا المؤسسة الدينية الأوربية في ذلك العصر؛ علي نحو يثبت لنا أن القضـية لم تكن مقتصرة على الشرق فقط، بل أن الغرب كان له أيضاً نصيبه فى تلك الزاوية تماماً مثل مشكلة الطابع الرسمى الذى تناولتها من قبل.

ولا ريـب فى أن الميول المذهبية لمؤرخى ذلك العصر، كان لها دورها البارز فى كـتاباتهم التاريخـية، ومن اليسير اكتشاف المعتقد الدينى والمذهبى لمؤرخ ذلك العصر دون كبـير عـناء من خلال تصفح ما كتب من خلال تعاظم الظاهرة الدينية حينذاك. الأمر الذى يجعـل المـؤرخ المحدث يبذل جهداً جهيداً من أجل البحث عن "المسكوت عنه" فى المصادر التاريخية هنا وهناك لعله يجد ضالته التى يتعطش لها.

ثالثاً: التفسير النفسى لتاريخ الحروب الصليبية:

مـن الأمـور المقررة، أن التفسير النفسى قد نجح نجاحاً كبيراً فى مجالات الإبداع الأدبـى، ودراسـات الـنقد الأدبـى، غير أنه فى مجال الكتابات التاريخية اعتاد المؤرخون الاعـتماد على تفسير الأحداث السياسية من خلال الدوافع الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، ومـع ذلـك؛ فإن التفسير النفسى لأحداث التاريخ - خاصة خلال مراحل الصدام الحضارى وانـدلاع الحـروب الكبرى بين قوى شديدة التباين في نمط الحياة ذاتها، وكذلك في المصالح .... الـخ - أمـر حيوى للغاية، وبالتالى فإن تاريخ الحروب الصليبية يصعب فهمه فهماً حقيقـياً - وفق تصورى الشخصي - دون إدراك الدوافع النفسية التى حركت الأفراد القياديين وكذلك جموع الحشود البشرية ذاتها.

وهـناك فـى هذا المجال العديد من المصطلحات التى تفيدنا مثل الكارزمية - وقد أشـرت إليها من قبل - ثم سيكولوجية الحشود، والسادية، والفوبيا... إلى آخر تلك المدلولات النفسـية ذات الأهمـية الكبـيرة فـى أحـداث ذلك العصر، ومما يذكر هنا؛ أن المؤرخين المعاصـرين اعتادوا تناول أبناء عصرهم على أنهم أسوياء من زاوية الصحة النفسية، بل أن المؤرخين المحدثين تعاملوا معهم بذات التصور، وهو أمر يمثل مشكلة حقيقية، فالمنطق يدعو إلـى تصـور أن هناك أشخاصاً أسوياء وآخرين لم يكونوا كذلك، لقد كانت هناك شخصيات حركـتها عقد نفسية مثلما يحدث فى كل عصر تاريخى آخر، ودون إدراكها يصعب أن نضع أيديـنا علـى مفاتيح تلك المرحلة الثرية من مراحل الصراع بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى.

وأود أن أقدم هنا أمثلة على المستوى الفردى، والجماعى، لتوضيح ذلك الأمر؛ فعلى المسـتوى الفـردى؛ نجـد ان الفارس الفرنسى رينودى شاتيون أوارناط الذى مكث فى أسر

المسـلمين قرابة عقد ونصف من الأعوام، عندما خرج من سجنه، حركته – على الأرجح – رغـبة عارمـة فـي الثأر من المسلمين، لقد كانت تلك الرغبة المتأججة في صدره أكبر من قدرتـه علـى كـتمانها، وجـاء وصـول ذلك الرجل إلى صدارة الصفوف الأولى في قيادة الصليبيين كان بمثابة إعلان حرب حقيقية على المسلمين، وهكذا، كان إرناط عاملاً رئيسياً في حـدوث الصـدام الحربي الكبير في معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م الذي أدى إلى انهيار مملكـة بيـت المقدس الصليبية بعد أن عمرت قرابة تسعة عقود من عمر الزمان ١٠٩٩ – ١١٨٧م مع عدم إغفال تأثير الظروف التاريخية الأخرى ذاتها حينذاك بطبيعة الحال.

والمثال الآخر؛ يمكن إدراكه في المؤرخ البارز وليم الصوري، لقد تحرق شوقاً من أجـل الوصول إلى منصب بطريرك بيت المقدس، غير أنه لم يصل إلى ذلك المنصب الرفيع ووجد من هم أقل كفاءة منه يصلون إليه، بل ومنهم من كانت تشوب سمعته الشخصية شوائب أخلاقـية يـندى لها الجبين – مثل البطريرك هرقل – ومن المفترض أن تلك الزاوية شكلت "عقـدة نفسـية" حقيقية لذلك المؤرخ الفذ، وأن إحساسه بذلك الواقع الشخصي المتردي، وعدم تحقيقه لطموحاته ملكت عليه فؤاده، جعله ينتقل من "الخاص" إلى "العام" فرصد الزوايا السلبية فـي تـاريخ الصـليبيين المعاصرين له، ولذلك تحدث عن من يقوم بإنقاذ مملكة بيت المقدس الصـليبية، بل توقع انهيارها من قبل حدوث ذلك على اثر حطين، وفي تقديري، أن أزمة ذلك المـؤرخ النفسـية الشخصية الخاصة – على الأرجح–، جعلته يدرك ما لم يدركه أقرانه من المؤرخيـن من عوامل الانهيار الداخلي للمملكة المذكورة بالإضافة إلى روحه النقدية ورؤيته العقلانية لوقائع التاريخ ذاتها.

وهكذا؛ فإن التفسير النفسي لتاريخ تلك المرحلة يقدم لنا اقتراباً مهماً لزوايا متعددة قد لا تفصـح عنها المصادر التاريخية بصورة مباشرة بل علينا البحث فيما بين السطور لإدراك الأزمـات النفسـية وأبعادهـا وآثارهـا في سلوك الأفراد القياديين سواء على مستوى الفعل السياسي أو الكتابة التاريخية ذاتها.

وعلـى الصـعيد الجماعي؛ نجد أن الغزاة الصليبيين عندما قدموا إلى المنطقة قاموا بعدد من المذابح ضد اليهود كما في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م وكذلك ضد المسلمين بلغـت ذروتهـا في ١٥ يوليو ١٠٩٩م في صورة مذبحة بيت المقدس الشهيرة التي يقال أن عشـرات الآلاف مـن المسـلمين راحوا ضحيتها، وعند بحث دوافع الصليبيين لارتكاب تلك المذابـح، لابـد مـن الاعتراف بأن البحث في نفسيتهم وسيكولوجية الحشود يمكن أن تفيدنا، فهـناك الرغـبة فـي الثأر، ثم هناك التلذذ بتعذيب الآخرين أو ما عرف بالسادية Sadism، حقـيقة أن المصـادر التاريخـية المعاصرة لا تحدثنا مباشرة عن تلك الزوايا النفسية غير أن علينـا تحليل ما ورد فيها من معلومات من أجل التوصل إلى ماهية الحالة النفسية والمزاجية العامـة التي حركت الصليبيين لاتخاذ موقف جمعي عدواني تجاه المسلمين بمثل تلك الصورة

البشـــعة، وذلــك دون إغفـــال الدوافع المحركة الآخرى، كالتعصب الدينى الشديد على سبيل المثال.

وقــد يتساءل القارىء، وما وجه الأشكالية هنا؟ والإجابة عن هذا التساؤل تتمثل فى المؤرخيـــن عمومـــاً لا يفضلون ذلك الاتجاه، ولم يصل التفسير النفسى للتاريخ إلى المستوى اللائـــق بـــه من الاعتراف الأكاديمى على الرغم من أهميته الكبيرة، لقد قطع التفسير النفسى شـــوطاً كبيراً فى مجال النقد الأدبى – كما أسلفت الذكر – ؛ غير أنه لم يزل يحبو في مجال تفسير أحداث التاريخ ضمن سياقها الحقيقى الذى وقعت فيه.

رابعاً: تغييب دور المرأة في عصر الحروب الصليبية:

من الملاحظ أن عصر الحروب الصليبية سواء في الغرب الأوربى أو فى بلاد الشام شـــهد ظاهـــرة "تعـــاظم تاريخ الرجل" على حساب دور المرأة، لقد أبرز المؤرخ الرجل دور الرجال عموماً فى صنع الأحداث، وندرت الإشارات المصدرية الخاصة بالمرأة بصفة عامة، ولا نملك تعليلاً لذلك سوى الطابع المحافظ للقرون الوسطى عموماً فى الشرق والغرب، وذلك علـــى الـــرغم من أهمية الدور الكبير الذى لعبته المرأة فى ذلك العصر كأم، وزوجة، وابنة، وأخـــت، غير أن المصادر التاريخية تتجاهل ذلك – إلا فى القليل النادر – لتظهر دور الرجل المحـــارب والسياســـى، دون الحديـــث عن الخلفيات الحياتية التى كان عليها، ويمكن القول – دونمـــا مبالغة – أن عصر الحروب الصليبية شهد دوراً بارزاً للمرأة – على نحو مفترض – لـــم يكن ليقل عن الرجل، غير أن الأخير كان الخصم وكان الحكم في نفس الحين، فعمل عادة على عدم إبراز دور المرأة، على نحو قدم معه صورة العصر منقوصة على نحو مؤكد.

وقـــد يـــرد الـــبعض أن هناك أعلاماً من النساء الصليبيات والمسلمات مثل المملكة الصـــليبية مـــيلزندا أم الملك الصليبى بلدوين الثالث، واليانور زوجة الملك لويس السابع ملك فرنســـا، كذلـــك لا نغفـــل دور ضـــيفة خاتون، وست الشام وشجر الدر وغيرهن من النساء المعاصـــرات. غـــير أن هذه أعداد قليلة من النساء البارزات على مستوى القمة، أما القاعدة الشـــعبية العامـــة، فالمرأة فيها لا ذكر لها في المصادر التاريخية بصورة متوازنة مع ما ورد بشأن الرجل.

إن ذلـــك الوضع الذى يمثل وبحق "مشكلة" في معالجة المصادر التاريخية لما اعتدنا تســـميته فـــى عصـــرنا الحـــالى بأنها "نصف المجتمع" انتقل إلى المعالجات الحديثة. فمازال الباحـــثون يـــتجهون إلى "الرجل" كفاعل تاريخى دون التعرض إلا نادراً للمرأة،على نحو دعم "الـــتاريخ الذكـــورى" لتلك الحقبة وبالتالى يمكن القول أن المرأة فى عصر الحروب الصليبية ظلمت عدة مرات، فقد ظلمت عندما غدر بها المشروع الصليبى تحت أوهام صنعتها البابوية مـــن أجل الذهاب إلى الشرق حيث الأنهار التى تفيض لبناً وعسلاً وسارت بجوار الرجل إلى هـــناك، غـــير أن الأيام أثبتت أن الثمن الفادح دفعته المرأة حيث كانت الأرملة، والثكلى من

جـراء الصـراع مـع المسلمين في الشرق، وظلمت عندما تجاهلها المؤرخون المعاصرون بالصـورة التي شهدت عليها كتاباتهم نفسها، وظلمت من المؤرخين المحدثين – وهم في ذلك فـي وضع اضطراري – عندما ساروا في نفس مسيرة المؤرخين المعاصرين الذين تعرضوا لذلك العصر بالكتابة التاريخية وكان لهم موقفهم حيال المرأة.

وقـد يرد البعض على تلك العبارات السابقة بأن الأمر فيه جانب من الافتعال، وأن طـابع تلـك المشكلة موجود في الكتابة التاريخية عموماً قديماً، ووسيطاً، وحديثاً. والرد على ذلـك أنـنا ينـبغي أن ندرك حجم المشكلة في واقعها الصحيح، واستمرارها لا يعطيها حق الوجـود دون الـتعرض لأبعادها بالدراسة. وبالفعل يمكن وصف المرأة في عصر الحروب الصـليبية بأنهـا كانت الجندي المجهول وراء تاريخ الرجل خاصة المرأة المسلمة التي وقفت تدعم الجبهة الداخلية في مواجهة الغزو الصليبي الاستنباطي للمنطقة.

خامساً: الريف والمدينة والعلاقة الجدلية بينهما وأثرها على الكتابة التاريخية:

واقـع الأمـر؛ أن بـلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، على الرغم من اتساع مسـاحة الـريف فيها على المستوى الجغرافي ومحدودية المدن فيها، إلا أن الريف كان حظه مـن الكتابة التاريخية الإسلامية والصليبية محدوداً بصورة تسترعي الانتباه، على نحو يكشف عـن التناقض بين "المساحة الجغرافية"، و"مساحة الإشارات المصدرية التاريخية"، وعلى حين تـناثرت الإشارات الخاصة بالمدن مثل دمشق، حلب، بيت المقدس، عكا، إنطاكية، طرابلس، حمـص، حماه، بيروت إلى غير ذلك من المدن الشامية سواء العواصم السياسية أو الموانيء الـتجارية أو المـدن ذات الطبيعة المقدسة نظراً لطابع الحج بها كما الحال في بيت المقدس، علـى الـرغم من ذلك كله؛ إلا أن الريف تعرض لتهميش المصادر بصورة واضحة، وصار لديـنا تـاريخ للمدن أكثر من كونه تاريخاً للريف ويمثل ذلك تناقضاً واضحاً في ذلك العصر والكتابة التاريخية بشأنه.

لقد استأثرت مدن الشام الكبرى خاصة دمشق، وبيت المقدس بجانب كبير من اهتمام المؤرخيـن فألفـت الكتب المتخصصة في فضائلها، وحتى في خططها، ودروبها، ومسالكها، وأسواقها وقياسرها على نحو يجعل المؤرخ يملك مادة مصدرية ثرية معاصرة عن تلك المدن بيـنما يجد الصمت يلف القطاع الريفي حينذاك – إلا القليل النادر – أرضاً وبشراً، وتعرض الأخـيرون – وأعـني بهم عناصر الفلاحين – إلى التهميش بحكم الانتماء الطبقي للمؤرخين، وبحكم استئثار أهل المدن باهتمام الكتابة التاريخية حينذاك.

ولا نغفـل أن الـريف الشـامي – خاصـة في مناطق الحدود بين أملاك المسلمين والصـليبيين – نكب من جراء الصدام الحربي بين الطرفين، ودفع الريف الشامي المسلم ثمناً باهظاً في العديد من الأحيان من جراء سياسات التخريب، والسلب، والنهب التي اتبعها الغزاة

مـــن أجـــل تدمير موارد المسلمين الاقتصادية وكذلك إجبار الفلاحين على ترك أراضيهم إلى مناطق أكثر أمناً ليسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها من بعد ذلك.

وحقيقة الأمر؛ أننا نجد إشارات متناثرة عن الريف خاصة لدى الجغرافيين والرحالة المسلمين – على سبيل المثال. مثلما لدى الإدريسى (ت ق ١٢م) فى كتابه نزهة المشتاق في اختـــراق الآفاق، وابن جبير (ت حوالى ١٢١٦م)[7] فى رحلته الشهيرة، وذات الأمر يمكن أن يقال عن بعض الإشارات عن عدد من المستعمرات التى شيدها الصليبيون في الضفة الغربية لـــنهر الأردن كما فى حالة البيرة (ماجنا ماهومريا) Magna Mahumeria والقبيبة، وكفر مـــالك حيث نجد عنها تلك الإشارات فى عدد من المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة ومن أمثلتها مؤلفات الرحالة الأوربيين وكذلك وثائق كنيسة الضريح المقدس[8] إلا أن تلك الإشارات لا تـــتفق البـــتة مع ما لذلك القطاع من أهمية كبرى بحكم كونه المخزون البشرى والانتاجى الذى شكل الجبهة الداخلية لكلٍ من طرفى الصراع.

سادساً: الموضوعية فى الكتابة التاريخية عن عصر الصليبيات:

يعـــد عصـــر الصليبيات وبحق – عصراً معقداً في التفاعل معه على صعيد الكتابة التاريخـــية ومـــدى ما بها من موضوعية واجبة، فى ظل العداء السياسى، والدينى، ونفى كل طـــرف للآخـــر، كذلـــك أدت السياسات التى اتبعها الصليبيون والمذابح التى ارتكبوها بحق المســـلمين خـــلال المرحلة من ١٠٩٨ إلى ١١١١م إلى تكون ميراث للكراهية صنعته أساساً روح التعصـــب الصـــليبى ضد كل ما هو غير مسيحى، وانعكست روح العداء بين الطرفين علـــى كـــتابات مؤرخى ذلك العصر، وعبروا عن ذلك فى التراث التاريخى الذى وصل إلينا، والآن؛ وبعـــد مرور تسعة قرون من اندلاع آتون الحروب الصليبية، هل نجد موضوعية فى كـــتابات كل طرف عن الآخر؟، واقع الأمر؛ أن شرط الموضوعية كانت تنتابه فى العديد من الأحيان عوامل تخرجه عن مساره الطبيعي مثل العداء السافر بين الجانبين، وميراث الكراهية المتنقل من جيل لآخر، وباستثناء حالات من الأحكام الموضوعية، كما نجد فى كتاب الاعتبار لأســـامة بن منقذ من حيث إيراد المزايا ومظاهر النقص لدى الطرف المعادى، وامتداح وليم

---

[7] عن ذلك انظر:

الإدريســـى، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق ديلافيلا وآخرين، ط. نابولى ١٩٧٠ – ١٩٧٧م، ص٥٦٣ ابن جبير الـــرحلة، ط. بيروت ب.ت، ص٢٧٥، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٣٣ص٣٠٣.

[8] عن مستعمرة البيرة الصليبية انظر:

Pringle, "Magna Mahumeria (al – Bira) the Archaeology of a new town in palestine", in Crusade and settlement, ed. by peter W.Edbury, Cardiff 1985, pp. 148 – 168, Abel, :Les deux Mahumeria El Bira, Elqoubeibeh" R.B., T.XXXV, 1926, pp. 272 – 283.

محمـــد مؤنس عوض، "أضواء على مستعمرة البيرة الصليبية Magna Mahumeria (١١١٥ – ١١٨٧م/ ٥٠٩ – ٥٨٣ هـــ) مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد (١٠)، مارس ٢٠٠٢م، ص٧ – ٨٥.

الصـــورى لنور الدين محمود على سبيل المثال؛ نجد أن العداء الشديد حكم مواقف المؤرخين فـــى ذلـــك العصر، ودونما شيفونية خرقاء؛ نجد أن المصادر الصليبية حملت عداءً دفنياً ضد الإســـلام وأهلـــه، ولم تتوافر لدى أوربا النظرة الموضوعية لذلك الدين وأهله إلا لدى قطاع محـــدود مـــن الباحثين المحدثين، أما تراث العصور الوسطى فهو تراث قائم على نفى الآخر وعـــدم الاعـــتراف بـــه. ممـــا يجعل من كتابات مؤرخى تلك العصور بصفة عامة، وعصر الحـــروب الصـــليبية بصـــفة خاصـــة، نوعاً من الذاتية الصرفة – فى العديد من الأحيان – وبصورة تكشف لنا عن مأزق الكتابة الموضوعية وحتى على مستوى الكتابة الحديثة عن ذلك الصـــدام بين الشرق والغرب حينذاك، نجد انعكاسات الماضى حاضرة الآن، ولا نغفل زاوية مهمة، وهى أن من الصعب بل والمستحيل أحياناً أن نطلب من أهل البلاد الأصليين أن يكونوا موضـــوعيين في تناول تاريخ الغزاة الذين هاجموا بلادهم، واصطبغ تاريخهم بروح التعصب ونهبوا موارد المنطقة نهباً منظماً.

نحن بالفعل أمام مشكلة المشاكل، كيف نسعى للكتابة بموضوعية عن نهب المنطقة؟ وفـــى تقديرى أن من الموضوعية إبراز كيف تم سلب ونهب المنطقة العربية عندما قدم إليها الغرب الأوربى تحت قناع الدين كى يقوموا بالسطو عليها.

سابعاً: المركزية الأوربية وأثرها على الكتابة التاريخية الحديثة عن عصر الحروب الصليبية:

من المعروف؛ أن تاريخ الحروب الصليبية من خلال المعالجة الحديثة بدأ فى الغرب الأوربـــى فـــي أخـــريات القرن التاسع عشر الميلادى، وتطور على أشكال متعددة مثل نشر المصـــادر التاريخية وكذلك التأليف في العديد من موضوعات تاريخ تلك الحروب، وصارت لديـــنا أعمـــال عدة مدارس مثل المدرسة الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، ثم امتد الأمر إلى وجـــود مدرســـة أمريكـــية لها إسهامها فى ذلك المجال، وصار لدينا بالتالى آلاف الدراسات التاريخـــية فـــي صـــورة كتـــب، أو مقـــالات بعدة لغات أوربية مثل الإنجليزية، والفرنسية، والألمانـــية، والإيطالـــية، والأسبانية، والبرتغالية، بل والسويدية، والدنماركية ... الخ، ويكفى للتدلـــيل علـــى حجـــم التأليف فى مجال تاريخ الحروب الصليبية فى الغرب الأوربى واتساع نطاقـــه؛ أن المؤرخ الألمانى البارز هانز ماير Hans Mayer قد ألف كتاباً بالألمانية عنوانه: Bibliographie Zur Geschichte der kreuzzuge, Hannover 1965. أى بيلبوغرافـــيا علـــى تاريخ الحروب الصليبية، ط. هانوفر ١٩٦٥م، وفى هذا الكتاب يحدد لنا المؤلـــف عدد (٥٣٣٣) دراسة عن الحروب الصليبية حتى العام المذكور، ويلاحظ أن الخمس وثلاثيـــن عاماً التالية شهدت إنفجاراً معرفياً فياضاً من المؤلفات الحديثة فى المجال المذكور، وكذلك في وسائل الاتصال لاسيما شبكة الأنترنت ويمكن متابعة جزء مهم منها فى القسم الذى خصصـــه ذلـــك المؤلف فى الجزء الأخير من موسوعة سيتون عن تاريخ الحروب الصليبية Setton, Ahistory of the Crusades, vol. Vi, Wisconson 1989. أمـــا العـــالم

العـــربى؛ فقـــد عرف التاريخ الحديث للحروب الصليبية بعد الحرب العالمية الثانية عندما عاد بعض المؤرخين المصريين الرواد من بعثات من إنجلترا وفرنسا ليقودوا باحثين شبان آخرين فـــي المجـــال المذكور، ونذكر فى هذا المجال جهد الرائد البارز الراحل أ.د. محمد مصطفى زيـــادة الـــذى أشـــرف بدوره على أستاذين رائدين كبيرين هما أ.د. حسن حبشى، أ.د. سعيد عاشـــور؛ وهمـــا مـــن كبار مؤرخى العالم العربى فى مجال الصليبيات، ولا نغفل أن العالم الـــراحل أ. عزيز سوريال عطيه، أشرف على العالم الراحل أ. جوزيف نسيم يوسف[٩]، ويعد من أهم من ألف، واشرف على العديد من الطلاب فى جامعة الإسكندرية، ولتتواصل المسيرة من بعد ذلك على أيدى مؤرخين آخرين في مصر وشقيقاتها العربيات وبصفة عامة؛ فإن عهد التألـــيف فـــي الصـــليبيات فـــي العـــالم العربى حديث إذا ما قورن بالعالم الغربى الأوربى، والأمـــريكى، وتعـــانى دراسة الصليبيات فى العالم العربى من التناثر وغياب مراكز الأبحاث ويلاحـــظ هـــنا؛ أنـــنا كباحثيـــن عرب نعتمد فى مجال الصليبيات نعتمد على جهد الأوربيين والأمريكييـــن التألـــيفى، وهم ينطلقون من منطلقات دينية وسياسية تختلف تمام الاختلاف مع نظائـــرها لـــدى المؤرخين العرب والمسلمين عموماً. ومن هنا جاءت خطورة الاعتماد على كـــتابات المؤرخين الغربيين دون ملاحظة ما تنطوى عليه من أهداف، ومآرب، ولا نغفل أن القضـــية ترتـــبط ارتـــباطاً وثـــيقاً بحركة الاستشراق، ونظرة الغرب للشرق مع ملاحظة أن الارتـــباط بيـــنهما مـــن خلال ندية حقيقية أمر غير وارد، ونظرة المؤرخين الغربيين لتاريخ عالمـــنا العربى في العديد من مراحله نظرة تنطلق من منطلقات شيفونية، والقليل الذى يتعامل مـــع قضـــاياه بنوع من التوازن والاعتدال، ولاريب فى أن الأمر مرتبط بمراحل طويلة من العـــداء بيـــن الشرق والغرب، كان الشرق خلالها مستهدفاً، وكان الغرب فيها يقود مشروعاً للتوسع والهيمنة خدمة لمصالحة ومطامعه العليا.

ويكفـــى للتدلـــيل علـــى آثـــار المركـــزية الأوربية ما يمكن وصفه. ويحق "بأزمة المصـــطلح"؛ فالملاحظ أن عصر الصدام بين الغرب والشرق – بحكم أن الغرب هو الذى بدأ الصدام أصلاً مع الشرق – احتوى على العديد من المصطلحات صنعتها تلك المركزية، ومن أمثلتها مصطلح "الحروب الصليبية"، وهو مصطلح خاطىء وشائع للأسف الشديد على الرغم مـــن أنه لا ينطبق على الواقع في شيء وبالتالى فهو مضلل أكثر من كونه معبر عن الحقيقة، ثم مصطلح الشرق الأدنى والشرق الأوسط وهى نتاج حركة الاستعمار الأوربى الحديث التى صـــنفت الشـــرق إلـــى أدنـــى وأوسط وأقصى من خلال المركزية المشار إليها، كذلك نذكر

---

[٩] عن الاطروحات العلمية التى أشرف عليها الراحل أ.د. جوزيف نسيم يوسف لنظر: دليل الرسائل الأكاديمية (دكتوراه – ماجستير – دبلوم) التى أجيزت بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية من ١٩٤٢ – ١٩٩٨م، ط. الإسكندرية ١٩٩٩م، ص١٦٨ – ١٧٨.

مصـــطلح ريكونكويستا Reconquesta أو حرب الاسترداد الإسبانية، من وجهة نظر أسبانيا بالطبع والذى يستعمله البعض من الباحثين العرب دون إدراك لخطورته.

وواقع الأمر؛ إن من المهم العمل على دراسة مثل تلك المصطلحات وخطورتها على الكـــتابة التاريخـــية فـــى منطقتنا العربية لأنها نتاج مؤرخى وسياسيى الغرب خدمة لأهدافهم ونســـتعملها على الرغم من التباين الشديد في رؤيتنا لتاريخنا ورؤيتهم هم، وبالتالى فالمشكلة الحقيقـــية ليســـت مشكلة مصطلح بل التعبير عن إطار فكرى نظرى أكبر وأشمل لتجنب أن يصبح مستهلكين لكتابات الغرب التاريخية.

وفى تصورى أنه لا سبيل للفكاك من المركزية الأوربية إلا من خلال خلق مركزية عربـــية إسلامية تهدف لإبراز الهوية الدينية، والشخصية القومية، لا أن نكون تابعين للغرب علـــى حســـاب تلـــك الهويـــة خاصة فى الآونة الأخيرة التى ظهرت فيها ادعاءات العولمة، والفرنكفونية، وكلها تعنى إذابة الهوية الدينية واللغوية، لمصلحة قوى أوربية وأمريكية تهدف إلـــى الســـيادة العالـــية بكـــل الصـــور والمستويات الثقافية – وهى أخطرها – والاقتصادية، والسياسية.

ومنطقى أن ذلك يتحقق من خلال إقامة مراكز البحوث المتخصصة[10]، التى تتابع ما يصدر فى الغرب الأوربى والأمريكى، وتتناوله بالبحث والدراسة والنقد، ثم إصدار المؤلفات الببليوغرافـــية العربية[11] من أجل رصد ما يصدر لا أن يكون العرب بمثابة جزر متناثرة كل يعمل دون أن يعرف ما يؤلفه غيره من الباحثين فى المجال المذكور.

وأود أن ألفـــت نظـــر القـــارىء إلى أن المؤرخين الإسرائيليين[12] لهم دور بارز فى مجال تاريخ الحروب الصليبية حالياً، وعلينا أن يكون لنا دورنا ونرد على ما فى مؤلفاتهم من

---

[10] ســـبقت لـــى المطالبة بمثل تلك المراكز المتخصصة عن ذلك انظر: محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية ص١١٢. وتمت الاستجابة بالفعل من جانب القائمين على مؤتمر بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية الذى عقد في جامعة اليرموك وصدر عنه هذا الكتاب القيم: مجموعة من الباحثين، بلاد الشام في فترة للصراع الإسلامي الفرنجي ٤٩ – ٦٩٠هـــ، جامعة اليرموك ٢٠٠٠م، ص١٧ (حيث وردت الاشارة إلى مثل تلك المراكز المتخصصة ضمن توصيات المؤتمر).

[11] عن جهود المؤرخين العرب في مجال الحروب الصليبية انظر: قسطنطين زريق، ما ساهم بالمؤرخون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية.مجلة الأبحاث – الجامعة الأمريكية بروت، السنة (١١٢ ، جـــ(٢٢ يونيو ١٩٥٩، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية.ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٧٧ – ٢٥٤.

[12] عن اسهاماتهم انظر:

يوشـــع براور، عالم الصليبيين. ت. قاسم وخليفة، ط. القاهرة ١٩٨١م. الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس الصليبية، ت. عبد الحافظ عبد الخالق البناء ط. القاهرة ٢٠٠١م، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية ص٢٠٧ – ٢٩٤ حيث تم تخصيص فصل مستقل للتعريف بأهم المؤرخين الإسرائيليين وإسهاماتهم في المجال المذكور.

إدعاء بشأن حقوق يهودية فى أرض فلسطين أو المبالغة فى حجم الدور اليهودى خلال أحداث الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين ١٢، ١٣م.

مجمـــل القول؛ أننا نواجه تحديات خطيرة وعلينا أن نتنبه إلى أهمية دراسة التاريخ عمومـــاً، وتاريخ صراعنا مع الغرب، خلال القرون الوسطى من أجل المحافظة على هويتنا فلاريـــب أن دراسة مرحلة الحروب الصليبية من شأنها تعميق الهوية، والاستفادة من تجاربنا فـــى الاصـــطدام مـــع الغـــرب، وعدم الوقوع فى أسره، والانبهار به، لأن تلك هي بضاعته وسيطاً، وها هى الآن بضاعته حديثاً، ولا يفهم من تلك العبارات آية خصومات معه فالتاريخ حـــوار الحضارات، غير أن الحوار المطلوب قائم على الندية والاعتراف بالآخر لا إلغائه أو الـــتعامل معـــه بدونـــية، لأن أمـــة العرب لها الفضل الحضارى على أوربا ذاتها فى القرون الوســـطى، وعلينا الخروج من مأزق التفاخر بالماضى لنصنع ذاتنا الحالية بثقة بالنفس وإنهاء وهـــم التفوق الغربى الذى صنعها المستعمر فى نفوسنا كى نظل نعمل في فلكه ولا نتمكن من الخـــروج من أسره وبالتالى نتجاوز مرحلة :التاريخ العبء: إلى مرحلة أخرى مغايرة وأعنى بها مرحلة :التاريخ الحافز" وهو أمر أساسى لأية نهضة مستقبلية مرتقبة.

ذلـــك عـــرض لملامح إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢، ١٣م.

الفيكنج واغاراتهم على الإمبراطورية الكارولنجية

د. وفاء عبد الله مزروع
المملكة العربية السعودية

مقدمة:

يعتبر الفيكنج من العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمارك والتى اتخذت إغارتها على أوربا شكلاً كاسحاً في القرن التاسع الميلادى، ولقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام رئيسية الدانمركيين والنرويجيين والسويديين، واتخذت إغاراتهم على أوربا شكلاً بحرياً كاسحاً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البرى التى اتصفت به هجمات بقية الشعوب الجرمانية، وقد ركزوا اهتمامهم على الإمبراطورية الكارولنجية وإنجلترا. ولقد أدت إغاراتهم على الإمبراطورية إلى زعزعة أركانها وتقويض عاصمتها.

وتتناول هذه الدراسة هذا العنصر الجرمانى بالبحث والتفصيل، فبدأت بتمهيد عنهم ثم إغاراتهم على الإمبراطورية الكارولنجية، ثم تأسيس نورمانديا وانتهت بما تميزت به حضارتهم.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد.

تمهيد:

يعتبر الفيكنج Vikings أو الشماليون Northmen هم مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة سكنديناوة Scandinavia وشبه جزيرة الدانمرك وحوض البحر البلطى من السويديين Swedens والنرويجيين Norwegans والدانيين Danes، ويرجع أصلهم للعنصر الجرمانى أو التيونى الذى سكن تلك المناطق منذ أوائل القرن التاسع الميلادى.[1]

ولقد أدت عزلتهم من موطنهم إلى تباين كبير بينهم وبين العناصر الجرمانية التى غزت أوربا، ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة مخلصين على أوضاعهم البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة. وأدت عزلتهم وتطرف موضعهم الجغرافى إلى عدم احتكاكهم بسكان الإمبراطورية الرومانية أو التأثر بهم حتى كان القرن التاسع عندما بدأت إغارتهم على العالم الأوروبى الجنوبى[2] حيث بدأت أعدادهم في هذه المناطق تزايداً كبيراً واضطرتهم الحاجة الماسة إلى البحث عن مناطق جديدة وإلى الإغارة على الممالك المتاخرة، ودفعت طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات إلى أن دفعت بهم إلى ركوب البحر، فبرعوا في أمور الملاحة وصيد الأسماك ووجهوا نشاطهم إلى أعمال القرصنة التى كانت تستلزم بناء السفن التى تفوقوا بها، وتميزوا ببناء سفن صغيرة مكشوفة اتصفت بالطول وقلة العرض، وأن نهايتها مدببة، ودعمت كل من حافتيها بصف من الدروع، وتسير بالمجداف أو الشراع، وجابوا بها شواطىء أوربا من البحر البلطى إلى البحر المتوسط وأصبحوا من أعظم الشعوب البحرية بل وسادة للبحار.[3]

أما عن كتابتهم فقد عرفت تلك الشعوب الكتابة بالأبجدية الرونية، التى كانت تضم ستة عشر رمزاً، وكانت أحجار الشواهد مغطاة بنقوش كتابة رونية؛ أما الحضارة المادية فقد عرفت بشكل واضح في عصر الفيكنج وتأثرت بقوة بتيارات خارجية، وكانت متميزة بالبذخ والبحث عن الأثر الفنى، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ وكان أثاث الزعماء وعرباتهم وأسرتهم الخشبية منقوشة بواسطة الحفر، وأسلحتهم أقل زينة؛ وكانت التروس ومقابض السيوف وبلطات الأسلحة مزدانة بخيوط نحاسية، ولقد اهتموا بصناعة الحلى، واستفادوا من الذهب، إلا أنهم استعاضوا عنه بالفضة التى صنعوا منها حلياً وأدوات، وعنوا في تزينهم بأسلوب الزخارف الحيوانية المعروفة منذ عدة عصور.

---

1 Haskins, Ch. H., The Northmen in the European History, New York, 1959, pp. 30-31.

2 Cantor, N., Medieval History, New York, 1967, p.121.

3 Stephenson,C., Mediaeval History, New York, 1943, p.201.

أمـا نشاطهم الاقتصادي فلقد كان متنوعاً ومتعدداً نذكر منه الصيد وتربية الحيوانات وزراعـة الحـبوب كالقمح والشعير، وكان الشعب يعيش مجتمعاً من قرى، ويسكن المزارع المـنعزلة تحت رحمة الظروف الجغرافية وقسوة الطبيعة، ويبنى منازله من الخشب، ويشيد المعسكرات التي يحميها بمتاريس مستديرة بالحجر والتراب، وكانت الأسوار تحيط بكل ذلك.

أمـا الملاحـة والتجارة فكانتا تؤلفان معاً في القرن التاسع الميلادى نشاطا اقتصادياً وسياسـياً مهماً عند شعوب الفيكنج فكان الملاحون يركبون كما ذكرنا سفناً وضيعة متطاولة ذات جؤجـؤ مزيـن برأس غول تسير بالشراع والتجديف وبجوانبها محمية بالتراس مستديرة مـن الخشب وكانت تتميز بالسرعة وتغطيه مساحات كبيرة من البحر. ونتيجة لذلك استطاع الفيكنج في أواخر القرن الثامن وبداية التاسع أن يغزوا مناطق كثيرة.[٤]

وإذ كـنا قـد قسـمنا الفيكنج إلى نرويجيين وسويديين ودانيين فلا يعنى ذلك وجود فـوارق بيـنهم[٥] وإنما يقصد به الإشارة إلى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشـرقية من سكنديناوة أو شبه جزيرة الدانمرك، وهنا ينبغى أن نلاحظ أثر التوجه الجغرافى فـي توزيع غزوات الفيكنج، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق ووصلوا إلى شرق أوروبا والبحر الأسود، أما النرويجيون فقد اتجهوا غرباً فوصلوا إنجلترا أو إيرلندا والجـزر الغربية فضلاً عن الجزر الشمالية في المحيط الأطلسى، في حين اتجه الدانيون نحو الجـنوب والغـرب فهـددوا شواطىء الإمبراطورية الكارولنجية في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيرلـندا والجـزر الغربية، ويهمنا هنا المجموعة الأخيرة (الدانيون) الذين اتحدوا في مملكة واحـدة فـي أواخر القرن الثامن الميلادى وتكونت بلادهم من ثلاثة أقسام رئيسية وهى شبه جزيـرة جوتلانـد Gutalnd إلـى الأيدر، وثانيهما جزر زيلاند Zealand وثالثهما سكانيا Scania مـع هـالاند Halland وبلكنج Bicking[٦] ولقد أضاف الفيكنج إلى اسمهم مصدراً جديـداً للرعـب فكـان خـروجهم يعتبر حدثاً تنتشر عنه الشائعات إلى الآفاق البعيدة، وكان خـروجهم عـن طـريق الـبحر لا يسبقه نذير، وإنما كانوا ينقضون فجأة، كما ينقض النسر فيقبضـون على فريستهم ثم يعودون بها أدراجهم، ولقد أصبح الغموض يكتنفهم مضاعفاً كما كان الرعب الذى ينشرونه مضاعفاً أيضاً.

---

[4] محمد الحويرى، للمباريون في التاريخ والحضارة، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٧٩.

[5] Haskins, op. cit., pp. 30-31.

[6] عاشور؛ أوروبا العصور الوسطى، جـ١، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٢١. Stephnson, op. cit., p 200

ولقد إنطلقت من بحر البلطيق وبحر الشمال قوارب قادرة على شق عباب البحر، كما خرج منها جيل من رجال البحر أقوى على ركوب المخاطر، فقد كان مقدراً لهذا الجنس أن يكون جنساً بحرياً رغماً عنه، ذلك أن العجز الذى ينجم عن الزراعة في أرض يعوضه حصاد البحر، وقد أكتسب أهل الشمال قوتهم بوصفهم صيادى سمك في البحار وكانوا يصلون تتبعهم لجموع السمك إلى ما وراء الفيودرات ذات المياه الهادئة، فاعتادوا على مغالبة مد البحر والتيارات البحرية الجارفة والعواصف في بحر الشمال، وحتى أنهارهم كانت تياراتها شديدة السرعة مليئة بالشلالات الخطرة، ونظراً لأنهم طبعوا على أمثال هذه المخاطر منذ نشأتهم فقد أخذوا يدرجون حتى اصطنعوا لأنفسهم نوعاً خاصاً من السفن وطريقة من طرائق الملاحة وجابوا بهذه السفن شواطيء أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط بل قاموا برحلات بعيدة في المحيط الأطلسى.[٧]

وقد تميزت إغارات الفيكنج في دورها الأول الذى شمل معظم النصف الأول من القرن التاسع، بأنها كانت إغارات تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة وتتم في فصل الصيف وتنتهي بالعودة بالمنهوبات قبل حلول فصل الشتاء كما كانت تضم جماعات أو فرق صغيرة تعمل لحساب أحد الأمراء.[٨]

أما في النصف الثانى من القرن التاسع فقد تطورت إلى حركة توسعية استيطانية كانت تتم بجماعات كبيرة أو جيوش لحساب إمبراطورية الأمراء حيث كان الفيكنج يحملون معهم نساءهم وأطفالهم يبتغون الإستقرار في البلاد التى يغزونها أو بقرب مصاب أنهارها أو في الجزر القريبة من شواطيء تلك البلاد،[٩] وكانوا يتبعونه أسلوباً واحداً تقريباً في جميع البلاد التى هاجموها مثل فرنسا وانجلترا وإيرلندا، فكانوا يصعدون بأسطولهم في أحد الشرايين النهرية الكبيرة مثل السين واللوار والتايمز ويرسون بسفنهم في مكان منيع يتحسن أن يكون جزيرة، ثم يضربون معسكراً ويحصنونه وبعد ذلك يخطفون كل ما يجدونه من خيول ودواب في الإغارة على الأقاليم وأعمال السلب والنهب فيه، ولم تكن المعركة متكافئة بينهم خصوصاً وهم يمتازون بخفة الحركة والتكتل وكفاية السلاح وبين قوات أهل البلاد الأصليين المجندين بالتعبئة العامة ولو كانوا أكثر عدداً لأن معظمهم من الفلاحين والمزارعين

---

[7] جون هامرتن، تاريخ العالم، م١، ص٥٨٥ Stephnson, op. cit, p. 201.

[8] Schjoth, I., Great Days of the North men, B, H, VII, pp. 35-39.

[9] محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص٢٩٩. Haskins, op. cit., p.33.

غـــير المســـلحين تسليحاً كافياً،[10] وقد كانت إغاراتهم تنتهي في أغلب الأحيان إلى الاستقرار الدائـــم فقد استعمروا إيرلندا لفترة تحدد منتصف القرن التاسع وبقوا لأول مرة في شيبى عند مصـــب نهر التايمز في إنجلترا بعد إنتهاء فصل الشتاء ولم يعد ثمة من يجرؤ على مدافعتهم، كما لم يعد ثمة ما يفعله الناس إلى أن يضيفوا في صلاتهم (اللهم آمنا من ضب رجال الشمال) كما يذكر المؤرخ هاسكنز[11].

وفـــي ذلـــك الوقت تقريباً بدأوا في الاستقرار في غرب فرنسا بعد أن ظلوا يغيرون لفـــترة طويلة على المنطقة الواقعة بين نهر الراين واللوار، ويتميز آخر أدوار الغزو الشمالى بمقاومة أهل البلاد لهم ونجاحهم في طردهم ويبدو أن قسوتهم والمذابح الرهيبة التى أحدثوها، فضلاً عن إعتداءاتهم على الكنائس والأديرة واستباحتها ونهب ثرواتها قد أوجد شعوراً ضدهم فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لجانب كبير من عيشه.[12]

إغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية:

تعتبر إغارات الفيكنج (الدانيين) من أهم الإغارات التى قاموا بها ضد الإمبراطورية الكارولنجـــية، لقد كانوا أحد الأسباب الرئيسية التى زعزعت هذه الامبراطورية وأسهمت في تداعـــيها، وبالرغم من قلة الأعداد التى غزت فرنسا من الدانيين إلا أنهم كانوا مصدر رعب وفوضـــى أينما حلوا، ولم يتمكن شارلمان وهو في أوج قوته أن يقضى عليهم، وخصوصاً أن توســـعه شمالاً أدى إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبينهم، ولم تلبث العلاقات أن ساءت حينما دخـــل بعـــض السكســـون الهاربين من شارلمان تحت حماية الدانيين، هذا في الوقت الذى لم تـــنقطع إغـــارات الدانييـــن على شواطىء الامبراطورية الغربية، ولقد أفزعت شارلمان تلك الإغـــارات فأعد أسطولاً قوياً في موانىء نستريا لحماية شواطىء امبراطوريته من هجماتهم ومع ذلك فقد استمر جودفرد Godfred ،[13] زعيم الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان في

---

[10] سى. و. بريفت، مغامرات النورمنديين، القاهرة، د.ت، ص٦٨٥.

[11] Haskins, op. cit, p.33.

[12] Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1962, p.408; Cam. Med His., Vol. 3, p.315.

[13] يعتـــبر جود فريد ملك الدانيين في أوائل القرن ٩م، وتولى بعده هارولد Harold الذى دخل في صراع مع أبناء الملك المقـــتول، وفى ظل هذا الانقسام دخلت بعثة تبشيرية مسيحية فمهدت لانتشار المسيحية انتشاراً محدوداً ولم يلبث أبناء جود فريد أن ثاروا على الملك الجديد هارولد فهرب إلى ألمانيا واعتنق المسيحية في سنة ٨٢٦م ليحظى بمساعدة عاهل الفرنجة لويـــس التقى الذى سانده في استعادة عرشه مرة أخرى، غير أن هارولد لم يحفظ لعاهل الفرنجة معروفه فانتهز وفاة لويس الـــتقى سنة ٨٤٠م والصراع الذى اندلع بين أبنائه وأغار على بلاد الفرنجة، ووصلت اساطيله إلى جنوب أسبانيا. ولم يلبث هـــارولد أن أقصـــى عن عرشه إذ ثار عليه زعيم آخر من أقاربه ويسمى (هاريك) واستطاع هذا الأخير أن يعتلى عرش

جـنوب البحر البلطى وشواطىء فريزيا حتى حاول مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين سنتى ٨٠٤ – ٨٠٩م لدفـع خطـرهم وشرهم،[١٤] وجاء في إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إغارات الدانيين على سواحل دولته وأنه أسف لذلك كثيراً والتفت إلى أتباعه قـائلاً لقد تأثرت لذلك كثيراً، وإننى لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام وارى كم من الضرر سيلحقه أولئك.[١٥]

ويتضـح مـن المدونـات التاريخـية أن جودفرد أخذ زمام المبادرة بالهجوم على شواطىء مملكة شارلمان، إلاّ أن بمصرعه سنة ٨١٠م زال خطر الفيكنج عن الفرنجة، لاسيما بعد أن عقد خليفته هيمنج، وهو ابن أخته، معاهدة سلام مع شارلمان.[١٦]

ثـم حدث في عهد لويس التقى خليفة شارلمان أن استغل فرصة الخلافات والحروب الداخلـية الـتى قامت حول تقسيم الإمبراطورية وأنزلوا قوات ضخمة على شواطىء فريزيا Fresia سـنة ٨٣٥م ونصبوا مدينة أوترخن ودورشتد Dur sted أكبر موانىء الإقليم وفى العـام الـتالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب Antwerp ثم عادوا سنة ٨٣٧م إلـى مهاجمة والشرين Walcheren عند مصب نهر الراين حتى وصلوا إلى نموجن Nimaegen ولكـنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما وصل لويس التقى على رأس جيوشه، ولكن لويس حرص على مهادنتهم ومنحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩م للإقامة فيها ولمحاولة توطينهم واستقرارهم وكف عدوانهم ولكن كل هذا لم يؤد إلا إلى زيادة أطماعهم في أراضى الامبراطورية.[١٧]

وبعد وفاة لويس التقى وإبان الصراع الذى اندلع بين أبنائه حول تقسيم أملاكه خرج أول أسطول للدانيين في نهر السين سنة ٨٤١م واستولوا على روان، ثم تقدموا في نهر اللوار ودمـروا مديـنة نانت Nantes سنة ٨٤٢م وقضوا فصل الشتاء في نستريا في جزرية قرب مصب اللوار Loere.

الدانيين سنة ٨٤٤م. انظر، Schjom, Hans, Denmark and its Sister States: Great Days of the North men, in the Book of History of Nations from the Earliest Times to the Present, vol. VII., p.3557.

14 يطلق اينهارد على هذه الشعوب أيضاً اسم الدانمراكيين. انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩، ص٩٤ – ٩٥. Davis, K., Charlemagne, London, 1929, pp. 296.

15 Op. cit p.416.

16 قـتل جـود فـريد بيد أحد حراسه، وبذلك انتهت حياته والحرب التي كان قد بدأها مع الفرنجة. انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ص٩٥.

17 عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢٢٣.

فـــي غرار مدينة Noirmountierى أثناء قيام لويس التقى بعقد أتفاقية فردون سنة ٨٤٣م على تقسيم الامبراطورية تقسيماً يرضيهم جميعاً.[18]

وفـــى نانت قام الدانيون بقتل البطريق أمام كنيسته، وفى غضون عامين نهبوا مدينة هامـــبورج Hambaurg وانســـابوا سنة ٨٤٥م بأسطول كبير على نهر السين ودمروا مدينة باريس Paris وبعد ذلك بعامين استولوا على مدينة بوردو Bordeaux أهم مدن الجنوب في فرنسا بعد أن دمروها وظلوا يحتلونها عدة سنين.[19]

وهكـــذا فتحت لهم أنهار فرنسا الغربية السين واللوار والجارون الطريق إلى جوف الامـــبراطورية فأوصـــلهم نهر الراين إلى كولون والسوم إلى أميان وأوصلهم نهر السين إلى بـــاريس وروان، ونهـــر اللـــوار إلـــى نورو أورليان، كما سلكوا أيضاً أنهار الألب والويزر Weser والمـــيز Meuse والشـــلد Scheldit والجارون ووصلوا إلى جنوب أسبانيا أى ألى الوادى الكبير.[20]

ولـــم تلبـــث أن إزدادت إغارات الدانيين عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣م حـــتى أصبح خطرهم بمثابة الشغل الشاغل للإخوة الثلاثة لويس ولتر وشارل، وهكذا تقلصت الممالك الفرنجية الثلاثة نظراً لخصوماتهم، وإن كانت مملكة شارل الأصلع في أقصى الغـــرب هى التى أصبها كثيراً من الضرر بسبب طول سواحلها من جهة وكثرة أنهارها من جهـــة أخرى فضلاً عن انشغال ملكها في نزاعات داخلية، ولهذا قام شارل الأصلع بأكثر من محاولـــة لأبعـــادهم عـــن مملكته ثم قام بعقد صلح معهم، مرة بدفع جزية ومرة أخرى دون جدوى.[21]

أما مملكة لوثر وهى المملكة الوسطى فقد كان حظها هى الأخرى سيئاً لأن الدانيين دأبـــوا علـــى الإغارة على سواحل فريزيا كل عام تقريباً حيث اتخذوا منها قواعد دائمة نفذوا مـــنها إلى أعماق المملكة وهددوا المدن الكبرى بما فيها العاصمة ذاتها آخن Aachen واكس لاشـــابل فـــي الوقـــت الذى لم تجد فيه محاولات لوثر لوقف تقدمهم بمنحهم جزيرة والشرين Walcheren قرب مصب نهر الراين لضمان سكوتهم ومسالمتهم وصرفهم عن مملكته.[22]

---

18 Oman, op. cit., p.409; Orton, Outlines of Medieval History, Cambridge, 1929, pp. 149-150.

19 Oman, op. cit. 409; Orton, op. cit, pp. 149-150.

20 أ. ماك كالوم اسكوت، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، القاهرة، ص١٣٥. Haskins, op. cit., p.33; Keen, op. cit, p. 25.

21 Cantor, op. cit., p.237.

22 Haskins, op. cit., p.33.

وإذا كانـــت مملكـــة لويـــس الجـــرمانى أحسن الممالك حظاً فإن السبب يرجع إلى السكســـون الذيـــن كـــانوا عقبة كؤود أمام تقدم الدانيين بالإضافة إلى وعورة الطريق وعدم صلاحية الكثير منه لضربات المهاجمين وبالرغم من ذلك لم تسلم مملكته من التدمير والنهب والخـــراب،[23] فقد شهدت بلاده حرق مدينة هامبورج، كما أوغلوا في نهر الراين سنة ٨٥١م كما قاموا بنهب جزء كبير من سكسونيا.[24]

أما عن مملكة شارل الأصلع فلم تلبث أن ساعد النزاع القائم بين بيبين حاكم أكيتانيا (جـــنوب فرنسا) وعمه شارل على ازدياد نفوذ الدانيين في حوض الجارون حتى وصلوا إلى مدينة تولوز Toulouse، وفى ذلك الوقت كان الدانيون قد عادوا إلى تهديد حوض السين من جديـــد فأغـــاروا على مدينة روان للمرة الثانية سنة ٨٤٥م حتى وصلوا في وجهتهم فتحصنوا فـــي مرتفعات مونتمارتر Montemarter، وفى بعض الأديرة وترك شارل الأصلع باريس لـــيدخلها الدانـــيون وينهبوها. ولقد أدى إستيلاؤهم على تلك المدن إلى غناهم وكثرة أموالهم ورغبتهم في مواصلة نشاطهم وغزوهم حتى أصبحت مملكة شارل الأصلع على درجة كبيرة مـــن الخـــراب والدمار وعندما تجددت هجماتهم على حوض السين ٨٥٢م قرر لوثر أن يأتى علـــى رأس جـــنده لمســـاعدة أخيه شارل الأصلع، ولكن شارل كان قد عقد صلحاً مع زعيم الدانيين ومنحه مالاً وسمح له بالاستقرار في منطقة قرب مصب نهر اللوار، فآثر لوثر العودة إلى بلاده.[25]

ولم تلبث أن تجددت الاشتباكات بين لويس الألمانى وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤م ممـــا أتـــاح الفرصـــة للدانيين التوغل في مملكة شارل وأطراف مدينتى نانت Nantes وتور Tour ونهـــبوا المـــناطق المحيطة ولم تتصدى لهم سوى مدينة أورليان Orleans سنة ٨٥٤ م.[26]

وبلـــغ مـــن سوء أحوال الملوك وضعفهم عن التصدى للدانيين أنهم لجئوا إلى شراء مسالمتهم بالمال وذلك حينما عقد شارل الأصلع سنة ٨٦٠م معاهدة مع رولاند Rolland أحد زعمائهم تعهد فيها بدفع مبلغ كبير من المال ليقوم الدانيون بإخلاء نستريا من الغزاة.

---

23 Oman, op. cit., p. 419.

24 عاشور، أوروبا، جـــ١، ص٢٢٤.

25 عاشور، أوروبا، جـــ١، ص٢٣٥.

26 Oman, op. cit., p.422.

ولقـد زاد خطـر الغـزاة بالنسبة للإمبراطورية الكارولنجية في النصف الثامن من القـرن التاسـع ولاسـيما بعـد وفاة أبناء لويس التقى الثلاثة وبلغ من استهانة الغزاة بقوى الكارولنجيين أنهـم عبروا فيما بين سنتي ٨٥٩ – ٨٦٢م مضيق جبل طارق وأغاروا على سـواحل أفريقيا،[27] كما اندفعوا إلى البحر المتوسط شمالاً حتى جزائر البليار، وجزائر البليار Baleric Islands ثم سواحل فرنسا الجنوبية في مرسيليا Marseille فبعدها اندفعوا في نهر الـرون شـمالاً حتى فالنس Valence، بينما قامت جماعة منهم بنهب المدينة الإيطالية لونا Lona معتقدين أنها مدينة روما.[28]

وزيـادة علـى سوء الأوضاع قام ملك البيت الكارولنجي لكي يحصل على الأموال الـتي تعهـد بدفعهـا للدانيين بفرض ضريبة ثقيلة على رعاياه يعف منها الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل حتى فقراء الفلاحين وجاءت هذه الضريبة لتضيف جملاً ثقيلاً إلى أثقالهم في الوقت الذى عجزوا في الدفاع عن شعوبهم وأثقلوا كاهلهم.[29]

والواقـع أن الفـترة الواقعـة بين سنتي ٨٥٥ – ٨٨٧م تعتبر من أسوأ الفترات في تـاريخ ملوك الدولة الكارولنجية فبعد وفاة لوثر ملك لوثرنجيا سنة ٨٥٥م كانت نذيراً لحرب جديدة بين أبنائه وإخوته حول اقتسام مملكته، وفى هذه الظروف زاد خطر الغزاة بل ازدادوا عـنفاً مما أدى إلى قيام شارل الأصلع باتخاذ أساليب دفاعية لمجابهة الدانيين والتى تمثلت في معاهدة بيسترس Pistres سنة ٨٦٤م لكي يعدل نظام دفاعه فقام بالاعتماد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلاً من الخيالة الثقيلة من جهة وعمل جسور وعقبات في مجارى الأنهار لتعوق تقدمهم.[30]

وفـى الفـترة ما بين سنتي ٨٧٩ – ٨٨٧م اشتدت وطأة الدانيين على الإمبراطورية الكارولنجـية فبعد وفاة لويس الألماني في سنة ٨٧٦م ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧م زاد انقسام الإمـبراطورية بـل وضعفها وعجزها عن التصدى للغزاة فاجتاحوا أودية نهر الشلد والسوم، كما اجتاحوا فريزيا وفلاندرز وكل المنطقة الواقعة بين الراين واللوار، ولم تؤد هزيمتهم على يـد ملـك فرنسا لويس الثالث سنة ٨٨١م في موقعة ستسوكورت Saucourt إلى تراجعهم، رغم أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج مملكته، ولكن هذا النصر لم يكن كافياً للقضاء

---

27 Thompson, J. W., The Middle Ages, vol. I., London, 1931, p. 313.

28 هارمتن، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، ص٥٩٥.

29 Thompson, op. cit., Vol. I., p. 313.

30 عاشور، أوروبا، ص٢٢٧.

علــى خطــرهم فقــد اضطر شارل السمين ملك ألمانيا في محاولة لصرفهم عن مملكته إلى مصــالحة زعــيمهم المسى جود فريد فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل علــى مــنح الدانيين مبلغاً ضخماً من العملة الفضية بالإضافة على إقليم فريزيا ليكون دوقية لجود فريد، ولم يكتف بذلك بل زوجه من إبنته، وفى مقابل ذلك ينسحب جود فريد من مملكة شارل السمين، ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعاً للملك شارل.[٣١]

ولقد استشرى الغزاة بالرغم من كل هذه الامتيازات ولم يتركوا مدينة إلا وهاجموها حــتى الكنائس والأديرة ودور العبادة لم تسلم من عبثهم وبطشهم، في الوقت الذى استطاعت فــيه بعض المدن أن تقاوم بأسوارها المحصنة وقلاعها الشامخة، فإن دور العبادة المسيحية لم يكــن لهــا من حماية سوى قدسيتها وحرمتها في نفوس الناس، فتعرضت على أيديهم للسلب والنهــب والتدمــير، وكان الرهبان ورجال الدين يقضون نحبهم في أديرتهم، ونادراً ما كانوا يتمكــنون مــن النجاة بأنفسهم[٣٢]. ولقد ضاعت واندثرت كثير من المعالم والمبانى خلال تلك الغــزوات البربرية، ونادراً ما بقيت كنيسة أو معلماً دينياً لتلك الفترة، ونظراً لأن دور العبادة مــن كنائس وأديرة كانت في ذلك الوقت مراكز رئيسية للتعليم والثقافة في كل غرب أوروبا فقــد كــان فقدهــا وتدمــيرها بتلك الطريقة الوحشية فقداً لكثير من معالم الحضارة والمدنية والتقدم.[٣٣]

وبعد مغادرة الفيكنج ألمانيا وفقاً لمعاهدة السلوا اتجهوا صوب نتريا وهو أمر لم يهتم بــه شــارل الســمين، لذلك كان سنة ٨٨٢ – ٨٨٣م شتاء قاسياً مروعاً للجهات الشمالية من فرنســا إذ اجتاحــت المنطقة من ريمس حتى أعيان جموع ضخمة من الغزاة وهنا لم يحاول كارلومان أن يكون له أى دور إيجابى في التصدى والوقوف في وجههم وإنما فضل أن يقتفى سياسة شارل السمين السلبية فدفع لهم مبالغ طائلة من المال لكى يتركوا بلاده وينقلوا نشاطهم إلــى أوستراسيا وإنجلترا وإيرلندا[٣٤]. وبهذا أتيحت لشارل السمين فرصة توحيد معظم أجزاء الإمبراطورية الكارولنجية كما كانت أيام شارلمان بعد موت كارلومان ملك فرنسا، ولكنه كان

---

31 Oman, op. cit., pp. 438; Cam. Med. His., sb, Vol. III., p.322.

32 محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٣١٣؛ ديفز، شارلمان، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٥٩، ص٢٨٧-٢٧٩.

33 Cam. Med. His., Vol. III., p.323.

34 عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢٢٧ – ٢٢٨.

وحـيداً هـزيلاً اتسم بضعف السلطة المركزية وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى تربطهم بالمملكة الكارولنجية.

وهكذا أثبتت مجريات الأمور فيما بعد أن الاتفاقات التى عقدها الملوك مع الدانيين لا قـيمة لهـا ولا أهمية، إذ ما لبث أن عاد الغزاة إلى تهديد ألمانيا وفرنسا، واشتدت إغاراتهم بصـفة خاصة في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع فدمروا فلاندرز، وتعرض وادى الجارون الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة واستولى الغزاة على بوردو مرتين ونهبوا إيبيريا، كما إغاروا على بعض الموانى المسيحية والإسلامية في الأندلس،[35] كما هددوا الأجزاء الغربية من حوض البحر المتوسط، وتسللوا إلى بعض المدن في وادى الرون ونهبت كل من نيم Nimes وأفينون[36] Avignon.

وفـى أواخر سنة ٨٨٥م قام الغزاة بأكبر هجوم لهم فقد خرج أربعون ألف منهم في سبعمائة سفينة متجهين إلى باريس وتولى عدد كبير من زعمائهم ولقد أستطاعت مدينة باريس الصمود والوقوف في وجههم ومقاومة الحصار والهجوم عليهم بفضل ما اتسم به كونت أودو حاكمهـا، وأدى ذلك إلى رفع مكانة باريس ورفع قدر حكامها حتى أصبحت باريس منذ ذلك الوقـت مركز الثقل فى فرنسا وتنافس عاصمة الكارولنجيين، بل سيختار ملوك فرنسا من بين حكامها فيما بعد.[37]

ووصل الوضع بالامبراطور شارل السمين سنة ٨٨٦م أن يتعهد للدانيين بدفع مبالغ ضخمة من المال نظير خروجهم من باريس والسماح لهم بالإقامة في برجنديا وبناء على هذا الموقف السلبى من الامبراطور عزل شارل السمين، وتم اختيار أودو حاكم باريس ليكون ملكاً علـى فرنسا سنة ٨٨٨م، واستطاع أودو الانتصار على الغزاة ولكنهم لم يتركوه إذ عادوا بعد قليل لمهاجمة باريس مرة أخرى وكان الهجوم الرابع لها على الرغم من أن المدينة استطاعت التصـدى له إلا أن أودو تـراجع بعد ذلك وعمد إلى شراء مسالمتهم بالمال فوافقوا وانسحبوا إلى بريتانى، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا مرة أخرى وهددوا أواسط فرنسا ولكن أودو هذه المرة عـزم على أن يتصدى لهم فاستطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة عند مونتبيه Montpensier

---

[35] ابـن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٤٨، ص ٢٥٥.

[36] Thompson, op. cit., Vol. I, p. 316.

[37] Oman, op. cit., pp. 444.

وأن يأسر زعيمهم ثم يأمر بإعدامه سنة ٨٩٢م وينكل بهم ويأمر بقتل أعداد هائلة منهم[٣٨] ولكن برغم هذه الانتصارات لم يستطيعوا القضاء عليهم وظلوا من القوة بحيث تمكنوا من تهديد أجزاء كثيرة من فرنسا وحوض نهر السين.

ولقد هيأت الظروف في فرنسا جواً مناسباً للغزاة لاستئناف غاراتهم وخصوصاً بعد أن نشب صراع عنيف بين أودو ملك فرنسا وبين شارل البسيط وريث البيت الكارولنجى الذى استدعاه نبلاء فرنسا من منفاه في انجلترا ليسترجع ملكه، ويقصى أودو، الذين نظروا إليه إلى أنه واحد منهم وليس من أبناء الأسرة المالكة، بالإضافة إلى ذلك أنه لم يستطع إقصاء الغزاة عن مملكته لذلك أرادو الوقوف في وجهه لأنهم هم الذين اختاروه فبإمكانهم إقصاؤه وعودة الملك شارل البسيط لاستئناف حكمه[٣٩]. وفى تلك الفترة بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو الحاكم القديم وشارل البسيط الملك الجديد ولم تنته تلك المنازعات إلا بوفاة أودو سنة ٨٩٨م فاستعاد شارل البسيط حكمه على الجزء الغربى من المملكة الفرنجية واستمر في حكمه حتى سنة ٩٢٩م.[٤٠]

ولقد أظهر شارل البسيط رغم صغر سنه قدرة كبيرة على محاربة الدانيين ولم تكن إغارتهم قد انقطعت بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب وتوتر العلاقات بين شارل وأودو وعادوا إلى نستريا لينهبوها، ولكن الأهالى أظهروا الكثير من البطولات في مقاومتهم والتصدى لهم، بل واصرت المدن والأديرة والكنائس على التحصين وإغلاق الأبوبا دونهم، ولكنهم استمروا في الحوض الأدنى لنهر السين وبرز منهم زعيم قوى يدعى رولو Rollo اتخذ من مدينة روان قرب مصب نهر السين مركزاً للإغارة منه على المناطق الغربية بين نهر إيت وحدود بريتانى، كما أخذ رولو يهاجم مدينة بابو وما حولها.[٤١]

تأسيس نورمانديا:

أدى لقاء شارل البسيط ورولو إلى عقد اتفاقية سانت كلير Siant Clear سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية مهمة بين الطرفين سلم بمقتضاها الدانيون الإقليم الساحلى الممتد بين

---

38 عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢١٧.

39 بوفاة لوثر سنة ٨٥٥م قسمت مملكته إلى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه، ثم كثرت الحروب بينهم وقضت عليهم بحيث لم يبق منهم من الأبناء الشرعيين سوى شارل البسيط من فرنسا وشارل السمين من ألمانيا.

40 Cam. Med. His., Vol. III, p.34.

41 Oman, op. cit., pp. 498-499.
Thompson, op. cit., Vol. I, p.318; Keen, op. cit., p.25.

السوم حتى بريتا أو في ما عرف باسم أرض النورثمن[42](أرض الشماليين) Northmen ولم تكن هي نورثمانديا التى عرفت بعد ذلك بحدودها المعروفة، وإنما كانت تمثل المنطقة الواقعة على جانبى نهر السين أو ما عرف باسم نورمانديا، إذ أن النورمان لم يملكوا وسط نورمانديا إلا سنة ٩٢٤م، والواقع أن شارل البسيط قد قبل التنازل عن الإقليم مقابل اعتراف روللو بالتبعية له وتعهده باعتناق الديانة المسيحية، والتعهد بالدفاع عن فرنسا ضد الجماعات الشمالية الأخرى، ويبدو أن شارل كان يهدف من وراء هذه المنحة اتقاء شر الدانيين من جهة والاستفادة من دوق نورمانديا القوى في معاداة كونت باريس من جهة أخرى، فضلاً عن قطع اتصال باريس بالبحر من جهة ثالثة حسماً لأى غزو تقوم به، وما لبث الفيكنج الذين كانوا قد انتشروا في أنحاء فرنسا أن هرعوا إلى نورمانديا للانضواء تحت راية روللو وفى ظله لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ هذا الإقليم.

وقد أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط إذا عزمت معظم الجماعات المتناثرة هنا وهناك من الفيكنج ليعيشوا تحت حكم روللو من الولاية الجديدة وبذلك يكون شارل البسيط قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ الجزء الأخر أو لينقذ بقية البلاد.

والواقع أن اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلاً وبحكم هذه الاتفاقية أصبحوا يحكمون نورمانديا حكماً مستقلاً معترفاً به من الملكية الفرنسية مع إقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا.

ويبدو أن كلاً من شارل البسيط وروللو سعياً إلى إبرام هذه المعاهدة طلباً للراحة بعد فترة طويلة من القتال والغارات النورمانية والتصدى الفرنسى لها وذهاب الاستقرار وضياع الأمن، حتى لتذهب الروايات إلى أن خسارة الرومان في آخر معركة قبل هذه الاتفاقية بلغت سبعة آلاف رجل، ولاشك أنها على الجانب الفرنسى لا تقل عن ذلك إن لم تزد على حين توصل كبار زعماء النورمان إلى أن الحصول على إقليم غنى يعد أمراً مجزياً وثمناً مناسباً ويبدو أن الإقليم المعروف امتد حول نهر السين واعتبر من أغنى وأخصب الأقاليم الفرنسية.

وإذا كانت معاهدة سانت كلير قد أثارت إستياء في كثير من الأوساط الفرنسية وأستهجن المؤرخون سياسة شارل البسيط واتهموه بالجبن والاستسلام للنورمان والتفريط في أغنى أقاليم فرنسا وأخصبها ومنحه "لقرصان حقير" على حد قولهم فإنه سرعان ما تغيرت هذه الانطباعات وجرى اعتبار هذه المعاهدة عملا أملاه العقل وسداد الرأى وحسن التصرف

---

[42] Cantor, N., Medieval History, New York, 1964, p. 254.

لأنهـا وضعت حداً للإغارات النورمانية وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهدوء إلى منطقة السـين وأمـدت فرنسـا بدماء جديدة، ولاسيما وأن روللو تنصر وجرى تعميده وفقاً للكنيسة الكاثوليكـية وتسـمى بروبـرت Robert وقرر توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضى للكنائس والأديرة في وطنه الجديد.

ولقـد زاد مـن أهمـية دوق نورماندیا أعتناقه المسيحية وتبعه معظم رجاله الذين أصـبحوا مسـيحيين، ولكن الشيء الذى يسترعى الانتباه أنهم أظهروا وازعاً دينياً عميقاً بعد ذلك حيث جعلوا من أنفسهم حماة للمسيحية واهتموا ببناء الكنائس وشغفوا ببناء المدن وتشجيع العمران وأظهروا حماسة بالغة في استصلاح الأراضى وزراعتها.

ولقـد تمـيز هؤلاء بمرونة في أعتناق وتقبل الحضارة والعادات والأوضاع الجديدة علـيهم ولـم يكد يمر قرن من الزمان على عزوهم لنورمنديا حتى تأقلم النورمان واصبحوا فرنسـيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وإن ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل.

وفـى الواقع إن روللو زعيم النورمان يعد فعلاً إقطاعياً للملك الفرنسى وحمل لقب دوق، بـيد أنه يتصرف بطريقة مستقلة، وظل يواصل توسيع رقعة دوقيته الأصلية فلقد كان حجـم الاسـتيطان الأسـكندنافى صـغيراً ولكن سرعان ما اختلط رجال الشمال مع السكان الأصـليين واتخذوا الفرنسية لغة لهم، ولكن كل ذلك لم يغير أسلوبهم في الحياة بسرعة وظلوا علـى مـدى سـبعين عاماً كانت نورماندیا ميداناً للحروب الداخلية والصراعات الدموية بين السـادة الإقطاعييـن الـنورمان، كما أن سلطة الدوقيات الأوائل كانت تقوم على أساس من قدراتهم كمحاربين، كما أن تاريخ نورماندیا قبل سنة ٩٨٠م لا يحمل أى شيء يمكن أن يكون تمهيداً للتطور الذى شهدته نورماندیا في الفترة اللاحقة.

ولكـنهم لـم يلبثوا أن برهنوا على أنهم الأجناس الأوروبية على الإطلاق إذ أضافوا إلى ما اتصفت به أصولهم الشمالية من صفات الشهامة والرجولة والقوة جميع ما اكتسبوه هم وأبناؤهم من الشعوب اللاتينية وثقافتها التى اختلطت بحياتهم الجديدة.

هكـذا اسـتبدلوا بالوثنية دين المسيح، وباللغة الدانية لغة الفرنسيين واستعاضوا من ذكـرياتهم الشمالية الصافية تقاليد اللاتين واسسها الواضحة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، بعدمـا كـانوا ناهبين لها، واهتموا بإصلاح الأراضى وحرصوا على تشجيع العمران وإنشاء المـدن والأخـذ بنظم السكان الذين ينزلون بينهم، فلم تمض مائة عام على تملكهم لنورماندیا

حتى غدوا حماة أقوياء للمسيحية واستطاعوا أن يبثوا في البلاد التى امتلكوها فيما بعد حضارة ومدنية لها في غرب أوروبا لما اتسمت به من التسامح والروعة وامتزاج العناصر بها.

الخاتمة:

وفـــى خــتام هــذه الدراســـة عن الفيكنج نشير إلى أهم النتائج التي انتهى إليها الباحث:

١- تكاثر السكان بالنسبة للأراضى أدى إلى البحث عن موارد اقتصادية جديدة أدت على خروجهم من موطنهم الأصلى.
٢- تشــكل جماعات قوية أدت إلى دفع المتعلقين بحرياتهم إلى البحث عن أراضى غنية.
٣- حب المغامرة والاستكشاف أدى إلى خروجهم وقيامهم بأعمال السلب والنهب.
٤- أدت شــجاعتهم وقدرتهــم وتفوقهم في البحار إلى السطو على معظم الأراضى الغنية في أسبانيا وفرنسا.
٥- إحــتكاك النورمان بالعالم الروماني واكتشاف مواطن قوته وغناه وثرواته أدى إلى تكرار طمع هؤلاء وزيادة شرهم.
٦- المقاومـــة الضــعيفة الــتى أبداها الحكام الكارولنجيين أدت إلى زيادة أطماعهم واندفاعهم واستلابهم لكل تلك الثروات.
٧- مــنح شــارل البســيط لزعيم النورمان روللو تلك الأراضى أدت إلى تنظيمهم وانشغالهم وتطلعهم إلى حكومة مستقلة منفردة كانت في صالح جميع الأطراف.

ثبت المصادر والمراجع:

أولا المراجع والمصادر الأجنبية:

- Cmbridge Medieval History., (Cambridge, 1924).
- Cantor, N., Medieval History, (New York, 1967).

كانتور، نورمان، التاريخ الوسيط قصة حضارة: بداية ونهاية، ترجمة/ قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨١، جزءان.

- Davis, H., Charlemagne, (London, 1929).
- Dozy, R., Recherches sur l'historie et literature de l'Espagne pendants le moyen âge, (Leiden, 1860).

- Haskins, Ch. H., The Normans in European History, (New York, 1959).
- Hoyr and Chodorow, Europe in the Middle Ages, (U.S.A., 1967).
- Schjom, Hans, Denmark and its Sister States: Great Days of the North men, in the Book of History of the Nations from the Earliest Times to the Present., Vols. V.,VII.
- Schjoth, I., Great Days of the North men. B. H. VI. 1.
- Oman, Ch., The Dark Ages, 476 – 918. (London, 1964).
- Orton, Outlines of Medieval History, (Cambridge, 1929).
- Stephenson, C., Medieval History, (New York, 1943).
- Thompson, J. W., The Middle Ages, V. I, (London, 1931).

ثانيا المصادر والمراجع العربية والمعربة:

- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٥، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٤٨م.
- اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩.
- سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط ١٠، القاهرة، ١٩٨٦م.
- سى. و. بريفت، مغامرات النورمنديين، الفصل المائة من كتاب تاريخ العالم لجون هامرتن، القاهرة، د.ت.
- السيد الباز العرينى، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٦م.
- ماك كالوم سكوت، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، الفصل السادس والتسعون من كتاب تاريخ العالم لجون أ. هامرتن، القاهرة، المجلد الرابع، ط٢
- محمد الحويرى، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، القاهرة، ١٩٨٦.
- محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ط١، دمشق، ١٩٧١م.
- هـ. ديفز، شارلمان، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩م.

ب-عرض الكتب

جون ل. اسبوزيتو، التهديد الإسلامى، خرافة أم حقيقة؟ ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م، ٤٢١ص.

عرض د. حاتم الطحاوى

مصـــر

يكتسى هذا الكتاب أهمية بالغة، فالمؤلف هو أحد أهم الأكاديميين المتخصصين في دراسة "الحالة الإسلامية" في الغرب، ويبدو تميزه الواضح لكونه "مغرداً خارج السرب"، ويبدو صوته بعيداً عن أصوات الجوقة الغربية الزاعقة، التى أراحت نفسها، واحتلت بالصيحة القائلة "المسلمون قادمون ! المسلمون قادمون!".

بذل اسبوزيتو جهداً واضحاً في هذا الكتاب، وفي تحليل الخطاب الصادر عن جميع الحركات الإسلامية الفاعلة، وعبر المحيطين الزمنى والجغرافى للمسلمين، لكى يضع إصبعه في النهاية على "النقطة المظلمة" "الزاوية العتماء" في الذهنية الغربية، والتى ترفض أن تضع فارقاً بين كافة الحركات الإسلامية الحديثة، وتفضل أن تضعها جميعاً في سلة واحدة، لكى تصنع لنفسها عدواً جديداً بديلاً عن الاتحاد السوفيتى والشيوعية، ولكى تساهم من جهة آخرى في تكريس ودعم الأنظمة الإسلامية، غير الديمقراطية، تحت دعاوى الخوف من "الأصولية الإسلامية" و"الإرهاب".

ويتعامل المؤلف مع الظاهرة الإسلامية بوعى بالغ ويتمنى على المحللين وعلى دوائر صنع القرار في الغرب أن يتعاملوا معها على نفس الدرجة من الوعى، من أجل استشراف مستقبل أفضل للعلاقة بين الغرب والإسلام، ولهذا فهو يطالب بضرورة التمييز بين التحدى الدينى والأيديولوجى من ناحية والتهديد السياسى المباشر من ناحية أخرى وحتى لا ينطوى التعامل مع الإسلام على مغالطة كبرى فيحب معرفة الفارق الحقيقى بين وحدة الإسلام وتجلياته الإيجابية المتعددة في العصر الحديث. ويبنى رد الفعل للأقلية المحبطة، وبنظرة ثاقبة، لحظ المؤلف الثنائية المجتمعية بالعالم الإسلامى، ما بين نخبة علمانية، ومجتمع مسلم ينزع لحركات التجديد الإسلامى، ويأخذ على الغرب نظرته الإرتيابية نحو تلك الحركات ونعتها بمعادة الغرب، ويرجع جذور تلك الحركات إلى الفشل الذى أصاب المجتمعات العربية الناهضة بعد هزيمة ١٩٦٧م والتى كانت أنظمتها تهدف إلى محاكاة النموذج الأوروبى.

قدم المؤلف سياحة فكرية منذ الإسلام المبكر الذى اعتبره جامعاً للأفكار السابقة لليهودية والمسيحية، ونجح في صياغة نوع جديد من الرؤية الدينية المحكمة، الأمر الذى تسبب في إيجاد تحدى للغرب والمسيحية على المستوى اللاهوتى والثقافى، مما أدى في النهاية إلى نشوب صراعات فكرية، تحولت إلى مواجهات ميدانية على الأرض عبر حركة

الفـــتوح الإســـلامية. والحركة الصليبية في القرن الثانى عشر والثالث عشر للميلاد. ثم نجح المســـلمون العثمانيون في اجتياح القسطنطينية عاصمة الأرثوذكسية الأوربية منتصف القرن الخامس عشر ونشر الإسلام في البلقان وتهديد باقى دول أوربا.

ويـــرى أن ذلــك كله قد أوجد قطيعة بين الغرب والإسلام وساهم في وجود صورة مشوشة وشائة عن الإسلام والمسلمين كما ساهمت حركة الإصلاح الدينى في الغرب الحديث فـــي ترسيخ فكرة الإسلام الشرير واستمرت هواجس الغرب نحو الإسلام باعتباره تهديداً، كاد أن يجـــتاح أوروبـــا – الغرب في معركة بواتييه (بلاط الشهداء) ٧٣٢م. ثم عند بوابات فيينا ١٦٨٣م، ولـــولا الهـــزيمة التى حاقت بالمسلمين في المواجهتين لكانت اللغة العربية هى لغة الدراســـة فـــي جامعة أكسفورد، ويعود المؤلف إلى العصر الحديث حيث مرت العلاقات بين الإســـلام والغـــرب فـــي القرن العشرين عبر محورين أساسين: حركة الاستعمار الأوربى، حـــركات التحرير الوطنى، حيث كرس المستعمرون الأوربيون نظرتهم للإسلام بوصفه ديناً طيبياً، دون أن ينظروا إليه بوصفه نظاماً سياسياً متكاملاً، وكان ذلك من أجل تكريس نظرتهم نحـــو تحديـــث المجتمعات الإسلامية، وتشجيع حملات التبشير، بوصف المسيحية هى الديانة الأقرب إلى التقدم والنجاح، وإن الإسلام هو العكس.

وهكـــذا فـــإن المؤلـــف يدعو إلى عدم التسرع بإلقاء الأحكام النهائية على الإسلام، وربطـــه بالحركات الراديكالية فقط، والارتياح بوصفه بـــ "إمبراطورية الشر" كما يطالب بأن تكون الاستجابات لما يحدث على نحو عقلانى واع بدلاً من الافتراضات المسبقة.

وفى محاولة من اسبوزيتو للحديث عن المسكوت عنه في الغرب فإنه يطالب العقلية الغربـــية أن تـــنظر إلـــى ما يعتمل في العقلية الإسلامية من هواجس وتوجسات إزاء الغرب ويغذى ذلك تراث طويل من العنف وسلب إرادة الشعوب عبر محطات مثل الحروب الصليبية والاستعمار الغربى الحديث فضلاً عن الاستغلال الاقتصادي والغزو الثقافى.

ويـــأخذ المؤلف على الذهنية الغربية ميلها للحكم على مواقف المسلمين بشكل مبتسر ومتعســـف وإلـــى دمـــج أعمـــال الأقلـــية النارقة مع الأكثرية المتوازنة، وغض النظر عن التجاوزات المتماثلة التى ترتكب باسم ديانات أخرى غير الإسلام، وأيديولوجيات تصف نفسها بالحرية والديمقراطية.

يؤكـــد المؤلـــف على أن العديد من الحكومات الإسلامية قد أدركت ميل الغرب إلى رؤية الإسلام باعتباره خطراً فاستغلت عنف الجماعات الإسلامية الراديكالية، بعد أن ساوت – عـــن عمـــد – بيـــنهما وبين الجماعات الإسلامية المعتدلة كى تستطيع أن تسيطر على كافة الحـــركات الإسلامية وقمعها، وبدأت وسائل الإعلام في تلك الدول في تضخيم المخاوف من راديكالية متحجرة في الداخل، سوف تتعامل مع الغرب بعدوانية وظلامية شديدة، وهو ما أدى إلى تبرير حبس المسلمين المعتدلين.

وتتـبلور الفكرة الأساسية في الكتاب، لتصل، في الفصل الأخير إلى رفض المؤلف للاطـروحات المـنادية بصـدام الحضارات، وينتقد الكتاب المفكرين الغربيين المنادين بتلك الفكـرة، أمـثال برنارد لويس، الذى كان أسبق من طرح هنتنجتون لفكرته، ويصف المؤلف معلومـات لويس بالسطحية، وأنه لم يميز بين الجماعات الإسلامية المختلفة، وكذلك بالنقص المذهـل في المعلومات التى يقدمها، من أجل الوصول في النهاية إلى نتيجة شائهة هى حتمية حدوث الصدام الحضارى بين "الكتلة الإسلامية" والغرب.

كذلـك ينـتقد المؤلـف أطـروحة هنتنجتون التى تضع الإسلام إلى جانب الديانات الوضـعية الأخـرى – في مواجهة الحضارة الغربية، ويؤكد أن التناول الالتقائى الذى ينهجه الغربـيون للنشاط الإسلامى، يستبعد الأسباب التى أرتكز عليها المسلمون في رفضهم للغرب، وأن هـؤلاء المحلليـن لا يجهـدون أنفسـهم أبـداً في البحث عن الجذور التى تحدد مواقف الإسلاميين، بدلاً من استبعادها ببساطة، واعتبارها نتيجة للصدام بين الحضارات.

ويهاجم المؤلف المحللين الغربيين الذين يربطون جميع الحركات الإسلامية في العالم الإسـلامى فـي خـيط واحد، ويعتبرون أن ما يحدث في فلسطين – كشمير – أذربيجان – وكوسـوفو – ولبنان هى انتفاضة إسلامية عالمية، ويرى أن اقتناع الغربيين بهذا، يؤدى بهم في النهاية إلى تخيل وحدة إسلامية غير واقعية، لأن كل منطقة وجماعة لها أسبابها الخاصة، فما يحدث من انتفاضة في فلسطين لا علاقة له بما يحدث في كشمير وكوسوفو وأذربيجان.

ويتهم اسبوزيتو المحللين الغربيين بالازدواجية عندما يرحبون برغبات شعوب شرق أوروبا نحو التحرر والاستقلال في الوقت الذى يرفضون فيه مطالب الحركات الإسلامية، ولا يـتوقف عند ذلك فقط، بل يحاول أن يحلل أسباب هذه الافتراضات الخاطئة ويرجعها إلى عدة عوامـل أهمهـا أن معظـم أولئك المحللين جاءوا نتيجة انحيازات علمانية فضلاً عن فهمهم البسـيط والضحل للإسلام، وكذا ندرة الباحثين في الدراسات الإسلامية، واضطرارهم للتعامل مـع الماضى الإسلامى، ومحدودية إمكانياتهم من حيث فهم الإسلام الصحيح، واللغة العربية، والاتصال الحقيقى مع الناشطين الإسلاميين، والحركات الإسلامية.

والنتـيجة الـتى يخلـص إليها المؤلف هى أنه يجب على الغربيين أن يدركون أن الإسـلام يتمـيز بحيوية فائقة ودائمة، وأنه لا يجب اختزال كافة الحركات الإسلامية في كفة واحـدة، ولا يمكن أن تقوم صيغة استراتيجية أو وصفة سحرية "معلبة" بالتعامل مع الظاهرة الإسلامية ككل، بل يجب التحفظ ومعرفة الحد الفاصل بين الحركات الإسلامية ذات المشروع الفكرى والتجديدى، وبعض العناصر والجماعات الراديكالية التى تبنت العنف نتيجة للعديد من الأسباب الداخلية وكذلك الأسباب الخارجية التى كان الغرب هو المسئول الأول عنها بشكل أو بأخر.

يتـــبقى أن الـــترجمة الدقيقة والفائقة لأفكار المؤلف، قد توقفت أمام رؤيته لإسرائيل ودورهـــا، فقـــد أخذت عليه – بحق– محاولة إيجاد مشابهة تعسفية بين مناضلين حقيقيين مثل نيلســـون مانديلا وياسر عرفات، وإرهابيين على شاكلة مناحم بيجن واسحق شامير وعصابة شـــتيرن، غير أن هذه "الزلة" للمؤلف لا تنفى عنه معرفته ودرايته الفائقة بتضاريس الحركات الإســـلامية الحديـــثة، وكذلك نزعته الموضوعية في التعامل مع الظاهرة الإسلامية، بل ربما يمكـــن القـــول – مـــع بعـــض التحفظ – أن المؤلف يفهم طبيعة جميع الحركات الإسلامية، وأفكارهـــا، ربما أفضل من بعض الحكومات المسلمة، التى لم تفهم ذلك، أو التى أغفلت فهم ذلك – عن عمد – حتى تستطيع تطبيق سياساتها، وتحقيق أهدافها ومصالحها.

حـــدث هـــذا فـــي الوقـــت الذى عزت فيه الحركات الإسلامية الأحيانية (المهدية – السنوســـية – الوهابـــية وفـــى البنغال والهند وإندونيسيا) تخلف مجتمعاتها إلى البعد عن القيم النبـــيلة للإســـلام، وجهود المستعمرين في تسريب أفكار غريبة لا تصب في مجرى المجتمع المســـلم ورأت ضرورة العودة إلى الإسلام الصحيح، وهكذا انبثقت التصورات الإسلامية عن الغـــرب المســـيحى عـــبر سياســـات الاستعمار الذى هدد باقتلاع الهوية الإسلامية للشعوب المستعمرة.

ويرصـــد المؤلـــف أن الاستجابة الإسلامية لتحدى الاستعمار الغربى قد عبرت عن نفسها عبر عدة إفرازات تراوحت ما بين الرفض والانسحاب أو الأخذ بالعلمانية والتغريب أو إيجـــاد نـــوع من الحداثة الإسلامية وتمثلت النتيجة النهائية لعمليات التحديث التى جرت بعد نجاح الحركات الوطنية ضد الاستعمار في ظهور نخب جديدة في المجتمع المسلم. حيث أفرز التعايش بين المدارس الدينية التقليدية رؤيتين متوازيتين للعالم اعتمدتها أقلية نخبوية، علمانية، وأغلبـــية محافظة ذات توجه إسلامي، وسعى معظم الحكم في المجتمعات الإسلامية إلى إيجاد موائمـــة بيـــن التراث الإسلامى والعلائق الثقافية الخاصة بالاستعمار الغربى، حيث تم فرض التحديث من أعلى بواسطة الحكومات والنخب المرتبطة بالغرب.

وقلـــيلون هم الذين تساءلوا عن الحكمة المقبولة بأن التحديث يعنى التغريب والعلمنة المطردة للمجتمع، وبرزت إلى السطح حداثة إسلامية ترمى إلى سد الفجوة ما بين المصلحين العلمانييـــن، والتراثييـــن الإســـلاميين كالأفغانى، محمد عبده، أحمد خان، محمد إقبال، ويؤكد المؤلـــف دائماً على الفهم الملتبس للإسلام في أذهان الغربيين، وتعمدهم استخدام مصطلحات "كالأصـــولية" ذات المـــزاعم المســـتمدة من البروتستانتية الأمريكية، وبالتالى وصم الإسلام بالإرهـــاب، ركـــزت آلات الإعلام الغربية على صورة المسلم الأصولى، الأرهابى المعادى لمصـــالح الغـــرب و ديانـــته غـــير أنه يلحظ – في لفته بارعة – أن أنظمة الحكم في الدول المســـلمة، تلقفـــت أيضاً هذا المصطلح، من أجل توظيفه لخدمة أغراضها، ووصم خصومها الداخليين بصفات سوداوية شريرة وذلك لكسب الصراع الداخلى في المجتمعات الإسلامية.

ولـم تـتوقف تلـك الأنظمة المسلمة عند ذلك فقط بل نجحت في استغلال الواجهة الإسلامية التى صبغت بها، سياستها من أجل سحب البساط من تحت أقدام الحركات الإسلامية الإحيائية منها وذات الاتجاه الثورى، مثلما حدث في ليبيا والسودان ومصر.

ويرسل المؤلف بصره أيضاً نحو كتلة ثالثة بالمجتمعات الإسلامية، أدركت منذ وقت بعـيد أن تطبـيق الحكومات للشعارات الإسلامية ما هو إلا وسيلة للسيطرة السياسية والقبض بـزمام الأمـور أكثر من كونها دعوة حقيقة للإلهام والتجديد، وبدأ أفراد تلك الكتلة – التى لم يحدد المؤلف ثقلها – في المجتمعات الإسلامية يتساءلون هل ستصبح الدولة الإسلامية الجديدة أكـثر فعالية من النظم العلمانية في قضايا المشاركة السياسية والديمقراطية وحقوق الإنسان، فضـلاً عن الأصالة الثقافية، وهل ينحصر الاختيار فقط فيما بين "حكم الفرد العلمانى أم حكم الفرد الإسلامى؟!".

وانـتقل بعد ذلك إلى استعراض التنظيمات الإسلامية الموجودة على الساحة، وعلى الـرغم مـن اتسـاع المشهد الفسيفسائى للجماعات الإسلامية عبر جغرافية العالمين العربى والإسـلامى، فـإن المؤلف استطاع الإمساك بتلابيبه، كما أستطاع استعراض كافة جماعاته المعـتدلة منها والثورية في مصر ولبنان والجزائر وإيران وتركيا وموقف تلك الجماعات من الغرب، وكذا موقفها من حل المعضلة الإسلامية الداخلية في بلادها وموقفها من العلمانية ومن مسـتقبل المجتمعات التى تقوم بالتعبير عنها، وعلى الرغم من تورط العديد من الغربيين من مسؤولين رسميين ومفكرين ومحللين، في التحذير من خطورة الإسلام فإن اسبوزينو يرى أن الغـرب أمامـه طريقيـن لفهم ما يجرى في العالم الإسلامى ومن ثم الاستجابة الإيجابية له، طـريق سـهل وآخر صعب، الطريق الأول الأكثر يسراً وسهولة الذى تسكله الذهنية الغربية حـتى الآن، هو أن يتم النظر للإسلام وحركات الإحياء الإسلامية بوصفها تهديداً عالمياً وأن يصـبح الإسـلام عـدواً تاريخياً للغرب المسيحى، وهو ما يؤدى في النهاية إلى تأييد النظم العلمانـية الموجـودة فـي الدول الإسلامية بأى ثمن، وأن يغض الغرب المسيحى النظر عن قمعها لشعوبها (المسلمة)، بدلاً من المخاطرة بوجود حكومات إسلامية في الحكم.

أمـا الطـريق الأكثر صعوبة الذى ينادى به المؤلف وربما تقوم فكرة الكتاب عليه، فهـو ضـرورة الـتحرك نحـو اكتشاف مدى الضرر الذى تسببه الأنماط السهلة والإجابات الجاهـزة التى أفرزتها وسائل الأعلام الأمريكية والغربية، وتعميق فهم العقل الغربى، فينادى بضـرورة الـتمهل فـي تـناول الظاهـرة الإسلامية وتجلياتها، الفصل بين الإسلام المثالى والحـركات الراديكالـية، ويذكر الغربيين أنه على الرغم من كفاءة أجهزة المخابرات الغربية ودوائر صنع القرار فإن الجميع لم يكونوا ليستطيعوا التنبؤ بالانهيار السريع للاتحاد السوفيتى، وأن الإجماع على فكرة معينة، لا يعنى بالضرورة صوابها.

second world war until today, seen, for example, in the political freedom of Muslim peoples from the colonial domination of western powers, emphasis on national identity, Pan-Islamic ideal, and increase of missionary zeal. in today's world the adaptability of Islam raises many questions, such as the direction of Islamic reform and revival, the relationship between tradition and modernization, or the role of the religious leaders (*'ulamâ)* for the future of Islam. Islam, as a world religion, with a global following of 1.4 billion adherents should be of interest to all those concerned with 'foreign' religions. As Yannoulatos stresses, the understanding of the world in which we live, requires a knowledge of Islam as a prerequisite for an appreciation of our theologically and historically interconnected Judaeo-Christian-Islamic heritage.

Yannoulatos' book succeeds in enabling the readers to understand and appreciate what Muslims believe and practice. His work written in a concise, lively and accessible manner gives the reader an informative view of the fundamental role Islam plays in Muslim life. As its centre is Allah, God, its monotheism dominates Islamic practice; spreading God's will is an individual and Community obligation. The author describes the origin of the religion, its formation, sources of influence, theological development, foundations of its faith, cult life, and the significance of law imposed by the *Sharī'a,* a religion that impregnates peoples historical conscience and determines their future. Though this work is a reprint of the *1975* edition, and therefore does not contain updated references and bibliography, nevertheless it remains an important contribution to our knowledge about basic aspects of the religion of Islam. Yannoulatos uses extensive footnotes in the form of references and scientific support to the arguments developed in the text, gives the etymological meaning of Arabic terms when necessary, brings to our attention problems related to the source material for certain aspects of the Islamic history, and sheds light on contradictory issues by expressing his own interpretation. Yannoulatos' book is a comprehensive study of Islam and its dynamic throughout the ages.

the polemic it faced by the Byzantines, and the penetration of Greek thought during the 'Abbâsid period.

In chapter 3, he explains that the Muslim faith and practice are expressed in a variety of beliefs and rituals. He describes the five duties of the Muslims, *shahâda* (confession of faith), *ṣalât* (prayer), *zakât*(legal alms), *ṣawm*(fasting), *ḥajj*(pilgrimage), and puts emphasis on the rituals and procedures used during each practice. He also refers to other festivals and celebrations in Muslim religious life stressing that they aim at bringing unity to the Muslims exercising influence on them so as to submit to God's will. In chapter 4, he discusses main moral principles focusing on family institutions, the position of women, the theory of *jihâd* etc., and points out the values of compassion, humanity, modesty, justice, among others, emphasized by the Qur'ân and the *hadīth*. Further, he explains the significance of law (called *Shari'a*) in Islam, which defines the behaviour of men in their personal and social life. It drives from the teachings of Qur'ân, *sunna*, consensus of learned opinion (*ijma'*), and reasoning by analogy (*qyias*).

In part three, chapter 1, Yannoulatos draws a historical map of the main events that marked the Arabic history, and maintains that Islam passed though many stages in its development: classical period (rise of the Arabs from the 7th to 13th c.), medieval period (rise of the Mongols and Turks in the mid 13th c. to 18th c3, period of decline (end 18th c. to the beginning of 20th c.), and a new rise (after the Second World War). He also refers to the development of Islam as a world civilization, and its contribution to the history of philosophy, art, architecture, astronomy, theology, medicine, mathematics and the sciences. He examines the religious divisions in Islam, and describes the sects of Khawârij, Mu'tazila, Murji'a, Aḥmadîya. In chapter 2, he focuses on the Sunnites and Shiites, their branches, sources of influence, beliefs and differences. In chapter 3, he provides a historical summary of the development of the branch of Islamic mysticism called 'Sufism' and his representatives.

In chapter 4, Yannoulatos describes the characteristics of contemporary Islam. He examines the internal tendencies in Islam, such as the liberal modernization movement (Sayyid Aḥmad Khân, 1817—1898), reawakening of 'Islamic Orthodoxy' aimed at the 'restoration' of Islam (focuses on the 'fundamentalist' movements of Wahhâbî in Saudi Arabia, Mahdî in the Sudan, Sanûsî in Libya), radical reform (Turkish interpretation of Islam), and legislative adjustments. He stresses that the Muslim world witnessed a gradual increase of political power after the

calendar.

In chapter 3, Yannoulatos focuses on the Qur'ân, the main source of Muslim religious life, and the foundation of Islamic belief and practice. He describes its character, division (114 *suras)* dating (compilation finished in 645), stresses chronological problems related to its form, and looks at interpretative attempts. He compares the Qur'ân with the person of Christ in Christian theology as evereternal Word of God'. The Qur'ân contains the revelations received by the Prophet in Mecca and Medina, and is a treatise of prayers, summary of sacred history and basis of morality and law in Islam, and as such the first written monument of Arabic language. The Qur'ân is the main visible sign of God's presence among people in a religion that has no priests, mysteries and icons as in the Christian Church. In chapter 4, the author discusses the nature and form of the *ḥadīth* (the tradition of the acts and sayings of the Prophet), and drawing on examples, he describes its use as a source for giving solutions to problems in the Muslim Community. He argues that the Qur'ân is understood under the light of the *ḥadīth* and provides information about the *isnâds*(chains of authority) stressing the issue of the reliability of the historicity of names, accuracy, and the relationship between the participants of *isnâds.* He also lists the *ḥadīth* in categories; and describes collections of them which influenced the development of the Islamic law.

In the second part, Yannoulatos examines the Islamic creed and ethos in four chapters. In chapter 1, he gives the basic theological lines of the Qur'ân. He stresses the 'foundations of faith' i.e. its monotheism, belief in angels, prophets, the books of prophets, resurrection of the dead, last judgment, predestination of man, and draws a schematic parallelism with Christian symbols of faith. He points that the differences between Muslim and Christian teachings are the rejection of the divinity of Jesus, negation of the term 'father' attached to God, which is related to the idea of being the son of God and the teaching of Holy Trinity, negation of the crucification, and resurrection of Christ. Some of the similarities are the special place Virgin Mary *(Maryam* has in the Qur'ân and is, in fact the only woman mentioned by name, the respect towards the person of Jesus and his work, and the Holy Spirit. In chapter 2, the author summarises the historical background of the rise of theology *(kalâm 'speech')* and philosophy in Islam (3rd c. A.H.). He argues that the main reasons for the rise of *kalâm* were the theological and political differences of various groups in the Muslim Community, the need for spiritual defense against

' Αναστασίου Γιαννουλάτου,' Αρχιεπισκόπου Τιράνων και ' πάσης' Αλβανίας,' Ισλάμ. Θρησκειολογική επισκόπησις, (Islam. A General Survey), 1st edition 1975, (Athens, 2001). 339 pages..by Maria Vaiou

The lack of studies on Islam by Greek scholars makes Yannoulatos' book an interesting one. Yannoulatos examines the role of religion in Islam in three parts. He starts his introduction with the meaning of the term Islam,[1] and stresses the importance of knowing about it. He examines the nature and phases of the knowledge and investigation of Islam by non-Muslims, and looks at the existing literature on Islam. He begins the first part examining the roots of Islam in four chapters. In chapter 1, he describes the background of the development of Islam, the pre-Islamic Arabic religion —its polytheistic structure, the *Allâh* monotheistic concept, cult aspects, morals — and the Christian and Jewish influences in the form of religious streams which were incorporated in Islam.

In chapter 2, Yannoulatos describes the emergence of Islam, focusing on the early years of the Prophet (570—622 A.D.). He continues with the historiographical problems related to the study of the early Islam, the Life of the Prophet, and the Qur'ân. Yannoulatos points out that the Prophet's migration *(Hijra)* to Medina in 622 A.D. was the turning point for the formation of the religion of Islam. The Prophet Muhammad called people to the one true God returning to the faith of Abraham *(millat Ibrahim)* and did not bring a message from a new God. In this way, though he put aside the names of Jesus and Moses invoked by the two other Abrahamic religions Judaism and Christianity, he provided a point of common approval and unquestionable authority. In addition he put the basis of the Muslim Community bonded by a common religious faith, and drew attention to traditional Arabic principles to which he gave new theological interpretation. This is reflected in the direction *(qibla)* for prayer to Mecca instead of Jerusalem. A series of rules followed which cemented the national Arabic character of the religious movement of Muhammad. The importance of the Prophet's migration is reflected in its adoption as the beginning of the Islamic

[1] By the term Islam, Yannoulatos means the religious experience defined as 'submission to God' or 'acceptance of God's guidance'.

B. Book Reviews



Fig. 10



Fig. 11



Fig. 12



Fig. 13



Fig. 7



Fig. 8



Fig. 9



Fig. 3

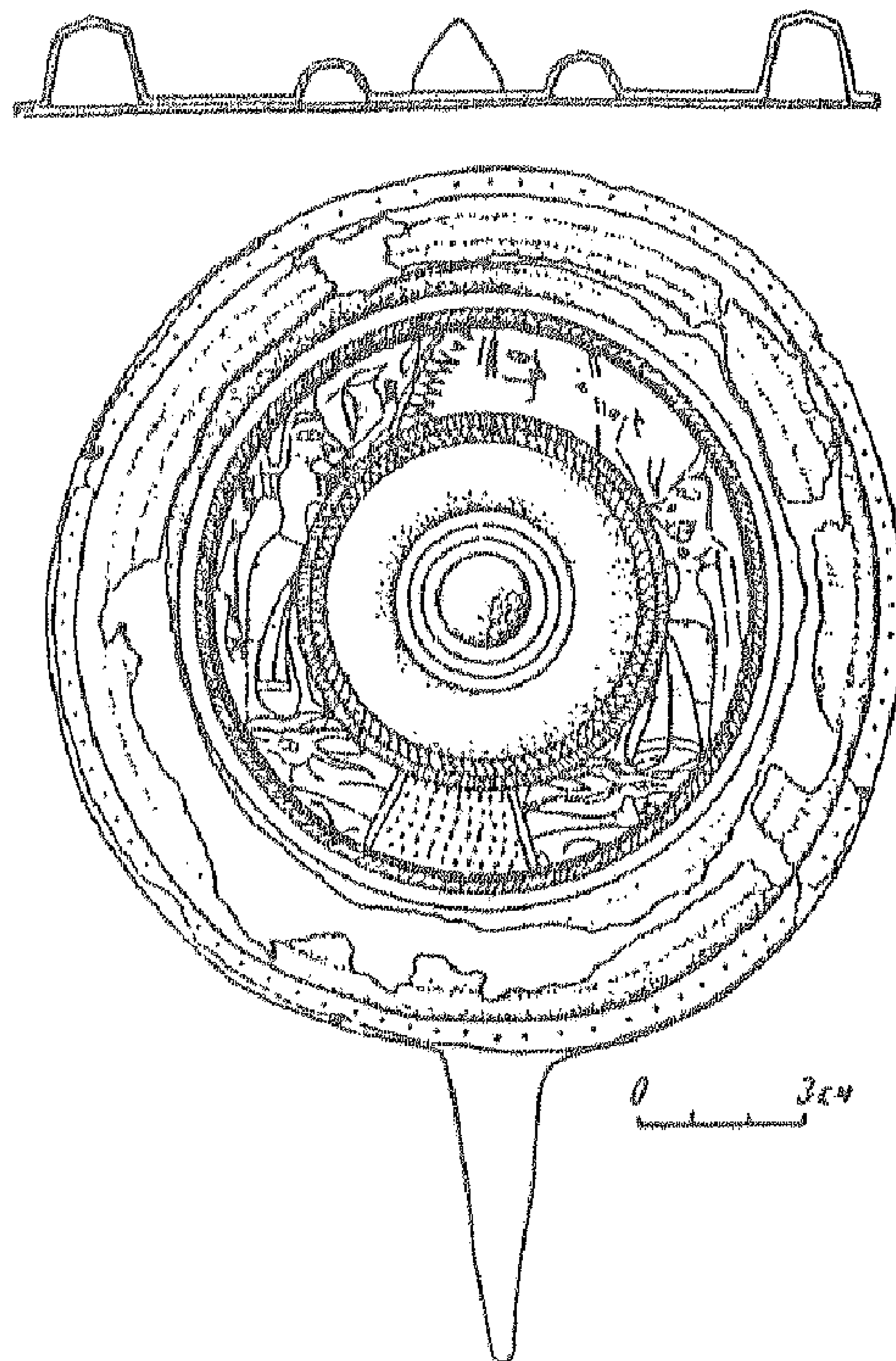
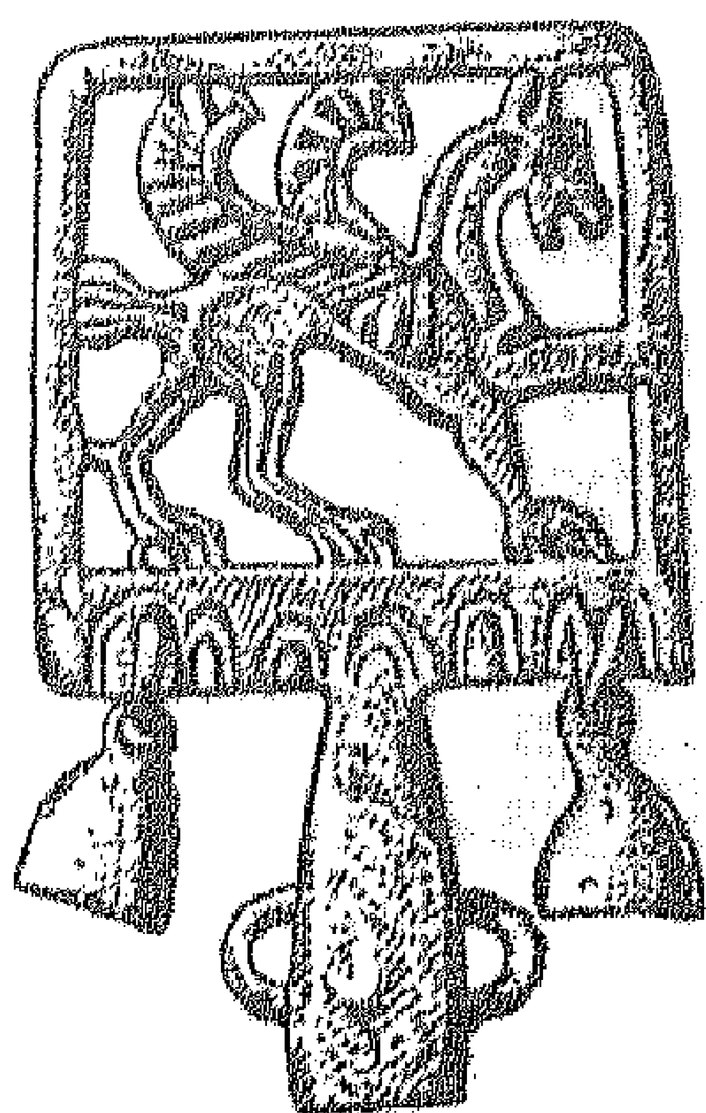


Fig. 4



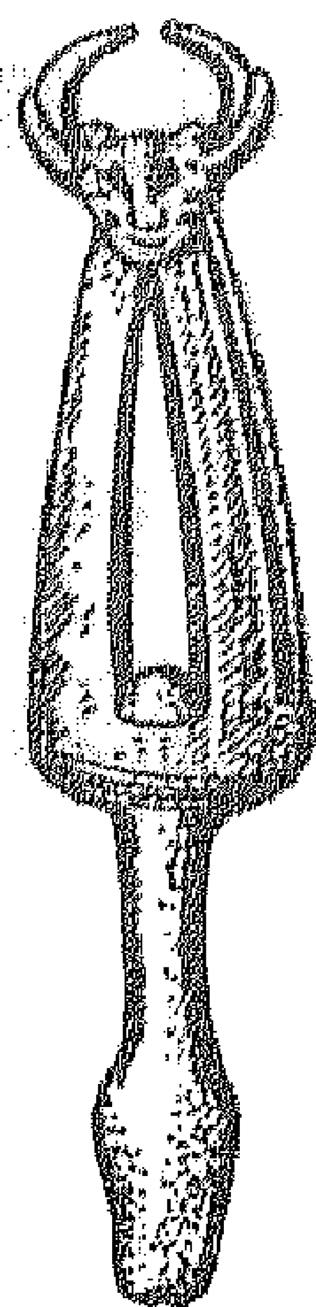


Fig. 5



Fig. 6

Figures

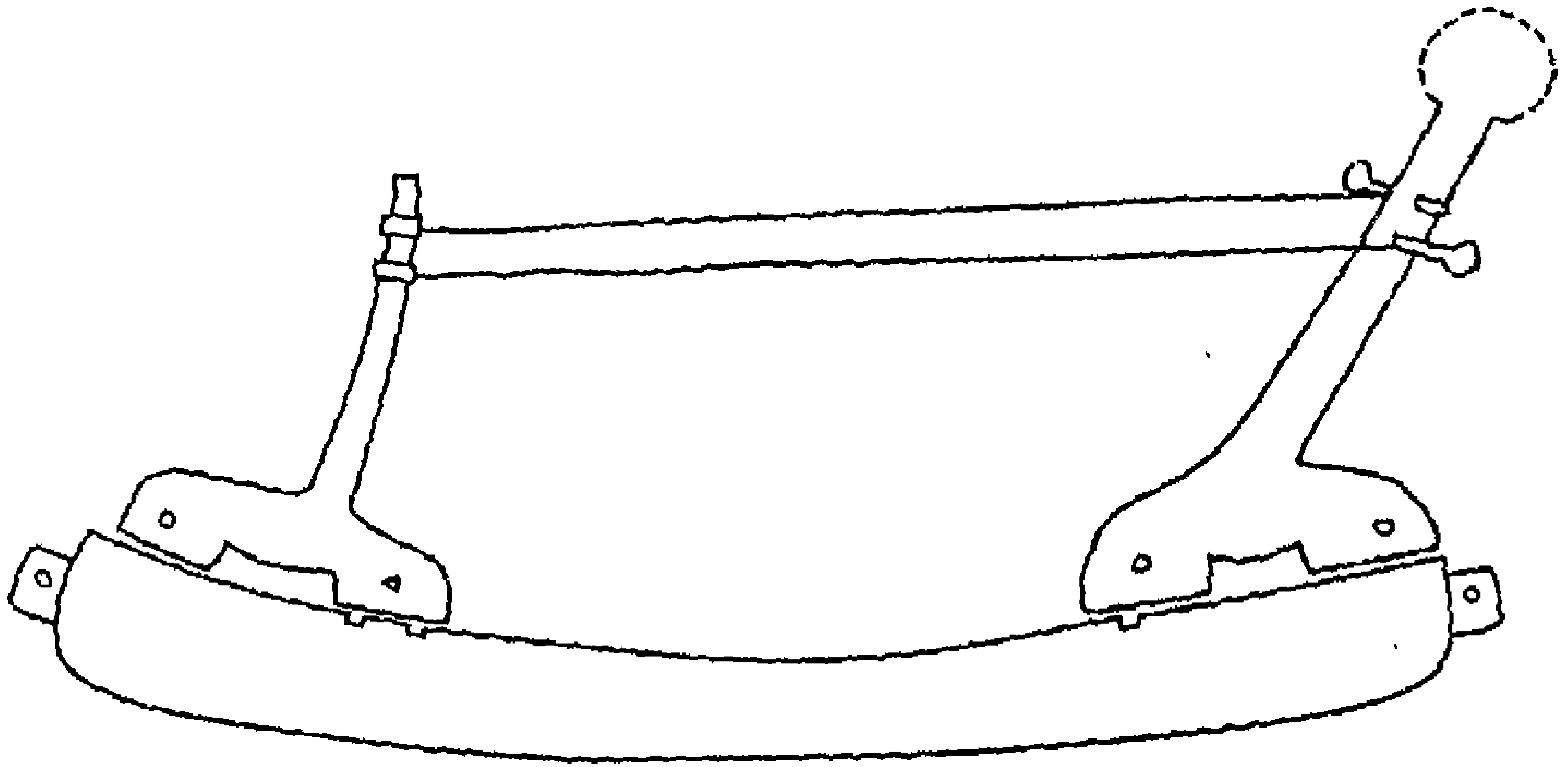


Fig.1



Fig. 2

27.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la cèramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie (Paris 1984)25-26
28.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la cèramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie (Paris 1984)74 -75

4.E.E.Fialko, 'Iskusstvo narodov Skifii' Velikaia Skifiia(Kiev-Zaporozhie 2002)127-139
5.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991)140-154
6. T.M. Kuznetsova, 'Vostochniie muzikalnije zerkala' Peterburgskii arkheologicheskii vestnik 7(St Peterburg 2000) 82-87
7.V.V.Latishev, Izvestiia drevnikh pisatelei o Skifii I Kavkaze (St Peterburg 1992-1993) 147
8. S.I.Rudenko, Kultura naseleniia Tsentralnogo Altaia v skifskoie vremia(Moscow-Leningrad 1960)62-63
9.K.F.Smirnov, Sarmati na Ileke (Moscow 1975)142-143
10.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991)140-154
11.S.S.Bessonova,D.S.Raevski, 'Zolota plastinka iz Sakhnivki'Arkheologiia 21 (Kiev 1977)30-50
12.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991) 150-152
13.T.N.Visotskaia, Neapol – stolitsa gosudarstva pozdnikh skifov (Kiev 1979)183
14. T.M. Kuznetsova, 'Vostochniie muzikalnije zerkala' Peterburgskii arkheologicheskii vestnik 7(St Peterburg 2000) 82-87
15.K.F.Smirnov, Sarmati na Ileke (Moscow 1975)142-143
16.A.I.Meliukova, Krasnokutskii kurgan (Moscow 1981)50-53, fig.14
17.E.V.Chernenko, S.S.Bessonova, Yu.V. Boltrik, S.P.Polin, S.A.Skorii, Bokii N.M., Grebennikov Yu.S., Skifskie pogrebalnie pamiatniki stepei Severnogo Prichernomoria(Kiev 1986)221,264
18.L.K. Galanina, Skifskiie drevnosti Podneprovia .Ermitazhnaia kollektsiia N.E.Brandenburga. SAI.D1-33 (Moscow 1977) 41-42, Pl.21.
19.E.V.Chernenko, S.S.Bessonova, Yu.V. Boltrik, S.P.Polin, S.A.Skorii, Bokii N.M., Grebennikov Yu.S., Skifskie pogrebalnie pamiatniki stepei Severnogo Prichernomoria(Kiev 1986)216.217,222,238.270,279
20.V.Tatarkevich, Antichnaia estetika (Moscow 1977)17
21.E.I.Solomonik, Noviie epigraficheskiie pakiatniki Khersonesa. Lapidarniie nadpisi(Kiev 1973) 99,103
22.E.B.Petrova, Antichnaia Feodosiia (Simferopol 2000)156
23.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983)219
24.V.Tatarkevich, Antichnaia estetika (Moscow 1977) 19
25. S.Gazarian, V mire muzikalnikh instrumentov (Moscow 1989) 49
26.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983) pl.CXIX,8

Figures:

Fig. 1. Instrument à archet du type du violon trouvé dans le deuxième kourgane « Pazyrykski » à Altaï (V s. av. J.-C.)

Fig.2 : Un Scythe jouant de l'instrument à cordes du type de la cithare - image sur la planchette d'or d'une coiffure trouvée dans le kourgane "Sakhnovski" (IV s. av. J.-C.). Kiev. Musée des objets précieux historiques.

Fig. 3 :Un homme jouant de la lyre. Caveau №9 (II-III ss.) de la nécropole de Néapolis de Scythie – capitale des Scythes tardifs.

Fig. 4 :Une glace-crécelle musicale trouvée dans le sépulcre sarmate « Metchetsaïski »(kourgane8,enterrement5).D'après K.F. Smirnov

Fig.5 : Les bouts des bâtons rituels scytes:

a) kourgane « Alexandropolski »

b) kourgane « Starchaïa moguila»

Fig. 6 : Aulos-alto. Fragment du cratère du musée de Khérsonèse (№ KP – 2877/08)

Fig. 7 : Aulos-baryton. Cratère avec l'image d'une scène théâtrale. Musée historique de Kiev.

Fig.8 : Aulos-soprano. Péliké du musée de Yalta, KP – 502. Ici il y a encore une image qui représente une lyre à 5 cordes à l'intérieur.

Fig.9 : Lyre sur une pyxis de musée de Yalta (KP – 496).

Fig. 10: Image d'un tympanon sur une péliké du musée républicain de Crimée (KP – 1094).

Fig.11. Salpinx..Coupe,FR, Vatican n°498,ARV^2

Fig. 12: Harpe ou trigonon sur la statuette de terre cuite de Panticapée.

Fig. 13: Syrinx sur une terre cuite de Panticapée.

Notes

1.M. Maas, Stringed instruments of ancient Greece (Bethany Connecticut : Brevis Press 1989)

2.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la céramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie(Paris, 1984)

3.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983)219,Pl. CXIX

pendues . La musique accompagnait les rites, on jouait de l'instrument à cordes, et , probablement , une sacrificatrice qui donnait le rythme à l'aide d'une glace musicale ou d'une crecelle.Le départ d'une armée était accompagné de divers bruits musicaux. Les pommes des cannes qui ornaient les bâtons de rite, faisaient de bruit. Un aristocrate scythe au cheval représentait un phénomène non seulement majestueux et redoutable , mais aussi et musical grace aux sonnettes et les autres pendentifs sur le harnachement. Les flèches des Scythes sifflaient au vol. La musique accompagnait et les festins, et la vie quobidienne, et la loisir.

Pour faire notre notion de la culture musicale des peuples indigènes plus détaille, il faut réunir toutes sortes des sourses – et les renseignements des auteurs antiques, et les trouvailles archéologiques - les débris des instruments de musique et les images des scènes avec les instruments de musique sur les vases, sur les terres cuites, sur les monuments trouvés dans cette région .

La création d'un tel corps – notre tache immédiate. Nous espérons que notre travail soit utile aux critiques d'art, aux musicologues et au milieu large des amateurs de l'Antiquité .

• communication aimable de V. Ougentsev

voisine de celle de notre violon alto et sonnait dans un registre médium aigu. La trompette est normalement faite en bronze, mais il existait aussi des trompettes de fer. La salpinx parait avoir été relativement légère car l'instrumentiste la tient d'une seule main. Au ses faibles possibilités musicals et le caractère perçant de sa sonorité, la trompette est essentielement un instrument d'alerte ou de signalisation. Dans la vie militaire, elle donne le signal de l'attaque ou de la retraite. Au théâtre, elle sert à obtenir le silence. Sur les vases ,elle aparait entre les mains des Amazones ou de Niké. Un épisode très interessant de l'histoire de Théodosie antique est lié avec cet instrument. Le général Tinnikh à l'aide de la salpinx a liberé cette ville du siège[Poliaen. Strategemata.V, 23].

L'instrument de signaux plus primitif était fait de coquille du mollusque de mer – un tel exemplaire est trouveé pendant les fouilles à Kalos- Limène (colonie de Khérsonèse de Tauride à la Crimée de sud-ouest) ** .

L'instrument était trouvé dans les couches de la destruction liées avec la dernier siège de la ville par les Scythes, entouré des artéfacts temoignant que c'était un outillage d'un navire de guerre tiré sur la côte. Nous pouvons voir une image d'une harpe ou d'un trigonon sur les statuettes de terre cuite de Panticapée(d.12). Une syrinx - l'instrument préféré de Pan - est représenté sur les terres cuites de Panticapée(id.13).

Donc les sourses antiques , les trouivailles archéologiques et les images sur les vases prouvent que les habitants des villes antiques du littoral septemtrional de la Mer Noire utilisaient à la vie quotidienne, à l'activité professiolelle, pendant les rites réligieux utilisaient les instruments à cordes. On connait la lyre,la cithare,la harpe ou le triginon. Parmi les instruments à vent on connait la flûte,la syrinx et la trompette-salpinx. L'instrument à percusson le plus répandu est tympanon.

Sans aucun doute qu'ils etaient faits dans les atelier d'artisan au littoral septembrional de la Mer Noire , et leurs sons réjouaient l'oreille des melomanes de cette régione dont il y avait beaucoup(selon les auteurs antiques).

Les Scythes et les Sarmates préféraient les instruments à cordes faits des matériaux de fortune de bois, de peau, des tendons des animaux. Les orecelles des hochets étaient importés et fabriqués à la region. Les ornements, les vêtements feminins de fête abondaient en pendeloques faisant du bruit aui pouvaient accompagner à une danse. Le harnochement produisait aussi des sons melodieux grâce aux sonnettes

Les cordes etaient en nombre variable – de 5 à 9. Au bas de la carapace il y avait des trous pour les cordes qui se roulaient sur la traverse. Une lyre à 5 cordes est représentée sur une péliké du musée de Yalta № 502 (fig. 8). Sur ce dessin elle est représentée de l'intérieur, sur une pyxis de même musée №496 (fig. 9) – de l'extérieur de l'instrument . Eros qui tient la lyre à la main gauche sur ce dessin, tend le plectre à la main droite à une femme. Eros, dieu de l'amour, est souvent représenté avec une lyre à la main quand il observait les préparatifs de noces(comme sur cette pyxis). Mais le dessin sur la péliké représente Eros avec une lyre et une des Muses.

La cithare, instrument d'Apollon et des virtuoses de concours, le plus perfectionné et sans doute le plus complet de la Grèce classique. La résonance considerable due à une caisse de grande dimension , à la forte tension des cordes, peut-être à des lames vibrantes, favorisait son emploi « public ». La tessiture devait se situer au niveau du violoncelle actuell, ce qui lui confère un ambitus de baryton, favorable à l'accompanement des vois virilis. La lyre et la cithare étaient tres populaires chez les habitants du littoral septentrional de la Mer Noire(fig. 10) . Nous en avons un témoignage concluant de Poliaenus(II s.). Il reconte d'une action de reconnaissance de Philippe de Macédoine Memnon qui recourait à l'aide du citharède Aristonic à une reconnaissance. Ce fragment atteste un grand intérèt des habitants des villes de Bosphore à une célébrité de passage, leur amour de la musique (Poliaen. Strategemata. V, 44). .

Un des instruments à percussion les plus répandus que nous pouvons voir sur les vases des musées de Crimée est le tympanon. Il est constitué d'une peau tendue sur un cercle de bois dont le diamètre peut être varié de 30 cm – à 80-90 cm. On peut le voir sur les plusieurs images sur les vases (fig.10) – parfois il a la taille d'un bouclier et il couvre tout le haut du corps humain, parfois il a la taile d'une petite assiette. Le tympanon est utilisé essentiellement pendant les danses et cérémonies orgiastiques, les rites de Dionysos. On venait avec lui aux tombeaux des parents et on chantait à mi-voix. Il accompagnait les mystères, on voit souvent les figures des mystos aux bondeaux avec les tympanons à la main.

Les Grecs ont connu la trompette – salpinx sous la forme la plus simple : tube droit terminé d'un côté par un pavillon, de l'autre - par une embouchure(fig.11). La salpinx pouvait mesurer de 60 cm à 120 cm, elle n'avait jamais de perforations[28] . La salpinx possédait un pavillon de forme variée :en boule, en bulbe, en cône . La salpinx avait une tessiture

les vases des VI^e et V^e siècles, les tuyaux apparaisent en teinte claire. Il est logique de penser que le bois, facile à travailler, propre à fournir une bonne réponse acoustique, était couramment utilisé. Le roseau, le sureau, le lotus, le buis étaient les essences d'arbres dont les facteurs d'instruments se servaient pour tourner les tubes, avec une préférence probable pour le buis. Le cerisier, prunier et l'erable ont aussi de bonnes qualités pour la perce des tubes. Le métal ou l'ivoire plus coûteux, l'os plus difficile à façonner, ont sans doute été des matériqux plus rarement utilisés (un fragment d'un aulos d'ivoire est fouillé à Panticapée)[26].

La taille des tuyaux varie d'un vase à l'autre. Ces différences attestent l'existence d'une véritable famille d'aulos, répondant aux cinq tessiture de la voix humaine . En calculant les dimension approximatives des instruments d'après la taille des personnages sur les vases , on peut établir la classification[27] suivante :

a)soprano(de 20 à 30 cm)
b)alto(de 40 à 50 cm)
c)ténor (de 50 à 80)
в)baryton (de 80 à 1 m)
c) basse (1 m et plus)

Selon les trouvailles archéologiques , la taille moyenne se situe autour de 40 cm, sur les vases nous voyons plus souvent l'alto, le ténor et la baryton (fragment d'un cratère du musée de Khérsonèse № 2877/09)(fig. 6), un cratère du musée historique de Kiev avec l'image d'une scène théâtrale(fig. 7), une péliké du musée de Jalta(№ 502)(fig. 8). Sur de nombreux vases, les tuyaux sont dessinés égaux : ainsi l'aulète pouvait, de les doits posés à plat, boucher en même hauteur, sur les deux tubes placés en parallèle. A ce cas on faisait l'effet de la stéréophonie. Si on bouchait les trous situés à l'hauteur différent, on produisait l'intervalle. Nous ne voyons presque pas des aulos à tubes inégaux sur les vases – par exemple un basse –baryton, ets.

L'instrument à cordes le plus courant était la lyre. A la différence de la cithare lourde, dont il fallait tenir verticalement et celui qui joue de la cithare devait être débout, la lyre plus légère permettait à la pencher pendant le jeu , danser avec elle sans arrêter à jouer la mélodie. On tirait le son à l'aide d'un plectre – une lame forte de fer ou d'os. Dans la plupart des cas, la main droite tient le plectre, les doigts de la main gauche bloquaient certains cordes pour émettre des sons différents. Primordialement, c'était la carapace d'écaille qui servait du résonateur. Elle était couverte de cuir. Les bras(à l'origine cornes de bovidés ou d'ovides) et la traverse tenaient et tendaient les cordes.

masques comiques et tragiques de terre cuite, dont la plupart est faite dans cette région . Sauf les représentation, aux théâtres y avaient lieu les concours de musique et littéraires, par excellence, à l'époque hellénistique. A Khérsonèse s'est conservée l'inscription du catalogue des concours de musique. Les maîtru existaient aussi – les musiciens professionnels[21]. Le musicien et poète de Bosphore Isill(à la première moitié du III s. av. J.-C.) participait aux concours de musique à Dêlphes[22]. A Mirmécée on a trouvé une épitaphe du flûtiste Pasaphilicatos (IV s. av.J.-C)[23]. Au cours du fouilles on a trouvé beaucoup d'artéfacts qui prouvent une large diffusion de différents instruments de musique dans la vie quotidienne des habitants – on a fouillé les fragments de la flûte, de la ryre, les terres cuites avec les images de la syrinx, de l'harpe, de la cithare, du tympanon . La plus grande partie de l'information nous donnent les images sur les vases couverts de peinture fouillé dans les cité du littoral septentrionales de la Mer Noire. Elles nous représentent les goût d'art de la population indigène. L'abondance des images des scénes avec des musicien étonne – ce sont des danses avec accompagnement musical, des scènes de théâtre, des festins, des loisirs. Un tel choix des sujets de la peinture s'avère par des documents antiques sur l'amour des Grecs à la musique, au chant et aux danses.

Les instruments de musique des Grecs étaient simples, leur son n'était pas fort, ils ne permettaient pas de montrer la maestria, on les utilisait pour accompagner au chant et à la danse. On connait les instruments à cordes suivants : la lyre, la cithare, la harpe ; les instruments à vent : la flûte, la syrinx, la salpinx , le kéras ; on utilisait les instruments à percussion (le tympanon, les crotales) pendant la danse pour donner le rythme. D'ordinaire le rythme predominait sur la mélodie dans la musique grecque. Dionysos de Halicarnasse ecrivait que les mélodies charmaient l'oreille et le rythme l'excitait[24].

L'instrument à vent le plus courant est l'aulos-chalumeau hellénique nous rencontrons le plus souvent sur nos vases. L'aulos simple est coustitué par un tube de perce cylindrique ou conique, muni d'un embout où se fixe l'anche et de deux ou trois éléments mobiles en forme d'olive[25]. Un pavillon le complète parfois. L'instrument le plus curant est l'aulos double(diaulos), composé d'un double chalumeau dont les tuyaux, distincts et complémentaires, sont sonnés simultanément, les anches enfoncées complètement dans la bouche, et chaque main agissant sur l'un d'eux. C'est par les mouvements des tubes dans l'espace qu'on obtenait les ressources sonores que procure notre système de clefs. Sur

« Pazyrykski » et dans le 5 ème kourgane « Rogozinski », et 1 - à l'Oural, dans le 8ème kourgane « Metchetsaïski »(fig.4)[14]. Une telle glace représentait un disque rond composé de deux moitiés liées avec une queue. Une moitié était absolument lisse et servait de glase, une autre moitié avait une convexité et elle était remplie de petites goutes d'étain qui rendaient de beaux sons mélodiques à l'ébranlement. Ces glaces sont trouvées dans les sépulcres des femmes. Les femmes enterrée étaient danseuses et musiciennes. Ce fait est prouvé par ce que une enterrée dans ce 8ème kourgane « Méchétsaïski » avait aussi un instrument du type de la dombra[15]. Il faut noter la popularité des crécelles, des hochets, des clochettes qui rendaient un bruit rythmique musicale. Les Scythes aimaient faire une promenade « avec une clochette », aux decorations de fête des chevaux scythes on trouve des parures du cou avec des clochettes de cuivre et des pendeloques [16]. On trouve des clochettes et dans les sepulcres[17]. Ce sont des apotropées qui chassaient des esprits malins. Sur les bouts des bâtons rituels suspendait aussi des clochettes, en dedans on mettait une bille de fer(fig. 5)[18]. On peut supposer l'existence des crécelles fabriquées de l'astragals, des vertébres des animaux – on les trouve à l'abondance aux cités et dans les tombeaux des Scythes[19].

La musique jouait un grand rôle dans la vie des Grecs anciens ils pensaient que la musique, la poésie et la danse exprimaient les sentiments de l'homme à l'aide des sons, des gestes et des mots. Elles serraient à adoucir et à calmer les sentiments, à purifier le coeur (catharsys). La musique s'est separée de celte chorée(cette triade)- selon T.Zelinski – et s'est appropriée sa fonction dominante de l'art expressif – servir à exprimer les sentiments[20]. Avec cela, elle conservait la liason avec la culte et la réligion: on chantait le péan à l'honneur d'Apollon, le dithyrambe – à l'honneur de Dionysos, les prosodies – pendant les processions. La musique était une partie des mystères, on l'estimait comme le don des Dieux , on l'attribuait des caractéristiques particulières, une force magique, lui était naturel de charmer, d'enlever la latitude de l'homme et des animaux. Les sectes orphiques pensaient que la musique pouvait libérer l'esprit du corps pour un certain temps.

La culture musicale des villes-colonies grecques du littoral septentrional de la Mer Noire était très élevée. A Khérsonèse, on a fouillé le théâtre antique unique sur le littoral Nord-Pontique(mais les sources anoncent qu'il y avait encore des théâtres dans les autres villes de cette région).Aux théâtres on mettait en scéne des tragédies et des comédies ce que attestent les inscriptions et les images des acteurs et les

trouvailles archéologoques permettent de voir ce problème autrement. Les Scythes avaient ses propres instruments à cordes primitifs dejà à l'époque archaïque et à l'époque classique. Le plus ancien date VI s. av. J.-C.

Il est trouvé à l'Oural, dans un sépulcre du deuxième kourgane « Bachadarski ». C'est « une harpe scythe » - un instrument à cordes pincées, sa caisse était faite d'une morceau de bois , la membrane de cuir était collée au bois. Le support des cordes était mis à un trou special sur la caisse[8]. Dans le sépulcre de femme riche du 8ème kourgane « Metchetsaïski »[9] on a trouvé l'instrument du type de la dombra. Dans le deuxième kourgane «Pazyrykski»[10] à Altaï , daté V s. av. J.-C. on a trouvé encore un instrument à cordes dont la réconstruction proposée à B. N. Basilov permet de voir le plus ancien instrument à archet du type du violin (fig.1). Son corps était fait d'un morceau de bois – il représente un billot vide rétreci au milieu , elle se fermait par une mémbrane fixée par des clous, au milieu était une table d'harmonie - une petite planchette à un dessin ciselé . Les deux cordes étaient fixées sur le support des cordes et sur un manche. A l'aide de l'archet on tirait des sons. Cet instrument appartenait à un homme et le jeu avait une signification rituele. Un scythe jouant de l'instrument du type de la cithare(fig.2) est représenté sur une planchette d'or d'une coiffure du kourgane «Sakhnovski » (IV s. av. J.-C.). Les savants soulignent d'habitude le caractére rituel de cette scène[11]. Ce qu'il y a de particulier c'est que l'action de culte est accompagnée du jeu de l'instrument de musique. Probablement, la femme tient à la main une glace-crécelle musicale qui donne le rythme à l'oeuvre interprétée. Principalement, c'étaient les Scythes – homme qui jouaient des instruments à cordes. Ainsi, "l'arrière violon" du deuxieme kourgane « Pazyrykski » mentioné si-dessus est trouvé dans le sépulcre d'homme. « La harpe » mentionée si-dessus est trouvée dans le sépulcre de couple de l'homme(du roi) et de la femme(de la concubine) . Selon V. N. Basilov, cette coutume de l'appel au dieu à l'aide du jeu de l'instrument à cordes était le privilège du roi-sacrificateur et cette tradition est conservée jusqu'à present dans cette région chez les Kazakhs ce n'étaient que les chamans qui jouaient d'un instrument de musique pareil – « kobyz »[12]. Plus tard, les Scythes utilisaient la lyre grecque pour ce but . Dans le crypte des Scythes № 9(II-III ss.) de la nécropole de Neapolis de Scythie – capitale des Scythes, est représenté un homme jouant d'une lyre(fig.3)[13]. Dans les tombeaux scythes et sarmates on a trouvé des glaces-crécelles musicales, 2 - à Altaï dans le 2 ème kourgane

Les écrivains grecs notent, à l'unanimité, l'indifférence des Scythes à la musique, leur goût peu développé . Hérodote qui a donné la description en détail de la vie quotidienne des Scythes, notait qui'ils évitaient des emprunts des coutumes étrangères. A titre d'exemple, il raconte l'histoire de la mort du sage scythe réputé Anacharsys (Herodt, IV, 76-80).

Une telle négation du culte des dieux étrangers et l'attitude négative envers les instruments de musique grecs était assez ferme chez les Scythes . Domitius Callictratus , au I siècle av. J.-C. revient à l'image du sage scythe – il met dans sa bouche une malédiction à la flûte (Domit. Callicr.Epist., 6).

Plutarque (v.50 - v.125) dans ses « Oeuvres morales » cite des sentances des rois et des générals, et y compris, du roi scythe Atéi qui a dit qu'il préfèrait l'hennissement du cheval au jeu du flûtiste Isméni (Plutarch. Moralia, At).

L'auter des scholies de « L'Analytique tardive » d'Aristote[7] mentionne de nouveau le sage scythe Anacharsys qui expliquait l'absence des flûtistes chez les Scytes par l'absence de la vigne et de l'ivrognerie (probablement, les Scythes comme et les Grecs, pensaient que le jeu de la flûte était lié étroitement avec la consommation du vin pendant les festins - symposiums collectifs et d'autres rites grecs liés avec Dionysos).

Il en résulte que les Scythes n'avaient pas absolument de musique, de chant , de jeu des instruments de musique. Est-ce possible ? Plutarque dans les «Vies parallèles », à la biographie de Démétrios I^{er} Poliorcète mentionne d'une coutume scythe étrange de pincer les cordes des ares pendant les festins (Plutarch. Vitae, XIX). La corde d'arc tendue donne le son vibrant agréable - c'est un prototype de tous les instruments à cordes. Quant an chant, nous n'avons qu'une mention chez Aristote. Dans ses « Problèmes » en s'efforçant de trouver l'origine du mot grec « νόμοι » il mentionne une coutume d'une des tribus scythes de chanter les textes des lois (Aristot. XIX, 28).

Julius Polydeucus, grammairien et sophiste du II s. écrit qu'un instrument de musique à 5 cordes était inventé par les Scythes. Il était lié par 2 courrois de cuir d'oeuvre , en qualité de plectre on utilisait les sabots de chèvre. Il disait encore que les Scythes utilisaient les os des milans et des aigles en qualité des flûtes (Ὀνομαστικόν,IV. 60,76).

L'analyse des sources antiques nous persuade que selon les Grecs, l'art de musique était dévelopé faiblement chez les Scythes et des autres barbares du littoral septentrional de la Mer Noire. Mais les

La musique dans la vie des barbares et des Grecs qui habitaient le littoral septentional de la Mer Noire

I. Vdovichenko,
N. Khlebko, Ukraine

La culture musicale des Grecs et les barbares qui habitaient le littoral septentrional de la Mer Noire dans l'antiquité est encore peu étudiée. De plusieurs recherches archéologiques ont donné beaucoup de trouvailles, mais elles n'étaient pas interprétées comme il fallait. Notre travail vise à reconstituer quelques traits de la culture musicale des habitants de cette région, en nous appuyant sur les auteurs antiques et sur les trouvailles archéologiques. Nos tâches concrètes ont abouti à révéler les traits caractéristiques et les particularités de la culture musicale des Hellènes - d'un côté, et des barbares (des Scythes et des Sarmates) d'un autre coté, et à déterminer les instruments de musique des habitants de cette partie de l'oecumène antique dans la vie quotidienne, dans les rites des religions, au théâtre.

Les recherches assez circonstanciées consacrées à la culture musicale de l'Antiquité, aux instruments antiques de musique sont faites par les savants américains et français. Marta Maas dans son oeuvre "Stringed Instruments of Ancient Greece"[1] a examiné l'origine des instruments à cordes, la technologie de leur fabrication, les mythes et les cultes dont ces instruments sont liés de l'avis des anciens. Daniel Paquette[2] caractérise un autre aspect – l'utilisqtion des instruments de musique dans des différents domains de la vie de la société antique. Sûrement, c'est le matériel dont l'auteur travaille – les vases couverts de peintures représent les images des plusieurs scénes avec des instruments de musique.

A regret, il n'existe pas de recherches détaillés au sujet de la culture musicale des colonies grecques du littoral septentional de la Mer Noire . On peut trouver des renseignements laconiques dans un petit chapitre consacré à la culture des villes antiques dans l'édition en peusieurs volumes « L'archêologie de l'URSS de la haute antiquité au Moyen Age »[3]. E.E. Fialko a recueilli de certains renseignements sur la culture musicale des Scythes dans la partie «L'Art des peuples de Scythie la Grande »[4]. V. M. Basilov[5] et T. M. Kouznetsova[6] examinaient aussi les instruments de musique des Scythes .

II- The lost works

- *Al-Risāla Al-Murḍiyya fī Ṣinā'at Al-Djundiyya.*[110]
- *Fann al-Ḥarb.*[111]
- *Rīsālat al-Taḥqīq fī Ṣūr'at al-Tafwiq.*[112]
- *Aqqṣā al-Amad fī al-Rad 'Ala Monker Ser al-'Adad.*[113]
- *Kitāb al-Kashf wal-Baiyān.*[114]
- *'Eqd al-Slūk Fīmā Yalzam Djalīs al-Mlūk.*[115]
- *Al-Ta'ābī al-Qamariyya.*[116]
- *Al-Dorru al-Thamīn fī Aḥwāl al-Motaqadmīn.*[117]

---

[110] *Al-Adilla*, p. 103; *Uns al-Malā*, pp.15-16.
[111] Maher, S., *Al-Baḥriya fī Miṣr al-Islāmiya*, Cairo, 1967, p. 7. (in Arabic)
[112] *Al-Tadbīrāt*, p. 56.
[113] *Al-Adilla*, p. 105; *Uns al-Malā*, p.15.
[114] *Al-Adilla*, pp. 104, 222; *Uns al-Malā*, p.16.
[115] *Al-Tadbīrāt*, p. 10; *Uns al-Malā*, p.16; *Al-Adilla*, p. 103.
[116] The editor of *Al-Adilla*, p. 104, mentions only this work.
[117] The editor of *Al-Adilla*, p. 105, mentions only this work.

2. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2839, which is written in the author's hand.

- *Kitāb Uns al-Malā bi-Waḥsh al-Falā*.[104] There are two copies only of this work as follows:

1. One is preserved in the Egyptian National Library no. 12 *Ṣena'a 'Arabī.*
2. One is preserved in the *bibliothéque nationale* of Paris no. 2832.[105]

- *Kitāb al-Ḥiyal fī al-Ḥurūb wa Fatḥ al-Mudun wa Ḥifz al-Durūb*[106] [Book of Deceits of Wars and Conquest of Towns and Defense of Passes]. There are many copies of this MS. as follows:

1. Two copies in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2875 and 3187.[107]
2. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Ass'ad Efendī*' at Istanbul no.1884.
3. One is preserved in the Library of the Museum of '*Top Kapu Serai*' at Istanbul no. 3469/7418A.[108]
4. One is preserved in the Library of the University of Leiden no. OR. NR. 499.
5. One is preserved in '*al-Khizāna al-'Amma*' at Rabat, Morocco, collection of al-Gallawy no. 43G.
6. One in '*al-Khizāna al-Malakiyyā*' at Rabat, no. 2850.

- *Al-Manhal al-'Adhb l-Wurūd Ahl al-Ḥarb*[109]. There is only one copy of this work in the Library of al-Solimaniya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2839.

---

[١٠٤] Ed. by M. E. Ṣalḥiya, infra. note no.5.

[١٠٥] Ed. and French trans. by Florian Pharaon, Paris, 1880.

[١٠٦] Ed. by N. M. 'Abdel-'Āzīz, Cairo, 2000.

[107] M. Khaṭāb mentions that their numbers are 3086 and 3087. Cf. *Al-Adilla*, p. 102.

[108] There is a photocopy of this one in the Institute of Arabic Manuscripts at Cairo no. 19 *Frusiyya.*

[١٠٩] This work is mentioned in *Al-Adilla*, pp. 199, 214; *Al-Tadbīrāt*, p. 22.

3. Two are in the Egyptian National Library nos. 25749, 27997.[101]

- *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣinā'a al-Ḥarbiyya* [Sultans' arrangements in the policy of war's construction]. There are many copies of this work as follows:[102]

1. One is preserved in the Egyptian National Library no. 1147B.
2. One is preserved in the Egyptian Military Museum no. 379.
3. One is preserved in the Library of '*al-Baladiyya*' at Alexandria no. 76.
4. One is preserved in the British Museum Library no. P. 6019-Or.3734.
5. One is preserved in the Oriental Institute at Leningrad no. 213.
6. One is preserved in the Library of the University of Leningrad no. 762.
7. One is preserved in the Library of the Institute of Asian & African Peoples at Petersburg no. 726C.
8. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2856.
9. One is preserved in the National Library of Tunisia no. 3254.

- *Al-Adilla al-Rasmiyya fī al-Ta'ābī al-Ḥarbiyya.*[103] [The Official Evidences in the Arrangements of the Soldiers]. There are two copies of this work as follows:

1. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2875. A photocopy in the Institute of Arabic Manuscripts at Cairo no. 1 *Frūsiyya*, of this copy.

---

[100] 'Abdel-Dā'im, the editor of this work, says that this is the only copy of this MS. from which there are many photocopies. *Al-Aḥkām*, p. 15. In fact, there are four different copies of it in the Egyptian National Library itself. Its microfilm's number in the library is 57.

[101] There is no microfilm to these copies. So, it is not easy to deal with it.

[102] A photocopy of the copy of British Museum no. P. 6019-Or.3734 is preserved in the Central Library of Cairo University no. 26337. Another photocopy of the copy of the Egyptian National Library no. 1147B is preserved in the Library of the Scientific Council of Iraq no. 646. This copy has been published by S. M. al-Gamīlī in *Al-Mawrid Magazine* of Iraq, vol. 12, 4(1983), pp. 319-378.

[103] Ed. by M. S. Khaṭāb, infra. note no. 6.

Leo's work. Then, these *al-Rūm* Mamluks told Ibn Manglī with the importance of the military treatise of Leo the Wise and translated it or some selected chapters directly into Arabic. Thus, Ibn Manglī became able to read it well by their assistance and concept its military importance.[98] I think that the last assumption is acceptable, because *al-Rūm* Mamluks were known well the Byzantine military treatise of the beginning of the 10th century, the *Tactica,* more than the other races of the Mamluks.

Appendix
A list of Ibn Manglī's works

There are many works of Ibn Manglī from which we have some treatises but the other are lost. This list contains two categories, the first shows the remaining works but the other shows the lost works.

I- The remaining works

- *Al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr* [99] [The Royal Orders and Divine arrangements in the art of naval warfare]. There are many copies of this work as follow:

1. One is preserved in the Egyptian National Library no.14790 *'Fenōn Ḥarbiyya'.*
2. One is preserved in the Egyptian National Library no. 23 *'Frūsiyya / al-Khizāna al-Taimoriyya'.*[100]

[98]Dr. I. Pahlitzsch provided me also with another hypothesis that the most probable way for Ibn Manglī to learn Greek was from the Melkites in Egypt. There has been Greek clerics (the patriarch, bishops and priests) and monks in Egypt. I couldn't accept his opinion because of the Mamluks were a separated order in the Egyptian society. They had keep their independent character and didn't mix with any race of the Egyptians. At the same time they didn't allow to the Egyptians to serve in the Mamluk army as soldiers. Cf. Sa'ied 'Ashor, *The Mamluk Era in Egypt and Syria,* Cairo, 1965, p. 310 (in Arabic); Ibrahiēm Sa'ied, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, p. 17. On the other hand, the Melkites were a closed minority and Muhammad Ibn Manglī, as a Moslem, had has no necessity to contact with them to study the Greek.

[99]Ed. by M. 'Abdel-Dā'im, infra note no. 7. There are two photocopies of the copy of the Egyptian National Library no.23 *Frūsiyya / Taimour* are preserved in the Library of the Faculty of Arts, University of Alexandria and in the Library of the Egyptian Military Museum.

Manglī was the first writer who has used Byzantine, military texts translated into Arabic. Moreover, it should be remembered that Ibn Manglī was fond of collecting the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek, or Indian.[92]

Lastly, he says also that in the *Tactica* of Leo the wise there are wonderful laws to know how to fight the Moslems, and he will explain this book afterwards. These words refer clearly to the chapter eighteen, which was interested in the neighbors of Byzantium, especially the Arabs.[93] Leo when he wrote this chapter about the foreign nations, he had the Arabs in his mind and the way they could be confronted. He says explicitly that he gave all these details about war tactics because of the Moslems.[94] This matter is confirmed by Ibn Manglī himself, when he says that Leo the Wise had written his *Tactica* to inform his soldiers how to fight the Moslems.[95]

Any way, may be Ibn Manglī had a complete copy or an epitome of the *Tactica*[96] in Greek and he has read it in its original language not in Arabic, either by him self or by the assistance of someone.

So, the questionable point is: Did Ibn Manglī know the Ancient Greek? Or who did help him to read it? We have no evidences to answer on these questions, but I assume that he learned the Greek from the Mamluks who came from *Bilād al-Rūm*,[97] i.e. Byzantium, especially who were under his commandment and well known his fondness of collecting the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek, or Indian. Probably, they gave him a copy of

---

[92]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 18.

[93]Leo VI, *Tactica*, Cols. 946-988.

[94]Kolias, *The Taktika*, p. 130.

[95]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[96]It should be noted that there is an epitome to the *Tactica* of Leo the Wise, which is called *L' extrait tactique tiré de Léon le sage*, ed. et trad. par A. Dain, Paris, 1942.

[97] Al-Maqrīzī mentions that the Mamluks were brought from *Bilād Uzbic, Bilād Tūrīz, Bilād al-Rūm* and Baghdad. Some Mamluk Sultans such as al-Malik al-Nāṣir Muḥammad Ibn Qalāwūn, paid much money to the slaves' merchants to bring Mamluks from these countries. See Maqrīzī, *Al-kitat*, II, p. 214. Cf also Ibrahiēm Sa'iēd, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, p. 62. Maqrīzī adds that there was a market in Cairo called *Souk al-Suofiēn* in which the merchants sold their Mamluks of *al-Turk* and *al-Rūm*. See Maqrīzī, *Al-kitat*, I, p. 374.

on board.[84] In the Greek text of Leo the Wise it is stated first that a hand-picked force of fighting men must be embarked and then that the admiral's ship must be bigger and faster. [85]

Ibn Manglī explained also the meaning of the name of Leo the Wise, which is a name to the lion in Greek.[86] In another place he refered to a sort of the Byzantine ships which was called *Dromon.*[87] He called this ship in Arabic pronunciation *Adromons*[88] or *Adromon.*[89] He stated that is a Greek word and means *al-Mas̲h̲aya*, i.e. the voyager, which was the suitable ship for the fleet's admiral.[90]

Besides the textual indications and evidences, which show that Ibn Manglī has read the *Tactica* of Leo the wise; he said that he would explain this book to the soldiers afterwards.[91] So, it is probable that the copy of the *Tactica,* which was used by Ibn Manglī, was not in Arabic, and may be in Greek. Then, he would explain it for his soldiers. I think that if the *Tactica* was translated into Arabic, it must have been famous in the Moslem world at that time or at least during the hard struggle between Moslems and Byzantines, i.e. the Ummayad and 'Abbasid periods. On the other hand, this is the first time in which the *Tactica* was mentioned in the Arabic writings. Any way, Ibn

---

[84]Ibn -Mankali, *Al-Aḥkām*, p. 122.

[85]*Naumachica*, p. 27; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 85.

[86]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 15.

[87]For this kind of ships see, Al-Nakhīlī, D., *Al-Sufun al-Islāmiyya 'alā Ḥurūf al-Mo'd̲j̲am*, Alexandria, 1974, pp. 46-48. (in Arabic)

[88]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[89]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 122. Ibn Manglī uses the term *adromon* in its arabized form for the average "ship in line". He didn't identify it with the Moslem type of ships known as *s̲h̲alandī* or *s̲h̲inī*. Ahrweiler points out that in the 9th and 10th centuries there was no deference between the warships called "δρόμων" and "χελάνδιον", and that these terms were indiscriminately used in Byzantine texts. Ahrweiler, H., *Byzance et la mer*, Paris, 1966, p. 415; Christides, *Naval warfare*, p. 140. Christides believes that the Arabic terms *s̲h̲alandī* or *s̲h̲inī* were likewise synonyms in Arabic texts by the 10th century and roughly corresponded to the regular type of the Byzantine *Dromon*. When the Arabic sources refer to average Byzantine warfare, they usually call them *s̲h̲alandī* or *s̲h̲inī*. See, Christides, *Naval warfare*, pp. 140-141.

[90]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[91]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 37.

the following nations the Franks, Byzantines, Turks, Arabs and Kurds.[75]

The *Tactica*, in chapter fourteen,[76] and *al-Adilla*, in chapter sixteen,[77]speak of the ambushes and their importance before and during the battle. The *Tactica* also, in chapter fifteen,[78] and *al-Adilla*, in chapter nineteen,[79] speak of the siege of fortresses. Finally, there is a closed common tie between the *Tactica* and *al-Adilla* in the naval warfare. Leo the Wise called his chapter Περὶ ναυμαχίας,[80]i.e. on the naval warfare, but Ibn Manglī called his chapter *Nukat fī Qitāl al-Baḥr*,[81] i.e. subjects on the naval warfare.

According to this comparison between the contents of Leo's *Tactica* and the contents of Ibn Manglī's *al-Adilla* it is clear that the latter was influenced by Leo the wise. This may aid us to confirm that Ibn Manglī has read the *Tactica* carefully, either in Greek or in Arabic.[82]

There are some indications in the works of Ibn Manglī, which aid us to declare that he had somewhat knowledge of the Ancient Greek, and he has read the *Tactica* in Greek not in Arabic, either by him self or by the assistance of someone.

Ibn Manglī always uses Greek terms in his writings, for instance he states that the tubes of the Greek fire, *al-anabīb,* which were situated in the front and the back of the ships, were called in Greek σίφων, in Arabic pronunciation *Sifoniya.*[83]

In another case the Arabic translation found in Ibn Manglī states that the warship must be bigger and faster and then adds that the admiral must be in a warship which has an elite squad of fighting men

---

[75]Pp. 189-195.
[76]Cols. 863-870.
[77]Pp. 199-200.
[78]Cols. 886-907.
[79]Pp. 216-234.
[80]Col. 989-1013. see also, *Naumachica*, pp. 19-33.
[81]Pp. 241-256.
[82]We have not a complete and modern translation to the *Tactica* up to now, which is full of difficult, military terms.
[83]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 124; *Al-Adilla*, pp. 241-242.

somewhat knowledge of the ancient Greek. But this conclusion needs to be substantiated evidences.

It will be obvious that there was a pure Byzantine influence on the method of Ibn Manglī in his writing of *al-Adilla*, if we compare between the contents of *al-Adilla* and those of the *Tactica.*

Leo VI begins his *Tactica* with a general introduction to show his aim from the writing that book,[62] and so Ibn Manglī does in *al-Adilla.*[63] Chapters two of the *Tactica*[64] and *al-Adilla*[65] speak of the Leader's advantages and qualities. Chapter three of the *Tactica* speaks of the military advice,[66] which corresponds, to chapter five in *al-Adilla.*[67] Chapters five and six of the *Tactica* speak of the arms and military equipment,[68]and the same subject is found in chapter eight of *al-Adilla.*[69] Chapter eight of the *Tactica* speaks of military punishments[70] and so chapter four of *al-Adilla.*[71] In some chapters of the *Tactica* Leo the Wise speaks separately of the military arrangements of the troops,[72]but Ibn Manglī speaks continuously of this subject in many chapters.[73]

In chapter eighteen of the *Tactica,* Leo the Wise presents a general view on the art of war of Byzantium's neighbors such as Turks, Bulgars, Scythians and Arabs.[74] On the other hand, Ibn Manglī followed the same method of Leo the Wise when he speaks in the twelfth chapter of *al-Adilla* on the same subject, whereas he mentions

---

[62]Leo VI, *Tactica,* Cols. 671-679.
[63]Ibn Manglī, *Al-Adilla,* pp. 139-146.
[64]Cols. 682-694.
[65]Pp. 149-150.
[66]Cols. 693-698.
[67]Pp. 155-157.
[68]Cols. 718-734.
[69]Pp. 171-175.
[70]Cols. 763- 767.
[71]Pp. 153-154.
[72]Cols.755-761; 807-842; 982-986.
[73]Pp. 176-188; 196-198; 202-203.
[74]Cols. 946-988.

من المقاديف والحبال والقلوع والغرى والصوارى، وفاضل من العود المنجور والمشاق والزيت السائل والـــــــــيابس..." .

Translation: " You must have the type of ship known as *adromonos*, *dromonos* in Greek.... In every ship you should have whatever is necessary for it and even double the number of articles needed, such as oars [and/or steering oars], ropes, coils, sails, rods [supporting the sail], masts.[And let them have] some extra curved wood, and also oakum, dry and liquid tar..."[57]

There are the same words in the *Tactica* of Leo the wise:[58]

"Κατασκευασθῆναι δὲ καὶ δρόμωνας καταρκοῦτας πρὸς ναυμαχίαν...' Εχέτωσαν δὲ καὶ πάντα πρὸς ἐξαρτισμὸν δρόμωνος ἀπαραλειπτὰ καὶ διπλᾶ, οἷον αὐχένας, κώπας, σκαρμούς, σχοινία, κάρυα, καὶ τὰ ἄρμενα δὲ αὐτῶν καὶ κεφαλάρια καὶ κατάρτια καὶ ὁπόσα ἄλλη ἡ ἄλλη ἡ ναυτικὴ τέχνη πρὸς χρείαν ἀπαιτεῖ.' Εχέτω δὲ καὶ ἐκ περισσοῦ ξύλα τινὰ ἐγκοίλια καὶ σανίδας καὶ στυππία καὶ πίσσαν καὶ ὑγρόπισσον..."

Translation: " You must construct *dromons* suitable for sea-battle... They [the ships] should have whatever is necessary to probably equip a *dromon*, without any shortages and even with double the number of what is needed, as for example: steering oars, oars, toggles, ropes, coils, their sails, architraves, masts, and whatever else naval craft requires. And let them also have extra round wood planks, and oakum ant tar and liquid tar..."[59]

There are also many indications to the *Tactica* of Leo the Wise in the Ibn Manglī's works *Al-Aḥkām*[60] and *Al-Adilla.* V. Christides studied some of the passages of Leo the Wise's Tactica, which are interested in the naval warfare and used by Ibn Manglī in his works.[61]

If we examine the above-mentioned passages that Ibn Manglī used the *Tactica*, we may conclude of course that he fully understood its passages and the military technical terms, and may be he had a

[57]Christides, *Naval warfare*, p. 140.

[58]*Naumachica*, ed. A. Dain, Paris, 1943, p. 19 § 3, p.20 § 5.

[59]Christides, *Naval warfare*, p. 140.

[60]Pp., 3, 20-22, 122-125.

[61]Cf. Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, pp. 85-96; idem, *Naval warfare*, pp. 137-148.

used an important passage, which is similar to the other of Ibn Manglī completely, whereas he said:[52] " Τακτική ἐστιν ἐπιστήμη πολεμικῶν κινήσεων."

Translation: "Warfare is the science of battles' movement." Ibn Manglī says also:[53]

" تحرك المقاتلة علي قسمين، قسم يتعلق بكيفية القتال على الخيل وقسم يتعلق بكيفية القتال على الأقدام "

Translation: "Soldiers' march is on two divisions, one fights on horse and other fights on foot...". The same words are mentioned in the *Tactica* as follow:[54]

"Τοῦ δὲ μαχίμου μέρους, ἤγουν πολεμικοῦ στρατοῦ, τὸ μέν ἐστι πεζικὸν τὸ δὲ καβαλλαρικόν. Καὶ τὸ μὲν ἰδίως πεζικὸν τὸ ἐπὶ γῆς ἱστάμενον, τὸ δὲ καβαλλαρικὸν τὸ ἐπὶ τῶν ἵππων ὀχούμενον. "

Translation: " The fighters are divided into footmen and horsemen. The footmen who remain on land, the horsemen who mount the horses."

Frankly, Ibn Manglī mentioned that Leo the Wise said: [55]

"وأما ما يكون عليه المقاتلة وقت الحرب فيكونون أربعة مقاتل جميعاً، أو ستة عشر. والستة عشر في العــدد هو زوج الزوج. قال ذلك لاوون الملك اليوناني في كتابه الذي سماه مراتب الحروب، وهو كتاب جيد ينبغي للجند أن يطالعوه، فإن فيه قانون غريب في ترتيب القتال."

Translation: " During the war, the arrangement of the soldiers is four by four or sixteenth. In numbers, the sixteenth is double of doublet In his book, which is called *marātib al-Ḥurūb* (τακτικὰ πολεμίων = *Tactica*), Leo, the Greek king, said those words. It is a good book, it should be read by the soldiers, in which there is a strange law in war arrangement."

Ibn Manglī in *al-Aḥkām* says:[56] " ينبغى أن يكون صفة مراكبك التى تسمى ادرومنس ، ادرومنس باليونانية ،... ويكون فى كل مركب من العدد التى يحتاج إليها عدد مضاعفة

[52]*Tactica*, Col. 680.
[53]*Al-Tadbīrāt*, p. 37.
[54]*Tactica*, Col. 680.
[55]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 15.
[56] Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, pp. 20-21.

الــذى سماه مراتب الحروب رأيتــ[ــه] كتاباً نفيساً صالح مطالعته للجند، ولمن يبتغي الجهاد في مرضـــاة الله تعالى ؛ وفيه ضوابط عجيبة تختص بقتال المسلمين. وقصدُ الداعي أن يشرحه إن شاء الله تعالى، هذا إن بقي من العمر بقية".

Translation: " When I read the book of the Greek Leo, which he called *marātib al-Ḥurūb* (τακτικὰ πολεμίων = *Tactica*) and I think that is a useful book to the soldiers and to those who want to fight for God's satisfaction. There are wonderful laws to know how to fight Moslems.[49] God willing, Ibn Manglī will explain this book afterwards..."

Thus, he confirmed that he has read the *Tactica* of Leo the Wise. But he didn't mention that if he has read it in Greek or in Arabic? And if he had a copy in Greek did he read it by himself or by the assistance of someone?

The textual evidences:

According to Leo the Wise Ibn Manglī mentions that :[50]

"صناعة الحرب هي المعرفة بكيفية تحرك المحاربة ، ويتهيأ لها... ولنرجع إلى شرح كلام لاون الملك في قوله صناعة الحرب هي المعرفة بكيفية تحرك المقاتلة... ".

Translation: " Warfare is to know how to move the fighters, and to be ready for it...we will return to explain the king Leo's words who says warfare is to know how to move the fighters... ".

This meaning is found in the *Tactica* of Leo the Wise who says:

" Ὥσπερ γὰρ οὐκ ἔστιν ὁλκάδι πελάγη διαπορυμεύεσθαι κυπερνητικῆς ἐπιστήμης χωρὶς, οὕτως οὐδὲ πολεμίους καταγωνίζεσθαι τάξεως καὶ στρατηγίας ἐκτός..."[51]

Translation: " As we couldn't navigate a ship without leadership's science, we couldn't also begin the wars and end it without knowledge of strategy and leadership's sciences..." Leo also

---

[48]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 37.

[49]T. Kolias believes that the Tactica of Leo the Wise was actually written as a war treaty almost exclusively against the Arabs (Moslems). Kolias, T., "The Taktika of Leo the Wise and the Arabs", *Graeco-Arabica*, 3(1984), p. 130.

[50]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 37,40.

[51]Leo VI, *Tactica*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 107 (Turnholti, 1978), Col. 677.

the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek or Indian". He added that "it is the best friend for man".[43]

Thus, Ibn Manglī depended on a lot of countless Arabic writings, some of which reached us, but the other is lost. We can trace these writings but it may be difficult to study it, passage by passage in the works of Ibn Manglī. As a historian he says frankly that this or that author says... in another place he says that his father says...and sometimes he speaks depending on his own experience, i.e. he was honest in his writings.

Now, according to this concluded biography of Ibn Manglī it is obviously that he was born, educated and lived as a one of *awlād an-nās*.[44] So, because of the similarity of his life with the other of *awlād an-nās* we can declare that he was born in Egypt from a Mamluk (Turkish) father and was surnamed Muhammad, as a Moslem name.

Ibn Manglī and Leo the Wise

Ibn Manglī in three of his works, *al-Aḥkām* , *al-Tadbīrāt* and *al-Adilla*, has quoted some passages from the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, which is written in Greek. So, the questionable point is: Did Ibn Manglī know Greek? Or did he have a simplified Arabic version of the *Tactica*?

Ibn Manglī in his work *al-Aḥkām*[45] uses the Arabic word "*waqaftu*", which Christides is thinking that it actually means to pay special attention, to devote particularly to something.[46] In Arabic Lexica the Arabic verb "*waqafa*" means, "the human has read..." or "saw..." [47] In other place Ibn Manglī says:[48] " لما طالعت كتاب لاون اليونان

---

[43]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.18.

[44] *Awlād an-nās* means the sons of the Mamluk Sultans and the Mamluks' sons who were born in Egypt not had been bought by the money like their fathers. Some times the historians called them Egyptians. For more details see Ibn Taghrī Bardī, *Al-Njūm al-Zāhira fī Mlūk Miṣr wal-Qāhira*, Vol. 10, Cairo, N.D., pp. 309-310. Cf Ibrahiēm Hassan Sa'iēd, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, Unpublished MA. thesis, Cairo University, 1975, pp. 105-109.(in Arabic)

[45]p.3; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84. 'Abdel-Dā'im has mistaken when he read this word as "*waqa'tu*" (actually meaning that he found that book).

[46]Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84.

[47]*Al-Mu'djam al-Wadjīz*, Cairo, 1990, pp. 678-679.

Translation: "The science of letters' secret is one of Sulṭan's arrangements, which was used by the ancient kings and never announced it even to their close friends. This science is one of the secrets, which has to be hidden. In war time, the Sulṭan advances, God give him the victory, and after he says 'In the name of Allah', draws by his lance these letters: ا ب ج د . هـ و ز . ح ط ى . ك ل م ن . س ع ف ص ق ر . ت ث خ ذ . ض ظ غ..."

Probably, he has took this science from the works of *al-Shayikh* abūl-'Abbās al-Būnī, who was mentioned many times in Ibn Manglī's works.[36] Al-Būnī had many books in the science of letters' secrets and its properties. He was a Moroccan scholar, who lived and died at Cairo in 622 AH. / 1225 AD.[37] Thus, if we assumed that he was studied in one of Cairo's schools, then he had to use its libraries beside the other public libraries of Mamluk Cairo. From these libraries he used many of the Arabic sources such as the important book of al-Māwardī's *al-Aḥkām al-Sulṭāniyya,* which he has used many times in his writings.[38] He also used the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, from which he has quoted many passages[39] and was effectual on his method in the writing of *Al-Adilla.*[40] He has benefited also from Aristotle, who is mentioned many times.[41]This assumption will explain the wide knowledge of Ibn Manglī of many sciences.

These libraries may be stimulated Ibn Manglī's love of knowledge and urged him to collect the books and to have a private library. This fact is shown in the words of Ibn Manglī in his work *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya.*[42]He addressed his soldiers what about the importance of the books in the following words "you have to purchase

---

[36]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* p.8; *Al-Adilla,* pp. 92, 202.
[37]Ibn Manklī , *Al-Adilla,* pp. 92.
[38]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* p.48; *Al-Adilla,* p. 169.
[39]Ibn Manklī , *Al-Aḥkām,* p.3; *Al-Tadbīrāt,* p.37. V. Christides and N. Serikoff studied some of these passages.
[40]Ibn Manklī , *Al-Aḥkām,* p.3-4, 20, 122-124; *Al-Tadbīrāt,* pp. 15,37.Cf. Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI,* pp. 85-96.
[41]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* pp. 15-16.
[42]pp. 18-19.

Ḥakīm, al-Wāsīl...,".[28] Ibn Manglī often refers in some of his works to *Madhab al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān* and to *Madhab al-Imām Mālik.*[29] So, I believe that he had to study in on of the Mamluk schools, in which there were the four doctrines of Islam, and he has chosen either *Madhab al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān* or *Madhab al-Imām Mālik.*

Moreover, Ibn Manglī refers frankly to his teacher, who was 96 years old.[30] He never mentions his teacher's name but we can say that he was his military trainer,[31] who educated him the art of Mamluk war. He says about him: " I have seen the teacher (*al-Ustādh*), may God be pleased him, has took a belt to carry the sword...I have never seen any one of the soldiers or people more interested in the construction of the soldiery than him. He had 96 years and killed great numbers of Tartars in every battle, a company of the Franks and mountain's rebels. He fought all the battles of al-Malik al-Ẓāhir and the other kings. He died at the time of al-Malik al-Nāṣir Muḥammad Ibn Qalāwūn," [32] 684-741 AH. /1285-1341 AD. Ibn Manglī was sad very much for the death of his teacher.[33]

Ibn Manglī was fond of the science of letters and numbers[34] on which he described the arrangement of the armies. For instance, he says:[35] " من التدبيرات السلطانية علم سر الحروف فإن علم ذلك من جملة مهمات التدبيرات السلطانية. فمن ذلك مما جربه الملوك قديماً وكانوا يضنون به على خواصهم. وهو من الأسرار التي يتعين كتمها. إذا كان وقت الحرب فليتقدم السلطان نصره الله ويخط برمحه بعد التسمية هذه الحروف ا ب ج د . هـ و ز. ح ط ى. ك ل م ن. س ع ف ص. ق ر. ت ث خ ذ. ض ظ غ...الخ ".

[28]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 25. Cf. pp. 24, 37. (الشيخ الفاضل الحكيم الواصل...)
[29]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, pp. 168-169, 170.
[30]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 26; *Al-Adilla*, p. 251.
[31]M. Khaṭāb believes that his name is *Ḥassan al-Rammaḥ*, who was famous at that time and had many of military treatises. See, *Al-Adilla*, p. 251, n. 105.
[32]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, pp. 251-253.
[33]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p.253.
[34]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p.92; Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 3-5.
[35]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 3-4.

to *al-Madhāhib al-Arba'a*, i.e. the four Islamic juristic schools.[21] So, the internal courtyard of the school was divided into four parts, one for every doctrine's teaching. The school had *Khazā'in al-Kutub*, the libraries, which had a librarian to organize and repair its books. There were many teachers, demonstrators and students in every school.[22]

In these schools the students studied the Qur'ān, with its seven readings, *al-Ḥadīth*, *al-Tafsīr*, the Arab poetry, literature and the other intellectual sciences.[23] It might be noted that these are most of the sciences on which Ibn Manglī depended, in his writings. It is probable that the majority of the students couldn't obtain these sciences outside the school or at least without study in *al-Kuttāb*.[24]

Ibn Manglī also in his writings has mentioned this term "*al-'Ulama'*...",[25] i.e. the scholars, and of course he wants to refer to the teachers, who educated him. His description of some of these scholars shows that he has known their scientific dignity, the value of their writings and probably he has known some of them personally. For instance, he refers to 'Abd al-Mon'im al-Djiliānī, one of his authorities, saying: "*Al-Imām, al-Ḥabr, al- 'Allāma*...,"[26] to Ibn 'Abd al-Salām, another authority, saying: " *al-Shayikh, al-Imām, al-Ḥabr, al-'Allāma, Shayikh Mashāyikh al-Islām*...,"[27] and to Muḥammad Ibn Zakarīyā, one of his other sources, saying: " *al-Shayikh, al-Fāḍil, al-*

---

[21]These four doctrines are the doctrine of *al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān*, of *al-Imām al-Shāfi'ī*, of *al-Imām Mālik*, and of *al-Imām Aḥmad Ibn -Ḥanbal*, which are for *al-Sunna*. See, Mez, A., *Die Renaissance des Islam*, Arab trans. M. A. Abū-Raidah, Cairo, 1995, pp. 293-296.

[22]'Abd al-Rāziq, A., *The Islamic Civilization in the Middle Ages: the Intellectual Sciences*, vol. II, Cairo, 1997, pp. 37-38.(in Arabic)

[23]See 'Abd al-Rāziq, *The Islamic Civilization*, II, pp. 38-39. For the Mamluk schools in Egypt, see Ibn Shāhīn al-Ẓāhirī, *Kitāb Ẓubdat Kashf al-Mamalīk wa Baiyān al-Ṭuruq wal-Masālik*, ed. P. Ravaisse, Paris, 1894. Reprinted in Cairo, 1988, pp. 30-32.

[24]*Al-Kuttāb* was a general place in which the boys and girls had took their primary education, especially the holy Qur'ān and other religious subjects. It was distributed in all the Islamic countries either in the East or the West. See, 'Abd al-Rāziq, *The Islamic Civilization*, II, pp. 21-25.

[25]Ibn Mankali, *Al-Adilla*, p. 204.

[26]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 21. (الإمام الحبر العلامة...)

[27]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 22. (الشيخ الإمام الحبر العلامة شيخ مشايخ الإسلام...)

just says that his father had fought in *Bilād Uzbik.*[16] We couldn't declare now that if Ibn Manglī was born in Egypt from a Turkish father and then he was surnamed Muḥammad or he had been brought to Egypt as a Mamluk.[17]

Now let us discuss the following question, which is dealing with his education: From where did Ibn Manglī take his sources and information? I think that we must try to trace his sources.

Unfortunately, neither Ṣalḥiya, who simply reports that Ibn Manglī was well educated, nor Serikoff tried to find a background about the life of Ibn Manglī and his education. They also didn't any effort to explain the actual sources of Ibn Manglī's numerous passages on geography and history. As far as we know that he was being thoroughly acquainted with the Qur'ān, the relevant religious literature and Arabic poetry, Ibn Manglī had a vast knowledge in other fields as well. For instance, there are detailed references in his works about North Africa and Cyprus. He must have been acquainted with the work of Ibn Ḥawqal, al-Maqqdisī, and other Arab geographers who are mentioned explicitly.[18]

Although there is no clear information on the life of Ibn Manglī, before he has undertaken his rank *Naqīb al-Djaish* in the Mamluk army at Alexandria, or his education, we can draw a somewhat view of it through some of his works.

It seems that he has taken his primary education in Egypt, as we will try to conclude. Muḥammad Ibn Manglī in his works has depended on the religious sciences such as the Qur'ān, *al-Ḥadīth*, *al-Tafsīr*, the Arab poetry, literature, military manuals, oral or written accounts, science of letters and numbers, his own military experience or of his father and etc...[19] Then, where did Ibn Manglī obtain or learn these sciences?

To answer on this question we have to know the status of the Mamluk education in Egypt at that time. Mamluks were interested especially in the construction of *al-Madāris*, the schools, which were countless as Ibn Baṭṭūṭa said.[20] Most of these schools were dedicated

---

[16]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p. 205.
[17]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 3.
[18]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p.122; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84.
[19]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p. 90.
[20]Ibn Baṭṭūṭa, *Riḥlat Ibn Baṭṭūṭa*, Paris, 1969, p. 70.

Serikoff also called him Ibn Mankalī.[9] Finally, Viré and Zoppoth called him Ibn Manglī.[10] The copier or the writer of Ibn Manglī's *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣināʿa al-Ḥarbiyya* has written two forms of this name, Muḥammad Ibn Manglī (محمد بن منجلى)[11] and Muḥammad Ibn Manklī al-Dāʿī(محمد بن منكلى الداعى).[12] So, Serikoff, Viré and Zoppoth used the two forms of the name without modification. In fact, the last two forms of the name are one. In the first form the copier or the writer has written the name as the Mamluks or the Egyptians pronounced it at that time; but in the second form he has written the name as in Turkish form. So, he put clearly three points under the Arabic letter ک = k to show the Turkish form of the name and in this case the Turkish letter ک will be pronounced in Turkish ج = g, in Mamluk Cairo, such as گ in the Persian.[13] On the other hand, we have not forgotten that the father of Ibn Manglī, as Ṣalhiya said, was born in *Bilād al-Turk*,[14] i.e. *Bilād Uzbik*.[15] According to the Turkish name Ibn Manglī, 'Abdel-Da'im, the editor of *al-Aḥkām*, believes that Muḥammad Ibn Manglī was a descendant of a Turkish origin and his father was a soldier in *Bilād Uzbik*, whereas Ibn Manglī

---

[9]Serikoff, N., "Leo VI Arabus? A Fragment of Arabic Translation from the "Tactica" by Leo VI the Wise (886-912) in the Mamluk Military Manual of Ibn Mankalī (d.1382), *Macedonian Studies*, 9 (1992), 57-61.

[10]Viré, N., "Ibn Manglī", *EI*[2], Suppl., 392; Zoppoth, G., "Muhammad Ibn Mängli, Ein ägyptischer Offizier und Schriftsteller des 14.Jhs.", *WZKM*, 3(1957), pp.288-299.

[11]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.7.

[12]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.10.

[13]Thanks for Prof. M. A. Harīdī, Prof. of Turkish, who explained to me the deference between the two forms of the name.

[14]Ibn Manklī , *Uns al-Malā*, p.8.

[15]*Bilād Uzbik* means the lands, which were situated on the north of Pontos and Caspian seas and the Volga. The king of *Bilād Uzbik*, Muhammed Uzbik, has died in 741 AH./1340 AD. 'Abdel-Dā'im, *Al-Aḥkām*, p.3, n.5. It is probable that *Bilād Uzbik* was *Bilād al-Kipchāk*, the main lands of the Turks and the Mamluks of that time. See Ahmed 'Abd al-Rāziq, *The Egyptian Army in the Mamluk Era*, Cairo, N.D., p. 13.(in Arabic) It is now the Republic of Uzbikstan. Khaṭāb, *Al-Adilla*, p. 205, n. 18.

Sulṭan al-Ashraf Sha'bān 764-778 AH. / 1362-1376 AD. He had also a wide knowledge in many aspects such as chivalry (*al-Furūsiyya*), hunting and literature.

First, we have several pronunciations of the name of our author, Ibn Manglī. So, what is the correct pronunciation of this name? Secondly, unfortunately, the editors of some of his works never presented a good view on his education. Then, from where did Ibn Manglī take his information? Thirdly, Ibn Manglī says that he depended on the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, which is written in Greek. So, the questionable point did Ibn Manglī know the Ancient Greek? Or did he use an simplified Arabic copy of the *Tactica*? These are the main questions of my modest paper.

V. Christides has called this author Ibn al-Manqalī or Ibn al-Manglī[4] and declares that there are many variations which appear in the translation of this name such as Munkalī, Menkelī, Mangalī. He supposed also that the name Mankālī or Manqālī or Mangālī originated from Möngli.[5] Most of the Arab historians called him Ibn Manklī such as M. Salḥiya,[6] M. S. Khaṭāb[7] and A. 'Abdel-Dā'im.[8]

Naumachica", *Graeco-Arabica*, 3(1984), p. 139. For *Niqābat al-Djaish*, al-Maqrīzī says, " This rank was one of the great ranks in the Turkish State. Its owner is one of the inferior chamberlains. He adorns the soldiers in their festivals and the magistrates walk with him. When Sultan or one of his deputies or the chief of the chamberlains ask a prince or a soldier he will be their messenger and he has to bring him. If some one of them will be appointed as a prince or a soldier, *Naqīb al-Djaish* was "appointed on him". In the Sultan's festivals he was the leader of the Sultan's bodyguards in his travel or walking. Today, this rank is declined and its owner became one of *al-Noqaba'* who frighten the people and take their money by force..." see, *Al-Mawā'iẓ wal-I'tibār fī Dhikr al-Khiṭaṭ wal-Athār*, Cairo, N.D., vol. II, p. 223.

[4]Christides, V., "Ibn al-Manqlī (Manglī) and Leo VI: New Evidence on Arabo-Byzantine Ship Construction and Naval Warfare", *ΣΤΕΦΑΝΟΣ*, *BSL*, 56(1995), p. 83.

[5]Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p.83, n.5.

[6]Ibn Manklī, *Kitāb Uns al-Malā bi-Waḥsh al-Falā*, ed. M. Ṣalḥiya, Amman, 1993.

[7]Ibn Manklī , *Al-Adilla al-Rasmiyya fī al-Ta'ābī al-Ḥarbiyya*, ed. M. S. Khaṭāb Baghdad, 1988.

[8]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr*, ed. A. 'Abdel-Dā'im, Unpublished doctoral dissertation, Cairo University Liberary, R. N°.1332.

Ibn Manglī between the Arab and Byzantine Worlds: New Evidences[#]

Ṭarek M. Moḥammad
'Ain Shams University-Egypt

Muḥammad Ibn Manglī[1] is one of the important writers in the late Mamluk period, who has written about the art of war in the Eastern Mediterranean. He has many historical works, nearly fourteen works, from which there is an important and valuable treatise, *al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr* [The Royal Orders and Divine arrangements in the Art of Naval warfare].[2]

We can say that this is the sole and complete work, which speaks on the art of naval warfare in the Middle Ages, especially in the Eastern Mediterranean. On the European side, especially in Byzantium, we have some chapters speak of the naval warfare in different works, such as the chapter of *"Peri Naumachia"* in the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise (886-912 A.D.). However, there is not a complete Byzantine work such as Ibn Manglī's *al-Aḥkām al-Mulūkiyya*.

Ibn Manglī has had a good military experience, which was shown in his historical works. He was an officer in the Mamluk army at Alexandria, *Naqīb al-Djaish*,[3] during the reign of the Mamluk

---

[#]This piece was delivered at *The Ninth International Conference on the Greek, Oriental and African studies*, which was held in Greece, Chios-Oinousses,5th – 9th July 2000. I'd like to thank warmly Prof. V. Christides for his kind invitation and Dr. M. Zemouli for providing me with many valuable remarks. My warm thanks also Dr. J. Pahlitzsch, Free University of Berlin, for his useful remarks and comments. I am indebted to Prof. E. 'Ebied who reviewed the English version of this article. I'd like also to thank Prof. M. Ḥegāzī and Dr. Y. Lev for their valuable remarks.

[1]There are no clear indications to the life of Ibn Manglī to say that what is the correct date of his birth or death.

[2]I'll reedit this treatise in collaboration with Prof. V. Christides, with an English translation and commentary.

[3]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣinā'a al-Ḥarbiyya*, MS. British Museum P. 6019-Or. 3734, p. 8; Christides, V., "Naval warfare in the Eastern Mediterranean (6th – 14th centuries). An Arabic Translation of Leo's VI

إلى قوات المناقضة المتعالية على معرفة الله تعالى × فصّ ويقصف الربّ أرز لبنان × ويدق ذلك كالعجل اللبنانيّ شرح يشير بلبنان إلى أورشلام وبالعجل إلى الوحيش [34] فصّ والحبيب كابن ذات القرن ×الواحدة شرح الحبيب هو المؤمن والمؤمن لا ينقهر × وقوله كابن ذات القرن الواحد أي أنّه يؤمن بإلاه واحد فصّ صوت الربّ يقطع لهيب النار × شرح جماعة الرسل قبلوا نعمة الروح القدس في صوره ناريّة × فصّ صوت الربّ بالقفر شرح يشير بالقفر إلى الأُمم الخالية من الإيمان بالله تعالى × شرح ويرجف الربّ بدية قادس × شرح معنى يرجف أي يظهر وتفسير قادس أي قدسه × فصّ صوت الربّ يكمل أيائل شرح يشير بالأيائل إلى الرسل × فصّ يكشف الغابات شرح يشير بالغابات إلى هياكل الأصنام التي لا ثمر لها البتّة × فصّ وفي هيكله الكلّ يقول تمجيدا والربّ في الغمر يسكن شرح أي أنّ الله أزال الكفر بالطوفان فصّ ويجلس الربّ ملكا إلى الأبد × والربّ يؤيّد شعبه بالقوّة والرب يبارك على شعبه بالسلم .

[34] MS reads الخزيب, which is a bad reading; I suppose that the good reading is which I am giving in the above edited text; cf. J. P. Monferrer-Sala, "Algunas precisiones en torno a la supuesta 'primera fuente' de la acepcin *ḥarī□* = rinoceronte (unicornio)", *Qurṭuba*, 4 (1999), p. 208.

receives the grace of the Holy Spirit he appearance of fire]. The voice of the Lord in the desert [commentary: 'In the desert' refers to the laymen who are full of faith in Holy God]. The Lord shakes the desert of Cadesh [commentary: the sense of 'shape' is 'shows' and the explanation of Cadesh is 'his holiness']. The voice of the Lord makes the deer perfect [commentary: 'the deer' refers to the Apostles] and fades the forests [commentary: with the 'forests', he refers to the temple of the idols that bear no fruits]. In his temple, everybody praises him. The Lord dwells over the waters [commentary: it means that God caused the impious to perish in the Deluge, the Lord sits as a King forever. The Lord will make his people strong, and the Lord will bless his people with peace.

4.2. Edition of the Psalm 28 (fol. 41r-42v)

المزمور الثامن العشرون لداوود وهو أربعة وعشرين حرفا × على خروج القبّة يريد بـــه اليوم الثامن من عيد المظال × قرّبوا للربّ يا أبناء الله × [33]شرح أبناء الربّ هم الرســـل × فـــصّ قدّموا للربّ أبناء الكباش شرح أبناء الكباش هم المؤمنين من الأمم التـــي هـــي كالـــبهائم فصّ قرّبوا للربّ المجد والكرامة شرح الفاعل الخير المستقيم الاعتقاد في الثالوث القدّوس هو الذي يُقرّب الله تعالى تمجيدا × والذي يقرّب كرامة هـــو الذي يرحم الضعيف ويعطيه بلا حزن ولا مشقّة بل كأنّه يُقرض الله سبحانه × فصّ قرّبوا للربّ تمجيدا لاسمه شرح يشير إلى صوت الأب عند اعتماد الابن الأزليّ في الأردنّ فصّ إلاه المجد ارعد شرح إنّما قال ارعد لأجل أنّ هذا الصوت انبثّ في العـــالم بتوسط الإنجيل × فصّ والربّ على كثرة المياه × صوت الربّ بقوّة × شرح يشـــير بقوـــله صوت الربّ بقوّة إلى نعمة الروح المائلة للرسل قوّة × فصّ وصوت الـــربّ يعظّمه الربّ البهاء × صوت الربّ يحطم شجر الأرز × شرح يشير بالأرز

---

[33] Margin: أبناء الربّ

4. Apendixes

4.1. Translation

Translation of Psalm 28 of David, in 24 stichos. At the exit of the Temple on the day 8th day of the huts, [1]Give to God, oh sons of God! [commentary: 'the sons of God' are the Apostles]. Give to God, sons of the Lamb [commentary: 'the sons of the Lamb' are the lay believers, who are like the beasts]. Give to God the glory and the honour [commentary: who acts in righteousness the dogma of the Holy Trinity he glorifies Holy God, and who honours is he who has pity on the weak and does not suffer from sadness and compassion, but rather he acts as praising God]. [2]Give God the glory of his name, worship God in the dwelling of his holiness! [3]The voice of the Lord over the waters [commentary: it refers to the voice of the Father in the baptism of his eternal Son in river Jordan], the God of the glory thunders [commentary: he said 'thunders' because that voice spreads through the whole world with the Gospel. The Lord is over the many waters. The voice of the Lord with strength [commentary: the expression 'the voice of the Lord with strength' refers to the grace of the Holy Spirit fills the Apostles with strength], the voice of the Lord in his highest majesty. The voice of the Lord destroys the cedars [commentary: 'the cedars' refer to the opposite forces that rise against the knowledge of the Holy God. The Lord breaks Lebanon cedars, making them quake like a Lebanon bullock [commentary: with 'Lebanon' he refers to Jerusalem and with 'bullock' to a young bull]. To the beloved like the rhinoceros' cub [commentary: 'the beloved' is the believer, since the believer does not yield. The expression 'like the rhinoceros' cub' is referred to he who believes in One God]. The voice of God cuts the fire flame [commentary: the assembly of apostles

We must bear in mind that the translations were done by bilingual persons, which was a direct influence on the characteristics of the resulting translation, with all the subsequent problems of lexical loans of semantic and syntactic contaminations, and no less importantly, the linguistic transpositions and cultural leaps in the void.

It seems obvious then that the study of certain "techniques" of translation as used in the various texts haded down to us, we can assess –taking into account the concurrent self-imposing limits- the work done by a translator, while evaluating the methodology employed in the process. It could also be of use for assessing the translating accuracy or inadequacy achieved by the translator and the state of the language that he makes avail of so as to translate the source text.

The exegetic task carried out by 'Abd Allāh b. al-Faḍl, as we can see in the sample we edit below, is of great merit. There the resource to analogy is helpful to present christological and moralizing dogmas of the orthodox church in its Melkite variant, and at the same time he imitates the analogical tradition of the patristic commentaries which he uses as a sort of *catenae*.

We attempt to give testimony of the value and relevance of this version with the edition of a brief instance, as a kind of sample, of Psalm 28 following the version of the LXX (29 of the Masoteric Hebrew text and of the *Vulgate*) together with its commentary[32].

The complete heading that introduces the Psalm stands out, where there appears the disposition of the phrases in 24 stychos (*arba'a wa-'ishrīn ḥarf*[m]) and the psalmody of the same in his exact place within the cycle of Jews holy days (*'alā ḫurūj al-qubba yurīdu bi-hi l-yawm al-thāmin min 'Īd al-Maẓāl*) at the end of the 'Festivity of Huts' (™xod... ou skhnhj).

---

[32] On this issue M. Harl, "Y-a-t-il une influence du 'grec biblique' sur la langue spirituelle des chrétiens?. Exemples tirés du Psaume 118 et de ses commentateurs d'Origène à Théodoret", in *La Bible et les Pères. Colloque de Strasbourg 1969*, Paris, 1971, pp. 243-262. Cf. the sample which has been studied by J.P. Monferrer-Sala, "Traducción y exégesis de un texto melquita árabe surpalestinense: Jn 6,1-15 en el *Codex Arabicus Sinaiticus 72* (año 284 H./ 897 JC.)", in V. López Folgado (ed.), *Sensus de sensu. Estudio filológicos de traducción*, Córdoba, 2002, pp. 153-173.

this Sinaitic manuscript should help also to promote the study of Biblical exegesis generated and developed among the Christian Arabs, a topic not approached yet in the wide panorama of studies in Arabic literature created by the Christians.

At a paleographic level, the copy in question has been done using paper as the material and it belongs to the 13th century, consisting of 257 sheets of size 168x130 ms[30]. The sheet 1r-v is written in Syriac (scrip sert) and the case fluctuates between 11 and 13 lines. The graph type used is evolved oriental nasḫī (with a lowering link slant tendency), that reflects the calligraphic characteristics frequent in Christian Arabic handwriters where the interferences of "Middle Arabic" creep into it in a tendency towards classicism pursued by the translator.

3. Some notes on translation and exegesis from Psalm 28

Any approach to the study of old versions of the Bible demands our attention on the fact that we are before materials of translation, which encourages a special view in the study procedures[31] . This is so because when these translations were done no theoretical epistemology that would serve as conceptual support of the translational practice. Except for sporadic cases the translators had not lexicons or grammars at their disposal, so they had to lean on their sole linguistic knowledge, which they acquired with their experience in the languages in question.

To this we may add that the source language represented a state of language and a register that as a rule dated back to several centuries. This entailed, of course, a series of thorny problems that the translator had to sort out, although the end product was not always the best to be expected, and this conditioned it for the future generations. To the various dilemmas of philological nature posed for translators other can be added that stem from the exegesis conducted by some circles of doctrine.

---

[30] *Vid.* A. S. Atiya, *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*, p. 4 (number 65) and M. Kamil, *Catalogue of all Manuscripts in the Monastery of St Catharine on Mount Sinai*, p. 12 (number 50).

[31] Relevant considerations on translation in antiquity can be found in S.P. Brock, "Aspects of translation technique in antiquity" in S. P. Brock, *Syriac on late Antiquity*, London, 1984, III, pp. 69-87.

commentary, the achievement of his early activities[22], that made a great impression in the Syriac literature[23]), and has an enormous importance for being widely used in the Melkite Gospel and Epistle Books[24].

Moreover, it was important for the recurrent revisions that were to be still done among the various Melkite communities spread out through the Middle East up to the 18th century (1735), like that by 'Abd Allāh Ẓāahir in Dayr al-Shuwayr[25], as well as for the great number of manuscripts available of this version[26] and no less for the profit the Orthodox, the Catholics and the Protestants alike have taken out of it[27].

In the editions referred to by Graf and Nasrallah (none of them done with critical views), the Sinaitic copy was not used, so it would be convenient to offer (in collation with the rest of the copies) an edition of this version[28], as it is one of the three oldest, just after the British Library copy, dated in 1239[29]. The edition of

---

Biblique, XXXVII (1928), pp. 340-366 and L. Van Rompay, *Théodore de Mopsueste. Fragments syriaques du Commentaire des Psaumes (Psaume 118 et Psaumes 138-148)*. 2 vol., Leuven, 1982.

[22] *Vid.* R.P. Voste, "La chronologie de l'activité littéraire de Theodore de Mompsueste", *Revue Biblique*, XXXIV (1925), pp. 58 and 60.

[23] Vid. A. Baumstark, *Die christlichen Literaturen des Orients*. 2 vols., Leipzig, 1911, I, p. 67

[24] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, I, pp. 187-190. A good synthesis of the liturgy as used by the melkite Patriachat of Jerusalem, both from Antiochia and the Sinai since mid 10th cent until 14th century, is the one proposed by Msgr. J. Nasrallah, «La liturgie des Patriarchats melchites de 969 à 1300», *Oriens Christianus*, 71 (1987), pp. 156-181. For the Byzantine rite in Arab, *vid. Kitāb al-alāt li-sti'māl al-mu'minīn zuwī l-taqs al-bizantī.* Ed. by Msgr. N. Edelbi, al-Dhawq (Lebanon): Dayr al-Malak Mikhail, 1962.

[25] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 116 and J. Nasrallah, *Histoire du Mouvement littéraire dans l'eglise melquite*, III/I, pp. 217-218

[26] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 118-120

[27] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, pp. 117-118 and J. Nasrallah, *Histoire du Mouvement littéraire dans l'eglise melquite*, III/I, pp. 217-218.

[28] This is a task we plan to undertake in the near future

[29] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 118. On the manuscripts of the translation of Psalms by 'Abd Allāh b. al-Faḍl, *vid.* G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, I, pp. 116-119

But of all his prolific work his translation-commentary of the Book of Psalms, done from an original Greek (*al-nusḫa l-yūnāniyya allatī staḫrajnā min-hā hadhihi l-tafāsīr*), was one of the works with the most important liturgical purpose done by the author. As it is explicit in the introduction, the author himself assesses his work as an exegetical work (the copy *Vaticano Arabo 145* and that from Leipzig central Library, *ar. 297*, are annotations to the book of the Psalms[19]) with the plural *tafasir*, commentaries. With this term he identifies both tasks, that of the translation and that of commentary, done eventually from several Greek texts that 'Abd Allāh b. al-Faḍl identifies in detail with the Greek revisions of the Jews Theodosius, Aquila and Simmacus (the three preserved partially thanks to Origen's *Hexaplas*)[20], Theodoretus and other famous Saint Fathers. From them he translates all the glosses, correcting even the text where the Antiochian thinks advisable, as he states: *Thāwudhūtiyūs wa-Akīlās wa-Simmāḫus wa-Thawudhūrīṭus wa-gayri-him min al-Abā' al-ajillā'l-Qiddīsīn qad tarjmnā min-hā mā htamalat-hu ḥawāshī hadhihi l-nusḫa* [...] (fol. 3r).

'Abd Allāh b. al-Faḍl did his Arabic version from the text of the LXX, that was the only review used in the Melquite church, and was prefaced by an introduction to the Psalms and an interlineal commentary. Such commentary work is inserted, in turn, within a long interpretive tradition of the Book of Psalms in Christian Orient (where, among other, the great Theodorus of Mompsuestia[21] was outstanding (died in 428) with an early

---

[19] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 59

[20] Cf. D. Barthelemy, *Les Devanciers d'Aquila*, Leiden, 1963 and J.R. Busto Saiz, *La traduccion de Simaco en el libro de los Salmos*, Madrid, 1985, pp. 293-310. About the *Hexapla*, *vid.* for example: H. J. Venetz, *Die Qinta des Psalteriums. Ein Beitrag zur Septuaginta- und* Hexaplaforschung, Hildesheim, 1974; A. Schenker, *Hexaplarische Psalmenbruchstücke. Die hexaplarischen Psalmenfragmente der Handschriften Vaticanus graecus 752 und Canonicianus graecus 62*, Freiburg-G. ttingen, 1975, and A. Schenker, *Psalmen in der Hexapla. Erste kritische und vollständige Ausgabe der hexaplarischen Fragmente auf dem Rande der Handschrift Ottobonianus graecus 398 zu den Ps 24-32*, Città del Vaticano, 1982. Cf. also C. E. Cox, "The translations of Aquila, Symmachus and Theodotion in the margins of Armenian manuscripts", in C. Burchard (ed.), *Armenia and the Bible*, Atlanta, 1993, pp. 35-45.

[21] Vid. R. Devreesse, "Le commentaire de Theodore de Mompsueste", *Revue*

In effect, the settlement carried out by the Arabic Islamic troops along the 7th century made Arabic a new *lingua franca*[15] that soon became a oral and written means of communication of the human groups that inhabited the occupied territories and in especial, those of the Melkite communities. Among the latter, the Scripture work done was especially fertile in the monasteries, as for example in the Mār Sābā, Mār Ḫaritōn and Mār Kātirīna. This encouraged the Christian writers to gradually substitute the respective languages for Arabic[16].

In this line and with a view to remedy the faithfuls's lack of knowledge of the Greek language[17], the intense pastoral work developed by 'Abd Allāh b. al-Faḍl with them, in order to provide them with the necessary procedures to take part in the liturgical rites, was helpful to do Arabic versions of those books that were frequent in liturgy: Gospel books, Epistles and Psalter.

Nonetheless, those versions were not only translations of the original Greek text into Arabic but also added further commentaries as used in the homilies[18]. Among other exegetic purposes, 'Abd Allāh b. al-Faḍll had the intention by means of those commentaries that the faithful got in contact with the Fathers of the Church. He insisted especially on the moral content of St. John Chrisostom through the heritage of Capadocians.

---

[15] Vid. J. Blau's article for this concept, "A Melkite Arabic *lingua franca* from the second half of the first Millenium", *Bulletin of School of Oriental and African Studies*, LVII (1994), pp. 14-16. For the "Middle Arabic" as used in the works by the christians, vid. J. Blau, *A Grammar of Christian Arabic. Based mainly on South-Palestinian texts from the first millenium.* 3 vols., Louvain, 1966-67.

[16] *Vid.* the studies done by S.H. Griffith on the fist samples of "christian Arabic" in Arabic, like "The Gospel in Arabic: an enquiry into its appearance in the fisrt Abbasid century", *Oriens Christianus*, 69 (1985), pp. 131-132 and S.H. Griffith, "The monks of Palestine and the growth of Christian literature in arabic", *Muslim World*, LXXVIII (1988), pp. 1-28; also J. Nasrallah, "Duex versions melquites partielles de la Bible du IXe et du Xe siecles", in *Oriens Christianus*, 64 (1980), pp. 203-210

[17] For the various languages used in the different areas of Christian population, *vid.* J. Nasrallah, "La liturgie des Patriarcats melquites de 969 a 1300", *Oriens Christianus*, 71 (1987), pp. 163-165

[18] Vid. L. Greenspoon, "Theodotion's Version", *The Anchor Bible Dictionary*, 6 (1992), p. 447-448

commentary to the 151 psalms[10] and is the work of the deacon (shammās) 'Abd Allāh b. al-Faḍl al-Anṭākī.

The varied talents of the Melkite Antiochian 'Abd Allāh b. al-Faḍl[11] are well known, a famous translator and encyclopaedist of reputed rigour who was honoured with the name of *shayḫ* and the *laqab* of Abū l-Fatḥ. Born in Antiochia[12] into a well known family at the beginning of the 11th century, he died at the end of that century, having achieved the grade of deacon, as the name *shammās* he bore seems to indicate, as the name of bishop (*muṭrān*) he was given in some writings seems to be due to an ancestor, most probably his grand-father.

Among Antiochian 'Abd Allāh b. al-Faḍl's wide work on Scriptures, he allegedly wrote the translation of St. Basilius's *Hexameron*. He is a central piece to the updating of Antiochian Patriachate in the context of the cultural upsurge undergone by Christendom with Arabic[13] as the new official language; he also seems to have written a *Bahjat al-mu'min*, a *Sharḥ al-amāna l-mustaqīma*, a *Kitāb al-manfa'a*, and also some himnographies of liturgical books and a series of 87 homilies taken from the St. John Chrisostoms's works (*Fam al-Dhahab*), and besides some commentaries to various biblical books: to Genesis (*Tafsīr al-Takwīn / Tafsīr al-sifr al-awwal mina l-Tawrāy al-musammā Sifr al-Ḫalīqa* o *Tafsīr sittat ayyām al-Ḫalīqa*) to St. Matthews's Gospel (*Tafsīr Bishārat Injīl Mattā l-Rasūl*), to St. John's Gospel (*Tafsīr Injīl Yuḥannā l-Bashīr*) or the commentary of St. John Chrisostomos on the "Epistle of the Hebrews" (*Sharḥ Risālat al-Qiddīs Bawlus ilā l-'Ibrāniyyīn*) among many other[14].

---

[10] In fact, the "suplementary" psalm presented by the LXX, but absent from the Hebew text and the Latin *Vulgata*

[11] About this author and his extensive work, vid. G. Graf, *Geschichte der christlichen arabishen Literatur II*, pp. 52-54

[12] About Antiochia, vid. D.S. Wallace-Hadrill, *Christian Antioch: A Study of early christian Thought in the East*, Cambridge 1982.

[13] Vid. in this connexion, the work by D. Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture. The Graeco-Arabic Translation Movement in Bagdad and Early 'Abbasid Society' (2nd-4th-8th-10th- centuries)*, London-New York, 1998

[14] Vid. the work by J. Nasrallah, *Histoire du movement littéraire dans l'eglise melchite du Ve au XXe siècle*. Contribution a l'etude de la litterature arabe chretienne, Louvain-Paris, 1983, III/I, pp. 191-229

but the need is felt to put forward a series of basic and overall conclusions through a concrete example, the analysis of Psalm 28 (after the order offered by those in LXX). This contribution, besides, attempts to be an integral part of a more ambitious and necessary endevour in order to step forward in the biblical texts in Arabic: more specifically, the critical edition of a complete Arabic biblical text, making use of all possible manuscripts available. In this way, we can have at hand a critical text useful for working with greater scientific rigour.

At the same time we will contribute to the study of the general biblical text, providing variants and textual traditions that are likely to be unknown, if not lost, and casting a new light in the field of the Arabic versions of the Biblical text, still scarce and badly known[9].

2. The translation-commentary of the Psalms into Arabic by 'Abd Allāh b. al-Faḍl

Among the great number of Arab manuscripts that are kept in the Monastery of Mār Kātirīna, in Mount Sinai, there is an Arabic version of the Book of Psalms that also contains a

---

1876; also *Psalterium, Hebraeum, Graecum, arabicum & Chaldaeum, cum tribus latinos interpretationibus & glosis,* Genua: Petrus Paulus Porrus, in aedibus Nicalai Justiniani, 1516, about the same, vid J. P. Monferrer Sala, "Dos impresos italianos del s. XVI de la BPC. *Una aeditio princeps* bilingue arabe-latina de los Evangelios y un *octaplum* del Salterio", *Alfinge,* 13 (2001), pp. 83-96.

[9] *Vid.* For instance, M. Schreiner, «Beitrüge zur Geschichte der Bibel in der arabischen Literatur», in: G. A. Kohut (ed.), *Semitic Studies in Memory of Rev. Dr. Alexander Kohut*, Berlin, 1897, pp. 495-513; P. Kahle, *Die arabischen Bibelübersetzungen*, Leipzig, 1904; M. L. Margolis, *The Story of Bible Translations*, Jerusalem, 1970 (=Philadelfia, 1917), pp. 48, 53-55, 63; B. J. Roberts, *The Old Testament Text and Versions. The Hebrew Text in Transmission and The History of the Ancient Versions*, Cardiff, 1951, pp. 266-269; P. Kahle, *The Cairo Geniza*, Oxford, 1959², espec. Pp. 191-304; S. Khalil, «Old Testament, Arabic versions of», in: A. Suryal Atiya (ed.), *Coptic Encyclopedia*, VI, pp. 1827-1836; B. M. Metzger, *The Early Versions of the New Testament. Their Origin, Transmission and Limitations*, Oxford, 1977, pp. 257-268. *Vid.* also J. Assfalg, «Bibelübersetzungen», en: R. H. Beautier-R. Auty (Eds.), *Lexikon des Mittelalters*, Munich-Zurich, 1983, II, col. 95.

The only relevant overall work we can consult is the great work by Graf[4] and still this is being updated under the supervision of Samir Khalil[5], as there are some lacunae, and lack of information about the manuscripts, the error in the identification, classification and analysis of many samples, this said with no disregard for the great achievements of the work[6].

It seems obvious that there is still a hard and lengthy work ahead, that the materials and places to go into are manifold, and the nature of documents is varied. In addition, the recuperation of the material already edited or presented as pre-edited state, no matter how valuable it is, must be collected, analysed and taken some profit out of it, if the chance is offered.

In this line, and according with the above mentioned, we attempt in this paper to announce an important unpublished manuscript: it is the Arabic version of the book of "Book of Psalms" translated from an Antiochean Greek 'Abd Allāh b. al-Faḍl (11th cent)[7]. Such manuscript has especial relevance because of the important exegetic material it contains and transmits. This MS, still unpublished, prove outstandingly relevant, especially because we do not have a critical edition of the Book of Psalms.

This work is not just the base for a future edition of this manuscript which contains the translation of the Book of Psalms[8],

---

[4] G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur.* 5 vols., Modena, 1996 (=Ciudad del Vaticano, 1944-47).

[5] Vid. S. Khalil, "La tradition arabe chrétienne. État de la question, problèmes et besoins", in Samir Khalil (ed.), *Actes du Premier Congrès International d'Études Arabes Chrétiens (Goslar, septembre 1980)*, Rome, 1982, pp. 19-120.

[6] The internal document we are working with, together with the classification of the material of the first two volumes for the experts has been done by Samir Khalil Samir, "Vers une «Encyclopédie de la littérature arabe des chrétiens»", Samir Khalil Samir (ed.), *Actes du 5e Congrès International d'Études Arabes Chrétiennes (Lund, août 1996)*, in *Parole de l'Orient*, 24 (1999), pp. 45-59. Cf. J. P. Monferrer-Sala, "Sobre literatura Arabe cristiana y propuesta de trabajo", *'Ilu*, 4 (1999), pp. 136-137.

[7] Cf. J.P. Monferrer-Sala, "En torno a dos manuscritos bíblicos árabes ineditos", *Philologia Hispalensis* [= C.Mª Thomas & P. Cano (eds.), *Homenaje a la Profesora Eugenia Gálvez Vázquez*], XIV/2 (2000), pp. 334-338.

[8] *Vid.* for instance, among the published material: *Liber Psalterium Davidis Regis et prophetae. Ex arabico idiomate in latinum translatus,* Roma: Typographia Sauariana, 1614 and P. de Lagarde, *Psalterium job Proverbia arabice*, Gottingen,

From Greek into Arabic: some notes about translation and exegesis in a 13th cent. Christian Arabic work

Juan Pedro MONFERRER SALA
University of Córdoba ,Spain

1. Introduction

Much has been debated, among others by Samir Khalil, concerning the need for cataloguing and giving an account for the collection of Christian Arabic manuscripts in the different Libraries[1], alongside with the urgency in publishing such material.

Added to the scarcity of inventaries of this specifically Christian collection (one rare exception, still incomplete, being that of the Monastery of St. Catherine, in Mount Sinai[2]) and the lack of scientific rigor of many of the existing catalogues from the 19th century and even the 20th century, the scornful treatment of Christian works, remarkable cases excepted, is to be emphasized in the two well-known important repertoires[3].

---

[1] A list of existing catalogues can be seen in A.J.W. Huisman, *Les manuscrits arabes dans le monde. Une bibliographie de catalogues*, Leiden, 1967.

[2] The best updated catalogues in this *laura* are those of Aziz Suryal Atiya, *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*, Baltimore, 1955 y Kamil Murad, *Catalogue of all Manuscripts in the Monastery of St Catharine on Mount Sinai*, Wiesbaden, 1970. See also the unpublished manuscripts catalogued by I. E. Mēimarēs, *Katalogos tōn neōn arabikōn kheirographōn tēs hieras monēs Hagias Aikaterinēs tou Orous Sina*, Athens, 1985. A concordance of the Sinaitic and Cirenaic manuscript is found in Samir Khalil, *Tables de concordance des manuscrits arabes-chrétiens du Caire et du Sinaï*, El Cairo, 1986. For the Syriac collection of this monastery we can consult the classical *Studia Sinaitica No. I: Catalogue of the Syriac MSS in the Convent of S. Catharine on Mount Sinai*. Compiled by Agnes Smith Lewis, Londres, 1894; *Anecdota Oxoniensia: Biblical and Patristic Relics of the Palestinian Literature from MSS in de Bodleian Library and in the Library of Saint Catherine on Mount Sinai*. Edited by G. H. Gwilliam, F. Crawford Burkitt, and John F. Stenning, Oxford, 1896. The illuminated manuscripts have been analysed by K. Weitzmann, *Illustrated manuscripts at St. Catherine's monastery on Mount Sinai*, Collegeville, Minnessota, 1973.

[3] C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*. 2 vol., Leiden, 1943 and 1949; *GAL. Supplementbände*. 3 vol., Leiden, 1933, 1938 and 1942; F. Sezgin, *Geschichte des arabischen Schifttums*. 10 vol., Leiden, 1967-, in due curse of edition.

That is not to say that Byzantium was not interested in the Black Sea and in the peoples inhabiting this region, or that they were not careful to monitor the changes that went on there. Indeed, in so far as one can talk about key themes in the foreign policy of the Byzantine Empire in this period, it is clear that the thrust was very explicitly and consistently geared at containing the Bulgaria of Symeon and of managing and controlling the emergence of Rus'. It is no coincidence, however, and certainly worth stressing, that both of these were dealt with and handled without Pecheneg help or assistance, and rather in spite of the nomads, rather than because of them.

However, my purpose here has been simply to flag up the dangers of reading too much into a text drawn from a wide range of disparate sources, with varying motivations and which ask more questions than it solves. Instead, the intention has been to offer a counter-argument to the long accepted hypothesis, essentially lifted *verbatim* from the *De Administrando Imperio*, that Byzantium sought and was able to maintain a favourable balance of power above the Black Sea in the 9th and 10th Centuries by a sustained policy of divide and rule, or by basing a strategy on an unreliable, though truly terrifying, nomadic tribe.

Kiev after a long journey, carrying many possessions with him, vulnerable at the rapids : in short, too good an opportunity to miss.

Here then it is worth looking to the 11th Century for some instructive insights into steppe diplomacy, and which reveals why such policies (as far as they existed at all) were so problematic and illusory. Faced with increasing threat of the Pechenegs in the Balkans and even as far as the environs of the capital in the 1080s, the Emperor Alexios I Komnenos finally went for an all-out battle with the nomads in 1091 by a hill named Lebounion in southern Thrace, calling in support from as far away as Rome and Flanders. He also appears to have sought an alliance with the Cumans (or Qipchaqs), another nomadic tribe from the steppe region. In the best case scenario, the Cumans proved to be utterly unreliable, only appearing at the very last moment to take on the Pechenegs. Even then, as one source makes clear, the Emperor had to exercise extreme caution when dealing with them in the aftermath of victory.[28] At worst, though, alliance with the Cumans proved of marginal long-term value, as they simply replaced the Pechenegs as the thorn in the Byzantine side : whereas it had been the Pechenegs who repeatedly invaded the Balkans in the 1080s, thirty years later it was the Cumans who were causing the problems.[29]

Unreliability of course was the key, and this really drives any serious hypothesis as to whether the Byzantines were truly prepared to rest their strategy on getting the Pechenegs to do their dirty work for them. And even here it is the *De Administrando* itself that poses the question : as we learn from the text, on at least one occasion, one of the tribes on the steppe had simply refused to do what it was asked by the Byzantines.[30] In other words, Byzantium's neighbours in the Black Sea region, like those elsewhere, could not be relied on when needed.

Perhaps then the first twelve chapters of the text do tell us more about Byzantium and about how the Byzantines saw themselves in the middle of the 10th Century, at a time of political and geographic expansion, a time of economic upswing, and at a time where they saw themselves as masters of their own destiny.

---

[28] P. Diaconu, *Les Pétchénègues au Bas-Danube* (Bucharest, 1970), 25-32; Anna Komnene, *Alexiade*, ed. B. Leib, 3 vols. (Paris, 1937-45), Bk VIII, ch. iv-vi, vol. 2, 136-46.

[29] P. Diaconu, *Les Coumans au Bas-Danube aux XIe et XIIe siècles*, (Bucharest, 1978), 37-42.

[30] *DAI*, ch. viii, 56.

they went through with their part of the deal ? Suspicions here point instead to a hypothesis that not only was the concept of steppe diplomacy as laid out in the *De Administrando* one of wishful (or fanciful) thinking, but so too was the list of goods that were 'paid' to the nomads : might not even this be a *topos,* designed to show off the simplicity of the Pechenegs against the sophistication of 10th Century Byzantium ? It is hard to see how this was not the case, in fact, given Constantine VII's early protestations about the greed of Byzantium's neighbours – for if this amounted to little more than a few pieces of fabric then it is hard to see why or how the Emperor could really complain.[24]

Certainly, a policy that might conceivably be referred to as steppe diplomacy, but which in fact amounts to little more than standard frontier policy, did exist – as is clear from the case of Byzantium's ill-fated attempt to ally with and use the Magyars against Symeon and Bulgaria at the end of the 9th Century (where significantly it was a Bulgar alliance with the Pechenegs that proved decisive).[25] However, apart from this (often quoted) instance, we are hard pushed to find other occasions where Pechenegs (or others) were successfully activated against each other or against Byzantium's enemies.

In 941, of course, when Igor of Kiev managed to attack Constantinople itself, the Pechenegs and the Pecheneg deterrence are conspicuous by their absence at precisely a time when we would have expected them to have been in evidence.[26] Other cases where Pecheneg involvement, or even non-involvement, are few and far between. And even when we can see the nomads at work with the murder of Sviatoslav of Kiev at the start of the 970s, one wonders just how much this had to do with Byzantium. For while Sviatoslav's murder suited Byzantium, we are surely not to believe that his assassination did not also benefit the Pechenegs as well.[27] And indeed, there is perhaps an even more basic way to see the murder here, not as part of some Byzantine or Pecheneg master plan, rather as a case of a wealthy man of status, well-known to the nomads, tired and defeated, returning to

---

[24] *DAI*, Prooimion, 44.
[25] Whittow, *Orthodox Byzantium*, 287.
[26] See Shepard and Franklin, *Emergence*, 114-6.
[27] *Russian Primary Chronicle*, Eng. tr. S. Cross and O. Sherbowitz-Wetzor (Cambridge, Mass., 1953), 90.

prevention of attacks on Byzantium and Constantinople by the Rus', Bulgars and Magyars.

Moreover, the temptation to see the Pechenegs as a valve that could be used against these other peoples and turned on and off at will must surely be resisted in the strongest terms as being too simplistic by half. For taken as a whole, the first chapters of the *De Administrando* suggest not only that the Pechenegs were the rock and basis of Byzantine policy in this region; they were also the rock and basis of the policy of all those in this region, to the extent that the Rus' were not only reliant on their neighbours for cattle, sheep and horses, but were unable to leave their homes unless they entertained good relations with the Pechenegs.[22] In this way, it is not so much a question of Byzantium controlling the steppe with a considered and careful policy of steppe diplomacy or of a strategy of divide and rule, rather a recognition of that the Pechenegs exercised *de facto* control of the area to the north of the Black Sea from the Danube to the Dniepr and beyond.

This in itself should make us wonder how real and effective any Byzantine steppe policy may have been – or even if there was really one at all. For the impression of a Byzantium pulling strings rather precludes both what the text tells us about Pecheneg ascendancy on the steppe, and also about their own motivations and interests in dominating their neighbours. So, for example, chapter nine at first glance provides a template for how to attack the Rus' and keep them in check by activating trusty imperial allies as required by Constantinople. But surely here it is important to question whether the petty goods mentioned by the text ("purple cloth, ribbons, woven cloth, gold brocade, pepper, scarlet (also Parthian) leather, and other commodities which they might require") would really have bought large-scale Pecheneg support.[23]

Certainly, given the very nature of tribal structure in general, and particularly that along the lines set out in chapter thirty seven of the text, it is worth asking whether buying off was actually a realistic and even a feasible thing to do : it is hard to believe that all tribal leaders would have been paid on each occasion, simply for logistic reasons. And even if they had, is it truly reasonable to think that they would always and invariably have followed instructions, in short that

[22] *DAI*, ch. ii, 50.
[23] *DAI*, ch. vi, 52.

many of the chapters here are very short; and there is the nagging suspicion that what we are being told is rather simplistic and pat.

Indeed, the question that arises here is whether this part of the text perhaps tells us more about Byzantium and the Byzantines, and about the way that they saw themselves, than it does about Byzantine relations with the Pechenegs, or about steppe diplomacy as a whole. Are these chapters not more interesting as a primer for us to understand the Byzantine view of the self – able to choose who to ally with; able to have a role in, and influence, long-distance politics; able to manipulate and control a region far from Constantinople and on the periphery (if not beyond) of the Empire ?

And the fact that we already have one eyebrow raised makes it easier to assess what Constantine VII tells us in this section at least of the *De Administrando* dispassionately. Already suspicious about the very concept of steppe diplomacy, close examination of the text reveal further places where what we are told jars. For example, at the outset, the author explicitly states that he will explain how to deal with the Empire's neighbours by force of arms and making war ("*polemeisasthai*").[18] However, nothing could be further from what he in fact advocates in the opening twelve chapters, where he instead (repeatedly) advises the use of anything but force – in the form of diplomatic missions, gifts, words and friendships.[19]

To this may be added the insistence articulated in the Prooimion that all non-Byzantines have ravenous appetites and insatiable tempers, and that they constantly demand gifts.[20] Yet instead of explaining how to counter such demands, the advice set out in these chapters is rather different, and appears to turn on the principle of meeting demand and satisfying greedy appetites, advising payment, or rather presentation, of gifts that were proportionate to a people ("*ethnos*") as important as the Pechenegs.[21]

And a further point that might be worth making here is to ask just how ambitious the Byzantine programme was on the steppe and what its real target was, for, reading between the lines here suggests that the primary thrust of imperial policy was that employment of and payments to the Pechenegs were really directed at and motivated by

[18] *DAI*, Prooimion, 44.
[19] E.g. *DAI*, ch. i, 48; ch. iv, 50; ch. v, 52; ch. vi, 52; ch. vii, 54
[20] *DAI*, Prooimion, 44.
[21] *DAI*, ch. i, 48.

Emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs." And in order to ensure that this would be the case, the Emperor was encouraged to conclude conventions with the Pechenegs on a regular basis ("*sunthekas*"); to make friendships ("*spondas*") with them; to send them an envoy every year, presumably to ensure continued support; and to give them gifts regularly – although is not entirely clear what these would have been.[14]

The following chapters go on to explain why it was that the Pechenegs were so dominant and why it was that Byzantium would do well to keep them happy. As the text tells us, all the nomads' neighbours, including the Rus', the Bulgars and the Magyars, had learnt from painful experience that it was not a good idea to be on the receiving end of Pecheneg aggression.[15] It is worth noting that it is unlikely that the stress on Pecheneg aggression is an authorial creation, designed to play up the qualities of a key Byzantine ally. Certainly, there do appear to be fundamental differences in the way that the Pechenegs were reacting to the world around them – in particular retaining a fully nomadic lifestyle rather than becoming increasingly sedentary (unlike the Magyars at the start of the 10^{th} Century, for example), and also resisting, or at least displaying no discernable interest in, Christianity, unlike so many of their neighbours. Moreover, the fact that other sources talk of the exceptional cruelty and barbarity of these nomads provides at least some confirmation of the fact that the Pechenegs really do appear to have been more dangerous than those around them.[16]

Nonetheless, the *De Administrando*'s insistence on Pecheneg dominance of the steppe and on the need for the Byzantines to treat them as the Empire's primary allies in the region – and as the basis for military and diplomatic policy above the Black Sea – is not without its problems. In the first place, the language used in these chapters is very simple; there are no details of any note in this part of the text, with the obvious exception of chapter nine which provides a very lengthy account indeed about the route taken by the Rus' on their way to the Black Sea, highlighting precisely where ambushes could be laid;[17]

---

[14] *DAI*, ch. i, 48.
[15] *DAI*, chs. ii-v, 48-52.
[16] J. Shepard, 'The Russian steppe frontier', *Arkheion Pontou* 35 (1979), 218-37; S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus'* (London, 1996), 176-9.
[17] *DAI*, ch. ix, 56-62.

the Emperor), and how all could be dealt with.[11] It is perhaps not surprising, given the language used at the start of the text – coupled with the ostensibly comprehensive survey of all of Byzantium's neighbours – that many scholars have seen the text as a blueprint for imperial foreign policy.[12] Some have even gone further, arguing that the *De Administrando* was a highly sensitive top-secret document that would have been enormously detrimental if it fell into non-Byzantine hands, – without considering whether in fact people like the Pechenegs could read Greek or whether the nomads could even read at all.[13]

Certainly, the first section of the text – the first twelve chapters – which are concerned with the area to the north of Constantinople and specifically to the north of the Black Sea are not hard to understand : the clear and explicit intention is for the author to explain how (and why) the Byzantines should control the steppe zone and how it should use the peoples populating it to its own advantage.

These chapters leave little doubt that the overriding concern, and indeed the basis, for Byzantine (foreign) policy in this region was the Pechenegs themselves. It was with the help of these nomads that the Empire would be able to maintain a balance of power that it was happy with and that would be favourable in the long run. Although the author does not explain why he was (and that Byzantium should be) interested in this region in the first place, it does not take much for us to read between the lines and realise that the focus on the Pechenegs had come about as a response to three specific phenomena not just on the steppes themselves but in neighbouring areas.

First, of course, the reliance on the Pechenegs was at least partly prompted by the shifting power on the steppes in the mid and late 9th Centuries, away from the Khazars and the Magyars and very much in favour of the Pechenegs, who proved themselves the dominant force in the reign of Constantine's father, Leo VI. In addition to the collapse of Khazar power were two further potential and indeed very real threats to Byzantium proper – which came in the form of the Bulgars and the Rus'. The logic here, therefore, is that there is more to the *De Administrando*'s focus on the Pechenegs and on the author's strenuous advice that "it is always greatly to the advantage of the

---

[11] *DAI*, Prooimion, 44ff.
[12] E.g. J. Bury, 'The treatise De administrando imperio', *Byzantinische Zeitschrift* 15, 517-77; Stephenson, *Frontier*, 25ff.
[13] Jenkins, *De Administrando*, 13.

like steppe diplomacy, where we are essentially reliant on this single source.

The concept and principles of steppe diplomacy as set out clearly in the first twelve chapters of the *De Administrando* – namely the manipulation of a balance of power favourable to Byzantine interests, the playing off of one against another, based on a simple policy of divide and rule – certainly strike a chord with the modern historian, and particularly with the Byzantinist familiar with the image of Byzantium as consistently projected and re-enforced from within as innately and inherently superior, able through power of reason and sheer intelligence to out-manoeuvre its enemies and rivals.[9]

The impression this had on others was not always favourable to say the least, with the fact that we can detect this in the first place going some way to confirming the view of Byzantium's self-promotion at the expense of others. It is striking, for example, that so many of the historians of the Crusades – at least those of the first four Crusades (1096-1204) – have similar reactions to Byzantium in general and to individual Emperors in particular. The various and many accounts share a common literary characterisation – which of course serves to echo contemporary political responses – of Byzantium as duplicitous and untrustworthy, always on the lookout to play off one against another, whether Crusader against Crusader, or Muslim against Crusader. And in this respect, it is important to note that it was not only outsiders who were aware of this and, for that matter, critical of it : John the Oxite, Patriarch of Antioch at the end of the 11th Century, was explicit in his attack on Constantine X Doukas, where the Emperor's readiness to setting Byzantium's neighbours against each other was roundly condemned for being not only immoral but fundamentally un-Christian.[10]

The impression of Byzantium's readiness and indeed keenness to base foreign policy on this basis is firmly enforced by the *De Administrando*, which presents itself as a utililtarian primer for Constantine's son, Romanos II. According to the Prooimion (or Preface) therefore, the purpose of the text was "in the first instance to set out what each nation (*ethnos*) has power to benefit the Romans," going on to explain how some could harm the Empire (and therefore

---

[9] *DAI*, chs. i-xiii, 48-76.

[10] P. Gautier, 'Diatribes de Jean l'Oxite contre Alexis Ier Comnène', *Revue des Etudes Byzantines* 28 (1970), 41.

from the town of Kherson in the Crimea.[4] Nonetheless, the *De Administrando* allows a clear view into a sustained Byzantine interest in the steppe to the north of the Black Sea.

In chapter 37, for example, we learn about the circumstances and (by inference) the date of a large-scale movement of Pecheneg tribesmen from an original location somewhere between the rivers Atil and Geich westwards to the Dniepr;[5] we learn about Pecheneg tribal structure and about the manner in which the Pechenegs divided territory between constituent members of the tribe.[6] We learn the names given to these territories by the Pechenegs themselves, and we also have recorded the names of several Pecheneg leaders at the time of composition of this section of the text.[7] And we learn that one element of the Pechenegs had been incorporated within the Uzes' tribal structure at some point earlier in the 9th Century and that this element had retained a distinct ethnic, as well as visual, identity in spite of this.[8]

Of course, what this chapter does not tell us is why such information was recorded in the first place. Moreover, it prompts further important questions which are no easier to answer – such as why such records were kept in Byzantium; what else was kept; how long records were kept for; how often they were updated; and where they were kept and who by – presumably Constantinople and perhaps by the logothete of the drome – though here again, the very disparate character of the information contained within the text hardly points towards a comprehensive, uniform library.

In this respect then, the primary conclusion to reach, and the obvious starting point for any survey of the *De Administrando Imperio* is to treat the text with caution, and to use it judiciously. The temptation with this source is to see it as a Holy Grail for Byzantine attitudes to its neighbours in a period where precious little is known about this topic generally, and particularly for a more specific subject

---

[4] R. Jenkins and F. Dvornik, *De Administrando Imperio – Commentary* (London, 1962); J. Howard-Johnston, 'Re-examination of the evidence of the arrival of Rus', in eds. M. Kazanski, A. Nercessian, C. Zuckerman, *Les centres proto-urbains russes entre Scandinavie, Byzance et Orient* (Paris, 2000).
[5] *DAI*, ch. xxxvii, 166. Also see M. Whittow, *The making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London, 1996), 230-33.
[6] *DAI*, ch. xxxvii, 166-70.
[7] *DAI*, ch.xxxvii, 166.
[8] *DAI*, ch. xxxvii, 169.

some significance that, with the notable exception of Bryennios, none of those writing narrative accounts at this time appear to have had any substantial and substantive experience of affairs outside the city walls.

In this context, therefore, it should be stressed that it is not only Byzantium's relations with its neighbours that so often draws a blank in such sources. There is also precious little, if anything at all, about the Byzantine interior – about Thessaloniki, for example, or about the other major towns of the Empire. Indeed, analysis of Byzantine activity – and even issues so basic as simply assessing and establishing an imperial presence – in areas such as the north-western Balkans and by the Danube have to be pieced together from numismatic and sigillographic sources (with the resultant gaps and problems that these can pose) in the absence of comment in the narrative histories.[2]

However, information gathering clearly was happening in the Black Sea region in the 9th and 10th Centuries, and this goes some way to allowing us to understand that we should be careful not simply to rely too heavily on what the principal historians for this period tell us. Nowhere is such information gathering clearer than in a text that has come to be known as the *De Administrando Imperio,* a source compiled during the reign of Constantine VII Porphyrogenitos, ostensibly by the Emperor himself, setting out a raft of information about Byzantium's neighbours, taking in the peoples to the north of Constantinople, the Arabs (*Sarakenoi*), as well as looking at Spain, Italy, the Adriatic and the Caucasus.[3] The text is not without its problems, and it poses many questions – not least that of the date of composition or compilation – and also those that stem from an analysis that reveals that the text is made up of a very wide range of sources, such as drawing on at least one Magyar source, on a re-touched account about the Croats and Serbs that is contemporary not with Constantine VII in the mid-10th Century, but with the Emperor Heraklios at the start of the 7th, and on a chronicle otherwise unknown

[2] P. Stephenson, *Byzantium's Balkan Frontier* (Cambridge, 2000); P. Doimi de Frankopan, 'The numismatic evidence for the Danube region 971-1092', *BMGS* vol. 21 (1997), 30-9; id., 'The workings of the Byzantine provincial administration in the 10th-12th Centuries : the example of Preslav', *Byz.* 71 (2001), 73-97.

[3] Constantine VII, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik and R. Jenkins (Washington, D.C, 1967).

Some notes on Byzantine foreign policy in the 9th-11th Centuries : was there really such a thing as steppe diplomacy ?

Peter Frankopan
Oxford University, England

In many respects, there are contrasting and competing views at play when we look at Byzantium's relations with its neighbours – whether in the Black Sea region or elsewhere for that matter. On the one hand, it is possible to compile a picture of Byzantine interest in its neighbours, of the Byzantines gathering information about those on its periphery, of a sensitivity and alertness to shifts in power beyond the Empire's frontiers, and of a state able and actively seeking to respond to such changes as necessary.

This contrasts sharply with the other – and in many ways the more dominant – picture which can be drawn from the historiography of the middle Byzantine period, with its relentless accent on *Romanitas* and on the superiority of Byzantium and its culture over those around it – to the point, indeed, where chroniclers fail even to record very substantial changes to the Empire's frontiers. So, for example, while we are certainly not lacking source material for third quarter of the 11th Century – with narrative accounts of Michael Psellos, Michael Attaleiates, John Skylitzes, Nikephoros Bryennios covering this period in considerable detail – it is striking to note that none of these historians discusses the growth of Norman power in southern Italy or the consequent collapse of Byzantine authority there; indeed, only one of these authors even mentions the fall of Bari in 1071 which brought to an end centuries of Byzantine power in Italy.[1]

Of course, the two competing views need not considered as being contradictory, and one could certainly make the case that the lack of interest shown by Byzantine historians to their neighbours – whether Norman, Turk, Russian or Turk – says a good deal more about who was writing in Byzantium in the 10th and 11th Centuries that it necessarily does about anything else. And one might well add here, while the fact that the historians of this period (and to the list we should add the Logothete, George the Monk and the continuator of Theophanes) were essentially based in Constantinople cannot alone explain the disinterest in the Empire's neighbours, then it is surely of

[1] George Kedrenos, *Compendium Historiarum*, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 720-4.

A. Papers

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Frankopan, P., Lecturer of Byzantine History, Oxford University, England.
- Hatem El-Tahawy, Lecturer of Medieval History, Zagazig university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Monferrer Sala, J. P., Professor of Semitics Studies, Cordoba University, Spain.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.
- Vaiou, M., Lecturer of Byzantine History, Oxford University, England.
- Vdovichenko, I., Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Wafa' Abdullah Mazrou', Lecturer of Medieval History, Saudi Arabia Kingdom.
- Zeinab 'Abdel – Magid, , Lecturer of Medieval History, Zagazig university, Egypt.

* These names are arranged alphabetically.

Contents

I. The Arabic Part

A. Articles

B: Book Reviews

II. Non Arabic Part

A: Papers

B: Book Reviews

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
  Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Muhammad, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk or tm_jmih@hotmail.com
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the fourth volume, which will be issued during the academic year 2004.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Byzantine, Medieval
and Islamic History

(JMIH)

Volume III
2003

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Ali El-Ghamarawi

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 3 / 2003

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University



حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الثاني
٢٠٠٢

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثانى

٢٠٠٢م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. رأفت عبد الحميد

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام–حمامات القبة–القاهرة

شكر وتقدير

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بوافر الشكر إلى دار مصر العربية للنشر والتوزيع على اهتمامها بإخراج هذا العدد فى أكمل صورة.

طبع هذا العدد فى التاسع عشر من شهر يونيو ٢٠٠٢

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

- ترسـل المراسـلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلـك البحوث على العنوان التالي كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فـاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بـريد اليكـتروني ntaseg@hotmail.com ، شـريطة ألا تكـون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكـون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000، حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣س أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

رأفت عبد الحميد

أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة عين شمس

حصـــل علــي ليســانس التــربية عام ١٩٦٣ بـتقدير عــام جـيد جـداً، وليسانس الآداب عـــام ١٩٦٦ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف،عمل معيداً ثم مدرساً مساعداً ثم مدرساً بعد حصوله علي الدكتوراه عام ١٩٧٤.

تـــدرج في ســلك الوظــائف الجامعـــية حتى أصـبح أسـتاذاً لـتاريخ العــصـــور الوسطـــى عام ١٩٨٦، وفي عام ١٩٩٧ عين عميداً لكلية الآداب جامعة عين شمس حتى عام ٢٠٠١، حيث وافته المنية في ذلك العام.

وفـــي عام ١٩٩٩ عين مستشاراً لوزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي، كمـــا عين في نفس العام مديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس، وفي عام ٢٠٠٠ عين مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس.

مـــثل مصر في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية وله العديد من البحوث والمؤلفات المتميزة في تاريخ العصور الوسطي من أهمها:

- موسوعة الدولة والكنيسة، صدر منها أربعة أجزاء.
- ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧.
- قضايا في تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠١.
- الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- مصـــر فى العصر البيزنطى (بالاشتراك مع د. طارق منصور)، القاهرة، ٢٠٠٢.

هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات الأدبية والتاريخية المنشورة فى الدوريات والمجلات المحلية والعالمية. كما أشرف على عدد كبير من الرسائل العلمية فى جامعة عيـــن شمس والجامعات المصرية الأخرى؛ بالإضافة إلى مناقشته عددا كبيرا آخر من رسائل الماجستير والدكتوراه.



الأستاذ الدكتور

رأفت عبد الحميد

٦/١١/١٩٤٢-٢٥/٦/٢٠٠١م

المشاركون في العدد*

إبراهيم القادري	أستاذ التاريخ الإسلامي– جامعة مولاى إسماعيل– المغرب
أحمد المحمودي	أستاذ التاريخ الإسلامي– جامعة مولاى إسماعيل– المغرب
اسحق عبيد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي – جامعة عين شمس – مصر
ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية– جامعة تاوريدا الوطنية – أوكرانيا
ديفيد نيقول	أستاذ التاريخ الإسلامي – جامعة نونتنجهام – إنجلترا
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي – جامعة عين شمس– مصر
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة الزقازيق – مصر
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس– مصر
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس مصر.
فلورا فافيا	محاضر تاريخ الرياضيات – اليونان
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي – جامعة عين شمس – مصر
محمد تضغوت	أستاذ التاريخ الإسلامي– جامعة مولاى إسماعيل – المغرب
محمد مؤنس عوض	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي– جامعة عين شمس– مصر
محمد نصر	مدرس مساعد التاريخ الإسلامي– جامعة عين شمس– مصر
محمود إسماعيل	أستاذ التاريخ الإسلامي – جامعة عين شمس – مصر
نجلاء حامد	مدرس تاريخ التربية – جامعة القاهرة – مصر
نريمان عبد الكريم	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي – جامعة المنوفية – مصر
هانيء عبد الهادي	مدرس تاريخ العصور الوسطي – جامعة حلوان – مصر

*هذه الأسماء مرتبة ترتيباً هجائياً.

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

ب:عرض الكتب والرسائل

ثانياً: القسم الأجنبي

أ : البحوث والدراسات

ب :عرض الكتب والرسائل

تقـــديم

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

تقـبل عليـنا حولـية التاريخ الإسلامي والوسيط في ثوبها الجديد، وقد كشفت الـنقاب عن وجهها، فإذا به يتلألأ كوجه القمر في ليل الفلا. المريدون والاتباع يقبلون فـي لهفـة نحوها، الكل يسعي عسي أن يجد ضالته بين راحتيها، وقد توشحت بوشاح العلـم المرصـع بلألـيء العقل من كل صوب وحدب ، ارتدت تاجاً مصري الصنع، مرصـع بـثمان عشرة حبة من لأليء المفكرين والعلماء، بل ثمان عشرة زهرة فواحة تدفع المارة والمريدين إلي قطفها، والاستزادة من عبيرها.

وكلمـا طابت النفس برحيق الأولي، تمتد الأنامل نحو الثانية فالثالثة، وما هي إلا لحظـات تمـر بالمرء منتشياً برحيقها، حتى يدرك أنه أمضي من العمر زمناً، في روضـة مـن رياض العصور الوسطي، دون أن يدري أنه اقبل علي نهاية رحلته في الروض المعطار، العدد الثاني من "حولية التاريخ الإسلامي والوسيط"؛ ذلك العدد الذي تفخـر أمانة سمنار العصور الوسطي، بأن تدفع به إلي أيدي قرائها الأعزاء بكل فخر وإعزاز.

يشـارك فـي تدشـين هذا العدد كوكبة متميزة من مؤرخي العصور الوسطي والـتاريخ الإسـلامي مـن مصر والمغرب وإنجلترا وأوكرانيا واليونان؛ قدموا جميعاً ثمانية عشر عملاً، شكلت سفراً جليلاً يربو علي الثلاثمائة وخمسين صفحة.

فمـن مصـر يقدم أ.د. اسحق عبيد كلمة وفاء في ذكري المرحوم أ.د. رأفت عـبد الحمـيد. أمـا أ.د. إبراهيم القادري، من المغرب، فقد قدم بحثاً رائداً، جديداً من نوعـه عـن الدور الذي لعبه الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي الذي كان يهدد بلاد الأندلـس. وتأتـي تحفة أ.د. رأفت عبد الحميد الأدبية، في كلمته التي ألقاها في افتتاح "ندوة حدود مصر الشرقية"، بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١، والتي أثارت إعجاب الحضـور جميعاً، في تلك الندوة، مما دفع بإدارة الحولية إلي نشرها ضمن بحوث هذا العدد الصادر في ذكراه السنوية.

أما السيدة الدكتورة زينب عبد المجيد، فقد قدمت بحثاً شيقاً عن ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتى نهاية عهد الملك إدوارد الأول؛ وهي فترة حرجة في تاريخ الحياة البرلمانية في إنجلترا، نجحت الباحثة في تناولها بالعرض والتحليل من خلال استخدامها لمجموعة كبيرة من المصادر الأصلية والمراجع.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فقد قدم بحثاً طيباً، ينم عن مهارته الباكرة في العرض والتحليل التاريخي، من خلال بحثه فى "عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م". فقد تعرض في بحثه هذا للطرق التي كانت تتبع في ترشيح العرائس للإمبراطور، عندما كان يشرع في الزواج، وكيف كانت الإمبراطورة في بعض الأحيان تتولى القيام بهذه المهمة بنفسها.

وفي هذا العدد يقدم أ.د. محمود إسماعيل تفسيرا ورؤية خاصة حول إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل.

ومن البحوث الشيقة، الطريفة في موضوعها، البحث الذي قدمته الدكتورة محاسن الوقاد عن "الألقاب والكني الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك"، حيث تعرض فيه لمجموعة من الألقاب الساخرة التي استخدمتها العامة في مصر للسخرية من بعض الشخصيات أو الأمراء، والتي تعكس قدرة الشعب المصري علي استخدام النكتة أو الكني الساخرة لتجميل واقعه المرير أو لإدخال الضحكة إلي القلوب التي اشتاقت إليها في ظل وجود بعض الحكام من ذوي الشوكة القوية. وقد ختمت دراستها بجدول حصرت فيه كل الألقاب والكني الساخرة بكل أنواعها، طوال عصر سلطنة المماليك، سواء الأولي أو الثانية.

وتقدم الدكتورة نريمان عبد الكريم بحثاً قيماً عن "السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق"، وهو من البحوث الهامة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر الإسلامية، حيث ترصد فيه مؤشر الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية في ظل القرارات والمراسيم الصادرة عن الخلافة الفاطمية وموقعها من التنفيذ.

ويأتي آخر البحوث المقدمة بالعربية للدكتور/ هانئ عبد الهادي البشير بعنوان "المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥م"،

حيث يرصد فيه جهود المجيار العسكرية في محاولاتهم فتح آفق جديدة لهم في الأراضي الألمانية، والتي يري أنها كانت فرنجية الطابع ، وقد انتهت هذه الجهود العسكرية بموقعة ليخفيلد عام ٩٥٥، التي تعد حداً فاصلاً في تاريخهم في منطقة الدانوب الأوسط. وقد رصد الباحث التحولات الجيوسياسية للمجيار منذ خروجهم من منطقة أتل كوزو إلي مورافيا العظمي، والتحديات التي واجهتهم هناك.

أما عن البحوث الأجنبية التي تضمنها هذا العدد، فتتسم جميعها بالثراء والقيمة التاريخية الرفيعة. فقد قدم أ.د. ديفيد نيقول، من إنجلترا، دراسة جادة عن "البحرية الإسلامية في المحيط الأطلنطي"، في العصور الوسطي؛ وقد دعم دراسته ببعض الصور والأشكال البحرية.

أما الأستاذة فلورا فافيا، من اليونان، المتخصصة في تاريخ الرياضيات، فقد قدمت بحثاً قيماً عن "فلسفة الرياضيات اليونانية وتأثيراتها علي تطور الحضارة العربية وعصر النهضة". وفي هذا البحث قدمت لنماذج عديدة من الرياضيين اليونانيين مقارنة بالرياضيين المسلمين والأوربيين من عصر النهضة الذين تأثروا بهم، مع بعض الأشكال واللوحات التاريخية.

وتقدم الدكتورة ايرينا فدوفتشنكو، من أوكرانيا، دراسة رائعة، كانت قد تقدمت بها إلي "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد في تركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، وهو بعنوان "أشكال الرقصات المرسومة علي فازات البحر الأسود في القرن الرابع "، ودعمت دراستها بمجموعة كبيرة من أشكال الفازات التي تعكس أشكال الرقص وأنواعه وأوضاع الراقصين ، التى عثر عليها فى أحد المواقع الأثرية البيزنطية، في القرن الرابع.

ويقدم الدكتور/ طارق منصور، من مصر، بحثاً جاداً كان قد شارك به أيضاً في أعمال "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد بتركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، بعنوان "الوجود التركي في القوقاز والسهوب: شهادة قسطنطين السابع"، ففي هذا البحث يتناول بالدراسة والتحليل رواية قسطنطين بورفيروجنيتوس عن أصول المجيار، ويرصد تحركاتهم من الشرق إلي المناطق

الغربيـــة للاستبس، في منطقة ليبيديا ثم منطقة اتل كوزو. ويستخدم الباحث في دراسته عـــدداً كبـــيراً من المصادر البيزنطية والفارسية والعربية واللاتينية لإلقاء الضوء علي رواية قسطنطين السابع لإثبات قيمتها التاريخية بالنسبة لتاريخ المجيار الباكر.

ولـــم يفـــت إدارة الحولـــية أن تقدم عدداً من عروض الكتب والرسائل العلمية الجـــادة فـــي تـــاريخ العصـــور الوسطي والتاريخ الإسلامي، قدم لها خيرة من شباب الباحثيـــن المصريين والعرب منهم الدكتور/ محمد مؤنس عوض، ، والدكتورة/ نجلاء حامد، والأستاذ/ محمد نصر، من مصر؛ والدكتور/ أحمد المحمودى، والدكتور/ محمد تضـــغوت، من المغرب، وهي محاولة للوقوف علي أحدث الدارسات التاريخية في هذا الحقل، ليفيد منها الباحثون والدارسون.

ولا يســـع هيـــئة تحريـــر الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طـــارق منصور، نائب رئيس تحرير الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العـــدد مـــن الحولـــية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانـــه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظـــات والمقـــترحات التـــي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلي مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعي.

هيئة تحرير الحولية

أولاً: القسم العربى

أ. الدراسات والبحوث

رأفت عبد الحميد
مشكاة الآداب التي انطفأت

اسحق عبيد

مصر

في الخامس والعشرين من يونيو الماضي انتقل إلي جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد محمد عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوسطي المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون في كل الأروقة العلمية بما يشبه الذهول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حتى ليلة رحيله يعمل في بيته الصغير وحبه الأول والأخير – كلية الآداب – حتى الرابعة بعد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوماً أن يرفق بنفسه ويأخذ فسحة من التقاط الأنفاس، ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذي يضع الواجب والصالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخي، وكنت كلما عاتبته علي ذلك يذكرني برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بأن للبشر أعمارا كأعمار الأمم والحضارات، وإن هي طالت أو قصرت "فلكل أجل كتاب".

كان رأفت عبد الحميد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائه والعاملين معه علي مختلف المستويات العلمية والإدارية، ولا نتحدث عن تواضعه الجم وعفة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعاً، فهي أمثولة في كل دروب جامعة عين شمس.

لقد عرفته معيداً، فمدرساً مساعداً، فأستاذاً، فوكيلاً للكلية، ثم عميداً لها، وطوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقي "صاحبي" ورفيق عمري هوهو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرف كرسي العمادة به منذ سنوات أربع ازداد تواضعاً علي تواضعه، وتعففاً علي تعففه، كل هذا ولم يعرف قلمه السكون، فلقد ظل وسط هذا الزحام الإداري يبدع وينتج ليثري المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

تخصص د. رأفت منذ وقت باكر في الشخصية المصرية وعبقرية مصر، التي حافظت علي هويتها وذاتيتها، رغم عوادي الزمن وتحرشات الطامعين، فلم تهتز أرض الكنانة من هجمة ذي القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى صار في الإمكان أن نقول:" في مصر يصبح الفاعل مفعولاً به،". ولا غرابة في هذا، فأرض النهر الخالد هي فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهي من قبل ومن بعد البوتقة التي تنصهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومن يقلب في مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية تاريخية، تضم بين دفتيها: عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة الإسكندرية، بيزنطة ومدينة مدائنها القسطنطينية، ومن خلال هذا وذاك نلتقي بشوامخ الفكر والفلسفة في العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة في تقديره الواعي، جنباً إلي جنب مع أهل السياسة والحكم، وفي هذا السجل الحافل نلتقي وجهاً لوجه مع عمالقة العالمين القديم والوسيط. ولرأفت عبد الحميد موهبة فذة في رسم صور شخصياته، فهو أقرب إلي الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته: فهنالك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستنيان، وهرقل، جنباً إلي جنب مع الأسقف أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م). والأنبا أنطونيوس كوكب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة، وأوريجانوس ومعلمه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا من مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط، وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار والأم العظمي (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعاً!

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد بعنوان "الفكر المصري في العصر المسيحي" بجائزة أحسن كتاب في

الفكـــر، وكرمـــته الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسنى مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة.

وقـــد كـــان لي مع صديقي د. فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة مني مكرم عبـيد، والأســـتاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوي هذا الكتاب الفذ في سراي الســـادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخياً بمعنـــي الكلمـــة، حيـــث المداخـــلات والتعقيبات، ولكأننا كنا في "مأدبة أفلاطونية" أو "ســـمبوزيوم" كما يقول أهل المعرفة، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب: رأفت عبد الحميد نفسه.

وكـــان رأفـــت عبد الحميد – عاشقاً للتراث العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلـــك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويســـي، وكـــان الجمـــيع يرجعون إليه لأخذ رأيه في الثقات من المؤرخين، من الطـــبري إلـــي ابـــن الأثـــير، إلي ابن خلدون، إلي المقريزي، وصولاً إلي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصاً في تاريخ العصور الوسطي، والعصر البيزنطي علي وجـــه التحديد (٣٣٠ – ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الـــذي يـــنظر، إلي التاريخ العالمي نظرة شمولية (جشتالت Gestalt)، بحيث لا تفهم الإقليمـــية أو المحلـــية إلا مـــن خـــلال الإطلالـــة الأوسع علي خريطة العالم الكبرى، والـــتحول مـــن عصـــر إلـــي عصر عند المؤرخ رأفت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياســـية الكـــبرى بقـــدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلي هذا فإن تواريـــخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لمزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخري تقوم!

رؤية موسوعية

ومـــن واقـــع هـــذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رأفت عبد الحميد – إلي جانـــب عمـــادة كلية الآداب جامعة عين شمس – مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعـــة عين شمس، ومديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس أيضاً،

وعضـــواً بلجـــنة الـــتاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً باتحاد المؤرخين العرب، وعضـــواً بالجمعـــية المصرية للدراسات التاريخية، وأميناً عاماً لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الأعباء التي لا يطيقها إلا الأبطال، فإنه مـــا كـــان يـــتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئولياته، وإني أعلم عن قرب أنه كان يقضي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومـــريدوه ينتشـــرون فـــي كـــل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصـــعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال إشرافه العلمي علي رســـائلهم فـــي الماجســـتير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلي الإسكندرية.

وللعـــالم الفقـــيد عشرات من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في الـــتاريخ البيزنطـــي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات علي سبيل المثال لا الحصر:

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
- العالم البيزنطي (ج.هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسية، القاهرة ١٩٩٧.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١.

لقـــد كـــان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحاً بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانـــت غايـــة رفـــيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طـــوال عمـــره مزدانا بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سها عن باطن ما لـــربه علـــيه بظاهر ما له عنده، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالي قد أخذ بيده، وآواه إلي كنف نعمته، ونقله حميداً إلي منازل رحمته.

دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس

إبراهيم القادري

المغرب

يجمــع الدارســون علي أن الحروب الصليبية لم تقتصر علي المشرق العربي فحســب، بـل امــتدت لتشــمل الغــرب الإسلامي وخاصة بلاد الأندلس، فإذا كانت التحرشــات الصليبية قد بلغت أوجها في المشرق العربي بعد احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـــ (١٠٩٩م)[١]، فإنها لم تكن تقل خطورة عنها في تلك المنطقة النائية من العالم الإســلامي، وقد ترجم موقف البابوية ذلك عملياً قبل تاريخ هذا الاحتلال بسنوات حينما انــبرت بكــل ثقلها وسلطانها الديني لتحفيز النصارى الأسبان الذين تطوعوا للمشاركة فـــي الحــروب الصليبية بالمشرق علي تغيير وجهتهم نحو الجبهة الأسبانية، ولضمان نجــاح هــذا التوجه، شرع البابا في منح صكوك الغفران لكل من هب من المسيحيين لقتال المسلمين بالأندلس، وجند الرأي العام المسيحي الأسباني لقبول هذه السياسة[٢].

مــن البديهــي أن تخلــق هذه الدعوة الصليبية المتعصبة ردود فعل قوية لدي الرأي العام الإسلامي بالأندلس، لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تبرز قوات اجتماعية مخــتلفة لوقف هذا التحدي الصليبي ومن بينها العلماء الأندلسيون الذين اتخذوا مواقف متبايــنة، ولكنها تصب كلها في مقاومة الزحف الصليبي بالغرب الإسلامي، والأندلس علي الخصوص.

وقــبل اســتعراض مخــتلف هــذه المواقف، تستلزم المنهجية السليمة عرض أوضاع الأندلس خلال هذه الحقبة للكشف عن الحالة المتردية التي تمخض عنها تذؤب الخطــر الصليبي وما نجم عن ذلك من ردود فعل العلماء الأندلسيين، فما هي الوضعية التي أفرزت هذا التحدي الصليبي ببلاد الأندلس؟

---

1 ابــن تغــري بردي: النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، ج٥، ص١٤١ ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر طبعة مصر، ط١، الطبعة الحسنية، ص٢١١.

2 شارل اندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية. طبعة ليبيا- تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص١١١.

سياسياً، لم تكن الأنـــدلس خلال النصف الأول من القرن الخـــامس الهجري (١١م) فـــي وضعية تحسد عليها، فالخلافة الأموية في القرن الرابع جسدت آخر تجربة وحدويـــة، وكان سقوطها إنذارا بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر[٣]، ب (أيـــام الفـــرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهباً لكل مغامر أنس من نفسه القوة، ولا غـــرو فقـــد تقاسمتها شرذمة من المتربصين بالسلطان، ممن آثروا الاستبداد بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترئة وصل عددها إلي ثلاثة وعشرين دويلة[٤].

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة، أنها شـــهادة الفقيه ابن عبد البر[٥] الذي عايش أحداث هذه الحقبة فكتب بهذا الخصوص قائلاً: (وانقطـــع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب علي موضع ملكـــه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان يأخذون منهم اليوم).

ويورد الأمام عبد الله بن بلكين[٦] أخر أمراء غر ناطة، في مذكراته التي تعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير إلي هذا الانقسام وما تمخض عنه من أزمـــة سياسية وانهيار كامل للسلطة المركزية بقوله: (وبقي الناس لا أمام لهم، فتنافسوا علـــي الدنـــيا، وطمـــع كـــل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف ســـلاطين كثـــيرة وأهـــواء مختلفة)، ولعل اتخاذ ألقاب خلافية متعددة من طرف أمراء الأندلس المتشرذمين يعكس عمق هذه الأزمة[٧].

---

[3] ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد، ١٩٧١، ص٧٨.

[4] عـــن أمـــراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف الإمارات الأندلسية، انظر: زامباور: معظم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جامعة فؤاد الأولي سنة ١٩٥١، ج١، ص٨٦ وما بعدها.

[5] القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـــ ص٣٥.

[6] كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص١٨.

[7] المراكشـــي: المعجب، طبعة البيضاء، ١٩٧٨، تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، (الطبعة٨) ص١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئا بهذه الألقاب الخلافية:

مما يزهدني في أرض أندلس — سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

زد علـــي ذلك أن الدويلات الطائفية لم تكن تتوفر علي أبسط مقومات الدولة، إذ اتسـمت بأسسـها الهشة، وافتقرت إلي قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل.

كمـا أن صـغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها التي تفتقد إلي الشـرعية، وعـدم توفرها علي قوة عسكرية للدفاع عن حدودها[٨]، كل ذلك جعل منها كـيانات رخـوة شـبيهة بالدولـة الإقطاعية[٩]، لذلك ظلت عاجزة عن إنجاز أي دور وحـدوي، كمـا اتسـمت بالضـعف والوهن حتى (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية[١٠]).

وممـا زاد وضـعية هذه الدويلات تأزماً، إغراق نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين[١١] تعبيراً رائعاً بقوله: (وجعل الله بيـن أولـئك الأمـراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات).

اسـتمرت هـذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحـلال سياسـي واجتماعـي عميق، وظل التناحر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائـف الذيـن تناسـوا مسـؤولياتهم القومية، بل فضل معظمهم الاستعانة بالممالك النصـرانية حفاظـاً علـي عروشهم الواهية، لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهـم العرب، يقول ابن الكر دبوس[١٢] في هذا الصدد: (وكان أسر شيء عند ألفنش (ألفونسـو السادس) Alfonso XI فتنة تقع بين الولاة من المسلمين (إشارة إلي أمراء

---

8 بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٤.

9 عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص٤١٨.

10 ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

11 ابن الخطيب: أعمال الأعلام – القسم الخاص بالأندلس – تحقيق بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٥٦، ص٢٤٤ ولمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف أنظر: عنان:م.س. ص٣٥ وما بعدها.

12 تاريخ الأندلس: ص٨٢.

الطوائــف) فيعيــن هـــذا علي هذا، وهذا علي هذا فيتجلبب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

لــم يكن هذا الواقع السياسي المهترىء سوي انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المــتدهور الــذي أفرزته اعتداءات ألفونسو السادس الذي شكل قوة ضغط علي ملوك الطوائــف، حــتى جعلهــم (فــي المعصـــرة) علي حد تعبير دوزي Dozy[١٣] وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سن ضرائب سنوية تدعي (بارياس) [١٤] Parias ازدادت مقاديرها بشكل مروع إلي درجة أن بعضهم عجز عن أدائها[١٥]، فكانت جولاته العســكرية تعــود كل مرة محملة بالضرائب[١٦]، وظل الأمر علي هذا النحو حتى قدوم المرابطين[١٧].

خلفــت هــذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة علي المستوي الاقتصادي، ففي الوقـــت الـــذي امــتلأت خزائن ألفونسو السادس بموارد إضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة) تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهيار[١٨].

وســاهمت الحـــروب بين زعماء الإمارات الطائفية في أنهاك الزراعة ونهب المحاصــيل، وفـــي هـــذا الصدد يقول ابن بسام[١٩]: (فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعـــية مهملـــة، لأن جملـــة غلاتهم وجميع اعتمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت)، وبالمـــثل فـــإن عملـــيات الســـلب والنهـــب التي قامت بها القوي النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة[٢٠]، يضاف إلي ذلك كثرة المغارم التي ثبطت همة

---

13 DOZY: *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de L' Andalousie par les Almoravides*, Leyde, 1932, Tome 3, p.11

14 FOSSIER: *Enfance d'Europe: aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982,Tome 1, p. 254.

15 ابن بلكين م.س.ص ٧٦.

16 ابن خلدون: كتاب العبر، تحقيق خليل شحاتة، طبعة بيروت، ١٩٨١،ج٦،ص٢٤٨.

17 القلقشندي م.س. ج٥، ص ٢٤٩ ابن الكرديوس: م.س.ص ٧٧.

18 FOSSIER: op.cit, p. 127.

19 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة ليبيا – تونس، ١٩٨١ ق ٢مج١، ص٢٥٤.

20 FOSSIER: op. cit. , p. 254.

المزارعيــن (فضــعف الاعتمار وخلت الديار[21])، وفي ذلك إشارة واضحة إلي انهيار قــوة الإنــتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، مما يعني تصدع البنية الاقتصادية برمتها.

وممـــا زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمــنوا علــي المناصب العليا في الآمرات الطائفية، مما آثار حفيظة الرعية وجعل السخط يتأجج في صدورها ضد حكامها وسياساتهم المتخاذلة[22].

حــدث هــذا فــي الوقــت الذي تعاظم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو الــتوحد، مدعمين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحــو دويــلات الطوائف، ولبلوغ هذه الغاية نهجوا خطة تعتمد علي حرب الاستنزاف وتشــتيت الصفوف، وهو ما عبر عنه الفونسو السادس بقوله: (ولكن الرأي كل الرأي تهديــد بعضـــهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضــعفت)[23]، وقــد تمخــض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة[24]، الذي جاء ضربة قاصــمة للدويــلات الطائفــية، ودليلاً واضحاً علي عجزها عن وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية علي احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصــبح الفونســو الســادس إذا استعرنا تعبير أحد الباحثين[25]، (من أكبر الوجوه) التي ستضــاعف الــزحف الصــليبي، ولعل تلقيب نفسه بذي الملتين[26]، يزكي هذا المعني، وتــنهض تحدياتــه العسكرية حجة علي عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وحسبنا أنه دوخ الإمــارات الطائفــية التي شقتها جيوشه من الشمال إلي الجنوب حتي وصلت إلي

---

21 ابن الخطيب، م.س.ص ٢٤٤.

22 ابن الكرديوس: م.س.ص: ٧٨ – ابن بسام، م.س.ق١ ،مج٢، ص٧٦٦.

23 ابن بلكين، م.س.ص ٧٣.

24 ابن بسام، م.س.ق٤، مج١ ص ١٦٣.

25 CALMETTE: *Histoire d'Espagne* .,Paris, 1947, p. 80.

26 DOZY: op. cit , p. 121.

فرضـــة المجـــاز من جزيرة طريف تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم[٢٧]، بل هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والانغماس في ملذاتهم (بشرب الخمور واقتناء القيان وركـــوب المعاصـــي وسماع العيدان)[٢٨] دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطـــر المشترك[٢٩]، وتشهد الرسالة التي بعثها الفونسو السادس إلي يوسف بن تاشفين أمـــير دولـــة المرابطيـــن بالمغرب الأقصى قبيل موقعة الزلاقة SACRAJAS (سنة ٤٧٩هـ) علي هذه الوضعية المتخاذلة[٣٠].

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع، ففي ســـنة ٤٧٦هـــــ (١٠٦٣م)، قـــرر البابا الاسكندر الثاني Alexander II منح صك الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس،[٣١] وفي نفس المنحي اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernand I أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغـــبة الصـــليبية، فهب كثير من فرسان غرب أوربا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول علي المغانم.

ولمـــا عقد البابا أو ربان الثاني مؤتمر (كليرمون) Clermont لإذكاء حماس الأمـــم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية، أراد (برنا رد) Bernard ومعـــه عدد من الأساقفة الأسبان التوجه إلي المشرق لإفراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حـــرم علـــيهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق[٣٢]، وبذلك أصبحت (خط الصدام الأول)[٣٣] في هذه الحروب التي أصبحت تشرف عليها روما وتوجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة[٣٤].

---

27 ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، ١٩٧٣، ص١٤٣.

28 ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

29 عبر الأمير عبد الله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: (فنحن لم يعن بعضنا بعضاً علي الرومي) انظر: التبيان، ص١٦٦.

30 انظـــر نص الرسالة عند الحلبي: كتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان، طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٦.

31 شارل اندري جوليان:م.س.، ج٢، ص١١١.

32 أشباخ: تاريخ الاندلس علي عهد المرابطين والموحدين، الترجمة العربية. طبعة تونس – ليبيا، ١٩٧٨، ص ١٢٤.

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية، ولا غرو فقد تضـــمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال قانوناً ينص علي أن الذيـــن يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبل ترفع عن كل شخص يفر إلي أراضي المسلمين[٣٥].

في هذا المناخ، ازداد تحدي الممالك النصرانية، فأبن الخطيب[٣٦]، يذكر أنه بعد احـــتلال الفونسو السادس مدينة طليطلة، عرض عليه أنصاره أن يلبس التاج، فأرجأهم إلي أن يستولي علي قرطبة، بل (طمع في الاستيلاء علي الجزيرة كلها[٣٧]).

إلـــي جانب شبح ألفونسو السادس، ظهرت شخصية عسكرية أخري زادت من متاعب مسلمي الأندلس، ألا وهي شخصية السيد الكنبيطور Campiodor الذي تحول من لص محترف[٣٨]، إلي قائد نجح في قيادة جماعة من الفرسان المسيحيين المغامرين، وأذاق الأندلســيين الهـــزائم المـــرة، حتى أن ابن بسام[٣٩] وصفه بأنه كان (عقالا وداء عضالا له في الجزيرة وقائع)، وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها[٤٠].

نســـتخلص ممـــا تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صـــليبياً لا يقل خطورة عما شهده المشرق الإسلامي، فما هو موقف العلماء الأندلسيين من هذا التحدي؟

---

33 ســـعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، طبعة بيروت، ١٩٨٥، ص١٠٣.

34 DESCOLA: *Histoire de l' Espagnė chretienne*, ed. Robert Leffont., p. 107.

35 أشباخ:م.س.ص ٢٤٩.

36 أعمال الأعلام – القسم الأندلسي، ص٢٤٤.

37 مؤلف مجهول: الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء، ١٩٧٩، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ص٣٨.

38 عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (أطروحة جامعية مرقونة) نوقشت بجامعة عين شمس بالقاهرة،ص٧٧.

39 الذخيرة، ق٣، مج ١، ص٩٥.

40 نفسه، ص ٩٩، ويقول في هذه الرواية: (حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: علي رذيق فتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها).

بـــرزت مواقف هذه القوة الاجتماعية بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وأن لم تكـــن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحظ علي الجهـــاد، وأذكـــاء الحمية الدينية والأنفة الإسلامية، كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال الســـفارات والوســـاطات بيـــن أمـــراء الطوائـــف، ودعوتهم للتوحد والتصدي للخطر الصـــليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والاستشهاد فيها.

وعلي العموم يمكن رصد مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية علي الشكل التالي:

١- الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية من أجل الجهاد.

لا جـــدال فـــي أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقـــف متخاذلة، كان لها وقع سيئ علي نفسية بعض العلماء الذين بادروا غلي الدعوة لنـــبذ الخلافـــات بغية تشكيل جبهة إسلامية متراصة قادرة دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقـــد بـــدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـــ، وتزعمها العلامـــة الفقـــيه أبـــو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤ هـــ) الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً، داعياً إلي وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع[٤١].

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حـــاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه إلي ذلك. فأبن الآبار[٤٢] يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: (ولما عظم عيث الطاغية أدفونش بن فردنلند، وتطاول إلي الثغور، ولم يقـــنع بضـــرائب المال، انتدب للتطوف علي أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يـــندبهم إلي لم الشعث ومدافعة العدو، وكلهم يصغي إلي وعظه). بينما ذهب مؤرخون

---

41 السامرائي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زانكو السليمانية، نيسان، ١٩٧٧، ص٨٢ – ٨٣.

42 الحلة السيراء: تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص٩٨.

أتخـــرون[43] إلي تبني الرواية الأولي، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية مـــن تلقاء نفسه، ونحن نرجح الرواية الأولي لاجماع المؤرخين عليها وتفرد ابن الآبار وحـــده بذكـــر الثانية، كما أن الرواية الأولي أقرب إلي سياق المنطق التاريخي، إذ لا يعقـــل أن يســـعي أمير تمت أدانته من قبل كافة المصـادر لمساهمته في انقسام الأندلس إلي المطالبة بتوحيدها!.

ومـمـــا يســـترعي الانتباه، أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشـــرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في المشرق والمغرب علي السواء.

ورغـــم أن جهـــوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح علي الأقل في وضع أمـــراء الطوائـــف أمـــام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم وضرورة نبذ خلافاتهم، وتوحـــيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني، يقول المقري[44] بهذا الخصوص: (ولما قدم مـــن المشـــرق إلي الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشـــي بيـــنهم فـــي الصلح وهم يجلونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبدون نزعته، ولم يفد شيئاً فالله تعالي يجازيه عن نيته).

إلـــي جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحســـن الهوزنـــي الـــذي جســـد بحق نموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المســـتقلة التـــي أبـــان عـــنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق التي عرفتها الأندلـــس فـــي عصـــر الطوائف وما نجم عن ذلك من خطر صليبي، حتى أن موقفه الصلب كان وراء اغتياله[45].

---

[43] أنظـــر النباهي: قضاة الأندلس (المراقبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص ٩٥ – ابن الشباط: صلبة السمط (المنتشـــور مـــع تـــاريخ ابن الكردبوس) ص٤٦ – ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص:٢٠٠ – ابن خلكان: وفيات الأعيان: تحقيق حسان عباس، بيروت (د.ت)، ج٢، ص٤٠٨.

[44] نفح الطيب: ج٢، ص٧٧.

[45] بن عبود: م.س.ص١٧٥.

ولا يساورنا شك في أن رحلته إلي المشرق العربي جعلته علي مفاسد المجتمع الإسلامي، وعلي الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي صار ينخره، فعاد يحمل في نفسه هم الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية – الإسلامية.

وبمجرد عودته، التقى بالعلامة أبي الوليد الباجي[٤٦]، وهو لقاء لم تكشف المصادر عما دار فيه من حوار بين الفقيهين، بيد أن تأزم الأوضاع بالأندلس واحتدد شوكة المسيحيين يجعلنا نفترض أن بعض مواضيع الحوار دارت حول مسؤوليتيهما في القيام بدور الوعظ ونصح أمراء الطوائف بتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية، وهزم التطلعات الصليبية.

ويخيل إلينا أن سقوط مدينة ببشتر كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمي الأندلس، فبعث إلي المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها علي جهاد الكفرة وتحرير المدينة المحتلة[٤٧].

والملاحظ أنه دعم رسالته باستشهادات قرآنية لإضفاء المشروعية الدينية علي جرآته وصراحته، لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جاء في الرسالة فقتله بيده[٤٨]، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومن العلماء الذين قاموا بنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واستنهاض الهمم الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ)، ورغم أسلوب التقية الذي نهجه، ومساندته لجرائم المعتضد[٤٩]، فأن بعض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة إلي الوحدة ورصد صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي[٥٠]، ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: (ورد كتابك يحض علي

---

46 عياض: ترتيب المدارك ج٣، ص٨٢٥.

47 انظر نص الرسالة في الذخيرة، ق٢، ج١، ص٨٤ – ٨٥.

48 نفسه: ص٨٣.

49 بن عبود: م.س.ص١٧٩.

50 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، ١٩٦٢، ص١٧٧.

مـــا أمر الله تعالي من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة)[٥١].

وتقـــوم رســـالة ثانية كتبها علي لسان أهل ببشتر قرينة أخري علي دوره في الدعـــوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: (ولو كان شملنا منتظماً وشـــعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتبكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لـــنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم[٥٢]).

كل هذه القرائن تكشف بالملموس المحاولات الجادة التي قام بها بعض العلماء الأندلســـيين لتوحـــيد الجـــبهة الاسلامية في الأندلس وصد الأخطار الصليبية، فما هي الاختيارات الأخرى التي نهجها العلماء الآخرون؟

٢- فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن رد الأطماع الصليبية:

لعـــل أهم عالم عكس هذا التوجه، الفقية أبو محمد علي ابن حزم أحد فطاحلة علمـــاء القـــرن الخـــامس الهجري، فعلي خلاف بعض العلماء الذين تبنوا مبدأ الواقعية وعـــدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي علي الأقل حتي ظهور يوسف بن تاشـــفين، كـــان ابـــن حـــزم أكثر إفصاحا في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائـــف. بـــل طعـــن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير (محارب لله تعالي وساع في الأرض بفساد[٥٣]) كما أدان عصر الطوائف ونعته بعصر الفتنة والغلب[٥٤]، بل عد جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك[٥٥].

---

[51] ابن بسام: م.س. نقلا عن السامرائي: م.س. ص٨٧.

[52] إحسان عباس: م.س.ص١٨١.

[53] ابن حزم: رسالة التلخيص، نشرت مع رسائل أخري ضمن كتاب: الرد علي ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، ص:١٧.

[54] جمهرة أنساب العرب، طبعة القاهرة (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص١٠٢.

[55] ابن حزم: رسالة التلخيص، ص١٧٥ وفيها يقول: (وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالا ولا ديناراً طيباً).

وبمـــا أن اليهود كانوا قد استولوا علي المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صب عليهم جام غضبه وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغريلة[56].

٣- إقناع ملوك الطوائف بالاستنجاد بالمرابطين لرد الخطر الصليبي:

كانـــت معارضـــة بعض العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري المهترئ العاجـــز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح واللف والدوران أحـــياناً وبالصمت أحياناً أخري، وذلك بسبب انقسامهم علي أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عســـكرية لتغيير الأوضاع[57]، غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصـــريح. يتمثل الأول في عجز أمراء الطوائف علي تشكيل جبهة موحدة قادرة علي ردع الخطر الصليبي، بينما يتجلي العامل الثاني في ظهور الأمير المرابطي يوسف بن تاشـــفين علـــي الساحة السياسية، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها هذا الأمير.

انطلاقـــاً مـــن هذه الظرفية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصاري جهدهم لاقناع حكـــام الأندلس بضرورة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التوســـعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار لإنقاذ الأندلس، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً إلي محو الوجود العربي بهذا البلد الإسلامي[58].

فـــي هـــذا المنحـــي، أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبيد الله محمد بن حســـين بـــن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨ هــ) أنه (سكن سرقسطة، وتجـــول وتجـــول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة .... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً

---

56 نشر هذا الكتاب تحت عنوان (الرد علي ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخري)، انظر هامش ٥٢.

57 ابن عبود: م.س.ص ١٨٦.

58 نفسه، ص١٨٨.

علــيهم[٥٩]) وهـــو نـــص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية إلي إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة المرابطين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعـــد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمـــراء الطوائف بالتخلي عن إماراتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية، خاصة أن القــوي الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس، لذلك بدأ العلماء يقومـــون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمـــير عـــبد الله حاكم غرناطة بعث العالمين إن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحـــه فـــي حكم تلك الإمارة[٦٠]، وهي محاولة نميل إلي الظن أنها سعت للتقرب من الأمـــير المغربـــي للاستنجاد به في اللحظة الضرورية بعد أن بدأ يشعر بالخطر يحدق بـــه، لومـــا ســـمع أنه وصل إلي سبتة في طريقه إلي قرطبة، بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به[٦١].

غـــير أن دور الوســـاطة الـــذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة الإسلامية بـــالأندلس لـــم يجـــد الأذان الصـــاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجـــراءات نجاعة وحزماً، وذلك بإصدار فتاوي فقهية تسمح ليوسف بن تاشفين بإسقاط الحكـــام المتخاذليـــن، وغـــزو الأندلـــس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية، وهو ما سنتناوله الآن.

٤- العمل علي إسقاط أمراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي:

تـــبلور هـــذا الدور في اتجاهين: أولهما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشـــفين بغية الإطاحة بأمراء الطوائف، وثانيهما إصدار فتاوي فقهية بكيفية علنية تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم تحت غطاء شرعي.

بخصـــوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي بن سهل بعـــث رســـولاً مـــن طرف حاكم غرناطة إلي يوسف بن تاشفين، فأستغل هذه الفرصة

---

[59] ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة. نشره القرد بل وابن أبي شنب. طبعة الجزائر، ج١، ص٤١١.

[60] ابن بلكين: م.س.ص١١٦.

[61] نفسه، ص١٤٦.

لأخبار الأمير المرابطي بالوهن الذي أصاب إمارة غرناطة، وانقسام جيشها وانهيار معنوياته، وفي نفس الوقت أبلغه ترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمه واستعدادهم للانضواء تحت راية المرابطين[62]، كما أن الفقية أبو جعفر ابن القليعي عبر إلي المغرب ليحرض يوسف علي الإيقاع بملوك الطوائف، بيد أن أكثر العلماء سعياً للإطاحة بهذا الأمير، كان هو الفقية أبو بكر بن مسكن الذي يحدثنا عنه الأمير عبد الله حاكم غرناطة في مذكراته فيذكر أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته[63].

وفي نفس السياق، لم يتوان عالم أخر هو الفقية ابن إحسان عن العمل في خفاء للأطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته.

وبالمثل، لعب بعض العلماء دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردد يوسف بن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألح عليه الفقهاء بإزاحته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد علي لسانهم: (فبادر بخلعهم ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فأنك أن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلي الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالي).

أما الجانب الثاني الخاص بإصدار فتاوي لتنحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء، وبما أن أمر الأندلس كان قضية لا تخص مسلمي الأندلس فحسب بقدر ما كانت تهم المسلمين كافة، فإن فتاوي أخري صدرت من علماء مسلمين من المشرق كذلك، وفي طليعتهم الإمام الغزالي الذي أفتي بأن (إعفاء أمراء الطوائف والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلي واجب الجهاد).

---

[62] نفس المصدر والصفحة.

[63] إبراهيم خليل السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، طبعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٥٧.

ونظــراً لمــا تكتســبه الفتاوي من خطورة لكونها تعطي المبرر الشرعي لكل مــبادرة سياســية، فــإن أقدام العلماء علي إصدار مثل هذه الفتاوي لتمرير مخططات الأمــير المرابطــي تعكس مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف، ودق أخر مسمار في نعوشــهم، وتمهــيد الســبيل ليوسف ابن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضــمها نهائياً كخطوة أولي لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة، كمــا يــرجع إلــيهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية علي دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية، بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائــف مــع النصــاري، واثقال كاهل الرعية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو السادس.

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لرد الأطماع الصليبية.

فضــلاً عــن الأدوار الســابقة الذكر، اختار بعض العلماء طريق الاستشهاد والمــوت فــي ساحة المعارك لقطع دابر القوي الصليبية، وحسبنا أن بعضهم شــارك مشــاركة فعالة في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هــ م ١٠٨٦م، فرزقوا الشــهادة مــثل الفقية يعلي المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبد الله الملك، أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي (فأكرمهما الله بشــهادة فــي وقعــة الــزلاقة علي النصاري). ومنهم من ساهم في هذه المعــركة وخرج ظافراً مزهواً بالنصر كما هو حال ابن القصيرة الذي تجشم عــناء الصمود في الصفوف الأمامية للجيش، ولم يصب إلا بجراحات خفيفة، وانفرد بذكر مشاهداته لأطوار هذه الحرب في رواية تعد من الروايات النادرة والطــريفة التي وصلت إلينا علي لسان شاهد عيان، ومن العلماء الذين كانت تحدوهــم الرغــبة في خوض غمار هذه المعركة ولو أن الظروف لم تسعفهم لتحقــيق ذلك، نذكر علي ابن عبد الله بن حمود المكناسي، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن حداد.

نفــس الشــيء يقــال عن علماء آخرين شاركوا في معارك صليبية أخــري مــثل معــركة ألبورت سنة ٥٠٨هــ واستشهدوا فيها، ونذكر في هذا

الصـــدد يحـــي بـــن محمد الأموي، وأحمد بن ثابت بن عبد الله العوفي، بينما تحـــتفظ المصـــادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قتندة ســـنة ٥١٤هـــ لمنع زحف القوي الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصـــدفي السرقسطي الذي كان يشار إليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي، ومحمد بن يحي بـــن عـــبد الله بـــن زكـــريا، وبالمثل لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن هويـــتهم الإسلامية حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطيـــن، وفـــي هـــذا الصـــدد يخبرنا الذهبي أن الفقية العلامة الرشاطي (استشهد عند دخول العدو ألمرية) وذلك في جمادي الأخرة من سنة ٥٤٢هـــ. كمـــا يورد ابن الأبار في ترجمة الفقية جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـــ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوي الصليبية، وأذا كانـــت الاستشهادات الأخيرة تتعلق بالقرن السادس الهجري، فأنها تمثل رافداً واستمراراً لروح الجهاد لدي علماء القرن الخامس.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القـــوي الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم، وقد اقتصرنا علي النماذج الأنفة كأدلـــة علـــي الـــدور الطلائعـــي الذي اضطلعوا به للدفاع عن دولة الإسلام بالأندلس.

خلاصـــة القـــول أن العلمـــاء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجـــري أدواراً متـــنوعة في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأندلس انطلاقاً من الوعظ والحظ علي تحقيق الوحدة الإسلامية، مروراً بترشيد أمراء الطوائـــف ومعارضـــة سياســـتهم ســـراً أو علـــناً إلـــي المشاركة في الجهاد والاستشهاد، وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوي الصليبية ورفع التحدي عـــن المنطقة بمساعدة المرابطين، كما أسهم في رفع معنويات المسلمين قاطبة بعـــد معركة الزلاقة التي كانت أول نصر كسر شوكة الصليبين ومهد للمعارك المظفرة ضد الصليبيين في المشرق العربي خلال المراحل اللاحقة.

حدود مصر الشرقية*

رأفت عبد الحميد

مصر

لم تسعد مصر بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

ولم تشق مصر كذلك بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

حادثات الزمان تقول ذلك

ووقائع الدهور تحكيه

ولا يكـذب التاريخ ولا يتجمل حين يدون أن بشائر السعادة، وإن كانت قليلة، إلا أنهـا كانـت قريـنة العمـر الطويل، والأثر الباقي.. والمعني والمغزى في الفكر والحضارة والشخصية.

ولا يكـذب الـتاريخ ولا يتجمل حين يسجل بكل الحسرات أن مسببات الشقاء كانـت كثـيرة، ولكنها لم تلبث إلا قليلاً.. مهما طالت.. وجارت مكثت غير بعيد.. ثم دالت.. وتلك عقبي التعدي.

هـناك.. عند الحد الشرقي.. يفتر الثغر المصري عن ابتسامة.. فيحتزم القلب أوردته والشرايين.. ويتراقص من حب وحبور.. وهناك أيضاً.. تتكأ الجراح. فينقبض الصدر.. وتختفي الابتسامة.. وتتولى إلي الظل حياة.. لتولد من جديد.

سعدت يوم قدم إليها أبو الأنبياء إبراهيم.. موحياً بمقدمه أن مصر واحة الدين وإن تعددت أسماؤه..

ويـوم أصهر إلي أهلها بزواجه من هاجر المصرية.. لتغدو هذه أم العرب من أسباط بني إسماعيل.

سـعدت يـوم فتحـت بالحب أحضانها، وبالأمن والأمان ذراعيها.. لتستقبل العـذراء ورضيعها المسيح، وتمسي الملجأ والملاذ للعائلة المقدسة، من مكر بني يهود، وبطش بني الأصفر!

---

*ألقيت هذه الكلمة فى ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة فى شهر مايو ٢٠٠٢، وكان سيادته مقررا لها.

وسجل ربنا ذلك في قرأنه الكريم بقوله سبحانه وتعالي: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين) وكانت مصر هي الربوة.. وكانت المعين.

ووجدت المسيحية في مصر أرضا خصبة، نمت فيها وأورقت، ومكنت الكنيسة السكندرية لنفسها فيها، حتى جاءتها كنائس الرسل الأخرى تسعي.. تقف علي بابها، وتخطب ودها.. وتسألها الرأي الفصل في شأن المسيح ومكانته، وأبعاد اللاهوت والنا سوت في طبيعته.

وإلي صحا رواتها علي ضفتي النهر الخالد، سري المريدون من كل أنحاء العالم، ليجلسوا مجلس التلميذ أمام رهبانها، يحتذون بهم، وينقلون عنهم، حتى غدت الرهبانية المصرية لدنيا المسيحية، أسلوب عبادة، وأنموذج حياة.

وسعدت مصر يوم أصهرت بمارية المصرية إلي محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.. فجمعت بذلك ليس بين الحسينين. بل الحسن كله.. وكيف لا وقد أصهرت من قبل إلي أبي الأنبياء إبراهيم.. والآن إلي خاتم الأنبياء محمد؟!

وسعدت يوم حمل جند الإسلام رسالة السلام إلي أهليها، وبين أيديهم سماحة، وفي قلوبهم من الرسول وصيتان.

- أن يستوصوا بأهلها خيراً.. فإن فيهم صهراً.. ولهم ذمة..
- وأن يتخذوا من أهلها جنداً كثيفاً.. فإنهم خير أجناد الأرض.. ولأنهم في رباط إلي يوم الدين.

سعدت مصر يوم احتضنت الإسلام وتدثرت به.. واحتضنها الإسلام واحتمي بها.. وعاش المسلمون والمسيحيون فيها يعزفون نغمة المحبة علي قيثارة السلام. يترنمون بالإنجيل.. ويرتلون القرآن. وتتعانق مآذن المساجد وأبراج الكنائس في لوحة رائعة للتسامح، بريشة راقية للحب.

سعدت مصر يوم أضحت قبلة الدارسين، وكعبر حجيج المعرفة الإنسانية، الذين وفدوا من كل أنحاء العالم الإسلامي، لينهلوا من فيض علم أزهرها الشريف،

وليـــتفقهوا في الدين، علي يد علماء سمت نفوسهم، وترققت طباعهم، ورقت أخلاقهم، فكانوا بحق أنموذجاً يحتذي، وقدوة.. بها.. يقتدي.

وســعدت مصـــر بحدهــا الشرقي يوم خرجت جيوشها، خير أجناد الأرض، ترد عاديـــة المعتدين الذين جاءوا يتسترون برداء الصليب.. والصليب والمسيح منهم براء، ورددت حطيـــن والمنصـــورة.. أنا نحن جند النصر، أبطال الدفاع، يوم يدعونا لداع الحرب داع.

وتدفـــع بغـــي جحـــافل المغول، الذين ساحوا في الأرض وعاشوا، وأكثروا فيها الفســـاد.. فصـــب علـــيهم ربك سوط عذاب، حين أجبرهم جيش مصر أن يضعوا في قاموسهم العسكري لأول مرة، لفظة الهزيمة، ولم يكونوا قبل "جالوت" قد عرفوها..

الآن لحقت بهم.. فعقلوها.. وحمت مصر الإسلام وحضارته من شر مستطير..

تلكمـــوا ســـادتي هي سعادة مصر بحدها الشرقي.. وفي الجعبة كثير، ولكنها به شقيت..

شـــقيت بـــه يوم انتهكته جحافل الهكسوس، وجيوش الفرس، فيالق الصليبيين، وقـــبائل المغـــول.. والكل في مصر طامع، ولخيرها ناظر.. لموقعها في حلقة غصة، ولجندها في جنبه شوكة.

هـــاكم هولاكـــو يقـــول فـــي رسالته إلي سلطان مصر المملوكي قطز "قلوبنا كالجـــبال.. وعددنـــا كالـــرمال.. نحـــن لا نرحم من شكا، ولا نرق لمن بكي، عليكم بالهرب.. وعلينا الطلب، فلم يبق لنا مقصد سواكم".

والجملة الأخيرة تغني عن أي تعليق.

وكـــم قـــبل قالها عموري ملك بيت المقدس.. وصدق عليه خلفه غير المباشر جان دي بريين.. حين قالا بنبرة واحدة.. وعبارات مختلفة، إن الطريق إلي القدس يبدأ مـــن القاهـــرة، وإن مصـــر هـــي رأس الأفعى.. من حطمها دان به الشرق.. وكأني بالصـــالح نجم الدين أيوب.. يقول لهم موتوا بغيظكم.. فلم تناولا منها رطباً ولا يابس.. وهو يعظ أبنه توران شاه في وصيته..

".. يــا بني .. احرص علي ألا يكون للفرنج بالديار المصرية قعر قصبة، فإن كانــت بــيداك مصر.. كان بيدك الشرق كله، وإن هي.. لا قدر الله ضاعت.. ضاع الشرق كله!".

وكأني بشاعر النيل.. حافظ إبراهيم يصدق علي ذلك كله بقوله علي لسان مصر

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي

أنا إن قدر الإله مماتي.. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي

وشــقيت مصــــر بحدها الشرقي يوم دبر المؤتمرون بليل من بني يهود، ومن ورائهــم قــوي الاســتعمار الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، زرع جسم غريب علي حد مصر الشرقي، بغية عزلها عن أشقائها العرب، وبغية شغلها دوماً عن الـتطلع إلـــي بلوغ آفاق التنمية البشرية والاقتصادية، وإهدار طاقاتها المبدعة والخلاقة في نزيف عسكري متقطع ودائم.

ولكن.. أعود إلي صدر حديثي..

كم هي بقصيدة وإن كثرت ساعات الشقاء وحادثاته.

وكم هي معمرة علامات السعادة ووقائعها..

ونحن هنا في ندوتنا هذه.. حول حد مصر الشرقي..

تروا.. ماذا نحن فاعلون؟"

ماهية البرلمان الإنجليزى فى القرن الثالث عشر وحتى نهاية حكم الملك إدوارد الأول عام ١٣٠٧ م

زينب عبد المجيد

مصـــر

يقـــول مـــؤرخ إنجليزى معاصر نقلاً عن حولية أنجلوسكسونية : " كان وليم الفـــاتح غداة الفتح النورمانى لإنجلترا عام ١٠٦٦ ، يحتفل بتتويجه وارتداء التاج ثلاث مـــرات فى العام ، الأولى فى عيد القيامة فى مدينة وينشيستر Winchester ، والثانية فـــي أســـبوع العنصرة فى ويستمنستر Werstminster، والثالثة فى عيد الميلاد فى مديـــنة جوسيســـتر Cloucester . وذلـــك فى حضور رؤساء الأساقفة ، والأساقفة، رؤســـاء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات والفرسان "[١] وتعد احتفالات التتويج هذه من الأحـــداث الاجتماعية الكبرى ، عندما يأتى البارونات للمثول أمام الملك لتقديم فروض الطاعة والولاء باعتباره السيد الإقطاعى الأعلى . وفى هذا الاحتفال المهيب يتم وضع التاج على مفرق رأس الملك . وفى نهايته يجتمع الملك وكبار رجاله لمناقشة الأوضاع العامة للمملكة .[٢]

وعـــرف هـــذا الاجـــتماع الذى يعقد فى نهاية الاحتفال من جانب المعاصرين آنـــذاك باســـم المجلـــس الكبير للملك Magnum Concilium or great council . والـــذى لـــم يختلف كثيراً فى تكوينه عن الواتان Witenagemot أى مجلس الرجال الحكمـــاء أثناء حقبة الملكية الأنجلو سكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) . بل أحياناً ما عرف

---

(1) Stubbs, *The Constitutional History of England* (Oxford, 1873) vol. I, ,p.145; Willson, *A Hist. of England* (2 nd. London, 1972), p.58; Iloyd, *The Norman Conquest* (London, 1967), p.110 ;

سعداوى ، تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م)

(2) Willson, Op.Cit., p.58 .

المجلـــس الكبـــير باسم الواتان من جانب المعاصرين للملكية النورمانية . بيد أن هناك فـــروقاً جوهرية بين المجلسين ، إذ يعد الواتان مجرد اجتماع حر للرجال الحكماء من أربــــاب المشورة والرأى، وتتضح اختصاصات الواتان فى نواحى متعددة أبرزها منح الأراضــــى والعمــــل كســـاحة للقضــــاء. [(1)] وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الإنجليزى William Stubbs " إن كـــل مـــن الملـــك الأنجلوسكســــونى والواتـــان كانا يتمتعان بالصــــلاحية القضـــائية العليا على جميع الأفراد وفى جميع القضايا " .[(٢)] وفى مجال السياســـة الماليـــة لا سيما ما يتعلق منها بالضرائب . نجد أن فرض الضرائب الطارئة يـــتم بناءً على أمر الملك ومشورة الواتان . [(٣)] كما يشترك مع الملك فى التشريع ، فلا يصدر الملك القوانين إلا بموافقته ، علاوة على صلاحياته فى تعيين رؤساء المقاطعات والأساقفة ، ومنح الأراضى العامة ، وإعلان حالتى السلم والحرب . كما نرى مشاركة الواتـــان فـــى الأمور السياسية العامة مثل الجيش والأسطول ، ويكون الملك والمجلس

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.154, 155; Green, *A short History of the English People*, vol. I (London, 1960) P.162 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.155 .

(٣) عن صلاحية الواتان فى فرض الضرائب يذكر المؤرخ الإنجليزى William Stubbs نقلاً عن حولية أنجلو سكسونية أن من أهم الضرائب غير العادية التى فرضت بناءاً على أمر الملك الأنجلو سكســـونى ومشورة الواتان ، تلك التى فرضت سواء بهدف تمويل الحرب ضد الدانيين أو لكسب ودهم وشراء مهادنتهم ، كما حدث عام ٩٩١م فى عهد الملك أيثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧–١٠١٦م) وعرفت هذه الضريبة باسم الدانجلد Danegeld ، كوسيلة لتمويل الجزية التى ينبغى دفعهـــا للغـــزاة الدانمركييـــن . وكانت قيمتها شلنين ، ولكنها أحيانا كانت تصل إلى أربع شلنات وأكـــثر. وعلـــى الرغم من أن هذه الجزية كانت تدفع منذ عام ٩٩١م . فإن مصطلح الدانجلد لم يعـــرف إلا بعـــد الغزو النورمانى . وتكررت هذه الضرائب على مدى سنى ١٠٠٢ ، ١٠٠٧ ، ١٠١١م وقـــد استمر الملوك الأنجلو نورمان فى فرض هذه الضريبة لاسيما وليم الفاتح وهنرى الـــثانى حـــتى سنة ١١٦٢م لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Stubbs, Op.Cit., pp.155, 156 ;

كانـــتور ، الـــتاريخ الوسيط (ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ١٩٩٧) جــ٢ ، ص ٣٨٨ ، حاشية رقم (٢) .

محكمـــة علـــيا للقضـــايا الجنائـــية والمدنـــية . مما يعنى أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية . (١)

بـــيد أن المهمـــة الرئيســـية للواتان انحصرت فى انتخاب الملك من بين أفراد العائلـــة الملكـــية وفقـــاً للنظام السياسى والنظرية السياسية للجرمان . (٢) ويتمتع أيضا بســـلطة عـــزل الملوك ، وإسداء النصح للملك فى المشاكل الرئيسية للمملكة . ويتألف الواتـــان مـــن رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة الكبرى ، حكام المقاطعات ، النبلاء ، والقساوســـة . وتعقـــد اجـــتماعاته فـــي حضور الملك الذى يكون أحيانا برفقة زوجته وأبناءه، وأصدقاءه ، ومستشارية ، وكبار رجال الحاشية الملكية . (٣)

فـــى حيـــن كان المجلس الكبير بمثابة اجتماع للأفصال الاقطاعيين ، بما يتفق والأيدلوجـــية السياسية التى أرسى دعائمها وليم الفاتح غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، باعتـــباره ملـــك وسيد إقطاعى أعلى ، أى الجمع بين الملكية المطلقة التى تتمتع بها أســـلافه من الملوك الأنجلوسكسون فى ضوء القانون الأنجلوسكسونى الذى يعتبر الملك راعـــياً للرب ويستمد سلطته من الرب ، وبين هيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . وقد افلح ولـــيم فى ذلك بعد أن استطاع أن يتغلب على نقائض النظام الإقطاعى ، بأن جعل من نفســـه الســـيد الإقطـــاعى الأعلى والمباشر لكل فصل داخل المملكة . فقد أراد للنظام الإقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعيا ملكياً .(٤)

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.156 , 157 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(2) Willson, Op.Cit., p.58 ; Green, Op.Cit., vol.I, P.162 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النظام السياسى الجرمانى انظر :

كانتور ، المرجع السابق ، جـــ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(3) Stubbs, Op.Cit; p.146 ;

زينـــب عبد المجيد ، الإنجليز والحروب الصليبية (عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ص ٢٨ ، حاشية رقم (١) .

(4)Stubbs, Op.Cit., p.404; Willson, Op.Cit., p.58; Iloyn, Op.Cit., p.127;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وقد جاء المجلس الكبير انعكاساً لهذه السياسة الملكية ، إذ باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، حينئذ يكون من واجب السيد الإقطاعى الأعلى أى الملك دعوة كبار مستأجرى أرض التاج أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة لحضور مجلسه . لتكون الحيازة الإقطاعية شرط أساسى لحضور هذا المجلس. [1]

ومن الجدير بالذكر أن وليم الفاتح من منطلق خبرته السابقة كدوق لنورماندى وفصل إقطاعى للملك الفرنسى حاول استخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية. فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملك فرنسا. فقد قسم جميع أراضى المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانباً كبيراً من أراضيهم مع فرسان وإفصال آخرين يؤدون نفس الحقوق والواجبات الإقطاعية التى يدينون بها للملك سواء فى السلم أو الحرب . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض ، وستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيين . بيد أنه فى ضوء هذا العدد الهائل اقتصر الحضور فى المجلس الكبير على نخبة من هؤلاء الذين يحوزون فقط ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة .[2] ولا

---

(١) يذكر المؤرخ وليم سبتس فى حديثه عن المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى بداية التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية أنه فى العام الأخير من حكم الفاتح عام ١٠٨٧ دعى جميع ملاك الأراضى العظام لاجتماع عقد فى سالزبورى ، حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء والطاعة الإقطاعى ضد جميع الرجال الآخرين . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.405 ; Hall and A Lbion, *A Hist. of England and the British Empire* (London, 1946), p.66 ; Stenton, *English Society in the Early Ages (1066-1307)* Penguin Books, 1959, p.61 ;
سعداوى ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

(2) Stubbs, Io. Cit., Vol.I, pp.403 , 404 ; Adams, *The political History of England 1066-1266* (New York and Bombay, 1905) p.15 ; Hume, *The Hist. of England from the invasion of Julius Gaesar to the revolution of 1688* (London, 1836) p.49 .

مـــراء فى أن وليم الفاتح من منطلق سلطته السياسية احتفظ بحقه فى دعوة أى شخص كـــيفما شاء . ومن ثم فقد تضمن هذا المجلس رجال الحاشية الملكية ، وباروناته الذين يحـــوزون ضياعاً إقطاعية فى نورماندى ، وأيضا الضيوف والمبعوثون الأجانب وكبار رجال الكنيسة . (1)

وباعتـــبار المجلس الكبير المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، تبدو الوظيفة الرئيسية لهذا المجلس جلية فى العمل كمحكمة إقطاعية ، على سبيل المثال أنه فى عام ١٠٧٥ لا أتهـــم أحد البارونات بإثارة التمرد ، وبمقتضى القانون الاقطاعى تم إدانته من قـــبل المجلس بالسجن مدى الحياة . أيضا حدث عام ١٠٩٦ أن أتهم أحد البارونات فى المجلـــس بارونـــاً آخـــر بالمشـــاركة فى تمرد . وأسفر ذلك عن محاكمة على الطريقة الجرمانـــية ، بـــأن يتقاتل المدعى والمدعى عليه فى نزال مميت أمام المجلس ، ويعلن المنتصـــر فـــى النهاية أنه قد حقق انتصاره بسبب عدالة دعواه ، وإدانة البارون المتهم والمهزوم بسمل عينيه وخصبية بناءً على أمر وحكم الملك . (٢)

وبعـــيداً عن العمل القضائى تبدو وظيفة ومهام المجلس الكبير فى هذه الحقبة من التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية ، مبهمة وغير واضحة ، ونستقى معلوماتنا فـــى هـــذا الصـــدد من المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson بقوله : " فقد اقتصـــرت مهـــام المجلـــس الكبـــير فـــى التصديق على القوانين التى يتخذها الملك ، والموافقـــة علـــى الكثـــير من أعماله ، وإسداء النصح للملك فى القضايا التى يختارها مقدمـــاً للعـــرض أمام المجلس ، وأحيانا ما يتجه الملك للمجلس طلبا للعون والتأييد فى علاقاتـــه مـــع القوى الخارجية ومشاكله الداخلية . وقلما تكون هناك معارضة من قبل المجلـــس لرغبات الملك ، إذ كان الملك يعمل دوماً بدون مشورة المجلس ، وفى ضوء الـــنظام السياســـى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح يجب إلا نتوقع ثمة قيود على سلطته الملكـــية ."(٣) وهى سلطة كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخر ى منافسة ، فقد كان السيد الإقطاعى ، والأسقف والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتبـــاط بالسلطة

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص٣٢

(1) Willson, Op.Cit.. p 58
(2) Loc. Cit
(3) Loc Cit

الملكية (١)

وعن صلاحيات المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك يعلـق المـؤرخ الإنجلـيزى ريتشارد جرين Richard Green بقوله "أن سلطة هذا المجلـس قـد قـيدت بالموافقـة بدون مناقشة أو حتى إمكانية الرفض على كل ما هو مطلـوب مـنه من قبل التاج ، لأن مبدأ التشاور و الموافقة يعد أمرا ضروريا لإضفاء الشرعية القانونية على كل إجراء مالي أو سياسى كبير ." (٢)

وفـى رأى الباحث أن المؤرخ قد أصاب كبد الحقيقة لا سيما وأنه يتحدث عن صلاحية المجلس فى الفترة الباكرة من تاريخ الملكية الأنجلو نورمانية .

وتجـدر الإشـارة أن اجتماع المجلس الكبير لم يكن سوى جلسة طارئة فقط ، وكـان العمـل الـيومى للحكومة الملكية ينفذ من خلال الملك بمساعدة رجال الحاشية الملكـية وكبار البارونات وموظفى البلاط والذين يشكلون ما اصطلح على تسميته باسم المجلـس الملكـى Guria Regis أو المجلس الصغير للملك . وعندما يجتمع المجلس الكبـير يكـون مقـترنا بـالمجلس الصغير أى المجلس الملكى باعتباره قلب وجوهر المجلـس الكبير . وفى حين تترك القضايا ذات الأهمية الكبرى للعرض على المجلس الكبـير للتشـاور والموافقـة . كان أعضاء المجلس الصغير يتمتعون بأحقية التشاور المباشـر مع الملك ، والتصديق على القوانين وتنفيذها . والعمل كمحكمة ، حيث يعتبر المجلس الملكى المحكمة العليا فى المملكة التى تتمتع بسلطة التنفيذ . (٣)

---

(١) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ص ٤٥٣.

(2) Green, Op.Cit., p.158 .

(٣) ينفرد المؤرخ الإنجليزى William stubbs بالحديث عن المثال الدال على الصلاحية القضائية للمجلس الملكى من خلال قوله عن المحكمة التى عقدت للحكم على وليم أسقف درهام Durham غـداة اتهامـه بالتواطؤ فى التمرد البارونى عام ١٠٨٨م ، واتهامه بالخيانة والحنث بقسم الولاء والطاعـة الإقطـاعى . ونتـيجة لذلك قام موظفى الملك بانتزاع ضياعة الإقطاعية . وقد طالب بالـتعويض عـن هـذا الضرر مهدداً بالاستئناف بعرض قضيته أمام البابا فى روما . واسفرت المحاكمـة التى عقدت فى سالزبورى فى حضور جميع الأساقفة والبارونات والايرلات ومندوبى

فــى ضــوء مــا ســبق نقول أنه إذا كان مجلس الرجال الحكماء أى الواتان جــيموت بمثابة المجلس القومى للأمة The National Council أثناء الحقبة الأنجلو سكسونية ، فإن هذا المجلس القومى أصبح هو المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى عهــد الملوك النورمان . ومن الجدير بالذكر أيضا أن الواتان جيموت لم يكن مجلساً أو اجتماعاً كبيراً ، إذ لا يتجاوز عدد الحضور من الأساقفة عن سبعة عشر أسقفاً ، وعدد غــير ثابــت من الايرلات لا يزيد أبداً عن عشرين وعدد من الأفصال يتزايد تدريجيا حسب قوة التاج . (١)

ولامــراء فى أن أصل البرلمان الإنجليزى قد وجد فى المجلس الكبير للملك ، والــذى يــتكون من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج Tenants in chief ، رؤساء الأســاقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، البارونات . ويعتبر الحضور جزء من واجبهم الإقطاعى . وقد أسلفنا القول أن المملكة تضمنت غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦م ما يقــرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعــية مــن الملــك مباشرة . وحوالى ستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيــن . ممــا يعــنى أن المجلس لم يضم بالطبع كل تلك الجموع الهائلة لجميع المســتأجرين سواء الكبار أو الصغار ، ليقتصر الحضور فى هذا المجلس على هؤلاء الذيــن يتمــتعون بدرجة عالية من الثراء والقوة سواء من العلمانيين أو رجال الدين ، والذين تراوح عددهم فى المجلس بين خمسين إلى خمسة وسبعين فقط . (٢)

الملــك ، ولانفرانس رئيس أساقفة كانتر برى عن انتزاع إقطاعه باعتباره فصل إقطاعى للملك ، وقضاء ثلاث سنوات فى المنفى . ولعل هذا المحاكمة تمدنا ببرهان قاطع ومقنع حول حقيقة عمل هذا المجلس باعتباره محكمة إقطاعية . لمزيد من التفاصيل عن المجلس الملكى أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol. I, pp.498 , 499 .

(1) William stubbs, *Select Charters and other illustrations of English : from the Earliest times to the Reign of Edward the first* (Oxford, Ninth edition, 1913) pp.11, 17 ; *The Constitutional History of England,* Vol.I, p.403 .

(2) Green, Op.Cit., p.158 ; Willson, Op.Cit., p.147 .

وبـــدء من منتصف القرن الثالث عشر بدأت اجتماعات المجلس الكبير تعرف بأســم البرلمانات . سواء من جانب المصادر المعاصرة لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ إنجلــترا فـــى العصـــور الوسطى أو من جانب المؤرخين المحدثين فى القرنين التاسع عشــر والعشــرين . ويمكن تبرير ذلك فى أن اجتماعات المجلس الكبير بدء من القرن الثالــث عشر شهدت بالفعل حضور عناصر جديدة لم يشهدها من قبل . حيث بدأ الملك فـــى دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة سواء فى الريف أو المدن لحضور اجتماع هذا المجلـــس . بيد أن هذه الممارسة جاءت بطيئة وعلى فترات متقطعة ، ولم يكن متوقعاً حدوث ذلك سريعا ، لأن الملك لم يفعل أكثر من العمل الذى يراه ملائـــماً.[1]

ويجدر بنا فى هذا السياق الإشارة إلى المعنى اللغوى لكلمة برلمان ، نجد أنها مشـــتقة من الكلمة الفرنسية Parler ، والتى تعنى الكلام والمناقشة وتبادل الآراء. مما يعـــنى أن كلمـــة برلمان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تعنى أكثر من مجرد اجـــتماع للمجلس الكبير بهدف التشاور والمناقشة بصدد القضايا العامة للمملكة ، والتى يخـــتارها الملـــك مقدمـــاً للعرض أمام المجلس .[2] وفى ضوء المفاهيم السياسية التى جاءت انعكاسا للفكر السياسى الملكى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ليس ثمة غرابة أن نجد مصطلح برلمان وقد شاع استخدامه ، فقد راح مؤرخى هذه الحقبة جنبا إلـــى جنـــب مـــع المؤرخين المحدثين ينعتون كل اجتماع للمجلس الكبير شهد حضور ممثليـــن عـــن الطـــبقة المتوسطة اسم البرلمان . حتى اجتماعات المعارضة البارونية وصـــفت أيضا بالبرلمانات . بيد أن هناك نفر من المؤرخين المحدثين مثل Stubbs ، ولونـــت Lunt ، وســـميث Smith ، وتـــوت Tout ، وغيرهم كانوا أكثر دقة ، فقد أطلقوا على اجتماعات المجلس الكبير التى شهدت حضور ممثلى الطبقة المتوسطة اسم

(1) Vickers, *England in the later Middle Ages* (London, 1926) p.145 ; Dietz, *A political and social History of England*, (Third Edition, New York, 1937) p.81 ; Willson, Op.Cit., p.148 .
(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, pp.215, 216, lunt, *History of England* (London , 1928) pp.216 , 217 , Smith, *A History of England* (New York, 1966) p.138 .

البرلمانات النيابية Representative Parliaments ، وأطلقوا على ممثلى الطبقة المتوسطة فى هذه الاجتماعات اسم Representative elements [1]. واتفق مع وجهة النظر هذه .

ويقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Goldwin Smith : " مما لاشك فيه أن سجلات وقوانين البرلمان والتى تعد من أهم مصادر التاريخ الدستورى الإنجليزى ، إنما تميط اللثام عن الكثير من التطورات المهمة ، ذلك أن البرلمان فى القرن الثالث عشر ما زال فى نواح كثيرة لم تتضح معالم تكوينه بعد . وظل كذلك حتى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الذى شهد بداية ملامح الشكل القانونى للبرلمان بمعناه الحديث بظهور مجلسى العموم واللوردات . وبالرغم من حضور ممثلى الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة وبرجوازية المدن ، فقد ظل البرلمان طيلة هذه الفترة بمثابة اجتماع خاص للملك وهؤلاء الذين يتم دعوتهم من الملك مباشرة للتشاور معه من النبلاء العلمانيين والكنسيين ، وبعض مستشارى الملك الدائمين ، ورجال الحاشية الملكية . ولم تكن التغيرات التى طرأت على تنظيم ووظائف البرلمان فى القرن الرابع عشر تبدو فى أعين المعاصرين تغيرات كبرى أو مهمة ، إذ ما زال البرلمان من وجهة نظر هؤلاء مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، وما زالت العناصر الرئيسية الممثلة فيه قاصرة فقط على كبار النبلاء من العلمانيين والكنسيين، وهؤلاء فقط هم الذين يحق لهم سماع الدعاوى القانونية وتقديم الحلول اللازمة لها . وأن جوهر ومحور البرلمانات التى عقدت فى العصور الوسطى كان الملك وأعضاء مجلسه الصغير أى المجلس الملكى ، وأن البرلمان الذى هو المجلس الكبير كان دائما بمثابة محكمة أعدت جيداً للعمل القضائى ، باعتباره المحكمة العليا فى المملكة . " [٢]

---

(1) Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, pp.215, 216; Lunt, op.Cit, pp.216, 217 ; Smith, op.Cit, p.138.

(2) Smith, Op.Cit., P.139 ; *A Shley, Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) p.118, Willson, Op.Cit., p.148 .

وفـــى ضـــوء هـــذا الـــنص فإن الباحث يتفق مع المؤرخ سميث وغيره من المؤرخيـــن المحدثين بأن البرلمان الإنجليزى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يخرج عن كونه المجلس الكبير للملك ، كما سنرى فيما بعد

ويجـــدر بنا قبل الحديث عن التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى البرلمان أى المجلس الكبير أن نستعرض الجذور التاريخية لفكرة التمثيل النيابى لهذه الطبقة ، وأين وجدت ؟

للإجابـــة علـــى ذلـــك ينـــبغى أولاً التعرف على ماهية البناء الاجتماعى لهذه الطـــبقة، نقـــول فـــى ضـــوء الدراســـات التاريخية أنها تنقسم إلى قسمين هما الطبقة المتوســـطة فى الريف ، والطبقة المتوسطة فى المدن ، فيما يتعلق بالأولى فقد وجد فى المـــناطق الريفـــية – كنتيجة طبيعية للنظام الإقطاعى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح – الكثـــيرون مـــن الرجال الأحرار الذين لا يتمتعون بأحقية حضور المجلس الكبير للملك لأنهـــم ليســـوا مـــن طبقة كبار مستأجرى أرض التاج . وهناك أيضا ملاك الأراضى الأحـــرار Freeholders الذين حازوا من خلال آخرين على حيازة إقطاعية ، علاوة علـــى فـــئة صـــغار المســـتأجرين mesne tenants . ولم يكن هؤلاء مرغمين على حضـــور المجلـــس الكبير باعتباره جزء من واجبهم الإقطاعى . ومن جهة أخرى فقد اعتبرت طبقة كبار المستأجرين tensnts – in – chief حضور المجلس الكبير عبء ثقـــيل طالما حاولوا التملص منه قدر استطاعتهم . بيد أنه فى القرن الثالث عشر انفرد هـــؤلاء فقط بالدعوة من جانب الملك كل بمفرده لحضور المجلس الكبير [1]، فى حين بقيـــت طـــبقة صـــغار المستأجرين عادة بمنأى عن ذلك . ولا مراء أن هذه العناصر الـــثلاثة التى تتكون منها الطبقة المتوسطة فى الريف ألا وهى ملاك الأراضى الأحرار غـــير الإقطاعيـــين The non – Feudal Freeholders ، المســـتأجرين الإقطاعيين The menses tenant ، صغار مستأجرى أرض التاج The lesser tenants – in – chief ، يمثلون جميعا درجات عالية من الثراء والمكانة الاجتماعية . وارتقوا السلم

(1) Lunt, Op.Cit., p.213 ; Stubbs, *The Constitutional History of England*, vol.II, p.249 ; Select Charters, p.41 ; Green, Op. Cit., p.164 .

الاجتماعى من مجرد مالك متواضع لمبنى فى ضيعة إقطاعية إلى فارس المقاطعة. والذى يجب أن يقارن من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية بأحد البارونات . وعندما أصبح شائعا فى القرن الثالث عشر تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر فقط فى وراثة الحيازة الإقطاعية ، معنى ذلك أن الأبناء الصغار للبارونات أنفسهم أصبحوا ضمن أفراد الطبقة المتوسطة . وبالرغم من الفروق الاجتماعية الهائلة لأبناء هذه الطبقة . فقد كان للجميع مصالح مشتركة باعتبارهم ملاك أراضى . (١)

وفى ضوء هذا الحراك الاجتماعى الطبقة الفرسان بعناصرها الثلاثة المتباينة، أصبح أبناء هذه الطبقة بدء من القرن الثالث عشر أقل ولعاً بالحرب والقتال وأكثر اهتماماً بإدارة ضياعهم ، وكانوا من الكثرة التى جعلت التاج يعول عليهم دائما فى عمل الحكومة المحلية ، مثل حكام المقاطعات والموظفين القضائيين ، وتجسدت مهمتهم فى تقديم المعلومات اللازمة للمندوبين الملكيين ممن يتم إرسالهم للاستقصاء والتحرى فى المقاطعات .(٢) وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانتور : أن الشريف ، أى حاكم المقاطعة ، كان من حيث إمكانياته الخاصة مجرد واحد من ملاك الأراضى المتوسطين ، ومع ذلك فقد تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسبب وضعه كممثل لحكومة ملكية على درجة كبيرة من القوة والفاعلية ، وهى حكومة لم تكن تطيق أى تمرد من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين فى البلاد ، وكان الشريف يرأس محكمة المقاطعة ، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية."(٣)

بيد أن الأهم من ذلك أن أبناء الطبقة المتوسطة فى الريف من فرسان المقاطعة وكبار ملاك الأراضى أصبحوا جميعاً ممثلين فى إدارة الحكومة المحلية من

---

(1) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148 , 149 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148, 149 .

(٣) كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٦٥ ولمزيد من التفاصيل عن منصب حاكم المقاطعة انظر:
Stubbs, Op.Cit., vol.I, pp.225 – 235 .

خلال اجتماع محكمة المقاطعة Shire court ، حيث يعلن حاكم المقاطعة مراسيم الملك بصدد المساعدات والمنح المالية الخاصة بالتاج ، وتلقى أسماء المتهمين ، وتحريات المحلفين المحليين [1] ، الذين يكونوا عادة من الرجال البارزين فى المجتمع، والضرائب التى تم تقديرها على كل منطقة ، وسماع الالتماسات الخاصة بالعدالة فى القضايا المدنية والجنائية من هؤلاء الذين تعرضوا للظلم فى المحاكم الصغرى التى اصطلح على تسميتها باسم محاكم المائةHundred – Courts . ومن خلال اجتماع محكمة المقاطعة فقط يستطيع حاكم المقاطعة قانونا باعتباره نائباً للملك دعوة فرسان المقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم البرلمان ، مما يعنى أن حضور ودعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور المجلس الكبير إنما يحدد من خلال حاكم المقاطعة فقط بناء على أمر الملك [٢]. وتتكون محكمة المقاطعة التى يرأسها الشريف فى كل القضايا المدنية والجنائية من اثنى عشر

---

(١) يرجع نظام المحلفين المحليين local juries إلى عهد وليم الفاتح ، ففى محاولة فعالة من جانبه لتحسين الإجراءات الجرمانية البالية ، أدخل نظام الاستجواب الفرنجي – النورمانى إلى إنجلترا ، وكلف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية. ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة . ويشكل هؤلاء الفئة المختارة من أعيان البلاد المقيمين فيها . وكانت شهادتهم من عوامل الحسم فى القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية . وبعد ذلك وفى إطار الإصلاحات القضائية لهنرى الثانى دأب على تحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية والجنائية . وبذلك أحل هنرى الثانى نظام المحلفين محل الوسائل البدائية الشائعة، حيث كانت وسائل التعذيب البدائية الجرمانية (المحنة) ما تزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائية . وبدءً من النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا المدنية والجنائية على حد سواء ، ثم صار أساس العملية القانونية الإنجليزية . ولمزيد من التفاصيل عن نظام المحلفين انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.681 , 682, Lunt, Op.Cit., p.213 ;

نورمان كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٨١ ، ٨٢

(2) Green, Op.Cit., p.164, Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.119 .

من القضاة المساعدين لحاكم المقاطعة Assessors of the Sherief ، ومن كل مائة ضـيعة يتم اختيار اثنى عشر من المحلفين jurors . ومن خلال هؤلاء الذين يمثلون المقاطعـة أمام مندوبى الملك يتم تقدير مشاركة المقاطعة فى الضرائب العامة، وتقدير الملكـية الشخصـية .[1] وفى ضوء ما سبق نستخلص نتيجة مؤداها أن فكرة أو مبدأ التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .[٢]

---

(1) Stubbs, Select charters, p.40 ; Green, Op.Cit., p.164, Lunt, Op.Cit., pp.213 , 214 .

(٢) يذكر المؤرخ Stubbs فى حديثه عن محكمة المقاطعة Shiremoot فى الحقبة الأنجلو سكسونية بأن الشريف كان يعقد محكمة المقاطعة بمقتضى قوانين إيجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م) مرتين فى العام . وكان الأسقف والأيرل يجلسان معاً للحكم فى الدعاوى الكنيسة والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينها . ويرأسان معاً محكمة المقاطعة . فى حين كان حاكم المقاطعة بمثابة موظف معين من قـبل الملك . وفى عام ١٠٧٦ أصدر وليم الفاتح قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية بهدف تحقيق الاستقلال القانونى للكنيسة الإنجليزية فى الأمور الكنسية البحتة .

وأصـبحت محكمـة المقاطعـة فى عهد وليم وخلفاؤه تعقد عند حضور القضاة الجوالين itinerant justices ، وتـتكون مـن رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات ، الفرســان ، وأربعـة من الرجال عن كل بلدة Township واثنى عشر رجلاً عن كل مدينة كبرى Borough وكانـت بمثابة اجتماع عام للشعب . وتضمنت بالتالى جميع العناصر التى تكون منها الـبرلمان فيما بعد . بيد أنه تم إعفاء من هم أدنى مكانة من الفارس ما لم يتم دعوتهم . ومن جهة أخرى فقد تضمنت العهود التى منحت للمدن فيما بعد أنه عند انعقاد محكمة المقاطعة فقط للاجتماع بالقضاة الجوالين يكون حضور ممثلى المدن أمراً ضرورياً .

وبمقتضـى الفقرة الثانية والأربعين من مرسوم هنرى الثالث بصدد إعادة إعلان الماجنا كارتا عام ١٢١٧م . أصـبحت محكمـة المقاطعـة تنعقد مرة واحدة فى الشهر . ويتضمن هذا المرسوم ستة وأربعـون فقـرة ويتفق فى جميع بنوده مع الماجناكارتا باستثناء الفقرات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ . لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذا المرسوم عند :

Stubbs (ed.) " Second charter of Henry III, 1217 " PP.341 – 344 ;

انظر أيضاً

" Ordinance of William I Separating the Spiritual and Temporal courts 1071," in Stubbs (ed.) Select charters, pp.99 , 100 ; Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol.I, PP.223 , 224 .

وطبق هذا المبدأ بعدئذ على المجلس الكبير فى القرن الثالث عشر . ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر بقوله : " أن محكمة المقاطعة هى الأصل الذى انحدرت منه البرلمانات الإنجليزية فى العصور الوسطى . وأن مبدأ التمثيل النيابى يعد واحدا من بين أعرق وأقدم نظمنا وتقاليدنا . "[١] وبالتالى تكون فكرة التمثيل النيابى أكثر قدما من البرلمان ذاته .[٢]

وكما ذكرنا آنفا لم يكن البناء الاجتماعى للطبقة المتوسطة قاصرا على فرسان المقاطعة وكبار الملاك فى الريف . هناك أيضا سكان المدن Bourgeois . وفى القرن الثالث عشر أحرزت هذه الطبقة درجة عالية من الثراء الناجم عن ممارسة النشاط التجارى والصناعى ، وامتلاك الأراضى .[٣] بيد أنه يجب تفسير مكانة هذه الطبقة فى ضوء الحراك الاجتماعى للمجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والذى جاء انعكاسا للتطورات التى شهدتها القارة الأوربية على الصعيدين الثقافى والاقتصادى . فقد شهد القرن الثانى عشر ظهور أولى الجامعات الأوربية فى بولونيا بإيطاليا ، وباريس بفرنسا . وانعكس ذلك على إنجلترا بتأسيس جامعة أكسفورد عام١٢٠٠ ، وجامعة كمبريدج عام ١٢٠٩م .[٤] وعلى الرغم من أن الزعامة الثقافية كانت لفرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد ساهمت إنجلترا بعض

---

(1) Green, Op. Cit., p.164 .

(2) Lunt, Op. Cit., p.214, Willson, Op. Cit., p.149 .

(3) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol. II, pp.459 – 416 ; Traill & Mann, *Social England, A Record of the progress of the people, from the Earliest times to the present Day* , London, 1979 , pp.659 – 661, Lunt, Op. Cit., p.213 .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ١٩٧١

الشئ مع إيطاليا وألمانيا فى الإنجازات الفكرية آنذاك ، فقد ولد جون السالزبوى John of Salisbury فـــى إنجلترا ، والذى كان يعد من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر وتعلم فى فرنسا وعمل فى إيطاليا ثم عاد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا ، حيـــث شغل منصب أسقف شارتر chartres . فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين آنذاك . (١)

أمـــا على المستوى الاقتصادى فقد شهدت هذه الحقبة ظهور المدن الأوربية ، وكمـــا يذكـــر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فإن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٨٣ تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ، بدءً ب نشـــأة المدن الإيطالية ، ثم فى إقليم لمبارديا ، وفلاندرز ، وأخذت تنتشر بسرعة فى بقية بـــلاد الغرب .(٢) ومن الجدير بالذكر هنا أن المدن الأوربية في نشأتها قد خرجت من عباءة النظام الإقطاعى السائد في معظم الحكومات الملكية فى أوربا ، ولأن الملوك هم السادة الإقطاعيين فقد قاموا هم وكبار افصالهم بأعتبارهم مالكى الأرض بتأسيس المدن ، وتعلموا أن يشجعوا الفلاحين ، لأنهم اكتشفوا أن زراعة الأرض تجعلهم أكثر ثراء . ونظـــراً لوجود مساحات وافرة من الأرض ، كان عليهم أن يجعلوا شروطهم مغرية لم يعمـــرونها . وكانت أكثر الاغراءات التى يمكنهم تقديمها للمزارعين هى منحهم مزيداً مـــن الحـــرية . أى أن الـــريفى الـــذى يأتى للأقامة فى بلدة جديدة كان يتمتع بالحماية والامتـــيازات التـــي تقدمها وثيقة مؤسس هذه البلدة والتى نصت على " حرية الأرض الـــتى قامت عليها المدنية ، وأن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة أو يوماً واحداً يعتبر حـــراً " وهنا لم يكن الريفى مضطرا لأن يعمل فى أرض السيد الإقطاعى ، وإنما كان يدفـــع إيجـــارا ، نقـــداً أو عيـــنا ، كما أنه لم يكن مربوطاً بالأرض ومن ثم فإن المبدأ الشـــهير القـــائل بأن " هواء المدن يصنع الحرية " عرف منذ ذلك الحين . واستطاعت بعـــض المـــدن أن تحصل على سلطة سياسية أكبر ، وهذه المدن هى التى تعرف باسم

---

(١) كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

القومونـــات Communes وبـــدأت هـــذه القومونات فى إقليمى تسكانيا ولمبارديا فى إيطالـــيا ، ثـــم أخـــذت تنتشـــر منذ أواخر القرن الحادى عشر فى العديد من الممالك الأوربية . [1]

وبالطـــبع لم تكن إنجلترا بمنأى عن هذه التطورات الاقتصادية التى تموج بها القـــارة الأوربـــية فقـــد حصـــلت المـــدن الإنجلـــيزية فى عهد وليم الفاتح على بعض الامتـــــيازات [2] ، ولعل العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن إنما يحيط اللـــثام عـــن طبـــيعة ومغزى الامتيازات التى حصلت عليها المدن الإنجليزية آنذاك . وبمقتضـــى هـــذا العهـــد فإن الامتيازات التى تمتعت بها مدينة لندن لا يمكن أن تعتبر نموذجـــا للحـــريات التى حصلت عليها المدن العادية ، وإنما علامة بارزة على مقدار الاســـتقلال والحق فى إدارة شئونها ، وهى الحقوق التى كانت المدن الأخرى تصبوا للحصـــول علـــيها. بـــيد أن أهم الامتيازات التى ظفرت بها مدينة لندن بمقتضى هذا العهـــد. أنهـــا وضعت فى مكانة مساوية للمقاطعة ، فأصبح لها الحق فى انتخاب حاكم المقاطعـــة والقاضـــى justiciar الخـــاص بها . وعدم مثول مواطنيها أمام أى محكمة

---

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, vol.I, P.459 ;
موريـــس كيـــن ، حضـــارة أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م) ص ٩٢ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

(٢) يعلق المؤرخ وليم سبتس على العهد الذى منحه وليم الفاتح لمدينة لندن باعتبارها المدينة الرئيسية للمملكـــة بأنـــه ينطوى على الحرص على الحقوق الملكية ، ومن ثم فقد جاء هزيلاً وتضمن هذا العهد : " تحيات وليم الفاتح إلى وليم أسقف المدنية ، وجوفريث Gosfrith حاكم المدنية ، وجميع المواطنيـــن داخـــل لـــندن من الفرنسيين والإنجليز لهم الود ، أننى أرى بديهيا أنكما أنتما الاثنين جديـــران بكل القوانين التى كانت قائمة فى عهد الملك إدوارد المعترف ، وأننى سوف أجعل كل طفـــل يكـــون وريثاً لأبيه بعد وفاته ، وأننى سوف لا احتمل أى رجل يقترف أى خطأ تجاهكم ، ويباركما الرب . " وهكذا لم يتضمن هذا العهد أية امتيازات عامة فيما عدا أن الابن يجب يخلف أبـــيه فى حق التصويت والانتخاب ، وضمان ما تم منحه فى عهد إدوارد المعترف . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, Op Cit., p.460 .

خـــارج أســـوار مدينتهم ، والتحرر من ضريبة الدانجلد ، ومن الالتزام بالموافقة على المحاكمـــة عـــن طـــريق النزال ، والإعفاء من المكوس الخاصة بالمرور وكل أنواع الضـــرائب فـــى جمـــيع أنحـــاء المملكة براً وبحراً ، وحقهم فى امتلاك أراضيهم .(١) وبالـــرغم مـــن كل هذه الامتيازات فإن المدينة لم ترقى إلى درجة الكوميون mCom unio ، أى المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة إلا فى عهد الملك ريتشاد الأول عام ١١٩١م .(٢)

ويـــتوالى مـــنح هذه " العهود الإعفائية " على [p تعبير أستاذنا الدكتور سعيد عاشـــور ، في عهد كل من هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩م) ، ريتـــــشارد الأول (١١٨٩ – ١١٩٩م) جون (١١٩٩ – ١٢١٦) وهنري الثالـــث (١٢١٦ – ١٢٧٢م) ، لتشـــمل العديـــد مـــن المـــدن الإنجليزية مثل كمبردج Cambridge ، وينشيستر Winchester ، لنكولن Lincolon ، نوتنجهام Nottingham ، اكسفورد Oxford ، وساوثهامبتون Southampton وغيرها .(٣)

---

(1) *Charter of Henry I to the citizens of London*, Stubbs, Select charters, pp.128 – 130 ; *The Constitutional Hist, of England*, Vol. I, pp.460 , 461 ;

ولمـــزيد مـــن التفاصيل عن ماهية العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Richardson, " Henry Is charter to London " The English Historical review, vol. XLII, No 165, January, 1977, pp.80 87 .

(٢) يجب تفسير العهود التى منحت للمدن الإنجليزية فى عهد ريتشاد الأول فى إطار السياسة المالية الـــتى انـــتهجها لجمع المال اللازم لتمويل مشاركته فى الحملة الصليبية الثالثة ، ونظراً لحاجته الماســـة للمـــال عرض كل شئ فى المملكة للبيع المناصب ، المقاطعات ، الألقاب ، الأراضى ، والعهود التى منحت للمدن انظر : زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(3) *Charters of Boroughs granted by Henry II*, pp.195 – 199 .
Charters of Towns granted by Richard I, pp.259 – 262 .
Charters of Towns granted by John pp.305 – 312 .
Charters of Towns granted by Henry III, pp.366-369 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند .

Stubbs, Select charters, pp.195-369 .

لامـــراء أن هذه العهود التى حصلت عليها المدن الإنجليزية فى القرنين الثانى عشـــر والثالـــث عشر [1]، كان لها أكبر الأثر فى تأكيد رسوخ مكانة هذه المدن ، وأن تصبح مراكز مزدهرة للنشاط التجارى والصناعى ، وتعتبر السنوات الأولى من القرن الثالث عشر علامة لحقبة مهمة فى تاريخ التجارة والصناعة لهذه المدن ، فقد ازدهرت مديـــنة ســـاوثهامبتون باعتبارها سوقا تجاريا مهما فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، والـــتى كانـــت حكراً على الجمهوريات الإيطالية . وبالطبع جاء هذا النشاط مصحوبا بظهور العديد من الأسواق فى المدن الإنجليزية مثل سوق ستوربريدج Stourbridge Fair ، وســـوق وينسيســـتر ، ونوتـــنجهام ، ســـتامفورد Stamford ، اكســـفورد ، وابنـــيجدون Abingdon وأماكـــن أخـــرى . أيضا واكب هذا الرواج التجارى ظهور

---

[1] تجدر الإشارة هنا أن المدن الإنجليزية التى تمتعت بنفوذ سياسى بمقتضى هذه العهود الملكية ، لا يعنى ذلك أنها تحررت من التزاماتها نحو السلطة السياسية أو أنها ذات سلطة سياسية مستقلة تماما عن التاج ، يتضح ذلك من خلال العهد الذى منحه ريتشارد الأول لمواطنى مدينة لنكولن ، صحيح أن أصـــبح لهـــم الحق فى اختيار حاكم مقاطعتهم ، بيد أنه جاء مرهونا بأن يراعى فى اختياره أن يكون الشخص الملائم والمؤهل لخدمة المدينة والملك . أيضا تمتعت مدينة نوتنجهام Nattingham بهذا الحق بمقتضى العهد الذى منحها إياه الملك جون ، ولكن الملك احتفظ بسلطته فى إبعاد الشخص الذى لا يراه ملائما . بما يتفق والفكر السياسى للملكية الإنجليزية .

ومـــن جهـــة أخـــرى نلاحـــظ فـــى ضوء العهود التى منحها الملك هنرى الثانى لمدن كمبريدج ، وينشيســـتر، لنكولن ، نوتنجهام، لندن ، واكسفورد أنه تحاشى منح هذه المدن حريات دائمة ، وإنما أثر أخذ مبالغ مالية مقابل استمرار الامتيازات والإعفاءات التى تتمتع بها من عام لعام . ومن ثم لم تخرج العهود التى منحت فى عهده فى مضمونها عن تلك التى منحت فى عهد هنرى الأول . على ســـبيل المـــثال فقـــد اشترط على مواطنى لندن دفع مبلغ مائة مارك مقابل حقهم فى اختيار حاكم مقاطعـــتهم . ومدينة لنكولن دفع مائتى مارك فضة وأربعة ذهب والنساجين فى اكسفورد دفع مبلغ اثنين مارك ذهب عن نقابتهم . ومواطنى كمبريدج مبلغ ثلاثمائة مارك فضة ومارك واحد ذهب ، وتعهـــد مواطنى هورن كاسل Horncastle بدفع مبلغ تسعة وعشرون جنيه إسترلينى وثلاثة عشر شلن لزواج أبنة الملك مقابل العهد الذى منحه الملك للمدينة . لمزيد من التفاصيل انظر :

Charters of Boroughs granted by Henry II, P.195, in Stubbs, Select charters, pp.195 – 198; *The constitutions Hist. of England*, Vol. I, pp.701 , 702 .

نقابـــات الـــتجار The Merchant guilds ، ونقابـــات المهن والحـــــرف Graft guilds . [١] ولا داعــــى هنا للخوض فى تفاصيل ذلك فتلك قصة أخرى . بيد أن أهم مـــا يعنينا هنا فى المقام الأول أن ظهور النقابات فى إنجلترا قد حقق نوعاً من التماسك بين رجال المدن ، الذين تكاثرت اجتماعاتهم بهدف إعداد الإجراءات اللازمة لممارسة النشـــاط الـــتجارى ، وكـــان ذلـــك كافياً لمنحه مسلطة اجتماعية طالما تركت فى أيدى موظفـــى الإدارة المحلـــية ، والمطالبة بالإعفاء من المكوس فى جميع أنحاء المملكة . لتصـــبح عضـــوية نقابات التجار والحرفيين أمر لا مندوحة عنه وتتويجاً لمكانة سكان المـــدن ، إذ بمجرد تسجيل اسمه فى عضوية النقابة يتم إعفاءة من كافة الالتزامات التى يطالب بها عادة مستأجرى الضياع الإقطاعية [٢]

كـــان ذلـــك بدون منازع يمثل خطوة قوية تجاه الحرية التى تمتع بها المجتمع الإنجلـــيزى فـــيما بعد ، ولأن التاريخ السياسى انعكاسا ومرآة للتاريخ الاجتماعى ، فقد أســـفر هـــذا الحراك الاجتماعى الذى شهده المجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر باعتبارهما علامة بارزة فى مسيرة ظهور وتطور المدن ، عن ظهور طـــبقة ثالـــثة هـــى الطـــبقة المتوسطة ممثلة فى فرسان المقاطعة فى الريف ، وأرباب التجارة والصناعة من سكان المدن ، وهى طبقة لابد وأن ينظر إليها بعين الاعتبار من جانـــب التاج لما تمتلكه من مقومات الإغراء المادى فى مواجهة المتاعب المالية الملحة للـــتاج الإنجلـــيزى ، ففى القرن الثالث عشر – كما سبق أن ذكرنا – بلغ سكان المدن درجـــة من الثراء الناجم عن ممارسة التجارة والصناعة ، وامتلاك بعض الأراضى ، ليصـــبح أفراد هذه الطبقة بمثابة العمود الفقرى فى تاريخ الدستور الإنجليزى ، ومن ثم لـــيس ثمـــة غـــرابة أن يشارك ممثلى المدن أقرانهم فى الريف مهام الإدارة المحلية ،

---

(1) Traill & Mann, Op.Cit., pp.654 – 660 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النقابات انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.469 – 479 ;

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ١٠٧-١١١ .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, vol. I, pp.482 , 483 .

والإنجاز والتعامل مع مندوبى الملك . ومن ثم كان لهذه الطبقة سواء فى الريف أو المدن خبرتها فى أمور الإدارة والحكم والإلمام بفكرة التمثيل النيابى .(١)

ومنذ وقت طويل والملك يتعامل مع ممثلى هذه الطبقة ، إذ جرت العادة عندما يرغب الملك فى استقصاء الأوضاع المحلية أن يقوم بإيفاد القضاة الجوالين أو الموظفين الملكيين إلى محاكم المقاطعات للتعامل مع الفرسان وكبار الملاك المجتمعين فى كل مقاطعة . وعندما يرغب فى الحصول على موافقة المدن على مطالبة المالية يقوم بإيفاد مبعوثين للتفاوض مع سكان كل مدينة على حدة . بيد أن هذه الطريقة كانت تتسم بالبطء ، ومن ثم فقد وجد ملوك إنجلترا فى القرن الثالث عشر أنه من الأفضل دعوة ممثلين عن مختلف المناطق المحلية سواء فى الريف أو المدن للاجتماع مع مندوبيهم فى مكان محدد بدلاً من إيفادهم لجميع المقاطعات والمدن . (٢)

فى ضوء ذلك نؤكد ثانية أن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة إنما تضرب بجذورها فى نظام المحلفين ، الذين يتحدثون بصوت المنطقة فى محكمة المقاطعة ، لأن نظام المحلفين ذاته يرتكز على مبدأ التمثيل النيابى ، حيث تتكون هيئة المحلفين من اثنى عشر من الرجال البارزين فى كل ضيعة إقطاعية ، وأربعة عن كل مدينة ، بهدف تقديم تقرير للقضاة الجوالين أثناء انعقاد محكمة المقاطعة التى لابد وأن تنعقد فى حضورهم ، وذلك بمقتضى قوانين كلارندون Assize of clarendon التى أصدرها هنرى الثانى عام ١١٦٠م .(٣)

---

(1) Traill & Mann (eds.), Op.Cit., P.568 Lunt , Op.Cit., p.212 ; Willson, Op. Cit., P.149 ;

راوس ، التاريخ الإنجليزى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ ن ص ٤٧ .

(2) Green, Op.Cit., vol.I, p.165, Willson, Op.Cit., P.149 ; Lunt, Op. Cit., p.214 ; Traill & Mann, OP. Cit., . 568 .

(٣) تتضمن قوانين كلارندون اثنين وعشرين فقرة ، تعتبر ذا أهمية فائقة فى تاريخ القضاء الإنجليزى ، نظراً لما تضمنته من تغيرات فى إدارة العدالة ، والتى مهدت الطريق أمام الحكم النيابى فيما بعد لمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى لهذه القوانين كاملة فى

Incipit Aassisa de clarenduna facta a rege Henrico, Scilicet secund, in Stubbs (ed.) Select charter, pp.170 – 173 .

علـــى أيـــة حـــال فإن أول الأمثلة على اجتماع مندوبى الملك وممثلى الطبقة المتوســـطة حدثت عام ١٢٠٤ ، عندما أمر الملك جون بدعوة اثنى عشر رجلاً من كل الموانـــئ الـــبحرية للاجتماع ومندوبى الملك فى مكان محدد لمناقشة الأوضاع الخاصة بالـــتجارة . وتكـــرر ذلـــك ثانية عام ١٢١٣ عندما أمر الملك جون أيضا بدعوة حكام المقاطعـــات وأربعـــة عـــن كل مدينة للاجتماع فى دير القديس البانس St.Albans ، بهـــدف تقديـــم تقريـــر عن الضرر والخسائر التى لحقت بالكنائس المحلية أثناء نزاع الملـــك مـــع الـــبابوية . بيد أن هذين الاجتماعيين لم يكونا أكثر من مجرد اجتماع فقط لهيئة المحلفين . (١)

وكمـــا ســـبق الإشـــارة بأن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة لم تكن شيئا مســـتحدثا ، ولكـــن الجديد الذى حدث بعد ذلك يكمن فى تمثيل هذه الطبقة فى المجلس الكبـــير للملك فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما وجد الملك أنه من الأفضل والأكثر أهمـــية دعوة ممثلين عن المناطق المحلية للاجتماع وأعضاء مجلسه لتقديم المشورة ، مـــثال ذلـــك أن الملك جون أعلن مرسوما ملكيا لحكام المقاطعات يأمرهم بدعوة أربعة من الفرسان من كل مقاطعة لحضور اجتماع الملك والمجلس الكبير فى مدينة اكسفورد بهدف ما أسماه " التشاور معنا بشأن أوضاع مملكتنا " .(٢)

ويعلـــق المـــؤرخ William Stubbs على دعوة الملك جون لحضور ممثلين عن المدن والمقاطعات بقوله: " هذه المرة الأولى التى يتم فيها دعوة ممثلى المقاطعات للمجلـــس العـــام للملكة ، على أساس مبدأ التمثيل النيابى الذى طالما استخدم لأغراض قضائية . بمعنى أن هؤلاء الرجال الأربعة وحاكمَ المقاطعة منذ القدم وهم يمثلون البلدة فـــى محكمة المقاطعة Shiremoot . والآن وبناءً على دعوة الملك جون أصبح هؤلاء الـــرجال الأربعة ، وحاكم المقاطعة يمثلون محكمة المقاطعة فى المجلس القومى – أى

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, p.697 ; Green Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Traill, Mann, OP.Cit., p.568 .
(2) Stubbs, *Select charters*, p.282 ; Green, Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Lunt, Op.Cit., p.215 .

المجلس الكبير – " [1] وهذا يؤكد بجلاء ما ذهبنا إليه من قبل بأن فكرة التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .

وبناءاً على مرسوم الملك جون لحكام المقاطعات لم يكن اجتماع اكسفورد المقترح أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير مع حضور فرسان المقاطعة . وبالرغم من أنه ليس مؤكداً ما إذا كان اجتماع المجلس الكبير الذى دعى الملك رسمياً لانعقاده، أو أى اجتماع آخر قد عقد فى التاريخ المحدد فإنه من المؤكد أن فكرة دعوة ممثلين عن فرسان المقاطعة للتشاور مع الملك ومجلسه إنما تنسب إلى الملك جون عام ١٢١٣. [2]

بالإضافة إلى ذلك ليس غريبا أن يحظى عهد الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى الإنجليزى، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام فى إمكانية امتصاص غضب البارونات وإصرار صارم من جانبهم على تأكيد حقوقهم التى أقرها القانون الإقطاعى، وأعلن البارونات الثائرين أنهم سوف يقاتلون من أجل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول ، المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح .[3] وجاءت الرغبة العامة والعارمة لهؤلاء الثائرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع بين الملك والبارونات ، وتفاقم النزاع بين الجانبين بعد هزيمة الملك وحلفائه فى بوفييه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤. وكيفما كان الأمر ، فإن طبقات الشعب الإنجليزى من البارونات ورجال الدين وأهل المدن اتفقت كلمتهم فى خريف عام ١٢١٤ على ضرورة المطالبة بتنظيم ما لهم وما عليهم تجاه الملك ، وفى رينميد Runnmede على ضفاف نهر التايمز وقع الملك على ما اصطلح على تسميته الماجنا كارتا أو العهد الأعظم . والتى استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد

(1) Stubbs, Op.Cit., P.282 ; *The Constitutional Hist, of England*, vol.II, P.697
(2) Lunt, Op.Cit., P.215 ; Willson, Op.Cit., P.149 ; Green , Op.Cit., P.165.
(3) " A. D 1100. AuG.5. charter of liberties Issued by Henry I. " *in stubbs, select charters*, pp.116 – 119 ;
زينب عبد المجيد، المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

انتهاكات الملك وأسلافه . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السلطة الملكية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعي الذى يعتبر كل من الملك والبارونات حزبين متعاقدين فى إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . (١)

لامراء أن الماجناكارتا تمثل خطوة مهمة وفعالة فى مسيرة التأكيد الملكى على أهمية وضرورة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير من جهة ، والتاريخ الدستورى لإنجلترا من جهة أخرى .

فقد نصت الفقرة (١٢) منها على "*يتعهد الملك بعدم فرض ضريبة الاسكوتاج أو الإعانات الإقطاعية على المملكة إلا بمشاورة المجلس العام للمملكة ، فيما عدا الأموال الإقطاعية الخاصة بافتدائنا من الأسر ، وتنصيب ابننا الأكبر فارس ، وزواج ابنتنا الكبرى . وبنفس هذا النهج تتخذ الإعانات الإقطاعية من مدينة لندن .*"

وجاء فى الفقرة (١٣) "*سوف تكون لمدينة لندن جميع الحريات التى كانت لها فى الماضى ، والاعفاء من المكوس براً وبحراً ، علاوة على ذلك سوف نمنح جميع المدن والبلدان والموانئ الأخرى جميع حرياتها والإعفاء من المكوس* "

وتضمن الفقرة (١٤) "*للحصول على المشورة العامة للمملكة بصدد تقدير المساعدات الإقطاعية فيما عدا الحالات الثلاث المشار إليها آنفا –أو الأسكوتاج ، سوف ندعو رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، كبار البارونات، كل على حدة بناء على خطابات منا ، إضافة إلى ذلك سوف ندعو بشكل عام من خلال حكام مقاطعاتنا وجميع نوابنا هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من التاج – الفرسان – للتاريخ والمكان المحدد للاجتماع ، والذى يعقد فى غضون أربعين يوماً*

---

(١) تقع الماجناكارتا فى واحد وستين فقرة ، ولمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى الكامل لهذا العهد عند :

Stubbs, *select charters*, pp.292 – 302 ;

وكذلك الترجمة الإنجليزية لهذا النص عند :

Warren, *King John* (London, Second edition, 1978) pp.266 – 277 .

على الأقل من توجيه الدعوة ، وسف نحدد فى جميع الخطابات سبب الاجتماع ، وأثناء الاجتماع سوف يتم العمل وفقا لمشورة هؤلاء الحاضرين ، بغض النظر عن حضور جميع الذين تم دعوتهم . "(١)

وقبل أن يجف المواد الذى كتبت به الماجناكارتا نقض الملك جون شروطها وتنكر لمبادئها.(٢) ولكن فى ضوء هذا الصراع السافر بين الطرفين فإن المعارضة البارونية فى صراعها من أجل الحريات أى حرية الامتيازات الإقطاعية والكنيسة ، تكون قد ساهمت فى إرساء أحد الأسس اللازمة لإقامة حكومة دستورية فيما بعد .

ونترك عهد الملك جون جانباً ، ونمضى قدماً مع مسيرة تطور التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير . ففى أثناء حكم الملك هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧٢) أعلن الملك عام ١٢٢٦ مرسوما ملكياً بدعوة أربعة من فرسان كل مقاطعة بهدف التشاور السياسى حول التفسير المتنازع عليه لبعض بنود الماجناكارتا.(٣) وفى عام ١٢٢٧ تولى حكام المقاطعات فى محاكم المقاطعات مهمة انتخاب أربعة من الفرسان عن كل مقاطعة للاجتماع مع الملك ومجلسه الكبير . وجاء هؤلاء الفرسان بهدف تقديم تقرير بالشكاوى ضد حكام المقاطعات التى يمثلونها . وفى عام ١٢٥٤ تم انتخاب اثنين من الفرسان عن كل مقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير فى ويستمنيستر ، بهدف تحديد المساعدة التى يجب أن ترسل للملك فى جاسكونى (٤)- إحدى الممتلكات الإنجليزية المتنازع عليها فى فرنسا – ومن أبرز الأمثلة فى عهد هنرى الثالث على هذه الاجتماعات التى شهدت حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة

---

(1) *Great charter of liberites* . 1215 in stubbs (ed.) select charters , pp.294 , 295 ; Warren, Op.Cit., pp.268, 269 .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مراحل الصراع بين الملك جون والبارونات انظر :
Annales londonienses, vol.I, P.16 ; William of Newburgh, *Historia Rerum Angligarum*, Vol.2, pp.217 , 218, Warren, Op.Cit., p.236 ;
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ – ٨٣ .

(3) *Writ for the summong of four knights of the shire A.D. 1226*, in Stubbs, Op.Cit., p.353 .

(4) *Writ of summons for two knights of the shire to Grantan Aid, A.D. 1254*, in stubbs, Op.Cit., pp.365 , 366 .

سواء فرسان المقاطعة ، أو البرجوازية ، وقد وصفت بالبرلمانات من جانب المؤرخين المعاصـــرين والمحدثين على حد سواء ، هذين الاجتماعيين اللذين دعى لعقدهما زعيم المعارضـــة البارونـــية ســـيمون مونـــتفورت Simon de Montfort أيرل ليسستر Leicester . الأول بعــد هزيمة القوات الملكية أمام الأيرل سيمون وقواته فى معركة لويـــس Lewes فـــى الثانى عشر من مايو ١٢٦٤م . والتى أسفرت عن وقوع الملك وولـــى عهـــده الأمـــير إدوارد فى الأسر . وفى محاولة من جانب الأيرل لكسب تأييد المملكـــة ، دعـــى لعقـــد اجتماع ضم بارونات المملكة ، وأربعة من الفرسان عن كل مقاطعـــة . أما الاجتماع الثانى والذى حدث بعد أن دب النزاع فى صفوف المعارضة البارونـــية الـــثائرة من خلال النزاع بين الأيرل سيمون ومونتفورت ، وريتشارد ايرل جوسســـيتر Cloucester وبهـــدف تدعيم مركزة وشرعيته قام سيمون بعقد اجتماعه الـــثانى فـــى أوائل عام ١٢٦٥ ، وهو الاجتماع الذى حاز شهرة واسعة من جانب عدد لـــيس بالقليل من المؤرخين المحدثين ، ففى هذا الاجتماع مثلت المدن لأول مرة بإيفاد اثنين عن كل مدينة .[1]

---

(١)جاء عقد هذين الاجتماعيين انعكاسا للأوضاع الداخلية فى عهد هنرى الثالث ، حيث تورط الملك فى نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملـــك على الدعوة لعقد اجتماع للمجلس الكبير فى اكسفورد عام ١٢٥٨ ، حيث قدم البارونات مطالـــبهم التى تجسدت فى إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضوا نصـــفهم مـــن الجانب الملكى والآخر من البارونات ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنوياً ، وتجديدهم سنوياً ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان – أى المجلس الكبير – للانعقاد ثلاث مرات فى العام على غرار ما كان يحدث فى عهد الفاتح . لينتهى ذلك بما عرف فى الـــتاريخ الإنجلـــيزى بشـــروط اكسفورد provisions of Oxford ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع اكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجرأة المطالب البارونية . وينتهى هذا الـــنزاع بهـــزيمة الجيش البارونى بعد فرار الأمير إدوارد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون فى معـــركة ايفشهام Evesham ، والاستسلام النهائى للبارونات عام ١٢٦٧. ولمزيد من التفاصيل انظر :

وتعلـيقاً على هذا الاجتماع الثانى للأيرل سيمون الذى شهد أول حضور نيابى عـن المـدن فأنه لم يكن أكثر من مجرد اجتماع ثورى للمعارضة البارونية ، فقد جاء انعكاسـا للأوضـاع السياسـية المـتردية أثناء حكم هنرى الثالث سواء فى الداخل أو الخـارج ، نتـيجة عدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى ، وإخفاق هنرى فى استعادة أراضـيه فى فرنسا . وفى ضوء هذه الأوضاع السياسية حيث المعارضة البارونية فى أوج ذروتهـا ، بعـد وقوع الملك وولى عهده فى الأسر غداة معركة لويس فى الثالث عشـر من مايو ١٢٦٤ ، وانتقال مقاليد الحكم إلى أيدى الأيرل سيمون ، إلى أن تمكن الأمـير إدوارد مـن فـك قيود أسره فى الثامن والعشرين من مايو ١٢٦٥ ، وتحقيق الانتصار الملكى فى معركة ايفشهام فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٢٦٥ . معنى ذلـك أن الملك وولى عهده قد بقيا فى الأسر لمدة تزيد على تسعة أشهر . وأن اجتماع الأيـرل الذى عقد فى العشرين من يناير ١٢٦٥ ، أى أثناء أسر الملك وولى عهده . قد اقتصر فى معظمه على فريق من البارونات الثائرين من مؤيدى الأيرل سيمون .

وفى ضوء الفكر السياسى للملكية الإنجليزية التى تقف بالمرصاد لأى محاولة قد تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة ، حتى فى الأوقات التى شهدت تردى هذه السـلطة ، فـإن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان فى القرنين الثالث عشر والـرابع عشر لم يكن الأمر أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، والذى بدأ يشـهد حضـور ممثليـن عن الطبقة المتوسطة حسب مشيئة التاج ، وبما يتفق وخدمة

Stubbs, Op. Cit., pp.369 – 389 ; *The chronicle of Bury st. Edmund's 1212-13* (London, 1964) pp.26-38 ; Matthew Paris, *English History from the year 1235 to 1273* (London, 1852) vol. I, p.194, Vol. III, PP.347 – 349 ; John Capgrave, *The chronicle of England* (London, 1858) pp.158-160 ;

أما المعلومات التى وردت فى المتن انظر :

Dietz, Op. Cit., p.84 ; Lunt, Op. Cit., p.215, Willson, Op. Cit., p.149 ; Vickers, Op. Cit., p.146 ; Stubbs, Op. Cit., pp.397 – 399 .

الأهـداف السياسية والمالية للتاج . ولم ينطبق ذلك بالطبع على اجتماع الأيرل سيمون مما يؤكد وجهة نظرنا بأنه لم يزد عن كونه اجتماع ثورى للمعارضة البارونية .

علـى أيـة حـال ، يمكـن تفسير رغبة التاج أثناء حكم هنرى الثالث بصدد حضـور نـواب عـن فرسان المقاطعة ، للحضور أمام المجلس الكبير للملك ، بأنها جـاءت مـثلما حـدث فـى الماضى استجابة لتحقيق أهداف إدارية ، والموافقة وليس التشـاور علـى الضـرائب المفروضة عليهم من قبل التاج ، ففى عام ١٢٥٤ – على سـبيل المـثال – كـان هنرى الثالث فى حاجة ماسة للمال لتغطية نفقات حملته على جاسـكونى . ومـن واقع تجاربه السيئة فى الحصول على أموال إضافية ، وبالأحرى مسـاعدات غـير إقطاعية ، رأى من الأفضل ضمان موافقة المقاطعات على ضريبة جديدة من خلال حضور ممثليهم من الفرسان . (١)

وفـى نهايـة حكم الملك هنرى الثالث أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة بهـدف الاجتماع مع الملك ومجلسه أمراً مسلماً به . بيد أن إرساء مبدأ التمثيل النيابى باعتـباره جزء ثابتا من السياسة الملكية يتضح بجلاء أثناء حكم الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) . فقـد اسـتهل فـترة حكمه بعقد أول برلمان عام – أو بعبارة أدق اجـتماع نـيابى للمجلس الكبير – فى الثانى والعشرين من أبريل عام ١٢٧٥م ، بهدف فـرض ضـريبة على الجلود الخام والصوف ، والذى يمثل الإنتاج الرئيسى للمملكة ، ومـن ثـم فقـد أصبح هدفا شهيا للضريبة أسالت لعاب ملوك إنجلترا منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ففى عام ١١٩٤ تم الاستيلاء على كميات كبيرة منه بهدف تمويل الفدية اللازمة لإطلاق سراح الملك ريتشارد الأول من الأسر الألمانى أثناء عودته من الحملة الصـليبية الثالـثة . ولـذا كـان طبيعياً دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة وخاصة التجار والمـدن التجارية " towns merchants " لحضور الاجتماع . بيد أن هذا الاجتماع لم تمثل فيه طبقة صغار رجال الدين .(٢)

(1) Stubbs, Select charters, p.365 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Vickers, Op.Cit., p.146 .

(2)Lunt, Op.Cit., p.216 ; Dietz, Op.Cit., Vickers, Op.Cit., p.63 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Stubbs, Op.Cit., pp.440 , 441 ;

أيضـــا شهد عهد إدوارد الأول عام ١٢٨٣ انعقاد ما اصطلح المؤرخون على تســميته باســم بــرلمان شيرســبورى Shrewsbury . والذى انقسم إلى اجتماعيين منفصـــلين ، وبيــنما بقى البارونات كما هم لمناقشة الموضوع الرئيس للاجتماع ممثلاً فى الحكم على ديفيد David أمير ويلز وإدانته ، أثر رجال الدين الانسحاب ، مبررين ذلـــك بـــأن مهـــامهم المقدسة لا تحتم عليهم المشاركة فى إراقة الدماء . فى حين ذهب ممـــثلى المـــدن إلى مدينة أكتون بيرنيل Acton Burnell لمناقشة قضايا التجارة .[1] ويعلـــق المـــؤرخ William Stubbs على ما يسمى برلمان شيرسبورى بقوله : " أن هـــذا الاجـــتماع يختلف عن البرلمان العادى فى ناحيتين هامتين ، أولاً أنه لم يتضمن ممثليـــن عـــن القساوسة أو حتى الأساقفة . وثانياً أن ممثلى المدن تم دعوتهم بمراسيم مســتقلة وليس من خلال حكام المقاطعات كما جرت العادة . وأن محاكمة ديفيد وأدانته كانـــت مـــن خـــلال البارونات فقط . وأن ما يعرف باسم قانون أكتون بيرنيل قد شرع وشـــن فى الواقع من خلال الملك ومجلسه . ومع ذلك فقد أطلقت كلمة برلمان على هذا الاجتماع "[٢].

وعلـــى مدى العشرين عاماً التالية لعام ١٢٥٧ لم يتخلى الملك إدوارد الأول عن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة لحضور الاجتماعات الكبرى للمجلس الكبير والتىعرفت بالـــبرلمان مـــن جانـــب المؤرخيـــن [٣]. مما يعنى أن تجربة الملك إدوارد الأول مع الاجتماعات النيابية للأمة الإنجليزية لم تكن وليدة الاجتماع الشهير عام ١٢٩٥ .

ولمزيد من التفاصيل انظر الوثيقتين التاليتين

Summons of knights and Burgesses, A. D. 1275 .
Grant of Custonn on wool, woolfells and leather A.D. 1275,

وهاتين الوثيقتين ورد ذكرها كاملتين بالنص اللاتينى عند :

Stubbs, Op.Cit., pp.441 – 444 .

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.456, 461 , 462 ; Powicke, *The thirteenth century 1216-1307* (Oxford , 1962) p.341, Tout, *An Advanced History of Great Britian* (London, 1912) p.191 ; Smith, Op.Cit., p.115 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.456 .

(3) Smith, Op.Cit., p.115, Tout, Op.Cit., p.191, Dietz, Op.Cit., p.88; Powicke, Op.Cit., p.341

وفــى عام ١٢٩٥ دعى إدوارد الأول لعقد واحد من أهم المجالس النيابية التى عقــدت حــتى الآن ، بصــورة لــم تشهدها إنجلترا من قبل ، والذى ذاع صيته باسم الــبرلمان الكبير أو البرلمان النموذجى Model Parliament . إذ بالإضافة لأعضاء المجلــس الكبير من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأساقفة ، البارونات ، تضمن ممثليــن عن الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة والمدن ، بمعدل اثنان من الفرسان عــن كــل مقاطعــة واثــنان عن كل مدينة ، علاوة على قساوسة الكنائس الكاتدرائية والأبروشــية ، بــيد أن هــؤلاء القساوسة سرعان ما توقفوا عن الحضور بعد ذلك ، واثروا منح الضرائب الخاصة بهم للتاج من خلال مجالسهم الكنسية ، وترك مصالحهم الكهنوتــية الأخــرى لكــبار رجال الدين من أعضاء المجلس الكبير . وبانسحابهم من حضــور الــبرلمانات التالية حرموا من أن يصبحوا عنصراً فعالا فى البرلمان والذى أصبح فيما بعد السلطة العليا فى المملكة .(1)

ويتضــح هــدف الملــك إدوارد الأول من عقد هذا الاجتماع فى ثنايا ديباجة المرســوم الملكــى للأعضاء الذين تم دعوتهم للحضور جاء فيه " للنظر والتعامل مع القضــايا الملحة والجوهرية لنا ومملكتهم ، وتقديم مشورتكم لنا . لأن ما يخص الجميع يجــب أن يكــون بموافقــة الجمــيع ، وأن الأخطار العامة يجب أن تكبح بالجـــهود المتحدة ."(٢)

فى ضوء ذلك يجب تفسير الأسباب الحقيقة لعقد هذا الاجتماع النيابى للمجلس الكبــير عــام ١٢٩٥م فــى ضوء ظروف عصر الملك إدوارد الأول على المستويين الداخلــى والخــارجى . فعلــى المستوى الداخلى شهد عهد إدوارد الأول اتساع نطاق النشــاط التجارى ، وحركة البيع والشراء فى كل ميناء ، وازدهار التبادل التجارى مع المــناطق المجــاورة ، فــى الوقــت الذى تزايدت فيه أعباء الإدارة الملكية ، وازدياد

---

(1) Annales londonienses, Vol. I, p.85; *The chronicle of Bury St. Edmunds*, p.129 ; Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, p.140; Stubbs, select charter, pp.477, 478, Hume, op.Cit, p.146 ; Smith, op.Cit, p.117 ; Dietz, op.Cit, p.89 ,

(2) Smith, Op.Cit., p.117 ; Dietz, Op.Cit., p.89 ; Tout, op.Cit, p.191 ; Hume, op.Cit, p.116, Hall & Albion, op.Cit, p.152.

المطالـــبة بتوفـــير سبل العدل والأمن بين الناس ، اقتضى ذلك بطبيعة الحال ضرورة إيجـــاد مـــنافذ جديدة للتمويل . وبنظرة ثاقبة رأى الملك أن أفضل السبل للحصول على الإيـــراد القومى اللازم لتغطية الأعباء العامة للإدارة الملكية تتمثل فى الدعوة لعقد هذا الاجـــتماع . لا ســـيما وأنـــه لا يستطيع أمام هذه المطالب المتزايدة أن يعتمد فقط على مـــوارده الإقطاعية من الضرائب الإقطاعية المنتظمة وغير المنتظمة ، وأموال ضريبة الاســـكوتاج Scutage ، أو موارده من الضياع الملكية ، والإيرادات الملكية الموروثة. ومن ثم فقد ساهمت الأموال الناجمة عن المكوس الجمركية فى تلبية بعض الاحتياجات الملكـــية ، مثلما حدث عام ١٢٧٥ عند وافق البرلمان – على حد تعبير المعاصرين – علـــى منح إدوارد الأول كجزء من إيراد ثابت ومنتظم الأموال الناجمة عن الضرائب التى تقرر فرضها على تصدير الصوف والجلود الخام ، تجمع من كل موانئ التصدير فـــى إنجلترا ، ويلز ، وايرلندا لصالح الملك [١]. أيضا فرضت ضرائب على الاستيراد بمعدل اثنين شلن عن كل برميل ضخم من النبيذ الأجنبى ، وجنيه واحد على كل سلعة يـــتم استيرادها . وعرفت هذه الضرائب أو الرسوم الجمركية باسم "Tunnage and Poundage" أى الضريبة النسبية التى تحصل على كل جنيه أو سلعة .[٢]

عـــلاوة علـــى ذلك فقد تلقى إدوارد الأول من خلال هذا المجلس النيابى تسع مـــنح مالـــية ، على فترات متقطعة بلغت قيمتها الإجمالية ما يعادل أربعمائة وخمسون ألـــف جنـــيه إسترلينى ، وجاءت هذه المنح كما يقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Coldwin Smith على شكل ضرائب مباشرة مشابهة لعشور صلاح الدين .[٣]

معنى ذلك أن الإيراد الملكى من الدخل الإقطاعى لم يعد كافيا فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ والصوف أضعاف ما يدخل خزانة البارون من

---

(1) *The chronicle of Bury st Edumund*, p.129 ; Stubbs, *select charters*, pp.440-444 ; Smith, op.Cit, pp.114, 115 , Dietz, op.Cit, p.89 .
(2) Smith, Op.Cit., p.115, Hall & Albion, Op.Cit., p.151 .
(3) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit, p. 116.

الإيجــارات الإقطاعــية ، وبالتالى فإن الثراء الذى يتمتع به التجار والطبقة المتوسطة عامة أصبح يمثل إغراء شديد للتاج المثقل بالأعباء المالية .(١)

وعلــى المســتوى الخــارجى كان إدوارد الأول منغمساً فى حرب طويلة مع فرنســا ، العــدو اللــدود للملكية الإنجليزية منذ الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، وأيضا الحــرب مع اسكتلندا ، وويلز ، بهدف توحيد الجزر البريطانية كلها فى مملكة واحدة ، علاوة على سلسلة من الأزمات التى عرضت سلام واستقرار المملكة للخطر . (٢)

ولأمــراء أن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة من الفرسان والبرجوازية لحضور هذا الاجتماع ، إنما جاءت بهدف تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج ، لتغطية نفقات الحــرب مع فرنسا ، والتهديد الإسكتلندى من الشمال ، والحرب مع ويلز ، أى لمجرد الموافقــة على الضرائب المقترحة من جانب الملك . مثلما حدث فى جميع الاجتماعات الــتى شــهدت حضور ممثلى هذه الطبقة على مدى الفترة من ١٢٧٥ – ١٢٩٠ ، فقد

---

(1) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit., p.116 ; Lunt, Op.Cit., p.217 ; Feiling , *A Hist. of England : from the coming of the English to 1938* (London, 1948) p.181 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يعلق المؤرخ الإنجليزى William Stubbs على الأخطار التى جابهت الملكية عام ١٠٩٥ بقوله : " بأنــه بــات واضحاً أمام تفاقم هذه الأخطار أن الملك لم يكن قادراً حتى شهر يونيه من عام ١٠٩٥ علــى أتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد اجتماع نيابى أى البرلمان ، ولذا فقد أعلن مرسوماً ملكــياً بدعــوة أعضاء المجلس الكبير من رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، رؤساء المؤسســات الدينــية ، الأيرلات ، البارونات ، والقضاة لحضور اجتماع المجلس فى الأول من أغســطس ١٢٩٥ فى ويستمنستر ، بهدف مناقشة المقترحات الخاصة بالوساطة مع فرنسا ، من خــلال اثنيــن من مبعوثى البابا ، مفوضان بسلطة عقد الهدنة . وبالرغم من أن هذا الاجتماع لم يشهد حضور ممثلين عن العموم أى الطبقة المتوسطة ، لم يخرج عن كونه اجتماع للمجلس الكبير ، فقد صنف فى سجلات البرلمان باعتباره برلمان " الأمر الذى يؤكد صحة استنتاجاتنا عن ماهية بــرلمانات هــذه الفترة . وتجدر الإشارة أن البرلمان النموذجى قد عقد فى شهر نوفمبر من عام ١٢٩٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.477, 478 ; John Capgrave, Op.Cit., pp.170 – 172 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Tout, Op.Cit., p.192 ; Smith, Op.Cit.. p.117

أسـفر مـا اصـطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان النموذجى بعد مناقشة الطبقات الـثلاث كل على حدة من البارونات ، كبار رجال الدين ، الطبقة المتوسطة ، اشتراك كل من الفرسان والبارونات فى دفع ضريبة بنسبة ١١/١ من ممتلكاتهم ، والبرجوازية نسـبة السـبع ، ورجـال الديـن العشر ، ومن الجدير بالذكر أن فرسان المقاطعة منذ تمثـيلهم فـى المجلس الكبير – البرلمان فيما بعد – وهم يعملون بالاشتراك مع أقرانهم من ملاك الأراضى أى البارونات . لأن مجلس العموم الذى تكون فى القرن التالى من الفرسـان والـبرجوازية لم يكن قد ظهر بعد . وعن مغزى اندماج هاتين الطبقتين أى الفرسان والبرجوازية ، كانت الأخيرة تمثل طبقة اجتماعية جديدة على درجة عالية من الـثراء ، ولكـن ينقصها المكانة والهيبة اللازمة لتكوين مكانة سياسية مستقلة وفعالة ، فـى حين كان فرسان المقاطعة من نفس النسيج الاجتماعى لبارونات المجلس الكبير . وانضـمامهم الـنهائى مع ممثلى المدن أعطى لهاتين الطبقتين المكانة والتأثير السياسى الفعال ، الذى لم يكن من المستطاع تحقيقه بأية طريقة أخرى . وفى عهد إدوارد الأول لم تكن ملامح هذا الانضمام قد اتضحت بعد .[١]

لا مـراء أنه باستثناء تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج لم يسفر الاجتماع الكبـير عـام ١٢٩٥م عن اتخاذ أى أجراء حاسم ، لأن إدوارد الأول لم يعتزم بدعوته لهـذا الإجـتماع إرسـاء تقلـيد سياسـى دائم ، أو منحه سلطة حقيقة فيما عدا توفير الاعـتمادات المالـية للتاج ، وأن يكون ذلك بموافقة جميع رعاياه . علاوة على ذلك لم يصـبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة تقليداً دائما فى الاجتماعات النيابية التالية ؛ إذ نجـد حوالى اثنا عشر اجتماعا من الاجتماعات النيابية العشرين والتى عقدت بعد عام

---

(١) فى ضوء المراسيم الخاصة بالبرلمان النموذجى ، تم توجيه خطابات مباشرة من الملك لدعوة كل من رؤساء أسقفيتى كانتر برى ويورك ، ومقدم الاسبتارية ، واثنان وأربعون من رؤساء الأديرة ، والأسـاقفة ، وأحد عشر أيرل ، وثلاثة وخمسون من البارونات ، كبير القضاة ، ثمانى وثلاثون قاضيا ، وآخرون من القضاة الجوالين ، وأعضاء وموظفى المجلس لمزيد من التفاصيل عن وثائق هذا الاجتماع انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.479 – 482 ; smith, Op.Cit., p.117 ; Lunt, Op.Cit., p.216, Hall and Albion, Op.Cit., pp.153, 154 .

١٢٩٥ لـم تشهد حضور ممثلين عن المقاطعات أو المدن . وثلاث فقط هى التى حذت نمـوذج اجـتماع ١٢٩٥ . وعلـى حـد تعبير المؤرخ سميث كان الاجتماع الكبير أو الـبرلمان الـنموذجى بمثابة خطوة على مسار طويل من الإجراءات والممارسات التى أرست تدريجيا مبدأ ضرورة وأهمية مشاورة الطبقة المتوسطة فى البرلمان . (١)

وتعلـيقا على نعت الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥ باسم البرلمان النموذجى يقول المؤرخ الإنجليزى المعاصر لونت Lunt " أن اصطلاح البرلمان النموذجى يعد تعبيراً مضـللاً بعـض الشئ ، لأنه لم يصبح نموذجاً دائما تحتذى به جميع المجالس النيابية الكبرى التى عقدت فيما بعد . لأنه لم يتضمن حضور تلك الفئة من صغار رجال الدين مـن قساوسـة الكنائس الأبروشية أو الكاتدرائية ، الذين توقفوا عن الحضور بعد هذا الـبرلمان ، وآثـروا مـنح الضرائب الخاصة بهم من خلال مجامعهم الكنسية ، وترك الـتعامل بصـدد مصـالحهم الكنسية الأخرى لكبار رجال الدين من أعضاء المجـلس الكبير . "(٢)

ويضيف المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson مؤكداً ذلك بقوله : " بأنـه لـيس ثمـة شـئ نموذجى فى هذا البرلمان باستثناء أنه ضم ممثلين عن جميع الطبقات التى ظهرت فى البرلمانات التالية فى العصور الوسطى . "(٣) وفى ضوء هذه الدراسة فإننا نتفق مع هذين المؤرخين .

وعـن طبيعة دور الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت فى عهد إدوارد الأول ، نـرى أن سـلطة ومجال عملى ممثلى هذه الطبقة جاءت محددة وهامشية وفى أضـيق الحدود . فمن خلال اجتماع الأعضاء جميعا فى قاعة واحدة ، يقف ممثلى هذه الطبقة فى مؤخرة القاعة مجرد مستمعين ، مغالاة فى إبداء الاحترام والتقدير . حيـث يتشاور الملك معهم بصدد الضرائب المقترحة فقط ، والوقف على حالة الرأى العام فى المـناطق المحلـية ، وأحـيانا بصدد القوانين التى ينبغى إعدادها . ثم انصرافهم بعد

---

(1) Smith, Op.Cit., p.118 ; Dietz, Op.Cit., p.89 .
(2) Lunt, Op.Cit., p.216 .
(3) Willson, Op.Cit., p.149 . حاشية رقم (٥)

تسجيل موافقتهم على الضرائب المطلوبة منهم ، باعتبار ذلك الهدف الرئيسى لحضورهم ، تاركين الملك ومجلسه لقبول نصيحتهم أو رفضها . بينما البرلمان مستمر فى الانعقاد بعد ذهابهم . وقد يبدأ المجلس فى العمل قبل حضورهم ، ولا سيما وأن حضورهم لم يكن مفروضاً عليهم من الناحية القانونية ، لأنهم خارج شريحة التبعية الإقطاعية للملك . بيد أن الشئ الوحيد الذى كان باستطاعة ممثلى الطبقة المتوسطة القيام به يتمثل فى تقديم الالتماسات أو الشكاوى للملك سواء كانت شخصية أو جماعية. ومن خلال هذا المنفذ استطاعوا تدريجيا المشاركة فى العمل التشريعى . (١)

وتقدم الالتماسات للملك بدون مساندة كبار البارونات فى المجلس كما جرت العادة ، للبت فى شكاوى عامة أو فردية ، وإذا حظى الالتماس بموافقة الملك يتم إعداد وصياغة القانون الذى يستمد بنوده من مضمون الالتماس . (٢)

---

(1) Smith, Op.Cit., p.150 ; Powiche, Op.Cit., pp.344, 345 ; Green , Op.Cit., p.166 .

ولمزيد من التفاصيل عن ماهية الالتماسات المقدمة من جانب ممثلى الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت على مدى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Haskins, " The petitions of Representatives in the Parliaments of Edward I" in *E. H. R*, Vol. L III, No, CCIX – January 1938, pp.1 –20 .

(٢) يذكر المؤرخ Haskins أن الشكاوى المقدمة من النواب فى المجلس الكبير كانت تقدم باسم أى شخص من السبعة وثلاثين مقاطعة التى اعتادت إرسال ممثلين عنها إلى البرلمان فى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ ، وأيضا باسم أى من المدن المائة وخمسة وستون المعروفة بإرسال ممثلين عنها أثناء هذه الحقبة . وأيضا باسم الأفراد ، ولا سيما وأن هناك مرسوما ملكيا أعلن فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٢٨٩ يحث كل من لديه شكوى ضد وزراء ونواب الملك يجب أن يتقدم بها . وبالفعل تم تشكيل لجنة لسماع هذه الشكاوى التى كانت فى معظمها موجهة ضد موظفى الملك . وقدمت الشكاوى من جميع الطبقات الممثلة فى المجلس الكبير ، البارونات ، الفرسان ، البرجوازية ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، المؤسسات الدينية ، ويقدر المؤرخ عدد الشكاوى التى قدمت على مدى الفترة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر بحوالى عشرين ألف . وقد تراوحت بين الأذن بإقامة سوق أو منح أرض ، مناصب ، حق التصويت ، عدم دفع ديون أو أجور الخ ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Haskins, Op.Cit., PP.7 , 8 ; Smith, Op.Cit., P.118, Willson, Op.Cit., P.150 .

وفـــى ضوء ذلك أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير – الـــبرلمان فيما بعد – أمراً لا مندوحة عنه ، ففى هذا العصر الذى شهد سوء الطرق ، وانعـــدام وسائل الاتصال السريع ، لا يستطيع الملك الوقوف على حالة الرأى العام فى المقاطعـــات بـــدون حضـــور ممثلى هذه الطبقة . ومن هنا تبدو أهمية المعلومات التى تســـديها، علاوة على أن حضور ممثلين عن جميع مناطق المملكة فى اجتماع عام لابد وأن يكـــون فرصة سانحة تجعل الأمر برمته رهن إشارة الملك ، والذى يتعذر تحقيقه بأية وسيلة أخرى . (١)

وإذا كـــان الهـــدف الأساســـى للـــتاج من دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضور اجتماع المجلس الكبير للملك يتمثل فى الموافقة على الضرائب المقترحة ، إلا أن المطالـــب المالية للتاج لم تلق دوماً الاستجابة من رعاياه ، فقد حدث بعد عامين من الاجـــتماع الشـــهير عام ١٢٩٥ حادثة على جانب كبير من الأهمية فى مسيرة التطور الـــبرلمانى فيما بعد . ففى عام ١٢٩٧ كان الملك إدوارد الأول فى حاجة ماسة لتمويل حملاتـــه العسكرية المعتادة فى فرنسا واسكتلندا . وعندما طالب بفرض ضرائب باهظة ســـرعان مـــا اصـــطدم بصـــخرة المعارضة البارونية . وفى الاجتماع الذى عقد فى ســـالزبورى وكالعـــادة وصف بالبرلمان من جانب المؤرخين ، تراءت مشاهد رد فعل عنـــيف مـــن قـــبل مجموعة بارونية تحدث الأوامر الملكية بصدد المشاركة فى الحملة العســـكرية فـــى جاسكونى وفلاندرز ، وأبدى العديد من البارونات استياءهم للضرائب المتتالية التى فرضت عليهم ، ورفض رجال الدين بناءاً على أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ – ١٣٠٣) دفـــع أيـــة ضرائب بدون إذن البابوية . أيضا شهد هذا الاجتماع استياء التجار للابنزازات الملكية المجحفة على تصديرهم للصوف ، حيـــث قدرت الضريبة المفروضة بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف ، والتى تعادل ثلث القيمة . (١)

---

(1) Lunt, Op.Cit., P.218 .

(1) *The chronicle of Bury St Edmunds*, p.138 ; Stubbs, *The constitution Hist, of England*, Vol. II, pp.160 , 161 ; Select charters, PP.482, 483 ; tout, Op.Cit., P.193 ; Smith, Op.Cit., p.119 ; Ashely, *Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) P.124 .

وأثـــناء غياب إدوارد الأول فى القارة قام – البرلمان – بإعادة إعلان الماجنا كارتـــا ، والامتـــيازات والحـــريات التى سبق وتعهد بها أسلافه ، وضرورة مراعاتها بـــدون أدنـــى انتهاك لأى من بنودها . واضطر الملك فى نوفمبر عام ١٢٩٨ للموافقة علـــى ما يعرف باسم إقرار العهد Confirmatio cartarum . والذى نص فى الفقرة السادســـة منه على " يتعهد الملك من الآن فصاعداً بعدم فرض أى إعانات أو ضرائب أو هـــبات إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، وللصالح العام للمملكة فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة " (٢)

---

(٢)يتضمن المرسوم الملكى الخاص بإقرار العهد سبع بنود هى كالتالى :

أولاً : إدوارد ، بمباركة الرب ، ملك إنجلترا ، وسيد أيرلندا ، ودوق اكوتين ، إلى جميع الذين سوف يســـمعون أو يـــرون هذا المرسوم ، التحيات ، أنكم تعلمون أننا بمباركة الرب والكنيسة المقدسة ، ولصـــالح جميع مملكتنا ، منحنا من أجلنا وأجل ورثتنا هذا العهد الأعظم للحريات ، وقانون الغابة charter of the forest ، اللتيـــن تـــم منحهما بالموافقة العامة لجميع المملكة فى عهد أبانا الملك هنرى . هذه العهود يجب أن تراعى فى كل بنودها بدون انتهاك ، وسوف نرسل هذه العهود موقعة بختمنا إلى قضاتنا ، وجميع حكام مقاطعاتنا ، وسائر نوابنا ، وكافة مدننا فى جميع أنحاء المملكة مع مراسيمنا التى تتضمن ذلك ، لكى يقوموا بإعلانها ، وأن يعلنوا للشعب أنه سوف يتم مراعاتها من جميع النواحى . وأن قضاتنا وحكام المقاطعات والموظفون ، والذين يقع على عاتقهم إدارة القانون فـــى مملكتنا سوف يضعوا هذه القوانين المذكورة نصب أعينهم فى الدفاع وإصدار الأحكام . ومن البديهى أن يكون كل من العهد الأعظم باعتباره القانون العام ، وقانون الغابة لصالح شعبنا .

ثانياً : أننا نتعهد إذا صدر أى حكم من الآن فصاعداً ، مخالفا لبنود العهود المذكورة ، من قبل قضاتنا أو أى شخص آخر من وزرائنا ، سوف يتم محاكمتهم بمقتضى بنود العهود السالفة ، وحينئذ يفقد منصبه وحيازته .

ثالثاً : سوف نقوم بإرسال هذه العهود الموقعة بختمنا لإيداعها فى الكنائس الكاتدرائية فى جميع أنحاء مملكتنا ، على أن تقرأ أمام الشعب مرتين فى العام .

رابعـــاً : يجـــب أن يعلن رؤساء الأساقفة والأساقفة عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع الذين يتسببون بـــالقول والفعل والمشورة ، فى انتهاك أو تجاوز أى من بنود العهود المشار إليها . وأن تعلن هذه العقوبـــات مرتيـــن فى العام ، وتذاع من خلال الكهنة المشار إليهم . وإذا حدث أن تهاون أى من رجال الدين هؤلاء فى الإدانة بالعقوبات السالفة ، حينئذ يكون رؤساء أساقفة كانتر برى ويورك – كما جرت العادة – هما الملائمين لتوجيه اللوم لهؤلاء ، وإرغامهم على الإذعان للإدانة .

وبالـــرغم من أن إدوارد الأول لم يراع تماما ما وعد به ، إلا أن أهمية أحداث عـــام ١٢٩٧ – فـــى ضوء المرسوم السابق – تؤكد بجلاء أنه تقرر من الآن فصاعدا عـــدم الموافقـــة علـــى مـــنح أيـــة ضـــرائب غير إقطاعية بدون موافقة ممثلى الطبقة المتوســـطة. وبالتالى تأكيد دعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور اجتماعات المجلس الكبير للملـــك . وفـــى ضـــوء الـــثراء المالى لهذه الطبقة أصبحت موافقة ممثليها على منح الضـــرائب المفروضـــة عليهم من قبل الملك ، سلاحا يستخدم مقابل انتزاع الامتيازات والســـلطات المرغوبة من الملك . بيد أن دلائل ذلك لم تتضح فى عهد إدوارد الأول ،

خامســـاً : نظـــراً لخـــوف الكثيرين من شعبنا من الضرائب والإعانات التى كانت تقدم من أجلنا فى الماضى بشأن حروبنا والقضايا الأخرى . ويؤدونها عن طيب خاطر ، قد أصبحت عبئاً عليهم وعلى ورثتهم ، كما هو موجود فى السجلات . وعلى نفس النمط فإن الضرائب التى تؤخذ فى جميع أنحاء المملكـــة مـــن خـــلال وزرائنا ، ومنحت من أجلنا نحن وورثتنا ، ومن ثم فإننا سوف لا نجعل هذه الضـــرائب والإعانات تتحول إلى تقليد يحاكى أى شئ أتخذ فى الماضى ، وربما وجد فى السجل أو بأى أسلوب آخر .

سادساً : إضافة إلى ذلك فإننا نوافق باسمنا واسم ورثتنا ، أيضا لرؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ،وسائر رجال الكنيسة المقدسة ، وأيضا الأيرلات ، البارونات ، وجميع طوائف المملكة ، بأنه مـــن الآن فصاعدا سوف لا نتبع هذا الأسلوب فى الضرائب فى مملكتنا ، إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، ومن أجل الصالح العام للمملكة ، فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة

سابعاً : حدث كثيراً أن معظم طوائف المملكة وجدوا أنفسهم يئنون من وطأة المكوس على الصوف ، لـــذا يـــبدو بديهيا فى ضوء ضريبة تقدر بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف أن يلتمسوا إلينا للتحرر من ذلك ، وإننا استجابة لالتماسهم سوف نحررهم من ذلك ، ونتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلاً ، أو أى شئ آخر بدون موافقتهم العامة ، وبإرادتهم ، فيما عدا ما كان يمنح لنا ورثتنا من مكوس على الصـــوف والجلود من قبل . ونصدق على ذلك من خلال خطاباتنا . وتم منح وإقرار ذلك فى chent فـــى الـــيوم الخامس من نوفمبر فى العام الخامس والعشرين من ولايتنا . هذا وقد اعتمدنا هنا على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتينى كما ورد ذكرهما عند المؤرخ :

Stubbs, Select charters, p.490 – 493 ; *The chronicle of Bury St Edmunds*, pp.138, 139.

لتشـــهد القـــرون التالية إصرار الملكية الإنجليزية على ما هو أكثر من الدخل العادى ، وتطلع البرلمان لما هو أكثر من صلاحياته العادية .(١)

بـــيد أن عـــدم مراعاة إدوارد الأول لمرسوم عام ١٢٩٧ (٢)، يجب تفسيره فى ضـــوء الوضع السياسى للملكية الإنجليزية من جهة ، والعلاقات بين الملكية الإنجليزية والـــبابوية فـــى العقد الأخير من حكم إدوارد الأول من جهة أخرى . فقد انغمس الملك فـــى رحـــى الحـــرب مع الملك الفرنسى فيليب الرابع بسبب الممتلكات الإنجليزية فى فرنســـا ، والمتاعـــب الـــناجمة عن العرش الاسكتلندى بعد عام ١٢٩٠ ، وحث البابا بونـــيفاس الثامـــن الملكيـــن المتنازعيـــن علـــى قبول وساطته ، من منطلق أيدلوجيته بضرورة سمو السلطة الروحية على السلطة الدنيوية ، فى صيغة مشددة لم تستخدم من قـــبل أى بابـــا آخر منذ بابوية انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) . ورفض الملكين قـــبول وســـاطته . وفـــى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٩٦ أعلن البابا بونيفاس الثامـــن مرســـومة الشهير clericis laicos ، الذى نص على منع رجال الدين فى أى مكـــان مـــن دفـــع أى ضرائب عن إيراداتهم الكنسية للحكام العلمانيين بدون موافـــقة البابوية (٣)

وصـــادف هـــذا التحريم البابوى ترحيباً من رجال الدين الإنجليز الذين يئنون آنذاك تحت وطأة الضرائب المتتالية على مدى السنوات الثلاث الماضية . وتحت قيادة رئـــيس أســـاقفة كانـــتر برى الذى أعلن للملك استحالة تجاهل الأمر البابوى ، رفضوا

---

(1) Smith, Op.Cit., pp.119, 120 ; Lunt, Op.Cit., p.219 .

(٢) من الجدير بالذكر أن إدوارد الأول قد حنث بهذا المرسوم أكثر من مرة . لذا فقد تم أقرار التأكيد النهائى على هذا المرسوم فى البرلمان الذى عقد فى لنكولن Lincoln فى الرابع عشر من فبراير عام ١٣٠١ . لمزيد من التفاصيل أنظر :

The chronicle of Bury St. Edmunds, pp.140, 141 ; Stubbs, Select charters, pp.490, 495; The Constitutional Hist of England, Vol. II, p.163

(3) John Capgrave, Op.Cit, pp.170, 171 ; Stubbs, Select, Charters, p.483 ; Smith, Op.Cit., p.121, Powicke, Op.Cit., p.320 .

ولمزيد من التفاصيل حول مشكلة العرش الاسكتلندى انظر :

Capgrave, Op.Cit., p. 171 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية رقم (٣)

الإذعـــان للمطالب الملكية بدفع نسبة الخمس من إيراداتهم استنادا للمرسوم البابوى عام ١٢٩٦ . وأعلـــنوا أنهـــم يديـــنون بالطاعة للسلطتين الملكية والبابوية ، ولكنهم يدينون بالطاعـــة أكـــثر للسلطة الروحية . وفى فرنسا منع الملك الفرنسى فيليب الرابع خروج الأموال من المملكة بدون الموافقة الملكية . وفى إنجلترا اعتبر إدوارد الأول معارضيه مـــن رجال الدين مارقين عن القانون ، ووضعهم خارج حماية المحاكم الملكية والقانون العلمـــانى . ممـــا اضـــطر معظم رجال الدين للإذعان للملك بدفع ضريبة الخمس التى ســـبق أن طالب بها . فى حين تمت مصادرة أموال الذين رفضوا دفع هذه الضريبة . واضـــطر الـــبابا بونـــيفاس الثامن بتأثير معارضة ملكى فرنسا وإنجلترا للتراجع عن مرسومه المتشدد ، بتعديل بنوده ، حين سمح لرجال الدين بتقديم الهبات للملك بدلاً من الضـــرائب . بل وإلغاء مرسوم عام ١٢٩٦ تماما فى غضون عام تقريبا . وأسفر هذا الـــنزاع بيـــن رجـــال الدين والملك بصدد الضرائب الملكية ، عن انضمام رجال الدين لجانـــب المعارضـــة البارونية فى الصراع من أجل تأكيد القوانين ، لينتهى النزاع بين الملـــك ومعارضـــيه بالانتصار التام للملك والبابوية ، حين أعلن للبابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٣) فـــور ارتقائه الكرسى الرسولى تبرئة إدوارد الأول مـــن القســـم الـــذى اتخـــذه بشـــأن إقـــرار القوانيـــن عام ١٢٩٧ ، وإعفاء وينشيلسى Winchelsey رئيس أساقفة كانتر برى من منصبه باعتباره مسئولا بدرجة كبيرة عن إثـــارة المعارضة الكهنوتية والبارونية ضد الملك عام ١٢٩٧ . وأمر البابا رجال الدين الإنجلـــيز بـــأن يدفعـــوا للملـــك ضريبة بنسبة العشر لمدة سبع سنوات . وتعبيراً عن الامتـــنان سمح إدوارد الأول للبابا بفرض ضريبة جديدة على رجال الدين الإنجليز فى الجـــزر البريطانـــية لمـــدة ثـــلاث سنوات ، ليجد رجال الدين أنفسهم بين شقى رحى الاحتياجات المالية للبابوية والملكية . (١)

(1) *The Chronicle of Bury St. Edmunds*, pp.151-154 ; Stubbs, *The constitution Hist. of England*, Vol. II, pp.165-166 ; *Select charters*, p.489 ; Smith, Op.Cit.. p.122. Lunt, Op.Cit., p.221 ; Feiling, Op.Cit., pp.183, 184 .

ويـأبى عهـد إدوارد الأول أن يأذن بالمغيب قبل أن يشهد إزاحة الستار عن ارتفـاع صـيحة العـداء الشعبى من جانب العلمانيين والكنسيين على السياسة المالية للبابوية . وفى الاجتماع الذى عقد عام ١٣٠٧، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته باسـم بـرلمان كارسـيل Carsile . ناشـد المجـتمعون مـن البارونات والفرسان والـبرجوازية الملك لوضع نهاية للتجاوزات المالية للبابوية ، ومنع الجابى البابوى وليم تيسـتا William Testa ، الـذى اسـتدعى للمثول أمام المجتمعين ، من جباية أى ضـرائب أخرى يأمر بها البابا . وبعد انتهاء هذا البرلمان قام الملك من منطلق التزامه باتفاقـه السـابق مع البابا كليمنت الخامس بإلغاء قرار المجتمعين بصدد منع الضريبة الـتى فرضت من قبل هذا البابا، وموافقة الملك على فرض ضريبة جديدة على رجال الديـن فـى الجـزر البريطانـية . والـتى عرفـت باسم Annates أى الملحقات أو الإضافات، وساند بشدة قرار المجتمعين من البارونات والايرلات ورجال الدين وسائر طوائـف المملكـة ، وبشأن عدم جباية أى أموال أخرى لم تكن تؤدى فى الماضى إلى روما . (١)

لا مراء أن هذا القرار كان له أكبر الأثر فى وقف الابتزازات المالية البابوية، الـتى استمرت بدون انقطاع لمدة تربو عن نصف قرن ، لذا يعتبر علامة بارزة ونقطة تحـول مهمـة فى تطور المعارضة الشعبية الإنجليزية تجاه السياسة المالية للبابوية ، وبدايـة لسلسلة من القوانين الهامة المضادة للبابوية ، التى شرعت بواسطة – البرلمان – أثـناء القرن الرابع عشر ، هذا القرن الذى شهد نهاية الزعامة البابوية فى العصور الوسـطى ، حيـث اتخـذ البابا مأواه فى أفينون Avignon بفرنسا لفترة امتدت زهاء سبعون عاماً فيما اصطلح على تسميته الأسر البابوى . (٢)

---

(1) Stubbs, *The Constitutional His. of England,* Vol. II, p.170 ; Smith, Op.Cit., p.122 ; Lunt, Op.Cit., P.222 ;

ولمزيد من التفاصيل عن هذا البرلمان انظر الدراسة التحليلية التى قام بها كل من :

Richardson & Sayles " The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in *E. H. R.*, Vol. LIII, 1938, PP.425-437 .

(2) Smith, Op.Cit., p.122, Lunt, Op.Cit., p.222 ; Green, Op.Cit., p.166 ; Asheley, Op.Cit., p.125 .

وفـــى نهايـــة هذا العرض للغوص فى أعماق جذور فكرة البرلمان الإنجليزى مـــنذ الـــتاريخ الـــباكر للملكـــية الأنجلونورمانـــية حتى الاجتماع الكبير أو ما اصطلح المؤرخـــون علـــى تسميته باسم البرلمان النموذجى عام ١٢٩٥ . على مدى هذه الفترة الـــتى شـــهدت إرساء اللبنة الأولى فى تكوين البرلمان الإنجليزى ، نقول أنه فى ضوء الفكـــر السياســـى للملكـــية الإنجلـــيزية ، فإن فكرة دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضـــور اجتماع المجلس الكبير للملك جاءت ملائمة لخدمة المصالح الملكية أكثر من الـــرعايا . فقد وجد النواب أنفسهم يتكبدون رحلات مضنية وباهظة التكاليف لحضور اجـــتماع الملـــك فى قصر ويستمنيستر . فقد قدرت نفقات تمويل رحلة ممثلى الفرسان والـــبرجوازية ، بما يعادل اثنين شلن يوميا للنائب عن المدينة ، وأربعة شلن للفارس . ومـــن ثم ليس ثمة غرابة أن تبذل المدن محاولات يائسة للتخلص من عبء الحضور ، فـــى عصـــر شهد سوء وسائل المواصلات سواء كانت برية أو نهرية أو بحرية ، فقد أصـــرت بعض المدن على عدم إبلاغ حاكم المقاطعة بأسماء مرشحيها ، وقام البعض الآخـــر بشراء قوانين للإعفاء من هذا الامتياز المضنى . مما يعنى أن حضور ممثلى المـــدن كـــان يشكل عبئا ثقيلاً عليهم وعلى المدن التى أرسلتهم . علاوة على ذلك فإن مســـألة اختـــيار ممثلى هذه الطبقة والتى تتم فى محكمة المقاطعة ، إنما تقع على عاتق حكـــام المقاطعـــات ، الذيـــن يحسمون الانتخاب عادة لصالح مرشحيهم . فى حين لم تشـــارك جمـــوع الســـكان ســـوى بدور ضئيل فى اختيار مرشحيها من خلال قلة من الشخصيات البارزة المفوضين لهذا الغرض .[1]

ويذكـــر المـــؤرخ ريتشـــارد جرين Richard Green أن منح ممثلى المدن للضـــرائب فـــى المجلـــس الكبير – البرلمان فيما بعد – أثبت دوماً أنه أكثر فائدة من الابـــتزازات الســـابقة لمندوبى الخزانة ، وإذا ما أنست المدن فى نفسها قوة وأظهرت تـــردداً فـــى مســـاندتها العامـــة للتاج ، كان الملك لهم بالمرصاد ، إذ كان من السهل الســـيطرة عليهم ، لا سيما وأن اختيار المدن التى تمثل فى المجلس بقى كلية فى أيدى الملـــك ، ومن ثم فإن إعداد ممثلى المدن من الممكن أن تزداد أو تتضاءل حسب مشيئة

---

(1) Green, Op.Cit., P.166 .

الملك . الذى يترك تحديد ذلك لحاكم المقاطعة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أنه بإيعاز مـن المجلس الملكى قام حاكم مقاطعة Willts بتخفيض عدد ممثلى المدن الواقعة فى مقاطعـته من أحد عشر إلى ثلاثة فقط . بيد أن هذه الممارسة لم تستطع عرقلة امتياز التمثـيل النيابى للطبقة المتوسطة وتحديداً المدن فى المجلس الكبير ، فى ضوء حرص بعض المدن على الاحتفاظ بهذا الحق . (١)

ونظـراً للاحتـياجات المالـية الملحـة للتاج بدت الإجراءات القانونية أمراً ضـروريا لضمان حضورهم فقد ورد فى أحد المراسيم " أن تقدم ثمانية ثيران وأربعة جياد مدربة أمام الملك فى يوم محدد ، ضمانا لحضورهم البرلمان . "(٢)

---

(1) Loc. Cit.
(2) Ibid., P.167 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأوربية :

Annales Londoninses ;
Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881.

The chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Gransden. London. 1964 .

Edward I. , King of England .
Confirmatio chartarum . A. D. 1298.
Summons of Knights and Burgesses, A. D. 1275.
Grant of Custom on Wool, Wollfells and leather. A. D 1275 .

Henry I. King of England .
Charter of Henry I to the citizens of London .
Charter of Liberties Issued by Henry I.

Henry II., King of England .
Assisa de clarenduns facta a rege Henrico scilicet secound, A. D. 1166 .
Charters of Boroughs granted by Henry II .

Henry III., King of England .
Charters of Towns granted by Henry III.
Second charter of Henry III, A. D. 1217 .

Writ for Summong of four Knights of the shire . A. D. 1226 .

John ., King of England.
Charters of Towns granted by John.

Great charter of liberites 1215 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند :

Stubbs, Select charters, Oxford, 1921 .

John Capgrave.,
The chronicle of England, London, 1858 .

Matthew Paris.,
English History From the year 1235 to 1273, London, 1858.

Richard I., King of England.
Charters of Towns, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

William of Newburgh,
Historia Rerum Anglicarum, in chroniches of the Reigns of stephen, Henry II and Richard, ed. R. Howlett, 2 Vols, Rolles series, 1884, 1885 .

William I., King of England,
Ordinance of William Separating the Spirtual and Temporal courts 1070, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

ثانياً : قائمة المراجع الأوربية :

Adams, G. B ;
The political History of England : from the Norman conquest to the Death of John 1066-1216, New York and Bombay, 1905.

Ashley, M. ;
Great Britain to 1688, Michigan, 1961 .

Dietz ; F. G. ;
Apolitical and Social History of England, New York, 1937.

Feiling, K. ;
A History of England : From the coming of the English to 1938, London, 1948 .

Green, J. R. ;
A short History of the English people, 2 Vols, London, 1960.

Hall, W. P. & Albion, R. G.;
A History of England and the British Empire, London, 1946.

Haskins, G. M.;
" The petitions of Representatives in the parliaments of Edward I. " E. H.R, Vol. L III, NO.CCIX – January 1938, PP. A. – 20 .

Hume, D. ;
The History of England : from the Invasion of Julius Gaesar to the Revolution of 1688, London, 1836.

Lloyd , H. R.;
The Norman conquest, London, 1967 .

Lunt, W. E.;
A History of England, London, 1928 .

Powicke, F. M.;
The Thirteenth century 1216-1307, Oxford, 1962.

Richardson, H. G. & Sayles, G. O.;
" The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in E. H. R, Vol. L.III, 1938, PP. 425-437.

Richardson, H. G;
" Henry Is charter to London " E. H. R, Vol. XLII, Vo. 165, January, 1977, PP. 80-87 .

Smith, Goldwin ;
A History of England, New York, 1966 .

Stenton, D. M. ;
English society in the Early Middle Ages 1066-1307, Penguin, 1959.

Stubbs, W.;
The constitutional History of England, 3 Vol. Oxford, 1873 .

-Select charters and other Illustrations of English constitutional History from the Earliest times to the Reign of Edward the first, Oxford, 1921 .

Tout, T. F.;
An Advanced History of Great Britain, London, 1912,

Traill, H. D. & Mann, J. S; (eds.)
Social England : A Record of the progress of the people from the Earliest times to the present Day, London, 1979 .

Vickers, K. H. ;
- England in the later Middle Ages, London, 1926.

Warren, W. L.;
King John, London, 1878 .

Willson, D. H.;
A History of England, London, 1972 .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

جوزيف نسيم يوسف : (دكتور) :
نشـــأة الجامعـــات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٧١ .

زينب عبد المجيد : (دكتورة) :
الإنجليز والحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٦ .

راوس: (ل.)
الـــتاريخ الإنجليزى ، ت محمد مصطفى زيادة ، مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٦ .

سعداوى : (دكتور) :

تـــاريخ إنجلـــترا وحضـــارتها فـــى العصـــور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨.

سعيد عاشور : (دكتور) :

الجامعـــات الأوربـــية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

أوربـــا العصور الوسطى ، جــ١ ، التاريخ السياسى ، الطبعة السادسة، ١٩٧٨ .

كانتور : (نورمان. ف.) :

الــتاريخ الوسيط ، جزءان ، ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراســات والــبحوث الإنسانية والاجتماعية . الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ .

موريس كين :

حضـــارة أوربـــا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عــبده قاســم ، عيــن للدراســات والــبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٤ .

عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي

(٧٨٨ – ٨٨٢م)

الدلالات السياسية والدينية

عبد العزيز رمضان

مصـــــر

شـــهد البلاط البيزنطي منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع الميلاديين تقلـيداً فـريداً من نوعه، كان نصيبه من التكرار خمس مرات فحسب، تمثل في إجراء عــروض شـــاركت فيها فتيات جميلات جلبن من شتي أنحاء الإمبراطورية، وحظيت الفائزة منهن بشرف الزواج من وريث العرش الإمبراطوري.

ولأن هــذا التقلــيد يتسم بالطرفة والتفرد في آن واحد، فقد استرعى انتباه عدد مــن الباحثيــن المحدثين الذين أقبلوا علي تناوله بالبحث والدراسة، واختلفوا فيما بينهم حــول مدي مصداقيته من الناحية التاريخية، ففي حين اعتبره البعض[١] واقعاً تاريخياً لا يقــبل الشــك مدلليــن علي ذلك بأنه ورد في عدد من المصادر البيزنطية المعاصرة، تناولـه البعض الآخر[٢] علي أنه مجرد إبداع أدبي صرف لا يرقي إلي مستوي الحقيقة التاريخية معتمدين في رأيهم هذا علي أن أغلب المصادر التي أوردته سير قديسين.

وهذه الدراسة مجرد محاولة لتحديد تاريخية ذلك التقليد من خلال مصادر هذه الفــترة لاســتجلاء أســبابه ودلالاته السياسية والدينية، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الدارسون الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث[٣].

---

١ Treadgold, W.T., "Bride-Shows of the Byzantine Emperors," *B*, 49 (1979) 395-413; Garland, L.,. *Byzantine Empresses:Women and power in Byzantium AD.527-1204*, New york, 1999, 73, 80-1, 90, 96.

٢ Rydén, L.," The Bride-Shows at the Byzantine Court: History or Fiction", ***Eranos***, 83 (1985), 175 – 91; Speck, P., *Kaiser Konstantin VI*, 2vols, Munich, 1978, I, 203 – 8.

٣ ركــز تريدجولد في بحثه "عروض عرائس الأباطرة البيزنطيين" علي الآثار السياسية التي نتجت عن فشل الــزيجات الــناجمة عن هذه العروض،بينما عرضت جرلاند للموضوع في سياق كتابها "المراة والسلطة في بيزنطة" دون الخوض في تفصيلاته.

وكـــان أول هــذه العروض في عهد الإمبراطورة إيريني Irene، وتحديداً في منتصــف عـــام ٧٨٨م، ويحدثنا عنه كل من الراهب ثيوفانيس Theophanes وكاتب ســيرة القديـــس فيلاريتوس المعطاء St. Philaretus the Almsgiver،[٤] حيث يشير ثيوفانــيس إلـــي أن الإمـــبراطورة إيرينـــي أرســلت وفــداً مــن القضـــاة برئاســة البروتوســباثاريوس ثيوفانيس Theophanes protospatharios للبحث عن عروس تلــيق بأبنها قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧م) Constantine VI الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره[٥].

ويستكمل كاتب سيرة القديس فيلاريتوس القصة، فيخبرنا بأن القضاة بحثوا في كافــة أنحــاء الإمــبراطورية، جــنوباً وشــمالاً وغرباً، دون أن يجدوا فتيات يناسبن الإمــبراطور الشـــاب، فواصلوا رحلتهم الى شرق الإمبراطورية حتي بلغوا بلدة أمنيا Amnia وفــيها أســتهل القضـــاة عملية البحث بقصر قديم وكبير لنبيل محلي يدعي فيلاريــتوس، كان قد أنفق ثروته في التصدق علي الفقراء، ورغم أن أهل البلدة حاولوا لفــت أنظار القضاة إلي فقره، إلا أنهم ظنوا أن تلك مجرد إشاعة روجت لإبعادهم عن الإقامـــة في قصره وعلي نفقته، وتلقاهم فيلاريتوس بترحاب بالغ، ولم يبخل عليهم بما اتيح له من كرم الضيافة، وساعده في ذلك كبار رجال البلدة.

ويواصل كاتب السيرة حديثه، فيخبرنا بأن القضاة سألوا فيلاريتوس عن بناته، فأخــبرهم بأنه غير مسموح لهن بمغادرة حجراتهن، وتحت إلحاح شديد منهم سمح لهم فيلاريــتوس برؤيتهن داخل حجراتهن الخاصة، وعندما وقعت أعين القضاة علي بناته وحفــيداته لــم يتمكنوا من تمييز حفيداته عن أمهاتهن لفرط جمالهن الذي بهر الجميع، ولمـــا كانــت البــنات قد تزوجن بالفعل، فقد تحول القضاة نحو حفيداته الثلاث ماريا

---

[٤] كاتــب هــذه الســيرة هو نيقتاس الأمني، ابن شقيق القديس فيلاريتوس، وكتبها في حوالي عام ٨٢١ م أو ٨٢٢ م.انظر

La vie de S. Philarète, ed. et trad. Franc. M .H. Fourmy & M. Leroy, *B*, 9(1934), 85-107, esp 98; Rydén, L. , "The Revised Version of the Life of St. Philaretos the Merciful" and the "Life of St. Andreas Salos", ***Analecta Bollandiana***, 100 (1982), 485-95,esp.485.

[٥] Theophanes, *Chronographia*, trans. H. Turtledove, Philadelphia, 1982, 147.

Maria وميرانثــيا Myranthia ويؤنثيا Euanthia، وبعد أن أخضعوهن لاختبارات أعــدت ســلفا[٦]، وجــدوا أنهــن جميعاً مؤهلات للمشاركة في العرض النهائي بالقصر الإمبراطوري، فاصطحبوهن مع كافة أفراد أسرة فيلاريتوس إلي القسطنطينية.

ويســتطرد كاتب السيرة حديثه مشيراً إلي أن القضاة صادفوا توفيقاً في العثور علــي فتــيات أخريات تنطبق عليهن الشروط والصفات المؤهلة للمشاركة في العرض الإمــبراطوري، وكانــت بينهــن فــتاة ثــرية وجميلة ذكرت بأسم "ابنة جيرونتيانوس Gerontianus"، التــي رفضــت بــازدراء اقتراح ماريا حفيدة فيلاريتوس بعقد اتفاق ودي بين المتنافسات، قائلة "طالما أنني الأكثر ثراءً والأسمي نسباً والأفضل هيئة، فمن المؤكد أنني الفائزة".

وفــي الــبلاط الإمــبراطوري، تقدمت ابنة جيرونتيانوس جميع المرشحات، وحيــنما رآها الإمبراطور ووالدته قالا لها: "إنك رائعة الحسن والجمال، غير أن تأنقك يــدل علي أنك لن تعني بأمر الإمبراطور"، ثم قدما لها الهدايا، ونحوها جانباً، وبعد أن فعلــوا ذلك مع الأخريات، الواحدة تلو الأخرى، جاءت حفيدات فيلاريتوس في النهاية، وعــندما وقعــت أعين الإمبراطور ووالدته عليهن، خلبوا بجمالهن ورشاقتهن، فخطب الإمبراطور الفتاة الكبري ماريا[٧].

علــي هــذا الــنحو يسرد كاتب سيره القديس فيلاريتوس قصة أول عروض العــرائس الإمبراطورية، ويتفق مع ثيوفانيس في أنه جاء نتيجة رغبة الإمبراطورة الأم

---

[٦] يذكر كاتب السيرة أن هذه الاختبارات ركزت في المقام الأول علي المقاييس المثالية لدرجة الجمال وهي طول القامة ومقاس الخصر والقدمين، دون الإشارة إلي آية صفات أخري تتعلق بالأخلاق أو التدين.

[٧] *S.Philarete*, 135 43; Garland, *Women and Power*, 81; Treadgold, *Bride- Shows*, 398-9; Kazhdan, A.,& Sherry, L. F., " The Tale of a Happy Fool : The Vita of St.Philaretos the Merciful (BHG 1511z- 1512b) ",*B*, 66/2 (1996), 351-62,esp.355-7.

ويري كجدان وشيري أن قصة ماريا في هذا العرض تشابه إلي حد بعيد قصة سندريلا الفلكلورية، حقيقة أن ماريا لم تتعرض لاضطهاد زوجة أب شريرة، غير أن حسن حظها وجمالها وانبهار الإمبراطور بها كان عاملاً حاسماً في اختيارها.

Kazhdan & Sherry, *Happy Fool*, 355.

إيريـــي في تزويج ابنها قسطنطين السادس، وأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها، ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقاً؟.

تتجه جرلاند Garland إلي أن إيريني استحدثت هذا التقليد لاستخدامه كوسيلة دعايـــة لنظامها الحاكم، أو ربما لأن إيريني نفسها أختيرت من قبل عن طريق عرض مشابه عند زواجها من الإمبراطور ليو الرابع (٧٧٥ – ٧٨٠م) Leo IV[٨]، بينما يعتقد تـــريدجولد Treadgold أن إيريـــي أقدمـــت علي ذلك لحفظ ماء وجه الهيبة والكرامة الإمـــبراطورية بعـــد أن سحب ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne وعده بتزويج إبنـــته روتـــرود Rotrud مـــن قسطنطين السادس، ولتؤكد أن ابنها يمكنه الزواج من أجمل جميلات الإمبراطورية دون الحاجة إلي البرابرة الفرنجة[٩]، ويدلل تريدجولد علي صـــحة رأيـــه برواية إينهارد Einhard كاتب سيرة شارلمان، التي تشير إلي أن ملك الفـــرنجة قـــرر فـــي منتصـــف سنة ٧٨٧م سحب وعده بتزويج إبنته من الإمبراطور البيزنطي[١٠].

وربمـــا يكـــون من الأصوب أن ننظر إلي الأمر من زاوية أخري، فالمتصفح لسياسة الإمبراطورة إيريني وشخصيتها، يدرك من الوهلة الأولي أنه أمام امرأة بهرها بـــريق العـــرش الإمبراطوري وملك عليها كل حواسها، فأرادت منذ اللحظة الأولي أن

---

٨ Garland, *Women and Power*, 73, 81.

تعتمد جرلاند في إفتراضها الثاني علي أنه لا توجد أسباب واضحة لاختيار إيريني كعروس للإمبراطور ليو الرابع، حيث كانت فتاة يتيمة تنتمي إلي أسرة سارنتابيخوس الأثينية غير المشهورة، ولكنها في الوقت ذاته تؤكد علي عدم وجود دليل دامغ علي مشاركة إيريني في مثل هذا النوع من العروض

٩ Treadgold, *Bride- Shows*, 396-7.

١٠ اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨ م، ص١٢٠، ١٢٢-١٢٣.

ويذكر اينهارد أن سبب عدم إتمام شارلمان هذه الزيجة هو تعلقه الشديد ببناته إلي الدرجة التي جعلته لا يستطيع أن يؤدي عملاً من الأعمال إلا إذا كن في صحبته، ففرض عليهن التزام القصر وحرم عليهن مغادرته، كما أنه لم يجز لهن الزواج.انظر كذلك السيد الباز العريني، إينهارت، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢١-٢٢.

تفـرض علـي ابـنها نوع من الوصاية الدائمة، فيكون طوع أمرها، بحيث يخلص لها العـرش وتغـدو صاحبة الكلمة الأولي والأخيرة في شئون الحكم، امرأة لم تتردد في سـمل عينـي ولدها حينما استشعرت منه خطراً يهدد بقائها علي سدة الحكم[١١]، إمرأة بهـذه الشاكلة هل كان من المتوقع أن تقبل بزواج ولدها من ابنة أقوي ملوك أوروبا في ذلك الحين؟

تشـير أكـثر الشواهد إلي أن إيريني لم تكن راغبة في إتمام مثل هذه الزيجة، وحتـي إذا كـان إيـنهارد صـادقاً في روايته، وأن شارلمان هو الذي تنصل من ذلك الأمـر، فالـراجح أن إيرينـي كانت سعيدة بذلك، بل وربما تنفست الصعداء، فراحت تبحـث عن عروس تناسب ولدها وطموحاتها السياسية في آن واحد، عروس لا تشكل أدنـي خطـر أو تهديـد مـن ذلـك الـنوع الذي كان من المحتمل أن تشكله الأميرة الفرنجـية[١٢]، بـل ربما كان ثيوفانيس الأكثر مصداقية من اينهارد حينما أشار إلي أن رفـض إتمـام هذه الزيجة جاء من جانب إيريني نفسها، خاصة وأنه يقرن ذلك بقرار الإمبراطورة تزويج ابنها من ماريا حفيدة فيلاريتوس، ويؤكد علي أن هذه الزيجة تمت بضـغط مـنها وضد رغبة الإمبراطور الشاب الذي كان مغرماً بابنة شارلمان[١٣]، وهو

---

١١ عن سياسة وشخصية الإمبراطورة إيريني. انظر علية الجنزوري، الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م
Barbe, D., *Irène de Byzance : la femme empereur*, Paris, 1990.

١٢ - يـري بعض الباحثين أنه كان للبابوية دوراً في فشل هذه الزيجة، وأنها إذا كانت قد باركت خطي إيريني في سياستها المتحمسة لعبادة الأيقونات، والتي تجلت في مجمع نيقية عام ٧٨٧م، فقد ساورتها المخاوف من النتائج التي تترتب علي التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، انظر، عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٩٥-٩٦. ويتفق الباحث مع وجهة نظر الأستاذتين علية الجنزوري وعفاف صبرة حول أسباب فشل هذه الزيجة، حيث تقول الدكتورة علية الجنزوري: "ثمة رأي نرجح كفته عن سبب فسخ إيريـني لخطـبة أبنها من أبنة شارل ملك الفرنجة، وهو أنها خافت أن يصبح قسطنطين السادس ووالد زوجته شـارل قوة تنتزع منها صولجان الحكم، وأن يتمكن قسطنطين بمساعدته من اعتلاء منصة الحكم بمفرده"، اما الدكـتورة عفاف صبرة فتقول: "فكرت إيرين في إلغاء مشروع زواج أبنها من أبنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذي بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم، ولم تكن عنده أي نوايا للتنازل عن الحكـم، فـإذا مـا تـم زواجه من أبنة شارلمان فسيؤدي ذلك إلي تقوية مركز أبنها علي حسابها. "انظر علية الجنزوري، ايرين، ص٣٠؛عفاف صبرة، الإمبراطوريتان، ص٩٥.

١٣ *Theophanes*, 147-48.

الأمــر الذي أكده كاتب سيرة الإمبراطورة إيريني حينما أشار إلي أنها بنفسها هي التي اختارت العروس من بين الفتيات الأخريات[١٤].

وهكــذا كان العرض الذي أقامته الإمبراطورة إيريني لتزويج ابنها سابقة سار علــي نهجهــا عــدد ممــن قدر لهم الجلوس علي العرش البيزنطي بعدها، إذ أنه بعد الإطاحة بها سنة ٨٠٢م علي يد وزير ماليتها نقفور الأول Nicphorus I، أقام الأخير ثانــي عــرض عرائس إمبراطوري معروف لتزويج ابنه ووريث عرشه ستوراقيوس Stauracius، ومصــدرنا الوحــيد عن هذا العرض هو ثيوفانيس، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"بعــد أن قــام نقفــور ببحث واسع النطاق شمل كافة أراضي الإمبراطورية الواقعــة تحت سلطته لإختيار الفتيات اللاتي يصلحن للزواج من ابنه ستوراقيوس، وقع إختــياره علــي ثيوفانو الأثينية Theophano of Athens التي ترتبط بصلة القرابة بالإمــبراطورة القديســة إيريني، ورغم أنها كانت مخطوبة فعلاً لأخر غيره، وشاركته الفــراش مــرات عديدة، إلا أن نقفور لم يأبه بذلك، ففصلها عنه وزوجها لابنه محطماً بذلــك وبشــكل مخــز كل القوانين والأعراف، ولم يكتف بذلك، بل تخير لنفسه فتاتين أخريتين أكثر جمالاً، وأنغمس معهن في الفسق طوال أيام الزفاف، جالباً بتصرفاته تلك سخرية واشمئزاز الجميع[١٥]".

ورغم ما يبدو واضحاً في رواية ثيوفانيس من تحامل شديد علي نقفور، إلا أن مــا يعنينا منها هو البحث عن دافع نقفور الحقيقي من وراء إجراء هذا العرض، وهو بالطــبع لــم يكن الإعزاز لذكري إيريني أو الاعتزاز بتقليد استحدثته، وثيوفانيس نفسه يقــدم لــنا ذلــك الدافع عندما أشار - بصورة متعمدة - إلي أن العروس الفائزة ترتبط بصلة قرابة للإمبراطورة إيريني، وهو أمر ربما كان يمثل أهمية قصوى لنقفور، الذي أدرك أن فــي نظــر البيزنطيــن مجرد مغتصب للعرش الإمبراطوري، والأسوأ أنه

---

١٤ Halkin, F., "Le vie de l'impératrice sainte Irene", *Analecta Bollandiana*, 106 (1988), 5-27, esp. 16; Treadgold, W. T.. "The Unpublished Saints' Life of the Empress Irene", *BF*, 7 (1982), 237-51.

١٥ *Theophanes*, 164.

اغتصبه من الإمبراطورة إيريني التي تمتعت بشعبية جارفة بسبب مواقفها المعادية للحركة اللأيقونية، والتي دفعت الكنيسة البيزنطية إلي تبجيلها ورفعها إلي مصاف القديسات[١٦]، ولاشك في أن نقفور كان يعلم مقدماً أن ثيوفانو تنتمي إلي أسرة الإمبراطورة إيريني، وأنه كان حريصاً أشد الحرص علي تدعيم وجود أسرته الحاكمة وإضفاء الشرعية عليها من خلال ربطها بصلة النسب مع أسرة الإمبراطورة السابقة[١٧].

أما عن ثالث هذه العروض فقد أقيم في عام ٨٣٠م بعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م) Michael II حيث قررت زوجته يوفروسيني Euphrosyne – إبنة قسطنطين السادس من ماريا الأمنية التي فازت بأول عرض عرائس إمبراطوري – إجراء مسابقة لتزويج ابن زوجها ثيوفيلوس (٨٢٩ – ٨٤٢م) Theophilos الذي كان قد بلغ السابعة عشر من عمره، مواصلة بذلك التقليد الذي بواسطته إقترنت أمها بأبيها، ومصدرنا عن قصة هذا العرض هو الكاتب الحولي سيميون اللغثيت[١٨] Symeon the Logothete، الذي يخبرنا بها قائلاً:

"لقد أرسلت – يوفروسيني – مبعوثيها إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات من أجل تزويج ابنها ثيوفيلوس، ورافقت المرشحات بنفسها إلي القصر الإمبراطوري، ثم أعطت ثيوفيلوس تفاحة ذهبية قائلة له "امنحها لمن تروق لك"، وكان من بين الفتيات الجميلات واحدة رائعة الجمال تدعي كاسيا Kassia، فتن ثيوفيلوس بجمالها وهيئتها، فخاطبها قائلاً "من خلال المرأة جلبت الشرور علي

---

١٦ عن سياسة الإمبراطورة إيريني من الحركة اللأيقونية. انظر،
Barbe, *Irene*, 313 ff ; Garland, *Women and Power*, 92-4

١٧ Garland, *Women and power*, 90; Treadgold, *Bride-Shows*, 401.

١٨ شغل سيمون وظيفة لغثيت الخزانة العسكرية(لغثيت الاستراتيوتيكون) وهو المشرف علي تقدير الضرائب المفروضة علي أسر الجنود وحالات الإعفاء منها. لمزيد من التفاصيل انظر،
Bury, *Adm. System*, 90ff ; Kazhden. A., "Logothetes Tou Stratiotikou", *ODB*, 2(Newyork, 1991), 1248.

الـرجل"، فأجابته قائلة "ومن المرأة أيضاً جاء الخير كل الخير")، فجرح قلب ثيوفيلوس بردها فتجاوزها مانحاً التفاحة لثيودورا، الفتاة البافلاجونية[19]".

ومـن الملاحظ أن رواية سيميون اللغيث لا تشير بصورة صريحة إلي تدخل مـن جانب يوفروسيني في اختيار العروس، مثلما حدث في حالتي الإمبراطورة إيريني والإمـبراطور نقفـور الأول، فثيوفيلوس – طبقاً لرواية سيميون – كان صاحب القرار الأول فـي عملية الاختيار، غير أن ذلك قد لا ينهض دليلاً قاطعاً علي عدم التدخل من جانـب يوفروسـيني، فهي التي أرسلت المبعوثين لإحضار الفتيات، ثم رافقتهن بنفسها إلـي القصـر الإمـبراطوري، حقيقة أن هدفها كان مواصلة تقليد كانت هي ذاتها أول ثمـراته، إلا إن ذلك لا يمنع أنها تدخلت بصورة أو بأخري في عملية الاختيار، وربما حـدث ذلـك دون دراية سيميون اللغثيت، خاصة وأن هناك دافعاً قوياً يجعلها حريصة أشـد الحـرص علـي اختـيار عروس ثيوفيلوس، فالعصر هو عصر مناهضة عبادة الأيقونـات التـي حمل لواءها أباطرة الأسرة الأيسورية منذ عهد ليو الثالث (٧١٧ – ٧٤١م) Leo وحتـي عهـد ميخائـيل الثانـي (٨٢٠ – ٨٢٩م) أول أباطرة الأسرة العموريـة وزوج يوفروسـيني الـراحـل، والـذي كـان من أشد المتحمـسين لمذهـب تحطـيم الأيقونـات، وكـان ثيوفـيلوس نفسـه عـلي

---

١٩ Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25.

هناك رواية أخري مختلفة يقدمها لنا كاتب سيرة الإمبراطورة القديسة ثيودورا مفادها أن الإمبراطور ثيوفيلوس أرسل موظفي البلاط إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات المؤهلات للزواج منه، وأنه انتقي مـن بينهـن سـبعة، قدم لكل واحدة منهن تفاحة ثم أرسلهن إلي الحجرات المخصصة لهن، وفي اليوم التالي، أسـتدعى الفتيات وسألهن عن التفاحات غير أنهن اكتشفن ضياع التفاحات فيما عدا ثيودورا التي بسطت كفيها لتكشـف عن تفاحتين، فدهش الإمبراطور لما رأي وسألها عن تفسير لذلك، فأجابته بأنها قابلت في طريقها إلي القصر قديساً أعطاها التفاحة وتنبأ لها بأن الإمبراطور سيقدم لها تفاحة ثانية، وأن التفاحتين معاً ستكونان طريقها للفوز علي الفتيات الأخريات، وعندئذ أعلنها الإمبراطور ثيوفيلوس زوجة له. انظر،

"The Life of St. Theodora the Empress", trans. M.P. Vinson, in.. *Byzantimne Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C.,1998, 353-82, esp.363-65

شـــاكلــــة أبـيـــــه في سياســـــــته اللاأيـــقونية[٢٠]، ولما كانت يوفروسيني – شـــأنها في ذلك شأن أكثر نساء القصر[٢١] – من أشد المتحمسين لعبادة الأيقونات، فمن المحـــتمل أنهـــا كانـــت حريصـــة علي اختيار عروس تشاطرها هذه الحماسة، وكانت ثيوردورا البافلاجونية هي تلك العروس[٢٢].

وبعد وفـــاة ثـــيوفيلوس عام ٨٤٢ م، تولت ثـــيودورا الوصـــاية علي ابـــنها ميـــخائـــيل الثـــالـــث (٨٤٢ – ٨٦٧م) Michael III الذي لم يكن قد أتم العامين من عمره، بيد أن هذا الطفل سرعان ما أصبح مشكلة كبري بالنسبة لها عندما بلغ الخامسة عشـــر، حيـــث أقام علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي يودوكيا إنجيرينا Eudokia Ingerina، وكانـــت خطورة هذه العلاقة من وجهة نظر الإمبراطورة الأم أن يودوكـــيا هـــذه تنتمـــي إلـــي أســـرة مارتيناكيوس Martinakios المؤيدة للحركة اللاأيقونية[٢٣]، ولأن ثيودورا لم تكن لتسمح باستمرار مثل هذه العلاقة التي تتعارض مع مـــيولها الدينـــية، فقـــد قررت إقامة عرض عرائس لتزويج ابنها، متبعة في ذلك نهج سابقتها يوفروسيني عندما اختارتها هي نفسها بنفس الأسلوب ولذات السبب.

ويـــروي لـــنا كاتب سيرة القديسة إيريني الصغري St.Irene the younger قصـــة هـــذا العرض قائلاً أن الإمبراطورة ثيودورا قررت تزويج ابنها ووريث العرش

٢٠- – من احدث الدراسات التى تناولت الحركة اللايقونية ، انظر

Martin, E.G., *A History of the Iconoclastic Controversy*, London ,1978 ; Bryer , A., & Herrin , J.,(eds.), *Iconoclasm* , Birmingham , 1977 ; Gero ,S., *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III* ,Louvain ,1973 ; Idem , *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Constantine V* , Louvain , 1977 .

٢١- عن موقف نساء القصر المؤيد لعبادة الايقونات ، انظر

Huxley ,G.,'Women and Byzantine Iconoclasm', in: J.Y.Perreault (ed.), *Les femmes et le monachisme byzatine*, Athens, Canadian Archeological Institute, 1991 , 11-24; Talbot,A.M.,& Kazhdan,A.,'Women and Iconoclasm', ***BZ***, 84-85 (1991-92), 391-408; Hatile, P.,'Women of Disipline during the Second Iconoclast Age',***BZ*** , 89 (1996), 37-44.

٢٢- عن موقف الإمبراطورة ثيودورا من الحركة اللايقونية ، انظر

Garland, *Women and Power*, 95-108; *Life of St. Theodora*, 353-382.

٢٣- ولدت يودوكيا بالقسطنطينية عام ٨٤٠ م ، وتوفيت عام ٨٨٢ م ، وكان والدها ينحدر من اصل اسكندنافي ، وعمل في وظيفة بالقصر الإمبراطوري ، انظر ،

Kazhdan, A.,'Eudokia Ingerina', ***ODB***, 2 (NewYork,1991), 739.

مــن الأوساط الشهيرة الطيبة السمعة، ومن أسرة تقية مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، فــتاة تتسم بالفضيلة وتفوق من هن في مثل عمرها في نقاء الروح وجمال الهيئة، لذلك أرســلت مبعوثيها إلي كافة أنحاء الإمبراطورية لاختيار الفتيات اللاتي تتوافر فيهن هذه الخصـــال، ومـــن ثـــم فقـــد تهافت المواطنون من شتي الأنحاء علي إرسال بناتهم إلي العاصـــمة، وكـــان مـــن بينهن إيريني، الفتاة المشهود لها بصفاء الروح وفتنة الجسد، والتـــي أرســـلها والداهـــا مـــع شقيقتها من موطنهما في قبادوقيا Cappadocia إلي القسطنطينية[٢٤].

ويـــبدو مـــن رواية كاتب السيرة أن الإمبراطور ثيودورا كانت حريصة علي تمـــيز عـــروس ولدها بالفضيلة ونقاء الروح، وأن تكون من أسرة مشهود لها بإيمانها الأرثوذكســـي، وهـــي بذلك تعبر عن ميولها الدينية ورغبتها في إبعاد يودوكيا إنجرينا عـــن المشاركة في هذا العرض، إذ أنها كانت تعي تماماً أن مثل هذه الشروط المتعمدة لا يمكـــن بأي حال أن تنطبق علي يودوكيا وأسرتها، حقيقة أن الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ – ٩١٢م) يشـــير فـــي مديحه لباسيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦م) Basil I، إلـــي أن ميخائـــيل الثالـــث كان لديه قدر من التأثير علي مجريات الأمور بحيث أتاح ليودوكـــيا فرصة المشاركة في هذا العرض[٢٥]، غير أن هذه المشاركة كانت غير ذات جـــدوي لأن نتيجـــتها كانـــت معـــروفة مقدمـــاً، حيـــث يشير سيميون اللغثيي إلي أن الإمـــبراطورة ثـــيودورا لعبت دوراً رئيسياً في رفض يودوكيا إنجرينا، والضغط علي ولدهـــا لقـــبول المرشـــحة الفائـــزة يودوكـــيا – أخري – والتي تنتمي إلي أسرة غير مشهورة[٢٦].

٢٤- *The Life of St. Irene Abess of Chrysobalanton* , ed. & trans.M.O.Rosenqvist . (Uppsala, 1986), 8-10.

انظر نص تلك السيرة على الموقع التالى، http//www.fordham.edu;

Treadgold, *Bride-Shows*,405; Kazhdan, A., Irene of Chrysobalanton ,*ODB*, 2 (New york .1991),1010.

٢٥- Vogt,A., & Hausherr, I.,'Oraison funebre de Basil I', *OCP*, 26 (1932), 54.

٢٦- *Leo Grammaticus*, 229-30; *Pseudo-Symeon*, 655.

وفي عام ٨٨٢م، اقامت يودوكيا إنجرينا أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعــروفة لــتزويج ابــنها لــيو السادس، الذي كان قد بلغ السادسة عشر من عمره، ومصـــدرنا عنه هو كاتب سيرة القديسة نيوفانو[٢٧] St.Theophano، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"لقــد بــدأت عملــية البحــث عن الفتيات الجميلات، المتألقات في فضائلهن، لاختــيار عروس للإمبراطور ليو الحكيم، فأرسل الإمبراطور باسيل[٢٨] مبعوثيه إلي كل مديــنة ومقاطعـــة للبحث عن فتاة تليق بالإمبراطور الأكثر وسامة، فجلبوا معهم فتيات كثــيرات من شتي الأنحاء كذلك قررت الإمبراطورة يودوكيا زوجة الإمبراطور باسيل اختــيار بعض الفتيات الجميلات من مسقط رأسها للمشاركة في هذا العرض، وكان من بينهــن الــرائعة ثــيوفانو، وعلــي ذلك تم إختيار إثنتي عشر فتاة حشدت في الجناح الإمــبراطوري لقصــر ماجــناورا Magnaura الشــهير، وبقيــن هــناك في انتظار الإمبراطور وزوجته"[٢٩].

ويستكمل كاتب السيرة روايته قائلاً:

٢٧- Kurtz, E., (ed.), *Zwei Griechische Texte uber die Heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI*, St. Petersbourg, 1898.

تعذر علي الباحث الرجوع الى هذا المصدر، ومن ثم فقد اعتمد علي النصوص المقتبسة منه والتى ترجمها كل مــن تــريدجولد و جــرلاند في بحثيهما ،وكاتب هذه السيرة كان صديقا لعم ثيوفانو، العروس الفائزة في هذا العرض،

٢٨- واصل ميخائيل الثالث علاقته مع يودوكيا انجرينا رغم زواجه، حيث حملت منه ابنهما ليو السادس، وحتي يضـــمن اعـــتلاء ابنه العرش كامبراطور شرعي ، زوج يودوكيا من باسيل المقدوني ورفعه الى جواره على العرش كإمبراطور شريك ، انظر ،

Mango, C., 'Eudocia Ingerina, the Normans and the Macedonian Dynasty', ***Zbornik Radova Vizanto-Loskog Instituta***, 14-15 (1973), 17-24.

٢٩ Kurtz, *Zwei Texte*, 5 (tr. Treadgold, 407.)

عــند هــذه النقطة يسجل كاتب السيرة انه كان من بين المرشحات فتاة اثينية اشتهرت بالعرافة و التنجيم ، تنــبأت بــان الفتاة التى سترتدى حذاءها اولا وقت وصول الإمبراطور وزوجته هى التى ستفوز بهذا العرض، وبطبيعة الحال كانت ثيوفانو هى تلك الفتاة، Treadgold, *Brid-shows*, 407.

" وعـــندما رأتهـــا الإمبراطورة أسرت بجمالها وخفة روحها، فتركت الباقيات وتقدمـــت نحوهـــا، وعـــندما أصبحت علي مقربة منها شدهت لسحر طلعتها، وعندما ســـألتها عن أسرتها ومكان مولدها، علمت أن الدماء الإمبراطورية تجرى في عروقها، فأخذت يدها وتوجهت نحو زوجها الإمبراطور"[٣٠].

وعـــند هـــذا الحـــد يوحي كاتب السيرة بأن اختيار الإمبراطورة قد وقع علي ثيوفانو، لكنه سرعان ما يستطرد حديثه قائلاً:

"غير أن الإمبراطورة تفحصت الأخريات وأنتقت منهن فتاتين، وقدمت الهدايا للباقـــيات وأمرتهـــن بـــالعودة إلـــي ديارهـــن، ثـــم اقتادت الفتيات الثلاث إلي الحمام الإمـــبراطوري، وعـــندما كشـــفت عن أجسادهن لاحظت تفوق جمال ثيوفانو، فغطتها بثـــياب إمبراطورية وأخذتها من يدها اليمني إلي الإمبراطور الزوج، وأعلنتها عروس لابنها، وقد بهر الإمبراطور ليو نفسه بها فأخرج من عباءته خاتماً صغيراً مصنوع من اليشب ووضعه في إصبعها"[٣١].

عـــند هذا الحد يختتم كاتب السيرة قصة أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة بـــزواج ثيوفانو من الإمبراطور ليو السادس، ويتضح من خلالها – كما هو الحـــال فـــي العـــروض الســـابقة – أن ليو لم يكن له دوراً مؤثراً في اختيار عروسه، فالإمـــبراطورة الأم يودوكيا هي التي لعبت الدور الرئيسي في اختيار المرشحة الفائزة دون أن تضـــع اعتـــبارا لـــرأي ولدها، ويبدو أن هذا الاختيار قد صدق عليه من قبل الإمـــبراطور باســـيل المقدونـــي، وهـــو الأمـــر الـــذي يؤكده كاتب سيرة يوثيميوس Euthymios عـــندما ســـجل عن لسان الإمبراطور ليو السادس قوله: "إن كافة أعضاء السناتو يدركون جيداً أن هذه الزيجة تمت ضد رغبتي، وإنما خشية غضب والدي"[٣٢].

وعـــند هـــذه النقطة يتبادر إلي الذهن سؤال هام، أنه إذا كانت يودوكيا إنجرينا هي أول من أكتوي بنار عروض العرائس الإمبراطورية حينما استخدمته الإمبراطورة

٣٠- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Treadgold, 407) .

٣١- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Garland, 110) .

٣٢- '*Vita St.Euthymii*,' ed.& tr. P. Karlin-Hayter, *B*,25-27(1955-57), 1-72;747-78.

ثـيودورا كوسـيلة لفصلها عن معشوقها الإمبراطور ميخائيل الثالث، فما الذي يدعوها إلـي إقامـة هـذا العرض؟ وإذا عرفنا أن ليو السادس في هذا الحين كان متورطاً في علاقـة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي زوي زاوتزينا[٣٣] Zoe Zautzaina، فمـا هـي الدوافـع الحقيقية وراء تدخلها الواضح في إختيار العروس الفائزة وفرضها علي ابنها ليو بنفس الأسلوب الذي اتبعته ثيودورا مع ابنها ميخائيل الثالث؟.

يـري تريدجولد أن يودوكيا لم يكن لديها سبباً وجيهاً للاعتزاز بمثل هذا التقليد سـوي أنـه قـد أتخذ صفة الثبات في ذلك الحين[٣٤]، بينما تري جرلاند أن العداء الذي نشـب بيـن ليو وأمه يودوكيا، خاصة بعد أن تورطت مع باسيل المقدوني في مؤامرة اغتـيال والـد ليو، الإمبراطور ميخائيل الثالث، هو السبب الذي دفعها إلي الانتقام منه بفرض الزواج عليه من فتاة لا يرغبها[٣٥]، أما شرينر Schreiner فقد ذهب إلي القول – منسـاقاً وراء روايـة كاتـب سيرة القديسة ثيوفانو – بأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها[٣٦].

وربمـا يكون من الأفضل البحث عن الدافع الحقيقي من وراء اختيار يودوكيا للعـروس ثيوفانو في ضوء الأهمية السياسية لذلك الاختيار، ويعد مانجو Mango هو أول من ألقي الضوء علي أهمية أسرة ثيوفانو في اختيارها كعروس لليو[٣٧]، فهي تنتمي إلـي أسرة مارتيناكيوس Martinakios، التي كانت يودوكيا نفسها أحد أفرادها، ومن ثم رأت فـيما مؤيـداً أهلاً للثقة، كما أن هذه الأسرة ترتبط مباشرة بصلات وثيقة بالأسرة العموريـة، وكمـا يشـير كاتـب سـيرة ثـيوفانو إلي أنها تحمل في عروقها الدماء

٣٣– كـان لـيو السـادس على علاقة بزوى ابنة ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes مستشار باسيل المقدونـي ، واستمرت هذه العلاقة حتى بعد زواجه من ثيوفانو ، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته مباشرة ٠ لمزيد من التفاصيل ٠انظر،

Tougher, Sh., *The Reign of Leo VI, 886-912 :Politics and People*, Brill, 1997, 136-8.

وسام عبد العزيز فرج ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، الإسكندرية ، ١٩٩١، ٣٥-٣٦

٣٤– Treadgold, *Bride-Shows*, 406.

٣٥– Garland, *Women and Power*, 110-11.

٣٦– Schreiner, P., 'Reflexions sur la famille imperiale à Byzance (VIII^e- X^e)', *B*,61(1991),181-93,esp.189.

٣٧– Mango, *Eudocia Ingerina* , 17-27.

الإمـــبراطورية وأن ذلـــك كان أحد العوامل التي دفعت يودوكيا إلي اختيارها من بين العذاري الصغيرات، ومن المؤكد أن يودوكيا كانت تعرف ثيوفانو مقدماً وأنها خططت مـــنذ الـــبداية لاختـــيارها، ولاشك كذلك في أنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لباسيل المقدونـــي أن يوثق صلات أسرته المقدونية الناشئة بالأسرة العمورية السابقة من خلال أسرة مارتيناكيوس[٣٨].

وممـــا ســـبق يمكـــن القول بأن عروض العرائس الإمبراطورية كانت وسيلة إتـــبعها أباطـــرة بـــيزنطة منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع لتحقيق أهداف سياســـية ودينـــية معيـــنة مـــن خلال تزويج ورثة العرش القصر بعرائس يخدمن هذه الأهـــداف، ولذلك فقد أقيمت تحت إشراف كامل من قبل الأوصياء سواء كانوا نساءاً أو رجـــالاً، وظهـــرت خلالها رغباتهم واضحة دون اكتراث برغبات الأبناء، وربما كان جينكينز Jenkins محقاً في قوله "إن عروض العرائس الإمبراطورية لم تكن إلا اجراء أو تقلـــيداً شكلياً، إذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقاً ومتفق عليها[٣٩]"، وعلي ذلك لـــم يكـــن الجمـــال هـــو العـــامل الأساســـي في اختيار العروس كما ذهب بعض الباحثين[٤٠]، بل كان أحد الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في زوجة الإمبراطور المقـــبل، خاصـــة وأنـــه لا يتناقض مع الاعتبارات السياسية والدينية التي سبق ذكرها، وبالإضـــافة إلـــي الجمـــال وضـــعت الصفات الأخلاقية أيضاً في الاعتبار عند اختيار العروس، وأخيراً كانت نبالة الأصل أحد الشروط الضرورية في اختيار العروس، ففي العـــروض الخمسة تم اختيار العرائس من الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المحليين فـــي الأقاليم، ولكن إذا كانت نبالة الأصل أحد المؤهلات الرئيسية للعروس، فإن الثروة لـــم تكـــن كذلـــك، ففي العرض الأول كانت أسرة ماريا الأمنية نبيلة وفقيرة في الوقت نفســـه، ولم يكن من بين الفائزات في هذه العروض واحدة يبدو عليها الثراء الفاحش أو تنتمي إلي أسرة ذات سلطة ونفوذ، وربما كان ذلك أمراً حرص عليه الأوصياء أنفسهم لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية السالفة الذكر.

٣٨- Tougher, *Leo VI*, 134-135.

٣٩- Jenkins,R., *Byzantium : the Imperial Centuries ,A.D. 610-1071*, Newyork,1966,98.

٤٠- Treadgold, *Bride-Shows*, 410 . Schreiner, *Famille imperiale*. 189.

إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمـــود إســـماعيل

مصـــر

معلــوم أن الخــلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو الــتأويل، أي معــرفة الأســباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعه، ذلك أن المــؤرخ حيــن يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب علي أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حــدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنمــا يشــجر الخلاف أصلاً في الإجابة علي السؤال الثالث، لا لشيء إلا لأنها تعكس مــنظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعــل هــذا يفســر دعوة بعض المدارس التاريخية إلي التغاضي عن تفسير الوقــائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قــدر المــؤرخ. كــذا مــن نتاج عمله وتجعله "إخبارياً" ليس إلا، وتحكم علي جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تعليل ناقص في التحليل الأخير.

فغايــة العلــم هي الوقوف علي الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم علي الإطلاق.

وفــي مجــال العلــوم الإنسانية – ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال – جري الاهــتمام بالتعلــيل أو الــتأويل أو التفســير، إلي حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم "الهرمينيطــيقا". وتعاظم دور هذا العلم إلي درجة الطموح إلي التنظير باعتباره أقصي درجات العلم وأسماها.

معلــوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارســين والباحثيــن، لذلــك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساســياً لاكــتمال عملــية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

مـــن هنا تطمح هذه الدراسة إلي معالجة إشكالية التفسير – التي لطالما اختلف القدمـــاء والمحدثـــون بصـــددها – عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العـــناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلـــي حـــد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحـــتى منتصـــف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مـــر الفكـــر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلي منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شـــهدت ســـيادة نمط الإنتاج البورجوازي علي الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلـــوم وتدويـــنها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطي. وفـــي مجـــال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أمـــا المـــرحلة الثانـــي: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريـــن، فقـــد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومـــنها الصـــعيد الثقافـــي بطبـــيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهـــات الغيبـــية والنصـــية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي، موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أمـــا المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقـــد ســـادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخري وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثـــيرات إيجابـــية سياســـياً واجتماعيا وثقافيا، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك الـــتحولات، ليصـــل إلي أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلـــك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

فـــي طـــور نشـــأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابـــية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافية العربـــية والإســـلامية[١]. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والـــبلاذري، وابـــن طـــيفور، واليعقوبـــي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[٢].

وبتتـــبع منحـــي ســـير هؤلاء المؤرخين[٣] نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوســـطي التـــي تبنـــت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير[٤]، بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

ومـــا يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهـــم مـــن إشـــكالية التعلـــيل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور الحديـــث عـــن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه[٥]، صحيح أن جـــل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقها، لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها، وفي هذا المعنـــي ذكـــر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتمادي في كل ما أخطرت ذكـــره فـــيه ممـــا شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والأثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

---

[1] جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص١٥٣، بيروت ١٩٦٤.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص٤، القاهرة، ب .ت.

[3] راجـــع: محمـــود إســـماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـــ١، ص٢٨٦، ٢٨٧، الدار البضاء ١٩٨١.

[4] روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص٩٢، بغداد ١٩٦٤.

[5] أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص٣٣، القاهرة، ب . ت .

والـــدارس لأخبار اليعقوبي[٦] لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بيـــن حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رؤي أخري وضـــعانيه وعلمـــيه، فالـــبلاذري – مـــثلاً – عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخـــية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مســـألة الصـــراع علـــي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضـــع بعيـــنها أيضاً – مثل والله أعلم – ما يدل علي موقف مضمر للمؤرخ يفهمه القـــارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة[٧].

ولعـــل تلـــك المحاذيـــر والإكـــراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفســـيرات أســـطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية[٨]. كذا تعويل البعض الآخر علـــي التفســـيرات العنصـــرية[٩] والطائفـــية تحـــت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[١٠].

وقـــد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النعرات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية.

بديهـــي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهـــور مكانـــة علـــم الـــتاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتـــباره يفـــتقد إلي صفة العلمية[١١]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودى، حين اعتـــبر مؤرخـــي العصـــر مســـئولين عـــن تدهور علم التاريخ "وإبادة وآثاره وطمس

---

[6] كتاب البلدان: ص٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

[7] ياقوت: معجم الأدباء، ج١٨، ص٩٥، طهران ١٩٦٥.

[8] عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، جـــ١، ص٢٩٣ – ٢٩٤.

[9] راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

[10] عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـــ١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

[11] روزنتال: المرجع السابق، ص٤٨.

منارة[١٢]"، خصوصاً من أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس[١٣]، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن النديم[١٤] لذلك لم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين[١٥]"، فهموا غاية التاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلاطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا[١٦]".

لقد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلي حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المروزي (ت ٢٧٤ هـ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان[١٧]"، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام[١٨]".

وجري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن[١٩]" التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهي والأمر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلي التفسيرات الأسطورية والإثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية[٢٠]، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[٢١].

---

12 المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

13 بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

14 الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

15 أنظر: شاكر مصطفي: التاريخ والمؤرخون العرب، جـ١، ص٢٠٤، بيروت١٩٨٣.

16 ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

17 نفسه، ص١٥٠.

18 نفسه، ص١٥٢.

19 صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

20 سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، ص١٢١، قطر ١٩٩٧.

21 روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

أمـــا عـــن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأســـيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التعليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها[٢٢].

ومـــع ذلـــك تأثر البعض الأخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخـــل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفـــق مـــنطق "الدفـــاع" عـــن مذاهـــبهم وأيديولوجـــياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم[٢٣].

فعلـــي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـــ) لبعض حركات المعارضـــة، لكـــن كتابه صودر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (ـت ٢٩٩ هـــ) كتاباً عن الشيعة لاقي نفس المصير، وإذ أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، مـــن المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفـــي نفـــس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـــ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فـــاتخذت فـــي الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعـــظ أو الدعـــاء مـــن أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخلفاء" و "ذم المنكر" و " الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتنكب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علـــي أن الـــرؤى العقلانـــية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضـــة. بـــل لا نعـــدم وجـــود ثلـــة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضـــوعاً ومنهجاً، تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين

---

22 عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١.

23 نفسه،ص١٨٢،١٢٧.

الـبورجوازية والإقطـاع، ومـن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقـوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصـراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودى (ت٣٤٦ هـ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف علي رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعـل فـي حياة المسعودى إبان أواخر عصراً "الإقطاعية المرتجعة" وأوائل عصـر "الصـحوة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء علي عقلانيته وموسوعيته[٢٤]. يضاف إلي ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلي الطبقة الوسطي اجتماعياً، وإلي الاعتزال الـزيدي مذهبـيا[٢٥]، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافـيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله علي الرحلات طوال أربعين عاما[٢٦] كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

فـي كـتابه "مـروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية السـابقة، ففـي عرضـه الأحـداث مـزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلـوق"[٢٧] كمـا يذهـب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرفيا والـثقافة أو وقوفـه علـي مـا يمكـن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كـذا بيـنه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر[٢٨].

---

24 شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٧، ٤٨.

25 المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

26 المسعودي، التنبية والإشراف، ص٧، ليدن، ١٨٩٣.

27 مروج الذهب، جـ١، ص٢٦.

28 نفسه، ص٨٤، ٨٥

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضـــارة، مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[٢٩] تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تأريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي والحضـــاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[٣٠].

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التنظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمـــنة الطويلة، فأتيح له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" علي حد قوله[٣١].

وفـــي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكـــتاب يعد أخر ما صنف المسعودى، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفـــاد فـــيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صـــورة أحكـــام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثـــير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا[٣٢]" كمـــا عـــرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقـــارن، حيـــث تـــابع ورصـــد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصـــل" و "الاستمرارية[٣٣]" في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غـــرو فقـــد تـــابع تأثـــيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية[٣٤]، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

---

[29] نفسه، ص١٣٧ – ١٧٠.

[30] شاكر مصطفي، المرجع السابق، جـــ١، ص٥٢.

[31] مروج الذهب، جـــ١، ص٦.

[32] التنبيه والإشراف، ص٥،٦.

[33] نفسه، ص١٣٧ وما بعدها.

[34] نفسه، ص٢١٤، وما بعدها.

وفـــي عرضـــه للـــتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامة[35]، فطـــرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف المخـــتلفة لـــتدخل ضـــمن موضـــوع التاريخ، نؤكد صدق حكم بعض الباحثين[36] بأن المسعودى قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

ونذهـــب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودى من رواد فلسفة التاريخ ولا مبالغة في ذلك ألبته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث عـــن "نشـــأة الـــدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك[37]" ودعوته إلي ضرورة معرفة المـــؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات الخارجـــية المفترضة لذلك[38]"، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون "بالظـــروف الموضـــوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً لإحـــداث "حركـــية" الـــتاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر الظواهـــر الماديـــة[39] والروحية التي توحدت في مخيال المسعودى وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً.

كانت جهود المسعودى في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار الفكـــر التاريخـــي خـــلال القـــرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخـــامس الهجريـــن الـــذي شهد "صحوة بورجوازية" تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهـــي أن يـــتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

---

35 نفسه، ص٣١، وما بعدها.

36 أنظر: شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـــ٢، ص٤٧.

37 التنبيه والإشراف، ص٣.

38 نفسه، ص٤.

39 روزنتال: المرجع السابق، ص١٨٧.

ولعـــل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساء الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب.

مـــنها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة ســواء علـــي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلـــك الإفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترســـخ فـــي هـــذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتـــباس مـــنهج أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله أحتل علـــم الـــتاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم[٤٠]، فقد أفرد الخوارزمي بابا "لأخبار الـــتاريخ" فـــي مصـــنفه "مفاتـــيح العلـــوم[٤١]" كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة[٤٢]" في كتابة "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتثقيف الأتباع والأعوان.

ولـــيس جـــزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "فبلغ سن الرشد[٤٣]" واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلـــم موضـــوعاً ومـــنهجاً ورؤية[٤٤]، فتحول من الرواية إلي الدراية[٤٥] ولا غرو، فقد تطـــورت موضـــوعات الـــتاريخ المطـــروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة،

---

[40] جب: المرجع السابق، ص٧٧.

[41] ص٦٠ – ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

[42] الفهرست، ص٣٧ وما بعدها.

[43] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٢٠٣.

[44] ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين ص١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

[45] عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

كالاهــتمام بالـــتاريخ الاقتصـــادي ومفـــرداته[46]، ومـــزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة[47] والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشـــهدت المظـــان التاريخـــية تطـــوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكـــرات الخاصــــة والآثـــار والـــنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة[48]، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

وأفضـــي مـــناخ التســـامح والحـــرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذيـــر التـــي كانـــت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضـــوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كـــادت لـــنجد بعـــض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه[49]، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرســـت" خصصـــه لمـــا وقـــف علـــيه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم[50]".

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهـــتمام علـــي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التثقيف والتربية والتـــنوير[51]، كمـــا جمـــع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مســـكوية علـــي ســـبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب[52]. وفي هذا

---

46 روزنتال: المرجع السابق، ص١٦٣.

47 ابن النديم: المرجع السابق، ص١٢٠.

48 ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ١، ص٢٤٠. القاهرة ١٩٥٧.

49 بروكلمان: المرجع السابق، ص٦٠.

50 الفهرست، ص٣.

51 محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

52 شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٤٥٤.

الـباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه[٥٣]".

ويشـي هـذا النص المقتصب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصـر، ومـا يعنيـنا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير[٥٤] بحيث عـرف الـبعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال[٥٥]" واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكـر الحـدث "بذكر السبب[٥٦]" كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غـرو. فقـد أخضـع مؤرخـو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والغيبية لسـلطان العقـل[٥٧] فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهـم "فالـناظر في كتابنا هذا كالمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعالـه[٥٨]" ولـم يجـد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم[٥٩]، فتناولوا الكثير من القضـايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني[٦٠] علي سبيل المثال جمـع بيـن الـتاريخ الدينـي والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذانا بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصـفا بـدور بـارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

---

53 أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص٤، القاهرة ب. ت.

54 عبد العزيز عزت، ابن مسكوية، ص٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

55 أبو شجاع: المرجع السابق، ص٥.

56 هلال الصابي: تاريخه، ص٣٣٦، القاهرة، ب. ت.

57 سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٢٢.

58 المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، جـ١، ص١٧.

59 روزنتال: المرجع السابق ص٢٠١.

60 أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٢٧، برلين ١٣٤٠هـ.

يقــول الإخوان[61] "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قــرناً بعد قرناً ومن أمة إلي أمة، ومن بلد إلي بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبــتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصي غاياتها، ومدي نهاياتها، تســارع إلــيها الانحطـــاط والنقصـــان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخريــن مـــن القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

ونعـــتقد أن الكثيريـــن[62] من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعــل مــن أشــهرهم مســكويه (ت ٤٢١هــ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته.

يجمــع الدارسون علي أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويــل الوقــائع إلي أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تعليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتــبر مسكوية التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابة "تجارب الأمم" شاهد أمين علي ذلك.

ومـــا يعنيــنا إثباته أن رؤية مسكوية للتاريخ من نتاج عوامل شتي، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة.

مـــنها أيضـــاً حظـــه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلســفية والأدبية والاجتماعية، والإجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

---

[61] رســائل إخــوان الصفا، جــ١، ص١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

[62] أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص٣٥٠، بيروت ١٩٧٣.

والجديـد الـذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولـو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز[٦٣]" لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبوقة بالتفكير والتدبير[٦٤].

وقـد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرادتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير[٦٥]"، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد مشـاهداته وصـلاته واسـتخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض[٦٦] أهم ما كتـب فـي التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكوية إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب الـنوم بهـا[٦٧]"، ومـن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

مـن الجديـد الـذي تفـرد بـه مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة[٦٨]، واسـتخلاص العوامـل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبري، وفي هذا الصـدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً بأعتبارها العامل المؤثر في السياسة[٦٩] بل في العمران كله[٧٠].

وحـق لنا أن نسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خـراب العمـران فـي العالم الإسلامي الوسيط[٧١]، وتفسير حركات العيارين وثورات

---

63 مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص٣، طهران ١٩٧٨.

64 نفسه ص١٥٠.

65 أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

66 روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٦.

67 تجارب الأمم، جـ١، ص٢٢.

68 مرجويوث: المرجع السابق، ص١٢٣.

69 نفسه، ص١٤٣.

70 تجارب الأمم، جـ٢، ص٦٩، القاهرة، ب. ت.

71 نفسه، ص١٤٣.

العـوام بالسياسات والإجراءات الإقتصادية المشتطة[72]. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحـوال السياسـية وازدهار العمران بالسياسات الإقتصادية الرشيدة[73]، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفطن إلي أهمية التفسير المادي للتاريخ.

فـي نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت٤٤٠هـ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبري، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

كـان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً، إشتغل بالسياسة ثم لفظهـا إلـي العلـم والمعـرفة[74]، فحـاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافـيا إلـي جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبري في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح[75].

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوي كتاب "تحقيق مـا للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة" وكتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعنيـنا هـو الوقـوف علي رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحري ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخري، بما يشـي بأتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب علي دراسات معمقة في العقائد والإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، إلـي جانب أبحاث أخري في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة[76].

---

[72] نفسه، ص٩١.

[73] نفسه، ص١٢٨،١٢٧.

[74] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، ص١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

[75] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ٢، مجلد٢، ص ٤٠، ٤١، القاهرة ٢٠٠٠.

[76] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤ وما بعدها.

وبـــرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتســاق يــنم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهــم مــن ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحســوس والمعقــول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة مــتوحدة أيضـــاً، تأسيســاً علـــي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت في هذا المعني جميع الأمم[٧٧]، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جــدال فـــي أنـــه قـــدم رؤيـــة فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفـــي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قـــيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين[٧٨]"، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقـــي بمعـــناه العلمـــي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمـــل أو صـــناعة أو حـــرفة[٧٩]"، مـــنها أيضـــاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول[٨٠] انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل[٨١]" والحضارة "مشترك إنساني عام[٨٢]".

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجـــود المـــادي ثانياً، والفعل البشري أخيرا[٨٣]، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصـــل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة

---

77 نفسه، ص١٣٨.

78 نفسه، ص٥٥.

79 نفسه، ص٧٠.

80 نفسه، ص٧٨.

81 نفسه، ص٣٥.

82 نفسه، ص١١٩.

83 نفسه، ص١٠٧.

وإشكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلك "لقد أعيتني المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي"[٨٤].

ومن أهم ما استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعا "فليس الخبر كالعيان.. لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده ... أما الخبر فيكون عن الشيء الممكن الوجود"[٨٥] وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية في الكتابة التاريخية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفاوت الهمم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين"[٨٦].

ونعتقد أنه وقف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أما عن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكثر تفلسفاً وأعمق نظراً، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمة الإنسان، وفي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثمين، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقي لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي

---

[84] نفسه، ص١٢.

[85] نفسه، ١٣.

[86] نفسه، ص٦٤.

عــرض له البيرونــي في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول[87]".

وبصــدد التميــيز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاســتدلال بــالمعقولات، والقــياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتظافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو[88]".

لقــد عــول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معــرفة الشــاهد، تأسيســاً علــي وحــدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي. ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم[89]".

هــذا المنهج القويم – فيما أري – جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعــية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نســميه الآن "بالمــنهج الكمــي" "الكوانــتوم" المؤســس علــي الجداول والإحصاءات والمعــادلات الرياضــية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية[90]، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلــم والــثقافة فــي الإســلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

87 البيروني: الآثار الباقية، ص١٠٠.

88 نفسه، ص٤.

89 نفسه، ص٢٠٤ وما بعدها.

90 عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص١٠٥ علي سبيل المثال.

الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى عصر سلاطين المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

محاسن محمد على الوقاد

مصر

يشكل تاريخ المماليك في مصر تراكماً للمصنفات والسجلات المليئة بالغموض والتناقض، الناجمين عن طبيعة تكوين طوائف المماليك، وطريقة تربيتهم وأسلوبهم في الحكم، وعن طبيعة تقاليدهم البدائية التي لم تكد تتهذب وتتأقلم بالبيئة المصرية المتحضرة، حتي تغذيها موجات مغولية جديدة بعقليتها البدائية، وأمزجتها وطبيعتها غير المصقولة ، وقد ترتب علي ذلك أن الموجات اللاحقة أخذت في إفساد ما اكتسبته الموجات السابقة عليها من ألوان الثقافة والتحضر والتأقلم بالبيئة المصرية[1]، ولا جدال في أن طبيعة المماليك الذين حكموا مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) لم تتح لهم أدراك المفهوم الصحيح للأسرة ، بل لم يكن لديهم حياة عائلية بالمعني المعروف، رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج وعلى إنجاب الأطفال ، ذلك أن أسلوب المماليك في الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى : الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك[2] .

أضف إلى ذلك أن الدولة المملوكية كان يسودها النظام الإقطاعي الذي يميزه وجود طبقتين إحداهما أرستقراطية تمثل الثراء والبذخ، والأخرى وهى طبقة العوام التي كانت مستردية في الفقر والعوز ، نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية [3] .

---

(١) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٤ .

(٢) أحمد عبد الرازق ، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثاني ١٩٧٧ م ، ص ١٨٨ .

(٣) HOLT (P.M), Scenes of Daily life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Lands, in the Period of the Crusades, Worminster, England, 1977, P. 79; Poliak (A.N), Some Notes on the Feudal System of The Mamluk, Jras, 1937, pp. 97-107; Feudalism in Egypt, Syria Palestine and The Lebanon, 1250 – 1900,

وفـــي ظـــل هذا النظام استأثر المماليك بكل خيرات البلاد، ولم يتركوا لأهلها سوى الفتات[١] وحياة الفقر والفاقة[٢] .

ومـــن مظاهر القهر الاقتصادي الذى تعرض له العامة فى ذلك العصر احتكار الدولة لتجارة بعض السلع الأساسية وتحديد سعرها بما لا يتناسب مع القدرات الشرائية لهذه الطبقة[٣].

كانـــت العلاقـــة بيـــن السلطان والعامة ترتبط بالأحوال الاجتماعية والظروف السياســـية والاقتصـــادية التي تمر بها الدولة ، ذلك بالإضافة إلى طبيعة السلطان ذاته وميوله واتجاهاته فى الحكم ، وكانت الضرائب مؤشراً هاماً يعكس طبيعة هذه العلاقة، وغالـــباً ما كان فرض الضرائب سبباً من الأسباب الأساسية في إثارة العامة، حتى وإن كان فرضها مرتبطاً بتجهيز الجيش للدفاع عن البلاد [٤].

علـــى أن خضوع مصر لأرستقراطية حاكمة من المماليك تفننت في استغلال الـــبلاد وأهلها ، لم تفقد المصريين روح المرح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، ولـــم تضعف هذه الروح حرمان الأهالي من المشاركة في حكم بلادهم أو قسوة الحكام فـــي عقـــاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد أو حتى الأوبئة التي تعرضت لها مصر بين حين وأخر في عصر المماليك[٥].

The Royal Asiatic Society, London, 1939, pp. 1-17; Lane – Poole, History of Egypt, pp. 252-253.

(١) محمـــد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد (١) ١٩٨٣م ، ص ٢٠٦ .

(٢) محاســـن محمـــد الوقـــاد ، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٢٥ .

(٣) Sobernhetm (M), Encyclopedia of Islam, art. Mamluks, Leiden, 1987, Vol. 7, p. 217; محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ١٢٥ .

(٤) عـــلاء طه رزق ، عامة القاهرة فى العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق، كلية الآداب ، ١٩٨٩م ، ص ٨٦ .

(٥) ســـعيد عاشـــور ، المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ط (١) القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ١٠٠ وما بعدها .

والشـعب المصـري مـن أكـثر الشـعوب الإسلامية مواجهة لظلم الحكام وطغـيانهم، فهـو يقاومـه وإن خضـع له على مضض ومقاومته له قد تصل إلى حد الثورة[1].

وبالـرغم مـن سـوء الأحـوال الاقتصادية والاجتماعية للعامة في ظل حكم المماليك ، إلـى جانـب تفشى الأوبئة والمجاعات التي حدثت من وقت لأخر، والتي كانـت تحصـد أغلبهم ، رغم كل ذلك لم تفقد العامة روح المرح والتسلية بالاستمتاع بـبعض وسـائل الترفيه عن النفس ، وهذه السمة ظلت عزاء للعامة المصرية الكادحة ومتنفسـاً لهـا فـى الاحتفالات الكثيرة التي حظي بها العصر المملوكي[2] ، فقد أطلق الـرحالة ابـن بطوطـة وصفه لأهل مصر على اختلاف طبقاتهم بأنهم " ذوو طرب وسرور ولهو "[3].

وقـد تجلـت روح المقاومة الشعبية في التراث الأدبي الشفاهى أو الشعبي ، ولا سـيما فـي فـترات حكم السلاطين المستبدين ، وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في وأد روح المقاومـة الإيجابـية أو العسـكرية التي كانت تشكلها هبات العامة، وانتفاضاتهم المسـتمرة، بـزعامة الحرافيش والشطار والعيارين والزعار وأشباههم من البطالين أو العاطليـن ، فـإنهم لـم يـنجحوا أبـداً في سلب هؤلاء العوام روح السخرية المريرة المشـهورة الـتى توسـلوا بها أدبياً وفنياً واجتماعياً ونفسياً، فى التنفيس عن معاناتهم وآلامهـم وآمالهم وأحلامهم، في الخلاص من بطش هؤلاء المستبدين المغرورين الذين مسهم الرق يوماً ما[4].

---

(1) عـبد المـنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، م١٢ ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٩ .

(2) محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ٢٤٧ .

(3) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٩ ؛ نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ١٣١ .

(4) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٧٩ .

إن الأدب الشـعبي والأدب العامي كان يمس كل منهما الحياة الاجتماعية من جمـيع جوانـبها ، فهمـا تعبـير عـن خلد القطاع الاجتماعي الغفير، بما يعتريه من مؤشـرات اجتماعية أو هزات سياسية أو طبقية ، وما إلى ذلك مما ينتاب الشعوب من تغير في السلوك[1].

لقـد اضـطر المجـتمع الشـعبي إزاء المحن التي ألمت به، وفشله الدائم في مواجهـتها مـن ناحية، وعجزه عن تحقيق شخصيته ووجوده تحقيقاً إيجابيا، من ناحية أخري، بعد أن جرده ظالموه من إمكانيات الرد ، إلى أن يلوذ بالسلاح الوحيد الذي لا يمكـن لأحـد أن يجـرده مـنه - وهو لسانه - وإن قطعوه أحياناً ، ولكن عبثاً حاولوا القضـاء على روح السخرية أو الفكاهة عنده، كما اضطر إلى الخروج النفسي من هذه المحـن والكـوارث بالفكاهـة والتـندر والسخرية متخذاً منها ملاذاً ومهرباً ومخرجاً ومتنفسـاً وعـزاء واستنكاراً ، فقد أدركت العامة بفطرتها وفطنتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلي ملهاة [٢].

ولا يعـدم الباحـث فـي الـتاريخ المصـري المملوكـي أن يعثر في زحمة المتناقضـات وفـى غلبة الأحداث اليومية الصاخبة على طرفة من الطرف الجميلة أو نـادرة من النوادر الشيقة، أو أعجوبة من الأعاجيب المثيرة ، التي لا تخرج عن كونها مجموعـة مـن المرايا الصافية التي تصور حياة المجتمع المصري المملوكي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً ، والتي تلقى ضوءاً كاشفاً على ما يجرى بداخله[٣].

إن العامـة حيـن اتخذت من الفكاهة سلاحاً تطعن به طبقة المماليك تفننت فى إبداعهـا الشعبي في ابتكار ما يمكن أن نسميه أدب السخرية والفكاهة، باعتباره إحدى الوسـائل الفنية والنفسية البارعة، في محاربة السلطة الجائرة وكشف ألاعيبهم، وفضح جورهـم وبطشهم وأنانيتهم وجشعهم واستغلالهم وصراعهم الدموي ، إن هذا اللون من

---

(١) صادق الجمال ، الأدب العامى ، ص ٧٥ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨١ .

(٣) نظير حسان ، صور ومظالم ، ص ٥ .

الأدب الشـعبي قد زود العامة بقدر من المناعة أو الحصانة النفسية ، وعمل على رفع روحهـم المعـنوية وتـزويدهم - ولـو إلى - حين بجرعة من الشجاعة والقدرة على المجابهـة والصمود والتحدى ، هذا الأدب الموجه ضد بعض القيود المفروضة عليهم فى ظل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة[١].

بل إن هذا الأدب الشعبي - في كثير من نماذجه الأصلية - تجاوز فى وظيفته التعبـير عـن روح الشـماتة والتشفى من حكامه المماليك، إلى تحقيق الشعور بالتفوق والاستعلاء والأصالة والانتصار[٢].

وقد ظهرت هذه الروح بوضوح في بعض الألقاب والكنى التي أطلقها العامة، علـى بعض سلاطين المماليك والأمراء وكتاب الدواوين على سبيل التهكم والسخرية ، أو مـودة وحـباً فـى السلطان مثل السطان " ركين "[٣] أو السلطان يلباى "المجنون"[٤] والسـلطان "بخشـى"[٥] ، و "سـلطان لـيلة"[٦] و " سـلطان الجزيرة "[٧] و" السلطان أبـو عيشـة "[٨] ، وهـذه الألقاب والكنى إنما تشير إشارة ساخرة إلى سلوكهم أو إلى كونهـم العوبـة فـي أيدي الأمراء ، أو إلى أنهم لم يلبثوا في السلطة غير ليلة واحدة أو تسلطن بعضهم في الجزيرة - بالنيل - لا العاصمة أثر انقلاب دموي .

---

(١) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره محمد مصطفى زيادة ، جـ٢ ق١ ، لجنة التأليف والنشـر ، ١٩٤١م ص ٥٥ ، ابـن إيـاس ، بدائـع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ق ١ ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٤٢٥ .

(٤) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٦) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٧ .

(٧) ابـن تغـرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، بدون تاريخ ، جـ ١١ ، ص ٣٧ .

(٨) المقريـزى ، السـلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٦ ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٨١ وما بعدها ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

وبـادئ ذي بـدء يتوجب علينا هنا تعريف الألقاب والكنى لغة واصطلاحاً :
يخـتلف المعـنى اللغـوي للقب عن المدلول الشائع، فاصل اللقب في النَّبزَ ، وهو ما يخاطب به الإنسان من ذكر عيوبه ، وما يحب ستره ، وقد ورد فى القرآن الكريم بهذا المعـنى في قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّـنْهُمْ ولا نِسَـاء مِّـن نِّسَـاء عَسَـى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَـابِ "[١] ثم أجيز استعمال اللقب في موضع النعت الحسن ، وكثرا استعماله بهذا المعنى حتى اصطلح على مدلوله: التشريف والمدح[٢].

على أن الكتاب فى عصر المماليك قد اصطلحوا فيما بينهم على مدلول خاص للقـب ، وفـرقوا بيـنه وبين ما سموه بالنعت؛ فسموا صفات المدح التي ترد بصيغة الإفـراد، أي التـي تـتكون مـن لفظ واحد، مثل الفاضل والشيخ ونحو ذلك ، ألقاباً ؛ وصفات المدح التي ترد على صورة التركيب ، أي التي تتكون من أكثر من لفظ واحد مـثل مولـى أمير المؤمنين، ونصير الإسلام والمسلمين، وعضد الملوك والسلاطين، ونحـو ذلـك نعوتـاً ، والنعت في اللغة: الصفة ؛ وكان يطلق على ما يختاره الإنسان ويـزيد في إجلاله، وهو بهذا المعنى عكس اللقب بمعناه الأول ، غير أنه استعمل أيضاً فـي الـذم ، وعلى هذا اتفق مع اللقب في جواز استعماله للمدح أو للذم ، وأخيراً غلب العرف استعمال كلاً من النعت واللقب لصفات المدح والتكريم[٣].

وفـيما يـتعلق بالكـنى : كـنى عن كذا كنايةً : تكلم بما يستدل به عليه ولم يصرح، كُني و - الرجل بأبي فلان وابا فلانة كُنيةَ أطلق عليه هذه الكنية[٤].

---

(١) قرآن كريم سورة الحجرات آية رقم ١١ .

(٢) حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ١ ؛ مجمع اللغـة العربيـة ، المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٥٦١ ؛ الفيروزابادى ، القاموس المحيط ، جـ ١ ١٩٧٧ م ، ص ١٢٨ .

(٣) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١.

(٤) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، ص ٥٤٣ .

أمـــا بحثنا هذا فنعنى بالألقاب؛ ما يطلق من الصفات رسمياً على سبيل المدح والتشـــريف أو الـــذم، بحيث يخرج من نطاقه الألقاب الشعبية التي لم تمنح لأصحابها بطريق رسمي .

وقـــد وجـــدت بعـــض الألقاب والكنى لم تفسر لنا المصادر المملوكية المعاصرة سبب إطــــلاق هذه الألقاب فبقيت بلا معنى ، في حين وصلتنا تفسيرات لأغلب الألقاب التي أطلقت على السلاطين وبعض الأمراء إبان العصر المملوكي .

أمـــا عن الألقاب التي أطلقتها العامة على الأمراء مثل الأمير عز الدين ايغان المعـــروف بســـم المـــوت[١] والأمـــير طشتمر المعروف بحمص أخضر [٢] ، والأمير قطلوبغـــا الفخـــري المعروف بالفول المقشر[٣] ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى المعـــروف بـــالدم الأســـود[٤] والأمـــير ناصر الدين فأر السقوف[٥] ، والأمير طشتمر طلـــيلة[٦] ، والأمير شمس الدين محمد أبى رقيبة[٧] ، والأمير أزدمر العزى المعروف بـــأبو دقـــن[٨] ، والأمير الطنبغا العلاى المعروف بفرفور[٩] ، والأمير على بن أيدمر المعـــروف بالمـــزوق[١٠] والأمـــير اســـندمر الديـــاح[١١] ، والأمـــير يلـــبغا الأحمدى المجـــنون[١٢] ، والأمـــير أبـــو زلطة[١٣] ، وطشتمر المحمدى اللفاف[١٤] ، وعز الدين

---

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ص ١٨٧ وما بعدها .
(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .
(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ وما بعدها .
(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٥ ، ص ٤٤٨ .
(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٤٢٠ .
(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .
(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٧٦٦ .
(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .
(٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق١ ، ص ٤٠٠ .
(١١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، جـ ٢ ، ص ٣٣٥ .
(١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٥٧٤ .
(١٤) ابن تغرى بردى ، بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ٣٩٤ .

أيدمــر أبو درقة[1] ، والأمير ناصر الدين محمد بن الضانى[2] ، والأمير سن إبرة[3] ، والأمــير جمال الدين المعروف بأصفر عينه[4] ، والأمير أقبغا الطولوتمرى المعروف باللكــاش[5] ، والصاحب علم الدين يحيى المعروف بأبو كم[6] ، ومحمد محنى ذقنه[7] ، وشــمس الديــن محمــد بن عبد الخالق المناوى المعروف بالطويل وبالبدنة [8] ، وتاج الديــن ابــن أحمد بن على المعروف بابن المكللة[9] ، والأمير يشبك الساقى المعروف بالأعرج[10] ، وفخر الدين بن السكر والليمون[11] ، والأمير خاير بك المعروف بخاين بــك[12] ، والأمــير أزدمــر تمســاح[13] ، والأمير قانصوه المعروف بهات لبن[14] ، والأمير المعروف بروح له باشا[15] ، والأمير المعروف بالفاجر[16] ، والأمير قانصوة الســيفى أبــو ســنة[17] ، والأمــير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير

---

(1) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٦٠٨ ، ٨٦١ .

(2) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٧٧٠ ، ٨٠١ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان كثير الأكل خاصة لحم الضأن بالإضافة إلى أنه كان سم .

(3) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

(4) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٣ .

(5) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٨٩٤ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتخبط فى تصرفاته وسلوكه أمام الآخرين .

(6) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧٩.

(7) المقريــزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٣ ، ص ١١٤٠ ، ١١٧٣ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يميل إلى وضع الحناء على ذقنه .

(8) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٤٩ ، ١٧٠ .

(9) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٧٦٦ .

(10) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ٢ ، ص ٧٦٣

(11) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(12) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٧٦ ، ١١٠.

(13) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

(14) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لوجود سنه فى فمه مختلفة عن باقى الأسنان .

(15) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(16) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤ .

(17) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص وما بعدها .

قانصـــوة كرت[١] ، والأمير مصرباى المعروف بالأقرع[٢] ، والأمير ارزمك المعروف بالناشـــف[٣] ، والأمير برسباى حداية ، والأمير حاصل ماتم[٤] ، والسنجق أو الصنجق أبـــو نـــبوت ، والصنجق سبع بنات ، والصنجق غليظ الرقبة ، ، وصنجق (سُتّة) ، لأنه حصل على الثراء من سيدته بعد أن تزوجها[٥] ، وهى أسماء وألقاب وكنايات ونعوت، وجـــه الهزء فيها مستمد من لوازم سلوكية أو حركية أو قولية ، كانوا يقومون بها على شـــكل آلى جامد ، فارتبطت بهم ، فالتقطتها العامة ، ولصقوها واكتفوا باسم " الشهرة " الساخر الذى أطلقته العامة عليهم .

ويمكن تصنيف الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى إلى الآتى :-

- ألقـــاب وكنى تدل على المدح مثل لقب الأعرج الذى أطلق على السلطان الناصر محمـــد، وعلي الرغم من أن هذا اللقب يعنى الذم، فإن العامة أطلقته على الناصر لأن بـــه عـــرجاً خفيفاً، إلى جانب أنها كانت تكن له حباً ومودة ، سم الموت الذى أطلـــق علـــى الأمير عز الدين ايغان ، وحمص أخضر (طشتمر) والفول المقشر (قطلوبغا).

ألقـــاب وكـــنى تدل على السخرية والاستهزاء مثل الأمير طللية ، الأمير أبو دقن، الأمير اللفاف ، الأمير أصفر عينه .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ١١٠ ربما اطلق عليه هذا اللقب لأن رأسه كانت خالية من الشعر .

(٣) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المرجع أنه أطلق عليه هذا اللقب لضئالة ونحافة جسمه الزائد عن العادة .

(٤) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المحتمل أنه لقب بهذا لكثرة كلامه دون أن يفعل شيئاً .

(٥) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ .

- ألقاب الذم والتقبيح مثل رِكَيْن ، دقين ، المجنون ، سلطان ليلة ، الدم الأسود ، فأر السقوف ، سن إبرة ، أبو زلطة ، أبو كم ، الطويل ، المؤذى ، ابن المكللة ، الدباح ، الفاجر .
- ألقـــاب تدل على مدى ما وصل إليه بعض الأمراء من ضعف مثل هات لبن ، روح لو .
- ألقاب تدل على الخيانة مثل لقب خاين بك .
- ألقـــاب وكـــنى فكاهية ساخرة مثل سلطان الجزيرة ، فرفور ، المزوق ، الضانى، اللكاش ، محنى ذقنه ، السكر والليمون ، تمساح ، أبو سنة ، الموتر ، الأقرع ، حداية، ســـلام عليكم ، الأمير حلاوة ، حاصل ما تم ، الأمير أبو نبوت ، الأمير الصنجق سبع بنات ، الأمير سنجق ستّه .

والآن ينـــبغى الـــتعرض بالتفصيل لكل لقب ودلالته التاريخية، على حده وفقاً للتصنيف التالى :–

أولاً : ألقاب المدح :

الأعرج :

أطلـــق هـــذا اللقـــب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون،[1] أثناء سلطنته الثانـــية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـــــ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م حيـــن تحكم كل من الأميرين سلار وبيـــبرس فـــى تصرفاته ، فضاق بهما وبتصرفاتهما[2] ونفذ صبره وشكا من ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً له ، فتظاهر برغبته فى الحج

[1] Amalia Levanoni, A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun (1310 - 1341), *Mamluk Studies Review*, Vol. I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179 Sato Tsugitaka , The Proposers and Supervisors of al-Rawk, al-Nasiri in Mamluk Egypt, *Mamluk Studies Review*, Vol II, Chicago, 1998, pp. 75, 85, 91.

[2] محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م ص ٤٣ وما بعدها ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٥ ، ٢٢٦ .

حـــتى يســمح له بمغادرة البلاد ، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم فــي ســنة ٧٠٨ هـــ / ١٣٠٨ م[١] ، فــتم تنصيب بيبرس سلطاناً وعين سلار نائباً للسلطنة[٢] .

بــيد أن ســلطنة بيــبرس لم تدم غير سنة واحدة ، حيث لم تستقر له الأمور خلالهــا فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار ، ونسبت العامة هذا كله إلى بيبرس وكــرهوه وكرهوا عهده ، خاصة أنه اتبع سياسة العنف في معاملته للناس والأمراء ، فقــد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه ، وأعلنت العامة ســخطها بالــتظاهر فــي شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون ، ويصنعون كلاماً ويلحنونه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وفي الحدائق والطرقات بقولهم :

سلطاننا رُكَيْن

ونائبه دقين

يجينا الماء من أين

هاتو لنا الأعرج

يجي الماء يدحرج[٣]

---

(١) ابــن تغــرى بــردى الــنجوم الزاهرة ، جـــ ٨ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط (٢) القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١١٧ ، ١١٨ ؛

Urbain Vermeulen. Some Remarks on A Prescript of An-nasir Muhammad B. Qala'un on the Abolition of Taxes and the Nusyris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970,p. 198; David Ayalon, Discharges from service banishments and imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol II, Tel Aviv, 1972, p. 40; idem, The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, *Islamic Culture*, Vol. XXV, 1951, pp. 100, 101.

(٢) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ وما بعدها ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١١٨ .

فــوزى محمــد أميــن ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤هــ/ القاهرة ١٩٨٢م ، ص٣٠ وما بعدها ؛

The Encyclopedia of Islam, art. Baybars II, New Edition, Leiden 1960, Vol. 1, p.1126.

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ٤٦٧ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق (١) ، ص ٤٢٥ .

وكـــان لقب السلطان بيبرس الجاشنكير هو ركن الدين فسماه العوام " رُكَيْن " احـــتقاراً ، وكان الأمير سلار - نائب السلطنة أجرد ، فى حنكه بعض الشعيرات لأنه كـــان مـــن التتار فسموه دُقَيْن ، أما الملك الناصر محمد فقد كان به عرج خفيف فأطلق عليه العوام الأعرج[1] .

خلاصــــة القـــول أن العامــــة تعللـــت بعدم وفاء النيل ، وأعلنت رفضها لحكم بيـــبرس وتأيـــيدها للملـــك الناصر ومطالبتها بعودته من منفاه الى عرشه ، الأمر الذى ثارت معه ثائرة بيبرس حين رأى العامة تنشد هذه الأغنية ، فأمر بالقبض على جماعة مـــنهم ، فضـــرب بعضــــهم بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة، ورسم بقطع السنة البعض الأخـــر ، وازدادت معارضــــة العامة لحكم بيبرس ، وقد سارع بالهرب بعد أن وصل الناصــــر محمد إلى القاهرة قادماً من الكرك ، وعندما سمعت العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة[2] .

سُمّ الموت :

أطلـــق هذا اللقب على الأمير عز الدين أيغان بن عبد الله الركنى ، واصلة من ممالـــيك ركـــن الديـــن بيبرس[3] ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لجسارته وفتوته وسرعة انقضاضــــه على العدو[4] ، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم وشجعانهم ، كما كان من

---

(1) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ٥٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٢٥ وما بعدها ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م ، ص ٩٠ ، ٩١ .

Donald Little, An Introduction to Mamluk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhummud Ibn Qalaun, Wiesbaden, 1970, pp. 11, 14, 94, 111; David Ayalon, Names, titles and "nisbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel. Aviv Univ. 1975, pp. 208. 209.

(2) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٤٤ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابـــن إيـــاس ، بدائـــع الـــزهور ، جـ ١ ق ١ ص ٤٣٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(3) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(4) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

أبطـــال المسلمين ومشاهيرهم، وله المكانة العظيمة والحرمة الوافرة والكلمة المسموعة فــى عهــد الظاهر بيبرس، الذى اعتمد عليه فى المهمات ، وقد تولى عز الدين وظيفة تقدمـــة العســـاكر ، ولكــن ما لبث أن قبض عليه السلطان الظاهر بيبرس مع عدد من الأمراء وسجنوا بالقلعة[1] وتوفى فى سنة ٦٧٥ هــ / ١٢٧٦ م وكان أحد الموصوفين بالشجاعة والكرم مع شدة البأس[2] .

حمص أخضر :

هو الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بطشتمر حمص أخضر ، وقـــد اختلفـــت المصـــادر فى أسباب تسميته بهذا اللقب فقيل لأنه كان يحب أكله فلقب بـــه[3] ، على حين ذكر البعض الأخر أنه لقب به لكثرة صدقاته على الأيتام المعروفين بالحرافـــيش[4] ، كمـــا زعمـــوا أيضـــاً أنه عرف بهذا لأنه كان يوزع الفول والحمص الأخضـــر علـــى الحرافيش وفقراء الصوفية فى محاولة منه لاجتذابهم إلى جانبه حتى تقـــوى بهم شوكته تمهيداً لتحقيق مطامعه[5] ، وقيل كذلك إنه عندما كان فى الطباق كان لا يأكل سواه ، فسماه خشداشيته بذلك[6] ، أما فيما يتعلق بلفظة طشتمر فقيل أن معناها الصخر أو الحديد[7] .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها ، ص ٦٣٣ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـــ ٧ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابـــن حجـــر ، الـــدرر الكامـــنة فى أعيان المائة الثامنة طـــ ١ حيدر أباد ١٣٤٩ م ، جـــ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(٥) رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٩ .

(٦) الصفدى ، أعيان العصر ، جـــ ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٧) Sauvaget (J), Noms et Surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique* ,Tome CCXXXV III, Année 1950, p. 50.

وقـــد اشتراه السلطان الناصر محمد صغيراً، فرباه وحظى بمكانة كبيرة لديه ، ثـــم قـــبض علـــيه وعلى جماعة اتهموا بإثارة فتنة ، ثم أفرج عنه لما ظهرت براءته ، فاطلقه وذهب إلى الحج ثم اصبح من الأمراء الخاصكية[1] .

تـــدرج فـــي سلك الوظائف فتولى نيابة[2] صفد [3] ، ثم نقل إلى نيابة حلب[4] ، وقـــد كـــان طشتمر شديد البأس ظالم الصورة ، مرّ اللسان صعب الخلق ، كثير الشر وفيه يقول جمال الدين إبراهيم الأديب المعمار[5]

لما طغى طشتمر واعتدى

---

(1) ابن حجر ، الدرر الكامنة جـ ٢ ، ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠١ ؛

The Encyclopaedia of Islam, Art KHASSAKIYYA, New Edition, Leiden, 1978, Vol. IV, p. 1100.

(2) تأتى النيابة فى مقدمة الوظائف على اعتبار أن نائب السلطنة كان بمثابة الرجل الثاني فى الدولة المملوكية بعد السلطان مباشرة ، ولذا فقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه سلطان مختصر لقيامه مقامـــة السلطان أثناء غيابه ، ولاشتراكه معه فى توزيع الإقطاعات، وفى تعيين الموظفين ، بل والحكـــم فـــى كـــل ما يحكم فيه السلطان ، ومن ثم فقد كان النواب يشكلون خطراً على بعض السلاطين ، بل استطاع بعضهم بالفعل اغتصاب السلطنة لأنفسهم مثلما فعل كل من كتبغا فى عام ٦٩٤ هـــ / ١٢٩٤ م ، ولاجين المنصورى عام ٦٩٦هـــ / ١٢٩٦م ؛ مما دفع ببعض السلاطين إلـــى العمل على إضعاف هذا المنصب بل وتعطيله فى كثير من الأحيان ، أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧١ م ص ٤٣ .

(3) اليوســـيفى ، نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، بيروت ط ١ ١٩٨٦م ، ص ٣٢١ ، ٣٤٣ ؛ المقريـــزى ، الســـلوك ، جـــ ٢ ق ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ ابن تغرى بـــردى ، الـــنجوم الزاهرة ، جـــ١٠ ، ص ١٠١ ، المنهل الصافى جـــ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ حياة ناصـــر الحجـــى ، أنمـــاط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنيـــن الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الملاديين ، الكويت ١٩٩٥م، ص ١٥١ وما بعدها .

(4) الشـــجاعى ، تـــاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ، فيســـبادن ١٩٧٨م ، ص ٦٣ ، ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـــ ١٠ ، ١٠١ ؛ المنهل الصافى ، جـــ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، بدون تاريخ . جـــ ١٤ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(5) توفى عام ٧٤٩هـــ/١٣٤٨م ، انظر ابن تغى برمى النجوم الزاهرة ، جـــ١٠ ، ص ٤٨ .

تفاءل الناسُ بأقوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تزل مصر بأفوالها[1]

وفى عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م تقلد نيابة السلطنة فى مصر[2]، فاستغل صغر سن السلطان الناصر أحمد وتسلط وتحكم إلى درجة أنه عندما خلع السلطان أحمد على ناصر الدين المعروف بفأر السقوف وجعله إماماً للسلطان وناظراً للمشهد النفسى بدون علمه ، بعث إلى فأر السقوف بعدة نقباء ونزع عنه الخلعة وأمر بضربه وألزمه بحمل مائة ألف درهم وضربه عرياناً ، وأخذ منه المبلغ ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالاً يطلع إلى القلعة[3] .

ويدرك الحس الشعبى ، بعفويته وصدق فراسته أن المؤامرة لم تتم فصولاً فيقول شاعر شعبى مجهول ، لم تحفل ذاكرة التاريخ باسمه ، فى طشتمر عندما عاد من حلب لتولى نيابة مصر ، وبدأت مظالمه تترى :

لمـا رجعـت إليـنا ∴ مـن بعـد ذا البعد والبيـن

خلـناك تحـنو عليـنا ∴ يـا حمـص أخضـر بقلبيـن[4]

وقد أمر السلطان الناصر أحمد بالقبض على حمص أخضر ، وأخذه معه إلى الكرك ، وهناك أمر بقتله[1]. عرف الناس بمقتله فرحوا جميعاً بذلك فقد كان كما

---

(1) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٥٨ ، حياة الحجى ؛ دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ، ط ١ ، الكويت ١٩٨٦ م ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(2) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزى السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦١ ؛ الصفدى ، أعيان العصر . جـ ٢ ، ص ٥٩٠ .

(3) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ محمد عبد الغنى الأشقر ، نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(4) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٨ .

ذكـرنا سـابقاً "ظلوماً عسوفاً سيء الخلق جائراً على أهل مصر فى أفعاله ، حتى قال فيه إبراهيم المعمار :-

أوردت نفســــــــــك ذلاً
ورد الــــــنفوس المهانـــــة
وبالرشـــا حـــزت مـــالاً
مـــلأت مـــنه الخـــزانة
وكـــم علـــيك قلـــوب
يـــا حمـــص أخضـــر ملانـــة

وقوله فيه أيضاً :

جننـــت بـــالملك لمـــا
أتـــاك بالبســـط ماجـــن
وقـــد أمنـــت اللـــيالى
يـــا حمـــص أخضـــر وداجـــن

وقول فيه آخر من الشعراء :

طـــوى الـــرَّدى طشـــتمر بعدمّـــا
بـــالغ فـــى دفـــع الأذى واحترس
عهـــدى بـــه كـــان شـــديد القوى
أشـــجَع مـــن يركـــبُ الفـــرس
ألـــم تقولـــوا حُمصـــاً أخضـــرا

(1) ابـن حبيـب ، تذكـرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ ٣ ، ص ٦ : ؛ الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ص ٢١٢ ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمـودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٠٦ ، ٢١٧ .

تعجبوا بالله كيف إندرس[1]

وقد قام طشتمر بتشييد العديد من المنشات مثل الدار العظيمة التى ذكرها المقريزى فى خططه باسم دار البقر[2] ، كما عمر جامعاً بالصحراء ، والمئذنة الحلزونية والجامعين بالزريبة والربع بالحريريين ، كما أنشأ قبة بشارع العفيفى بجبانة المجاورين شرقى القاهرة[3] .

الفول المقشر :

لقب أطلق على الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بقطلوبغا[4] الفخرى، والملقب بالفول المقشر كناية عن لين عريكته وضعفه[5] ، اشتراه الملك الناصر محمد وأصبح من الأمراء الخاصكية[6] ، ولم يكن لأحد من الخاصكية سواه ولا من غيرهم حظوة لدى السلطان ، ولم يزل عند السلطان أثيراً عالى المكانة ، وكان يشتم السلطان فى اللعب ، ويقول له : " يا أعرج ! " وكان السلطان ينسبه إلى الجنون

---

(1) ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٧ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابن أبى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها ؛ فوزى أمين المجتمع المصرى ، ص ٣٤ ، ٣٦

(2) تقع هذه الدار خارج القاهرة بالنحاسين بجوار قلعة الجبل وبركة الفيل بخط حدرة البقر أنشأها الملك الناصر محمد داراً واصطبلاً للأبقار التى برسم السواقى السلطانية ، وعرفت بدار الأمير طفتمر الدمشقى ، ثم عرفت بدار الأمير طشتمر حمص أخضر ، أنظر المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(3) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ٢ ، ص ٥٨٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٥٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٠٢ ؛ المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ الأشقى ، نائب السلطنة ، ص ٢٩٩ .

(4) قطلوبغا أى سعيد الحظ أنظر Sauvaget. Noms et surnoms de Mamlouk, P. 53

(5) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٣٤ ؛ نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(6) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ ، وما بعدها ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، جـ٣ ، ص ٢٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، دراسات فى تاريخ المماليك ، ص ٢٦٦

ويقول : " هذا مجنون " وكان فيه هرج ورهج، خفيف العقل كثير الشغف بالفسق ، لذا كرهه السلطان ونفاه إلى الشام ، ثم عاد وأفرج عنه[١] .

كـــان الفخـــرى وطشـــتمر أخوين، تربوا جميعاً وتأمروا جملة فى بداية دولة الناصـــر محمد عند عودته من الكرك[٢] ، وقد أراد السلطان إمساكه هو وأخاه طشتمر حمص أخضر ، وكان يدعوه " أخى " فوقف الحرافيش تحت القلعة واستغاثوا ، ودخل خشداشيته على السلطان ، فأفرج عنهما ، وعرف أنه لا قبل له بهما[٣] .

وقـــد عيـــن قطلوبغـــا فى نيابة دمشق فى سلطنة الناصر أحمد[٤] ، ولما انفرد طشتمر بأمور الدولة دون السلطان فكر الناصر فى القبض عليه وهو وطشتمر ، وبعد خـــروجه إلـــى دمشـــق أرسل الناصر للقبض عليه ، ولما أحس بذلك فرق ما معه من الأموال وهرب ، ثم أمسك به وقيده ، ولما بلغ الناصر أحمد إمساكه خرج إلى الكرك، وأخذ معه طشتمر ، واعتقل الفخرى وطشتمر بالكرك مدة يسيرة ، ثم أمر بقتلهما[٥] .

ولما تم القبض عليه وقتل، قال الأديب خليل بن أيبك الصفدى شعراً :-

سَـــمَت هِمَّـــةُ الفخـــرى حـــتى ترفعت

علـــى هَامـــةَ الجوزاء والنسر بالنصر

وكـــــان للملـــــك فخـــــرٌ فخانـــــه

---

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ .

(٥) الشـــجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٨ ، ١١٩ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ المقريزي ؛ السلوك ، جـ ٣ ق ٣ ، ص ٦٠٧ وما بعدها ؛ ابن أبى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الـــزمان فأضحى ملكُ مصر بلا فخر[1]

ثانياً ألقاب الذم والقدح :

المجنون :

أطلـــق هذا اللقب على يلبغا الأحمدى المجنون ، ففى عام ٧٧١ هــ/ ١٣٦٩م أنعــم عليه السلطان الأشرف شعبان بتقدمة ألف ، وفى عام ٧٩٣ هــ/١٣٩٠ م استقر فـــى كشــف الوجـــه الـــبحرى[2] ، وفى عام ٧٩٨ هــ/ ١٣٩٥ م نقل إلى نيابة الوجه القـــبلى ، ثـــم فى عام ٧٩٩ هــ / ١٣٩٦م عين أستاداراً للسلطان خلفاً للأمير قطلوبك العلائـــى ، ومـــارس العمل فى الاستادارية والكشف ، وأمر بالقبض على ناصر الدين محمد بن محمود الاستادار وألزم بسداد ثلاثة آلاف دينار بعد موت أبيه[3] .

كما أطلق هذا اللقب أيضاً على سودون المحمدى المعروف بتلى أى المجنون، وكـــان من أعيان خاصكية مماليك السلطان الظاهر برقوق ، ومن ثم رقى فى أيام ابنه الناصـــر فرج إلى أمير مائة ومقدم ألف ، ثم قبض عليه وحبس بسجن الإسكندرية ، ثم أفرج عنه فى سنة ٨٠٧ هــ / ١٤٠٤ م ، واستقر فى الأخورية الكبرى[4] ، وبعد ذلك اســـتقر فى دمشق على إقطاع ، ولما رجع إلى القاهرة تم القبض عليه بسبب عصيانه للناصـــر فرج وحبس بسجن الإسكندرية ، وبقى هناك إلى أن قتل فى عام ٨١٨ هــ /

---

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٦ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جــ ٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، جــ ١٠ ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جــ ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٩٦ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٩ جــ ٢ ، ص ٣٣٥ ابن حجر، أنباء الغمر، جــ٢، ص٤٩٣ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جــ ٣ ، ق ١ ، ٢٠ ، ص ١٨٥ ن ٧٣٤ ، ٧٨٤ ، ٨٥٠ ، ٨٨٠ .

(٤) وظـــيفة يقـــوم صـــاحبها بالإشـــراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحـــيوانات ، انظـــر المقريزى ، السلوك ، جــ١ ق٢ ، ص ٤٣٨ هامش ٣ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٤ .

١٤١٥ م ، وقد ذكره العينى بقوله : " سودون المحمدى المجنون كان شاباً شجاعاً مفرطاً فى الجهل "[١] .

وأطلقت المصادر المملوكية هذا اللقب على بعض السلاطين ، فقد ابتلى العصر المملوكى بسلاطين ضعاف، لا يعرفون من أمور السلطنة أى شيء ، ولا يحسنون تدبير الأمور، فى وقت كانت فيه أحوال السلطنة متدهورة مفتتة ، فقد ولى السلطنة بعد السلطان خشقدم يلباى المقلب بالمجنون وذلك فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ، وكان أرشل قليل المعرفة ، فاطلقت عليه العامة لقب المجنون ، وقضى وقته على حد تعبير ابن إياس " فى غلاسة هو ومماليكه ، وكان ملبسه غلس وسماطه غلس ، وشكله سمج وتدبيره سيء ... فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان، وكان عنده شح زائد ، وبخل كثير ، سيء التدبير فى سائر أفعاله ؛ كما قيل فى المعنى :

وفظّ غليظ الطبع لا ودّ عنده
ولـيس لديه للأخِلاّء تأنيس
تواضعه كبر وتقريبه جفا
وترحيبه مقت وبشراه تعبيس[٢]

وكانت أيام سلطنته شر أيام مع قصرها ، وكان مع خايربك الدوادار فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة إلا مجرد الاسم فقط ولا يتصرف فى شئ من أمور المملكة إلا بمشورة خايربك ، فكان إذا سئل فى شئ يقول : " إيش كنت أنا " قُل له ،

---

[١] السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ص ١١٨ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٨٣١ .

[٢] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٩٤ .

يعـــنى قُــل لخـــيربك حـــتى ســـمته العـــوام " قُــل له " [1] . وذلك من قبيل السخرية والاستهزاء ، ويعتبر قل له من الألقاب التى تتسم بالفكاهة والسخرية .

شيطان[2] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب على الأمير علاء الدين أقبغا بن عبد الله الظاهر ، وفى ســـلطنة المؤيد شيخ جمع بين ولاية القاهرة وحسبتها وشد الدواوين في وقت واحد ، ثم قـــبض علـــيه وحـــبس ثم قتل وذلك في عام ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م[3] ، وكان عنده نباهة ومعـــرفة مع ظلم وعسف ، إلا أنه كان عفيفاً عن المنكرات حسب شهادة المؤرخ ابن تغرى بردى[4] .

الدم الأسود[5] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب أيضاً على الأمير سيف الدين ملكتمر الجمالي الناصري المـــتوفى عـــام ٧١٤ هــــ / ١٣١٤م ، وكان ظلوماً غاشماً في الظلم المسرفين على أنفســـهم ، وكـــان له إقطاع بدمشق ، فأخذ منه الخراج خمس مرات على مدار السنة ، ففعل ذلك شركاؤه ومن جاء بعده[6] .

فأر السقوف :

أطلـــق هذا اللقب على ناصر الدين، متولى حسبة مصر ، أثناء سلطنة الناصر أحمد لكونه فَتنيٍ[7] .

---

[1] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ وما بعدها ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٨٨ .

[2] ربما أطلق عليه هذا اللقب لتصرفاته التى تتسم بالشيطانية .

[3] ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ص ٤٨٤ .

[4] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ١٥١ .

[5] يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يحقد على الناس .

[6] ابن أبى الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٩١٩ م ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ الصفدى ، أعـــيان العصـــر ، جـ ٥ ؛ ص ٤٤٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٢٢٨ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ١٨٨ .

[7] نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

وتـــروى المصادر أنه فى عام ٧٣٧ هـــ / ١٣٣٦ م وقفت العامة للسلطان فى الفـــأر ضـــامن(١) المعـــاملات ، وشكوا مما أحدثه على القصب والمقانى وصاحوا : " يكفيـــنا النشـــو ، فلا تسلط علينا الفأر !! وتحسبه ، وتكتب على قيده مُخَلداً ، ويضمن غـــيره بـــناقص عشرة آلاف درهم ، فطلب السلطان النشو وأنكر عليه ، ورسم لسنجر الحمصـــى أن يضرب الفأر ويحبسه ، ويكتب على قيده مخلداً ، ويضمن غيره بناقص عشرة آلاف درهم ، ففعل ذلك ، ومشت أحوال الناس(٢) .

وفـــى عـــام ٧٤٤ هـــــ / ١٣٤٣ م رســـم السلطان أن يعاد إلى ناصر الدين المعـــروف بفأر السقوف ما أخذ له من نيابة الأمير طشتمر ، وخلع عليه بحسبة مصر عوضـــاً عن ابن بنت الأعز ، بشفاعة الأمير ملكتمر الحجازى ، فأعيد له مبلغ أربعين ألف درهم من بيت المال(٣) .

---

(١) نظـــام الضـــمان الذى يمثل جانباً من مسئوليات الجهاز الضرائبى فى الدولة، حيث كانت مهمة الضامن تنحصر فى تعهد أحد الأشخاص للمسئولين فى هذا الجهاز بتحصيل الضرائب المقررة علـــى أى نشاط اقتصادي أو عمل حرفى ، ومن ثم توكل إليه مهمة القيام بهذه المسئولية بعد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال وعلى ذلك يبدأ هذا الضامن ممارسة عمله فى جمع الضريبة المقررة من الناس المعنيين . ولكن فى سبيل استعادة ذلك المبلغ الذى دفعه مقدماً فإن الضامن يولى عناية خاصة بتحصيل أولاً – قدر مناسب من المال لجيبه الخاص ثم بعد ذلك تحصيل الضريبة المقررة رسمياً للحكومة ، فكأن المواطن مجبر على دفع مبلغين من المال ، أو بالأحرى ضريبة مضاعفة نصفها لديوان المكوس ، ونصفها الأخر للضامن . مما يعنى مضاعفة المعاناة النفسية والخسارة الماديـــة نتـــيجة لهاذ النظام الضرائبى السيئ ، وقد تطاول الضامن ظلماً على حقوق الرعية ، وتغاضى أصحاب السلطة أو الحكومة عن الصور المختلفة من الظلم والتعسف والاضطهاد الذى يمارســـه هـــؤلاء الضـــمان ضد الرعية وعلى حساب حقوقهم وحريتهم وأموالهم دون رقيب أو حسيب . أنظر حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٦٧ .

(٢) اليوســـيفى ، نـــزهة النظار ، ص ٣٧١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٢ ، ٤٢٠ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٤٠ .

(٣) Ahamd Abd ar-Ráziq, Les Muhtasibs de Fostat au temps des Mamlūks, pp. 127, 146 5-P. 130 fōr al–Suqūf, Nāsir ad-Din; La Hisba et le Muhtasib en Egypt au temps des Mamlūks, pp. 115-178 – 138;

المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٤ ؛ اليوسفى ، نزهة النظار ، ص ٣٩١ .

وفـــى عام ٧٥٠ هــ / ١٣٤٩ م أعيد فأر السقوف إلى ضامن جهات القاهرة ومصـــر بأجمعها ، وكان قد سجن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وكتب على قيده مخلــد ، بعد ما صودرت أمواله وضرب بالمقارع لقبح سيرته ، فلم يزل مسجوناً إلى أن أفــرج عــنه فـــى أيام الصالح إسماعيل ، وانقطعت أخباره إلى أن اتصل بالوزير مــنجك فســلمه الجهات بأسرها وخلع عليه ، وقد منع مقدمى الدولة من مشاركته فى الــتحدث فـــى الجهات ، ونودى له فى القاهرة ومصر فزاد فى المعاملات [١] ثلاثمائة ألف درهم فى السنة[٢] .

وفـــى عام ٧٥١ هــ / ١٣٥٠ م أصبح الناس فى بلاء عظيم من فأر السقوف ضـــامن المعـــاملات ، فقد أحدث حوادث قبيحة فى دار البطيخ ودار السمك ، وكثرت الشـــكوى مـــنه ، ووقفت العامة تشكوه للسلطان ، فلم يتغير الوزير عليه ، ولكنه قبض عليه بعد قليل وضرب بالمقارع وأخذت منه جملة من الأموال وسجن[٣] .

وفـــى نفـــس العـــام أفرج ابن زنبور عن الفأر الضامن بسفارة الأمير ملكتمر المحمـــدى ، وضـــمنه الجهـــات بـــزيادة خمســـين ألف درهم ، وضمن الفأر معاملة الكيزان[٤] من الأمير طيبغا المجدى بزيادة ثلاثين ألف درهم [٥] .

---

[١] أشـــار المقريـــزى فى كتابه المواعظ ، والاعتبار ط ١ ص ١٠٥ إلى المعاملات بأنها المكوس الســـلطانية الـــتى فرضـــتها دولـــة المماليك على الناس فى مصر منذ أيام السلطان المعز أيبك الـــتركمانى ، لكنه لم يدل على هذه المكوس بتعريف واضح أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ص ٣٨٤ ، ٥٤٤ .

[٢] المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٥٤٤ .

[٣] المقريـــزى ، السلوك ، جـــ ٢ ق ٣ ، ص ٨٤ ، ٨٢٣ ، ٨٤٩ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٥٠ .

[٤] عـــرف Dozy, Supp. Dict هـــذا اللفـــظ ومفرده كوز بأنه قدح لحفظ اللبن ويبدو أن المقصود بمعاملـــة الكيزان هنا أن صناعة هذه الكيزان كانت مما يقوم به أحد العاملين – أى المتعهدين – علـــى قـــاعدة احـــتكار هذه الصناعة ، مقابل مبلغ ضمان يدفعه المعامل – أى المتعهد لصاحب الأرض التى تصلح طينتها لصنع هذه الأقداح ، أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .

[٥] المقريزى ، السلوك ، جـــ٢ ، ق٣ ، ص ٨٢٩ وما بعدها .

ركين ودقين: [1]

أبو زلطة: [2]

أطلـــق هذا اللقب على أيدمر الشمسي نائب الوجه القبلى[3] ثم الوجه البحري ، ومـــا لبـــث أن شغل نيابة البحيرة فى عام ٧٩٣ هـــ / ١٣٩٠ م ، ويبدو أن أبو زلطة كـــان شرهاً في جمع الأموال ، فقد أصدر السلطان برقوق أوامره بالقبض عليه ، ولما أحضـــر بين يد السلطان ضرب بالمقارع مع مجموعة من الأمراء ثم سلمهم إلى والى القاهرة ليدفعهم على حمل المال الذي اغتصبوه.[4]

أبو كُم: [5]

أطلق هذا اللقب على علم الدين يحيى بن أسعد الدين الأسلمى الذى كان يباشر نظـــر الأسواق ثم استقر فى الوزارة ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب فخر الدين مـــاجد بـــن غـــراب وذلـــك فـــى عام ٨٠٣ هـــ / ١٤٠٠م ، وكان يريد الانتقاء من النصرانية ، فذهب إلى مكة للحج ، وأكثر من زيارة الصالحين .[6]

وفى عام ٨٠٤ هـــ / ١٤٠١م صرف من الوزارة وتم القبض عليه وسلم إلى شـــاد الدواوين حيث صودرت أملاكه .[7] وفى عام ٨٠٦ هـــ/ ١٤٠٣م اختفى الوزير

---

[1] أنظر لقب الأعرج ص ١١ من هذا البحث .

[2] من المرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتكلم بقسوة وتجهم وكأنه يلقى بزلطة فى وجه محدثه .

[3] ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ١ ، ص ٤ .

[4] المقريزي، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٥٧٤، ٧٥٢ ؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٩ ق١، ص ٢٩٦.

[5] ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يرتدي ملابس ذات أكمام واسعة .

[6] المقريزى ، السلوك ، جـــ ٤ ق ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ العينى ، السيف المهند ، ص ٣٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٩ .

[7] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ .

أبـو كـم من داره ولم يعرف موضعه ، بسبب عجزه عن سد تكاليف الوزارة ، فأعيد إليها التاج بن البقرى [(١)] .

سن إبرة: [(٢)]

أطلـق هـذا اللقـب علـى علم الدين عبد الوهاب الطنساوى الذى استقر فى الوزارة عوضاً عن كريم الدين بن مكانس ثم سلم ابن مكانس وإخوته وأقاربه وحاشيته إلى شاد جهات الدواوين فقام بتعذيبهم[(٣)] .

وقـد تغـير خاطر السلطان على علم الدين ، وقام بضربه ضرباً مبرحاً ، ثم أخلع عليه وأعاده إلى الوزارة[(٤)] ، ويبدو أن سن إبرة كان يحب الأموال ويقوم بجمعها مـن الناس ، ففى عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م أمر السلطان بالقبض عليه وسلمه إلى شاد الدواوين لمعاقبته على الأموال المغتصبة من الناس[(٥)] .

الطويل : [(٦)]

نعـت لشـمس الديـن محمد بن عبد الخالق المناوى ، الذى استقر فى حسبة القاهرة عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م وصرف الهُوَّى ، ثم أعيد الهُوَّى إلى الحسبة وعزل الطويل ، ثم أعيد وعزل ابن شعبان[(٧)] .

---

(١) السـخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٢) يـرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأن جسمه كان رفيع مثل سن الإبرة نحيلاً ، أو ربما كان يتدخل فى كل شئ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ؛
Ahamad Abd ar-Ráziq, Les vizirs Egypte au temp des Mamlūks, pp. 183 – 239.

(٤) المقريـزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٩٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٦) يحتمل أنه أطلق عليه ذلك بسبب طوله الفارع .

(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ٢٩ وما بعدها ؛
Ahmad Abd Ar-Razice, La hisba et le muhtasib en Egypt, p. 156.

وفي عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م تولى الطويل حسبة القاهرة ووكالة بيت المال ونظر الكسوة ونظر الأوقاف وكان فى غاية الجهل وقد توفى فى عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م [١] .

إبن المكللة : [٢]

أطلق على تاج الدين بن أحمد بن على الذي استقر في حسبة القاهرة في سنة ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م[٣] .

المؤذى :

كنية عرف بها سيف الدين تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى[٤] الدوادار الكبير المعروف بالمؤذى ، وربما كان إطلاق هذا اللقب عليه بسبب إضراره بالناس لقيامه بمصادرة كثير من الأموال والأملاك ، وهو أحد مماليك بكلمشى العلائى الذى صار من جملة المماليك السلطانية ، إلى أن ترقى وصار من جملة أمراء العشرات فى دولة الناصر فرج ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة الى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة طبلخاناة فى عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م ، وكان قد جعله قبل ذلك بمدة يسيرة من جملة رؤس النوب ، ثم صار رأس نوبة ثانية ، فلما ولى هذه الوظيفة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) نوع من أنواع الأفاعى يطلق عليه الصل ، أو المكللة ، لأنها مكللة الرأس ، وهى شديدة الفساد ، تحرق كل ما مرت عليه ولا ينبت حول حجرها شئ من الزرع أصلاً . وإذا حاذى مسكنها طائر سقط ، ولا يمر بقربها حيوان إلا هلك ، وتقتل بصغيرها على غلوة سهم ، وضربها فارس برمحه فمات هو وفرسه ، انظر كمال الدين الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، جـ١ ، ص ٣٨٤ ؛ ثناء أنس الوجود ، رمز الأفعى فى التراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٣ ؛
Ahmad Abd Ar-Ráziq, La hisba Le muhtasib en Égypt, P. 157.

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ٤ تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٢٠٢ ؛ ابن تغرى برملى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص ٤٩٦ ؛ الدليل الشافى ؛ جـ١ ص ٢١٧ ، ترجمة رقم ٧٢٣ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص ٢٧ ، ١٣٣ ؛ التبر المسبوك ، ص ٤٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ .

ومســك العصــا في يده ، صار يضرب هذا وينهر هذا ، ويدفع هذا ، وأظهر ما كان خفياً عن الناس من شهرته بالمؤذى[١] .

وفــى عــام ٨٣٩ هــــ / ١٤٣٥ م أصبح أمير مائة ومقدم ألف إلى أن ولاه الملــك الظاهــر جقمق حجوبية الحجاب عوضاً عن يشبك المشد ، ولم تطل مدة تغرى بــردى فــى الحجوبــية ، وتم نقله إلى الدوادرية الكبري ، وقد باشرها بحرمة وافرة وعظمــة زائــدة ، بحيــث لم يدع لأرباب الدولة شيئاً من الأمر والنهي وكان محمود الســيرة فى أحكامه إلا أنه كان فظاً غليظاً بذىء اللسان شرس الخلق ، يخاطب الرجل بمــا يكــره غير بشوش ، متكبراً وعنده جبروت ، ولما عظم أظهر ما كان مخفياً من لقــبه فانطــبق الاسم على المسمى ، وقد توفى فى عام ٨٤٦ هـــ / ١٤٤٢[٢] ، بعد أن عمــر مدرسته بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وجعل فيها خطبة ومدرساً وشيخاً وصوفية ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة[٣] .

السكر والليمون : [٤]

فــى عــام ٨٥٧ هــ / ١٤٥٣ م استقر شخص من الكتبة يعرف بابن السكر والــيمون ناظــراً فى ديوان المفرد ، وفى عام ٨٥٩ هـــ / ١٤٥٤ م ضرب السلطان الملــك الأشرف فخر الدين الملقب بابن السكر والليمون ناظر ديوان المفرد علقة كبيرة بسبب تعويق جامكية المماليك السلطانية[٥] .

---

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ص ٥٤ وما بعدها ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، جـ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ١٦٣ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، جـ١ ، ص ٥٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٤) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب ، لأنه كان يحب شرب الماء بالسكر والليمون ، وربما كان كلامه مثل حلاوة السكر والليمون .

(٥) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .

وفـــي عـــام ٨٦٠ هــ / ١٤٥٥ م أخلع السلطان على فخر الدين واستقر فى وظيفة ناظر الدولة بعد عزله عن ديوان المفرد[١] .

الدباح[٢] ، الفاجر: [٣]

ضـــنت عليـــنا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات عمن تلقب بكل من الدباح والفاجر ، ولم يذكر ابن إياس المناسبة التى ذكر فيها هذان اللقبان .

ثالثاً : ألقاب السخرية والاستهزاء :

طلليه :

لقـــب أطلـــق على الأمير سيف الدين طشتمر ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه كـــان إذا تكلـــم بشيء قال فى أخر كلامه طلليه كأنه يغنى بها ، وقد كان من المماليك الناصـــرية ، عظم شأنه فى أيام المظفر حاجى ، وجعله أمير سلاح ، ولم يزل فى هذه الرتبة إلى أن صار ربع الحياة من طلليه طللاً ، وحمل إلى قبره ، وقد نشرت الرحمة عليه ظللاً ، وقيل أنه توفي فى طاعون مصر سنة ٧٤٩ هــ / ١٣٤٨ م[٤] .

أبو دقن : [٥]

لقـــب أطلـــق على الأمير عز الدين أزدمر العزى أمير سلاح الذى ولى إمرة الســـلاح مرتيـــن الأولى فى عهد السلطان حسن ، والثانية فى دولة السلطان الأشرف شعبان ، كما تولى أيضا نيابة حلب وطرابلس وصفد ، وغير ذلك من النيابات ، وكان

---

(١) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جــ ١ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٤٩٦ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جــ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٢) المقريــزى ، الســلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لما عرف عنه الفتك بالأعداء وكثرة سفك الدماء .

(٣) ابــن إيـــاس ، بدائع الزهور ، جــ ٥ ، ص ٤٠ ، ٤٧ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب نتيجة لتصرفاته التى تتسم بالفجور والمجون .

(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جــ ٢ ، ص ٥٩١ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .

(٥) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب بسبب طول لحيته ولذلك عرف بها .

أميراً معظماً مبجلاً وله بر ومعروف توفى فى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م منفياً بالشام[١] .

اللفاف : [٢]

لقب أطلق على الأمير طشتمر المحمدى ، الذى كان يجلس رأس الميمنة فى أيام السلطان نور الدين على بن الأشرف شعبان والذى أنعم عليه بجميع أملاك الأمير صير غتمش بعد القبض عليه[٣] .

وطشتمر اللفاف المحمدى أحد أمراء العشرات ، وقد خلع عليه واستقر أمير مائة مقدم ألف ، ثم قبض عليه وهموا بضرب عنقه لولا شفاعة الأمير قرطاى الذى ضمن لهم أن ينفق فيهم ما وعد به ، وما زال يتطلف بهم حتى أطلقوا سراحه ، وتوفى فى طاعون سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م[٤] .

أصفر عينه : [٥]

لقب أطلق على جمال الدين محمود بن على صاحب المدرسة المحمودية الواقعة فى القربين[٦] ، وقد استقر شاد الدواوين[٧] ، ثم عمل فى وظيفة الأستادارية فى عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وبعد ذلك غضب السلطان الظاهر برقوق عليه وأمر بمعاقبته حتى يموت ، وتوفى فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م ودفن بمدرسته ، وكان

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١١٨ ، ١٦٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .

(٢) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يلف ويدور فى الكلام .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) يرجح أنه لقب به لأنه كان كثير الحسد للآخرين .

(٦) انظر فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، أثر رقم ١١٧ مصلحة المساحة ١٩٥١م؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٧٤ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ ، ص ٣٢٣ .

كثير الصلاة والعبادة إلا أنه كان شحيحاً شرهاً فى الأموال ، وأكثر من ضرب الفلوس بمصر حتى فسد بكثرتها حال مصر[1] .

سلطان ليلة :

بعد يلباى المجنون تولى السلطنة الظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م ولم يستطع تمربغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خيربك فعزله بعد شهرين ، ومن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمربغا ، إنما كان يبغى الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلاً صعد خيربك إلى دست السلطنة أثناء الليلة ولقب نفسه بالظاهر تشبهاً بأستاذه الظاهر خشقدم ، ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر علي الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب " سلطان ليلة ، لأنه لم يبقى فى كرسى السلطنة سوى ليلة واحدة ، فكما قيل فى المعنى :

" كلام الليل يمحوه النهار " وقد سمته العامة سلطان ليلة ، وتم القبض عليه وسجن بالإسكندرية[2] .

سلطان الجزيرة :

لم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده فى صفاته العامة[3] وسلطاننا الذى نتحدث عنه من عصر أحفاد الناصر ، فبعد خلع الملك الأشرف شعبان من السلطنة تولى أنوك (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، ولقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى شوارع القاهرة ، فعند ذلك اضطربت أحوال الناس ، وأغلقت أسواق القاهرة ، وكانت سلطنته بجزيرة أروى فصارت العوام يرقصون

---

(1) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ١٢ ، ص ١٥٨ .

(2) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(3) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٣٤ .

ويقولــون " ســلطان الجزيرة ، ما يساوى شعيرة " يعنى يهزأون بالسلطان أنوك الذى تمت سلطنته علي يد الأمير يلبغا بجزيرة أروى[1] .

من هذا العرض يتضح لنا أن هذه المجموعة من الألقاب السابق الإشارة اليها تشير إشارة ساخرة إلى سلوك السلاطين والى كونهم ألعوبة فى أيدى الأمراء .

رابعاً : ألقاب الضعف :

هات لبن :[2]

كنــية أطلقت على الأمير قانصوه بن سلطان جركسي ، أمره السلطان قانصوة الغوري بـــأن يتوجه إلى الشرقية ، فلما وصل هناك امتنع عن مقابلته العربان وازدادوا عصياناً فـــوق عصـــيانهم ، ولقـــبوه بهات لبن ، ومكث هناك نحو أربعين يوماً ثم رجع بدون طائل[3] .

روح لو :[4]

فــى عـــام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م خُلع على الأمير قانصوه روح لو باشا أحد الأمــراء المقدميــن بنيابة قطية ، وكان قبل ذلك نائب غزة وحلب ، إلى أن تولى نيابة قطية وهذه درجة سفلى إلى الغاية ، فعد ذلك من النوادر الغريبة[5] .

---

(١) المقريــزى ، السـلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) عن المرجح أنه كان يعشق شرب اللبن ، بالإضافة إلى أنه كان لا يرى أحداً إلا ويقول له : هات لبن .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ .

(٤) ربما أطلق عليه هذا اللفظ لضعف شخصيته واعتماده على الآخرين فى تصريف أموره .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

وفـــى عـــام ٩٢٢ هــ / ١٥١٦ م خلع السلطان الغورى على الأمير قانصوه روح لو وقرره كاشف الشرقية عوضاً عن قجماس الذى كان بها[١] .

وفـــى عـــام ٩٢٣ هــــ / ١٥١٧ م عثر على جثة الأمير روح لو أمام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فقد كان رجلاً جسيماً[٢] .

خامساً : ألقاب الخيانة :

خاين بك :

هـــو خايـــر بك[٣] نائب حلب ، كان موالسا على السلطان فى الباطن ، ويعتبر أول من كســـر عسكر السلطان وهرب عن ميسرته حتي انهزم السلطان الغورى ، ثم هرب إلى حمـــاة ، فمـــا دخل ابن عثمان حلب خلع عليه وأصبح من جملة أمرائه ، وارتدى زى الـــتراكمة العمامـــة المدورة والدلامة ، وقام بقص ذقنه ، وأطلق عليه ابن عثمان لقب خاين بك لأنه خان السلطان الغورى[٤] .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ٥ ، ص ٤ ، ٣٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ٥ ، ص ١٥٦ .

(٣) Mohamed Mostafa, Háir Báj Sultán Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, pp. 125 – 132 Leiden 1935; Lindas Northrup, Letters de Hair Beg, dérnier vâid Mamlouk d'Alep, â al porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993, pp. 235 – 315 vol 281 No. 3 – 4; David Ayalon, Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During the Islamic Period, 1984, pp. 38; 39. The Encyclopaedia of Islam, New Edition Vol. (4) Leiden 1978. Art Kánsawh al Ghawri, pp. 552 – 553.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ٥ ، ص ٧٦ ؛

Daivd Ayalon, The End of the Mamlúk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978, pp. 134, 138, 139; Names titles and "nisbas" pp. 224, 225-226.

P.M. Holt, The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, Jerusalem Studies in Arabic and Islam Vol. 25, 2001, pp. 234, 246.

جدول بالألقاب والكني الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى

ألقاب المدح	ألقاب الذم والقدح	ألقاب السخرية والاستهزاء	تابع ألقاب السخرية والاستهزاء	ألقـ الضعف	ألقـ الخيانة
– الأعرج	– ركين	– سلطان الجزيرة	– سلام عليكم	– هات لبن	– خا بك
– سم الموت	– دقين	– طللية	– حلاوة	– روح لو	
– حمـ أخضر	– المجنون	– أبو دقن	– حاصل ما تم		
– الفـول المقشر	– سلطا ليلة	– اللفاف	– أبو نبوت		
	– الد الأسود	– أصفر عينه	– الصنجق سبع		
	– فأ السقوف	– فرفور	– بنات		
	– سن إبرة	– المزوق	– صنجق سته		
	– أبو زلطة	– الضاني			
	– أبو كم	– اللكاش			
	– الطويل	– محنى دقنه			
	– المؤذى	– السكر والليمون			
	– ابن المكاللة	– تمساح			
	– الدباح	– أبو سنة			
	– الفاجر	– الموتر			
		– الأقرع حداية			

من هذا العرض يتبين لنا أن هذه الألقاب والكني إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاعل الشعب مع سلاطينه وأمرائه فى كل العصور ومراقبته لهم فى كل ما

يفعلونـــه فى فترة حكمهم من تصرفات شخصية أو عامة تمس الحكم وهذا أيضاً يعكس تمتع هذا الشعب بروح الفكاهة والدعابة التى صاحبته فى كل الأزمنة ، والتى قد تكون مخـــرجه مما يعتريه من أزمات ومشاكل ينفرد بها عن شعوب العالم ، كما أن إطلاق هذه الألقاب الشعبية الساخرة يعكس أدباً شعبياً نضالياً وثقافة فطرية تتمتع بها العامة .

وممـــا لا شك فيه فإن لهذه الألقاب والكنى دلالات سياسية وإدارية واجتماعية واقتصـــادية تتبين لنا على الوجه التالي : فلقب الأعرج مثلاً والذى أطلقته العامة على الســـلطان الناصـــر محمـــد له دلالة سياسية لدى شعب مصر في العصر المملوكى ، فالعامـــة ترفض حكم السلطان بيبرس الجاشنكير لأن الناصر مازال يتمتع بعطف كثير مـــن الناس داخل مصر وخارجها ، بالإضافة إلى أن أمراء حلب وطرابلس وحماة كان هدفهـــم القضـــاء علـــى المظفـــر بيبرس وإعادة الناصر محمد إلى عرشه مرة ثالثة ، وأخـــيراً يخرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة ، ويستقبل فى جميع البلاد التى مر بها بالترحاب والسرور والحب والمودة حتى دخوله قلعة الجبل .

كمـــا أن هـــذا اللقـــب كشف عن ثقافة العوام باعتبارها دالة على أدب شعب فطرى ذى طابع نضالى كما سبق القول .

أمـــا لقـــب سم الموت كما نعلم فقد أطلقته العامة على الأمير عز الدين حيث يعرف العامة عنه تحليه بالشجاعة والجسارة والفتوة والقوة .

وبالنســـبة للقـــب حمص أخضر فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة لدى عامة شـــعب مصر فالأمير طشتمر كان يحب الفقراء والأيتام والحرافيش ويكثر من صدقاته لهم ، ولذلك أطلق عليه هذا اللقب .

أمـــا لقـــب الفـــول المقشـــر فله دلالة اجتماعية فهو من الألقاب الفكاهية التى أطلقـــتها العامـــة علـــى الأمـــير قطلوبغا الفخرى ، لما كان يتميز به من لين عريكته وضعفه وتسامحه .

أمـــا لقب طللية فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة ، فقد أطلقته العامة على هذا الأمـــير لأنـــه كمـــا سبق وأن ذكرنا إذا تكلم قال فى أخر كلامه طللية كأنه يغنى بها ، فالعامة بثقافتها المحدودة عبرت عن سلوك هذا الأمير بإطلاق هذا اللقب .

وركيـــن الدين يعتبر من الألقاب التى لها دلالة سياسية ساخرة ، فالعامة أطلقته علـــى الســـلطان بيـــبرس الجاشنكير لما فيه من تحقير واستهزاء به ، ولأنه اغتصب الســـلطنة مـــن الناصـــر محمد ونفاه إلى الكرك ، ولذلك تعللت العامة بعدم وفاء النيل وأطلقت هذا اللقب عليه .

أما دقين فقد أطلقته العامة على الأمير سلار احتقاراً له ولشخصه ولمناصرته لبيبرس الجاشنكير مغتصب عرش الناصر محمد .

ولقـــب المجنون ورد فى مصادر العصر المملوكى أكثر من مرة ، فقد اطلقت العامة هذا اللقب على يلباى بسبب سوء سلوكه وتصرفاته وسوء تدبيره وبخله الشديد ، وهـــذا اللقـــب له دلالـــة اجتماعية لدى العامة ، فقد عبرت عن سلوك هذا الأمير بلقب المجنون الذى أساء التصرف تجاه الآخرين .

وقـــد أطلقـــت العامة هذا اللقب أيضاً على الأمير سودون المحمدى المجنون ، وكانـــت له دلالـــة سياســـية وإدارية ، فالأمير يلبغا استقر فى عدة وظائف إدارية مما ســـاعده على ظلم الناس منهم ناصر الدين محمود الاستادرا وابن الطبلاوى إلى جانب اضـــطهاده للعامـــة مما أدى بهم إلى رجمه بالحجارة وإطلاق لقب المجنون عليه وذلك لتصرفاته السيئة تجاههم .

أمـــا لقب الدم الأسود فهو من الألقاب ذات الدلالة السياسية فالأمير سيف الدين أكلتمر الناصرى كان ظالماً فى تصرفاته وسلوكه .

أمـــا فأر السقوف فهو من الألقاب ذات الدلالة الاقتصادية والإدارية ، فقد كان ناصـــر الدين متولى حسبة مصر أثناء سلطنة الناصر أحمد ، وقد أدت تصرفاته وسوء ســـلوكه تجـــاه العامـــة ومعاملته السيئة المستمرة إلى أن وقفت العامة تشكوه للسلطان فقبض عليه وسجن بعد مصادرة أمواله .

أما عن لقب اللفاف فقد ضنت علينا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات التى تفيد سبب إطلاق هذا اللقب .

وسن إبرة من الألقاب التى أطلقت على علم الدين ، ويعتبر من الألقاب الإدارية الفكاهية الساخرة ، فعلم الدين كان يحب الأموال ويقوم بجمعها من الناس سواء عن طريق المصادرة أو الاغتصاب بالقوة .

ويأتى لقب إدارى فكاهي ساخر آخر وهو لقب أبو زلطة الذى أطلق على أيدمر الشمس الذى تولى نيابة الوجه القبلى ثم البحرى وأخيراً البحيرة ، وفى مدة ولايته أظهر شراهة كبيرة فى جمع الأموال واغتصابها من الناس .

وهناك ألقاب إدارية فكاهية ساخرة مثل لقب أبو كم والطويل والمؤذى وابن المكللة ، هذا بالإضافة إلى الألقاب ذات الدلالة الاجتماعية الساخرة والتى أطلقت على بعض الأمراء نتيجة لضعفهم واستهزاء الناس بهم مثل لقب هات لبن وروح لو .

وهناك ألقاب لها دلالة سياسية فقط مثل لقب خاين بك الذى خان السلطان الغوري وتسبب فى هزيمته أمام الجيوش العثمانية.

وكما سبق أن ذكرنا، فقد كانت الألقاب والكنى سلاح الفكاهة فى محاولة للتغلب على المتناقضات ومقاومة الانحراف والتسلط وهذه واحدة ، أما الثانية فإن اللقب قد عبر عن السخرية من العصر المملوكى وما كان يحدث فيه من ظلم وفرض للضرائب على المجتمع المصرى ، بالإضافة إلى أن اللقب رسم صورة لحياة المجون واللهو التى كان يحياها سلاطين المماليك والأمراء إبان تلك الحقبة من الزمان .

والثالثة توضح كيف رسم مفهومُ اللقب صورة لحياة الريف المهمل من قبيل سلاطين المماليك .

وتوضح الرابعة كيف عَبر مفهوم اللقب عن كيفية تغيير سلطان بآخر ، وأخيراً فإن الخامسة بينت أن اللقب كان يعبرعن مدى تسلط الموظفين وظلمهم للشعب المصرى إبان العصر المملوكى ، والذى قد يمتد أثره حتى اليوم متمثلاً فى الروتين الوظيفى عند تقديم الخدمات للمواطنين .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

- **شهاب الدين بن أبى حجلة**

  – سكردان السلطان،القاهرة بدون تاريخ

- **ابن أبى الفضائل (مفضل ابن أبى الفضائل ت ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م) .**

  تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه :
  E. Blouchet, *Patrologia Orientalis*, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.

- **ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤)**

  بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة أجزاء ، ط ٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ .

  صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م .

- **ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

  تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ، بيروت ١٩٦٠ م .

- **ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)**

  النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـ ١٢ ، جـ ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت ، جـ ١٤ تحقيق جمال محرز ، فهيم شلتوت القاهرة ١٩٧١ ، جـ ١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، القاهرة، ١٩٧١ م .

- المــنهل الصــافى والمستوفى بعد الوافى جـ ١ ، ٢ تحقيق محمــد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤ م جـ ٣ ، تحقيق نبيل محمدعــبد العزيــز ١٩٨٦ م ، جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٨٦ م جـــ ٥ تحقــيق نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٨ م ، جـ ٦ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٩٠ م .
- الدلــيل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم شلتوت ، منشــورات مركــز البحــث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، السعودية ١٣٧٥هـ .
- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠ م .

- **ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق محمــد محمد أمين ، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ١٩٨٢ م ، ١٩٨٦ م .

- **ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م)**

- الــدرر الكامــنة فى أعيان المائة الثامنة ، ط ٢ ، حيدر أباد ١٩٥٤ م .
- أنــباء الغمر بأنباء العمر ، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٩٦٩ م ١٩٧٢ .

- **ابــن الصــيرفى (علــى بن داود الصيرفى المعروف بالخطيب الجوهرى ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م)**

- نــزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشى دار الكتب المصرية ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، ١٩٧٣ م

- **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)**

- تـــاريخ الـــدول والملــوك جـــ ٧ ، ٩ (أربع مجلدات) نشره قسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ م .

- **ابـــن كثـــير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـــ / ١٣٧٢ م) .**

- البداية والنهاية ، ط ١ القاهرة ١٩٦٦ م .

- **الدميرى كمال الدين الدميرى .**

- حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة بدون تاريخ .

- **الســـخاوى (شـــمس الديـــن محمـــد بن عبد الرحمن بن أبى بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـــ/ ١٤٩٧ م)**

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ١٨٩٦ م

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء القاهرة ١٣٥٣ هـــ / ١٩٣٤ م .

- **الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)**

- تـــاريخ الملـــك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٩٧٨ م .

- **الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـــ / ١٣٦٣ م) .**

- أعـــيان العصـــر وأعـــوان النصـــر ، تحقيق على أبو زيد وآخرون ط ١ ١٩٩٨ م

- **العينى (بدر الدين محمود العينى مولده ٨٥٥ هـــ / ١٤٥١ م)**

- الســـيف المهـــند فـــى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- **الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـــ / ١٤١٤ م) .**

- القــاموس المحــيط ٤ أجزاء جــ ١ ط ١٩٧٧ م جــ ٢ ط ١٩٧٨ م جــ ٣ ط ١٩٧٩ م جــ ٤ ط ١٩٨٠ م .

- **القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هــ/١٤١٨م) .**

– صـــبح الأعشـــى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء – نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) .

- **المقريـــزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥ هــ / ١٤٤٢ م).**

- المواعـــظ والاعتـــبار بذكـــر الخطط والآثار ، طبعة لبنان ١٩٥٩م .

- الســلوك لمعــرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى جــ ١ جــــ ٢ ستة اقسام ونشره سعيد عاشور جــ ٣ جــ ٤ فى ستة أقسام عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠ م ، ١٩٧٢ م ، ١٩٧٣ م .

- **اليوسفى :**

- نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، ط ١ بيروت ١٩٨٦ م .

ثانياً : المراجع العربية :

- **أحمد عبد الرازق**

- دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- الممالــيك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثانى ١٩٧٧ م .
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٧٩ م .

- **أحمد صادق الجمال**

- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٦٦ م .

• ثناء أنس الوجود

– رمز الأفعى في التراث العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .

• جمال الدين الشيال .

- تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبي والمملوكي ، القاهرة ١٩٦٧ م .

• حسن الباشا

- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ م .

• حياة ناصر الحجي

- أحوال العامة في حكم المماليك ٦٧٨ – ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩ – ١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الكويت ١٩٨٤ .

- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام ط ١ الكويت ١٩٨٦م .

- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجري الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين الكويت ١٩٩٥ م .

• سعيد عبد الفتاح عاشور

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- **عبد المنعم ماجد**

- موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الأداب جامعة عين شمس م ١٢ ، ١٩٦٩ م .

- **على إبراهيم حسن**

- دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م .

- **على مبارك**

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ .

- **علاء طه رزق**

- عامة القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق ، كلية الآداب ، ١٩٨٩ م .

- **فوزى محمد أمين**

- المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ / القاهرة ١٩٨٢ م .

- **محاسن محمد على حسين الوقاد**

- الطبقات الشعبية فى القاهرة الملوكية ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

- **محمد جمال الدين سرور**

- دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م .

- **محمد رجب النجار**

- الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد الأول ١٩٨٣ م .

- **محمد عبد الغنى الأشقر**

نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩ م .

- **مجمع اللغة العربية**

المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م .

- **نظير حسان سعداوى**

صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- **نقولا زيادة**

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- **Ahamd 'Abd Ar-Rāziq,**
  - Les Muhtasibs de Fostāt au temps des Mamlāks pp. 127 – 146 – 5 P. 130 fōr as Suqūf Nāsir ad-Din.
  - La Hisba et le Muhtasib en Egypte au temps des Mamlūks, pp. 115 – 178 – 138.
  - Les vizirs Égypte au temp des Mamlúks pp. 183 – 239.

- **Amalia Levanoni,**
  - A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of Al-Nāsir Muhammad Ibn Qalāwūn (1310 – 1341), *Mamlūk Studies Review*, Vol I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179.

- **Ayalon (D)**
  - The Wefidiya in the Mamluk Kingdom, Islamic Culture, Vol. XXV, 1951.
  - Discharges from Service' Banishments and Imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol. II, Tel. Aviv, 1972.
  - Names, titles and "Misbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel Aviv Univ, 1975.
  - The End of The Mamluk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978.

- Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During The Islamic Period, 1984.

- **Donald Little,**
  - An Introduction to Mamlūk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of Al Malik An-Nāsir Muhammad Ibn Qalā'un, Wiesbaden, 1970.
- **Holt (P.M)**
  - Scenes of Daily Life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Inds in The Period of the Crusades, Worminster, England, 1977.
  - The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, Vol. 25, 2001.
- **Lane Poole,**
  - History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- **Lindas Northrup,**
  - Letters de Hair Beg, démier nâid mamlouk d'Alep, à al Porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993.
- **Mohamed Mostafa,**
  - Hāir Bāj Sultān Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, Lieden 1935. pp. 125-132.
- **Poliak (A.N),**
  - Some Notes on the Feudal System of The Mamlūk Jras, 1937.
- **Sauvaget (J),**
  - Noms et surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique*, Tome CCXXXV III, Année 1950.
- **Sato Tsugitak,**
  - The Proposes and Supervisors of Al-Rawk Al-Nāsiri in Mamlūk Egypt, *Mamlūk Studies Review*, Vol. II, Chicago, 1998.
- **Sobernhetm (M),**

- Encyclopedia of Islam. Art. Mamlūks, Leiden, 1987.

- **Urbain Vermeulen,**
  - Some Remarks on A Prescript of An-Nasir Muhammad B. Qalā'ūn on the Abolition of Taxes and the Nusayris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970.
- **The Encyclopaedia of Islam,** art Khassakiyya, New Edition, Leidem, 1978.
- **The Encyclopaedia of Islam**, Art Baybars II, New Edition, Leiden 1960.

السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق

نريمان عبد الكريم

مصــر

نجح الفاطميون فى أن يحكموا مصر ما يزيد عن القرنين من عام ٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م . فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم بالمغرب ، هو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامى ، لذلك كان انتقالهم إلى مصر ، التى اتخذوها مركزاً لإمبراطورية كبرى ، شملت معظم ملك العباسيين ، كما دخلوا بغداد نفسها ، واستمروا فيها لمدة أربعين أسبوعاً ، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا من خلال تقوية مركزهم فى الداخل والخارج ، معتمدين على موقع مصر المتميز وثرائها وكسب المصريين إلى جانبهم ، ولذلك قدموا من البداية عرضاً شاملاً لسياستهم العامة ، من خلال الأمان الذى أعطاه جوهر لأهل مصر ، فضلاً عما حوته كتب الدعوة القاطمية وما ألقى فى مجالسها من شرح لبعض الأمور الحيوية ، التى تخص المصريين .

فمع وصول جوهر إلى تروجه بالقرب من الإسكندرية[1] ، قام المصريون بندب الوزير جعفر بن الفرات للمفاوضة وطلب الأمان ، وتم اختيار أحد العلويين ليرأس الوفد ، الذى مثل جميع فئات وطبقات المصريين[2] ، فكتب لهم جوهر أماناً وجدده عدة مرات[3] ، وحوى كتابه بعض الأمور المتعلقة بالناحية المالية منها ما هو عام وما هو خاص أو حتى ذكر بشكل ضمنى ، محاولاً إظهار ما للفترة السابقة من سلبيات ، كما مهد لفترة جديدة استهدفت الإصلاح .

وجاء فى هذا الأمان : «هذا كتاب من جوهر عبد أمير المؤمنين لجماعة أهل مصر .. أنكم التمستم كتاب يشمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم .. إذ تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم والتغلب على من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم .. ولكم على أمان الله التام

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، حققه محمد محمد أمين - محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٩٢ ، جـ٢٨ ، ص ١٢٨ .

العام الدائم على مر الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن"[٤] .

وارتباطاً بذلك ذكر النعمان[٥] فيما ينبغي للوالى من أهل الخراج : "انظر كل ما يصلحهم ، فإن صلاحهم صلاح من سواهم ، فانظر فى عمارة أرضهم وصلاح معايشهم، أشد من نظرك فى زجاء خراجهم ، أجمع أهل الخراج من كل بلد ، ثم مرهم فليعلموك حال بلادهم ، والذى فيه صلاحهم وحال أرضهم ، فإن شكوا إليك ثقل خراجهم أو غلة دخلت عليهم من انقطاع شرب أو فساد أرض ... فأكفلهم مؤنة ما كان من ذلك ولا تثقلن شيئاً خففته عنهم ، فإن العدل يحتمل ما حملت عليهم وعمران البلاد أنفع من عمران الخزائن ، فإن خربت انقطعت مادة الخزائن ، فخربت بخراب الأرض" وفى موضع آخر[٦] : "ولا بأس بالمزارعة بالربع والنصف على ما أتفقا عليه ، ولا بأس باستئجار الأرض بالعين وقتاً معلوماً" .

وشمل أمان جوهر أيضا : "وما أمره به مولاه المعز من اسقاط الرسوم الجائرة، التى لا يرتضى بإثباتها عليكم ، وأن أجيركم فى المواريث على كتاب اللّه وسنة نبيه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى فيها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ... والزكاة على ما أمر اللّه فى كتابه ... وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه ... ثم تجويد السكة وصرفها على العيار الذى عليه السكة الميمونة المباركة وقطع الغش منها ... ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم أياه»[٧] .

وما ورد أيضا : "لا بأس باستئجار الدور والأرضين فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت ، وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه سكن يوماً لزمه الشهر »[٨] .

---

[٤] المقريزى ، اتعاظ ، حـ٣ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .
[٥] دعائم الإسلام ، حققه آصف بن على فيظى ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ٧ ، ص ص ٤٢٤-٤٢٥ .
[٦] النعمان ، الاقتصار ، حققه ميزرا ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .
[٧] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣
[٨] النعمان ، الاقتصار ، ص ص ٩٠ - ٩١

إلى جانب ذلك ذكرت كتب الدعوة[٩] ، عدة أمور وثيقة الصلة بالنواحى المالية ، منها : "ونهوا عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير" .

فضلاً عن ذلك ، فقد عرض لكيفية اختيار العمال : "أنظر فى أمور عمالك ، الذين تستعملهم ، فليكن استعمالك إياهم اختياراً ، ولا يكن محاباه ، ولا إيثاراً ، فإن الأثرة بالأعمال والمحاباة بها شعب الجور وادخال الضرر على الناس ، وليست تصلح أمور الناس ولا أمور الولاة إلا بصلاح من يستعينون به على أمورهم"[١٠] .

وبذلك قدم الفاطميون ، صورة عامة لطبيعة السياسة المالية ، التى سوف ينتهجونها مع المصريين ، بينوا فيها مساوئ الحكم السابق ، مستفيدين من الأحوال السيئة ، التى وصلت إليها مصر فى أواخر حكم الإخشيديين ، ولما كانت السياسة المالية تشكل جزءاً لا يستهان به من السياسة العامة للدولة ، بل هى العمود الفقرى لها ، فلابد أن تتسق مع أهدافهم ، التى أتوا إلى مصر من أجل تحقيقها . فهل سيتعارض الأمران ؟ فى الوقت الذى كان على الفاطميين أن يؤكدوا فعالية مع ما أعلنوه وما صرحوا به وأن يسيروا على منهاج قد رسموه بايديهم . لذلك فهى محاولة للوقوف على طبيعة السياسة المالية ، التى نفذها الفاطميون بالفعل ، وإلى أى حد قد توافقت أو اختلفت أو حتى حدث توازناً بين الإطار النظرى والإطار التطبيقى ؟ .

ولما كانت الأرض تمثل أحد المحاور التى شملها أمان جوهر ، فهذا الأمر يرتبط بعدة أمور : منها ضريبة الأرض ، سياسة الدولة تجاه تحسين وسائل الزراعة ، احترام الملكية الخاصة ، وعدم انتزاعها من أيدى أصحابها ، وهذا يقودنا إلى وضعية الأرض فى عصر الفاطميين ، ومدى هيمنة الدولة عليها ، وإلى أى حد شكل الإقطاع جزءاً من سياستهم ، فضلاً عن أشكاله التى وجدت آنذاك ، وهل كان هناك ملكية خاصة ومدى ارتباطها بمتغيرات السياسة الفاطمية ؟

أما الخراج ، فهو الضريبة المفروضة على الأرض ، وهى إما مقداراً من مال أو حصة معينة مما تخرجه الأرض . وقد فرض مع بداية الفتح الإسلامى على أراضى غير المسلمين ، وبمضى الزمن أصبح الخراج إيجاراً دائماً للأرض سواء ظل صاحبها

---

[٩] النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

[١٠] النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

على دينه أو كانت ملكاً لأحد المسلمين[١١] . وفى العصر الفاطمى كان الخراج المقدر على الأرض فى الوجه البحرى يجبى بالدنانير ، على كل فدان ثلاثة دنانير ونصف بينما كان خراج الوجه القبلى يجبى عيناً ، لا سيما الحبوب ، فكان يفرض على كل فدان ثلاثة أرادب ، تبعاً لما ذكره ابن مماتى[١٢] ، الذى خدم فى دواوين الفاطميين فى أواخر أيامهم ، بينما يذكر ابن حوقل[١٣] : "أنه عند مجئ الفاطميين ، قام جوهر بمضاعفة قيمة الخراج إلى سبعة دنانير للفدان" ، وكان هذا الإجراء ليس فقط بسبب احتياج جوهر للأموال بقدر ما كان تغطية لنفقاته المباشرة ، التى قام بها قبل صدور هذا القرار ، وبطبيعة الحال ، قد أدى ذلك إلى ارتفاع ما جباه جوهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الدنانير[١٤] .

ومن اللافت للنظر أن ارتفاع هذه القيمة جاء فى وقت عانت فيه البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة بسبب قصور مياه النيل وانتشار الوباء والغلاء ، وما نتج عن ذلك من قيام الجند بالسلب والنهب ، مما حدا بالبعض[١٥] أن يتساءل كيف يمكن للمصريين دفع هذا الخراج المضاعف ، فى الوقت الذى يستبعد فيه قيام جوهر بهذا الإجراء ، وهو يستهل عهداً جديداً ، ويسعى جاهداً لاستمالة المصريين[١٦] ، وعلى ذلك يبدو أن هذا كان إجراءاً مؤقتاً ، وكان لابد من التفكير فى نظام أكثر استمراراً[١٧] ، لكن هذا الأمر جاء تدريجياً خلال وقت قصير ، فأبقى جوهر القائم بالخراج من أيام الإخشيديين وهو يحيى بن العرمرم ، ثم سرعان ما أشرك معه أحد المغاربة[١٨] ، وعندما استقر الأمر للفاطميين مع مجئ المعز . تم إقرار نظام جديد لتقدير الأملاك ،

---

[١١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ص ١٥٢ ، ١٤٢ .

[١٢] قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٥٩ .

[١٣] صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٥٢ .

[١٤] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٢ .

[١٥] أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر – تفسير جديد ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٨١ .

[١٦] راشد البراوى ، حال مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣٠ .

[١٧] انظر : Shaban, Islamic History. A New Interpretation. A.D. 756-1055 A.H. 132-448, Cambridge 1976, p. 200.

[١٨] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها وجمعت مصادر الضرائب على اختلافها[١٩] وكان الخراج يشكل جزءاً منها .

واعتمد الفاطميون على يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن اللذين قاما بهذا الأمر ، وقد تشددا أيضاً فى تحصيل البقايا من الأموال على المالكين والمتقبلين والعمال[٢٠] . وحسبنا أن نشير إلى كيفية جباية خراج الغلات ، وعلى رأسها القمح والشعير والفول ، لنرى كيف كانت الدولة الفاطمية تنفذ سياستها المالية ، فكان مقدار الخراج يتفق مع غلة الأرض من حيث الزيادة والنقصان ، كما كان يختلف باختلاف المحاصيل ، فكانت النسبة المئوية للضريبة تصل إلى ٣٠% من إنتاج الأرض المزروعة قمحاً[٢١] أو شعيراً ، وكان على عمال النواحى أو الجهات التابعة لديوان الخراج ، أن يقدموا ما عليهم من ضرائب إلى الديوان ، وكذا يطالب الفلاحين بالحضور فى بعض الأحيان ، خاصة فى أيام الأزمات الاقتصادية ، ويسجل ذلك فى سجل الجهبذ مع مبلغ أو قيمة الغلة المقررة عليهم[٢٢] .

وفى إطار جهود الدولة لتحسين الزراعة ، قام الفاطميون بدور ملحوظ ، باعتبار أن الأراضى الزراعية تشكل أهم قوى الإنتاج ثباتاً وعطاء[٢٣] . فبدت بعناية جوهر فى إصلاح وتجديد ما فسد من الجسور والقناطر[٢٤] ، أما المعز ٣٦٢ – ٣٦٥ هـ/ ٩٧٢ – ٩٧٥م ففضلاً عن قيامه بتنظيم الإدارة المالية وجباية الخراج ، فقد عنى بعمارة الجسور[٢٥] ، كما أوجد الفاطميون مع خلافة الحاكم بأمر الله ٣٦٨ – ٤١١هـ / ٩٩٦ – ١١٢٠م قصبة لقياس الأرض عرفت بـ "القصبة الحاكمية"[٢٦] وظلت إلى

---

(١٩) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٩٨ .

(٢٠) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، جـ١ ، ص ٨٢ .

(٢١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٤٨ .

(٢٢) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة – جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

(٢٣) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ ، جـ١/٢ ، ص ١٤٠ .

(٢٤) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ ١/١ ، ص ١٩٢ .

(٢٥) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٦٧ .

(٢٦) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، القاهرة ، جـ٣ ، ص ٤٤٢ . القصبة الحاكمية ٤٠٠ قصبة طول فى عرض ٢٠ قصبة ، انظر . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

آخر دولتهم ؛ فضلاً عن ذلك قام الفاطميون فى عصره بمشروع كان له أهمية كبيرة ، وهو تطهير خليج الإسكندرية عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م[٢٧] ، بعد أن طم تقريباً ، خاصة فى قسمه الأول عند خروجه من رشيد ، وأدى ذلك التطهير إلى استفادة كثير من الترع خاصة فى البحيرة[٢٨] .

وحتى يقضى الخليفة الحاكم على المجاعات ، التى كان قصور مياه النيل أحد أسبابها ، سارع إلى استدعاء الحسن بن الهيثم ، الذى قال : "لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل النفع" ومن المحتمل أنه كان يريد أن يقيم سداً ينظم مياه النيل ، وقامت الدولة بتوفير الإمكانات المالية وتسيير الصناع معه فى طول الإقليم ، لكنه اعتذر عن عجزه للقيام بهذا الأمر[٢٩] ، ويشير المؤرخون[٣٠] إلى قيام الخليفة الظاهر ٤١١ – ٤٨٧هـ / ١٠٢٠ – ١٠٣٥م بحفر ترعة كبيرة خارج القاهرة وعليها ثلاثمائة قرية ، تبدأ من فم الخليج فى الفسطاط حتى تصل إلى القاهرة .

ومع عصر المستنصر ٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م شهدت البلاد فى الفترة الأولى من خلافته استقراراً ، كان استمراراً للفترة السابقة ، بحيث ما سجله ناصر خسرو[٣١] ، حتى عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م يدل على ذلك ، ومنها : "أن النيل يتفرع منه ترع صغيرة وعليها تقع الولايات والقرى ، كما أقيمت بمصر أسواق كثيرة يصعب حصرها" وقد تبدلت حالة الرخاء بصفة عامة بعد ذلك على أثر المجاعات وفتن الجند ، لكن الأحوال تحسنت مع استدعاء بدر الجمالى عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م الذى قام بإطلاق الخراج للمزارعين لمدة ثلاث سنوات[٣٢] ، وكذلك العناية بالترع والجسور[٣٣] ، ومع الأفضل بن بدر الجمالى تم تنفيذ مشروعاً يخدم الرى ، وهو حفر خليج يخرج من النيل إلى الشرقية ، بسبب أن هذه المنطقة كان لا يصل إليها الماء إلا من خليج السويس أو من بعض المجارى المائية البعيدة ، مما أدى إلى أن تشرق البلاد فى أغلب أراضى

---

[٢٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧١ .
[٢٨] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٢٢ .
[٢٩] ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣١٦ وما بعدها .
[٣٠] ناصر خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٧ .
[٣١] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٧ .
[٣٢] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٣ .
[٣٣] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٤ .

الشرقية فى معظم السنوات[٣٤] . وقام بهذا الأمر أبو المنجا بن شعيا فى عام ٥٠٦هـ/ ١١١٣م ، الذى كان على رأس الإدارة الزراعية فى هذه المنطقة ، وقد استغرق حفر هذا الخليج ، الذى أخذ اسم "أبى المنجا" عامين وإن كان قد تكلف أموالاً طائلة ، فقد قدم خدمة جليلة للزراعة بسبب امتداد الرى لهذه المناطق فى الدلتا"[٣٥] .

كذلك يبدو حرص الأفضل الشديد على النهوض بالزراعة بإصداره أمراً على ألا تكون هناك بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو خرابا[٣٦] . وبسبب هذا الاهتمام تم حفر الخلجان حتى أصبحت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والترع وصلت فى الوجهين البحرى والقبلى إلى أعداد كبيرة[٣٧] .

كما قام الوزير المأمون البطائحى[٣٨] الذى تولى للآمر الوزارة من ٥١٥-٥١٩ هـ/١١٢٢-١١٢٥م ، بدور آخر حاول من خلاله أن ينظر فى مصالح الرعية ، فعفى عن أراضى الديوان المغتصبة من قبل بعض الملاك فى الصعيد ، حيث وصله من الوالى والمشارف[٣٩] ، أن من بيده السواقى كثيرون وأن واضعى اليد عليها لم يستطيعوا أن يثبتوا ملكيتها ؛ لأنها انتقلت إليهم عبر الزمن وكان تحصيل ما عليهم كثير ، فكتب بذلك منشوراً قرئ بالصعيد بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها من غير انتزاع وأن يقرر الخراج عليهم ، كما تضمن المنشور أيضاً دعوة كل من يريد عمارة أرض بائرة أو إدارة مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة ، وأن يكون خراجه مؤبداً[٤٠] .

---

[٣٤] ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١ .

[٣٥] انظر ، Mann, J., The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford 1967. 1, p 215.

[٣٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، حققه محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٣ .

[٣٧] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦ بلغت عدد الخلجان ثمانية وعدد الترع ١١٧

[٣٨] هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك ، اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠١هـ/١١٠٧م وسلم إليه خزائن أمواله وكسوته ، ونعته بالقائد ، فلما قتل الأفضل عام ٥١٠هـ/١١١٦م قام المأمون بخدمة الخليفة الآمر واطلعه على أموال الأفضل إلى أن عين وزيراً له . انظر الخطط ، جـ١ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

[٣٩] المشارف : وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته ، بعد أن يكون مختوماً عليه . انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ .

[٤٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ .

ويبدو أن المأمون أقدم على هذا الإجراء ليقينه بأن أملاك الديوان جميعها لا تقدم ما يجب عليها[٤١] . لذلك استطاعت السياسة الجبائية للفاطميين فى الفترات التى شهدت اهتماماً من قبل الدولة أن تجمع بين مصلحة الدولة والعدل فى الرعية[٤٢] ، حقيقة أن هذه الإجراءات التى تمت منذ خلافة المستنصر مع بدر ثم استتبعت بعد ذلك مع الأفضل والمأمون ، تدل على جهود الدولة فى العناية بشئون البلاد ، خاصة من قبل الوزراء أصحاب السيادة العليا من دون الخلفاء والتى سوف لا نسمع عن مثلها حتى نهاية العصر الفاطمى .

كذلك يذكر المؤرخون[٤٣] ، أن الفاطميين رصدوا لعمارة الجسور ثلث الخراج لما فيه مصلحة الرى والرعية ، لكن ليس هناك شك فى أن هذا الرقم مبالغ فيه[٤٤] ، حتى المقريزى نفسه استهل هذه العبارة الواردة بهذا الشأن بكلمة "وقد حكى" كما ذكروا أيضاً ، أن الدولة كانت تصرف من خزينة السلطان عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارة الجسور فى الولاية[٤٥] ، حيث كان هناك نوعين من الجسور : السلطانية التى تقوم بإنشائها الدولة لتنظيم الانتفاع بمياه النيل والجسور البلدية ، والتى يقيمها الفلاحون فى القرية أو الناحية[٤٦] . وحرص الفاطميون على عدم اضطراب المزارعين بمنع النداء على زيادة النيل أو نقصانه ، حتى لا يؤدى هذا إلى الغلاء ، ولا يسمح به إلا إذا وصل النيل إلى ستة عشر ذراعاً[٤٧] . لكن يطالعنا ناصر خسرو[٤٨] بنص يستلفت النظر فيذكر : «ما لم يصل الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعاً ، لا يأخذ السلطان الخراج» صحيح أنه قد زار مصر فى وقت تألق خلافة المستنصر ، وضمن كتابه تلك المشاهدات التى بهرته ، لكن يتضح أنه قد بالغ فى الوصف لهذه المشاهدات فى بعض الأحيان .

---

[٤١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥ .
[٤٢] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٥١ .
[٤٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ .
[٤٤] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٠٥ .
[٤٥] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٨ .
[٤٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٨ .
[٤٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ ، وكان هذا المنع مع الخليفة المعز ، عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م.
[٤٨] ناصر خسرو ، سفر نامه ص ٩٧ .

كما عملوا على إدخال شجرة البلسان التى أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها فى إحدى حدائقهم بعين شمس ، وكانوا يستخرجون منها دهن البلسان(٤٩) ، فضلاً عما قاموا به من الاهتمام بقصب السكر والتوسع فى زراعته(٥٠) . واهتموا بالإشراف على الزراعة بشكل عام من خلال الدواوين التى أنشئت فى عهدهم ، فجعلوا على الخراج وسائر وجوه الأموال موظفاً باسم «متولى الخراج»(٥١) ويرى البعض(٥٢) «أن جباية الخراج قد تطورت فى عهد الفاطميين ، حتى اشتملت على عدة دواوين ، وأكبر الظن أنها استحدثت خلال هذا العصر» ومنها ديوانين يقومان بالإشراف على جباية الخراج ، أحدهما يعرف باسم "ديوان الصعيد" والثانى "ديوان أسفل الأرض"(٥٣) ؛ بالإضافة إلى «ديوان الخاص» الذى ظهر فى خلافة الأمر ٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م . وكان يشرف أيضاً على الخراج المستخرج من الأرض(٥٤) .

لكن كان يقابل اهتمام الدولة بالزراعة بعض الفترات ، التى ساءت فيها أحوال البلاد ، بسبب التعرض للمجاعات أو الإهمال لسوء تدبير الوزراء العظام فى أخريات عهد الدولة .

وحسبنا أن نشير إلى قيمة الخراج ، الذى جبته الدولة لنقف على حقيقة الأمر من خلال ما ذكره المؤرخون(٥٥) . والذى وصل أقصاه إلى أربعة ملايين ديناراً فى أيام يعقوب بن كلس ، الذى تشدد فى الجباية ، كما بلغ أدناه إلى ٦٠٠،٠٠٠ دينار أثناء المجاعات خلال خلافة المستنصر ، بينما كان فى وزارة بدر الجمالى أكثر من ثلاثة ملايين ديناراً ، وهذا أمر طبيعى ، بسبب الإصلاحات الاقتصادية التى قام بها ، لكن

---

(٤٩) ناصر خسرو ، سفر نامه ، نفس المصدر ، ص ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥٠) المخزومى ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ .

(٥١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٥ ، ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٥٢) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٥٣) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

(٥٤) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧٩ .

(٥٥) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٩ : المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٠ ، وإذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً ، فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك ذراعاً ، زاد فى الخراج ماية ألف دينار ، فإن نقص ذراعاً ، نقص الخراج ماية ألف دينار .

مع وزارة الأفضل ارتفع إلى خمسة ملايين ، وهذا المبلغ كان شاملاً المكوس ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأفضل كان أحد الوزراء الذين اهتموا بشئون البلاد ، وساعد حفر خليج أبى المنجا على زيادة الخراج ولم يكن المأمون البطائحى أيضاً أقل اهتماماً من الأفضل ، لا سيما أنه كان بمثابة ساعد الأفضل الأيمن(٥٦) . وجاء الخراج فى عهده أقل وهذا يرجع إلى أن المأمون سامح الناس فيما عليهم من بقايا(٥٧) ، لكن بعده إلى نهاية الدولة ، كان لابد أن يحدث انخفاضاً ملحوظاً فى الخراج بسبب الظروف التى ألمت بالبلاد من تصارع الوزراء وتقلص ممتلكات الخلافة .

أما فيما يخص الأرض ، فإن هذا الموضوع يعد من الأمور الملغزة فى تاريخ مصر الإسلامية ، لذلك فتناول أشكال ملكيتها أو حيازة الدولة لها وكذلك وجود الإقطاع لا يكون بالأمر السهل ، خاصة وأن هناك أشكالاً مختلفة للإقطاع من إقطاع تمليك وإقطاع استغلال فضلاً عن الارتفاع ، فكانت هناك قبالة الأراضى والمزارعة والملكية الخاصة ، مما لا تعطى صورة واضحة ومحددة ، كما أنها تطرح كثيراً من التساؤلات بشأن خصوصية كل فترة ، ومدى امتلاك الدولة للأرض ، وتواجد الملكية الخاصة .

ومعلوماً أن الدولة الفاطمية ظهرت على المسرح السياسى ، خلال فترة اتسمت بشكل عام بوجود تحولات على كافة الأصعدة فى العالم الإسلامى ومنها الاقتصادية ، فوقفنا معها على أعتاب فترة جديدة ، حملت فى طياتها بعض سمات الفترة السابقة فى ذات الوقت ، وبخصوص الإقطاع الذى قامت هذه الدولة فى ظله ، والذى كان منتشراً فى العصر الإخشيدي(٥٨) ، فحسبنا على ذلك المصادرات فى أواخر هذا العصر ، لذا لم يستأصل الإقطاع دفعة واحدة ، إنما راعت الدولة فيه المرحلية(٥٩) .

ولأن الفاطميين ورثوا أملاك الإخشيديين ، وصادروا الإقطاعات القديمة التى كانت فى الغالب إقطاعات تمليك ، ونظرياً كان الإمام يملك الأرض فى منطقة

---

(٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٥٨) ملك أبو بكر المارذانى الذى وزر للأخشيد عام ٣٢٨/٩٤٠م ، ضياعاً بلغ دخلها أربعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وتعرض لمصادرة الأخشيد هو وغيره من أسرة الماذرائيين وكذلك كبار رجال الدولة . انظر: سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ١٦٠ ، ٢٤٤
(٥٩) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٤٢ .

نفوذه[٦٠] . وعلى ذلك قام الفاطميون باقطاع المغاربة ، الذين أتوا معهم الاقطاعات[٦١] ، كما منح الخليفة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م ، الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات فى الشام ومصر بلغت ثمانى آلاف ديناراً سنوياً[٦٢] ، كما قام برجوان أثناء وصايته على الخليفة الحاكم بإقطاع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى مبلغه خمسة عشر ألف ديناراً فى السنة[٦٣]، وغيره من رجال العلم[٦٤] .

وكانت الأسرة الحاكمة نفسها تملك كثيراً من الاقطاعات ، فاقطعت ست الملك ارتفاع لبعض ضياع الصعيد والوجه البحرى[٦٥] . وفى إطار سياسة الحاكم التى هدفت فى البداية إلى الإصلاح وهب وأقطع الضياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية[٦٦] ، لكن بعد وفاته قبضت أخته على جميع هذه الأقطاعات[٦٧]. وعلى ذلك استمرت الدولة فى منح هذه الاقطاعات ، فمنح الخليفة الظاهر إقطاعات لشمس الملك مسعود بن طاهر الوزان رئيس ديوان الكتاميين عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م[٦٨] .

ومما سبق يتضح أنه كان هناك إقطاعاً خلال العصر الفاطمى الأول وكان يمنح لكبار رجال الدولة من الوزراء ورؤساء الدواوين بدلاً من الرواتب[٦٩] ، كما أن ما يمنحه الخليفة هو نعمة ، وله حق الملكية والمنح[٧٠] ، كما كان هذا الإقطاع ، إقطاع

---

(٦٠) انظر Shaban, Islamic History, p. 200.

(٦١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، جـ١ ، ص ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ١٧٣ .

(٦٢) ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٠٩ ، ويختلف معه المقريزى فى مبلغ هذا الاقطاع ويجعله ثلاثمائة ألف دينار ، انظر ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

(٦٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٧ .

(٦٤) ابن حجر ، رفع الأصد عن قضاة مصر .

(٦٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٣٣ . اقطعت سيدة الملك اقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار منها ضياع فى الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفاً وأربعمائة وخمسون ديناراً منها بوتيج ستة آلاف وسبعمائة وخمسون ديناراً وصهرشت سبعة عشر ألف ديناراً .

(٦٦) المقريزى ، اتعاظ ، ص ص ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

(٦٧) يحيى بن سعيد ، تاريخ أو صلة تاريخ أوتيخا ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٣٧ .

(٦٨) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين ، تحقيق وليم ج ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٥٠ .

(٦٩) انظر : Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D. 1169-1341, London 1972, p. 26.

(٧٠) وأنفذ شمس الملك إلى الحضرة يسأل فى تسليم إقطاعه ، فقيل له : هذه نعمة أمير المؤمنين عليك وعلى أمثالك ليس تنزع منهم ، انظر . المسبحى ، أخبار ، ص ٥٠

ارتفاع[٧١] ، وهو ما يستفيد به المقطع من خراج بعض النواحى مقابل دفع العشر إلى الخزانة ، وبذلك يعد الإقطاع خلال هذه الفترة إقطاعا مهمشاً .

ولابد أن وضع الاقطاعات خلال عصر المستنصر ووصول وزراء السيف إلى السلطة بداية من بدر الجمالى ، الذى يعد فاتحة للوزراء المستبدين قد تغير ، وذلك من حيث اتساع هذه الاقطاعات ونوعيتها أى انتقالها إلى شكل آخر من أشكال الإقطاع وهو "اقطاع التمليك"[٧٢] وهذا يتضح مما قام به بدر الجمالى من حبس بعض الأراضى على عقبه ، حيث كان هذا الحبس يشتمل على مناطق واسعة فى بهتين والأميرية والمنية ، وكان أيضاً ناحية الجيزة فى سفط ووسيم[٧٣] ، فهى إذ لم تكن إقطاعاً له ويملكه ، فكيف يكون له الحق فى توريثه لذريته ؟ كما أقطع أبو على بن الأفضل شاهنشاه الطائفة الحجرية إقطاعات بسبب وقوفها بجانبه للوصول إلى الوزارة عام ٥٢٤هـ-١١٣٠م[٧٤] . أما بهرام فقد اقطع أخيه المعروف بالباساك ولاية قوص وولاه عليها ، وكانت تعتبر من أعظم ولايات مصر أنئذ[٧٥] . ويبدو أنه أقطع الجند الأرمن بعض نواحى الصعيد ، حتى أنه بعد هزيمته أمام رضوان بن ولخشى عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م ، خير هؤلاء الجند فى البقاء كفلاحين فى هذه الأراضى أو العودة إلى بلادهم[٧٦] . كما وردت كلمة الضياع فى المصادر[٧٧] خلال هذه الفترة لتدل على شيوعها . ففى العصر الفاطمى الثانى أصبح كبار رجال الدولة يحصلون على الاقطاعات إلى جانب الرواتب[٧٨] .

---

[٧١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٤ .

[٧٢] واقطاع التمليك إما موات وأما عامر وأما معدن ، والموت ما كان كذلك على مر الزمان أو كان عامراً فخرب وصار مواتاً عاطلة ، وأما العامر ، فالذى لم يتعين مالكوه ، فإن كان الإمام اصطفاه لبيت المال من الفتوح بحق الخمس أو برضاء الفاتحين ، لم يجز اقطاع رقبته وصارحكم الوقف وللسلطان استغلاله لبيت المال أو اختيار من يقوم بعمارة رقبته . انظر . الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ وما بعدها .

[٧٣] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

[٧٤] المقريزى ، المقفى الكبير ، القاهرة ١٩٩١ ، جـ١ ، ص ٣٩٦ .

[٧٥] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .

[٧٦] المقريزى ، المقفى ، جـ٢ ، ص ٥١٥ ؛ نفسه ، ص ص ١٦١-١٦٢ . وأفرد للجند الأرض جهات منها سملوط وأثلوسنا وإيوان والبرجين فى صعيد مصر وضيعة أخرى بالمحلة .

[٧٧] المسبحى ، أخبار ، ص ص ١٧٦ - ٢٢٥ .

[٧٨] القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٥٢١ .

وتطالعنا المصادر(٧٩) ، بأن الفاطميين اتبعوا نظام قبالة الأرض ، الذى كان سائداً في مصر قبل مجيئهم ، باعتبار أن الأرض ملكاً للدولة ، فتقوم بتأجيرها إلى كبار المزراعين بوصفهم متقبلين يقومون بدفع ما عليها من ضرائب مقابل استغلالها ، من خلال المزايدة وحصول المتقبلين للنواحى على خراجها مقابل إصلاح جسورها وعمارتها وسد ترعها ، ثم دفع حصة الدولة من خراجها على أقساط بعد خصم تكاليف المرافق السابقة . وكانت مدة القبالة فى أول الأمر أربع سنوات مراعاة لظروف الأرض ومياه النيل ، أو ما عبر عنه بالظمأ والأستبحار(٨٠) ، حتى يعوض المتقبل النقص فى حالة المحصول السيئ ، معنى ذلك أن الفلاحين قاموا بزراعة الأرض مقابل ما يدفعون من خراج للدولة ، ويعتبر البعض(٨١) : "أنه بذلك لم يوجد فى مصر سوى مستأجرين من الدولة وليس فيها أرض خراج بالمعنى الصحيح ، لأن الخراج الذى يؤديه الفلاحون آنئذ ما هو إلا أجرة حكرية ، التزم بها المزارعون تجاه الحكومة" ونظام القبالة على ذلك يؤكد فى حد ذاته أيلولة غالبية أرض مصر للدولة ، التى أصبحت حرة فى توزيعها كيفما تشاء .

كذلك بخصوص القبالة ، التى حددت بأربع سنوات ، فهى فى الواقع لا تزيد عن نظام الالتزام ، كما يعبر عنه البعض(٨٢) بأنه إقطاع استغلال ، فالمقطع يدفع مبلغاً من المال يذكر فى الأمر الصادر بإقطاعه عن جهة ما ، وهذا المبلغ يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المقطع من أهل الناحية والفارق بينهما هو الفائدة التى تعود على المتقبل .

بدأ نظام القبالة مع خلافة المعز استمراراً لما كان موجوداً فى مصر الإسلامية ، فقد عهد الخليفة به إلى يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م ، وجلسا فى جامع ابن طولون ، ولم يقوما فقط بالمزايدة على الضياع وتوزيعها على المتقبلين ، بل طالبا بالبقايا(٨٣) . ومن الواضح أن هذا الأمر كان متاحاً لجميع الناس فى القرى والمدن ممن يستطيعون القيام به ، ومع عصر المستنصر ، الذى اتسم

---

(٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

(٨٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

(٨١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٢٣ .

(٨٢) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٨ .

(٨٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

بوقوع الأزمات الاقتصادية وزيادة سطوة الجند ، كنتيجة للصراع بينهم ، الذى فسره البعض[٨٤] أنه بسبب احتياز الأرض ، والأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى مصادرة الخليفة نفسه ، ثم تقاسموا الأعمال ، وكانوا ينتقلون فيها بحكم من تغلب عليها على حد قول المقريزى[٨٥] . ولما طالب الأتراك الوزير ابن كدينه عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأموال ، قال : "وأى مال بقى الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان"[٨٦] . وهذا يؤكد عجز الدولة عن دفع الرواتب والأعطيات ، فجاء اغتصاب الجند للأراضى أمراً واقعاً ، مما مهد الطريق لسطوة العسكر الأرمنى ، خاصة بعد تولى بدر الجمالى واستبداده بالسلطة[٨٧] .

وكان طبيعياً أن تستشرى هذه الظاهرة ، حتى إذا وصلنا إلى بداية القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، وجدنا غالبية الأرض فى يد القادة والجند ، وبسبب تسلط قادة الجند ، بدأت شكوى الجند مع وزارة الأفضل من قلة ارتفاع اقطاعاتهم فى الوقت الذى تضاعفت فيه اقطاعات الأمراء وازدادت عن غيرها[٨٨] . ويبدو أن الأمراء وكبار المقطعين انتهزوا فرصة الاضطراب أيام المستنصر فزادوا اقطاعاتهم ، ثم أخذوا فيما بعد يجيرون على ما فى أيدى صغار المقطعين ، ويحتمل أنهم ارغموهم على التماس الحماية مقابل رسم مقرر ، ولهذا ازدادت اقطاعاتهم[٨٩] .

ولذلك أمر الأفضل بحل الاقطاعات جميعها وروكها أى مسحها ثم إعادة توزيعها من جديد ، وكان هذا الإجراء الفورى من قبل الدولة ، بقدر ما يحقق انصافاً للجند ، فكان لابد أن يعود بفائدة مالية على الدولة ، بسبب وجود بقايا لأموال الديوان لدى المقطعين ، الذين كانوا لا يدفعون للدولة كل ما عليهم . وأعيد توزيع الأرض من جديد بالمزايدة ويتضح أن المقطعين الجدد كانوا من الأقوياء ، الذين هم فى الغالب أما قادة الجند أو كبار رجال الدولة من العاملين بالدواوين ، فضلاً عن الأجناد ، فلم يكن

---

(٨٤) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ٢٣٩

(٨٥) المقريزى ، اغاثة ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

(٨٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٨٧) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

(٨٨) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٨٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦٠ .

من السهل على عامة المصريين الاشتراك فى المزايدات ، التى كانت تعقد بشأنها[٩٠] ، وهذا لا يرجع فقط بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، لكن أيضاً بسبب تطاول العسكر وتصدرهم السلم الاجتماعى آنئذ .

كما زادت فترة القبالة إلى ثلاثين عاماً ، وهذا معناه أنها تحولت إلى الإقطاع ، لكنه مع ذلك لا يتشابه مع ما ستشهده البلاد فيما بعد ، فعلى الرغم من إطالة الفترة ووقوع الأرض فى أيدى الأجناد فإنه لا يشترط فى حيازة الأرض أى التزام بالخدمة العسكرية ، لكنه ملزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم ، كما كان المالك يخضع لإشراف الدولة[٩١] ، وبعد هذه الفترة يحق للدولة نقله إلى غيره ، ويصبح المحصول من نصيب المقطع الجديد ، ويرد الأرض المقطعة ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة فيها ، ولا يتصرف فى التبن المودع بمخازنها[٩٢] ، كما كان هناك جمعاً بين الرواتب والإقطاع ممثلاً فى الأسطول ، فكان من يعمل به يصل راتبه إلى عشرين أو خمسة عشرة ديناراً وكان له اقطاعا يعرف «بأبواب الغزاة»[٩٣] . ومع ذلك فهذا التحول قد مهد لنظام الاقطاعات الحربية الذى أدخله الأيوبيين[٩٤] ، أو بمعنى آخر كانت هذه الفترة السابقة إرهاصا لسيادة الإقطاع فى العصر الأيوبى[٩٥] .

ويتضح من العرض السابق أن الاقطاعات كانت قليلة فى بداية الدولة ، كما كانت بمثابة تعويضاً من الدولة عن الرواتب ، لكنها تزايدت فى أواخر حكمهم وأخذت أشكالاً أكثر ثباتاً أسلمت البلاد فيما بعد إلى الإقطاع العسكرى .

كما كانت الدولة تؤجر الأراضى التابعة لبيت المال للفلاحين ، ويدفعون عنها إيجارا محدوداً أو يزرعوها وفق نظام المزارعة أو المقاسمة فى المحصول[٩٦] ، فضلاً

---

(٩٠) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ١٢٤ .
(٩٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .
(٩٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ١٩٣ .
(٩٤) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩٥) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ .
(٩٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٣ .

عن ذلك ، كان للخلفاء أملاكاً واسعة مثل الخليفة المستنصر ، الذى كان له ثلاثمائة قرية فى ساحل الخليج[٩٧] . وكان من ممتلكات الخليفة الآمر قرية من قرى قليوب تعد متنزهاً له ، عرفت باسم «قصر الورد»[٩٨] ، فضلاً عما حازه الوزراء من ممتلكات مثل ما حبسه أمير الجيوش أو ما تركه ابن رزيك من أملاك موقوفة[٩٩] .

وارتباطاً بما سبق لنا أن نتساءل ، هل كانت هناك ملكية خاصة للمصريين بعيداً عما ملكه القطاع الحاكم ؟ يذكر المقدسى[١٠٠] : "ليس فى مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح إلى الأرض يأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصدت .. يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الأرض ويعطيا ما بقى للفلاح ، وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيرد علته فى كرى الأرض بمقدار ما أقطعه ، فلا يكون لأحد ملك وضيعة ، قال : اللهم أن يكون رجل قد اشترى ممن أقطعه السلطان فى القديم ووهبها ، فاحتاج هو وذريته إلى ثمنها ، فباعها لعامة الناس» .

فهذا النص فضلاً عن أنه يجمل ما اسلفناه ، فهو يؤكد على أن الملكية الخاصة تكاد أن تنعدم من خلال احتياز الدولة للأرض ، وتوجد فى نطاق ضيق ، ولا تأتى إلا عن طريق إقطاع الأرض ولا سيما التمليك ، فتنتقل بالبيع لعامة الناس . ومن المعلوم أن المقدسى زار مصر خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وأن كانت هذه المعلومات لم يستقها من مصر نفسها ، بل سأل أحد المصريين ببخارى عن حال الأرض فى مصر ، فكان ما أوردناه . والبعض[١٠١] فند هذا الرأى وأكد على وجود الملكية الخاصة ، لكنه قد استند فى ذلك على نصوص ترجع إلى ما بعد زيارة المقدسى لمصر وحتى آخر عصر الفاطميين ، فالنص الذى أمامنا يبين حال الأرض فى بداية عصرهم وكانت الدولة لا تزال مالكة للأرض ، وهى التى تمارس توزيعها أما بالقبالة أو بالمزارعة مع وجود الملكية الخاصة فى نطاق ضيق .

---

(٩٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٧ .

(٩٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٨٨ .

(٩٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

(١٠٠) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٢١٢ .

(١٠١) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ص ٥٣ – ٥٦ .

لكنها ازدادت بمضى الزمن ، حتى كان الوقف معبراً عنها ، لأنه لا يمكن أن يمنح شخص حق الاستفادة فى أرض ليس له فيها سوى حق الانتفاع ، ولا معنى إنه يوقف إيرادها ، لأنه بذلك يسلب المالك الأصلى حق الاستفادة من ملكه[١٠٢] . ومن خلال أحد عقود الوقف الذى يرجع إلى عام ٤٠٢ هـ/١٠١٢م[١٠٣] نتبين ذلك ، كما أورد المقريزى[١٠٤] خلال وزارة الأفضل : «قد طالع المجلس الأفضلى بحال أرباب الأملاك هناك وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها وحازوها» ويبدو أن هؤلاء استفادوا من فترات الاضطرابات السابقة واغتصبوا أراضى الدولة مع بقاء الملكيات الخاصة .

كذلك عندما أراد الأفضل أن يحل الاقطاعات ، أخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتيناً وأملاكاً ومعاصر فى نواحيهم ، فقال : "من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الأقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره» فهذا النص تقرير صريح عن وجود الملكية الخاصة واعترافاً من الدولة بحق وحرية صاحبها فى التصرف فيها ، لكن هؤلاء أو أولئك قد ظهروا فى أخريات العصر الفاطمى ، حتى سمحت لهم الظروف بالظهور بهذه الكيفية ، كما وصف الآخرين بأنهم من الأقوياء أو المميزين ، فيبدو أنهم كانوا من قادة الجند أو أمراء النواحى ، الذين ظهروا فى أخريات عهد الدولة ، وكان لهم شأناً فيها ، وهذا معناه أن المالكين للأرض كانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بالدولة ، أو من المحتمل أنهم كانوا بقايا فلول جند السودان ، الذين أجبروا على التقهقر إلى الصعيد أبان فتن الجند .

خلاصة القول ، أن الملكية الخاصة قد وجدت فى بداية عهد الفاطميين فى نطاق ضيق ، لكنها ازدادت بمضى الوقت ، ولم يقف الأمر عند حد الامتلاك ، بل تعداه إلى اغتصاب الأرض ، كما أن المالكين لم يكونوا من عامة المصريين ، وأن كان ذلك ربما يرجع إلى الافتقار إلى نصوص متعلقة بهذا الشأن .

---

(١٠٢) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٥

(١٠٣) انظر : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire Tome VI. No. 2148.

(١٠٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥

وقد تضمن الأمان ، الذى أعطاه جوهر للمصريين أيضاً : «اسقاط الرسوم الجائرة» وهذا يشير إلى وجود بعض التجاوزات لسياسة الإخشيديين المالية ، والتى عانى منها المصريون[١٠٥] ، فإلى أى حد استطاع الفاطميون أن يؤكدوا فعالية هذا التصريح خلال حكمهم لمصر ؟

تطالعنا المصادر[١٠٦] بأنه مع الفتح الإسلامى لمصر فرضت ضرائب على الصناع والأجراء ، لكنها كانت تقسم عليهم فى كل قرية بقدر احتمالهم ، وفى نهاية عصر الولاة ، فرض أحمد بن المدبر عامل الخراج ضرائباً عرفت باسم «الهلالى»[١٠٧] منها ما فرض على الكلأ وعرف بـ «المراعى» أو ما يخرج من البحر وعرف بـ «المصايد» وعلى الرغم من أن هذه الضريبة فرضت على نطاق ضيق ، فإنها أثقلت كاهل الرعية ، ولذلك عمل أحمد بن طولون عندما ولى مصر على إسقاطها[١٠٨] رغبة منه فى التقرب إلى المصريين .

وعلى الرغم من التجاوزات المالية ، التى أشار إليها المؤرخون خلال العصر الإخشيدي ، فإنها فى الغالب ارتبطت أولاً بشخص الإخشيد ، الذى قام بمصادرة كبار موظفى الدولة أو ممن كانت لهم معاملات معها وأصابوا منها مالاً كثيراً ؛ فضلاً عن استيلائه على جزء من تركة كبار التجار والموظفين وثانياً جعفر بن الفرات ، الذى تولى الوزارة فى نهاية عصر الإخشيديين وقام بمصادرة الكثيرين من وجوه القوم[١٠٩] ، منهم يعقوب بن كلس ، الذى هرب إلى المعز يحرضه على المجئ إلى مصر ، فضلاً عن البراطيل[١١٠] التى عرفت آنذاك .

---

(١٠٥) اشتد الغلاء فى مصر من عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م واستمر تسع سنوات متتابعة ، وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل مما أدى إلى اختفاء القمح واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع ، ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعددت الفتن ، سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ٣٤٦ .

(١٠٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ١٧٩ .

(١٠٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(١٠٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٠٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

(١١٠) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

ومع الفاطميين بعد أن استقر الأمر لجوهر ، طاف صاحب الشرطة السفلى[111] ، يصحبه رسول جوهر وأمنا الناس وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤنة[112] ، كما قام جوهر فى نفس العام ، الذى دخل فيه مصر بإسقاط البراطيل[113] . وبعد مجئ المعز إلى مصر ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، بوضع نظاماً جديداً للضرائب ، جمعت أقسامه فى مكان واحد . كما كان من بين الأعمال التى تقلدها الأثنان السواحل والأعشار[114] ، وفى خلافة العزيز أقر الوزير عيسى بن نسطورس ضرائباً ومكوساً زائدة[115] . وهذا يبين أن الضرائب التى فرضها الفاطميون كانت منذ بدء خلافتهم وأنها عرفت باسم "المكوس" مما حدا بالبعض[116] أن يذكر أن الفاطميين وضعوا المكوس على الناس ، وأنهم أحدثوا شيئاً لم يكن على الأقل موجوداً فى العصر السابق عليهم .

وإن كانت هناك إشارات بأن العرب ، كانوا يفرضون ضرائب على التجارة ، وكانت تعرف هذه الضرائب بالمكوس ، استمراراً لما كان معروفاً أيام البيزنطيين[117] ، وكذلك أن ربيعة بن شرحبيل كان والياً لعمرو على المكوس ، واستمرت هذه الوظيفة بحيث ورد اسم زريق بن حيان فى خلافة عمر بن عبد العزيز[118] ، وليس هناك شك فى وجود هذه الضرائب وهذه الوظيفة ، لكن الخلاف حول المسمى ، فمن المعلوم أن المقس أنشأ فى القاهرة ، فعند مجئ المعز ، رأى أن المدينة الجديدة لا ساحل لها فلم يعجبه ، وقال يا جوهر : «فاتك عمارتها ههنا ، يريد

---

(111) لما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فيها شرطة جديدة سميت بـ "الشرطة العليا" تميزاً لها عنا الشرطة السفلى فى الفسطاط وترجع هذه التسمية إلى الموقع وحدود الاختصاص ، وكان صاحب الشرطة السفلى عظم شأناً من زمينه بوصفه صاحب القسم الرئيسى . انظر سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ١٧٢ - ١٧٣.

(112) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(113) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(114) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٦٣ .

(115) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(116) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٢١ .

(117) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٦٢ .

(118) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٣

المقس»[١١٩] ثم حرفت بعد ذلك إلى كلمة المكس ، حيث كان الماكس يجلس ليستخرج المكس[١٢٠] . فمن المرجح أن هذه الكلمة «مكوس» قد عرفت مع الفاطميين ، ولأن ما كان يجبى من ضرائب منذ الفتح لم يكن سوى عشور التجارة التى حددت للمسلمين بربع العشر ومن أهل الذمة بنصف العشر ومن أهل الحرب بالعشر[١٢١] ، فضلاً عن ضرائب التجارة الداخلية التى كانت تفرض داخل البلاد[١٢٢] . وكذلك لأن الكلمة كانت تفيد الضرائب ، وبذلك انسحبت على الفترات السابقة على الفاطميين .

والمكوس[١٢٣] ، ضرائب تفرض على كل نشاط حرفى يمارس فى مصر الفاطمية ، فإذا كان الخراج ضريبة تفرض على الأرض ويدفعها القطاع الفلاحى ، فالمكوس تفرض على الصناعة والتجارة ويدفعها الصناع والتجار ، وتختلف المكوس عن الخراج أيضاً فى وقت جبايتها ، فبينما الخراج يجبى حسب السنة الشمسية[١٢٤] ، كانت المكوس تجبى حسب الشهور الهلالية[١٢٥] ، ولذلك عرفت أيضاً باسم الهلالى والمرافق والمعاون . وقد استمرت هذه الأسماء فى بعض الأحيان مع الفاطميين[١٢٦] . وقد أصبحت المكوس تفرض على نطاق واسع ولم تترك شاردة ولا واردة إلا وفرضت عليها الدولة رسوماً وضرائب . وقد ذهب البعض[١٢٧] ، إلى إنها ضريبة تفرض على الانتاج .

وفيما يخص الضرائب المقررة على الصناعة ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على صناعة الفاخور والنبيذ ومعاصر الزيت والخل[١٢٨] ، فمثلاً كان يفرض على زق

---

(١١٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٢ .
(١٢٠) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢١ .
(١٢١) أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ ، ١٢٣ .
(١٢٢) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٦٣ .
(١٢٣) انظر : Dozy, Supplément aux dictionnaire arabe, 1927, 11, p. 606.
(١٢٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .
(١٢٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .
(١٢٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ ، ١٠٧ .
(١٢٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .
(١٢٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الزيت ديناراً[١٢٩] ، بالاضافة إلى ما يفرض على مطابخ السكر ودار الجبن وبيوت الغزل ، فكانت الضريبة المقررة على صناعة الحرير فى الفسطاط ٣٣٤ دينار[١٣٠] ، وبالمصادقة ، هناك وثيقة ترجع إلى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م[١٣١] من المحلة تعطى نفس القيمة ، ومن وثيقة أخرى[١٣٢] ، تتوافق الضرائب الخاصة بصناعة الحرير تبعاً لمراحلها المختلفة ، والتى يتم مباشرتها من قبل الصناع والحرفيين المشار إليهم عند المقدسى[١٣٣] ، حيث الرسوم ، التى كانت تحصل فى تنيس ودمياط ، مقابل حمل المنسوجات وشدها وحزمها ، بالإضافة إلى ما كان يفرض من ضرائب على صباغة الحرير[١٣٤] ، بل تعدت الضرائب إلى حضانات الفراريج[١٣٥] كسائر الحرف والصناعات ، وكذلك استمرت الضريبة المقررة على المصايد[١٣٦] وغيرها مما ذكره المؤرخون وكان يوجد فى كل سوق من الأسواق على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم[١٣٧] .

وفيما يخص النشاط التجارى ، فقد فرضت الدولة كثيراً من الضرائب سواء على التجارة الخارجية أو الداخلية ، لا سيما أن التجارة شهدت تقدماً ملحوظاً مع قيام الدولة الفاطمية ، كما لعبت مصر دور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، وعلى الصعيد الداخلى ، تأثرت التجارة فى مدن مصر بهذا النشاط فضلاً عن التقاليد الاجتماعية التى أرستها طبيعة الحكم الفاطمى من ميل إلى الترف وحب المظاهر ، فشهدت الأسواق الداخلية لذلك حركة دائبة .

---

(١٢٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ ، والزق ، كل وعاء أتخذ للشراب ونحوه ، انظر ، ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ١٩٨٨ ، جـ٦ ، ص ٦٠ .

(١٣٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣١) Goitein. S.D., A Mediterranean Society, Economic Foundations, Los Angeles, 1967, 1, p. 116.

(١٣٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 116.

(١٣٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٢ .

(١٣٧) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

أما التجارة الخارجية ، أو ما يقصد بها الصادر والوارد فى موانى ومدن مصر المختلفة مثل الإسكندرية وتنيس ودمياط ورشيد وعيذاب[(١٣٨)] وغيرها . فكانت الضرائب تستأدى من الروم فى الإسكندرية والفسطاط واخميم[(١٣٩)] ، أما أسوان فيدفع فيها الضرائب على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن[(١٤٠)] . ولقد اختلفت قيمة الضرائب ، بسبب أن القائمين بالتجارة كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة من مسلمين وغير مسلمين ، لذلك نجد أن هذه الضرائب ارتبطت بالطائفة التى فرضت عليها مثل العشر ، الذى فرض على التجار المسلمين والخمس على التجار الغير مسلمين والأجانب ، خاصة الروم وعرف بهم[(١٤١)] . وإن اختلف الخمس أيضاً من فئة إلى أخرى حسب أنواع السلع وقيمتها وكذا جنسيات التجار . فكان يحصل من بعض تجار الروم الخمس ومن بعضهم العشر ، ومن هنا جاءت كلمتا العشر والخمس كمرادف لكلمة مكوس . كما كانت تخفض الضرائب على التجار الأوروبيين ، خاصة تجار المدن الإيطالية . فضلاً عن حصولهم على بعض الامتيازات بسبب ما يحملون من مواد خام يحتاجها الفاطميون مثل الخشب والحديد[(١٤٢)] .

ولقد وضع الفاطميون كثيراً من الضوابط لأحكام تحصيل هذه الضرائب ، فعندما تأتى السفينة ، يصعد إليها الأمناء ، وهم موظفون من قبل الدولة ومهمتهم تسجيل جميع ما جلب من بضائع ، ويتم نقل هذه البضائع إلى الفنادق حيث تقدر أثمانها بواسطة سماسرة تابعين للدولة أيضاً ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش[(١٤٣)] ،

---

(١٣٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٤ .

(١٣٩) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٩ .

(١٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٣٣ .

(١٤١) المخزومى ، المنهاج ، ص ٤٥ . والخمس عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وإنما انحط عن العشرين ديناراً وسمى كلاهما خمساً ، انظر . ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(١٤٢) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩١، جـ٢ ، ص ٣٤ .

(١٤٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ .

فضلاً عن الأمناء المسئولين عن تحصيل الضرائب المستحقة على القوافل ، التى تأتى إلى حدود البلاد(١٤٤) .

أما السلع التى تصدر من مصر عبر الموانى المصرية ، فيدفع صاحب السلعة رسوماً معينة إذا حملت السلعة إلى المراكب ، كما تحمل سلعة كل تاجر علامة خاصة به ، ثم يتم التفتيش قبل التحرك ، وتوكل الدولة لتحصيل هذه الضريبة موظفاً يسمى «ضرائبياً» يكون مسئولاً فى كل ميناء من موانئ مصر عن جباية الأموال المختلفة(١٤٥) . وكان يؤخذ مثلاً فى القلزم على كل حمل درهم ، وكان يؤخذ فى الإسكندرية والفسطاط واخميم دون بقية البلاد ضرائب بتقرير الديوان(١٤٦) . ولكثرة ما كان يجبى من ضرائب ، أوجدت الدولة ديواناً سمى بـ «ديوان الثغور» ليقوم بالإشراف على الثغور الساحلية(١٤٧) .

كما كان لنشاط التجارة الكارمية ، أثر فى تحصيل هذه الضرائب ، خاصة أن الفاطميين قد دفعوا بهذه التجارة قدماً ، عندما زاد اهتمامهم بالبحر الأحمر وتجارة الشرق(١٤٨) . حتى أصبحت كلمة كارم مع القرن ٦هـ/١٢م ، شائعة فى بيوت الفسطاط(١٤٩) . وكانت رسوم هذه التجارة تحصل فى أربعة سواحل ، فى عيذاب والقصير والطور والسويس(١٥٠) ، وعلى ذلك قامت الدولة بحماية سفن التجارة الكارمية من خلال إقامة أسطول فى عيذاب(١٥١) ، مما يبين أنه كان هناك أسباباً مالية من وراء هذه الحماية ، فقد كان كبار التجار قادرين على الدفع ، أما صغار التجار فكانوا مضطرين إلى أن يتحملوا تقلبات القراصنة ، التى كانت تشكل خطراً فعلياً وقتذاك فى

---

(١٤٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٤٥) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٤٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٩١ .

(١٤٨) بعد فقدان الفاطميين للمغرب وصقلية أفل نجمهم فى البحر المتوسط ، وكان عليهم أن يؤكدوا وجودهم فى مكان آخر ، فاتجهوا إلى البحر الأحمر ، لاسيما تجاه اليمن والهند ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خلال ق٥هـ/١١م طريق التجارة الرئيسية إلى الهند والبحر المتوسط ، انظر : Shaban, Islamic Hiswtory, P. 203.

(١٤٩) انظر : Goitein, New lights on the beginning of the Karimi Merchants (JRAS), p.181.

(١٥٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(١٥١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٥٢٠ .

جنوب البحر الأحمر[١٥٢] ؛ فضلاً عن قيام الخلفاء أنفسهم وغيرهم من كبار رجال الدولة بالمشاركة فى هذه التجارة ، من خلال السفن التى أعدت لهذه التجارة ، مستفيدين من انتعاش هذه التجارة[١٥٣] ، مما يدل على ارتفاع الرسوم المقررة على تجارة الكارم . وكانت دار مانك الصغرى ، التى كانت تقع فى الفسطاط مكاناً لدفع المكوس[١٥٤] على السلع المصدرة ومنها تجارة الجملة مثل الكتان والتوابل[١٥٥] .

ولحاجة الفاطميين إلى تحصيل الأموال فى موانى مصر سواء التى تربطها بأوروبا أو بالشرق ، عمل الفاطميون على تشجيع التجارة ، فأنشأت الأساطيل التجارية ، كما أعيد حفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فيما عرف بـ «الخليج الحاكمى»[١٥٦] ، كذلك أعيد حفر خليج الإسكندرية ٤٠٤هـ/١٠١٣م[١٥٧] ، فضلاً عن تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر من خلال تخفيض الرسوم وإقامة الفنادق فى الموانئ الهامة وفى غيرها من المدن ، حيث انتشرت من الإسكندرية حتى أسوان[١٥٨] ، إلى جانب تعهد الدولة فى بعض الأحيان ببسط حمايتها على التجار الموجودين فى أنحاء البلاد[١٥٩] . كما أمر الآمر ببناء دار الوكالة لمن يصل من العراق والشام من التجار ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد[١٦٠] .

أما الضرائب المقررة على التجارة الداخلية ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على عبور السلع من القناطر والمعديات . أو التوابل والقطن والصوف والأبقار والحنة والفحم وغيره[١٦١] . وقد أوردت وثائق الجنيزة[١٦٢] قيمة بعض هذه الضرائب ، منها

---

(١٥٢) انظر : Goitein, New Lights, p. 182.

(١٥٣) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ٣٠١ .

(١٥٤) المسبحى ، أخبار ، ص ١٨٩ ؛ ودار مانك تقع بشارع الزياتين ، انظر . ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ٥-٦ .

(١٥٥) انظر : Goitein, Med. Sec. IV, p. 27.

(١٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٧١ .

(١٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧١ .

(١٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٣٧ ؛ هايد ، تاريخ التجارة ، جـ٢ ، ص ٤٣ .

(١٥٩) هايد ، تاريخ التجارة ، جـ٢ ، ص ٤٠ .

(١٦٠) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٩٢ .

(١٦١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٢) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, pp. 194, 276.

درهمين على الحمار ، بينما كان ثمنه ما بين دينارين وخمسة دنانير وثلاثة دنانير للمتوسط ، والجمل يباع بخمسة دنانير وضريبته خمسة دراهم أى حوالى ٢،٥% من ثمنه . كما كانت الدولة تفرض الضرائب على الأسواق المتخصصة مثل سوق السكر والدقيق والجمال والدواب والسمك والذبائح وغيرها[(١٦٣)] ، بالإضافة إلى ما يدفعونه مقابل ما يباع وما يشترى[(١٦٤)] ، أما تجارة المنسوجات ، فقد فرضت عليها رسوماً باهظة كما راقبتها الدولة رقابة شديدة سوف نشير إليها فيما بعد .

وكانت هناك أيضاً بعض الضرائب التى تفرض على السلع ، منها مكس حقوق الساحل أو الغلة ، وهى ضريبة مقررة على القمح المجلوب إلى ساحل القاهرة والفسطاط[(١٦٥)] حيث كان يفرض عليه الضريبة قبل أن يباع ، ويبدو أن هذه الضريبة فاطمية الأصل أو حتى مبكرة[(١٦٦)] ، إلى جانب ما كان يفرض على الكتان والقطن وعما يحصل فى ساحل السنط بالفسطاط على الأخشاب ، التى تنقل إليه والمباعة للتجار بالوجه القبلى[(١٦٧)] ، كما كانت تؤخذ الرسوم بشكل عينى على بعض السلع وهذا يتضح مما سومح به فى وزارة المأمون البطائحى عام ٥١٥هـ/١١٢٢م[(١٦٨)] ، وكذلك ما كان يؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة إلى ثلاثة دنانير ، فضلاً عن الضرائب المقررة عليه[(١٦٩)] ، وبذلك أمدت ضرائب السوق الفاطميين بأموال ضخمة[(١٧٠)] ، وفى الغالب كانت تجمع الضرائب من خلال الضمان بمقدار معين لكل جهة إن زادت فله وإن نقصت فعليه[(١٧١)].

---

(١٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٥ .

(١٦٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٦) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 103 - 104.

(١٦٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١١ .

(١٦٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ - ٨٤ . ومقدار ما سومح به إلى آخر عام ٥١٠هـ/١١١٦م تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً من الشب ومن الحديد خمسمائة رطل ، ومن الملح الفان وسبعمائة وثلاثة وتسعون أردباً وثلث ومن الشمع أربعمائة وأربعون لاطلاً .

(١٦٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٧٠) انظر : Ashtor. E., Social and economic History of the Near cast in Middle Ages. London 1976, p. 200.

(١٧١) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٦٦

ومن الملاحظ أيضاً ذكر مناطق متعددة لجباية ضرائب التجارة الداخلية فى ساحل الفسطاط والقاهرة ، كما خصصوا أماكن معينة يرد إلى كل منها نوع معين لتقرير الضريبة عليه ، وأن هذه الضرائب اختلفت من حيث ورود كلمات تعبر عنها مثل رسوم ، مكس ، حماية ، واجب ، سمسرة السلع ، سمسرة الدلالة[١٧٢] . وكان هناك ديواناً يشرف على التجارة الداخلية يسمى «ديوان الهلالى»[١٧٣] ويوجد أيضاً فى كل ناحية متولى المال ، حيث يوجد ديوان الحكومة فى الناحية ، أما الحسابات النهائية ، كانت توجد فى المركز الرئيسى بالقاهرة[١٧٤] ، ولعله الديوان السالف الذكر .

لذا نجد الفاطميين يهتمون بالأسواق لتشجيع التجارة الداخلية ، فكان أغلبها مغطى بالسقائف وتضاء ليلاً بالقناديل ، خاصة فى عهد الحاكم بأمر الله ، الذى أمر بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت فى مصر والقاهرة ليلاً[١٧٥] . كما كانت معظم الأسواق مبلطة[١٧٦] . إلى جانب توفير الدواب للركوب للانتقال بين الأسواق[١٧٧] . وكان هناك موظفاً مسئولاً عن الإشراف على التجار[١٧٨] ، ربما يكون أحد العرفاء الذين استعان بهم المحتسب[١٧٩] ، أو أنه كان يهتم بشئون اليهود وحدهم .

ولحرص الفاطميين على تشجيع التجارة ، استطاع القاضى النعمان أن يجد حلاً لممارسة الربا بشكل شرعى ، فمع عدم شرعية الربا كما هو معلوم ، فقد تمت ممارسته ، لكن خلال تحديداً خاصاً بهم قام على التفاضل فى عملية الدين ، وهو : «لا بأس باقتضاء الفضة من الذهب والذهب من الفضة ، إذا اتفقا على ذلك ، ومن أسلف دراهم فأعطى أجود منها فلا بأس»[١٨٠] وهذا الأمر ينسحب على السلع أيضاً .

---

(١٧٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(١٧٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٢ .
(١٧٤) انظر : Goitein, Med Soc., p. 267.
(١٧٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٩ .
(١٧٦) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١ .
(١٧٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ص ١٢٠ – ١٢١ .
(١٧٨) انظر : Mann, The Jews in Egypt. 1. p. 81.
(١٧٩) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .
(١٨٠) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

وإضافة إلى الضرائب التى فرضت على النشاط الصناعي والتجارى ، كان هناك نظام التصاريح أو التراخيص ، الذى كان من الأمور المعمول بها خلال العصر الفاطمى ، فكان على كل حانوت أن يستخرج رخصة شهرية مقابل واجبات مالية يجب أن تؤدى ، وهذا الأمر لم يكن مطبقاً فقط على المصانع ، لكن أيضاً على حوانيت بيع المواد الغذائية أو غيرها من السلع الأخرى ، وهذه الواجبات كانت تجمع تبعاً للشهور الهلالية ، وهى لم تكن إيجارات لما تؤجره الحكومة ، وهذا النظام ، بالإضافة إلى أنه يعد مصدراً للدخل ، فهو يجعل الحكومة قادرة على أن تشرف على أوجه النشاط الصناعى والتجارى لرعاياها[١٨١] .

ومع ذلك ، قد تجاوزت المكوس فى بعض الأحيان هذين المجالين ، ففرضت على الحجيج فى البحر الأحمر إلى مكة عن طريق عيذاب ، وهى سبعة دنانير ونصف عن كل إنسان[١٨٢] ، إلى جانب ما يدفعونه عن كل حمل طعام من ضريبة معلومة[١٨٣] . ومن لم يؤد هذه الضريبة منع من الحج وعذب[١٨٤] ، وهذا الأمر لا يخلو من المبالغة ، فإذا كان الفاطميون حريصين كل الحرص على فرض الضرائب وجبايتها ، فلا يمكن أن يشوهوا صورتهم بهذه الكيفية ، فى الوقت الذى كانوا يتطلعون فيه إلى حكم العالم الإسلامى ، وإذا كانت فرضت بالفعل ، فلعلها ارتبطت بالعصر الفاطمى الثانى ، حيث ضعفت موارد الدولة وبدأت تبحث عن موارد أخرى لتغطى نفقاتها ، كذلك كان المكس يؤدى على شرب مياه النيل[١٨٥] ، حتى من يغرق فى النيل كان على أهله أن يدفعوا واجب الصناعة للدولة مقابل اخراجه ، وبلغ هذا الواجب دينارين وقيراطين[١٨٦] . وبذلك لم تترك الدولة شيئاً إلا وفرضت عليه رسوماً وضرائب وأن الهواء وحده أخلى سبيله وبقى حراً[١٨٧] .

---

(١٨١) انظر : Goitein, Med Soc., pp. 269 - 270.
(١٨٢) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٦٤ .
(١٨٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٤ .
(١٨٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٦٤ .
(١٨٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٥ .
(١٨٦) المسبحى ، أخبار ، ص ٦٠ "غرق فى دار النيل حدث يعرف بابن الاسكاف ، وطرحة النيل على الشط ،.وصار أهله إليه ليحملوه ، فمنعهم أصحاب الشريف متولى الصناعة من حمله وطالبوهم بدينارين وقيراطين واجب الصناعة من حق من غرق فى النيل ، فدفع ذلك إليهم" .
(١٨٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .

واعتبر البعض[188] ، أن هذه الضرائب جائرة وغير قانونية ، حيث كانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠ – ٢٥% من قيمة السلعة ، فكانت الضرائب ثقيلة خاصة فى تنيس ودمياط على ساحل النيل[189] ، واستطاعت الخلافة الفاطمية أن تحصل من المكوس الشيئ الكثير ، منها ألف دينار يومياً بساحل تنيس ، ونفس القيمة من الفسطاط ، فضلاً عما كان يجبى فى الموانى من التجارة الواردة ، وكانت أكثر الجهات وأشدها ما هو مقرر على التجار الآتين من الشام والعراق ، حيث كانت تتحصل منهم الضريبة فى الفرما[190] . كما تشير وثائق الجنيزة[191] إلى ثقل هذه الضرائب بشكل عام ، عندما جاءت سفينة من بيزنطة وعليها أسرى كثيرين ، فطلب يهود الإسكندرية المساعدة من ابراهام ، الذى لم تحدد الوثيقة وضعه ولعله من أغنياء الإسكندرية ، أو أحد المسئولين عن الجالية اليهودية فيها ، لعجزهم عن توفير الأموال ، إذ الأوقات صعبة والضرائب ثقيلة ، كما أن ضريبة الختم على البضائع قد لوحظ أنها ثقيلة جداً ، فكان يدفع لكل خمسين ديناراً ، دينار أى بواقع ٢% ، وتشير الرسائل إلى احساس التجار بثقل هذه الضريبة ، وأنه لا يستطيع معها أن يحصل أى فائدة ، وربما كان ارتفاع هذه الضرائب من وراء استخدام التجار الرسائل الشفوية ، لأن الدولة كانت تفرض رقابة اقتصادية على الرسائل[192] .

بداية ، تعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، كما أنها فى الأصل غير مباشرة ، وهى بذلك تخضع لظروف الدولة وحاجتها للأموال أو رغبتها فى التخفيف لمراعاة ظروف خاصة بها لحاجتها مثلاً فى التعامل مع تجار إحدى الدول من أجل سلعة معينة ، وعلى الرغم من أنها فى الأصل تتفق وما عرف بالعشور كما أسلفنا ؛ لكنها مع الفاطميين شملت نواح أخرى كثيرة ، كما أنها كانت متجاوزة عن الحد فى بعض الأحيان كما بينا . ومع ذلك لم يكن الفاطميون أول من بالغ فى قيمة هذه

---

(١٨٨) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٨ .
(١٨٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .
(١٩٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٩٢ .
(١٩١) انظر : Mann, The Jews in Egypt, 1, p. 91.
(١٩٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 271.

الرسوم ، بدليل ما أورده أبو يوسف[١٩٣] من ضرورة إصلاح الجهاز الجمركى للعباسيين إبان خلافة الرشيد .

ولما كانت المكوس قد بدأت مع المعز وزادت مع ابن نسطورس . ومع استمرارها طوال العصر الفاطمى ، مع ذلك كانت هناك بعض الفترات التى شهدت فيها البلاد إسقاط لهذه الضرائب . فعندما وزر ابن عمار للخليفة الحاكم اسقط الرسوم الغير مقررة لابن نسطورس ورد الأمور إلى ما كانت عليه[١٩٤] ، كما قام الخليفة الحاكم بإسقاط المكوس والمؤن التى تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز[١٩٥] ، وبدأ ذلك فى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ثم تلاه بإسقاط مكوس الساحل[١٩٦] ، فضلاً عن إصدار سجلاً بالمنع من تفتيش المسافرين وأن تخلل هذه السنوات إعادة المكوس التى ألغيت[١٩٧] ، وفى عام واحد يسقط الخمس ثم يعيده ، ولذلك ، فمهما قيل فى سياسة الحاكم وما قام به من إلغاء بعض الضرائب ، فقد ارتبطت بقتل برجوان والتخلص من وصايته ، أو أنه أراد من وراء ذلك تنفيذ سياسة إصلاحية ، بسبب نزعة التصوف أو رغبة فى التقرب من الناس بعد اتهامه بادعاء الألوهية[١٩٨] . ولذلك فسياسة الخليفة الحاكم كان يشوبها عدم الاستقرار .

ولما كانت سياسة الدولة المالية ترمي إلى فرض الضرائب ، فكان طبيعياً أن تقوم ست الملك ، التى أصبحت وصية على الخليفة الظاهر ، بإعادة المكوس إلى ما كانت عليه ، قبل إسقاطها[١٩٩] . لكن بعد وفاتها فى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م أصدر الخليفة الظاهر أمراً بإسقاط جميع المكوس عن سائر أصناف الغلات الواردة إلى سواحل الفسطاط ، وهذا الإجراء ارتبط بالغلاء الذى وقع فى نفس العام[٢٠٠] . كما كان حرص الخليفة الآمر على الضرائب عند توليته للمأمون البطائحى ، فاشترط عليه بألا

---

[١٩٣] الخراج ، ص ص ١٤٢ - ١٤٣ .

[١٩٤] يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

[١٩٥] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .

[١٩٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .

[١٩٧] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .

[١٩٨] يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ٢٢٢ .

[١٩٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٧٤ .

[٢٠٠] المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

يجبى الأموال ، إلا بالقصر[٢٠١]، وهذا الأمر مرتبط بما عرف عن الآمر من إنه ظلم الناس وأخذ أموالهم[٢٠٢] . وما حدث فى وزارة رزيك بن الصالح طلائع من إسقاط رسوم الظلم على حد قول المقريزى[٢٠٣] ، على الرغم من أنه تولى الوزارة بعد أبيه الصالح ، الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز ثم العاضد ٥٥٠-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م، كان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموال ، وباع الولايات[٢٠٤] ، وفرض على الولاة والقضاة والمحتسبين أموالاً مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر وعرفت هذه الأموال باسم "البراطيل"[٢٠٥] ، مما أدى إلى ضرر الناس .

وهناك إشارات إلى أن المكوس ، قد ازدادت فى أخريات الدولة الفاطمية ، ولابد أن هذا الأمر ارتبط ببداية حالة الضعف التى ألمت بالبلاد خلال عصر المستنصر ، الذى اسلم البلاد لحالة سيئة ، فيذكر المقريزى : «ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية ، عندما ضعفت وصارت تعرف بالمكوس»[٢٠٦] وهذا ليس معناه أن المكوس فرضت مع نهاية الدولة ، فمن المحقق أنها عرفت معهم من البداية ، لكن الذى يفهم من هذا النص إنها زيدت فى العصر الفاطمى الثانى من حيث تنوعها ومقدارها وعددها[٢٠٧] ، لأن ضعف الدولة الفاطمية قد اقترن بهذه الفترة المتأخرة . ولهذا فإن كلمة "أعيدت" قد جاءت مرتبطة بما قام به أحمد بن طولون فى النص من إسقاط الأموال الهلالية .

وابن خلدون ، يلقى الضوء على هذا الأمر ويربط زيادة الجباية مع آخر الدولة بأسباب الترف ، وأن الدولة عندما يصيبها الهرم وتضعف عصبيتها عن جباية الأعمال ، فتثقل الجباية : «فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً»[٢٠٨] وهو بالفعل يعطى أمثلة منها الدولة الفاطمية .

---

(٢٠١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤١ .
(٢٠٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ ، جـ٥، ص ١٧٥ .
(٢٠٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٥٣ .
(٢٠٤) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .
(٢٠٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(٢٠٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(٢٠٧) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٣٤٢ .
(٢٠٨) المقدمة ، بيروت ، صفحات ، ٢٨٠ – ٢٨١ .

وإذا حاولنا أن نطبق هذا النص ، نجد أن زيادة رغبة الدولة فى الانفاق على الحفلات والمواكب والأسمطة[٢٠٩] وغيرها ، خاصة مع خلافة الآمر ، والتى اكتملت فيها الرسوم الفاطمية ، فكانت الدولة فى حاجة دائمة إلى الأموال ، فضلاً عن انقطاع موارد التجارة ، فلم تجد الدولة ، مخرجاً من الضائقة المالية غير الإسراف فى فرض الضرائب والمكوس[٢١٠] . وعلى ذلك لا نستبعد أن القائمة ، التى أوردها المقريزى[٢١١] ، ربما ترجع إلى هذه الفترة أو بعدها بقليل ، لا سيما أن الضرائب قد انخفضت خاصة المفروضة على التجارة الخارجية خلال هذه الفترة مما أدى إلى هبوط المتحصل بشكل عام[٢١٢] ، ويعد ما كان يؤخذ من التاجر ٣٥ دينار عن كل مائة دينار انخفضت إلى عشرين ، حتى وصل ارتفاع ثغر الإسكندرية عام ٥١٧هـ/١١٢٣م فى الشهر إلى خمسمائة دينار[٢١٣] ، وكذا بسبب اضطراب أحوال البلاد من جراء الصراع الدائر بين الوزراء العظام فيما بعد ، حتى وصل المتحصل منها مائة ألف دينار فى السنة[٢١٤] ، ومقارنة بما كان يجبى فى السابق فى تنيس والاشمونين وحدهما ووصل إلى مائتى ألف دينار فى السنة ، نجد أن السبب ربما يرجع أيضاً إلى تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر ، فقامت الدولة بتخفيض الضرائب المقررة عليهم . وعلى أية حالة قد وصلت قيمة الضرائب مع صلاح الدين قبل إلغائها إلى ما يقرب من مليون دينار فى السنة[٢١٥] .

ومن خلال ما أوردناه يتضح أن المكوس كانت تشكل عبئاً ثقيلاً على الرعية «حتى أنها خرجت فى التزيد عن الحد ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها»[٢١٦] . كما أنه بسبب زيادة الضرائب على الصناعة ، كانت أسعار الصناعات

---

[٢٠٩] والمواكب منها العظام فى أول العام – أول شهر رمضان – أيام الجمع من شهر رمضان – صلاة عيد الفطر والأضحى – تخليق المقياس – فتح الخليج . أما الأسمطة : سماط شهر رمضان – العيدين . انظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٩ وما بعدها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٠ وما بعدها .

[٢١٠] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ٢٤١ .

[٢١١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

[٢١٢] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

[٢١٣] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

[٢١٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

[٢١٥] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

[٢١٦] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .

المنتجة مرتفعة أيضاً ، ومع ذلك كان دخل الصناع منخفضاً[٢١٧] ، حتى أن العامل الماهر كان يكسب خمسة دراهم يومياً[٢١٨] ، وبخصوص الوضع الاقتصادى لمجموع العاملين ، فإن وثائق الجنيزة[٢١٩] تخالف الكتاب القدامى والمحدثين ، الذين وصفوا العصر الفاطمى بالازدهار ، فإذا كان هذا العصر يعتبر بداية العصر الذهبى للبرجوازية ، لكن العاملين كانوا أسوأ حالاً ، بسبب ارتفاع الضرائب . وهذا ليس فيه إنكاراً كاملاً للازدهار الاقتصادى ، الذى اتسم به العصر الفاطمى ، لكن الفاطميين استطاعوا أن يستفيدوا من كل الأوضاع المتاحة من سياسية واقتصادية ؛ فضلاً عن فرض الضرائب الباهظة مما كان له انعكاساً واضحاً على حالة الصناع ، أى أن هذا الازدهار لم يمس إلا الدولة برجالها والطبقة العليا من المجتمع .

وكان التلويح بإسقاط بعض المكوس أو بإلغائها نهائياً هدفاً سياسياً ، مثلماً حدث مع أهل الإسكندرية ، الذين رفضوا تسليم مدينتهم لشاور ، وسلموها لشيركوه ، الذى تركها لابن أخيه صلاح الدين ، فحاول شاور أن يساوم أهلها بأن يسلموه صلاح الدين مقابل أن يرفع عنهم الضرائب ، لاسيما المكوس ، ضريبة الأسواق البغيضة ويعطيهم الأخماس[٢٢٠] ، كما كان إلغاؤها على يد صلاح الدين عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢٢١] ، يهدف أيضاً إلى التقرب من المصريين .

وبذلك لم يستطع الفاطميون أن ينجزوا ما جاء فى أمان جوهر ، لكنهم على العكس من ذلك تجاوزوه ، فيما فرضوه من ضرائب خرجت عن حدود العدل ، حتى ما قرره من إبطال المكوس فى فترات متباينة ، لم يكن وفق سياسة مرسومة ، أرادوا من ورائها التخفيف عن كاهل الرعية ، لكنها كانت تأتى بعد فترات اضطراب الحكم ، ومحاولة منهم لاحتواء وكسب الرعية ، بل وبسبب هذه المسامحات ضعفت الجباية ومن ثم زيدت فى أواخر عهد الدولة . ولم يكن ما أعلنه جوهر فى أمانة من إسقاط

---

(٢١٧) انظر : Ashtor. Social and Economic History, p. 200.

(٢١٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 97.

(٢١٩) انظر : Goitein, Med Soc, 1, p. 97.

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٣٣٧ .

(٢٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

الرسوم الجائرة سوى هدفاً دعائياً من أهداف الفاطميين ، خاصة أن فرض المكوس كان ضرورة للفاطميين واستمراراً لما فرضوه فى بلاد المغرب من ضرائب[٢٢٢] .

وارتباطاً بسياستهم المالية ، لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضافوا ضرائباً جديدة على الرعية مثل "النجوى" وهى ضريبة الدعوة ، التى يدفعها أتباع المذهب الاسماعيلى ، وهى ثلاثة دراهم وثلث ، وكان أغنياء الشيعة يدفعونها ثلاثة وثلاثين درهماً[٢٢٣] . وقد تبدو هذه الضريبة اختيارية ، لكنها حسب كتب الدعوة الاسماعيلية كانت إجبارية[٢٢٤] . كما كانت هناك «الفطرة» التى كانت تدفع فى عيد الفطر[٢٢٥] . ويرى البعض[٢٢٦] «إن هذه الضرائب المتعلقة بالمذهب لم تكن لها معنى ضرائب حقيقية ، إنما كانت أشبه بواجبات دينية أو مذهبية» وقد أصبحت هذه الضرائب بمضى الوقت كما تذكر المصادر[٢٢٧] : «صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد» وطالما كان هناك اهتمام بأمر الدعوة ونشر المذهب الاسماعيلى ، كان المتحصل منها الشيئ الكثير . وصحيح أن الحاكم أبطل أخذ هاتين الضريبتين عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م لكنه سرعان ما أعادهما فى نفس العام أيضاً[٢٢٨] .

كما حوى أمان جوهر «وأن أجيركم فى المواريث على كتاب اللّه وسنة نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال» وهذا النص يطرح عدة أمور أولها ، الأخذ

---

(٢٢٢) النعمان ، المجالس والمسايرات ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ . وعندما غادر الخليفة المعز حاضرة دولته فى المغرب متجهاً إلى مصر ، أخذ يوصى بلكين بن زيرى وقال له : "إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية" .

(٢٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

(٢٢٤) النعمان ، الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، تحقيق كامل حسين ، جـ١ ، ص ٧ .

(٢٢٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

(٢٢٦) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١٢٠ .

(٢٢٧) السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ .

(٢٢٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .

بقانون الوراثة الذى وضعه الفاطميون وثانيها أن هذا النص يعد برهاناً غير مباشر على معارضة الفاطميين اعتباراً المواريث الحشرية كمصدر من دخل الدولة(٢٢٩) .

وقانون الوراثة لدى الفاطميين(٢٣٠) ، يقوم على أساس الرحم ولا يعول على التعصيب ، فهو يجيز للبنت إذا انفردت أن تأخذ الإرث جمعية بلا عصبة ولا بيت مال ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إيجاد مبرراً لإثبات أحقية فاطمة الزهراء فى ميراث أبيها ، حتى يكون لهم الحق فى حكم العالم الإسلامى بدلاً من العباسيين . كما يوضح أيضاً ما كان سائداً قبل مجيئهم وهو أن من مات ولم يكن له من يرثه من عصبة أو ما يتبقى بعض إعطاء الأسهم يذهب إلى بيت المال ، وهذا الأمر لا غبار عليه ، إلا أنه من وجهة نظرهم غير مقبول . لكن ما كانت تأخذه الدولة الإخشيدية من التركات وكان معروفاً بـــ «ضريبة الإرث» كانت ضريبة غير شرعية(٢٣١) بيد أنه فى خلافة الظاهر حصلت الدولة على ثلث تركة إحدى المتوفيات ، اللاتى تمت بالقرابة لجوهر ، بسبب أن جوهراً كان عبداً للسلطان(٢٣٢) .

ولذلك تم الفصل فى القضايا الخاصة بالمواريث مع الفاطميين تبعاً لمذهبهم ، رغم امتعاض القاضى السنى والشهود على ذلك(٢٣٣) . وأصبح بعد ذلك من الأمور الملزمة ، الأخذ بمذهبهم فى الميراث لجميع الرعية(٢٣٤) ، ومع الوزير بدر الجمالى تغير هذا الوضع ، فأقر نظاماً جديداً يقوم على : «أن كل من مات يعمل فى ميراثه على حكم مذهبه»(٢٣٥) ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع إلى حاجة الدولة إلى الأموال ، لأن هذا النظام سوف يزيد من أموال الدولة مما يتحصل من أموال الأيتام

(٢٢٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 127.

(٢٣٠) يرى الشيعة أنه لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الذكر ، كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوان والجدات ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد . وخاطب القاضى جوهراً فى بنت وأخ وأنه قد حكم قديماً للبنت بالنصف والأخ بالباقى فقال : "ما أفعل ، فلما ألح عليه قال : يا قاضى هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٣٧٩-٣٨٠ ، المقريزى ، المقفى ، جـــ٣ ، ص ١٠٣ .

(٢٣١) أدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـــ١ ، ص ١٩٥ .

(٢٣٢) المسبحى ، أخبار ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢٣٣) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢٣٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

(٢٣٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

وهو ربع العشر أو ضريبة التركات ، خاصة أنه كان يحاول أن يخرج الدولة من أزماتها الاقتصادية المتعاقبة ، على الرغم مما وصف به من كونه متشيعاً متعصباً ضد السنة[٢٣٦] . وربما تم إنشاء ديوان المواريث الحشرية فى عهده وأن كان الترجيح لإنشاء هذا الديوان لأبنه الأفضل ، فقد ذكر المؤرخون[٢٣٧] أنه أفرد مال المواريث .

كما اتبع الأفضل سياسة مغايرة لأبيه بخصوص المواريث ، فمنع من أخذ شيئاً من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم ، حتى إذا حضر من يطلبها وتأكد القاضى بأحقيته أطلقت لمستحقيها[٢٣٨] ، لكن مع الوزير المأمون البطائحى ، طرح هذا الموضوع للمناقشة من قبل الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى فيما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وانتهى الأمر بإصدار عدة قرارات منها : أن يخلص لحرم ذوى التشبع الوارثات جميع موروثهن ، وأن الناس على اختلاف مذاهبهم يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته والمشهور به اعتقاده إلى حين وفاته ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، فضلاً عن عدم أخذ ربع العشر من أموال الأيتام ، وعلى ذلك يعرض أمناء الحكم عنه من مال المواريث الحشرية لمن يموت وليس له وارثاً سواء حاضراً أو غائباً ، فموجوده إلى بيت المال ، وأن كان للمتوفى وارث غائب فلتحفظ تركته ، وإذا حضر وأثبت استحقاقه على الأوضاع الشرعية فليخرج الأمر بتسليمه ذلك[٢٣٩] .

وهذه القرارات عبارة عن صورة توفيقية بين ما كان موجوداً قبل الفاطميين وأثناء عصرهم ، كما أنه أتاح الحرية للمذاهب السنية ، وربما ذلك يرجع إلى أن القاضى الذى استعان به الوزير كان سنياً والمأمون البطائحى رغم تشيعه لدولة متمذهبة[٢٤٠] ، فكان ينشد الاستقرار والإصلاح ، أو أن المذهب الفاطمى مع العصر الثانى لم يعد يحفل به بالقدر الكافى .

---

(٢٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص ١٢٠ .
(٢٣٧) ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .
(٢٣٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٢ .
(٢٣٩) القلقشندى ، صبح ، جـ١٠ ، ص ١٦٦
(٢٤٠) المقريزى ، اتعاظ جـ٣ ، ص ٨٩ .

وأما بخصوص الزكاة ، التى تعد الحق الشرعى الوحيد فى مال المسلمين «وليس فى المال حق سواها ، سواء كانت ظاهرة كالزروع والثمار والمواشى أو الباطنة من ذهب وفضة وعروض تجارة»[٢٤١] فهى لا تأتى بأموال كثيرة ، لأنها ضريبة شرعية مقدرة ، كما أنها تصرف فى المصارف الشرعية ، وعلى ذلك لم نسمع عن وجود والى للصدقات ، ويذكر المقريزى[٢٤٢] ؛ بأنها تركت للناس يدفعونها إلى أربابها دونما تدخل من الدولة ، وأن صلاح الدين أول من جبى الزكاة بمصر ، لكن هناك إشارة تفيد بأن أموال الزكاة كانت تدفع إلى الأئمة أو إلى بيت مال الخليفة شأنها شأن النجاوى والفطرة[٢٤٣] . كما أنه مع الخليفة الآمر هناك إشارة إلى تعيين أحد رجال الدواوين على الزكاة إلى جانب ضرائب أخرى[٢٤٤] ، لكننا لا نستطيع أن نقف على كيفية توزيعها أو تولى بيت المال لهذا الأمر كما أن ورود جملة «بيت مال الخليفة» تعطى إيحاءاً بأنها أموال شخصية أو ربما ارتباط اسم الخليفة ببيت مال المسلمين يرجع إلى اعتبار شخص الأمام الفاطمى . صحيح أن المصادر غاصة بما كان يقوم به الخلفاء من توزيع الصدقات والأموال أثناء المواكب أو أثناء الخروج إلى المناظر المختلفة[٢٤٥] ، لكن ليس من المؤكد أنها كانت من أموال الزكاة لأنهم كانوا ينفقون فيها الكثير وكان الغرض منها هو كسب قلوب المصريين .

أما ما جاء فى شأن أهل الذمة فى أمان جوهر : «أجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه» فمعلوماً أن سياسة الفاطميين تجاه الذميين اتسمت بالتسامح واطلاق الحريات الدينية والاقتصادية ، حتى وصل التسامح أقصاه مع الفاطميين ما لم نسمع عنه فى فترات أخرى سواء فى مصر أو غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، لكن فى ذات الوقت بحيث لا يؤثر ذلك على سياسة الدولة المالية ، التى قامت بتحصيل الجزية المفروضة عل اليهود والنصارى والتى وعدوا أن تستمر كما هى فى العصر السابق مما يبين أنها لم تخرج عن الحد من وجهة نظر الفاطميين ، ومن خلال ما ذكرته

---

[٢٤١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ ، وما بعدها .

[٢٤٢] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٨ .

[٢٤٣] النعمان ، تأويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمى ، القاهرة ١٩٦٩ ، جـ٢ ، ص ص ٨٧ – ٩٠ ؛ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ ، سجل رقم ٣٦ ، ص ١٢٢ ، سجل رقم ٥٧ ، ص ١٨٨ .

[٢٤٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١١٥ – ١١٦.

[٢٤٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٩ وما بعدها .

المصادر أثناء العصر الإخشيدي نستطيع أن نقف على قدر الجزية ، وهل سار الفاطميون على منوالها لنبرهن عن مدى وفاء الفاطميين بما أعلنوه ، أو أنهم قد خرجوا عند هذا الحد مع الذميين ، لتتسق بذلك سياستهم المالية التى التزموا بها ومارسوها ، فهناك إشارة من وثيقة بردية[٢٤٦] ، ترجع إلى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م تتضمن إيصالاً ، باستلام جزية قدرها ثلث دينار وثلثا قيراط . كما سجل فى الديوان فى عام ٣٤٤هـ/٩٥٥-٩٥٦م أن أحد الأشخاص من الأشمونيين قد دفع أقل من دينار فى جزيته ، وفى وثيقة مؤرخة بعام ٤١٦هـ/١٠٢٥م أن أبو الياس بن مينا دفع ديناراً وثلثى قيراط ونصف قيراط فى الجزية عن عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م[٢٤٧] . كما كان الرجل لا يستطيع أن يترك مدينته قبل أن يتم كل واجباته ، فتشير وثيقة إلى ما تعرض له أحد الذميين من الشرطة ، وكان عليه أن يدفع درهمين غرامة ، حتى اضطر إلى مغادرة المركب[٢٤٨] . كذلك يشير أبو صالح الأرمنى[٢٤٩] أن الجزية وصلت فى عهد الأمر عن كل نفس ديناراً وثلث وأحياناً دينارين . وفى وزارة رضوان بن ولخشى أقر فى عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م الجزية . وهى تتفق مع ما ذكره المخزومى[٢٥٠] ، الذى عمل فى ديوان الفاطميين الأواخر فكان على الغنى أربعة دنانير وسدس والمتوسط ديناران وقيراطان ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان وابن مماتى[٢٥١] يذكر أيضاً نفس قيمة الجزية ، لكنه أضاف بأن كل جزية مضافاً إليها درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين .

وهذه التقديرات تشير فى الغالب إلى نهاية العصر الفاطمى ، وما أشرنا إليه يخص الطبقة الدنيا من المجتمع . ويبدو أن غالبية أهل الذمة فى أواخر العصر الفاطمى كانوا من هذه الطبقة والغنى فيهم قليل[٢٥٢] ، ويبدو أنها كانت حالة المجتمع من مسلميه وذمييه . ومع ذلك فحتى بالمقارنة بين ما أوردناه فيما يخص العصر الإخشيدي والفاطمي وإذا كان كلاهما يشير إلى الطبقات الدنيا ، لكن يظل هناك فارقاً بينهما وعلى

---

[٢٤٦] سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ١٧٧ .

[٢٤٧] انظر : Rabie, The Financial System, pp. 108 - 109.

[٢٤٨] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 300.

[٢٤٩] كنائس وأديرة مصر ، تحقيق Evetts ، اكسفورد ١٨٦٤ ، ص ١٢ .

[٢٥٠] المنهاج ، ص ٣٥ .

[٢٥١] قوانين الدواوين ، ص ٣١٨ .

[٢٥٢] المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٥

الرغم من أن الجزية حتى قبل الإخشيديين قد زيدت فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى إلى نصف دينار ، فسبب ذلك الكثير من التذمر كما حدث فى تنيس عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥م ، بينما مع بداية حكم الفاطميين بقليل زيدت إلى دينار أو نصف ومع ذلك، فلم يسبب هذا إلا تذمراً قليلاً(٢٥٣) . ويبدو أن الذميين قد نقص عددهم عن ذى قبل ، حتى كان يطلق على الجزية «الجوالى» وأنشأ لهم ديواناً خاصاً بهم(٢٥٤) .

ومما تقدم يتضح أن الفاطميين قد زادوا فى الجزية المقررة على الذميين . ومن المحتمل أن هذه الزيادة ارتبطت بقلة أعدادهم أو طبيعة الفترة التى حكم فيها الفاطميون ثم أن الزيادة التى حدثت فى أواخر أيامهم ترجع أيضاً إلى فقدان الدولة لبعض مواردها وبذلك تساير هذه الزيادة ما أسلفناه من زيادة المكوس فى أخريات عمر الدولة الفاطمية .

كما وعد جوهر أيضاً بتجويد السكة وصرفها على العيار المعمول به فى خلافتهم بالمغرب ومنع الغش فيها . ويبدو أن سوء الأحوال الاقتصادية فى أواخر العصر الإخشيدي قد أدت إلى تعطيل دار الضرب بها ، لذلك عندما جاء جوهر ، قام بضرب عملة جديدة وكانت العملة السارية عند مجيئهم ، الدينار الراضى والدينار الأبيض والدرهم الرباعى ، فقام جوهر بضرب الدينار المعزى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م(٢٥٥) ، كما أدخل الفاطميون معهم الدينار المغربى ، الذى أصبح عملة سارية حتى عصر المستنصر(٢٥٦) أو حتى بعده .

ولم تقم الدولة الفاطمية بمنع العملة العباسية ، واكتفت بمنع العملة ذات الفئة القليلة مثل المثقال والقطع(٢٥٧)، لكن مع ذلك اتخذت بعض الإجراءات لمحاربتها ، فعمل جوهر عند ضربه للدينار المعزى على تثبيت قيمته إلى خمسة وعشرين درهماً ، بينما ثبت قيمة الدينار الراضى عند خمسة عشر درهماً والدينار الأبيض وصل إلى ستة

---

(٢٥٣) لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠هـ-١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ص ٣٢٨ .

(٢٥٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

(٢٥٥) المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٠ ؛ اتعاظ ، جـ١ ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٥٦) سفر نامه ، ص ١٢٥ .

(٢٥٧) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .

دراهم كما رفع المعاملة بالدنانير المتقية ، التى ترجع إلى عصر المتقى العباسى[٢٥٨] . وهذا التحديد لقيمة كل عملة تسبب فى ضرر الصيارفة ، لما لديهم من هذه الدنانير ، فقاموا بثورة ، إلا أن جوهراً هدد بحرق مكانهم[٢٥٩] . ومع الخليفة المعز قام يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بجباية الخراج وامتنعا عن أخذ الخراج إلا بالدينار المعزى ، مما كان له أثر فى انحطاط قيمة الدينار الراضى بمقدار الربع[٢٦٠] ، وإن كان من الثابت أنه كان أكثر وزناً وأشد نقاوة[٢٦١] ، وهذا الإجراء قد أدى إلى سحب العملة الجيدة وشرائها بأقل من قيمتها الحقيقية ، مما عاد على الدولة بالربح وإلى سيادة العملة الفاطمية .

لكن من الملاحظ أن قيمة الدينار المعزى خلال العصر الفاطمى قد تراوحت بين ٤،٣٠٠ إلى ٤جرامات من عصر المعز حتى عصر المستنصر ، وارتفع خلال عصر المستنصر الطويل وسجل أعلى ارتفاع له عام ٤٨٢هـ/١٠٩٨م إلى ٤،٥٠٠ جرام ، والدنانير الفاطمية المضروبة فى مصر فيما بين عام ٣٥٨-٤٨٧هـ/ ٩٦٩-١٠٩٤م تتسم فى مجملها بارتفاع العيار[٢٦٢] . ومما يدل على حالة الاستقرار النسبى وصول وزن الدينار فى عام ٥٠٩هـ/١١١٥م إلى ٤،٥٠٠جرام ، كما أنه بسبب جهود الوزير المأمون البطائحى وإنشائه لأول دار ضرب بالقاهرة عام ٥١٦هـ/١١٢٢م بلغ الدينار نسبة عالية من النقاء[٢٦٣]، حتى صار الدينار المصرى يمثل أعلى عيار فى جميع ما يضرب لجميع الأمصار ، لكن من اللافت للنظر أن الدينار الفاطمى وصل مع

---

[٢٥٨] المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

[٢٥٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٢ .

[٢٦٠] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

[٢٦١] الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٨٥ .

[٢٦٢] مايسة محمد داود ، المسكوكات الفاطمية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٣٧٧ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ أحمد السيد الصاوى ، المجاعات وتأثيرها على النواحى المالية والحضارية زمن الفاطميين ، دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٣٣ . انظر :
La Voix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque National, Paris 1896, p. 88, 89, 163.

[٢٦٣] ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققها ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٣٨ ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٥ .

خلافة العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م إلى ٤،٦٣٠ جرام[٢٦٤] ، على الرغم من سوء الأحوال السياسية للبلاد ، التي تأثرت بها الأحوال الاقتصادية بالتبعية .

كما تم صرف الدراهم فى خلافة الحاكم بأمر الله ورفع من سعر الفضة فى مواجهة الدينار وأصبحت مصر تعتمد فى نقدها على قاعدة المعدنين ، حيث تقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً للدينار ، وعرف منها الدراهم القطع والمزايدة ، ويشير المقريزى إلى أن طرح هذه الدراهم أحدث أثراً سيئاً ، تزامن مع قصور مياه النيل ، ثم ارتفعت الأسعار ووقفت الأحوال في الصرف فى الدراهم المتداولة ، حتى وصل صرف الدينار إلى ستة وعشرين درهماً ، ثم تزايد حتى وصل فى عام ٣٩٧ هـ/١٠٠٧م إلى كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار مما أدى إلى ارتفاع السعر واضطربت أحوال الناس ، فقامت الدولة بإنزال عشرين صندوقاً من بيت المال مملوءة دراهم فرقت على الصيارفة ، كما نودى فى الناس بالمنع من المعاملة بالدراهم القطع والمزايدة وأن يحملوا ما بأيديهم إلى دار الضرب ، وهذا الأمر أضر بالناس ، لأنهم كانوا يدفعون فى الدرهم الواحد من الدراهم الجدد أربعة دراهم من القطع أو المزايدة[٢٦٥].

وبذلك ، كان وفاء الفاطميين فيما وعدوا به المصريين بشأن تجويد العملة مرتبطاً بعدة عوامل منها : رغبة الفاطميين فى أن تكون لهم السيادة المالية من خلال إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم وتشير إلى مذهبهم ، حتى تحقق لهم هدفاً سياسياً طالما سعوا إليه ، كذلك توفر الذهب ، فكان الفاطميون شأنهم شأن من حكم الشمال الافريقى مسيطرين على ذهب السودان ، حتى أن جوهرا عندما جاء إلى مصر كان محملاً بصناديق الذهب[٢٦٦] ، وفى مصر تم لهم استغلال الذهب الموجود فى الجنوب ، لاسيما

---

(٢٦٤) انظر : La Voix, Catalogue, p. 169.

(٢٦٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، الدراهم القطع دراهم غير كاملة لذهاب جزء منها بسبب القطع ، وكانت تلك الدراهم تقل فى معاملات الأفراد حسب الوزن ، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها وتسمى الدراهم الغلة ، أما الدراهم المزايدة ، فهى التى كانت تزيد عن الدراهم الجيدة فى الحجم وليس فى الوزن ، انظر : المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٤ هامش ٣ ، ص ص ١٤ – ١٥ ؛ أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ٣٢٨ .

(٢٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨٨ .

فى العلاقى[٢٦٧] ، فضلاً عن المكوس التى قاموا بتحصيلها ، والتى أثقلت كاهل الناس ، سواء من أهل البلاد أو من الوافدين عليها فى طريق الحج والتجارة إلى جانب ما صاحب المجاعات من شيوع ظاهرة الاكتناز للاستفادة من قيمة الدنانير بعد انتهاء المجاعات ، حتى أن الشدة المستنصرية وغيرها من الأزمات لم تؤثر كثيراً فى وزن الدينار الفاطمى[٢٦٨] ، فكل ذلك قد وفر لهم حصيلة من الذهب وقاعدة نقدية استطاعوا من خلالها أن يقوموا بإصلاح العملة وتجويدها وأن كان ما قاموا به أدى إلى اضطراب أحوال الناس الاقتصادية وأوقع الضرر بهم كما أسلفنا .

أما الرباع السلطانية ، فقد جاء بصددها : «لا بأس باستئجار الدور والارضين ، فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه أن سكن يوماً لزمه الشهر» وكذلك ما شمله أمان جوهر بخصوص «الرباع» والفرق هنا يتضح فيما تقوم الدولة بتأجيره وحرصها على الحصول على الإيجار كاملاً ، أما كلمة الرباع الثانية فهى تتعلق بما يملكه المصريون من آدر وحمامات وحوانيت وغيرها ، ويطلق على ما يتحصل منها «المال الهلالى» لذلك فهناك من يربط بينها هى والزكاة والجوالى والمواريث وبين المكوس[٢٦٩] ، من حيث جبايتهم حسب الشهور الهلالية ، لكن هناك اختلاف بينهما ؛ لأن ما يؤخذ من الزكاة والجوالى يعتبر أموالاً شرعية ، أما المكوس على عكس ذلك بينما الرباع السلطانية ما يؤخذ منها يعتبر إيجاراً ويستخرج مشاهرة ، لكن ينظم حسابها بالحول .

وكانت الرباع السلطانية مما يملكه الخليفة من الآدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والطواحين والقياسر وغيرها لا يمكن حصرها فكان للخليفة المستنصر يملك فى القاهرة وحدها ثمانية آلاف بيت معدة للإيجار وعشرين ألف دكان يؤجر الواحد ما بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر[٢٧٠] ، ولكثرة ما يملكه الخليفة كان هناك مسئولاً عن هذه الرباع يسمى «متولى الرباع» يقوم بالإشراف عليها وحمايتها واستخراج مالها من السكان مستخرجاً غاية الاستطاعة والإمكان[٢٧١] .

---

(٢٦٧) الأدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢ .
(٢٦٨) أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ص ٣٢٠ ، ٣٣٣ .
(٢٦٩) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٤ .
(٢٧٠) سفرنامه ، ص ١٠٤ .
(٢٧١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ص ٤٤٩ - ٤٥٠

ومع ذلك فقد أتاحت الدولة الملكية الخاصة ، لكن بضوابط أيضاً : «ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل ، وما يكون قد بناه الفرد لنفسه»[٢٧٢] وعلى ذلك يقوم أصحاب المنازل بتأجيرها لمن يريد ، وناصر خسرو عندما أتى إلى مصر أجر منزلاً فى الفسطاط بخمسة عشر ديناراً فى الشهر[٢٧٣] ، كما قام أحد التجار فى عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م بتأجير جزء من منزل فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار فى الشهر لتقيم فيه أسرته[٢٧٤] ، كما كانت النساء فى هذا العصر مغرمات بالملكية العقارية ، خاصة المنازل ، كما تجاوزت ملكياتهن إلى الدكاكين ومطاحن الدقيق[٢٧٥] .

وهناك شكل آخر تتضح فيه الملكية الخاصة يتمثل فى الأحباس[٢٧٦] من رباع وقياسر أو غيرها ، والتى يقوم أصحابها بحبسها على جهة ما . ومع مجئ الفاطميين إلى مصر بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، كما أصبح للأحباس ديواناً مفرداً ، وأمر المعز عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م بحمل مال الأحباس إلى بيت المال ، كما طولب أصحاب الأحباس بالوثائق لإثبات أحقيتهم فيما يرتفع منها[٢٧٧] ، وكانت تلك خطوة من الفاطميين سيطروا من خلالها على مال الأحباس من ناحية ، كما تسنى لهم الحصول على مورد ثابت ينفقون منه على المساجد فى مصر ، ولذلك أمر الخليفة الحاكم بأمر اللّه بحصر المساجد سواء التى ليس لها وقفاً ، أو التى لا يكفيها ريع ما يخرج مما هو مقرر لها ، وخصص لكل مسجد أثنى عشر درهماً فى الشهر[٢٧٨] .

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الأحباس فى العصر الفاطمى ، لكن لم تصلنا وثائق كثيرة بشأنها ، اللّهم إلا ما حبسه الخليفة الحاكم بأمر اللّه عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م من قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى والحجة التى ترجع إلى أواخر العصر

---

[٢٧٢] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٣] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٤] انظر : Goitein, From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and twelfth centuries, Speculum, xxxix, 1954, p. 191.

[٢٧٥] انظر : Ashtor, Histoire des prix et des salaries dans l'orient médiéval, Paris 1969, p. 184; Goitein, Med. Soc, 111, pp. 189, 327.

[٢٧٦] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ ، اتعاظ ، جـ١ ، ١٤٨ .

[٢٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

[٢٧٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

الفاطمي ، وهى حجة وقف الصالح طلائع بن رزيك[٢٧٩] ، الذى أوقف فى بداية عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م بعض الرباع وغيرهاعلى الأشراف المقيمين فى القاهرة والفسطاط وكذلك على اشراف المدينة ، وعلى ما يبدو أن الحبس الخيرى كان أكثر ثباتاً من الحبس الأهلى ، بحيث أن الدولة لم تستطع أن تتدخل أو تحل أو تبطل ما تم حبسه ، طالما كان يقوم على توفير الأموال لصيانة المساجد والمشاهد ، أما الوقف الأهلى ، فقد تأثر إلى حد كبير بالتغيرات السياسية ، إذ كان هذا الحبس يرتبط بكبار رجال الدولة[٢٨٠] ، لكن من المتوقع لو أنه كان هناك حبساً أهلياً للرعية ، ربما كان لا يتعرض لهذا الأمر ، ولا تكون السياسة عامل من عوامل حله .

ونظراً لما أسلفناه من ضرائب فرضتها الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادى أو الإيجارات المقررة على أملاكها ، كان لابد أن تكون جباية هذه الأموال بشكل يضمن للدولة القدرة على تحصيلها ، مع بقاء الضوابط التى وضعتها ووجود العاشر أو الماكس فى الموانى والمدن فى كافة أنحاء مصر ، لكن كان هناك أيضاً نظام الضمان ، اذى يتعهد من خلاله الضامن أن يدفع مبلغاً من الماء سنوياً للدولة عن قيمة الضرائب المفروضة على جهة ما ، ولما كان المبلغ الذى يقوم بدفعه أقل من المتحصل ، كانت هناك الفائدة وكان العسف أيضاً .

وبدأ هذا النظام مع خلافة المعز ، إذ قام القاضى أبو طاهر الذهلى بضمان الأحباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم[٢٨١] ، وفى عهد العزيز قام جماعة من كبار رجال الدولة بضمان أوجه الأموال المختلفة ، حيث ضمن على بن عمر بن العداس

---

(٢٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢، ص ص ٢٧٧ ، ٢٩٤ . أوقف الصالح طلائع بن رزيك ناحية بلقس ونصف بركة الحبش . سجلات المحكمة ، صندوق ١ ، وثيقة رقم ١ .

(٢٨٠) حبس أمير الجيوش على ذريته أثناء وزارته ، فكان فى البر الشرقى بهتين والاميرية والمنية وفى الغربى سفط ونهيا ووسيم ناحية الجيزة ، وظل بأيدى الورثة ، حتى وزارة المأمون البطائحى ، فلما توفى الخليفة الآمر واستولى أبو على الأفضل على الوزارة ٥٢٤هـ/١١٣٠م أعاد الجميع إلى الملاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر ، وبعد قتله أعيدت الأملاك إلى قبضة الدولة فى خلافة الحافظ بعد أن حلت هذه الأحباس ، لولا تدخل أحد غلمان الأفضل بأبقائها ، ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق سوى امرأة أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، فصار ماله يحمل إلى بيت المال . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(٢٨١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

مال الدولة والنفقات عام ٣٨١هـ/٩٩١م[٢٨٢] ، وتكرر الأمر فى خلافة الحاكم بأمر الله عندما عين الأخوين الحسن وعبد الرحمن عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م فى الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة وأجراءها على رسومها[٢٨٣] . كما كانت الرباع السلطانية تخضع أيضاً لهذا النظام سواء ضمناً لوجوه أموال الدولة أو منفردة[٢٨٤] ، وعلى ما يبدو أن هذا النظام الجامع للأموال ، كان فى البداية مع كبار رجال الدولة ، ثم أصبح بمضى الوقت منفرداً لكل باب من أبواب مالية مصر .التى اتسعت .

لكن هذا النظام كان يشوبه بعض الظلم والعسف كما أسلفنا سواء من قبل الديوان نفسه أو من القائمين عليه بين المدفوع للدولة والمتحصل من الرعية ، وقد ظهر هذا جلياً فى وزارة المأمون البطائحى ، من قيام الديوان بقبول الزيادات وفسخ عقود الضمان وأخذها ممن تعب فى تحصيلها ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة فى قيمتها ، ولذلك أصدر المأمون منشوراً عام ٥١٦هـ/١١٢٢م[٢٨٥] يتضمن كافة الإجراءات ، التى من شأنها أن تبين مواضع الخلل ، وقرئ بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، بإنكار ذلك ومنعه ، كما أعفى كافة الضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ، ما داموا قائمين بأقساطهم ، واشترط على الضمناء الامتثال لما جاء فى هذا المنشور ، كما حذرهم بعد ثبوت قيمته فى ديوانى المجلس والخاص من تجاوزه ، وإذا أصر أحد على المغالطة فسخ عقده . كذلك ألزم أرباب الدواوين والمتصرفين والمستخدمين بالعمل بهذا المنشور .

وهذا يبين أن ما حدث فى وزارة المأمون البطائحى من اختلال فى نظام الضمان ، لم يكن وليد ساعته ، لكنه يعبر عن استمرار الخلل خلال فترة طويلة قد وصلت قمتها معه ، أو أنه بحكم رغبته فى الإصلاح ، استطاع أن يوقف استمرار الظلم والعسف ، وبالنسبة للضمناء ، الذين كان يرهقهم الديوان بطلب الزيادة ، ولا يستطيعون الوفاء بما عليهم ، فكثرت البقايا والمتأخرات ، لذلك أمر المأمون البطائحى

---

[٢٨٢] ابن الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ٢٤ .

[٢٨٣] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .

[٢٨٤] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ ؛ كان الموفق الدمياطى بن قادوس ضامن الثغور كتنيس ودمياط وبعد وفاته عام ٥١٠هـ/١١١٦م تولى ابنه ضمانة الثغور بعده ، انظر : المقفى ، جـ٢ ، ص ٩٦ .

[٢٨٥] ابن المأمون ، أخبار ، ص ص ٢٩ – ٣١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٨١ .

فى عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمن المسامحة مما عليهم . نظراً لوجود البقايا لدى الضمناء والمتصرفين وهدف من وراء ذلك إلى شئ مهم ليس فقط رفع الظلم الواقع على هؤلاء الضامنين من الديوان ، لكن أيضاً إلى منع التعسف الذى نال الرعية ، لكن بشكل ضمنى فجاء فى سجل المسامحة[٢٨٦] : «إنما بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص من طالبت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف من الديوان» .

ومن الواضح أن هذه المسامحة ، كانت الأولى من نوعها ، فقد ذكر فى السجل أيضاً «كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها»[٢٨٧] وشمل هذا السجل عدد ومبلغ ما سومح به من العين والغلة . كذلك أصدر الخليفة الآمر فى عام ٥١٧هـ/١١٢٣م منشوراً بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة والفسطاط ، بأجرة شهر رمضان ، وكان طبيعياً أن يقابل ذلك بالدعاء للآمر ، ومن الأمور النادرة ، أن تكون المسامحة فى بعض الأحيان بسبب نقص العائد وعدم قدرة الضامن على التسديد[٢٨٨] ، وحدث ذلك فى وزارة رضوان بن ولخشى عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م ، عندما سومح هبة اللّه بن عبد المحسن الشاعر ، الذى انكسر مال فى ضمانه[٢٨٩] .

وعن مدى التزام الفاطميين بما ورد فى كتب الدعوى عن النهى عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير ، فهذا يجرنا إلى الحديث عن احتكار الغلات وعن سياسة التسعير ومدى ممارسة الفاطميين لها ، فضلاً عن ذلك ، فهو يفرض علينا تجاوزه إلى دراسة مدى ممارسة الدولة للسياسة الاحتكارية بشكل عام . باعتبار أن منظومة الاحتكار إن وجدت ، فلابد أن تنسحب على السلع والموارد الأخرى .

ولمصر ظروف اقتصادية مرتبطة بقصور مياه النيل أو زيادته عن الحد المطلوب مما ينجم عنه الغلاء ، وهذا الحد يتراوح ما بين ستة عشر وثمانية عشر ذراعاً وتكون معه الزراعة مستقرة فإذا قصر النيل أو زاد ، أضر بأحوال البلاد

---

(٢٨٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٢٨٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٢٨٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .
(٢٨٩) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٢٩ .

الاقتصادية ، حيث تنعدم الزراعة وتقل الأقوات ، وترتفع الأسعار ، ولذلك من يتحرى أسباب المجاعات فى مصر يجد النيل يكاد أن يكون القاسم المشترك فى هذه المجاعات ، بالإضافة إلى الحكام واختلال أحوال البلاد أو استيلاء الأمراء على الدولة وكذا وقوع الفتن ، وإجمالاً سوء تدبير الحكام(٢٩٠) .

وهذا الأمر قد واجه جوهراً عندما فتح مصر للفاطميين ، حيث كانت البلاد تعانى من المجاعات منذ أواخر أيام كافور الإخشيدي واستمرت حتى مجيئه(٢٩١) ، فاتخذ جوهر من الإجراءات التى استطاع بها أن يقضى علىهذه المجاعة ، وأن ظل خطرها فترة ، ومنها ، أنه جمع سماسرة الغلات وأنشأ مخزناً عاماً للحبوب لا يشترى إلا منه ويشرف عليه المحتسب ، وجلد بعض أصحاب المطاحن ممن لم يمتثل لأوامره(٢٩٢) . وبذلك منع من احتكار التجار للغلات ، خاصة أنه أتى ببعض السفن المحملة بالحبوب من المغرب(٢٩٣) .

وقد توالت المجاعات فى مصر الفاطمية وارتفعت الأسعار بشكل ملحوظ واتخذت الدولة خلالها من الإجراءات ما استطاعت معها فى الغالب أن تقضى عليها ، لكن من الملاحظ أن هناك أمراً قد تواتر خلال المجاعات من خلافة الحاكم إلى الفائز ، وهو لجوء الدولة إلى تحديد سعر الغلة ، ففى مجاعة عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م أمر الحاكم بأن يكون كل أثنى عشر رطلاً من الخبز بدرهم ، كما أصدر أوامره أيضاً بالنظر فى الأسعار ، ثم تم جمع خزان الغلال والطحانين والخبازين وحدد سعر القمح ، كل تليس بدينار إلا قيراط ، والشعير عشر ويبات بدينار ، وسعر سائر الحبوب والمبيعات ، وكبست عدة حواصل للقمح وفرق ما فيها على الطحانين بالسعر المحدد(٢٩٤) . وكذلك فى مجاعة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م حيث قصر مياه النيل ، وخير أرباب الغلات فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره ، بما فيه الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ، ولا يمكنهم من بيع شيئ منها إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاضطروا إلى

---

(٢٩٠) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٤ .
(٢٩١) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٢ .
(٢٩٢) المقريزى ، إغاثة ، ص ص ١٣ – ١٤ .
(٢٩٣) ماجد ، ظهور ، خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٦٢ .
(٢٩٤) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٦ .

الاستجابة إلى ما حدده من سعر[٢٩٥] . كما أن السجل الذى أصدره الخليفة الظاهر عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، تضمن أيضاً : «ان يبيع الناس كما يؤثرون بما أطعم الله بغير تسعير»[٢٩٦] .

وفى عصر المستنصر ، الذى حدثت فيه مجاعات متوالية ، واستمرت لعدة سنوات وبلغت ذروتها عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م وعرفت بـ «الشدة العظمى»[٢٩٧] ، فقام الوزير اليازورى خلال المجاعة التى وقعت عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بمطالبة الفلاحين ببيع غلاتهم قبل حصادها ، كما قرر ثمن التليس ثلاثة دنانير ، بعد أن كان ثمانية دنانير[٢٩٨] ، وفى خلافة الآمر ارتفع سعر القمح حتى بيع مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً ، فقام الوزير المأمون البطائحى ، بالختم على مخازن الغلات ، وكرر ما فعله الخليفة الحاكم بين الختم على الغلات أو البيع بالسعر المحدد ، الذى تحدده الدولة ، وهو مائة أردب بثلاثين ديناراً[٢٩٩] . أى أنه قام بتسعير القمح للتجار أو السماسرة ، كما أمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانين بالسعر الذى حدده السوق .

وإذا كان ما قام به الفاطميون من التدخل فى تحديد أسعار الغلال ، لا سيما القمح ، الذى يعتبر واحداً من السلع الحيوية واليومية ، فهذا يتعارض مع ما عرضوه فى كتب الفقه الخاصة بهم والتى تبين رفضهم لسياسة التسعير ، لكن مثل هذه الإجراءات التى أسلفناها ، كانت الدولة مدفوعة إليها بغرض التقليل من حدة الغلاء ومحاربة احتكار التجار ، كما أنها حينما تدخلت لتحديد الأسعار كانت تقوم بتخفيضها إلى معدل أقل من السعر الجارى آنذاك ، محاولة منها فى تخطى الأزمة ، ومن المحتمل أن هذا الإجراء يتفق مع غالبية فقهاء السنة بخصوص التسعير ، فهم لا يعارضونه لما له من نفع للناس ، فيرى الأمام أبو حنيفة «لا ينبغى للسلطان أن يسعر

---

[٢٩٥] المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .
[٢٩٦] المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .
[٢٩٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٥ ، حدثت المجاعات فى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م ، ثم ٤٥٧ – ٤٦٤هـ/١٠٦٤ – ١٠٧١م .
[٢٩٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ ، والتليس ، والتليسة أيضاً وعاء يسوى من الخوص ، شبه قفة ، أنظر . أبن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، جـ١ ، ص ٤٣٩ .
[٢٩٩] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

على الناس ، إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة» أما الأمام الشافعى فيرى «جواز التسعير للناس ، إذا كان بالناس حاجة»[٣٠٠] .

وبذلك يكون الفاطميون مضطرين للتسعير فى وقت الأزمات ، فهل هذا السعر الذى تحدده الدولة يظل بعد انفراج الأزمة ، ويكون هو المعمول به من قبل الدولة ، وحين تتوالى الأزمات ، ترتفع الأسعار ، فتتدخل الدولة لتثبيتها إلى ما كانت عليه ؟ هناك إشارة لناصر خسرو[٣٠١] ، الذى زار مصر أثناء خلافة المستنصر : «بأن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فإنه يوضع على على جمل ويعطى جرساً بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس وينادى قائلاً : قد كذبت وها أنا أعاقب» وهذا يبين أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة ، من قبل الدولة وإذا خالفوها ، عوقبوا مما يدل على أن الفاطميين كانوا يتبعون سياسة التسعير بشكل عام ، بدليل وجود العرفاء ، وقيام المحتسب بمراقبة الأسواق ، كأحد اختصاصاته المنوط بها ، ومنها مراقبة الأسعار[٣٠٢]. صحيح أن هذا الإجراء يحمى الرعية من جشع التجار ، لكن يظل هذا الأمر متعارضاً مع ما ذكره الفاطميون عن التسعير ويبين أنه كان منفذاً ، فمثلاً كان هناك تحديداً لأسعار السوق عند ورود السلع الخاصة بتجارة العبور ، أو قبل رحيل القوافل وإرسال السفن[٣٠٣] .

وفيما يخص احتكار الغلات ، فهذا الأمر شائكاً ، إلى حد لا يمكن الدارس من الوقوف على حقيقته ، فقيام الفاطميين أثناء المجاعات بالضرب على أيدى التجار المحتكرين وتأديبهم ومحاربة الاحتكار بالختم على مخازنهم وإلزامهم بسعر محدد ، قد وضع حدا لاحتكار التجار ، أما فيما يتعلق بالفاطميين أنفسهم ، فهل احتكروا الغلات ؟ هناك إشارات غير مباشرة أثناء المجاعات منها : «وقبض على ما بالساحل من

---

[٣٠٠] ابن تيمية ، الحسبة ومسئولية الحكام ، تحقيق صلاح عزام ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٩ .

[٣٠١] سفرنامه ، ص ١٢٠ .

[٣٠٢] ودور المحتسب الاقتصادى يظهر فى ذهابه إلى الأسواق وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة ومنعه لهم من الغش والتطفيف فى الكيل والميزان وإلزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد والتفتيش على عيار الصنج والمكاييل والموازين للتأكد من سلامتها وصلاحيتها ، أنظر ، سهام مصطفى أبو زيد ، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦ .

[٣٠٣] انظر : Goitein , Med. Soc., 1, p. 218.

الغلال»[٣٠٤] وأيضا : «وحمل الغلال من النواحى إلى المخازن السلطانية بمصر»[٣٠٥] .

وإذا كانت رغبة الدولة فى جمع الغلال ، ربما محاولة منها لوضع حداً لاحتكار التجار من ناحية ، وحل الأزمة من ناحية أخرى ، خاصة أن النهى عن الاحتكار يتفق وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحتكر إلا خاطئ»[٣٠٦] ، لكن الفاطميين أقاموا المتجر[٣٠٧] ، الذى كان فى الأصل لخزن الغلال ، فضلاً عن الأهراء[٣٠٨] ، التى كان يأتى إليها المتحصل من خراج الوجه القبلى ؛ الذى كان يجبى عيناً ، خاصة الحبوب ، ثم تحول المتجر بعد ذلك كأحد منافذ استثمار أموال الخليفة ، فكان يباع للخليفة المستنصر فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار[٣٠٩] ليواجه بها احتكار التجار وقت المجاعات ؛ أو لأنها كانت تجارة مربحة ، خاصة أن الخلفاء أسهموا بأموالهم فى التجارة . هذا الأمر حتى عصر المستنصر يعد احتمالاً ، لا سيما أن هذا المتجر سرعان ما تحول مع عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢ ، إلى شراء وخزن سلع أخرى ليس منها ضرر ولا كلفة على الناس وأكثر فائدة . كما رأى اليازورى الذى حسن للخليفة المستنصر هذا الأمر وأخذ به[٣١٠] وهذا يوضح أثر آخر وأهم فى خزن الغلات وهو أنه يضر بأحوال الناس ، مما يبين أن المتجر ، كان يعد وسيلة مباشرة للاحتكار .

وبتوالى المجاعات بعد المستنصر ، نلمس محاربة الوزراء المسيطرين على البلاد ، لاحتكار التجار للغلات ، مع قيامهم باحتكارهم لها بالفعل ، فمع وزارة الأفضل ٤٨٧-٥١٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٢١م ، وجد فى مخازنه بعد وفاته وتحت يد عماله

---

(٣٠٤) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٦ .

(٣٠٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

(٣٠٦) أبو داود ، صحيح سنن المصطفى ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

(٣٠٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ ، والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة .

(٣٠٨) والأهراء هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والاتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان احتياطاً لأمثال الطوارئ الاقتصادية ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة ، المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

(٣٠٩) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

(٣١٠) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

والجباة وضمن النواحى أصناف الغلال والحبوب(٣١١) . وربما كان ذلك من أسباب المجاعة ، التى كانت فى عصر الآمر ؛ لأن المقريزى لم يذكر أنها كانت بسبب قصور مياه النيل ، كذلك احتكر الصالح طلائع بين رزيك أثناء وزارته ٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م ، الغلات ، مما كان سبباً بالفعل فى ارتفاع أسعارها فى أيام الخليفة الفائز ٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤ -١١٦٠م ، مع قصور مياه النيل ، فأخرج الوزير ما كان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى وفرقها على الطحانين(٣١٢) .

وكان طبيعياً أن تتضح سياسة الدولة الاحتكارية فى مجالات أخرى بشكل أوسع ، لكنها مع ذلك ، مارست سياسة شبه احتكارية وأخرى احتكارية خالصة لبعض الصناعات والسلع والموارد ، التى تمثل أهمية اقتصادية ، سواء التى تميزت مصر بإنتاجها ، أو التى افتقرت إليها وكانت عليها أحرص ، ومن الصناعات التى لم تصل إلى حد الاحتكار الكامل ، صناعة النسيج وتجارته وكذا السكر وغيره ، ثم احتكار بعض الموارد مثل الشب والنطرون ، وبعض السلع مثل الخشب والحديد والرصاص وزيت الزيتون وغيرها ؛ فضلاً عن بعض الصناعات السيادية المرتبطة بقوة الدولة مثل صناعة السلاح والسفن والعملة .

ولما كان ازدهار مختلف فروع الصناعة فى العصر الفاطمى ، ظاهرة اقتصادية ارتبطت بالتطور الكبير فى تجارة مصر الدولية وفتح أسواق جديدة لها ؛ فضلاً عن رفاهية البلاط الفاطمى(٣١٣) . لذلك فصناعة النسيج ، التى اشتهرت بها مصر فى ربوع العالم الإسلامى ، ظلت مع الفاطميين تمثل أهمية كبرى ، لذا عمل الفاطميون على إنشاء المصانع الحكومية ، التى تسمى «طرازاً»(٣١٤) فى طول البلاد وعرضها(٣١٥) ، وهذه الدور لم تنشأ مع الفاطميين ، بل وجدت منذ الفتح العربى ،

---

(٣١١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٣١٢) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

(٣١٣) انظر : Ashtor, Social and Economic history, p. 198.

(٣١٤) كان لفظ الطراز يعنى فى أول الأمر الكتابة الزخرفية ، التى توجد على الأقمشة وهو لفظ أعجمى مأخوذ من كلمة "طرازيدن" ومعناها التطريز ، ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج ، انظر : سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٥ .

(٣١٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤١٣ .

وظلت حتى مجئ الفاطميين تأثراً بالبيزنطيين[٣١٦] ، أو أن هذه المصانع نشأت فى العصر الإسلامى فى عهد الدولة الأموية مع خلافة الوليد بن عبد الملك[٣١٧] ، ومع الفاطميين عمت هذه المصانع أنحاء مصر فى تنيس ودمياط والإسكندرية[٣١٨] وطحا بالصعيد[٣١٩] وغيرها ، ويبدو أنه كان بالمدينة الواحدة أكثر من دار واحدة للطراز[٣٢٠].

وكان حرص الفاطميين على النهوض بالصناعة واضحاً مما وألجأهم فى بداية دولتهم إلى اختيار الصناع المهرة والحاقهم بخدمة الدولة فى الصناعات ، التى كانت تهتم بها ، ولذلك جعل المعز كل ماهر فى صنعة صانعاً للخاص ، وأفرد لهم مكاناً برسمهم ، كما شرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فسيروا إليه بعضهم ، فأفرد لهم دوراً وأطلق على هؤلاء صبيان الحجر[٣٢١] . وتؤكد وثائق الجنيزة[٣٢٢] هذا الاتجاه ، حيث كان يجبر العمال المهرة على العمل فى مصانع النسيج الحكومية من خلال المسئول عن الجند ، بانتقاء الحرفيين المهرة ، وكانوا بذلك لا يستطيعون الخروج مطلقاً من القاهرة لسنوات عديدة ، إلا من خلال أمر خلافى يؤمنهم ، ومن خلال حالة التماس[٣٢٣] رفعت للخلافة تؤكد هذه الحقيقة ، وتبين إلزام هؤلاء العمال بالخدمة فى المصانع الحكومية ضد رغبتهم ، حتى أن أحدهم كتب يشكو بمرارة أنه غير قادر على المشاركة فى الحياة الاجتماعية والدينية مع أخوته .

وهناك اختلاف بين المؤرخين المحدثين ، حول وضعية هذه المصانع ، فمنهم من يرى[٣٢٤] : «أن إنشاء هذه الدور يعد احتكاراً لصناعة النسيج» ومن يرى أنه[٣٢٥] : «ينبغى ألا نظن أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر صناعة النسيج وتجارتها» ، وكل ما فى الأمر أن الحكومة الفاطمية كانت تنظر إلى تأجير ما تملك من مبان كمصدر إيراد

---

[٣١٦] زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١١ .
[٣١٧] سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، ص ص ٢٥ ، ٢٨ .
[٣١٨] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٧٢ .
[٣١٩] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ، وكان يعمل بها ثياب الصوف الرفيعة .
[٣٢٠] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .
[٣٢١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣ .
[٣٢٢] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.
[٣٢٣] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.
[٣٢٤] زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١١ .
[٣٢٥] لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٢ .

لها وليس لهذا علاقة بحرية الصناعة[٣٢٦] وهذا الرأى مرتبط بما أورده ناصر خسرو[٣٢٧] من قيام الحكومة الفاطمية بتأجير المخازن والمتاجر لصناع وتجار المنسوجات .

بداية لا نستطيع أن نقرر بأن الفاطميين احتكروا صناعة النسيج فى مصر ، لأنهم أعطوا الفرصة للمصريين لمزاولة هذه الصناعة ، بدليل انتشارها فى جميع أنحاء مصر ، فتذكر المصادر[٣٢٨] أن كثيراً من مدن الوجه البحرى اشتهرت بهذه الصناعة منها تنيس ، التى كان معظم أهلها حاكة ، ودمياط ودبيق وشطا فى الوجه البحرى ؛ فضلاً عن الإسكندرية ، وفى الوجه القبلى اشتهرت الأشمونيين واسيوط وأهناس والفيوم ، التى كان يسكنها الصناع وأرباب الحرف والنساجون وغيرها[٣٢٩] . كما تطالعنا وثائق الجنيزة[٣٣٠] ، بوجود مصانع للغزل والصباغة فى الفسطاط والمحلة . كذلك كشفت أوراق البردى[٣٣١] فى مدينة البهنسا عن قائمة تتضمن أشخاص يملكون أنوالاً للنسيج ، فمنهم من كان يملك أربعة أنوال ، ومنهم من كان يملك خمسة مما يدل على اشتغال أهل هذه المدينة بهذه الصناعة .

لكننا لا يمكن فى ذات الوقت أن نقول بحرية هذه الصناعة الأهلية ، حيث أنها كانت تخضع لإشراف الدولة من خلال فرض الضرائب ، ووضع الضوابط لإنتاجها ، فكان غير مسموحاً ، بإنشاء مصانع للغزل فى بيوت خاصة أو تصنيعها بدون دفع الضريبة[٣٣٢] ، وفى تحريم الدولة على النساجين فى تنيس ودبيق أن ينسجوا شيئاً إلا تحت إشراف الدولة عن طريق ختم ما يتم نسجه بختم السلطان[٣٣٣] ، الذى عرف بـــ

---

(٣٢٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٢٤ .
(٣٢٧) سفر نامه ، ص ١٢٢ .
(٣٢٨) مجهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٨٧ .
(٣٢٩) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ١٥٦ – ١٥٧ .
(٣٣٠) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 362 - 366.
(٣٣١) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، القاهرة ١٩٧٤ ، الجزء السادس ، بردية رقم ١٨٧ ، ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجريين – العاشر أو الحادى عشر الميلاديين ، ص ص ٧٠ – ٧٢ .
(٣٣٢) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 116.
(٣٣٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

«خاتم الشرب والدبيقى»[٣٣٤] ، الذى يبين أن هذه المنتجات قد استوفت الضريبة المستحقة عليها ، ولذلك كان ممنوعاً على مصانع النسيج والصباغة فى البيوت الخاصة ، أو التى تصنع خلافاً لذلك بهدف التحايل فى دفع الضريبة المستحقة ؛ لأنه يمكن التعرف عليها على الفور مع غياب الختم[٣٣٥] ، كما لاتباع هذه المنسوجات إلا على أيدى السماسرة المكلفين بهذا العمل من قبل الدولة ويناط بأحد كتاب الديوان تسجيل ما يباع ، وبعدها تحمل المنسوجات لمن يقوم بشدها وحزمها ، ثم تفتش المراكب التى تحملها مثلما يحدث للثياب المنتجة فى شطا[٣٣٦] ، والتى تعد مثالاً لما يحدث للمدن الأخرى المنتجة لهذه المنسوجات .

ولما كانت صناعة النسيج تمثل الصناعة الرئيسية فى إقليم البحر المتوسط فى العصور الوسطى[٣٣٧] ، وكانت مصر إحدى هذه الدول التى كانت مصانعها تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات الجيدة ، من هنا جاء اهتمام الفاطميين بالخامات المنتجة لهذه الصناعة ، لاسيما الكتان ، حيث تتوفر فى زراعته فى الدلتا ، فى بنها وبوصير وسمنود والفيوم[٣٣٨] ، لذلك كان الكتان يجلب للدولة من مناطق زراعته من خلال الوكلاء الحكوميين ، وقبل سفرهم إلى هذه المراكز ، كان على التجار أن يجهزوا الخطابات ليقدموها إلى العامل أو متولى الأموال[٣٣٩] ، ويرجع حرصهم على الحصول على الكتان لاستخدامه فى مصانعهم الخاصة ، وتصديره للشرق والغرب[٣٤٠] ، خاصة تونس وصقلية[٣٤١] ومن هنا كانت الدولة أكبر مستهلك للكتان[٣٤٢] . أما الحرير الذى لم تكن مصر من البلاد التى تعنى بإنتاجه[٣٤٣] ، فكانت لذلك حريصة على استيراده

---

(٣٣٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٣٣٥) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 117.

(٣٣٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(٣٣٧) انظر : Goitein Med Soc, 1, p. 101.

(٣٣٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ ؛ المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣٣٩) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

(٣٤٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

(٣٤١) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

(٣٤٢) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

(٣٤٣) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٧٦ .

خاصة من صقلية وأسبانيا[٣٤٤] ، ومن خلال أحد الخطابات فى وثائق الجنيزة[٣٤٥] ، الذى يرجع إلى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، أن كل الحرير ، الذى وصل إلى الإسكندرية ، تسلمته الحكومة ، باستثناء كميات صغيرة ذات جودة أقل ، وعندما ينخفض سعر الحرير فى الفسطاط كان على التجار أن يبيعوا مخزونهم منه للحكومة ، ويتلقون المبلغ الذى يحدد علانية[٣٤٦] ، كما كان الحرير يصادر ويحتجز ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م[٣٤٧] ، أما القطن ، فعلى الرغم من كونه أحد الخامات المنتجة لصناعة النسيج ، حيث يزرع فى مصر ، خاصة فى الفيوم[٣٤٨] وكانت الدولة تفرض عليه الضرائب[٣٤٩] ، وتصنع منه الثياب فى البهنسا[٣٥٠] ، فإنه لم يصل خلال العصر الفاطمى ، لما وصلت إليه الخامات السابقة .

ويرجع اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أيضاً إلى أن تجارة المنسوجات المصرية كانت رائجة وتمثل سلعة سوق فى العالم الإسلامى أو بيزنطة ، بسبب ما كانت تنتجه المصانع من أقمشة عالية الجودة ، ففى الوجه البحرى ، حيث صناعة الأقمشة الكتانية ، كانت تنيس تنتج القصب الملون والبوقلمون ، وكلاهما لا ينتج فى مكان آخر فى جميع العالم[٣٥١] ، أما دمياط فاشتهرت بإنتاج القصب الأبيض والشرب[٣٥٢] ، وليس أدل على شهرة دمياط من أن مدينة كازورون الفارسية قلدت المنتجات المصرية وعرفت بـــ «دمياط الأعاجم»[٣٥٣] وتنتج دبيق وهى إحدى قرى دمياط قماش مزركش ؛ فضلاً عن مدينة شطا القريبة من تنيس ودمياط ، التى ينسب إليها الثياب الشطوية[٣٥٤] .

---

(٣٤٤) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.
(٣٤٥) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.
(٣٤٦) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.
(٣٤٧) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.
(٣٤٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ١٠٦ .
(٣٤٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(٣٥٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٧ .
(٣٥١) سفرنامه ، ص ٩٢ .
(٣٥٢) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .
(٣٥٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٣ .
(٣٥٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٦ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد تقدمت مع الفاطميين بحيث وجدت مناطق جديدة في دبقو ودميرة[٣٥٥] وتونة ، حيث يغزل فيها الغزل الرفيع[٣٥٦] ؛ فضلاً عن منية الخصيب ومنية غمر ومنية زفتى[٣٥٧] ، كما استحدثت مع الفاطميين أنواعاً أخرى من الأقمشة مثل العتابى[٣٥٨] ، الذى ينسب إلى بغداد ، والسقلاطون من بلاد الروم فى خلافة العزيز ، بسبب العلاقات السياسية الطيبة بين الخليفة الفاطمى وعضد الدولة البويهى من ناحية والصلح الذى تم مع الروم عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م من ناحية أخرى وساعد بذلك الاتصال التجارى ، أيضاً على قيام الصناع المصريين بتقليد أنواع الأقمشة[٣٥٩] ، مثل الطبرستانى ، الذى تم تصنيعه فى تنيس ودمياط والأرمنى فى أسيوط[٣٦٠] أما الحرير فكان ينسج ويصنع ليس فقط فى الإسكندرية ، لكن أيضاً فى المدن الصغيرة فى ريف مصر ، ومنها المحلة ، حتى أن النساء كن مشغولات بحل ولف ونسج وصباغة الحرير فى كل مكان[٣٦١] .

لذلك لعبت صناعة النسيج دوراً ملحوظاً فى التجارة الخارجية ، خاصة المنسوجات الكتانية ، التى كانت تشكل للفاطميين الغاية الأساسية للتجارة الدولية[٣٦٢] ، فحملت منتجات تنيس إلى المشرق والمغرب وبيزنطة على وجه الخصوص ، أما العراق ، فكانت مصر تصدر إليها القماش الشرب ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف ديناراً[٣٦٣] على الرغم من العداء السياسى ، الذى كان بين الخلافتين معظم الوقت ، وحظيت مدينة أسيوط بشهرة فائقة فى المشرق ، بسبب ما كانت تنتجه من منسوجات صوفية دقيقة ، حيث كانت تصدر إلى بلاد فارس منتجاتها ، التى عرفت هناك بـ «الصوف المصرى»[٣٦٤] .

---

(٣٥٥) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٥٦ ، حيث كان بها طرازاً للخاصة وطرازاً للعامة .

(٣٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٥٧) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٥٨) انظر ، نوع الثياب الحريرية نسب إلى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب Dozy. Supplément, 11, p. 93.

(٣٥٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٣٣ .

(٣٦٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٦١) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 102.

(٣٦٢) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 105.

(٣٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٦٤) سفر نامه ، ص ١٣١ .

كما اهتم الفاطميون بصناعة النسيج من أجل الدعاية لدولتهم ، حيث حملت مصنوعاتهم عقائدهم الإسماعيلية ، وكذلك لتلبية حاجة البلاط الفاطمى الذى اتسم بالمبالغة والرفاهية ، ولحاجة الدولة أيضاً لما توزعه على العاملين بها من كسوة وخلع فى المناسبات المختلفة ، وحسبنا ما ذكره المؤرخون[٣٦٥] سواء عن القصر أو ما تركه الوزراء من الثياب . وبذلك حققت هذه الصناعة شهرة كبيرة ، لاسيما فى العصر الفاطمى الأول ، حيث كان الأمن مستتباً ، فأدى هذا الاستقرار السياسى إلى استغلال المقدرات المحلية والإقليمية فى إنتاج مصنوعات على درجة عالية من الجودة والدقة[٣٦٦].

وكل ما سبق يفسر حرص الفاطميين على صناعة النسيج وتجارتها ، بل واحتكارها لكل ما ينتج سواء فى دور الطراز الحكومية أو فى المصانع الأهلية ، فكان ما يصنع فى الدور الحكومية لا يباع ولا يعطى لأحد[٣٦٧] ، ويكفى أن نشير إلى أن هذه الدور ، كانت تنعت بـــ "مصانع السلطان[٣٦٨] صحيح ، أن هذه المصانع كانت مخصصة لإنتاج ملابس الخليفة وأهل القصر ، والخلافة كانت فى حاجة إليها لتسد مطالبها ، مما ألجأها مثلاً إلى أن تنشأ دار الديباج[٣٦٩] ، التى يصنع بها الحرير . أما المصانع الأهلية ، فكانت تخضع للحكومة أيضاً من خلال ما فرض عليها من ضرائب، إلى جانب الإشراف الدقيق عليها . ومن هنا كانت هيمنة الدولة الفاطمية على صناعة النسيج لم تصل إلى حد الاحتكار بل مارست الدولة عليها سياسة شبه احتكارية .

كذلك أشرفت الدولة الفاطمية على صناعة السكر بشكل يستلفت النظر ، حتى كادت أن تحتكرها أيضاً ، بدليل ما قامت به من إنشاء المعاصر ومراكز تصنيع السكر

---

[٣٦٥] احتوت خزائن الفرش والأمتعة على ألوان مختلفة من الأقمشة ، المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، وجد للأفضل بن بدر الجمالى من المقاطع والستور والمطارح والمساند الديباج والدبيقى الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها ، ومن العتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقى وشرب عمل تنيس ودمياط ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٢ ، المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٧١ .

[٣٦٦] محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـــ٢/١ ، ص ٢٦١ .

[٣٦٧] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٨] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٩] المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ٤٦٤ .

فى مختلف أنحاء البلاد ، ومنها الفسطاط ، التى اشتملت على مصانع كثيرة[٣٧٠] ، كذلك فى الوجه القبلى فى ترنوط وغيرها[٣٧١] ، كما عمت مصانع العسل أنحاء البلاد أيضاً[٣٧٢] ، ولذا أجبرت الدولة الفلاحين على أن يحملوا القصب الخاص بهم إلى هذه المعاصر الحكومية[٣٧٣] ، ونفس الشيئ بالنسبة لأراضى الاقطاعات ، فكان على المقطع أن يعصر القصب الخاص به فى معصرة الدولة[٣٧٤] ، وكان اهتمام الدولة بهذه الصناعة ربما يرجع إلى أنها كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً[٣٧٥] ، ولذلك اهتمت بزراعته ، حتى أنه مع أواخر العصر الفاطمى ، كانت زراعته منتشرة على جانبى النيل من الصعيد حتى مصب النهر ، وكانت أصلح الجهات لزراعته ، تلك التى تقع بين فرعى رشيد ودمياط[٣٧٦] ، كما يشير ابن حوقل[٣٧٧] إلى الصافية من أعمال الغربية ، بأنها ضيعة كثيرة القصب .

ويرى البعض[٣٧٨] ، أن الحكومة الفاطمية احتكرت صناعة السكر ، ويعتبر الخليفة الحاكم أول من أدخل الاحتكار لهذه الصناعة فى مصر ، معتمداً على ما قام به الخليفة من إتلاف مقادير كبيرة من الزبيب والعنب وإلقاء العسل فى النيل[٣٧٩] ، لكن ليس لدينا ما ينهض دليلاً على أن الفاطميين احتكروا صناعة السكر فى عصره ، لأن الغرض مما قام به الخليفة هو منع شرب الخمر ، كما أن الفاطميين أتاحوا الفرصة للمصريين لإنشاء المصانع الخاصة المنتجة للسكر والعسل ، بيد أن ما قامت به الدولة من وضع الضوابط على هذه الصناعة وإحكام قبضتها عليها كاد أن يكون نهائياً .

---

[٣٧٠] ابن دقماق ، الانتصار ، بيروت ، جـ٤ ، ص ص ٤١ – ٤٢ .

[٣٧١] البكرى ، المغرب ، ص ٢ .

[٣٧٢] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .

[٣٧٣] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

[٣٧٤] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

[٣٧٥] حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤ .

[٣٧٦] الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ .

[٣٧٧] صورة الارض ، ص ١٣٤ .

[٣٧٨] انظر : Mazuel, Jean, Le sucre en Egypte, Le Caire 1937, p. 11.

[٣٧٩] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ١٧٧ . اراق الخليفة الحاكم بأمر الله خمسة الاف جرة من العسل فى البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً .

وتطالعنا وثائق الجنيزة[٣٨٠] عن وجود هذه المصانع الخاصة فى الفسطاط ، حيث كانت تمثل أكبر صناعة فى هذه المدينة فى العصر الفاطمى ، حتى أن كثيراً من العاملين بهذه الصناعة قد ارتبطت أسماؤهم بها ، فكان اسم «السكرى» من أسماء العائلات الشائعة[٣٨١] ، ولم تكن هذه الصناعة وقفاً على مدينة الفسطاط ، فكان هناك أيضاً مطبخاً للسكر فى شرقى الدلتا فى منية زفتى[٣٨٢] ، ويظهر من هذه المصانع ما هو صغيراً ؛ بالإضافة إلى المصانع الكبيرة أو الفابريقات ، التى كان أصحابها من الأثرياء ، لأن هذه المصانع كانت تساوى فوق آلاف الدنانير ، ويعمل بها عدد كبير من العمال ، بينما كانت المعامل الصغيرة من الممكن أن يتم تشغيلها بعشرة دنانير[٣٨٣] ، وكانت هناك شريحة من المجتمع فى أواخر العصر الفاطمى وصفت بأنها من الأقوياء المميزين ، الذين كانوا يملكون المعاصر[٣٨٤] .

وهذا معناه أن هذه الصناعة قد مارسها المصريون على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، من خلال امتلاك المعاصر أو مطابخ السكر أو المسابك ومصانع العسل سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، كما أن الأخيرة قد توائمت وروح العصر من حيث ضخامتها وكثرة عدد الصناع بها[٣٨٥] ، مما يدل على أن هذه الصناعة قد تمتعت بحرية العمل[٣٨٦] ، لكن لما كانت الدولة تجبر الفلاحين والمقطعين على عصر القصب بمعاصرها الخاصة ، التى انتشرت فى أنحاء البلاد ، فربما كانت تعود وتبيع لهذه المصانع القصب ، الذى يرد إليها ، ثم تفرض عليها الضرائب والتى بلغت على مطابخ

---

(٣٨٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 200.

(٣٨١) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 266 - 267.

(٣٨٢) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 126.

(٣٨٣) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 81.

(٣٨٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٣٨٥) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـ٢/١ ، ص ١٦٣ .

(٣٨٦) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.
وما يدل على حرية العمل فى هذه الصناعة إلى حد ما ، ما تشير إليه بردية من قيام تاجر بعمل حساب أسبوعى لسكر موزع ، انظر : جروهمان ، أوراق البردى العربية ، بردية رقم ٣٦٩ ، جـ٦ ، ص ١٢٦ .

السكر ١٣٥ دينار وعلى دار القند فى الفسطاط والقاهرة ٣٠١٨ دينار ، وعلى مرنعة العسل ٢٣٢ دينار[٣٨٧] ، فضلاً عما كان يدفعه أصحاب المعاصر لتكرير السكر[٣٨٨] .

ويرى البعض[٣٨٩] : «أن الضريبة على صناعة السكر فاطمية الأصل» وربما ذلك يرجع إلى أن زراعة القصب عرفت فى مصر فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلاد[٣٩٠] ، وشهدت تطوراً ملحوظاً فى العصر الفاطمى ، حتى ذكر المخزومى[٣٩١]: «وقد استوفينا من ذكر القصب قدراً لا يؤثر عنه التجاوز ، إنما ذكرنا هذا القدر منه لكون زراعته خطرة ولكونه أعلى أصناف المزروعات» ولذلك توفرت لزراعته الأسباب من اختيار الخولى العارف بالأرض والكرامين ، الذين يقومون بخدمة الأرض والوقافون المشرفون على إدارة السواقى ، كما يرتب الحراس لحراسة القصب[٣٩٢] .

ولقد اهتمت الدولة الفاطمية بهذه الصناعة أيضاً بسبب أهميتها التجارية مثل صناعة النسيج من حيث ما ذكرناه من كونها سلعة سوق ولسد حاجة البلاط الفاطمى ، بالإضافة إلى ما تحتاجه الدولة من كميات وفيرة لتفى بالتزاماتها فيما تقوم بتصنيعه من حلوى وتوزيعه على الرعية ، وليتوائم إنتاجه مع حاجة المجتمع الذى تعود على الرفاهية ، وعلى ذلك استخدمت وسائل وأساليب جديدة لتكريره ، وتحسنت الطريقة القديمة[٣٩٣] ، كما أنتجت عدة أنواع من السكر تبعاً لدرجة تكريره .

وتبدو أهمية السكر فى أنه كان من أهم الصادرات الضئيلة ، التى تمثلت فى فائض الإنتاج الزراعى والصناعى آنذاك[٣٩٤] . حتى أصبح السكر يمثل أهم منتج

---

(٣٨٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣٨٨) هناك وثيقة ترجع إلى عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م تبين أنه دفع ثلاثة عشر درهماً مقابل تكرير السكر ، انظر Goitein, Med. Soc., 1, p. 116.

(٣٨٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 82.

(٣٩٠) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، جـ٦ ، بردية رقم ٢٣٢ ترجع إلى عام ٢٨٨هـ/٩٠٧م ، ص ٣٦ . ذكر فيها ما دفع إلى نواطير القصب ، وفى بردية أخرى رقم ٢١٦ ترجع إلى ق٣هـ - ٩م ، جـ٤ ، ص ٦ يذكر فيها ما زرع من قصب .

(٣٩١) المنهاج ، ص ٥ .

(٣٩٢) المنهاج ، ص ص ٤ - ٥ .

(٣٩٣) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٤) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٨١ .

اقتصادى فى مصر خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وعرف فى الشرق الأقصى باسم "المصرى"[٣٩٥] وكانت له شهرة تفوق جنديسابور ، التى اشتهرت بالسكر[٣٩٦] . فقد راجت لذلك تجارته فى وقت كانت مصر تمثل أحد أقطاب التجارة الدولية ، ومعنى ذلك أن الإنتاج الزراعى قد كرس للسوق وليس لمجرد الاكتفاء الذاتى[٣٩٧] ، حيث أن هذه الصناعة كانت واسعة الانتشار لارتباطها بالمناطق التى تزرع قصباً[٣٩٨] ، ولذلك كانت مصر تنتج عسلاً وسكراً كثيراً[٣٩٩] ، كما كانت هذه الصناعة ذات طابع رأسمالى ، حيث أن الطرق المعقدة التى استخدمت فى إنتاجها ، لا يمكن استخدامها إلا فى المصانع الكبيرة ، التى كان يطلق عليها "مطابخ السكر"[٤٠٠] .

كذلك لسد حاجة البلاط الفاطمى ، حيث تذكر المصادر[٤٠١] الأسمطة التى كانت تعد ويستخدم فيها مقادير كبيرة من السكر ؛ بالإضافة إلى سياسة الدولة تجاه الرعية استلزمت إنشاء دار الفطرة[٤٠٢] ، لإنتاج حلوى عيد الفطر ، وما كان يستهلك فيها أيضاً ، وما حوته من أسماء الحلوى ، التى كانت توزع على العاملين فى الدولة فى مناسبات مختلفة ، ولابد أن الرعية تأثروا بهذه التقاليد ، حتى كان للحلوى سوقاً فى مدينة الفسطاط تشتمل على أنواع عديدة منها خاصة فى الأعياد[٤٠٣] .

---

(٣٩٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٨ .

(٣٩٧) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٥٦ .

(٣٩٨) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٩) سفر نامه ، ص ١١٨ .

(٤٠٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠١) ما كان يعمل فى سماط عيد الفطر ، قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطاراً من السكر ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٨٨ ، وكذلك ما تم عمله فى سماط عيد الأضحى فى خلافة الظاهر ، وصل السماط المعمول من السكر والقصور وعدد قطع تماثيله مائة وسبعة وخمسين قطعة ومن القصور السكر الكبار سبعة قصور ، انظر : المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠١ . كذلك بلغ راتب السكر المستخدم فى سماط عيد الفطر خمسون ألف من ، وقد أعد على مائدة السلطان شجرة للزينة تشبه شجرة النارنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، انظر ، سفرنامه ، ص ١٢٣ .

(٤٠٢) قام الخليفة العزيز ببناء دار الفطرة وقرر ما يعمل فيها وما يحمل للناس ، وبلغ السكر المستخدم فى هذا اليوم سبعمائة قنطار ، انظر ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٢٥ – ٤٢٦ .

(٤٠٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٤٥ – ٤٤٦ ، جـ٢ ، ص ٦٩ ، ومن أصناف الحلوى الشائعة الخسكنانج والبسندود والفانيد .

ونظراً لما تقدم ، اهتمت الدولة بهذه الصناعة ، وعملت على تحسين وسائل تكرير عصير القصب فى مصانع السكر العديدة الموجودة فى مدن وقرى كثيرة في مصر ، حيث استخدم النطرون والشب في تنقية المواد المتخلفة ، عوضاً عن الغلى المتكرر[٤٠٤] ، وكان استخدام المادة القلوية فى التنقية يعد اختراعاً تم فى مصانع السكر المصرية[٤٠٥] ويرجع ذلك إلى تكريس النهضة العلمية لخدمة أغراض عملية[٤٠٦] .

وبناءاً على ما سبق ، فلا يمكن أن نؤكد أن الدولة احتكرت صناعة السكر وما قيل عن صناعة النسيج يصدق على صناعة السكر ، فعلى الرغم من سيطرة الدولة الكاملة عليها من حيث إنشاء المصانع السلطانية أو من خلال تشديد القبضة فى الإشراف عليهما وكذلك احتكار تسويقهما ؛ فإن إتاحة الفرصة لإنشاء المصانع الأهلية للصناعتين ، ترجح أنهما قد خضعتا لسياسة شبه احتكارية من قبل الدولة .

كما طبقت الدولة الفاطمية هذه السياسة على صناعات أخرى مثل الشمع والصابون ، فعلى الرغم من وجود مصانع الشمع المنتشرة فى الإسكندرية[٤٠٧] ، فإنه كان أيضاً يمثل أحد السلع الثابتة ، التى تأتى من تونس ، ولوجود مصانع أهلية لهذه الصناعة ، كان اسم الشماع أيضاً واحداً من أسماء العائلات اليهودية[٤٠٨] آنذاك ولأهمية هذه الصناعة ، كان يوجد لها سوقاً بالفسطاط عرف بـ "سوق الشماعين"[٤٠٩] ، كما كانت الدولة تفرض ضريبة على السلع تسمى "خاتم الشمع" تدل على استيفاء الصناعة التى تم ختمها للضرائب[٤١٠] . وقد خصص الفاطميون خزائن للشمع عرفت بخزائن دار أفتكين بسبب حاجتها له[٤١١] . وكانت الدولة لذلك تحتكر كل ما يرد إليها من بلاد المغرب[٤١٢] .

---

(٤٠٤) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٦) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٦١ .

(٤٠٧) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(٤٠٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٠٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٦

(٤١٠) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٠٤

(٤١١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢٢

(٤١٢) انظر Goitein. Med. Soc 1, p. 60

أما الصابون ، فقد كثرت مطابخه في الفسطاط ، وكانت الدولة تعتمد على ما يرد إليها من زيت الزيتون من منطقة الفيوم ، كما أشار ابن دقماق(٤١٣) إلى قيسارية الصبانة ، التى كانت موجودة بالفسطاط وتضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون ، كما كانت الإسكندرية إحدى المراكز الهامة لصناعة الصابون نظراً لزراعة أشجار الزيتون فى نواحيها الغربية(٤١٤) ، وقد أشار ابن جبير(٤١٥) إلى موضع الصبانة بها ، ولاشك أنها كانت تضم مطابخ أخرى للصابون خلال العصر الفاطمى ، ولما كانوا يستخرجون الزيوت من نباتات أخرى مثل اللفت والخس ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً من الصابون عالية الجودة فى أنحاء مصر(٤١٦) . ومع ذلك كانت الدولة تقوم باستيراده من تونس ، لكنها كانت تضع الضوابط على التجار المستوردين له ، فإذا ارتفع سعر قنطار الصابون الوارد من تونس إلى حد كبير ، تسمح الحكومة لنفسها فقط بأن تبيعه بمثل هذا السعر(٤١٧) .

لكن الدولة الفاطمية قامت بالفعل باحتكار بعض الموارد والسلع إما بسبب أهميتها الاقتصادية فى الصناعة أو لاستخدامها فى ضبط الميزان التجارى لاستيراد سلع أخرى أو لافتقار الدولة فى إنتاجها أو لحاجتها الملحة والشديدة لتأكيد وضعها السياسى .

وبسبب القيمة الاقتصادية للشب والنطرون ، لاسيما فى الصناعة ، حيث يدخل الشب فى صناعتى المنسوجات والسكر كما سبق ، فضلاً عن أن الشب والنطرون كانا من السلع المهمة ، التى تشارك فى التجارة خاصة مع بيزنطة ، لذلك قامت الدولة الفاطمية باحتكارهما . ولم يبتدع الفاطميون احتكار هذين المعدنين ، فقد احتكرهما من قبل أحمد بن المدبر(٤١٨) .

ولما كان الشب يوجد بالصعيد ، خاصة فى أخميم وأسيوط والبهنسا ، فكانت الدولة تحصل عليه من خلال اتفاق بينها وبين العربان ، ويتم تسليم المستخرج منه إلى

---

(٤١٣) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .
(٤١٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .
(٤١٥) الرحلة ، ص ٩٥ .
(٤١٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٩ .
(٤١٧) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 267.
(٤١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

الديوان ، ولا يستطيع أحد منهم ابتياعه لغير الدولة ، بل ويحظر عليهم وعلى غيرهم ذلك ، ولو عثر على أحد أنه اشترى منه الشب أو ابتاعه سوى الديوان ، صودر ما وجد عنده ، ونفس الشئ يقال عن النطرون ، الذى كان يوجد فى البر الغربى من أرض مصر ، وكانت تحصل منه الدولة فى كل عام عشرة آلاف قنطاراً[٤١٩] . كما اتبعت الدولة نظام الضمان للنطرون ، وكان على الضامن أن يقدم حصة مقدرة للديوان سنوياً وصلت إلى ثلاثين قنطاراً[٤٢٠] . كذلك خضع الشب لهذا النظام ، حتى أنه بلغ ما سومح به من الشب فى وزارة المأمون البطائحى فى عام ٥١٠هـ/١١١٧م ، ٩١٣،٥٠٠ قنطاراً[٤٢١] . وهذا يبين أن نظام الضمان مع الشب والنطرون قد اختلف عنه فى الموارد الأخرى ، بسبب اتباع سياسة الاحتكار .

وكانت ما تحصل عليه الدولة من الشب تقوم ببيعه لتجار الروم ، حيث تخصص مما يأتي إليها من هذا المعدن اثنى عشر قنطاراً[٤٢٢] ، وكان احتكار الشب يمثل للدولة أيضاً سلعة تجارية هامة ليس فقط من خلال مشاركتها فى التجارة الخارجية ، لكن أيضاً ، بسبب ما تحصل عليه من ربح من خلال الفرق بين سعر الشراء والبيع ، فهى تشتريه من العربان بالقنطار الليثى ، الذى يزن مائتى درهم بثلاثين درهماً ، بينما تبيعه لتجار الروم بالقنطار الجروى الذى يزن ٣١٢ درهم بين أربعة وست دنانير[٤٢٣] . وإذا وضعنا فى الاعتبار الفارق فى الوزن بين القنطارين[٤٢٤] لوجدنا أن الليثى يساوى ثلثى الجروى تقريباً ، وأن السعر المقرر للدينار ثمانية عشر درهماً[٤٢٥] . ومتوسط سعر البيع خمسة دنانير ، فكانت تحصل عليه الدولة من فائدة تصل إلى حوالى مائة فى المائة .

---

(٤١٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٤٢٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ .
(٤٢٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، اختلفت قيمة الدينار من وقت لآخر حتى وصل فى القرن ٦هـ/١٢م إلى ستة وثلاثين درهماً وأحياناً أربعين درهماً : انظر :
Goitein, Med. Soc., p. 97

وفى نفس الوقت كان المخصص للمصريين من الشب ثمانين قنطاراً فقط وتباع بواقع ستة دنانير ونصف للقنطار[٤٢٦] ، فهذا معناه أن الدولة تخصص نسبة ضئيلة للصناعة المحلية ، وهذا الأمر لا يمكن قبوله ، لأن الصناعات التى اهتمت بها الدولة كانت تحتاج إلى الشب ، لكن لما كانت الدولة قد أسهمت بنصيب فى هذه الصناعات ومنها النسيج والسكر ، فمن المحتمل أنه كان يخصص فى الديوان السلطانى ما يستخدم فيهما من الشب . وربما كان الغرض من تخفيض ما يخصص للتصنيع المحلى يرجع لأهمية الشب فى التجارة الدولية بسبب احتياج الفاطميين لاستيراد بعض السلع الأخرى وعلى رأسها الخشب ، حتى نجد أنه إذا زاد ثمن المبتاع من التاجر عما يجب عليه من الخمس ، أعطى شباً بحق الثلث[٤٢٧] ، كما يشير هذا الإجراء إلى استغلال المصريين فى حالة الشراء من العربان والبيع للصناع .

كما احتكرت الدولة الفاطمية بعض السلع الأخرى ، التى حواها المتجر مع اليازورى ، بداية من عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، عندما أشار على الخليفة المستنصر بشراء وخزن سلع أكثر فائدة[٤٢٨] ، حيث كان المتجر يستطيع أن يوفر ربحاً من خلال الفرق بين الشراء والبيع ، وكذلك ما وجد فى خزائن الأفضل بن بدر الجمالى بعد وفاته ومنها الخشب والحديد والرصاص والشمع والصابون وزيت الزيتون[٤٢٩] . أما الخشب الذى يعد أهمها على الإطلاق فقد تناولناه فى بحث سابق[٤٣٠] ، وانتهينا إلى أن الفاطميين قد احتكروه ، لكن سياستهم قد تلونت طوال العصر الفاطمى تبعاً لحالة القوة والضعف ، ففى العصر الفاطمى الأول كان احتكاره من أجل التوسع ، لذا فرضوا إرادتهم رغم الحظر البيزنطى ، بينما فى العصر الفاطمى الثانى حيث ضعفت الخلافة، مالوا إلى الدبلوماسية فى سبيل الحصول عليه من أجل التجارة ، كما أنهم قد احكموا قبضتهم على الخشب المحلى والمستورد بسبب الحاجة الشديد إليه .

---

[٤٢٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
[٤٢٧] المخزومى ، المنهاج ، ص ص ٤٨ ، ٥٧ .
[٤٢٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠ .
[٤٢٩] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧١ .
[٤٣٠] انظر ، احتكار الخشب فى مصر الفاطمية ، فصلة من مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية ١٩٩٧ ، العدد ٣٠ .

أما عن السلع الأخرى ، التى احتكرتها الدولة الفاطمية ، فإنها كانت تعتمد على استيرادها إما بسبب حاجتها الملحة لها فى الصناعة أو لنقص المنتج منها محلياً . ومنها الحديد ، الذى تبدو أهميته فى ارتباطه ببعض الصناعات الهامة مثل صناعة السفن والأسلحة وغيرها ، لذلك كان يرتبط استيراده دائماً بالخشب ، خاصة من المدن الإيطالية وغيرها ويخضع لما يتعرض له الخشب من قبل بيزنطة من فرض سياسة الحظر على تصديره إلى مصر[٤٣١] ، كما كان يحمل من صقلية وبلاد المغرب التى تعتبر الموطن الأصلى لإنتاجه[٤٣٢]. ومع ذلك قلما يرد ذكر الحديد فى وثائق الجنيزة[٤٣٣] «وعند الإشارة إليه نجد أن تجارته لم تكن حرة . ولم يخرج الرصاص عن نفس الاهتمام فى استيراده ، حتى ما كان يتم جلبه من الخارج كانت السلطات الحكومية تستحوذ عليه»[٤٣٤] .

أما الشمع ، فكان من السلع الثابتة ، التى تستورد من تونس[٤٣٥] ، وكان ما يأتى منه يستنفد من قبل السلطات الحكومية فى الإسكندرية[٤٣٦] ، وكان التجار يبيعونه بأقل ما يشترونه[٤٣٧] ، كما كان يتعذر فى بعض الأحيان الحصول على الصابون بسبب القيود التى تضعها الدولة[٤٣٨] .

كذلك كان زيت الزيتون من السلع التى حرصت عليها الدولة الفاطمية ، على الرغم من قيامها باستخراج الزيوت من نباتات أخرى[٤٣٩] ، وكذلك برغم زراعته فى مصر ووجود معاصر له فى بعض المدن ، لاسيما فى صندفا بكورة البهنسا والفيوم

---

[٤٣١] لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ص ٣٠٢ ، ٣٣٥ .

[٤٣٢] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ؛ الإدريسى ، ص ١١٧ ، متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

[٤٣٣] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

[٤٣٤] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

[٤٣٥] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

[٤٣٦] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

[٤٣٧] عندما يكون سعر الشمع فى القيروان ٦ دينار لكل مائة رطل ، كان التاجر يبيعه بـ ٤ ، انظر : Goitein, Me. Soc. 1, p. 219.

[٤٣٨] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 184.

[٤٣٩] سفر نامه ، ص ١٢٠ .

والقسطاط[٤٤٠]، فكان يتم استيراده من تونس[٤٤١] خاصة سفاقس[٤٤٢] ، وربما لارتباطه على وجه الخصوص بصناعة الصابون . ويبدو احتكار الدولة له من خلال ممارسة الحظر عليه ، والتى تتضح من خلال خطابات الجنيزة[٤٤٣] ، ومنها خطاب يرجع إلى حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ذكر فيه : «ان زيت الزيتون قد منع بواسطة الحكومة» كما نسمع عن منع تجار تونس من تصدير بضائعهم ، خاصة زيت الزيتون ، الذى يعد أهم صادراتها الزراعية ، وكذلك عن حرمان التجار من استيراده[٤٤٤] ، ولكثرة ما تحصل عليه الدولة سواء من المنتج محلياً ، أو الوارد من تونس بواسطتها كان سعره رخيصاً فى أسواق الفسطاط[٤٤٥] مقارنة بزيت السيرج المستخرج من السمسم ؛ لأن المعروض من زيت الزيتون كان كثيراً .

وفيما يخص اختيار العمال ، وما ورد بشأنهم فى كتب الدعوة : "على ألا تكون بمحاباه ، حتى لا تؤدى بالضرر على الناس ، والحرص على اختيار أهل الورع والفقه والعلم" وغيره من الصفات والواجبات التى تؤدى إلى صلاح الأحوال ، لكن يبدو أن الخلافة الفاطمية كانت حريصة ومنذ البداية على اختيار من ينفذ سياستها المالية بكل دقة . وما عرضناه سلفاً من تطبيق لهذه السياسة يتضح أن الدولة كانت تحتاج إلى رجال من طراز يختلف اختلافاً بيناً فى الغالب على ما تضمنه النص السالف الذكر .

فعلى الرغم من استياء جوهر من سياسة الإخشيديين الاقتصادية بشكل عام ، نراه يقر جعفر بن الفرات فى الإشراف على النواحى المالية . وربما يرجع هذا الإجراء لأنه كان لا يزال مشغولاً بإتمام الفتح ، حتى أنه أقر بقية المناصب بما فيهم القاضى السنى رغم الاختلاف المذهبى[٤٤٦] ، لكن بعد استقرار الأمور ومجئ المعز ، عرض على ابن الفرات أن يتولى الوزارة استمراراً لدوره أيام الإخشيديين ، لكن

---

[٤٤٠] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

[٤٤١] الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩؛ أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 154.

[٤٤٢] البكرى ، المغرب ، ص ٢٠ .

[٤٤٣] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 268.

[٤٤٤] انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

[٤٤٥] سفر نامه ، ص ١٢٠ .

[٤٤٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

جعفراً اعتذر للخليفة[٤٤٧] . ثم قام المعز بتولية يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، كافة وجوه الأموال . صحيح أن اختيار ابن كلس على وجه الخصوص كان اختياراً موفقاً ، لأنه تمرس فى شئون مصر المالية والاقتصادية ، عندما كان يعمل فى خدمة كافور ، وتردد على الريف وعرض أخبار القرى ، حتى أنه أصبح خبيراً بالضياع وإذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها أجاب[٤٤٨] .

وقد استطاع يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن أن يستخرجا أكثر من مائتى ألف وعشرين ديناراً فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والاشمونيين ، وهذا لم يسمع بمثله قبلا[٤٤٩] . وكان ذلك لإرضاء المعز ، حتى يسترد ما أنفقه من أموال فى مصر[٤٥٠] ، لأن جوهراً عندما جاء إلى مصر ، كان محملاً بالأموال والخزائن[٤٥١] ، وظن المعز عند مجيئه أن الأموال مجتمعة لدى جوهر فوجدها قد أنفقت فى مؤن مصر وجندها[٤٥٢] . ومن هنا كان اختياره لهذين الرجلين اللذين استطاعا أن ينفذا مشيئته ويشتدا فى استخراج الأموال من المصريين .

ومع الخليفة العزيز ، حينما تولى على بن عمر بن العداس الأموال عام ٣٨١ هـ/٩٨٣م أمره : «بأن لا يرتفق ولا يرتزق ولا يضيع ديناراً ولا درهماً»[٤٥٣] . أى لا يقبل هدية ولا رشوة ، ومثل هذه الأوامر والوصايا ترتبط فى الغالب الأعم مع تولية المناصب ، ولا تعبر دائماً عن سياسة الحاكم بشكل عام . وكان ابن العداس أحد ضمان الأموال منذ أيام الخليفة المعز ، وأحد القائمين أيضاً على الخراج ، وضمن كورة بوصير ، لكن عندما نقص خراج البلاد ، قبض عليه واعتقل وذكر المؤرخون[٤٥٤] أن سبب ذلك أنه خانه الضمان والأسعار ، وعين بعده فى الوساطة عيسى بن نسطورس ، الذى استطاع أن يضبط الأمور ويجمع الأموال ويوفر كثيراً من الخراج[٤٥٥] ،

---

[٤٤٧] ياقوت ، ارشاد الأريب لمعرفة كل أديب ، القاهرة ، ١٩١١ ، جـ٣ ، ص ص ٤١٠ – ٤١٤ .
[٤٤٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٥ .
[٤٤٩] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .
[٤٥٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥١] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨ .
[٤٥٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥٣] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣١ .
[٤٥٤] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٤ .
[٤٥٥] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤٠ .

واستطاع بذلك أن يحظى برضا الخليفة العزيز ، لأن الغرض من تعيينه هو ومن سبقه تدبير وتوفير الأموال للدولة .

ونفس الشيئ يقال عن الخليفة الحاكم ، الذى أثنى على أحد رجال دولته ، وهو الوزير ابن عبدون النصرانى ، لأنه جمع له من الأموال ما هو خارج عن أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار[٤٥٦] . كذلك أقام الحاكم اثنين هما الحسن وعبد الرحمن أبنى أبى السيد معاً فى الوساطة عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م ، بعد أن ضمنا أموال الدولة وإجراءها على رسومها ووفرا ثلثمائة ألف دينار بعد ذلك سنوياً تحمل لبيت المال[٤٥٧] ، على الرغم من أن مدة وساطتهما لم تطل أكثر من اثنين وستين يوماً قتلا بعدها ، لكن يبدو أنهما قد وضعا من الإجراءات ما أدت إلى استمرار توفير هذه الأموال .

والوزراء الذين تولوا مع خلافة المستنصر ، لم يرتبطوا بالخليفة قدر ارتباطهم بأمة وسياستها العشوائية ، التى كانت تسعى فقط إلى الهيمنة على شئون البلاد من دون أبنها بدون سياسة مرسومة ، ومن هنا جاءت سياستها تجاه تعينهم حتى وصل الأمر إلى أن هناك عدد كبير منهم من تولى أشهراً أو أياماً أو من وصلت وزارته إلى يوم واحد[٤٥٨] .

ووصولاً مع العصر الفاطمى الثانى نجد أن الخليفة الآمر بعد تخلصه من وزيره المأمون البطائحى اعتمد على رجلين من رجال الدواوين ، أحدهما مسلم وهو جعفر بن عبد المنعم والآخر سامرى ، يقال له أبو يعقوب إبراهيم . وقد توليا استخراج ما يجب من زكاة ومكس وأقام معهما مستوف يعرف بأبى نجاح الراهب ، الذى تحكم فى الناس ، وطالب النصارى بالأموال[٤٥٩] . ولما كانت سياسته تسير وفق مشيئة الآمر لقبه بـــ "الأب القديس الروحانى النفيس ، أبى الأباء ، سيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية"[٤٦٠] مما ساعده على التمادى فى عسفه تجاه الناس .

---

[٤٥٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٢ ، ص ٨٢ .
[٤٥٧] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .
[٤٥٨] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ .
[٤٥٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ١٢٥ .
[٤٦٠] المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ١١٧ .

أما بهرام الأرمنى ، الذى وزر للحافظ ٥٢٩-٥٣٣هـ/١١٣٥-١١٣٩م ، فلم يكتف فقط بتوزيع الولايات والوظائف على أهله وبنى جنسه ، لاسيما قوص أهم ولايات مصر ، بل جاء على الناس واستباح أموالهم وبالغ فى أذيتهم(٤٦١) ، هذا فضلاً عن طلائع بن رزيك الذى أشرنا إليه سلفاً ، والذى ظلم الناس وباع الولايات(٤٦٢) .

وإذا كان عصر الوزراء العظام قد تقلصت معه سلطات الخلفاء حتى أصبحت أفعال الوزراء لا تحسب على الخلافة ، إنما هى نتيجة لضعفهم ، لاسيما أن هؤلاء الوزراء لم يهمهم على الأقل مصلحة الخلافة بقدر ما كانت تشغلهم مصالحهم الشخصية ، لكن هذا ليس معناه أن نرفع عن الخلافة المسئولية ؛ فضلاً عن أن العصر الفاطمى الأول قد أوضح أن الخلفاء المؤسسين للخلافة كانوا حريصين على اختيار رجالاً يستطيعون تنفيذ مشيئتهم وسياستهم المالية على خير وجه ، وبقدر ما يحسب لهم حسن الاختيار ، إذ أن غالبية الوسطاء والوزراء كانت لهم خبرة سابقة بشئون المال ، كالعمل فى ديوان الخراج أو بيت المال ، كان هذا الأمر له وجه آخر فى قدرة هؤلاء الرجال فى التحرى عن الأموال والحصول عليها بشكل يرضى الخلفاء .

لكن هناك بعض الفترات تخرج عن هذا الإطار ، حتى فى العصر الفاطمى الثانى مع وزارة المأمون البطائحى على وجه الخصوص ، والذى كان كل همه رفع المعاناة عن الرعية واتخاذ الإجراءات التى من شأنها أن تؤدى إلى إصلاح الأحوال ، وقد عرضنا لهذا سلفاً فيما قام به من المسامحات ، وحتى قبل تعينه فى الوزارة كان الساعد الأيمن للأفضل بن بدر الجمالى وكان من وراء ما قام به الأفضل من حل الاقطاعات وإعادة توزيعها ، لكن بوجه عام كانت السياسة الغالبة للفاطميين واحدة ؛ وهى اختيار الرجال ، الذين استطاعوا أن يحققوا لهم ما أرادوه . وهذا يختلف عما ذكرناه من اختيار العمال وفق صفات معينة صحيح أن هناك فرقاً بين العامل والوزير ، لكننا حاولنا أن نطبق هذا النص فى ضوء النصوص المتاحة ، طالما أنه ما يطبق على

---

(٤٦١) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٥٩ .

(٤٦٢) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

العمال لابد أن يكون بالتبعية متأثراً بأعلى سلطة فى الخلافة ، كما أن كثيراً من الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى كانوا فى الأصل ولاة لبعض الأقاليم(٤٦٣) .

كما أن الخلفاء اتبعوا مع هؤلاء سياسة المصادرات ، التى تعد أحد أبواب الدخل المؤقتة لأنها تخضع للظروف السياسية ومدى قوة الدولة وقدرتها على تقليم أظافر كبار رجال الدولة . ولما كان أمان جوهر قد شمل بعض التلميحات عما كان يتم أيام الإخشيديين ومنها "الاحتواء على نعمكم وأموالكم" وأشار إلى أن الأمور سوف تتحسن بمجئ الفاطميين ، خاصة أن الإخشيديين طالما قاموا بمصادرة كبار رجال الدولة والتحوط على أموالهم(٤٦٤) ، بعد القبض عليهم أو بعد وفاتهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى التجار ، كما أنه بعد وفاة كافور وتفاقم الأحوال الاقتصادية بسبب نقصان مياه النيل وغلاء الأسعار ، قام الوزير جعفر ابن الفرات بالقبض على بعض الأقوياء ممن التحق بخدمة الدولة وصادرهم وكان منهم يعقوب بن كلس(٤٦٥) ، مما كان سبباً فى هروبه إلى المعز وتحريضه على المجئ إلى مصر(٤٦٦) . بيد أن الفاطميين قد مارسوا هذه المصادرات فى بلاد المغرب ، حيث أن القاضى النعمان برر مصادرة الأئمة لأموال الناس والاستيلاء عليها بقوله : "إن للأئمة الحق فى امتحان الناس فى أموالهم بأخذها منهم بدون سبب"(٤٦٧) .

وكان ابن كلس أول من صودر مع الفاطميين فى خلافة العزيز عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م ، بعد أن عزله من منصبه ، وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، لكنه سرعان ما أعاده إلى منصبه(٤٦٨) . كما صودرت أملاك عمر بن العداس ، عندما اتهمه الخليفة العزيز بتبديد أموال الدولة(٤٦٩) . وعندما قبض على عيسى بن نسطورس ، لم يعد إلى

---

(٤٦٣) ومنهم بهرام الأرمني كان والياً للغربية قبل أن يتولى الوزارة وكذلك رضوان بن ولخشى ، أما ابن رزيك فكان والياً على الأعمال الاسيوطية ، انظر ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٩ .

(٤٦٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٤٦٥) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٣٤٥ .

(٤٦٦) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٦٠ .

(٤٦٧) الهمة ، ص ٦٩ .

(٤٦٨) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٥٩ .

(٤٦٩) ابن الصيرفى ، الاشارة ، ص ٢٤ .

عمله ، إلا بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار[٤٧٠] . ومع الخليفة الحاكم بأمر الله ، كثرت المصادرات ، ولم تقف عند حد كبار رجال الدولة بل تعدتهم إلى الرعية ، فصادر الحسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز بن النعمان عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م[٤٧١]. كما قام بمصادرة الكتاب من مسلمين ونصارى وطالبهم بحساب ما كانوا يتولونه وصادر أموالهم[٤٧٢] . ومن كثرة ما تمت مصادرته ، أنشأ الخليفة ديواناً برسم من يقبض ماله من المقتولين من كبار رجال الدولة عرف بـ "ديوان المفرد"[٤٧٣] وهذا الديوان لم يكن أمراً مستحدثاً مع الفاطميين فقد سبقهم إليه العباسيون وصودر كثير من كبار رجال الدولة ، وأنشئ لهذا الغرض ديواناً عرف بـ «ديوان المصادرات» كان مسئولاً عن إدارة الأملاك التى يتم مصادرتها[٤٧٤] .

كما امتدت المصادرة إلى الرعية أيضاً ، فقام الخليفة الحاكم بمصادرة أملاك الكنائس[٤٧٥] ، وتزايد ضرره بأهل مصر ، من خلال الجند السودان ، الذين قاموا بنهب أموال الرعية وفتح دورهم ومخازنهم وأخذ أمتعتهم وفتح دكاكين البزازين ونهب ما فيها وتخللوا إلى الأسواق وأخذوا ما أرادوا منها وأفسدوا بقية ما فيها[٤٧٦] ، وإذا كان ما أورده المؤرخون بشأن سياسة الخليفة الحاكم ربما تعد حرباً شنها السنة ضد الشيعة للنيل منهم وعلى ذلك أوردوا روايات من المحتمل أن يكون مبالغ فيها . كما أننا لو اعتبرنا أن هدف الحاكم من هذه المصادرات هو القضاء على نفوذ رجال الدولة والاستئثار بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعتبر سياسته بشكل عام مقياساً للعصر الفاطمى فى مصر ، لأن عصره قد اختلف فيه ، فما قام به من أعمال أكان يبغى من ورائها الإصلاح أم أنها كانت مرتبطة بشخصه ؟ ومهما كانت أهدافه من المصادرات ، فاستمرارها بعده ، توضح رغبة الفاطميين فى التحوط على الأغنياء سواء كبار رجال الدولة أو الرعية بشكل مستمر .

---

(٤٧٠) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤١ .
(٤٧١) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٩٨ .
(٤٧٢) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ص ٨١ - ٨٢ .
(٤٧٣) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ .
(٤٧٤) متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٥٠ .
(٤٧٥) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٩٥ .
(٤٧٦) ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٥٥ - ٥٦ .

ففى خلافة الظاهر ، قام كبار رجال الدولة بمصادرة التجار ، وارتبط ذلك بوقوع الغلاء عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م[٤٧٧] ، وكان من المنتظر أن تكون هذه المصادرات لتجار الغلة حتى يمنع من احتكارها ، لكن النص جاء عاماً ، حتى نفهم منه أنه شمل جميع التجار الذين كانوا يمثلون أول القائمة فى المصادرين من الرعية لخصوصية ارتبطت بهم خلال هذا العصر أو غيره حيث أن ازدهار التجارة يؤدى إلى تراكم للأموال فتشيع المصادرات ، خاصة مع اضطراب أحوال الجند ؛ فيورد المسبحى نصاً غاية فى الأهمية[٤٧٨] ، إبان عصر الظاهر من خلال مطالبة صاحب بيت المال بما عنده وامتناعه عن إعطائهم الأموال ، فقيل له : «فتقترض من التجار وتصادر من تحب من مصادرته ، فقال له الشيخ النجيب أبو القاسم الجرجرائى : وأى مال مع التجار ؟ وتجار مصر هلكى تحت التحمل بلاء» . وذلك يبين أن تجار مصر طالما تعرضوا للمصادرات خاصة من قبل الجند ، حتى أنه انتقل طائفة من التجار البزازين ، وجماعة أخرى ممكن تسكن بساحل الصعيد والوجه البحرى إلى وسط البلد خوفاً من نهب البلد ، كما اضطر الناس لنقل رحالاتهم وأموالهم من القياسر والحوانيت بمصر إلى منازلهم وأخلوا دكاكينهم من أمتعتهم خوفاً من وقوع فتنة أو نهب[٤٧٩] ، وكذلك تعرض المصريون خلال فتن الجند أيام المستنصر للنهب والمصادرة .

وقد قام الوزراء أيضاً بالمصادرات وسوف يتضح هذا الدور خلال العصر الفاطمى الثانى ، فالوزير بدر الجمالى ، الذى استطاع أن ينقذ الخلافة من كوارثها الاقتصادية المتلاحقة خلال عصر المستنصر ، قامت سياسته أيضاً على المصادرات ، حتى أنه لم يبن جامع العطارين بالإسكندرية إلا من مال وأملاك المصادرات[٤٨٠] . وربما تكون هذه الأموال ، تلك التى قام بمصادرتها من الأمراء والقواد الأتراك بعد مجيئه إلى مصر أو من الأموال التى أخذها من أهل الإسكندرية[٤٨١] ، بينما ابنه

---

[٤٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٤ .
[٤٧٨] المسبحى ، أخبار ، ص ١٦٩ .
[٤٧٩] المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠٠ .
[٤٨٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٧٧ .
[٤٨١] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٢١ .

الأفضل ذكر المؤرخون أنه لم يعرف أنه صودر أحد فى زمانه ، سواء من كبار رجال الدولة أو الرعية[٤٨٢] .

كما شهدت خلافة الآمر مصادرات عديدة ، بدأها بوزيره المأمون البطائحى وأخيه المؤتمن وهما بالقصر ، فصودرت دورهما[٤٨٣] . كما صادر قوم من النصارى وأخذ منهم مائة ألف دينار وتجاوز الأمر إلى العمال والقضاة والكتاب والشهود والضامنين والتجار أيضاً قد تعرضوا للمصادرة والاعتقال حتى أن من كثرة هذه المصادرات فى مصر والقاهرة اضطر التجار إلى الخروج من البلد[٤٨٤] . وعامة الناس والسوقة ، حتى وصل الأمر إلى مصادرة رجلاً حمالاً ، أخذ منه عشرين ديناراً ثمن جمل ، الذى لم يكن له سواه[٤٨٥] . وكان الآمر يعتمد فى إنجاز هذه المصادرات على أبى نجاح الراهب ، الذى كان يجلس بجامع عمرو ويستدعى الناس للمصادرة ، وقيل أن الذى احتاط عليه من أملاك المسلمين كان كثيراً[٤٨٦] . وكان هذا الخليفة مدفوعاً للقيام بالمصادرات بدافع القسوة والطمع ، فقد عرف أنه كان قبيح السيرة مبالغاً فى ظلم الناس وأخذ أموالهم واغتصاب أملاكهم[٤٨٧] ، أو أن تناقص الإيرادات بشكل عام كانت أحد الأسباب التى دفعته إلى ذلك ؛ فضلاً عن اهتمامه البالغ بالترف واللهو ، خاصة أن الرسوم الفاطمية اكتملت فى عهده ، ولما كان الأفضل من قبل قد حجر عليه ومنعه من الظلم ، فبعد التخلص منه ، ولى المأمون البطائحى ومما اشترط عليه أن تكون جباية الأموال بالقصر[٤٨٨] ، ولم نسمع أن المأمون قد مارس سياسة المصادرات ، لكن بعد التخلص منه أيضاً ، استطاع الخليفة الآمر أن يمارس سلطاته التعسفية على النحو الذى أسلفناه ، ولما كانت هذه الممارسات زائدة عن الحد ، فبعد مقتله عام ٥٢٤-٥٢٥هـ / ١١٣٠م استطاع أبو على أحمد بن الأفضل بعد توليه الوزارة أن يرد على المصادرين ما أخذ منهم وأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها[٤٨٩] .

---

[٤٨٢] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

[٤٨٣] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١١٤ .

[٤٨٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

[٤٨٥] ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

[٤٨٦] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧١ .

[٤٨٧] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩١

[٤٨٨] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٧ .

[٤٨٩] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٢٩٧

ومع عصر الوزراء العظام ، كان طبيعياً أن نسمع عن جور وعسف هؤلاء ، فابن السلار ، الذى وزر للظافر ٥٤٤هـ/١١٥٠م ، ذكرت عنه المصادر[٤٩٠] : «أنه كان ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة» دون أن تشير صراحة إلى قيامه بالمصادرات ، وإن كان يفهم ضمنياً ممارسته لهذه السياسة ، كما قام الوزير طلائع بن رزيك بمصادرة الكثيرين ، والأمر لم يشمل فقط كبار رجال الدولة ، حتى تصفو له الساحة السياسية ، لكنها تعدت إلى مصادرة الرعية ، حتى أنه أفنى ذوى الآراء والحزم ، وكان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموالهم وصادر أقواماً لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعرض[٤٩١] .

وفى آخر وزارة للفاطميين ، قام صلاح الدين ، الذى وزر للعاضد عام ٥٦٦ هـ / ١١٦٩م بمصادرة جزء من الأرض المزروعة حوالى ثلاثين فداناً ، كانت ملكاً لدير ناهيا بالجيزة ، والتى منحت للرهبان من قبل الخليفة الآمر بشكل دائم[٤٩٢] .

وما قام به هؤلاء الوزراء ربما لا يعبر إلا عن نزعات فردية رغبة منهم فى الاستئثار بالحكم وتعضيد مكانتهم بالأموال ، لكن ما تم طوال العصر الفاطمى ومن البداية يدل على أن الخلفاء قد مارسوا سياسة المصادرات بشكل سافر وكان من المنتظر أن تستمر هذه السياسة حتى أواخر أيامهم .

صفوة القول ، أن الفاطميين انتهجوا سياسة مالية محددة ، كلفت لهم ما أرادوه ، وجوهر هذه السياسة كان قائماً على الاستفادة من خيرات مصر والسيطرة على اقتصادها ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال اتباع سياسة ضريبية محكمة تستهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من أموال المصريين مع القيام ببعض الإجراءات الإصلاحية ، التى من شأنها تحسين هذا الدخل .

فالسياسة المالية أو على الأقل النظام الضريبى ، بدأ مع الخليفة المعز ، الذى قام بإرساء دعائم هذه الدولة ، وتبعه الخلفاء ، الذين أتوا من بعده حتى عصر المستنصر ، الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصرين متمايزين ، حيث اتسمت الفترة الأولى بسياسة اعتمدت على مراقبة الأسواق وتخفيف الضرائب نسبياً وتحسين أوضاع

---

[٤٩٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١٠٣ .

[٤٩١] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٢١ .

[٤٩٢] أبو صالح ، كنائس وأديرة مصر ، ص ص ٧٨ – ٧٩ .

العملة مع اتباع السياسة المالية التى تحقق لهم أهدافهم ، وهذه الإجراءات أدت إلى دفع عجلة الصناعة والتجارة قدماً مما أدى إلى عالمية الانتاج حتى بلغت شهرة بعض المنتجات المصرية الآفاق ، عندما عرفت بـــ "المصرى" أما الفترة الثانية ، اتسمت باتباع الدولة لأسلوب الاحتكار لبعض السلع وفرض المكوس الباهظة ، التى أدت إلى تضييق الخناق على الصناع والتجار فلم يرتفقوا بهم وكانت سياسة المصادرات سواء من قبل الخلفاء أو رجال الدولة الذين نفذوا مشيئتهم قد أضرت بالناس جميعاً .

ثم الهيمنة على بعض الصناعات والموارد . فبينما كان المكوس تشكل عبئاً على الرعية ، عملت الدولة على تنفيذ سياسة شبه احتكارية لبعض الصناعات واحتكارية لبعض الموارد ، كما كانت من خلال المتجر تستطيع أن تسيطر على عجلة الاقتصاد مستفيدة من حالة هبوط الأسعار ، مما يجعل التجار مضطرين إلى بيع بعض السلع للدولة ، خاصة أن دور المتجر مع اليازورى انتقل من الحماية إلى الاحتكار .

ومسألة الاحتكار هذه ، تعتبر من الأمور الشائكة التى لا يمكن أن نحكم عليها بشكل مطلق صحيح أن الفاطميين احتكروا بالفعل بعض الموارد والسلع ، لكن بالنسبة لبعض الصناعات ، كانت هيمنة الدولة قوية ، حتى كان من الصعب القطع فيها برأى . لكن مع وجود المصانع الخاصة قللت من هذه السياسة وأصبحت بذلك شبه احتكارية . وكذلك ارتباط الاحتكار بوضعية العصر الفاطمى ووقوعه خلال منظومة اتسمت بتغير فى الأوضاع أو كما عبر عنها بـــ «الصحوة البرجوازية» ثم ما شهدته فيما بعد من انتكاسة لهذه الصحوة ، فقد تأثر الفاطميون بهذه المعطيات إلى حد كبير ، بل واسهموا فى هذه التغيرات ، فلم يخرج عصرهم عن هذا الإطار من حيث القوة والضعف .

وإن كانت هناك بعض الفترات التى شهدت محاولات للإصلاح مع بدر الجمالى وابنه الأفضل ثم المأمون البطائحى ، لكنها لم تستطع أن تحدث تأثيرات ذات شأن ، بسبب سير الدولة الفاطمية إلى منتهاها ارتباطاً بطبيعة الفترة التى شهدها العالم الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

ومقابل هذه السياسة المالية امتلأت قصورهم بالأموال ، وحسبنا على ذلك تلك الخزائن التى حواها قصر الخلافة ، كما أن المصادر لا تخلو من نصوص صريحة تؤكد هذا الثراء ، فضلاً عن مزاحمة الرعية فى كافة الشئون المتعلقة بالمال . وبذلك اختلفت الصيغة النظرية عن الواقع إلى حد كبير ، واختلف القالب النظرى الذى قدم

للمصريين مع الفتح ومن خلال كتب الدعوة عندما اصطدم بواقع التطبيق العملى ، فلم يتحقق ما وعد به الفاطميون أهل مصر ، لأنه يتعارض مع تحقيق آمالهم التوسعية ولم يكن سوى برنامجاً دعائياً لتحقيق ما هدفوا إليه ، وخالفت بذلك الدولة ما سطرته مع ما مارسته ، فجاءت الصورة فى أحسن الظروف مشوهة لمثالية لم تحدث !! .

المجريون فى منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم على مملكة الفرنجة *

(٨٩٦ ـ ٩٥٥م)

هانئ عبد الهادى البشير

مصر

يعتبر أصل المجريين من الألغاز التى حيرت المؤرخين أمدا طويلا وثار حولها كثير من الجدل ، وكل ما نعرفه عنهم أنهم بداة نشأوا فى جبال الأورال ، وكانت مفردات لغتهم ذات أصل فينو ـ أوجريان Finno-Ugrian . وهى لغة وثيقة الصلة باللغات الموجودة حاليا فى سيبريا Siberia ، ويتحدث بها عدد من الشعوب التى عاشت فى جبال الأورال الشمالية ، مما يدل على أن المجريين كانوا على صلة وثيقة بهذه الشعوب قرب جبال الأورال . ومع أن المجريين عندما وردوا لأول مرة بأحد المصادر البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، كانوا متسمين بخصائص تركية مختلفة وكانت بعض أسمائهم الشخصية والقبلية وألقابهم الشرفية ترجع لأصل تركى ، فضلا عن كون لغتهم غنية بعناصر تركية ، فإنهم لم تربطهم أى صلة قرابة بالشعوب السلافية والتركية المقيمة فى السهوب ، مما يعنى أن أقاربهم الوحيدين من الترك هم الفنلنديون الذين أصبحوا بمرور الوقت بعيدين عنهم من الناحية الجغرافية . لذلك من الضروري عند تحرى التاريخ الباكر للمجريين أن نأخذ فى الاعتبار فقط من الشعوب التركية تلك التى اتصلت بها خلال فترة هجراتهم وكان لها دور فى تكوينهم (١) .

---

* أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من أستاذى الدكتور / وسام عبد العزيز فرج ، والأستاذة الدكتورة / ليلى عبد الجواد إسماعيل ، على تجشمهما عناء قراءة هذا البحث ، وعلى ما أبدوه من ملاحظات قيمة أثرت هذا البحث ، وجزاهما الله خيرا . وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقى فى "سمنار" التاريخ الإسلامى والوسيط ، بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس عام ٢٠٠٢م .

(١) قسطنطين السابع : إدارة ،ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨ ، انظر أيضا :
The Russian Primary Chronicle,p.62 ;Macartney., Magyars,p.1 ; Moravcsik., Hungary,p.566 ; Fliche., Histoire,p.17.
تعتبر كلمة أونجر Ουγγροι " أى السهام العشرة أو القبائل العشرة " من أكثر الصيغ العرقية التى وردت فى المصادر البيزنطية عن المجريين ، واشتقت منها أسماء متنوعة موجودة حتى يومنا هذا بين شعوب أوربا ، منها فنجرى Vengri باللغة الروسية ، وأونجارن Ungarn بالألمانية ،ومجريون

كانـــت المـــنطقة الممتدة من حدود الأورال حتى القوقاز جنوبا ومنها غربا حتى جـبال الكربات هى المنطقة التى جرت فيها هذه الهجرات ؛ ذلك أنه فى تاريخ مجهول مـــن القرون الأولى للتقويم المسيحى طردت هذه القبيلة البدوية من موطنها السابق فى جـبال الأورال وهاجــرت جـــنوبا عبر السهوب وانتهى الأمر باستقرارها فى الإقليم الواقع بين نهرى الدون وكوبان وبالتالى جاورا الخزر (١) . ثم أصبحوا بمرور الوقت

Hungarians بالإنجلـــيزية ، ومجـــرى Hongrois بالفرنســـية وأونجـــرس Ungheresi بالإيطالية وهكـــذا... فـــى حين أن لفظ مجرىMagyar هو الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم منذ زمن سحيق ، ولعلهـــا تكـــون مشتقة من اسم طائفة مجريزMegeris إحدى طوائف الكاباروى Kabaroi الثلاث . ولكن متى سماهم البيزنطيون بالترك؟ فى حدود معلوماتنا، أطلق البيزنطيون عليهم هذا الاسم بدلا من اسم أونجر ، بدءا من القرن العاشر الميلادى (مثلما ورد لدى قسطنطين السابع)؛ذلك أن البيزنطيين أطلقوا اسم الترك على خمسة أمم هم،الأتراك الخلص(مؤسسى إمبراطورية الترك العظمى فى القرن الخامس الميلادى) ، والتوكيو Tu-kiue ، والسلاجقة ، والأتراك العثمانيين ، إضافة إلى المجريين ، الذين حملوا هذا الاسم بعد التحالف الذى جرى بينهم وبين قبيلة الكابار Kabars أو الكافار Kavars (من سلالة الخزر) التركية . انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص١٤٣ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨، انظر أيضا :

Macartney ., Magyars , pp. 124-125 ; Lewiciki., Hongrois,p.49; Vernadsky.,Lebedia ,p.185 ;Bury., Eastern,p.492; Moravcsik,Hungary .,p.566.

أما عن الأسماء التى ورد بها المجريون فى المصادر العربية فمنها المجغرية ، والماجار ، والباشقرد ، والترك ، والهنكر ، وغيرها ، انظر :

الكرديزى : الأخبار، ص ٤٦٩-٤٧١ ؛ الأصطخرى : مسالك ، ص ١٣١ ؛ ليلى عبد الجواد : بلاد المجر ، ص ٣٩-٤٤ ، انظر أيضا :

Kaldy- Nagy., Madjar,pp.1010-1014: Bury., Eastern,p.492.

لمزيد من التفاصيل حول كلمة ترك ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.124-134 .

(١) Moravcsik., Hungary,p.566.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧ .

أخـــذ الخـــزر أسمهم من خزر بن يافث بن نوح عليه السلام ، وهم شعب تركى الأصل ينتمى إلى طـــراز قـــبلى أو شبه قبلى غير سامى نزح من أواسط آسيا إلى ما يسمى فيما بعد بخزريا أو أقلـــيم الخـــزر بيـــن المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز حول بحر آزوف وغربـــا

مـــن رعايـــاهم . وتعتـــبر علاقـــة المجريين بالخزر من الأمور الصعبة التى زاد من تعقــيدها أن المصادر لم تحدد تاريخاً معيناً لهجرة المجريين عبر الدون أو تحالفهم مع الخــزر . لذلك بذل المحدثون جهودا مضنية لكشف الغموض ، أسفرت عن أن هجرة المجرييــن إلـــى المـــنطقة الأخيرة كانت بين عامى ٨٢٥ ــ ٨٣٠م . أما تحالفهم مع الخــزر فكـــان فـــى وقـــت ما بين عامى ٨٤٠ ــ ٨٦٠م ([1]) . أيضا اعترض بعض الباحثيـــن على مدة السنوات الثلاث التى ذكر قسطنطين السابع أنها الفترة التى قضاها المجـــريون فى التبعية للخزر ، وخلص إلى أن النص ربما حرف من ثلاثمائة سنة إلى ثلاث سنوات ، ولو صح هذا الافتراض لوجب إعادة النظر فى الدور الذى لعبه هؤلاء المجريين فى الناحيتين السياسية والاجتماعية فى جنوب روسيا ([2]) .

علـــى أى حـــال ، يـــبدو أن انهماك الخزر والمجريين فى الصراع مع جيرانهم حال دون نشوب خلافات بينهم ([3]) . وبلغ الوفاق بين الجانبين أن قام المجريون بجمع

حـــتى أطـــراف أوربا الشرقية وسواحل البحر الأسود. وما يزال أمر الخزر صعبا بالنسبة للمؤرخين لصعوبة التعامل مع مصادر تاريخهم لكونها مكتوبة بلغات مختلفة يصعب الإلمام بها، انظر :

محمد مرسى الشيخ : الخزر ، ص ٣٤٩-٣٥٣ ؛ بطرس البستانى : دائرة ، ج ٧ ص ٣٧١ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ٢٧ حاشية رقم ١ ، انظر أيضا :

ODB,2,p.1127.

([1]) Macartney., Magyars,pp.108-112.

انظر أيضا :كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧.

رغم الغموض والاقتضاب الذى يغلب على معلومات قسطنطين السابع – أحد أهم المصادر بالنسبة للمجريين فى تلك الفترة – بشأن المجريين، فإن أمة المجريين تعتبر من أكثر الأمم التى أولاها بكثير من التفاصيل إذا ما قارناها بغيرها من الأمم التى تناول تاريخها المبكر ، انظر :

DAI,II,p.146.

([2]) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٠ ، انظر أيضا :

DAI,II,p.148 ; Vernadsky., Lebedia,p.180 ;Gregoire., Origine,636.

([3]) ينقسم البلغار إلى قسمين : الفولجا والدانوب ، عرف بلغار الفولجا أيضا بالبيض واعتنقوا الإسلام فى عام ٩٢٢م وأصبحت مملكتهم منذ القرن العاشر الميلادى مركزا هاما من المراكز الإسلامية فى المنطقة الشمالية ، أما بلغار الدانوب فهناك صعوبة كبيرة فى معرفة أصلهم ، والأرجح أنهم آسيويون ينـــتمون إلى أحد فروع الهون من السلالة التركية . ورغم ذلك لم يفطن المسعودى لهذا الانقسام بين

الإتاوة المفروضة على الشعوب السلافية القاطنة إلى الشمال من إقليم السهوب وغيرها نيابة عن الخزر وحققوا مكاسب كبيرة من وراء ذلك ([1]) .

غـير أنه فى حوالى عام ٨٣٠ م وبعد زحف الروس ([2]) نحو الجنوب والجنوب الشـرقى ، قام الخزر بتوطين المجريين فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدون والدنيبر

الـبلغار وخلط وقائع هذه بوقائع تلك . وبالنسبة للبشناق فهناك أيضا اختلافات كثيرة حول أصلهم ، والأرجـح هو أنهم من الشعوب التركية المنتمية إلى قبائل الغز ، التى كانت تقطن التركستان (بلاد= =الـترك) ، وانتهى بهم المطاف فى هجرتهم إلى الاستقرار فى منطقة ليبيديا Lebedia عام٨٩٣ م ، وقد أوضح قسطنطين السابع لابنه رومانوس وهو يعظه مدى كثرة عددهم وقوة بأسهم . لمزيد من التفاصيل ، انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص٥٦-٥٧ ؛ المسعودى : مروج ، ج١ ص ١٥٤ ؛ الرمزى : الأخبار ، ج١ ص ٢٨٢-٢٨٣ ؛ ذكـى محمد حسن : الرحالة ، ص ٢٦؛ هانئ البشير: بيزنطة، ص ٢٠، ٢٧ حاشية رقم ١ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٤٤ ،انظر أيضا :

Hudud Al- Alam,p.443.

([1]) Toynbee., Constantine,pp.418,454.

كيستلر : القبيلة، ص ٩٨.

([2]) الروس شعب من الشعوب الشمالية التى نزحت من شبه جزيرة سكنديناوة متجهة نحو البلاد التى تعرف اليوم باسم روسيا وروسيا الاتحادية وروسيا البيضاء . وقد ظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى فى الغرب الأوربى فى حوليات بريتنيانى Bertiniani إبان حديثها عن السفارة التى أرسلها الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ــ٨٤٢م) إلى الملك الفرنجى لويس التقى Louis the Pious (٨١٣-٨٤٠م) إبـان العقد الرابع من القرن التاسع الميلادى يطلب منه المساعدة ضد المسلمين . أما المصادر الإسلامية فجاءت أول إشارة عنهم لدى اليعقوبى أبان حديثه عن بلاد الأندلس ووصفه لمدنها ، انظر:

DAI ,II,p.22.

اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٤ ؛ طارق منصور : الروس ، ص٢ ؛ ليلى عبد الجواد : الروس، ص٦ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ١٧٢ حاشية رقم ٢ .

يذكـر ماركتنى نقلاً عن حوليات بريتنياتى أن هناك سفارة روسية وصلت إلى مدينة القسطنطينية فى عام ٨٣٩ م ، وعند عودتها طلبت السماح لها بالمرور عبر ألمانيا خشية من الوقوع فى أيدى البرابرة المتوحشين (المقصود المجريين) . أنظر :

Macartney,Magyars,p.67 .

وعرفــت باسم ليبيديا Λεβεδια لصد الخطر الروسى . ونجح المجريون فى مواجهة الزحف الروسى ، مما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم وبين الخزر الذين انخرطت أعداد غفيرة منهم بين المجريين (١) .

لــم يستمر هذا الوفاق طويلا ؛ ذلك أن المصادر تخبرنا ـــ دون ذكر أسباب ـــ أن خاقان الخزر أرسل سفارة إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢م) بــناء قلعة ساركل (تعنى كلمة ساركل فى لغتهم البيت الأبيض) – بالقرب من مصــب نهر الدانوب – لمواجهة غارات أمة قريبة (٢) . رأى البعض أن المقصود هم البشــناق ، لكن البشناق كانوا ما يزالون يعيشون بعيداً عن الدون (٣) ، فى حين رأى الــبعض الآخــر أن المقصــود هم الروس . غير أن أغلب الآراء ترجح أن بناء قلعة ســاركل كــان بهدف مواجهة غارات المجريين (٤) . وفى كل الأحوال لم تمض فترة

---

(١) DAI ,II,p148;Toynbee.,Constantine,p.454.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨-٩٩.

رغــم أن اسم ليبيديا يبدو أنه يونانى الشكل شأنه شأن غيره من الأسماء ـــ كآلانيا Αλανια وتركيا Τουρκια وخزريا Χαζαρια وغيرها ـــ فالأرجح أن المجريين هم الذين أطلقوه على الإقليم الذى أقــاموا فيه بين نهرى الدون والدنيبر . وقد استقوا هذا الاسم من اسم زعيمهم ليبيداس تقديرا لمكانته ومنزلته الرفيعة بوصفه أول زعيم لهم . لمزيد من التفاصيل انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٣٩ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص٩٨-٩٩ ،انظر أيضا :

DAI,II,p.147.

لمزيد من التفاصيل حول أصل هذا الاسم ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.90-94.

لمعرفة موقع ليبيديا ، انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٧ – ١٤٨ ،انظر أيضاً :

Theophanes Cont,p.122 ;Cedrenus,Historiarum.II ,p.528;Macartney, Magyars,p.74; Obolensky., Crimea ,p.128.

(٣) DAI,IIp.155;Theophanes Cont,p.122. Cedrenus, Historiarum ,II,p.528 .

(٤) DAI,IIp.155;Bury., Eastern,p.417 ;Macartney., Magyars,p.74;Obolensky., Crimea .,p.128.

ذكر كدرينوس قلعة ساركل باسم قلعة ماركل Markel . انظر:

Cedrenus., Historiarum,II,p.528.

طويلـــة حتى وجد المجريون أنفسهم ــ تحت ضغط البشناق ــ مضطرين إلى الرحيل عــن الســهوب الأوراســية ، وانقسموا إلى قسمين : الأول ذهب ليعيش فى القوقاز ، والــثانى تحــرك باتجاه الغرب وأقام عند مصب نهر الدون . غير أن البشناق أغاروا علــى الأخيرين في عام ٨٨٨/٨٨٩م ودفعوا بهم غربا إلى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيــبر وسرت التى أطلقوا عليها اسم أتل-كوز Etel-Koz " أرض ما بين النهرين " واستقروا بها ([1]) .

لا تــزال ظــروف هجرة المجريين على النحو السابق موضع جدل ، حــاول بعــض الباحثيــن أن يثبــت عن طريق التخمين أن اسم أتل-كوز وليبيديا كانا اسمين لمــنطقة واحــدة . لكــن يصعب ــ من وجهة نظر الباحث ــ التسليم بذلك لأن جعل المنطقتيــن مــنطقة واحدة لا يتفق وسير الأحداث من ناحية ، إضافة إلى ما استنتجه بعــض المحدثين من أن أتل-كوز ، كانت تقع إلى الغرب من ليبيديا ويفهم ذلك ضمنا مــن عــدد الأنهــار الــتى مــروا بها داخل أتل-كوز وكذلك ترتيبها ؛ ذلك أن اتجاه المجريين خلال مرورهم كان من الشرق إلى الغرب ، من ناحية أخرى ([2]).

كــيفما كــان الأمر ، لم تكن منطقة أتل-كوز هى المقر الأخير للمجريين ؛ ذلك أن الظــروف السياسية المحيطة بهم دفعتهم لتركها بعد فترة قصيرة . ففى عام ٨٩٤-

---

([1]) قسطنطين السابع : أدارة ن ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ١٠١-١٠٢، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.108.

([2]) DAI,II,p.148 ; Macartney,Magyars,pp.90-96; Vernadsky., Lebedia,p.186.
انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ١٠٢؛ المتولى تميم : البشناق ، ص٦٥.
ذكــر قســطنطين السابع الأنهار الموجودة داخل أتل-كوز وهى ــ من الشرق إلى الغرب ــ باروخ Βαρουχ (الدنيــبر) ، كوفــو Κουβου (بــوج Βυγ) ، ترولوس Τρουλλοσ (الدنيستر) ، بــروتوس Βρουτοσ (بــرت Πρυτ) ، سيرتوس Σερετοσ (سرت Σερετ) . ورغم ذلك فسرها البعض على أنها تتطابق مع منطقة ليبيديا . انظر :
قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٢ ، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.82; Vernadsky., Lebedia,p.186.
لمزيد من التفاصيل عن جغرافية ليبيديا وأتل -كوز ، انظر :
المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٢-٦٥.

٨٩٥م ، وفـــى غمـــرة صراع بيزنطة مع جيرانها المسلمين فى الشرق، والبلغار في الشـــمال ، أرســـل الإمـــبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ ـــ ٩١٢م) سفارة بقيادة المدعـــو نيقـــتاس ســـكليروس Niketas Skleros ومعه العطايا الجزيلة كي يحرض المجرييـــن علـــى مهاجمة البلغار من ناحية الشمال . ولم يجد المبعوث الإمبراطورى صـــعوبة فـــى إقـــناع المجرييـــن بالقـــيام بهذه المهمة . وبناء على ذلك قام الأسطول البـــيزنطى بـــنقل المجريين إلى شمال بلغاريا حيث أوقعوا بها خسائر فادحة وواصلوا الـــزحف حـــتى العاصـــمة بريســـلاف ، ولـــم يـــتركوا بلغاريا إلا بعد أن طلب منهم الإمبراطور ليو السادس ذلك إثر توصله إلى اتفاق مع العاهل البلغارى سيميون (٨٩٣ ـــ٩٢٧م) . ولكـــى ينـــتقم الأخـــير منهم ، تحالف مع البشناق ضدهم ، وانتهز فرصة خـــروجهم فى عام ٨٩٦م فى إحدى الحملات وهاجم هو والبشناق بلادهم وطردوا من كـــانوا يقومون بأعمال الحراسة وقضوا على الكثيرين من عائلاتهم . وبمجرد أن عاد المجـــريون مـــن حملتهم ورأوا ما حل ببلادهم من دمار هجروها واتجهوا نحو الغرب والشمال الغربى بقيادة زعيمهم أرباد Arpad ، فاجتاز بعضهم ممرات جبال الكربات ، والتف بعضهم الآخر حول هذه الجبال وعبر من خلال البوابة الحديدية Iron Gate وأقاموا فى سهل بانونيا (١)بين نهرى تيزا Tizza والدانوب الأوسط (٢) (ضمن دولة

---

(١)بانونيا : منطقة على نهر الدانوب يقع معظمها اليوم فى هنغارية (المجر) ، انظر :
اينهارد : سيرة ، ص ٩٠ حاشية رقم ١ .

(٢)ينبع نهر تيزا من جبال الكربات ويجرى من الشمال إلى الجنوب موازيا تقريبا للدانوب ، وهو يصرف مياه الجزء الشرقى للسهل الكبير . ويتميز مجراه بكثرة المنعطفات ، ويكتنفه الكثير من البحيرات المتقطعة . انظر :
جودة حسنين جودة وآخرون : الجغرافيا ، ص٤١٣ ، وانظر الخريطة أيضا .
أمـــا نهـــر الدانوب ، فهو ثانى أطول نهر فى أوربا ينبع من الغابة السوداء فى ألمانيا ويجرى عبر ثمانـــية بـــلاد (مـــن بينها المجر وهو النهر الرئيس بها حيث يبلغ طوله بها زهاء ٤١٠كم ويجرى بأرضها باتجاه غربى شرقى) ويصب فى البحر الأسود . طول نهر الدانوب نحو ٢٨١٦كم ، وينقسم إلى ثلاثة أجزاء شبه متساوية : الأعلى (أسفل فيينا Viena) والأوسط (أسفل البوابة الحديدية، قرب أورسوفا Orsova رومانيا) والألسنة الجنوبية . وتصب بنهر الدانوب مجموعة من الأنهار مثل درافا=

المجر اليوم فى وسط أوربا) بين السكان هناك من السلوفينيين Slovenes والموراف (١) . وهـنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، لماذا اتجه المجريون نحو بانونيا ؟ يؤيد الباحث مـا ذهـب إليه المؤرخ المجرى مورافسك Moravcsik ، من أن فتحهم هذه المنطقة جـاء نتيجة غير مباشرة للسياسة البيزنطية (٢) ؛ ذلك أن القيصر البلغارى سيميون كـان قد تعلم الدرس من بيزنطة وهو تحريض قوة ضد أخرى ، وطبقه مع المجريين ونجـح فـى ذلـك . ولكنه دفع هو الآخر ثمن تصرفه هذا ـ فيما بعد ـ فاستقرارهم

=Drava وساڤا Sava وموراڤا Morava ؛ ذلك أن الأنهار فى شمال البلقان تجرى إما تجاه الشرق أو الشـمال الشرقى أو تجرى مباشرة لتصب فى نهر الدانوب . ويعتبر نهر الدانوب أعظم الأنهار أهمـية فـى وسـط وشرق أوربا ، وكان أوسطه مسرحا للصراع بين بيزنطة ومملكة الفرنجة نحو منتصف القرن التاسع الميلادى بغية السيطرة على السلاف القاطنين هناك . انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٧، حاشية رقم ٣ ؛ وسام فرج : قراءة ، ص ١٥١ ؛ جودة حسنين جودة ، وآخرون : الجغرافيا ، ص ٤١٣، انظر أيضا :

ODB,I,p.586.

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٣ ؛ هانئ البشير : بيزنطة، ص ١٢٩-١٣١؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٠-٦١، انظر أيضا :

DAI.,II,p.146 ; Symeon Magister .,p.702; Theophanes Cont.,p.359; Georgius Mon Cont., pp.854-855; Stephenson., Hungary,p.106; Fliche., Histoire,p.17 ; Oman., Ages,p.471; Obolensky., Commonwealth,pp106,154; Vasiliev., Empire,p.316.

تجـدر الإشارة إلى أن مسألة التحالف بين البلغار والبشناق ضد المجريين انفرد بها قسطنين السابع وحده، انظر :

DAI.,II,p.151.

ذكـر المؤرخ المجرى سيمون الكيزى أن المجريين حينما عبروا ممرات جبال الكربات كان عددهم نحو سبعة قبائل ، استقرت كل قبيلة فى المنطقة التى تراءت لها بالسهل البانونى . وكانـت أول قبيلة مـنهم بـزعامة أرباد بن ألموس Almos ابن إلود Elod ابن وجيك Ugyek ، لذا استـولت على أفضل منطقة من حيث الموقع والثروة (التى أقيمت عليها فيما بعد مدينة Sz ekesfehervar. وتمتع أرباد شأن أفراد عائلته من قبل بأعلى مكانة بين القبائل المجرية وكانت له القوامة عليهم ، انظر:

Simonis of Keza., Hungarorum,p.81-83.

لمزيد من المعلومات حول باقى القبائل المجرية السبع وأماكن استقرارها ، انظر :

Simonis of Keza., Hungarorum,pp.83-85 .

(٢) Moravcsik.,Hungary,,p.569.

وتوســعهم ناحــية الشــرق ، أدى إلى تحكمهم فى مصادر إنتاج الملح فى ترانسلفانيا Transylvania فكانــت خســارة بلغاريــا فادحــة ، وجعلت سيميون يعيد النظر فى حســاباته ولكن بعد فوات الأوان ([1]) .أيضا ربما كانت معرفتهم السابقة لبانونيا — لأنهــا لــم تكن المرة الأولى التى يزورنها ، فقد مروا بها أكثر من مرة أبان حملاتهم ناحــية الغــرب ([2]) — ، سببا رئيسا لاختيارها ؛ لما تتمتع به من تربة خصبة ومناخ يلائــم الإقامــة والاســتقرار ([3]) . أيضــا لا نستبعد دورا لعبته الدبلوماسية البيزنطية لتوجــيه المجريين نحو بانونيا ، فبعد نجاح التحالف معهم ضد بلغاريا — العدو اللدود فــى تلــك الفــترة — رأت أنهم من الممكن أن يلعبوا نفس الدور مرة أخرى ليس ضد بلغاريــا فحسب ، بل ضد مملكة الفرنجة التى — أيضا — كانت تنافس بيزنطة السيادة على سلاف الدانوب الأوسط ، ولتحقيق ذلك لم يكن هناك — من الناحية الجغرافية — أفضل من بانونيا .

ســاعدت الأوضاع التى كانت تمر بها كل من مملكة مورافيا العظمى ومملكة الفرنجة ، على استقرار المجريين فى وطنهم الجديد ونجاحهم فى تأسيس دولتهم الفتية فــى العصــور الوسطى ؛ ذلك أن إمبراطورية مورافيا العظمى ، التى سبق أن بلغت شــأوا عظــيما علــى عهــد عاهلها راستيسلاف Rastislav (٨٤٦-٨٦٩م) وامتدت حدودهــا لتشمل ما يعرف اليوم بالنمسا والمجر وتشكوسلوفاكيا ، قد أخذت تعانى من بعض المشاكل الداخلية بعد وفاة حاكمها سفاتوبلك Svatoblk (٨٧٠-٨٩٤م) ، فبعد حوالــى عام من وفاته نشبت خلافات على العرش بين أبنائه ، ولم يتمكن الابن الأكبر موجمــير الثانى Mogmir II — الذى خلف والده على العرش — من تحقيق الوئام مع

---

(1) Stephenson., Hungary,pp.107-108.

(2) لمعرفة بعض المرات التى اجتازوا فيها بانونيا من قبل على سبيل المثال ، راجع :
Simonis de Keza., Hungarorum,pp.75-77.

(3) لمعرفة جغرافية بانونيا راجع :
جودة حسنين جودة : الجغرافيا ، ص ٤١١-٤٢٥.

إخوته ، مما دفع أخوه الأصغر سفاتوبلك الثانى إلى طلب مساعدة جيرانه الفرنجة عام ٨٩٨م ضده ([1]) .

فـــى غضـــون ذلك كانت مملكة الفرنجة الكارولنجيين تمر هى الأخرى بمرحلة حرجة من تاريخها ، منذ تقسيمها عام ٨٤٣م بين أحفاد شارلمان بموجب اتفاقية فردان الشـــهيرة ، الـــتى مزقـــت وحدة الإمبراطورية الكارولنجية وحملت فى طياتها ملامح بعـــض الـــدول الحديثة ([2]). ثم جاءت وفاة شارل السمين عام ٨٨٨م لتقضى وبصورة نهائـــية على أى محاولة لإعادة الوحدة الكارولنجية ، لتنشأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجـــية بعـــد ذلك الدول الثلاث ألمانيا (الشق الشرقى من مملكة الفرنجة)وفرنسا (الشق الغربى) وإيطاليا ([3]) .

حيـــنما طلـــب ســـفاتوبلك الثانى مساعدة الفرنجة كان حاكمهم هو الإمبراطور أرنولـــف Arnulf (٨٨٧-٨٩٩م) ـ الملـــك السابق لبافاريا Bavaria ـ ، الذى كان يمقـــت المورافييـــن ، لمـــا ســـبق أن فعله إمبراطورهم سفاتوبلك ، حين استغل ما ألم بالســـلطة الملكـــية فى الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة ـ ألمانيا ـ وضم إلى بلاده جـــزءا مـــن بانونـــيا الفرنجية ، فضلا عن انقلابه فى أخريات أيامه ضد رجال الدين

([1]) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٦، انظر أيضا :
Dvornik., Les Slaves, p.97; Fliche.,Histoire,pp.17-18.
عن أصل كلمة مورافيا ، ومتى سميت بمورافيا العظمى ، انظر :
هانئ البشير : مورافيا ، ص ٦٠٦، حاشية رقم ١ .

([2])قســـمت مملكـــة الفرنجة بموجب اتفاقية فردان إلى ثلاثة أقسام : قسم شرقى يحكمه الألمـــانى لويس ويشمل الأراضى التى كونت ألمانيا فيما بعد ، وأهم مقاطعاته (بافاريا ـ سوابيا ـ سكسونيا) ، قســـم غربى يحكمه شارل الأصلع ـ الابن الثانى للويس التقى ـ وشمل الأراضى التى كونت فرنسا فيما بعد وأهم مقاطعاته (نستريا،وأقطانيا) وقسم ثالث يقع بين القسمين الشـــــرقى والغربى ويشمل حوض الراين وإيطاليا ، وكان من نصيب لوثر الابن للويس التقى ، انظر :
محمد الشيخ : الفرنجة ، ص٢٦.

([3]) Mckitterick., Frankish,p.176.
انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٦-٢٧ ؛ هلستر : أوربا ، ص ١٢٦.

الفـــرنجة فى بلاده ، وقيامه بطرد كبيرهم وشنج Wiching ــ أسقف نيترا ــ متذرعا بأن مآربه أصبحت سياسية أكثر منها دينية . ولعل هذا ما جعل أرنولف يوجه حملتين ضـــد مورافيا فى عامى ٨٩٢، ٨٩٣م ، ثم جاء موجمير الثانى ليؤجج هذه العداوة ــ رغــم حرصـــه هــو وأخــوه سفاتوبلك الثانى منذ البداية على عقد صلح مع أرنولف وأوشــكا علـــى تحقــيقه ــ حينما شرع هو الآخر فى إعادة تنظيم الكنيسة المورافية ، وطلـــب مـــن بابا روما ــ كخطوة على طريق الاستقلال الدينى ــ أن يعين له رئيس أســـاقفة ومجموعـــة من رجال الدين ليمارسوا مهمة التبشير بين أفراد شعبه ، وبالفعل وافــق الـــبابا حـــنا التاســـع Jean IX (٨٩٨-٩٠٠م) ورسم لمورافيا رئيس أساقفة ومجموعـــة مـــن رجـــال الدين ، مما أدى إلى تراجع نشاط من تبقى من رجال الدين الفـــرنجة فـــى بلاده (١) . ولكل هذا رأى أرنولف أن الفرصة أصبحت سانحة لتفتيت مورافـــيا وإضـــعافها . وبـــناء علـــى أوامـــره قام اثنان من الـــMargraves (الحكام العســـكريين للأقالـــيم) وهمـــا ليتوبولد Luitpold وأريبون Aribon على رأس جيش بالتوغل فى مورافيا دون أن ينجحا فى إنقاذ سفاتوبلك الثانى من قبضة أخيه الذى ألقى بـــه فى السجن ، ولم يخرج سفاتوبلك الثانى من سجنه إلا فى عام ٨٩٩م حينما تمكن الـــبافاريون مـــن اقتحام القصر الذى سجن به وأخرجوه منه . وكان خطأ أرنولف أنه أســـاء التصـــرف تجـــاه مورافيا بسعيه باستغلال الحرب الأهلية لإضعافها ، وبتأجيره بعـــض المرتزقة المجريين ليحاربوا إلى جوار جيشه داخل مورافيا ؛ ذلك أنه بتصرفه هـــذا دل المجرييـــن على طبيعة الطرق المؤدية إلى بلاده وأوقفهم على الضعف الذى كانت تمر به مورافيا ، صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التى يذهبون فيها إلى مورافيا

---

(١) Dvornik.,Les Slaves,pp.93,97; Vlasto.,Christendom,p.83; Fliche., Histoire, pp.16,note,no.7,17.

كانـــت دوقية بافاريا أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة فى وادى الدانوب، ما بين نهر إن Inn ونهر لخ Lech . وكان لها تنظيمها الكنسى المستقل وترانيمها الخاصة . وقد خضعت بافاريا لحكـــم الفـــرنجة منذ عهد بيبن القصير واعترف دوقها تاسيلو (٧٤٨-٧٨٨م) ببين القصير سيدا له . وباءت كل محاولات تاسيلو للتخلص من هذه التبعية بالفشل . انظر :

إينهارد : سيرة ، ص ٨٣ حاشية رقم ١

، فسبق أن قاتلوا إلى جوار المورافيين ضد الفرنجة (الشرقيين) عامى ٨٦٢، ٨٨١ م ([1]) ، ولكنها كانت المرة الأولى التى يزور فيها هؤلاء مملكة الفرنجة . ويعد أرنولف بذلك المسئول الأول عن توجيه المجريين نحو مورافيا وفتح الطريق أمامهم نحو بلاده فيما بعد ، وكانت عواقب ذلك وخيمة إذ دفع خلفائه من بعده الثمن غاليا([2]). فهؤلاء المجريون الذين حلوا مؤخرا بسهل الدانوب الأوسط ، وكانوا مجبولين على التنقل والترحال ، كانت حرفتهم الأساسية صيد الأسماك والحيوانات . كما كان اعتمادهم الأساسى فى كسب قوتهم على غنائم انتصاراتهم . لذلك ، رغم خصوبة التربة وملائمة المناخ بمنطقة الدانوب الأوسط ، لم يعملوا بالزراعة وآثروا الاكتفاء بتربية الخيل اللازمة لممارسة هوايتهم المفضلة من السلب والنهب ، خاصة وأنهم كانوا يتمتعون بمهارة منقطعة النظير فى الرماية والفروسية ، واشتهروا بأنهم لا يقهرون بفضل صرخاتهم المدوية ([3]) وقسوتهم الشديدة . وبعد أن لفت العاهل الألمانى نظرهم نحو بلاده ، وجدوا فى ألمانيا وإيطاليا وأحيانا فرنسا حقلا خصبا لشن الحملات المدمرة ([4]).

كان بقاء أرنولف على قيد الحياة وقيامه على مقربة منهم بتطهير بعض سهول الدانوب من السلاف ، سبباً فى تخليهم لبعض الوقت عن ألمانيا ، والاتجاه نحو إيطاليا التى عانت عقب وفاة إمبراطورها لامبرت الثالث Lambert (٨٩١-٨٩٨م) الأمرين

([1]) Stephenson., Hungary,pp.105-106;Bakay., Hungary,p536.

([2]) Fliche.,Histoire,pp.17-18 ;Oman.,Ages,p.471.Bloch., Society,vol.1,p.9 ;Davis., Europe ,p.168.

ما يزال تاريخ مجئ المجريين إلى مورافيا بعد وفاة سفاتوبلك ، موضع نقاش بين الدارسين ، ولا يوجد رأى قاطع بشأنه ، انظر :

DAI,II,p.153.

([3]) تذكر سيرة قسطنطين أنه مر- وهو فى طريقه إلى بلاد الخزر على رأس بعثة تبشيرية- عام ٨٦١م ببعض المجريين وسمع لهم عواء مثل الذئاب ، ولما رأوه أرادوا أن يقتلوه ، لولا أن سمعوه يرتل بعض الترانيم الدينية فتركوه . انظر :

Vita Constantini .,p.45 ; Nikolov., Magyar,p.86.

([4]) Fliche.,Histoire,pp.17-18;Thompson.,History,p.166;Bloch., Socity,vol.1,p.9;Lane Poole.,Germany,p.182.

مـن جراء التهديد الألمانى من الخارج والاضطرابات الشديدة ـ بسبب الصراع على الحكم ـ فى الداخل ([1]) .

وظهـر المجـريون لأول مـرة فى إيطاليا عام ٨٩٩ - ٩٠٠م ، وذلك عندما أغـاروا مـن مستوطناتهم على نهر الثيس - وربما بتحريض من أرنولف أيضاً نكاية فـى عـدوه العاهل الإيطالى الجديد برنجار Berengar - على فنيتو Veneto الحالية وأوقعـوا بهـا ضرراً بالغاً ثم انسحبوا إلى ديارهم . ثم استأنفوا الكرة مرة أخرى فى العـام الـتالى بعـد أن حشدوا عددا ضخما شق طريقه من أكوليا Aquileia وفيرونا Verona حـتى بافـيا Pavia ، وقاموا بنهب سهول الشمال الإيطالى . وحينئذ حاول الإمبراطور الجديد برنجار ـ الذى شجع هو الآخر المجريين فيما بعد على الاستيلاء علـى مـا تبقى من بانونيا رداً على تحريض أرنولف ـ أن يكون على قدر المسئولية ويواجـه هـذا الخطـر ([2]) فأرسـل الرسائل والرسل لسكان إيطاليا من التوسكانيين والفولیشـيان Volscians و السـبوليتو Spoleto يأمرهم أن يتحدوا معا فى مواجهة هـؤلاء الأعداء . فتجمع جيشا قوامه نحو ١٥ ألف جندى . ولما رأى المجريون ذلك انـتابهم الرعـب وبعـد تردد قصير بدا لهم أن الفرار أفضل من القتال ، وأخذوا فى عـبور نهر آدا Adda ، فغرقت منهم أعداد كبيرة أثناء عبور النهر ، ولذلك أرسلوا يعرضون على برنجار تسليمه كل ما بحوزتهم من غنائم مقابل السماح لهم بالعودة إلى أوطـانهم آمنيـن . ولكـن رفض برنجار عرضهم باستهزاء ، وبدأ أتباعه ـ وكأنهم واثقيـن مـن النصـر ـ يبحـثون عـن السلاسل التى يقيدون بها من سيأسرونه من المجريين ([3]) .

ولمـا لـم يجد المجريون بدا من القتال بدأوا فى تنفيذ خطة ماكرة ؛ بأن أخذوا يـتقهقرون حتى وصلوا السهول الواسعة المحيطة بفيرونا وهناك جرت مناوشات بين

([1]) Previte-Orton., Italy,p.148.

([2]) Stephenson.,Hungary,p.107;Previte-Orton., Italy,p.148; Oman ., Ages,p.465.
انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥ ؛ نعيم فرح : أوربا ، ص ١١٢-١١٣.

([3]) Liutprand of Cremona,pp. 75-76 ; Previte- Orton., Italy,p.148.

الجانبيــن كانــت الغلبة فيها للمجريين ، الذين أخذوا يستأنفون مسيرتهم التقهقرية مرة أخرى بمجرد أن علموا أن هناك تعزيزات عسكرية فى الطريق إلى أعدائهم ، وانتهى الأمــر بوصول الجانبين إلى نهر برنتا Brenta . غير أن المجريين أصبحوا منهكين مــن كثرة التنقل وأثر ذلك فى معنوياتهم ، وفكروا فى أن يتخلى كل منهم عما بحوزته مــن أســلاب وأسرى ويحتفظ فقط بحصان واحد ينجو به . وزيادة فى الأمان أرسلوا إلــى برنجار وأتباعه يتعهدون لهم بعدم مهاجمة أراضيهم مرة أخرى إذا سمحوا لهم بالرحــيل دون أذى ، ولتأكيد عهدهم سيسلمونهم أبناءهم رهائن لديهم ، ولكن كان ذلك دون جــدوى حيــث قوبلت كل عروضهم بالرفض مرة أخرى (١) . ولما انقطعت بهم كــل الســبل أقــبل بعضهم على بعض وبدأ الشجعان منهم يهدءون من روع الخائفين ويسدونهم النصائح الحماسية " لماذا نخاف من الاندفاع نحو سيوف أعدائنا ؟ أليس من الأفضــل أن نسلم أمرنا إلى قدرنا لا إلى جبننا ؟ لا تظنوا أن الرجال الذين يقتلون فى أرض المعركة أمواتا بل أحياء ! يجب أن نكون على ثقة بأنفسنا وبخبرتنا فكم من مرة انتصــرت فــئة قليلة منا على فئة أكثر عددا وعدة !". وأعدوا على إثر هذه النصائح كمينا للأعداء ؛ بأن عبروا النهر متجهين مباشرة صوب وسط صفوفهم وفى وقت كان جــنود برنجار قد نزلوا عن خيولهم ليتناولوا الطعام بعدما أضناهم طول انتظار دخول المعــركة . فــانقض المجريون عليهم يحصدون رقابهم بسيوفهم المستلة ، وتعقبوا من لاذ مــنهم بالفــرار دون أن تــأخذهم بهــم رأفة . نجم عن هذه المعركة أن ظل سهل اللمبارد مسرحا لتجوال المجريين ما يقرب من عام كامل ، ولم يوقف ذلك ويخفف ألم هــذه الهزيمة ، إلا هزيمة بحرية حاقت بالمجريين على أيدى دوق البندقية بترو تريبنو Pietro Tribuno حينما حاولوا الاعتداء على مدينته عام ٩٠٠م (٢).

---

(١) Liudprand of Cremona,pp.76-77;Guldencrone., L'Italie,p.319.

(٢) Liudprand of Cremona,pp.77-78 ; Previte.,Orton Italy,p.148.

بدلا من أن يرجع ليودبراند الكريمونى (٩٢٠-٩٧٢م)الهزيمة التى حاقت بجيش برنجار إلى أسباب منطقــية كالإهمــال وسوء التنظيم ..وغيره ، نراه ينكر كل ذلك ويذكر أن نصر المجريين عند نهر برنتا لا يرجع إلى بسالتهم بقدر ما كان عقابا آلهيا سبق أن توعد به الرب كل العصاه فى شخص بنى

فـــى نفس الوقت الذى كانت تعانى فيه إيطاليا من جراء الغزو المجرى ، توفى أرنولـــف ملك ألمانيا فى ٨ ديسمبر عام ٨٩٩م ، وخلفه على العرش ابنه لويس الثالث ، وكـــان صبيا فى السادسة من عمره ، وتم تتويجه فى شهر فبراير عام ٩٠٠م ملكا على ألمانيا . كان اعتلاء لويس الثالث العرش بمثابة كارثة ؛ إذ كانت البلاد فى حاجة إلـــى قـــائد عســكرى مـــن الطـــراز الأول يســتطيع مواجهة أعدائها من المجريين وغـــيرهم (١) . ففـــى فترة الأحد عشر عاما التى حكم فيها البلاد حكما اسميا ، قويت الـــنزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قويـــة وعصـــبية قبلـــية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بيـــنهم ، وغـــدا لكـــل قســـم مـــن الأقسام الأربعة الرئيسة التى تألفت منها ألمانيا ــ فرانكونـــيا وســـوابيا وبافاريـــا وسكســـونيا ــ دوقا يرثه ابنه فى منصبه. كان هؤلاء الدوقات المحليون ــ من دينيين وعلمانيين ــ لا يجرءون من قبل على الثورة والتمرد مـــا دام هـــناك ملـــك قـــوى على رأس الدولة ، فلما تولى لويس الثالث الحكم أخذوا يـــتحركون ويشتبكون مع بعضهم البعض فى منازعات طويلة وحروب دامية أضرت بالـــبلاد ضررا جسيما ، وزاد الطين بلة اشتداد إغارات المجريين وعدم انقطاعها عن ألمانـــيا عقـــب وفـــاة أرنولف (٢) . فبعد فترة قصيرة من وفاته حشد المجريون جيشا ضـــخما وطالـــبوا بأحقيـــتهم فـــى إقلـــيم مارافانى Maravani ، كما اجتاحوا أرض

إســـرائيل وعلـــى لسان النبى جرمياه Jeremiah حينما قال " انظروا ، إننى سوف أرسل إليكم أمة بعـــيدة تسودكم ، إنها أمة قوية ، أمة عتيقة ، أمة لا تعرفون لغتها . إن جعبة سهامها ستكون كالقبر المفتوح ، فكلهم رجال أقوياء . وسوف يأكلون محاصيلكم وخبزكم ، الذى كان أولادكم وبناتكم أحق بأكلـــه : لســـوف يلتهمون جموع طيوركم وقطعان ماشيتكم ، سيأكلون أشجاركم من العنب والتين ، سوف يحطمون بسيوفهم مدنكم الحصينة التى كنتم تشعرون فيها بالأمان . إلا أننى لن أفنيكم تماما فى تلك الأيام " انظر:

Liudprand of Cremona, pp.78-79.

(١) Dummler.,Geschichte,T.III,pp.757,495-500;Fried.,Frankish,p.165;Fliche.Histoire ..pp.18-19.

(٢) سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ص ٢٩٥-٢٩٦.

البافاريين Bavarians ودمروا قلاعهم وحرقوا كنائسهم وأعملوا فيهم الذبح (1) . وما إن علم لويس الثالث بالوحشية والدمار الذى أشاعوه بين شعبه ، حتى أشعل الحماس بين أتباعه وحذر الجميع بألا يتخلف أحد منهم عن الاشتراك فى الحرب التى استعد لشنها ضدهم ، ثم خرج على رأس جيشه متجها إلى مدينة أوجسبرج Augsburg . ولكن فوجئ على نحو غير متوقع باقتراب هؤلاء الأعداء من جيشه وفى وضع يصعب فيه التراجع عن الدخول معهم فى معركة ، وكان ذلك فى سهول نهر لخ Lech (2). ولم يفطن العاهل الألمانى لمكر هؤلاء الأعداء ودهائهم فى نصب الكمائن حيث تظاهروا بالتقهقر واندفع الألمان خلفهم بجرأة ، وفجأة وعلى نحو غير متوقع انقضوا عليهم من كل حدب وأوقعوا بهم خسائر فادحة ، حتى أن الملك نفسه تملكه الرعب من هول المفاجأة . ولم يكتف المجريون بالمذبحة المروعة فى صفوف الألمان ، بل لكى يشفوا صدورهم من غل ، ساروا نحو ممالك بافاريا وسوابيا وسكسونى Saxony وأحرقوا فيها الأخضر واليابس ، ولم يستطع أحد أن يقف فى وجههم ما لم يجد الحصون والقلاع التى يحتمى بها (3) .

هكذا أثبتت الأحداث خطأ سياسة أرنولف الشرقية وتحملت ألمانيا تبعة ذلك ، وحينئذ أدرك الأوصياء على الإمبراطور الصبى مدى أهمية التعاون مع مورافيا لمواجهة عدوهم المشترك ، وبادروا بعقد سلام مع المورافيين فى عام ٩٠١م . ولكن بعد فوات الأوان ؛ ذلك أن الضعف كان قد تمكن من إمبراطورية سفاتوبلك ، التى

---

(1) Liudprand of Cremona,p.69.

كانت متعة المجريين ــ على حد قول البعض ــ فى القتال وسفك الدماء ، فكانت الأم بمجرد أن تضع طفلها تقوم بشج وجهه بسكين حاد كى يتمرس على تحمل آلام الجروح قبل أن يرضع من ثديها . ويمكن تصديق ذلك من مشاهدة الجروح التى يلحقونها بلحمهم كعلامة على الحزن عندما يحتضر أحد أقربائهم ، أى أن هذا الجنس الملحد كان يسفك الدماء بدلا من أن يذرف الدموع انظر :
Liudprand of Cremona ,p.70.

(2) نهر لخ هو أحد روافد نهر الدانوب وطوله نحو ٢٨٥ كم . انظر : إينهارد : سيرة ، ص ٨٤ حاشية رقم ٣ .

(3) Liudprand of Cremona,pp.70-71.

كانــت قــد عانت هى الأخرى من ويلات الهجمات المجرية. صحيح أن المورافيين أبــدوا شـــجاعة قوية فى مواجهة هذه الهجمات وحققوا بعض النجاح ، لكن لم تتمكن إمبراطوريـــتهم مـــن الصمود طويلا فى مواجهة هؤلاء الأعداء ، ساعد على ذلك عدم ثبات الألمان فى سياستهم نحوهم ([1]) . وفى ظل هذه السياسة المتذبذبة تجاه مورافيا ، كرر الألمان خطأ أرنولف السابق ؛ بأن حرضوا المجريين ضدها فى عام ٩٠٥-٩٠٦ م للقضـــاء عليها ، ظنا منهم أن مورافيا عادت لتوطد دعائمها فى وسط أوربا . وكأنهم لــم يقــدروا الخطر المجرى حق قدره ، عندما رأوا أن المجريين ــ رغم ما فعلوه ــ أقــل خطرا من المورافيين. فاتجه هؤلاء الغزاة نحو مورافـــيا واجتاحوها ، وانتهى الأمـــر بقتل موجمير الثانى وتدمير عاصمته إلى حد يصعب معه تحديد مكانها الآن ، وخضوع إمبراطوريته تماما للمجريين ([2]).

كان سقوط إمبراطورية مورافيا عظيم الأهمية بالنسبة للمجريين ولمستقبل وسط أوربـــا وغربها أيضا . فمنذ ذلك الوقت أخذ التاريخ المجرى دورا جديدا ، وصار من الصعب اعتبارهم مجرد بدو رحل بمعنى الكلمة ؛ حيث أخذوا فى الاستقرار الدائم فى الســـهول التى ظلت تحمل اسمهم حتى اليوم وبدءوا يطورون من نظمهم . أما بالنسبة لوســـط وغـــرب أوربا ، فيرى بعض المحدثين أنهما كانا فى أمس الحاجة خلال هذه المـــرحلة إلـــى الاتصـــال المباشر مع بيزنطة ، حارسة الحضارة اليونانية والهلينية. صـــحيح أن الاتصـــال كان مقطوعا عن طريق البحر بسبب العرب ، ولكنه كان قائما من خلال أودية الدانوب والبلقان التى كان يسيطر عليها كلا من الموراف والبيزنطيين ، ممـــا ســـاعد علـــى مـــزج الثقافات الرومانية والبيزنطية فى وسط أوربا . ولو قدر الاســـتمرار لهـــذا الاتصال ، لكان الغرب الأوربى قد جنى ثمارا طيبة بدت آثارها فى مخـــتلف الجوانـــب . ولكـــن ســـقوط مورافيا قطع ما تبقى من شرايين اتصاله بمدينة

---

(1) Dummler., Geschichte,T.III,pp.530-534;Fliche., Histoire,p.20.

(2) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,pp.97-98; Fliche., Histoire,p.20.

القسطنطينية ، وأجل استفادته من كنوز الحضارة البيزنطية لحين من الدهر ([1]) . ليس هــذا فحســب بل كان سقوط مورافيا ـــ من وجهة نظر الباحث ـــ واستيلاء المجريين علــيها ، يعــنى إقامتهم وبصفة دائمة فى منطقة حوض الدانوب الأوسط ، وأن مملكة الفرنجة ستكون المسرح والمنفذ الطبيعى لحملاتهم المدمرة ولم لا ؟ والجاران الآخران لهمــا كانــا قــد صــارا علــى درجــة كبيرة من القوة ، على الأقل فى هذه الفترة . فالإمــبراطورية البيزنطية كانت قد أصبحت فى ذروة مجدها منذ تولى أباطرة الأسرة المقدونــية عرشها حتى عرف عصر هذه الأسرة بالعصر الذهبى . كذلك كانت بلغاريا ، الــتى أصــبحت تشاركها فى أحد حدودها على نهر الثيس ، قد بلغت أوج قوتها فى عصــر القيصر سيميون . أما ألمانيا وإيطاليا ([2]) ففى ضوء جولاتهم السابقة داخلهما ، كــانوا على دراية بمدى تدهور أوضاعهما الداخلية ، ولذلك كان اتجاههم نحوهما أمرا حتميا .

لاشــك أن عواقــب حملات المجريين السابقة ، كانت وخيمة على ألمانيا وإيطاليا ولا يمكــن تجاهلهــا . فهــزيمة جــيش برنجار على أيديهم وقتلهم العديد من الأساقفة والنــبلاء جعــل أعــداء بــرنجار فــى الداخل بزعامة أمير توسكانيا أدالبرت الثانى

([1]) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,p.98 .

([2]) فــى الوقــت الذى كان حكم لويس الثالث لألمانيا اسميا وكان عصره من أحلك عصور التاريخ الألمانى بسبب النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان ، كانت إيطاليا هى الأخرى تمر بفترة حرجة من تاريخها ، ففى الوقت الذى كان شمالها يعانى من الصراع على العرش ، كان الجنوب الإيطالى يعانى هو الآخر من الشقاق والحروب الداخلية ، وكان ذلك سببا فى عجزها عن صد غارات المجريين من جهة الشمال والوقوف فى وجه المسلمين من جهة الجنوب . وكانت أعظم قوة بها فى تلك الفترة هى بــيزنطة ، مــنذ قام الإمبراطور باسيل الأول المقدونى (٨٦٧-٨٨٦م) وقائده نيقفور فوقاس بإحياء ســطوتها فى الغرب من خلال إنشاء ثغرين كبيرين هما ثغر لونجوبارديا Longobardia وعاصمته بارى Bari وكان يضم أبوليا Apulia ولوكانيا Lucania من نهر تريجنو Trigno على الأدرياتى إلى خليج تارانتو Taranto ، والآخر ثغر كالابريا Calabria وعاصمته رجيو Reggio وحل محله ثيم صقلية المختفى ، ومع ذلك يبدو أن بيزنطة لم تول إيطاليا القدر الكافى من الاهتمام ، انظر : Previte-Orton., Italy,pp.149-150.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ص ٢٩٥.

Adalbert II يفكـــرون فى حياكة مؤامرة ضده ، وهرب برنجار بالفعل وللمرة الثانية إلى بافاريا خشية على نفسه وليسعى من هناك لتأمين عرشه المتنازع عليه ([1]) . كذلك كانـــت لهذه الحملات أثارها السلبية على الحياة فى ألمانيا بعد سلب الأراضى الزراعية وذبح أعداد لا تحصى دون تمييز بين كبير وصغير ، وارتكاب فظائع وإهانات مخزية للنســـاء ــ اللاتـــى اقـــتدن إلـــى الأســـر عاريات وموثوقات مع بعضهن البعض من شـــعورهن ـــ ومعاملـــة الأطفال بقسوة شديدة ، فضلا عن الدمار الذى حل بالكنيسة . وأصـــبحت الأزمـــة محـــتومة وانفجرت فى سوابيا منذ بداية حكم لويس الثالث وكان مقدرا لها أن تنتشر فى كل مكان ([2]).

لـــم يمهـــل المجريون ألمانيا طويلا عقب استيلائهم على مورافيا. ففى عام ٩٠٧م أغـــاروا علـــى بافاريـــا وكارنثـــيا ، ثـــم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطـــرقوا إلـــى ســـوابيا حتى وصلوا سكسونيا وأنزلوا هزيمة كبرى بالقوات البافارية وقتلوا ليتوبولد دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج وأسقفى فريزنج Freising وســـبن Seben وواصـــلوا زحفهـــم باجتـــياح الحـــد الشرقى لألمانيا وهى أوستمارك Ostmark البافارية (النمسا Ustria حاليا) حتى نهرالأن Inn. ودخل المجريون فى العام التالى ثورنجيا Thuringia وذبحوا دوقها مع أسقف ورزبرج Wurzburg ([3])، الأمـــر الذى دفع لويس الثالث ــ وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره ــ إلى النزول إلـــى المـــيدان بنفســـه لصـــد الخطـــر المجرى. وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونـــيون تحـــت قيادة الملك الشاب لمحاربة هؤلاء الأعداء . ولكن كانت نتيجة هـــذه المعـــركة قاسية حيث وقع لويس الثالث وجيشه فريسة كمين محكم ونصب لهم المجـــريون مذبحة مروعة ، ولم ينج إلا القوات البافارية التى نجحت فى الفرار ، وأكد

([1]) Previte-Orton., Italy.,p.149.

لمزيد من التفاصيل عن مؤامرة أدالبرت الثانى . انظر :

Previte-Orton.,Italy,p.149.

([2]) Fliche.,Histoire,pp.27-28.

([3]) لمعرفة موقع كل من بافاريا وكارنثيا وسالزبرج وورزبرج وغيرها من الأماكن التى أغار عليها المجريون بألمانيا ، انظر الخريطة .

المجـــريون بذلـــك انتصاراتهم السابقة ، ولم يحتمل لويس الثالث وطأة هذه الهزيمة ، وتوفى على أثرها عام ٩١١م بعد صراع قصير مع المرض (١) .

انتهت بوفاة لويس الثالث سلالة البيت الكارولنجي من الذكور في ألمانيا ولم يعد هـــذا البيـــت ممـــثلا إلا فـــي شخص شارل البسيط في فرنسا . وبعد كثير من الجدل والـــتردد بيـــن النـــبلاء الألمـــان وقـــع الاختيار على كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونـــيا لـــيخلف لويـــس الثالث على عرش ألمانيا . ونظرا لأنه لم يكن له مجـــد مـــوروث فقـــد اعتـــبره كبار النبلاء الألمان مجرد واحد منهم ، وثاروا ضده في العام الـــتالي ٩١٢م بقـــيادة هنرى Henry دوق السكسون والتورنجيين Turingians. ولكن كونـــراد الأول بفضـــل شـــجاعته ومثابرته نجح في قمع هذه الثورة ، ومع ذلك استبد الخـــوف بـــأحد النـــبلاء الثائريـــن وهو أرنولد Arnold من بافاريا فاصطحب زوجته وأولاده وفـــر هاربـــا إلـــى المجريين وعقد العزم على البقاء عندهم طالما ظل كونراد الأول على قيد الحياة (٢) .

رغم نجاح كونراد الأول في إخماد هذه الثورة ، كانت السنوات السبع التى قضاها في الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ؛ ذلك أنه في الوقت الذى أخذ السوابيون والـــبافاريون يقـــاومون جهوده في توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، أخذ المجريون فـــي شـــن غارات مكثفة على ألمانيا . فتوغلوا في عام ٩١٢م داخل سوابيا وفرانكونيا وأحدثـــوا بهمـــا أضرارا بالغة وشجعهم انشغال كونراد الأول بمشكلة منطقة اللوريين Lorraine (٣)عن اتخاذ أى إجراء لمقاومتهم على معاودة الكرة مرة أخرى عام ٩١٣ م حيث أغاروا على سوابيا وتوغلوا داخلها ، ولكن عند عودتـــهم واجـــــههم أرنولف

---

(١) Oman.,Dark,p.474.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج ١،ص٢٩٦.

(٢) Liudprand of Cremona, p.79; Thompson., History,p.167.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ج١ ، ص ٢٩٧.

(٣)مـــنطقة لوثرنجيا ــ أى مملكة لوثر ــ حرف اسمها إلى اللوريين وهى نفس المنطقة التى مازالت حـــتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية . وكانت قد أصبحت ــ بموجب اتفاقية فردان عام ٨٤٣م ــ من أملاك لوثر (حاكم الشق الغربى من مملكة الفرنجة) ، لكن لم يرض هذا حكام=

ـ دوق بافاريـــا وزعـــيم المعارضـــة ضد كونراد الأول فيما بعد ـ على رأس جيش قـــوى على مقربة من نهر الإن وأنزل بهم هزيمة ساحقة . كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر هى أنه كفل لألمانيا نحو عام من الهدوء من جانب المجريين (١).

وما أن حل عام ٩١٥م حتى ظهر المجريون من جديد فى سوابيا وانطلقوا منها إلـــى ثورنجـــيا وســـاكس Saxe وكـــرروا هـــــذه الاعتداءات فى عام ٩١٧م على جـــنوب ألمانيا ، وتقدموا فى هذه المرة عبر الألزاس Alsace إلى اللوريين وواصلوا زحفهـــم حـــتى أبـــواب متز Metz ، كما توغلوا فى برجنديا Burgundy الفرنسية وهددوا قلب المملكة دون أن تستنفذ هذه الغارة البعيدة طاقاتهم المتجددة . ولسوء الحظ لا توجد معلومات عن هذه الحملات ، بيد أن الدمار والسلب والنهب كانا السمة الغالبة علـــيها . ولـــم يذكر المؤرخون إبان سردهم المحزن لهذه الجولات الدامية أى محاولة للمقاومـــة من جانب كونراد الأول ،والتفسير الأرجح لهذه السلبية هو أنه بعد أن أضاع نحـــو عاميـــن فى اللوريين ، وجد نفسه مشغولا فى مواجهة المعارضة الداخلية التى امتصت كل جهده حتى نهاية حياته فى عام ٩١٨م (٢) .

يحســـب لكونراد الأول أنه كان قد أوصى وهو على فراش الموت وتوسل إلى أخـــيه إيفـــيرارد Everard ، أن يخلفه هنرى الأول ـ دوق سكسونيا لما يتمتع به من قـــوة وحـــنكة ـ علـــى عـــرش ألمانيا لإنقاذها من وضعها المتردى . واجتمع كبراء الأمـــراء والأساقفة عقب وفاة كونراد الأول وأقروا اختيار هنرى الأول ـ الذى عرف بهـــنرى الصـــياد نظرا لانشغاله برياضة الصيد أثناء اختيارهم له ـ ملكا على ألمانيا

=الجـــزء الشرقى وسعوا دوما لضم هذه المنطقة لنفوذهم . ولم ينجحوا فى ذلك إلا عام ٩٢٥م على عهد هنرى الأول ، حينما استولى عليها بالقوة ، انظر :

Fliche., Histoire,p.37.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٧ ، ٥٨.

(١) Fliche., Histoire,p.29.

(٢) Halphen., France,p.87;Dummler., Geschichte,T.III,p.596 ; Fliche., Histoire,pp.29-30.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨.

عـــام ٩١٩م ([1]) . وبمجرد أن علم أرنولد الهارب لدى المجريين بوفاة كونراد الأول ، عـــاد إلى بلاده على الفور فرحب الباقاريون والفرنجة الشرقيون به وبأولاده وزوجته وحـــثوه بقـــوة على أن يتولى العرش بدلا من هنرى الأول . وما أن علم الأخير بذلك حـــتى جمـــع جيشا قويا وخرج متجها نحو بافاريا ، ومن جانبه جمع أرنولد هو الآخر قوات ضخمة وأسرع لملاقاته . وكادت الحرب تنشب بين الجانبين لولا أن لجأ هنرى الأول للوســـائل الدبلوماســـية ، حيـــث أرسل مبعوثا أستدعى أرنولد واجتمع به سرا ، فخاطبه باللين وعرض عليه وصية كونراد الأول([2])، كما خلع عليه لقب القائم بأعمال الأسقف فى بافاريا ، فاقتنع أرنولد وتخلى عن ثورته ([3]) .

لـــم تقتصر مثل هذه الاضطرابات على ألمانيا بل عانت إيطاليا هى الأخرى من بعـــض المشـــاكل التى شجعت المجريين على استئناف نشاطهم العدائى بها . ففى عام ٩٢٢م قـــام كـــبار النـــبلاء بقـــيادة أدالـــبرت من إيفريا Iverea بدعوة رودلف الثانى Rodolph II ملك Jurane Burgundy لخلع برنجار عن العرش بعدما ساءت الأحوال فـــى عهده ولم يعد يتمكن من وقف الغزو المجرى المتكرر . وبعد تضييق الخناق على بـــرنجار بعد أن احتجزه معارضوه فى فيرونا ، رأى أن المجريين أفضل من يساعده علـــى الخروج من هذا المأزق . لذلك استنجد بهم وطلب منهم أن يخلصوه من أعدائه لـــو كانوا يحبونه حقا . فلبوا على الفور وزودهم هو بمرشد يدلهم على طريق يسلكوه غير الطريق التقليدى كى يحققوا أهدافه فى حملتهم على إيطاليا . ولذلك اتسم هجومهم بالســـرعة والمباغتة مما أسفر عن قتل وأسر الكثيرين وسلب ديارهم ولم ينج أدالبرت نفســـه مـــن الأسر إلا عن طريق الحيلة . ولكن إذا كانوا قد أنقذوا برنجار من وضعه الصـــعب فإن العمر لم يمتد به طويلا حيث راح ضحية مؤامرة دبرها ضده أحد أتباعه

([1]) Liudprand of Cremona,pp.79-80.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج١، ص ٢٩٨.

([2])لمعرفة نص وصية كونراد الأول ، انظر :

Liudprand of Cremona,pp.79- 80.

([3]) Liudprand of Cremona,pp.80-82.

، فأودت بحياته فى ٧ أبريل عام ٩٢٤م . فقام المجريون على أثرها فى نفس العام ــ دون أن نعلــم إذا ما كان ذلك بدافع الانتقام لقتله أم استغلالا للظرف ــ بتدمير لمبارديا Lombardy وحــرق بافــيا وعجــز الســكان هناك عن كسب رضاهم بالهدايا ، ولم يتركوا إيطاليا عائدين إلى بلادهم إلا بعد جمعهم غنائم طائلة من مختلف أرجائها([1]).

أما على صعيد ألمانيا فبعد أن استتبت الأمور بعض الشئ لهنرى الأول ، رأى أن حمايــة ألمانيا من خطر المجريين ــ الذين لم تتوقف حملاتهم على بلاده منذ توليه العــرش ــ يجب أن يكون له الأولوية على ما عداه . كان ذلك فى الوقت الذى قام فيه المجــريون بعقــد اجــتماع كبير ليتشاوروا فيما بينهم حول الإجراء الذى سيتخذوه لو رفض العاهل الألمانى الجديد دفع إتاوة لهم . وأجمعوا أمرهم إن فعل ذلك أن يدمروا بــلاده من خلال سلسلة طويلة من الحملات المدمرة ، ويبدءوا بأرض السكسون ، التى كــان دوقــا لهــا من قبل خاصة وأنها تفتقر إلى الحصون أو القلاع التى تكفى للذود عنها ([2]) .

يــبدو أن هــنرى الأول غير رأيه بعدما وجد أن الوقت غير ملائم للدخول فى مواجهــة مــع المجريين وآثر دفع الإتاوة لهم ، لذلك شهدت السنوات الأولى من عهده هــدوءا تاما من جانبهم . ولكن عندما لمسوا فى عام ٩٢٤م أن هناك معارضة داخلية ضده من قبل البافاريين لم يترددوا فى توجيه ضربة قوية إلى سكسونيا . وكشفت هذه

---

(١) Liudprand of Cremona,pp.97-98,110-112; Previte-Orton.,Italy,pp.152-153.
لمــا رأى أدالبرت أنه قد أحيط به من قبل المجريين لجأ إلى الحيلة بأن ألقى بحزامه البراق وأساوره الذهبية وارتدى زى جندي ولما وقع فى قبضتهم أخبرهم بأنه مجرد جندي مراسل وتوسل إليهم أن يــأخذوه إلى مدينة Calcinate المجاورة ليدفع له أقاربه الفدية المطلوبة ، وكان الذى دفعها هناك ــ دون أن يعلموا ذلك ــ أحد أتباعه وهو شخص يدعى ليو . مثل هذه الرواية وغيرها مما يعج بها مصــدر لــيودبراند الكريمونى يجب التعامل معها بحذر فبغضه الذى عبر عنه فى أكثر من موضع لهؤلاء الأعداء ومحاولته إظهارهم فى صورة الوثنيين الأجلاف ، يدفعنا لذلك ، انظر :
Liudprand of Cremona,pp.98-99.

(٢) Liudprand of Cremona,pp.83-84 ; Flishe., Histoire,p.37.

الضـــربة عن مدى ضعف التنظيم العسكرى والخلل الشديد فى نظام الدفاع الألمانى . فقـــد انســـاب المجريون كالسيل فى سكسونيا دون أن يعيقهم عائق ، وفر الناس أمامهم ليختبـــئوا فى الغابات المجاورة ، ولم يجد هنرى الأول أمام عجزه عن المقاومة سوى أن يحصـــن نفسه فى قلعة ورلا Werla (عند قاعدة جبال هارز Harz) . إلا أن الحظ ســاعد هـــنرى الأول حيـــنما وقـــع زعيم مجرى كبير أسيرا فى يديه ورفض تسليمه للمجرييـــن قـــبل الدخول فى مفاوضات معهم ، وهى المفاوضات التى وافق بموجبها زيـــادة الإتـــاوة والاستمرار فى دفعها، مقابل انسحابهم وقبولهم بهدنة أمدها نحو تسع سنوات . بيد أن هجوم المجريين على سوابيا واللوريين فى عام ٩٢٦م ونهبهم الأديرة هـــناك يثبت أن هذه الهدنة كانت قاصرة على سكسونيا وثورنجيا فقط ، ولم يجد هنرى حيـــنها بـــداً من دفع إتاوة أخرى مقابل مد هذه الهدنة لسبع سنوات لتشمل باقى الأقاليم الأخرى ([١]) .

واســـتغل هـــنرى الأول هذه الهدنة فى بناء الحصون والقلاع وتجهيز الجيوش للقـــاء المجريين لقاءا حاسما ، خاصة بعد أن وقف إلى جواره حكام الدوقيات والأمراء المحلييـــن فى بافاريا وفرنكونيا واللوريين. وبدأ هنرى الأول مشروعه العسكرى ضد المجرييـــن ، وكانـــت ثمـــار هذا التحالف طيبة وانعكست بصورة مباشرة على موقف هـــنرى الأول تجـــاه الإتاوة السنوية المقررة للمجريين . حينما جاء سفراؤهم فى عام ٩٣٣م يطالـــبونه بالإتاوة المقررة ، فرفض بشدة وطردهم من بلاده ، مما أثار حفيظة المجرييـــن وجعلهـــم يوجهون على الفور حملة قوية لمعاقبة العاهل الألمانى على رده الســـافر ([٢]). وبمجـــرد أن علم هنرى الأول بقرب قدومهم أرسل الرسل فى الحال إلى سكســـونيا يطلـــب من كل رجل يستطيع حمل السلاح أن يأتى فى غضون خمسة أيام

([١]) Stephenson,Hungary, p.108 ;Lane Poole., Germany, p.182, Note , no.1;Fliche.,Histoire ,pp.37-38.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ،ج١ ، ص ٣٠٠ ؛ محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٨.

([٢]) Lane Poole., Germany,pp.182,185; Flishe., Histoire,p.38.

لمزيد من التفاصيل حول جهود هنرى الأول وتنظيماته العسكرية ، انظر :
Lane Poole., Germany,pp.182-184 ; Fliche., Histoire,p.38 .

على الأكثر وإلا سيكون الموت مآله .ونجح قبل انقضاء هذه المدة فى جمع جيش قوى مـن السكسـون . وبينما هو يخطب فيهم ـ رغم ما أصابه من مرض منذ علم بقدوم المجريين ـ ليحـثهم على الصمود والقتال ، إذ بالأنباء تأتى بوصول المجريين إلى قلعـة مرسـبرج Merseburg على حدود السكسون وقتلهم وأسرهم أعداداً هائلة من الـرجال والنساء والأطفال وإعلانهم عن عدم ترك أى شخص يتعد العشر سنوات كى يثـيروا الرعب والفزع بين السكان (١) . فقاد هنرى الأول جيشا قويا متجها نحوهم ، والـتقى الجانـبان فى شهر مارس قرب مرسبرج فى معركة شرسة كان النصر فيها حليفا للألمان بعد أن مزقوا صفوف المجريين وأجبروا من نجا منهم على الفرار . وما أن سـمعت باقى جيوش المجريين بهذه الكارثة حتى تخلت عن مقابلة جيوش الفرنجة عـائدة إلـى بلادهـا (٢) . أرجـع ليودبراند الكريمونى النصر فى هذه المعركة إلى شـجاعة هنرى الأول والتزام جنوده بالنصيحة التى أسداها لهم قبيل دخول المعركة " عـندما تـندفعون مسرعين إلى المعركة ،لا يتقدم أحدكم على الآخر ـ لأن حصانه أقوى وأسرع ـ ليسبقه . أحموا أنفسكم بدروعكم الصغيرة من جهة تتلقون فيها أول دفعـة من سهام الأعداء ، ثم اندفعوا نحوهم بكل ما أوتيتم من سرعة وما أكننتم من غضـب قـبل أن يطلقـوا دفعة أخرى ، ليجدوا ضربات سيوفكم فوق رؤوسهم " . ثم أشـار إلـى صـرخات الجـنود مـن الجانبين أثناء المعركة ، ففى الوقت الذى كان المسيحيون يقولون " لترحمنا أيها الرب " كان الوثنيون يصيحون صيحتهم المشهورة " Hui hui " (٣).

كان لهذا النصر صدى كبيرا ،حيث رفع من مكانة الأسرة السكسونية الحاكمـة

---

(١) Liudprand of Cremona, pp.83-84 ; Lane Poole., Germany,p182.

لمعرفة نص الخطاب الذى ألقاه هنرى الأول على أتباعه ، انظر :

Liudprand of Cremona, pp.83-84 .

(٢) Liudprand of Cremona, pp.85-86 ; Lane Poole., Germany,p.185.

(٣) Liudprand of Cremona.p.85.

فـى ألمانيا . وحاز هنرى الأول شهرة عظيمة واحتل مكانة هامة فى هذا الجانب من دولـة الفرنجة . ولكن كان هذا النصر آخر جهد قام به الإمبراطور هنرى الأول ضد المجريين ، حيث توفى يوم ٢ يوليو عام ٩٣٦م عن عمر يناهز الستين عاما ، وبعد فترة حكم دامت نحو ثمانية عشرة عاما تمكن خلالها من وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد ابنه وخليفته أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ –٩٧٣م) (١) .

كـان المجريون على دراية بما يواجه الإمبراطور أوتو الأول من مشاكل داخلية نتيجة لسعيه لبسط نفوذه على مختلف أرجاء ألمانيا ، ورغبته فى مد هذا النفوذ ليشمل إيطاليا أيضا ، بهدف الجمع بينهما فيما يعرف بالإمبراطورية المقدسة(٢). لذلك رأوا أن الفرصة أصبحت سانحة للانتقام للهزيمة السابقة وممارسة نشاطهم المفضل من السلب والنهب . وقاموا بشن حملة فى عامى ٩٣٧ ، ٩٣٨م على ثورنجيا وسكسونيا ، لكن واجهتهم مقاومة شديدة فعادوا إلى بلادهم دون طائل . وحينما كرروا حملتهم فى عامى ٩٤٨ ، ٩٤٩م حاقت بهم هزيمة ساحقة على يد هنرى دوق بافاريا . جعلتهم هذه الهزائم أشد إصرارا على قتال أوتو الأول ، فأغاروا فى عام ٩٥٤م وساعدهم هذه المرة اثنان من معارضيه ، هما لويدولف liudolf دوق سوابيا وكونراد دوق اللورين ، اللذين زودوهما بمرشدين داخل ألمانيا نكاية فى أوتو الأول (٣) . فاجتاحوا بافاريا وفرانكونيا وتم الاحتفال بهم علنا فى ورمز Worms وقدمت لهم الهدايا الفضية والذهبية وقادهم كونراد عبر نهر الراين على أمل أن يساعدوه فى استرداد دوقيته التى ظل سكانها على ولائهم لأوتو الأول ، ولكن دون جدوى . وتوغل المجريون فى

---

(١) Liudprand of Cremona, p.154; Fliche .,Histoire ,pp.38-39;LanePoole.,Germany,p. 186.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٦ ؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٩.

(٢)لمزيد من التفاصيل عن جهود أوتو الأول لتوحيد ألمانيا والجمع بينه وبين إيطاليا تحت سيادته، انظر :

Lane Poole., Germany,pp.186-203.

(٣) Lane Poole., Germany,pp.191,198.

آتريخـــت Utrecht يدمـــرون كـــل شئ فى طريقهم ثم تحركوا بعد ذلك جنوبا خلال فـــيرماندوا Vermandois ولاون Laon وريمـــس Rheims حـــتى دخلوا برجنديا ، ولكـــن ســـرعان ما تفشى فيهم المرض ، مما أدى إلى تناقص أعدادهم ودفعهم بالتالى إلى العودة إلى بلادهم عن طريق إيطاليا (١) .

لـــم تمـــض فترة قصيرة حتى عاود المجريون الهجوم من جديد على ألمانيا فى بدايـــة عام ٩٥٥م ، نظرا لما حققوه من نجاح فى حملتهم السابقة . غير أن الحملة فى هـــذه المرة باءت بالفشل ، ولم ييأس المجريون ، فقد أرسلوا سفارة إلى أوتو الأول فى سكســـونيا تطلـــب المودة في الظاهر ، ولكنها كانت تستهدف التجسس ومعرفة أحوال الـــبلاد ومواطن الضعف فيها . وفى أغسطس من نفس العام (٩٥٥م) عاودوا الهجوم ثانـــية علـــى الأراضـــى الألمانية حتى اقتربوا من مدينة أوجسبرج ، مما دفع أسقفها يولـــريك Ulric إلـــى مكاتبة أوتو الأول يصف له الحالة السيئة والقلق الذى انتابه من جراء وصول المجريين إلى ضفاف نهر لخ على مقربة من مدينته ، وأنه يصعب على أهلهـــا الصـــمود أمـــام تلـــك الجموع الغفيرة من المجريين ؛ لذلك يستنجد به ويطلب الحضور بنفسه لمساعدته فى الدفاع عن مدينته (٢) .

لـــم يـــتأخر أوتو طويلاً عن نجدة المدينة ، ففى العاشر من شهر أغسطس اتجه جـــنوبا نحوهـــا علـــى رأس قوة عسكرية من السكسون أضيفت إليها قوات أخرى من مخـــتلف أرجـــاء ألمانيا أثناء مسيرته عبرها حتى أصبح لديه جيش جرار يضم ثمانية فصـــائل ، ثلاثـــة مـــن بافاريا ، اثنان ، من سوابيا ، واحدة من ساكسونيا ، واحدة من اللورييـــن ، وأخيرة من بوهيميا Bohemia . ولم يدخل أوتو فى معركة مع المجريين إلا بعـــد أن راقـــب تحركاتهم وقدر من خلالها مدى أعدادهم . ثم انتهز فرصة هبوب ريـــح ودخـــل مع المجريين فى معركة شديدة على الضفة اليسرى لنهر لخ فى منطقة

---

(١) Lane Poole., Germany, p.198

(٢) Simon of Keza., Hungarorum,pp.91-93; Lane Poole., Germany,p.199.

لخفلــد Lechfeld . فحاقت بالأخيرين هزيمة ساحقة وتعقبهم أوتو على مدى ثلاثة أيام ليقضى على فلولهم ([1]) .

كانــت نتائج هذه المعركة عظيمة الأهمية بالنسبة للجانبين . فقد لقب أوتو الأول بـأوتو العظــيم ، كما أخذ زمام المبادرة ومد نفوذه شرقا على حساب المجريين وأقام علــى أكتافهم ماركية أوستريا (النمسا) . أيضا كان استخدام المسافرين لممر برنر ــ أســهل الممرات بين لمبارديا وألمانيا ــ ضيقا بسبب تهديد المجريين للمارة فيه ، ولم يخلــص ذلك الطريق للمسافرين إلا بعد انتصار أوتو الأول فى هذه المعركة . كذلك لم يفكر المجريون مرة أخرى فى شن حملات على مملكة الفرنجة ، بل اقتنعوا بضرورة التخلى عن فكرة الهجرة والترحال مرة أخرى ، بل يجب السعى للاستقرار الآمن([2]). ولاشــك أن اســتقرارهم فـــى أعقاب هذه المعركة ، أدى إلى تغييرات كبيرة فى حياة المجرييــن ، حيث أخذوا يستغلون بيئتهم الطبيعية الخصبة ، ويستبدلون نظامهم القبلى بالســلطة المركزية القوية . كما استغلوا وقوع بلادهم عند نقطة تقاطع مجالين ثقافيين ــ همــا الــثقافة الغربية أواللاتينية – الألمانية Latino-Germanic ،والثقافة الشرقية أواليونانــية–الســلافية Greco-Slav ــ ووازنوا بين الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم مــن وراء اعتنــاقهم المســيحية مــن قبل أحد قطبيها ــ روما والقسطنطينية ــ ولما

([1]) Simon of Keza., Hungarorum,p.93 ; Lane Poole., Germany,p.199; Bloch.,Society, p.11.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٦٦.

هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول الموقع الدقيق لهذه المعركة . عارض بعضهم وقوعها جنوب المديــنة على الضفة اليسرى للنهر فى لخفلد على أساس أنها وقعت على الضفة اليسرى للنهر ولكن شمال غرب أوجسبرج . فى حين اقترح بعضهم الأخر وقوعها على الضفة اليمنى للنهر جنوب شرق المدينة ، ورأى فريق ثالث أن الضفة اليمنى للنهر شمال شرق المدينة كانت المسرح لهذه المعركة ، انظر :

Lane Poole., Germany,pp. 199-200, Note, no,1.

([2]) Lane Poole., Germany, p.200; Previte-Orton., Italy,p.160.

انظر أيضا : أرشيبالد لويس : القوى ، ص ٢٧٣؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ص ٣٠٤.

اعتنقوها وصاروا ضمن مجتمع الشعوب المسيحية ، اكتمل هيكل دولتهم واتخذ حاكمهم لأول مرة وهو القديس ستيفن الأول Stephen I (١٠٠٠-١٠٣٨م) لقب ملك ([١]) .

أخيرا ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة ؟ يمكن استخلاص ما يلى:

أولا : يعتبر تاريخ المجريين الباكر من الأمور الغامضة لقلة المعلومات التى وردت عنهم فى المصادر ، بل تفتقر هذه المعلومات لعنصرى الضبط الزمنى وتحديد الموقع الجغرافى ؛ مما أدى إلى وجود تباين شديد فى وجهات نظر المحدثين بشأن بعض القضايا التى ما تزال دون حسم وتحتاج للمزيد من البحث والدراسة .

ثانيا : اختلف اتجاه حملات المجريين باختلاف موقع قبائلهم ؛ ذلك أن كل قبيلة من قبائلهم السبع ، قامت بالحملات التى تحقق أطماعها الخاصة . لذلك فى الوقت الذى أغارت القبائل المقيمة فى غرب المجر على ألمانيا وإيطاليا ، فإن القبائل المقيمة فى الشرق والجنوب أغارت على الدولة البيزنطية ، عبر بلغاريا ([٢]). ولعل هذا يوضح لماذا حارب المجريون على أكثر من جبهة فى وقت واحد ؟ ولا ترجع الانتصارات التى حققوها إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة وشراسة فى ساحة القتال فحسب ، بل وإلى استغلالهم الأوضاع السياسية التى كانت سائدة سواء فى منطقة الاستبس أو البلقان ووسط أوربا ، فى التمكين لأنفسهم . فلا ريب أن صراع بيزنطة مع بلغاريا، ومملكة الفرنجة مع مورافيا، ووقوفهم على الأوضاع السياسية المضطربة فى بعض هذه الدول ، قد ساعدهم على ترسيخ أقدامهم فى منطقة الدانوب الأوسط ووضع حجر الأساس لبناء كيان سياسى مستقل شكل النواة الأولى لدولة المجر فيما بعد . ونجحوا رغم انقسامهم الداخلى فى ظل النظام القبلى ، فى الحفاظ على أنفسهم وعلى هويتهم التركية ــ على الأقل طوال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ــ من الذوبان وسط غيرهم من المجموعات العرقية الأخرى .

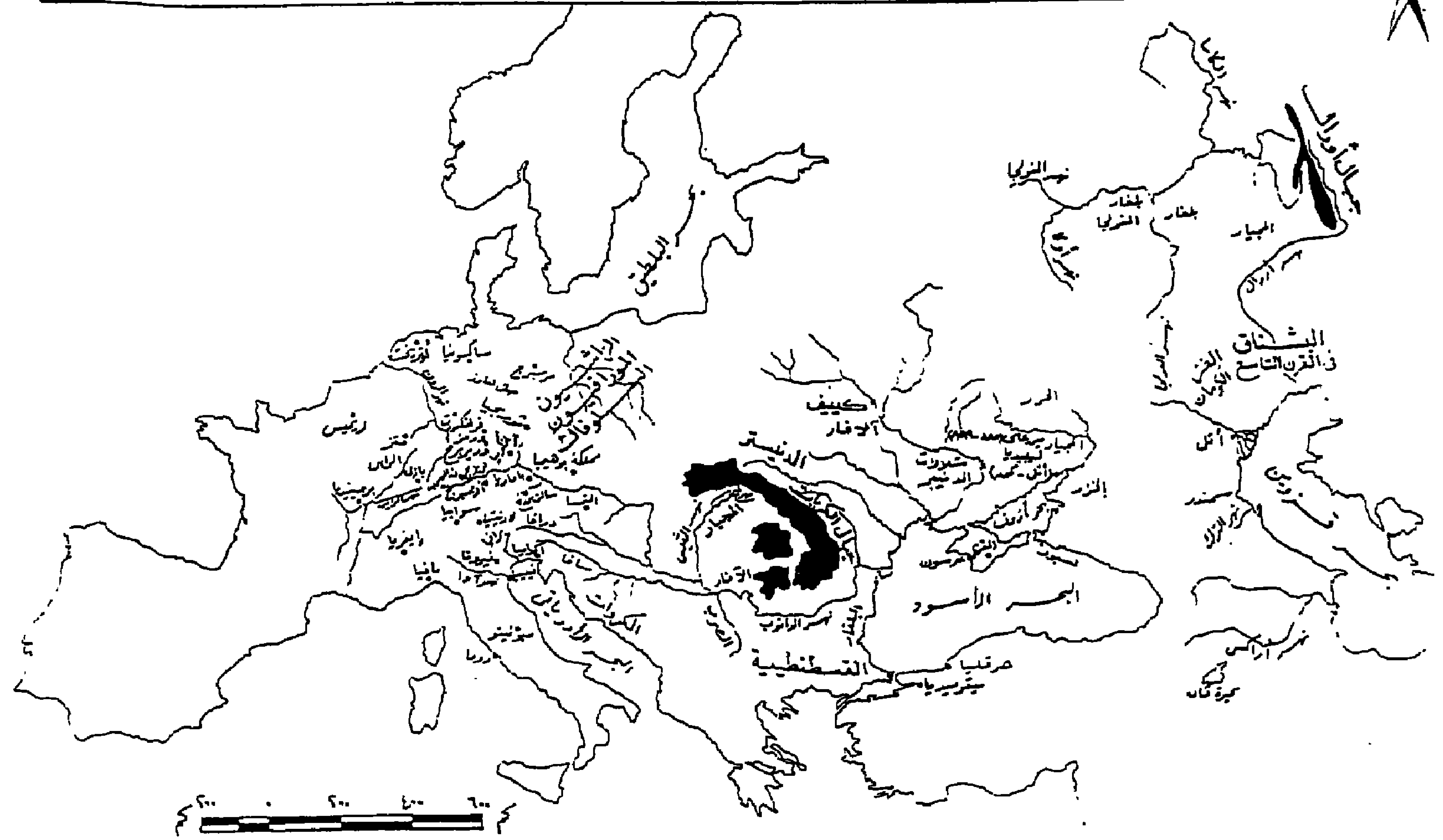
---

(١) Moravcsik., Hungary.pp.572-573.

(٢) لمزيد من المعلومات حول الغارات المجرية على بيزنطة ، انظر :
Moravcsik., Hungary.pp.569-571; Vasiliev., Empire,p.319.

ثالـــثا : كانت حملات المجريين على مملكة الفرنجة بهدف السلب والنهب وليس بهدف الإقامـــة والاستقرار ، وكانت تفتقر إلى النظام والإعداد الجيد ، ولذلك لن نبالغ إذا قلنا أن أغلــبها كان نوعا من الإغارات الشرسة ، ولكنها ذكرت من قبل المحدثين كحملات علـــى أســـاس لم تكن خاطفة ، بل استغرق بعضها ما يزيد على العام فى داخل مملكة الفرنجة . وساعد على نجاحها تزامنها مع ما ألم بمملكة الفرنجة فى النصف الأول من القــرن العاشــر الميلادى من انقسام وضعف . ولذلك بمجرد أن تمكن أوتو الأول من توحــيد ألمانــيا وإيطالــيا نجح فى مواجهتها وأنزل بالمجريين هزيمة ساحقة جعلتهم يعــيدون الــنظر فــى هجمـــاتهم على بلاده ويتخلون عنها . ومن ثم ، إذا كان سقوط مورافــيا عام ٩٠٥-٩٠٦م يمثل نقطة التحول الأولى بالنسبة للمجريين ، فإن هزيمتهم فـــى معــركة لخفلــد تمــثل نقطة التحول الكبرى فى تاريخ دولة المجر فى العصور الوسطى .

الخريطة السياسية لمواطن هجرة المجريين وحملاتهم على مملكة الفرنجة بين عامي (٨٩٦-٩٥٥م)



قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا: المصادر والمراجع الأجنبية .

Bakay **Hungary**	Bakay , K.," Hungary "**NCMH**, III, (900 – 1204) , (Cambridge, 1999) pp.536 –552 .
Bloch., **Society**	Bloch,M,Feudal Society,trans byL.A Manyon,vol.l, America 1964.
Bury., **Eastern**	Bury,J.B.,A history of the Eastern Roman Empire , From the Fall of Irene to the accession of Basil 1 , (London, 1912) .
B	Byzantion,(Bruxelles,1939) .ff .
BMGS	Byzantine and Modern Greek Studies
Cedrenus.., **Historiarum**	Cedrenus,G., Historiarum Compendium **CSHB**,ed, Bekker I,II.(Bonn,1838) .

Costantine Perphorgenitus ., De Administrando Imperio .

وقـــد رجـــع الباحـث إلـى الـترجمـة الـعربية لكـتاب : إدارة الإمبراطورية البيزنطية،عرض وتحليل وتعليق د / محمود سعيد عمران،(بيروت ، ١٩٨٠م) .

DAI	De Administrando Imperio ed &Com by,Jenkins and Others ,2 (London, 1962) .
CMH	Cambridge Medieval History,(Cambridge,1981)ff .
CSHB	Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn,1838)ff .
Davis ., **Europe**	A Davis ., R ., History of the Medieval Europe (London,1957) .
Dvornik., **Slaves**	Dvornik,F.,Les Slaves , Histoire et Civilisation de L'antiquité aux Debuts de l'époque Contemporaire, Traduit de L'anglais par Pavlevski, avec la

Collaboration de Maroussia Choplyansky, (Paris, 1970)

Dummler , **Geschichte** — Dummler ,E Geschichte des Östfronkischen reichs T.III,Die letzten Karolinge Conrad I(Leipzig1888).

EME — Early Medieval Europe .

EI — Encyclopaedia of Islam .

Fliche., **Histoire** — Fliche,A., Histoire du Moyen age, T.II, L'Europe Occidentale de1125, A 888 (Paris, 1930) ff.

Fried, **Frankish** — J Fried.,"The Frankish Kingdoms, 817-911:The est and middle Kingdoms" **NCMH** ,II (Cambridge, 1995) pp. 142-168.

Georgius Monachus Continuatus.,Georgius Monachus Continuatus in Theophanes Continuatus **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838), pp.761-924 .

Grégoire., **Origine** — Grégoire.,H.,"Le nom et L 'Origine des Hongrois" dans Zeitschr d.deutsch .morgenlondischen Gesellschaft ,91(1939) pp.630-642.

Grégoire., **L'Habitat** — Grégoire.,H.," "L'Habitat " Primitif " des Magyars,et Les"Σαβαρτοιασφαλοι" **B**,13 (Bruexelles, 1938) , pp.267 – 278 .

Guldencrone., **L' Italie** — Guldencrone,D., L' Italie Byzantine , étude sur le haut moyen âge ,400-1030,(Paris 1914).

Halphen ., **France** — Halphen,L., " France , the last Carolingians and the accession of Hugh capet (88-987)" **CMH**,III. ed Hussey.J (Cambridge,1981)pp. 71-98.

Hudud Al Alam.,"The Regions of the World " A Persian Geography,372 A.D., trans,and explained by V.Minorsky,(Oxford,1937).

Kaldy –Nagy., **Madjar**	Kaldy-Nagy, Gy., Madjar, Madjaristan, **EI**,5(1986) pp.1010-1033.
Lane Poole., **Germany**	Lane Poole , A ., " Germany : Henry I and Otto the Great " **CMH**,III .ed Hussey.J (Cambridge, 1981) pp.175-203 .
Lewicki, **Hongrois**	Lewicki , A . , " Les noms des Hongrois et de L'Hongrie chez les medievaux geographes Arabes et Persans " dans Folia Orientalia,19 (1978) pp.35-55.

Liudprand of Cremona., The Works of Cremona.,ed,BGG,Coulton and Eileen Power Eng Trans,by. F.A.Wright (London,1930)

Macartney., **Magyars**	The Magyars in the Ninth century ,(Cambridge , 1930) .
Mckitterick., **Frankish**	Mckitterick , R ., The Frankish kingdoms under Carolingians, (London,1983).
Moravcsik, **Hungary**	Moravcsik , G ., " Hungary and Byzantium in the Middle Ages " **CMH** , ed Hussey .J, IV /1 (Cambridge, 1975), pp.566 – 592 .
NCMH	The New Cambridge Medieval History,1999,ff .
Nikolov ., **Magyar**	Nikolov,S., " The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes " **BMGS** , 21 (1997) pp.79-92.
Obolensky., **Commonwealth**	Obolensky , D ., - The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500 – 1453, (London, 1971) .
Obolensky., **Crimea**	Obolensky , D ., " The Crimea and the north before 1204" Αρχειον Ποντου 35 = Papers given at the 12 th Spring Symposium of Byzantine Studies, Birmingham,1978, Athens,1979,pp.123-133.
ODB	Oxford Dictionary of Byzantium .

Oman., **Dark** — Oman,Ch.,The Dark Ages,476-918.(London,1914).

Previte-Orton., **Italy** — Previte-Orton,C.,"Italy in the tenth century " **CMH** ,ed Hussey.J III(Cambridge,1981) pp.148-178.

Simonis de Keza., **Hungarorum** — Gesta Hungarorum , ed and trans by Veszpremy , L and Schaer,F, with study by Szucs, I(Budapest ,1999).

Stephenson., **Hungary** — Paul Stephenson ., " Early Medeival Hungary in English " **EME** ed by Julia Crick and Others ,10/1 (Oxford,2001) pp.95-112.

Symeon Magister ac Logothete., Symeon Magister ac Logothete , Symeon Continuatus , In :Theophanes Continuatus , **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838) ,pp.603-760.

Theophanes Continuatus.,Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata, Symeon, Magister ,Georgius Monchus Continuatus,**CSHB** ed Bekker.I,(Bonn,1838), pp. 3-481.

The Russian Primary Chronicle.,The Russian Primary Chronicle , English Translation by Cross And Wetzor (Cambridge-Mass,1953) .

Thompson., **History** — Thompson,J.W., History of the Middle Ages ,300-1500,(London,1931) .

Vasiliev., **Empire** — Vasiliev ,A., A history of the Byzantine Empire, 324 – 1453,(Madison ,1952).

Vernadsky., **Lebedia** — Vernadsky,G., " Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia " **B**,15 (Bruexelles, 1939) pp.179-204.

Vita Constantini , Eng trans In Medieval Slavic Lives,ed By Ladislav Matejka , (Michigan, No date) pp.23-96.

Vlasto., **Christendom** — Vlasto , A , P. , The Entry of the Slavs into Christendom ,(London ,1967) .

ثانيا : المصادر والمراجع العربية والمعربة .

أرشيبالد.ر. لويس **القــوى** : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) تــرجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

الاصطخرى **مسالك** :أبو إسحاق إبراهــيم بن محمــد الفارسى ت ٣٤٠هــ/ ٩٥١م ، كــتاب مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد الله الحسينى ، (القاهرة، ١٩٦١م) .

الكرديزى **الأخبار** :زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، (القاهرة ، ١٩٨٢م) .

المتولى السيد تميم **البشناق** :البشناق والبيزنطيــون ، دراســة فى سياسة بيزنطــة الشمالية (٨٥٠هــ/١١٢٢م) رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية الآداب -جامعة المنصورة (١٩٩٦م).

المسعودى **مروج** : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هــ ــ٩٥٧م) ، مــروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ج ، (بغداد، ١٩٣٨م) .

الرمزى م.م **الأخبار** :تلفيق الأخبــار وتلقيح الآثار فى وقائــع قزان وبلغــار وملوك التتار ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٠٨م) .

اليعقوبى **البلدان** :أحمد بن أبى يعقوب بن جعفــر(ت ٢٨٤هــ/٨٩٧م) ، كتاب البلدان ، (ليدن - بريل ١٩٦٧م) .

بطرس البستانى :دائرة المعارف ، ج ٧ (بيروت ، د-ت) .
دائرة

جودة حسنين جودة ، فتحى أبو عيانة ، محمد خميس الزوكة : الجغرافيا الإقليمية ،
الجغرافيا (الإسكندرية د ــ ت).

دنلوب :تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربيـة وقدم له د/سهيل
الخزر زكار ، (بيروت ، ١٩٨٧م) .

ذكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصـور الوسطى ، (القاهرة
الرحالة ، د-ت) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :تاريخ الروس من خلال المصادر العربية،(القاهـرة ،
الروس ١٩٩٠م) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، مجلة
المسـلمون المـؤرخ المصـرى العدد السابع يوليو(١٩٩١)ص٣٩
-٨٠ .

سعيد عاشور :أوربا العصور الوسطـى ، التاريـخ السياسى ، الجزء
أوربا الأول ، الطبعة السابعة (القاهرة ،١٩٩٤م).

طارق منصور محمد :الروس والمجتمع الدولى٩٤٥-١٠٥٤م(القاهرة،٢٠٠١م)
الروس

كيستلر ، س :القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم ، (القاهرة ،١٩٩١م) .
القبيلة

محمد مرسى الشيخ :دولة الفرنجـــة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلــس حتى
الفرنجة أواخــر القــرن العاشر الميلادى٧٥٥-٩٧٦م/ ١٣٨-٣٦٦ه
(الإسكندرية ،١٩٨٠م) .

محمد مرسى الشيخ :الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية
الخزر العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع(١٩٨٠م)ص٣٤٨-٣٧٧.

نعيم فرح :تاريخ أوربا السياسى فى العصــور الوسطـــى ، (دمشق ،
أوربا ١٩٩٥ م).

هانئ عبد الهادى البشير : بيزنطة وبلغاريا ٦٨١-١٠١٨م (القاهرة ، ٢٠٠١م)
بيزنطة

هانئ عبد الهادى البشير : بعثة قسطنطين ومثود فى مورافيا (٨٦٢-٨٨٥م) ،
مورافيا مجلـــة كلـــية الآداب – جامعة طنطا ، العدد الرابع عشر
(يناير ٢٠٠١م) ص ٦٠٣-٦٣٧.

هلستر ، س :أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمـــة د/ محمـــد فتحى
أوربا الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٨٨م).

وسام عبد العزيز فرج : قراءة فى التاريخ المبكر لكرواتيا ــ البوسنة ــ الصرب
قراءة فـــى العصـــور الوســطى . " دراســات أثرية وتاريخية "
مطــبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، العدد ٨ (١٩٩٣م)
ص ١٤٧-١٩٩.

ب. عرض الكتب والرسائل

عامة المغرب الأقصي في العصر الموحدي، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.

عرض/ أحمد المحمودي

المغرب

يهـتم موضـــوع هذه الأطروحة بدراسة أوضاع طبقة العامة في إحدى أبرز مــناطق الغرب الإسلامي ويتعلق الأمر بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي كما يســتهدف إضـــافة حلقة أخري لمشروع لا يزال يخطو أولي خطواته في مجال البحث الأكاديمـــي، وحســـبنا أن التاريخ للعوام – باعتبار موقعهم في قاعدة الهرم الاجتماعي ومكانـــتهم في الاقتصاد والسياسة – كفيلاً بالإفصاح عن حلقة مركزية طالما تم إغفالها فـــي التصـــورات المعاصـــرة لـــتاريخ الإسلام – وتسليط الضوء علي الميكانيزمات والأســـس المـــتحكمة فـــي المسار التاريخي العام، والوقوف علي أدق تفاصيل الحياة اليومـــية والثقافـــية والدينـــية، وتعرية مختلف مكونات ومفاصل البنيان التاريخي وفق تصـــور أكـــثر شـــمولاً واكتمالا قصد إنصاف هذه الطبقة المهملة في الأبحاث العلمية ووضـــعها فـــي مكانـــتها التاريخـــية اللائقة، وبالتالي تجاوز متاهات ونقائص التنظير والشـــروع عملياً في إنجاز تاريخ للعوام واستيعاب شمولي لكل الاستفهامات والقضايا التي ترتبط بهم.

وممـــا يـــبرر اختـــياري لهـــذا الموضوع اقتناعي بضرورة الكشف عن ذلك الإقصـــاء والإبهام الذي شمل العديد من الأنشطة الحيوية لطبقة عامة ودورها التاريخي والحضـــاري علي عهد الدولة الموحدية التي امتد عمرها من (٥٤١ – ٦٦٨هـ) وهو مـــا يمكـــن أن يساهم في تفسير وفهم المسار التاريخي للمجتمع المغربي وتطوره أكثر مما تفسره الأحداث العسكرية والتحولات السياسية.

وقـــد اعـــتمد هـــذا الاختيار أيضاً – في الأساس – علي المركز الذي شغلته العامة في إطار البنية الاقتصادية حيث شكلت قوام القوي المنتجة من حرفيين وفلاحين ممـــن وقـــع علي كاهلهم عبء الإنتاج الاقتصادي، كما ارتكز – أيضاً – علي فعاليتها السياسية التي تنامت بشكل واسع في ظل سيادة الإقطاع وما ترتب عنه من آثار سلبية

بالنسبة للطبقة الوسطي، مما أفسح المجال أمام العامة لتحل محلها في قيادة المعارضة السياسية، والمشاركة بقوة في صياغة الأحداث العامة خلال العصر الموحدي.

ورغم الأهمية العظيمة والبارزة لدور العامة، فإنها لم تنل من مؤرخي السلطة ما يكشف عن هذه الأهمية وظلت خارج اهتماماتهم التي تمحورت حول حياة السلاطين والأشياخ واعتبروها المدخل الرئيسي لفهم حركة التاريخ في هذه الفترة، ومن ثم تفننوا في صياغة عبارات القدح والتنقيص في حق العامة، فهم جماعات من الغوغائيين والسفلة والهمج والرعاع التي لم يكن بمقدورها القيام بأي دور علي الصعيد التاريخي والحضاري، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار انعدام وجود كتابات تاريخية تعبر عن وجهة نظر العامة وتساعد في ذات الآن علي إثارة قضاياهم وما تفرزه من تساؤلات منهجية وموضوعية خاصة بهم في علاقاتهم مع السلطة والمجتمع معاً.

ومن جانب أخر، وارتباطاً بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع نعتقد أننا اقتحمنا موضوعاً جديداً وحقلاً بكراً وقطاعاً منسياً ومغيباً، ومن ثم حرصنا علي بذل ما في المستطاع والجهد قصد الإلمام بمختلف الجوانب الخاصة بموضوع العامة، والاستناد إلي كل ما من شأنه أن يساعدنا منهجياً وموضوعياً علي تسليط ما يكفي من الأضواء حول الأدوار التي نسبت للعوام في العصر الموحدي، وكان لزاماً علينا أن نوسع آفاق البحث والمساءلة لتشمل مجمل القضايا والاستفهامات التي يطرحها الموضوع، والوقوف عند أدق التفاصيل وذلك بالركون إلي توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف المصنفات الوسيطة وذلك بإجراء قراءات واسعة في متونها، والانفتاح علي المظان التي ظلت مهمشة، ولم شتات النصوص المبعثرة، والانتباه إلي قيمة المصادر غير المستعملة، ما يوفر المادة والأدوات الكفيلة باقتحام الموضوع، وهكذا فقد استفاد البحث من مضامين كتب التراجم والطبقات والنوازل والأحكام الفقيهة، وما تزخر به كتب الفلاحة والأطعمة والتصوف والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية والحكم والأمثال وكتب الحسبة.

واقتـــناعاً بأهمية توسيع مجال القراءة لتشمل مختلف أصناف التأليف لم نذخر جهـداً في استغلال فيض من المصنفات الأدبية بما في ذلك كتب الشعر والمستظرفات والحكايـات الرمـزية، والاسـتفادة مـن الرسـائل واستقراء محتويات بعض الكتب الموضوعة في الطب والأوزان والمكاييل وفهارس الكتب والتسفير.

وللوقـوف عن كثب علي تطور الاهتمامات في أوساط المختصين في التاريخ الاجتماعـي والمشـتغلين بـتاريخ الغـرب الإسلامي عموماً ومتابعة القضايا المثارة وتحصـيل النتائج وفحص المناهج، تشعبت القراءة فيما لا يسع ذكره في هذا المقام من كـتاب العـرب والمستشـرقين فـي مجالات الفلاحة والثقافة والنظم السياسية، وفي المواصـلات والأغذيـة واللغة والفنون وغير ذلك مما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم نغفل الاستفادة من حصيلة عدد من الأبحاث الاركيولوجية مع توسيع القراءة لتشـمل عـدداً مـن الدراسـات التي أنجزت عن المشرق الإسلامي وبعض الممالك المسـيحية والمـدن الإيطالـية بمـا يفيد المقارنة وتدقيق ما انتهينا إليه من خلاصات واستنتاجات.

واسـتفدنا أيضـاً من المنهج المقارن وذلك بتوسيع دائرة المقابلة لتشمل العدوة الأندلسـية وبـلاد المشرق فضلاً عن بلاد الفرنجة في محاولة لاستخلاص خصائص العصر المميزة.

وبفضـل ما تراكم من مادة تاريخية أمكن تناول الموضوع وفق نظرة شمولية تـتوخى الإحاطـة بمخـتلف الجوانب ورصد كافة التجليات وارتباطها بعضها ببعض مسـتهدفاً مـتابعة الظواهـر التاريخـية في نشأتها وتكوينها وتطورها مع وضعها في السياق ضمن المسار العام.

ووظفنا المادية التاريخية وأدواتها العلمية مدعمة بمنهجيات شتي مستوحاة من أحـدث ما كتب في مجال المناهج، ومن أوثق المصادر العربية في الهيكلة والتصنيف والوصـل بيـن البنيات والأنساق والمستويات، ولم نغفل الاستعانة بالمناهج الحديثة في علـم الاجـتماع اللغوي والسيميائيات من أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم والإحاطة بمكامن التفاعل بين العامية والفصحي والأعجميات المتعايشة.

واستناداً إلي هذا التناول المنهجي تمت دراسة الموضوع في ستة فصول بالإضافة إلي مقدمة وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع والدراسات، وتتضمن المقدمة دراسة نقدية للمظان المعتمدة مع إبراز قيمة كل صنف في تغطية مباحث الأطروحة.

خصص الفصل الأول لرصد البنية الاقتصادية للمجتمع المغربي ودورها في صياغة الهرم الاجتماعي علي أساس "طبقي" وذلك بتتبع مسار تطور أشكال ملكية الأرض وتحديد نمط الإنتاج السائد، فضلاً عن إبراز القسمات العامة للنشاط الزراعي – الرعوي، والنشاط الصناعي والتجاري، واهتم الفصل الثاني بتحديد الشرائح المكونة لطبقة العامة والتفصيل في وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية تأسيساً علي أنه رغم تنوع شرائح هذه الطبقة إلا أنها تشترك جميعاً في ضآلة حيازتها للثروة، وعالج الفصل الثالث بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة رابطاً بين المظاهر والأسباب.

وتعرض الفصل الرابع لذهنيات العامة باعتبارها تجليات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة.

وتصدي الفصل الخامس لمعالجة العلاقة بين المتصوف والعامة إن تأييداً أو إن انحيازاً للسلطة، كما عرض تأثير المتصوفة في كثير من معتقدات العامة وصياغة نظرتها للوجود.

أما الفصل السادس والأخير فتناول الدور السياسي لطبقة العامة فعالج شطره الأول العلاقة المصلحية بين العامة والخلفاء وتضمن شطره الثاني تحليلاً لأبرز ثورات العامة ذات البعد الاجتماعي في مطالبها وموقف السلطة الموحدية منها، ورصدنا في الخاتمة أهم ما أسفرت عنه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج واستخلاصات نأمل صادقين أن تصلح لتعزيز رصيد الأبحاث الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي في العصر الوسيط عامة وفي العصر الموحدي خاصة.

وتفادياً للإطناب في عرض نتائج هذا البحث الذي سيستفيد ولاشك من ملاحظات السادة الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة الموقرة نود أن نشير إلي أن الأوضاع الاقتصادية المتردية ساعدت علي توضيح كثير من جوانب البنية الاجتماعية

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهمية – الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة – عكس نساء الخاصة– الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم ۰ وعلى جانب أخر لم يغب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة علي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف علي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

بالـــرغم من محاولات المتصوفة لإصلاح وإنعاش أوضاع العامة المتأزمة إلا أنهم في الواقع لم يزيدوها إلا خمولاً وإحباطاً وهو ما عطل جزءا من قدراتهم الذهنية ووفر مزيدا من عناصر الانغلاق فاسحا المجال لتفشي الخرافات والشعوذة ٠

والظاهرة أن العامة وجدت في الخطاب الكرامى ما يناسب أوضاعها ويوافق تطلعاتها فهو إفراز لواقعها المعيشي ٠

وفى ما يتعلق بدور العامة على الساحة السياسية تقصى البحث صيغ وأشكال الـــثورات التـــي أقامـــتها العامة وذلك بتحليل أبعادها الاجتماعية والفئات التي انضوت تحت لوائها٠

والملاحـــظ أنـــه بالرغم من أن هذه الثروات أتاحت للعامة المشاركة بقوة في صياغة الأحداث السياسية في تلك الفترة، فإنها عجزت عن تحقيق أغراضها أو إحداث تغيـــيرات جذريـــة علي الصعيد السياسي والاجتماعي ويرجع ذلك بالأساس إلي انعدام التنظـــيم وتخلـــي الطـــبقة الوسطي عن قيادة الحركة السياسية، فضلاً عن قمع السلطة المتواصل لنشاطات العامة.

وعلي جانب أخر يمكن الإشارة أن العامة بفضل هذه الثورات نجحت في لفت الأنظـــار إلـــي الواقع المأساوي الذي تعيشه وإجبار السلطات القائمة علي التخفيف من شطط استغلالها.

وتجـــدر الإشارة إلي أن شح المادة التاريخية قد أفضي إلي عدم استيفاء بعض الموضـــوعات حقهـــا مـــن الدراسة فظلت إشكالات مطروحة علي بساط البحث مثل: الإحصـــاء العـــددي للعامة، أشكال جباية الأرض العينية والنقدية في العصر الموحدي وعلاقـــتها بمســـتوي تطور البنية الاقتصادية، فضلاً تنظيمات الأصناف التي ما يزال تركيـــبها الداخلي والعلاقة القائمة بين أصحاب العمل والأجراء من الأمور التي يكتنفها الغموض.

وفـــي الـــنهاية يمكـــن الإشارة إلي أن المعطيات التي ساقها البحث عن مدار صـــفحاته قـــد أكـــدت الدور الحيوي والهام الذي قامت به العامة علي صعيد الحضارة الإســـلامية، الأمر الذي يحتم دمجها في نسيج تلك الحضارة بدلاً من نفيها خارج إطار تاريخها المسطور.

عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتى القرن العاشر، القاهرة، ٢٠٠١.

عرض/ محمد مؤنس عوض

مصر

يقع الكتاب القيم المذكور في ٦٧٤ صفحة من القطع المتوسط، واحتوي علي التمهيد والذي انقسم بدوره إلي المقدمة ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع، ثم أربعة أبواب احتوت تسعة فصول، وهي كالآتي: الباب الأول، وعنوانه: إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، وانقسم إلي فصلين، الفصل الأول، اشتوريس قبل الفتح الإسلامي، الفصل الثاني، الفتح الإسلامي لإقليم اشتوريس أما الباب الثاني فعنوانه: المقاومة الأسبانية في طور التكوين ٧١٤ – ٧٣٩م/ ٩٥ – ١٢١هـ، واحتوي فصلين الأول بلاجيوس وميلاد المقاومة في إقليم اشتوريس، الفصل الثاني تطور المقاومة في اشتوريس حتي عام ٧٢٢هـ/ ١٠٣هـ، الفصل الثالث، رد الفعل الإسلامي للمقاومة في إقليم اشتوريس حتي ٧٣٩م/ ١٢١هـ، أما الباب الثالث، فعنوانه: فرض الوجود الأسباني ورد الفعل الأندلسي ٧٣٩ – ٧٨٨م/ ١٢١ – ١٧٢هـ، واحتوي فصلين، الأول عنوانه قيام مملكة اشتوريس وتجرؤها علي الأندلس ٧٣٩ – ٧٥٧م/ ١٢١ – ١٤٠هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه، الانتكاسة الأسبانية ومهادنة الأندلس ٧٥٧ – ٧٨٨م/ ١٤٠ – ١٧٢هـ، وجاء عنوان الباب الرابع: الصحوة الأسبانية واشتداد الضغط علي الأندلس ٧٨٨ – ٩١٠م/ ١٧٢ – ٢٩٧هـ واشتمل علي فصلين هما: الفصل الأول، مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي ٧٨٨ – ٨٥٢م/ ١٧٢ – ٢٣٨هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه تمزق وحدة الأندلس وتفوق أشتوريس ٨٥٢ – ٩١٠م/ ٢٣٨ – ٢٩٧هـ، وأخيراً احتوي الكتاب عللي الخاتمة، ثم عدة ملاحق، ومن بعدها الخرائط، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وبدايـــة، أود أن أقدم للمؤلف أصدق التهاني القلبية الصادقة علي صدور كتابه الأول وهـــو فـــي الأصل أطروحتيه للماجستير والدكتوراه، وبالفعل فقد احتوي الكتاب علـــي جهد علمي بارز خاصة من حيث ترجمة المؤلفات المصدرية، والمرجعية، وهي بعـــدة لغـــات أوربية، ولا ريب في أنه يقدم إسهاماً علمياً جديراً بكل تقدير وجاء ليسد ثغرة واضحة المعالم في المكتبة العربية خاصة في مجال دراسات تاريخ المسلمين في الأندلـــس في العصور الوسطي، ولا أغفل هنا ضمن الحديث عن إيجابيات الكتاب أن مؤلفه انفق في إعداده عدة أعوام طويلة فأستحق الإشادة الجديرة به.

ومـــع ذلـــك، فإن أي عمل علمي لابد من أن يحتوي علي بعض الزوايا التي يمكن الاختلاف بشأنها مع المؤلف، مثل طبيعة كافة العلوم الإنسانية ذات البعد الجدلي، ومن البداية أود التأكيد علي عدة حقائق:

أولاً: إن ملاحظاتـــي التالية لا ولن تقلل من القيمة العلمية للكتاب التي أشدت بها في السطور السابقة.

ثانـــياً: إن الملاحظـــات التالـــية ما هي إلا نماذج وليس كافة ما ألاحظه علي الكـــتاب، ولا أتشكك لحظة في أن المؤلف بما عرف عنه من خلق رفيع، وموضوعية سوف يتسع صدره من أجل قبولها حتى ينفذها في الطبعة الثانية بإذن الله تعالي.

ثالـــثاً: ما يتم إبرازه في هذا العرض من تصورات هي بالتأكيد مفيدة للمؤلف خاصـــة أن هذا هو العمل العلمي الأول في صورة كتاب ينشر له، والأمل معقود عليه وعلـــي غـــيره مـــن الباحثين الجادين من أجل إصدار العديد من المؤلفات عن تاريخ المسلمين في الأندلس في العصور الوسطي.

ويمكن إجمال أهم الملاحظات علي النحو التالي:

١. العـــنوان "الحـــروب الصليبية في الأندلس"، والواقع أن المرحلة التي يـــتحدث عنها المؤلف لا توصف بأنها حروب صليبية "حقيقية" بل هي مرحلة ما قبل الصليبيات، Pre-Crusades، فما قبل عام ١٠٩٥م، يعد مقدمات لوجودها الحقيقي مع دعوة البابا أوربان الثاني Urbanus II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) لها في مجمع كليرمونت بفرنســا، وإلقـــاء خطاب تاريخي في ذلك الشأن في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وإلا اعتبرنا

حــروب هرقل ضد الفرس في القرن السابع الميلادي حروباً صليبية، أو حروب القادة العسكريين الذين حكموا بيزنطة مثل نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس العاشر الميلادي في الرابع الهجري ضد المسلمين حروباً صليبية، وهو أمر عكس الواقع التاريخي.

لقــد جــاء الكــتاب خالــياً من الحديث عن الدور البابوي، فكيف تكون هناك حروب صليبية دون البابوية وهي التي تعرف أحياناً بأنها السياسة الخارجية للبابوية؟، ثم أن المؤلف لم يقدم لنا البراهين الدالة علي أنها حروب صليبية في معرض دراسته، ممــا يعكس أن العنوان لم يكن موفقاً وكنت أفضل أن يكون هو نفس عنوان أطروحتيه العلميتين اشتوريس والمقاومة الأسبانية للفتح الإسلامي

١- كنــت أفضل ألا يضع المؤلف في العنوان كلمة "ميلادها"، بل نشأتها، أمــا عــبارة "دراســة نقدية" فأختلف معه بشأنها لأن ما أورده في الكتاب لم يكن كله دراســة نقديــة كما ذكر بل فيه جانب من التعريف بالمصادر سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأسبانية وغابت "الرؤية" النقدية عن عدد من المؤلفات.

٢- جــاءت خطــة الدراســة لــتركز تماماً علي الجانب السياسي، دون الإشــارة إلي أية زوايا حضارية، وهي نقطة بالغة الأهمية وكان الأجدر بالمؤلف ألا يغفــل ذلك الجانب وهو أساس للدراسة الأكاديمية الموضوعية بحكم التأثير والتأثر بين الزوايا السياسية والحضارية ضمن السياق التاريخي العام.

٣- اتســمت الخطــة بالطابع الزمني، وكنت أفضل التقسيم الموضوعي الــذي يراعــي البعد الزمني وهو بالتأكيد أقدر وأوفي وأشمل من النمط الزمني الذي يتصف بالطابع التقليدي والنمطي ولا يعطي للمؤرخ مساحة أكبر من الابتكار.

٤- أورد المؤلــف الفاضل قائمة بأهم الاختصارات في ص٥ من الكتاب، وأتصــور أن موضــعها الحقيقــي قبل قائمة المصادر والمراجع والحالة الوحيدة التي توضــع فيها في الصفحات الأولي من الكتاب عندما يكون متخصصاً في الببليوغرافيا كما في حالة كتاب هانزماير. بيلوغرافيا تاريخ الحروب الصليبية، الصادر في هانوفر عام ١٩٦٥م.

Hans Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, Hannover 1965.

حيث أورد ماير قائمة بالغة الثراء بالاختصارات في مقدمة الكتاب.

٥- لـم يورد مؤرخنا في مقدمة الكتاب المنهج المتبع في الدراسة وبصفة عامـة، جاء جهده وفق المنهج السردي الوصفي باستثناء بعض المواقف الممتازة في معالجتها التي بذل فيها جهداً جديراً بكل تقدير حل الأحداث وتوصل لنتائج طيبة غير أن ذلـك جاء بصورة جزئية دون أن تكون ضمن تصور شامل للمعالجة التاريخية من بداية الدراسة إلي أخرها كما هو مفترض علمياً.

٦- خلـت الدراسة من "الإشكاليات" إلا في النادر، أتصور أن إشكاليات الدراسـة علي جانب عظيم من الأهمية، بالإضافة إلي المنهج المتبع مع ملاحظة عدم الانفصال بينهما.

٧- مـن المؤسف حقاً أن المؤلف الفاضل لم يورد اسم أ.د. عبد المنعم ماجد علي أنه المشرف الفعلي علي الدراسة، فقد أورد اسمه دون أن يذكر أنه الأستاذ الدكـتور المشـرف بـل أورده ضمن الذين عاونوه في الدراسة، وأود التقرير هنا أن كاتـب هـذه السطور أشرف عليه مؤرخنا الراحل وأفدت من علمه بحكم تتلمذه علي المستشـرق الفرنسـي الـبارز ليفي بروفنسال Levi Provencal وقد أشرف علي أطروحتـي للماجسـتير فـي مرحلة من مراحلها، وحالياً يتم تخصيص جزء عنه في كـتاب "مؤرخون مصريون رواد لمرحلة العصور الوسطي" الذي سيصدر قريباً بإذن الله تعالي، وهذا حق المشرف الراحل علي كل من تتلمذ علي يديه، وأفاد من علمه.

٨- العمـل العلمـي الذي يمثله الكتاب تم أعداده منذ عقد ونصف تقريباً (حوالـي ١٥ عامـاً)، وخلالهـا صـدرت العديد من المؤلفات بالعربية والإنجليزية والأسـبانية وكان علي المؤلف متابعتها، غير أنه في قائمة المصادر والمراجع لم أجد مؤلفـات في حقبة التسعينيات إلا خمسة كتب فقط باللغة العربية، وأذكر المؤلف بندوة الـتاريخ الأندلسي في المملكة العربية السعودية الصادرة بمناسبة مرور ٥٠٠عام علي سـقوط غر ناطة، والكتاب البيليوغرافي الصادر عنها، وكذلك ندوة أخري في مصر في جامعة الإسكندرية، وغيرها من الندوات والإصدارات.

٩- هـناك مغالطـة واضـحة أوردهـا المؤلف، إذ بعد إيراده لمؤلفات الباحثين المصريين في مجال تاريخ الأندلس قال ما نصه:

"ولعلـه يتضـح من عناوين المؤلفات العربية السابقة أنها اختصت في معظمها بتاريخ المسلمين في الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لا يبيريا ولفترات متفاوتة تصل في بعضـها إلـي إخلاء المسلمين لها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، علي أن بعضـها قـد اهتم أيضاً بالتاريخ للقوي المسيحية الأسبانية – ومنها اشتوريس إلا أن روايـتها فـي هـذا الصدد تتسم بالعمومية، والإيجاز، وأحياناً بالغموض، وتفتقد إلي التحلـيل والتمحـيص بسبب اعتماد مؤلفيها علي المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينـية. باسـتثناء بعض المؤرخين المصريين الذين تقف كتاباتهم كدليل قاطع أيضاً علـي السبق المصري في الانفراد حتى وقتنا الحاضر بالإطلاع عليها والاستفادة منها جنباً إلي جنب مثيلاتها الإسلامية".

وأود الـتقرير بأن العبارات السابقة تتسم بالتعميم وعدم الموضوعية خاصة أنه اغفل سبق وريادة الراحل أ.د. حسين مؤنس في مقالته بعنوان:

"بـلاي ومـيلاد اشتوريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال أسبانيا"، وهـي منشـورة فـي مجلـة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م(١١)، جـ (١) مايو ١٩٤٩م.

ويلاحـظ أنـه اغفل ذكرها في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع علي الرغم من استعانته بها وإيراداها في قائمة المصادر والمراجع، في ص٦٦٨.

أمـا القول بأن الدراسات السابقة علي دراسته "تتسم بالعمومية والإيجاز وأحياناً بـالغموض وتفـتقر إلي التحليل والتمحيص" فأود أن أنبه المؤلف إلي أن من كتب في موضـوعه منهم أ.د. حسين مؤنس، أ. محمد عبد الله عنان وهما عملاقان من عمالقة المؤرخين الرواد.

مـن ناحـية أخري، هاجم المؤلف أطروحة أ.د. رجب محمد عبد الحليم وهو الآن أسـتاذ الـتاريخ الأندلسي في معهد الدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة:- وهي بعـنوان: العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية

القـرن الخـامس الهجري .ط. القاهرة١٩٨٠ م (انظر عباراته ص١٥)، وأود التقرير بـأن الدراسـة المذكورة علي جانب كبير من الأهمية، لمؤرخ فاضل، وتحتوي علي جزء خاص بالصلات الحضارية بين الطرفين، وهو آمر خلت منه دراسة مؤلفنا.

كذلـك كان موقف المؤلف من دراسات أ.د. عبد الرحمن الحجي التي اتصلت بموضـوع الكـتاب علـي الرغم من أنه حصل عليها من خلال أطروحة علمية من جامعـة كامبردج عام ١٩٦٦م، وقد قرر ما نصه: "فلم تكشف أي من هاتين الدراستين عن جديد....".

وأكـرر قـيمة جهـد أ.د. عبد الرحمن الحجي الذي يجيد الإنجليزية والفرنسية والأسـبانية، وأدعـو المؤلف إلي التأني في إطلاق الأحكام علي الذين سبقوه بإصدار مؤلفـاتهم بعشـرين عامـاً، وبالتالـي كانت لهم الريادة في دراسة جوانب من نفس موضـوع دراسـته مـن ناحية أخري، أود التأكيد علي أن ما أورده بشأن الدراستين المذكورتين مكانه ليس في المقدمة بل في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع.

١٠- فـيما يتصـل بالباب الأول، وهو بعنوان إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/٩٥هـ، وشمل الصفحات من ١٢٣ إلي ١٩٦ أتصور أنه لا يعد باباً بل فصل تمهيدي للدراسة، لأنه لا يدخل في صلب العمل العلمي.

١١- خصـص مؤلفنا الباب الثاني الذي يحتوي علي ثلاثة فصول لأحداث ٢٦ عامـاً مـن ٧١٤ – ٧٣٩م/ ٩٥ – ١٢١هـ وذلك علي مدي الصفحات من ص ١٩٧ إلـي ٢٩٣، أي مـا يزيد علي المائة صفحة، بينما خصص فصلاً مستقلاً فيما بعـد، وهو بعنوان تمزق وحدة الأندلس وتفوق اشتوريس لتتناول ٥٩عاماً في المرحلة الواقعـة بيـن عامي ٨٥٢ – ٩١٠م/ ٢٣٨ – ٢٩٧هـ، وهنا يكمن الخطأ في التقسيم الزمنـي لا الموضـوعي للدراسـة مع تقديري الكامل لوضع الخطة بالصورة القائمة عليها إذ أن الاختلاف في وجهات النظر – كما يقال – لا يفسد للود قضية.

١٢- توجـد عناوين للفصول ليست ذات طابع علمي مثل الفصل المعنون بـ "مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي"، فكلمة مرونة لا تصلح في عنوان فصل في أطروحة علمية لأنها ليست ذات تحديد علمي دقيق.

١٣- استخدم المؤلف كلمة "جمود" علي موقف الدولة الأموية من اشتوريس في مرحلة من مراحل تاريخها (انظر ص٤٤٧)، وأورد التقرير أن الكلمة المذكورة لا تذكر في الدراسات الأكاديمية لأن التاريخ حركة مستمرة والثابت الوحيد هو التغير.

١٤- هناك صفحات في الكتاب بلا توثيق كما في الآتي: صفحة ٤٤٧و ٤٤٨ علي الرغم من احتوائهما علي "معلومات" تاريخية مستقاة من مصادر ومراجع ولا نجد بها أفكاراً تحليلية من عند المؤلف نفسه.

١٥- أورد مؤرخنا في ٤٧٩ نصاً لاتينياً شمل نصف الصفحة دون أن يترجمه، فما قيمة إيراده دون ترجمته، والواقع أن موضعه في الملاحق مع إيراد الترجمة العربية له.

١٦- شملت الملاحق قسماً من الكتاب من ٥١٩ إلي ٥٥٠ وهي باللاتينية دون أن تترجم، والسؤال ما قيمة إيرادها لتشمل نحو ٣٠ صفحة من الكتاب، والمفروض أيراد النص المصدري وترجمته العربية حتى يستفيد منه الباحثون الذين سيتناولون موضوعاً قريباً من الموضوع الحالي.

١٧- استعان مؤرخنا بكتاب الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطي لماجد والبنا، (وقد أورد أنه دون تاريخ للطباعة، انظر ص٦٥٦، والحقيقة أنه صدر بالقاهرة عام ١٩٦٨م) ويلاحظ أنه مع تقديري الكامل للكتاب المذكور إلا أنه مع صدور كتاب العلامة أ.د. حسين مؤنس أطلس تاريخ الإسلام المزود بالخرائط البالغة الدقة تم بمقاييس الرسم المحددة كان من الممكن الإفادة منه خاصة أنه الأحدث دون الإقلال من جهد الرائدين أ. ماجد، د. البنا الذي كان متميزاً وقت صدوره بطبيعة الحال.

١٨- أحياناً، يورد عنوان المصدر التاريخي دون اسم المحقق كما في حالة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء الذي يذكر صدوره في باريس عام ١٨٤٠م. والمفروض أن بذكر تحقيق رينو ودي سلان .

١٩- أحياناً يضع التاريخ الهجري والمقابل الميلادي لوفاة المؤرخ، وأحياناً أخري لا يفعل ذلك، والمفروض السير علي قاعدة واحدة، كما في ص٦٣٤.

٢٠- استعان المؤلف بدراسات قديمة وعامة مثل كتاب Burke بعنوان A History of spain، الصادر في لندن عام ١٩٠٠م وهناك مثل آخر أورده في صورة كتاب صدر عام ١٧٠٥م ، وهو بعنوان

Catalonia: A Geographical and Historical Account of the principality of Catalonia and Earldom of Barcelona, London 1705

ولا أتصور إمكانية وجود قيمة علمية بارزة لكتاب مر علي صدوره قرابة ٣٠٠عام، لقد تجاوزته كتب الجغرافية التاريخية الصادرة من بعد ذلك علي مدي ثلاثة قرون كاملة، وفي حالة كونه من المصادر التاريخية لكان من الممكن قبول الأمر، أما أن يكون من المراجع فالأمر يحتاج إلي مراجعة وأتصور أن المؤلف الفاضل يتفق معي في هذا الشأن، وأتمني أن يكون هناك خطأ مطبعي! ويقال أيضاً نفس الأمر علي كتب عامة من أمثلة ذلك كتاب

Dubois, L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859

أي أسبانيا القديمة والحديثة، وقد صدر عام ١٨٥٩م ولا أتصور أهميته المباشرة لموضوع الدراسة.

ونفس الأمر يتكرر بشأن كتاب

Hannay, Spain, Great Britain 1917

فهو عام ناهيك عن صدوره في العام المذكور

وهناك مثال آخر في كتاب

Fayyaz, A Short History of Islam, Oxford 1960.

فهو كتاب عام ومختصر عن تاريخ الإسلام وصدر منذ أربعين عاماً علي الرغم من صدوره من جامعة أكسفورد العريقة، ومنطقي تصور أنه ليس كل ما يصدر في الدول الأوروبية يتسم بالأهمية لأطروحة أكاديمية متخصصة.

٢١- من الملاحظ أن مؤرخنا الفاضل علي مدي دراسته عمل علي أن يقدم دور اشتوريس للقارئ العربي علي أنه دور ريادي وكأنها كانت القوة المسيحية الوحيدة المعارضة للوجود الإسلامي في شبة القارة الأيبيرية، والأمر عكس ذلك. إذ

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهمية – الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة – عكس نساء الخاصة– الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم ، وعلى جانب أخر لم يغب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة علي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف علي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

٢٤- أشار إلي كتاب أرشيبالد لويس، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسي وذكر أنه بدون عام للطبع، والواقع أن تاريخ طباعته معروف وهو عام ١٩٦٠م.

٢٥- أورد المؤلف اسم جمال الرمادي مؤلف كتاب فتوح العرب، والاسم الصحيح هو جمال الدين الرمادي.

٢٦- جاءت الخاتمة مجرد تلخيص لما ورد في الكتاب !!!، وبالتالي لم يركز المؤلف علي النتائج العلمية التي توصل إليها علي مدي فصول الدراسة، وفي تقديري أن تعليل ذلك يكمن في غياب إشكالية الدراسة ذاتها والهدف من إعدادها .

٢٧- أحياناً يضع المؤلف معلومات موضعها في الهامش كما في ص٤١٧ وص٤١٨ حيث تناول "صليب الملائكة" وأتصور أن أيراد ذلك الأمر في المتن يفسد السياق التاريخي للعرض.

٢٨- كنت أود أن يذكر مؤرخنا من عاونه في الترجمة عن الأسبانية واللاتينية لأن ذلك أمر له جانب كبير من الأهمية نظراً لتعدد المؤلفات، خاصة - الأسبانية - التي أفاد منها في إعداد دراسته القيمة.

وبعد؛ فإن كافة تلك الملاحظات لا ولن تقلل من قيمة الجهد العلمي البارز في الكتاب المذكور، والذي يعكس إنفاق مؤرخنا الأعوام الطوال من أجل إنجازه بصبر وجهد ومن المهم أن اذكر القارئ بأن مادة تلك الدراسة تم إعدادها بالسفر إلي إنجلترا، وأسبانيا، علي نحو يعكس ما لدي مؤرخنا من اهتمام كبير بتخصصه الذي أتمني أن يثري من خلاله المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في المستقبل القريب بإذن الله تعالي.

إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، ١٩٩٨، ٢٥٦ص.

عرض/ محمد تضغوت

المغرب

يدخـــل هـــذا العمـــل الـــذي نتشـــرف بقـــراءته ضمن مجموعة من الأبحاث والدراســـات التـــي أنجـــزها د. إبراهيم القادري بوتشيش، في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعـــي، وهو حقل لا تزال العديد من قضاياه لم تدخل بعد دائرة البحث التاريخي المنظم

هذا الكتاب يأتي ليضيف إنتاجا موسوماً بالجدة، ويزكي الصورة المشرقة التي يتمـــتع بهـــا الباحث المؤلف في واجهة الدرس الأكاديمي المقتدر، ولعل المهتمين بحقل الاقتصــــاد والمجـــتمع في تاريخ المغرب الوسيط ليسوا في حاجة إلي أن أقدم لهم هذا الكتاب وفوائده منهجاً وبحثاً وتحصيلاً.

وعلـــي ما يبدو، فإن هذا المؤلف – الذي نحن بصدده – هو في الأصل جزء مـــن أبـــواب الأطـــروحة التي أنجزها الباحث لنيل دكتوراه الدولة في تاريخ المغرب والأندلس، سنة ١٩٩١ – تحت إشراف الأستاذ د. محمود إسماعيل.

وقـــد سبق للمؤلف أن نشر قسماً منها في طبعة دار الطابعة سنة ١٩٩٣ تحمل عنوان: (المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء).

ولا نـــدري هـــل هـــذا العمل هو بالفعل جزء من المشروع، مثلما راهن عليه المؤلـــف، أو أنـــه عمل قائم في حيزه، ومستقل في ذاته، كما لا ندري إن كان تمفصل الأطروحة تحت حاجة النشر علي مراحل، مفيداً في تصحيح المعتل، وترميم التصدع، وإزالـــة الغمـــوض والإبهـــام الـــذي ظـــل يكتنف تاريخ المغرب الإسلامي في الحقبة الوسطي.

مـــع ذلك فهذه الدراسة – شأنها في ذلك شأن الدراسات المفيدة – تطمح إلي تأســـيس مشـــروع معرفي يروم إلي رصد العناصر الفاعلة في حركة تاريخ المغرب المنســـي أو المعـــتم، كـــذا تأسيس تاريخ شمولي ومتكامل ينتقد الحصيلة الضحلة من

المعلومـــات التي تركها التاريخ التقريري المبتذل، والسعي إلي نسج تاريخ من منظور جديـــد يتوخي رصد الظواهر التاريخية رصداً أميناً بعيداً عن مسلك الأدلجة، والانشداد المســـلم للـــنص الرسمي الذي أمسي مهيمناً علي مساحات شاسعة من تاريخ المغرب المعروف بالعنعنة والتداول.

فهل أفلح المؤلف في الإيفاء بالوعد الذي قطعه علي نفسه في مقدمة التأليف، وهل حقق الطموح الذي ظل يراوده وما يزال، أم ظل المكتوب – الذي نحن بصدده – لم يخرج علي نسق ذلك الصنم المعروف للمتداول المألوف.

إن الكـــتاب الذي نروم في هذه الورقة الموجزة تقديمه وتوصيفه واستعراضه وانـــتقاده يقـــع فـــي ٢٥٦ صـــفحة من الحجم العادي، صدر عن دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

ابـــرز الباحـــث في صدر التأليف، الدوافع التي كانت وراء تحفيزه علي كتابة تـــاريخ مـــن هـــذا النوع، فبين أن الحقبة المرابطية عرفت مخاضاً وتحولاً عميقاً في الاقتصاد والمجتمع الذي ازداد حجمه وتعددت عناصره، كما مثلت السياسة والثقافة في الحقـــبة ذاتهـــا، واجهـــة مـــن واجهات معالم التحول الجديد الذي ظهر جلياً في توحيد المجال السياسي المغاربي واتساعه، ووحدة المذهب وانتشاره.

أقـــر الباحث مبدئياً – في المقدمة – بصعوبة ولوج هذا الموضوع لأعتبارين أحدهمـــا: نـــدرة المـــادة التاريخية المتاحة، وثانيهما: تداخل الحقول المعرفية وتنوعها، وتراميها بين مجال الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة.

مـــع ذلـــك صـــرح بإمكان تجاوز الصعوبات بفضل توسيعه دائرة القراءة في المـــتون، والاهـــتداء إلي اكتشاف نصوص جديدة جري توظيفها لأول مرة، كذا تقويم الحصـــيلة بفضـــل تبني منهج علمي رصين، أثبت قدرته علي جمع الجزيئات، وفرز الظواهـــر المتشـــابكة، والعمـــل علي ربطها بالأبنية الفاعلة في النسق العام، ولم يفته استحضـــار الآراء الاستشـــراقية والـــتخريجات النظرية، والأطروحات الأجنبية التي لامست الموضوع من قريب، أو من بعيد ووضعها موضع اختبار وتأمل وانتقاد.

وبفضل ما تجمع لديه من مادة تاريخية متنوعة، عمل علي تفصيل الدراسة في أربعة فصول: خصص الفصل الأول منه لدراسة عناصر السكان وهجراتهم وتطورهم الديموغرافي، وعالج في الفصل الثاني أوضاع أهل الذمة، وعلاقتهم بالدولة والأهالي، بينما تناول في الفصل الثالث شكل البناء الطبقي وتراتب الفئات الاجتماعية، في حين اهتم الفصل الأخير بدراسة التكوين القبلي بالبوادي المغربية في الحقبة موضوع الدراسة، وختم بسلسلة من الملاحق والخرائط، اعتنت بمسألة توطين القبائل البربرية والعربية في بلاد الأندلس، واستخلاص ملحق تعريفي ببعض أثرياء الفقهاء الذين عرفهم العصر المرابطي، وتدبيج العمل بخرائط متنوعة بشأن الاستيطان المسيحي وأماكن التجمعات اليهودية في المغرب والأندلس، في حين يلاحظ أنه أسقط سهواً أو أغفل عمداً موافاة القاريء بقائمة من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في مكتبة البحث، فما محتويات ومضامين أهم ما ورد وطرح في هذه الفصول جميعها؟

من خلال تتبع فحوي الفصل الأول الذي خصصه الباحث للسكان والديموغرافيا أوضح أن مكونات المجتمع المغربي اتسم في حركته ونظامه الداخلي بسمات غلبة الظاهرة القبلية شكلاً ومحتوي، فالقبيلة انبنت من مجتمع الكثرة والتعدد، وقام اقتصادها علي موارد الغزو والغنيمة (ص٩)، وهذا التعدد الاثني شمل بالخصوص العناصر البربرية والعربية والمولدين والأقليات.

فبالنسبة للبربر قدم الباحث عرضاً مسهباً حول الأراء التي قيلت في أصول البربر وتفرعاتهم القبلية، ومع إقراره بصعوبة الحسم في هذا الموضوع بسبب تضارب النصوص وتناقض التفسيرات المقدمة في هذا الشأن، فقد اكتفي بمسايرة الأراء التي ترجع أصول البربر إلي المنبع العربي في شقه الحميري، والتي تصنفهم تلقائياً علي أساس معيار نمط العيش مسايراً للرؤية الخلدونية.

ومن خلال الخريطة الجيو- أثنية التي استلهمها من النصوص، أبرز أن الوجود المكثف للبربر في بلاد المغرب يعزي إلي ظروف تاريخية، وذلك قبل أن

يهاجروا بشكل كثيف إلي بلاد الأندلس التي استقروا بها خصوصاً في المناطق الثغرية لمواجهة القوي النصرانية، بعد امتداد النفوذ الاسلامي هناك (ص٣٦).

أمـا العـرب فقـد ظلـوا – في رأيه – نسبة قليلة العدد من سكان المغرب الأقصـي، عكـس الأندلـس التي لاحظ بأنها استقطبت هجرات عربية هامة بدءاً من تاريخ الفتح الاسلامي، وفسر هذا الاستقبال بتشابه البيئة الأندلسية مع البيئة العربية في الشرق، وهو ما انعكس في تشابه أسماء الاماكن أو تقاربها.

وفق الباحث في تقديم وصف وتعريف مسهب لمجموعة من الهجرات قصدت بـلاد المغرب والأندلس، وتابعها تاريخياً من زمن الفتح الأول لشمال افريقيا إلي زمن المرابطيـن، وجزم بحصول اندماج اثني واختلاط عنصري بين البربر والعرب لدرجة سـمحت بـالقول عن تبرير العرب وتعرب البربر، وهي ظاهرة اعتبرها الباحث ميزة طبعـت تـاريخ المغرب وخصوصيته (ص٤١)، وضرب أمثلة مستحضراً نماذج من بعـض الأسر الفاسية، والعائلات الصنهاجية التي عرفت تمازجاً واختلاطاً في الأنساب (ص٤٧)، كمـا برهـن علـيها في تناسي العرب لأصولهم المشرقية تحت تأثير نظام الخلافـة، فضـلاً عـن تنشـيط حركة الهجرة الداخلية ونمو أعداد المولدين، وذوبان الصـقالبة فـي الجسـم المغاربي خلال العهد المرابطي، واعتماد العنصر السوداني، وأتراك الغز في سلك الجيش وانتشارهم داخل المجتمع.

ولاحـظ الكاتب بأن هذا التنوع السكاني المتعدد الأصول والمشارب لم يتطبع بالـنعرة العنصرية والنزعة القبلية إلا في فترات الأزمات الاقتصادية والسياسية، وهو أمـر طبيعي – في اعتقاده – نظراً لتعدد مجال الاستيطان، وتبعات الحروب، وتلاحق المجاعـات، وتحرك السكان، وتباين التوزيع البشري بين الجهات، واعتماد الدولة علي اقتصاد الغزو.

ونظـراً للمكانـة السياسـية والاقتصـادية التـي لعبها أهل الذمة في الجسم المرابطـي، فقـد أفـرد لها مبحثاً خاصاً تناول فيه أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينـية وعلاقـاتهم بالدولة والأهالي سواء بسواء، ولاحظ بأن تلك الأوضاع وشكل العلاقـات، كانـت تتأرجح بين أساليب الشدة والتسامح تبعاً لتطورات الوضع الداخلي،

وطبيعة السلطة السياسية القائمة، وإن بدأ في رأيه بأن اقتصاد المغازي الذي تحكم في توجهات الدولة المرابطية، جعل تلك العلاقة – في الغالب الأعم – موسومة بالتعنت والاضطهاد والتغريم واستنزاف القوي المنتجة.

ويبرر الباحث ذلك في حاجة الدولة إلي المال، وليس إلي سبب ديني عقائدي، مثلما زعمت بعض المصادر والدراسات التي تناولت الموضوع، واستدل بظاهرة تقلد أهل الذمة المناصب السامية، وامتلاكهم العبيد من المسلمين، وتركهم بصمات واضحة في الحياة اليومية لمسلمي المغرب والأندلس، في مجال الأزياء والأطعمة والاحتفالات، والزخرفة والبناء والزراعة وتقنيات السقي واستنباط المياه (ص١١٥).

ويعتبر الفصل الثالث الذي خصصه الباحث لرصد البناء الطبقي في العصر المرابطي من أبرز فصول هذه الدراسة، وإن كنا نري – مبدئياً – بأن الفصل الرابع الذي دارت مباحث حول التكوين القبلي في البوادي المغربية يعتبر – منهجياً – مقدمة لفهم أسس البناء الطبقي ومكوناته، وليس نتيجة وخاتمة له مثلما جاء في المؤلف.

فالتنظيم القبلي والأعراف القبلية، وحياة القبيلة – هي جزأ لا يتجزأ – من مكونات المجتمع، فهي إذاً مقدمات أو بالأحري تجليات في المنظومة الطبقية المنضدة، والمنبلجة أساساً من إفرازات البنية التحتية المحددة في شكل الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن الذي وسمه الباحث – سلفاً – بأقتصاد الغزو.

وكيفما كانت الاعتبارات أو الخلفيات الكامنة وراء التقديم والتأخير، فإن ما ميز أدوات البحث في التراتب الطبقي في المجتمع المرابطي أن المؤلف لم يتبن مقياساً واحداً، ففي المدن استند إلي مقياس الثروة (أغنياء ، متوسطو الحال، مقلون) أو مقياس سوسيو- أخلاقي (أهل الوجاهة والكرم، فالسفلة واللئام، ثم طبقة ثالثة تتوسطهما)، في حين تم اعتماد معيار قرابة الدم، ومؤشر صلة الرحم في ترتيب مجتمع البادية.

وإذا كان من طبيعة البشر عموماً – وحسب رؤية المؤلف نفسه – (التطلع إلي الدنيا وأسبابها من جاه وثروة) (ص١٢٠)، فإن هذا المنحي ينطبق من دون أستثناء علي سكان البوادي، وسكان المدن إسوة بإسوة، بل أدهي من كل ذلك، كيف يمكن القول بوجود تقسيم العمل وعلاقات العمل وعقود الملكية، وتطور الرأسمال والاستثمار

والتبادل في اقتصاد مهتريء لا يتجاوز أنفه، أليس أسلوب النهب والوهب اللذين ميزا أسلوب الحكم والاقتصاد في العصور الوسطي دليلاً علي هشاشة البناء الطبقي، وميوعة في تراتب الأبنية الاجتماعية؟ بل كيف يمكن استخدام مقياس الثروة الظرفية في مجتمع قائم علي مزاج الحاكم، وعلاقات انتاج مبنية علي اقتصاد عرضي غير قار متسم بالعبور والظرفية؟. ثم هل بمقدور اقتصاد من هذا النوع أن يراكم الرأسمال، ويدفع واقعياً إلي أسلوب توظيف الأسهم والتعامل بالسلف والفوائد؟ ألا يوجد تناقض بين الزعم بالقول بوجود ثروة عقارية قائمة علي الإقطاع وثروة عابرة مجبولة علي الغزو والسلب والتلكيب (ص١٢٤).

وكيفما كان موقف الباحث من هذه المسائل التي لا أظن أنها قد غابت عنه، فإنه قد حاول وفق التصور الذي وضعه، رصد خصوصية الطبقة والتفاوت الطبقي في المجتمع المرابطي استناداً إلي استحضار ثلاثة معايير، حصرها في ملكية الأرض، ملكية الرأسمال، نوع الوظيفة، وإن رأي أن هذه المعايير التي اقترحها لم تتسم بالثبات في ظل اقتصاد ونمط انتاج هش مرتبط بالظرفية. فأقترح – من خلال النصوص التي وقف عليها ولا سيما ابن خلدون – اتخاذ معيار الجاه الذي يدفع بصاحبه إلي أعلي المراتب (ص١٢٥)، وضرب أمثلة بمجموعة من الناس ملكوا المال وسعة الحال، غير أنهم افتقدوا الجاه، فتعرضوا لأشرس النكبات، وقدم أمثلة من صنف أخر كانوا في غمار الخلق، فاستنهضوا في المكانة والقدر، بفعل نفع السلطان الذي فوت إليهم إدارة الأعمال (ص١٢٥).

وبما أن دولة المغازي هي أصلاً دولة السيف والتحلق حول الحاكم، فإن وضع ذوي الجاه لم يكن ليستقر علي حال، فبمجرد ما تعن الفتن تهتز الوضعية الطبقية والمكانة الاجتماعية لكثير ممن استظلوا سابقاً بالجاه، وقد استشهد بأبن خلدون الذي لمح إلي هذا الوضع، حين ذكر (بأنه قد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، فيرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية).(١٢٧)

ويـــبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة في العالم الاسلامي مشرقاً ومغرباً خلال العصـــور الوسطي، وهو ما يفسر ميوعة التشكيلة الطبقية في المجتمع الاسلامي، مثلما أومأنا إليه سلفاً في هذه الدراسة ودراسات أخري سبق أن أنجزناها.

مـــع ذلك فقد تسمك الباحث بدور الجاه وألصقه بمسألة الشرف وأصلة النسب واعتـــبرهما مؤشـــرين مركزيين (لاستمرار أركان المجد وقوادم الحمد وخوافيه)، بل نجده يؤكد النسب الشريف في التمايز الطبقي والفرز بين مراتب الأفراد.

ولا نـــدري كيف أضاف مذهب الدولة ذا المنحي المالكي، كذا توظيفه لعنصر القـــرابة المرســـوم بالعصبية، واحتراف العلم، في نسق المؤشرات التي رآها فاعلة في الارتقاء والتألق الطبقي.

ألـــيس المذهب والثقافة والجاه والشرف والحسب والنسب والقرابة، كما تفيدها الماديـــة التاريخـــية – التـــي هي التأطير النظري لهذا البحث – هي تجليات ومظاهره لتأثير الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن علي الأبنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية.

ومـــن ثمـــة، فالعناصـــر التي امتحنها الباحث واعتبرها فاعلة وموضبة للبناء الطبقـــي، نخالهـــا صوراً لهذا البناء ومكوناته، في حين تظل الثروة وتظافرها مع الجاه بمثابة الأسين الفاعلين في تحديد شكل الطبقة ونوعيتها.

أمـــا التزلف والتملق والوساطة في قضاء الحاجات، والتي أدمجها الباحث بين أدوات تحســـين الوضع الطبقي للأفراد، فهي في اعتقادنا لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر شكل البنية الاجتماعية وذيلاً من ذيولها.

وتأسيســـاً علـــي مـــا تم إثباته من خصوصيات بشأن التكوين الطبقي للمجتمع المرابطـــي، أنكـــب المؤلف علي تدريج المنازل، أو بالأحري الطبقات وفق التصنيف الذي اقترحه كما يلي:

- فـــي قمـــة الهـــرم وضع الكبراء والأعيان والأمراء وقادة الجيش والـــوزراء والكـــتاب والـــولاة والفقهاء، وبعض البيوتات الكبري المـــنحدرة من العائلات الوجيهة، فضلاً عن أطباء البلاط وشعراء السلطة، ضمن الفئات الاجتماعية المكونة لطبقة الخاصة.

وبصــــرف النظر عن الدعة والترف الذي طبع الحياة اليومية لهذه الفئات لأنها تحصـــيل حاصـــل، فإن ملاحظة الباحث النبيهة حول وسم هذه الطبقة بالهجينية، وعدم الانســـجام بفعل تضارب المصالح والتكالب علي المواقع والتهافت علي المال، فإننا لا نوافقـــه في الرأي حول طرح فكرة الفصل بينها وبين مؤسسة الدولة، وذلك حتي تقدر علي تطوير المجتمع وتتمكن من لعب دورها التاريخي.

وفـــي هذا الإطار تعن أمامنا مجموعة من التساؤلات، اختصرها في ما يلي، كـــيف يمكن الفصل بين المؤسسة السياسية ونظام الحكم القائم؟ بل كيف لنا أن نتصور قـــادة مـــن دون جـــيش، وجيش من دون سلطة، وسلطة من دون وزراء، ووزراء من دون دواويـــن . مـــا المقصـــود بالاستقلالية عن أجهزة الدولة، مع العلم أن الدولة هي أجهـــزتها – وفـــق مـــا طـــرحه المؤلف (١٥٩)– هل بالفعل معاقرة الخمرة، وإتيان الجـــواري، والاقبال علي المحرمات، واقتراف الفواحش والزنا، وهضم حقوق العامة، والسماع للألحان وأغاني القيان، يؤدي بالفعل إلي تفسخ هذه الطبقة وانحلالها، فما دور الحـــراك الاقتصـــادي فـــي تقوية الطبقة أو تفتتها – حسب ما يتداوله السوسيولوجيون أليس البذخ والترف والاستغلال وفساد الأخلاق، عناصر منفعلة ومنصهرة في منظومة الفعل الاقتصادي حسب منهج المؤلف نفسه؟.

هـــذه أسئلة ارتأينا طرحها لعلها تبيد الظلام وتراجع أحكام القيمة التي ما تزال تطغي وتخيم علي مساحات شاسعة من حيز الفكر التاريخي وآليات اشتغاله في المجال العربي الاسلامي. فما المنظور الذي قدمه الباحث للطبقة الوسطي؟

يـــري الأســـتاذ أن هـــذه الطـــبقة ضمنت شرائح اجتماعية متنوعة من تجار وصـــيارفة يهـــود وأربـــاب حـــرف وأصحاب مهن من مهندسين، وأطباء فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة وأهل العلم ص(١٦٠).

وقـــد اجـــتهد فـــي استحضـــار زخم هائل من النصوص تصف وضعية هذه الشـــرائح وتقلـــب أحوالهـــا، ولاحـــظ بـــأن هذه الطبقة بدورها اتسمت بعدم التجانس والانســـجام، كما أن افتقارها إلي النفوذ والسلطة – رغم حيازتها علي الثروة – لم تقو علـــي لعب دورها التاريخي علي غرار ما قامت به مثيلتها في أوروبا، وأرجع الباحث

سبب هذا القصور إلي طبيعة اقتصاد المغازي القائم علي الاحتكار والنهب والمصادرة.

وإذا كان المؤلف لم يسهب كثيراً في طرح مسألة دور الطبقة الوسطي في الفكر والتاريخ الاسلامي وحلحلة قسماتها الداخلية، وهو أمر كنا نعول عليه كثيراً لدعم أطروحة اقتصاد المغازي الذي أطر مباحث التاريخ الاجتماعي، فإنه بالمقابل خصص لطبقة العامة حيزاً وفيراً.

فهل تعزي هذه الوفرة إلي وجود مادة تاريخية بشكل كاف وفرتها مسألة نزول اعداد كبيرة من شرائح الطبقة الوسطي إلي صفوف العامة، وهو وضع قد يكون طبيعياً بحكم اقتصاد قائم علي النهب الداخلي والخارجي؟ أو يعزي إلي صعود جناح من أجنحة الطبقة الوسطي إلي معانقة البيوتات الكبري والاندماج في سلكها؟، أم أن الطبقة الوسطي – وهذا احتمال فرضي – لم يكن لها وجود أصلاً الغرب الاسلامي مثلما ذهب إلي ذلك (هنريش بيكر). (راجع: محمود اسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ص١٣٢).

إن الهاجس الذي يكمن وراء هذه القراءات تدفع إلي ترتيب واقع المجتمع وتنميط حركته وفق تعيين مستويات اجتماعية قبلية لا توجد في الواقع، بقدر ما توجد في النظرية، وبعض الاجتهادات السوسيولوجية التي حاولت تقعيد المجتمعات وتقطيعها قطائع طبقية بشكل متعسف.

والملاحظ أن مفهوم الحركية الاجتماعية في البلدان التي تتسم بالركود الاقتصادي أو الدورة الحلزونية في الانتاج، يصعب فيها التسليم بوجود طبقة وسطي قادرة علي تفعيل الاقتصاد، وخلخلة المعطي الطبقي القائم علي أساس القناعة النفسية، تحت تأثير الإيديولوجية المهيمنة وضغط القوي السياسية الحاكمة.

وكيفما كانت نتائج هذه التساؤلات النظرية والمنهجية المطروحة للتفكير في نسق حركية المجتمع الاسلامي مشرقاً وغرباً، فإن طبقة العامة التي أصبحت في السنين الأخيرة موئل عناية البحث التاريخي المنظم، قد جعل منها الباحث قاعدة بشرية ضمت عناصر شتي من حرفيين وصغار التجار، وباعة متجولين، وأجراء

ومســـتخدمين، وأصحاب المهن الوضيعة والمزارعين والرعاة والمعلمين والطلبة وأئمة المســـاجد والشـــعراء واليتامـــي، فضـــلاً عـــن المهمشـــين من اللصوص والمهرجين والمشعوذين وأصحاب الحلقة، والعاهرات وأسري الحروب والعبيد.

وقد فصل الباحث وفق منهج سردي وصفي جوانب من حياة هذه الشرائح وما بعدهـــا (من ص ١٦٩) وعرض في ختام هذا الفصل إلي ذكر المحن والمصائب التي ألمت بها، ولاحظ عجزها عن القيام بثورة لصالحها، بسبب ضعف الوعي الطبقي عند هؤلاء، بالرغم من أنها طبقة منتجة حسب رأيه وتساءل في ذيل هذا المبحث عن مدي أوجـــه التشـــابه والاخـــتلاف بيـــن وضع السكان الاجتماعي في المدن ونظرائهم في البوادي.

وفـــي هـــذا الإطار خصص الفصل الرابع والأخير لمعالجة التكوين القبلى فى الـــبوادى المغربية فى العصر الوسيط عموما والمرابطي بوجه خاص، فقدم في البداية جـــرداً ملخصـــاً للظاهـــرة القبلـــية بين المصادر الوسيطية والدراسات الأنثروبولوجية المعاصـــرة، ولا ندري كيف عمد الباحث إلي الموافقة جمعاً بين مفارقتين تنتميان إلي موقعيـــن تاريخيين متباينين؟ فهل يخول المنطوق العلمي والرصد العياني أن نزاوح بين اســـتقراء حصـــاد الدراسات الحديثة التي اهتمت بمونوغرافية القبيلة المعاصرة، وبين توصيف الظاهرة نفسها في حقبة العصور الوسطي.

وإذا كـــان الباحـــث قـــد استشـــعر باستمرار أسس القبيلة كظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية بسبب حفاظها علي أسلوب الحماية والمدافعة والمطالبة التي ظلت فاعلـــة في بنيان القبيلة، فإننا لا نوافقه الرأي حول اعتبار النظام القبلي في ذاته انعكاس أميناً لنمط اقتصاد المغازي (ص٢١٨).

فـــبالرجوع إلـــي الفقـــرة أو الفقـــرات التي سجل فيها الأستاذ الباحث بعض المـــتظهرات الديموغرافـــية والجبائـــية في نسق واقع القبيلة، وانضباطها لشيخ الرئيس الـــذي يجمع السلطة ويراقب الأجهزة، فإن مفهوم التمثيلية في الأعراف المحلية السائدة والموروثـــة لـــم تســـمح ميكانيزماتها بتجدر الديموقراطية في ذاتها بسبب التماهي في المحلـــية والحـــركة اللولبـــية، وهـــي ظاهـــرة جعلت في قمة القرار السياسي هيمنة

الأوليكارتسية القبلية المؤسساتية التي كانت تدفع دوماً في اتجاه التعنت والعنجهية والاستبداد.

وإذا اقتنعنا – ولو علي مضض – بمقولة اقتصاد الغزو كنمط سائد تحكم في واقع مؤسسة القبيلة، فهل معني ذلك أن تاريخ المغرب والأندلس في الحقبة والوسطي جبل علي عدم الاستقرار وترصص علي حروب الكر والفر، بل وإذا سلمنا بهذا الواقع، فمن هو الغازي، ومن هو المغزو في واقع جغرافي – سياسي كان موحداً علي الأقل في العصر المرابطي.

نظرياً وواقعياً تمدنا مصادر الحقبة بسيل من النصوص تكشف عن اعتماد علي موارد ثابتة للرزق، فيما يعرف بأقتصاد القلة، واقتصاد الكفاف، ونادراً ما تقوم الدولة بالغزو إلا إذا توفرت علي فائض من الانتاج يتم توظيفه للبحث عن موارد جديدة تجسدها عملياً مشاريع الهيمنة وتوسيع المجال الذي يتبع حتماً مقدار قوة العصبية وشوكتها.

فما رأي الباحث في أن أساس استقرار المرابطين وثبات نظامهم السياسي والاجتماعي يرجع إلي حرصهم علي إقامة كنفدرالية قبائلية ذات أصول بربرية في تشكيلها السوسيو – أثنية، واقتصاد قائم علي الوساطة في حركة التجارة البعيدة المدي واستخلاص الفوائض الريعية؟

وإذا كان ابن خلدون – الذي هو عماد هذا البحث – قد ربط بين جدلية العصبية وأصالة البداوة، فإنه لم يخف الهدف المادي من هذا المسعي الذي قد يصل في منتهاه إلي إقامة السياسة وتأسيس الملك، وهو مسعي ما كان ليتم – في اعتقادنا – لولا حرص المرابطين علي تشكيل بنية تنظيمية ذكية ومتماسكة، رامت إلي تلطيف حساسية البربر ودرء تمرادتهم علي السلطة المركزية، إن علي المستوي السياسي، أو علي المستوي الرمزي، والممارسة الدينية التي كانت في الغالب موسومة بصرامة المنطق الفقهي الأحادي الذي تبناه المرابطون لظروف تاريخية كانت مهيأة، ففي حلحلة الفقرة التي خصصها ابن خلدون لنشوء الدول وارتقائها، يتبين أن العصبية التي نوهنا بها سابقاً، كانت ركناً أساسياً ودينامية فاعلة لتخليق الإرادة السياسية وتمكنها.

ومــن هــذا المــنطلق تــأخذ العصبية منحي جدلياً مكوناً من ثلاث محطات متواصــلة، ومتناقضـــة في الوقت نفسه، ففي المحطة الأولي التي تقترن بالبداوة تتميز الظاهــرة القبلــية أو ارهاصات السياسية الناشئة برفض كل نزوع إلي الانضباط مهما كان مصدره، وفي المحطة الثانية التي تقرن بالعمران الحضاري تكون العصبية بصدد تجــاوز نفســها وبتحطيم ذاتها، وآنذاك تتخلي الدولة الصاعدة عن مبدأ المساواة الذي طــبع مرحلة البداوة، وفي المحطة الثالثة والأخيرة تنبثق الأرستقراطية التي تركن إلي الداعــة وتفنــن في الترف، فتميل إلي التخلي بالتدريج عن العصبية المؤسسة فتستبدلها بالعسكر المرتزق.

وتأسيســاً علــي هذا الطرح يبدو أن العلاقات الصدامية والتدافع والمغالبة بين أطــراف القــوي المحلــية في المغرب الوسيط، كانت مدخلاً طبيعياً لقيام سلطة الأسر الحاكمـــة وتأسيس مشاريعها السياسية الطموحة، وبدا أن النصر – في كل الأحوال – ارتهــن بمــدي القدرة علي تجييش الجيوش، وضمان أكبر قدر من الموارد والحرص علي عدم نضوبها.

وغنـــي عن البيان أن الآلة الأدارية في أمثال هذه المجتمعات ظلت نشيطة في الاتجــاه الــذي يبحــث عن المال، والمال الذي يعزز السلطة ويفعل استبداد المؤسسة السياسية العسكرية المهيمنة.

ولاشــك أن حرص الأدبيات السلطانية في العصر الوسيط علي المزاوجة بين الجند والمال والعدل والسلطان ما يؤكد أهمية هذه الأدوات في تاريخ الدول الوسيطية.

يبين المرادي هذا المنحي بقوله المأثور عن أرسطو في السياسة:

العالم بستان – سياجة الدولة

الدولة سلطان – تحميه السنة

السنة سياسة – يسوسها الملك

الملك راع – يعضده الجيش

الجيش أعوان – يكفلهم المال

المال رزق – تجمعه الرعية

الرعية عبيد – يجمعهم العدل

العدل مألوف – وبه صلاح العالم

العالم سلطان .... كتاب السياسة ورقة ٦٨ – ٦٩

ونعتقد أن الخيال السياسي الخصب والتجربة المحنكة لشخص مثل عبد الله بن ياسين كانت وراء ادراك واستيعاب الميكانيزمات الفاعلة في جسم القبائل الصنهاجية، وقراءة واعية لذهنية قادتها، حيث تمكن من حسم الصراع علي زعامة الحلف الصنهاجي بين جدالة ولمتونة، وتوجيه المشاجرة والتنافس في اتجاه الشمال.

أما الخلفية الاقتصادية التي شكلت حوافز القيام واستراتيجية التأسيس وتوسيع دائرة المجال، فيجيب عنها مهد المرابطين والفضاء الذي استوطنوه في الخريطة الجيو – إدارية آنذاك. لذلك صدق محمود إسماعيل حين رأي بأن رايه الجهاد التي حملها المرابطون منذ تأسيس الحلف الصنهاجي، كانت غطاء للتوسع والهيمنة علي مصادر ومنافذ ومراكز وأسواق تجارة الشمال – الجنوب (أنظر: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ١٦٦).

وعلي أي، وكيفما كانت الانتقادات والتصويبات التي اقترحناها لهذا الفصل، فإن من باب الانصاف القول بأنه جاء حافلاً بمعلومات تاريخية لها غاية من الأهمية، تهم بالخصوص الظاهرة القبلية وتشعباتها، وإن كنا لا نوافقه في تجزئة هذا المبحث وبعثرته في وحدات صغري، لأسباب أخالها اجرائية، وليست موضوعية وعلمية، علماً بأن التفيء والتشظي التقطع قد يفقد الموضوع وحدته وتماسكه.

وهكذا وجدنا البحث ينتقل من معالجة مشكلة القبيلة بين المصادر والأنثروبولوجيا المعاصرة، إلي الحديث – في النقطة الثانية – عن عناصر الحياة القبلية في العصر المرابطي (ص٢٢١)، ليرجع في نقطة ثالثة إلي الإطار الاقتصادي للقبيلة، وقضية التمايز الاجتماعي (ص٢٥)، ليخلص رابعاً إلي التنظيم القبلي (ص ٢٨٠)، ثم يدرج الأعراف القبلية في النقطة الخامسة – بالرغم من تلازمها – منهجاً وموضوعاً مع التنظيم القبلي، وأنهى الفصل بنقطة سادسة حول علاقة القبائل بالسلطة المركزية.

ومـــا يمكن ملاحظته بوجه عام أن هذه النقط جميعها لا يمكن فهمها مجتزأة، برهانـــنا علـــي ذلـــك، أن التقســيم الذي اختاره الباحث قد أوقعه في التقليد وغيابات الأدلجـــة، واستنســـاخ الأفكـــار، وتوظـــيف أحكـــام القيمة، ودفعه إلي منزلق التكرار والاسهاب، بل وأسقطه في سرد بديهيات معروفة تدخل في نسق تحصيل حاصل.

ولا أعـــتقد أن الباحـــث غير متفطن إلي ما للتجزئة من وقع سلبي علي وحدة المواضيع من طبيعة الاقتصاد والمجتمع، والأنثروبولوجية الدينية وتواريخ الأفكار.

ومهما كان وقع الانتقادات التي وجهت لهذا العمل فإن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية وأهميته الريادية.

فالباحث قد وفق بأمتياز في اقتحام موضوع ملغز محاط بالكثير من المحاذير، والضـــغوط الإيديو- سياسية، ويحسب له الاعتراف - مثلما ورد في مقدمته - من أن أفكـــاره ليست نهائية، وله الحق فيما زعم، لأن كل خطاب أو تأليف مهما أدعي لنفسه الأكاديمـــية وامـــتلاك الموضوعية، فإنه لا ينفلت من الأدلجة، وثقل الظرفية والراهنية التـــي تلعـــب دوراً كبـــيراً فـــي حـــبك التصورات وتأطير الأفكار وصياغة المفاهيم والمصطلحات.

ولعل من بين الحسنات التي تحسب لهذا العمل أن صاحبه لم يحصر نفسه في دائرة الاهتمام بالنصوص التاريخية المتداولة فحسب، بل نقب في مصادر ومخطوطات تـــم تـــناولها لأول مـــرة، كما فرضت عليه طبيعة المباحث التي سبر غورها أن ينوع القراءة، ويغترف من معارف ومناهج لا تدخل بالضرورة في حقل تخصصه.

وإذا كانـــت معضـــلة البحـــث الجامعي الأكاديمي هو استكناه الأطروحة التي تجمع بين المباحث المبوبة من دون التشبع النظري والتصور الإبستيمي المؤسس علي فرضـــيات مقنعة، فإن المؤلف الذي بين أيدينا حاول فيه الباحث أن يبني أراءه ويصوغ تخـــريجاته بالســـند إلي اقتصاد المغازي، الذي قال به عابد الجابري كذلك من دون أن يفصله.

ومهما قيل في نجاعة أو عدم نجاعة الاقتناع بالأخذ بهذا النمط الأساس فإن ما يحمـــد لهـــذا البحث أنه كتب ولم يغفل صاحبه الإطار النظري المنفتح، وغير المحكوم

بهواجس الكلمة الفصل، والنهايات المعروفة. فالتحليل التاريخي الناجح للوقائع الاجتماعية لا يمكنه أن ينفلت من التصور النظري الإبستيمي المؤسس علي قناعة العلم، لا علي أقنعة الميتولوجيا وقبعات الإيديولوجية التبريرية، فالمعرفة – حسب قول ألتوسير – لا تصبح حقيقية إلا بعد اكتمال البناء النظري، وأن الوصول إلي مرحلة الاكتمال لا يحصل مبدئياً إلا من خلال إدراك العلاقة الجدلية بين النظرية والمعرفة، وهذا ما لمسناه في قسم كبير من هذا المؤلف.

Hassan S. Khalilieh, *Islamic Maritime law: An Introduction* , Brill, 1998.

عرض/ محمد نصر عبد الرحمن

مصـــر

قـــدر للمسلمين في انسيادهم في أرجاء العالم أن يبسطوا سيطرتهم علي العديد مـــن المسطحات المائية، البحرية والنهرية، وسواحل طويلة امتدت شرقاً لتشمل المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي غرباً.

وأدي ذلـــك لـــنمو علاقـــة وطـــيدة ربطت بين المسلمين والبحر، وجعلت من الأخـــير واحداً من أهم معالم الحضارة الإسلامية، وظهر ذلك في المؤلفات العديدة التي ســـطرها المؤرخون حول الرحلات البحرية وكذلك كتب الفقة التي تناولت أحكام السفر وقواعد النقل والتجارة البحرية.

وقـــد ظهـــرت العديد من الدراسات الحديثة حول هذا الموضوع الحيوي علي أيـــدي العديـــد مـــن الباحثين، الذين تناولوا تلك العلاقة بصورة جزئية في إحدى بقاع الدولـــة الإســـلامية كالمحيط الهندي أو البحر المتوسط، أو بصورة عامة تغطي الحياة البحرية الإسلامية بوجه عام[١].

وإلي النوع الأخير من الدراسات ينتمي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان (مقدمة فـــي القـــانون البحري الإسلامي)، للباحث الفلسطيني حسن صالح خليلية، الذي تظهر اهـــتماماته الواســـعة بمجال الحضارة البحرية الإسلامية في العصور الوسطي، خاصة تـــاريخ التشـــريع الإسلامي البحري، بجانب الدراسات البحرية الأثرية من خلال هذه الدراسة الجادة.

والكـــتاب في أصله كان أطروحة حصل بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعـــة برنســـتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كإصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

---

[١]انظر علي سبيل المثال:

جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطي، ترجمة. السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتي القرن العاشر الميلادي، ترجمة. قاسم عبده قاسم، بيروت ١٩٨١.

Nadvi,s. "Arab Navigation" Islamic Culture 15 (1941) pp. 435. 448; 16 (1942) pp. 72 – 86, 182 – 198, 404 – 422.

والكـــتاب في أصله كان أطروحة بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعة برنســتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كأصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

وتحـــتوي الدراسة علي سبعة فصول، اختص الأول منها بالحديث عن وسائل الـــنقل الـــبحري وأهم المصطلحات الخاصة بها من حيث الحجم والاستعمال، كالقارب والمركـــب والســـفينة.... والأسماء الخاصة التي تطلق علي كل سفينة كأسماء مالكي السفن، أو الربانية، أو الأسماء التقليدية المعتادة التي توحي بالتفاؤل والجمال.

ثـــم يـــتطرق بعد ذلك للحديث عن سعة السفن ومدي حمولتها، ووسائل الأمان المتـــبعة لمنع وقوع الخسائر، مثل قوارب النجاة وغيرها، ويتحدث عن دور المحتسب في مراجعة تلك الوسائل للتأكد من صلاحية السفن للإبحار.

ثـــم ينتقل إلي الفصل الثاني ليتناول راكبي السفن من البحارة والركاب، حيث يتـــناول فـــي الـــبداية بحارة السفن من حيث تصنيفهم ومهامهم ومواضعهم علي متن الســـفن، ثم يناقش العلاقة بين أصحاب السفن والبحارة من ناحية والمسافرين من ناحية أخـــري، بجانب مسئوليتهم عن سلامة الركاب والبضائع، ويختتم الفصل بالحديث عن المسافرين من حيث حقوقهم وواجباتهم.

ومـــن خـــلال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان القانون التجاري البحري، يلج الباحـــث إلـــي الموضوع الرئيسي للدارسة، لذلك قسم الفصل إلي خمسة أقسام: تناول الأول مـــنها ما يختص بعقود تأجير السفن، فيقدم لنا نماذج لهذه العقود، ويضع القواعد التـــي سار عليها المسلمون في أجراء هذه العقود من حيث الاتفاق علي أجرة الشحن، والإجراءات الواجبة عند نقض هذا الاتفاق.

ويتـــناول القسم الثاني الضرائب والمكوس التي تفرض علي البضائع المنقولة بحـــراً، ويتـــناول القســـم الثالـــث القوانين التي تتحكم في قيام البحارة بطرح جزء من البضائع في البحر في حالات الطوارئ التي تتعرض فيها السفن للغرق مثل العواصف العاتية، أو هجوم القراصنة، وغيرها مع توضيح كيفية توزيع هذه الخسارة بين حائزي البضـــائع وملاك السفن، والعوامل التي تؤثر في التخلص من البضائع خاصة لو كانت

نفيســـة، أمـــا القسم الرابع فيصف القوانين المتعلقة بغرق السفن في حوادث التصادم، ويختـــتم الفصل بالقسم الخامس الذي يتناول القواعد الخاصة بتعويض حائزي البضائع في حالة غرق السفن.

ويواصـــل الباحـــث هنا الاتجاه في الفصل الرابع الذي يحمل عنوان (القانون الـــبحري العســـكر) حيـــث يتناول القوانين التي تحكم الحياة البحرية في حالة الحرب، وآراء الفقهـــاء في الأصول التي علي المسلمين اتباعها أثناء الحرب البحرية مثل منح الأمـــان، وقواعد تقسيم الغنائم، ثم يختتم الفصل بالحديث عن القواعد التي تحكم التجار من أهل الذمة في تعاملهم داخل الأراضي الإسلامية.

وينـــتقل الباحث في الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (المياه الإقليمية، البحار المفتوحة القانون البحري الدولي)، ينتقل الباحث هنا من الإطار المحلي للإطار العالمي ليفسر الدلالة الشرعية للمياه الإقليمية من وجهة نظر كل من الفقهاء والحكام والبحارة، والقواعـــد التـــي تنظم الملاحة في المياه المتداخمة والي البحار بجانب الأنهار الداخلية والموانيء.

وفـــي الفصـــل السادس الذي يحمل عنوان (قوانين الانضباط)، يناقش الباحث كـــيف كان القانون البحري يحكم البحر، من خلال تناول بعض الجرائم التي تحدث في البحر كالقتل والسرقة والزنا وغيرها من الجرائم، والقانون الذي يحكم هذه الحالات.

ويختـــتم الباحث دراسته بالفصل السابع الذي يحمل عنوان (التقاليد الدينية في الـــبحر) حيـــث يـــناقش مـــدي فاعلية تطبيق الواجبات الدينية الإسلامية خلال الرحلة الـــبحرية مـــثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ونقل السلع المحظورة دينياً كالخمور، وكذلك قواعد دفن الموتى في البحر خلال الرحلة البحرية.

ومـــن خـــلال هذه الدراسة يري الباحث أن القوانين البحرية الإسلامية تأثرت بوضـــوح بالقوانيـــن الفارســـية والبيزنطية، واقتبست الكثير منها، وأن عملية الاسلمة والتعريب لهذه القوانين استغرقت مرحلة زمنية طويلة.

كمـــا أوضـــح الباحـــث آراء الفقهاء في العادات والقوانين البحرية الإسلامية، واســـتخدامهم للتقنـــيات التشـــريعية لبحث الحلول الممكنة لكل ما يحدث في البحر أو

الموانــئ، اعتماداً علي القرآن والسنة، وكذلك القياس والرأي، والعادات المحلية التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية.

ومــن الناحية المنهجية تبدو بدايات الكتاب – خاصة الفصلين الأول والثاني – تقلـيدية، في الحديث عن السفن والركاب والعلاقات المتبادلة خلال العمليات البحرية، لكن هذه البداية تبدو ضرورية للدخول في الموضوع الذي تدور حوله الدراسة.

أمـــا الناحية الجديدة في الدراسة فهي التعرض لتفاصيل القانون البحري الذي كــان يحكم البحار الإسلامية ومن يرتادها، وهي ناحية غير تقليدية لم يتصد لها الكثير مــن الباحثين، نظراً لصعوبة البحث فيها، وقلة المادة المتاحة عنها، والمنهج المتبع في الدراسة تنظيري إلي حد كبير، يتناول القواعد البحرية الحديثة ويحاول أن يطبقها علي الواقـــع الــبحري الإسلامي في العصور الوسطي، لكن هذا المنهج بقدر ما يحمل من تجديــد، فإنـــه لـــم يخــل من بعض السلبيات فرغم الموضوعات الجديدة التي طردها المؤلــف، ومثلــت بعداً جديداً في هذا المجال، إلا أنه مع ذلك لم يقدم تطبيقاً عملياً في كثير من الأحيان، إلا من خلال إقرار القواعد الخاصة بها من بعض كتب الفقه.

ويحســب للمؤلــف اعتماده الكبير علي كتب الفقه في توضيح قواعد وقوانين الــبحرية الإســلامية وهو اتجاه مميز باعتبار كتبه الفقه الإسلامي، كالفتاوى والنوازل والحســبة وغــيرها من أهم روافد الفكر الإسلامي، الذي لم ينهل منه دارسي التاريخ الإســلامي بصـــورة كافــية، كمـــا يحسب له أنه انتبه إلي اختلاف أحكام الفقهاء وفقاً لاختلاف المذاهب والأماكن والأزمنة.

ومـــع هـــذا يؤخــذ علي الباحث اعتماده بصورة كبيرة علي أوراق الجنيزة[٢]، كدلائــل تطبيقــية علـــي بعــض الموضوعات، برغم ما تثيره هذه الأوراق من جدل

[2] يقصد بها الأوراق التي وجدت مدفونة في اطلال المعبد اليهودي، الباقية اطلاله إلي اليوم بحي البساتين بالقرب من ضاحية المعادي، وهو معبد كان يخص الجالية اليهودية، التي عنت بمصر الإسلامية في مدينة الفسطاط، انظر Goitein.S., Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, 1973; Sadan, J. "Genizah and Genizah – like practices in Islamic and Jewish Traditions", Bibliotheca Orientalis 43 (1986). PP. 36 – 58.

باعتبارها خاصة بطائفة واحدة وهم اليهود، وبالتالي لا يمكن أن تأخذ أحكامها بصورة عامة علي التاريخ الإسلامي[٣].

كمــا يؤخــذ علي الباحث اتساع الفترة التي تناولها والتي تمتد من فتح كريت وصــقلية علــي أيدي الأندلسيين والأغالبة إلي سقوط في مصر (٢١٢ – ٦٥٠هـ – ٨٢٧ – ١٢٥٢م)، أي مــا يــزيد عــن أربعــة قرون، وهي فترة كبيرة زمنياً شهدت حوادث عديدة في مختلف البحار الإسلامية، كما شهدت تطورات في القواعد البحرية، بحيث من الصعب الإلمام بها بين دفتي دراسة واحدة.

ورغــم ذلــك، تظــل هــذه الدراسة إضافة مميزة لحقل الدراسات الإسلامية، وناحــية جديدة تلقي الضوء علي جانب هام من جوانب الحضارة الإسلامية، مازال في حاجــة للمــزيد من الدراسات المتعمقة، التي تتيح أبعاداً جديدة من المعرفة لهذا المجال الحيوي من الحضارة الإسلامية.

---

[3] للمزيد من التفصيل عن هذه القضية انظر .. أحمد فؤاد سيد، أوراق جنيزة القاهرة، هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته، ندوة الدراسات البردية في مصر، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٣٣ – ٢٨٢.

ثانياً: القسم الأجنبى

Deals with the political , administrative economical social and religious circumstances in Byzantine Egypt

Chapter 3 :

Deals with the objectives of education . and the educational institutions of learning in Byzantine Egypt.

Chapter 4 :

Deals with the various courses and teaching methods applied in the system of education during Byzantine Egypt.

Chapter 5 :

Deals with the social status of teachers and students in Byzantine Egypt.

Epilogue :

Contains the conclusions of the study.

Education in Byzantine Egypt, **PhD dissertation by Naglaa Mohamed Hamed,** Cairo University , Institute of Educational Studies Department of Foundations of Education. 2001

Naglaa M. Hamed
Egypt

The Byzantine age in Egypt is considered one of the most impressive ages in the Egyptian history . this importance is due to the radical changes both in economic and the cultural life in Egypt

The present study endeavors to prove that this radical changes have some depth in the Egyptian civilization

The system of education in Byzantine Egypt was meanly based upon several factors · Hellenic culture dominant from the Ptolemaic age ; Christian culture as from the diffusion of Christianity of Egypt ; the reforms made by the Byzantine emperor.

Justification of the study :

There is no previous study concerning history of education in Byzantine Egypt. There is an urgent need for a manifold study to the system of education in Byzantine Egypt, in order to fill the gap of the history of education in Egypt.

Objectives of the study :

There is necessity for a special study concerning the system of education in Egypt in the Byzantine period in order to achieve the following objectives:

For explaining and analyzing the resources of information of this period with a view to proving the principal relation between education and cultural changes.

For discussing in full the educational factors in Byzantine age with a view to solving the recent educational problems

The methodology of study :

This study uses the historical together with the analytical methods in order to explain the educational system and its impact upon the cultural changes in the society.

This study consists of five chapters which are as follow.

Chapter 1 :

An introduction to the study containing a theoretical framework of the study.

Chapter 2 :

B. Book Reviews

enemies.[84] It is most probable that the Byzantine emperor aimed to benefit from the military advantages of the Magyars, who were threatening their neighbors and raided on some European cities,[85] or to destroy their military power in the war against the Bulgarians. These events proved that the Byzantine diplomacy was very active and had the ability to move the tribes of the Steppes one against the other.

Constantine VII mentioned also that: "Árpád, the graet prince of the Turks, had four sons: first, Taskatzous; second, Ielech; third, Ioutotzas; fourth, Zaltas.

The eldst son of Árpád, Tarkatzous, had a son Tebelis, and the second son Ielech had a son Ezelech, and the third son Ioutotzas had a son Phalitzis, the present prince, and the fourth son Zaltas had a son Taxis.

All the sons of Árpád are dead, but his grandsons Phalis and Tasis and their cousin Taxis are living.

Tebelis is dead, and it is his son Termatzous who came here recently as 'friend' with Boultzous, third prince and Karchas, of the Turks.

The Karchas Boultzous is the son of the Karchas Kalis, and Kalis is a proper name, but Karchas is a dignity, like Gylas, which is superior to Karchas".[86]

Therefore, Constantine VII presented good information on the genealogy of Árpáds and distinguished between Kalis, as a proper name, and the dignities of Karchas and Gylas.

Thus, although there is some confusion in some chapters of Constantine VII, which speak of the early history of the Turks, i.e. the Magyars, his account is very useful to examine the Byzantine policy towards the Byzantine-steppe frontier towards the end of the 9th century and the beginnings of the 10th century AD.

[84] Chapter 18 of the Tactica contains of valuable information on the Bulgarians, Turks, Scythians, Arabs and others. Leo in this chapter speaks of the strategy and the tactics of these nations, to present his experience with them to his successors.
[85] Shepard, *The Khazars*, 25-26.
[86] *DAI*, I.40. 51-68.

where they live, which is called after the above name of the rivers, as has been said".[78] The Byzantine historians confirm the account of Constantine VII.[79]

As we have already assumed that the Pechenegs attacked the Magyars and drove them from Atelkozou as a result to the lack of the pastures in Lebedia, especially after the arrival of their kinsmen from the east, or because of some skirmishes among them. But we can add that the co-operation between the Bulgarians and the Pechenegs was a common desire, since the Bulgarians wanted to destroy the power of the Magyars, who threatened their safety during their war against Byzantium. At the same time may be the Pechenegs wanted to extend their lands at the expense of the Magyars.

Here there is a question that poses itself: why did Leo VI especially send to the Magyars to support him in his war against Symeon the Bulgarian?

Leo VI speaks in his Tactica about the 'Turks' and mentions that " the Turks are an active nation, and they keep the secret. They are not sociable and they are dishonest. They don't respect their agreements...After their receiving the gifts, they begin to forget their agreements and arrange the plots".[80] "During the battle they fight by deceits, and sudden skirmishes more than fighting hand by hand. They surround the enemy and cut off his supplies.[81] They also are interested in the archers, especially shooting on the backs of the horses".[82]

From the texts of the Tactica of Leo VI, it may be concluded that the Magyars, as fighters, are strong, brave and have a special strategy in the war. They do not accept the defeat during the battle, and search for all the ways to get over their enemy and defeat him.[83] According to the Tactica, it is shown that the Byzantine palace was interested in recording the strategy and the tactics of Byzantium's

---

[78] *DAI*, I. 40. 13-22; P. Diaconu, *Les Pechénègues au bas-Danube* (Bucarest 1970) 11; (henceforth *Pechénègues*) Tamiem, *Pechenegs*, 60f.; Runciman, *Bulgarian Empire*, 149; Fine, *Balkans*, 139.

[79] Cf. *Theophanes Cont.*, 359; *George Monachus*, 854-855; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 444; *Pusedo-Symeon*, 702. For more details see Bashier, *Bulgarian State*, 111ff.; R. Browning, *Byzantium and Bulgaria, A Comparative Study across the Early Medieval Frontier* (London 1975) 59ff.; Diaconu, *Pechénègues*, 11; Tougher, *Leo VI*, 177.

[80] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 47.

[81] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 48.

[82] Leo VI, *Tactica*, col 958. 51. For more details see Tougher, *Leo VI*, 182-183

[83] Leo VI. *Tactica*, col 963 74

Byzantine leader Crinitus was killed. Symeon cut off the noses of the Byzantine captives and sent them back to Constantinople.[75]

This incident persuaded the emperor Leo VI to move the Byzantine armies of the Orient, which were under the leadership of Nicephor Phocas from Asia Minor to the Balkans; and at the same time used the Byzantine diplomacy. So he sent Nicetas Skleros to the Magyars to secure their help. He sailed up the Danube and met with them. He carried many of the traditional gifts of these occasions to the Magyars. The Magyars agreed to launch an attack on Symeon's rear, and Nicetas took hostages (presumably as a guarantee of their promised co-operation) and returned to Byzantium.[76]

When the Byzantine leader Nicephor Phocas arrived to Constantinople, the Byzantine emperor sent him with a Byzantine navy to the Balkans, to fight against the Bulgarians. The Byzantine navy of Admiral Eustathius carried the Magyars across the Danube to the north of Bulgaria. The Byzantine armies and the Magyars defeated Symeon who fled to Moundraga. Therefore, Symeon asked Leo VI to make peace with him.[77]

Yet, Symeon in the same year of 896 AD. turned to revenge from the Magyars, the new ally of Byzantium in the north of the Balkans. So, as Constantine VII said: " after Symeon was once more at peace with the emperor of the Romans and was free to act, he sent to the Pechenegs and made agreement with them to attack and destroy the Turks. And when the Turks had gone off on a military expedition, the Pechenegs with Symeon came against the Turks and completely destroyed their families and miserably expelled thence the Turks, who were guarding their country. When the Turks came back and found their country this desolate and utterly ruined, they settled in the land

---

[75] *Theophanes Cont.*, 358; *Leo Grammaticus Chronographia*, ed. F. Niebuhrii, *CSHB* (Bonn 1842) 267; (henceforth *Leo Gram.*) *Georgius Monachus Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 853; (henceforth *George Monachus*) *Zonaras*, III. 443; V. A. Fine, *The Early Medieval Balkans* (Michigan 1993) 138f; (henceforth *Balkans*) J. Shepard, 'Bulgaria: The Other Balkan 'Empire'', *NCMH*, Vol. III. ed. T. Reuther (Cambridge 1999) 570. (henceforth *Bulgaria*)

[76] Tougher, *Leo VI*, 176; Shepard, *The Khazars*, 28.

[77] *Theophanes Cont.*, 358; *George Monachus*, 854; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 443-444; *Pusedo-Symeon*, 701; Leo VI, *Tactica*, ed. J. B. Migne, *PG* (Turnholti 1987) col. 955.42; S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire* (London 1930) 146; (henceforth *Bulgarian Empire*) H. Bashier, *The Relations between the Byzantine Empire and the First Bulgarian State* (Cairo 2001) 110-111: (henceforth *Bulgarian State*) Tougher, *Leo VI*, 176-177; Shepard, *Bulgaria*, 570

seem that the nations whose power was inferior to the Pechenegs, or afraid of the alliance between them and the Byzantine Emperor were the Rus' the Magyars and the Bulgarians At the same time there is no indication to the nature of the relations between the Khazars and the Pechenegs after the defeat of the latter by the Khazars in 889 AD This may refers to the Khazars' power which was still strong.

This demonstrates the importance of the Pechenegs' power for Byzantium in comparison with other powers of the Steppes. But, what about the Magyars in their last place?

When the Magyars moved from Atelkozou to the lands of Great Moravia they settled in the rear of Bulgaria. Thus, the neighbors of the Magyars were: on the eastern side of the Bulgarians, where the river Istros, also called the Danube, runs between them; on the northern, the Pechenegs; on the western the Franks; and on the southern, the Croats.[71]

On the other hand, there was a great hostility between the Byzantine emperor and the Bulgarian Symeon. So, when Symeon declared war against Byzantium in 894 AD., and the Byzantine armies were in the east under the leadership of Nicephor Phocas, the Byzantine emperor Leo VI asked the Magyars to launch an attack on the rear of the Bulgarians, to gain the time and move his armies from Aisa Minor to the west.[72]

Constantine VII says that the Magyars after their staying in the new site, " at the invitation of Leo, the Christ-loving and glorious emperor, they crossed over and fought Symeon and totally defeated him, and drove on and penetrated as far as Preslav, having shut him up in the city called Moundraga; and they went back to their own country. At that time they had Liountikas, son of Árpád, for their prince".[73]

This account is substantiated by many Byzantine historians. According to their writings, the Byzantine emperor sent a small force of his *hetaireia*[74] in 894 AD. under the leadership of Procopius Crinitus and Curticius the Armenian, to fight Symeon, Khan of the Bulgarians. But Symeon defeated them in Macedonia and the

---

[71] *DAI*, I. 40.41-44.
[72] *DAI*, I. 40.7ff.
[73] *DAI*, I. 40. 7-13; T. Lounghis, *Les ambassades byzantines en accident, depuis la formation des états barbares jusqu'aux croisades 407-1096* (Athens 1980) 196.
[74] S Tougher, *The Reign of Leo VI (886-912)* (Brill 1997) 175 (henceforth *Leo VI*)

that Byzantium was interested in enforcing its relations with the Khaqān of the Khazars, who had an army of 10.000[64] or 12 000 of soldiers.[65] We have to keep in mind that the Rus' and their princes had arrived to Kiev in 859 AD. and taken it by force from the sovereignty of the Khazars. So, Byzantium had to ally itself with the Khazars against the advancement of the Rus' towards the Pontic sea. But, by the end of the ninth century, the Pechenegs proved, through their new geographical places, Lebedia and Atelkozou, that they were more useful to Byzantium than the Khazars This fact persuaded Constantine VII to write these words to his son " I conceive, then, that it is always greatly to the advantage of the emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs and to conclude conventions and treaties of friendship with them and to send every year to them from our side a diplomatic agent with presents befitting and suitable to that nation, and to take from their side sureties, that is, hostages and a diplomatic agent, who shall come. together with the competent minister, to this city protected of God, and shall enjoy all imperial benefits and gifts suitable for the emperor to bestow". [66]

The Pechenegs could attack the Rus', and ravage their lands; and the Rus' couldn't raid on the Byzantine lands without making peace with them.[67] Thus, so long as the Pechenegs were leagued in friendship with the emperor and won over by him through letters and gifts, they could easily come upon the country both of the Rus' and of the Magyars, and enslave their women and children and ravage their country.[68] Constantine VII adds that they may make excursions and plundering raids against Cherson, and may ravage Cherson itself and the so-called "Regions". [69]

The Pechenegs also threatened the Bulgarians of the Danube, enemies of Byzantium, and the Byzantine Emperor would appear more formidable, and could impose on them the need for tranquility, if he was at peace with the Pechenegs who could attack and defeat the Bulgarians.[70] According to the last words of Constantine VII, it would

---

[64] Al-Marwazī, *Kitāb Tabai' al-Haiawān*, ed. V. Minorsky (London 1940) 21.
[65] Istakhrī, *Al-Masālek wal-Mamālik*, ed. M. G. 'Abdel-'Aal (Cairo 1961) 129.
[66] *DAI*, I. 1.16-24.
[67] See *DAI*, I. 2.2-23.
[68] *DAI*, I. 4.8-13.
[69] *DAI*, I. 1.25-28.
[70] *DAI*, I. 5.2-12.

tribes, immigrated from the east to Lebedia to live there with the Pechenegs who were called Kangār [57]

It is probable that the pastures of Lebedia couldn't cope with these great numbers of the Pechenegs for a long time, or there were some skirmishes between the Pechenegs and the Magyars, especially that the author of Hudūd Al-'Ālam mentions that "the Magyars are at war with all infidels living around them...".[58] So, after three years of their coming,[59] in 896 AD., they marched towards Atelkozou to extend their lands at the expense of the Magyars. They attacked the Magyars and drove them with their prince Árpád out of Atelkozou. The Magyars, in flight and seeking a land to dwell in, came and in their turn expelled the inhabitants of great Moravia and settled in their land, until the time of Constantine VII. And since that, time the Magyars had not sustained any attack from the Pechenegs.[60] Constantine refers also to the relations which were still between the two parts of the Magyars, i.e. Magyars of Persia and the others of the Danube.[61]

Now, what is the importance of these changes which took place in the Steppes for Byzantium? The Pechenegs became neighbors of the Rus' and the Khazars, and the Magyars were neighbors of the Bulgarians and the other nations of the Balkans.

In 860 AD. a regrettable accident happened to Byzantium; the Rus' attacked Constantinople suddenly and ravaged its suburbs.[62] Since this event the Rus' became hostile to the Byzantines, especially when they began to threaten the Byzantine possessions in Crimea, i.e. Cherson. After this attack, Byzantium sent a diplomatic mission under the leadership of Constantine of Thessaloniki to Khazaria to strengthen its relations with the Khazars.[63] It was normal at that time

---

57 Tamiem, *Pechenegs*, 59-60.

58 *Hudūd Al-'Ālam*, 101.§ 22.

59 Tamiem, *Pechenegs*, 60.

60 *DAI*, I. 172. 53-61.

61 *DAI*, I. 172. 61-65.

62 *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 674-675; (henceforth *Pusedo-Symeon*) *Cedrenus*, II, 173; I. Zonaras, *Epitomae Historiarum*, Vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB* (Bonn 1897) 404. (henceforth *Zonaras*) For a good analysis of all the sources of this event see A. Vasiliev, *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD* (Cambridge, Mass. 1947) 150-239; A. Court, ' La russie à Constantinople', *RQH* 1(1876) 78-84.

63 G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State* (Oxford 1956) 203

Kabaroi against the Khazars. The Magyars and the Kabaroi co-operated together and attacked Vienna and its suburbs in 881 AD. Therefore, one may suppose that the Khazars were upset by the alliance between the Magyars and the Kabaroi. And the relations between the Khazars and the Magyars at that time were not cordial.[53] So, they permitted the Pechenegs in 889 AD. to pass through their lands to Lebedia in which the Magyars and the Kabaroi were living, and drove them out of it.

When the Magyars stayed in Atelkozou , after a short time, the Khaqān of the Khazars sent a message to them, requiring that Lebedias, their first Voivode, should be sent to him. Lebedias, therefore, came to the Khazars' Khaqān and asked the reason why he had sent for him. The Khaqān told him that he would appoint him as a prince for his nation. But Lebedias refused to be a *client* prince to the Khazars on the Magyars and told the Khaqān that anther Voivode called Almoutzis and his son Árpád were more suitable for the post. Then the Khaqān sent a political Khazarian mission with Lebedias to Atelkozou, to discuss this matter with the Magyars, who had chosen Árpád their prince for them.[54] Thus, Árpád accepted to be a *client* prince to the Khazars, where he became a ruler according to the Khazarian traditions. These events show and confirm that the Magyars, after their defeat by the Pechenegs, accepted the conditions of the Khazars, who became their masters and submitted to the authority of the Khazarian Khaqān. Thus, in 890 AD. the Hungarian rulers became *clients* to the Khzarian Khaqān such as the Bulgars of the Volga, the Burtas and some other nations.[55]

In 893 AD., Isma'il ibn Ahmed al-Samanī directed an expedition against the Ouzes and defeated them. Therefore, great numbers of the Ouzes' tribes marched towards the Caspian sea and stayed there between the rivers of the Volga and the Oural, in the north of the Caspian sea.[56] So, the rest of the Pechenegs, the five

---

[53] Shepard, *The Khazars*, 26.
[54] *DAI*, I. 172. 38. 31-53.
[55] Zuckerman, *Les Hongrois*, 64. Ahmed ibn Fadlān refers to twenty five wives to the Khazarian Khaqān, which indicate to twenty five of his neighboring (*clients*) kings. See *Resālat Ahmed ibn Fadlān fi Wasf al-Rehla elā Bilād al-Turk wal-Khazar wal-Rus' wal-Saqālibah*. ed S. El-Dahān (Damascus 1978) 192.
[56] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61

rivers are identified with the Dnieper, Bug, Dniester, Pruth and Sereth.[46]

These events, which had taken place in 889 AD, as Minorsky concluded,[47] may refer to the entrance of the Pechenegs to the lands of Khazaria. In that year the Pechenegs couldn't bear the bothering and pressure of the Ouzes (Ghuz) to push them towards the west into Khazaria.[48]

M. Tamiem supposes that the Pechenegs took their route to Lebedia across the Russian lands, and that they passed through Kiev, after their defeat by the Khazars.[49] Zuckerman thinks that the Khazars defeated the Pechenegs and there was a Khazarian-Pecheneg plot to attack the Magyars.[50] I think that the presumption of M. Tamiem is not acceptable, especially that the Russian Primary Chronicle afterward reflects the hostility between the Pechenegs and the Rus'. But the assumption of Zuckerman is notable, although it gives an impression that the Khazars, the victors, ordered, or asked, the defeated Pechenegs to attack the Magyars. It may be suitable to think that the Pechenegs, after their defeat by the Khazars, asked the latter to pass through their lands to Lebedia. At the same time it was a good chance to the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia and to strike the Pechenegs with the Magyars to destroy their military power. So, they made an agreement with the Pechenegs to pass through Khazaria and to settle in Lebedia instead of the Magyars. On the other hand, the Pechenegs promised the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia.

This incident reflects the tension in the relations between the Khazars and the Magyars in that time. In 870 AD.[51] the Kabaroi, which were Khazrian tribes, for political reasons, rebelled against the Khazarian sovereignty and fled to the Magyars, who accepted them on their lands.[52] It is possible that the Magyars were planning to use the

---

[46] *DAI*, II. 149. 38.68-71. Cf. Stephenson, *Medieval Hungary*, 104; Vernadsky, *Lebedia*, 186ff.

[47] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 55.

[48] M. Tamiem, *Pechenegs and Byzantines, a Study in the Northern Policy of Byzantium 850-1122 AD* (MA unpublished thesis, Mansoura University 1996) 58-59. (henceforth *Pechenegs*)

[49] Tamiem, *Pechenegs*, 59.

[50] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61.

[51] Zuckerman, *Les Hongrois*, 63.

[52] *DAI*, I. 39. 1-14; Zuckerman, *Les Hongrois*, 62-63.

their lands to *Bilād al-Rūm*, i.e. Byzantium, to sell them there".[39] This information of al-Gardizī is very important to explain the importance of this alliance between the Khazars and the Magyars.

However, because they were in alliance with them and were brave, the Khaqān arranged the marriage of Lebedias, the Hungarian prince, to a Khazarian noble lady and subsequently proposed to appoint him as 'prince (archon).[40]

Thus, the Magyars became allies of the Khazars during their staying in Lebedia, as we have concluded before, and the relations with them were good. These facts were clear for Constantine VII, who recorded them carefully in his *DAI*.

For some reason the Pechenegs stirred up war against the Khazars, and being defeated, were forced to quit their own land and to settle in that of the Magyars. And, when battle was joined between the Magyars and the Pechenegs who were at that time called *Kangār*,[41] the army of the Magyars was defeated and split into two parts. One part moved eastwards and settled in the region of Persia, and they to this day are called by their ancient name of the Magyars *Sabartoi asphaloi*; but the other part, together with their Voivode and chief Lebedias, settled in the western region, in a place called ' Ατελκούζου.[42]

Al-Gardizī, confirms the account of Constantine Porphyrogenitus about this stage of the Magyars' history, whereas he refers to two parts of the Magyars, one in the east and the other in the west beside *al-Saklāb*.[43] They spent some years in that region, *Atelkozou*, in which there are five great rivers; emptying themselves into the north-western corner of the Black sea.[44]These five rivers are Βαρούχ, Κουβοῦ, Τροῦλλος, βροῦτος and Σέρετος.[45] These

---

[39] Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, 472. Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 142-143 refers only to the Magyars' attacks on the Slavs but Al-Gardizī told us that they attacked also the Rus'.

[40] *DAI*, I. 170.38; Shepard, *The Khazars*, 25.

[41] Κάγγαρ, this is a Pecheneg name which is mentioned in the Syrian sources in the form *hangār*, and applied to a people who fought with the Persians in the middle of the 6th century. For more details see *DAI*, II. 145.37.68-71.

[42] *DAI*, I. 38.19-30. Atelkozou, this name means in Hungarian 'between the rivers' or 'Mesopotamia'. See *DAI*, II. 148.38.30.

[43] *Al-Gardizī*, 471-472.

[44] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 56.

[45] *DAI*, I. 172. 38. 68-71.

Khazars attack the Pechenegs every year, and Isha (their khaqān) raids and leads his soldiers by himself'.[32] Constantine VII supports the account of Ibn-Rosteh when he says that the Pechenegs extended their influence until the Khazarian Sarkel.[33] Thus, all evidences show that Sarkel was built to protect the Khazarian limit of the Don against the Magyars[34] and the Pechenegs also[35]. So, it may be concluded, according to the previous evidences, that the Magyars moved to Lebedia, which was Khazarian possession, in the fourth decade of the ninth century.[36] The relations between the Magyars and the Khazars were hostile for more than twenty years afterward, if one would suppose that the Khazars tried to restore Lebedia from the hands of the Magyars or that the latter raided on the Khazars, since they launched wars against their neighbors.[37] The new settlers of Lebedia conquered the Slavs and dealt with them as captives. On the other hand they brought many of them as slaves to sell them to the Byzantine merchants.[38] Therefore, the Magyars became inimical to the Khazars, who lost their sovereignty on these Slavic tribes which used to pay the tribute to them.

Probably, after the fall of Kiev, which was under the Khazarian sovereignty, at the hands of the Rus' the relations between the Khazars and the Magyars became better than before 859 AD. In the next stage of the relations between them, the Magyars, who became an *état tampon* between the Rus' and the Khazars, became allies to the latter.

The new situation of the Magyars between the Rus' of Kiev and the Khazars, as an *état tampon*, was in the consideration of the Khaqān. Al-Gardizī confirms this assumption when he says that "the Magyars attacked the Slavs and the Rus', and brought the slaves from

---

[32] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 140.

[33] *ADI*, I. 42. 20-23. Cf. G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838), 528; (henceforth *Cedrenus*) *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 122; (henceforth *Theophanes Cont.*)

[34] Macarteny, *Magyars*, 75; Shepard, *The Khazars*, 24.

[35] Zuckerman, *Les Hongrois*, 57.

[36] Macarteny, *Magyars*, 77; Zuckerman, *Les Hongrois*, 59.

[37] *Hudūd Al-'Ālam*, Eng. trans. V. Minorsky (Oxford 1937) 101. § 22.

[38] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 142-143; Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, Arab. trans. A. S. Zydān (Cairo 1982) 472. (henceforth *Zayn al-Akhbār*)

allies, and from this year onwards the Magyar-Khazarian relations were strengthened, as recorded by Constantine VII . But what about the relations between them before 859 AD., peaceful or hostile?

C. Zuckerman in his interesting article[25] refers to the Russian envoys who had visited Constantinople during the reign of the Emperor Theophilus.[26] He assumes that these envoys visited Constantinople before 839 AD., may be in 835 AD., and stayed there for many years, where the emperor received them.[27] In 18th May 839 AD. the Frankish Emperor Louis the Pious received a Byzantine mission accompanied with the Russian envoys to help them to come back to their country. Because the route through which they came to Constantinople was threatened now with the barbarians.[28]

In the summer of 839 AD. the Byzantine Emperor Theophilus received the Khazarian envoys, who came to ask him to provide them with Byzantine engineers to construct the fortress of Sarkel on the Don. Theophilus answered their request and the Sarkel was built under the supervision of Petronas Kamaretus. The Khazars posted in this fortress a garrison of 300 men , who were relieved annually.[29]

Zuckerman examined these evidences and concluded that the barbarians who has threatened the Russian envoys were the Magyars, and supported his conclusion with the clash of the Byzantines ca. 836 AD. with the Hungarian troops in the north of the Danube. May be the Russian envoys knew of the troubles of the Pontic Steppes in that year and stayed at Constantinople for many years before their returning back to their country in 839 AD.[30] Ibn-Rosteh supports the conclusion of Zuckerman where he says: " In the past, the Khazars protected themselves by ditches against the Magyars and the other neighboring nations...".[31]

I think that Ibn-Rosteh means with "the other neighboring nations..." the Pechenegs, especially because he confirms that "the

---

[25] 'Les Hongrois au pays de Lebedia: Une nouvelle puissance aux confines de Byzance et de la Khazarie ca 836-889', in *Το Εμπολεμο Βυζαντιο 9ος-12ος αι.* (Athens 1997) 51-74. (henceforth *Les Hongrois*)

[26] *Annales de Saint-Bertin*, ed. F. Grat, J. Vieillard, S. Clémencet and L. Levillain (Paris 1964) 30-31.

[27] Zuckerman, *Les Hongrois*, 54-55.

[28] Zuckerman, *Les Hongrois*, 53.

[29] *DAI*, I. 42. 20-41.

[30] Zuckerman, *Les Hongrois*, 55-56.

[31] Ibn-Rosteh, *Al-A 'lāk al-Nafisah*, 143.

For example, when the Rus' itended to attack Abskoun, between 864-884 AD./250-271AH., in the Caucasus they asked the Khaqān of the Khazars to give them his permission to do it, because they had to pass through his lands.[19] When the Rus' attacked Abskoun for the second time in 910 AD. without his permission, and without passing across his lands, the Khaqān of Khazars attacked them while they were retreating before the Caucasian Moslems.[20] So, when the Rus' intended to attack the Moslems of Tabaristan, Jilan, Bakou and other Caucasian countries, for the third time in 912 AD., they sent to the Khaqān to give them his permission to pass through his lands for this purpose, and if they conquered the people of these countries they would give him the half of their booty.[21] During the time of the Khazarian Khaqān Aron (900-920 AD.) Byzantium pushed the king of Alans to attack Khazaria; but Aron allied himself with the Turkish Ouzes and defeated him.[22] It should be added that the Khazars collected the tribute from the Slavs of the Steppes.[23]

On the other hand, beside the Khazarian power, it should be remarked that the Rus' had taken Kiev from the Khazars by force in 859 AD. and shared them in the tribute of the Slavic and Finnish tribes in the Steppes. The Khazars collected it from Radimichians, Polyanians, Severians, and Vyatichians, while the Rus' collected it from Chuds, Slavs, Merians, Ves' and Krivichians.[24]

According to this information, it seems that Khazaria was a super power as compared to the other powers of the Steppes. But, since 859 AD. I think that the Khazars had to search for an ally to support their ability against the Rus'. They regarded the Magyars as

---

Hawqal, *Kitāb Sūrat al-Ard* (Leiden 1967) 15, 392-394; Ibn-Maskawaih, *Tajāroub al-Umam*, vol. 6 (Cairo 1915) 209; Al-Idrisī, *Kitāb Nuzhat al-Moshtāq fi Ikhtraq al-Afāq* (Cairo, without date) 835).

[19] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. E. G. Brown (London 1905) 198: W. Chadwick, *The Beginning of the Russian History* (Cambridge 1966) 60-61; Mohammed, *Russians*, 142.

[20] Mohammed, *Russians*, 143.

[21] See Al-Mas'udī, *Moroj al-Dhahab wa Ma'āden al-Djawhar*, vol. I (Cairo 1927) 114-116; Al-Hemiarī, *Al-Rawd al-Me'tar fi Khabar al-Aktār*, ed. I. 'Abbass (Beirut 1980) 340-341.

[22] Noonan, *Byzantium*, 115; V. Mošin, ' Les khazares et les byzantins', *B* 6(1931) 312; Mohammed, *Russians*, 196-197.

[23] *RPC*, 84; Franklin and Shepard, *Rus'*, 77; M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London 1996) 223.

[24] *RPC*, 58-59, 61.

It is known that there were political, commercial and social relations between Khazaria and Byzantium since the era of the Byzantine emperor Heraclius. There were strong ties between the Khaqān of the Khazars and the imperial court of Byzantium. The Byzantine diplomacy from the 7th century onwards depended on the military Khazarian power to form the political map of the Steppes. This situation extended to the 10th century, when there were many new military powers in the Steppes such as Pechenegs and the Rus'. According to these considerations the scale of the political relations between Byzantium and Khazaria were reduced,[16] and the Byzantine court turned strongly its interests towards the new powers, especially to the Pechenegs and sometimes to the Rus' and Alans.[17] The Arab geographers and historians give a clear picture of Khazaria, especially on its political, economic and religious life. Here I'll not repeat their accounts on Khazaria, which had been studied by many scholars, but according to these accounts, it may be concluded that Khazaria was a super power on the banks of the Volga, or on the Byzantine-Steppe frontier, for many centuries. [18]

[16] In the reign of the Khazarian Khaqān Benjiamin (880-900) Byzantium allied with the Ouzes, Burtas, Black Bulgarians and the Pechenegs to attack Khazaria. The king of Alans supported the Khazars to get over this alliance. The Khazars and Alans defeated the alliance of Byzantium. (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 321). The document of Cambridge refers also to anther Byzantine attempt to attack the Khazars by the Russians. The Byzantine Emperor Romanus Lecapenus persuaded the Russian prince *Helgou* to attack the Khazars during the time of Joseph (920-960). (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 313-314) It may be added an important reason to the hostility between Byzantium and the Khazars in the tenth century, the religious policy of the Macedonian dynasty towards the Jews in the Byzantine Empire. (see: A. Sharf, *The Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade* (London 1971) 99ff.; S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign* (Cambridge 1963) 231ff.).

[17] For more details on Khazaria see D. M. Dunlope, *The History of the Jewish Khazars* (New York 1967), Arab. trans. S. Zakkar (Damascus 1990) 233-294; T. M. Mohammed, *The Russians and the International Community 945-1054 AD* (Cairo 2001) 183-215;(henceforth *Russians*) A. Koestler, *The Khazar Empire and its Heritage* (London 1976), Arab. trans. H. M. Saleh (Damascus 1978) 31-70.

[18] This power decreased when the Russian prince Sviatoslave launched an attack on Khazaria in 965 AD. and destroyed their capital Itel. (*The Russian Primary Chronicle*, Laurantian text, ed. and Eng. trans. S. H. Cross and O. P. Sherawitz-Wetzor (Cambridge, Mass. 1953) 84; (henceforth *RPC*) S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of the Rus' 750-1200* (London 1996) 143). (henceforth *Rus'*). The Arab geographers confirmed this event and added that Sviatoslave allied with the Ouzes and destroyed also Samander, the second city of the Khazars. (See: Ibn-

Constantine VII speaks of the geographical site of the Magyars and its development as follow: "The nation of the Turks had of old their dwelling next to Khazaria, πλησίον τῆς Χαζαρίας, in the place called Λεβεδία[9] after the name of their first βοέβοδος,[10] which Voivode was called by the personal name of Λεβεδία, but in virtue of his rank was entitled Voivode, as have been the rest after him".[11] In that time the Magyars were called Σάβαροι ᾽ασφαλοι[12] and Constantine VII didn't know the reason behind this name.[13]

Constantine VII provides us with some details on the site of Lebedia, whereas he says that "there is a river called Χιδμάς or Χιγγιλοὺς.[14] In this place they lived together with the Khazars for three years, and fought in alliance with them in their wars.[15] Then, a question will rise for us " when did the Magyars become allies of the Khazars and fight with them too?"

---

[9] Lebedia has been located on the Dnieper, between the Dnieper and Don, near the Don and Donets, and on the Banks of Meotis and Kuban. Most of the scholars incline to the view that Lebedia lay west of the Don. Cf. *DAI*, II. 147.

[10] The meaning of this Hungarian title is not clear and there is no Byzantine synonym to it. We know from Constantine VII that this is an official title for the prince of the Magyars. *DAI*, II. 147. Ibn-Rosteh in his book *Kitāb al-A'lāk al-Nafīsah*, ed. M. J. De Goeje, *BGA* (Brill 1892) 143 says that " the president of the Magyars is called Kandah (or Kendah), and this name is a symbol of their king. Because the name of the man who rules them is Djalah (or Djelah). All the Magyars are obeyed the orders of Djalah of launch the wars or stop it...etc". This quotation indicates there were two high positions among the Magyars, i.e. Kandah, the king, and Djalah, his first leader or prime minister. Probably Voivode was a Slavonic version to the Turkish title Kandah. I think that Constantine VII is unaware of the fact that there were two high positions among the Magyars, because he speaks of only one, who is called Voivode.

[11] *DAI*, I. 170.38.3-7.

[12] It is in all probability related to the name of the Savirs and means 'invisible Savartians'. Armenian and Arab sources mention a people called 'Sevordi' which in 8th century lived near the river Kour, on the northern border of Persarmenia; scholars believe this people to be identical with Constantine VII's Savartians. *DAI*, II. 147; Macartney, *Magyars*, 87-88.

[13] *DAI*, I. 170.38.9-10.

[14] *DAI*, I. 170.38.8-9. This river has been thought by the some scholars in the following rivers: Kodyma, Inchul or Inchulets, Orel, Molotchnaya, Donets and the Don. There is identification between this river and the συγγούλ. But the last is unknown. *DAI*, II. 147.38.

[15] *DAI*, I. 170.38.13-14.

others, which examined some aspects of the relations between Byzantium and its northern neighbors, such as Pechenegs, Khazars, Rus', Magyars...etc. There are also a couple of questions which will be aroused if we re-read chps. 38, 39 and 40 of *DAI*.[8]

DAI draws a good picture about the immigrations of the Magyars from the East of the Pontus to the West and shows their political and social developments during their journey from the East to the West. In this modest paper I'll try to re-read the account of *DAI* about the Magyars and I'll try to find answers to some problematic questions, such as: Why the Magyars had allied themselves with the Khazaras and what was the nature of this alliance? Why the Magyars did not fight with the Khazars against the Pechenegs? Were the Magyars, according to Constantine VII, under the Khazarian sovereignty? What was the nature of the Byzantine-Hungarian relations in the end of the ninth century?

As a prologue I present here the account of *DAI* about the early history of the Turkoi. We have two main chapters in *DAI* , i.e. chps. 38 and 40, beside many indications in chaps. 3,4,8,13,30,39 and 42 which reflect a complete view on the early Magyars.

---

eds., Gennadios, K70-letiiu Akademika G. G. Litavrina (collection of articles celebrating G. G. Litavrin's 70th birthday) (Moscow 1999) 264-283.

[5] Nonnan has a lot of valuable studies on the Khazars and the nations of the Volga. From these studies ' When Rus/ Rus' Merchants First Visit Khazaria and Baghdad?' *AEMA* VII (1987-1991) 214-219; idem, ' What does the Historical Numismatics Suggest about the History of Khazaria in the Ninth Century', *AEMA* III (1983) 265-281; idem, ' Russia, the Near East and the Steppe in the Early Medieval Period: An Examination of the Sasanian and Byzantine finds from the Kama-Urals', *AEMA* II (1982) 269-302; idem, ' Why the Viking First Came to Russia?' *JGO* 34 (1986) 321-348; idem, 'Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?' in *Byzantine Diplomacy*, papers from the twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, eds. J. Shepard and S. Franklin, Hampshire, 1992, 109-132.(henceforth *Byzantium*)

[6] Nikolov presented an interesting study on the missions of Constantine and Methodius in the Steppes, especially among the Magyars. See 'The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes', *BMGS* 21 (1997) 79-92.

[7] O. Pritsak, ' The Pecengs a Case of Social and Economic Transformation', *AEMA* 1(1975) 211-235; O. Pritsak and N. Golb, *Khazarian Hebrew Documents of the Tenth Century* (Ithaca, London 1982).

[8] Constantine Porphrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. Jenkins (Budapest 1949); (henceforth *DAI*) Vol. II ed. by R. J. Jenkins and others (London 1962).(henceforth *DAI*, II)

The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes Constantine VII's Evidence*

Tarek M. Mohammed
Ain Shams University. Egypt

Although there are many and valuable studies about the early history of the *Turkoi*, i.e. Magyars, such as the important study of C. Macarteny, *The Magyars in the Ninth* Century (Cambridge 1930);[1] G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars* (Amsterdam 1970), and others, the important and useful account of Constantine Porphyrogenitus about the history of the Magyars, it still needs more analysis. Macarteny presented a good presentation about the Magyars' account of *DAI*; but he was more concerned with discussion of the home-land of the Magyars, Lebedia and Atelkozou, and the different shapes of their name in the Byzantine sources. G. Vernadsky in 1939 presented an interesting study about Lebedia and its relation with southern Russia.[2]

These are some of the modern studies which speak of the Hungarian history in the Medieval times.[3] But, as I think, we can present a new reading of the account of Constantine VII about the early Magyars, if we depend on the recent, valuable and important studies of J. Shepard,[4] T. Noonan,[5] S. Nikolov,[6] O. Pritsak[7] and

---

* This paper was delivered at *The Second International Congress on the Black Sea Antiquities, Ankara, Turkey, 3-9 September 2001.* I'd like to thank my colleagues Dr. Peter Frankopan, Oxford University, for his useful remarks and for Prof. Eshak Ebeid, Ain Shams University, who revised the English version of this paper. My warmest thanks for Prof. J. Shepard, Cambridge University, who provided me with some articles and valuable remarks.

[1] Henceforth *Magyars.* G. Kristó presents a new study on the Magyars of the ninth century *Hungarian History in the Ninth Century, trans. G. Novak* (Szeged 1996).

[2] G. Vernadsky, 'Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia', *B* XIV (1939) 179-203. (henceforth *Lebedia*)

[3] P. Stephenson presents an analysis to these studies. See 'review article: Early Medieval Hungary in English', *Early Medieval Europe* 10/1(2001) 95-112. (henceforth *Medieval Hungary*)

[4] J. Shepard presented some important studies on the relations between Byzantium and its northern neighbors, especially Rus' and Pechenegs. See, J Shepard, 'The Russian-Steppe frontier and the Black Sea Zone', The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, *Αρχ.Ποντ.* 35 (1978) 218-237; idem, 'The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy', *OSP* 31 (1998) 11-34; (henceforth *The Khazars*) idem, 'Constantine VII's Doctrine of "Containment" of the Rus', in *S Ivanov et al.*,



Fig. 14

Fig 13A





Fig.13B



Fig. 11

Fig 12

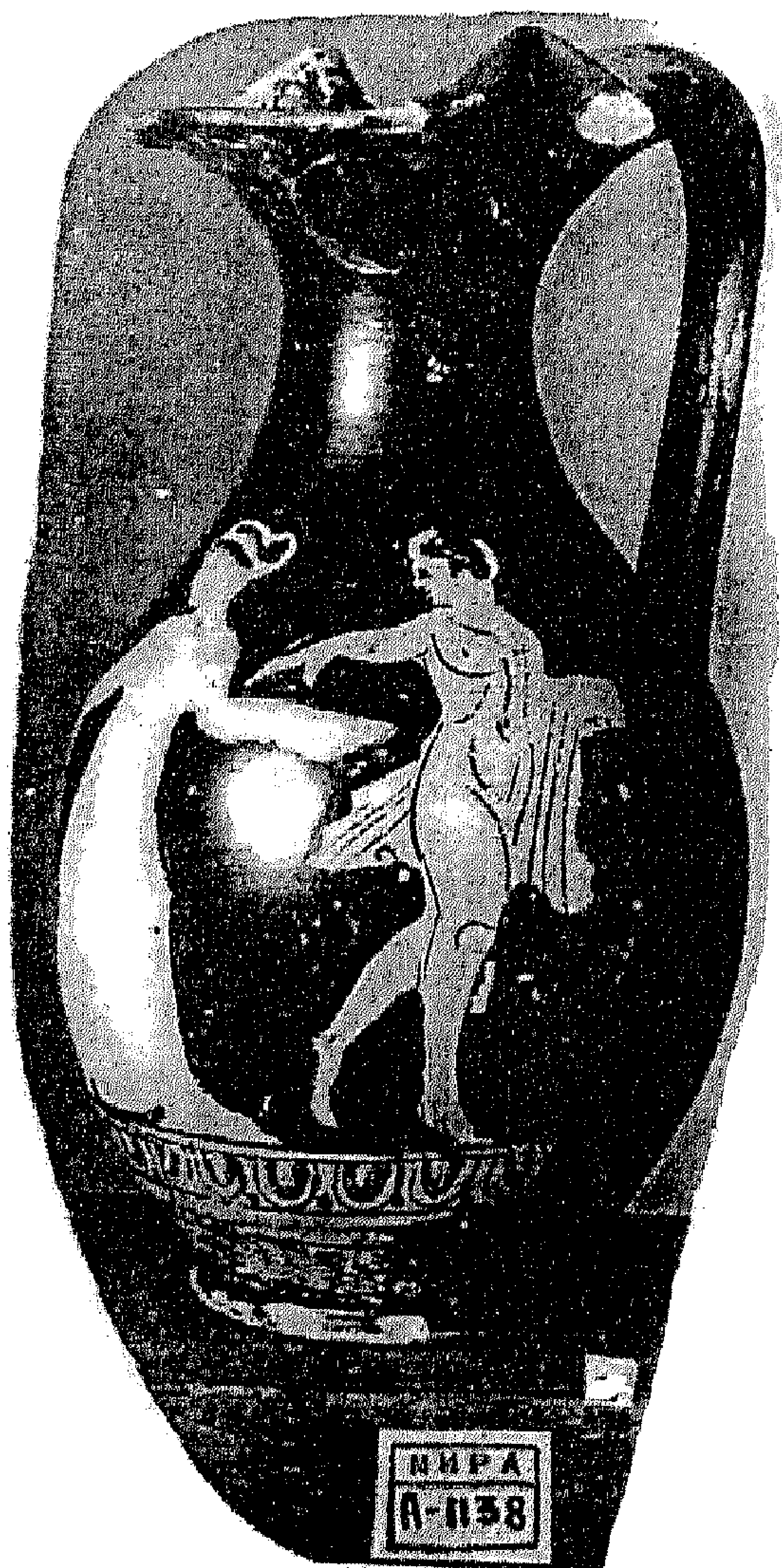




Fig.9

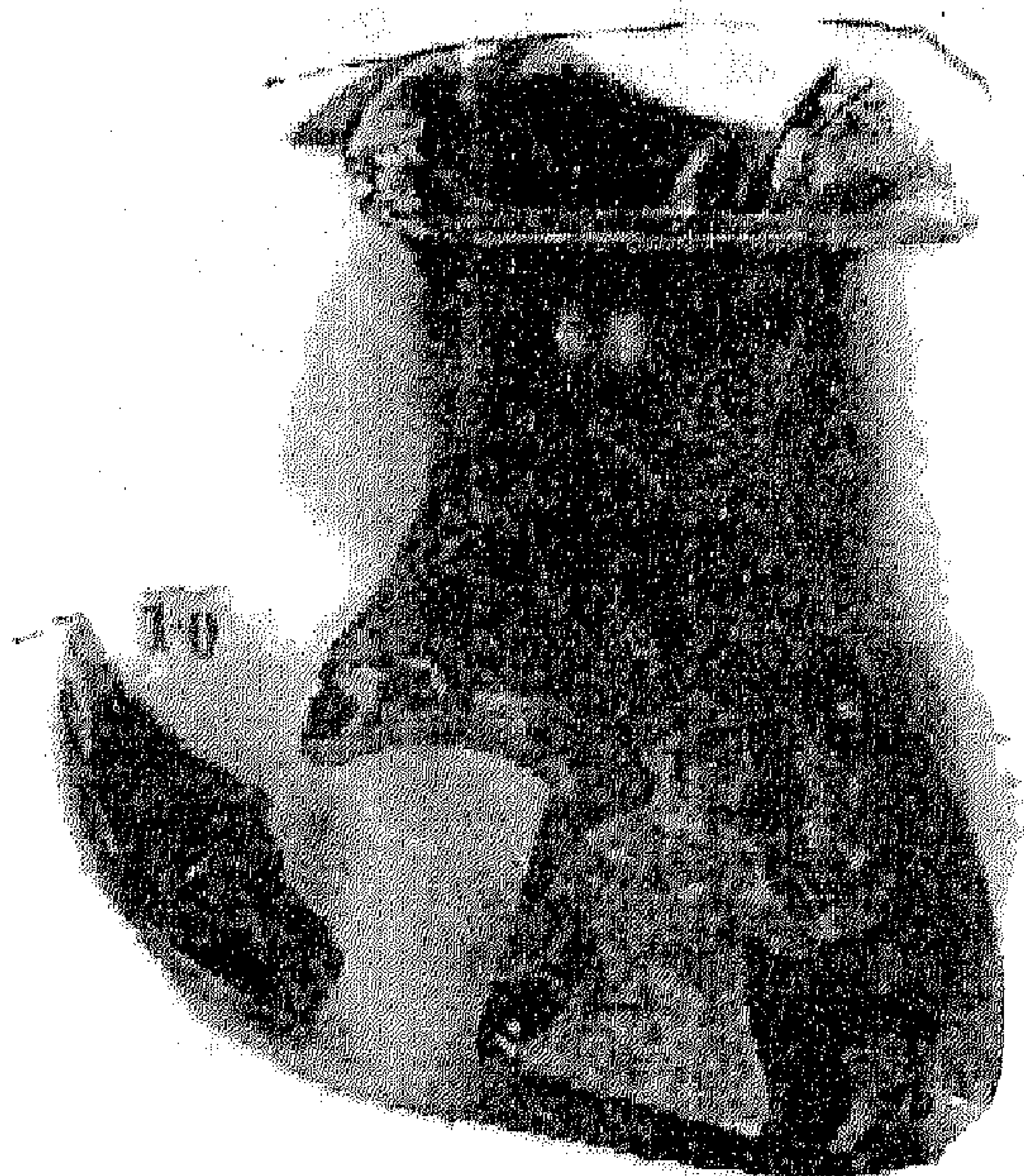


Fig.10



Fig. 8A

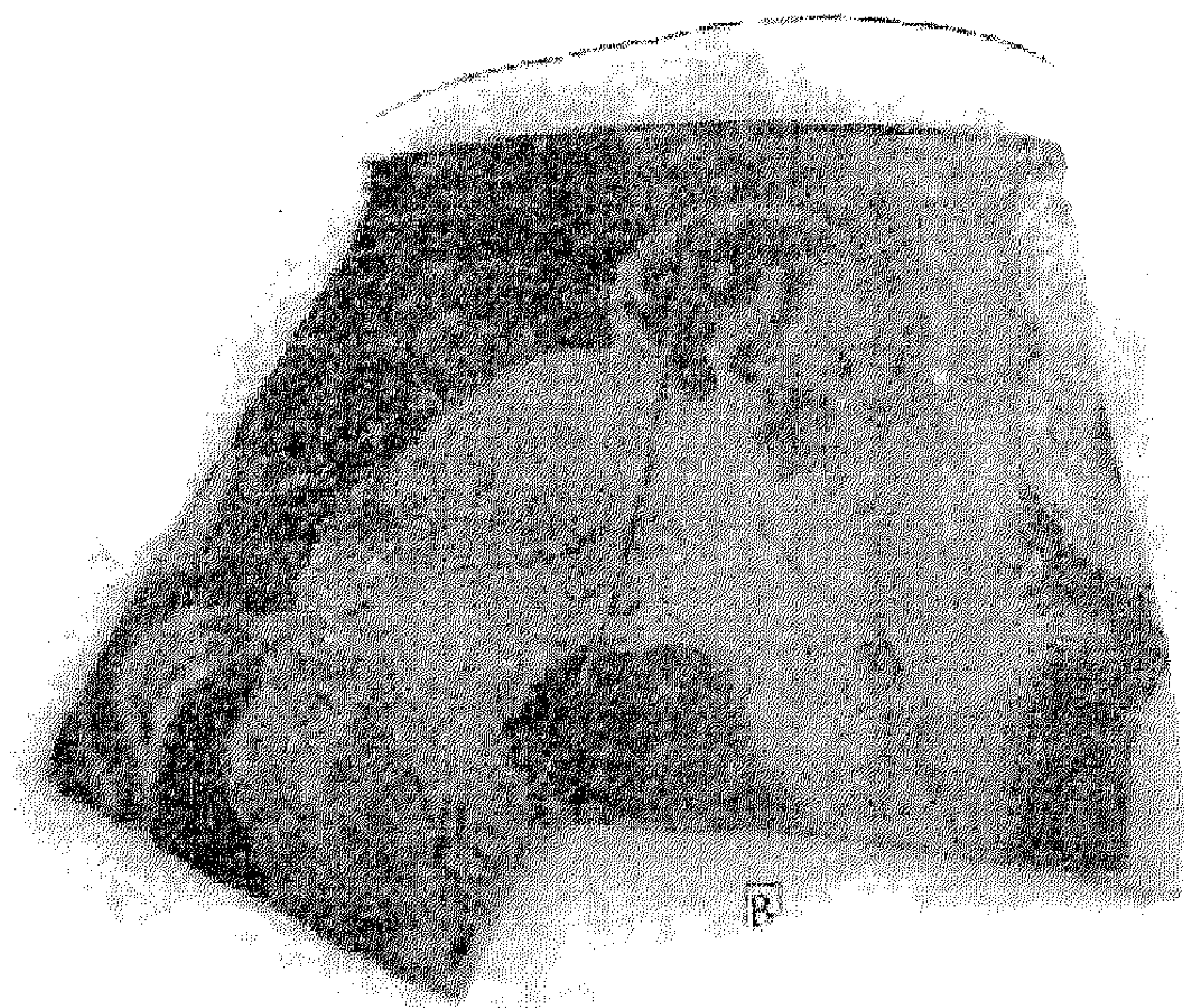


Fig. 8



Fig.7



Fig.6



Fig 5



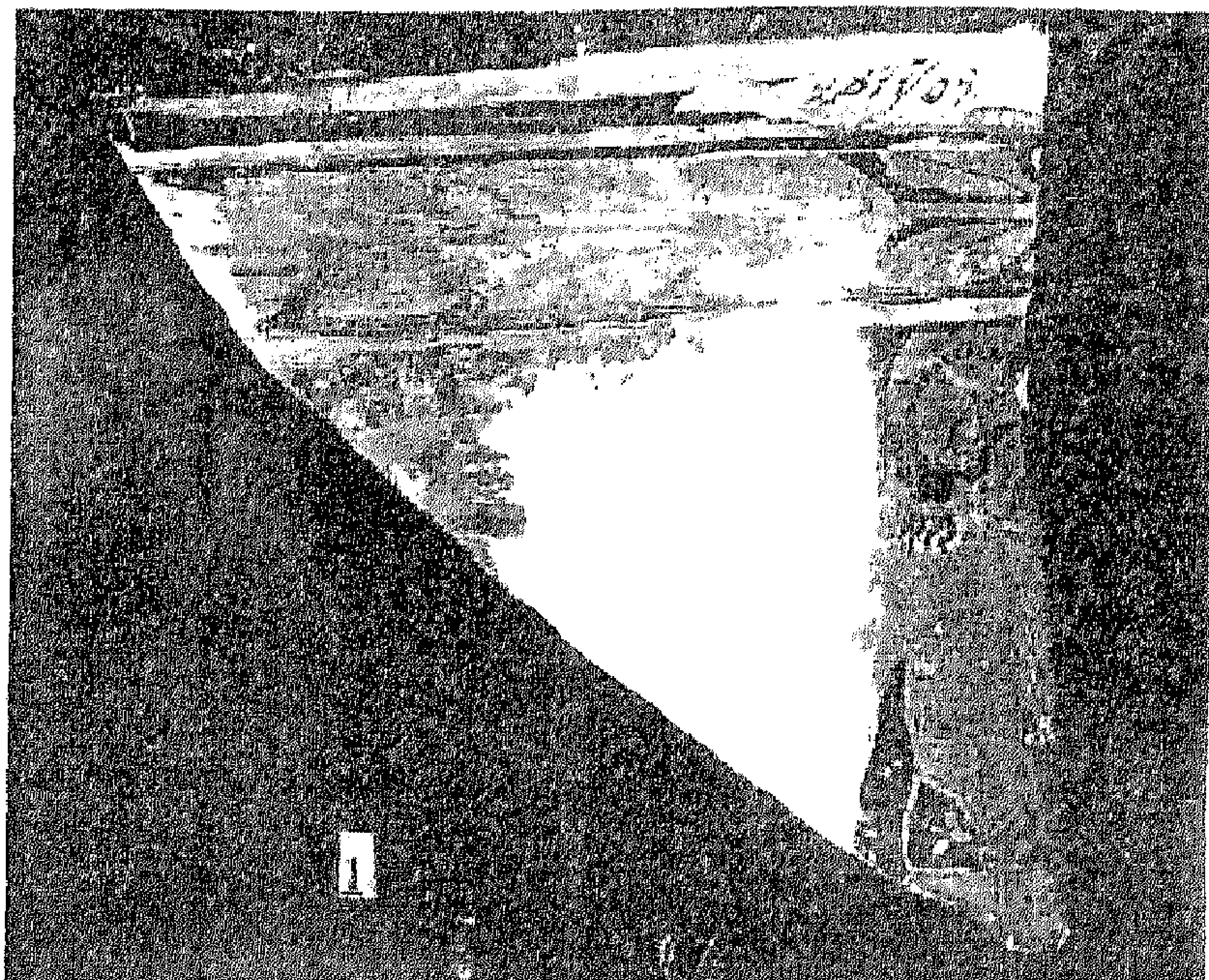
Fig 4B



Fig.4A



Fig. 3



Fig



Fig. 2

fig. 2. Krater from Kiev , founded by I. Funduklej near villages Pishchal'niki and Lazurtsi . This vessel is dated the late 5th century BC. J.Beazley attributed it as Kiev Painter's work - ARV^2 1346,3

fig. 3.*Pelike from Yalta Museum. A-498; 390 BC, Painter of the Lion Griffin, ARV^2 1473, UKV, 44,taf. 5,1. fig. 3.*

Fig.4a. Fragment of krater from the Taman museum (flutist-woman and commos).Inv.KM-6461, 360-350 BC, L.C. group , ARV^2 1456-1461

fig. 4b. *Fragment of krater from Feodosia Museum of Local Lore(woman with lotus and 2 men) inv. КП-31751, 360-350 BC, L.C. group, ARV^2 1456-1461*

fig. 5. *Pelike from Crimean Republican museum(Simferopol), inv. КП-1094, 360-340 BC, Black Thyrsos Painter, ARV^{2}1431-1434.*

fig. 6.Oinochoe from the Novorosijsk museum , without number,350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig. 7. Pelike from Feodosiya museum, inv. A - 5971 КП-28750, 370-360 BC, Painter of krater from the Louvre. N 2776

fig. 8a. Pelike from Sochi ОФ-543. 360-340 BC. Black Thyrsos Painter, ARV^{2}1431-1434.

fig. 8b Fragment of cup from Feodosiya КП-45573 , 410-400 BC, analogy - №1494 AGORA XXX

fig.9.Fragment of krater from Kerch KMAK-10647 , 2nd quarter of 4th century BC

fig.10.Oinochoe from Kertch (inv.6547) 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig.11. Fragment of krater from Chersonesos(inv.31629

fig.12. Oinochoia from St-Perersburg (Museum of religion and Atheism) inv.1138, provenansed from Black Sea Area , 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig. 13a.Pelike from Feodosiya КП-1048 . Eros and woman . 320-310 BC. Near the Jalta Painter, ARV^2 1452

fig. 13b. Pelike from Yalta КП-723 Eros and 2 women. 320-310 BC, Jalta Painter, ARV^2 1452

fig. 14. *Pelike from Kerch KMAK-52 .320 BC. Group of London 245. ARV^2 1483*

Bibliography:

Bron Chr, "The Sword Dance for Artemis", *The J.Paul Getty Museum Journal*, V.24. pp.69-83. 1996.
Delavaud-Roux Marie-Helene, *Les danses pacifiques en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1994.
Delavaud-Roux Marie-Helene A.A., *Les danses Dionysiaque en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1995.
Funduklej I., *Obozrenije mogil,valov i gorodishch Kievskoj gubernii*,(Kiev 1848) 18,19,71, tab. XII
Matheson Susan B, *Polygnotos and Vase Painting in Classical Athens*, The University of Wisconsin Press, 1995.
Poursat J.K., "Les representation de danse armee dans la céramique attique", *Bulletin de correspondance hellenique*, V.92. 1968.
Vdovichenko I.I., 'Izobrazhenie voennykh zhenskikh tantsev na vazakh iz Severnogo Prichernomoria', *Zapiski istoriko-filologichnogo tovaristva Andria Biletskogo*, Kiev,1979
Zedgenidze A.A. , 'O vremeni osnovaniya Khersonesa Tavricheskogo', *KSIA*, 159 (1979) 28, fig. 2,3

List of abbreviations(cuttings):

Ath. Deipn. - Athenaios, Deipnosofistai. // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
Pol. On. Pollux Iulius. Onomastikon // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
AGORA XXX – The Athenian Agora. Results of Excavation conducted by The American School of Classical Studies At Athens. Volume XXX. Attic Red-Figured and White-Ground Pottery by Mary B.More.Princeton, New Jersey,1997
ARV^2 - J. Beazley, 1963. Attic Red Figure Vase-Paintings, 2nd edition, Oxford.

List of illustrations

fig.1.Krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine). Inv.2877/09. Christie Painter's ,430 BC. analogy - Matheson ,1995, 127, Pl. 107-110

creatures - satyrs and maenads. The invitation to a dance is depicted on the pelike from Crimean Republican Museum satyr give tympanum to maenad (fig. 5). Maenads begin the dance, standing on both sides of Dionysos (oinochoe from the Novorosijsk Museum (fig. 6). Running maenads and satyrs are represented on the pelikai from Sochi ОФ-543 (fig.8a), from Feodosia A - 5971 (fig. 7), fragment of cup from Feodosia (fig. 8b) and fragment of krater from Kerch KMAK-10647 (fig. 9) oinochoiai from Kertch (inv.6547) (fig.10) and fragment of krater from Chersonesos(inv.31629)(fig.11).

The dance with a coverlet (himation) is one of the curious dances popular in the late 4th century BC. Menandros in the 'Diskol" had described the performance of this dance at a friendly carousal by two young maidservant . In the opinion of some researchers the dance is connected with a cult of fertility(Delavaud-Roux, 1994)This dances are represented on the pelikai 4th century BC from Feodosiya (fig. 13a), Yalta (fig. 13b), and Kerch inv. KMAK- 52 (fig. 14).
The moves of this dance included covering and recovering himation, turn , sliding.

We can see other pacific dance on the Oinochoia from St-Perersburg, provenansed from Black Sea Area Youth and girl dance it. Their moves are calm and slow. (fig.12).

The musical support of the dances were double flute aulos and tambourine.

So, the Greek cult dances preserved some relicts of the archaic cults, but it did not influence on their popularity. Moreover, the chorographical traditions preserved during existence of the Byzantine empire up to the modern time.

vases quite frequently. On the Pelike from Yalta two *arimasps* perform ritual dance (may be *apokinos*) around the Griffin (fig 3)

Plato in the "Laws" ("*Nomoi*") marks out Bacchic dances in a separate category of dances (5, 8-9). He negatively perceives ecstatic motion, characteristic for them. But, he does not say that these dances are ugly (except of Kordax) . Bacchic dances showed the trance caused by a deity, instead of entertainment and consequently they were out of human comprehension and opinion. However, in his judgment, they contradicted to the ideal of *sofrosini* (σωφροσύνη) - prudence, moderation. On Plato's opinion they were divided into two varieties - mystical, caused by a trance (the dances of maenads) and dances of *commos*, which were performed by men. In a modern Greek folk choreography mystical dances were not saved (except of dances *anastenaries*- dancing on a fire-brand, which exist nowadays in Northern Greece). But many dances from the other category of Bacchic dances performed by drunk men are saved better.

In antiquity they also were very popular, to what the performance of "Bakchai" by Euripides testifies. In 630-530 BC the images of these dances for the first time occurs on the Corinthian vase. Then this theme is spread in Attic, Beotia and other parts of the Greek world. It is interlinked, apparently, with spreading of popularity of a Dionysos's cult. In 530-475 BC this theme becomes one of popular in the vase-painting , which one at this time passes to new red-figure techniques . In period 475 - 320 BC the new cults - Dionysos's - Zagrey , Isis, Kybele, Sabazios were grown. It was reflected in a plastics and choreography of the Bacchic dances (Marie-Helene Delavaud-Roux 1995. p.45) The movements become less active, softer, than in the earlier period, tearing animals to pieces disappear.

The images of Dyonisos, satyrs and maenads are very popular in the vase-painting of the 4[th] cent. BC. Ritual dances in honor of Dionisos started spontaneously and were improvised , using traditional moves - jump, turn , sliding or running. Dances, performed by drunk men during the holidays in honor of God or after symposiums, you can meet on the kraters dated back to the 5- 4[th] cent. BC. On the fragments of kraters, from the Taman museum and Feodosia Museum of Local Lore N 6966 (fig. 4, a,b), you can see the picture of komos Dances performed by professional girl-dancers during symposiums can be attributed to this category too. Second one – includes the ritual dances in which both men and women creating the image of mythological

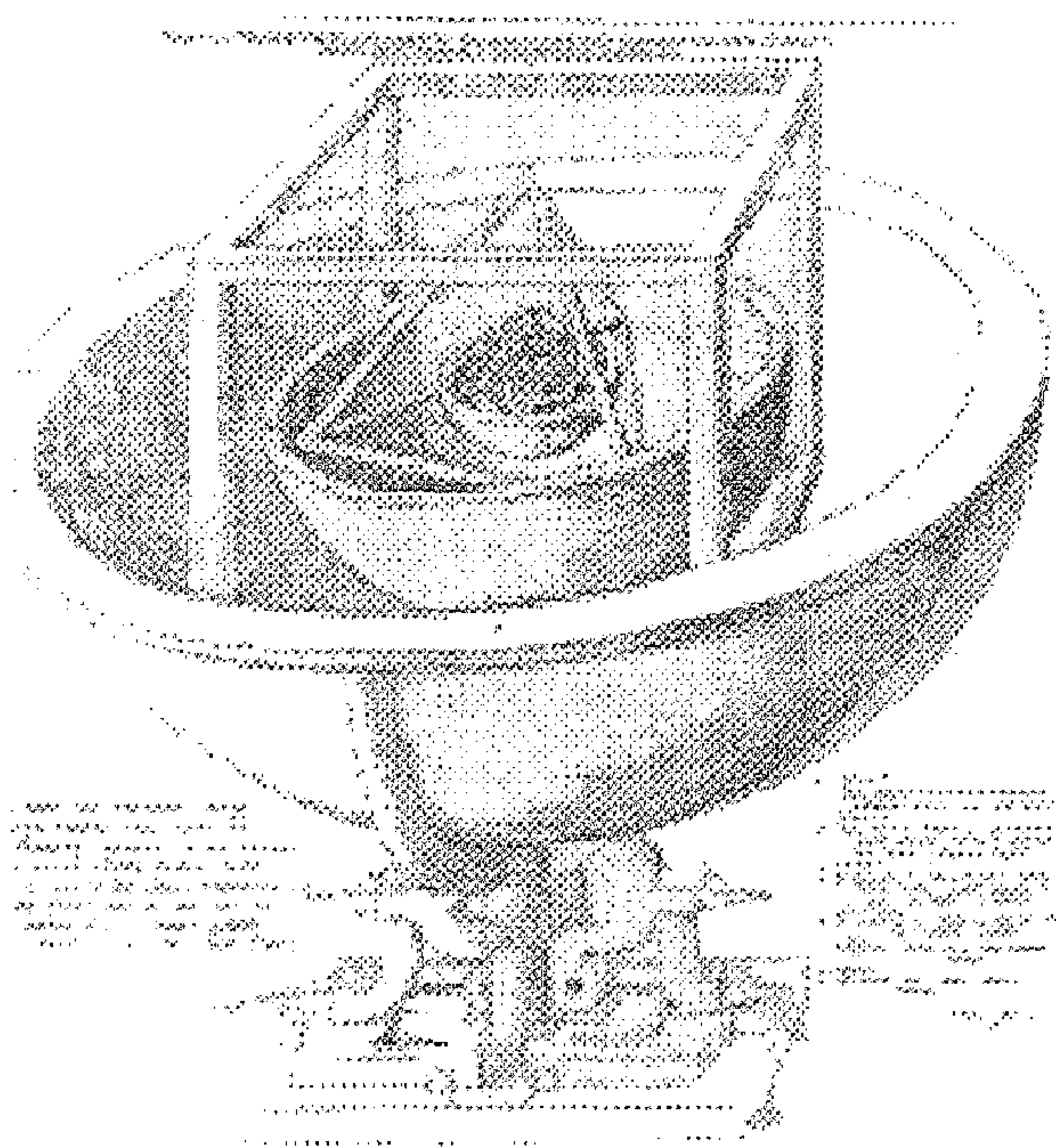
Images of the Dances on the 4th Century Vases from the Black Sea Area

Vdovichenko Irina
Taurida National University
Ukraine

Ancient vase-painting gives us the richest iconographic material for learning of all sides of contemporary life. Attention of the researches attracts the images of different dances, which one from a deepest antiquity and before our time are the brightest expression of an emotional nature of the Greeks. The features of succession in a national choreography speak about the extraordinary stability of this component of culture and on the other side about saving of national character.

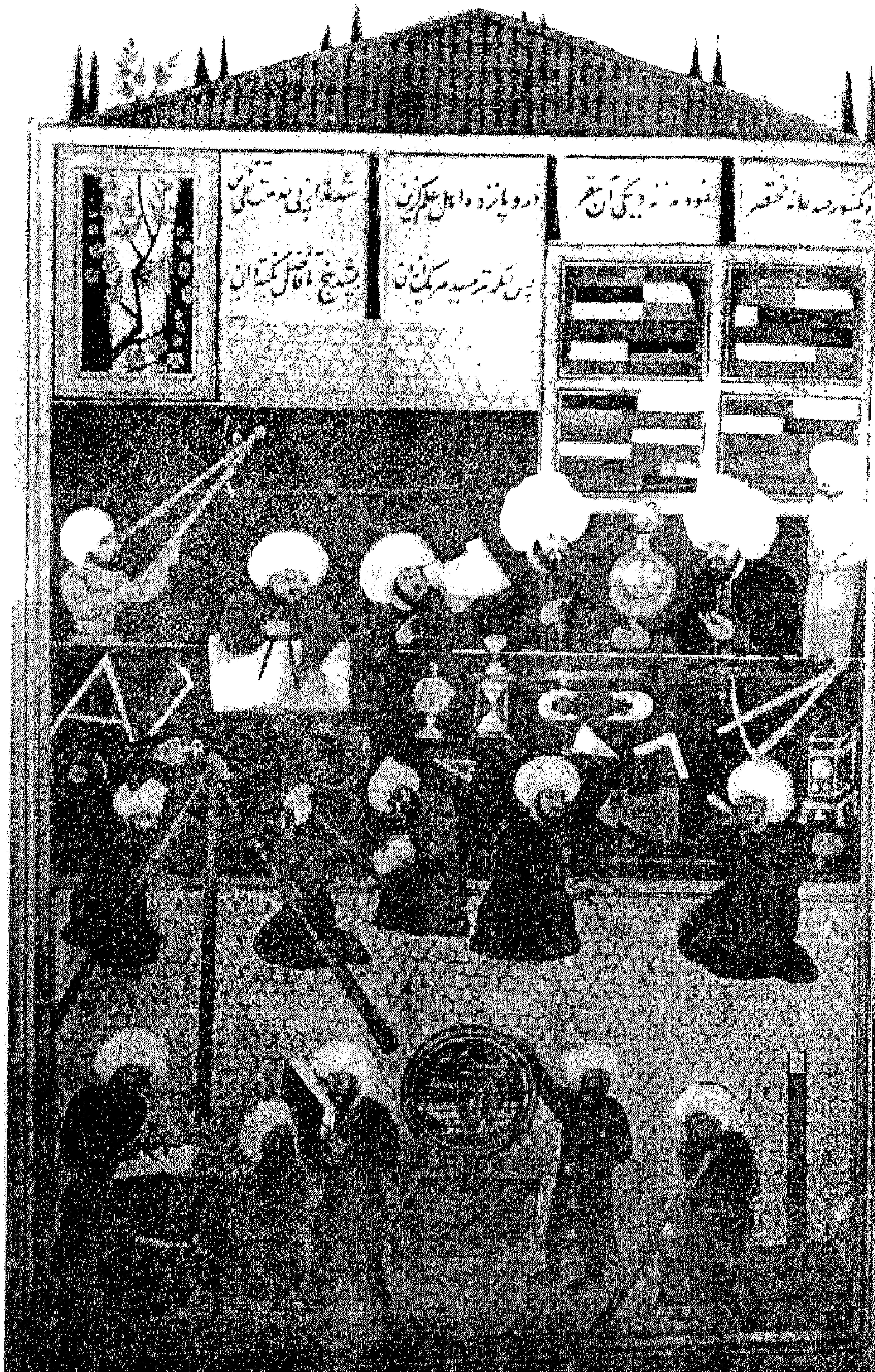
The Greek dances in antiquity were divided into military, *Bacchic* and pacific ones. We know some of these dances from the ancient literary sources. Athenaeus and Pollux, lexicographers from Alexandria (2nd –3rd century AD) give a quite complete list of the Greek military dances (Ath. Deipn.6.628s. - 31; Pol. On.4.95-104). The most popular dances were the *apokinos*, the *Pirrhic* and the Prylis (Bron, 1996. p.76) Many information have been saved in the sources about *Pirrhic*. It was performed usually under accompaniment of a flute. The dancers had to wear helmet, and to hold shield and spear in their hands. In Athens the dance was associated with Athena, on the other part of Attic territory *Pirrhic* was performed in the Artemis sanctuaries. Both girls and *ephebes* danced *Pirrhic* during an initiation ritual (the moment of transition from childhood to adulthood) (Bron, 1996, p. 63-83).We have many information about performing *Pirrhic* in the 4th century BC, but this image is not popular in the vase-painting in this time . In the late 5th century we know 2 vases with this subject from the Black Sea Area - fragment of krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine) (fig.1.) (Zedgenidze, 1979 , 28, fig. 2,3;Vdovichenko, 1999,81-86) and the krater from Kiev typical barbarous warrior' s tomb near villages Pishchal'niki and Lazurtsi (fig. 2) (Funduklej, 1848 18,19,71, tab. XII).

The *apokinos* (other name was *maktrismos*), remains only a name for us , we know also, that this dance performed amazons. Prylis danced Curetes around the baby Zeus. Amazons and Curets performed it with shields and swords. The images of amazons and arimasps were very popular at that time, that's why their militant dances were pictured on the



Joh. Kepler, *Mysterium Cosmographicum* Tübingen, 1596. (p. 26 - 27)

Arabic Observatory



An early Arabic manuscript from 14th century which contains the principal work of Nasir ad-Din at-Tusi. "Tadhkira fi ilm al-Haya" (Memoir on Astronomy).

from something not existing and nothing is destructed to something not existing. Atoms are infinite in size and multitude They move swirling everywhere and they generate everything: fire, water, air, earth, because they are systems of atoms [18] The atoms move in the void eternally. They are unbreakable, indivisible, unchangeable, unalterable in quality. The qualities are noticeable because of the combination of atoms.[19] The British chemist and physicist John **Dalton** converted the atomic philosophy of the Greeks into a scientific theory at the beginning of 19th century.

The earliest philosophers of Greece were theorists of the physical world. The Renaissance continued this breadth of conception characteristic of the Greeks. Galileo and Descartes were mathematicians, physicists, and philosophers at once; and physics retained the name of "natural philosophy" at least until the death of Sir Isaac Newton in 1727.[20]

The multifariousness of today's sciences obliges the scientists to follow very narrow specification. It is rare a philosopher or a historian or a philologist to be also a mathematician or a physicist or a chemist. This makes difficult the spherical view and understanding of the world.

History and Philosophy of science is inseparable part of both, classical studies and exact science. It provides indispensable links with Classical Philosophy, History and the evolution of the exact sciences.

In order to achieve global classical studies, their bounds have to be extended and the study of History and Philosophy of Science must be encouraged.

---

[18] Democritus Testimonia: Fragm. 1 DIOG. IX 34ff. [44]

[19] Democritus Testimonia: Fragm.49 GALEN. de elem. sec. Hipp.I 2 [I 417 K., 3, 20 Helmr.]

[20] Philosophy of nature: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

The scientists Nicolaus **Copernicus**, Johannes Kepler, and Galileo, following the Platonic ideas of the philosophical importance of mathematics and the Pythagorean attempt to discover the secrets of the heavens in terms of number and exact calculation[15], supported the idea of the heliocentric model -suggested by the Greek astronomer Aristarchus of Samos.

Sustained by a vision of mathematical harmonies in the skies, a vision he derived from the philosophy of Plato and the mathematics of the Pythagoreans, **Kepler** tried to relate planetary orbits with the five regular solids, or "Platonic bodies": tetrahedron (formed by four equilateral triangles), cube, octahedron (formed by eight equilateral triangles), dodecahedron (12 pentagons), and icosahedron (20 equilateral triangles) in "Mysterium cosmographicum", published in 1596. Later, trying to determine the orbit of Mars -using the observation results of Tycho Brahe- Kepler discovered the three laws describing the motion of the planets, putting out of use the Ptolemaic system. Following the model established by Archimedes, Kepler, in his volumetric researches, investigated the properties of nearly 100 solids of revolution -made by rotating a two-dimensional surface on one of its axes- enormously extending the range of Archimedes' results.[16]

Galileo, following the Greek tradition of proofs, introduced the experiment to study the movement of bodies and used the telescope to affirm the Heliocentric system, supported by Copernicus.

In artem analyticem isagoge ("Introduction to the Analytic Arts"; 1591) **Viéte**, as part of his program of rediscovering the method of analysis used by the ancient Greek mathematicians, proposed new algebraic methods, but he saw this as an advancement over the ancient method, a view he arrived at by comparing the geometric analysis contained in Book VII of Pappus' Collection with the arithmetic analysis of Diophantus' Arithmetica.[17]

Leucippus of Miletus (5th century BC) is thought to have originated the atomic philosophy. **Democritus** of Abdera (460-370 BC) developed further this philosophy and named the building blocks of matter atomon, meaning "indivisible". According to Democritus nothing is coming into being

---

[15] Humanism: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[16] Johannes Kepler: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[17] Mathematics in the 17th and 18th centuries: The 17th century: Analytic Geometry. Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

Nasir al-Din al-Tusi (born 1201) made the most significant development of Ptolemy's model of the planetary system up to the development of the heliocentric model in the time of Copernicus.[12]

Many of the ideas, which were previously thought to have been brilliant new conceptions due to European mathematicians of the 16th, 17th and 18th centuries are now known to have been developed by Arab mathematicians around four centuries earlier.

At the western part of Arabic Lands, in Cordoba, prince Abd al Rahman II created in 9th century a great library, where the translated works came directly from Baghdad. A school for Mathematics and Astronomy founded also there by Maslama. The numerous students of that school spread to the kingdoms of Sevilla, Granada, Zaragoza and Toledo. In the monastery of Ripoll, in the province of Gerona, many manuscripts from East and West - among them mathematical ones- were collected. In the 11th century a new phase of mathematics began with the translations from Arabic. In 1126 was founded in Toledo a school for translators, its aim had been the translation of the great Greek and Arabic works into Latin[13]. Along with philosophy, astronomy, astrology, and medicine, important mathematical achievements of the Greek, Indian, and Islamic civilizations became available in the West. Particularly important were Euclid's Elements, the works of Archimedes, and al-Khwarizmi's treatises on arithmetic and algebra. Western texts called algorismus (a Latin form of the name al-Khwarizmi), introduced the Hindu-Arabic numerals and applied them in calculations. Thus modern numerals first came into use in universities and then became common among merchants and other laymen.[14]

The spirit and the wisdom of Greeks met the restless minds of the Renaissance and fired the beginning of a new era in science. Every new idea and theory becomes subject of discussion and is exposed to a critique, which conduces to its improvement.

---

[12] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[13] Veguín Casas, María Victoria: Mathematicas y Camino de Santiago, pp.162-165. Ediciones del Orto, Madrid 1998

[14] The transmission of Greek and Arabic learning: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

not done for its own sake, but was done as part of the current research effort.[10]

The Arabs appropriated not only the knowledge of Greeks, but also the Greek conception of the world and the Greek methodology of the science. As Lindberg says[11], the Islamic science was built on Greek foundations and was formed according to Greek architectural principles; the Muslims did not try to demolish the Greek structure, but they worked for its completion.

Al-Khwarizmi put the foundation of Arabic algebra; **Omar Al-Khayyam** (b.1048) made a complete classification of cubic equations, solving them by means of intersecting conic sections; **Sharaf Al-Din Al-Tusi** (b.1135) studied curves by means of equations and inaugurated the beginning of algebraic geometry.

Al-Karaji (b.953) made algebra free of geometrical operations substituting them by arithmetical ones; **Al-Samawal** (b.1130) following the same tradition declares that Algebra is concerned with operating on unknowns using all the arithmetical tools, in the same way as the arithmetician operates on the unknown.

Al-Biruni (b.973) held extensive studies on astronomy and geography, using the projection of a hemisphere onto the plane.

Thabit ibn Qurra (b.836), **Al-Baghdadi**, **Al- Haytham** worked on Number Theory.

Ibrahim ibn Sinan (born 908), who introduced a method of integration more general than that of Archimedes and **al-Quhi** (born 940) were leading figures in a revival and continuation of Greek higher geometry in the Arabic world.

Ibrahim ibn Sinan and his grandfather **Thabit ibn Qurra** both studied curves required in the construction of sundials.

---

[10] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[11] Lindberg, David: The beginnings of Western Science. The University of Chicago Press, Chicago, 1992

After the 3rd A.D. century the production of new ideas fell in decline. At that time commentaries and explanations of the great works of the past appeared. Possible reasons for this decline could be the discontinuance of the oral tradition and the new philosophical and religious movements.

In the Byzantine era few new ideas appeared; its most important contribution in the History of Science was the preservation of ancient scientific heritage mainly by monks, who copied, made anthologies and commented the work of ancient Greeks.

In the 7th century the Arabs, inspired by their new religion, burst out of the Arabian peninsula and laid the foundations of an Islamic empire. To the Arabs, ancient science was a precious treasure. Contact with Hindu mathematics and the requirements of astronomy, mainly for religious reasons, stimulated the study of numbers and of geometry.

The writings of the Greeks were, therefore, eagerly sought and translated, and thus much of the science of antiquity passed into the Islamic culture. Greek medicine, Greek astronomy and astrology, and Greek mathematics, together with the great philosophical works of Plato and, particularly, Aristotle, were assimilated in Islam by the end of the 9th century.[9]

This fruitful period begins under the **Caliph Harun al-Rashid**, the fifth Caliph of the Abbasid dynasty, whose reign began in 786. He encouraged scholarship and the first translations of Greek texts into Arabic, such as Euclid's *Elements* by al-Hajjaj, were made during al-Rashid's reign. The next Caliph, **al-Ma'mun** (813-833), encouraged learning even more strongly than his father al-Rashid, and he set up the House of Wisdom in Baghdad, which became the centre for both the work of translating and of research. Al-Kindi (born 801) and the three Banu Musa brothers worked there, as did the famous translator Hunayn ibn Ishaq.

The translations into Arabic at this time were made by scientists and mathematicians such as those named above, not by language experts ignorant of mathematics, and the need for the translations was stimulated by the most advanced research of the time. It is important to realize that translating was

[9] Science in Islam: Britannica CD. Version 97. Encyclopedia Britannica, Inc., 1997

existence cannot be proved), some of them **peculiar** to each science and some **common**. **definitions**, and **postulates** (propositions assumed and used without demonstration). He also stressed the dealing with abstract notions rather than figures: *"The geometer draws no conclusion from the existence of the particular line of which he speaks, but from what his diagrams represent"*[6]. In Alexandria of Egypt, the center of Hellenistic science, **Euclid** collected and systematized the accumulated knowledge of Greeks according to the Platonic and Aristotelian ideas. Characteristic example is his "Elements" that included the most important results obtained from the previous mathematicians. Hellenistic era brought sciences to an apogee:

The **Archimedean** method for the determination of areas and volumes related to the idea of integration developed between the 17th and 19th centuries;

The profound work of **Appolonius** on conics gave the idea on which Viéte, Fermat, and Descartes built in 17th century Analytic Geometry.

Hipparchus discovered the precession of equinoxes, which is caused by the cyclic precession of the Earth's axis of rotation.

Claudius Ptolemy applied the theory of epicycles to compile a systematic account of Greek astronomy. His theory generally fitted the data available to him with a good degree of accuracy, and his book, the Almagest molded astronomy for the next millennium and a half.[7]

Pappus had employed an analytic method for the discovery of theorems and the construction of problems; in analysis, by contrast to synthesis, one proceeds from what is sought until one arrives at something known.

Diophantus in his Arithmetica conceives the idea of the unknown quantity, uses abbreviations to express the powers of the unknown and the subtraction (λείψις).[8] These abbreviations are also used in the process of the working out of the equations. His method of solving equations was the start point not only for the Arabs, but also for Viéte and Descartes to formulate Algebra.

---

[6] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 77a 1-3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[7] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[8] Diophantus of Alexandria: Arithmetica I, pp.1.1 - 12.21

Although Plato argued for the exclusive use of ruler and compass for the constructions in Geometry, Greeks trying to solve problems as the duplication of the cube, the trisection of an arbitrary angle and the quadrature of a circle and finding no solution in agreement with Plato's restrictions, they invented new methods as that of verging (νεῦσις) and new curves as the conic sections, the conchoidal lines, the quadratrix etc[2]. Only in 19th century it was proved, using higher algebra, that the above problems were impossible to be solved by the exclusive use of ruler and compass. Greek mathematicians manifested by their attitude the freedom of their thought; they had to reach their aim by any means and they did it through the flourishing of a diversity of methods.

In the Timaeus, **Plato** tried to build up a complete system of physics, partly employing Pythagorean ideas. The **Pythagoreans** (5th century BC) were responsible for one of the first Greek astronomical theories. Believing that the order of the cosmos is fundamentally mathematical, they held that it is possible to discover the harmonies of the universe by contemplating the regular motions of the heavens. They constructed a model of cosmos postulating a central fire, about which the fixed stars, the five planets, the Sun, the Moon, the Earth and the Anti-Earth (Αντίχθων) revolve[3]. Subsequent Greek astronomy derived its character from a comment ascribed to Plato, in the 4th century BC, who is reported to have instructed the astronomers to "save the phenomena" in terms of uniform circular motion.[4]

In his Physica and Mechanica **Aristotle** put the foundations of Physics; his theory held for almost two millennia, until Isaac Newton and Galileo refounded Physics on the base of experiment and mathematical expression of natural laws. Aristotle put also the logical base on which the Greek Mathematics was developed. In his Posterior Analytica[5] he clarified the importance of building the science on **first principles** (elements whose

[2] Tomas, Ivor: Greek Mathematical Works, in 2 vols, Chapter IX, Special Problems. Loeb Classical Library, London 1991 (first edition 1939).

[3] Alexander: In Aristotelis metaphysica commentaria p.37.18-39.3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[4] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[5] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 76b 3-22 (Thesaurus Linguae Graecae)

The Philosophy of Greek Mathematics and its influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance*

Flora Vafea
M. Sc. Mathematics
Greece

Speaking about classical studies, we usually mean the study of ancient Greek and Latin literature, history and philosophy that has come to us through the magnificent works of distinguished ancient writers. But a characteristic feature of Greek Philosophy was the consideration of the world and the ideas as one entity that cannot be studied separately. Thus the Greeks developed Philosophy parallel to Mathematics, since the leading philosophers as Thales, Pythagoras, Plato, Aristotle were pioneers in the development of Mathematics and Physics, as a necessary mean for revealing the secrets of the Nature and the world around us.

These philosophers had traveled to Egypt and Babylon and were acquainted with the knowledge of the civilization thereof. They did not confine themselves to obtaining the results, but they searched for proofs and further development of the received ideas and knowledge. Greeks, spread from the Italian peninsula to Asia Minor, formulated mathematics as a theoretical discipline, built on abstract notions rather than sensible objects, using formal demonstrations to prove the truth of their theorems. As Plutarchus preserves in his Convivial Questions[1], *"Plato censured Eudoxus and Archytas and Menaechmus for endeavouring to solve the doubling of the cube by instruments and mechanical constructions, thus trying by irrational means to find two mean proportionals: for in this way what is good in geometry would be corrupted and destroyed, falling back again into sensible objects and not rising upwards and laying hold of immaterial and eternal images, among which God has his being and remains for ever God."*

---

* This paper was delivered at the conference of *The future of Classical Studies in Egypt*, Cairo 17-18th April 2002.

[1] Plutarchus: Quaestiones convivales. Stephanus p. 718 : E7-F4 (Thesaurus Linguae Graecae)

Nicolle, "Shipping in Islamic Art; Seventh through Sixteenth Century AD," *American Neptune* XLIX (1989) 168-197.

17- M. Rule & J. Monaghan, *A Gallo-Roman Trading Vessel from Guernsey: The Excavation and Recovery of a Third Century Shipwreck* (Guernsey 1993) 125-131.

18- Nicolle, "Shipping in Islamic Art..." *op. cit.*, 175-181.

19- V. Christides, "Naval Warfare in the Eastern Mediterranean (6th-14th centuries): An Arabic Translation of Leo VI's 'Naumachica'," *Graeco Arabica* III (1984) 140-141; V. Christides, "Milaha: in the pre-Islamic and Medieval Arab Worlds," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. VIII (Leiden 1991) 44-45; V. Christides, "Navies: Islamic," in J. R. Strayer (edit.), *Dictionary of the Middle Ages*, vol. IX (New York 1992) 76; S. D. Goiten, "Glimpses from the Cairo Geniza on Naval Warfare in the Mediterranean and on the Mongol Invasion," in *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida* (Rome 1956) 395, 397 & note 1.

20- Al-Hassan, A.Y., & D. R. Hill, *Islamic Technology, an illustrated History* (Cambridge 1986) 3 1-34 & passim.

&passim, vol II,156, 170-171 & 180, vol. III, 93, 106-107, 111, 321, 336 & 342; D.C. Nicolle, "Moors against Majus: The Defence of Spain and Morocco against the Vikings 844-972 AD," *Osprey Military Journal* II/3 (2000) 23-32.

6- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15,18 & 2 3-24; Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. I, 354 & vol. III, 342.

7- Dunlop. "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15-18 & 22-24.

8- Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. III, 297-298; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 17-18; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*

9- D.M. Dunlop, "Al-Djaza'ir al-Khalida," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. II (Leiden 1965) 522.

10- H.T. Norris, *Saharan Myth and Saga* (Oxford 1972) 4-5.

11- J.L. Yarrison, *Force as an Instrument of Policy: European Military Incursions and Trade in the Maghrib, 1000-1355* (Ph D thesis, Princeton Univ. 1982) 118, 135 & 227-228.

12- E. Lucie-Smith, *Outcasts of the Sea: Pirates and Piracy* (London & New York 1978) 64-65.

13- J.D. Latham, "The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period," *Islamic Quarterly* XV (1971) 204.

14- B. Landström, *The Quest for India* (London 1964) 162 & 187; G. Ferrand, *Instructions Nautiques et Routiers Arabes et Portugais des 15e et 16e siècles*, 3 vols. (Paris 1921-1928) passim.

15- S.D. Goiten, A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Ara World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, vol. I, Economic Foundations (Berkeley 1967) 305-306; D.A. Agius, "Maqrizi's Evidence for the Gurab: The Galley of the Mamluks," in U. Vermeuben & J. M. F. Van Reeth (edits.), Law, Christianity and Modernism in Islamic *Society* (Leuven 1998) 195-196; D.A. Agius, "Historical-Linguistic Reliability of Muqaddasi's Information on Types of Ships," in D.A. Agius & I.R. Netton (edits.), *International Medieval Research. Across Mediterranean Frontiers: Trade, Politics and Religion, 650-1450: Selected Proceedings of the International Medieval Congress, University of Leeds, 10-13 July 1995, 8-11 July 1996* (Turnhout 1997) 303-329; J.H. Pryor, *Geography, technology and war: Studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571* (Cambridge 1988) 28 & 32.

16- V. Christides, "The Transmission of Chinese Maritime Technology to the Arabs: The Single Stern Rudder, Greek Fire, Animal Transport Ships" (pre-publication draft of article); D.C.

bacini, inserted as a form of architectural decoration into the structure of the Church. They were almost certainly made in the Balearic Islands of Spain which were then under Islamic rule and formed part of the flourishing Andalusian kingdom of Denia. The ships themselves are fully within a medieval Mediterranean tradition of lateen sailed "round ships" with high stern-castles, as illustrated in many sources from Iberia and Italy. However, these bowls are particularly important because of their date and provenance. They are considerably earlier than previously known pictures of three-masted ships and might support the idea that multi-masted vessels did not disappear from the early medieval Mediterranean following the collapse of the Roman Empire. Or perhaps they might at least have survived in those regions which became the western Islamic world. Current research into the history of Islamic technology is also strengthening the view that the Islamic world was, for many centuries, the major inovator in technological terms.[20] This may also have applied to ship design and methods of construction, in which case those specifically medieval features which distinguish the medieval Mediterranean "roundship" from its two-masted Roman predecessor the *corbita* may have been a shared Byzantine and Islamic development or indeed a largely Islamic one.

Footnotes

1- J.N. Hillgarth, *Visigothic Spain, Byzantium and the Irish* (London *1985)* passim.

2- M. Lombard, *Les Mélaux dans l'ancient monde du Ve au XIe siècle* (Paris 1974) Map A, & passim; J.W. Allan, *Persian Metal Technology 700- 1300 AD* (Oxford 1979) 2 7-28; Ibn Sa'id, cited in E, Ashtor, *Les métaux précieux et la balance des payements du proche-orient à la basse époque* (Paris 1971) 53-56.

3- D.M. Dunlop, "The British Isles according to Medieval Arabic Authors," *Islamic Quarterly* IV (1957) 11.

4- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12-14; D.M. Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. I (Leiden 1960) 934.

5- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12, 15 & 19; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," *loc. cit*; E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris & Leiden 1950-1967) vol I, 218-225, 310-312

Andalusia and of the Islamic Middle East The ship on this piece is highly stylized but certain features can be identified The vessel has three masts, two of which carry lateen sails, plus what appears to be a bank of oars though these are not connected to a possible row of oar-ports Even the cross-hatched triangular projection on the right or presumed stern recalls features seen in earlier Middle Eastern Islamic representations of ships. Perhaps such forms of ceramic were traditional and they might have no connection with contemporary shipping. On the other hand Rabat is very close to S ala, the home-port of the famous "Sallee Rovers." These North African corsairs used three-masted *xebecs* and ranged across much of the north Atlantic during the 16th and 17th centuries



G The best preserved of two tin-glaze ceramic bowls from the church of S. Piero a Grado in Pisa. 11th century AD (Museo Nazionale di S Matteo. Pisa) The two bowls were used as

an ordinary early 13th century merchant ship. The exception lies at the ends of the keel where two apparent cutwaters are shown. These could be dismissed as artistic conventions were it not for the fact that exactly the same feature is found on a crude medieval drawing from the Egyptian Red Sea port of Qusayr (figure D). Perhaps it was a feature of Islamic ships operating in tidal seas such as the Atlantic and Indian Oceans which had to be beached rather than docked, as in the tideless Mediterranean.

D Part of a simple sketch or drawing on a fragment of paper found by archaeologists in the rubbish dumps of medieval Qusayr (Old Qusayr) on the Red Sea coast of Egypt, 13th-14th centuries AD (Museum of Islamic Art, inv. 1097, Cairo). It is impossible to state with certainty whether this little drawing from the early Mamluk period shows the prow or stern of the ship. The vessel was probably single-masted, perhaps with a yard-arm to hold a lateen sail, and it seems to have a substantial midships deckhouse which extends both ahead of and behind the mast. The stem or sternpost is essentially straight with a series of ropes or perhaps two steering oars extending from it. Most interesting, in the context of this study, is a small extension or cutwater at the end of the keel. Perhaps it was to protect the keel when beaching the ship.

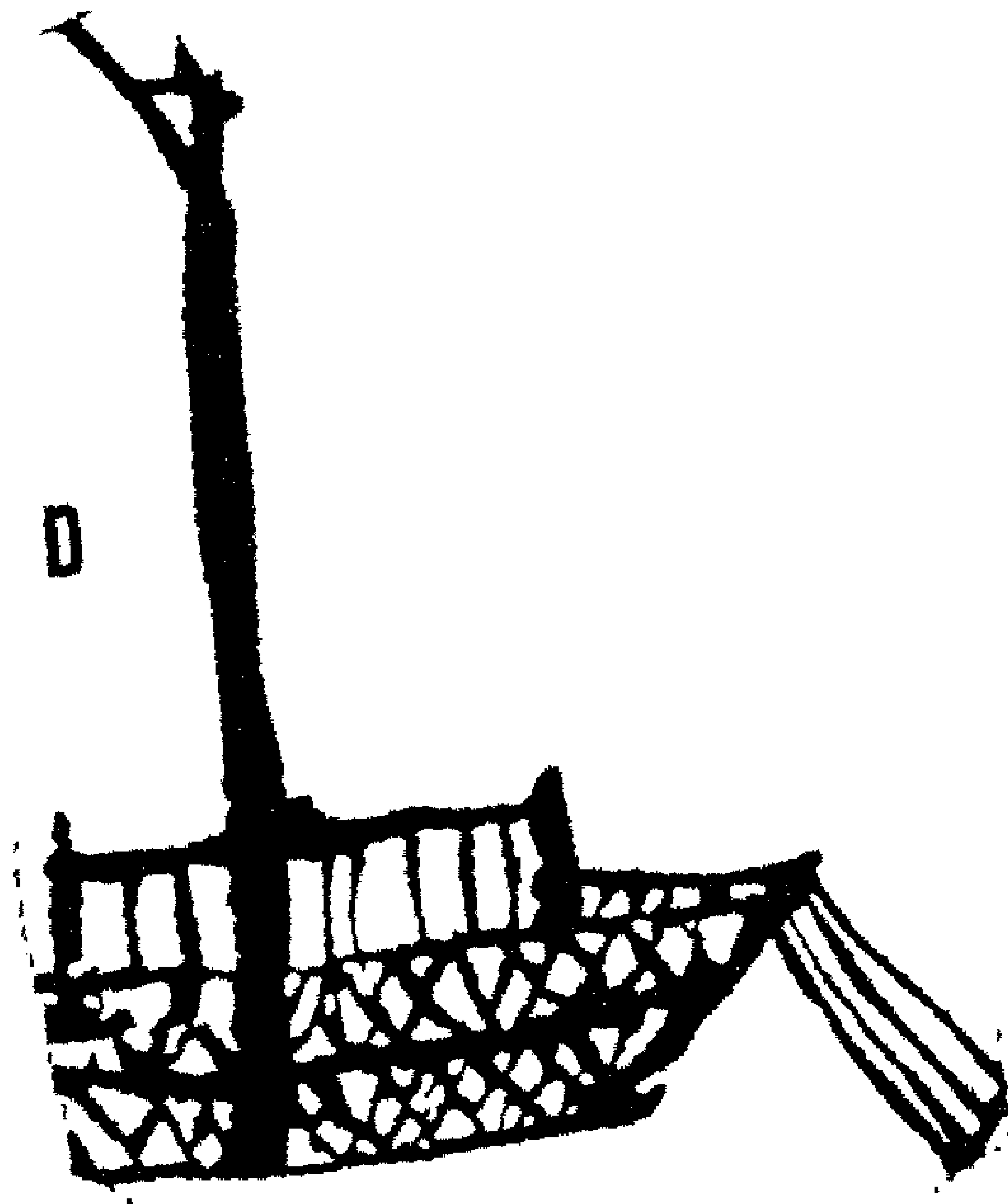
E This simple but better-known stratched graffito comes from Malaga on the southern coast of Spain and is generally thought to date from the 14th or 15th centuries (Museo Naval, Madrid). It illustrates a typical single-masted Mediterranean galley with a lateen sail, a raised boarding beak rather than a ram, probably a single bank of oars, slightly raised fore and aft castles, and steering oars rather than a hinged rudder. This latter feature would, in fact, point to a date earlier than the 14th century - perhaps considerably so. One may, however, assume that such galleys were responsible for maintaining Islamic communications between al-Andalus and Morocco.

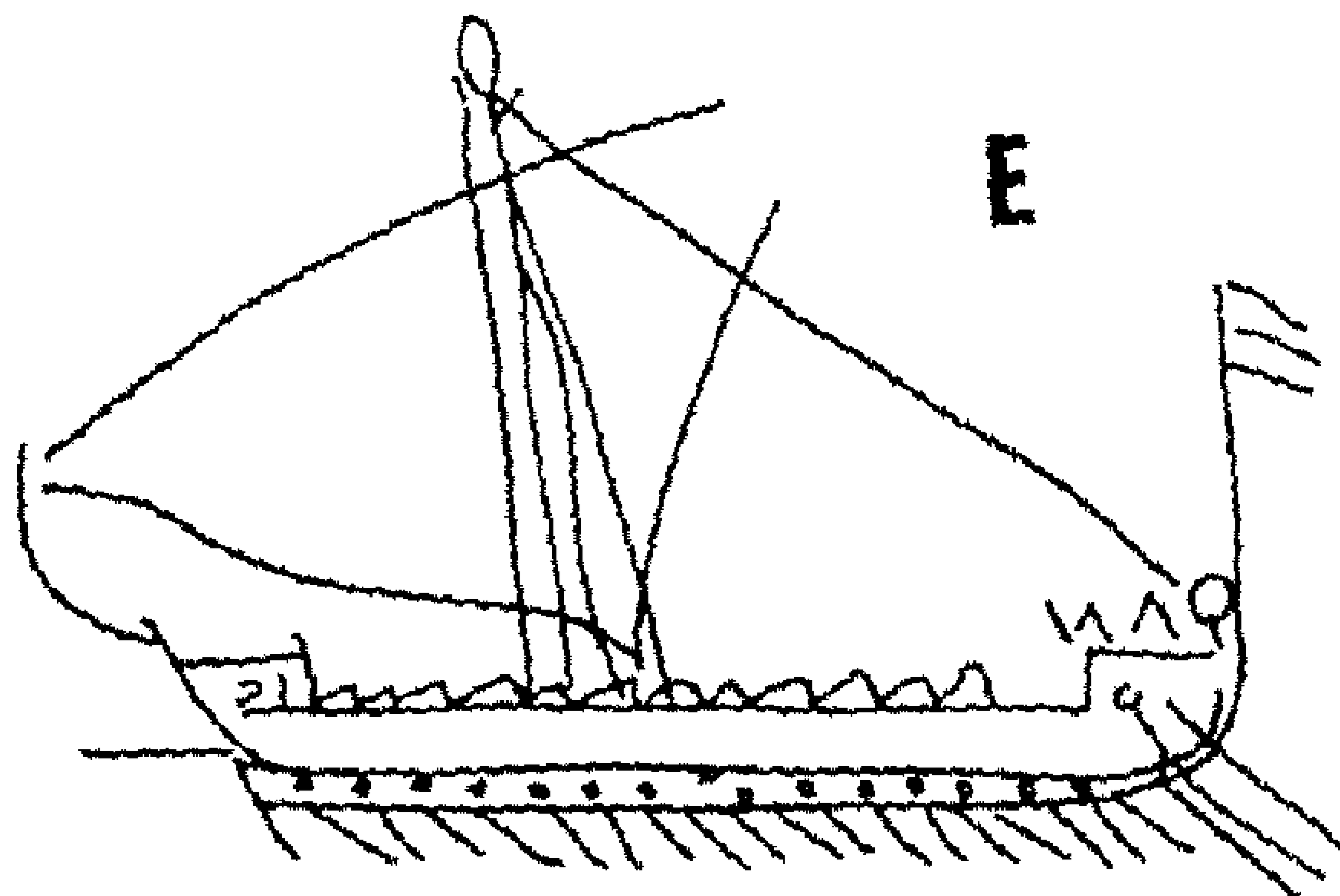
F Polychrome ceramic bowl from Rabat, 15th century AD (Archaeological Museum, Rabat). The ceramics of later medieval North Africa are crude in comparison to those of

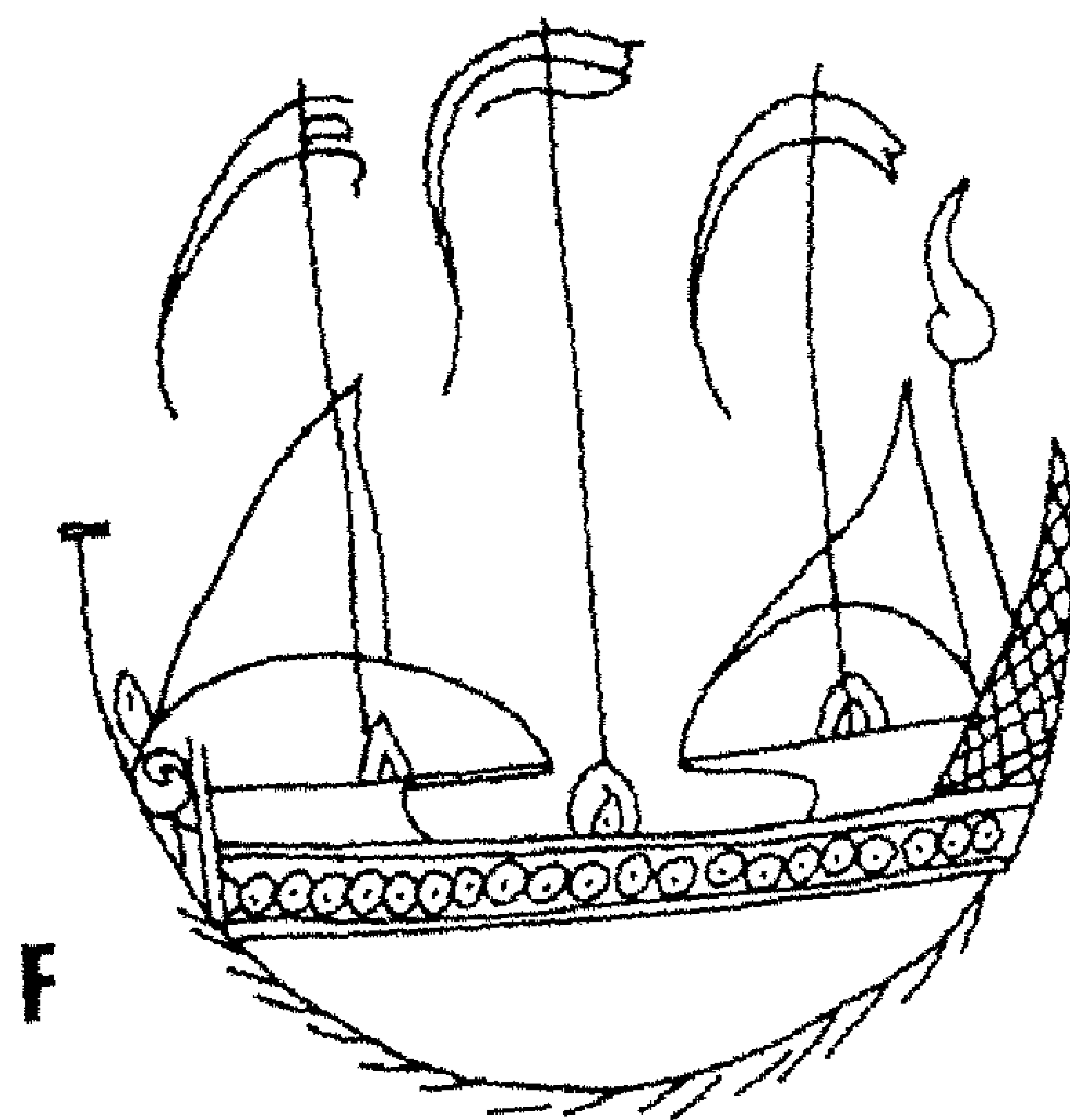
A Galley in an illustration of "The Second Trumpet,' *Beaus Commentaries on the Apoccalypse,* Iberia 922-952 AD (Pierpont Morgan Lib., Ms. 644, f. 137r, New York). Three points need to be noted in this tiny and highly stylized drawing from a 10th century Mozarab (Iberian Christian within the Andalusian Islamic cultural context) manuscript. These are the possible existance of a raised beak instead of a waterline ram, the straight stempost attached at an angle to the keel, and the curved stern which continues to form a high decorative poop. Similar hull forms may be shown in various other pictorial sources of Islamic origin.

B A petraglyph or rock-drawing of a sailing ship at Azru Aklan, near the western end of the Wadi Draa in southern Morocco not far from the Atlantic coast. Although it cannot be dated, the shape of the hull and the sail suggests that it was scratched on a rock in the medieval rather than ancient or early modern eras. The sail is basically triangular, the prow angled and near vertical, the stern apparently curved, while the vessel is controlled by a steering oar instead of a hinged rudder. The simple style of drawing also recalls other medieval Arab "sailor's drawings" from Egypt, the Middle East and East Africa.

C "Argo" in the *Suwar al-Kawaklb* (Book of Fixed Stars) by al-Sufi; copy made in Sabta (Ceuta), northern Morocco 1224 AD (Vatical Lib., Ms. Ross 1033, Rome). This manuscript contains a perhaps unique though obviously highly stylized illustration of a vessel of the type in which medieval Muslim sailors may have plied the western Atlantic. Its iconography is, of course, based on earlier Islamic "Books of Stars" from further east, yet this illustration of Argo also includes interesting features. Assuming that the sail is blowing forward as one would expect, the hull has the same curved stern but angled stempost as shown in the previous two illustrations. In addition there is an unusual deck-house in front of the mast if we have identified the prow and stern correctly, plus a lateen sail. The oars are a convention based upon the star-constellation of Argo and, with the exception of one almost unique feature, one might regard this as a stylized drawing of



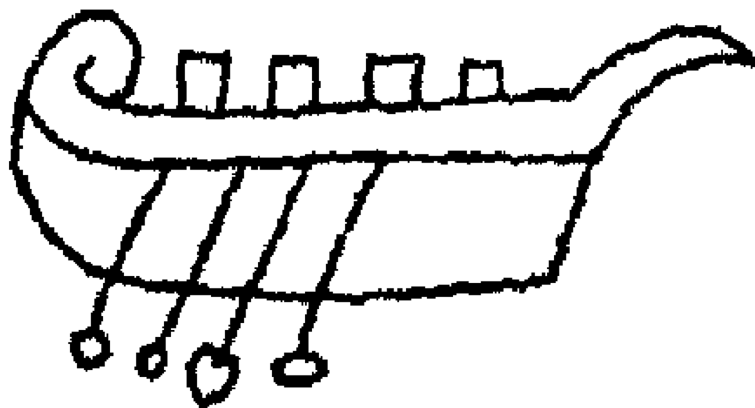




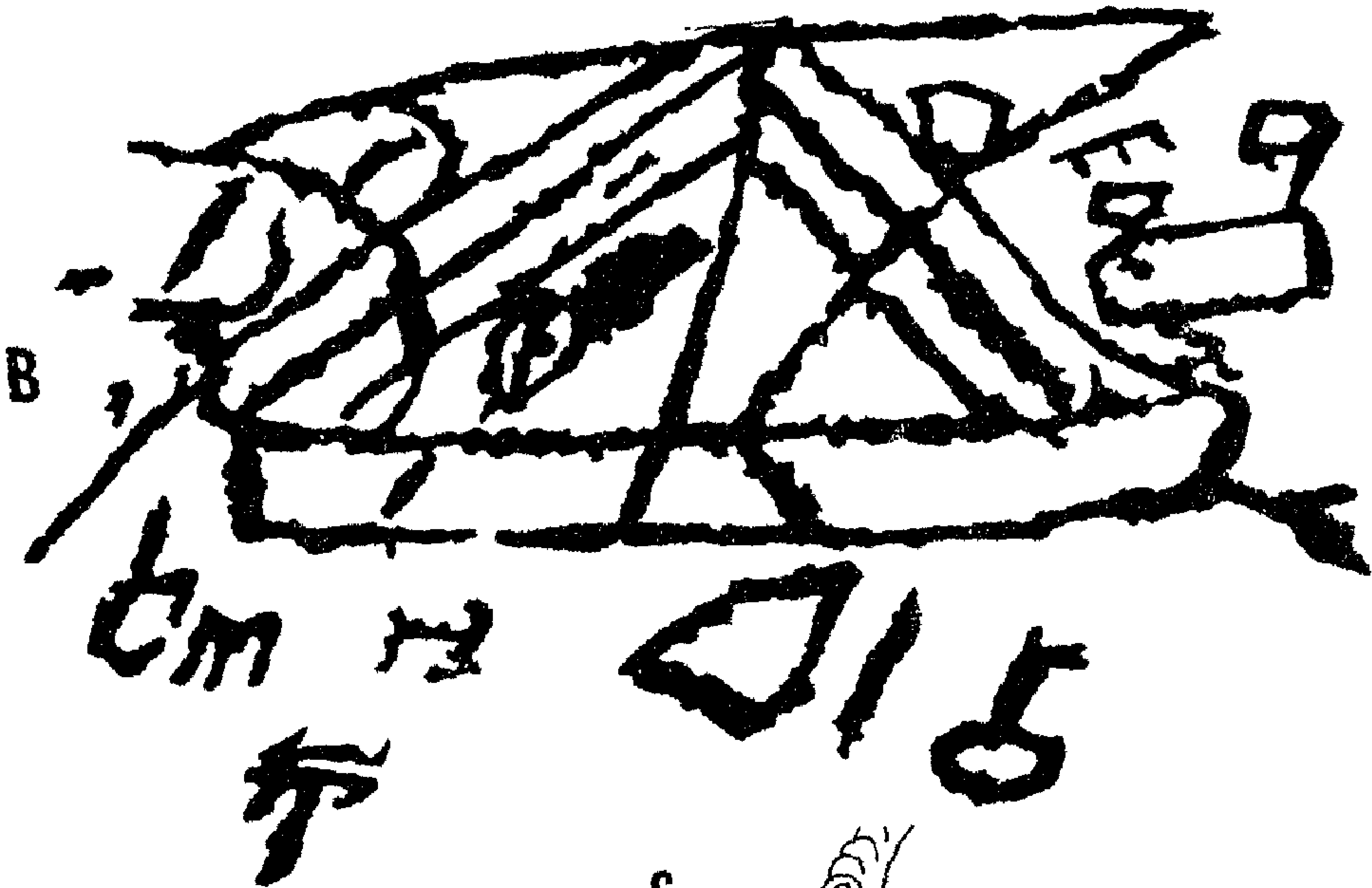
(8)

Captions

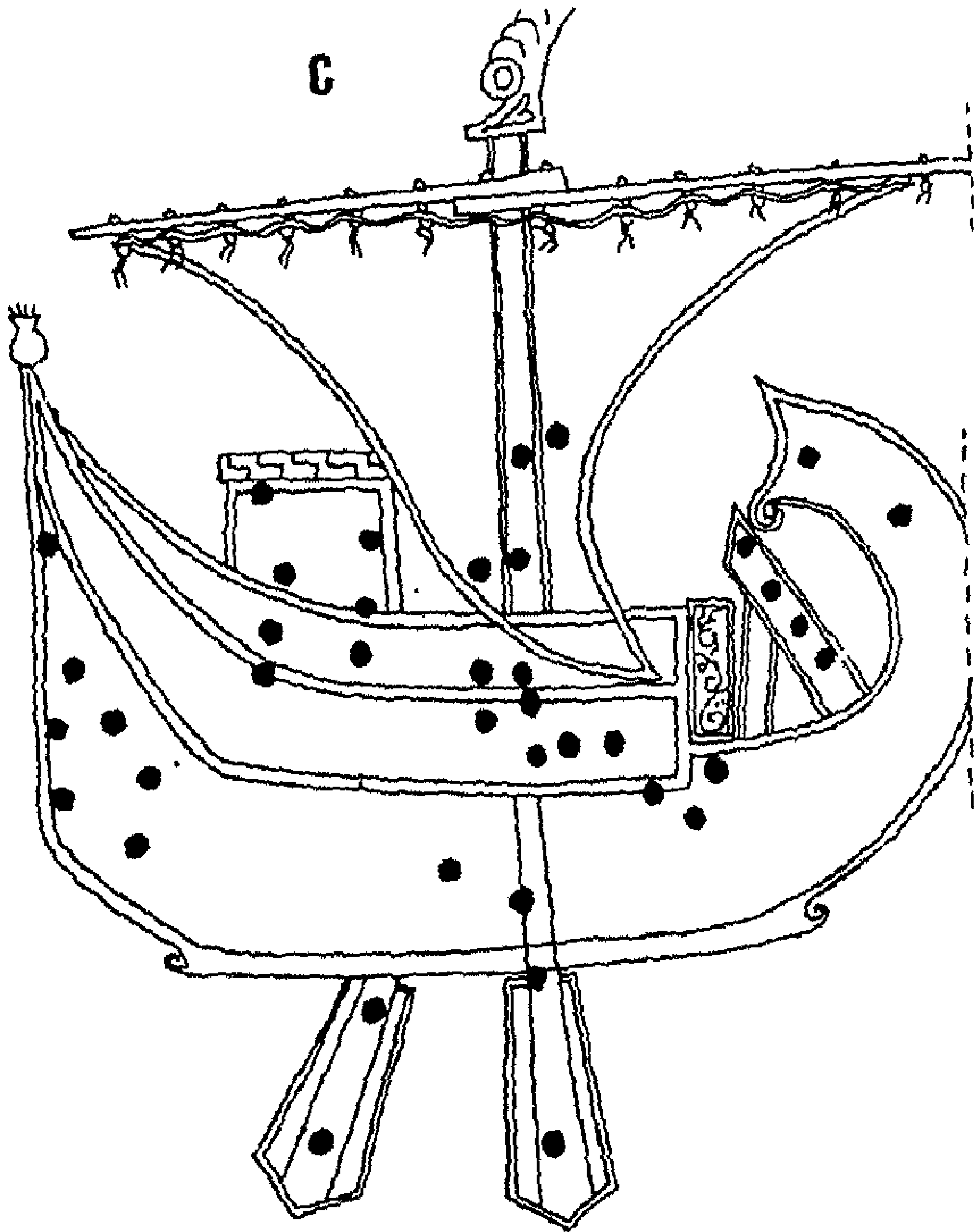
A



B



C



somewhat flimsey Mediterranean naval architecture brought north by the Romans. Potentially very interesting in the context of Iberian-Andalusian navigation in the medieval Atlantic are certain design features which the Guernsey wreck seems to have in common with the few existing pictorial representations of western Islamic "Atlantic" ships. The most obvious is an angled keel and stempost construction. This is in clear contrast with the rounded hull form of both Roman and medieval Mediterranean vessels. The second might be a sort of cutwater where the keel and stempost join, a feature also seen in the medieval Red Sea.'[8] It might also be worth noting that the written sources suggest, without specifically stating, that the Andalusian Atlantic squadron was able to defeat Viking raiders in the 10th century because they carried larger crews - perhaps because the *shini* Arab-Islamic galley was larger.[19] Perhaps they were also more strongly built.

Hulls with angled rather than rounded outlines returned to northern waters in the 13th and 14th centuries in the form of the famous *cog*, following the decline of the sleek but much smaller rounded hulls of Viking and post-Viking vessels, The reappearance of such angled hulls in the western Mediterranean during the 14th century is usually attributed to the influence of northern *cogs* arriving via the Straits of Gibraltar. Yet the possibility of such a hull-form having survived in the Islamic Maghrib and al-Andalus should not be entirely ignored. Unfortunately little research has yet been done on the ships used by Muslim Andalusian and Moroccan sailors in the Atlantic. This may prove to be a fruitfull field of study and is certainly worth consideration.

even commonplace. During the reign of the Marinid sultan Ya'qub al-Mansur (12 58-86 AD) an engineer from Seville (Ishbiliya), named Muhammad Ibn al-'Ali, established a *dar al-sina* or naval arsenal at Sala on the Atlantic coast of Morocco.[11] Many years later the so-called "Sallee Rovers" - meaning pirates from Sala in Morocco - who raided southern England in the 16th century AD[12] included amongst their crews men of Andalusian origin. The military capabilities of western Islamic fleets had clearly not disappeared with the collapse of the Umayyad Caliphate of Cordova, and in 1340 AD a Moroccan fleet had destroyed a Castilian-Spanish fleet near Algeciras.[13] This happened at a time when European observers regarded the Castilian fleet as the most powerful in Atlantic Europe.

The concept of a spherical world was widely accepted by educated people in the 13th century Islamic world and the Algarve region remained a centre of geographical science, including the manufacture of spherical celestial globes, even after it was conquered by the Portuguese in the 13th century. Here the idea that Africa could be circumnavigated and that inhabited "islands" existed far out into the Atlantic similarly survived. The role of this Algarve region during the first phase of Portuguese overseas exploration in the 15th century is well known.[14] What is less well known is the fact that the Algarve seems to have played a major role in the evolution of the Arab-Andalusian form of widely used Islamic trading vessels called a *qarib* and a *gurab*[15] into the famous *caravel*. The latter was, of course, used by Portuguese and Spanish explorers such as Vasco da Gama, Christopher Columbus and many others during the 15th and 16th centuries AD.

Given the speed with which new technology, including maritime technology, is known to have spread across the medieval Islamic world, it seems inconceivable that new naval ideas from the Indian Ocean should not have reached the Atlantic coast. The question of when knowledge of the hinged rudder, invented by the Chinese, reached the Islamic Middle East, and to what degree it may or may not have been adopted in the Arabian Gulf and Red Sea regions, has already been considered[16] but many other problems remain unsolved.

For example, the sophistication of a pre-existing Celtic naval tradition in the Atlantic is indicated by the remains of a substantial ship found off Guernsey in the Channel Islands.[17] The massive way in which this vessel was constructed was very different from the

outburst of naval aggression from those little-known northern parts of the world.[4]

The Viking threat soon became serious enough for an Umayyad naval squadron to be created specifically to patrol the Atlantic coast of al-Andalus. These patrols remained in existance from the mid-9th to 10th centuries AD. The first Umayyad Andalusian naval bases had, of course, been on the Mediterreanean coast but in the mid-lOth century additional facilities, including shipbuilding arsenals, were constructed at Ageciras (al-Jazayr al-Khadra), Silves (Shilb) and Alcacer do Sol (Qasr Abi Danis) on the Atlantic coast. The resulting Atlantic fleets then proved themselves fully capable of defeating a major Viking raid in 966 AD and another in 971 AD.[5] These successes were followed by the Vizir al-Mansur's ambition combined operations assault upon the north-western Spanish city of Santiago in 997 AD.

One of the commanders of a naval patrol which fought Viking raiders in 8S9 AD was named Khashkhash Ibn Sa'id Ibn Aswad of Pechina (Bajjana). One of the so-called "Adventurers of Lisbon" was also named Khashkhash and he made several expedition far into the Atlantic before he disappeared along with his companions.[6] Their voyage north proved dangerous and won little reward. Nevertheless it probably reached Scandinavian settlements in Ireland where the "Adventurers" were said to have been told that exploration of the Atlantic had already been done by a previous generation, probably meaning by those Vikings who had reached Iceland and would soon sail to Greenland and even North America. The "Adventurers"' subsequent voyages headed southward and achieved greater reward in Bilād al-Sudam, beyond the Canary Islands. It is even possible that they reached as far as the Cape Verde Islands.[7]

The flourishing fishing fleets of Lisbon (al-Ushbuna) and what is now the Algarve (al-Gharb) in southern Portugal also ranged far into the Atlantic as well as venturing down the western coast of Africa in search of good fishing grounds.[8] Meanwhile the Atlantic coast of Morocco saw considerable economic expansion in the 12th century AD and the Muwahhid ruler 'Ali Ibn Yusuf even reportedly planned an abortive naval expedition to conquer the Canary Islands.[9] In the early 13th century AD a mariner named Ibn Fatima and his crew were wrecked off Ras Nu'adhibuin, much further south in what is now Mauretania.[10] When taken together, these reports give a distinct impression that such voyages were quite normal and perhaps

Medieval Islamic Navigation in the Atlantic

David Nicolle
Nottingham University, England.

Medieval Islamic navigation in the Atlantic Ocean extended over greater distances than is generally realized. Most was in a region bordered by the Iberian peninsula, the north-western coast of Africa, the Canaries Islands, the Azores and Madiera, some of these islands being well known while others were little more than sailors' legends. This region of the ocean has sometimes been so-called "Mediterranean Atlantic" as it was closely linked in technological, economic and historical terms with the Mediterranean side of the Straits of Gibraltar. Most voyages by Muslim sailors in this "Mediterranean Atlantic" were undertaken for commercial, diplomatic or military reasons though some were a result of that intellectual curiosity which characterized the golden age of medieval Islamic civilization.

Roman vessels plied the coastal waters from the Straits of Gibraltar and Iberian Peninsula to the Englash Channel and British Isles. After the collapse of the western half of the Roman Empire a maritime link appears to have survived between the Iberia pensinsula and the Celtic western fringes of Brittany, the British Isles and Ireland during the Visigothic period, before the Arab-Islamic conquest of al-Andalus but most particularly in the 7th century AD.[1] This may have survived into Arab-Islamic period since it is clear that Britain remained the main source of tin for al-Andalus well into the 9th century AD.[2] Furthermore it is worth noting that the famous terror stories about the Atlantic, or Sea of Darkness as it was widely known in the Islamic world, all seem to stem from the Middle East.[3] None seem to have originated amongst the Arabized people of Morocco or al-Andalus.

The most famous seafarers of the early medieval Atlantic were, of course, at first the Celtic Irish and after then the Scandinavian Vikings. However, in reality two peoples habitually sailed the eastern Atlantic during the early medieval centuries - the Vikings and the Muslim Andalusians. While the latter never ventured as far as the Scandinavians, they remained the Vikings' only real rivals. Furthermore it was Viking raids which prompted the Umayyad rulers of Cordoba (Qurtuba) to sent at least one official embassy to the far north, almost certainly to discover the source of this sudden

II. Non Arabic Part

A. The Articles

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Ahmed El-Mahmoudi, Prof.. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- David Nicolle, Prof. of Islamic History, Nottingham university, England.
- Flora Vafea, The Greek School, Greece.
- Hanie' 'Abdel – Hadi, , Lecturer of Medieval History, Helwan Egypt.
- Ibrahim Al-Qadri, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- Irina Vdovichenko, Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Ishak Ebied, Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mahmoud Ismail, Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Nasr, Assistant lecturer of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Tadghout, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university , Meknaas university, Morocco.
- Naglaa M. Hamed, Lecturer of Education, Cairo university, Egypt.
- Nariman 'Abdel-Karim, Assistant Prof. of Islamic History, Al-Monefia university, Egypt.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.

---

* These names are arranged alphabetically.

II – The non Arabic Part
A. Articles

B. Book Reviews

Contents
I. The Arabic Part
A. Articles

A. Book Reviews

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University
Abbasiya, Cairo. Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
  Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Mohammed, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the third volume, which will be issued during the academic year 2002-2003.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Medieval History, specially
Byzantine and Islamic History
(JMIH)

Volume II
2002

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Raafat 'Abdul-Hamid

Publisher
Misr Al-Arabia
13A Islam Str., Hamamat Al-qoubba, Cairo

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

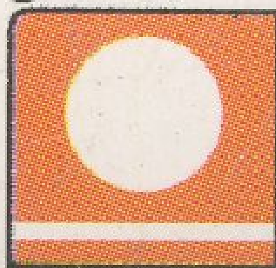
Volume 2 / 2002

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University



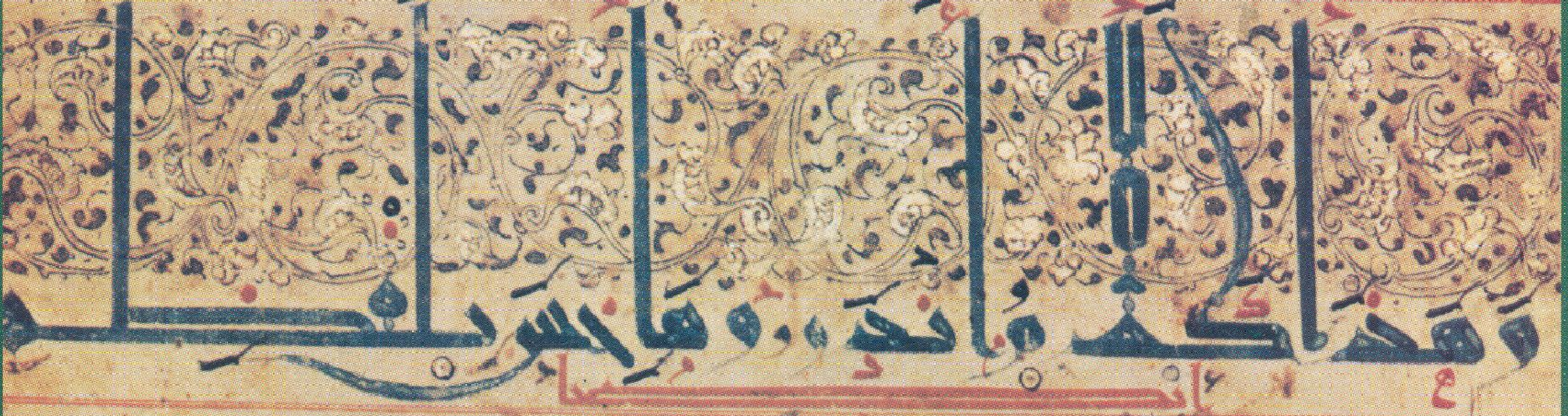




حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الأول
٢٠٠٠ - ٢٠٠١

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عين شمس







حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصور الوسطى

المجلد الأول

الجزء الأول: القسم العربى

٢٠٠٠-٢٠٠١

يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، قسم التاريخ، كلية الآداب،
جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.ص.ب.١١٥٦٦

الناشر
مصر العربية للنشر والتوزيع
١٣أ ش إسلام، حمامات القبة، القاهرة

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصور الوسطى

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس

القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٢٨٥٤٠٧٩، بريد الكتروني:

amrtar_eg@yahoo.co.uk

- ترسل البحوث على العنوان السابق ذكره شريطة ألا تكون قد سبق نشرها في مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM، Word 7.0، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسي فونت ١٨ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٦ أسود

الخط Traditional Arabic، فونت ١٤

الهوامش فونت ١٠

المسافة بين السطور متعدد ٠,٩ للنص ، تام للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسي فونت ١٤ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود

الخط New Times Roman، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد ٩، للنص، تام للهوامش

مواصـــفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام.
-يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

المحتويات

الجزء الأول: القسم العربي

أولاً: البحوث العربية

ثانياً: عرض الكتب العربية

ثانياً: القسم الأجنبي

أولاً: البحوث الأجنبية

ثانياً: عرض الكتب الأجنبية

المشاركون فى العدد

أحمد الطاهرى.............. أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة المحمدية-المغرب

بوبة مجانى.............أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة منتورى-قسنطينة-الجزائر

جوناثان شبرد...............أستاذ التاريخ الروسى الوسيط/البيزنطى-كلية التاريخ-جامعة كامبردج-إنجلترا

حسين عطية...........أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد-كلية الآداب-جامعة طنطا-مصر

رأفت عبد الحميد..............أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

سند أحمد عبد الفتاح........... معيد التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

شيرين صادق................ مدرس مساعد الحضارة الإسلامية-كلية الآداب -جامعة عين شمس-مصر

طارق منصور محمد..............مدرس التاريخ البيزنطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

فاليرى جونزاليه...................مدرس تاريخ الفن الإسلامى-مارسيليا-فرنسا

فايز نجيب اسكندر........... أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة بنها-مصر

محمود اسماعيل............... أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس- مصر

نريمان عبد الكريم.............. مدرس التاريخ الإسلامى-كلية الآداب--جامعة المنوفية -مصر

تقديم

ليس أسعد إلى قلب باحث مدقق من أن يرى نتاج فكره وثمار غرسه، قطوفاً دانية بين أيدي الباحثين والسائرين في دروب المعرفة الإنسانية، وليس أعز إلى نفس مؤلف من أن يقلب صفحات خطها بيمينه بعد عمل شاق وجهد كبير.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن نقلب صفحاته واحد من هذه الثمار التي طال انتظار نضجها، دون ملل أو كلل فى متابعة رعايتها وسقياها، حتى تخرج على هذا النحو الذي نراه الآن، ونطمع أن يلقى بين الدارسين والمفكرين قبولاً حسناً، ونصحاً هادفاً، بغية الوصول والارتقاء به إلى مصاف الدوريات العالمية.

فهذا هو العدد الأول من "حولية التاريخ الإسلامى والوسيط" التي يصدرها "سمنار" كلية الآداب - جامعة عين شمس فى هذا الحقل من البحث التاريخي، ورغم أن قصة الـ "سمنار" تعود إلى عام ١٩٨٢، ورغم صدور أعداد ثلاثة ضمت البحوث التي ألقيت من خلاله، ونشرت على التوإلى فى أعوام ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، إلا أن هذا العمل توقف لتفرق القائمين على أمره اغتراباً خارج الديار، وظل الحال على هذا النحو حتى قدر للطيور المهاجرة أن تعود ثانية إلى أعشاشها، وأن يظهر من أفراخها من ينضم إلى مسيرة البحث والبعث من جديد لفكرة هذا اللقاء العلمي المتجدد، وسمنار التاريخ الإسلامى والوسيط".

ولما كانت أمانة الـ "سمنار" تدرك يقينا أن الانغلاق والعزلة العلمية هي آفة أي مجتمع تودي به إلى الشيخوخة المبكرة والوهن العقلي، فقد حرصت على أن تفتح قنوات علمية عديدة مع الباحثين والمؤرخين من ذوى الاختصاص فى عدد من البلدان العربية والأجنبية، وقد استجاب لهذه الدعوة أساتذة فضلاء لهم وزنهم العلمي فى التاريخ الإسلامي أو تاريخ العصور الوسطى، وبعثوا ببحوثهم أو مقالاتهم لتضاف إلى الرصيد العلمي لهذه الحولية، بينما اعتذر نفر ثان عن عدم الاشتراك هذه المرة، على وعد صادق بأن يسهموا ببحوثهم الجديدة فى الأعداد القادمة للحولية بمشيئة الله.

وكان طبيعيا وأمانة الـ "سمنار" تسعى بالحولية إلى مرتقى علمياً سامياً، أن تعرض البحوث التي تنشر على الأساتذة الفضلاء العاملين فى حقل التاريخ الإسلامي والعصور الوسطى والتاريخ البيزنطى ، وذلك لتقييمها وتقديم الملاحظات السديدة من خلال النقد العلمي الرصين، حتى يتحقق الهدف المنشود من إصدار هذه الإسهامات العلمية فى ميدان البحوث التاريخية.

ويضم العدد أربعة بحوث فى التاريخ الإسلامي ، تدور كلها حول موضوعات تتناول جوانب معينة من الحضارة الإسلامية ، فبينما عالج الدكتور/ محمود إسماعيل "سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية ، خلال قرن ونيف من الزمان (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) سيطر فيه البويهيون على مقاليد الأمور فى الدولة العباسية ، وأمسى خلفاء بني العباس إلى جوار وزرائهم هؤلاء نسياً منسياً ، عرض الدكتور/ أحمد الطاهرى للنظام العقارى فى الغرب الإسلامى فى بواكير نشأته ، وتوقف فى دراسته هذه بصورة رئيسية عند وضعية الأرض أيضاً فى بلاد نكور ، والبحثان على هذا النحو يعرضان لـ "وضعية الأرض الزراعية" فى المشرق الإسلامى وغربه فى فترة زمنية معينة.

والواضح أن هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى قد حظى بنصيب كبير فى هذا العدد، فإلى جانب بحث الدكتور/ أحمد الطاهرى ، نجد دراستين أخريتين عن هذه المنطقة ، فقد قدمت الدكتورة/ نريمان عبد الكريم موضوعاً عن "دور مصر فى أفريقيا من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة" (٢٧ - ١٨٤هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠م) ، وهى الفترة التى قامت فيها مصر بدور فاعل فى الفتوح الإسلامية فى المغرب ، باعتبارها القاعدة المتقدمة للدولة الإسلامية باتجاه أفريقية ، ولم يكن دور مصر قاصراً على هذا الجانب العسكرى فقط ، بل امتد ليشمل التأثيرات الحضارية أيضا . هذا بينما تعرضت الدراسة الأخرى التى قدمتها الدكتورة/ بوبه مجانى للاتجاهات الفكرية للمدرسة الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية (٢٦٠ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣م) ، وهى الفترة التى شهدت وجود الخلافة الفاطمية فى المغرب الإسلامى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمى ، الخليفة الرابع إلى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لدولته ولتصبح القاهرة حاضرة هذه الخلافة من بعد . ولاشك أن الدعوة الإسماعيلية كان لها دور لا يمكن إنكاره فى مسيرة تاريخ المغرب الإسلامى.

اما الحروب الصليبية فقد حظيت بدورها بثلاثة بحوث تناولت صفحات مطوية من هذه الحروب ، فقد عالج الدكتور/ حسين عطية أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية خلال ربع القرن الذى تلا قيامها مباشرة ، وخاصة على عهد ملكها بلدوين الأول وبدايات عهد بلدوين الثانى ، وهى الفترة التى شهدت وضع الأسس والقواعد الرئيسية لتأسيس هذه المملكة ، وألقى الضوء واضحا على مجلس نابلس الذى عقد فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١١٢٠م ، وهو جوهر هذه الدراسة ويشكل أهمية خاصة فى تاريخ المملكة . فإذا جاز لنا أن نقفز قفزة علمية واسعة من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها لوجدنا الدراسة التى يقدمها لنا الدكتور/ فايز اسكندر عن "الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم ١١

رجب ٦٩١هـ / ١٦ يونية ١٢٩٢م" ، ومن المعروف أن سلاطين مصر من أسرة قلاوون جرت على أيديهم كتابة الصفحات الأخيرة من تاريخ الحروب الصليبية ، أو بمعنى أدق الوجود الصليبي فى بلاد الشام ، فقد استرد المنصور قلاوون مؤسس الأسرة إمارة طرابلس من أيدى الصليبيين عام ١٢٨٩ ، ولم تمض على ذلك ثلاثة سنوات حتى كان ابنه الأشرف خليل يسترد مدينة عكا (١٢٩١) المعقل العسكرى الكبير للصليبيين ، ثم يوالى القضاء على الجيوب الصليبية الباقية ، وهذا ما يقدمة الدكتور/ فايز اسكندر فى دراسته عن استرداد الأشرف لقلعة الروم ١٢٩٢.

أما البحث الثالث الذى يتعلق بالحروب الصليبية فهو الذى قدمه الدكتور/ رأفت عبد الحميد تحت عنوان "الأمير فخر الدين بن الشيخ فى محكمة التاريخ" وفخر الدين هو أتابك العسكر أو قائد الجيش المصرى على عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد تعرض الرجل للظلم مرتين ، أولهما عندما شن عليه المؤرخ ابن واصل والتابعون حملة ضارية متهمين إياه بالفرار من أمام القوات الصليبية التى يقودها ملك فرنسا لويس التاسع فيما عرف بالحملة الصليبية السابقة وذلك عند مدينة دمياط ، والمرة الثانية عندما لم ينتبه أحد من المؤرخين على امتداد هذه القرون منذ الثالث عشر حتى الآن لدراسة هذه القضية والنظر فى صحة هذا الاتهام من عدمه . والدراسة التى قدمها الدكتور/ رأفت عبد الحميد تناولت بالتحليل والنقد التاريخى كل هذه القضية من جميع جوانبها من خلال دراسة النصوص التاريخية والمصادر المعاصرة بصورة نقدية ، وتوصلت إلى آراء لعلها غير مسبوقة فى هذا المجال .

وقد شارك الدكتور "جوناثان شبرد" بدراسة شيقة تحت عنوان Silks, skills opportunities in Byzntium: some reflexions ولعنا ندرك جيدا أن الحرير بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كان يمثل أهمية بالغة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، وقد حرصت الإدارة البيزنطية على أن يظل طريق الحرير البرى عبر وسط آسيا آمنا ، بل وسعت إلى تأمين طريق جديد بحرى عن طريق بحر العرب والبحر الأحمر أو القلزم ، وسياسات الإمبراطور جوستنيان وغيره واضحة فى هذه الناحية ، والدكتور "شبرد" يلقى الضوء فى دراسة علمية رصينة عن صناعة الحرير فى بيزنطة وما لعبته الثياب الحريرية من دور فى التعامل مع الشعوب المجاورة وفى الحملات العسكرية. كذلك تحدث عن البلاد الإسلامية وتزويدها لبيزنطة بالحرير، مثل فرغانة ؛ وعن التجار البيزنطيين الذين جابوا بلاد الشام ، لاسيما حلب ، طلباً للحرير .

وإلى جانب هذه البحوث فقد حرصت أمانة الـ "سمنار" على أن تتضمن الحولية باباً كاملاً لعرض عدد من البحوث أو المؤلفات التى صدرت مؤخراً فى ميدان التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى ، أو بعض رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها ما لم يتم نشره بعد ، وهى محاولة للوقوف على أحدث الدراسات التاريخية فى هذا الحقل ليفيد منها الباحثون والدارسون ، وقام بهذا الجهد مجموعة من شباب الباحثين فى كلية الآداب - جامعة عين شمس من قسمى التاريخ والإرشاد السياحى ، وشاركهم فى ذلك الدكتور/ فاليرى جونزاليه مدرس تاريخ الفن الإسلامى بمرسيليا .

ولايسعنى فى نهاية هذه الكلمة إلا أن أنوه بالجهد الكبير الذى قام به تلميذى وصديقى الدكتور/ طارق منصور فى متابعة أعمال الـ "سمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه فى جمع هذه المادة العلمية التى ضمها هذا العدد من الحولية ، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة ، فله منى وأمانة الـ "سمنار" كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق .

وأمانة الـ "سمنار" وهيئة تحرير الحولية يسعدها تماماً أن تتلقى كل الملاحظات والمقترحات التى تتناول هذه الحولية بالنقد العلمى الهادف وصولا بها إلى مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعى .

دكتور

رأفت عبد الحميد محمد

الجزء الأول : القسم العربي

أولاً:البحوث العربية

من بواكير النظام العقاري بالغرب الإسلامي
وضعية الأرض ببلاد نكور

د. / أحمد الطاهري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية -المغرب

لقد بات مسلما لدى المهتمين بالتاريخ الوسيط أننا نكاد نجهل كل شيء عن المراحل الأولى لنشأة الغرب الإسلامي، وعن الحيثيات التي رافقت -على مدى ما ينيف عن نصف قرن من الزمن- تحول المغرب من الانتماء في الفضاء الحضاري القديم المسيحي-اللاتيني للاندماج كجناح متكامل فى دار الإسلام. وما زالت العبارة الشهيرة التى ترددت فى أوساط الاستشراق ناعتة فترة التأسيس "بالقرون المظلمة" إلى اليوم سيدة الموقف. ولا غرو، فحتى القدامى من مصنفى أمهات المصادر المعتمدة فى التأريخ لهذه العصور يقرون بأن كبريات أحداث الفتح "لم تنضبط بتاريخ محقق"[1] فبالأحرى ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل. بلغت الشكوى من ندرة المعلومات وفقر المادة التاريخية بالبعض[2] إلى حد التأكيد على استحالة تناول تاريخ المغرب الأقصى طوال فترة الفتوحات الإسلامية إلى نهايات القرن الثانى الهجرى فى بحث مستقل.

إلا أن فى استقراء مضامين المصادر المتاحة، ما يقدم بعض عناصر المراجعة ويشجع على الانتقال بالبحث التاريخى من مستوى معاينة الحدث السياسى لمعالجة جوانب من التاريخ الحضارى. وهو ما سنتدرج على تناوله بالدرس فى حدود ما تسمح به الشذرات المتناثرة من المادة التاريخية المعتمدة .

تشكل وضعية الأرض فى نظر عدد من الباحثين إحدى ألغز معضلات التاريخ الإسلامي[3]. وبخصوص المرحلة التأسيسية من تاريخ المغرب الأقصى المرتبطة بعصر

---

[1] - ابن عذارى ، البيان المغرب فى تاريخ الاندلس والمغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال / كولان ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص ٣٩ .

[2] - انظر : ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد الثانى ، السفر ١ ، ٢، مدريد ١٩٥٤ ؛ Jean BRIGNON et AUTRES, *Histoire du Maroc*, Casablanca 1967, p. 45 .

[3] - محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص٢٥ ؛ الحبيب الجنحانى ، دراسات مغربية فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٠ ص ٩ ؛ Pierre GUICHRD," Les etats musulmans du Maghreb in Maghreb *Medieval* : l apogee de la civilisation Islamique dans l Occident Arabe, Aix en provence, 1991, p. 88 .

الفتوحات، يحتفظ الونشريسى[٤] بآراء ثلة من أقطاب المالكية ممن تصدر الفتـــوى أو تقلــد الأحكام وتقلب فى جلائل الخطط بالمغرب والأندلس منذ البدايات الأولى خلال القرن الثانى وطوال القرنين الثالث والرابع إلى أواسط القرن الخامس الهجرى[٥].

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن الاستفتاء جيلا بعد جيل "عن أرض المغـــــرب"[٦] والتنقيب عما خفى من أخبارها وإمعان النظر فى مظاهر العصر، مع الإصرار على ســـؤال أهل العلم والفقه والورع للكشف عن حقائقها. ولعل فى قول قاضى إفريقيـــة وصـــاحب المدونة الفقيه المالكى الشهير سحنون: أنى "لم اقف منها على حقيقة"[٧]، وإقرار على بن زيـاد الإسكندرى - على إجهاده بالبحث عن أصول الروايات بمصر - إنه "لم يصح عندى فيــها شيء"[٨]، ما يؤكد درجات ما تعرض له الموضوع من طمس وإتلاف.

من الطبيعي أن يسفر ذلك عن اختلاف الآراء وتضارب الروايات حول الوضعيـــــة القانونية لأرض المغرب "فقيل عنوية وقيل صلحية وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيـــل بالوقف"[٩]. وبينما ينبه أحدهم على "أن البلاد المغربية لم تجر فى الافتتاح على قانون واحــد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"[١٠]، يكشف غيره فى نص هام عن إجماع أهــل العلم على أن ثمة مناطق من المغرب الأقصى "أسلم عليها أربابها وليـــس فيـــها صلـــح ولا عنوة"[١١]. وهو ما ينطبق تماما على وضعية بلاد نكور التى لم تخضع حسبما يتضح من خـلال جملة من القرائن لأية فتوحات عسكرية[١٢].

---

[٤] - المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب، منشورات وزارة الاوقاف والشوون الاسلامية، الربـــاط، جـــ٦، صص ٣٤ - ١٣٢.

[٥] - فمن تلامذة إمام المدينة مالك بن انس والرواة عنه، نذكر: علي بن زياد الإسكندرى وأبا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بـــن ليث المصرى الذى انتهت إليه الرياسة بديار مصر بعد اشهب. ومن إفريقية نخص بالذكر قاضيها ومفتى ديارها صـــــاحب المدونـــة الشهير سحنون بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـــ وكذا ابن أبى زيد القيروانى الملقب بمالك الصغير المتوفى ســـنة ٣٨٦ هـــــ. ومـــن الأندلس، نستقرى آراء عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـــ هجرية وكذا إشارات قاضى الجماعة بقرطبة ابن وافد اللخمـــى المتوفى سنة ٤٠٤هـــ هجرية وعبد الملك بن اصبغ القرشى المتوفى سنة ٤٣٦هـــ. لمزيد من التفاصيل عن متصدرى المذهب المـــالكى أثناء تألقه بالأندلس راجع اللائحة الهامة التى ذيل بها ابن سهل كتابه فى النوازل الفقهية المشهور: الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبـــة العامة، الرباط، رقم ٨٣٨ق، ص ٤٢٢ - ٤٢٦.

[٦] - الونشريسى، المصدر السابق جـــ٦، ص ١٣٢.

[٧] - نفس المصدر والصفحة. انظر كذلك: الداودى: كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، الرباط، ١٩٨٨، ص

[٨] - الونشريسى، نفس المصدر والصفحة.

[٩] - نفس المصدر والصفحة.

[١٠] - نفسه، جـــ٦، ١٣٤. للمقارنة مع وضعية الأرض بالأندلس إبان عصر الفتوحات انظر: ابن حزم، التلخيص لوجوه التخليـــص، ضمن الرسائل، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨١، جـــ٣، ص ١٧٥.

[١١] - انظر: الونشريسى، نفس المصدر، جـــ٦، ص ١٣٣.

[١٢] - وهو ما تناولناه بتفصيل ضمن دراسة ستصدر قريبا فى حوالى ٢٥٠ صفحة بعنوان "إمارة بنى صالح فى بلاد نكور، الأصول التاريخيـــة ومواكبة النمو الحضارى والعمرانى بالغرب الإسلامى. وتشغل بلاد نكور، على طول الشاطئ المتوسطى للمغرب الاقصى، المنطقـــة الممتدة من أحواز نهر ملوية إلى سفوح جبال غمارة. وتتعمق إلى الداخل شاملة الحوض الأعلى لنهر ورغة ومنطقة تازة وتـــسول فى

وبصرف النظر عما أخذ غصباً و "وقعت فيه غلبة بعد غلبة"[١٣]، فمن المعلوم أن أرض العنوة منها ما عومل معاملة الغنيمة فخمست وقسمت، ومنها ما اعتبر فيئا يخمس ولا يقسم، ومنها ما يوقف على المسلمين عامة[١٤]. بينما ترتبط أراضي الصلح بسجلات وعقود والتزامات وشروط مضبوطة الحيثيات موثقة البنود بين المتعاقدين: الجند الفاتح وأهل البلد[١٥].

وبخلاف وضعية الأرض ببقية مناطق الغرب الإسلامي أبان عصر الفتوحات التي تأرجحت بين مقتضيات الصلح والعنوة، يذكر ابن خلدون[١٦] فى نص فريد أن صالح بن منصور قد "استخلص نكور لنفسه ، أقطعه إياها الوليد بن عبد الملك فى عام إحدى وتسعين من الهجرة".

وبرغم شيوع الاستخلاص كشكل من أشكال التعامل العقارى على مدار قرون من تاريخ الغرب الإسلامي، لم يحظ هذا المفهوم – فى حدود علمنا – سواء على مستوى حدود اللفظ أو دلالاته التاريخية بأدنى اهتمام من طرف الدارسين. ويمكن من خلال قراءة أولية فى عدد من الحوليات التاريخية وفحص متون جملة من المصنفات الفقهية الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بالضياع المستخلصة وعلى طبيعة الوضعية القانونية المترتبة عن هذه العملية.

فمن الأراضي المستخلصة من طرف الخلفاء والأمراء ما كان بمثابة ملك عام توضع عليه جبايات لصالح بيت مال المسلمين[١٧]، بينما اندرجت غيرها من المستخلصات ضمن

اتجاه المجرى الأوسط لنهر ملوية حيث مضارب قبائل مطماطة امكسور المكناسية . ولقد شهدت نشوء أول إمارة غير مفارقة ببلاد المغرب خلال التسعينات من القرن الأول الهجرى عرفت بإمارة بنى صالح من تأسيس مصور بن صالح النفزى ، الذى أسلمت على يده مجموع قبائل المنطقة .

[١٣] – ابن حزم ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

[١٤] – المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، حـ١ ، ص ٦٠ – ٢٥٩ ، لمزيد من التفاصيل عن أحكام أرض العنوة راجع : ابن سلام ، كتاب الأموال ، تحقيق/ عبد الأمير على بن مهنا ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٦٤ ؛ ابن آدم القرشي ، كتاب الخراج ، تحقيق جويبول ، ليدن ، ١٨٩٥ ، ٥ ؛ ابن المناصف ، كتاب الانجاد فى أحكام الجهاد ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٧٤٨ق ، ص ٤٣ – ٢٤١ .

[١٥] – وللمقارنة ، نتوفر بهذا الخصوص على النص الكامل لكتاب الصلح حول منطقة تدمير بشرق الاندلس الموقع بين ملكها تدمير بين غندرش والأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير . انظر : الضبى ، بغية الملتمس ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٢٧٤ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين عقود الصلح والاتفاق بين الفاتحين والنصارى على مشاطرة كنائسهم ، انظر : المقرى ، المصدر السابق ، حـ١ ، ص٥٦٠.

[١٦] – كتاب العبر ، تحقيق خليل شحادة ، بيروت ، ١٩٨١ ، حـ٦ ، ص ٢٨٣ .

[١٧] – مثل " مستخلص " قرطبة انظر : ابن عذارى ، المصدر السابق ، حـ٢ ص ٢٣٢ المعروف خلال عصر الخلافة باسم : " مستغل جوف المدينة " انظر : ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق/ إحسان عباس ، تونس / ليبيا ١٩٨١ ، ق١ ، م١ ، ٥٢ ونذكر ايضا على سبيل المقارنة الملك الذى ألحقه والى ابن عباد خلال عصر الطوائف بمدينة باغة " واستخلصه لبيت مال المسلمين " انظر : ابن رشد ، الفتاوى ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، بيروت ١٩٨٧ ، حـ١ ، ص ٣٠٦ . ولا تعوز الدلائل عن غير ذلك من المستخلصات الملحقة بعدد من الحواضر الأندلسية ، نخص منها بالذكر مستخلص غرناطة الشهير ، انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق/ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، حـ١ ص ٤٢٩ .

الممتلكات الخاصة للملوك والمتنفذين وأهل الجاه والسلطان. ولا تعوز القرائن الكاشفة عمن دأب على اتخاذ قرى بأكملها "ضياعا مستخلصة"[18]. بل ومن أرباب الخطط والنفوذ من طاوعته نفسه فتجرأ على ملك "الأحباس واستخلصه لنفسه"[19].

هكذا، فبالنظر إلى المعانى المعجمية للمصطلح[20] ولمختلف دلالاته التاريخية، يتجلى من خلال السياق العام لنشأة إمارة بنى صالح أن المقصود باستخلاص صالح بن منصور نكور لنفسه: تمكنه من حقوق التصرف فيها فصارت بذلك خالصة له خاصة، لا يحق لغيره من الولاة والأمراء استغلالها ولا وضع الجبايات وأصناف الواجبات على أهلها ولا التحكم فى رقبة ضياعها.

نتيجة لهذه الوضعية القانونية المتميزة، سلمت نكور من تبعات الاندماج فى النظام العقارى والجبائى المعتمد من طرف الخلافة الأموية بالأمصار المفتوحة عبر سلسلة التراتب الهرمى التى يتحكم فيها ولاة إفريقية، وغدت على عكس مجموع بلاد المغرب فى علاقة مباشرة بواسطة عقد الإقطاع السالف الذكر مع مركز الخلافة بدمشق. ومن المعلوم أن التشريعات المتعارفة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قبل التحولات الطارئة خلال القرون اللاحقة "لا تجوز إقطاع الأمراء والقضاة والقواد وإنما ذلك للخليفة خاصة"[21].

والراجح أن الخلفاء الأمويين قد التزموا بمقتضيات عقد الإقطاع الممنوح لصاحب نكور إلى حدود العقد الثانى من القرن الثانى الهجرى على الأقل. يتجلى ذلك من خلال موقف الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى لم يغفل – عند إصداره صك تعيين واليه

---

[18] – ابن بسام ، المصدر السابق ، ق٣ ، م١ ، ص ١٩ .

[19] – ابن الحاج ، كتاب النوازل ، مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم ٥٥ جـ ، ص ١٢٢ .

[20] – راجع ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون ، القاهرة ، حرف الصاد ، جـ٧ ، ص ٢٦ – ٢٩ .

[21] – الجزيرى ، المقصد المحمود فى تلخيص العقود ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٥٩٢ق ، ورقة ٧٩ب . لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : ابن سلام ، المصدر السابق ، ٢٧٦ . وفى دراسة سابقة لا مجال هنا لتفصيل نتائجها ، تناولنا التحول الملحوظ الذى مس مفهوم الإقطاع وممارسته فى ظل الرخص الواسعة التى أقرها ثلة من الفقهاء للجند وأهل الخطط والمتامرين من كل نوع بالغرب الإسلامي . أسفر ذلك عن ابتعاد الإقطاع فى أكثر من مظهر ، ان لم يكن فى الجوهر ، عما كان عليه خلال عصر النبوة وخلافة الراشدين . عن بعض هذه الرخص انظر : ابن المناصف ، كتاب الانجاد فى أحكام الجهاد ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٧٤٨ق ، ص ٤٣ – ٢٤١ . ومن أبرز الأمثلة على التزام العمل بالشرط المثبت أعلاه خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الغرب الإسلامي ، اضطرار ابناء الملك القوطى غيطشة الذين أمضى لهم طارق بن زياد العهد ، إلى اللحاق بموسى بن نصير المقيم بافريقية الذى وجههم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق باعتباره صاحب الحق الشرعى الوحيد فى امضاء السجلات وعقد الإقطاعات . وبالفعل ، فبعدما " وصلوا إليه أنفذ لهم عهد طارق بن زياد وعقد لكل واحد منهم بذلك سجلا " ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق/ إبراهيم الابيارى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٣٠ .

على إفريقية والمغرب النص على استثناء بلاد نكور من سلطة الوالى الجديد، مذكرا إياه بعدم التدخل فى شؤون نكور، مراعاة لخصوصيتها القانونية.

حقيقة أننا لا نتوفر على أدنى ما يفصح عن محتويات ومضامين صك الإقطاع الذى منحه الخليفة الأموى لصاحب نكور. مع ذلك فالراجح أن ثمة واجبات مالية من المفروض على هذا الأخير استخلاصها من الرعية وتوجيهها رأسا إلى بلاد الخليفة بدمشق . مصداق ذلك، ما ورد لدى صاحب أخبار مجموعة[٢٢] فى سياق حديثه عن بلاد المغرب فى خلافة عمر بن عبد العزيز وكذا عمن قبله من " الخلفاء كانوا إذا جاءهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم من كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجناءها فلا يدخل بيت المال متى الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا اله إلا هو ما فيه دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه".

إلا أن الوضع سرعان ما تغير ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعدئذ طوال العقود اللاحقة، إذ اندرج خلفاء بنى أمية على الرفع من المطالبات والتكاليف الموضوعة على مجموع بلاد المغرب "أكثر مما كان"[٢٣]، بما فى ذلك بلاد نكور التى "ثقلت ... التكاليف"[٢٤] على أهلها ولم يعد بوسعهم الالتزام بأدائها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اندرجت التوجيهات الأموية فى اتجاه مراجعة الأسس المنظمة للوضعية العقارية، تمهيدا لتخميس الأرض بعموم بلاد المغرب وإخضاعها لمقتضيات الفيء[٢٥].

ومن جهة أخرى، فالغالب على الظن أن صالح بن منصور قد آثر الالتزام بالشرائع المنظمة لوضعية الأرض حسبما كان متعارفا عليه لدى فقهاء العصر. ومن المعلوم أن البلد إذا استسلم عليه مالكه "من غير قتال وفى يده الأرض فهو عشر"[٢٦]. ولا يستبعد أن يكون صاحب نكور قد عمد إلى تقوية مداخيل بيت المال الذى يعود بالنفع على العامة وذلك بتوسيع القطاع الخراجى، علما بأن "من أسلم على شيء فهو له ويؤخذ منه خراج

---

[٢٢] - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مخطوط المكتبة الوطنية ، مدريد ، رقم ٤٩٩٥ ، ص ١١ - ١٢ .
[٢٣] - ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٢ .
[٢٤] - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٨٣ .
[٢٥] - ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥١ - ٥٢ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين الفئ راجع :ابو الفرج الحنبلى ، كتاب الاستخراج لأحكام الخراج ، تحقيق / عبد الله الصديق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦ - ١٧ .
[٢٦] - ابو الفرج الحنبلى ، نفسه ، ص ١٥ .

الأرض"[٢٧]. لذلك اشتهر صاحب نكور لدى معاصريه بمن فيهم خلفاء بنى أمية ذاتهم بـ "عدله"[٢٨] فى الرعية.

وترجمة لحقوق التصرف الشرعية التى أصبحت فى يد صالح بن منصور بمقتضى عقد الإقطاع على الأراضى الواقعة فى دائرة نفوذه، لم يتردد عن "إنزال نفر من البربر موضعا يحاذى مدينة نكور فى الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقا"[٢٩]. وعلى عكس ما طبق فى عدد من أبرز الكور الأندلسية – خلال نفس الفترة تقريبا أو لربما بعد بضع سنوات من هذا التاريخ إذ اقدم والى قرطبة على إنزال الناس بعضهم على بعض وجعل أموال أهل الذمة من العجم طعمة للجند الشامى"[٣٠]، آثر صاحب نكور الالتزام بالشروط الفقهية المنظمة للإقطاع. يتجلى ذلك فى حصره الإنزال المذكور فيما يبدو أنه من عادى الأرض أو مما لم يحيه أحد من الموات[٣١].

ولعل فى إقدام المستفيدين من الإنزال المذكور على إقامة سوق بالموضع سرعان ما أصبح نواة لإحدى أكبر الحواضر المغربية الوسيطة، ما يفصح عن تحقيق الهدف التنموى والعمرانى حسبما تواخاه ثلة من الفقهاء المتشددين فى ضبط شروط جواز الإقطاع. ومن المعلوم أن رابع أمراء نكور سعيد بن إدريس قد تجرد لاحقا لنقلهم عن هذا الموضع للاستقرار بمدينة نكور، مما يدل على إن الإنزال الممنوح لهم اقتصر على تمكينهم من استغلال فائدة المال و لم يكن إنزال تمليك على رقبة الأرض[٣٢].

وبانتهاء العمل بعقد الإقطاع الذى يتم بمقتضاه تحويل جزء من ثروات بلاد نكور نحو دمشق، ومع اتساع نفوذ البلد ليشمل رقعة تمتد عرضا "مسيرة عشرة أيام"[٣٣] وتتعمق طولا نحو التخوم الشبه الجافة للمجرى الأوسط لنهر ملوية، تصاعدت إمكانات تحقيق التراكم المالى بواسطة الجبايات والمغارم الموضوعة على أهل الطاعة من القبائل الموالية، وفق نظم إدارية ومالية لم يصلنا عنها أدنى إشارة فى المصادر المعتمدة.

---

[٢٧] – نفسه ، ١٤ . لمزيد من التفاصيل عن أحكام أراضى الخراج راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق / رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٣٥ – ٤٣٣ .

[٢٨] – الزيانى ، الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا ، تحقيق / عبد الكريم الفيلالى ، المحمدية ٨١ ، ١٩٦٧ .

[٢٩] – البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر / دى سلان ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

[٣٠] – ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق حـ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، م١ ، ص ١٠٣.

[٣١] – المقصود بعادى الأرض " كل ارض لها ساكن فى آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس فصار حكمها إلى الإمام " انظر : ابن سلام، المصدر السابق ، ٢٨١ . عن الوجه الثانى المشرق للإقطاع باعتبار دوره فى تنشيط العمران وتحريك النمو راجع نصا هاما لابن حزم ورد لدى ابن رضوان : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق / على سامى النشار ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ٢٣٢ .

[٣٢] – عن أصناف الإنزال ، راجع : ابن رشد ، المصدر السابق ، حـ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٩٤ .

[٣٣] – اليعقوبى ، كتاب البلدان ، نشر / دى جويه ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٧ .

ولعل فيما ذكره البكري[٣٤] عن امتناع "مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم"، ما يفصح عن ركون صاحب نكور إلى النظام القبلى فى تحديد الوحدات الخاضعة للمغارم، على الأقل فيما يتعلق بالمناطق الجافة والشبه الجافة النائية عن مركز الحاضرة. أما قلب الإمارة بنكور وتمسامان، فلا يستبعد أن يكون قد انتظم منذ هذا العهد المبكر فى كور ورساتيق، على غرار النظام المعتمد لاحقا بالأندلس فى إدارة وتدبير المجال[٣٥]. مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل[٣٦] فى سياق حديثه عن أعمال بلاد طنجة التى انتظمت فى شكل "مدن متصلة الرساتيق". وضمن الكتاب الذى بعثه محمد بن خزر الزناتى إلى الخليفة الأموى بالأندلس عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٩ هجرية، ما يدل على أن الانتظام الإدارى وأعداد المجال القروى فى كور وأقاليم ورساتى، له أصول سابقة فى تاريخ العدوة المغربية، إذ قال : "هذه أطراف أعمالنا وحواشى كورنا من نحو المراسى المنتظمة بجزيرة الأندلس"[٣٧].

والغالب على الظن أن ثمة تغيير قد مس فى العمق بمجمل النظام العقارى المرتبط بوضعية الأرض وأشكال الملكية ببلاد نكور ابتداء من نهايات القرن الثالث الهجرى. فعلى غرار النظام الثغرى بالأندلس، لم يتردد عبد الرحمن الناصر عن إطلاق يد المتنفذين من أتباعه بالعدوة المغربية بواسطة إمضاء سجلات وعقود الإقطاع، مقابل الولاء والطاعة والاندماج فى نظام الجماعة. يتجلى ذلك من خلال إنفاذ العهد لموسى بن أبى العافية إقرارا على لسان الخليفة بأن" كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعا من أمير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك لا تتبدل لك ولا لأحد من ولدك وعقبك عند أمير المؤمنين حال إلا بأحسن منها"[٣٨]. ومن المعلوم أن حملات موسى بن أبى العافية التوسعية قد بلغت قلب الإمارة نكور فخربها ليعود نفوذه إلى الانحسار بعدئذ نحو التخوم الشرقية الشبه الجافة ببلاد مكناسة واحواز مليلة.

وليس أدل على رسوخ إقطاع التمليك فى عدد من المناطق التى كانت إلى عهد قريب من ممتلكات إمارة بنى صالح ، من فحوى الخطاب الذى بعثه الخليفة الأموى عبد الرحمن

---

[٣٤] - المصدر السابق ، ٩٣ . والمقصود فى سياق هذا النص ، صالح بن سعيد خامس امراء آل صالح بنكور .

[٣٥] - المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ٢٢٢ . والرستاق مصطلح حرافى مشـرقى يقابله فى المغرب والأندلس مصطلح الإقليم الذى يعتبر بمثابة اصغر وحدة فى تنظيم المجال . وتنتظم الأقاليم ضمن وحدة اكبر تدعى الكورة . وتختلف دلالات مصطلح الأقاليم اختلافا بينا بين جناحى دار الإسلام . راجع ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ١، ص ٢٢ .

[٣٦] - صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٨٣ .

[٣٧] - ابن حيان ، كتاب المقتبس ، نشر / م. صبح / ف. كورينطى / ب شالميتا ، مدريد ، ١٩٧٩ ، جـ ٥ ، ص ٣٠٢ .

[٣٨] - نفسه ، ص ٣١٢ .

الناصر سنة ٣٢٦ هجرية لمدين بن موسى بن أبي العافية مرفوقا "بسجل من قبله ولاه بـه أعمال أبيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسب ما كان سجل لأبيه قبله"[٣٩].

والراجح أن بلاد نكور لم تخرج عن القاعدة العامة التي عادة ما تمس وضعية الأرض والعلاقات المتمحورة بين أطراف الإنتاج الفلاحي حول العائدات الزراعية عند انتقال أزمة القرار السياسي والمبادرة التنظيمية والتشريعية من الحواضر والمدن والقرى الجامعة نحو القلاع والحصون[٤٠]. ففي هذه الحالة ، لا يقتصر دور مراكز القرار الجديدة المحصنة على اتخاذ أحمية[٤١] متحيفة، بل وتتحكم أيضا بفضل الجند والحاميات العسكرية في مجمل الأراضي والأنشطة الفلاحية المرتبطة بها.

ينطبق نفس الشئ على الامتدادات الغربية للإمارة، ويتعلق الأمر ببلاد غمارة التي لم تعد منتظمة كما كانت في إطار الجماعة وأصبحت لكثرة المتآمرين من القواد "بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا"[٤٢]. انعكس ذلك على المستوى العمراني بخراب الحواضر والمدن واختلال البنيان. من ثم تصاعد الاهتمام باتخاذ الحصون ورفع الأسوار وبناء القلاع، بما يكشف عن التوجهات الجديدة التي مست في العمق مجمل النظام الإقتصادي القائم.

لعل في هذه العناصر، ما يدعو إلى إعادة النظر فيما تكرس لحد الآن من تصورات بخصوص المرحلة التاريخية المعروفة بالقرون المظلمة في تاريخ في تاريخ المغرب، وما يستحث الهمم ليس لبناء حوليات الحدث السياسي ببلاد نكور، بل وكذلك للانغماس في معالجة جملة من قضايا التاريخ الحضاري بالغرب الإسلامي.

---

[٣٩] - نفسه ، ص ٤٢٧ .

[٤٠] - للمقارنة يمكن تتبع تفاصيل هذه المسألة ضمن عملنا : عامة أشبلية في عصر بني عباد ، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكلية الآداب بمكناس ، ابريل ١٩٩٤ (غير منشورة) .

[٤١] - من المفيد بهذا الخصوص الإشارة إلى أهمية صنف خاص من المصادر العربية التي طواها النسيان ، ويتعلق الأمر بـ " كتب أحمية الحصون " . نخص منها بالذكر كتاب ابى الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بابن القابسي من أهل إفريقية المتوفى ٤٠٣هـ الذى وضعه في الموضوع ، راجع : ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ، تحقيق / محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ١٠٢ . ومن الأندلسيين نذكر يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى من موالى بنى أمية جيانى الأصل قرطبى المنشأ قيروانى الإقامة وتوفى بسوسة سنة ٢٨٩هـ الذى وضع هو الآخر مصنفا في " أحمية الحصون " راجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٥٥ ، وله كتاب مماثل بعنوان " في فضائل المنستير والرباط " .

[٤٢] - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٨٩ .

المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى المرحلة المغربية

(٢٩٦ – ٣٦٢هـ / ٩٠٩ ٩٧٣م)

د. / بوبة مجانى

كلية الآداب – جامعة منتورى

ظروف تأسيس المدرسة الفكرية الإسماعيلية ببلاد المغرب:

إن الحديث عن المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتطلب من الدارس العودة إلى فترة الدعوة المبكرة فى هذه المنطقة ، والأفكار التى روج لها الدعاة الأوائل الذين استطاعوا أن يتحصلوا على موطئ قدم منذ سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م حسب الرواية الشيعية[١] ، أى عندما كان الفكر الإسماعيلي يؤسس في المدينة أيام الإمام جعفر الصادق. كما أن هذه الدراسة تسعى إلى كشف أسباب اختيار بلاد المغرب مجالا لنشر المذهب الشيعي.

غير أن الغموض الذي اكتنف بدايات الدعوة والأفكار التى روج لها الدعاة كانت بسبب قلة الكتابات التاريخية من جهة وضياع ما دون مبكرا من جهة أخرى مثل كتابات المؤرخ والداعية أحمد بن الأسود بن الهيثم[٢] المعاصر للداعى أبى عبد الله الشيعى والإمام عبيد الله المهدى. وكذلك كتابات كبير الدعاة الكتاميين والمعاصر هو الآخر للإمام الأول المهدى، أفلح بن هارون الملوسى[٣]. كما أن بعض كتابات فقيه الدولة القاضى النعمان بن محمد بن حيون التميمى المبكرة والعائدة إلى فترة الإمام الأول مفقودة هى الأخرى . اضف إلى ذلك سرية الدعوة وطبيعة المذهب ذاته القائم على تأويل الخبر وليس روايته[٤] . كل هذه الأسباب زادت من استعجام الموضوع وعسرت مهمة المتصدى له للكشف عن ملامح هذه المدرسة فى الفترة المغربية . ولاستجلاء ملامح هذا الدور وقضاياه تبقى غير واضحة إذ أن اهتمام المصادر اقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية دون غيرها .. لهذا تبقى الأخبار المتعلقة بالفكر الذى احتوى هذه الحركة شحيحة لا تسعف الدارس على سبر أغواره ، بل

---

[١] – القاضى النعمان : رسالة إفتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ ، ص٥٤ .

[٢] – الداعى إدريس عماد الدين القريشي : عيون الأخبار وفنون الآثار ، نشر محمد البعلاوى القسم الخاص بالمغرب بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ونقل عنه إدريس عماد الدين فى كتابه السالف الذكر من أخبار الدعوة والدولة ورجالاتهما .

[٣] – نفسه / ٢١١ – ٢١٢ .

[٤] – يعد كتاب القاضى النعمان المجالس والمسايرات الذى ألفه فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله أحسن مثال على ذلك نشره محمد البعلاوى والحبيب الفقى وإبراهيم شبوح منشورات الجامعات التونسية تونس ١٩٧٨ .

تكتفى الأخبار بالإشارة إلى أن الدعاة روجوا لفكرة الإمام المستور المهدى المنتظر . وتنطوى هذه الفكرة فى حد ذاتها على منظومة فكرية كاملة تسعى إلى إصلاح المجتمع فكريا وعقائديا واقتصاديا واجتماعيا .

والسؤال الذى يطرح بإلحاح : إلى أى مدى ساهمت كتامة القبيلة فى صياغة الفكـــر الإسماعيلى فى دوره المغربى ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب على الباحث أن يضع يده على مؤلفـــات كتاميـــة بالدرجة الأولى مثل كتابات قاضى القضاة وداعى الدعاة أفلح بن هارون الملوسى الســـالف الذكر ، وحيدرة بن محمد بن إبراهيم صاحب " السيرة الكتامية " والذى نقل عنه إدريـــس القرشى قائمة مؤلفات القاضى النعمان[٥] . وغيرهما من علماء هذه القبيلة[٦] . أو بالإعتمـــاد على المؤلفات المبكرة التى أرخت للدعوة أو حملت أفكار هـــذه الدعـــوة ، لأن كتابـــات القاضى النعمان وحدها لا تكفى لرسم صورة كاملة وواضحة لهذه المدرســـة فى دورهـــا المغربى .

لامراء فى أن منطقة كتامة قد اختارها التنظيم الدعوى لتكون قاعدته لنشر المذهـــب فى بلاد المغرب وكذلك قاعدته العسكرية لإقامة الدولة ، لأنها تتميز بطبيعة جبليـــة وعـــرة وببعدها عن مركز السلطة بمدينة القيروان ، وهذه الطبيعة الجغرافية والبعد فرضا عليها عزلـــة فكرية وعلمية فما كان يدور من صراع فكرى ومذهبى ومناقشات كلاميـــة فى القـــيروان وبعض الأمصار المغربية مثل فاس وتهرت وغيرهما لم تعرفه هذه المنطقة . لهذا كانت معرفـــة الكتاميين بالإسلام بسيطة لا تتعدى مستوى المعاملات اليومية التى يعودون فيـــها إلى مـــن عرف منهم ببعض العلم ليحتكموا إليهم فى أمور دينهم .

لقد عمل التنظيم الدعوى على نشر أفكاره فى كل الأوساط ، وعندما تطلب الأمـــر انشاء دولة توجه إلى البيئات الأقل تحضرا والبعيدة عن المراكز الحيوية مثل منطقـــة كتامـــة ليتخذ من الوضع الاجتماعى سببا للإحتجاج على السلطة العباسية[٧] . قدم التنظيم الدعـــوى

---

[٥] - عيون الأخبار / ٥٦٨ Ponawala Ismail (K) : *Bibliography of Ismaili Literature*, California, 1977, pp. 48 68;Lvanow , *A guide to Ismaili Literature*, London, 1933, pp.32-37.

[٦] - هناك شاعر كتامى دون أحداث فتح مصر والشام نظما مشيدا بدور القائد الكتامى جعفر بن فلاح أنظر : إدريس القرشى : المصـــدر السابق / ٦٩٦ .

[٧] - فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، " الإسماعلية حتى العهد الفاطمى " دار الينابيع للنشر والتوزيع ، دمشـــق ، ١٩٩٤ / ١٧٩ .

البرنامج البديل المتمثل فى فكرة المهدى المنتظر . وكانت كتامة الأرض والقبيلة هى التى حقق بها التنظيم الدعوى برنامجه الإصلاحى .

ولقد إستفاد التنظيم من طبيعة المجتمع القبلية المعتمدة على العصبية وما تملكه القبائل من سلاح وخيل[٨] لأن الهدف لم يكن إلا الحصول على النصرة السياسية . ولأن نشر الفكر المذهبى التأويلى الفلسفى يحتاج إلى استعداد ذهنى وموروث فكرى ، بالإضافة إلى ما يتطلبه من وقت لنشره . اى أن التنظيم كان يريد منطقة صالحة للعمل العسكرى بعد الحصول على النصرة السياسية أكثر مما يسعى إلى الحصول على مرتكز فكرى لتطوير المذهب ، لأن الفكر قد تمت صياغته وحددت أبعاده وأهدافه ووضعت أسسه وبرامجه فى المشرق أيام الأئمة الأوائل منذ نهاية القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى .

وعليه كانت الدعوى تريد عصبية قبلية قادرة على العمل المسلح ، ومنطقة صالحة إستراتجيا لهذا العمل ، وهذا التطبيق ما تم الترويج له من أفكار لا تتعدى التذكير بفضائل آل البيت وحقهم فى الإمامة وهو ما وجدته فى كتامة القبيلة والأرض . وكان يكفيها من الناحية الفكرية أو المذهبية ما يكنه الكتاميون من حب لآل البيت وكرة للسلطة الأغلبية . يؤكد ذلك أن السلطة الفاطمية لم تفكر فى فرض ضرائب على الكتاميين ، وهذا مقابل خدماتهم للدعوة إلا بعد أن بدات استعدادات العودة إلى المشرق فى خلافة المعز لدين الله[٩] .

إن الذى حدد مسار الحركة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتمثل فى نشأة الخلافة فى وسط مشبع بالعداء للمذهب الإسماعيلى فى القيروان قاعدة وحصن المالكية ، فلم يكن بإمكان الإمام الفاطمى أن يتوقع حكم بلاد المغرب بسهولة من هذه المدينة أو من مدينة أخرى من مدن المغرب التى إنتشر فيها المذهب المالكى وسيط كلية بحيث لم يترك مجالا لمذهب آخر . والخلاف مع المالكية إنصب كلية حول قضية الإمامة التى شيد عليها الفكر الشيعى . كما أن معاداة المالكية للإسماعيلية لم يكن سببها الإختلاف فى نظرية الإمامة فقط ، بل يمكن ردها كذلك إلى السياسة الإقتصادية التى سلكتها الخلافة الفاطمية تجاه المعارضين لها فى المذهب[١٠] .

---

[٨] – القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ٦٥ – ٦٦ .

[٩] – المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٩٦٧، ٩٨.

[١٠] – أنظر تفاصيل ذلك فى دراسة د. محمود إسماعيل : محنة المالكية فى إفريقية المغربية ، دراسة إجتماعية ، مغربيات دراسات جديدة ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

لقد أسندت مهمة الرد على طعونات السنة واعتراضاتهم إلى الفقيه القاضي النعمان بالتأليف فى الموضوع منذ عهد الخليفة الثالث المنصور الذى أمر النعمان بالرد على السنة فيما رفضوه من إمامة آل البيت[11] لأن القاضي النعمان يعد من أكثر علماء الإسماعيلية إطلاعا على مذاهب أهل السنة وفقههم مما مكنه من الرد عليهم من داخل مرجعيتهم[12] ويتجلى ذلك فى كتابه اختلاف أصول المذاهب .

أما قبل هذه الفترة فلقد كانت الردود على السنة فى شكل مناظرات جمعت الخليفة الأول عبيد الله المهدى مع كبار فقهاء السنة مثل سعيد بن الحداد[13] . كما جمعت كذلك كبير دعاته أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس المخطوم مع علماء السنة[14] . ودارت المناظرات كلها حول قضية الإمامة ، لتنقطع بعد ذلك أخبار هذه المناظرات والمواجهات الفكرية فى عهد الخليفة الثانى القائم بأمر الله بسبب انشغاله بالمعارضة المسلحة التى قام بها الخوارج النكار بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار . وتعود المناظرات فى عهد الخليفة المعز لدين الله الذى ناظر فى ذات الموضوع فقيها سنيا[15] .

أما باقى مناطق المغرب فقد ظاهرت المذهب ودولته العداء وحاربته بكل قوتها . ففى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الأباضية ، وفى فاس دولة الأدارسة العلويين الذين أقصاهم الشيعة الإسماعيلية والإمامية من الحكم بحصرهم الإمامة فى أبناء الحسين فقط . وفى سجلماسة كانت تحكم أسرة بربرية تدين بالمذهب الخارجى الصفرى . فكلهم إذن يخالفون المذهب الإسماعيلى فكراً وسياسة . إلى جانب عدو الإسماعيلية التقليدى الأمويين فى الأندلس والعباسيين فى بغداد .

إن القضية الأساسية التى استغرقت زمن التنظيم الدعوى الإسماعيلى هى قضية الإمامة . هذا الاستغراق لم تتسبب فيه المعارضة المذهبية فقط ، بل كذلك الانشقاقات داخل المذهب ذاته بسبب الاختلاف حول سوق الإمامة ، فكانت هى الموضوع الفكرى المتداول بين أتباع المذهب . وعلى الرغم من المجهودات التى بذلها الخليفة المعز من أجل لم شتات الفكر وتوحيده حول قضية الإمامة وصياغته صياغة رسمية ، إلا أن موضوع الإمامة ظل يطرح بإلحاح مع دعاته فى المشرق ويتجلى فى المراسلات التى كانت تدور بينه وبين دعاته

---

[11] – القاضي النعمان : المجالس ، ص ١٣١ – ١٣٢ .
[12] – نفسه ، ص ٤٣٠ .
[13] – أبو بكر عبد الله المالكي : رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٥٩/٢ .
[14] – نفسه ٢/ ٨٤ – ٨٦ .
[15] – القاضي النعمان : المجالس ٣٦٥ .

مثل الرسالة التى بعث بها داعيته حليم بن شيبان داعى السند الذى يعلمه فيها بإلتزامه بخط الخلافة فى الإمامة[١٦] .

ويبدو أن الذى زاد من حدة الصراع والاختلاف بقاء الكتب التى تتناول الموضوع وفلسفته سرية لا تتداول إلا فى نطاق ضيق ، وحتى أبناء البيت الحاكم كانوا يخفونها عن بعضهم البعض .

فالخليفة عبيد الله المهدى يطلع المنصور ولى عهد القائم على كتب فى الباطن خفية عن ولى عهده القائم بأمر الله ذاته[١٧] .

هذا الانقسام والانشقاق بسبب الاختلاف حول بيت الإمامة . وهو ما تمثله الحركة القرمطية التى رفضت إمامة عبيد الله المهدى ، والتى بسبب سيطرتها على بلاد الشام ترك المهدى "سلمية " إلى بلاد المغرب[١٨] .

هذا الرفض لإمامة المهدى لم يكن من طرف دعاة المشرق فقط ، بل حتى داعيته المقيم لسلطانه فى المغرب " أبى عبيد الله الداعى " وأخيه " أبى العباس المخطوم " رفضا مهدويته . غير أن رفض المشرق صحبه إنتاج فكرى متنوع وعميق[١٩] . بينما رفض المغرب لم يتعد الحركة العسكرية لأن نشر المذهب فى صيغته التأويلية والفلسفية فى بيئة المغرب أمر مستحيل لأن هذه البيئة ليست هى بيئة المشرق التى كانت تغص بالأفكار الفلسفية .

هكذا كان الجو الذى ظهرت فيه الخلافة الفاطمية فكان لزاما عليها أن تواجه هذا العداء المذهبى والسياسى والفكرى . لهذا عندما أسس المهدى الخليفة الأول عاصمة الدولة باشر فى تطبيق الفكر على أرض الواقع فسمى هذه العاصمة " المهدية " وهو اسم ذو مدلول عقائدى. واهتم فيها بالتحصينات العسكرية دون الإهتمام بالمنشآت الدعوية . أى أنه لم يؤسس بها دار دعوة لأن حاجة الدولة إلى البقاء فى هذا الوسط العدائى يحتاج إلى القوة العسكرية قبل كل شئ. أما الدعوة فيكفيها أن تعقد مجالسها فى القصر والمسجد . كما أن

---

[١٦] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٢٤٩ .

[١٧] - القاضى النعمان : المجالس / ٥٠٢ .

[١٨] - أحمد بن إبراهيم النيسابورى : استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه ، نشر سهيل زكار ضمن الجامع فى اخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٢ ، محمد بن محمد اليمانى : سيرة الحاجب جعفر ، نشر إيفانوف ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، مجـ٤ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٠ - ١٩٠ .

[١٩] - من المؤلفات القرمطية التى وصلتنا كتاب " عبدان " : شجرة اليقين ، تحقيق عارف تامر ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢. ويتفق كثير من الدارسين على أن الإسماعيلية سطوا على التراث الفكرى القرمطى . انظر فاهار الدفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤ ، جـ١ ص ١٨٧ ، محى الدين اللاذقانى : ثلاثية الحلم القرمطى ، ط١ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٢٥٠ .

المشروع السياسي الفاطمي يهدف بالأساس إلى العمل من أجل العودة إلى المشرق ، وحصل المغرب مرحلة وقاعدة انطلاق فقط لهذا العمل العسكرى لكن دون التخلى عن العمل الدعوى. الانشقاق تطلب من السلطة لم شتات المذهب الفكرى الذى انتج فى المشرق والذى أخذ لبوس هذا الانشقاق وتوحيده وصياغته صياغة رسمية تخدم أهداف الإمامة فى المغرب .

واستغرقت عملية التوحيد هذه فترة زمنية طويلة لانشغال الإمامة بالفتن والثورات التى ظهرت منذ عهد الخليفة الأول ، فبالإضافة إلى فتنة الداعى التى تطلبت من المهدى تصفيته جسديا مع أخيه ومن تبعهما من رجالات كتامة ، هناك ثورة صاحب الحمار أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى .

وعلى الرغم من أن هذه الثورة لم تكن ذات أبعاد فكرية بل كانت ثورة على السياسة المالية المجحفة . هذا ما يفهم من قول أبى يزيد عند خروجه للحج مع رفقاء له من نفس المذهب حيث قال لهم عندما ودعهم بالقرب من جبل نفوسة : " ليس لله علينا أن نشترى حجة "[20] مما يعبر صراحة عن رفضه للضرائب الكثيرة التى فرضتها الخلافة على التجار والفلاحين بل حتى الحجاج أجبروا على المرور بالمهدية لدفع ضريبة قبل الخروج إلى المشرق[21] وكادت هذه الثورة أن تقوض أركان الدولة خصوصا بعد أن تحالف المالكية مع النكار مما أخذ من الدولة وقتا طويلا ومجهودا كبيرا من أجل إعادة الاستقرار فى البلاد . أى أن الدولة اهتمت وركزت على الجانب العسكرى كما فى مرحلة الدعوة . وهذا من اجل البقاء فى وسط هذا الجو العدائى ، ولم يظهر الاهتمام بالناحية الفكرية إلا فى عهد الخليفة الرابع " المعز لدين الله " .

فى خضم هذه الأجواء العسكرية تكونت المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى بلاد المغرب . وهذه الأجواء هى التى طبعت مسارها ، كما أن الأهداف التى رسمتها لنفسها منذ ظهور المذهب فى المشرق حدد كذلك هذا المسار .

---

[20] - يحيى بن أبى بكر أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم تحقيق إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٧٦ ، ص ١١٦ حول هذه الثورة راجع إحسان عباس : مصادر ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربى وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ ، ص ١١١ وما بعدها ، محمود إسماعيل : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، دار العودة بيروت ، مكتبة مدبولى القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

[21] - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، جـ١، ص ١٨٦.

خصائص المدرسة الفكرية الإسماعيلية :

ينطلق هذا الفكر من نظرته إلى السلطة التي يقيمها على تصوره للإمامة التي تكون بالنص والوصية والتوقيف وليس الاختيار او الشورى . لأن الإمامة مكملة للنبوة التي مهمتها تبليغ الرسالة أو التنزيل ، أما الإمامة فمهمتها تأويل هذا التنزيل وحفظه من أجل استمراره . أى أن المؤول والحافظ للشريعة يجب أن يكونا عالمين بأسرارها ، لهذا زاوجوا بينهما بل جعلوا الفصل بينهما مبطلا للإمامة .

فالتأويل والحفظ يتطلبان العلم الوهبي الفطري الذي حبا الله به وفضل به آل البيت دون غيرهم من البشر واستحفظهم سره هذا الاصطفاء يعطى للإمام حق المفاضلة بين الناس فيصطفى بدوره من يراه أهلا لعلمه وحكمته[٢٢] . وعلم الإمام يورثه للإمام الذى يأتي من بعده . اى لا يكون عن طريق التلقين والاكتساب . فصادر الإسماعيلية بذلك من باقى المسلمين اختيار الإمام كما صادروا منهم العلم كذلك ، العلم الذى يعنى القدرة على الغوص فى أعماق النص القرآنى أو السنى عن طريق التعلم .

وبناء عليه يعتبر الإسماعيلية سبب الاختلاف بين الأحزاب والمذاهب والفرق هو عدم رجوع المخالفين لمذهبهم إلى علم الأئمة وعدم أخذهم عنهم ويقول فى ذلك القاضى "النعمان"[٢٣] استنادا على حديث مأثور عن الإمام على عند اختلاف الناس بعد موت الرسول (لو ثنيت لى وسادة وجلست للناس لقضيت بين أهل القرآن بالقرآن ، وبين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ولما اختلف اثنان فى حكم من أحكام الدين) .

هذا النص يبين للناظر فيه أن علم الإمام على اللامحدود لم يقتصر على القرآن بل شمل كل الكتب السماوية . وطبيعى أن يرفض الإسماعيلية العقل فى التمييز بين الخير والشر والعدل والجور دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الذى لا يعلم مكنونهما ومعانيهما الباطنية إلا الأئمة ، فبذلك لا علم إلا علم الأئمة[٢٤] يتجلى لنا ذلك من خلال رد المعز على أحد الكتاميين فى مجلس من مجالسه ، قائلاً له : كل الناس يدعون العقل ، حتى المجانين وهم مختلفون فى المذاهب ، وحجة كل واحد عقله ، ومع ذلك لا يعدم مخالفا له ، والعاقل فى نظره هو المطيع لله والآخذ عن أوليائه، والجاهل هو العادل عن ذلك[٢٥] .

---

[٢٢] - القاضى النعمان : المجالس / ١٠٤ ، إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .
[٢٣] - إختلاف أصول المذاهب ، تحقيق مصطفى غالب ، ط٣ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣١ .
[٢٤] - القاضى النعمان : المجالس ص ٤٢٤ .
[٢٥] - نفسه / ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

إن الأئمة وحدهم هم القادرون على التأويل الذى هو البحث فى أسرار الدين ؛ فهما يقرب من جوهر العالم الروحانى . أى استخدام أو الاستعانة بالفلسفة فى فهم القرآن فهما تأويليا أو فلسفيا[٢٦] .

وتأسيسا على ما سبق فإن التأويل يتحدد بالمنظومة الفكرية للمؤول . فالإسماعيلية مثلا تأولوا القرآن من أجل إيجاد مسوغ شرعى لمطالبتهم بالإمامة ، والإمامة هى الركن الأساسى الذى بنى عليه فكرهم .

كما أن التأويل يتحدد بمدى عمق فكر المؤول وطبيعة فكره . فرجل الدين يختلف تأويله عن الفيلسوف . فإذا كان المؤول رجل دين فتأويله يكون من أجل استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها . أما إذا كان فيلسوفا فإن تأويله ينصب على الكشف عن أسرار الكون وعالم الغيب . غير أن المؤول الإسماعيلى سواء كان رجل دين أم فيلسوفا فإن هدفه هو تثبيت حقهم فى الإمامة . لهذا ربطوا بين الأئمة والأنبياء وجعلوا الحركة التاريخية أدوارا يكون آخرها دور القائم ، الذى يرقى إلى مرتبة النبوة . ولهذا شرعية الإمامة عندهم مرتبطة بشرعية التأويل أى التأويل لا يستطيع أن يقوم به إلا الإمام من هنا تأتى نظرة الإسماعيلية للتاريخ الذى قسموه إلى أدوار كما سبق الحديث وكل دور يشابه الآخر وهو تكرار له من آدم إلى القائم[٢٧]. كما أن الحدث التاريخى ذاته ذو وجهين ، هناك الحادثة أو الواقعة وهناك تأويلها[٢٨] . وصحة الأحداث التاريخية العائدة لهذه الأدوار مصدرها الأئمة[٢٩] لأنهم وحدهم مصدر كل علم . وهذا تسخيرا لإثبات شرعية الإمامة بامتدادها فى أعماق التاريخ ومنذ بدايته أى من دور آدم .

لقد دون الدعاة الفكر الإسماعيلى باعتمادهم وحسب الرواية الرسمية الإسماعيلية على الأئمة. وعلى الرغم من أن المصدر واحد إلا أن الاختلاف كان كثيرا حول القضية الواحدة . هذا الاختلاف هو الذى يؤكد لنا أن رد العلم إلى الأئمة وحدهم دون غيرهم هو للدعاية المذهبية فقط التى تطالب بشرعية آل البيت فى الإمامة استنادا على العلم المورو ث عن

---

[٢٦] – الحبيب الفقى : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس / أ .

[٢٧] – الحبيب الفقى : المرجع السابق / أ .

[٢٨] – عادل عوا : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، ط١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ .

[٢٩] – نفسه ، ص ٢٠١ .

الرسول عليه الصلاة والسلام . ويذهب بعض الدارسين[٣٠] إلى أن هذا الادعاء تبطله حقيقة أن الأئمة لم يكونوا ذوى علم ما عدا " جعفر الصادق " و " المعز لدين الله " .

غير أن الواقع من خلال ما وصلنا من أخبار يثبت أن الأئمة كانوا من ذوى العلم فالإمام "محمد الباقر" له أجوبة رد فيها على أسئلة الأتباع وجمعت هذه الأسئلة فى كتاب لإسماعيلية آسيا الوسطى هو "أم الكتاب"[٣١] .

كما يروى "جعفر بن منصور اليمن" عمن أخذ عن الباقر[٣٢] وكل ذلك يؤكد أن الباقر كان من علماء آل البيت العلماء وكتاب "المجالس والمسايرات" للقاضى النعمان[٣٣] حافل بالأخبار عن علم الأئمة وحكمتهم مثل "المنصور" الذى كان يشرف على مجالس الحكمة فى المهدية والمنصورية . بل له تآليف منها كتاب فى الإمامة[٣٤] .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من داخل المذهب الإسماعيلى ذاته فإن المعز لا يمكن أن يكون عالما إذا لم يكن الإمام "المنصور" هو الذى أودعه هذا العلم . فكما ورث عنه الحكم ورث عنه العلم كذلك .

وتعود أسباب كثرة الأخبار عن المعز إلى طبيعة الفترة التى حكم فيها . فالمعز جاء حكمه بعد فترة اضطرابات وحروب شغلت حياة الأئمة الثلاثة من قبله . كما أن المسلك الذى اتبعه فى نشر الدعوة كان مغايرا لمسلك سابقيه ، المهدى والقائم وهذا بسبب رد فعل المغاربة على هذا الأسلوب ، واحسن مثال على رد الفعل هو ثورة صاحب الحمار .

ومن خلال الأخبار التى وردت عند القاضي النعمان عن علم المعز نرى أنه كان عالما بالنحو ويناظر فى ذلك علماءه البارعين[٣٥] فطلب من أحد أئمته أن يؤلف كتابا فيه وحدد له فى نفس الوقت موضوع هذا الكتاب . وتعود براعة المعز النحوية إلى ارتباط هذا العلم بعلم البيان. والبيان إحدى معجزات القرآن الكريم . ونظرا لكون الأئمة هم وحدهم القادرين على الغوص فى أسرار الكتاب فهم بذلك الأعلم بالنحو[٣٦] .

---

[٣٠] - الحبيب الفقى : المرجع السابق / ٣ .

[٣١] - جاء فى هذا الكتاب أن الباقر هو الذى أعطى هذا العنوان للكتاب الذى شملت أجوبته موضوعات فى العقائد والتفسير وقصص الأنبياء وغيرها من الموضوعات مثل الروح والجسد والعرش والملائكة Lvanow, *Kitab der Islam*, 1936, tome 23, p. 16.

[٣٢] - جعفر بن منصور اليمن : كتاب الكشف ، نشر مصطفى غالب ، ط١، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

[٣٣] - أنظر على سبيل المثال المجالس / ٢٦٥ - ٢٦٧ والداعى إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

[٣٤] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ٣١٥ .

[٣٥] - نفسه ص ٣٠٩ .

[٣٦] - نفسه ص ١٢٤ .

إلى جانب علم النحو يذكر النعمان كذلك أن المعز كان مؤرخا مؤولا للأحداث التاريخية وليس راويا لها فقط[٣٧] . وكان عالما بكل اصناف العلوم الدينية والدنيوية[٣٨] ، من علم الكلام والفقه والطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة واللغة[٣٩] .

هكذا كان المعز العالم يمثل المدرسة الفكرية بكل معارفها بل كان الموجه لمنهجها ومفاهيمها[٤٠] .

فبعد أن اجتازت الدولة مرحلة التأسيس وتوطيد دعائمها التفتت إلى البناء الحضارى والفكرى استعدادا لتشييد إمامة تحكم كل العالم الإسلامى من بغداد بعد إسقاط الخلافة العباسية. لهذا قام المعز بتوحيد الفكر الإسماعيلى فعمل على كسب إسماعيلية المشرق إلى صفه بعزله الدعاة الثائرين عليه أو المبالغين فى موالاته ، بتحليلهم المحارم أو الخلط بين الدين والفلسفة ونسب ذلك إلى الأئمة[٤١] . هذا التقول و التحريف فى المذهب ونسبه إلى الأئمة يرجع إلى المرجعية العلمية عند الأتباع التى حصرت فى الأئمة فأصبح كل تقول أو تحريف ينسب إليهم فكثرت الكتابات وتنوعت واختلفت مما دفع بالمعز إلى الجمع والتوحيد وسيظل بيت الإمامة هو الذى يشرف ويوجه ما ينشر من علم سواء أكان فقها أم علم حقائق حتى بعد العودة إلى المشرق[٤٢] .

وبناءا على ما سبق فإن الحركة الفكرية المتمثلة فى جمع شتات الفكر وإلغاء اختلافاته هو تأكيد للفكرة القائلة أن لا علم إلا علم الإمام . أى أن الإمام المعز كما جمع كل السلطات فى يده هو الذى يتولى تحديد طبيعة الفكر ووجهته التى تخدم دولته . لهذا عندما كان يسأل إن كان هو المهدى يرد على سائليه قائلا : فضل الله تعالى كثير وواسع ولنا منه قسم جزيل ولمن يأتى من بعدنا فضله ، ولو كان الفضل لواحد لما وصل إلينا منه شئ . فقد كان المهدى مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة فبه فتح الله تعالى ذلك للعباد وذلك يتصل عنه فى ذريته حتى يتم وعد الله الذى وعدهم إياه بفضله وقوته وحوله[٤٣] ولكى يتغير المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا يجب أن يتغير علميا وثقافيا على أساس من الفكر الفلسفى . لأن التغيير بالثورة أو العنف دون مسوح فكرى لا يحقق الأهداف المرجوة.

---

[٣٧] – أنظر تفاصيل ذلك فى المصدر نفسه ص ١٣٨ – ١٣٩ .

[٣٨] – القاضى النعمان : المجالس ، ص ١٤٢ .

[٣٩] – نفسه ص ١٤٩ .

[٤٠] – نفسه ص ١٤٢ .

[٤١] – نفسه ص ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ويذكر هذه الأخبار بجملة دون تفصيل أو تحديد لهذا التبديل والتقول .

[٤٢] – القاضى النعمان : إختلاف أصول المذاهب ، ص ٣٨ .

[٤٣] – القاضى النعمان : شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم ، ايران ، ١٤٠٩ ، جـ١٥ ، ص ٣٩٠ .

والناظر فى هذا النص يتبين له أن فكرة المهدى عبارة عن مشروع إصلاحى اجتماعى واقتصادى وسياسى ، وهذا الإصلاح مرتبط بإصلاح أمر النـــاس الفكـــرى . أى عندمـــا يأخذون العلم عن الأئمة[٤٤] وعليه المهدى ليس آخر الفضل بل هو بدايته ، وهو الأســـــاس الذى بنى عليه المذهب الإسماعيلى وهو الإمام وعلمه سواء أكان هذا الإمام ظاهرا أم مستترا لأنه هو الهادى للبشرية[٤٥].

ووقف العلم على الأئمة دون غيرهم من البشر جعل الدعاة يروجون لفكـــرة علـــم الأئمة للغيب . وساهم فى بث هذا الاعتقاد فى نفوس الأتباع تحقيـــق بعـــض التوقعـــات المستقبلية مثل ظهور المهدى هذه التوقعات هى التى تعرف بعلم الحدثان الذى كان منتشـــرا فى إفريقية أيام الأغالبة . حيث كان الناس يأملون فى الخلاص من جور أمرائهم على يد إمام من آل البيت وهو المهدى . وهو ما تحقق فى السنة التى حددوها[٤٦].

وبالعودة إلى المصادر التي أرخت للدعوة الإسماعيلية نرى أن التنبؤات المستقبلية بدأت أيام مؤسس المذهب الإمام جعفر الصادق الذى تنبأ بفشل كل الثورات التى يقوم بهـــا آل البيت بل وحتى العباسيين وهذا الفشل حسب النص سببه التشبه بالمهدى أو إدعاء المهدويـــة . والثورة حسب هذا التنبؤ التى ستحرز النجاح هى التى يقودها أبناء الحسين بن على[٤٧].

وتتردد مقولة علم الغيب كثيرا فى كتابات القاضى النعمان مثل علم المهدى المســـبق بثورة صاحب الحمار وحصاره للمهدية . وهو الأمر الذى جعله عند تأسيسها يقيم حولهـــا أشد التحصينات انطلاقا من اختيار الموقع[٤٨] . كما أن المهدى تنبأ كذلك بعدم فتح مصـــر على يديه ومع ذلك قام بمحاولة الفتح[٤٩].

والسؤال الذى يطرح : هل كان ذلك علما بالغيب أم هو حسن التقدير والقـــدرة على الاستشراف ؟ أم هو تأويل للأحداث لصالح الدعوة ؟ أم هو فى الأخير غلو الدعاة ؟

---

[٤٤] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ، ص ٢٥٠ .
[٤٥] - القاضى النعمان : المجالس ص ١١٨ -
[٤٦] - القاضى النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ٨٤ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٩ .
[٤٧] - القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٤ / ٢٠٨ .
[٤٨] - القاضى بن النعمان : كتاب إفتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، وحول حقيقة علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ، أنظر لنفس المؤلف : الرســـالة المذهبة ، تحقيق عارف تامر (خمس رسائل إسماعيلية) ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ ، ص ٨٢ .
[٤٩] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ص ٢٠٨ .

لقد نفى الإمام القائم بأمر الله أن يكون الأئمة يعلمون الغيب ، والدعاة الذين روجوا لذلك هم صادون عن الأئمة وليسوا دعاة لهم[٥٠] ويذهب المعز فى نفس السياق لتوضيح اللبس فيرى أن علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ليس الغيب الذى قال فيه الله سبحانه وتعالى " قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ".

والغيب الذى يعلمه الأئمة هو العلم الذى غاب عن الناس ووهبه الله إلى الأئمة واستحفظهم سره[٥١] . فهو بذلك يؤكد على الأساس الذى بنى عليه الإسماعيليون مشروعيتهم فى السلطة وهو العلم الوهبى الموروث والمنقول من إمام إلى آخر بفضل العناية الإلهية وعليه هذا العلم هو الذى يمنح الإمام القدرة على الاستشراف.

وتحقيق التنبؤات المستقبلية هو الذى أدى ببعض الدعاة إلى الغلو فرفضوا علم الظاهر أى ترك المعنى الظاهرى للنص الشرعى ، وعملوا فقط بالمعنى الباطنى . وهو ما سمح لهم بتأول الأحكام حسب أهوائهم ، فشاع هذا الغلو واستشرى بين الدعاة مما دفع بالمهدى وحفاظا على مصالح الدولة إلى معاقبتهم بالنفى أو السجن . ثم أقدم بعد ذلك على الامتناع عن عقد مجالس لعدة سنوات ، وكان قبل ذلك يجلس إليها بنفسه[٥٢] .

ويرجع المعز أسباب عدم أخذ أغلب الدعاة بعلم الظاهر جهلهم بالأحكام ، فعندما كانوا يسألون عن الصلاة مثلا أو الصوم يمتنعون عن الإجابة بحجة أن السائل لم يبلغ الحد الذى يسأل عنه[٥٣] .

ولهذا حرص المعز حرصا شديدا على أن لا ينشر الدعاة إلا ما يأمر به أو يصدر عنه وليس ما يضيفه الدعاة على هذا العلم أو تأويلهم له[٥٤] .

وهكذا التأويل حتى وإن تعدد فيكون من الإمام ذاته وليس من الدعاة وهذا ما يؤكده قول الإمام جعفر الصادق " إنا لنجيب فى المسألة الواحدة بسبعة أوجه لكل وجه حد فاستكثر ذلك من سمعه وقال بسبعة أوجه يابن رسول الله -صلع- ؟ فتبسم وقال : نعم وسبعون ولو زادوا لزدنا"[٥٥] .

---

٥٠ - القاضى النعمان : المجالس ص ٨٤ .

٥١ - نفسه ص ٨٤ - ٨٥ .

٥٢ - القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة ص ٢٦٧ .

٥٣ - القاضى النعمان : المجالس ص ٥١٤ .

٥٤ - نفسه ص ٤٥٢ .

٥٥ - نفسه ص ٤١٤ .

هكذا يتبين لنا أن العلم مستويات كما أن الدعاة رتب ومستويات ولهذا لا يستطيع الداعية أن يتجاوز حده فى الدعوة[٥٠] .

لقد كان الدعاة فى هذه الفترة فى بلاد المغرب أغلبهم من كتامة ، ولقد صرح الأئمة فى أكثر من مناسبة بعدم قدرة كتامة على استيعاب أفكار المذهب الشيعى لهذا كان إقبالهم على مجالس الدعوة والحكمة بسيطا[٥١] .

إن الفراغ الفكرى الذى عاشته كتامة هو الذى يسر مهمة الداعى بها . فعندما نزل بها عند قدومه مع حجاجها سنة ٢٨٠هـ / ٨٨٣م ، وجد الأرض الخصبة المهيئة التى يبذر فيها بذور مذهبه ، لهذا باشر بعقد مجالس دعوته فى إكجان[٥٢] ، مظهرا فى هذا المرحلة فضائل الإمام على والأئمة من ذريته ، ومن يلمس فيه الاستعداد لتقبل علمه يأخذ عليه العهد وينتقل به إلى علم الباطن[٥٣] ، أى يطلعه على بعض أسرار المذهب .

والتشيع العام عرفته قبيلة كتامة قبل دخول الداعى إليها ، على يدى الداعيتين أبى سفيان الحسن بن القاسم ، وعبد الله بن على بن أحمد الحلوانى[٥٤] . وبذلك يكون الداعى قد نقل الكتاميين من التشيع العام إلى الخاص دون أن يبلغ بهم أعلى المراتب أى ظل يعمل من أجل نشر الفكر السياسى دون الفلسفى.

ولقد ترجم هذا الفكر السياسى على أرض الواقع عندما أحرزت دعوته على بعض الانتصارات العسكرية فقام بتقسيم القبيلة والأرض إلى سبعة أسباع جاعلا على كل سبع داعية وقائد[٥٥] .

ويواصل الداعى الارتقاء بكتامة فى مراتب التشيع عندما يشتد الصراع مع الأغالبة الذين حاصروه فى تازروت ، فيظهر الحكمة لأتباعه[٥٦] بهدف شحن النفوس .

هكذا استطاع الداعى أن يكون جيلاً من الدعاة الكتاميين الذين يتولون مهمة نشر الدعوة فى بلاد المغرب . ومن أشهر هؤلاء الدعاة أفلح بن هارون الملوسى الذى تولى قضاء

٥٦- نفسه.

[٥١] -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٧٩.

[٥٢] -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٦٧.

[٥٣] - إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٨٨ .

[٥٤] - نفسه ص ٥٤ .

[٥٥] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١٢٧ .

[٥٦] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١١١ .

القضاء ورئاسة الدعوة أيام الخليفة عبيد الله المهدى . وكانت مجالس دعوته شاملة لكل فئات المجتمع . فالنساء كان لهم مجلس ، وكذلك الصناع والحرفيون ، والفلاحون والرعاة[٥٧] .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي بلغها هذا الداعية الكتامي إلا أن المصادر الشيعية عندما تتحدث عن إنتاجه الفكرى الذى أسهم به فى بناء المدرسة الشيعية فى بلاد المغرب تذكر أنه كان نساخا للكتب فقط سواء كانت فقهية أم فى الآثار وفضائل آل البيت[٥٨] وبذلك يكون قد ساهم فى عملية جمع التراث الإسماعيلي دون الإبداع والتأليف .

وإذا قارنا ذلك بما كان يجرى فى المشرق فإن المشرق كان يعج بالأفكار الفلسفية والعقائدية فغالى دعاته كذلك فى علم الأئمة وتخلوا عن ظاهر الدين وأخذوا بباطنه لكن ذلك كان بسبب استخدامهم الفلسفة فى الدين والخلط بين الدين والفلسفة . فلم تكن آراؤهم فلسفية محظة ولا دينية صرفة[٥٩] فالمشرق غالى فاستطاع أن يتأول النصوص كما استطاع أن يمزج الموروث بالدين مما أعطى للدعاة حرية استقراء النص واستخراج الأحكام منه حسب هوى كل مؤول فكثرت بذلك الخلافات وكثر معها التأليف مما دفع بالإمام المعز إلى جمع هذا التأليف وتوحيده وتوجيهه الوجهة الرسمية وأوكلت هذه المهمة إلى القاضى النعمان .

أما فى المغرب فإن نكران المهدوية توقف عند حد العمل العسكرى واكتفت كتامة بتنصيب مهدى من إحدى قبائلها على صورة المهدى الفاطمي .

والكتابات الفاطمية الرسمية فرضت التعتيم على هذه الحركة واكتفت بتكفير مهدى كتامة واتهامه بادعاء النبوة والوحى وتنصيب دعاة على نفس التنظيم الدعوى الذى كان الداعي ينشر من خلاله ويروج لفكره المهدى الفاطمي[٦٠] .

---

[٥٧] - إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢١٢ . ظل هذا النظام فى نشر الدعوة متبعا حتى بعد العودة إلى المشرق ففى العهد الخليفة الحاكم بأمر الله كان مكلف بالدعوة الحسين بن على بن نعمان (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م يفرد للأولياء مجلسا وللقضاة وشيوخ الدولة مجلسا آخر فى القصر ، وعوام الناس والطارئين على البلد مجلسا أما نساء القصر كان لهن مجلسا خاصا بمن فى القصر ولعامة النساء مجلسا فى الجامع الأزهر ، تقى الدين المقريزى : المقفى الكبير ، نشر محمد البعلاوى ، ط١ ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٧ ، ص٣٩٦ .

[٥٨] - نفسه ص ٢١١ .

[٥٩] - القاضى النعمان : المجالس ص ٤٠٨ .

[٦٠] - ابن عذارى : البيان ١/١٦٦ - ١٦٧ . عبد الرحمن ابن خلدون : العبروديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ ، مجـ ٧٨/٧/٤. المقريزى : المقفى ص ٩٠ . إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ١٩٠ .

هكذا يتضح لنا أن كتامة المحدودة الفكر عندما انشقت لم تستطع أن تنتج فكرا يضاد الفكر الرسمي بل كل ما عملته أنها استنسخت صورة المهدى الفاطمى دون إعطاء فكرى أو مذهبى ، بل يمكن القول أنها استنسخت فكر المهدى .

ولاغرو أن تأسيس المدرسة الفكرية فى المرحلة المغربية هو نتاج الجهود التى بذلت أيام الخلفاء الأوائل كالمهدى والقائم من أجل توطيد أركان الدولة بسيادة الفكر الذى قامت عليه وهذا استعداد للعودة إلى المشرق بعد أن تشمله سيادة فكرها بعد توحيده .

فعندما جاء المعز إلى السلطة وحرصا منه على تحقيق هدف العودة اتخذ موقفا مخالفا للأئمة السابقين من المعارضة سواء كانت مالكية أم أباضية[٦١] .

والسياسة التى اتبعها المعز تجاه الخصم هى التى وفرت له جو توحيد المذهب الإسماعيلى وأسند هذه المهمة وكما سلف القول إلى القاضى النعمان قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وأحد أبناء كبار الدعاة فى اليمن وهو جعفر بن منصور اليمن ، لأن المعز لم يجد من أهل المغرب من يستطيع القيام بهذه المسؤولية . فلقد كان كثير الشكوى بجهل أهل إفريقية[٦٢] وتمكن من توحيد هذا الفكر بعد أن كسب ولاء بعض المنشقين عنه فى المشرق ، فأصبح الدعاة يبعثون إليه بأسئلتهم المتعلقة بالمذهب فيجيب عنها[٦٣] .

واستمرت هذه الاتصالات مع الدعاة فكانوا يخبرونه بكل ما يجرى فى جزرهم ، وهو بدوره يخبرهم بما يجرى فى دولته .

حركة التأليف وتأسيس المكتبات :

إن الأسس التى قام عليها المذهب الإسماعيلى وهى العلم الألوهى الربانى الذى يعطى للإمام شرعية تأويل النصوص الدينية – وهى نفس الأسس التى بنيت عليها الإمامة – أعطت ثراءا فى التدوين .

لهذا يتساءل الدارس إذا كان الفكر الإسماعيلى منطلقة العلم الربانى الذى يعتمد على التأويل الباطنى للنصوص ، فهل اعتمد دعاته عند نشرهم للدعوة على الرواية الشفهية أم على كتب مدونة ؟ خصوصا وأن الدعوة سرية والخلافة العباسية تبث عيونها فى كل مكان لمنع هذه الدعوة من الانتشار .

---

[٦١] – أبو زكريا : السير ص ١٣٨ – ١٤٠ .
[٦٢] – القاضى النعمان : المجالس ص ٣٩٦ .
[٦٣] – القاضى النعمان : المجالس ص ٢٣٦ . فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ٥٢/٢ .

ففى بلاد اليمن مركز الدعوة ومدرسة إعداد الدعاة كان الداعية ابن حوشب وابـــن الفضل الجيشانى عندما دخلاها وجدا بها من يمتلك كتبا تنبئ وتبشـــــر بظـــهور المـــهدى وتتحدث عن أخباره وكذلك أخبار الدعاة الذين يأتون إلى بلاد اليمن يدعو له بهـــا قبـــل ظهوره وهما ابن حوشب ورفيقه[٦٤] .

أما بلاد المغرب فيذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الداعى عندما كلف بنشر المذهـــب وأثناء وجوده فى سجلماسة لإخراج المهدى من سجنه كانت معه كتب ينظر فيها[٦٥] .

ويفترض أن تكون هذه الكتب قد حملها معه إلى بلاد كتامة عند دخوله إليها كمـــا أن كبير دعاة كتامة أفلح بن هارون الملوسى استنسخ كتبا كثيرة فى الفقه وفضـــائل أهـــل البيت .

وخطب الإمام على وأبنائه أيام الخليفة المهدى[٦٦] يرجح كذلك أن يكون النسخ قـــد تم أيام الدعوة السرية وعند تأسيس الدولة وأثناء قدوم الإمام عبيد الله المهدى من الشـــرق كانت معه كتب ملاحم أخذت منه فى برقة[٦٧] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم تآليف فى بداية الدولة فى عهد خليفتها الأول المـــهدى الداعى الطالبى أبو على باب الأبواب (ت ٣٢١) ومن مؤلفاته كتابه الموســـوم " أمـــهات الإسلام" رد فيه على الفلاسفة والأمم المخالفين للإسلام كما عرض فيه كذلك إلى التـــأويل وحقيقة وجوده وظل الداعى الطالبى يؤلف إلى أن توفى[٦٨] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم مؤلفات وعاصروا الخليفة المهدى ، أحمد بن الأسود بن الهيثم الذى نقل عنه أخبار الدعوة والدولة الداعى إدريس القرشى الذى تـــوفى فى القـــرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى[٦٩] .

وظلت حركة التأليف فى عهد المهدى نشطة فالداعى أبو اليسر الرياضى الذى تـــولى خطة الكتابة بعد تأسيس الدولة صنف كتبا فى علوم شتى منها علـــوم الحديـــث والقـــرآن والأدب[٧٠] .

---

[٦٤] – القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٥ / ٤٠٧ .

[٦٥] – أبو زكريا : السير / ١١٠ .

[٦٦] – إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٢١١ .

[٦٧] – القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ١٥١ ، إبن عذارى : البيان ١/١١٠ . المقريزى : إتعاظ الحنفا / ٦١ . والمقفـــى / ٨٤ . إبـــن حلدون : العبر / ٧/٧١ .

[٦٨] – إدريس القرشى : المصدر السابق ٢٣٦/ .

[٦٩] – نفسه / ٢١١ .

والقاضى النعمان الذى نال شهرة واسعة فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله بدأ هو الآخر تصنيف الكتب أيام الخليفة المهدى فكتابه " مختصر الإيضاح " وهو عبارة عن أحاديث وأخبار تروى عن الأئمة من آل البيت[٧١] ألفه فى هذه الفترة كما أن كتابه الذى وضعه فى آداب التعامل مع الأئمة وهو " كتاب الهمة فى آداب إتباع الأئمة " يرجح أنه صنفه فى آخر عهد المهدى أو بداية عهد القائم[٧٢] .

هذه الكتب إلى جانب ما حمله معهم الدعاة الذين قاموا بنشر مذهب فى بلاد المغرب هى التى كونت النواة الأولى للمكتبة الإمامية بإفريقية فبعد تأسيس الدولة اهتم الخليفة المهدى باقتناء الكتب وجمعها بل صادر من المخالفين لمذهبه كتبهم فالفقيه المالكى سعدون بن أحمد الخولانى (ت ٣٢٧) كان يمتلك كتب الحدثان فصادرها منه المهدى[٧٣] .

ومن علماء المالكية الذين صودرت كتبهم ووضعت فى خزانة القصر كتب الفقيه أبى محمد عبد الله بن أبى هاشم (ت ٣٤٦) وكانت هذه الكتب فى علوم شتى[٧٤] .

وعندما كان الداعى يقوم بإسقاط الدولة الحاكمة فى بلاد المغرب وهو فى طريقه إلى سجلماسة استولى على تاهرت عاصمة الرستميين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وجد بها مكتبة عامرة بالكتب فأخرجها كلها واقتنى منها ما يصلح للملك والحساب وأحرق الباقى[٧٥] .

أما المصدر الآخر الذى مد المكتبة الإمامية بالكتب هو ما كان يؤلف فى بلاد المشرق فى بغداد حتى ولو كان فى أخبار بنى العباسى[٧٦] .

وظلت الكتب التى تؤلف فى المشرق من طرف الداعة ترسل إلى بلاد المغرب فكتاب "الزينة" الذى ألفه أبو حاتم الرازى فى فضل اللغة العربية ومنافع الشعر واشتقاقات أسماء الله الحسنى أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله لم يسمح لولى عهده المنصور بالإطلاع على بعض

---

[٧٠] - إبن عذارى : البيان ١٦٣/١ .

[٧١] - إدريس القرشى : المصدر السابق / ٥٦٠ .

[٧٢] - فرحات الدشراوى : كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية فى المغرب ، أعمال الملتقى القاضى النعمان الثانى ، المهدية ، من ٤ - ٧ أوت ١٩٧٧ ، وزارة الشوون الثقافية ، تونس ١٩٨١ ، / ٢١٣ .

[٧٣] - المالكى : رياض النفوس ٢٥٩/٢ .

[٧٤] - نفسه ٤٢٢/٢ . القاضى عياض اليحصبى : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر طرابلس الغرب ، ٣٤٠/٣ .

[٧٥] - أبو زكريا : السير / ١١٣ ، أبو العباس الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٩٧٤ ، ٩٤/١ - ٩٥ .

[٧٦] - القاضى النعمان : المجالس / ٣٢٠ .

أجزائه[٧٧] ، وهذا لكون الكتاب فى علم الباطن على الرغم من أن مادته تبدو فى علم الظاهر. وإهتمام الأئمة بالعلم واقتناء الكتب واستنساخها وتصنيفها فى خزانة القصر جعلهم يعينون موظفا مهمته هى جمع الكتب واستنساخها وحفظها . وأسندت هذه الوظيفة فى عهد كل من المهدى والقائم إلى القاضى النعمان وكان المسؤول عن المكتبة أحد أبناء البيت الحاكم وهو المنصور ولى عهد القائم[٧٨] .

وفى عهد الخليفة المنصور تولى هذه الخطة الأستاذ " جوذر الصقلى " الذى كان يدخر عنده نفيس ما تحتوى عليه هذه المكتبة[٧٩] .

ويمدنا صاحب سيرة جوذر[٨٠] ببعض عناوين هذه الكتب عندما يتحدث عن أمر المنصور جوذر باستنساخ كتب منها كتاب الإيضاح للقاضى النعمان وخطبة للقائم وأخرى للمنصور ذاته[٨١] .

وفى خزانة الكتب تلك كان الخليفة المعز يقضى ليلة يطلع على محتوياتها خصوصا ما كان منها فى علم الباطن الذى لا يطلع عليه إلا الأئمة . وفى نفس الوقت كان يؤلف فى لياليه تلك[٨٢] .

ويمكن القول بعد هذا العرض السريع لمواضيع الكتب نرى أن معظم المؤلفات كانت دينية وعقائدية وفلسفية وهو ما يرجح أن يكون قد شكل الرصيد الأكبر فى مقتنيات هذه المكتبة .

ومن القرائن على ذلك أن الأئمة عندما كانوا يصادرون كتب المخالفين لهم فى المذهب كانت إما فى علم الحدثان أو الحساب والرياضيات ولعلم الرياضيات علاقة وطيدة بعلم الفلسفة الذى أستخدم فى التأويل .

ومن العلوم كذلك علم النجامة الذى اهتم به الأئمة اهتماما كبيرا . فالخليفة المنصور برع فيه وكان غرضه من ذلك هو التوحيد وليس معرفة الغيب[٨٣] وكان الخليفة المعز يرى أن

---

[٧٧] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ ، حول شخصية هذا العالم ومؤلفاته ، انظر : Lvanow, op.cit, pp. 24 - 26 ؛ نشر كتاب الزينة فى القاهرة سنة ١٩٥٦ من طرف حسين بن فيض الله الهمدانى .
[٧٨] - القاضى النعمان : المجالس ٨٠ / .
[٧٩] - العزيزى الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر / تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ، / ٥٣ .
[٨٠] - نفسه / ٥٣ .
[٨١] - نفسه .
[٨٢] - القاضى النعمان : المصدر السابق / ٥٠ .
[٨٣] - القاضى النعمان : المجالس / ١٣١ - ١٣٢ .

النظر فى النجامة هو لمعرفة حساب السنين ومواقيت الليل والنهار وهى دلائل على التوحيد[٨٤] لذلك طلب من النعمان أن يضع له أسطرلاب ، فاختار النعمان ذلك ابنه محمد ليشرف على الصانع الذى كلف بوضعه[٨٥] وتبدو استفادة الإسماعيلية من هذا العلم جلية ، فعلى نظام الكون نظموا دعوتهم ، كما جعلوا العلم والحكمة تنتقل من إمام إلى آخر تدريجيا وليس دفعة واحدة كنمو الخلق وتحول الفصول[٨٦] .

ومن خلال ما سبق نرى أن العلوم التى حازت على اهتمام الأئمة هى العلوم التى تستخدم فى عملية استشراف المستقبل كعلم الحدثان والرياضيات والنجامة وكلها ترتبط بالفلسفة التى عالج بها الأئمة قضية الإمامة ما عدا علم الحدثان .

وإذا نظرنا إلى الكتب التى كانت تدرس فى مجالس الدعوة نرى أن القاضى النعمان داعى الدعاة كان يجلس للفقه فى المسجد وفى القصر يجلس لعلم الباطن تتلى فيه الكتب بعد صلاة العصر فى كل يوم جمعة ، وكان أغلبية المتلقنين فى هذا المجلس الذى يعقد بالقصر من كتامة[٨٧] .

وكان الإمام المعز هو الذى يحدد الكتب التى تتلى فى مجلس القصر ومن بينها كتابى القاضى النعمان " دعائم الإسلام "[٨٨] و " اختلاف أصول المذاهب "[٨٩] المتمم والمكمل للدعائم فالدعائم يؤسس ويؤصل الفقه الإسماعيلى كما يروى عن الأئمة والثانى فى المنهج الذى أصل به هذا الفقه .

لقد كان القاضى النعمان – كما سلف القول – هو الذى يجلس للعلم سواء فى المسجد أو القصر[٩٠] كما كان هو المؤلف للكتب التى تتلى فى هذه المجالس والتى مازال بعضها يتداول بين الأتباع لحد الآن مثل كتاب الدعائم الذى ضمنه القواعد الفقهية للمذهب وهى الأسس السبعة التى يقوم عليها الإسلام حسب رأى الإسماعيلية .

---

٨٤ – نفسه / ٣٤٩ .
٨٥ – المقريزى : القفى / ٣٦١ .
٨٦ – القاضى النعمان : المجالس / ٢٦٧ .
٨٧ – إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦١٨ .
٨٨ – نفسه / ٣٠٦ .
٨٩ – فرحات الدشراوى : المرجع السابق / ٢١٣ .
٩٠ – القاضى النعمان : المصدر السابق / ٣٨٦ .

هكذا تولى النعمان مهمة تأليف الكتب أو جمعها واستنساخها وتولى معه هذه المهمة إبن كبير الدعاة جعفر بن منصور اليمن[٩١] ، الذى لعب دورا كبـيرا فى صياغة الفكـر الإسماعيلى صياغة تأويلية باطنية . أما القاضى النعمان فلقد جمعت كتاباته ما بين الظـاهر والباطن وكان باطن علمه باطن فقيه وليس باطن فيلسوف غاص فى أعماق الفكر الفلسفى مثل جعفر بن منصور اليمن وهذا التبحر فى فكر جعفر جعله يتقدم على النعمان ويحظـى بالمركز الأسمى فى التنظيم الدعوى .

إن أخذ المذهب الإسماعيلى بالفلسفة جعله يتمتع بالقدرة على التلاؤم مع كل تـراث وهو ما أعطى فى نفس الوقت حرية للدعاة فى تـأويل النصـوص فكـثرت الخلافـات والاختلافات فى هذا الفكر . وهذه الكثرة فى التنوع وفى الإنتاج هى التى دفعت بـالمعز إلى جمع التراث وصياغته بما يتلاءم وأهداف الخلافة خصوصا إذا كان بعض هذا الإنتاج يشكل خطرا على الخلافة ويهددها بالانقسام.

والسؤال الذى يطرح : هل هؤلاء الدعاة كانوا مبدعين أم ناسخين فقط وجـامعين لهذا الفكر ؟ إن الناظر فى المصادر الشيعية يرى أن كل الأخبار التى وردت عن التدويـن فى المرحلة الإفريقية تبين أن واضعى هذا الفكر هم الأئمة من آل البيت فالقاضى النعمان ينسب كل ما ألفه إلى الخليفة المعز[٩٢] .

وإذا سلمنا بذلك وفى غياب رواية أخرى مخالفة فإن مكانة المرحلـة المغربيـة بـين المراحل التى مر بها هذا الفكر هو الجمع والصياغة الرسمية . وهو ما تحتاجه الخلافة فى هـذه الفترة لكى يسهل عليها العودة إلى المشرق وحكمه مع المغرب بالمذهب الإسماعيلى .

أما الدور الآخر فهو نشر المعارف العقلية التى لم تكن منتشرة من قبل فى بلاد المغرب منها الفلسفة التى انتشرت كتبها فكانت مؤلفات أرسطوطاليس فى الفكر السياسى معروفـة فى بلاد المغرب بل حتى فى أقصى أطرافه مثل سجلماسة[٩٣] . والفلسفة إن تكن قد دخلـت المغرب قبل الفاطميين فإن الفضل يرجع لهم فى نشرها وإعطائها مكانة خاصة .

والميزة الأخرى للمرحلة المغربية أنها أدخلت منهجا علميا ومعرفيا جديدا إلى بـلاد المغرب لم يكن معمولا به من قبل . وهذا المنهج مرتبط بالمذهب وملازم له فالعلم الألوهـى

---

[٩١] – توفى بالمغرب سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م . ما تزال بعض مؤلفاته مخطوطة مثل كتاب الشواهد والبيان ، دار الكتب المصرية ، القـاهرة ، ميكروفيلم رقم ٣٠٤٤٤ عقائد تيمور .

[٩٢] – نفسه / ٤٠١ ، إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

[٩٣] – إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ .

الذى مصدره الإمام يلقن للأتباع حسب قدراتهم العقلية وينتقل من إمام إلى آخر انتقالا وراثيا أى تواصل المدد الإلهى . وبذلك رفضوا العمل بالرأى والقياس اللذين عملا بهما السنة لهذا عاب جعفر بن منصور اليمن على بعض الشيعة إتباعهم منهج القياس كالسنة[٩٤] وعليه الصراع هو صراع فكر ومنهج فى ذات الوقت .

ويمكن القول أنه إذا كان الفضل يرجع للخليفة المعز فى جمع الفكر الإسماعيلى وتوحيده فإن للخلفاء الذين سبقوه دورا فى ذلك ، فهم الذين وطدوا له الحكم ووفروا له الاستقرار حتى يستطيع أن يقوم بهذا الدور الفكرى لكى يعود إلى المشرق .

ويبدو أن المعز أدرك جيدا أن السياسة التى انتهجها الأئمة الذين سبقوه فى الحكم المهدى ، القائم ، هى التى زادت من عداوة المخالفين لهم فى المذهب من سنة وخوارج ، لذلك تفطن المنصور إلى هذا السلوك السياسى فتعامل مع الخوارج الذين ثاروا عليه بزعامة أبى يزيد صاحب الحمار بالقوة وداهن السنة المالكية حتى يكسر الحلف الخارجى السنى فأرضاهم بقتل بعض الدعاة ونفى البعض الآخر إلى الأندلس وغيرها من المناطق ، كما سمح للفقهاء أن يفتوا ويعملوا بالمذهب المالكى[٩٥] .

فعندما جاء المعز إلى الخلافة عول على أسلوب التعايش الفكرى مظهرا تقديره للعلماء بما فيهم علماء الخوارج[٩٦] .

والذى ساعد كذلك على ازدهار الحياة الفكرية أيام المعز ، إباحته مجالس الدعوة لكل الراغبين فى علم الأئمة هذه المجالس التى ظلت سرية إلى غاية عهد الخليفة المنصور وربما يعود السبب فى ذلك أن عهد هذا الخليفة عرف اضطرابات كثيرة بسبب ثورة صاحب الحمار ، والتى تسببت فيها سياسة الخليفة المهدى الدعوية فلقد كان يحمل الناس بالقوة على التشيع ويمنعهم من الإفتاء بغير المذهب الإسماعيلى[٩٧] .

ولأن المغرب كان الفكر المالكى والإباضى فيه لا يشكلان خطرا على الفكر الإسماعيلى بل الذى كان يهم الأئمة هو توفير الاستقرار السياسى فى المنطقة لتسهل العودة إلى المشرق وهذا يفرض على المعز وقبل الرحيل أن يوحد المذهب حتى لا يواجه بخصم من داخل المذهب ذاته ليتفرغ للعدو العباسى ، فيسقط دولته ببغداد ويحكم هو منها العالم

٩٤ – جعفر بن منصور اليمن : سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق وتقديم مصطفى غالب ، ط١ دار الأندلس بيروت ١٩٨٤ / ٢٤٤ ، ٢٥٠.

٩٥ – القاضى عبد الجبار الهمدانى : إثبات دلائل النبوة ، نشر د/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، جـ١ ، ص ٣١٠ .

٩٦ – أنظر تفاصيل ذلك عند أبى زكريا : السير / ١٤٨ .

٩٧ – المالكى : رياض النفوس جـ٢ ، ص ٢٦٥ .

الإسلامى لأن المهدية لم تكن هى المستقر فعندما أسسها المهدى إتخذها دار هجـــرة فقـــط للإمام القائم بأمر الله[٩٨] وعلى الأئمة الذين يأتون من بعده تقع فريضـــة الجـــهاد الفكـــرى والعسكرى حتى تتحقق العودة إلى المستقر وهو بغداد .

وأخيرا للكشف عن طبيعة الفكر ذاته ومدى صلته بالفكر القرمطى يتطلب دراســـة قائمة بذاتها بمقارنة المؤلفات القرمطية المتوفرة مع ما ألف فى مرحلة جمع وتوحيـــد الفكـــر الإسماعيلى ، أى المرحلة المغربية ، مثل كتابات الداعى منصـــور اليمن[٩٩] المعـــروف بـــابن حوشب ، وابنه جعفر والقاضى النعمان وغيرهم من الدعاة الذين وصلتنا مؤلفاتهم .

---

٩٨ – إدريس القرشى : زهر المعانى / ٢٢٠ .

٩٩ – من مؤلفاته المشهورة البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، ط١ ، سلمية ١٩٥٦ ، وينسب إليه كما ينسب إلى ولـــده جعفر كذلك كتاب " العالم والعلام " ، نشر مصطفى غالب ضمن أربعة كتب حقانية ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- جعفر بن منصور اليمنى (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م) : كتاب الكشف ، تحقيق/ د. مصطفى غالب الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، العالم والغلام ، أربع كتب حقانية ، نشر/ مصطفى غالب ، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٨٣ .

- الجوذرى،منصور العزيزى (ت أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) : سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق/ محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، القاهرة .

- ابن حوشب منصور اليمنى : البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق/ مصطفى غالب ، سلمية ١٩٥٦ .

- ابن خلدون، أبو زبد عبد الرحمان بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) : المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨١م .

- الدرجينى، الشيخ أبو العباس أحمد ابن سعيد (ت ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) : كتاب طبقلت المشائخ بالمغرب ، تحقيق/ إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- ابو زكريا يحى بن أبى بكر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق وتعليق /إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- عبدان الداعى القرمطى (ت : القرن ٣هـ / ٩م) : شجرة اليقين ، تحقيق/ عارف تامر ، ط١، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- ابن عذارى المراكشى، ابو عبد الله محمد (ت نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى): البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق/ ومراجعة ج.س. كولان وأ.ليفى بروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- القاضى عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى (ت ٥٤٤هـ / ١٠٤٩م) : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق/ د. أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر ، طرابلس الغرب .**

- القرشي، الداعى المطلق إدريس عماد الدين (ت ٨٢٧هـ / ١٤٨٨م) : زهر المعانى ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

................، عيون الأخبار وفنون الآثار السبع الخامس وقسم من السبع السادس ، نشر/ محمد اليعلاوى تحت عنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المالكى، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت : أواخر القرن ٥هـ / ١١م) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق/ بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : كتاب المقفى الكبير) تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) ، اختيار/ د. محمد اليعلاوى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

................، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق/ د. جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

- النعمان، القاضى ابو حنيفة محمد بن محمد بن حيون التميمى المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٣م) : اختلاف أصول المذاهب ، تقديم وتحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الثالثة ، دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .

................، تأويل الدعائم ، تحقيق/ محمد حسين الأعظمى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة .

................، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه أفضل السلام ، تحقيق/ آصف بن على أصغر فيضى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

.......، رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق/ وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠م .

......، الرسالة المذهبة ، نشر/ عارف تامر ، ضمن خمس رسائل إسماعيلية ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ .

................، شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم، إيران ١٤٠٩ .

...............، المجالس والمسايرات ، تحقيق/ الحبيب الفقى ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوى الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ١٩٧٨م .

..............، الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥م .

- النيسابورى، احمد بن إبراهيم : كتاب استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه، نشر/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧.

- اليمانى، محمد بن محمد (مان حيا أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) سيرة الحاجب جعفر ، نشر/إيفانوف ، بمجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٦م .

ثانياً المراجع

- إسماعيل، محمود : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٦ .

- الدشراوى، فرحات : الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦ - ٣٦٥هـ / ٩٠٩ - ٩٧٥م التاريخ السياسى والمؤسسات ، نقله الى العربية حمادى الساحلى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٩٤م .

...........، كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية بالمغرب ، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية الدورة الثانية المهدية ٧ - ٤ أوت ١٩٧٧م ، وزارة الشؤون الثاقفية ، تونس ١٩٨١م .

- دفترى، فرهارد : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الأول ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤م .

.........، الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الثانى ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٥م .

- عباس، إحسان : مصادر ثروة أبي يزيد مخلد بن كيلاد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ .

- عوا، عادل : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، أشغال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت .

- ال--- الحبيب : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس .

Lvanow, W: *Ummu t - Kitab der Islam*, tome 23, 1936 .

: *A Guide to Ismaili Literature*, London, 1933 .

.... : *The Rise of the Fatimide*, Calcuta 1942 .

Ponawala Ismail: *Bibliography of Ismaili literature*, California, 1977.

مجلس نابلس
(٢٣ يناير ١١٢٠ م)
وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية

د. / حسين محمد عطية
كلية الآداب – جامعة طنطا

في ٢٣ يناير ١١٢٠ م عقد فرنج مملكة بيت المقدس الصليبيـــة اجتماعـــا في مدينة نابلس برئاسة الملك بولدوين الثاني (١١١٨-١١٣٠م) وجـــيرموند بطريـــرك كنيسة بيت المقدس (١١١٨-١١٢٨م). وضم المجلس كل كبار رجال الدين والســادة العلمانيين بالمملكة. وعرف هذا الاجتماع بمجلس نابلس Council of Nablus [1] وبصفة عامة، فأن اجتماع هذا المجلس لم يشد-بدرجة كبيرة-حتى الآن، انتباه مؤرخي الحروب الصليبية الحديثين. ومن عرض له منهم، عالجه بشكل سريع وبالمصادفة خـلال معالجته لمؤسسات مملكة بيت المقدس الصليبية [٢]، الأمر الذي جعله يتـــواري، مـــن حيث الأهمية، دون أن يشعر به قارئ تاريخ هذه المملكة الناشئة. وهذا البحث، هـــو محاولة لإلقاء الضوء على طبيعة هذا المجلس، وأسباب انعقـــاده، وأهدافـــه، وطبيعـــة القرارات التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجتمعون فيه، ومدى توافقها مع ضـــرورة انعقاده، ومدى ارتباطها بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية آنذاك، وأخيراً، موقـــف المؤرخين اللاتين تجاه هذا الحدث.

أما عن طبيعة هذا الاجتماع، فقد اعتبره وليم الصوري-الذى افـــرض لهـــذا المجلس فصلاً كاملاً من حوليته-"اجتماعاً شاملاً ومجلســـاً عامـــاً"-Co n ventum publicam et cu riam generalem [٣]. أما فى عنوان هذا الفصل، فقـــد جعلـــه وليم "مجلساً كنسياً" synodus [٤]. كما اعتبره كذلك الكاتب البندقى جربـــانوس Cerbanus، حيث أشار في رسالة له إلى أسقف كاستللر بونفاس فالييه Bonifazio Falier، ألي مجلس كنسى Synodo Celebrata عقده بطريرك بيت المقدس وملـــك بيت المقدس [٥]. وكان عنوان الوثيقة الرسمية التي تضمنت قرارات المجلس، هو "مجلـــس نابلس" Concilum Neapolitanum الذي دعـــا ألي انعقاده كـــل مـــن الملـــك والبطريرك[٦]. واعتبره المؤرخ هانز ماير "برلماناً "p arlement لمشاركة العلمـــانيين من ســـادة الممـــلكة الصليبية فيه[٧]. ولما كان المجلس الكنسي يعقـــد دائمـــا برئاسة البطريرك، وفى مقره الكنسي في بيت المقدس ولا يشارك فيه العلمانيون، ولمـــا كـــان بطـــارقة بيت المقدس يشاركون دائما في مجالس المملكة التي تنـــاقش أمـــوراً تخـــص المملكة بصفة عامة، فإنه مـــن الممكن اعتبار هذا الاجتماع مجلساً صليبيا عاديا مثـــل

كل المجالس الصليبية التي كان الملك يدعو لاجتماعها، ونقطة الاختلاف الوحيدة بين مجلس نابلس وهذه المجالس الأخرى هو أن الذي دعا إلية الملك والبطريرك معاً. وسنعرف بعد ذلك أن هذه الدعوة المشتركة ترتبط ارتباطا وثيقا بالهدف الحقيقي لانعقاد هذا المجلس.

وفى الحقيقة، فأن السباب التي دعت إلى انعقاد هذه المجلس كانت عديدة، والتعرض لها سيلقى الضوء على أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية بخاصة، وأحوال الصليبيين في بلاد الشام بعامة. وقد ذكر وليم الصوري سببين لانعقاد هذا المجلس، وهما المحن الطبيعية التي أحاطت بالصليبيين لهجمات أسراب من الجراد والفئران لمدة أربع سنوات متتالية "أهلكت فيها المحاصيل بالكامل، حتى بدا وكأن العالم بأسره سيفتقر إلى الخبز... هذا بالإضافة ألي الهجمات التي شنها العدو كل يوم كل يوم تقريبا"[٨]. وكغيره من الفرنج، فقد أرجع وليم الصوري كل ما تمر به المملكة من محن ومشاكل إلى آثار الصليبيين، الذين وقع عليهم غضب الرب. وبذلك يكون الهدف من وراء عقد هذا المجلس-بالنسبة لوليم الصوري-هو إجراء الإصلاح المناسب لأعمال الفرنج الشريرة، ورفع مستوى الأخلاق بينهم، والمحافظة على النظام[٩]. إلا أن ما أورده رئيس أساقفة صور من أسباب وأهداف لم تكن هي كل الحقيقة. خاصة وأن ما لم يورده-ومن المؤكد أنه يعلمه-أو ربما ما لم يرغب في تسجيله، من أسباب وأهداف؛ قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً، أكثر مما أورده، بطبيعة القرارات التي اتخذها مجلي نابلس. لذلك يجدر بنا أن نلقى الضوء على أحوال المملكة الصليبية والفرنج معاً لنحدد السباب والأهداف الحقيقية من وراء انعقاد مجلس نابلس.

فقد اعتلى بولدوين الثاني عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، وبدأ يمارس سلطاته الملكية في ١٤ أبريل ١١١٨م، أي قبل انعقاد مجلس نابلس بحوالي عامين[١٠]. وبمجرد أن بدأ عهد الملك بولدوين، بدأت المشاكل تحيط به، وتزيد من أعبائه كحاكم للملكة الصليبية، كما أضافت إلينا أعباء جديدة، وهى حماية وتدبير أمور الإمارات الصليبية فى شمال الشام، وبالتحديد في إمارة إنطاكية الصليبية. فقد كانت الأحوال الاقتصادية لمملكة بيت المقدس الصليبية في تدن واضح، نظراً لما تعرضت له البلاد طيلة أربع سنوات من القحط الذي سببته هجمات الجراد والفئران التي أشار إليها بالتفصيل وبانزعاج شديد القس الخاص بالملك

بولدوين، المؤرخ فولشر الشارترى[١١]. هذا ألي جانب ما سببته الزلازل التي ضربت أملاك الصليبيين في نواحي إنطاكية، وطرابلس، والمملكة الصليبية نفسها، من خسائر، في أعوام ١١١٤م و ١١١٥م و ١١١٧م، وخاصة في العام الخير الذي اجتمعت على الفرنج خلاله أهوال الزلازل وهجمات الجراد والفئران [١٢]. وبدأ النشاط الزراعي في المملكة في التدهور على عكس ما كان في السابق، من وفرة المحاصيل الزراعية والفاكهة، وانتعاش للحياة الزراعية فيها، الأمر الذي اندهش له كل من الرحالة الروسي دانيال الراهب في عام ١١٠٦-١١٠٧م، والمؤرخ إيكهارد في علم ١١١٥م[١٣].

هذا الى جانب ما تعرض له الصليبيون بصفة عامة من ضغط إسلامي عرضهم لحظر بالغ. ففي الجنوب، علم بولدوين بأنباء قيام تحالف وشيك بين دمشق والقاهرة، ولما كان الصليبيون قد اعتمدوا منذ بداية دخولهم ألي ديار الإسلام، على انشقاق الصف الإسلامي الذي مكنهم من إقامة ركائزهم في المنطقة بسهولة [١٤]، فأن تركيز للجهد الإسلامي كان يشكل خطراً كبيراً عليهم. وهذا ما دفع جوسلين كورتيناى أمير الجليل السابق الى البقاء في فلسطين لمعاونة الملك بولدوين الثانى دون التوجه الى إمارته الجديدة الرها، التى تقرر أن يحل فيها محل الملك بولدوين أميرها السابق[١٥]، واضطرا معا إلى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذي طالبهم برد كل ما يقع وراء نهر الأردن من الأراضي، بعد أن وثق من نيل المساعدة من مصر[١٦]. وحشد بولدوين القوات من المملكة ومن إنطاكية وطرابلس، بالإضافة إلى قوات جوسلين، واستعد بالقرب من أسدود لمواجهة قوات دمشق، فى الوقت الذي احتشد جيش مصري على الحدود الجنوبية للمملكة الصليبية[١٧]. وإذا كان الأمر قد انتهى دون قتال بين الطرفين، بعد ثلاثة أشهر من المواجهة السلبية، فقد قام بولدوين وجوسلين معاً، بعد فترة قصيرة، بالتصدى لقوات دمشق، وأغارا على إقليم حوران، وأوقعا الهزيمة ببورى إبن طغتكين [١٨]. وكان على بولدوين أن يسارع بعد ذلك إلى إقليم شرق الأردن لنجدة جوسلين الذي حوصر في كمين أعده له البدو بالقرب من نهر اليوموك[١٩]. ولم يسترح بولدوين في إقليم طبرية بعد نجدته لجوسلين إلا وجاءته الرسل من إنطاكية يطلبون منه الإسراع لنجدتها من براثن غيلغازى الأرتقى وحلفائه [٢٠]. وكان على الملك الصليبي أن ينهض بمهام كثيرة، فقد انهزم روجر الأنطاكى أمير إنطاكية، وقتل مع كل فرسانه، وأبيد جيشه في موقعة ساحة الدم Ager Sanguinis في ٢٨ يونيو ١١١٩م / ١٦ ربيع الأول ٥١٣ هـ بعد أن تخلى عن حذره و لم ينتظر قدوم بولدوين لمساعدته ضد خطر الاراتقة، وينظم أمورها، ثم يدخل في معركة ضد

إيلغازي وحليفة طغتكين أتابك دمشق عند قرية هـــاب في ١٤ أغسـطس ١١١٩م، واضطر الى البقاء في شمال الشام حتى ديسمبر ١١١٩م [٢٢٤].

وإذا كانت كارثة إنطاكية ق وحدت بين إمارات الفرنج، وأملت عليـهم أن يركزو جهودهم ويوحدوا صفوفهم أمام خطر المسلمين؛ فأنها قد ألقت على كـاهل ملك بيت المقدس عبء الدفاع عن كل الركائز الصليبية في بـلاد الشـام، وأعـالي الفرات. هذا الى جانب عبء إصلاح أحوال مملكته والدفاع عنها. ضد نفس الخطـر أيضاً [٢٣].

وكان على بولدوين أن يستعد لمواجهة خطـر المسـلمي بعـدة إجـراءات ضرورية. فبعد أن منح طائفتي الفرسان الرهبان الناشئتين من الإستبارية والداوية كثـيرا من الامتيازات، ليمدا الكيان الصليبي بجيش منظم وثابت يتألف من مقاتلين مدربـين لتعويض النقص الدائم في الموارد البشرية التي يحتاجها [٢٤]، بعد ذلـك، كـان علـى بولدوين أن يعالج مشكلة أخرى لا تقل خطرا على الفرنـج مـن خطـر المسـلمين والكوارث الطبيعية، التدين الأخلاقي لفرنج المملكة الصليبية. فبالرغم مـن أن حيـاة الفرنج في الشرق كانت محفوفة بالخطر الإسلامي في كل وقت؛ إلا أن الخوف والقلـق في حياقم لم ينفصلا كثيرا عن حياة المرح والبذخ والخيانة، كما أن القلـق شـجعهم على الانغماس في اللهم والمباذل [٢٥]. وقد لاحظ المؤرخ اللاتيـني المعـاصر فولشـر الشارتري مدى حرص الفرنج على الحياة اكثر من الموت في سبيل الدفاع عن الكيـان الصليبي. وكان هذا من العوامل التي دفعت بولدوين إلى عدم مبادئه طغتكين بالقتـال عند أسدود، لينتهي الأمر بانسحاب كل من الطرفين دون مواجهة الآخر [٢٦]. وربمـا لاحظ بولدوين تراخي قواته في القتال، الأمر الذي لاحظه أيضاً المسلمون وجزع منـه المؤرخ فولشر الذي أيقن الروح العسكرية لدى الفرنج وعـدم التزامـهم سـيمكن المسلمين من قهرهم حين أورد لنا على لسان أحد المقاتلين المسلمين فحوى كل ذلـك حين وجه المسلم كلامه إلى جندي صليبي كان في مواجهته في موقعة هاب قائلا لـه "أقول لك أيها الفرنجي، أأحمق أنت فتجهد نفسك عبثا؟ فليس لكم بالفوز علينا قـط، إذ أنكم قله ونحن كثرة. والحق أن إلهكم قد تخلى عنكم لعلمـه بـأنكم لا تقيمـون شرائعه كما حق عليكم، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكـم ولاريـب أننـا سنقهركم في الغد ونهزمكم". ويرى فولشر بأن علاج ذلـك لا يتـأتى إلا إذا أقـوم الفرنج أخطاءهم [٢٧]. ونفذ بولدوين ذلك . فلكي يضمن إخلاص أتباعه من نبـلاء الفرنج وجنودهم، والتزامهم بالعلاقة الإقطاعية بينهم وبينه كملك لهم، بما يكون قـد اصدر أول مجموعة قوانينه tablissement التي تسمح له بمصادرة إقطاع تابعة إذا ما

ارتكب أى من المخالفات التي وردت في مجموعة القوانين هذه دون محاكمــة[٢٨].وإذا كان هذا التشريع يضمن للملك ولاء أتباعه من الفرنج والتزامهم بتلبية داعي الحــرب بصفة خاصة، فــان أهــم إجراءات بــولدوين قـــد جــاء في صــورة غالبيــة القــرارات التي أصــدرها مجــلس نابلــس، والــتي تعــالج الــتدني الأخلاقي لفرنج المملكة بصفة عامة، وليس النبلاء منهم فقط.

وقد بدأت فعاليات اجتماع الفرنج في مجلس نابلس بعظـــة دينيــة ألقاهــا البطريرك جيرموند لإعلان الجميع الندم والتوبة عن ارتكاب المعاصي والذنوب، وطـب الصفح من الرب الذي صب عليهم جام غضبه[٢٩]. وكان الجو العام الذي طغى علــى اجتماع مجلس نابلس قد اتسم بمسحة من الندم. ويتضح ذلك من الثلاثـــة قــرارات الأولى من مجموع الخمسة وعشرين قرارا التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلـــس. وحقيقة الأمر أن هذه القرارات الثلاثة الأولى لم تكن لمجرد التكفير عن الخطايا بل إنهــا تشارك بقية القرارات من حيث إلقاء الضوء على أحوال المملكة الصليبية فى بداية عهد بولدوين الثاني، وتنفرد عن بقية القرارات في أنها تحدد طبيعة العلاقات بـــين الدولــة والكنيسة، وبتعبير أدق بين الملك بولدوين الثاني وبطريرك كنيســـة بيــت المقــدس، وتوضح بجلاء الظروف التي دفعت الملك الصليبي الى إصدار هذه القرارات الثلاثة.

ففي القرار الأول "يرد" بولدوين إلى البطريرك عشر دخل الملك من كل مــدن بيت المقدس، و نابلس، وعكا، حيث لم يكن قد تم تنصيـــب أســاقفة في المدينتــين الأخيرتين. وإذا تم انشاء أسقفيات في هاتين المدينتين، فعلى البطريرك أن يقـــرر لهــا العشور الكنسية المقررة على دخل كل منهم، والتى تقرر ردها الى الكنيسة، حســـب احتياجات البرشيات الواقعة في إقطاعاتهم[٣١]. وفى القرار الثــالث، قــرر البطريــرك جيرموند أن يتسلم هذه العشور المستحقة له ولأساقفته، الحاضرين أو الغـــائبين عــن الاجتماع، حسب احتياجات أبرشية كل منهم[٣٢]. وبالرجوع الى تفاصيـــل هـــذه القرارات الثلاثة، نجد أن الملك–في القرار الأول–"يرد" العشـــور الى الكنيسة ونجـــده في القرار الثاني–يعترف وباروناته بأنهم يسعون الى التفكير عـــن خطيئـــة الغطرســة superbia التى ارتكبوهـــا فى حق رجال الدين عندما حبسوا تلك العشـــور عـــن الكنيسة. ولذلك فالملــك واتبــاعه يطلبــون الصفــح. وفى القــرار الثالث نجـــد البطريرك وقـــد غفـــر لهم ذلك التصـــرف، وأحلهـــم مـــن الالتزام بتأدية هـــذه العـــشور عن الفتـــرة الســابقة لانعقـــاد مـــجلس نـــابلس.

وفى الحقيقـــة لم يكن النـــدم أعـــلنه الملك بولـــــدوين أو الاعتـــراف بالذنب في حـــق الكنيسة ورجـــال الـــدين لمجـــرد دافـــع من التقـــوى والـــورع،

أو التـــوبة والتكفـــير عن الذنـــوب، وإنـــما بدافـــع مختلف تمـــام، وهـــو التنـــازل عـــن سلطـــات لطالـــما مارسها سابقـــوه ولاحقـــوه من ملـــوك بيت المقـــدس فـــي أمـــور تـــخص الكنيسة. فمـــن المعروف أن المنك بولـــدوين الأول كانت لـــه السيطـــرة علـــى الدخـــل الكنســـي، و لم يتنازل عن ذلك أبدا[٣٣]. وبمقارنه فحوى القرارات الثلاثة الأولى فيما يخص العشور التي ردها الملك إلى الكنيسة بما كان يحـــدث قبل انعقاد مؤتمر نابلس يمكن التثبت من محاولة بولدوين الثاني شراء رضى الكنيســـة في شخص البطريرك. فلم يكن هناك فرق بين الشعور التي ردها الملك، في القـــرار الأول، وبين تلك التى تقرر أن يردها باروناته، إلى الأبرشيات التي تقع في نطاق إقطاعـــاقم-في القرار الثاني-،لأن القرار الثالث يوضح أن البطـــــريرك والأســـــاقفة هـــم الذيـــن يتسلمون العشور لأنفسهم على أن تصرف حسب احتياجات أبرشياقم. ولما لم يكـــن هناك-حتى عام ١١٢٠م-نظام محدد للأبرشيات التي تقع في المناطق الريفية، حيـــــث ندر التنظيم الكنسي اللاتيني في الريف بسبب عادة استيطان اللاتين الذين تركـــزوا في المدن، حـــتى أن السيـــد الإقطـــاعي اللاتيني لم يكن يقطن الريف، وإذا ما اســـتقر الفرنجة في الريف، فأهم كانوا يعيشون في قرى مغلقة لا يخالطون فيها نصارى الشـــام ولا مسلمة . وبذلك لم تتوفر الحاجة الى كنيسة الا في مواضع قليلة من الريـــــف[٣٤]. وكانت الأسقفية تطابق الأبرشية؛ لذلك فأن العشر كان يخص الأســـقف، علـــى أن يضمن دخلا لكل أبرشيه تنشأ في أي مكان يتبع الأسقفية.

ولكن اختلف الأمر بين العشور التى ردها الملك والعشور التى ردها البارونات من حيث النطاق الحدودي الذى يتصرف فيه البطريرك في أموال العشور التي يدفعهـــا الملك، والنطاق الذي يتصرف فيه السقف في تلك الأموال. فبناء على ما جاء في القرار الأول فإن الملك قد رد العشور عن دخله من مدن بيت المقدس و نـــابلس وعكـــا الى البطريرك حسب ما تقتضيه احتياجات اسقفيته sicut ratio diocesis exigit[٣٥]. ومعنى ذلك أن البطريرك لم يكن ليستطع أن ينفق هذا الدخل ارج نطاق المنطقة الـــتى تقع تحت نفوذه فعليا أى مقر كرسيه الكنسي. ولما كانت مدن بيت المقدس و نـــابلس وعكا هي مراكز الدومين الملكي، ولما كان الدومين الملكي يتطابق في حـــدوده مـــع أسقفيه البطريرك فإن البطريرك ليس له الحق في التصرف في أموال العشـــور خـــارج نطاق هذه الحدود. وهى الحدود التابعة لكنيسة بيت المقدس فقط. ولكن القرار نـــص على أنه أذا نصب أساقفة في نابلس أو عكا فكان البطريـــرك-كمـــا نـــص القـــرار بوضوح-مجبرا على أن يدع الأساقفة الجدد يحصلون على ذلك الجـــزء مـــن العشـــر المفروض على دخل الملك عن نابلس وعكا. أى أن البطريرك حق التصرف في مـــال

العشور خارج نطاق كنيسته في بيت المقدس. أما البارونات، فإذا كانوا قد تنازلوا عن حق التحكم في العشور الكنيسة، فأنهم قد حافظوا على واحدة من مصالحهم الرئيسية. فحدود الأسقفيات لم تكن في الغالب تتطابق مع حدود إقطاعات البارونات. كما أن أملاكهم انتشرت خارج مقار بارونياتهم لذلك رد البارونات أموال العشور إلى رجال الدين ليتصرفوا فيها حسب احتياجات أبرشية كل منهم Prout parochiarum suarum ratio exigit[٣٦]. أي أن رجل الدين لا يستطيع أن يصرف هذه الأموال خارج نطاق مقر أبرشيته حتى ولو كان سينفقها في موقع يتبع أبرشيته كنسيا، لكنه لا يدخل في نطاق المدينة التي تقع فيها أبرشيته. وبذلك يكون الملك قد تغاضى عن حق لم يتغاض عنه باروناته. وكذلك أقر مجلس نابلس مبدءا جديدا لم يكن معمولا به من قبل، ويدل على حجم التنازلات التي وافق عليها بولدوين الثاني إرضاءا للبطريرك. ففي القرار الثاني للمجلس جاء أن ملاك الأراضي من البارونات-وليس مستأجريها أو المنتفعين بها أو الذين يعملون فيها كأتباع للبارون-هم الذين يؤدون ضريبة العشر للكنيسة. ولكن الكنيسة بفرض العشر على السادة من الفرنج، تكون قد وصلت الى جمع المسيحيين من غير اللاتين والمسلمين، بجم عشر ما يدفعونه لصاحب الإقطاع من اللاتين. وكان فرض العشر على اللاتين فقط من شأنه أن يمنح الكنيسة حصيلة أقل. لأن غالبية سكان الريف كانوا من المسيحيين الشرقيين والمسلمين. وبعد أن كانت الكنيسة-قبل عهد بولدوين الثاني-تجبى العشر من فلاحى الأرض التي تملكها فقط، أصبحت تجبيه بطريق غير مباشر من أقرانهم الخاضعين للسادة من اللاتين[٣٧].

وإذا قارنا بذلك ما كان يحدث في عهد بولدوين الأول ندرك حجم التنازل الذي اقر به بولدوين الثاني للكنيسة في حقوق لم تنازل عنها سلفه أبدا. ففي الحقيقة لم يكن ملك بيت المقدس ليتدخل في تصرفات البطريرك في أية أمور كنسية، إلا إذا تعلق الأمر فقط بالدخل الكنسي، فهنا كان يتوجب على البطريرك أن يحصل على موافقة الملك حين التصرف فى هذا الدخل. فعندما اراد البطريرك إبريمار Ebremar (١١٠٢-١١٠٨م) أن يحدد رواتب لكهنة القبر المقدس في عام ١١٠٢م، فقد حصل أولا على موافقة الملك بولدوين الأول، بل انه وثق المرسوم الذى أصدره بشأن ذلك بخاتم الملك[٣٨]. وعندما أراد البطريرك أرنولف (١١١٢-١١١٨م) أن

يخص في عام ١١١٢م جزءا من العشور التي يؤديها له بعض ملاك الأرض من اللاتين لإعادة بناء كنيسة جوسفات Josphat التى تقع خارج نطاق مدينة بيت المقدس من جهة الشرق ، وعندما منح نفس البطريرك فى عام ١١١٤م عشور بيت المقدس الى كهنة القبر المقدس، في الحالتين، كان ذلك بمشاورة الملك consilio regis، وبعد أن قدم الى الملك التماسا بذلك، وأمره الملك بتنفيذ ذلك. وحتى عهد بولدوين لم يكن من حق رجل الدين أن يتصرف في أموال العشر إلا في حدود إقليم كنيسته فقط، فقد فرض أسقف بيت لحم ضريبة العشر على كونت عسقلان في عام ١١٦٠م في عهد الملك بولدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) ولكن لم يسمح للأسقف أن ينفق عائد هذه الضريبة في مدينة الخليل التي كانت أيضا تتبع أسقفية بيت لحم لكنها تقع خارج حدود كونتية عسقلان (٤٠).

ومن المعروف أن الكنيسة في البداية قد واجهت متاعب كثيرة لتحمل البارونات اللاتين على الاعتراف بمبدأ العشر الكنسي (٤١). فقد قام تنكريد أمير الجليل (١٠٩٩-١١٠١م) باستغلال كل أملاك دير جبل طابور (٤٢) لأغراض خاصة. ولم يرد تنكريد هذه الأملاك للدير إلا برحيله إلى إنطاكية في عام ١١٠١م (٤٣). وتم الاتفاق على أن يتسلم الدير إحدى عشرة قرة في إقليم الجليل، وأربعة أخرى تقع شرقي نهر الأردن ولم يكن-بالطبع-من السهل أن يترك تنكريد هذه القرى للكنيسة إلا لأن قرى الجليل كانت خربة تماما، بينما كانت قرى شرقي الأردن لا تزال بأيدى المسلمين. واحتفظ تنكريد بأربعة قرى أخرى لم يسلمها للدير، وبقيت في ايدى فرسانه، لندرة الاراضى ولحاجة فرسانه إليها. ولم يحصل الدير من هذه القرى الأربعة إلا على العشر من دخلها فقط، وكان ذلك قد تم بموافقة الملك بولدوين الأول الذى لم يؤكد هذه الاتفاقية إلا فى عام ١١٠٦م (٤٤).

وهكذا، إذا كان الملك بولدوين الأول وغيره من ملوك بيت المقدس قد فرضوا سيطرتهم على دخل الكنيسة، وكذلك فعل أتباعهم من السادة اللاتين، فلم إذن تنازل الملك بولدوين الثاني عن ذلك؟. والإجابة على هذا التساؤل تقتضي تفحص الظروف التي أحاطت باعتلاء بولدوين الثاني عرش المملكة الصليبية.

فقد مات الملك بولدوين الأول دون أن يحدد من يخلفه فى حكم المملكة وانعقد مجلس المملكة، وتقرر أن يبعث الفرنج الى يوستاش الثالث Eustace كونت بولوينا، وهو الأخ الثالث لكل من جودفرى وبولدوين الأول، ليحضر الى الشرق ويتولى أمر المملكة الصليبية. إلا أن يوستاش قد علم وهو في ابوليا بإيطاليا، باعتلاء بولدوين دى بورج عرش المملكة، فعاد

يوستاش الى بولونيا، و لم يشـأ أن يواصل رحلتـه الى بــلاد الشـــام ليقــاتل في سبيــل إرث بعيد. وفى الحقيقة، فقد تم اختيار الملك بولدوين الثـاني ملكــا بعــد مناورة قام بها جولسين كورتيناى أمير الجليل، أقوى أعضــاء المجلـــس نفـــوذا، وأيده في ذلك البطــريرك أرنولف، واستــطاع الاثنان إقنــاع الــمجلس باختيــار بــولدوين الــذي حضــر جنازة الملك الميــت في يــوم الأحــد ٧ أبريل من عــام ١١١٨م[٤٥]. وفى يوم الأحد التالي ٧ أبريل ١١١٨م، قام البطريرك أرنولف بإعلانـــه ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية[٤٦]. وإن كان البطريرك جيرموند قد توجه رسميا في ٢٥ ديسمبر من عام ١١١٩م[٤٧].

وبالنسبة لوليم الصوري، الذى روى تفاصيل غالبية هذه الاحـــداث، فـــأن الطريقة التي اعتلى بها بولدوين العرش تعتبر غير شرعية، ويرى أن جولسين قد ابرم مــع بولدوين صفقة ناجحة، فقد أيده في الحصول على تاج المملكة، في نظير أن يترك لـــه بولدوين كونتية الرها[٤٨]. وإذا كان جولسين قد حصل على المقابل، فلماذا لا يكــون البطريرك أرنولف قد سعى ألي المقابل يخصه هو، أى أن يمنح بولدوين الكنيسة مطلــق الحرية في التصرف في دخلها، أو على الاقل في الجزء الاكبر منه، وهو أموال العشـــور الكنيسة، وبذلك تنتهي سيطرة ملوك بيت المقدس على هذه الأموال. وقـــد واتــت الفرصة البطريرك، وكان علية أن يستغلها. ففي عهد بولدوين الأول كــان ارنولــف اضعف الاثنين. و لم يشأ أن يختلف مع الملك الذي طالما تدخل في كل ما يخص دخــل الكنيسة، والذي كثيرا ما اخضع لسطوته كل بطارقة بيت المقدس الســابقين. وقــد واجهت أرنولف في عهد بولدوين متاعب كثيرة استمرت حتى عــام ١١١٦م حــتى يثبت نفسه في كرسي البطريركية [٤٩]. وكانت هناك أسباب كثيرة للــهجوم عليــة. وكانت أهم الاتهامات التي وجهت إليه هي الوقيعة التي حاكها بين بولدويـــن الأول والبطريرك دايمبرت البيزى، كما تصرف أملاك الكنيسة على هواه، فقد زوج إبنة أخته إما Emma من يوستاش جارنييه Garnier Eustace ومنح الأخير مدينة أريحا مهرا، على الرغم من أن المدينة كانت من أملاك كنيسة بيت المقدس؛ إلي جانب دخل المدينة الذي قدره وليم الصوري بخمسة آلاف قطعة ذهبية. كما أتهم أرنولف بإقناع الملــك بولدوين الأول بالزواج من امرأة أخرى بينما كانت زوجته على قيد الحياة. كما كـان سجله الوظيفي في بطريركية بيت المقدس غير مشرف، فقــد عين بطــــريركا لأول مــرة في عام ١٠٩٩م وعــزل من منصبة بعــد عــدة أشهــر، ثم عـــين مـــرة أخــرى في عام ١١١٢م، وتم عــزله في عام ١١١٥م، ولكنــه عــاد ألي منصبـــه بتوصيـــة من البابويـــة، وبقـــى بطريركا حـــتى مــات في عام ١١١٨م. وكـــان

توليه المنصب غما بمؤامرة يحيكها ضد البطريرك المعين، أو بتملقة للبابوية. هذا الى جانب سلوكه الشائن مع النساء[٥٠]. ولما كان تحكم السلطة العلمانية في العشور الكنيسة أمرا بغيضا بالنسبة لأرنولف، وهو الذي يريد أن يطمس سجله الحافل بالنقائص، الذي يضعف من موقفة أمام ملك بيت المقدس، فقد أراد يظهر بمظهر مصلح كنيسة قوية، بان ينهى تحكم الملوك في أموال الكنيسة، وقد واتته الفرصة في عهد بولدوين الثاني الذي رأى، وموقف أرنولف أقوى من موقفة، أن تحكم الملكية في دخل الكنيسة أمر لا يتفق والظروف الراهنة. من هنا، ومن موقف كل من الرجلين، الملك بزلدوين الثانى، والبطريرك ارنولف، كان الجو مهيئا لعقد صفقة مفيدة لكيهما، وتم عقدها بالفعل. وقد مات أرنولف في ٢٨ أبريل ١١١٨م[٥١] أي بعد أسبوعين من اعتلاء بولدوين الثانى عرش المملكة، واعتلى البطريرك جيرموند كرسي البطريركية، وربما تمت مناقشة أتمام الصفقة وتنفيذها معه. إلا أن الملك أضطر للذهاب الى شمال الشام لنجدة إمارة إنطاكية بعد موقعة ساحة الدم، وعاد الى بيت المقدس في ديسمبر ١١١٩م، حيث تم تتويجه رسميا كملك على يد البطريرك جيرموند وذلك في ٢٥ ديسمبر ١١١٩م. وفى الشهر التالى وبالتحديد في ٢٣ يناير ١١٢٠م قام الملك بدفع المقابل الخاص به فى هذه الصفقة عندما دعا بمشاركة البطريرك الاجتماع بمجلس نابلس. وبعد أن ألقى البطريرك بعظته، رد الملك بخشوع تام، وفى إعلان صريح عن توبته، العشور للكنيسة معترفا بخطيئة التحكم في هذه العشور. لذلك كله لم يكن تدين بولدوين الثاني، ولا كثرة صلواته التي أدت إلي تصلب ركبتيه–كما يصفه وليم الصوري–هما اللذان دفعاه الى التنازل عن سلطات مارسها بولدوين الأول، وإنما للحصول على رضى الكنيسة والتصالح معها في وقت كان نفس الأمر على وشك أن يتم بين البابوية والإمبراطورية، الأمر ما الذي أبهج المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى[٥٢].

وإذا انتقلنا إلى بقية القرارات التي تضمنها مرسوم مجلس نابلس نجد الها في مجملها تعالج التدنى الأخلاقي الذي تفشى بين الصليبيين في المملكة، الأمر الذي لا يتناسب وحجم المخاطر التي تحيط بها وبسائر الإمارات الصليبية في بلاد الشام. وكانت هذه القرارات لإصلاح أحوال المملكة التى كان عليها أن تنهض بمهمة حماية الكيان الصليبي ككل إلى جانب مهمة التوسع على حساب المسلمين في بلاد الشام. ولينجح الصليبيون في كل ذلك كان لابد من الارتقاء بالمستوى الأخلاقي–وبشكل ثابت–للفرنج. و لم يكن هذا يتأبى إلا بإصدار قانون يتخذ صفة رسمية ليلتزم به الجميع. وليس كما كان يحدث من قبل من مجرد دعوة يوجهها رجال الدين والقادة الى

أتباعهم من الفرنج بالتحلي بالأخلاق السوية فيما بينهم ليؤيدهم الرب فى قضيتـــهم، وسرعان ما ينسون فحواها بعد انتهاء كل أزمة تحيط بهم.

فمن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى-منذ البداية-وعلى الأقـــل بالنسـبة لمفهوم من شاركوا فيها- أنها رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، وعمل تكفيري تغفر في مقابلة كل الذنوب(٥٣)، وأن الحرب ضد المسلمين هـــي حـــرب مقدســة(٥٤). واعتقــد الصليبيون أن مجــرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم كـــل شئ. فانغمسوا في كثير من الانحرافات(٥٥).وكان الجزء الأساسي من هذه الانحرافـات، التي جبلوا عليها، يتضمن الخطايا الجنسية كارتكاب فاحشة الزنا أو اللواط، الى جانب السرقة (٥٦). واعتاد المؤرخون اللاتين ورجال الدين المشاركون في الحملة على إرجـاع كل كارثة حربية أو طبيعية تحيط بهم إلى غلو الفرنج في ارتكاب المعـــاصي. فـيرجع فولشر الشارترى سبب وقوع الفرنج في كمين السلاجقة عند دوريليوم الى خلاعـــة الفرنج(٥٧). وعند وصول الفرنج الى إنطاكية عربدوا في شهوة عارمة، ونســوا معــنى العفة وارتكبوا خطيئة الزنا، وانتشرت الدعارة بينهم(٥٨). فيخبرنا جيبرنا دى نوجنــت بقصة الراهب الذى ضبط يضاجع راهبة في المعسكر الصليبي(٥٩). كما يخبرنا ألـــبرت دكس بقصة رئيس الشمامسة الذى وقع في أيدي السلاجقة خارج إنطاكيـــة وهـــو يمارس الزنا مع عشيقته الفرنجية (٦٠). ولما غضب الرب على الفرنج، اشـــتدت بهـــم المجاعة، ولما اصلحوا من سلوكهم كافأهم الرب بالاستيلاء على إنطاكية. ولما دخلـــوا المدينة نسوا الرب وعادوا إلى فواحشهم، فحاصرهم كربوغا (٦١). وبعودتهـــم مـــرة أخرى إلى السلوك القويم كافأهم الرب مرة أخرى بالأنتصـــار علـــى كربوغـــا(٦٢). واستمر هذا التناقض الأخلاقي بين الفرنج حتى استقرارهم في الشـــرق، وأصبـــح في مفهومهم أنهم يحرزون النصر في المعارك ضد المسلمين في الحياة الدنيـــا، ويضمنـــون الخلاص في الآخرة طالما تجنبوا الزلات الجنسية(٦٣) .

من هنا تضمن مرسوم مجلس نابلس بعض القرارات التي تحد مـــن انغمـــاس الفرنج في الرذيلة واعتداء بعضهم على شرف بعض. فالقرار الرابع يقضـــي بأنـــه إذا تخوف شخص من سوء سلوك زوجته فعليه أن يواجهه الشخص المشكوك في أنه علـــى علاقة بها، ويحرم دخول مترله والحديث مع زوجته، وأن يكون ذلك بحضور شـــهود. وإذا ما اكتشف الزوج أو أحد أصدقائه أن الزوجة وعشيقها يلتقيان في مترل الزوج أو في مترل أخر، يساق الرجل الى الكنيسة التى تقوم بالتفريق بين الطرفين. فاذا ما طـــهر الرجل الآثم نفسه بالحديد المحمى يطلق سراحة بلا جناح عليه. وإذا ما عـــزز الـــزوج

موقفة واكتشف-رغم ذلك-أمرا مشينا في الحديث مع زوجته، يكون له الحق في الانفصال عنها مقابل انتهاكا للمحاذير(٦٤).

ويقضي القرار الخامس بأنه إذا ضاجع فرنجي زوجة فرنجي آخر، واعترف بذلك، فانه ينفى خارج البلاد بأمر قضائي، وتقتل الزانية، إلا إذا صفح عنها زوجها، فيكون لزاما عليهما (الزوج والزوجة) مغادرة البلاد إلى غرب أوروبا (٦٥). ونلاحظ أن مسألة صفح الزوج عن زوجته أو حتى التغاضي عن المر كله كانت أمرا معتادا يحدث بين الفرنج حتى بعد صدور قرارات مجلس نابلس. فقد فسرنا أسامة ابن منقذ، أكثر المؤرخين المسلمين اقترابا من طبائع الفرنج، هذه الظاهرة حين يرجع سبب تكرار حدوثها إلى افتقار الفرنج إلى الغيرة علي العرض، المر الذي جبلوا عليه، ويعطينا مثلا لذلك براويته عن الفرنجى الذي عاد إلى مترله ليجد زوجته في فراشة مع فرنجي آخر يمارسان الفاحشة، فلم يتعد رد فعل الزوج من هذا كله سوى ا،ه استفسر من الرجل عن سبب دخوله إلى مترله حتى وصوله إلى فراشة، ولامه على مضاجعة الأخير لزوجته، وأنذره بأنه لو كرر ذلك الأمر فسيخاصمه "فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته"(٦٦).

أما القرار السادس فيقضي بأنه إذا راودت الشكوك فرنجيا حول ارتكاب رجل دين من الفرنج الفاحشة مع زوجته، فعلى الزوج أن يمنع رجل الدين من التردد على مترله أو الحديث مع زوجته. وإذا ما اكتشف الزوج أنهما لا يزالان يلتقيان، وضبطهما بعد ذلك يرتكبان الفاحشة أو متحاورين، فليعرض الآمر في الناهية على عدالة الكنيسة، وإذا لم تنصفه، يعرض الأمر لاحقا على محكمة علمانية (٦٧). ونلاحظ هنا أيضا أن رجال الدين اللاتين لم يكونوا بمنأى عن ارتكاب المعاصي. فإلى جانب الدين حكى لنا عنهم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، فان من التهم التي التصقت بكل من البطريرك أرنولف والبطريرك هرقل (١١٨٠-١١٩١م) كانت علاقتهما غير شرعية بالنساء (٦٨).

ومن القرار السابع نعرف أن المجتمع الفرنجى لم يخل من القوادين من الرجال والنساء الذين يسهلون أمر قيام علاقات غير شرعية بين الرجال والنساء من اللاتين. وكانوا يديرون بيوت الدعارة التي انتشرت في المدن الصليبية وخاصة في مدينة عكا(٦٩). فيقضى القرار السابع بأن يخضع للمحاكمة كل قواد (أو قوادة) يقوم بإغواء زوجة أحد الأشخاص وجعلها تمارس خطيئة الزنا. وتحاكم كذلك الزانية(٧٠). وبالطبع تكون العقوبة هي نفس العقوبة التي أقرها القرار الخامس(٧١).

والى جانب ارتكاب الفاحشة مع زوجات الآخرين، والاعتداء على حرمة بيت رجل آخر، واجه مجلس نابلس مشكلة الشذوذ الجنسي بين الصليبيين. فقد جاء الصليبيون الى الشرق وقد جبلوا على ارتكاب خطيئة اللواط. فيخبرنا جيبرت دى نوجنت بأن بعض صليبي الحملة الأولى فضل ممارسة اللواط مع الصبية البيزنطيين الذين وجدوهم فى المواخير البيزنطية، على ممارسة الزنا مع النساء البيزنطيات(٧٢). و لم يتخل الفرنج عن هذه العادة بعد استقرارهم في بلاد الشام. فنجد القرارات من الثامن إلى الحادي عشر تعالج هذه المشكلة. فقد قضى القرار الثامن أنه إذا ما اعترف فرنجى بالغ بأنه مارس رذيلة اللواط بكامل إرادته يحرق مع نفذ فيه فعل اللواط(٧٣). ونلاحظ هنا من نص القرار أن الشخصين كانا-معا- مريضين بالشذوذ الجنسي، لذلك كان الإتيان بفعل اللواط بإرادة كل منهما. فكان العقاب صارما.

وكذلك يكون العقاب صارما بالحرق لمن يمارس هذه الخطيئة عنوة مع شخص آخر غير مريض جنسيا. فيقضى القرار التاسع بأن يحرق اللوطي الذي يمارس اللواط عنوة مع طفل قاصر أو أي شخص متقدم في السن خاصة إذا ما أطلق المعتدى عليه صيحات الاستغاثة. أما إذا ارتكب اللوطي هذه الرذيلة بغير إرادته فإنه يخضع للمحاكمة دون أن يفقد حقوقه القانونية (٧٤). أي أنه ينظر في أمره لبحث الدوافع الخارجة عن إرادته والتي جعلته يأتي بذلك الفعل التماسا لأي عذري له حتى تخفف عقوبة الحرق. وإذا تقتنع المحكمة بهذه الدوافع فيحاكم كغيرة من اللوطيين.

أما القرار العاشر فأنه يقضى بأن يحاكم محاكمة اللوطي من يقترف خطيئة اللواط عنوة ويخفى الأمر ثم يعود إلى ممارسته ويعترف به (٧٥).وهنا لم يشفع اعتراف المذنب لأنه ارتكب جرمة عنوة.

بينما يقضى القرار الحادي عشر بأنه إذا تم إعلان اللوطي بالخضوع أمام المحكمة لارتكاب خطيئة اللواط، يؤتى به إلى الكنيسة ليحاكم حسب الأحكام الكنيسة. وإذا ما عاود هذا الشخص ارتكاب هذا الجرم فإنه يحاكم للمرة الثانية، ولكنه يبعد عن مملكة بيت المقدس(٧٦). وطالما كان الحرق هو عقوبة اللوطي الذي يرتكب جريمته بإرادة من يمارس معه الرذيلة أو عنوة، فإن تكرار القيام بهذه الجريمة وتكرار محاكمته كما يقضى القرار الحادي عشر يدل على عقوبة الحرق لم تكن تعني الحرق حتى الموت. وربما كانت تقتصر على وصمة بالحديد المحمى كما كان يحدث من قبل. هذا عن الجرائم الزنا واللواط التي انتشرت في المجتمع الصليبي في مملكة بيت المقدس.

ولما كان الصليبيون مضطرين إلى تغير سياستهم تجاه المسلمين من سكان المدن الشامية التي استولوا عليها أثناء فترة غزوهم لبلاد الشام، والتي بدأت بسفك دماء مسلمي هذه المدن كما حدث عن استيلائهم على مدن إنطاكية والبارة ومعرة النعمان (١٠٩٨م/٤٩٢هـ) وجبيل (١١٠٤م/٤٩٩هـ) وبيروت (١١١٠م/٥٠٢هـ)(٧٧)، وبدءوا يحافظون على العنصر البشرى الإسلامي لمواصلة الحياة الاقتصادية. فقد بدأ في عهد بولدوين الأول، حيث خير المسلمون بين الهجرة من مدنهم التي احتلها الصليبيون، وبين البقاء تحت الحكم الصليبي لمزاولة الزراعة والصناعة لخدمة الكيان الصليبي اقتصاديا. بدأ ذلك عند استيلاء الصليبيين على مدن صيدا (١١٠١م/٤٩٥هـ) وجبلة وعرقه (١١٠٨م/٥٠١هـ) وطرابلس (١١٠٩م/٥٠٢هـ) والأثارب (١١١٠م/٤٩٩هـ) وصور (١١٢٤م/٥١٨هـ)(٧٨). وبذلك اضطر الصليبيون الى التعايش مع المسلمين في مدن وأقاليم الشام التي خضعت للحكم الصليبي. وأيضا مع من كان يقيم فيها من المسيحيين الشرقيين من لأرمن والسوريان البيزنطيين (٧٩).

وقد كان من الطبيعي أن يقيم الفرنج ما اعتادوا عليه من علاقات بنساء ورجال من الشرقيين، شرعية كانت أم غير شرعية. وقد بدأ ذلك أيضا منذ دخول صليبي الحملة الأولى إلى الأراضي البيزنطية، كما حدد المؤرخ جيبرت دى نوجنت، حين روى لنا كيف أن رجال الفرنج قد سقطوا فريسة لسحر نساء بيزنطة وفضلوهم على نساء اللاتينيات، واجتمعوا بهم في المواخير البيزنطية (٨٠). كما يخبرنا ألبرت دكس بقصة راهبة من تريف كانت ضمن أفراد حملة بطرس الناسك وصادفها الفرنج في مدينة نيقية بعد أن سلمها السلاجقة إليهم، واتهمت بأنها كانت على علاقة بأحد الأتراك، وبعد أن أعفى عنها هربت من المعسكر الصليبي لتلحق بالتركي الذي هامت به حبا(٨١). وبذلك يكون الرجال والنساء من الفرنج على استعداد لإقامة علاقات مع الشرقيين والشرقيات سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين. وبعد استقرار الفرنج في الشرق كان من الطبيعي أن يرتكبوا الفواحش مع نساء غير لاتينيات، بل أنهم تعدوا ذلك الى الزواج بمسيحيات شرقيات وعربيات ارتددن عن الإسلام كما توضح لنا عبارة المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى الشهيرة التي تعالج استقرار الفرنج فى الشرق. فقد اتخذ بعض الفرنج زوجات لهم من السوريان والأرمن وحتى من العربيات اللائى ارتددن عن الإسلام (٨٢). وقد أقدم الفرنج من كل الطبقات على الزواج من الشرقيات. فقد تزوج قادة اللاتين من الشرقيات وشجعوا أتباعهم

علـى القيام بذلك. فقد تزوج كل من الملـك بولـدوين الأول، والملك بولدويـن الثـاني، وجـوسلين الأول كـونت الرها مـن أمـيرات أرمينيـات. كمـا تـزوج كـل مـن الملـك بـولدوين الثـالث (١١٤٣-١١٦٣م) والملـك عمـورى الأول مـن أمـيرات بيزنطيـات [٨٣].

وكان لدى الفرنج تناقض وجدانى بخصوص زواج الفرنج بالمسلمين الذين بقـوا على دينهم. فنجد مجلس نابلس وقد حرص على عدم ارتباط الفرنجـي أو الفرنجيـة بمسلمة أو بمسلم بأي شكل من الأشكال، سواء كان ذلك عن طريق علاقة شـرعية أم غير شرعية بين الطرفين. وقد عالجت قرارات مجلس نابلس من الثاني عشـر وحـتى السادس عشر هذه المسألة بصرامة بالغة. فإذا ثبت أن أي شخص قد نام مـع امـرأة مسلمة بإرادتها يعاقب الاثنان معا بأن يخصى الرجل ويجدع أنف المرأة[٨٤]. وإذا قـام فرنجي باغتصاب إمرأة مسلمة تنتسب الى فرنجى آخر بالقوة يعاقب نفـس العقـاب السابق [٨٦]. كما حدد المجلس أيضا عقوبة صارمة للفرنجية التي تقيم علاقة جنسية مـع رجل مسلم. فإذا جامعت إمرأة فرنجية رجلا مسلما بإرادتها، فيقع عليهما معا جـزاء الزناة. أما إذا أخذ المسلم المرأة الفرنجية عنوة، فلا تعد هي مذنبة، ويخصى المسـلم[٨٧]. وهكذا نجد أن القرارات الخمسة الأخيرة تحرم على الفرنج، رجالا ونساءا ، إقامـة أي علاقات جنسية مع المسلمين من الرجال والنساء. وهنا لابد أن نضع في اعتبارنـا أن المسلمين الذين تعايشوا مع التفرنج كانوا فئتين. الأولى وتضم المسلمين الذين لم يرغبوا في ترك مدنهم عند استيلاء الصليبيين عليها. وهؤلاء عاشوا في الإمـارات الصليبيـة أحرارا، وتركزت غالبيتهم فى المناطق الريفية وعملوا بالزراعة، ومنهم مـن عـاش فى المدن وامتهن حرفة من الحرف. ومنهم من أتى من المدن الشامية الداخلية للاتجـار في المدن التى احتلها الصليبيون. أما الفئة الثانية فتضم أسرى الحرب من المسلمين الذيـن اتخذهم الفرنج عبيدا للقيـام بـالعمل الشـاق أو للعمـل فى منـازلهم كمربيـات وطباخين[٨٨].

وإذا كـان الفرنـج قد أقبلـوا على الـزواج من مسيحيـات شرقيـات من الأرمـن والسوريـان والبيزنطيـين، ونتـج عن ذلك ظهـور شريحة جـديدة في المجتمع الصليـبي أطلـق على أفرادهـا اسم المولـدون Poulain وانتمـت إلى الفرنـج بحكـم المولـد، فأن القـادة الصليبييـن قد حرصـوا علـى عـدم ارتبـاط رعاياهم من الفرنج بالمسلمين لما قد ينتـج عن هذا الارتباط من مشاكـل لم تنتج عن الارتباط بالمسيحيـات الشرقيات. فلـم يكـن مـن السهـل مثـلا الاعتمـاد على هؤلاء الذين يولـدون نتيجـة للزواج بين المسلميـن والفرنـج في

قتـال المسلميـن. كمـا أن مشكلـة العقيـدة وانتمـاء الابـن لعقيـدة أبيـه عند المسلمين كـانت تشكل مشكلة اكبر. ومهمـا يكن من أمر، فلـم تـرد أيـة إشـارة في المصـادر التـاريخية المتعلقـة بتاريـخ الحـروب الصليبية عـن زواج مسلـم أو مسلمـة بفرنجي أو فرنجية. وإذا كان المـؤرخ فولشر الشارترى قـد اخبـرنا بأن الفرنـج قـد اتخـذوا زوجـات مـن العـربيات اللائـى ارتـددن عـن الإسـلام، فمعـنى ذلـك أن الفرنـج لـم يقترنـوا أبـدا بمـن تمسـك بدينـه مـن المسلميـن والمسلمات. واذا كان قانون مملكة بيت المقدس قد منح العبد غير الميسحى حريته إذا ما ارتد عن دينه (٨٩) ، فإن الزواج مـن عربيات مرتدات عن دينهن لم يلق القبول من القادة الفرنج على طول الخط. لأنهـم فى الأصل لم يتقبلوا فكرة تعميد العبيد ير المسحيين. وكان دافع الفرنج من وراء ذلك هو حاجتهم إليهم كعبيد. حتى أن بعض السادة من اللاتين كانوا يمنعون العبد المرتد عـن دينه من حضور الطقوس الكنسية (٩٠). وقد حاول البابا جريجورى التاسـع فى عـام ١٢٣٧م أن يوفق بين مصالح السادة اللاتين وبين مصلحة العقيدة المسيحية وانتشـلوها، بأن أصدر مرسوما ألغى به قانون المملكة الصليبية المألوف، بأن سمـح للعبـد غـير السيحى باعتناق المسيحية دون ان تتغير صفة كعبد(٩١). إلا ان السادة اللاتين لم يضعوا قرار البابا حيز التنفيذ. واستمرت معارضتهم لقبول العبد المرتد عن دينه-حـتى بعـد اعتناقه للمسيحية-كعضو فى المجتمع الصليبى حتى عام ١٢٥٣، حين هددهم المنـدوب البابوى الذي جاء الى الشرق لحل المشكلة بالحرمان من الكنيسة إذا لم يمتثلوا لقـرار البابا (٩٢).

ومهما يكن من امر، فأن قرارات مجلس نابلس، إذا كانت قد حرمت وقـوع أي لقاء جنسي بين اللاتين والمسلمين، فإن الهدف من ذلك لم يكن بسبب الاتصـال بجنس آخر غير الفرنج، وغنما لتحريم الارتباط بأهل عقيدة مخالفة. فلم يكن العنصـر هو المانع وإنما العقيدة. لذلك كان قانون المملكة الصليبية يعطى الحريـة للفرنـج في الاقتران بمسيحيين شرقيين أو حتى عرب مرتدين عن دينهم، أما الـزواج بالمسـلمين فكان عقابه صارما (٩٣).

وحتى لا يدفع أحد من المتهمين بمعاشرة الآخر جنسيا، بأنه أتى بهذا الفعل عن جهل بهوية شريكة، فقد أصدر المجلس قرارا لمواجهة هذا الإدعاء بـأن حـرم علـى المسلمين من الرجال والنساء أن يرتدى أي منهما زيا فرنجيا، وإلا تحول إلى القنية (٩٤). وتكمن المشكلة هنا في أن القرار تعلق بالمسلمين فقط. وترك الحرية للفرنج ليرتدوا مـا يشاءون من ملابس. وبذلك تكون الفرصة متوفرة للفرنجى-رجل كـان او امـرأة-أن

يتعلل، إذا ما قام علاقة جنسية بمسلم أو مسلمة، بأنه لم يتعرف على هوية شريكة لارتداء الأخير ملابس فرنجية. وبذلك اتسم هذا القرار بالقصور، وبقيت مخالفته قائمة، خاصة أنه كان من السهل للفرنج أن يتخفوا في زي المسلمين. وكانت الظروف الجديدة، ومناخ الشرق المختلف تماما عن مناخ الغرب، خاصة فصل الصيف الحار [٩٥].فاضطروا الى اتخاذ ما يخالف ما كان مألوفا لهم من الملابس. فارتدى الرجال منهم العباءات والكوفيات العربية. أما النساء فقد اتبعن الزي الشرقي التقليدي لنساء الشرق وخاصة عند الخروج من منازلهن حيث ارتدين الحجاب شأن النساء المسلمات، وتعطرن بنفس عطورهن، وهذا ما دفع جاك دى فترى الى توجيه لومه الشديد إلى الفرنج لتشبههم بالمسلمين واختلاط بهم واتباع عاداتهم، دون أن يضع فى اعتباره عد استطاعة الفرنج تجنب ذلك[٩٦].أما القرارات الثامن عشر والتاسع عشر، فقد عالجا العلاقة بين الزوجين من اللاتين. فإذا تزوج شخص من زوجة شخ آخر ودخل بها دون أن يعلم بأمر زوجها، لابد أن ينفصل عنها، ويصرح له بالزواج من أخرى[٩٧]. وإذا رغب شخص فى الانفصال عن زوجته ليتزوج بأخرى رغم بقاء زوجته على قيد الحياة، فعليه أن يثبت-بشهود-خيانتها له، ويعرض الأمر على رئاسة الكنيسة(٩٨). وبذلك يكون المجلس قد حرص على استقامة العلاقة الزوجية بين الفرنجى وزوجته، وشرعية هذه العلاقة، وعدم اتجاه أنى منهما إلى ارتكاب الفاحشة.وكان القراران العشرون والحادي والعشرون يخصان مخالفات رجل الدين. فإذا ما أشهر أحد رجال الدين السلاح دفاعا عن نفسه فلا يعتبر مخطئا، ولكنه إذا ما استخدم جماعة مسلحة يقومون بالاعتداء على غيرة، فعليه أن يسحب جماعته ويعترف بالأمر ثم يمثل أمام البطريرك، وإذا أخفى الأمر اكثر منذ ذلك فعليه أن يمثل أمام المجلس الاستشاري للملك والبطريرك [٩٩]. وإذا ما ارتد كاهن أو رجل دين نظامي، فغما أن يعود عن ذلك أو يعود ألي وطنه [١٠٠].

أما القرارات الثلاثة الأخيرة فإنها تتصدى لجرائم السرقة. وتزخر المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ الصليبيين فى الشرق بروايات عن قيام الفرنج بارتكاب هذه الجريمة. فيخبرنا ريموندا جيل عن قيام كثير من الفرنج بسرقة الأطعمة الخاصة بغيرهم من الفرنج أثناء حصارهم لإنطاكية، ومعرة النعمان، وبيت المقدس عندما كانت تقل الأقوات لديهم[١٠١]. كما يخبرنا فولشر الشارترى أن الصليبيين بعد استقرارهم في الشرق قد اعتادوا على سرقة المحاصيل من حقول جيرانهم من بنى جلدتهم من الفرنج ، إلى جانب سرقة أدوات الزراعة[١٠٢]. وحتى يحد مجلس نابلس من انتشار هذه الجريمة

فقد تقرر أنه أدين شخص بتهمة بالسرقة أو قطع الطريق وكان ضحية فعلته ثلاثة أشخاص، يحرق بوصمة في وجهه ويضرب بالسياط، وتعاد المسروقات الى أصحابها. وإذا عاد السارق أو قاطع الطريق ألي فعلته ثانية فتبتر كل أعضاء جسده أو يقتل[١٠٣]. أما إذا كان السارق قاصرا، فيلقى القبض عليه ويعرض أمره على الملك ليقرر ما يمكن اتخاذه بشأنه من إجراءات[١٠٤]. وكذلك إذا كان السارق من البارونات، وقبض عليه متلبسا بجريمة السرقة، يرسل الى الملك ليصدر حكما بشأنه[١٠٥].

وهكذا، كانت كل القرارات بجلس نابلس من الرابع وحتى الخامس والعشرين، بمثابة قوانين أصبحت جزءا من قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية. ولما كانت كل المخالفات التي عالجتها هذه القوانين، مخالفات أخلاقية، فقد كانت تنظر أمام الحاكم الكنسية. ونلاحظ أن بعض المخالفات قد أحيلت الى محكمة الملك، وهي المخالفات التي عالجتها القرارات السادس، والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون. وبعد هذا الإجراء توسيعا لنطاق صلاحيات محكمة الملك[١٠٦].

أما القرار الثاني والعشرون فيؤكد على ضرورة إثبات أي تهمة يوجهها شخص الى شخص آخر، وإلا تعرض للعقاب على اتهامه الجزافي لغيره دون تقديم دليل[١٠٧].

وهكذا، إذا كان الفرنج ق اعتادوا على ارتكاب الفواحش والجرائم، وإذا كان رجال الدين والقادة اللاتين قد حاولوا الحد من هذا السلوك، فأن جموع الفرنج لم تكن تلتزم بالمحاذير التي يصدرها هؤلاء إلا حين صدورها، أي قبل القيام بحرب ضد المسلمين أو حين تحيط بهم مجاعة أو كارثة طبيعية كحدوث زلزال مدمر، أو بهجوم القوارض على أراضيهم فتأتي على الأخضر واليابس في الأقاليم التي احتلوا في بلاد الشام. وكانت هذه الإجراءات عادة تتضمن أعمال التوبة والتكفير مثل أداء الصلوات والصوم أو توزيع الصدقات[١٠٨]. وسرعان ما كان الصليبيون يعودون ما جلبوا عليه من التدني الأخلاقي. لذا تعتبر قرارات بجلس نابلس بمثابة أول تشريع صليبي ثابت يعالج هذه المشكلة. وإذا كانت عقوبات بجلس نابلس قاسية، فأن المقصود بها كان بالدرجة الأولى الزجر. إلا أنه كما رأينا فأن بعض القرارات كان يستعاض عنها بأحكام عقوبات أخرى في حالة التوبة. ولا تظهر القرارات الدرك السفل الذي وصلت إليه أخلاق الفرنج فحسب، بل تشير أيضا إلى اضطراب القانون وانعدام وحدته في المملكة الصليبية حتى انعقاد بجلس نابلس. وإذا كان هناك بعض القصور قد شاب بعض قرارات المجلس، إلى جانب ما جبل عليه الفرنج من تناقض أخلاقي لم

يقض على مخالفاتهم الدينية. وبقيت طبائع الفرنج وبقى التـــدني الأخلاقـــي يســود تصرفاتهم. فقد أباح المندوب البابوي أودو **Odo of Chateauroux** الذى وصـل الى الشرق لمعالجة مشكلة العبيد غير المسيحيين المرتـدين عــن دينهم، في عـام ١٢٥٣م، أبـــاح لجوانفيل مـــؤرخ حملـــة ريتشارد عما انتابه من غضـــب لما لمســـة مـــن تـــدن في أخـــلاق الفـــرنج وأخـــبره بأن "لا أحـــد يعـــرف مثلـــى الخطـــايا الشائنـــة الـــتي ترتكـــب فى عكـــا، ولابـــد سيحـــدث أن ينتقم الـــرب بغســـل مدينة عكـــا بدماء سكـــانها، وحينئـــذ سيـــــأتي أنـــاس آخـــرون للعيـــش فيـــها"(١٠٩).

وبينمـــا كـــانت القرارات الثلاثة الأولى الـــتي اتخـــذها المجتمعـــون في مجلـــس نابلـــس والتي أنهى بها الملك بمقتضاهـــا تحكـــم السلطـــــة الزمنيـــــة في عشـــور الكنيسة التي دعمت موقفـــة الضعيـــف في مســـالة اعتـــلاء العـــرش، فأن القـــرارات الباقيـــة كلها جاءت مرتبطـــة أيضا بظـــروف الصليبيـــــن بصفـــة عامة، وبظـــروف مملكـــة بيت المقـــدس بصفـــة خاصـــة، أي بمـــا كان الملـــك بولدوين الثـــاني ينوى القيـــام به من أعمـــال، ومـــا يتخـــذه من إجراءات. فقـــد كان بولدوين يسعـــى إلى تحســـين أحـــوال المملكـــة لتتمكـــن مـــــن حمايـــة الكيان الصليبي بصفة عامة، وخاصة الإمارات الصليبية في شمال الشام، بعـــد ازديـــاد خطر المسلمين بعد دحرهم لجيش إنطاكية بعد ان انفض اجتماع مجلس نابلس تلبيـــة لاستغاثة البطريرك الأنطاكي لنيل مساعدة الملك ضد هجمات إيلغازى الأرتقي عليـــها فى مايو ١١٢٠م/صفر ٥١٤هـــ .. وكان بولدوين يتوقع ذلك ومستعدا له كما يخبرنا وليم الصوري (١١٢). وفى صيف ١١٢١م/٥١٥هـــ اضطر الملك الى مواجهة طغتكـين أتابك دمشق الذى أغار على إقليم الجليل (١١٣). ثم قام فى اوائل عـــام ١١٢٢م/٥١٦ هـــ بالتوجه الى إنطاكية مرة اخرى للتصدي لإغارات بلك ابـــن شـــقيق ايلغـــازى الأرتقى (١١٤). وأخيرا توجه عام ١١٢٣م/٥١٧هـــ (١١٥). الى جانب ذلك فهناك مـــا خطط بولدوين الثانى للقيام به، ويعد اهم أعماله السابقة، وهو التوسع على حســـاب المسلمين بعد النهوض بمهمة حماية الأمارات الصليبية الشمالية ومملكتـــه مـــن الخـــطر الإسلامي. وكان ذلك هـــو محاولـــة الاستيـــلاء علـــى مدينـــة صـــور. وتم بالفعـــل وإن كـــان دون مشـــاركة الملـــك فيـــه لوقوعـــة أسـيرا لـــدى المسلمـــين(١١٦) .فمـــن نـــص الاتفاقيـــة التـــى وقعهـــا البطـــريرك جيرموند مـــع البنادقـــة الذين ساعدوا علـــى احتـــلال صـــور، نعـــرف أن بولدويـــن كـــــان يعـــد نفســـه بالفعـــل للقيـــام بذلك. فنجـــد البطـــريرك يعلـــن للبنادقـــة عـــن

تأكيـده "وعود الملـك المذكور بولدوين وفقـا للاقتراحـات المقدمـة في رسائلـه وكتبه التي كـان نفسـه قد أرسلهـا من قبـل بواسطـة رسلـه ألي البندقية"(١١٧). ومهما يكن من أمر، فأن ك هـذه الأعمـال كـانت تحتـاج لتـرتيب أمـور المملكـة فكـانت قـرارات مجلـس الخطـوة الأساسيـة لتنفيـذ ذلك.

أما عن الإجراءات التي كان بولدوين ينوى اتخاذها بعد أن ينتهي من مجلـس نابلس كانت قرارات هذا المجلس تعد تحسبا لتداعيات ربما تنشأ عـن اتخـاذ هـذه الإجراءات. فقد لاحظ بولدوين الثاني قلة عدد سكان مدينة بيت المقدس التي تقل فيها المؤن، فعمل بناء على طلب البطريرك على أن تزود المدينة بالمؤن بشكل أوفر، وعلـى زيادة عدد سكانها ، ثم على إرضاء البطريرك فى ذات الوقت. فأصدر في أوائل عـام ١١٢١م قرارا بإعفاء سكان المدينة من اللاتين من الضرائب المفروضة على السلع الـتي كانوا يتاجرون فيها. كما سمح للتجار من الأرمن والسـوريان والبـيزنطيين وحـتى المسلمين بالتروح إلى المدينة وجلب الحبوب دون فرض أية ضرائب عليهم. كما ألغـى بولدوين الضرائب المفروضة على المكاييل والموازين(١١٨). كل ذلك لينعـش الحيـاة الاقتصادية في المدينة، ويكون في نفس الوقت قد حرص على إرضاء البطريرك الـذي لعبت مصلحته المالية، فضمن له بولدوين انتعاش خزانته(١١٩). وبذلك تكون قـرارات مجلس نابلس قد ارتبطت تماما بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية والصليبيين بصفـة عامة، وبظروف الملك بولدوين الثاني الذي عمل في المقام الأول على شـراء رضـى الكنيسة.

أما عن موقف المؤرخين من مجلس نابلس وقراراته، فإن فولشر الشارترى كان من المفروض أن يرحب-مرجل دين-بهذا الحدث الذي يعتبر صلحا بـين السـلطتين الزمنية والدينية في المملكة الصليبية. إلا أنه لم يذكر عنه شيئا بالمرة. وربما بدا له-كقس خاص للملك-الأمر على أنه هزيمة للملك أمام البطريرك (١٢٠).

أما عن وليم الصـوري الذي كرس حوليتـه لسرد تاريـخ الصليبيـين بصفـة عامـة ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة، فقد أخبرنا بقصة مجلس نـابلس، وكرس لها فصـلا كاملا من كتابه، كما أخبرنـا كيـف اجتمـع المشـاركون في الاجتمـاع، وكيف ألقـى البطريرك فى بدايـة الاجتمـاع عظتـه التحـذيرية، وكيف شعـر المجتمعون بأن عليهـم أن يتوبوا عن آثامهم، وكيـف أصدروا خمسـة وعشرين قرارا. إلا أن وليـم لم يأت بإشـارة واحـدة عـن تفاصيـل هـذه القـرارات. وكتب أنه "يمكن لأي شخـص يرغـب في قراءة هـذه القـرارات

أن يجده بسهولة في سجلات كنائس كثيرة"[١٢١]. وإذا كانت هذه العبارة تفيد بأن وليم نفسه كانت لديه نسخة، على الأقل النسخة التي كانت تخص سجلات كنيسة صور التي كان هو رئيسا لها؛ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يورد وليم نصوص هذه القرارات، مع أنه أورد لنا تفاصيل قرارات اتخذها مجالس ملوك بيت المقدس الآخرين؟ أورد نص القرارات التي أصدرها التي أصدرها مجلس الملك عموري الأول في نهاية عام ١١٦٦م حين فرض ضريبة العشر على دخل رعاياه استعدادا لحملته المرتقبة على مصر في عام ١١٦٧م[١٢٢]. كما أورد وليم تفاصيل فعاليات مجلس المملكة برئاسة الملك بولدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) المنعقد فى فبراير ١١٨٣م لدراسة الموقف الصليبي بعد تمكن صلاح الدين الأيوبي من تحقيق نجاحات كبيرة تهدد الكيان الصليبي [١٢٣]. ورأى المجلس أن تكاليف الدفاع المتزايدة عن المملكة تستنفذ كل مواردها، لذلك تقرر فرض ضريبة عامة يخضع لها كل سكان المملكة من رجال دين وعلمانيين. كما أورد وليم النص الكامل لقرارات ذلك المجلس [١٢٤]. وإذا كان مؤرخنا معاصرا لمجلسي عموري وبولدوين الرابع، و لم يكن معاصرا لمجلس نابلس، فإنه لم يكن معاصرا أيضا لحدث وقع اجتماع مجلس نابلس بأربعة أعوام، ويقع في عهد بولدوين الثاني نفسه، وهو توقيع اتفاقية التعاون بين مملكة بيت المقدس والبنادقة التي وقعها البطريرك جيرموند نيابة عن الملك. وقد أورد وليم النص الكامل لهذه الاتفاقية، حتى أنه سجل أسماء من وقع عليها من رجال المملكة [١٢٥].

وللوقوف على حقيقة رد فعل وليم الصوري تجاه مجلس نابلس وقراراته، يجدر بنا الانتباه ألي تأثير كون وليم رجل دين، وفى نفس الوقت كونه رجل الملكية الصليبية، على كتابته التاريخية. فإذا كنا قد ذهبنا من قبل الى أن قرارات مجلس نابلس تعد تنازلا من قبل الملك بولدوين الثاني عن سلطات مارسها سابقوه ملوك بيت المقدس للكنيسة، فإن وليم الصوري كرجل دين مناصر للحرية الكنيسة libertas ecclesiae، فإنه أيضا كان مؤرخا ملكيا، ومثل فولشر الشارترى، وربما اعتقد أنه من الفطنة أن يحذف من روايته عن مجلس نابلس نص القرارات التي اتخذها المجلس حتى لا يظهر الملكية فى روايته وقد ضعفت أمام الكنيسة، وبذلك يكون وليم قد تجاذبه تأثير ارتباطه بالكنيسة، وتأثير ارتباطه بالملكية في آن واحد؛ وهذا ما دفعة إلى أن يعدل بينهما على مدى كتابه[١٢٦]. ألي جانب ذلك، إذا كانت محاولة الملك بولدوين الثاني استرضاء الكنيسة نظرا لضعف موقفه من مسألة اعتلائه العرش عند اختياره ملكا بمساندة جوسلين والبطريرك أرنولف-التي اعتبرها وليم نفسه وسيلة غير شرعية-قد بدأت في عهد

أرنولف، وأن تفاوضا بين الملك والبطريرك قد تم بشأن هذه القرارات ثمنا لتأييد البطريرك لعملية اختيار بولدوين ملكا، وأن تنفيذها-لموت أرنولف- قد بدأ في عهد خلفة البطريرك جيرموند، فإن طلب إنهاء التحكم العلماني في العشور الكنسية يعد من إنجازات أرنولف. ولما كان وليم يتخذ موقف الرفض من اعتلاء أرنولف نفسه كرسي البطريركية (١٢٧). فإنه من السهل أن نفسهم لماذا تحدث وليم عن مجلس نابلس بصفة عامة دون ذكر القضية الأساسية، وهى العلاقة بين الملك والبطريرك، ومحاولة بولدوين تحسين العلاقة بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة، لضعف موقفه أمام البطريرك. وربما كان إحجام وليم عن ذكر نصوص القرارات قد أوحي لكثير من المؤرخين الحديثين بعدم أهميتها الأمر الذي أدي إلى عدم شد انتباههم ألي مجلس نابلس.

وهكذا جاء مجلس نابلس اجتماعا شاملا ضم كل رجالات مملكة بيت المقدس الصليبية وعقد بسبب المحن التي أحاطت بها-وبالكيان الصليبي ككل. من قبل الطبيعة من جهة والمسلمين من جهة أخرى، لتحقيق أهداف معلنة، وهى إصلاح أحوال المملكة المتردية، ورفع المستوى الأخلاقي للفرنج والمحافظة على النظام استعدادا لمواجهة الخطر الإسلامي المحدق بهم. إلى جانب أهداف لم تعلن وهى إصلاح ذات البين الكنيسة والدولة. وشكلت قرارات المجلس-وإن شاب بعضها القصور-قانونا وضع ليفى باحتياجات المجتمع الفرنجى بالمملكة الصليبية. وارتبط ارتباطا وثيقا بظروفها وبظروف الملك بولدوين الثاني نفسه، وبظروف الكيان الصليبي ككل. وأهم ما تحقق من الأهداف التي سعي المجلس ألي تحقيقها هو التصالح بين الكنيسة والدولة، ونتج عن ذلك قيام التعاون بين الطرفين. وكانت درجة هذا التعاون، التي أدي ألي وضع هذه التشريعات، فألا حسنا لوحدة الفرنج في مواجهة المشاكل التي أحاطت بهم، تلك الوحدة التي لم يكن هناك أى دليل على قيامها منذ عام ١٠٩٩م. وظهرت قيمة هذا التعاون بين الدولة والكنيسة فى عام ١١٢٤م. فقد تفاوض البطريرك جيرموند مع البنادقة باسم الملك. ومنحهم مقابل مساعدتهم للفرنج فى الاستيلاء على صور، امتيازات أكدها الملك بعد فك أسره. وتم الاستيلاء على صور. وحفظ البطريرك المملكة من الخطر حتى يطلق سراح عاهلها. وفى كل ذلك تصرف البطريرك

كرئيس للدولة [١٢٨]. وكان ثمن كل ذلك قد دفعة الملك مقدما حين تنازل عن حقوق وسلطات لم يتنازل عنها سلفه من قبل. وهذا ما دفع وليم الصوري، مؤرخ المملكة،ورجل المملكة الصليبية، ورجل الكنيسة في آن واحد، إلي أن يتغاضى عن تسجيل قرارات المجلس التي وقف على نصوصها حتى يحفظ للملكية وقارها دون يمس وقار الكنيسة.

بيان بالمختصرات

BED	-Bulletin des Etudes Orientale.
Chron Anon Syr	-Anonymous Syriac Chronicle, ed. A.S. Triton, in Journal Royal Asiatic Society (London, 1933).
CHR	-The Catholic Historical Review.
CS	-Crusade and Settlement papers read at the First Cofirence of the Society for the study of the Crusade and the Latin East and presented to R.C. Smail, ed. P.W. Edbury (Cardiff, 1985).
JA	-Journal Asiatic.
JEH	-Journal of Ecclesiastical History.
Outermer	-Outermer. Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer eds. B.Z. Kedar, H.E. Mayer, and R.C. Smail (Jerusalem, 1982).
PPTS	- Palestine Pilgrims Text Society (london, 1896- 1907).
RHC Oc.	-Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux. 5 vols. Paris, 1844-95.
RHC Lois	-RHC Lois. Les Assises de Jerusalem. 2 vols. Paris, 1841-3.
RHC Doc Arm	-RHC Documents armeniens. 2 vole. Paris, 1869-1906.
RRH	-Regesta Regni Hierosolymitani (1097-1291), Compiled by R. Rohricht, Insruck, 1893, Additamentum,1904.
RS	-Rolls Series: Rerum Britannicarum Medi Aevi Scriptores.(London, 1858-96).
WT	-Wiliam of Tyre. Chronicon, ed.R.B.C.Huygens, Corpus Christianorum, Continuatio Mediavalis, 63163 A, 2 vols. (Turnhout, 1986)

الـــهـــوامش

(١) William of Tyre, *A History of Deeds Done beyond the sea* , 2 Vols., trans. E. Babcock and A.C. Krey (New York, 1943),vol.1, pp. 535-536.

(٢) وجاء ذلك في عدة أسطر قليلة، وهناك من مر على هذا الحدث في صمت تـــام. ولم يتناوله بشكل أوسع إلا المؤرخ الألماني هانز ماير من خلال معالجته للقـــرارات الثلاثة الأولى التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس، ليوضـــح مـــدى تأثـــير الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية في غرب أوروبا حول مشـــكلة التنصيـــب على مملكة بيت المقدس الصليبية دون التعرض لأحوال المملكة الصليبية.

وانظر :

H.E. Mayer, The Concordat of Nablus, in *JEH* 33 (1982), pp. 531-43.

(٣) WT, 563-4.

(٤) Ibid., p. 563.

(٥) Cerbanus Cerbani, Translatio mirifici martyris Isidori a chio insula in civitatem venteam in *RHC Oc*. 5, pp. 322-3.

(٦) J.C. Mansi, ed., Sacrorum Consiliorum nova et amplissima Collectio (Paris 1901-1927) xxi, p 261.

(٧) وكذلك اعتبره كل من براور وجان ريشار "برلمانا" بينما اعتبره لامونـــت اجتماعا للمحكمة العليا يرأسها الملك، ومجلسا كنسيا الـــذى كـــان يرأســـة البطريرك. أنظر

Mayer, op. Cit., p. 53; J. Prawer, Crusader Institutions (Oxford, 1980), p. 15; J. Richard, The Latin kingdom of Jerusalem , Trans. J. Shirlet, 2 vols. Europe in the Middle Ages: Selected Studies, 2 (Amsterdam, 1979), p. 68; J.L. La Monte, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 To 1291) (Cambridge, 1932), p.9.

(٨) William of Tyre, vol. 1,pp. 535-536.

(٩) Ibid., vol. 1, p. 536.

(١٠) Fulcher of Charters, *Gesta Francorum Iherusalemt* . Frances Rita Rayan as A History of the Expedition to Jerusalem, Tennesse, 1969, p. 225; Albert d Aix, Historia Hierosolymitana, in *RHC Oc* 5, p. 706.

(١١) Fulcher of Chartres, pp. 210-218-219; William of Tyre, vol. I, p. 535.

(١٢) Fulcher of Chartres, pp. 218-219.

(١٣) Daniel, Russian abbot, «The Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy land», trans. C.W. Willson, in PPTS., 4. (London, 1888).

وقد رجعنا للترجمة العربية لهذا الكتاب. أنظر :

-دانيال الراهب: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديـــــار المقدســـة، ترجمة سعيد البشاوى وداود إسماعيل أبو هديـــــة، عمـــان ١٩٩٢م. ص٦٨، ١٠٨. راجع أيضا :

J. Prawer, «Agricultural Conditions in the Crusader states», in *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, 6 vols. (Madison, 1989), 5, p. 262.

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجـــــهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ؛ محمد محمـــــد مرســـى الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى ســـــقوط الرهـــا، الإســـكندرية ١٩٧٤م، ص٩،٥٥.

(١٥) Chron. Anon. Syr., p.86.

(١٦) William of Tyre, vol. 1, pp. 523-4.

(١٧) Fulcher of Chartres, pp. 225-6

(١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ١٢جـــ، القاهرة ١٣٠١هـــ ، جـــ ١٠، ص ٢٩-٢٣٠

(١٩) ابن الأثير : المصدر السابق، جـــ ١٠، ص ٢٣٥.

(٢٠) William of Tyre, Vol. I,p. 528.

(٢١) ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م، ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣جـــ، تحقيــــق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج٢،ص١٨٧-١٨٩. راجع ايضا:

Walter the Chancellor, «Bella Antiochena, in *RHC Oc.*, Vol. 5, pp.101ff; William of Trye, vol. 1, pp. 530-1.

(٢٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢،ص١٩٢-١٩٦. راجع أيضا

Walter the Chancellor, op. cit., p. 120-122.

(٢٣) بعد موقعة ساحة الدم. اجتمع بولدوين مع نبلاء إنطاكية اللاتين وبطريـــــرك كنيستها برنارد وتقرر أن يتولى الملك الوصاية على إنطاكية حــــتى وصــــول

بوهيمند الثاني من العرب . وفى هذا الاجتماع تقرر أيضا أن يبعث الفرنـــج بطلب المساعدة من الغرب. التى نتج عنها وصول الأسطول البندقى فى عـــام ١١٢٣م ومساعدته للفرنج في الاستيلاء على صور فلا عام ١١٢٤م. أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 231; CF. also J. Riley-Smith, «The Venetian Crusade of 1122-4», in *the Italian communes in the Crusading kingdom of Jerusalem* eds. G Airaldi and B.Z kedar (Genoa, 1986), p. 340; J. Phillips, «*Defenders of the Holy land*» (Oxford, 1998), p. 14.

(٢٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 424-7. CF. also, Steven Runciman,«A History of the Crusade», 2 vols. (Cambridge, 1968), vol. 2, pp. 156-8.

(٢٥) Ibid., vol. 2, pp. 519-21.

(٢٦) Fulcher of Chartres, 226 .

(٢٧) Ibid., pp. 228-9.

(٢٨) "Le liver au roi" in *RHC Lois*, Vol. I, pp. 616-617. CF. also, kingdom P.W. Edbury, «The baronial coinage of the Latin of Jerusalem«, in Coinage in the Latin East, ed. P.W. D.M. Metcalf. (Oxford, 1980), pp. 66-9; J. Edbury and Riley-Smith, «Further Thoughts on Baldwin II's établissement on the Confisication of Fiefs», in *CS*, pp.176-180.

(٢٩) William of Tyre, Vol. I,p. 536.

(٣٠) Mansi, xxi, C. 2, 263

(٣١) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٢) Mansi, xxi, C. 2, 263.

(٣٣) Mayer, op. cit., p. 539.

(٣٤) H. Mayer, «*The Crusades*» (Oxford, 1972).

وقد رجعنا للنسخة العربية لهذا الكتاب ، أنظر

هانز ماير: تاريخ الصليبية، ترجمة وتعليق، عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا ١٩٩٠م، ص ٢٥١

(٣٥) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٦) Mansi, xxi, CC. 2,3,263.

(٣٧) Mayer, The Concordat, op. cit., p. 534; J. Parwer, «*The Latin Kindom of Jerusalem*» (London, 1972), p. 337; B. Hamilton, *«The Latin church in the crusalder satated; the secular church»,* (London, 1980), p. 145

(٣٨) RRH, no. 40, p. 7.

(٣٩) RRH, nos. 67,74-75 pp.15,17.

(٤٠) RRH, no. 67, pp. 14-15, no. 74-75, pp.16-17, CF. Also, Mayer, op. cit., p. 541.

(٤١) J. Richard, op. cit., p. 107.

(٤٢) يقع على مسافة ٥٢,٥ كيلو متر غربي بحيرة طبرية. أنظر: دانيال الراهب، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤٣) RRH. no. 36, pp. 5-6.

(٤٤) RRH, no. 51, p. 10.

تحمل الوثيقة التي تتضمن نص الاتفاقية بين بوهيمند ودير القديس سلفادور بجبل طابور تاريخ ٢٥ مارس /٣١ أغسطس ١١٠٠م. ولما كان الملك بولدوين لم يكن قد وصل من الرها بعد ليتسلم مقاليد حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلا في ٩ نوفمبر من نفس العام وتوج ملكاً في ١١ نوفمبر. فمن المؤكد أن تكرر عقد الاتفاقية مع الدير قبل وصول بولدوين. وأكد بولدوين الوثيقة بعد ذلك. فى ٣١ أغسطس من عام ١١٠٦م.

راجع أيضاً: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة في مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٨٩-١٩٠.

(٤٥) Fulcher of Chartres, pp. 222-3; William of Tyre, vol. 1, pp. 518-9; Albert d'Aix, op . cit., pp. 606-609.

(٤٦) Fulcher of Charters, pp. 225; William of Tyre, vol. 1, pp.520.

(٤٧) Fulcher of Charters, p. 232.

(٤٨) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٤٩) ما من بطريرك تولى منصبه في كنيسة بيت المقدس إلا وانتهى أمره بالعزل بعد وقوع خلافات بينه وبين الملك بولدوين الأول. وكثيراً ما انتصر بولدوين. وعن علاقة الملك بالبطارقة أنظر:

Hamilton, «*The Latin Church*», pp. 55-58, 61-63, 67-68.

راجع أيضا: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة، ص ١٠٧-١٢٩.

(٥٠) كل النقائص التي التصقت بالبطريرك أرنولف أوردها وليم الصورى وحده. وقد اتخذ موقف الرفض والعداء من البطريرك على طول الخط. أنظر .

William of Tyre, vol. 1, pp. 489, 505-6. CF. Also; J. Richard, «*The political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States*», in Setton, vol. 5, pp. 61, 237; P.W. Edbury and J. Row, «*William of Tyre: Historian of the Latin East*» (Cambridge, 1988), p. 112.

(٥١) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٥٢) Fulcher of Charters, pp.237-8;William of Tyre, vol. 1, p. 522.

راجع أيضاً : هايتر ماير: تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١.

(٥٣) هذا ما أعلنه كل من البابا أوربان الثاني، والبابا إيوجنيوس الثالث، وسار على نهجهم كل دعاة الحروب الصليبية في الغرب واصبح تعبير reissio peccatorum «غفران الذنوب» شائعا في خطابات هؤلاء. أنظر الترجمة الإنجليزي لهذه الخطابات في :

Louise and J. Rilcy-Smith, (eds.) *«The Crusades: Idea and Reality»* (London, 1981), pp. 37-53,57-59.

(٥٤) Marshal, W. Baldwin,*«Western Attitude towards Islam»,* in *CHR*, vol. xxvll, n.y, p. 405.

وعن تطور فكرة الحرب المقدسة في غرب أوروبا وارتباطها بالحروب الصليبية، راجع: قاسم عبده قاسم : الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١ وما بعدها.

(٥٥) J. Riley, Smith, *«What were the Crusades»* (New Jersey, , 1977), pp. 54-62.

وعن تتطور مفهوم الغفران عند الصليبيين راجع البحث الشامل الذي أجراه الدكتور قاسم عبده قاسم في هذا الصدد. أنظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد ١٤٩، الكويت ١٩٩٠م، ص ٢٨-٣٤.

(٥٦) James A. Brundage, «Prostitution, Miscegenation and sexual Purity in the First Crusade», in *CS*, p. 57-62.

(٥٧) Fulcher of Charters, p. 85.

(٥٨) «Historia et gesta ducis Godfrid», in *RHC Oc.,* Vol. 5, p. 466.

(٥٩) Guibert de Nogent, «Historia que dictur Gesta Dei per Franc-cos», *in RHC. Oc.*, vol. 1,p. 181.

(٦٠) Albert d'Aix, op. cit., pp. 370-371.

(٦١) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق، حسن عطية، الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٢٠؛مجهول: أعمال الرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨١. راجع أيضاً:

Robert Monachus, *«Historia Ecclesiastica»,* ed. M. Chibnall, 6 vols. (Oxford, 1969), vol. 5, p. 98.

(٦٢) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٤٣.

(٦٣) Albert d'Aix, op. cit.,p. 416.

(٦٤) Mansi, xxi, C.4,263.

(٦٥) Mansi, xxi, C. 5, 263.

(٦٦) راجع ايضاً: أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، الولايـــات المتحدة الأمريكية، برنستون ١٩٣٠، ص ١٧٤.

(٦٧) Mansi, xxi, C.6, 264-264.

(٦٨) كانت للبطريرك هرقل علاقات غرامية مثيرة للدهشة. وخاصة مع باشـيا دى ريفيرى Pasque de Riveri زوجة فرنجـــي صــاحب حــانوت في نابلس، التي هام بها البطريرك حبا، وجعلها تأتيه الى بيت المقدس أكثر مـــن مرة وبقيت عنده أكثر من خمسة عشر يوماً في إحدى زياراتها لــــه. وبعــد موت زوجها استقدمها البطريرك إلى بيت المقدس واشترى لها بيتاً وجعلـــها تقيم بالقرب منه. أنظر:

«Estoire d'Eracles», in *RHC Oc*., vol. P. 60. CF. Also, B. Z. Kedar, «The Patriarch Eraclius», in *Outermer*, pp. 180-183.

(٦٩) وشاهد هذه البيوت مؤرخو الحملة الصليبية الثالثة.

«Itinerarium Peregrinorum et gesta regis Ricardi», ed. W. Stubbs, in *RS* (London, 1865) pp. 248,283-6; Ambroise, *«The Crusade of Richard Lion-Heart»,* trans. H. J. Hubert (New Yourk, 1928), pp. 233,277-278.

(٧٠) Mansi, xxi, C.7,264.

(٧١) أنظر ما سبق ، ص١٣.

(٧٢) Guibert Nogent, op. Cit., p. 133.

(٧٣) Mansi, xxi, C. 8, 264.

(٧٤) Mansi, xxi, C. 9, 264.

(٧٥) Mansi, xxi, C. 10, 264.

(٧٦) Mansi, xxi, C. 11, 264.

(٧٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٠، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٢-٢٢٣؛ ابـن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٤١، ١٤٢؛ ابن الأثير: الكامل، جــــــ١٠، ص١١٥-١٣٥، مجهول: أعمال الفرنجة، ص١٢٠؛ ريموندداجيل: تاريخ الفرنجـة، ص ١٦٩،٢٤٧.

(٧٨) ابن القلانسي: المصدر السـابق، ص ٢٣٦-٢٣٧، ٢٧٣، ٢٤٣، ٢٦١-٢٦٢؛ ابن الأثير: المصدر الســابق، جــــ١٠، ص١٠١، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢٦٣-

٢٦٥؛ العظيمـــي: تاريخـــه، نشرة كلود كاهن (بالعربية) فى الجريدة الآســـيوية. أنظر:

Al-Azimi, «Chronique», ed., C. Cahen, in *JA*, tom. ccxxx, 1938, p. 380.

راجع أيضاً: جوزيف نسيم يوسف: معـــركة حطـــين، خلفياتها ودلالاتهـــا، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت ١٩٨٩م، ص٢٤٥.

(٧٩) H. Mayer, «*Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem*», in History, vol. 63 (1978), pp. 175-92P J. Prawer, «*Social classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: the Minorities*», in Setton, vol. 5, pp. 61-66.

(٨٠) Guibert de Nogent, op. cit.,p.133.

(٨١) Albert d'Aix, op. cit.,pp.327-328.

(٨٢) Fulcher of Charters, p. 271.

(٨٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 361.
William of Tyre, vol. 1, pp. 415-16, 522; vol. 2, pp. 344-5. CF. also,Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 208-9; vol. 2, pp. 36,292, 377.

(٨٤) Mansi, xxi, C. 12,264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٥) Mansi, xxi, C. 13, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 61.

(٨٦) Mansi, xxi, C. 14, 264.

(٨٧) Mansi, xxi, C. 15, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٨) أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، ص١٨٠، ابن جبـــير: الرحلـــة، بـــيروت ١٩٨١م، ص٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١-٢٥٣، راجع أيضاً:

J. Parwer, «*Social Classes*», pp. 61 FF.

(٨٩) B.Z. Kedar, «*Ecclesiastical Legislation in the Kingdom of Jerusalem» in CS.*, p. 226.

(٩٠) B.Z. Kedar, op. cit., p. 226.

(٩١) B.Z. Kedar, «*Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims*» (Princeton, 1984), pp. 76-8, 146-51, 212-15.

(٩٢) B.Z. Kedar, «*Ecclesiastical legislation*», p. 226.

(٩٣) J. Brundage, «*prostitution*», p. 61.

(٩٤) Mansi, xxi, C.16,264.

(٩٥) Runciman, op. cit., vol.2,317-18

(٩٦) Jaques de Vitry, *«History of Jerusalem»*, ed. A. Stewart, in PPTS, vol. Xi, pp. 64-65.

(٩٧) Mansi, xxi, C.18,264.

(٩٨) Mansi, xxi, C. 19,264-265.

(٩٩) Mansi, xxi, C. 20,21,265.

(١٠٠) ريموندداجيل : تاريخ الفرنجة ، ص ٩٠-٩١، ١٦٦،٢٣٧-٢٣٨.

(١٠١) Fulcher of Charters, p. 219

(١٠٢) Mansi, xxi, C. 23, 266.

(١٠٣) Mansi, xxim C. 24,266.

(١٠٤) Mansi, xxi, C. 25, 266.

(١٠٥) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢١.

(١٠٦) Mansi, xxi, C. 22, 265.

(١٠٧) مجهول: أعمال الفرنجة، ص ٩٢؛ ريموانداجيل: تـــاريخ الفرنجـــة، ص ١٠٦، ١٤٣؛ راجع أيضاً:
Orderic Vitalis, *«Historia»*, vol. 5, pp. 105,164-8,178. Guibert of Nogent, *«Gesta Dei»*, p. 205.

(١٠٨) جوانفيل: القديس لويـــس، حياتـــه وحمـــلاته على مصر والشام، ترجمـــة حســـن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٦٦.

(١٠٩) Fulcher of Charters, pp. 232-3, William of Tyre, vol.1, pp. 536-7;
ابن العديم: زبدة الحلب، جـــ٢، ١٩٥-١٩٦؛ ابن القلانسي: ذيل تـــاريخ دمشق، ٢٠٢.

(١١٠) Fulcher of Chartres, pp. 234-5, William of Tyre,vol. 1, pp. 538-9.

(١١١) Walter the Chancellor, *«Bella Antiochina»*,pp.131-2;Fulcher of Chartres, pp. 235-7.

(١١٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. راجع أيضاً :
Fulcher of Chartres, p. 240; Mathew of Edessa, *«Chronicle»*, in *RHC Doc Arm*, vo. 1, pp. 132-133.

(١١٣) وقع بولدوين أسيراً لدى بلك ابن شقيق إيلغـــازى الأرتقـــى فى ١٨ أبريـــل ١١٢٣م/١٩صفر ٥١٩ هـــ. أنظر: ابن القلانسي : ذيل تـــاريخ دمشـــق، ص٢٠٩ . راجع أيضاً

Fulcher of Chartres, p. 240; William of Tyre, vol. 1, pp. 540-1; Mathew of Edessa, p. 132- 133.

(١١٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 553,556

(١١٥) Fulcher of Charters, p. 232, William of Tyre, vol. 1, pp. 537-8.

(١١٦) بعد استيلاء الصليبين على مدينة بيت المقدس بفترة وجيزة، منح جودفرى حاكم مملكة بيت المقدس الصليبية، منح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية في حدود المدينة إلى جانب جميع مخابز بيت المقدس عدا ثلاثة مخابز، اثنان منها للضيافة، والثالث للدير البندكتي المعروف باسم القديسة مريم St. Maria Latina . وقد قدمت هذه المنحة للكنيسة أثناء تولى أرنولف مالكورون بطريركية بيت المقدس عام ١٠٩٩م/١٩٢ هـ، قبل عزلة من منصبة بعد عدة أشهر. أنظر: سعيد البيشاوى الممتلكات الكنسية، ص ١٤٢.

(١١٧) Mayer, op. cit., 541.

(١١٨) William of Tyre, vol. 1, p. 536.

(١١٩) Ibid., vol. 2, pp. 313 ff.

وكانت هذه الحملة الثالثة التي يحاول بها عمورى الاستيلاء على مصر قبل أن تسقط فى ايدى نور الدين محمود. وكانت فى يناير ١١٦٧م/ربيع ثان ٥٦٢ هـ. عن أحداث هذه الحملة وظروفها. أنظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١١، ص١٤٥-١٤٧؛ ابو شامة: كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـ، جـ١، ص ١٤٢-١٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ٣جـ، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٨-١٥٢.

(١٢٠) كان صلاح الدين قد حقق نجاحات كبيرة في إقليم الجزيرة، حيث أخضع لسلطته مدن الرها ولرقة وسروج ونصيبين وسنجار تمهيدا لإخضاع الزنكيين في حلب والموصل حتى يتفرغ للصليبين تمام بعد أن يحيط بأملاكهم من كل

جانب، وفتح صلاح الدين حلب ليكمل حصاره لهم وذلك في ١١٨٢م/٥٧٩ هـ. أنظر ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٦٢-٦٣؛ مؤرخ مجهول: البستان الجامع تواريخ الزمان نشره كلود كاهن: C. Cahen,"Un chronique Syrien de VI[e] siecle" in *BEO*, vol. 8, p. 144.

(١٢١) William of Tyre, vol. 2, pp. 486-489.

راجع أيضا: حسين عطية: عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة المؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ-جامعة القاهرة-العدد السادس ١٩٨٩، ص١٢٣ وما بعدها.

(١٢٢) William of Tyre, vol. 1, pp. 525-6.

(١٢٣) Edbury and J. Row, "*William of Tyre*", pp. 105-6.

(١٢٤) Mayer, op. cit., p. 542.

(١٢٥) Hamilton, "The Latin Church", p. 65.

الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم
(١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١هـ)

د. / فايز نجيب اسكندر

كليـــة الآداب-جامعـــة بنـــها

كانت مملكة أرمينية الكبرى بمثابة دولة حـــاجزة ETAT TAMPON، أي دولة واقعة بين دولتين متصارعتين تحول دون تصادمهما، وقد أدى الجبليون الأرمـــن هذا الدور أحسن أداء. وكان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية الحفاظ على كيان تلـــك الدولة الحاجزة، خاصة بعد نجاحها في صد هجمات الأتراك الســـلاجقة في مراحلـــها المبكرة وكبح جماح تلك القبائل الطموحة إلا أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية العقيمـة واستراتيجيتها الخاطئة حطمت ذلك الحاجز الواقي وذلـــك بغزوهـــا أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ[١]، فكان هذا التحطيم باهظ الثمن، إذ تمكن الســـلاجقة في ١٦ أغسطس سنة ١٠٦٤م/٢٩ شعبان سنة ٤٥٦هـ[٢] من الاستيلاء علـــى "آنى" Ani عاصمة مملكة أرمينية الكبرى، ثم تقويض بنيان الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة فى معركـــة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ ونجاح السلاجقة فى ابتلاع آسيا الصغرى وتأســـيس سلطنة سلاجقة الروم بعاصمتها قونية[٣].

ولقد ترتب على الأحداث السالفة الذكـــر هجرة الأرمن نحو الجنـــوب الى "الرها" الواقعة في إقليم الجزيرة الغربي، بالقرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتـــد علـــى الفرات. كما اتجه الأرمن من قبل إلى قبادوقيا وذلك أوائل القـــرن العاشـــر الميلادي/أوائل القرن الرابع الهجري؛ وكذا الى إقليم قيليقيا والذي كـــان البـــيزنطيون قـــد هجـــروا إليـــة من قبل كثير من الأرمن وذلك عقب غزوهـــم أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ؛ وكان من بين هؤلاء بطريرك الأرمن الذي كان قد ترك العاصمـــة "آني" Ani منذ سنة ١٠٥٤م/٤٤٦ هـ وأخـــذ مقـــره يتنقـــل حـــتى استقـــر ١١٥٠م/٥٤٥ هـ بقلعـــة الروم على نهر الفرات[٤].

---

(١) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر : غزو الإمبراطورية البيزنطية الأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ الإســـكندرية ١٩٨٨م.

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آنى" سنة ١٠٦٤م/٤٥٦هـ-الإســـكندرية ١٩٨٧.

(٣) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد-الإسكندرية، ١٩٨٤.

(٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة الممـــاليك الأولى (١٢٥٠-١٣٧٥م/ ٦٤٨-٧٧٦ هـ) الإسكندرية ١٩٨٠.

ولقد قامت «مملكة أرمينية الصغرى» LE ROYAUME DE LA PETITE ARMENIE فى المنطقة التى عرفت قديما باسم «قيليقيا» [1]. CILICIE، وتقع تلك المملكة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى. وتكاد تكون حدودها طبيعية [2]. فمن الشرق يحدها جبال الأمانوس [3]. ومن الشمال والشرق جبال طوروس؛ أما في الجنوب، فالبحر المتوسط تمتد سواحله من مدينة طرسوس [4] إلي جنوب

---

(١) كان من بين نتائج فتوحات الأتراك السلاجقة للأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة جموع غفيرة من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غرب وشمال نهر الفرات، ليستقروا جنبا إلى جنب مع إخوانهم الأرمن المستقرين من قبل في تلك المواضع. وعقب معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ إلتجأ الكثير من الأرمن إلى جبال طوروس وإقليم قيليقيا وشمال بلاد الشام. علماً بأن جميع المواضع السابقة تواجد بها زعماء من الأرمن كانوا قد سبقوا إليها واستقروا فيها. وهكذا غدا الأرمن في قيليقيا قوة عظيمة وكبيرة حتى أطلق المؤرخ الفرنسي المحدث رينية جروسية RENE GROUSSET على «قيليقيا» آنذاك اسم «أرمينية الجديدة» LA NOUVELLE ARMENIE للتفاصيل أنظر
CH. 65, P.78, Dans R.H.C., Doc.. ARM., 1; Matthieu D'EDESSE, EXTRAITS,: NERSES DE Lambron, DANS R.H.C., Doc.. ARM., 1, P. 576. CF. Grousset, HISTOIRE DE L'ARMENIE, PARIS, 1947, P. 522; IDEM, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, PP. 175, 385; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE, PP. 87-88; CAM. MED HIST., VOL. IV, P. 638; PASDERMADJIAN, HISTOIRE DE L'ARMENIE, P. 198.

(٢) RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES, Doc. UMENTS ARMENIENS, PARIS, 1869-1806, T.I,P. XIX.

× وسنشير إلى « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» اختصاراً بـ: R.H.C., Doc. ARM.,

(٣) «جبال الأمانوس» هي شعبة من جبال طوروس، تتصل بقيليقيا من جهة الشرق وتفصلها عن بلاد الشام. وما اشتهرت به جبال الأمانوس من الدروب إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها، فمنها فتح المسلمون قيليقيا وما يليها من جهات آسيا الصغرى، وكان لابد للإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس NICEPHORE PHOCAS أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة الحمداني في صميم دولته. (انظر: R.H.C., Doc. ARM., T. 1, PP. XXVI-XXVIII. CF. SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN AU DIXIEME SIECLE, NICEPHORE PHOCAS, PARIS, 1870, P. 207.) والجدير بالذكر أن ممرات الأمانوس كانت دائما الممر البرى الجنوبي لكل الحملات المصرية نحو قيليقيا-أي أرمينية الصغرى-وبذلك تشابهت أهميتها الاستراتيجية بشبة جزيرة سيناء بالنسبة لمصر، فقد كانت شبة سينا المعبر البرى الشرقي لغزو مصر طوال العصور.

(٤) «طرسوس» من المدن القديمة، وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، لأنه كان قد وفد عليها غازيا مرة بعد أخرى، فمات بموضع يعرف بالبذندون، وقريب من طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية . (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر-تحقيق عبد العزيز الخويطر-الرياض ١٩٧٦-ص ٤٣٨-٤٣٩؛ النويرى: نهاية الأرب من نهاية الأدب-مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٥٤٩ معارف عامة - جـ ٢٨، ورقة

الإسكندرية [1]. وتبلغ مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر مربع بطول ٤٠٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب، وعرض مائة كيلو متر من الشمال الى الجنوب. كان ذلك في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي/أوائل القرن السابع الهجري [2].

وقد أطلقت المصادر الإسلامية على هذا الأقليم اسم "الدرب" [3]، أي الطريق الذي يسلك ما بين طوروس والإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لقب "ابن الأثير" (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) في مصدرية "التاريخ الباهر" و "الكامل في التاريخ" أمير أرمينية باسم "صاحب بلاد الدروب [4]".

---

١٠٧ أ؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد-تحقيق بلوشيه – BLOCHET باريس ١٩١١-١٩٣٢-ص ٣٩٢) وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، بالقرب من حلب غربا . وهى مدينة مسورة وفى غاية الخصب، بناها الرشيد في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وأكملها فى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م. ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام ، وباب البحر والباب المسدود. والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـ ٤، ص ١٣٣؛ البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البجاوى – القاهرة ١٩٥٤م جـ٣، ص٨٨٣. أنظر أيضا: .R.H.D., Doc. ARM., T.I., P. XL وكذلك: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكرد وصداها فى القسطنطينية – القاهرة ١٩٨٨-ص ١٩، حاشية رقم ٥٩.

(١) "الإسكندرية" مدينة في شرقي إنطاكية، عل ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين إنطاكية على ساحل بحر الشام ثمانية فراسخ. (أنظر: البغدادى: مراصد الاصلاع، جـ١، ص٧٦) وتعد الاسكندرية "أول حدود بلاد سيس" (أنظر: الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده- تحقيق بربارة شيفر-القاهرة ١٩٧٨-ص٨؛ المقريزى: السلوك، ج٢، ص٤٢٨.) وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيليقيا وإنطاكية. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩.

(٢) R.H.C., DOC. RAM., T.I, PP. II-III, XVIII-XIX. CF. TOURNEBIZE, HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMENIE, PARIS, 1910, P.6; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE PARIS 1930, PP. 9-10: BASMADJIAN QUELLES ETAIENT LES FRONTIERES DE L'ARMENIE? PP. 21-25 DANS LA VOIE DE L'ARMENIE, PARIS, 1919; KHERUMIAN, INTRODUCTION A L'ANTHROPOLOGIE DU CAUCASE-LES ARMENIENS, PARIS, 1943, PP. 11-12; ERMONI, L'ARMENIE, DANS R.O.C., PARIS, 1896, T.I, P. 318; VEOU, LA PASSION DE LA CILICIE, PARIS, 1954, P.47.

(٣) هناك أكثر من مكان عرف باسم " الدرب" ذكر بعضها "ياقوت الحموى" فى "معجم البلدان". ولكنه قال إذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف إليه اسم موضع يحدده، يكون المقصود به ما بين

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ-القاهرة ١٢٩٠هـ – جـ١١، ص ١٤٥؛ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل- تحقيق عبد القادر احمد طليمات – القاهرة ١٩٦٣-ص ٣٠٧.

لقد ناصبت مملكة أرمينية الصغرى [1] سلطنة المماليك العداء، إذ ساعدت بفاعلية المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وتحالفت مع تتار فارس لغزو بلاد الشام ومصر، هذا إلى جانب مساهمتها بفاعلية في فرض الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك بمنعها تصدير الأخشاب والحديد وكافة أنواع السلع الاستراتيجية من آسيا الصغرى الى مصر والشام. فقد سار الصراع العسكري بين مملكة أرمينية الصغرى وسلطنة المماليك جنبا من الصراع التجارى، إذ وقف ثغر الاسكندرية شامخا في وجه ثغر اياس، كما كانت حلب واقفة بالمرصاد في وجه العاصمة الأرمينية سيس SIS.

وكان من الطبيعى -نتيجة تلك السياسة العدائية - أن يتبع سلاطين المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى سياسة قائمة على العنف والقسوة ومحاولة الإبادة، كحال السياسة التى اتبعوها مع المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام ومع التتار. لذا توالت إغارات جيوش المماليك على مملكة أرمينية الصغرى طوال عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقارى [2] (٦٥٧-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وقلاوون الألفى [3] (٦٧٨-

---

(١) سميت باسم "أرمينية الصغرى" للتمييز بينها وبين "أرمينية القديمة" المعروفة باسم "أرمينية الكبرى" و "أرمينية القديمة" هى أواسط أجزاء آسيا الصغرى وأكثرها ارتفاعا. وهى محصورة بين سلسلتين من الجبال هما: سلسلة جبال بنطس شمالا وسلسلة طوروس جنوبا؛ وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، وبين أذربيجان والإقليم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، في اتجاه ملتقى نهر الكر ونهر الرس شرقا، وبين إقليم بنطس إلى الشمال الغربي والقوقاز، ومن ثم يفصلها خط نهري ريونة والكر شمالا، وبين سهل الجزيرة أى ما بين النهرين جنوبا، وهى منطقة دجلة الأعلى. أنظر : فايز نجيب أسكندر. مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى-الإسكندرية ١٩٨٠-ص ب.

(٢) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي فى مواجهة تحالف المغول والارمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩-سبتمبر ١٩٩٥.

(٣) بعد الهزائم المتلاحقة التى منى بها الجيش الارمنى ووصول المنصور قلاوون ألى ابواب الاسكندرية "أول حدود بلادسيس"، واعتناق تتار فارس الاسلام، أدرك الملك الارمنى ليون الثالث (١٢٧-١٢٨٩م/٦٦٩-٦٨٨ هـ) ضرورة عقد صلح مع مماليك مصر. فعقدت هدنة لمدة عشر سنوات اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثاني شهر ربيع الاخر سنة ٦٨٤هـ/٧ يونيو ١٢٨٥م (راجع نص الهدنة في ابن عبد الظاهر : شريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور-تحقيق مراد كامل-القاهرة ١٩٦١-ص٩٣ وما بعدها ؛ المقريزى : السلوك، جـ١، ق٣ ، ص ٩٨٥ وما بعدها ؛ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٧٠ وما بعدها . أنظر أيضا LANGLOIS, LE TRESOR DES CHARTES D'ARMENIE, VENISE, 1863, PP. 217 SQQ;IDEM, ESSAI HISTORIQUE ET CRITIQUE SUR LA CONSTITUTION SOCIALE ET POLITIQUE DE L'ARMENIE, ST PETERSBOURG, 1860, P. 15; REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES, PARIS, 1829, PP. 552-558; TOUR NEBIZE, PP. 217-218)

وكانت شروط الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم من الفضة. وأن يخلى الملك الأرمني سبيل جميع التجار والمواطنين المسلمين المعتقلين في قيليقيا ويعيد إليهم أملاكهم.

٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٢هـ / ١٢٩٠-١٢٩٢م) واستمر حال الإغارات تهدأ حينا لتزداد أحيانا إلى أن تمكن السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ /١٣٦٣-١٣٧٦م) من فتح مملكة ارمينية الصغرى، وضمها نهائيا لسلطنة المماليك وذلك سنة ١٣٧٥م/٧٧٦هـ(١).

والذى يهمنا في هذا الموضوع هو تتبع كيفية تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من الاستيلاء على "قلعة الروم" (٢). HOROMKLAY . ومما يذكر أن الأشرف خليل(٣) سار على نفس سياسة والدة العدائية تجاه الصليبيين والأرمن والتتار. ففي مملكة عكا الصليبية، والتي تمثل البقية من المستعمرات الصليبية في بلاد الشام آنذاك. فنزل عليها يوم الخميس الخامس من أبريل سنة ١٢٩١ م/الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، فنصب عليها أثنين وتسعين منجنيقا، محكما بذلك حصارها. وقد بذلت حامية عكا جهودا مضنية فى سبيل الدفاع عن المدينة؛ إلا أن مماليك الأشرف خليل نجحوا في اقتحام أسوارها وذلك يوم الجمعة الثامن من عشر من مايو سنة ١٢٩١م/السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ بعد حصار دام أربعة وأربعين يوما؛ كما نجح الأشرف خليل في فتح صور، وحيفا، وصيدا، بيروت، وعثليث وأنطرطوس.

ومقابل ذلك يطلق السلطان قلاوون سراح جميع الأسرى الأرمن، ولكن لا تعاد إليهم أملاكهم. وعلى الملكين المتعاهدين أن يسلما الهاربين من الطرفين كل إلى الآخر، على أن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام. وللمماليك حق شراء الرقيق من مملكة أرمينية الصغرى. ووقع ليون الثالث على هذه المعاهدة مرغما، ولكنه منع بيع الرقيق للمماليك، حتى لا تقوى بهم عليه . أنظر : TOURNEBIZE, P. 218.

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى ، ص٩٩-٢٥٠.

(٢) تحدث العالم الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور- أستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى-عند هذا الموضوع في سبعة أسطر. أنظر : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى. محاضرة منشورة فى بحوث ودراسات العصور الوسطى-بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦٠.

(٣) ولى "الأشرف خليل بن قلاوون" أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك من النواحي الإسلامية، وجلس على التخت، وركب بشعار السلطنة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م بعد وفاة والدة قلاوون الألفي. أنظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه-تحقيق محمد محمد أمين-القاهرة ١٩٧٦- جـ١، ص ١٣٦؛ الكتبي : فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ١، ص ٤٠٦-٤١٥. أنظر أيضا GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1936, III, p. 750.

وبسقوط عكا في قبضة الأشرف خليل، انتهى الفصل الختامي في تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى مصر التي قامت-طوال عهد الحروب الصليبية-بدور إيجابي فعال، كحالها الى مر العصور، إذ كانت محور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً "سقوط عكا" وطرد المستعمر الصليبي من بلاد الشام (١)، بعد أن زجت به مياه البحر المتوسط على حد قول المؤرخ الفرنسي المحدث "رينيه جروسيه"(٢) RENE GROUSSET.

وكان من أهم نتائج سقوط عكا أن استعد المماليك لتوجيه سلاحهم صوب مملكة أرمينية الصغرى، بعد أن أضحت تلك المملكة المعقل الصليبي الأخير في قارة آسيا، وقاعدة مرتقبه لكل حملة صليبية جديدة. ومما لا شك فيه ان هذا الفتح العظيم قد أكتسب الأشرف خليل ومماليكه مجداً وعطفاً من ربوع العالم الإسلامي آنذاك، لذا رغب الأشرف في توجيه هذا الحماس المتدفق صوب مملكة أرمينية الصغرى من ناحية وأسيادهم التتار من ناحية ثانية.

وبالفعل بدأ السلطان المملوكي بالخطر الأول المتمثل في مملكة أرمينية الصغرى. بدأ المعركة بنوع من "الحرب النفسية"، إذ أرسل كتاباً الى ملك مملكة أرمينية الصغرى (٣) "هيثوم الثاني (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١ هـ)

---

(١) للتفاصيل أنظر : GORUSSET, OP. CIT., T.III, pp. 750-776 .

(٢) GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, P. 400.

(٣) رفض المسلمون عامة الإشارة الى حاكم "أرمينية الصغرى" بلفظ "ملك" وإنما أطلقوا عليه في أغلب الأحيان لقب "متملك" بمعنى أن الأرمن امتلكوا تلك البلاد قهراً من المسلمين أصحاب السيادة الشرعية عليها وعليهم. وقد عبر "شهاب الدين بن العمرى" عن ذلك بقوله:"... وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة الروم، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاق على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة {صاحب أرمينية الصغرى} .. واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوف واستهلكها" . (أنظر: التعريف بالمصلح الشريف-مصر،١٣١هـ- ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه : "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم اللعين {صاحب أرمينية الصغرى} ... واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوف واستهلكها". (أنظر : التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١٢هـ-ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين ". (أنظر: صبح الأعشى، جـ ٨ ،

HETUM[1] اخبره فيه بفتح عكا، وذكره بقوة سلطنة المماليك وعظمة جيوشها التي احكمت الأطباق على ذلك المعقل الصليبي الأخير وفتحة؛ كما دعاه ألي سرعة أرسال القطعية المقررة، والحضور لمقابلته. وأخيراً طلب منها أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا "تندم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم" [٢].

ونستشف من هذا الكتاب أن الشرف خليل أراد أن يؤكد ما للسلطنة المملوكية من السيطرة على مملكة أرمينية الصغرى.

أمام هذا التهديد والوعيد، طلب الملك الأرمني هيثوم الثاني مساعدة البابا نيقولا الرابع[1] (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨٧-٦٩١هـ)

ص ٣٢.) ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون علة ملك مملكة أرمينية الصغرى، منها ابن لاون أو ليفون. ولاون هنا تحريف للفظ ليون LEON أول ملوك أرمينية الصغرى، فصار كل ملك من ملوكها يعرف ب "ابن لاون". ومن هذه الألقاب أيضاً "متملك سيس"-كما سبق أن أشرنا-أو "صاحب سس". كذلك أطلق عليه اسم "تكفور"، وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة، مثلما لقب إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية ب"الاشكرى"، وملك الحبشة ب "الحطى" أو "النجاشى". أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص ٢٦٩، ٣٢٩، ٣٣٩ وما بعدها؛ العمرى: التعريف، ص ٥٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨، ص ٣١.

(١) اعتلى "هيثوم الثانى" (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١هـ) HETUM II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعد أبيه ليون الثالث LEON III سنة ١٢٨٩ سنة ١٢٨٩م/٦٨٨هـ، ولكنه تنازل عنه سنة ١٢٩٢م/٦٩١هـ لأخيه طوروس THOROS ودخل أحد أديرة الفرنشسكان. ولكن طوروس والبارونات كانوا يذهبون إليه فى الدير ويستشرونه فى مهام الأمور، وأضطره أخيراً بإلحاحهم عليه أن يعود إلى الحكم سنة ١٢٩٥م/ ٦٩٤ هـ. وفى سنة ١٢٩٧م/٦٩٦هـ ذهب هيثوم الثاني إلى القسطنطينية واصطحب معه طوروس وترك أخاه الأصغر سمباد SEMBAD لإدارة شئون المملكة، فاغتصب سمباد العرش. لكن البارونات الأرمن اضطروا هيثوم الثاني إلى اعتلاء عرش مملكة أرمينية الصغرى وذلك للمرة الثالثة. وبذلك تشبه هيثوم الثاني بالناصر محمد بن قلاوون في ولاياته الثلاث. للتفاصيل أنظر: LE ORI HETHOUM II, PP. 541-545; SEMPAD, PP.655-657; MARDIROS DE CRIMEE, LISTE RIMEE DES ORIS DE LA PETITE ARMENIE, P. 685; TABLE CHRONOLGIQUE DE HETOUM DE HETOUM, P. 490. CF. TOURNEBIZE, PP. 220-228; GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, P. 400.

(٢) أنظر : "ذكر مكاتبة السلطان الأشرف صلاح الدين الى صاحب سيس عند فتح عكا" فى : مرلف مجهول: تاريخ سلاطين المماليك-نشر.ف. زترستين-لندن ١٩١٩ م-ص٨. وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك والأرمن، ص ٢٦٠؛ الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٢١٦. وعن تفاصيل سقوط عكا أنظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص ١٢٣، ابن تغرى بردى: مورد اللطافة-تحقيق كارليل CARLYLE ١٧٩٢م-ص١٤٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك-مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ج-جـ١، ورقة ١٦٣أ-١٦٦أ. أنظر أيضا SCHILUMBERGER, PRISE DE SAINT JEAN D'ACRE EN L'AN 1291 PAR L'ARMEE DU SOUDAN D'EGYPTE, PARIS, 1914; STUBBS.

NICOLAS IV، الذي استاء إستياءاً بالغاً لسقوط "طرابلس" ثم "عكا" في قبضة المماليك، لذا حرص-كعادة البابوات عقب كل كارثة صليبية-على إثارة الرأي العام الأوروبي ضد سلطنة المماليك. إلا أن جهود البابا في استثارة الغرب لإرسال حملة صليبية الى الشرق الأدنى الإسلامي باءت بالفشل الذريع. وكان قد خطط لدعوة ملوك أوروبا الى التحالف والتعاون مع التتار والأرمن[2] والكرج[3] للقضاء على سلطنة المماليك، لكنه مات في إبريل سنة ١٢٩٢م/ ربيع الثاني سنة ٦٩١هـ أثناء الإعداد للحملة. وعقب وفاته، توقف مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك، لخلو السدة الرسولية لمدة عامين[4] ، وقعت فيهما أحداث جسام أثرت تأثيراً مباشراً على العلاقات المملوكية الأرمينية.

---

(١) أعتلي "نيقولا الرابع" NICOLAS IV السدة الرسولية في ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. وكان سلفة هونوريوس الرابع HONORIUS IV قد توفي في ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م، فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة من ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م إلى ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. أنظر: GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, P. 716

(٢) اشتهر الأرمن بنشاطهم البناء في المجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك أن أسامة بن منقذ ذكر أخبار كثيرين من الأرمن اشتهروا بالمهارة والرماية، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على السواء. أنظر الاعتبار-ليدن ١٨٨٤-١٠٦.

(٣) "الكرج" هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق وقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة "تفليس" (أنظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠ حاشية رقم ٢). وتقع بلاد "الكرج" على السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز. فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فهي تتاخم بلاد داغستان الجبلية وسهول اذربيجان؛ وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص KARS؛ أما حدودها الغربية، فتطل على البحر الأسود. للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج-القاهرة ١٩٨٨م-ص٧-١٨؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة في عهد داود الثاني- العدد الأول من مجلة المؤرخ العربي-مارس ١٩٩٣-ص٢٥٢-٢٥٣؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" الإسكندرية ١٩٨٧-ص٣٤، حاشية رقم ٤٧؛ مملكة أرمينية الصغرى، ص١٣٧، حاشية رقم ٢.

(٤) للتفاصيل أنظر: LE ROIHETHOUM II, P. 542, CF. GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, PP. 716-747; DEDEYAN ET THIERRY, LE TEMPS DE LA CROISADE, DANS HISTOIRE DES ARMENIENS, TOULOUSE, 1982 P. 311; LODGE, THE CLOSE OF THE MIDDLE AGES, PP. 29, 51-54; KING, THE KNIGHTS HOSPITALLERS, PP. 75-79; MOWAT, THE LATER MIDDLE AGES, PP. 75-79; ATIYA, THE CRUSADES IN THE LATER MIDDLE AGES, P.45.

وكان من الطبيعي أن ينعكس فشل مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك على مصير مملكة أرمينية الصغرى خاصة وان السلطان الأشرف خليل كان قد علم باستنجادات الملك الأرمني هيثوم الثاني.

ومما زاد الطين بلة أن وصل كتاب إلى القاهرة أرسله نائب حلب يفيد أن ملك مملكة أرمينية الصغرى تعرض لبعض تجار المسلمين، وألقى القبض عليهم بعد أن استولى على أموالهم، ونهب ما يحملونه من بضائع؛ وان نائب حلب أرسل يطلب منه إطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم وبضائعهم المستولى عليها، وإلا فليستعد لمواجهة جيوش المماليك. فجاء رد الملك الأرمني[1] بأن أحداً لم يتعرض لأحد من التجار المسلمين، وأنه ليس هناك أسرى وأموال[2] . ولما وقف السلطان الأشرف خليل على ما جاء في كتاب نائب حلب، غضب غضباً شديداً، وأمر بعقد مجلس استشاري عسكري ضم كبار الأمراء لاستشارتهم في الأمر. فأشاروا على سلطانهم بغزو سيس[3] SIS، عاصمة

---

(١) "الأرمني " وليس الأرميني، ويؤكد ذلك قول الشاعر :

ولو شهِدَتْ أمّ القديْد طِعانَنا   بمرعش خَيْل الأرمني أرنَّت

أنظر: ياقوت: معجم البلدان-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧-جـ١، ص ١٦٠؛البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٦٠، حاشية رقم ٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض-بيروت ١٩٧٩-ص٢٩٤-٢٩٥؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد-دار صادر بيروت-ص٥٢٤، أنظر أيضاً : فايز نجيب اسكندر : المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ المعاصر سبيوس-بيرت ١٩٩٤-ص٦٨، حاشية رقم ١٦٢؛ الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامي- القاهرة ١٩٨٨-ص٨، حاشية رقم ٤؛ الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيفوند، جـ١، ص١٠١، حاشية رقم ١٦٦؛ غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ-الإسكندرية ١٩٨٨- ص٢٨، حاشية رقم ١.

(٢) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦.

(٣) "سيس" SIS وصحة هذا الاسم "سيسية" SISIYYA ، غير ان عامة الناس يسقطون الهاء، وقولون "سيس"، وهي عاصمة مملكة أرمينية الصغرى-أي قيليقيا ، وتقع بين إنطاكية وطرسوس. ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير؛ - البلدان، ص٢٥٦-٢٥٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص١٠٦، حاشية رقم ٢؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٤٩، حاشية رقم ٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٣٩، حاشية رقم ١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٣٤-١٣٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٤. وقد ذكر الشجاعي أن "باب إسكندرونة هو أول حدود بلاد سيس". أنظر : تاريخ الملك الناصر محمد ، ص٨.

مملكـة أرمينيـة الصغـرى، وتأديـب ملكهـا هيثـوم الثـاني[1] .

تحقيقـا لتـلك الغـاية، رحـل السلطـان المملـوكي مـن مصـر قاصـداً بـلاد الشـام فـي يـوم السبـت ٢٨ مـارس سنـة ١٢٩٢م/ثـامـن مـن ربيـع الآخـر سنـة ٦٩١هـ[2] علـى رأس جيـش كبيـر، وبصحبتـه وزيـره الصـاحب "شمـس الـدين بـن السلعـوس" [3]، الـذي كـان قـد سبـق أن كلفـة بـأن يكتـب إلـى نـواب الشـام بالاستعـداد للغـزو وجمـع المجـانيق[4] وآلات الحصـار المتنـوعـة والمـؤن، ونـادى بالنفيـر للجهـاد، ودخل دمشق وعرض العساكر [5]. وبعد يومين، وصل نائب حلب الى دمشق، وأخبر أن رسل الملك الأرمني في طريقهم لمقابلـة السلطان المملوكي. وبالفعل دهش الرسل الأرمن عند وصولهـم دمشـق لضخامـة

---

(١) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ١٢ ، ورقة ٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مولف مجهول: كتاب نزهـة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان -مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس-رقم FONDS ARABE 1769-ورقـة ٢١ب.

(٣) اشتغل "شمس الدين بن السلعوس" فى أول أمره بالتجارة في دمشق، ثم تنقل في عديد من الوظـائف إلى أن ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام. وتمكن من جمع الأموال الطائلة لقيامة باستحجار ضيـاع لحسابه الخاص. ثم قدم ألي مصر في عهد السلطان قلاوون الألفي، فعين ناظرا للديوان، لكنه عـزل لابـتزازه أموال بعض المقطعين، وعين قلاوون بدلاً منه فخر الدين بن الخليلى. عقب ذلك توجه ابـن السـلعوس الى الحجاز وعاد الى مصر بعد أن تولى الملك الأشرف خليل سلطنة المماليك وكان قد كتب إليه بخطه "ياشقير يـا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية". أنظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٢٩٤أ-٢٩٤ب؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٦٧ب-١٦٨ أ؛ ابن كثير: البدايـة والنهايـة، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن ايبك الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ٤، ص٨٦، ترجمة رقم ١٥٥٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٩٠ ب؛ القيسراني. النور اللائح والدر الصادح فى اصطفا مولانا السلطان الملك الصـالح – مخطوط بالمكتبة الوطنية بتاريخ رقم FONDS ARABE 1708 ورقة ٥٣ أ، ٥٤ ب، الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٧١ أ-٧٢ أ.

(٤) "المجانيق": جمع "منجنيق"، وهو آله من خشب، لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق الذي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه.

(٥) العيني : جـ٢١، ورقة ٥٦؛ الكتبي : عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مولف مجهول: كتاب نزهـة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

استعدادات الأشرف خليل؛ ودخلوا ألي حضرته، وقبلوا الأرض بين يديه، واخرجوا كتاب ملكهم، فإذا فيه: إن ما نُقِلَ عنه ألي السلطان غير صحيح، وأنه ما تعرض لأحد من التجار؛ وإذا ثبت خلاف ذلك، فأنه مستعد لدفع أضعاف ما نسب إليه من اخذ أموال التجار وبضائعهم. وأكد الملك الأرمني في كتابه أيضا أنه سيطلق سراح جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في مملكته، وأنه على استعداد لمضاعفة الجزية المقررة عليه كسباً لود السلطان، وأن مملكة أرمينية الصغرى تعد بلاد ملاه الأشرف خليل، وهو نائب عنه فيها. وقد تقدم الرسل الأرمن بالهدايا الثيمنة من الأواني الذهبية والفضية والأواني المرصعة بالفصوص والبللور الفاخر، وغير ذلك من التحف النادرة[1].

ورغم الموافقة على مضاعفة القطعية[2]، والهدايا الثمينه، وفروض الولاء والطاعة، والاعتراف بالتبعية الكاملة لسلطنة المماليك؛ إلا أن الأشرف خليل صمم على المضي قدما فى حملته، وكان قد سبق له أن رحل من مصر قاصداً بلاد الشام فى يوم السبت ٢٨ مارس ١٢٩٢م/ثامن ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ[3]، ودخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها في يوم الاثنين ٥ مايو ١٢٩٢م/١٦ جمادى الأولى ٦٩١هـ[4]، فسار منها ألي حلب فدخلها في ١٧ مايو ١٢٩٢م/الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ثم غادرها في ٢٣ مايو ١٢٩٢م/ الرابع من جمادى الآخر سنة ٦٩١[5] لمحاصرة "قلعة الروم" فنزل عليها يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٢٩٢م/ ٨ جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ[1].

---

(١) العيني: جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٥٩.

(٢) "القطعية" هي إتاوة سنوية، تعهد ملك مملكة أرمينية الصغرى بدفعها لسلطنة المماليك. وقد ذكر القلقشندى نقلا عن العمرى أن القطعية المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت "ألف ألف ومائتي درهم، مع أصناف". أنظر : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠؛ العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ ، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص٢٦.

(٤) العيني: عقد الجمان، جـ٢١ ، ورقة ٥٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

(٥) ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن أبي بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: السلوك،

لقد عول السلطان الشرف خليل على ضم "قلعة الروم" الى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار، ويمدونهم بالهدايا، ويمالئونهم على المماليك، ويكثرون من الإغارة على الأطراف الشامية. ولا أدل على المصاعب التي كان يثيرها أهالي هذه القلعة ضد سلطنة المماليك أكثر مما ورد فى الكتاب الذي أرسله "علم الدين سنجر الشحاعى"[٢] نائب السلطنة[٣] بدمشق الى شهاب الدين [٤] بن الخويّى"

جـ١، ق٣، ص٧٧٨. أنظر أيضاً : LE ROI HETHOUM II, DANS. R.H..G., ARM., T.I, P. 542.

(١) الكتبى : جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن أيبك: جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ تاريخ الفرات، جـ٨، ص١٣٦-١٣٩؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، روقه ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٧٢؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، روقه ١٠٩؛ محمد بن ابى بكر الصديق : نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب. أنظر أيضاً LE ROI HETHOUM II, PP. 542-543; MAKRIZI, HISTORIE DES SULTANS MAMLOUKS DE L'EGYPTE, TRAD. M. QUATREMERE, PARIS, 1845, T. II, 1 RE PARIS., P. 141.

(٢) هو "سنجر بن عبد الله الشحاعى المنصورى" ينسب الى "عز الدين الشحاعى" مشد الديوان. قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٢م وكان من مماليك المنصور قلاوون. ترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية فى أوائل دولة الناصر محمد، وساءت سيرته وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بها سنين ألي أن عزل بالأمير عز الدين أيبك الحموى، وقدم ألي القاهرة. وكان موكبه يضاهي السلطان من التحميل. أنظر : أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٥١-٥٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقه ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٠؛ تذكرة النبيه، جـ١، ص١٧٢؛ الصقاعى: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٤٣ب- ٤٤ أ. أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، الملحق الثاني، ص٢٦١، حاشية رقم ١.

(٣) "نائب السلطة" وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها السلطان "الظاهر بيبرس" مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية. كان نائب السلطنة في ذلك العهد-كما يقول القلقشندى-"سلطانا مختصرا بل هو السلطان الثاني" ويعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين، ويضعه "الخالدى" على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة للتفاصيل بالعاصمة أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٦-١٧.

(٤) هو" شهاب الدين" ابن قاضى القضاء " شمس الدين الخوى الشافعي" قاضى قضاة دمشق وابن قاضيها. ولد في سنة ست وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) وتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٣م). أنظر: الكتبى: فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ٣، ص٣١٣-٣١٤، ترجمة رقم ٤٣٤؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ٢، ص ١٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٢٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٣٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٥٤٣؛ المقدسى: الأنس الجليل، جـ٢، ص ٤٦٦.

(١) قاضى القضاه لهذه المدينة على أثر نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء عليـــــها. إذ جاء في هذا الكتاب(٢):

"...... وكانت هذه القلعة المذكـــورة
للثغور الاسلامية بمنزلة الشجًا
فى الحلــق والغلــة فى الصــــدر،
والخسوف الطارئ على طلعة البدر،
لا تخلو من غِلّ تُضمــــره، فى لـــين
تظهره، وغدر تستره،
فى غدر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها
الى مخادعة الجـــــار، وموادعــة التتـــار،
وممالأتهم على الاسلام بالنفس والمـــــال،
ومساواتهم لهم حتى فى الـــزى والحـــال،
ويمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهـــــم
على عورات الأطراف وهم يقفون بمسالمة
الأيام، ويدعـــون أن قلعتـــهم لم تــزل
الحوادث فى ذمام ......"(٣)

---

(١) نسبة إلى "خوى"، وهى مدينة بأذريبحان. (أنظر: القلقشندى: جـــ٤، ص ٣٥٩). وفى ياقوت "خوى، بلد مشهور من أذريبحان، حصين كثير الخير". أنظر: معجم البلدان، جـــ٢، ص ٤٠٨؛ البغدادي: جـــ١، ص ٤٩٣. أنظر أيضاً: فـليز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص٧٩. وكذلك : خريطة رقم ١، ص٧٧، وخريطـة رقم ٢، ص٨١..

(٢) يوجد نص الخطاب فى كل من ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٧-٣٣٣؛ ابن الفرات: جــــــ٨، ص ١٣٩،١٤١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـــ٢٦، ورقة ١٠٣ ب-١٠٧ أ؛ وملاحق السلوك. ص ١٢-١٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص١٥١-١٥٢؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـــ٣، ورقة ١١ب -١٣ب. انظر ايضا:
DANIEL DE THAURISIO FRATIS DANIELIS ADERRORES IMPOSITOS HERMENIS, P. 648, NOTE A; GESTES DES CHIPROIS, P. 839, NOTE C; R.H.C., DOC. ARM, T. I, P. LII; SEMPAD, P. 654. CF. REY, LES COLONIES FRANQUES, P. 318. وقد ذكر ابن الفرات أن هذا الكتاب من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩.

(٣) زترستين : ص١٤؛ النويرى : جـــ٢٩، ورقة ١٠١؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـــ٤، ص ٢١٩؛ تـــاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩-١٤٠.

وعقب ذلك، تحدث "علم الدين سنجر الشجاعى" عن حصانة قلعة الروم مما جعل سكانها يعيشون فى أمن وأمان، إذ يصعب على أي عدو الوصول إليها تنعم بحماية طبيعية، فيحيط بها الجبال الشاهقة، بل أن نهر الفرات ساهم بفاعلية فى حمايتها من أي عدوان آت من الشرق وزاد من مناعتها أن استدار نهر حولها الغرب "فانعطف معها كالسور"؛ إضافة إلى أن الخنادق تحيط بأوديتها. وقد أدرك السلطان الأشرف خليل مدى حصانتها [١]، ففي كتابة إلى قاضي القضاة "شهاب الدين الخويي" قارون بين قلعة الروم ومدينة عكا فقال: "كانت أحصن من عكا"[٢]. أما بيبرس الدوادار[٣] المنصورى[٤] (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)- الذي شارك بشخصه في حملة الأشرف خليل على قلعة الروم - فقد ذكر أنها :

"... من أحصن[٥] القلاع
وأعظمها في الارتفاع
والامتناع ولا تتوصل إليها إلا من
طريق صعبه المرتقى[٦] كثيرة

---

(١) نزل السلطان الأشرف خليل بجيشه على قلعة الروم في يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ/٢٧ مايو ١٢٩٢. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ١٣٦؛ المقريزى: السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٧٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٢٣.

(٢) زترستين : ص١١.

(٣) "الدوادار" أي ممسك الداوة، والوظيفة اسمها "الداوادرية" وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٦٢.

(٤) عن ترجمته أنظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجر-تحقيق زبيدة محمد عطا-ص٢١-٢٩؛ التحفة المملوكية في الدولة التركية-نشر عبد الحميد صالح حمدان-لبنان ١٩٨٧-ص٥-١٣؛ فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، ص٢٣-٢٥.

(٥) في الكتبى "من أحسن"، والصحيح ما أثبتناه. أنظر: عيون التواريخ، ق١،جـ١٢، ورقة ٦٤. والجدير بالملاحظة أن الكتبى نقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن بيبرس الدوادار، مع حذف القليل من الجمل القصيرة التي لا تخل من المعنى؛ حتى أن مخطوط "عيون التواريخ" قد ساعدنا على فك بعض طلاسم مخطوط "زبدة الفكرة"، إذ كان بمثابة نسخة ثانية له.

(٦)في الكتبى "المرتقا". عيون التواريخ، ق١،جـ١٢، ورقة ٦٤..

العقاب والصوى[1] ، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا
لوعورة[2] مسالكها
وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات
يجرى من تحتها ولا مترلة لمن ينازلها
إلا في لحفها...[3]"

في حين كان "أبو الفدا" في مصدره "المختصر في أخبار البشر" شديد الإيجاز في وصف حصانة قلعة الروم، إذ أورد

:"... وهى حصن على جانب الفرات
في غاية الحصانة ... [4] "

وكان حريصا أيضا على إظهار دوره[5] ودور عسكر حماة على وجه الخصوص في فتح قلعة الروم فقد ذكر في مصدرة أن

:"... هذا الحصار أيضا من جملة
الحصارات التى شاهدها،
وكانت مترله الحمويين على
رأس الجبل المطل على القلعة من
شرقها[6] ، فكنا نشاهد
أحوال أهلها في مشيهم وسعيهم

---

(١) هكذا في بيبرس الدوادار، وجملة "كثيرة العقاب والصوى" ساقطة من الكتبى.

(٢) "لغور مسالكها" في عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ٩ ورقة ٢٩٧؛ الكتبى: عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤؛ بيبرس الدوادار: تحقيق زبيدة عطا، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١. ويلاحظ اختلاف أسلوب بيبرس الدوادار في مصدره الثاني عن مصدره الأول، إذ أورد: "... وهى أحصن القلاع وأشهرها بالامتناع لأنها مرتفعة غاية الارتفاع، موضوعة في جبال صعبة المسالك ممتنعة عن السالك، لا يتخلص إليها الراجل إلا بعد التعب الشديد والجهد الأكيد، وليس حولها فسحة لنزول العساكر وبحر الفرات يمر من تحتها ملاحفا ولمن يحاولها مزاحفا". قارن: زبدة الفكرة جـ٩، ورقة ٢٩٧ مع النص السابق ذكره والوارد في: التحفة المملوكية ، ص١٣٠-١٣١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ٢٧.

(٥) أبو الفدا : جـ٤، ص٢٦. وقد أشار إلى ذلك اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

(٦) في المقريزى: "كان منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل". أنظر : السلوك: جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

في القتال وغير ذلك ... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبـــل المطل على القلعة. فتقـــدم مرســوم السلطان إلى صاحب حماة أن يرمـــى عليهم المنجنيق. فلما وترناه لـــنرمى عليهم طلبوا الأمان من السلطان.."[1]

ولقلعة الروم أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والاستراتيجية، لتحكمـــها في الطريق البرى ألي بلاد الشام من جهة الشرق؛ ولذلك كانت تسمى "مفتـــاح بـــلاد الشام"[2] ، وهى ذات موضع حصين، وتقع في البر الغربي الجنوبي للفرات، شمال غـــربي حلب، على خمس مراحل منها، على مرحلة غربي البيرة[3]، ويمر بها نهـــر المرزيـــان[4] الذي يصب في الفرات. وتقع بين البيرة وبين سميساط[5].

وكان يسكن قلعة الروم أخلاط من الأرمن والتتار [6]. وكانت الكونتيســـة "بياتريس" BEATRICE قد أنعمت على بطريرك الأرمـــن[7] – أى الكـــاثوليكوس

---

(١) أبو الفداء: ج-٤، ص ٢٧؛ اليونيني : ج-٣، ورقة ١٠ب.

(٢) LE ROIHETHOUM II, DANS R.H.C., DOC. ARM., T. I, P. 543.

(٣) "البيرة" بلد قرب سميساط، بين حلب ومنطقة الثغور الرومية، وهى قلعة حصينة ولها رستاق واسع. (أنظـــر: ياقوت: جـــ٢، ص٣٣؛ البغدادي: جـــ١، ص٢٤). وفى الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات مـــن الجـــانب الجزرى. أنظر: ابن الأثير: جـــ٩، ص ١٥٦. أنظر أيضاً :
DUSSAUD, TOPOGRAPHIE HISTORQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET MEDIEVALE, PARIS, 1924, P. 461.

(٤) "مرزبان" عرف هذا اللفظ "أبو الفدا" في "تقويم البلدان" في الكلام عن قلعة الروم، فقال بأنه نهر يجـــئ مـــن ناحية الجبل ويصب في الفرات تحت قلعة الروم. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٩.

(٥) "سميساط" بضم أوله، وفتح ثانية، وياء مثناه ساكنه وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات؛ ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. أنظر: فايز إسكندر: أرمينيا بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، ص٢١٥، حاشية رقم ٤٦٣؛ وص ٢٣؛ حاشية رقم ٥٤٨.

(٦) WIET, HISTORIE DE LA NATION EGYPTIENNE, PARIS, 1937, T. IV, P. 461

(٧) يسمى بطريرك الرمن "كاثوليكوس" CATHOLOCOS ، وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمـــن. ويطلـــق الأرمن عليه "الكاتا غيكوس" . أما المصادر الإسلامية فتارة تلقبه "بترك الأرمن (أنظر: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابـــن الفـــرات : جـــ٨، ص١٣٧)؛ وتـــارة ثانيـــة "بطـــرك الأرمـــن" أنظـــر: النويـــــرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١٠١ أ؛ عيـــون التواريـــخ، ق١، جـــ١٢، ورقـــة ٦٥؛ ابـــن أيبك : زبـــدة ، زبـــدة عطـــا، ص ٢٦٨)؛ وتـــارة ثالثـــة "كيتـــا غيكوس" أخـــذا مـــن الأرمـــن (أنظـــر: زترمـــستين، ص١٥، ١٧)، وتارة رابعـــة "الكـــاغيكوس" (أنظـــر: ابـــن شـــداد: النـــوادر السلطـــــانية، ص ١٢٤-١٢٥؛

CATHOLICOS–بهذا الموضع الحصين ليتخذه مقـــراً لـــه، كـــان ذلـــك ســـنة ١١٥٠م/٥٤٥هـــ[1]. ومن هنا كان اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم ليجعل منـــها حصناً لصد غارات التتار على سلطنته وأن دل ذلك على شئ فإنما يدل علـــى عمـــق الخبرة لذلك العاهل المملوكي.

على أية حال، عندما علو الملك الأرمني "هيثوم الثاني" بمغادرة جيوش الســـلطان المملوكي حلب في طريقها لمحاصرة "قلعة الروم" أســـرع بـــاحتلال ممـــرات جبـــال الأمانوس، وهى مفتاح الدخول ألي مملكة أرمينية الصغرى[2]، كذلـــك أردف ذلـــك التصرف الإستراتيجي بالإلحاح في طلب النجدات من خلفائه التتار، ولكنهم تـــأخروا عن إسعافه في الوقت المناسب. ففي هـــذا الصـــدد يذكـــر "رشـــيد الديـــن" (ت ٧١٨هــ/١٣١٨م) في مصدرة "جامع التواريخ" أنه

" ..وصلت الأنباء من الروم تفيد
إن جيش العداء قد وصل من الشام،
وأن الملك الأشرف قد حاصر قلعة
الروم. وفى شهر رجب توجه
"تايجو أغول بن منكوتيمور" و "طعارجار"
و"يوقدانى الاقتاجى" و "تماجى ايناق"
مع جيش مجهز للقضاء على هؤلاء الأعداء.
وفى نفس شهر شعبان توجه المير
"سوكاى" والأمير "تيمور بوقا"
و "قراجة" الى قلعة الروم عن طريق

ابـــن واصـــل: مفـــرج الكـــروب، جـــ٢، ص ٣٢٠)؛ وتـــارة خامســـة "كينا غيلـــوس" (أنظـــر: أبـــو الفـــدا: جـــ٤، ص٢٧)؛ وتـــارة سادســـة "خليفـــة الأرمـــن" أنظـــر : زترستيـــن، ص١٧.

(١) SMBAT, LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT, TRAD. GERARD DEDEYAN, PARIS, 1980, P. 55, N 34. VAHRAM DEDESSE, CHRONIQUE RIMEE DES ROIS DE LA PETITE ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., I, P. 518; VARTAN LE GRAND, DANS R.H.C., DOS. RAM., I, P. 435.

(٢) LE ROIHETHOUM II, P 542.

أخلاط(١) وأرجيش(٢). ولكن الملك الأشرف استولى على قلعة الروم فى أواخر رجب، وقتل بعض سكانها، واسر البعض، وسلم القلعة ألي حراس من قبله ، ثم عاد(٣)..."

هذا بينما تحدث المؤرخ بيبرس الدوادار في مصدرية "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" و "التحفة المملوكية في الدولة التركية"(٤) عن تلك النجدة التترية، إذ قال إن هدفها مفاجئة جيوش المماليك، وإكراههم على فك حصارهم لقلعة الروم؛ وارجع سبب انسحاب التتار الى ضخامة جيوش المماليك، إذ جرد السلطان الأشرف خليل أربعة من مقدمي الألوف، وانخرط

---

(١) "أخلاط" أو "خلاط" هى قصبة أرمينية الوسطى، وتقع الشاطئ الشمالى لبحيرة وان VAN، جنوب غرب ملاذكرد.
للتفاصيل أنظر : BRYENNIOS TR. GAUTIER, I, CH. XIV P. 108, N.2; CONSTANTINE PORPHORIGENITUS, VOL. II, COMMENTARY, PP. 167-168. CF. CANARD, HISTOIRE DE LA DYNASTIE DES HAMDANIDES, PARIS, 1953, 184
أنظر ا ايضاً : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات العربية الأرمينية – دراسة تاريخية مع عرض وتحليل ودراسة مقترنة للمصادر والمراجع-مجلة سيرتا-العدد ٩/٨-الجزائر ١٩٨٣-ص٣٨؛ البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى معركة ملازكرد-الإسكندرية ١٩٨٤-ص٧١-٧٤، حاشية رقم ٧٢؛ الحياو الاقتصادية فى أرمينية إبان أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص ٤٠-٤١.

(٢) "أرجيش" مدينة من نواحى أرمينية الكبرى، قرب خلاط، وتقع على الشواطئ الشمالية لبحيرة وان VAN ، وأكثر سكانها من الأرمن. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص٢١١، حاشية رقم ٤٤٦.

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى-نقلة عن الفارسية فؤاد عبد المعطى الصياد-القاهرة ١٩٦٠-جـ٢، م٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) "التحفة المملوكية" ما هو إلا موجز المخطوط زبدة الفكرة، إلا أن بيبرس الدوادار توقف فيه عن أحداث سنة ٧١١هـ/١٣١١م. وبمقارنة المصدرين نلاحظ أن "التحفة المملوكية" فيه تفسير وتوضيح لبعض موضوعات "زبدة الفكرة" الموجزة؛ وخير مثال على ذلك، تناول المصدرين لثورة المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م؛ إذ جنح الدوادار الى سرد أحداثها بإيجاز فى "زبدة الفكرة" في حين زودنا بتفاصيلها في "التحفة المملوكية" .

المؤرخ بيبرس الدوادار المنصورى في تلك التجريدة[1]، وكان من مضافى الأمير بدر الدين بكتاش[2] أمير سلاح[3].

هكذا حاصرت جيوش الشرف خليل قلعة الروم، واستمر حصارها حوالي ثلاثة وثلاثين يوما، وضربت أسوارها بعشرين منجنيقا. وقد عين "النويرى" (ت ٧٣٢هـ ١٣٣٢م) في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنواع هذه المجانيق فقال أن

"... خمسة منها فرنجية وخمسة عشر قرابغا {صحتها "قرابغرى". أنظر: أرنبغا الزردكاش: الأنيق فى المنجنيق، ص٣،٧،٨} وشيطانية...[4]"

(١) "التجريدة" جمعها "تجاريد" بمعنى الحملة الحربية. أنظر: خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك–باريس ١٨٩٤– ص ١٣٦.

(٢) هو "بكتاش بن عبد الله الفخري"، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل الى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى فى الخدمة حتى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرة. ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعود السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. للتفاصيل أنظر: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي–تحقيق نبيل عبد العزيز–القاهرة ١٩٨٥–جـ٣، ص٣٨٥، ترجمة رقم ٦٧٥؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٤، ترجمة رقم ١٣٠١؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٢؛ الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان–مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2061 – ورقة ٥٦، ترجمة رقم ٨٦؛ المقريزى: المقفى الكبير–مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 – ورقة ٢٥٤ أ –٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٧٧.

(٣) يلي الأتابكية فى المكانة وظيفة "أمير سلاح"، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية، ووظيفته حمل سلاح السلطان فى المواكب العامة والأشراف على السلاح خاناه. ويأتي بعده "أمير مجلس" ثم "الدوادار الكبير" الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان، ورفع القصص، وتقديم البريد إليه؛ كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٨–١٩.

(٤) النويرى : جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ب. أنظر أيضا: ابن الفرات: جـ ٨، ص٣٦ أ؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، ورقة ١١٩؛ ابن أبى الفضائل: ص ٢٨٩؛ الباعونى: أرجوزة لطيفة فى التاريخ–مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1615 – ورقة ٢٣؛ الذهبى: العبر فى أخبار من عبر مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1680 – جـ٢، ورقة ٢٢٤ب، الصديقى: نزهة الأبصار وجهينة الأخبار–مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1561 ورقة ١٠٦ب–١٠٧ب؛ محمد بن

هذا وقد زودنا "المفضل بن أبي الفضـــائل"[1] (توفى في منتصــف القــرن الثــامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) في مصدره "النهج السديد والدر الفريــد فيما بعد تاريخ ابن العمد" بتفاصيل عن مواضع تلك المجانيق، إذ جاء في مصدره :"... وحكى الأمير سيف الديــن بــن المحفدار، قال إن مدة المقام على حصــار قلعة الروم ثلاثة وثلاثون يوما، وعدة مــا نصب عليها من المجانيق تســعة عشــر، فرنجية خمسة، وقا بغايية {هكذا فى الصل وصحتها كما وردت فى معظم المصــادر: قرابغرى} وشيطانية أربعة عشر، خارجــا عن منجنيق صاحب حمـــاة علـــى رأس الجبل[2] ، ومن الجهة البحريــة الفراتيــة الأفرام إثنان، والسلطان واحد فرنجـــى، ومن الجهة الشرقية وعلى جانب الفــوات بيبسرى واحــد، ومــن الجهــة الغربية

أبي السعادات: تاج المعارف وتاريخ الخلايق، ورقة ٦٤ ب، اليافعي: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ المقدســي: نزهة الناظرين، ورقة ٤١ أ. والفرنجية، والقرابغا، والشيطانية ضرب من السلاح وهو نوع من المجانيق. (أنظــر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص ٧٨، حاشية رقم ٢). وقد تحدث "أرنبغـــا الزردكـــاش" فى مصدره "الأنيق في المناجيق"-الــذي يعــد أهــم المصــادر الإسلاميــة علــى الإطلاق عن تلــك الآلــة المنجنيق المختلفة فقال: "... ومنه الكبير والصغير: فمنه المنجنيق الحربى "القرابغرى" ، وهو عبارة عن آله مــن خشب جيد لها دقتان قائمتان، تقع فوق كل واحد منهما حتريرة من خشب وثيق، وبينهما سهم-عريــض، فثقيل من جهة الذنب، نحيف، فخفيف من ناحية الرأس-قــد زود بــأصبع (ص٣)... والمنجنيــق الحــربى "القرابغرى" على شاكله المنجنيق الفارسى أو التركى، إلا أن هذا الأخير بدفة وحتريرة واحــدة (ص٧-٨) ... ومنه أيضا "الفرنجى"، وهو على ثلاثة أنواع: الأول بصندوقين وسهم يدور من أى جهة يريد الإنســان (ص٣) ... والمنجنيق الفرنجى مماثل للمنجنيق السلطانى (ص٧) للتفاصيل أنظر : الأنيق فى المناجيق-تحقيق نبيل محمــد عبد العزيز-ص٣ وما بعدها .

(١) عن ترجمة "مفضل بن أبي الفضائل" وتحليل مصدره أنظر : فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينيــــة الصغــرى، ص٣٦-٤٠.

(٢) فى أبي الفداء :"... وكان منجنيق الحمويين على راس الجبل المطل على القلعة..." أنظر: المختصر فى أخبــار البشر، جــ٤، ص٢٧.

خمس قوا بغاييه {صحتها: قرابغرى} وشيطانية فى الوادى خمسة عشر.[1]"

وقد سلط "ابن الجوى"فى مخطوطة "جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك" الأضواء على الصعوبات التي لاقاها جيش المماليك أثناء حصارة لقلعة الروم إذ أورد

:"...حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفدار أمير جاندار[2] قال : ومما جرى لنا من العجايب على قلعة الروم فى شهر أبيب وهو تموز والعسكر نازل عليها قال: فبينما نحن عليها وإذ لقد هبت رياح مزعجة قوية جدا وشرار وشعب الى أن رمت ساير الخيام وباتت الناس على وجل، وأصبح فى الغد رعدت السماء رعدا قويا الى أن ظنوا أن السماء تقع على الأرض، وزلت صاعقة أحرقت ثلاثة أنفس أحدهم مات والآخر احترق نصفه والآخر من الخوف انخلع قلبه ومات[3]"

على أية حال، ضرب الأشرف خليل الحصار حول "قلعة الروم" ، وأخذت المنجنيقات ترميها بالأحجار. وقام الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق بعمل برج خشبى تعلوه قبة، وغطاه باللبود، وحصنه من كل جانب، وأدخل فيه جنودا يقاتلون وهم بداخله. واستمرت الجيوش المملوكية عشرين يوما في حصارها للقلعة، ولكنها لم تنل منها منالا. فأجمع الأمراء على توصيل النقابين [4] ألي سور الحصن، وأدخلوا من

---

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٣٨٩، أنظر أيضا: المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨؛ زنرستين: ص١٦.

(٢) "أمير جاندار" هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم فى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٠؛ جـ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الجوزى: جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 7639 - ورقة ١١٩-١٢٠ . أنظر أيضا: اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ورقة ١٣ ب - ١٤ أ.

(٤) طريقة "نقب الأسوار" من الطرق المعتادة التي أستخدمها الجيش الأيوبي والمملوكي. وكانت قائمة على نقب أسوار الحصن نقبا حيث تصبح محمولا على قوائم من الخشب المدهون بالنفط يتم دقها بواسطة النقابين عقب ذلك، تملأ المسافة بين القوائم بمواد سريعة الاشتعال كالقش والحطب ونشارة الخشب، ثم تشعل فيها النيران التي بدورها تلتهم القوائم الخشبية، فيسقط السور، ويجد المهاجرون طريقهم إلى الحصن. وحفاظا على أرواح النقابين وخوفا من وقوع السور عليهم، وحماية لهم من التعرض لسهام المدافعين عن الحصن ونيرانهم فى محاولة منهم لوضع حد لعملية النقب، كان يتقدم النقابون ستار واق أطلق عليه

الزحافات(١) نحواً من ثمانين حجاراً بمعاولهم، وتقدم الجنود نحو الأسوار. كما قام فريق آخر من الجند برمي السهام ألي القلعة حتى يشغلوا الأرمن عن النقابين. وأخذ النقابون يعملون بمعاولهم في الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا نقبها لصلابة أحجارها (٢).

وأتفق في ذلك الوقت أن وصل المعسكر السلطاني نفر من "آل مهنا(٣)" وأخبروا السلطان أنهم رأوا جيشا تتريا ثان في طريقة إلى قلعة الروم. فجمع خليل الأمراء للتشاور في الأمر. وفى نفس الوقت أسّرت ألي بيدارا(٤) أن يشير على الأمراء بالرحيل وترك القلعة على أن يرجعوا إليها في العام القادم وذلك لشدة البرد وغزارة الأمطار والثلوج هذا العام، بالإضافة ألي خطر التتار الذي يهدد الجيش السلطاني المحاصر للقلعة. فلما سمع الأمراء كلام بيدار سكتوا؛ فقال لهم خليل:

- ماذا تقولون في كلام بيدار ؟

الصليبيون اسم "تستودو" TESTUDO ؛ بينما عرف في المصادر الإسلامية بعديد من الأسماء منها: المتراسة والجنوية، والطورق والدبابة، والأبراج الخشبية المجلدة الخ.. راجع في ذلك: فايز نجيب اسكندر: فن الحرب والقتال، ص ١٠١، حاشية رقم ٤. وأيضا: OMAN, ART OF WAR, II, P. 50; ARCHER & KINGSFORD, THE CRUSADES, P. 352.

(١) "الزحافات" مفردها "زحافة" وهى آلة من آلات الحرب والحصار. أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٤٢٢.

(٢) العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨.

(٣) "آل مهنا" من عشائر البدو المنتشرة في بادية الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٨). وكان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا للسلطان الناصر محمد الخيول من بلاد الشام، فأصبحوا أصحاب خطوة لديه، وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب. أنظر: المقريزى : الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. وأيضا: حلمي محمد سالم: اقتصاد مصر الداخلي وأنظمة في العصر المماليكي، ص ٢٢٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٠٦.

(٤) هو "بيدار بن عبد الله المنصورى" نائب السلطنة فى الدولة الأشرفية، وهو الذي خرج على الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وتسلطن بعده وتسمى بالملك الأوحد لمدة يوم واحد تقريبا حتى قتله خاصكية خليل وعلى رأسهم زين الدين كتبغا الذي تسلطن بعد سلطنة الناصر الأولى. للتفاصيل أنظر: ابن الفرات: جـ٨، ص١٧٧-١٨٨؛ المقريزى: السلوك جـ١، ق٣، ص٧٨٢-٧٩٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ٩٨؛ الإسحاقى: لطائف أخبار الأول، ورقة ١٥٨أ؛ مؤلف مجهول: كتاب في تاريخ العالم من آدم ألي الغزو العثماني، ورقة ٨٩ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٩؛ المقريزى، المقفى، ورقة ٢٧٦أ-٢٧٧أ؛ التلمساني: سكردان السلطان، ورقة ٩٥ب؛ الطولوني: النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية، ورقة ٩٨أ.

- فقال الأمراء إنهم مصممون على البقاء حتى تسقط قلعة الروم، لأن رجوعه بدون أخذها بعد ذلك الجهد والحصار الطويل فيه خدش ومهانة لكرامة السلطان وجيشه. ثم قال خليل :
- وما العمل مع التتار الذين عبروا الفرات ؟
- فقال الأمير سنقر الأشقر[1]، السلطان يأمرنا وأنا مستعد أن اركب مع بعض الأمراء لنقابل التتار، على أن يستمر السلطان في حصار القلعة حتى لا يشمت فينا الأعداء[2] .

---

(١) كان "سنقر الأشقر" مقيما بصهيون منذ سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد انتهى ما بينه وبين السلطان قلاوون من الجفاء والصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ واعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر الأشقر سيسير إليه وهو بها، أداء لواجب التابع نحو المتبوع، لكنه لم يفعل شيئا منذ ذلك. وعاد السلطان ألي مصر حانقا على سنقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء وكثرة الجفاء. وجدير بالذكر أن السلطان قلاوون كان قد ولاه نيابة السلطنة في دمشق في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتوفى سنقر مقتولا في سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. للتفاصيل عن خروج سنقر الأشقر على الملك المنصور قلاوون، راجع: ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٧؛ نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٦٩-٧٠، ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١١٢؛ كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٤٠؛ السلوك، جـ١، ق٣ ص ٧٨١-٧٨٢؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٥١؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٤٩-١٥٠؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٨٥، ترجمة رقم ١٢٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٤، ص١٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٨-٢٩٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ورقة ١١٠-١١٣. أنظر أيضاً : DARDEL, CHRONIQUE D'ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., T.H. PP. 14-15, NOTE 2.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢. ونستخلص مما أورده العيني أ. بيبرس الدوادار لم يكن شاهد عيان إلا في التجريدة التي أرسلها الأشرف خليل لمواجهة النجدة التترية، وكان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاس-كما أوردنا في المتن-أما أوائل عمليات الحصار لقلعة الروم، فلم يكن شاهد عيان لها. أضف الى ذلك أنه لم يكن على علم بكتابات البشرى بفتح تلك القلعة، ومنها كتاب أرسله الأمير علم الدين الشجاعي (جاء في ابن الفرات والنويرى أن هذا الكتاب كان من انشاء الفاضل "شرف الدين القدسي". أنظر: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٩؛ نهاية الرب، جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ) الى قاضي قضاة دمشق (ورد ذكر هذا الكتاب في تاريخ سلاطين المماليك-تحقيق زترستين-ص١٢-١٦، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، جـ٣، ورقة ١١ب-١٣ب؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ-١٠١ب؛ ابن أيبك كنز الدرر، ورقة ٢٨٧-٢٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٠-١٥١؛ درة الأسلاك، ورقة ١١٠-١١١؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، ورقة ١١٣-١١٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧-١٣٨) وكذلك الخطاب الذي أرسله السلطان الأشرف خليل الى نفس القاضي؛ (عنه أنظر: زترستين، ص١٠-١٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ورقة ٢٨٤-

وبالفعل، رسم السلطان لسنقر الأشقر وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح للزحف لملاقاة التتار. وكان عدد ذلك الجيش ألفى فارس، انضم إليهم جنود من البدو من آل مهنا، وآل فضل[1]، وآل مرا [2]، وبنى كلاب[3]، وأمراء التركمان[4]. وجد الجيش في المسير نحو الفرات وغيره، وسار إلى البر الشرقي نحو يوم وليلة فلم يجد أثراً للتتار الذين ولوا مدبرين بعد تلك المجابهة الثانية[5].

١٨٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠٠ب-١٠١أ) وأخيرا الكتاب الذي كتبه الأمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي. (أنظر: ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ١، ص١٥٢-١٥٣؛ درة الأسلاك، ورقة ١١١). = ففي الكتب الثلاثة إشارات مختصرة عن المجهودات الأولية التي قام بها الجيش المملوكي في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم ، والتي أغفل المؤرخ بيبرس الدوادار ذكر تفاصيلها رغم كونه شاهد عيان لها .

(١) "آل فضل" هم بنو "فضل بن ربيعه"، ومنازلهم من حمص ألي قلعة جعبر ألي الرحبة آخذين على شقى الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبله بشرق ألي الوشم آخذين يساراً إلى البصرة. أنر: القلقشندى: قلائد الجمان في قبائل الزمان ، ص٧٦؛ صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٠٤-٢٠٨. بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى الفرات.

(٢) "آل مرا" نسبة إلى "مرا بن ربيعه"، وهو أخو "فضل بن ربيعه" ومنازلهم فى حوران. للتفاصيل أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ٢٠٨-٢١٠؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان-تحقيق محمد مصطفى-القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٤- جـ١، ص٩٨، ١٠٤، ١٩٦. ويدعى آل فضل وآل مرا وآل مهنا وآل على أنهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكى من العباسة بنت المهدى، واتباعهم من أشتات العرب، ودونهم عربان بنى مهدى بالبقاء وزيد بحوران وبنو خالد بحمص. أنظر: العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٩؛ ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك، ص١٠٥؛ العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ورقة ٢٣، ٣٤.

(٣) "بنو كلاب" من أعراب حلب، وكانوا بشمال الشام. للتفاصيل أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر-نشر هنرى ماسيه-القاهرة ١٩١٩-جـ٢، ص٤٠؛ القلقشندى ك جـ٤، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) كان "التركمان" ينتشرون فى معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندى عشر طوائف من تركمان الشام . (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٧، ص١٩٠،٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهرى: ص١٠٤-١٠٥)، وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعيات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء التاخمين وهو. الصليبيون والتتار والأرمن، هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الأمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء اشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل أنظر: القرماني : أخبار الدول، ص٣٢٩-٣٤٠. أنظر: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق، ص٥-١٩). و لم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينهما، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصانا في بعض هذه الأملاك . أنظر: حلمي محمد سالم : المرجع السابق ، ص٩-١٩.

(٥) الدوادار : جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩؛ العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤٢.

ولما بلغ السلطان المملوكي خبر فرار التتار ، زاد في عزمه وفي عزم جيشه على مواصلة حصار القلعة. ومما ساعد جيوش خليل على النصر أن الأمير "علـــم الديــن سنجر الشجاعى" -الذي كان له النصيب الأوفى في فتح قلعة الروم- تحيـــل في عمـــل سلسلة عظيمة علقها بأسوار بواسطة هذه السلسلة حتى تمكنوا من دخـــول القلعـــة، وبذلك نجحوا في تخريبها، ورفعوا أعلام السلطان عليها [١].

"... ثم تتابعت العســـاكر فملكـــوا
القلعة ولعت السناجق[٢] بسرعة وقتل
من وجد فيها من المقاتلة [٣]..."

وكانوا من الأرمن والتتار، وأسروا مائتي رجل وطف وامرأة، وأحرقوا قصـــر البطريرك الأرمني وكنيسة، كما أسروا بطريرك الأرمن ستيفانوس الرابـــع[٤] (١٢٩٠-١٢٩٣م) STEPHANOS IV وأرسل الى المقدس حيث صلب. أما القساوسة وباقي الأسرى فد أرسلوا إلى القاهرة[٥].

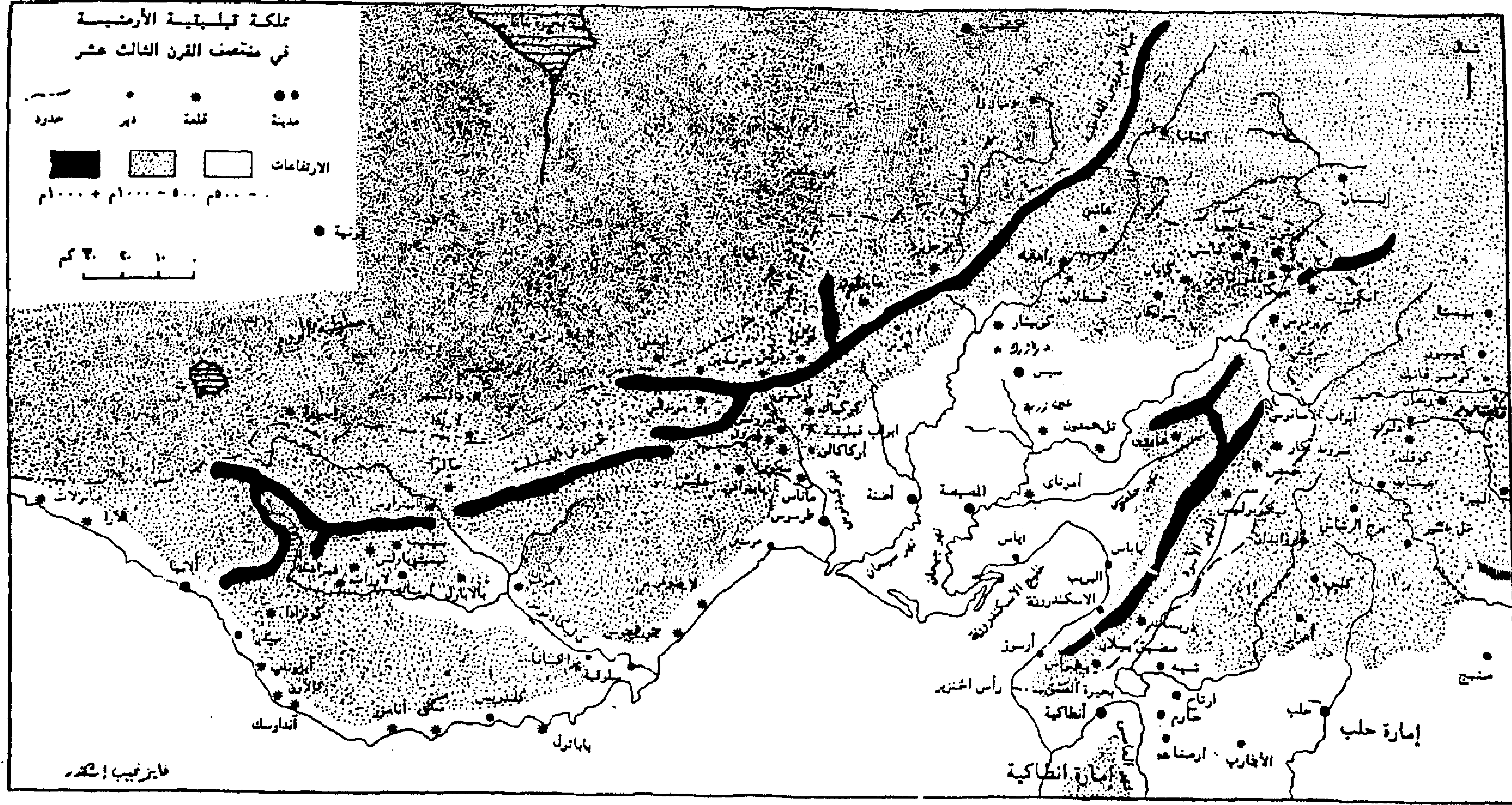
(١) ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـــ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) "السناجق" مفردها "سنجق"، وهو لفظ تركي كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايـــات الصغـــر الصغار التي تربط بطرف الرمح ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدي السلطان في مواكبـــة. أنظر: القلقشندى: جـــ٤، ص ٨؛ جـــ٥، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـــ١، ص١٩٠، حاشية رقم ٢.

(٣) الكتبي : جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٥.

(٤) يدعى "ستيفانوس الرابع كلايتسى" KLAIETSI أي من "قلعة الروم" تولى كرسي بطريركية الأرمن خـــلال الفترة من ١٢٩٠م إلى أن توفى سنة ١٢٩٣م. للتفاصيل أنظر : BAR HEBRAUS , CHRONICON SYRIACUM, PARIS, 1789, P. 579, TOURNEBIZE, P. 221; HONIGMANN, RUMQAL'A ENC. ISLAM, P. 1258.

(٥) الصديقي : نزهة الأبصار ، ورقة ١٠٧ أ؛ أبن الجوزى: جواهر السلوك ، ورقة ١٢١؛ المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٩؛ ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـــ١، ص١٤٩؛ زترســـتين؛ تـــاريخ ســـلاطين المماليك، ص١٧. والجدير بالذكر أن المؤرخ الفرنسي المحدث رينيه جروسيه ذكر أن البطريرك الأرمني ستيفانوس الرابـــع اقتيد أسيرا الى دمشق حيث توفى في العام التالي. أنظر .L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412 وبسقوط قلعة الـــروم ، انتقل مقر بطريرك الأرمن الجديد ألا هو جريجور السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) GRIGOR VII إلي "سيس" عاصمـــة مملكة أرمينية الصغرى. وظلت سيس عاصمة لبطاركة الأرمن حتى سنة ١٤٤١م. أنظر: ;TOURNEBIZE, P.221 GROUSSET, P. 412.


مملكة قيليقية الأرمينية
في منتصف القرن الثالث عشر
مدينة
قلعة
دير
حدود
الارتفاعات
شمال
أضنة
المصيصة
طرسوس
سيس
أمرتاي
تل حمدون
أياس
الإسكندرونة
أرسوز
رأس الخنزير
بحيرة العمق
أنطاكية
إمارة أنطاكية
حارم
ارتاح
ارمناز
الأثارب
حلب
إمارة حلب
منبج
البيرة
تل باشر
عينتاب
مرعش
بهسنا
كوكسون
قيصرية
سلطنة الروم
باياس
النهر الأسود
نهر سيحان
نهر جيحان
نهر كيدنوس
مرسين
أبواب قيليقية
سلوقية
باباترل
أنطاليا
العلايا
أنامور
آنداوسك
فايز نجيب إسكندر

واتفق بعد ذلك وصول الأمير "سيف الدين جنكلي[1]" الى القاهرة، فذكر أنه كان فى تلك السرية، وكان عدد التتار حوالى عشرة آلا ف فارس بقيادة أحد الأمراء ويدعى "بيتمش" وكان هدف التتار مباغتة الجيش المملوكي وأخذه على غرة أثناء حصاره لقلعة الروم. ولكن لما رأى الجيش التترى كثرة عدد جيش المماليك قفل راجعا. وفى غضون ذلك، أصاب الجمال مرض مميت فأباد أكثرها، فاضطر الجيش المملوكى الى حمل الأثقال على البغال[2].

وعقب سقوط قلعة الروم يوم السبت ١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١[3]هـ أمر السلطان بأن يمحها عنها سمة الرومية وأن تسمى "قلعة المسلمين"، ورتب الأمير " علم الدين سنجر الشجاعى" نائب الشام لعمارتها. فعمر ما هدمته المجانيق والثقوب وخرب ربضها[4] . كما عين الأمير " جمال الدين أتشي" نائبا على "قلعة المسلمين[5]".

---

(١) هو الأمير "سيف الدين جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد الله" المعروف بـ"أبن الباب العجلى" أتابك العساكر. وكان أصله من بلاد الروم. طلبه الملك الأشرف خليل وكتب له منشورا بالإقطاع الذي عينه عليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد فى سنة أربع وسبعمائة. فأمره وأكرمة ولا يزال يرقيه حتى صار نائب الكرك. وتوفى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. للتفاصيل ـنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) الدوادار: زبدة الفكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١. أنظر أيضا HOWORTH, HISTORY OF THE MONGOLS, LONDON, 1876, T.III, P. 336 .

(٣) أدرج رينيه جروسيه سقوط قلعة الروم ع ٢٩ يونيو ١٢٩٢م، أنظر L'EMPIRE DU LEVANT, P.412 وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن استنادا إلى إجماع كافة المصادر الإسلامية على ذلك. أنظر: الدوادار : زبدة الفكرة، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ ابو الفداء: جـ٤، ص٢٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠٠ب؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٢؛ ابن الفرات: جـ٢، ص٢٨؛ العينى : جـ٢١، ورقة ٥٦ أنظر أيضاً : SEMPAD P. 654; LE ROI HETHOUM II, P. 543; SAMUEL D'ANI, P. 463

(٤) "الربض" سوق القلعة أو المدينة وما حولها من بيوت ومساكن. أنظر : ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص١٩٠ حاشية رقم ٢.

(٥) أبو الفداء : جـ٤، ص٢٧؛ الدوادار : زبدة الكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ الذهبي : كتاب دول الإسلام ـتحقيق فهيم محمد شلتوت ـالقاهرة، ١٩٧٤ ـجـ١، ص١٣٩؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٤أ؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٧؛ كتاب تاج المعارف وتاريخ الخلايف، ورقة ٦٤ب؛ قلماز: العبر، ورقة ٢٢٤ب؛ اليافعي: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧أ؛ الكتبى : عيون التواريخ، ورقة ٦٥.

هكذا سقطت قلعة الروم في قبضة المماليك بفضل الحيلة الحربية الماكرة الـتي ابتدعها "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشـق. وكان السلطـان قد رحـل ألي حلب فأقـام بها بقيـة رجـب وشعبـان. ومالـبث أن عـاد ألي دمشـق فرحـب بـه أهلهـا، وبسطـوا شقق الحرير التى لم تجر العادة بأعدادها إلا عنـد قدومة من مصر. ولكن وزيرة "شمس الدين بن السلعوس" اشار بوضعـها فى طريقـة احتفاء بفتحة قلعة الروم. وأمضى الأشرف خليل فى دمشق شهر رمضان المبارك وعيـد الفطر، ثم عاد الى مصر فدخل "قلعة الجبل" فى يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر سـنة ١٢٩٢م/ ثاني ذى القعدة سنة ٦٩١هـ[(١)] . وتحدث "النويرى" فى مخطوطـة "نهايـة الأرب فى فنون الأدب" عن أعداد الأسرى الأرمن بعد استيلاء المماليك على قلعة الروم قائلا:

"... ووصـل الى الزردخانـاه {أى بيـت
السلاح} السلطانية من الأسرى ألف أسـير
ومائتا أسير ...[(٢)]"

كان هذا درسا لمملكة أرمينية الصغرى وعقابا على مواقفها المعاديـة لممـاليك مصر؛ كما كان فى ذات الوقت أنذارا لها بالمصير الذي ينتظرها وكان وشيك الوقـوع بعد أن فرغ المماليك فى تصفيه الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وإضعاف شوكة التتـار بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك.

وبعد أن تم للسلطان الأشرف خليل الاستيلاء على قلعـة الـروم ، بعـث الى "شهاب الدين بن الخوبي" قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه.

"... فإنه بفتح هذه القلعة وحيازة ثغرهـا
ومعلقهـا تحقـق مـن بسـيحون
وجيحون[(٣)] أنهـم بعـد فتـح بـاب

---

(١) ابن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٣٨٩-٣٩٠؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : جـ٨، ص١٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ، جـ ٢٩، ورقة ١٠١أ-١٠١ب.

(٣) أطلق المسلمون علىنهرى سارس SAROS وبيرامس PYRAMUS اسم سيحون وجيحون. وكانا فى صدر الإسلام حدا مائيا بين الخلافة الإسلامية والدولة البيزنطية. للتفاصيل أنظر: البغدادى جـ٣، ص ١٢٢٣؛ ابـن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٧٦-١٧٧؛ ابن رسته: الأعلاق النفسية، المجلد السابع ، ص٩١، " فنهر جيحون يمر ببلاد الأرمن حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرطوس فالمصيصة ، ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر المتوسط جنوب سلوقية. (أنظر: ابن خلدون : المقدمة، ص٦٣؛ القلقشندى، جـ٤، ص٨٢؛ أبو الفـداء: ص٥٠؛ العبر فى أنباء من غبر ، حاشية رقم ٦؛ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمـورة ، ص

الفـــرات بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون انهم ينجون، وما يكـــون
بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق
والروم والعراق[1] وملك البــــلاد مـــن
مغرب الشمس الى مطلع الإشراق...[2]"

يتضح لنا من الخطاب السابق الذي أرسله السلطان الشرف خليل الى قـــاضى قضاة دمشق بعد سقوط سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ وبعد استيلائه على قلعة الــروم[3] فى السنة التالية والذى يبشره فيه بالنصر، أن سلطنة المماليك-وقد خلالها الجو بعد الهزائـم المتلاحقة التى أنزلتها بالتتار وبعد تخلصها من الصليبيين-بدأت فى التوسع شرقا علـــى الحساب ايلخانات فارس. وهى لم تنس بعد مواقفهم السابقة ضدها، وتعاونهم الواضح مع مملكة أرمينية الصغرى فى سبيل أضعـــاف شـــوكتهم. ويؤيـــد هـــذا القـــول أن "كيخايتو"[4] (١٢٩١-١٢٩٤م/ ٦٩٠-٦٩٣هـــ).

١٤٣-١٤٤). وهو نهر بيراس القديم. (أنظر: ابن عبد الظاهر : الروضى الزاهر، ص١٥٠). وقد أطلـــق الأرمـــن عليه نهر الفرات، لأنه نهر كبير. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص٢٧٠) ونهـــر "ســـيحون" دون "نهـــر جيحون" فى الكبر ، وعليه قنطرة حجارة عجيبة البناء طويلة جدا. أنظر: الاصطخـــرى: المســـالك والممـــاليك ، ص٤٤٧ ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٨٣.

(١) أوضح مؤلف مجهول فى مخطوطة أطماع السلطان الأشرف خليل فى التوسع على حساب تتار فارس إذ يقـــول: "... ولو طالت أيامة لافتتح غالب بلاد العراق". أنظر : كتاب الجوهر الثمين فى اخبار الخلفاء والســـلاطين، ورقة ٧٢أ . كذلك لم يخف الكتبى الاتجاه التوسعي للأشرف خليل وذلك عند ترجمته له إذ يقول: " ... ولـــو طالت مدته ملك العراق وغيرها" أنظر : الكتبى : فوات الوفيات –تحقيق إحسان عباس، جـــ١، ص٤٠٦.

(٢) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١١-١٢؛ النويرى : نهاية الأرب، جـــ٢٩، ورقة ١٠٠ ب –١٠١أ؛ ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٨.

(٣) امتدح الشهاب محمود السلطان الشرف خليل على فتحة قلعة الروم بقصيدة طويلة أوردها البرزلى فى تاريخـــه. أنظر المقفى لتاريخ أبى شامة، ورقة ٤٥٨أ–٤٥٩أ. أنظر أيضا: ابن حبيب : درة الأســـلاك، ورقـــة ١٧٤أ–١٧٥ب؛ زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧-٢٠.

(٤) لم تكن حالة دولة تتار فارس فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / اواخر القرن السابع الهجرى تسمح لهـــا بمتابعـــة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الإسلام، ذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاســـتيلاء علـــى العرش. وكان "كيخايتو" خان التتار الذى خلف أخاه "أرغون" سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ وقد أنفق الأموال الكثيرة على ملذاته، مما أدى الى ضعف دولته. فخرج عليه "بيدو" والتقى معه فى قتال شـــديد انتـــهى بمقتـــل "كيخـــاتو" ســـنة ١٢٩٤م/٦٩٣هـــ واستقل "بيدو" بالملك ، فخرج عليه نائب خراسان المسمى "غازان بن أرغـــون" وجمـــع الجيوش وقاتل "بيدو" حتى أخذ الملك منه. وقتل "بيدو" سنة ١٢٩٥م/٦٩٤هـــ بعد معركة حامية قرب همذان للتفاصيل انظر: ابن حبيب: درة الأسلاك ، ورقة ١٢٢-١٢٤؛ المقريزى: السلوك ، جـــ١، ق٣، ص٨١٠؛ ابن الوردى: تتمـــة

خان[1] التتار بعث برسول الى السلطان الأشرف خليل يحمل كتبا يتضمن المطالبة بحلب لأن أباه هولاكو كان قد قام بغزوها من قبل ، ويهدد-إن لم يسمح له بذلك-بغزو بلاد الشام. فأجابه السلطان ألأشرف بأنه قد

"وافق ألقان ما كان فى نفسى ، فأنى كنت على عزم من اخذ بغداد وقتل رجاله، فإني ارجو أن اردها الى "دار الأسلام" كما كانت وسينظر اينا يسبق الى بلاد صاحبه[2]"

وواضح من هذه الرسالة عزم الأشرف خليل على التوسع شرقا على حساب التتار، ومدى القوة التى كان يشعر بها تجاه خصمه، حيث يظهر فيها روح التحدي والمبادرة نتيجة للانتصارات الباهرة التى أحرزها حتى أنه - كما يتضح من ردة السابق-طالب التتار بتسليم بغداد للإقامة بها ونقل الخلافة العباسية إليها .

ولقد أدرك الملك الأرمني هيثوم الثانى جسامة الخطر الذي يحيق ببلاده من قبل المماليك عندما بسقوط قلعة الروم فى قبضة السلطان الأشرف خليل. ولا شك أن الضربات الناجحة التى وجهها المماليك الى بقايا المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام وحلفائهم التقليديين قد هزته هزا عنيفا؛ وزاد الطين بلة أن أمر

المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٣٩-٢٤٠. أنظر أيضا D 'OHSON, HISTOIRE DES MONGOLS, AMSTERDAM , 1852, T.IV, PP. 101-106, 132, 141; CHABOT RELATION DU ROI AGROUN AVEC L'OCCIDENT, DANS R.O.L., 1894, PP. 127-128; BARTHOLD, GAIKHATU, DANS ENC.ISL., T. II, P. 135; HOWORTH, T. III, PP. 387-388.

(١) "خاقان" لقب أطلقه التتار على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان العظم" و "خاقان" يختلف عن "خان" الذى أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التتار لقب "خان" أيضا بمعنى "خاقان" وربما كان ذلك من بابا الرغبة في الاختصار . انظر ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ٧٣، حاشية رقم٤؛ المقريزى: السلوك ، جـ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩/سبتمبر -ص١٠٧، حاشية رقم ١٢. وكذلك GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.C., DOC. ARM, T. II, P. 841, N.D.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٨٧٦. انظر أيضا : D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

السلطان المملوكي سنة ١٢٩٣م/٦٩٢هـ بأنقاذ حملة لاستعادة بهسنا[١] من الأرمن[٢]. فلما وصلت الى "سيس"[٣]، بعث الملك الأرمني برسله الى السلطان-وللمرة الثانية - طالبا العفو والأمان. فاستشار السلطان المملوكي الأمراء في ذلك، فشفعوا في صاحب سيس ، فاشترط الأشرف: "إن كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع - وهي قلعة البهسنا وقلعة مرعش[٤] وتل

---

(١) "قلعة بهنسا" تقع شمالي حلب، على نحو أربع مراحل منها، وهي حصينة مرتفعة، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورستاق متسع، وبها مسجد جامع. وهي بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب، وهي في الغرب والشمال الغرب من عينتاب، وبينهما نحو مسيرة يومين، وبينها وبي سيس نحو ستة أيام. وكان لنائبها مكانة جليلة. (أنظر : القلقشندي: جـ٤، ص١٢٠-١٢١؛ ياقوت: جـ١، ص٧٧٠؛ البغدادي، جـ١، ص٢٣٤). وقلعة "بهنسا" من اعظم قلاع "سيس" ، وهي في فم الدربندات وباب حلب. وكانت في زمن الناصر صاحب حلب في ديوانه . فلما ملك هولاكو حلب، كان في بهسنا نائب يقال له "سيف الدين العقرب" فأباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم ، فأعطاه ستين ألف درهم وتسلم القلعة منه ومنعه الباقي . واستمرت في أيدي الأرمن الى هذا التاريخ، وكان على المسلمين منها ضرر عظيم". أنظر: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٩٨؛ النهج السديد، ص ٣٩٣؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، المقدمة الألمانية، ص٤٥؛ الجعفري : النزهة السنية، ورقة ١٩٧أ؛ النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ورقة ٨٨أ؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ص١٠٤ ، حاشية رقم٣.

(٢) المقريزي : جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن أبي الفضائل: ص٣٩٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور؛ زترستين: ص٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ص١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٤. وقد أخطأ "أبو المحاسن بن تغرى بردى" وصنفها تحت أحداث سنة ٦٩٠ هـ بدلا من سنة ٦٩٢هـ. أنظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, P. 543; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489. CF. KURKJIAN, A HISTORY OF ARMENIA, NEW YORK, 1958, PP. 250-251.

(٣) الكتبي: جـ١، ق١٢؛ ورقة ٨٢؛ اليونيني : جـ٣، ورقة ٢٧ب؛ أبو المحاسن، جـ٨، ص١٤؛ ابن إياس: جـ١، ص١٠٥؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك ، ورقة ١٦٩؛ النويري: جـ٢٩، ورقة ١١٢ ب.

(٤) تقع "مرعش" شمال بلاد الشام، على أطراف آسيا الصغرى. يحدها غربا جبل اللكام، وتطل المدينة على الطريق المؤدي الى مدينة حلب، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقي الى مدينة الرها، والآخر المتجه شمالا الى الحدث. مما تقدم، يتضح أن مرعش تقع في المنطقة التي تفصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة؛ وبين بلاد الشام وقيليقية من جهة أخرى. (للتفاصيل أنظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول-بيروت ١٩١٩-ص٤٨٨؛ البلاذري: فتوح البلدان : ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب-بيروت ١٩٠٩-ص١٩١؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار-تحقيق إحسان عباس-بيروت ١٩٧٥-ص ٥١٠؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع-تحقيق مصطفى السقا-بيروت ب.د.- جـ٢، ص١٢١٥؛ البغدادي : جـ٣، ص١٢٥٩؛ ياقوت: جـ٥، ص١٠٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة - بغداد ١٩٨١ -ص ١٣٩. أنظر أيضا: عبد الرحمن محمد عبد الغني: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية - الكويت ١٩٩٠-ص ٣٧ وحاشية رقم ٦٣). ويذكر العيني أن املك الأرمني هيثوم الثاني طلب من السلطان الأشرف خليل أن يكون نائبا عنه في بهسنا ، فلم يلق هذا الطلب قبولا. أنظر: عقد الجمان، جـ٢١، ق، ورقة ٥٦.

حمـــدون[١]-فأعطوه الأمان، وأن لم يسلم فحاصروه[٢]".

فتم الاتفاق على أن يترل الأرمن للمماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمــدون. ورجع العسكر المملوكي من سيس؛ فضلا من ملك مملكة أرمينية الصغرى أعلن ولاءة للسلطان، ليضع حداً لهجمات الجيوش المملوكية، وليحمى بلاده من الدمار والخــراب. لذلك "ضاعف الحمل والجزية"؛ ففرح الناس بتسلم خاصة "لأنه كان على المســلمين من بهسنا أذى عظيم[٣]"

وقد سلط "اليونيني" الأضواء على الأهمية الاستراتيجية البالغة للقلاع الثلاث وثرواهــا الزراعية حين قال

:"... وهذا مرعش وباهسنا {هكــذا فى الصل ، وصحتها: بهسنا} من أحصـــن قلاعهم وأعظمـــها، لاســيما باهســنا {صحتها: بهسنا} فإنها حصينـــة وبهــا ضياع كثيرة تزرع، وهو فـــم الدرنبـــد وباب حلب...[٤]"

عقب ذلك الاتفاق ، سير الشرف خليل المير "ســيـــف الـــدين طوغـــان" ورلى دمشـــق مع رسل صـــاحب سيس حـــتى يسلـــم الملـــك الأرمـــــني القـــلاع

---

(١) "تل حمدون" قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسنة البناء، وهى على تل عال ولها ربض وبين وبـــاتين ونمر يجرى عليها ، وهى على القرب من جيحان على بعد مرحلة من جهة الجنوب عنه، تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين، وبينها وبين أياس نحو مرحلة . أنظر أبو الفداء : تقويم البلـــدان ، ص ٢٥٠؛ القلقشـــندى: جـــ٤، ص١٣٦. انظر أيضا: SMBAT , P. 58 M. 48 CF, CA- HEN, LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CROISADES, P. 147.

(٢) الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ١٢، ٨٢؛ ابن أبى الفضائل : ص٣٩؛ زترستين : ص٢٢؛ السلوك جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ ابن إياس: جـــ١، ص١٠٥؛ تاريخ ابن القرات ، جـــ٨، ص١٥٦؛ النويرى: جــــــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب؛ ابن الجوزى : جواهر السلوك، ورقة ١٧٠.

(٣) ابن كثير : جـــ١٣، ص٣٣٢؛ النجوم الزاهرة ، جـــ٨، ص١٤-١٥؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقـــة ٨٢-٨٣؛ البرزلى: المقفى، ورقة ٤٤٥٨؛ اليونينى : جـــ٣، ورقة ٢٧ب؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص ١٥٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص ١٦٠. ولقد أوضح المولف المجهول صاحب كتاب "تاريخ سلاطين المماليك" أسباب خضوع الملك الأرمنى لمطالب المماليك بقوله ..." أنظر: زترســـتين: تاريخ سلاطين المماليك ، ص٢٢.

(٤) ذيل مرآة الزمان ، جـــ٨، ص١٥٦؛ ابن أيبك: كتر الدرر، جـــ٢٨ ورقة ٢٩٨؛ المقريزى : جــــ١، ق٣ ، ٧٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٢؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

المذكور . وفى ٢٦ مايو سنة ١٢٩٣م/أول رجب سنة ٦٩٢هـ[١]، قدم البريد الى دمشق بتسلم بهسنا مع القلاع المتقدم ذكرها[٢]، وأن نواب السلطان قد تسلموها وحكموا فيها. فدقت البشائر بذلك "وكان فتح عظيم للمسلمين"[٣]. واستقر "بدر الدين بكتاش الزردكاش المنصورى" فى نيابة بهسنا، وعين لها قاضيا وخطيبا، واستخدم لها رجالا وحفظة كما جرت عادة القلاع[٤] .

وفى يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٢٩٣م/١٨ رجب ٦٩٢هـ، وصل دمشق الأمير " سيف الدين طوغان" وصحبته رسل صاحب سيس[٥]

:"... وكان من جملة القطيعة مائة ألف
درهم جددا، ومن الخيل والبغال ثمانية
وخمسون رأسا بما فى ذلك من التقدمة
وهو عشرة رؤوس..."[٦]

هكذا كان سقوط قلعة الروم بمثابة زلزال هز كبار مملكة أرمينية الصغرى. وقد احسن الأشرف خليل استغلال هذا الانتصار العظيم خير استغلال حين أكره هيثوم الثاني على التنازل عن ثلاث قلاع بالغة الأهمية ألا وهى بهسنا ومرعش وتل حمدون. وبذلك تقلصت حدود تلك المملكة، فكان فتح المسلمين لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التى تمخضت عنها الحروب الصليبية.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٥٦. انظر أيضا:
LE ROI HETHOUM II, 54.

(٢) ابن أبي الفضائل : ٣٩٦؛ المقريزى : جـ١، ق٣، ص٧٨٤؛ الكتبى : جـ١، ق١٢ ، ورقة ٨٣؛ زترستين: ص٢٣؛ ابن ايلس: جـ١، ص ١٠٥؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١١٢ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٨٠ ب.

(٣) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٣؛ الكتبى: جـ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

(٤) زترستين : ص ٢٣؛ الكتبى : جـ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى : جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابن أبي الفضائل: ص ٣٩٦. الفضائل:

(٥) زترستين : ص٢٣؛ الكتبى : جـ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى: جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١١٢ب-١١٣أ. أنظر أيضا : LE ROI HETHOUM II, P. 543

(٦) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية-تحقيق أكسل مويرج-ليدن ١٩٠٢-جـ٣، ص٤٨؛ العيني: جـ٢١، ورقة ٥٦. وجدير بالذكر ان المصادر الأرمنية جنحت إلى الاختصار الشديد عند ذكرها أحداث سقوط قلعة الروم في قبضة المماليك، والعلاقات العدائية

لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

وينبغي علينا قبل طي صفحات هذا البحث تقصي أسباب تلك الانتصارات التي حققتها سلطنة المماليك، وأسباب ما لحق الأرمن من هزائم متلاحقة. فحقيقة الأمر، كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح المماليك خاصة بعد تمكنهم من كبح جماح التتار في معركة عين جالوت، وما أحرزه بيبرس من انتصارات على الأعداء عامة من تتار وأرمن وصليبيين واستعادته إمارة إنطاكية الصليبية؛ ثم مواصلة قلاوون الألفي انتصاراته على العداء الثلاثة، وتمكنه من استعادة طرابلس من الصليبيين، وأعداده العدة لفتح عكا. وأعقب ذلك سير الأشرف خليل على درب والده ونجاحه في فتح عكا واستغلاله حماس المماليك المتدفق نتيجة ارتفاع روحهم المعنوية لفتح قلعة الروم التي أسماها "قلعة المسلمين" وتنازل هيثوم الثاني عن الثلاث قلاع السالفة الذكر مقابل سحب الجيش المملوكي. فكان الأشرف خليل يتعامل مع الأرمن بمنطق القوى الذي يملي شروطه على الضعيف .

وإذا انتقلنا الى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجرى. علما بأن علاقة ملوك الأرمن مع المماليك لم تكن على ما يرام، فالأرمن "... اخبث عدو للإسلام" على حد قول العمرى[1]؛ إضافة الى تعلق ملوكهم بأهداب التحالف مع التتار ألد أعداء المماليك. وقد عبر كل من العمرى والقلقشندى عن ذلك بقولهما " ولملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وفيهم أمر نافذ[2]". ولم ينس المماليك أن هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م) HETHOUMI لعب دورا رئيسيا في إقناع خان التتار بإرسال الحملة التي قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م، فسطر الأرمن بذلك صفحة داكنة السواد فى علاقتهم مع

- وبين السلطان المملوكى الشرف خليل والملك الأرمنى هيثوم الثاني، وذلك عكس المصادر الإسلامية التى أفردت لهذا الانتصار الصفحات العديدة المتعددة والتى تظهر جليا فى ثنايا هذا البحث . ولعله قد ساء الأرمن أن يسجلوا تلك الهزائم التى لحقت بهم، بينما هللت المصادر الإسلامية بأخبار النصر. وكان هذا أمرا طبيعيا. عن المصادر الأرمنية أنظر :

SAMUEL D ANI, P.463; LE ROI HETHOUM II, P. 542-543 ; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489; SEMPAD, PP. 653-65 .

(١) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٢) العمرى: ص٥٦؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠.

المسلمين عامة. وكان الهم الأوحد للأرمن التحالف مع التتار ضد المماليك فى كافة المعارك الدائرة بين الطرفين؛ في حين كان التتار يمرون آنذاك بمرحلة ضعف وانحلال وانقسام، فانعكس ذلك بالتالي على مملكة أرمينية الصغرى .

أما الغرب الأوروبي الذي كان من المفروض أن يناصر الأرمن في حربهم ضد المماليك، فقد كان آنذاك في فترة تغيير وانتقال وكان يعاني من الضعف والتدهور، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحروب الصليبية. وبدأ الفرد الأوربي يتجه إلى مصالحة الخاصة، والدول إلى مشاكلها الداخلية.

ولقد حرصت البابوية على إصدار النداء تلو النداء طالبة مساعدة مملكة أرمينية الصغرى. إلا أن مساعيها انتهت بالفشل في تعبئة الغرب ضد سلطنة المماليك.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت المنازعات المذهبية الضارية مع الأرمن عائقا حال دون تقديم المساعدة لهم.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أحوال أرمينية الداخلية السيئة ومن أهمها: النزاع الديني بين الأرمن أنفسهم عقب محاولة بعض ملوكهم الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية وما نتج عنه من انقسام الأرمن إلى حربين متقاتلين. إضافة إلى إفلاس الخزانة العامة بسبب الأموال السنوية الطائلة المحمولة من قيليقيا إلى سلطنة المماليك في مصر. علما بأن تلك الأموال كانت تشكل موردا هاما لخزانة الأرمن، الأمر الذي عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله "... وانتعشت خزانة الأموال بهذه الجملة العظيمة التي تحمل كل سنة (من مملكة أرمينية الصغرى "(1) . كذلك كان من نتيجة اضمحلال نشاط مملكة أرمينية الصغرى التجاري سوء أحوالها الاقتصادية بعد انصراف التجار عن مينائها اياس(2) .

هكذا كان من الاستحالة على ملوك الأرمن الصمود طويلا في مواجهة التيارات المتلاطمة التي أحاطت بملكتهم. وقد أدرك ذلك بعينه الثاقية الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م/٦٥٢-٧٢٤هـ) MARCO POLO فتنبأ لها قبل نصف قرن من الزمان بالسقوط إذ ذكر أنها "كانت فريسة سهلة بين أسد التتار، ونمر المماليك، وذنب الأتراك، وثعبان قراصنة البحر"(3).

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ٩٣.

(٢) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى ، ص٢١٤-٢٥٠.

(٣) MARCO POLO. THE VELS OF MARCO POLO THE VENITIAN. TR. BY WILLIAM MARSDON. LONDON, 1903, T.II. P. 42

الأمير فخر الدين بن الشيخ
فى محكمة التاريخ

د ./ رأفت عبد الحميد

كلية الآداب – جامعة عين شمس

فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، أقام المؤرخ جمال الدين بن واصل دعوى فى محكمة التاريخ ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الجيش المصرى ، أتابك أو مقدم العسكر ، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواته العسكرية ، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدى للجيش الصليبى الذى يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء ، وامتلاكهم لها "صفواً عفواً" ، وما تبع ذلك من النكبات التى حلت بمصر قبل أن ينتهى الحال بالحملة وقائدها إلى الفشل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ "همة الأمير التى ترقى إلى الملك" ، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه فى القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيوب يلملم ليالى العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس" والسعى إلى تحقيق هذا الطموح قبل أن يصل الوريث الشرعى ، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقل عن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل بنصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامى "ابن أيبك الدوادارى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى ، والمقريزى الذى كان أشد هؤلاء جميعا قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كما لو أن المقريزى كان يقرأ منها ويخط بيمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جريا على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلا أو حتى قليلا عند هذه الأقوال ومناقشتها وإخضاعها لأصول النقد التاريخى ومنهج البحث العلمى ، حتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، او بتعبير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده ، خاصة وأن هذه الاتهامات

تندرج كلها تحت "الخيانة العظمى" والإخلال بواجبات "الشرف العسكرى" ، وهو ما يستوجب فى أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام .

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيم النفع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفاصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير من الأحيان ، ساعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعايشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره على أجد بين ثنايا أقواله شيئا يميط اللثام عن حقيقة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بالذات ، مشاركا لهم حتى فى خواطرهم ، مشيرا عليهم بما يفعلون أحيانا ، كما يخبرنا بنفسه عن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمرا شائكا تعتوره الصعاب من كل ناحية ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلك حينا ، والسكوت عن ذلك أيضا أحايين كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البيزنطى على السواء . ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية ، إلا أننى آثرت تحريك الدعوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمدا فى ذلك على نفس صحيفة الاتهام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشا لما جاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللا وناقدا ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التاريخ وثيقة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمد بتولى مشيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفا لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه[1] ، وكلفه أيضا بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمق

[1] - يعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة "خانقاه" دمشق ، فاكتسب بذلك لقب "شيخ الشيوخ" ، وهو اللقب الذى ذاعت به شهرة هذه الأسرة حيث تولى أفرادها جميعا هذه الوظيفة باستثناء فخر

المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها فى أسرة "الشيخ" دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم فى معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بنى أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء ، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدى للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحى العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق فى الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن ، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح[٢]، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل ، ونالوا فى زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخا لهم من الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون[٣] .

ولما كان الملك الكامل "فاضلا عالما شهما مهيباً عاقلا محبا للعلماء ، وللحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف[٤] فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له ، على حد قول المقريزى[٥] بين رياسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل[٦] تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصدا لمن إليه ... وكان معدم المثل فى وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارسا ماهرا ، فحاز بذلك "فضيلتى السيف والقلم"[٧] . وقد أهلته مواهبه هذه للمشاركة بفعالية فى ترتيب أوراق البيت الأيوبى بعد وفاة الملك الكامل ، فسعى جاهدا للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى ، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر ، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد

الدين يوسف . أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين، ص ١٢٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٣ - ٣٤ ، راجع حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى ، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

[٢] - أبو شامة ، الذيل ص ١٢٥ .

[٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٥ ص ١٧٠ ؛ المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٤ .

[٤] - أبو المحاسن النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص ٢٢٨ - ٢٣٦ .

[٥] - الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

[٦] - مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

[٧] - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦١ .

مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبي بكر فى دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه[٨] .

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية "تل العجول" التى تمت بينهما فى العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا فى مصر فى أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ) / (١٢٢٩م)[٩] . وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩ – ٦٤٠هـ / ١٢٤١ – ١٢٤٢م[١٠] .

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن اخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتقديم العزاء فى وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله ، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ / ١٢٢٦م ، فألقى خطبة رائعة بين يدى الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى ، أورد لنا المقريزى[١١] جزءا منها ، وفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين ، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح إسماعيل منها ، بعد أن استبد بالأمر هناك وعانى أهلوها من عسفه وقساواته[١٢] ، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه[١٣] . وتروى لنا المصادر[١٤] رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين

---

٨ – لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٠ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمن فى تاريخ الأعيان جـ٨ ص ٧٢١ – ٧٢٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ، الخطط جـ٢ ص ٣٣ – ٣٤ .

٩ – المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

١٠ – ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠١ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٠٩ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى .

١١ – السلوك جـ١ ص ٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : "ويوالى شكر الله تعالى على إماطة لين العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخر والأول" .

١٢ – أبو شامة ، الذيل ص ١٧٦ .

١٣ – ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخبرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح إسماعيل ، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وإبريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلا يصلح لقيادة الجيوش ، وتمثل ذلك فى قول الصالح إسماعيل له "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك" ! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح "جنْكا" وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له "غلالة" حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص ترتديه النساء ، وقال له : "السجادة وما معها تصلح لى ، وأنت أولى بهذا من الملك" ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح إسماعيل لا يصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب . وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى أضطر الصالح إسماعيل إلى الهروب منها ، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الاخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب ، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لاخوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة ، أو كما وصفه العماد الحنبلى[15] "محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم" ، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون اخوته بقوله "كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن[16]" ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل ، فلم يدعه يحذو حذو اخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية ، وإنما "جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء[17]" ، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة

[14] - سبط بن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ - ٣٥٥ وحاشية ١ ص ٣٥٥ .

[15] - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،جـ٥ ،ص ٢٣٩ .

[16] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ١٦٩ .

[17] - المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم . راجع المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه ، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص ٣٩ - ٤٠ .

المرموقة التى احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل ، وتمثل ذلك فى الكثير من المهام السياسية والعسكرية والدبلوماسية التى كلفه القيام بها على امتداد عهده فى السلطنة .

ففى عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق ، وكان ذلك بسبب رفض الناصر "لتنازل لعمه عن حصن "الشوبك" الذى كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين فى الشام وحماية مصر من هجماقم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالى دمشق ، وانصرافه عن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو[١٨] ، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة[١٩] . ولا شك أن هذا يفصح عن الثقة التى كان يضعها الكامل فى فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكد تمضى على ذلك سنوات قلائل حتى كان فخر الدين فى مكة سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهو ابن الملك الكامل ، وذلك فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك[٢٠] .

غير أن الدور الأساسى الذى اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الكامل ، يتمثل فى المهمة الدبلوماسية التى قام بها مفاوضا مع الإمبراطور فردريك الثانى Fredrick II ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعد أن أدت الظروف السياسية التى تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب خلاط ، بطمعهما فى مُلك مصر ، ولجوء ملوك البيت الأيوبى فى الشام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا ، مثل الخوارزمية والصليبيين ، أو قوى داخلية مثل الباطنية الأشد فتكا ، ولتحقيق طموحاقم الشخصية ، أدت إلى أن يوفد سلطان مصر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧م لمقابلة فردريك الثانى ودعوته للقدوم إلى الشرق ، ليشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما[٢١]

---

[١٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

[١٩] - المقريزى ، السلوك، جـ١، ص ٢٢٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥ .

[٢٠] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٠٦ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ،ص٢٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط،جـ٢، ص ٣٤ .

[٢١] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا فى الفصل السابق من هذا الكتاب.

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير ، محبتهما للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم ، ودارت بينهما مناقشات طويلة فى كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية ، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين ، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها فى حديثه عن كل منهما ، فيقول عن فردريك الثانى : "وكان الإمبراطور - من بين ملوك الفرنج - فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب" ، ويقول عن الأمير :"وكان فخر الدين فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن"[٢٢] ، ولا شك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد قربت بين الرجلين تماما ، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثانى إلى الشام فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل ، حتى تم التوصل فى النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ[٢٣] .

وقد أنعم الإمبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة "فارس" ومنحه امتياز وضع الرنك الإمبراطورى على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك[٢٤] ، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الإمبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثانى إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ "حران" سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، ومثلها إلى الأمير فخر الدين ، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التى يمر بها ، وكذلك المؤامرات التى حاكتها البابوية ضده ، والانتصارات التى تحققت له على الأسقف الرومانى وأعوانه ، وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التى يوليها فردريك الثانى لفخر الدين ، وعلو المكانة التى احتلها الأمير الدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التى يضع فيها الإمبراطور الملك الكامل . ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر[٢٥] بنصيهما ، ندرك كل هذه الأمور ، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية

---

[٢٢] - يقول ابن واصل "وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا ، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ٤ ص ٢٢٤ ، جـ٥ ص١٦٩، وقارن Kantrowicz., Fredrick the Second, p. 185 وفى القصة الرائعة التى نسجها المؤلف الأمريكى جوزيف جاى ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للامبراطور فردريك الثانى كتبها بالعربية ، يقول الامبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين وكان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر ، وعلى دراية بالأسلحة والخيل والتصقر (أى الصيد بالصقور) ، لقد كان فى الواقع خير ممثل لمليكه" . راجع الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان "الزنديق الأعظم" ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

[٢٣] - راجع الفصل السابق .

[٢٤] - جوانفيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشى، ص ١٠٨ ؛ راجع أيضا :

Runciman, *A history of the Crusades*, vol. III, p. 185 .

Setton, *A history of the Crusades*, vol. II p. 449 .

[٢٥] - الحموى ، التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو ص ١٨٩ - ١٩٤ .

الداخلية للإمبراطورية ، أو بتعبير آخر ، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية فى تلك البلاد ، وتفصح عن ذلك – على سبيل المثال – عبارة وردت فى صدر الرسالة الأولى تقول : "... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحنا بله ..." ، هذا بالطبع بعد الديباجة التى تملئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصداقة ، بينما يختتم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : "... وبعد ، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته" . أما الرسالة الثانية فهى تتناول فى جملتها جهود الإمبراطور فى التصدى لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله فى الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول فى حذلقة – كما قد يذهب البعض – إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفى فى رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل فى روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا ، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التنكر لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠م ، كان همه كله موجها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية فى إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده ، والتى تحولت إلى عداء شخصى فى تلك المرحلة[٢٦] ، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التى كانت تجرى فى أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر ، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة

وإذا كان فخر الدين بن شيخ قد حاز ثقة الإمبراطور فردريك الثانى وإعجابه ، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذى توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عونا له فى تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء ، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجل العلماء ويترلهم مُترلا كريما ، وقد لخص المقريزى[٢٧] ذلك كله فى عبارة

---

[٢٦] – رأفت عبد الحميد ، السمر البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ص ٢١٣ – ٢١٧.

[٢٧] – الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

مختصرة وإن كانت فى غاية البلاغة ، قال فيها : "ومازال (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل" .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التى حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل بسبب التراع الذى نشب بين أفراد البيت الأيوبى ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين ، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل ، فقد أقدم ابنه وخليفته فى مصر ، العادل الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشايات ساقها الناصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل، وتشير المصادر إلى أن هذه الوساوس التى همس بها الناصر فى أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط ن بل شملت أخاه عماد الدين أيضا[٢٨] ، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشيوخ بأبنائها الأربعة هى التى قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين ، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التى كانت لأبيه المعظم عيسى ، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير ، الذى كان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية ، وعَدَّ الناصر قرار العادل الثانى بالإبقاء عليه فى الكرك ، وعدم تمكينه من دمشق والإنعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شيخ الشيوخ لسلطان مصر الجديد ، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل[٢٩] آنذاك، "أرباب الدولة المشار إليهم" وأنهم يمثلون "شوكة قوية" .

و لم يطل مُكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور فى مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة - على حد تعبير ابن واصل[٣٠] وحفظ لكمال الدين أحمد مترلته ومكانته التى كانت له أيام الملك الكامل ، ثم لم يلبث السلطان أن أفرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

---

[٢٨] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٢٣ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٤٧ .

[٢٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ .

[٣٠] - مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ فى عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويه المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصرى المتجه إلى دمشق فى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فيقول المقريزى[٣١] "وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطانى والخزائن ، وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه كعادتهم فى خدمة السلطان ، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته" . وهذه العبارات لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهى عبارة "وأقامه السلطان مقام نفسه" .

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قراراً بتحديد إقامته فى بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه "ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته"[٣٢] ، وكانت هذه المسألة من الأمور التى أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التى أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما ، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ فى صحبة الأمير فخر الدين .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التى حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائها فى داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م ، والذى يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التى تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره ، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه ، فما أن أفرج عنه حتى "خلع عليه وأمره

---

[٣١] - السلوك جـ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٤١ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ . والأستادار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف التام فى احضار ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوى . أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستئذان لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٢٠ .

[٣٢] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا[٣٣]، ولم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين ، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية ، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، فخرب ما كان حولها ، وضيق على الناصر ومن معه حتى قل ما عند الناصر من المال والذخائر[٣٤] ، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه ، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ ، فتسلمهم منه ورحل عنه[٣٥] .

ولم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها ، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان[٣٦] حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه ، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقى مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة[٣٧] ، وعهد فى الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبيين ، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يديه ، وصل رسول الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الطرفين ، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام[٣٨] .

---

[٣٣] – المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٣ – ٣٤ .

[٣٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ؛ ابن أيبك، الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ .

[٣٥] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥ .

[٣٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٧٨ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص٣٦ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ،جـ٥، ص ٢٣٠ .

[٣٧] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٦ .

[٣٨] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبية السابعة التى يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتى ألقت مراسيها على الشواطئ المصرية عند دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التى تمثلت فى هذه الاتهامات التى عرضناها فى صدر هذا الفصل ، والتى دفعتنا - كما ذكرنا - إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض فى التفصيلات الخاصة بالإعداد للحملة ، وما جرى فى أوروبا ، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التى تساعد أو تحقق لحملته النجاح ، وليعوض من خلالها ما لحق بالحملات التى سبقتها - باستثناء السادسة - من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها فى الكتب العديدة التى تناولت أحداث هذه الحملة ، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحل من ميناء ليماسول فى مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث فى قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط فى المنطقة المعروفة بـ "جيزة دمياط" ، وليبدأ بذلك الخطوات نفسها التى سبقه إليها جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[٣٩] .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريق فردريك الثانى ، قد أعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العسكرية السابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة ، لن يسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته تلك الحملة حتى لا يدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيل ، تجنبا للغوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفة للنهر ، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات

[٣٩] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٧٥ ؛ Setton, *A history of the Crusades*, II pp. 487 - 521; Runciman, *A history of the Crusades*, III pp. 255 - 292

القرن الثانى عشر ، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها ، ثم اتجه إلى أطراف محافظة الشرقية الحالية ليقيم منطقة عسكرية – جديدة لتقف فى وجه هؤلاء القادمين عن طريق الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية . وكان هذا الإجراء من جانب الصالح دليلا على فطنة عسكرية ، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دى برين .

ومع كل هذه التوقعات التى تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ فى الوقت نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبى ، فانتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر فى أشموم طناح التى اتخذ منها معسكرا له ومركزا لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التى كانت على حصار حمص إلى مصر فورا، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ فى التعبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط حيث يقول ما نصه[٤٠] : "وأنا قويّت دمياط ، وملأتها ذخائر من كل شئ ، يكفيها عشرين سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجل ، وما خليت (هكذا) لها عذرا ، حتى بقيت وحدى فى أشموم بسبب المرض" .

وفى إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم الجند العرب الذين استوطنوا مصر فى المنطقة بين البرلس ودمياط ، واشتهروا بالشجاعة والمثابرة فى القتال، ولعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة ، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل ، فشحنت أبراج المدينة وأسوارها بأعداد ضخمة منهم ، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى ، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربى للنيل قبالة دمياط ، أو المنطقة التى تعرف – كما قدمنا – بـ "جيزة دمياط" ، والتى نزلت فيها الحملة الخامسة، والتى وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن ، وأعطى الأوامر أيضا إلى الأمير حسام الدين ابن أبى على ، نائب السلطنة فى القاهرة ؛ بأعداد قطع الأسطول المصرى وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط، لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى فى نهر النيل[٤١] .

---

[٤٠] – النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٤٣ .

[٤١] – زيادة ، حملة لويس التاسع، ص ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى، ص ٨٢ – ٨٣ .

ويبدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين فى الشام ، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهزة للضغط على أعصاب السلطان المريض ، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه فى زماننيا هذا بـ "الحرب النفسية" ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هدّه المرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة، إلا أنه لم يكن أبدا خائر العزيمة ، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية فى الصالحية وأشموم طناح والمنصورة ودمياط وجيزة دمياط على المستويين البرى والبحرى على السواء . لكن لويس أراد أن يهتبل كل سانحة لإضعاف خصمه والنيل من عزيمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهب به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة[٤٢] تفيض بالتهديد والوعيد ، نقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها ، قال :

" ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد ، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل ، ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصح والهداية ... فلا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت .. فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد" !!

والى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتبلهى والتفاخر بما تم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمى الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك ، وما تعرضت له الإسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس ، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بإعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا فى حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

---

[٤٢] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى فى كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ٣٦ - ٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه ، حملة لويس التاسع على مصر ص ١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها ، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسى الآمال التى كان يعقدها عليه لويس ، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصرار على التصدى لهذه الغطرسة الصليبية ، فكتب إليه يقول :

" ... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وهاأنذا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كانت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك .. وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أننا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس ، إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعضيت على يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . فإذا قرأت كتابى هذا فلتكن منه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" ، ولتكن منه على آخر سورة ص "ولتعلمن نبأه بعد حين"، هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون، "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" ، وإلى قول الحكماء "إن الباغى له مصرع" ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام"[٤٣] .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا ايجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع ، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى إشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين ، وكان حتما مقضيا ، ولا تخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التى يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصبرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب .

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التى أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبى قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى النزول إلى

---

[٤٣] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٧ - ٣٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

الشاطئ الغربي للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كان يعسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المرابطة معه . ولم يكن نزول فرق الجيش الصليبى يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها من الانتشار أو إقامة معسكر لها . وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من أبرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ ، وأن ينصب الملك خيمته ، ويضرب أمراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبة إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبى لم يعرف برحيلهم إلا فى صبيحة اليوم التالى ، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط ، بل ولى وجهه وجيشه معه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفزع والهلع فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكامل قواهم وعددهم باتجاه المعسكر السلطانى ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها ، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة ، "وخرجوا ومعهم أهل دمياط على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح" .

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق على هذه الأحداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصر، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل، يقول: "... كان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعددا، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها

وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له"[٤٤] .

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها الكنانية والمصريين أهل البلد ، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التى قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين - كما يبدو من ظاهر القول - لم يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح ، عن ضعف فى هذه القوات أو نقص فى عتادها ، حتى أن جوانفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول "وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى نفوس سامعيها "[٤٥] ، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ فى جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

وتجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين ، أحدهما المؤرخ الصليبى جوانفيل ، شاهد العيان فى هذه الحملة ، والمؤرخ الإسلامى ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط فى الإجابة من قول جوانفيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو المالك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط"[٤٦] ويعلل البغدادى[٤٧] عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذى

---

[٤٤] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ فى كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٥ - ٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائيا عن دمياط ، منقول من الجزء الذى لايزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن فى الحواشى إلى ذلك بعبارة "الملحق المذكور" ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٤ .

[٤٥] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩١ .

[٤٦] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩٦ .

[٤٧] - الحوادث الجامعة ص ٢٤٠ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص ١٢٥ .

أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح فى الوقت نفسه بعدم إزعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجده عند ابن واصل الذى يقول : "ولما عدى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح"[٤٨] .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى ، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور ، هذا ما يوحى به حديث المصادر . ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعة كاملة على فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : "وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط" ، وكان اتهاما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية ، وإخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش ، بل يصل الأمر إلى حد الاتهام بالخيانة العظمى حين ينسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية ، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، "إنه كان عالى الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"![٤٩] .

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أيبك[٥٠] يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد "رأيا ذميما وسوء تدبير" ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى[٥١] "إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين" ، فإذا ما جئنا إلى المقريزى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول "فعدت هذه

[٤٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٦ .
[٤٩] - المصدر السابق ، ص ٢٨٥ - ٢٩٤ .
[٥٠] - الدر المطلوب، ص ٣٦٩ .
[٥١] - النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٣٠ .

الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين"[52] وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخر الدين واعتبروه مسئولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التي صاحبت هذه الحملة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة[53] ولم يأخذ موقفا مغايرا

---

[52] - المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

[53] - يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور "وربما كان السبب في تعجل فخر الدين في الفرار ، هو اعتقاده بأن السلطان المريض -الملك الصالح أيوب - قد توفى فعلا ، في الوقت الذي كان فخر الدين ذا أطماع "ترقى إلى الملك" (وهذه عبارة ابن واصل) ، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركا دمياط لقمة سائغة للصليبيين" ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٦١ ، وافتتاح الحديث بكلمة "ربما" يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ في الوقت ذاته . بينما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الدين متهما إياه صراحة بالخيانة بعبارات تفوق أحيانا ما أدانته به عبارات المصادر ، ولأهمية ذلك في عرض القضية التي نحن بصددها ، فإنني آثرت أن انقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص : "... ويعلل بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه ، بسبب تفوقهم عليهم في العدة والعدد ، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح .

"ويبدو أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارات ابن واصل التي تلقي باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنج وأساطيلهم لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقي الذي دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة في أيدي العدو ، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ .

"لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال ، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفسه بالسلطنة في ذلك الوقت ، فإنه جاء في المصدر السابق (يعني ابن واصل ، مفرج الكروب) "كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك" .

"أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذي طالما كان يسعى إليه ، فعندما لم يتلق ردا على رسائله التي بعث بها إلى السلطان ، اعتقد أن السلطان المريض قد مات ، فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولي على الملك . وقد جاء في مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصري (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح ، كما ذكر في موضع آخر ، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه) ، يتضح لنا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن في الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عدتهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منية فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة ، القاهرة ، بل اتجهوا إلى المعسكر السلطاني في أشموم طناح) ، علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم" .

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول "وبالرغم من الخيانة التي اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (تورانشاه بن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . ولمتسائل أن يقول : إذا كان فخر الدين طامعا في الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسي السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصري على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهي بعد موت سيده ، وتصرف في الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع في إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق في المعسكر ، وخلع على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون سماطه ، حتى لقد خشي حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعث شجر الدر وباقي الأمراء القصاد لإحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك

لذلك إلا الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سيقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : "... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية "[٥٤] .

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : "والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كان القائد فخر الدين شعر بأنه مبعد عمدا عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح "[٥٥] .

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة "المصالح الشخصية" هذه لدى الأمير فخر الدين وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما بيناها آنفا ، يختتم حديثه بقوله : "غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التى سيطرت على متهمى فخر الدين) ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى "[٥٦] .

حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول تورانشاه من الحصن لعلمه أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق، وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله . ولكن تخمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش ، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده" .

ويختتم الدكتور جوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله "وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يمهله طويلا إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار إليه ملك البلاد . راجع ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٤١ - ١٤٣ .

[٥٤] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١١٤ .

[٥٥] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص ١١٤ .

[٥٦] - المرجع السابق نفسه ص ١١٤ - ١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه كتاب "السلوك لمعرفة ولى الملوك" للمقريزى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقريزى فى اتهام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص ٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، قوله : " يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل " كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح ، وكانت همته تترقى إلى الملك " ، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه " حملة لويس التاسع على مصر " وذكر الآراء التى عرضنا لها فى المتن ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك ، و "الشناعات" على هذا النحو الذى رأينا ، فإنه لا مدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهة وبداية إن إقدام أى قائد عسكرى ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته من ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، بعد إخلالا بالواجبات العسكرية ، وإنما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون العسكرى ، كان هذا فى العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله السلطان الصالح أيوب مع الكنانية الذين تركوا مواقعهم فى أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربوا ، حيث أصدر أوامره بإعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامهم ، هذا فى الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه ، وأبقاه فى منصبه كما هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانية لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لما رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه فى الضفة الغربية للنيل ، ومروره بدمياط فى طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟! .

وقبل أن نصدر حكما فى هذه القضية الشائكة ، فإنه يتحتم علينا إعادة قراءة النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعوى ومناقشة أصحابها ، حتى يجئ الحكم متفقا مع حيثياته .

علمنا من جوانفيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات المعسكرة فى جيزة دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح ، ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة تساؤل ملح عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلو حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، و لم يزد جوانفيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنا من سبيل إلا أن نستقرى سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه فى زماننا هذا بالبلاغات الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكون الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبية إلى الشواطئ

المصرية عند جيزة دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك[٥٧] إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبي والأسطول المصاحب له ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التي وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصرى ، وهى المناوشات التي استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبي ، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"[٥٨] ، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددى الواضح للجيش الصليبي ، خاصة وأن المنطقة التي تعسكر فيها فرق الجيش المصرى لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل من مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام ، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية ، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتي نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكرى وكيفية مواجهته ، وإدخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التي كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول فى معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية فى جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية ، ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى ، وأيقن أن الدخول فى معركة فاصلة مع الصليبيين فى جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبي ، لذا رأى أن يجرى تعديلا سريعا فى الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم .

وتؤكد رجحان كفة هذا الرأى عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لويس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : "... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا فى البحر بازاء المسلمين"[٥٩] ، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول

---

[٥٧] - يقول جوانفيل " استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك ، راجع القديس لويس ص ٩٦ .

[٥٨] - المقريزى ، السلوك ، حـ١ ، ص ٣٣٦ .

[٥٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٥ .

المصرى بمن وما فيها ؛ أما ابن أيبك الدوادارى[٦٠] فيخبرنا أن الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل ، أرسل إلى السلطان الملك الصالح بخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر ، وأنه (أى لويس التاسع) "قد وصل فى خلق كثير" ثم يقول ابن أيبك نفسه "وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة" ؛ هذا على حين يردد المقريزى[٦١] عبارات ابن واصل حيث يقول : "وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين" ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن[٦٢] بأن ملك فرنسا "قد خرج من بلاده فى جموع عظيمة" ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيش الصليبى وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى[٦٣] الصورة بقوله : "جمع (ملك فرنسا) جمعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل" ويذكر أبو الفدا[٦٤] العدد نفسه الذى ذكره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة لويس ، نعنى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبى ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، "أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة"[٦٥] ، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول "دعا الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبى) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث"[٦٦] ، ومع أن جوانفيل لا يضع رقما معين لعدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبى لضخامة الجيش من أسماء الأمراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى ، فى الإقطاع الأوروبى فى العصور الوسطى[٦٧] ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو[٦٨] . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عدد

---

[٦٠] - الدر المطلوب، ص ٣٦٦ .

[٦١] - السلوك، جـ١ ،ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

[٦٢] - النجوم الزاهرة ،جـ٦ ،ص ٣٣٠ .

[٦٣] - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٢٩ .

[٦٤] - المختصر فى أخبار البشر ،جـ٣ ،ص ١٨٧ .

[٦٥] - جوانفيل ، القديس لويس، ص ٩٠ .

[٦٦] - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٩١ .

[٦٧] - يقول جوانفيل " ... كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بول ، وابن أخيه جوشيه ... وكوانت دى لامارش ، وابنه هيولى برون ، وكونت ساربوك وأخوه جوبرت دايرمونت " . هذا إضافة إلى أخوة لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع القديس لويس ص ٧٥ - ٧٦ .

[٦٨] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٧٥ .

الفرسان المحيطين بالملك وقدره بألفين وثمانمائة[٦٩] ، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية فى العصر الإقطاعى ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلى لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل[٧٠] ، وهو لم يبعد بذلك عن المراجع الأوروبية التى ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل[٧١] ، بينما راوحها بعض آخر[٧٢] ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندى فقط .

أما القوات التى كانت يقودها الأمير فخر الدين فى جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص فى أعالى الشام ، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تتهيأ لمواجهة الغزو الصليبى ، و لم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأى حال من الأحوال من أعداد جيش لويس ، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التى يذكرها لنا المقريزى[٧٣] عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبى ، الذى كانت أعداد عسكره تتراوح فى أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف .

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التى بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح ، والتى رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذى كان بالضرورة – كما أكدت الأحداث، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل فى جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة ، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدى لحصار الصليبيين ، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل ، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التى يمكن الإقدام عليها ، بدلا من

---

[٦٩] – المصدر السابق نفسه ص ٩١ .

[٧٠] – حملة لويس التاسع ص ٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

[٧١] – Runciman, *Crusades*, III p. ; Grousset, *Croisades*, III, p. 438 n.I.

[٧٢] – Strayer (J.R.), *The Crusades of Louis IX* (in Setton, Crusades, II ,pp. 493 - 494.
وراجع أيضا: ماير (هـ. إ.) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة/ عماد الدين غانم ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

[٧٣] – الخطط ، جـ١ ، ص٨٦ .

مواجهة القوات الصليبية فى معركة مكشوفة كان التفوق العددى فيها لجيوش لويس التاسع، كما أن المناوشات الأولى - كما بينا - كانت الغلبة فيها للملك الفرنسى . من هنا نرجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان ، مبينا عدم جدوى البقاء فى جيزة دمياط ، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطانى على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصرى ، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتى سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتى فى مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانه أو عساكره.

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربى إلى البر الشرقى تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، و لم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبى المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا فى صبيحة اليوم التالى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم فى جيزة دمياط . و لم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا فى النيل بسبب الفوضى والاضطراب التى تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة ، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم فى سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون "فرارا" لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن أخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذى قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس : إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة فى الأرواح أو العتاد ، وليس من المنطقى ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على إنجاز هذه المهمة ، التى عدها الصليبيون مكيدة دبرت لهم على حد قول المصادر ، ليكون هدفه الأساسى من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الإسراع إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه بالوثوب على العرش ، لأن "همته كانت تترقى إلى الملك" كما يقول ابن واصل ! ولكن الذى نميل إليه

ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية "الشجعان" المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين ، كان مشغولا آنذاك، إلى جانب النواحى العسكرية ، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه فى أشموم طناح، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح فى محفة لما ألم به من مرض شديد ، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه فى مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون فى قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد فى ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكده الأحداث التالية كما ستوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته فى دمياط لتعزيز دفاعاتها، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان ، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا فى دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم فى إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها فى أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا "الفرار" الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة "حفاة عراة" لا يلوون على شئ ، فى محاولة للنجاة بنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : "ولما عدى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان"، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غذوا السير إلى حيث العسكر السلطانى ، وهذا تؤكده عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول "فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم"[٧٤] ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من

[٧٤] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ، ص ٢٦٦ .

بين يديه ، أو هى هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : "فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط"، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جند لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفي لمن يدقق فى كلماتها ، إلا أنها فى معناها الظاهرى تعد دليل صدق على ما نذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية "بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان" . ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر ، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان فى الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة فى مصر ، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت ما لا يدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد فى جيزة دمياط ، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه ، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كى تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا فى هذه الفوضى التى حدثت وحدثنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : " ... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق[٧٥] انهزموا وسلموا لهم البر ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد ، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحدا، هربوا الكنانية فى الليل ، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، نهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذها الفرنج ثانى يوم"[٧٦] . ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله " لو منع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط " ، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب ، " وساق وراء العسكر وردهم " ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و " طمعا " داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

---

[٧٥] - مفردها " حراقة " وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ .

[٧٦] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٤٤ .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة فى السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا فى معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هـــذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية فى حروبـــه مع الصليبيين فى الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبى هناك ، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الأخيرين أيضا بالانضباط العسكرى ، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حـــتى موته ، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن الملك الصالح ، ويعبر ابن أيبك[٧٧] عن ذلك فى عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقـــول : " اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من عدد الأكراد والخوارزمية وغـــيرهم مـــن الجيوش" . وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمـــه فى وصيتـــه لابنـــه تورانشاه حين قال : " يا ولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبـــس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويبرطل نقيبـــه وأستاذ داره[٧٨] على خبز جندى معروف بالشجاعة والحرب ، طرده أميره ، وأعطى خـــبزه لذلك العامى الذى لا ينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة ، فإذا عاينوا العدو وقـــت الحاجـــة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولا هو شـــغلهم ، فينبغـــى أن لايستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكـــرة ، وتظـــهر فروسيته، حينئذ يستخدم "[٧٩] .

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكنانية والعوام وأهل دمياط إلى أشمـــوم طناح حيث المعسكر السلطانى ، ومن هؤلاء الأخيرين من تفرق فى الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله فى إيجاز شديد : " ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشـــنقوا جميعـــا ،

---

٧٧ - الدر المطلوب ص ٣٧٠ ، ويقول ابن واصل : " لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لمـــا فر الناس عنه بقصر معين الدين بـــ " الغور " ، مال إلى مماليكه ورجحهم " ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٤ ، وراجـــع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب فى ، ابن واصل ، مفرج الكروب حـــ٥ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك حـ١ ، ص ٢٣٩ .

٧٨ - أى المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

٧٩ - النويرى ، نهاية الأرب حـ٢٩ ص ٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى " عسكر " و " جند " . فالمقصود بالعســكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراده بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا ، ويحيطون بالسلطان لا يفارقونه أبدا . أما الجنـــد أو الأجناد فهم جند الأمراء وغالبهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقـــابل اقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفاء عما فعلوه " ، أو " الصبر والتغاضى " على حد تعبير المقريزى[٨٠] .

وإذا كان الوقت لا يحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، و لم يتسع الصدر ليشمل هذا " الصبر والتغاضى " أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى[٨١] أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم " ؟! وتأتينا الإجابة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر[٨٢] تقول ، إن السلطان " شنق أمراء الكنانية – وكانوا نيفا وخمسين أميرا – بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره " .

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبى ؛ ذلك ان الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة ، لم يكونوا ضمن الجيش الرئيسى ، أو بتعبير آخر لم يكونوا جزءا من العساكر النظامية التى تخضع للقائد العام للجيش ، مقدم العسكر ، ومن ثم كانوا يتلقون أوامرهم من السلطان مباشرة ، ورغم شجاعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال ، بل وتهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخسائر جسيمة لأنفسهم فى كثير من الأحيان . ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة على عهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجه إلى الكنانية أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها ، وكانت تلك هى الطامة الكبرى.

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية على هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم السابقة تجاه الصليبيين، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد "تغير" السلطان و "الألم" الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك السلطان لحظة واحدة فى نية الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره ، أو التآمر الكامن فى نفس

[٨٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٦ .

[٨١] – تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا تاريخ الزمان ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا ، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

[٨٢] – المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ص ٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

القائد العام تجاهه ، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هـو نفسه متذرعا بالصبر ، فى ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء ؟! والأغرب من ذلك أن يتركه فى منصبه قائدا عاما لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن السلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر ، كما أخبرت عن ذلك زوجه شجر الدر ، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظم تورانشاه ، ابن الصالح، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان ، وأخفت زوجه خبر موته إلا عن الأمير فخر الدين نفسه ، والطواشي جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان ، على حد قول ابن واصل[٨٣]. هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفا من أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشام سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وكانت أوامره فى ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبي على نائب السلطنة فى القاهرة حيث قال : " إنى مسافر إلى الشام ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى الملك العادل بقلعة مصر ، فيأخذ البلاد وما يجرى عليكم منه خير ، فإن عرض لى فى سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لاخير فيه لكم "[٨٤] . ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتا بالقلعة فى اليوم التالى مباشرة لرفضه الانصياع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك ، ليكون بها معتقلا بعيدا عن القاهرة حالة وجود السلطان فى الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشى جمال الدين محسن بقتله خنقا[٨٥] . بل إن السلطان – على حد قول ابن واصل [٨٦] لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه فى القدوم عليه إلى مصر ، لكراهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول ، الشق الأول من الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـ "هروبه" أو "فراره" من جيزة دمياط إلى المعسكر السلطانى ، وتخليه بذلك عن واجباته العسكرية ، وتفريطه وتهاونه فى الدفاع عن الديار المصرية ضد الحملة الصليبية السابعة ، نقول الآن .. بقى أن ننظر فى الشق الثانى من هذه الاتهامات ، وهو مكمل للأول ، باعث له مترتب عليه!! نعنى بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعيا للقفز على العرش فى ظل هذه الظروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والحرج، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جزء

---

[٨٣] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ٢٨١ .

[٨٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

[٨٥] – المصدر السابق، نفسه ،جـ٥ ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ص ٣٢٧ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٥ .

[٨٦] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٩ .

من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها ، وذلك اتهام جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل . وإذا كان الدليل العملي الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة ، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة - على حد قولهم - إلى أشموم طناح، فإن سؤالا لابد أن يقفز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر السلطانى؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لا يستطيع حراكا ؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كان قد جاء أصلا لهذا الغرض ؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطانا بدلا منه ، خاصة وأن الملك الصالح " لم يحزن لموته إلا القليل " ، كما تقول المصادر[٨٧] ، بينما كان الأمير فخر الدين محبوبا رغم خيانته ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعوى ؟![٨٨] أتراه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قريبة محتومة ، كما يسوق متهموه ذلك أيضا ؟ وإن كنا لا ندرى كيف يجتمع الناس ، وفى مقدمتهم السلطان وزوجه والعامة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءا من البلاد للأعداء ، مهما بلغت منحه وعطاياه .

ومن ثم، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة، حتى يمكن فعلا إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية؟

ونتساءل أولا - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هربا- من جيزة دمياط إلى أشموم طناح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض ، ليدخل الألم فقط على نفس السلطان علّه يموت كمدا ؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، والتى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر" ما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"؟! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا ، والذى فصلنا فيه القول من قبل، لكن ابن واصل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يظن انه كان طموحا فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعا إلى السلطة وشوقا إلى العرش ! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابن شيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فرارا وتخاذلا كما جاء على لسان ابن واصل: "لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألما منه لرجوعه بالعسكر

---

٨٧ - أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـ٦ ص ٣٣٦ .

٨٨ - جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ١٤١ .

من دمياط، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج"[٨٩]، ويردد هذه العبارة نفسها فى موضع آخر بقوله: "إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يقف بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور بعده "ومرة أخرى لا ندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لا يثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة!!

نقول ليس هذا فقط الذى جعل الصالح يزاور عن فخر الدين فى رأى متهمية ، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التى اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية، فيقول ابن واصل مكملا عبارته السابقة ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب "يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملك السلطان مصر ، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبه عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره "[٩٠] ، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته فى داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل فى موضع آخر : " إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر "[٩١] .

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب فى أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن ، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية دون أية مساءلة ؟ وهو لا شك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته فى داره و لم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن فى الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا فى موضع سابق من كتابه[٩٢] بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه ، قال : "فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك ، فاستشعر منه ، و لم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه " ، والعبارة الأخيرة هذه " غير مضيق عليه " تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان ، ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا

---

[٨٩] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

[٩٠] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ ، وقارن جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ص ١٠٥ ، ويقول المقريزى : " كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ لشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن ، فكره السلطان ذلك وأمره أن يلازم داره " ، السلوك ، جـ١، ص ٣٠٩ .

[٩١] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ .

[٩٢] - ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب ، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه " واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة ، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على منزلته ومكانته التى كانت له فى أيام الملك الكامل "[٩٣] .

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدبر المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذى جعل الملك الصالح " يقيمه مقام نفسه "[٩٤] ، والثانى حفظت له مكانته التى كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة فى الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين فى بيته غير مضيق عليه ، وأخواه الآخران يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج فى السنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبى فى الشام ، وأنصار أخيه العادل الثانى المعزول فى القاهرة ، ولو كان الشك يخامر السلطان فى نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه منزلا كريما . ومن ثم فإنه ما أن مات الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالى ، حتى استدعى السلطان الأمير فخر الدين ، وأحله محلهما ، ويقول ابن واصل فى ذلك، " فخلع عليه وأمره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره"[٩٥] ، وليس من المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل " استشعر منه" وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التى كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، " فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح"[٩٦] .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولى الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب ، أعنى أنها لم تكن بمجرد علاقات عادية ، بل هى علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخبرنا المقريزى[٩٧] أن السبب الذى دفع العادل الثانى إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ

---

[٩٣] - المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .

[٩٤] - ابن زيلك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ .

[٩٥] - ابن واصل ، مفرج الكروب، حـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،حـ١ ، ص ٣٢٢ .

[٩٦] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤ .

[٩٧] - السلوك ، حـ١، ص ٢٨ .

الشيوخ كان يراسل الملك الصالح وهو بدمشق ، فى الفترة التى اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح فهل هذا الأمير هو الذى يمكن أن "يستشعر منه السلطان"؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل فى رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجده يقول ، فيما نحن الآن بصدده ، " فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخو فخر الدين) بدمشق ، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدمه"[٩٨] ، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكن أن يوصف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيده لهوى فى نفسه ؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب ، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان " ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ... بلغ من عظيم هيبته أنه كان إذا خرج وشاهد المماليك صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد"[٩٩] . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب ، وقد اجتمعت له كل هذه الصفات ، على أن يقرب إليه رجلا يشك فى ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش ، حتى لو كان فى أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته ؟!

والذى يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يحدثنا عن هذه الأمور ، يجئ حديثه مرسلا وكأنه خبير الوقائع بنفسه ، فإذا ما تناول فخر الدين وما يساور السلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخبر بذلك أو نما إلى علمه أو قيل له ، وكأنه يلقى بالمسئولية على غيره أو يحترز فيما يرويه ، من ذلك مثلا قوله " وعلمت من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[١٠٠] " ، وأيضا " بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا (يعنى الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه[١٠١] .

ويبدو أن هذه الجهة القريبة التى أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان فى كثير من هذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة فى القاهرة[١٠٢] ، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب ، ومن ثم كان

---

[٩٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .

[٩٩] - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٢٧٥ ؛ وراجع أيضا: أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

[١٠٠] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٣ .

[١٠١] - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .

[١٠٢] - جرى ذلك بقلم ابن واصل فى بعض المواضع حين يقول صراحة : " أخبرنى بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبى على الهدبانى " ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة " فحكى لى حسام الدين بن أبى على " ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٢، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمد عليهما السلطان فى تصريف أمور دولته ، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين ، رغم ثنائه عليه فى أكثر من موضع ، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده فى الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى ، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن بعيد منذ كان ابن واصل يطلب العلم فى دمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م[١٠٣] عندما ألقى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب ، كان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد أطلق سراحهم ، وأمر الصالح إسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل رجله قيدا وحبسه فى حبس الخيالة بقلعة دمشق ، قال ابن واصل معلقا على ذلك " فأقام حسام الدين فى حبس الخيالة ، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به فى الحبس فى أكثر الأوقات "[١٠٤]

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب ، تحسب عمه الصالح إسماعيل للأمر ، فقام بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله فى جب وضيق عليه غاية التضييق ، على حد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محيى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله ، للتوسط بينه وبين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين فى محبسه هذا حتى أطلق الصالح إسماعيل سراحه بعد ذلك فى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[١٠٥] .

و لم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبى على الهذبانى وجمال الدين بن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكريم على يد نائب السلطنة حسام الدين ، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفسه كيف كان ذلك ، يقول " وكان دخولى إلى القاهرة فى المحرم من هذه السنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبى على ، وكان السلطان الملك الصالح (نجم

---

١٠٣ - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٤ .
١٠٤ - المصدر السابق ،جـ٥ ، ص ٢٤٣ .
١٠٥ - المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ ، ٣٢٨ .

الدين أيوب) قد أنزله فى الدار المعروفة بدار الملك[١٠٦] على شاطئ نيل مصر فى مدينة مصر ، وهى دار عظيمة من آدر خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نازلا فى قصوره بقلعة الجزيرة ، وهى القلعة التى أنشأها بالجزيرة (الروضة) ، وكان عنده (يعنى حسان الدين) فى أعظم المنازل ، وأعطاه خبزا جليلا ، فأحسن إلى وأنزلنى فى داره التى بالقاهرة ، وهى دار جليلة بدرب الديلم[١٠٧] وأدرنى إنعامه وإحسانه "[١٠٨] . وعلى هذا النحو الذى فصله مؤرخنا ندرك إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصل بجميل نعمائه وإحسانه ، ولا غرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبى الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، نعنى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر ، والأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح فى الإقرار بفضل الحسام عليه ، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول " ولم ينص (الملك الصالح نجم الدين أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بن أبى على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة "[١٠٩] . ولو أن الأمر اقتصر فى الحديث على حسام الدين فقط ، لكان من الممكن أن يمضى

---

١٠٦ – " وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ن بدأ فى بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧ – ١١٠٨م) ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر ، فصارت بها وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة " . راجع المقريزى ، الخطط جـ١ ص ٤٨٣ .

١٠٧ – عرفت بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك فى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م . فسكنوا بها فعرفت بهم " راجع المقريزى الخطط جـ٢ ص ٨ – ٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقة التى قدموا منها ، منطقة الديلم وهى جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

١٠٨ – ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٣٣٤ .

١٠٩ – المصدر السابق ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث ، فلابد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها، وليس هناك ما يستوجب الإتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لا يثق الصالح بفخر الدين كل الثقة ويعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف ؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : " ثم جرى من فخر الدين يوسف ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحنق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على "[١٠٩] .

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك ، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم ، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من "هوج واضطراب"[١١٠] ، ويمضى قائلا : " وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات ، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى "[١١١] .

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين[١١٢] من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته، وأنه ترك هذه "الوصية الشفهية" مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما: "إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى) ليرى فيها رأيه ". وفى الموضع الثانى يقول : "وكان السطان الملك الصالح لا

---

[١٠٩] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٨٤ .

[١١٠] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٨ .

[١١١] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٧٩ .

[١١٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبي على ، حتى أنه فى السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى فى قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فربما استولى على الأمر فيهلككهم ، وذكر لى أشياء شتى مما لايمكنني أن أسطره " !! وقال له مرة أخرى : " إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " !! هكذا - كما يخبرنا مؤرخنا - أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسي - هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلينا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن ، والطيب فتح الدين . وكان أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحرف الواحد : " ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم إن السطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم (تورانشاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدم على العسكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء والأجناد ومماليك السلطان "[١١٣] . ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبي على الهذبانى نائب السلطنة . ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤتمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدبير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما ، هل يمكن أن تقدم شجر الدر، زوج السلطان الراحل، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها . وائتمانه على هذا السر ، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر ، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدبير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها، وأنه خليق بتحمل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يبتغى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة

[١١٣] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .

المناسبة التي جاءته تسعى ، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية ، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد "حلفوا" على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضاءهم على هذا الاختيار ؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، فيدخل معه فى معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر فى هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل ، ودقة الموقف فى مصر ، يقول : " واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك "[114] . ولنتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين فى أربعة سطور فقط ، وصدرها بقوله " واتفقوا جميعهم " ، بمعنى أن هذا كان يلقى استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة فى مصر! فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش ، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقته فى منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق -إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة -كما قيل- فى اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه -كما قيل أيضا- تطمع فى هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقى ، بل لعل الدليل العملى القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه فى قوله وهو يرثيه " كان أميرا فاضلا ، عالما متأدبا ، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى اخوته مثله ، بل ولا فى غير اخوته " !!"[115] ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها ، لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس فى زمانه ، بحيث لم يكن فى اخوته ولا غيرهم من الناس مثله ، ولابد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير . أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسيسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم " وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل "[116] . ويكمل سبط بن الجوزى

---

[114] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨١ .

[115] - المصدر السابق نفسه ص ٢٩٣ .

[116] - النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٨ .

هذه الصورة بقوله : " وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهب داره ... وكان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الين محسن)"[117] وهكذا أضيف إلى قائمة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير[118] فيقول : " وكان (الأمير فخر الدين) فاضلا دينا مهيبا، وقورا بالملك، كانت الأمراء تعظمه جدا، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب"، ويضع أبو المحاسن[119]، اللمسات الأخيرة فى هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول: "كان عاقلا جوادا ممدحا مدبرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب... ندب إلى الملك فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه". وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولا يمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال فى رجل راودته نفسه يوما ما عن عرش السلطنة ، وحدثته بأن يترك واجبه فى ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على السلطة من ملك يعالج سكرات الموت فى مرضه الأليم ! بل لقد ندب إلى الملك فأبى ولو شاء لكان له ما أراد، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيث لم يكن هناك فى زمانه من له بين الناس خصاله ، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن ، القول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه فى المنصورة ، ليعلن على الجميع ما اتخذ من قرارات فى هذا الشأن . يقول ابن واصل : " ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ووقع التحليف على النحو المذكور "[120] .

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل[121] تجعل من كل ما قاله قبلا عن إيثار الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين ، يذهب مع الريح ، يقول : " وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة أو صغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتب ترد من المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بن أبى

---

[117] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان حـ٨ ص ٧٧٦ .
[118] - البداية والنهاية حـ١٣ ص ١٧٨ .
[119] - النجوم الزاهرة ،حـ٦، ص ٣٣٦ .
[120] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٢ .
[121] - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣ .

على يظن أن السلطان حى ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه " (!!) ، ولو كان الأمر كما يقول ابن واصل متمنيا ، لعُهد إلى حسام الدين فى ذلك المرسوم بتدبير أمور الملك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب فى الأمر أن مؤرخنا يقول فى الفقرة التالية مباشرة " إن السلطان ما كان يثق فى الأمير فخر الدين بالثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور من بعده " !! فكيف يمكن قبول هذا التضارب فى أسطر متتاليات ؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هذه من السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم إقصاء فخر الدين عن موقعه ، هذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدبر الأمور فى الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، فى ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل ، من " فخر الدين الخادم يوسف " ومن " حسام الدين المملوك أبو على بن أبى على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر "[١٢٢] .

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور فى السلطنة ، فيقول ابن واصل: "... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظم، وصار لفخر الدين موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ويحضرون لسماطه "[١٢٣] . ونتساءل ، ما الذى كان يتوقعه ابن واصل من رجل عهد اليه رسميا بـ "التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؟ أليس كل ما "يشنع" به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هيبة هذه المناصب التى يتولاها وتقاليدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل فى مقر قيادته بمعسكر المنصورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذى لا يخلو من طرافة ، بل امتد ليشمل فى الإطار نفسه أن فخر الدين "شرع فى إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم " ، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطروح ، الذى كان نائب السلطنة فى دمشق ، والشاعر بهاء الدين زهير الذى رده إلى منصبه ، يعنى ديوان الإنشاء ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خبر ذلك

---

[١٢٢] - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧ .

[١٢٣] المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ وراجع حاشية ٥٣ .

ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكنون لمدبر المملكـــة الاحـــترام ، ويمكـــن الاعتماد عليهم فى تصريف الأمور ، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التى من أجلـــها اســـتغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير ، لم تكـــن شـــكا فى ولائهما ، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه[١٢٤] .

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين " أخـــذ فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام"[١٢٥] ، ولا نملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزى[١٢٦] فى ذلك : " ... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ ممـــاليك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولا عوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار . وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين ســـيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فإيش ترك لى أنا (!!) " ، وهكذا لم يكـــن فعل فخر الدين هذا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه ، وطفحت غيرته الشـــديدة علـــى لسانه ! ويضيف ابن الجوزى معلقا فى سخرية لاذعة : " فكان حفظ فخر الدين للملـــك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه !!

---

[١٢٤] – عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـــ٦ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ . ومن المعـــروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر ونيلها ، لا يعدلهما عنده أى شئ آخر . حتى قيل فيه إنه " مصرى المنشأ ، مصرى الـــروح ، مصرى العاطفة " . وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك لويس التاسع عنـــد قدومـــه فى أول الأمر الى الديار المصرية ، والتى أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسى جمال الدين يحيى بن مطروح فقد قـــام بخدمـــات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، نجدها مبسوطة عند المقريزى فى الســـلوك ،جـــ١، ص ٢٨٤ – ٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم ، ولم يذكر المقريزى شيئا أكثر من قوله . وفى ســـنة ٦٤٦هـــ "عزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق " دون أن يورد أسباب ذلك ، وكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابـــن مطروح مستعطفا الصالح ، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا — عن عبده يحيى مقالا مقنعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح — مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ولطالما جربتنى فوجدتنى — أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى — نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حقى كلام معاشر — أقصى مناهم أن أبيت مضيعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة الى مصر فى حملة جديدة . بعد هزيمتـــه الســـاحقة فى الحملة الصليبية السابعة التى قاده ، وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحذره فيها من سوء المصير الذى ينتظـــره إذا رام فى ذلـــك جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إذا جئته — مقال صدق عن قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى — من قتل عباد يسوع المسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة — لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين وجمال الدين يحيى بن مطروح ، راجع ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٥١٧ – ٥٤٠ .

[١٢٥] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٦] – مرآة الزمان ، جـــ٨ ، ص٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذباني ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا ، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا "الوهم" إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذى اكتشف بفراسته فى التمييز بين الخطوط ومعرفتها، وأقسم بـ "الله العظيم" على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، "فتبين مخالفة الخط للخط"، ثم يقول ابن واصل، وهذا هو بيت القصيد، "فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته، وأخذ فى التبيين عنه، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك، ويستبد به لنفسه، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"[127].

هكذا فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل فى صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى "الخوف الشديد" من أن "يستبد" ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه، فيصبح من بعد نسيا منسيا! ويعلق المقريزى[128] بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله "فاحتاط لنفسه".

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا ، نعنى جماعة القصاد الذى تم إرسالهم من معسكر المنصورة لإحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا فى ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد فى كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين فى القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الإجراء حين يقول " وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك "[129]، مع إنا نعلم من ابن الجوزى[130] وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل ، وكذلك يخبرنا ابن أيبك[131] والمقريزى[132] أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطانى فى المنصورة الأمير فارس الدين أقطاى ، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير، ومن

---

[127] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، وقارن ما جاء بهذا الخصوص عند المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٣٣٩ .

[128] – المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[129] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

[130] – مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ .

[131] – الدر المطلوب، ص ٣٧٣ .

[132] – السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

ثم فإنه عملا بمبدأ " الحيطة والحذر " كما أشار المقريزى ، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ " زين الدين العاشق " ، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفا من أن تخرج البلاد من يده[١٣٣] ، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفى الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ان الملك العادل الثانى ، وسجنه فى القلعة ، " وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه ، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاما[١٣٤] ، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له: "إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل"[١٣٥]. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقا عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن تيقن الحسام من موت الملك الصالح.

وحتى تكتمل هذه الصورة تماما، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين ، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفا للملك الصالح . يقول مؤرخنا : " لما تواترت الأخبار بقرب وصول الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته ، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقيناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفا محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرسا من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه"[١٣٦].

وهكذا " احتاط حسام الدين لنفسه " كما يقول المقريزى ، وأفلحت سعايته تماما فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعا منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل

---

١٣٣ – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٦ .
١٣٤ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
١٣٥ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
١٣٦ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

مجئ المعظم. وكان الذى ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة منذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا ، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتابكا له[١٣٧] . ومن ثم لم يجد نائب السلطنة فى القاهرة صعوبة فى استغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و "الاحتياط لنفسه" ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضمر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بنى أيوب فى الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا فى أعالى العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، " كان يحفظ الملك لابن سيده " .

والآن .. ترى من الذى يسعى إلى السلطة حثيثا ، والى أن يظل دوما فى دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذى ظل فى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسئولية كاملة ، أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة ، فى مواجهة الغزو الصليبى ، أم الأمير حسام الدين الذى كان يتملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة – على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما فى وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان فى أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التى خلع عليه ما كان على النحو الذى رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لنرى الأمير فخر الدين يؤدى واجبه العسكرى المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شئ أكبر شهادة مما يقوله مخاصمه ابن واصل نفسه : " وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولا متحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه "[١٣٨] ، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التى يخلعها على فخر الدين ، والتى جئنا على ذكرها من قبل وإن كان يغتسل فى الحمام " ، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه ، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط

---

[١٣٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ٥ ، ص ١٨٩ – ٢٠٩ .

[١٣٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٩٣ ، ويورد ابن أيبك العبارات نفسها ، الدر المطلوب ، ص ٣٧٦ وكذا المقريزى ، السلوك ، حـ١ ، ص ٣٤٩ .

بن الجوزى[١٣٩] حيث يقول : " ... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخبر ، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه فى جنبيه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين فى وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكان له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى " . وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده فى ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما ، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل أن يلقى الشهادة فى جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا ، نعنى منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، ولم يكد يمضى على ذلك يومان حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية فى الديار المصرية ، ولكن الرجل - كما علمنا - آثر أن يجعل شغله الشاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، فى محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده فى معسكر " جديلة " ، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفى الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبى مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوبى دمياط ، وهذا يعنى أنها قطعت هذه المسافة البسيطة فى ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التى تمتلئ بها المنطقة كانت السبب فى بطء حركة الزحف الصليبى ، حيث يخبرنا " جوانفيل " أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليتم ردم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا وحتى نهاية عمره ، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، تخطيطا وتنفيذا فى الجانب العسكرى ؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوبى فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

---

[١٣٩] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٢٩ .

وفى خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ — ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩) وصل الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، ليصبح بذلك فى مقابلة معسكر جديلة ، لا يفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل فى طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاهره فى ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التى وقفت فى النيل بإزاء المعسكر الصليبى .

وشرع لويس التاسع على الفور بعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة، و لم يكن هذا بالأمر اليسير، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار فى جانبيه، وسرعة تياره، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها فى الحسبان إذا أراد الملك الفرنسى تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة فى تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظلان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذى لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Cornaut بالأشراف على آلات رمى المنجنيق التى أعدوها والتى بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا، كما أحاط معسكره بسور وخندق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانفيل الذى نقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية. وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذى كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل، وبالتالى اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح، وما دار بخلدهم عما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصرى بوحداته المختلفة لم يتوقف عن إزعاج الصليبيين بهجماتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففى اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الرحلة التى قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع فى نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التى يتصورونها و لم يكد يمضى على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصرى بهجوم آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أى يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين ، وفتكوا بجماعة من " التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين" ، على حد تعبير "جوانفيل". وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال "الإبرار" التى تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا، منها مثلا ما حدث فى أول أيام عيد

الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م ، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبي ، ودارت بينهما معركة حامية، فقد فيها كل من الجانبين عددا من رجاله وشاركت البحرية المصرية أيضا فى هذه الهجمات ، ففى السابع من شوال ٦٤٧هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع " الشينى " الكبيرة ، وعليها مائتا جندى صليبي وقائدهم ، وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بيناً ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديلة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية فى الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بإفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون فى هذا السبيل، فقد عمد المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى ، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانفيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : " ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ، ويضيف جوانفيل قوله : " لقد أخطأ الملك وجميع باروناته فى أثناء بنائهم لهذا الجسر " .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش ، أما ما كان من أمر رجال المدفعية فاهم اصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى ، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر، ولم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانفيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : " ... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ، ذات ذنب بقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد،

وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه فى وضح النار. وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات فى تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. " أيها الرب السيد الحنان احفظ لى شعبى " وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى " أفليجوى " قادم نحوى ، وقال لى يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعا، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يستهدف برجنا".

ويمضى جوانفيل قائلا: "... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيم الأبراج وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لا يجرؤن من قبل على استعمالها إلا ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب من الجسر الذى يعمل الجيش فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق البرجين . واشتد حزن ملك صقلية (يقصد أخر لويس التاسع ، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقى بنفسه إلى حيث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان فى أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة " .

أليس هذا بكاف على أن يقام دليلا على صدق الأمير فخر الدين ، وإخلاصه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفه مؤرخ صليبى كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذله فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بإنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان، " فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه ، أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله" .

هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى ، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن ، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين واتبع كل الوسائل الممكنة حتى لا يدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها ، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبهم على خير وجه، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم بحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : " لما رأى الملك ما جرى استدعى باروناتة للمشاورة ، فأجتمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه ، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم " . ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين ، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديلة ، قال : " أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين) ، وبقينا حيث نحن ، فلابد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن نجثوا على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو "مخلصنا" أن يقينا شر هذا البلاء".

ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر)، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ - ٨ فبراير ١٢٥٠) لا يستطيعون عبور بحر أشموم، ولاشك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل، بل لقد أثر عنه -فيما رواه جوانفيل- القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبى وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Sebastian.

غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائدها لأمير فخر الدين، وذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانه، تطوع ليدل الصليبيين على مخاضة يعبرون من خلالها بحر أشمون ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار

يدفعونها له مقدما!! وتقع هذة المخاضة عند قرية سلمون التى تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات. ولم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض، رغم أن المخاضة لم تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها، ولكنه اهتبل هذة الفرصة التى جاءت تسعى على غير موعد، ولا مانع من أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما من المناوشات اصطلوا فيها بنيران الجيش المصرى.

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ، ولا خروج فخر الدين دهشا غير مستعد، إذا أخذنا برواية ابن واصل، عن تقصير من جانب مقدم العسكر، أو تراخ فى أداء واجباته العسكرية، بل كانت نتيجة لخيانة " بعض من لا دين لهم" على حد قول مؤرخنا المقريزى [١٤٠]، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا " عالى الهمة " فلم يكن يتوقع أن تأتيه الكارثة من الداخل، نعنى الخيانة التى تسببت فى عبور الصليبيين لبحر أشمون عند مخاضة سلمون، وهجومهم المباغت على المنصورة [١٤١]، ومهما يكن من أمر، فالذى يعنينا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة، وقد بلغ العام السادس والستين من عمره، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة، وظل ثابتا طلبا للشهادة، بينما فر عنه طلبا للنجاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كل محتوياتها . ولا نملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء، والذى جرى به قلم سبط بن الجوزى [١٤٢]، قال: "... وخربت داره كأنها لم تكن بالأمس، خربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أمير كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم "!!

والآن وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو آن لنا أن نقدم شهادة الحق

---

[١٤٠] الخطط، ج١، ص ٢٢١.
[١٤١] لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا " الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين "، تحت الطبع.
[١٤٢] مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٧٧.

على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها المؤرخين القدامى والمحدثين، وهذه يدلى به السلطان نفسه. فابن واصل ملأ الدنيا فى كتابة ضجيجا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنه المعظم تورانشاه . ومع أن المقريزى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول المقريزى[١٤٤] ما نصه : "فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به " وعبارات المقريزى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنه تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين، وإلا ذكره المقريزى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل . أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقريزى ، ونعنى به قوله "ومن يثق به"، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح ، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقريزى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خبرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنه ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه ، وهذا نص المقريزى ، " وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبى على : إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه "[١٤٥] . وهذا بنصه قول ابن واصل.

---

[١٤٤] - السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ ، ويقول ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٧٣ ، " قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : " إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين تورانشاه " ، وقارن الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٤٠ .

[١٤٥] - المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٤٢ .

أما الشهادة التى يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وحجبناها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من اتهم فخر الدين بن الشيخ فى شرفه العسكرى ووطنيته ، فهى عبارة عن الوصية التى كتبها الصالح لابنه تورانشاه ، والتى يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ "الولد" فى ممارسة مهام منصبه[١٤٦] . وفى الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان .

يقول الصالح : " ... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أُقدمّ سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمنى ، واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ، ولا تخالفه ، واجعل له من العدة مائتى فارس " . وهذا فى حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنه ليس عنده فى دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفى تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن " السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على "[١٤٧] . وفى كلمات الصالح هذه أمر لولده بستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وإنزاله مترلة الوالد ، والترول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتى فارس له لرفعة مترلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه " اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدى ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسيا وعسكريا) ، فهذا جميعه ما عرفنى به إلا الأخر فخر الدين " ، ويختتم وصيته بقوله " فهذه وصيتى إليك ، فأعمل بما فيها ولا تخالف وصيتى ، وكل يوم طالعها ، وقف[١٤٨] عليها ، ولا تعمل شيئا[١٤٩] دون أن تشاور الأخر فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى " .

والوصية تمتلئ فى مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى " الأخ فخر الدين " فى أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القَيْمُرِية ، (وهم طائفة من

---

[١٤٦] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ، ٢٩ ص ٣٤١ - ٣٥٢ .
[١٤٧] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .
[١٤٨] - فى الأصل " واقف "
[١٤٩] - فى الأصل " شئ "

الأكراد)، وزعماء المماليك الصالحية الذين أوصاه بهم خيرا ، والمشكلات المتعلقة بالأسطول، حيث أن "لأخ الدين عرفنى بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك " !!

والوصية إذن تقليد الملك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه، والرجل المقدم فى دولته ، ومن لا يقدم غيره، نعنى "الأخ" فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذى خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : " وقد عينت فى ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كوس (صنوج من نحاس يدق بها فى المواكب وهى من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلما[١٥٠] ، وتحسن إليهم".

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا فى كتابه ، من ثقة الصالح التى لا حدود لها فى الأمير حسام الدين ، وفقدانه إياها فى الأمير فخر الدين لكان المنطق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين ، وليس فخر الدين ، مستشارا لابنه تورانشاه حالة اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان فى حصن كيفا كما علمنا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختر الصالح أحدا سوى ابن الشيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا فى سنى حكمه .

والسلطان الصالح ينزل فخر الدين منزله أخيه ، فلا يسميه فى وصيته إلا بـ "الأخ"، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم فى الوصية على كثرتهم ، ومنهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه ، بل والثقة المطلقة التى أولاها إياه على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، صديق ابن واصل ، فى هذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفراد حسام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولى أحد من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل فى انزاله منزلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح ، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره فى عداد الأمراء غيره ؛ يقول الصالح : " الولد (يعنى تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشى جمال دين

---

[١٥٠] - فى الأصل " علم "

محسن) ورشيد والخدام المقدمين ، لا تغيرهم ، فما قدمت أحدا[١٥١] من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لا تغيرهم فأنى اعتمد عليهم فى جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط " !! وهكذا ذكر حسام الدين فى عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين ، والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لا يعرف الحل والربط فى الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح – لو أوصى كما يقول ابن واصل – سيدا على مصر ؟!

وليس ببعيد أن يحاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبته يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف فى أضعف الأحوال عبارة فى بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت فى بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك ، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش المصرى ، أو بتعبير زمانه أتابك العسكر ، والذى اتضحت لنا بداءته –على الأقل من وجهة نظرنا– مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه، وعدم ولائه لسيده ، وطمعه فى السلطنة، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ مبرئا "الأخ" فخر الدين، بعد كل ما قدمناه لتنفيذ ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول: "وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة". والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : " وكان الملك الصالح فى مرض موته ،

---

[١٥١] – فى الأصل " أحد " .

قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه المُلك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا ، وقد وقفت على الكتاب المذكور، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته "[١٥٢] .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله " لئلا تضيق صدورهم " فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم ، بعد أن كشف عن خبيئة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء ، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم[١٥٣] .

أما قول الصالح " وكتبته (أى الوصية) فى مدة طويلة " فلابد أن تكون هذه المدة هى الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط فى السادس من يونيه ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ، وموته فى الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان)، وهى فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهى الفترة التى مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبرى والنويرى وغيرهم ، والنويرى يذكر ذلك صراحة فى عبارته التى سقناها منذ قليل حين قال: " وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ... " . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التى انتقل إليها السلطان من أشموم طناح، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة فى تلك الفترة العصيبة التى تمر بها البلاد ، من مرض السلطانه مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا فى حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التى كان يتمتع بها "الأخ" فخر الدين عند السلطان، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسى وحساد فخر الدين سوف يسلقونه

---

[١٥٢] - النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩ ، ص ٣٤٠ .

[١٥٣] - جاء فى الوصية : " القيمرية " ، الولد (يعنى توارانشاه) لا يسمع كلام بعضهم فى بعض ، وناصر الدين عنده كذب وحبث ، وما باطنه جيد ، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مسكوا من دمشق الى حلب من عنده ، والحسام (يعنى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى) يكون بمفرده لا حل ولا ربط ... وناصر الدين أرحل لا يخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمرى تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يكون مقدم العسكر فى دمشق ، وابن يغمور (جمال الدين) مشد (الناظر فى حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يغمور يصلح يكون مشد وولى وجابى الأموال ، ولا يصلح يكون مقدم عسكر ، ولا يصلح لحندية ، ولا تؤمن له كل الأمر ، بل تمشى (هكذا) به الحال فى مكان مدة ، ثم ينقل الى غيره ، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجنديةن ... ، فالأخ فخر لدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه ، فهو نحس مفسد محسحس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه فى دميط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحة متولى ديوان الأحباس (الأوقاف) اصرفه وولى (كذا) ابن النحوى ... وطرائق ابن الحباب غير صالحة ، والوكيل اصرفه " . إضافة الى عدد من أهل الذمة العاملين فى ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ؛ وأناس غير هؤلاء وأولئك ، راجع النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

بأقلام وألسنة حداد ، فقرن فى أول وصيته بين ما حدث فى دمياط ونزاهة قائد جيشه وبراءته من أى اتهام .

ولا بد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين به وهم ثلاثة ؛ زوجه شجر الدر ، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن ، تسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر ، ويرجح أنه أعطاها لزوجه شجر الدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش ، حيث كان الجميع من الأمراء ومماليك السلطان يجلونها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا فى الفترة التى أعقبت وفاة الملك الصالح ، و لم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتنياتها[١٥٤] . وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أومأ إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا ، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقريزى ، وبعد أن قلده رسميا فى الوصية التى لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد : " يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين إلى الطواشى جمال الدين محسن، وهو لم يعرض له كثيرا فى وصيته كما فعل مع الأمير فخر الدين ، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقول أيضا أن يودعها لدى "الأخ" فخر الدين ، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لا يأمن عليها من العبث بأيدى مماليكه بعد وفاته ، وكأن الصالح كان يقرأ فى صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقد رأينا ما حل بدار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريب على أيدى مماليكه ، لقد جاء هؤلاء إلى داره " فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أمواله وخيله ، وأخذ الجولانى (نسبة إلى الجولان فى سوريا) قدور حمامه ، والدمياطى أبواب داره"[١٥٥] وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا فى المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى ، فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والدبلوماسى الماهر فى أيام أبيه الملك الكامل محمد ، قد أدى واجبه كاملا فى خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائه لهم ، وإخلاصه فى عمله

---

[١٥٤] - تضمنت الوصية ما يفيد هذا الرأى ، إذ يقول الملك الصالح : " يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكنى به شجر الدر) فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، ابرع (فى الأصل أرعى) جانبها واكرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمنا على نفسى من جهتها ، فأجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد فى اتصال الراحة إليها ... ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها " ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٤١ – ٣٤٢ .

[١٥٥] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

العسكرى، حتى آخر أيام عمره ، وهى فى الوقت نفسه ، أعنى الوصية ، دليل بالغ الدلالة على أن الاتهامات التى سيقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجه من المؤرخين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .

سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية

(٣٣٤ - ٤٤٨ هـ)

د./ محمود إسماعيل

كلية الآداب - جامعة عين شمس

يجمع الباحثون على أن فهم التاريخ الإسلامى واستيعابه وتفسيره وتنظيره لا يتم بمعزل عن فهم مفتاحين أساسين هما رصد حركة التجارة العالمية شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، والإحاطة بتطور وضعية الأرض الزراعية وأشكال ملكيتها وصيغ حيازتها وتطور هذه الأشكال والصيغ عبر حقب التاريخ الإسلامى .

وإذا كان "المفتاح" الأول قد قتل بحثاً ودرساً ؛ فإن "المفتاح" الثانى مازال غائباً عن تناول الباحثين ؛ فما أنجزوه فى هذا الصدد لا يتعدى الأحكام الإنطباعية والتأملات الشخصية؛ بحيث لا يتفق اثنان فى الحكم على وضعية الأرض فى إقليم ما أو زمن ما ، ناهيك عن المجازفات والتخبطات التى تشوب جهود الباحثين فى تقرير نمط الإنتاج الذى ساد العالم الإسلامى برمته طوال عصوره التاريخية . فمن قائل بأن الإقطاعية كانت هى النمط السائد ، ومن قائل بأن النمط الرأسمإلى هو الذى استقر الحال عليه . بل ثمة من ذهب إلى أن النمط الرأسمإلى كان مشوهاً ؛ فكان لذلك "رأسماليا" وآخرون ذهبوا إلى أن الإقطاع الذى عرفه العالم الإسلامى أبعد ما يكون عن "الفيودالية" التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى . ولا يزال الكثيرون من الدارسين يتشبثون بصيغة "نمط الإنتاج الأسيوى" التى قال بها ماركس والماركسيون ... إن هذا الاختلاف قمين بتضبيب رؤيتنا لمسيرة التاريخ الإسلامى تفسيراً وتنظيراً .

على أن الباحثين متفقون حول حقيقة مفادها أن وضعية الأرض فى التاريخ الإسلامى هى التى أفضت فى الغالب الأعم إلى وجود الإقطاع ، بينما أسفرت فترات سيطرة العالم الإسلامى على التجارة العالمية عن الفترات التى سادها النمط البورجوازى فى الإنتاج .

وتأسيساً على ذلك سوف نحاول رصد الوضعية القانونية للأرض الزراعية فى العراق فى ظل السلطنة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) كمثال دال على صدق ما نذهب إليه من الخلاف والاختلاف بين الباحثين والدارسين .

وقبل الاستغراق فى بحث الموضوع من المفيد أن ننوه بأن هذا الخلاف راجع إلى أمرين أساسين هما :

أولا: طبيعة المادة التاريخية المصدرية الملغومة التى تشكل مرجعية الدارسين المحدثين . إذ من المعلوم أن هذه المادة قليلة ومضببة وغير بريئة . لا لشئ إلا لاختلاف هوية الفقهاء والمؤرخين الإسلاميين الأوائل الذين عالجوا هذه القضية ، إذ غلبت المذهبية الطائفية على خيال هؤلاء تأسيساً على تضارب رؤيتهم للشريعة الإسلامية ، وفى الغالب الأعم تلونت كتاباتهم بالتبرير لسياسة الأمر الواقع واعتبار ما أقره الحكام من سياسات فى هذا الصدد هو ما أقرته الشريعة الإسلامية ، أما الذين لم يتأثروا بأهواء الميول للسلطة ؛ فإن كتاباتهم استهدفت لا تفسير ما هو واقع وقائم من سياسات ؛ بل عبرت عما كان ينبغى أن يكون . ولذلك ظلت هذه الكتابات فى "الأحكام السلطانية" عديمة النفع والجدوى بصدد فهم السياسات العملية إزاء مسألة الأرض الزراعية إلى تهم الدارسين بالفعل .

من هنا ظلت كتابات النفر الأول المبررة لسياسات الحكام هى المصدر الأساسى للوقوف على الماجريات التاريخية للقضية موضوع البحث . وفى الغالب الأعم كانت تصورات أصحاب تلك الكتابات تعبر عن رؤية الحاكم والطبقة المسيطرة[1] . ونمثل فى هذا الصدد بكتاب "الخراج" الذى كتبه القاضى أبو يوسف بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد ؛ والذى ذهب فيه إلى حكم خطير هو أن من حق الحاكم التصرف فى الأرض حسب رغبته ووفق إرادته[2] .

لقد أصبح هذا الحكم الخطير متداولاً لدى فقهاء السلطة والمؤرخين الإسلاميين طوال العصور التالية خوفاً أو طمعاً ، أو هما معاً . يقول يحى بن آدم[3] : "إن الأرض ملك للسلطان ؛ إن شاء قسمها ، وإن شاء صادرها ، وإن شاء أوقفها حسب ما تقتضيه المصلحة" وهذا يعنى أن فقهاء السلطان قد نحوا الشريعة جانباً وأضفوا على سياسات الحكام شرعية زائفة .

ثانيا : أن المؤرخين والدارسين المحدثين – فضلاً عن تأثرهم بهذه الكتابات الملغومة – أضافوا ألغاماً جديدة تتمثل فى الإديولوجيات المعاصرة التى تبنوها ونظروا من خلالها إلى مسألة الأرض ؛ فزادوها غموضا على غموض . ولا أدل على ذلك من أن معتنقى

---

[1] - أنظر ، محمد تضغوت : الحياة الاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى ، رسالة دكتوراه – مخطوطة ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

[2] - أحمد صادق سعد : دراسات فى المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين – كتاب الخراج لأبى يوسف ، بيروت ١٩٨٨، ص ٣٠.

[3] - يحى بن آدم : كتاب الخراج ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨.

الإديولوجية الإشتراكية طوعوا الشريعة الإسلامية بما يخدم منظورهم فقالوا بأن الإسلام هو الاشتراكية وألحوا على الملكية العامة للأرض ، بينما ذهب خصومهم الرأسماليون إلى أن الرأسمالية تتفق مع الإسلام فى تقرير الملكية الفردية والإرث .. !!

أكثر من ذلك أن بعض المؤرخين العرب المعاصرين فى العراق حين بحثوا وضعية الأرض فى العصر البويهى تأثروا بنزعات إقليمية تتعصب للخلافة العباسية ؛ لذلك وجدوا فى البويهيين الشيعة الذين انتزعوا حكم العراق من الخلافة "غزاة أجانب" تخبطت سياساتهم الاقتصادية على الرغم مما عرفه العراق من ازدهار عام فى العصر البويهى ، من هنا جاءت أحكامهم الملونة إديولوجيا مجافية للحقيقة ، يقول الأستاذ عبد العزيز الدورى بأن العصر البويهى يعد "فاتحة عهود السيطرة الأجنبية فى البلاد العربية"[٤] ، وفى الوقت الذى ندد فيه بسياستهم الاقتصادية واعتبر عصرهم تجذير الإقطاع العسكرى ؛ ناقض نفسه حين قال : "شهد العصر أوجه نشاط المؤسسات التجارية والصيرفية وشهد ازدهار الزراعة ، وتقدم فنون الصناعة"[٥] . وهذا لا يتأتى إلا فى ظل وجود نمط انتاج بواجوازى . أمام تلك المادة المصدرية غير البريئة ، وأمام الأهواء الإيديولوجية المعاصرة ؛ لا يجد الباحث الموضوعى مناصاً من اختطاط منهج قوامه رصد الظاهرة الاقتصادية فى مجتمع إسلامى وسيطى بعينه فى إطار رؤية عامة وشاملة لدرجة تواجدها وتفاوتها نسبياً فى العالم الإسلامى بأسره؛ على اعتباره أن رؤية الجزء لا تتم إلا فى إطار الكل بعيدا عن المذهبيات والإديولوجيات . وهو ما حاولناه فى مشروعنا "سوسيولوجيا الفكر الإسلامى" وحاوله – فى ضوء ذلك – تلميذنا النابغة محمد تضغوت فى رسالته الفذة عن "العصر البويهى" فتوصلنا – وتوصل معنا – إلى حكم عام مؤداه أن الإقطاع الذى ساد العراق فى عصر "تسلط الأتراك "٢٣٢ – ٣٣٤هـ تضعضع فى العصر التإلى وهو العصر البويهى[٦] .

ومع ذلك اختلفنا حول درجة أفول الظاهرة الإقطاعية ؛ إذ بينما ارتأينا أن العصر سادته البورجوازية ، مع وجود إقطاع مهمش ؛ ذهب هو إلى عكس ما ذهبنا ؛ فقال بأن التواجد البورجوازى كان هامشيا بالقياس إلى التواجد الإقطاعى الغلاب .

على كل حال سوف نوضح رؤيتنا – مع مناقشة نظرة تلميذنا الذى نكن له الاحترام – من خلال النصوص التى اعتمد عليها هو نفسه واختلف معنا فى تأويل بعضها .

---

[٤] – عبد العزيز الدورى : مقدمة فى التاريخ الإقتصادى العربى ، بيروت ١٩٧٨، ص ٨٦ .

[٥] – نفسه ، ص ٨٦ .

[٦] – محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠، جـ٢ ، ص ١٤٠ وما بعدها.

لقد فطن كلود كاهن إلى حقيقة تضعضع الإقطاعية فى العصر البويهى دون أن يتصدى لبرهنتها[٧] .

فما هى الدوافع السياسية لسياسة بنى بوية فى ضعضعة الإقطاع ؟مفهوم أن سيادة الإقطاع خلال القرن السابق على ظهور البويهين كانت مسئولة عن حالة الضعف والتشرذم السياسى للإمبراطورية العباسية ، فكانت الحركات الاستقلالية والتجزئة السياسية مرادفا لنمط الإقطاع المنغلق الاكتفائى الزراعى والرعوى أساسا ؛ ومن ثم ما كان هناك يد من أن يعول البويهيون على تحقيق الوحدة السياسية عن طريق استعادة هيبة السلطة المركزية وذلك بالقضاء على الإقطاع[٨] . تلك المقولة برهنها تلميذنا محمد تضغوت بمزيد من القرائن والأدلة والتفصيل والبسط[٩] والإقناع ؛ بما لا يدعونا إلى التكرار والإضافة ؛ اللهم إلا التنويه بأن البويهين كانوا شيعة زيدية ، وكان التشيع الزيدى مقرونا بالانعزال بطابعه الإديولوجى التنويرى العقلانى المتفتح والحريص على تحقيق العدل الاجتماعى بما يكفل المواءمة بين مصالح الدولة ومصالح الرعية .

لذلك لم يدخر معز الدولة أول السلاطين البويهيين وسعا فى "مصادرة ضياع الخلافة ، وضياع المتسترين ، وضياع ابن شيرزاد وصار أكثر السواد مغلقا ، وزال أيدى العمال عنه ، وبقى الكثير منه من المحلول فضمنه"[١٠] .

يؤكد هذا النص المقتضب على حقائق جد هامة عن محاولة القضاء على الإقطاع بأشكاله التى كانت سائدة فى العصر السابق ، سواء ما كان منه تابعا للخلافة أو إلى أمراء الجند التركى أو إلى رجال الإدارة .

وفى نفس الوقت يشير بأن نظام الملكية الفردية قد حل محله ؛ بحيث ضمنت الدولة موارد مالية هائلة من ضريبة الخراج مما ساعدها على إقرار سيادتها وتوسيع حدودها ، فضلا عن الإنفاق على المشروعات الإصلاحية التى عمت سائر قوى الإنتاج ويكمن الخلاف – مع تلميذنا تضغوت– فى أنه رأى فى العبارة الواردة فى النص السابق " وبقى الكثير منه فضمنه" وجد فيها دليلا على بقاء الإقطاع الشامل لمعظم الأراضى الزراعية فى العراق ؛ على أساس أن "نظام الضمان" – فى نظره – كان من مظاهر الإقطاعية[١١] . بينما نرى من جانبنا أن هذا النظام كان يتعلق بجمع أموال الخراج المقرر على الملكيات الخاصة ؛ بما يدل على

---

[٧] – كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠٧ ، الترجمة العربية.

[٨] – فؤاد حليل : الإقطاع الشرقى بين علاقات الملكية ونظام التوزيع ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ١٦٦.

[٩] – محمد تضغوت : المرجع السابق ، ص ٣٤ وما بعدها .

[١٠] – مسكويه : تجارب الأمم، القاهرة ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، جـ٢ ، ص ٢٣٥.

[١١] – محمد تضغوت : المرجع لسابق ، ص ٣٦ وما بعدها .

سيادة النمط البورجوازى فى الإنتاج . فنظام التضمين أو الالتزام كما هو معروف لا يتعلق بالضياع والإقطاعات ، نظراً لكونها معفاة كلية من الضريبة . ولكنه نظام قصدت منه الدولة الحصول على ضريبة الخراج مقدما عن طريق ملاك كبار يدفعونه للدولة ، ثم يقومون بجمعه من صغار الملاك لأنفسهم بعد الحصاد[١٢] .

وإذ أسندت الدولة البويهية هذه المهمة لقواد العسكر الذين حرمتهم الدولة – كما هو معلوم من قبل – من الإقطاعات ووزعت عليهم الأرزاق والرواتب ، وإذ منحتهم الدولة بعض إقطاعات محدودة ؛ فكانت فقط " إقطاع منفعة" بجرد من كافة حقوق الملكية . وهذا النوع من الإقطاع مرتبط بتقديم خدمات للدولة منها ضمان جباية الخراج ، كذا دفع ضريبة سنوية عن هذه الحيازات التى كانت معفاة من الضرائب فى العصر السابق .

كانت سياسة معز الدولة البويهى تستهدف استئصال شأفة الإقطاعية ، بما فيها الإقطاع العسكرى بطبيعة الحال ، وعولت فى ذلك على المرحلية والتدريج . ولعل هذا يفسر ثورة قادة الجند ومحاولة عزله لما لحق بهم من أضرار[١٣] . لذلك حاول تعويضهم بمنحهم بعض الضياع فى إطار صيغة "إقطاع الاستغلال" أو "المنفعة" فضلا عن الأعطيات والرواتب .

وفى مرحلة تالية لم يتقاعس معز الدولة عن إلغاء هذا النوع من الإقطاع الهزيل خصوصا بعد إهمال قواد العسكر زراعة ضياعهم . هذا ما نقف عليه من نص جد هام لمسكويه حيث قال: "أحدث معز الدولة رسومات ومعاملات لم تعهد ، وأدخل يده فى جميع الأرجاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه "[١٤] .

ويقطع هذا النص الهام بتحويل ضياع الجند إلى ملكيات خاصة للمزارعين فرضت عليها ضريبة الخراج . معنى هذا اتساع رقعة الملكية الخاصة على حساب الضياع الإقطاعية التى قضى عليها تماما فى عهد صمصام الدولة الذى اتخذ اجراءا هاما فى هذا الصدد هو "إطلاق الانتفاع للملاك"[١٥] ؛ بعد أيلولة الأرض إليهم نظير خراج يدفع للدولة قيمتة عشر المحصول الذى أوكل جبايتة لا إلى المتضمنين من قادة الجند ؛ بل إلى موظفين إداريين عينهم خصيصا للقيام بهذه المهمة. يفهم ذلك بداهة من قول مسكويه " .. كما أدخل يده فى وقوف السواد ورتب لها ناظرين متصرفين ... وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك .. "[١٦] .

---

١٢ – إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٧٥.

١٣ – محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، حـ٢ ، ص ١٤٢ .

١٤ – مسكويه : المصدر السابق ، حـ٣ ، ص ٧١ .

١٥ – نفس المصدر والصفحة .

١٦ – نفس المصدر والصفحة

ومعلوم أن "وقوف السواد" كانت قد آلت إلى قادة العسكر خلال العصر السابق ، فانتزعت منهم وتحولت إلى ملكيات خاصة ، أى إلى أرض خراجية[17] .

ويمكن الجزم بأن البويهيين الأوائل نجحوا فى كبح جماح الإقطاعيين من قادة العسكر وإن أبقوا على بعض الإقطاعات فى إطار "إقطاع الاستغلال" خصوصا فى مناطق الأطراف النائية نظير القيام بمهمة الدفاع عن حدود الدولة أو المناطق التى تحتاج الأرض فيها إلى الاستصلاح . وحتى لا يتعاظم خطر هؤلاء القادة المقطعين فرضت الدولة عليهم رقابة صارمة وعينت بعضهم فى مناصب إدارية فى قلب الدولة من باب الترضية عوضا عن إقطاعاتهم[18] . وفى نفس الوقت اتبعت الدولة سياسة الإصلاح لتكسب جماهير الرعية إلى جانبها لتوازن بذلك بين سخط القادة العسكرين وبين ولاء المواطنين[19] .

وبفضل تعاظم ولاء الرعايا نجحت الدولة فى فل نفوذ هؤلاء القادة فلم تتقاعس عن ردعهم إذا ما فكروا فى التمرد والإنتزاء .

كما استعانت الدولة فى فرض سياستها إزاء الوضعية الجديدة للأرض بجيش من الإداريين المحنكين واعتمدت عليهم ليكونوا عونا لها فى مواجهة قادة الجند الحانقين .

ولنفس الغرض - وأمام تعاظم الجند الديلمى - لم تدخر الدولة وسعا فى تسريح جيش الديالمة واستعاضت عنه بجند جديد من العناصر التركية غير الطموحة ، فضلا عن تجنيد البدو فى الجيش الجديد الذى وفرت له الأموال فى صورة رواتب وأعطيات بدلا من الإقطاعات[20] .

وفى العصر البويهى الأخير الذى اتسم بالفوضى السياسية نتيجة الصراع بين العسكرين القديم الديلمى والجديد التركى ، واندلاع الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة البويهية الحاكمة، وانتعاش الخلافة العباسية نسبيا ؛ لم يستطع السلاطين البويهيون الأواخر الحفاظ على سياسة الدولة إزاء وضعية الأرض التى أنجزها السلاطين الأوائل فانتكست تلك الإصلاحات[21] إلى حد ما .

ولمواجهة أخطار القوى الإقطاعية الإدارية والعسكرية ضربت الدولة بقوة على أيدى الإداريين وأرغمتهم على دفع ضريبة الخراج التى حاولوا التنصل من تبعاتها[22] . لكنها

---

[17] - محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

[18] - نفسه ، ص ٤١ .

[19] - الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٨.

[20] - Bosworth, C, *Military Organisations under the Bayids of Persia and Iraq*, London, 1977, p. 159.

[21] - محمود اسماعيل : دراسات فى الفكر والتاريخ الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢١.

[22] - محمد تضغوت : المرجع السابق ، ص ١٥٠

عجزت عن مواجهة قوى العسكر الديلمي القديم ، وأمام عجزها عن دفع الرواتب والأعطيات اضطرت اضطرارا مرة أخرى لإقطاعهم الأرض[٢٣] ؛ فانحرفت بذلك عن جادة الطريق "انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافها في المبدأ" على حد تعبير دقيق للمؤرخ مسكوية[٢٤] . وهذا يعني عجز البويهيين الأواخر عجزوا عن استئصال شأفة الإقطاعية تماما ، دون أن يفهم من ذلك بداهة تخلي الدولة عن سياسة البويهين الأوائل كما فهم بعض الدارسين الذين حاولوا إثبات تحول السياسة البويهية إلى إحياء الإقطاعية . لقد عادت فلول الإقطاعية في قطاع محدود من الأرض الزراعية ، أما معظمها فظل على صورة ملكيات خاصة تدخل في إطار وضعية الأرض الخراجية. أما عن الأراضي التي صارت إقطاعا ، فقد حاز معظمها أفراد أسرته حفاظا على ولائهم للسلطة[٢٥] . كما أن الصراع على السلطنة بين بهاء الدولة وصمصام الدولة لم يهدأ إلا بعد تعهد كل منهما بأن يخصص لصاحبه إقطاعا في بعض مناطق[٢٦] نفوذه . وأمام انتعاش الخلافة العباسية اضطرت السلطنة البويهية إلى تخصيص إقطاعات للخلفاء بدلا من الرواتب[٢٧] . ولما نشب النزاع بين العسكرين التركي والديلمي قسم بهاء الدولة بعض مناطق إقليم الأهواز بالتساوي بينهما[٢٨] . كما منح مشرف الدولة بعض القادة الديالمة ضياعا في واسط لمناصرتهم إياه في صراعه مع أخيه سلطان الدولة[٢٩] .

يتضح مما سبق أن إحياء الإقطاعية لم يجر إلا في نسبة محدودة من الأرض الزراعية ، وذلك لأسباب سياسية ، كذا بسبب خواء خزينة الدولة وعجزها عن دفع الرواتب والأعطيات[٣٠] وهذا يعني أن السواد الأعظم من الأراضي الزراعية ظلت ملكيات خاصة لصغار الملاك .

شاهدنا على دعوانا تلك عدة مؤشرات ، منها أن السواد الأعظم من الجند كانوا يتقاضون رواتب وأعطيات[٣١] ، كما تنم سياسة البويهين الأواخر في مضاعفة ضريبة الخراج[٣٢] على بقاء الملكيات الخاصة على نطاق واسع .

---

٢٣ - أحمد عبد الحليم يونس : أنظمة استثمار الأرض الزراعية في العصر العباسي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٦١ وما بعدها.

٢٤ - تجارب الأمم ، جـ٦ ، ص ٩٧ .

٢٥ - إبن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ٧ ، ص ١٥.

٢٦ - نفسه ، ص ٤٥ .

٢٧ - محمود تضعوت : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

٢٨ - ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

٢٩ - نفسه ، ص ٣٠٦ .

٣٠ - فؤاد حليل : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

٣١ - نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

٣٢ - مسكويه : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٩٨ .

لقد اعترف القائلون بعودة الإقطاعية كلية فى أواخر العصر البويهى بوجود ملكيات خاصة للفقهاء والأشراف والقضاة والكتاب نظير "مراقبة الجبايات"[٣٣] بما يعنى عدم رسوخ الإقطاعية على أنقاض الملكيات الخاصة . ومعلوم أن هؤلاء كانوا يحوزون إقطاعات واسعة فى العصر السابق .

وباستنطاق المصطلحات الخاصة بوضعية الأرض فى أواخر العصر البويهى سميوطيقيا نجدها ما بين "تمليك" و "تسويغ" و "إيغار" و "طعمه" ... الخ مما يبرهن قطعيا على وجود الصيغة الخراجية.

وبنفس الدرجة تشى ظاهرة بيع الملاك الصغار أراضيهم من جراء تعاظم الضرائب الخراجية على وجود الملكيات الخاصة ، كما تنهض ظاهرة كثرة شكاوى الفلاحين من الجبايات والمغارم دليلا على نفس الحقيقة[٣٤] . وفى نفس المنحى نفهم مغزى حبس بعض الملاكين نصابا من أراضيهم كأوقاف ينفق من ربعها على أعمال البر والخير[٣٥] . كذا تعاظم القضايا الخاصة بالتركات فى أواخر العصر البويهى[٣٦] .

تلك القرائن - وغيرها كثير - تدل دلالة واضحة على أن الإقطاع لم يسد تماما إبان العصر البويهى الأخير كما ذهب بعض الدارسين . وننوه أيضا بأن تواجده ظل هشا بعد أن جرد من عوامل قوته ؛ فقد كان كما قلنا من قبل "إقطاع استغلال" وليس "إقطاع رقبة" ، كما منح فى حالات خاصة تحت إلحاح الضرورة السياسية ، والتزم الإقطاعيون الجدد بتقديم خدمات للدولة[٣٧] أو تسليم جزء من المحصول لها عينا أو نقدا[٣٨] . ناهيك عن لجوء السلاطين الاواخر - تحت إلحاح العوز المالى - إلى مصادرة الكثير من الإقطاعات[٣٩] ؛ بما يفيد هشاشة الإقطاعية إذا - ما قيست بالملكيات الخاصة - فى العصر البويهى الأخير . خلاصة القول - أن البويهيين عموما أحدثوا تحولا ملحوظا فى سياستهم إزاء وضعية الأرض الزراعية مؤداه ضعضعة الاقطاعية لحساب تعاظم الملكيات الخاصة . وإذ نجح السلاطين الأوائل نجاحا شبه تام فى سياستهم تلك ، فقد اضطر السلاطين الآواخر - تحت ضغوط ظروف سياسية - إلى

---

٣٣ - أنظر : محمد تضعوت : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

٣٤ - نفسه ، ص ٧١ .

٣٥ - حسن منيمنة : نشوء الإقطاع فى الإسلام ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، بمجلة الاجتهاد ، عدد ١٤ ، بيروت ١٩٩٦ .

٣٦ - آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ٣٤٠.

٣٧ - محمد تضعوت : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

٣٨ - نفسه ، ص ٦٣ .

٣٩ - التنوخى : الفرج بعد الشدة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص ٣٩.

السماح بتواجد النمط الإقطاعى تواجدا هشا ؛ بما يفيد أخيرا أن النمط البورجوازى – الرأسمإلى ظل سائدا وغلابا طوال العصر البويهى .

وليس أدل على صدق مقولتنا من تبنى الدولة سياسة إصلاح فى مجال الزراعة ؛ أفضت إلى تعاظم الإنتاج ورخص أسعاره وارتفاع مستوى المعيشة بوجه عام . لقد أقرت الدولة نظاما جبائيا عادلا يحقق مصالح الدولة والمزارعين فى آن ، كما تبنت مشروعات عمارة الأرض وسقياها وزيادة رقعتها وفق أساليب وتقنيات مستحدثة .

نعلم أن السلاطين البويهيين دأبوا على تنظيم المؤسسات الخاصة بالأرض فأعادوا النظر فى الدواوين واستحدثوا بعضها واختاروا لإدارها موظفين أكفاء جرت مراقبتهم من قبل السلطة حرصا منها على حسن تنفيذ سياسة الإصلاح الزراعى[٤٠] . يقول أبو شجاع[٤١] "رفع شرف الدولة أمر المصادرات – بالنسبة للأرض الخراجية – وقطع أسباها ، وذم طرق السعايات وسد أبواها .. وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمل المصالح ، وأخذهم بإقامة العمارات" .

وقد لخص كلود كاهن[٤٢] هذه السياسة الإصلاحية بقوله : "شمل آل بويه بعنايتهم جميع البلدان ، وحققوا فى بلاد فارس أعمالا فى التنمية والاستثمار لم يسبق لها مثيل" .

وقد تعاظم الإصلاح فيما يتعلق بأمور السقاية والرى وفق أساليب علمية وتقنيات مبتكرة؛ فكان لديهم جهاز هندسى دقيق برع فى إقامة السدود وصيانتها ، وشق القنوات لإجراء الماء إلى المساحات المزروعة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد تفانى معز الدولة البويهى فى الإشراف بنفسه على أمور السقاية ؛ حتى قيل بأنه باشر بنفسه سد أحد البثوق . وشيد عضد الدولة سدا عظيما على نهر الكربين شيراز وإصطخر وسقى منه ثلاثمائة قرية . وفى الأقاليم عديمة الأنهار ، أقيمت مشروعات لتجميع مياة الجداول والوديان المنحدرة بعد سقوط الأمطار لتسرى فى قنوات مغطاة أقيمت عليها الجسور وامتدت خلال نطاقات شاسعة على جانبيها وقد تطلب العمل فى تلك المشروعات وجود إدارة هندسية معقدة وآلات مائية متعددة جرت الإفادة من التقدم العلمى فى علوم الرياضيات فى هذا العصر فى

---

٤٠ – محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، حـ٢ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

٤١ – ذيل كتاب تجارب الأمم ، اكسفورد ، ١٩٢١ ، حـ ٣ ، ص ١٣٧.

٤٢ – تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٠٨ .

صناعتها وإعدادها . كما أفردت الدولة دواوين خاصة لأمور الرى عرفت باسم "دواوين الماء" علمت على توفيره لرى رقعة زراعية فسيحة[٤٣] .

وليس أدل على شيوع شكل من أشكال النمط الرأسمالى فى الإنتاج الزراعى ؛ من مشاركة المزارعين فى هذه الأعمال ، وفى مقابل هذه المشاركة كانت الدولة تعفيهم من بعض أقساط الخراج[٤٤] .

كما أسهمت النهضة العلمية التى ازدهرت فى هذا العصر فى زيادة الإنتاج الزراعى ، من حيث ابتكار وسائل جديدة فى تسميد الأرض ؛ نتيجة تقدم علم الكيمياء . كذا إبتكلو وسائل جديدة فى استنبات محاصيل عالية الإنتاجية ولاغرو فقد ظهرت فى هذا العصر مصنفات فى "علم الفلاحة" جرت الإفادة منها فى المجال الزراعى ، وأخرى فى "علم الحيوان" ساعدت على تعاظم الإنتاج وتجويده وتحسين سلالاته ، خاصة القول - أن ازدهار الزراعة فى العصر البويهى كان نتيجة للسياسة البويهية الرشيدة التى قوضت النمط الإقطاعى فى الإنتاج ليحل محله نمط آخر يتسم بالكثير من سمات نمط الإنتاج الرأسمالى .

---

[٤٣] - محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

[٤٤] - أدم ميتز : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤٠ .

دور مصر فى إفريقية
من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة
٢٧ - ١٨٤ هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠ م

د./ نريمان عبد الكريم أحمد
كلية الآداب - جامعة المنوفية

لقد تهيأت مصر بما اختصت به من مزايا، أن تتبوأ دائماً مكانة متفردة بين جيرانها، وأن تلعب دوراً إيجابياً قد تحتم عليها طوال تاريخها ولازالت، فهى تمثل أخطر موقع إستراتيجي(١)، باعتبارها حجر الزاوية فى الثلاثية القارية، التى يتألف منها العالم القديم، فهى الوحيدة، التى تلتقى فيها قارتان وتقترب منها ثالثة، لذلك فهى تمتاز بالموقع المركزى فى قلب الدنيا القديمة (٢)، فضلاً عن أن مصر بمثابة الشريان المحورى المطلق فى الملاحة العالمية (٣)، وبذلك يكون موقع مصر رأسمالا طبيعيا وسياسيا، ولولا هذا الموقع البرزخى الحيوى لكانت مصر أقل ثقلا وثراء (٤)، كما أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين إمكانيات العمل، بمعنى أن الجهد البشرى كان شرطا للتقدم (٥)، لذلك إمتازت مصر بثرائها وغناها وكثرة خيراتها.

وقد ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم، يؤكد ذلك قول تعالى: ((اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)) (٦) ويقول سبحانه: ((ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون .)) (٧) كما قال تعالى على لسان يوسف علية السلام :((قال اجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم)) (٨) .

كما ذكرت بعض الأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن مصر منها : ((إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)) (٩) وقال أيضاً : ((ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم فيهم صهراً وذمة)) (١٠) .

وقيل أيضا فى فضائل مصر : ((من أراد أن ينظر إلى الفردوس ، فلينظر إلى أرض مصر، حين تخضر زروعها و يزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشجارها وتغنى أطيارها)) (١١) وقيل أيضا:((بلد مصر خزانة الله)) وكذلك ((نعم البلد مصرا يحج

منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين)) (١٢) وعلى ذلك كان أثر ثراء مصر واضحا فيما قامت به على التوالى من إرسال القمح إلى روما ثم بيزنطة ثم المدينة (١٣) .

وهذه المزايا السابقة قد جعلت مصر مؤهلة للقيام بدور ملحوظ عبرالتاريخ ففى الحقبة الإسلامية ، بدأت مصر تتحول إلى قاعدة إسلامية كبرى ، فعلى الرغم من أن الدولة الأموية كانت فى الشام إلا أن مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبي سفيان لم يهتم بشىء أثناء صراعه مع على بن أبي طالب قدر أهتمامه بانتزاع مصر (١٤) . ونفس الشىء حدث أيام عبد الملك ابن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر وتولاها أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ، وظلت مصر كذلك طوال العصر الأموى قلب هذه الدولة ، لأن مصر كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الخلافة بأسباب الغنى والقوة (١٥) .

ولما كانت مصر هى المدخل الطبيعى وخط الإقتراب الحتمى إلى شمال أفريقيا (١٦) ، ولأنها ولدت إفريقية تشعر بالتزاماتها حيال القارة بوجه عام على مدار التاريخ ، حيث فرضت عليها الظروف أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى النهوض بشركائها (١٧) .

لذلك لعبت مصر دورا ملحوظا فى إفريقية ، بداية من الفتوحات حتى نهاية عصر الولاة، تمثل هذا الدور فيما أسهمت به مصر على الصعيد لعسكرى والسياسى ، فقد حتمت الوضعية الجغرافية لمصر وقربها من إفريقية إتخاذ مدينة الفسطاط قاعدة لإنطلاق الحملات ومركزا سياسيا هاما ، وفيما يخص الناحية الإقتصادية ، فقد اقتصرت على تقديم الأموال ، أما عن الناحية الثقافية فقد قامت مصر بدور الوسيط ، لان مدينة الفسطاط كانت تمثل معبرا ثقافيا وواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومن المعلوم أنه بعد إنتهاء عمرو بن العاص من فتح مصرعام٢١هـ/٦٤١-٦٤٢م، توجه إلى فتح برقة وطرابلس لتأمين حدود مصر الغربية (١٨) ، وكان طبيعيا أن يستمر الفتح فى إفريقية ، فكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى هذا الأمر لكن الخليفة لم يرض لسابق معرفته بظروف إفريقية المضطربة(١٩) ، وفى خلافه عثمان بن عفان،قام عبد الله بن سعد بن أبي السرح والى مصر بأرسال خيوله إلى إفريقية فى شكل سرايا تغير على أطراف البلاد (٢٠) وتقوم باستطلاع أحوالها معتمدا على جند مصر ، حتى قام بأول الغزوات الرسمية عام ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، والتى عرفت بغزوة العبادلة (٢١) ، وحوت هذه الغزوة إلى جانب القبائل التى تسكن مكة والمدينة كثيرا من أبناء القبائل العربية المستقرة

فى مصر من مهرة وميدعان و الأزد (٢٢) ، فضلاً عن بعض الأقباط الذين صحبوا هذا الجيش (٢٣) .

كما ضمت غزوات معاوية بن حديج الكندى بعض عشائر من جند مصر (٢٤) ، ونفس الشيء يقال عن حملة عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م ، والتى أشترك فيها على ما يبدو عدد كبير منهم ، فعند قدوم عقبة إلى مصر قبل غزو إفريقية قال له عبد الله بن عمر ((إياك أن تكون لعنة أرامل مصر)) (٢٥)، هذا يبين أن المشتركين فى هذه الحملة كانوا من العرب والأقباط على السواء، إذ إنه كان يطلق على العرب المقيمين فى مصر آنذاك ((أهل مصر)) .

و لم يقف الأمر عند حد إشتراك جند مصر فى الحملات المتوجهة صوب إفريقية ، بل أن مصر أو بالأحرى مدينة الفسطاط كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الحملات ومركزاً لتلقى القوات المنسحبة إليها ، لاسيما فى الحملات الأولى،فقد رجع عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن أقام فى إفريقية سنة وشهرين (٢٦) ، كما أن الحملات التى قام بها معاوية بن حديج كان يعود بعدها إلى مصر(٢٧) ، وكذلك زهير بن قيس الذى عاد بعد إنسحابه من إفريقية هو وجنده إلى مصر يلتمسون الراحة فيها (٢٨) .

كذلك كان يناط بوالى مصر قيادة الحملات ، فعلى الرغم من أن جيش العبادلة قد خرج من المدينة تحت قيادة الحارث بن الحكم،فإنه بعد وصول هذا الجيش إلى الفسطاط،أصبح عبد الله بن سعد قائدا له (٢٩) باعتبار أن مصر وواليها كانا يتحملان تبعة الفتح، صحيح أن عقبة لم يكن واليا على مصر ، لكن كان عليه بعد أن تم اختياره من قبل معاوية بن أبى سفيان ليقود هذه الحملة أن يتوجه إليها . وليس معنى مرور عقبة على مصر ، هو مجرد تجاوز الحدود إلى إفريقية ، بل لأن والى مصر وقتئذ كان مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى ولى مصر والمغرب منذ عام ٤٧ هـ / ٦٦٧م(٣٠) ، كما كان على عقبة أن يستقر بمصر بعض الوقت لإعداد هذا الجيش.

و لم يكن إشتراك جند مصر مقصورا على القتال ، بل كانوا يشاركون أحياناً فى وضع الخطط الحربية ، فتذكر المصادر (٣١) أن أحد الأقباط قد أشار على عبد الله بن سعد بأن يجعل للروم كمينا ويفرقهم حتى كان النصر للمسلمين ، وتم الإعتماد عليهم أحياناً فى تدعيم النفوذ العربى فى إفريقية فى حالة الإنسحاب ، فأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك فى طرابلس وإفريقية فرقة من جيش مصر(٣٢) ،كما كانت المراكب تخرج من مصر فى بعض الأحيان لتحمل أثقال الجيش وغنائمه (٣٣) .

وإذا كان هناك بعض الأسباب التى أثرت فى فتوحات إفريقية ومنها رفض الخليفة عمر بن الخطاب وظروف الخلافة نفسها فيما بعد ، وكذلك السياسة التى رسمتها الخلافة تجاه مناطق الأطراف والتى كانت تقوم على أن عملية الفتح تكون مسبوقة بفترة من الغارات الثغرية التى يتدرب فيها الجند على طبيعة البلاد والسكان (٣٤) فإن أحوال مصر السياسية أيضا قد شاركت فى تأخر هذه الفتوحات .

ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٣٥) أن هذا الأمر قد تزامن مع عمرو بن العاص معتمدا على رواية ابن عبد الحكم (٣٦) ، التى يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعا ، حيث ذكر: ((فأتى عمرو كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينه وبينهم)) ويضيف مع إنه يمكن الشك فى هذه الرواية إذ أن المقوقس توفى عام٢١ هـ / ٦٤٢م ، إلا إنه لاغبار عليها من حيث الموضوع ،فقد أتت ثورة الإسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى عامين ، لكن من المعتقد أن هذه الرواية مرتبطة بفتح برقة .

وليس هناك شك فى أن أحوال مصر المضطربة أثناء الفتنة الكبرى وما أعقبها من صراع بين على ومعاوية كان له أصداء فى فتوحات إفريقية ، لاسيما أن مصر كانت مسرحا للثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ، وكذلك إضطراب العثمانية فيها بزعامة معاوية بن حديج، حتى أن الفتوحات توقفت ما يقرب من ثلاثة عشر عاما (٣٧).

وإذا كان دور مصر العسكرى واضحا منذ البداية ، فهذا ليس معناه تلاشى دور الخلافة، باعتبارها المسئولة عن توجيه الحملات وتبنى سياسة الفتوحات ، فالحملات الأولى لم تخرج إلا بأمر الخلافة ، كما أنه قد تم تجهيزها بالمال والسلاح وإختيار القادة .

بيد أن أحد الدارسين (٣٨) يرى ((أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد أصبحت الخلافة تهتم مباشرة بأمر هذه البلاد وأن سلطان والى مصر لم يعد مطلقا على الجيش الأفريقى ، ويعلل تلاشي هذا الدور بعد ذلك بأن عمرو بن العاص بعد رجوعه إلى ولايته الثانية على مصر لم يقم بأى نشاط فى بلاد المغرب)) ولمناقشة هذا الرأى لابد أن نقرر أن الفتوحات الفعلية لم تبدأ إلا مع غزوة العبادلة بمعنى أن ما قام به عمرو قبل ذلك فى برقة وطرابلس كان لتأمين حدود مصر الغربية أو بمجرد غارات استطلاعية على أطراف إفريقية قام بها عمرو ومن بعده عبد الله بن سعد ، أما فيما يخص ولاية عمرو الثانية والتى كانت عام ٣٨ - ٤٣ هـ / ٦٥٨ - ٦٦٣م ، فخلال هذه الفترة كان نشاط عمرو ملحوظا ، فأرسل فى عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م شريك بن سمى الغطيفى إلى لواتة (٣٩)، وتبع ذلك غزواته إلى مزاتة

وما تلاها من فتح غدامس عام ٤٢هـ / ٦٦٢ م ، وهوارة عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م (٤٠) . وانتهت هذه الغزوات فى العام الذى توفى فيه عمرو (٤١) .

صحيح أن هذه الغزوات كانت فى برقة و طرابلس ، لكنها تؤكد نشاط عمرو بن العاص خلال هذه الفترة ، كما أننا لا نستبعد إنه قد وجه معاوية بن حديج إلى إفريقية بأمر الخلافة خاصة أن غزوات ابن حديج فى عامى ٤٠ ، ٤١ هـ والتى يعتبرها البعض غزوة واحدة تقع فى ولاية عمرو الثانية لمصر (٤٢) .

و لم ينته هذا الدور العسكرى الذى قامت به مصر فى إفريقية حتى بعد إختطاط مدينة القيروان عام ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، تلك المدينة التى أصبحت قصبة بلاد المغرب والقاعدة الجديدة والدائمة للفتوحات من خلال ما قامت به من أعمال حربية داخل البلاد ، ومع ذلك فكان لابد من إستمرار دور مصر بسبب تفجر المقاومة البربرية فى إفريقية . ولأن والى مصر ظل مهيمناً على أحوال إفريقية ، فكان عليه أن يعتمد على القوة العسكرية الموجودة فى مصر .

ومع أن المصادر لم تشر إلى إشتراك جند مصر فى حملة حسان بن النعمان ، والتى أختلف المؤرخون فى تحديدها (٤٣) ، وهذا راجع إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أصدر الأمر بتكليفه بالحملة ثم أمره بالبقاء فى مصر ، فمن الراجح أن حسانا اصطحب معه أعداداً منهم إلى جانب إعتماده على جند الشام (٤٤) ، كما إشترك جند مصر فى فتوحات موسى بن نصير حتى تم إنجاز الفتح (٤٥) .

وسرعان ما تفجرت ثورات الخوارج فى بلاد المغرب فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى ، فأنضم إلى جيش كلثوم بن عياض القشيرى ثلاثون ألفا من أهل الشام ومصر(٤٦) ، لأن الخليفة هشام بن عبد الملك كتب إلى والى كل بلد ومنها مصر أن يخرج بمن معه (٤٧). وبعد الهزيمة أرتد جند مصر مع جند إفريقية إلى القيروان (٤٨) ، و لم نسمع عنهم بعد ذلك ، فلعلهم استبعدوا مثل العرب القدامى وسرحوا فيما بعد . ومع قيام الخلافة العباسية استعان الخليفة السفاح بجند مصر لتأكيد النمط المركزى للخلافة ضد عبد الرحمن بن حبيب الذى خرج على الخلافة منذ الأمويين ، فأرسل الجيوش من مصر من خلال حملة أبي عون عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، والتي عززت بحملة بحرية وصلت إلى الإسكندرية في نفس العام . ولكن لم يقدر لهذا العمل العسكرى أن يستكمل بسبب وفاة الخليفة (٤٩) .

أما عن الدور السياسى الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فمن الملاحظ أنه كان مصاحبا للدور العسكرى ، ويتضح هذا الدور فى تبعية إفريقية لحكومة الفسطاط ويطالعنا

البلاذرى(٥٠) بنص يفيد هذه التبعية المبكرة ، فيذكر : ((أن الخليفة عثمان بن عفان جعل لأبن سعد ولاية مصر والمغرب)) كما يذكر النويرى (٥١) : ((أن معاوية بن أبي سفيان أقر معاوية بن حديج على إفريقية وأفردها عن مصر)) . ويضيف الدكتور حسين مؤنس (٥٢) : ((أن معاوية أراد بعد وفاة عمرو إسترداد الحق الذى كسبه فى ولاية إفريقية واعتبرها ولاية قائمة بذاتها يولى من عنده واليا تكون صلته به مباشرة)) .

وبالنسبة لرواية البلاذرى . فحتى خلافة عثمان بن عفان ، لم يكن هناك كيان إسلامى فى إفريقية ، لأنها كانت مرحلة فتوحات لم تستقر بها الجيوش العربية بعد ، لذلك من المقبول أن الخليفة قد عهد لأبن سعد بقيادة الحملات ، ومعنى ذلك أن التبعية كانت مجرد تبعية عسكرية ، لأن الفسطاط كانت حتى ذلك الوقت قاعدة عسكرية لانطلاق السرايا والغلوات على أطراف إفريقية ، وحتى بعد خروج غزوة العبادلة ظلت الفسطاط تلعب نفس الدور .

وفيما يخص رواية النويرى ، فهل يعنى أفراد إفريقية عن مصر إنها كانت تابعة لمصر ثم رفعت تبعيتها ؟، لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، لأن مسألة إنشاء ولاية فى إفريقية لم تكن قد طرحت بعد(٥٣) وإذا كان معاوية قد أراد أن يكافىء أحد أنصاره وهو ابن حديج ويوليه على إفريقية ، فعمرو أيضا كان له الفضل فى وصول معاوية إلى الخلافة كما أن معاوية لم يستطع أن يحافظ على مصر من أتباع على بن أبي طالب إلا بوجود عمرو فى مصر ، وكذلك كيف تكون إفريقية ولاية قائمة بذاتها مستقلة بعد تولية ابن حديج فمعنى ذلك أنها لم تكن تابعة لمصر إلا فى فترة قصيرة أنتهت بهذه التولية .

لكن إفريقية لم تكن ولاية بالمعنى المفهوم ، فعلى الرغم من أن معظم المؤرخين (٥٤) قد ذكروا فى أحايين كثيرة أشارات تؤكد بروز الولاية منذ عقبة وحتى قبله ، ومنها، ((أن مسلمة بن مخلد عزل عقبة ، وهو يؤمئذ والى البلد من قبل معاوية)) ، وكذلك عندما قدم عقبة على معاوية يشكو له ، فقال له معاوية : ((رددتك إلى عملك)) وكثيرا ما يصادفنا ولاية عقبة الأولى والثانية ، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن إفريقية أصبحت ولاية قائمة بذاتها ، لأن المؤرخين قد سجلوا هذه الأحداث فى فترة متأخرة ، و لم تعنيهم هذه القضية ، لأنها كانت قد استقرت ، فجاءت هذه التعابير على النحو الذى أسلفناه ، ومما يبين عدم بروز الولاية حتى عقبة ما ذكره ابن عبد الحكم (٥٥) : ((أن عقبة عندما قدم إلى مصر قال أن أمير المؤمنين يريد العقد لى على جيش إفريقية)) .

وفى الواقع برزت إفريقية كولاية منذ مسلمة بن مخلد الذى يعتبر أول من جمعت له مصر والمغرب عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٥٦) وإن كان هذا فى إطار تبعيتها للفسطاط

والتى استمرت على الرغم من اختطاط مدينة القيروان ، التى مثلت السيادة العربية فى إفريقية وكذلك بعد إنشاء دار الأمارة ، فإن هذه التبعية قد استمرت لأن إفريقية حتى هذا الحين كانت قد ولدت بكيانها الإدارى فقط .

وقد اتضحت علاقة مصر بأفريقية من خلال التبعية السياسية فى إقدام والى مصر مسلمة بن مخلد على عزل عقبة بن نافع بعد نجاحه فى التوغل فى إفريقية وإحراز إنتصارات على البيزنطيين وإختطاط مدينة القيروان . ومهما قيل فى أسباب عزل عقبة من حيث خطته العسكرية أثناء فتوحاته والمجازر التى قام بها وموقفة من زعماء البربر وعدم محاولته كسبهم ، كما فعل أبو المهاجر دينار من بعده ، والذى سار على سياسة مغايرة لسياسة عقبة (٥٧) ، وكذلك سياسة التشدد التى أتبعها فى سبيل نشر الإسلام والتي جعلت الإمبراطورية البيزنطية تصدر أوامرها بمنع الاضطهاد الديني بأفريقية حتى توجد جبهة مضادة للمسلمين (٥٨) ، فكان لابد من عزل عقبة لإحداث نوع من التوازن في البلاد ، فضلا عما قيل بشأن خوف معاوية بن أبي سفيان من محاولة عقبة الاستقلال بإفريقية ، وقد أدرك ذلك قبلا في مطامع عمرو بن العاص في مصر (٥٩) . أو لأسباب شخصية ترجع إلى مسلمة الذي أراد أن يكافئ أحد مواليه على إخلاصه (٦٠) .

ومع ذلك يظل هذا العزل أمرا يخص مسلمة وحده الذى طمع فى غنائم إفريقية وأراد أن تكون لولايته من خلال تعيين أحد مواليه ، كما يظل هذا العزل دليلا على هيمنة مصر وحكومة الفسطاط على مقدرات إفريقية السياسية ، وحسبنا دليلا على ذلك عدم اهتمام الخلافة بعزل عقبة عندما قدم على معاوية شاكيا ، وأن وعده برده إلى إفريقية ، وذلك بسبب ثقل وطأة والى مصر بإعتباره واحدا من الشخصيات البارزة فى الدولة الأموية ، فهو من كبار العثمانية ومن أنصار البيت الأموى ، الذين ساعدوا معاوية على الوصول إلى الخلافة (٦١) . لهذا لم يكن فى مقدور معاوية أن يرد عقبة ، كما أنه ليس معقولا أن يزيد قد رده إلى إفريقية وقطعها عن مصر، لكن رد عقبة تم بعد وفاة مسلمة بن مخلد عام ٦٢ هـ / ٦٨٢ م (٦٢) . ومما يدل أيضا على هذه التبعية أن أبا المهاجر بعد توليه على إفريقية وجه بالخمس مباشرة إلى مصر (٦٣) .

أما الحالة الثانية التى توضح علاقة إفريقية بحكومة الفسطاط فى إطار التبعية ، تتمثل فى عزل حسان بن النعمان ايضا عن إفريقية من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٣ هـ / ٧٠٢م(٦٤) ، على الرغم من قيام حسان بدور ملحوظ فى البلاد من حيث صد المقاومة البربرية التى تزعمتها الكاهنة وإشراك البربر بشكل فعلى فى الجيش (٦٥) ، والتسوية

بينهم فى تقسيم الأرض والفىء (٦٦) ، فضلا عن اهتمام حسان بعمران المدينة ،فقام بتحديد مسجدها الجامع(٦٧) ، ودون الدواوين وصالح البربر على الخراج (٦٨) .

ومع ذلك فقد تم عزله ، وتولية موسى بن نصير بسبب طمع والى مصر أيضا فى غنيمة إفريقية، كما يذكر المؤرخون (٦٩) ، فى حين أن السبب المباشر لهذا العزل يكمن فى مشكلة برقة ، لأن الخليفة عبد الملك بن مروان أعطاها لحسان مكافأة له ، فلما بلغ عبد العزيز ذلك حاول مع حسان أن يتركها لأنها كانت تابعة لمصر ، وأدى رفض حسان إلى قيام عبد العزيز بتمزيق العهد الذى كتبه الخليفة (٧٠) .

ومن الواضح أن هذا العزل قد إعتمد أساسا على قوة والى مصر،فهو كان أخا للخليفة عبد الملك ابن مروان وولى عهده (٧١) ، ومع أن الخليفة قد كره هذا الأمر منذ البداية وأنكره ، لكن سرعان ما وافق عليه ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات التى تبودلت بينهما (٧٢) ، وذلك بسبب ما كان بين الأخوين فيما يخص موضوع الخلافة ، فحاول عبد الملك أن يجعل عبد العزيز يتنازل عن حقه فى الخلافة أراديا ، لذلك فقد جامله على الصعيد المغربى كنوع من التعويض (٧٣) ، والدليل على ذلك أنه أنكر ما فعله عبد العزيز وهم بعزل موسى لسوء رأيه فيه لكن رأى ألا يرد صنيع عبد العزيز.وتأكدت هذه التبعية أيضا فى إرسال موسى بن نصير بأخبار الفتح والغنائم إلى مصر (٧٤).وتبين مما سبق أن مصر قد أستطاعت أن تلعب دورا سياسيا هاما فى إفريقية من خلال واليين لهما وزن فى الخلافة ، قد استطاعا أن يستصدرا اوامرهما بالعزل والتعيين بعيدا عن الخلافة وقد اطمئنا إلى أن الخلافة لم تستطع رد ما قاما به ، بسبب منزلتهما الكبيرة ، ومن اللافت للنظر أن الحادثتين قد تشابهتا إلى حد كبير من حيث أن كلا من عقبة وحسان قد قاما بدور هام فى الفتح ويأتى عزلهما فى فترة تألقهما وتركهما لعلامات بارزة فى البلاد وأن يحل محلهما فى كل مرة مولى تابع لوالى مصر ، وهذا ينبهنا إلى خوف والى مصر من إستحواذ عقبة ومن بعده حسان على إفريقية وهما من أسرتين عربيتين معروفتين خاصة أن إفريقية بعيدة عن أيدى الخلافة .

وإذا كان هذا الدور الذى لعبه كل من مسلمة وعبد العزيز يرجع إلى ثقل شخصية كل منهما بسبب ارتباطهما بالخلافة ، فهذا ربما لا يجعل دور مصر واضحا لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذين الواليين أو غيرهما مما تمتع بمكانة مميزة فى الخلافة ، فكان لابد أن يتولى ولاية مصر باعتبار أنها واحدة من أهم ولايات الخلافة حتى أن عمرو بن العاص قال : ((أن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة(٧٥))) .

ويرى أحد الدارسين (٧٦) ((أن طمع عمال مصر فى ولاية المغرب أدى إلى وجود نزاع بينهم وبين الخلفاء ، وهذا الصراع أدى إلى تأخر شخصية المغرب الكاملة وأخذ صفة الولاية المستقلة ، فظلت تابعة للخلافة رسميا خاصة بعمال مصر،وحرصت الخلافة على استرداد حكم المغرب من يد عمال مصر))، ويضيف ((أنها كانت قائمة بذاتها من أول الأمر لكن ولاة الفسطاط نازعوا الخلافة فيها)) .

بداية لا نستطيع أن ننكر طمع ولاة مصر فى السيطرة على إفريقية وبلاد المغرب بشكل عام . وإن كان بذلك ينفى تبعيتها لحكومة الفسطاط ، كما أن ولاة مصر لم يكونوا من وراء تأخر استقلال إفريقية بشئونها ، لأن ما حدث لها قد تأثر أساسا بأحوالها المضطربة وساعد على إستمرار تبعيتها للفسطاط ، فقد تفجرت المقاومة البربرية مع عقبة ثم حسان ، حتى أن القيروان تم احتلالها فى المرتين ، فقد استطاع كسيلة أن يدخل القيروان بعد مقتل عقبة فى تهودة عام٦٩هـ/٦٨٨م واستقر بها لمدة خمس سنوات (٧٧) ، وهى نفس الفترة التى احتلت فيها الكاهنة القيروان وكل إفريقية بعد هزيمتها لحسان بن النعمان (٧٨) ، معنى ذلك إنه لا يمكن أن تظهر شخصية إفريقية المستقلة إلا بعد إنجاز الفتح ، الذى تم مع موسى بن نصير ليبدأ بعده عصرا جديدا اصطلح على تسميته بـ ((عصر الولاة)) .

أما فيما يذكره من صراع بين الخلافة وولاة مصر حول إفريقية، فلم يكن صراعا بالمعنى المفهوم ، إنما كان حرصا من الخلافة من أجل الحفاظ على إفريقية ، لذلك كانت تصدر أوامرها إلى قادة الفتح ، فقامت بتكليف عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج كما إختارت عقبة بن نافع ليستأنف الفتح وزهير بن قيس البلوى لاستنقاذ إفريقية من أيدى البربر وحسان من بعده ، وكان لا يمنع الخلافة من التدخل الفعلى فى شئون إفريقية فى بعض الأحيان إلا ما كان بينها وبين والى مصر من قرب ومصالح ، لذلك أجهضت محاولات كل من عقبة وحسان من بعده فى الإتصال بالخلافة .

وقد تزامن ظهور شخصية إفريقية المستقلة بعد وفاة والى مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، حتى أن موسى بن نصير لم يعبأ بوالى مصر الجديد وهو عبد الله بن عبد الملك ، وبدأ يرسل الرسائل بأخبار الفتح والغنائم والخمس إلى دمشق رأسا (٧٩)، ثم قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بإفراد إفريقية عن مصر (٨٠) وبذلك أصبحت إفريقية تأخذ وضع الولاية الراشدة تتمتع بكافة الحقوق مثل الولايات الأخرى ومنها مصر ، وتلحق بالخلافة مباشرة (٨١) . ويعتبر البعض(٨٢) أنه بداية

من عام ٩٣ هـ / ٧١١ م أصبح المغرب بصفة عامة ونظريا ولاية فى الدولة العربية الإسلامية ، تقدم الجند والعبيد وتدفع الخراج و الجزية لخزانة الخلافة .

ولنا أن نقرر أن هذه التبعية السياسية لحكومة الفسطاط والتى استمرت فترة ليست بالقصيرة ، قد ارتبطت باعتماد الخلافة على مصر فى عملية الفتح إلى جانب شخصية ولاة مصر أنفسهم وظروف إفريقية المضطربة .

ومع أن إفريقية قد أخذت وضع الولاية الراشدة ، فكان جل اعتماد الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية على ولاة سابقين لمصر لأخماد ثورات الخوارج ، أمثال حنظلة بن صفوان ومحمد بن الأشعث الخزاعى ويزيد بن حاتم ، تم توليتهم على ولاية إفريقية ، بسبب أن هؤلاء كانوا على معرفة تامة بأحوال إفريقية ،وأخيرا كان إعتماد الخلافة العباسية على هرثمة بن أعين ، الذى ترك مصر وتولى إفريقية عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، ليقضى على فتن الجند التى استشرت فى البلاد حتى نهاية عصر الولاة (٨٣) .

وأرتبط دور مصر فى إفريقية أيضا بالمشاركة المالية التى قامت بها منذ بداية الفتوحات ، فمن المعلوم أن مصر كانت تقوم بتجهيز الجند الخارجين إلى إفريقية بالمؤن والعتاد إلى جانب ما كانت تقدمه الخلافة (٨٤) ، ومع تقدم الفتح بدأت مصر تتحمل العبء الأكبر فى إعداد هذه الحملات ، فيذكر المؤرخون ، أنه بعد مقتل عقبة بن نافع ، ووقوع القيروان فى أيدى البربر ، قامت مصر بتقديم الأموال إلى إفريقية ، وقد أوردوا بصدد ذلك تعابير مختلفة من خلال أوامر الخليفة عبد الملك بن مروان منها أمره إلى زهير بن قيس : ((أفرغ عليهم أموال مصر)) (٨٥) وأمره إلى حسان بن النعمان : ((أنى أطلقت يدك في أموال مصر ، فأعط من معك ومن ورد عليك واخرج إلى بلاد إفريقية)) (٨٦) ، ثم تكرر الأمر مع الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذى كتب إلى والى مصر قرة بن شريك ٩٠-٩٦ هـ / ٧٠٨-٧١٤ م : ((بأن يعطى موسى بن نصير من مال مصر ما أراد)) (٨٧) .

وهذه التعابير تدل أولا:على كثرة ما كان موجودا فى خزانة مصر من أموال آنذاك ، وثانيا: الاعتماد الكبير على هذه الأموال لإتمام الفتح فى إفريقية حتى أننا نتصور أن هذه الأموال لم تكن محددة القيمة فى البداية . وثالثا : أن هذه الحرية فى الحصول على الأموال من خزانة مصر ، تجعلنا نقف على حقيقة أخرى لابد من مناقشتها من خلال ما ذكره المؤرخون(٨٨) ، فيما يخص طمع ولاة مصر فى غنائم إفريقية ، خاصة عبد العزيز بن مروان ، الذى أرسل إلى حسان بن النعمان أربعين رجلا حملوا ما عنده وأمره بالقدوم عليه ، فعلم حسان ما أراده عبد العزيز ، فخبأ ما معه من الجواهر والذهب والفضة فى قرب الماء ،

ولما قدم عليه فى مصر ، قام عبد العزيز بسلب جميع ما معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف . وعلى ما يبدو أن ولاة مصر كانوا مدفوعين لذلك ليس فقط بسبب الطمع ، لكن أيضا كان ذلك بمثابة تعويض عما أنفقته مصر وبدون حساب خاصة أن هذه الأوامر الصادرة من الخلافة بفتح خزانة مصر لصالح إفريقية تزامن بعضها مع ولاية عبد العزيز بن مروان على وجه الخصوص .

ثم أخذت مصر فى تقديم هذه الأموال إلى إفريقية بشكل منتظم ، وتمثلت فى الإعانة السنوية التى بلغت مائة ألف دينار (٨٩) . ولا نستطيع أن نحدد بداية هذه الإعانة بالضبط ، فلعل مصر بدأت فى تقديمها خلال ثورات الخوارج ، لأن ولاة إفريقية كانوا قد حصلوا على مغانم الذهب والفضة بعد إنجاز الفتح ، لكن السياسة المالية الجائرة ، التى أتبعها الولاة أدت إلى تفجر هذه الثورات ، لذلك كان لابد من تقديم الأموال لولاية إفريقية بشكل منتظم ، خاصة أن هذه الثورات إستمرت ما يقرب من نصف قرن ، وبعد فترة قصيرة اندلعت فتن الجند، فكان لابد من إستمرار هذه الإعانة ، حتى نهاية عصر الولاة١٨٤هـ/٨٠٠م .

لكننا لم نقف على حقيقة هذه الإعانة ومقدارها إلا بعد انتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة الأغالبة ، ومن خلال قيام إبراهيم بن الأغلب ، بالتنازل عن تلك الإعانة التى تقدمها مصر(٩٠) ، ولعلها قد استمرت فترة من حكم الاغالبة ، فيبدو أن ابن الأغلب لم يستطع أن يفى بالتزاماته تجاه الخلافة بسبب قيام الجند بالثورات ومطالبتهم بأرزاقهم ، فيذكر البلاذرى(٩١): ((فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم خراج مصر)) ويفهم من هذه الرواية أن هذا الجزء كان يقتطع من خراج مصر ، فهل كان يقتطع من خراجها الذى كان يوجه إلى الخلافة أو أن هذه الأموال كانت ترسل من خزانة مصر بعد الوفاء بالتزاماتها تجاه الخلافة ؟ .

وعلى ما يبدو أن الأمرين محتملان على اعتبار أن تنازل إبراهيم بن الأغلب عن هذه الأعانة مقابل الحصول على الولاية يجعلنا نعتقد أن هذه الأموال كانت تقتطع من حصة الخلافة من خراج مصر ، كما أن تحمل خزانة مصر لهذه الأموال يعد أيضا أمرا مقبولا ، بسبب ما قامت به مصر قبلا من تقديم المساعدات المتوالية إلى إفريقية .

وبذلك يظل إستمرار المشاركة المالية حتى بعد إنتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة تابعة للخلافة دليلا على إثبات دور مصر وقدرتها المالية و ارتباط هذا الدور بطبيعة الأحداث المتلاحقة فى إفريقية من حروب فتح وثورات خوارج وفتن جند .

وأسهمت مصر أيضا فى إنشاء أول قاعدة بحرية فى إفريقية ، وذلك بسبب الظــروف السياسية التى طرأت على البحر المتوسط بعد إنتقال الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثــانى إلى صقلية و اتخاذ سرقوسة عاصمة له للحفاظ على ممتلكاته فى إفريقية (٩٢) ، خاصة وأن هــذه القاعدة قد عرقلت الفتوحات ، كما أدى فقدان العرب لقوة بحرية فى البداية إلى ترك المــدن والحصون للبيزنطيين على الساحل (٩٣) . وما كان من نكبة عقبة بن نــافع فى تهــودة إلا بسبب إغفاله القوة البحرية ، وكان انسحاب زهير بن قيس بعد نجاحه فى اســتعادة مدينــة القيروان من كسيلة ، بسبب نزول حملة بحرية بيزنطية ، وكذلك كانت إستعانة حسان بــن النعمان ببعض القطع البحرية الإسلامية أثر فى سقوط قرطاجنة .

لذلك كان اتخاذ قاعدة بحرية فى إفريقية أمرا محتوما ، و لم يأت مصادفة ، وعلى ذلــك أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بإرسال ألف قبطى بأهله وولده إلى إفريقيــة لإنشاء دار صناعة بها(٩٦) ،وكان دور هؤلاء الأقباط واضحا فى إنشاء أســطول إفريقيــة لسابق معرفتهم وخبرتهم فى هذا المجال ، فكانت مصر مركزا هاما لبناء الســفن فى العصــر الأموى ، وسبق أن إستخدم معاوية الأقباط فى بناء الأسطول الســورى فى عكــا (٩٧) ، وكانت مهمة الأقباط فى إفريقية مزدوجة ، فكان عليهم حفر الميناء وبناء السفن ، فتم حفــر ميناء تونس بحفر قناة إلى الداخل إثنى عشر ميلا (٩٨) ، لذلك يعد هذا الميناء ميناء داخليــا، ويمثل قاعدة أمينة من خطر البيزنطيين(٩٩) ،كما كان يشارك بعض الملاحين المصريــين فى أسطول إفريقية فى بعض الأحيان(١٠٠) .

وإذا كان ميناء تونس قد أنشىء بفضل الأقباط ، فمدينة القيروان منــذ إختطاطــها قد تأثرت بالعرب الوافدين عليها منذ بداية الفتح ، فعلى ما يبدو أن أهــل القــيروان قــد بنوا دورهم على غرار منازل الفسطاط من حيث الموقع والطراز(١٠١) ؛ لأن القبائل الــتى أتت إلى إفريقية منذ البداية كانت معظمها من عرب مصر ، وربما إستمر هذا التأثير بســبب مجىء الأقباط ، الذين أتوا بأسرهم إلى إفريقية منذ حسان بن النعمان وإســتقروا فى تونــس وعمروها(١٠٢) ، إلى جانب التابعين الذين توالوا عليها طوال العصر الأموى مــن مصــر واستوطنوا القيروان (١٠٣) ، وإن كان دور هؤلاء ليس واضحا بسبب غلبة أهل الشام وأهل خراسان الذين توافدوا على أفريقية بشكل كبير خلال العصر الأموى والعباسى (١٠٤) .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين أهل إفريقية وأهل مصر من العرب ، الذين أتوا عليــها لم تكن علاقة تعال ، فلم يأنف منهم أهل إفريقية ،كما أنفوا من أهل الشام،وسبب ذلــك أن هؤلاء الجند الوافدين كانوا من العرب اليمنية مثل العرب المســتقرين فى إفريقيــة (١٠٥) ،

بدليل إنه بعد هزيمة العرب فى بقدورة أمام الخوارج الصفرية عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، سار أهل إفريقية ومعهم أهل مصر فى ناحية وأهل الشام فى ناحية (١٠٦) .

أما عن الدور الثقافى ، الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فقد اتضح منذ البداية مع الجند الوافدين مع الحملات ، ثم تلتها مرحلة أخرى أكثر وضوحاً بعد إختطاط مدينة القيروان وما أعقبها من إنجاز الفتح ودخول البربر فى الإسلام ، الذى كان يتطلب تعليمهم أمور الدين ، ولم يكن ذلك إلا من خلال معلمين عرب ، وهؤلاء كانوا من الشرق وبصفة خاصة من مصر(١٠٧) ، فقد شملت بعثة العشرة التابعين التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل إفريقية فى الدين عدداً منهم أمثال بكر بن سوادة الجذامى وسعيد بن مسعود التجيبى وحبان بن جبلة (١٠٨) ، وقد سكنوا مدينة القيروان ، وروى عنهم الكثيرون من أهلها (١٠٩) .

ولقد كان تأثير مدرسة الفسطاط الثقافى من خلال عدة محاور ،فلم يقتصر على الشكل الرسمى من قبل الخلافة ، بل تعداه إلى دور الأفراد باعتبار أن مدينة الفسطاط كانت تمثل فى العصر العباسى القاعدة القريبة التى يستطيع أهل إفريقية من خلالها الإطلاع على علوم المشرق ، وكذلك لأنها تعتبر أيضاً المجال الذى يجتازه أهل إفريقية فيما عرف وقتذاك بـ ((الرحلة فى طلب العلم)) فكان لابد من الوقوف بالفسطاط أثناء رحلتهم إلى المشرق بعض الوقت ، يأخذون من رجالها الأحاديث وأساليب الرد على المشاكل التى تعرض لهم ، لاسيما أن مدرسة الفسطاط قد اشتهرت بكثير من فقهاء المالكية أمثال الليث بن سعد (١١٠) ، وعبد الله بن لهيعة (١١١) ، وعبد الله بن وهب (١١٢) حتى أن كثيرا من فقهاء إفريقية المشهورين أمثال عبد الرحمن بن أنعم و على بن زياد التونسى والبهلول بن راشد كان لهم سماع من هؤلاء الفقهاء (١١٣) ، الذين كان لهم منزلة رفيعة عند أهل إفريقية (١١٤) .

كذلك أنتقل بعض المحدثين من أهل مصر وفقهائها إلى إفريقية واستقروا ببعض مدنها مثل القيروان وتونس وسمع منهم الكثيرون (١١٥) ، ومنهم زيد بن بشر الذى استوطن مدينة تونس ، وكان يفد إليه الناس من القيروان ليسمعوا له(١١٦)، كما روى أهل إفريقية الحديث عن فقهاء مصر ، بالإضافة إلى إنتشار كتب الفقهاء المصريين فى إفريقية أمثال كتب عبد الله بن وهب

ومنها ((كتاب الأهوال)) (١١٧) ((وكتاب الزهد)) لعلى بن زياد الحمصى (١١٨).

لكن بالنسبه لعلوم اللغة ، فلم نستطع أن نقف على دور مدرسة الفسطاط وذلك لأن مدرستى الكوفة والبصرة قد لعبتا دورا واضحاً فى هذا المجال ، مع بقاء دور مدرسة الفسطاط كواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومع أن الدور الثقافي لمصر في إفريقية خلال هذه الفترة لم يتبلور بشكل واضح، لأن المجتمع الإفريقوى كان لايزال جنيناً؛ فإن القيروان كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فيما بعد قد ولدت فى الفسطاط كما أنها قامت على أصول مصرية(١١٩) .

صفوة القول ، أن الدور الذى لعبته مصر فى إفريقية بداية من الفتح إلى نهاية عصر الولاة ، رغم تعدده ، إلا أنه كان فى الغالب يمثل الجانب الرسمى من خلال الإعتماد على مصر وولاتها فأصدرت الخلافة الأوامر المتتالية ليخرج أهل مصر من عرب وأقباط لتنفيذ هذه الأوامر .

الهوامش

(١) جمال حمدان،شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى،القاهرة١٩٨١،ص ٧٨٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٧٨٥ وذلك بسبب ارتباطها بالمحيط الأطلسى - البحر المتوسط - البحر الأحمر والمحيط الهندى .

(٤) نفسه ، ص ٧٨٨ .

(٥) نفسه ، ص ٤٥١ .

(٦) سورة البقرة ، آيه ٦١ .

(٧) سورة الزخرف ، آيه ٥١ .

(٨) سورة يوسف ، آيه ٥٥ .

(٩) الكندى ، فضائل مصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٧ .

(١٠) نفسه ، ص ٢٦ .

(١١) نفسه ، ص ٥٧ .

(١٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(١٣) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥٨ .

(١٤) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، الطبعة الرابعة، مزيدة و منقحة القاهرة ١٩٧٣،ص١١٣ .

أرسل معاوية عمرو بن العاص فى بداية عام ٣٨ هـ / ٦٥٨م ، ليخضع مصر التى كانت تمدد وجوده فى الشام ، لكثرة أتباع على بن أبى طالب فيها أنظر ، ابن الأثير ، الكامل ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٣ ، ص ١٣٨ . و مع فتنة عبد الله بن الزبير بعد خروج مصر عن طاعته ، لم تقف مصر على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلافة . بل أرسل عبد العزيز بن مروان فى عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م حمله إلى مكة لقتال ابن الزبير . انظر . الكندى ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ٥١.

(١٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(١٦) جمال حمدان ، شخصية مصر ، جـ٢ ، ص ٧٨٤ .

(١٧) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(١٨) كانت مدينتا برقة وطرابلس تمثلان ولاية واحدة تابعة لمصر منذ أيام الإمبراطور البيزنطى موريس ثم تم انفصالها عن مصر وظلتا حتى الفتح العربي مستقلتين وقامتا بثورات متتالية ضد الحكم البيزنطى وظهر فيها دويلات مستقلة متمثلة فى القبائل الموجودة بها من لواتة وهوارة ونفوسة .

انظر، Fournel, *les Berbres*, Paris, 1895, I, pp, 217-218

(١٩) قال عمر بن الخطاب : " إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادره مغدور بها لا يقربها أحد ما بقيت " انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ٢١٠
(٢٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢١٠ .
(٢١) عرفت بذلك لاشتراك عدد من أبناء الصحابة تسموا بذلك ومنهم عبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله بن عمرو وعبد اللة بن الزبير.انظر، ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ ، ١ ، ص ٩ .
(٢٢) المصدر السابق ، ٢١١ .
(٢٣) المالكى،رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية،القاهرة١٩٥١،جـ ١، ص١١.
(٢٤) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٢٤ ، ص١٩.
(٢٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .
(٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣ .
(٢٧) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٨) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٩) نفس المصدر ، ٢١٠ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .
(٣١) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥ .
(٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٣١ .
(٣٣) نفس المصدر .
(٣٤) حسن أحمد محمود ،الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(٣٥) تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .
(٣٦) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٠ .
(٣٧) الحبيب الجنحانى ، القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
(٣٨) المرجع السابق ، ١٢١ .
(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٤٢ .
(٤٠) الكندى ، الولاة و القضاة ، ص ٣٢ .
(٤١) المصدر السابق .
(٤٢) سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
(٤٣) يذكر المؤرخون تواريخ مختلفة بالنسبة لحملة حسان بن النعمان ما بين تسع وستين وثمان وسبعين انظر، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٨ ، ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .
(٤٤) نفس المصدر .
(٤٥) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .
(٤٦) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٤١ .

(٤٧) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٢ .

(٤٨) نفس المصدر ، ١١٣.

(٤٩) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغـرب ، ص ٢٩٤ .

(٥٠) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ .

(٥١) نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٢١ .

(٥٢) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١١١ .

(٥٣)انظر، Hicham Djait, "La wilaya d Afiqiya au II^e -VIII^e siècles. etude institationnelle", *Studio Islamica* , tome .II ,1967 , p .70 .

(٥٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(٥٥) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٥ .

(٥٦) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة،القاهرة ١٩٦٢،جـ ١،ص١٣٣.

(٥٧) Julien ,*Histoire de l'Afrique du nord jusqu'à la conquête arabe* , Paris , 1951 . p . 16.

(٥٨) Marçais, G, *La Berberie Musulmane et orient au moyen âge*, Paris .1946 p . 38.

(٥٩) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٦٠) Terrasse, Henri, *Histoire du Moroc des origines à l'établissement du Protectorat Français*, Paris, 1975, p . 80.

(٦١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٥ " ثم قدم عقبة على معاويـــة بـــن أبى ســـفيان فقال له " فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ،ثم أرسلت عبد الأنصار فأســاء عزلى ، فاعتذر إليه معاوية وقال :عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم وتقديمه إياه وقيامـــة بنفسه وبذل مهجته " .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٦٣) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٦٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧١ .

(٦٥) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ،ص ٢١. قد بدأ إشتراك البربر مع عقبة بن نـــافع وأبى المهاجر دينار ، لكنهم لم يدخلوا بشكل فعلى فى الجيش الإسلامى إلا مع حسان بـــن النعمـــان ، الذى جند من أبنائهم أثنى عشر ألفا وعقد لولدى الكاهنة كل واحد على ستة آلاف فارس .

(٦٦) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٦٧) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقيـــة والمغـــرب ، بـــاريس ١٩١١،ص٢٢؛ مجـــهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١١٤.

(٦٨) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦٤ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٧٠) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٧١) عين عبد العزيز بن مروان واليا على مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم وخلفا لأخيه عبد الملك فى الخلافة ، انظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٧٧ ،جـ ٩ ، ص ٦١٠ .

(٧٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٢ ٥٣ .

(٧٣) انظر، H ic ham Djait , op . cit , p . 83

(٧٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٧٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ .

(٧٦) مؤنس ، فتوح العرب للمغرب ، ص ٢٧١ .

(٧٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٧٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .

(٧٩) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٨٠) الرقيق ، تاريخ إفريقية ، ص ٦٨ .ولكنه يذكر أن الخليفة الوليد كتب إلى عمه عبد العزيز على مصر يأمره بأن يوجه إلى إفريقية موسى بن نصير وهذا الأمر مقبول ، لأن عبد العزيز توفى قبل عبد الملك عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م

(٨١) Hicham Djait, *Histoire de la Tunisie , le moyen âge, la conquête arabe et l'Emirat*, Tunis, p. 47 .

(٨٢) عبد الله العروى ، تاريخ إفريقية والمغرب ، محاولة فى التركيب بيروت ١٩٧٧ ، ص ٨٧ .

(٨٣) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(٨٤) فتح الخليفة عثمان بن عفان بيوت السلاح للمسلمين ، كما أعان المسلمين من ماله الخاص بألف بعير يحمل عليه ضعفاء الناس ، كذلك قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإرسال معاوية بن حديج السكونى بجيش مكون من عشرة آلاف جندى من الصحابة والتابعين. انظر عذارى ، البيان المغرب ، جـ ،ص ٩، ١٦ .

(٨٥) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٨٦) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٨٧) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٨٨) الرقيق،تاريخ وإفريقية والمغرب،ص ٦٦؛ ابن عذارى،البيان المغرب،جـ ١،ص ٣٨ - ٣٩.

(٨٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(٩٠) المصدر السابق .

(٩١) فتوح البلدان ، ص ٢٣٥ .

(٩٢) انظر، Marçais, op. cit. , p. 36.

(٩٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط . القاهرة ١٩٦٠،٩٧-٩٨ .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة الأرض . بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢٠ ؛ البكرى ، المغرب ، ص ٣٨ - ٣٩ و من الراجح أن إنشاءها يرجع إلى حسان لأنه تزامن مع الاضطرابات التي شغلت الإمبراطورية البيزنطية بعد عزل الإمبراطور جستنيان الثاني انظر ، أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٩٧) نفس المرجع ، ص ١١٦ .

(٩٨) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ن جـ ٢ ، ص ٥٧ .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(١٠٠) المصدر السابق. وقدم عطاء بن أبي رافع الهذلي في مراكب أهل مصر،وكان عبد العزيز قد بعثه يريد سر دينية .

(١٠١) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، جزءان ، تونس ١٩٦٦ جـ ١ ، ص ٤٨ .

(١٠٢) البكرى ، المغرب . ص ٣٨ - ٣٩ .

(١٠٣) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٩٢ ، حاشية ٢ .

(١٠٤) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٢٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ ٢٤،ص٧٤ ،٨٥.

(١٠٥) غلب على جيش الفتح المتوجه إلى إفريقية العرب اليمنية ، كما ساعدت أحوال المشرق بعد معركة الحرة ٦٣ هـ / ٦٨٢ م على انخراط عدد كبير من أهالي المدينة في جيش أفريقية . انظر، دوزى ، تاريخ مسلمى أسبانيا ، الجزء الأول ، ترجمة/ حسن حبشى ، ٧٥ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٥.

(١٠٧) الفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ،ترجمة/ عبد الرحمن بدوى ، بنغازى ١٩٦٩ ، ص٧٩ .

(١٠٨) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨٧ ؛ المالكى ، رياض النفوس،جـ ١،ص٦٤ ،٧٥ .

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(١١٠) أبو الحارث الليث ين سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث قال عنه الشافعي:" كان الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " توفى ١٧٥ هـ/٧٩١م . انظر، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٣ ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .

(١١١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقى المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ولى القضاء ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م وهو أول قاضي بمصر من قبل الخليفة المنصور وصرف عنه ١٦٤ هـ / ٨٧٠ م . انظر نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(١١٢) هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلمة القرشي بالولاء الفقيه المالكى المصرى ، صحب الإمام مالك ، توفى عام ١٩٧ م / ٨١٣ م .نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٦-٣٧.

(١١٣) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ١٢٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٠ ؛ الدباغ ، معالم الإيمان لمعرفة أهل القيروان ،تونس ١٣٢٠ ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، ٢٦٤ .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .

(١١٥) نفسه ، ص ٩٢ .

(١١٦) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١١٧) نفسه ، ١٨٩ .

(١١٨) نفسه ، ص ١١٥ .

(١١٩) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ٤٤ .

ثانياً:
عرض الكتب العربية

Franklin, S., & Shepard, J., *The Emergence of Rus 750-1200*, (London, 1996), 450 pp., 11 maps.

عرض/ طارق منصور

يستند هذا الكتاب الهام إلى أن مؤلفيه اثنان من أشهر المتخصصين فى الدراسات التاريخية الروسية والسلافية فى العصور الوسطى ؛ ويعكس هذا الكتاب شخصية المؤلفين وقدراتهم البحثية العالية فالدكتور / سيمون فرانكلين من القلائل المتخصصين فى الدراسات السلافية فى العصور الوسطى ، كذلك الدكتور / جوناثان شبرد يمكن أن نعتبره نائبا للأستاذ الدكتور / ديمترى أوبولنسكى *O. bolensky* فى التاريخ الروسى الوسيط ، وكلاهما يجيد العديد من اللغات السلافية التى أهلتهما لقراءة المصادر الروسية والسلافية الأصلية ؛ الأمر الذى أهلهما لإخراج هذا الكتاب فى الشكل الذى سنعرض له .

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أحدث إصدار عن التاريخ الروسى الوسيط ، ومحتويات هذا الكتاب تعكس وجهة نظر المؤلفين ورؤيتهما الخاصة لمجريات الأحداث فى روسيا الكيفية بدءاً من ظهور الروس فى المجتمع الدولى وحتى انهيار دولتهم وغزو المغول لها فى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قسم المؤلفان الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية .

الباب الأول وهو بعنوان **"الجذور والمسالك"** ، ويحتوى على عدة فصول : الفصل الأول وهو بعنوان "الباحثون عن الفضة من الشمال ٧٥٠ - ٩٠٠م" وفى هذا الفصل يتعرض المؤلفان إلى الحديث عن الظهور الأول للروس وخروجهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ، كما يتحدثان عن الإغارات التى قاموا بها على الأمم المجاورة لهم خلال تلك الفترة ، ويركزان الحديث عن الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م وما نجم عنه من تحولات

فى المجتمع الروسى آنذاك، خاصة الاقتصادية ، وهذا الفصل مدخل طبيعى لتاريخ روسيا الوسيطة ويعكس العنوان الذى اتخذه المؤلفان لهذا الفصل منظورهما الاقتصادى لتاريخ الروس فى هذه الفترة. فقد كان الروس يفتقرون إلى عملة محلية ولا يمكنهم الحصول على الذهب البيزنطى ، فكانت الإغارة على القبائل السلافية ومسلمى القوقاز سبيلاً للحصول على الفضة، بل إن الجزية التى كانوا يفرضونها على القبائل السلافية كانت من قطع الفضة .

أما الفصل الثانى وهو بعنوان "التحول نحو الجنوب" فيتحدث فيه المؤلفان عن السلاف وما شابههم القاطنين فى منطقة السهوب فى القرن التاسع الميلادى ، وعن حصول الروس على موطأ قدم لهم فى حوض الدنيبر الأوسط فى الفترة من ٩٠٠ - ٩٣٠م ؛ وهى الفترة التى شنوا فيها هجومهم المزعوم فى عهد أميرهم أولج Oleg فى عام ٩٠٧م على

القسطنطينية وما نجم عنه من عقد اتفاق مبدئى بينه وبين البيزنطيين فى نفس العام، ثم تلاه عقد معاهدة بينهما فى
عام ٩١١م.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان "روس الدنيبر ٩٢٠ - ٩٦٠م - تنظم أم وفاة : تأمين الطريق إلى بيزنطة" ، لخص المؤلفان وجهة نظرهما تجاه الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة ، والتى كانت بالفعل تهدف إلى تأمين الطريق إلى بيزنطة من هجمات الأعداء المجاورين كالبشناق مثلاً. ولم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد استقرارهم فى حوض الدنيبر .

أما الفصل الرابع وهو بعنوان "التحولات والتعميد ٩٦٠ - ١٠١٥م" فينبغى أن نقف عنده قليلاً . فهذه الفترة التاريخية قد شهدت تحولاً خطيراً فى المجتمع الروسى على صعيديه السياسى والاجتماعى ، حيث تمكنت القسطنطينية من ترويض الروس وذلك بتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية . ففى عام ٩٨٨م غزا الأمير الروسى فلاديمير مدينة خرسون البيزنطية للرد على حنث الإمبراطور البيزنطى بازيل الثانى بعهده بتزويج أخته الأميرة أنا بورفيروجنيتا
منه الأمر الذى دفع بفلاديمير للقيام بهذا الغزو ، إلا أن البلاط البيزنطى اشترط تعميد أمير الروس حتى يستطيع الزواج من الأميرة البيزنطية ، وهو ما تم فى النهاية . وتكمن أهمية هذا الفصل فى إلقاء الضوء على أثار هذا التعميد على الروس .

ويأتى **الجزء الثانى** من هذا الكتاب ليحمل عنوان **"كييف والروس"** ولعل المؤلفان أرادا بهذا العنوان توضيح زعامة كييف للروس فى تلك المرحلة وأنها كانت محور الأحداث والنزاعات الداخلية التى نشبت بين الأمراء الروس على العرش وهذا ما جعل الفصل الخامس يحمل عنوان "الشهداء والمرتزقة ١٠١٥ - ١٠٣٦م" ويمكن القول أن هذا الفصل صب اهتمامه على فترة الحروب الأهلية التى أعقبت موت الأمير الروسى فلاديمير عام ١٠١٥م .

أما الفصل السادس وهو بعنوان "المظاهر المتصدعة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م" فيعنى بالدرجة الأولى بفترة حكم الأمير الروسى ياروسلاف Iaroslave ، التى شهدت بلاد الروس فى عهده طفرة حضارية كبرى ، وصار لبلاده شأنا كبيرا فى الغرب الأوربى ، حيث عقدت العديد من المصاهرات السياسية بين ياروسلاف والأسر الحاكمة فى كثير من الدول الأوربية أما على الصعيد الشرقى ، فقد هبط مؤشر العلاقات السياسية بين كييف والقسطنطينية ، ومنيت الحملة الروسية على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م بالفشل الذريع ؛ وفى الشرق أيضا تمكن ياروسلاف من كسر شوكة البشناق فى عام ١٠٣٦م ، وبهذا تخلص

من خطرهم الذى ظل جاثماً على صدر الروس منذ بدايات القرن العاشر الميلادى . ويتميز هذا الفصل دون بقية الفصول السابقة بالحديث عن التأثيرات الحضارية البيزنطية على الروس ، كبناء الروس لكثير من الكنائس على الطراز البيزنطى مثل كنيسة آيا صوفيا الروسية ، وبناء القصور الملكية التى اتخذت لها أبواباً وحيوانات ورسومات ذات طابع بيزنطى خالص .

لقد كاد التأثير البيزنطى على الروس شاملاً متعدد الجوانب ، كالعمارة ، والفن ، والكتابات الأدبية والدينية ، والتجارة ... الخ وهو ما أبرزه المؤلفان تماماً فى هذا الفصل .

أما الفصل السابع فقد حمل عنوان "العالم الداخلى : تطور الفكر السياسى ١٠٥٤ - ١١١٣" ويعود المؤلفان ثانية فى هذا الفصل إلى التاريخ السياسى للروس والحروب الداخلية التى نشبت بين أبناء ياروسلاف ، الذى ترك لهم وصية يحضهم فيها على الحب والاحترام فيما بينهم والتماسك والطاعة الواجبة لأخيهم الأكبر ؛ وهذه الحرب لم يخمد لهيبها طوال ما يزيد على نصف القرن قليلاً ، حيث امتدت من أبناء ياروسلاف إلى أحفاده . وجاء مؤتمر لوبيتش سنة ١٠٩٣م ليبشر بالأمل وانتهاء الخلافات والتصدعات بين الأمراء الروس . ولم تستقم البلاد إلا بعد تولى الأمير الروسى فلاديمير مونوماخوس Vladimir Monomachus الحكم ، لتبدأ سلسلة أخرى من التصدعات فى المجتمع الروسى بعد وفاته عام ١١٢٥م .

ويتحدث الفصل الثامن الذى حمل عنوان "الأمير والمدينة ١٠٧٠م - ١١٢٠م" عن مجتمع المدينة فى روسيا وعن الرهبان ورجال المال وغيرهم . ويعتبر هذا الفصل دراسة حضارية تاريخية جادة عن تلك الفترة .

وأخيراً نصل إلى **الجزء الثالث** الذى حمل عنوان **"قيام الولايات"** ليعكس حالة التفتت التى أصابت المجتمع الروسى فى الفترة التى أعقبت موت فلاديمير مونوماخوس وحتى الغزو المغولى لبلاد الروس ، وذلك من خلال الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب . ففى هذه الفترة صارت هناك العشرات من الولايات الروسية المستقلة ، التى كان لكل منها حاكماً مستقلاً . وكان العداء والتنافر هو السمة المميزة للعلاقات بين هذه الإمارات وبعضها البعض الأمر الذى فت
فى عضد المجتمع الروس فكان صيداً سهلاً للمغول فيما بعد .

أخيراً يمكن القول أن هذا الكتاب تميز باحتوائه على مجموعة كبيرة من الخرائط السياسية والاقتصادية لبلاد الروس فى العصر الوسيط والتى تميزت بالدقة التاريخية وجودة الإخراج ؛ فجاءت لتسد عجزاً كبيراً فى الأطالس التاريخية عن هذه المنطقة . كما تميز هذا

الكتاب باحتوائه على مجموعة مبسطة من جداول الأنساب، والتى رصد فيها المؤلفان أنساب الأمراء الروس بداية من عهد الأمير أيجور Igor وزوجته الأميرة أولجا Olga ويمكن القول أن هذه الجداول لم تصل فى تفاصيلها التاريخية إلى المستوى الذى قدمه المؤرخ بومجـــارتن Baumgarten فى دراسته الرائعة عن أنســـاب الأمـــراء الـــروس des Rurkides.

محاسن محمد الوقاد ، *اليهود فى مصر المملوكية فى ضؤ وثائق الجنيزة (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م)* ، (القاهرة ١٩٩٩)

عرض / سند أحمد عبد الفتاح

تعتبر موضوعات التاريخ المملوكى من أكثر الموضوعات التى لدينا معرفة كبيرة بها ، نادرا ما تتوفر لمجالات أخرى ، لأن الحقبة المملوكية تملك بصددها مادة تاريخية عظيمة كما وكيفا ساعدت فى استجلاء غوامض بعض الدراسات التاريخية ابان ذلك العصر .

ومن الثابت أن المجتمع المصرى المملوكى كان يشتمل – إلى جانب المسلمين – على الطائفتين اليهودية والنصرانية ، وفى هذا العرض سنتناول بالدراسة والتحليل دور اليهود فحسب

فى هذا المجتمع حيث لم يكونوا كيانا منعزلاً عنه ، أو بمعزل عن النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ذلك العصر ، بل اندمجوا فى نسيجه فلعبوا دوراً مهماً ومؤثراً فى عصر سلاطين المماليك .

وليست ثمة دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية رغم أن كتب المستشرقين من أمثال أشتور ، وجواتين ، ومارك كوهين ن ويعقوب مان تحفل بأكثر من مسح لأحوال اليهود ، لكن هذه الدراسات فى الغالب – وهو أمر جد مفهوم – لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة ، ومن هنا تنبع الأهمية الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التى ترمى إلى توضيح حقيقة دور اليهود فى مصر المملوكية بشكل موضوعى ودون تحيز .

والكتاب الذى بين أيدينا محاولة رائدة فى هذا المجال ، وهو فى الأصل الأطروحة التى تقدمت بها المؤلفة لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب – جامعة عين شمس ، حيث تحاول فيه مقابلة ما أورده المؤرخون العرب ، وما جاء فى نصوص الجنيزة ، بصدد طائفة اليهود فى مصر إبان العصر المملوكى بهدف تصحيح العديد من المفاهيم المغلوطة بالنسبة للطوائف اليهودية .

وقد قسمت المؤلفة الكتاب إلى أربعة أبواب ، مسبوقة بتمهيد عن أحوال اليهود منذ الفتح الإسلامى وحتى قيام دولة المماليك ، واستعرضت فيه بصفة عامة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وموقف الطبقات الحاكمة منهم .

ثم استعرضت في الباب الأول مكانة اليهود فى الدولة المملوكية من خـــلال ثلاثـــة فصول تناولت فى الأول منها علاقة اليهود بالطبقة الحاكمة والجزيـــة الواجبـــة عليـــهم ، والشروط اللازمة لعقد الذمة معهم ، وموقف سلاطين المماليك الرسمى منهم ، وكشـــفت النقاب لنا عن أن اليهود عاشوا كجزء لا يتجزأ إبان ذلك العصر ، وبينت مـــدى حـــرص سلاطين المماليك أنفسهم على التزام العدالة تجاههم عملا بتعاليم الدين الإســـلامى حيـــث قاموا بمنحهم العديد من الألقاب التى رفعت من مكانتهم ، كما أبرزت دور رئيس اليـــهود فى الوساطة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، ولجوء اليهود أنفسهم للشكوى منه فى حالـــة خروجه عن الطريق الصواب ، وأثبتت كذلك أن العلاقة بين اليهود وسلاطين المماليك قـــد سارت فى مسارها الطبيعى باستثناء بعض الحوادث العارضة والتى كـــان يعقبـــها إصـــدار المراسيم ضدهم ، والتى لم تلبث أن تخف حدتها تدريجيا إلى أن تقع تحت طائلة النسيان .

ثم تطرقت فى الفصل الثانى إلى الوظائف الهامة التى شغلها اليهود فى عصر ســـلاطين المماليك، لأنهم لم يكونوا مجرد أقلية منعزلة داخل هذا المجتمع ، بل ذابوا داخله وامـــتزجوا ببقية أعضائه من الطوائف ، فلعبوا دوراً كبيراً فى مجال الطب ، وتولوا العديد من الوظـــائف الإدارية والمالية ، لاسيما إدارة دار سك العملة .

وعالجت فى الفصل الثالث مدى التزام اليهود بالشروط العمرية ، وأماطت اللثام عـــن عدم التزام اليهود فى معظم الأحيان بالمراسيم التى كانت تصدرها الدولة المملوكية ضدهـــم ، ولكن هذا لم يمنع سلاطين المماليك من السماح لهم غالباً بترميم معابدهم ، وشراء الأراضى والمنازل فى سائر أنحاء البلاد .

ثم خصصت الباب الثانى لأحوال اليهود الاقتصادية ، من خلال فصلين ، تنـــاولت فى الأول منهما حرف وصناعات اليهود ، وبينت أن نسبة كبيرة منهم قد عملـــت بـــالحرف والصناعات المختلفة ، كحرفة الصباغة ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وبينت مـــدى التدهور الذى أصاب الصناعات والحرف فى عصر المماليك الجراكسة ، ومـــدى انعكاســـه على المجتمع المصرى .

واستعرضت فى الفصل الثانى النشاط التجارى لليهود ، الذين مارسوا جميع أنـــواع التجارة من العطارة إلى الأدوية ، بالإضافة إلى مشاركتهم فى تجارة الكـــارم " التوابـــل " ، والدقيق وممارستهم لأعمال الربا والصرافة ، وهو ما أدى إلى اكتظاظ الأسواق بهم فى عصر المماليك الجراكسة .

ثم عالجت فى الباب الثالث البنية الداخلية لجماعات اليهود فى العصر المملوكية ، من خلال فصلين ، أثبتت فى الأول منهما وجود ثلاث طوائف من اليهود ابان ذلك العصر تمثلت فى الدبانيين والقرائيين والسامرة ، واستعرضت كذلك تنظيم شئون الطوائف الداخلية والموضوعات الإدارية التى كان يتم مناقشتها داخل كل تنظيم ، وكشفت أيضا عن مدى سماحة الدولة المملوكية لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية كاملة .

وتناولت فى الفصل الثانى الحديث عن الزعامة الدينية والقضاء اليهودى فى عصر سلاطين المماليك وأبرزت دور رئيس الطوائف اليهودية وواجباته وحقوقه ومسئولياته نحو الطوائف الثلاث، واستعرضت مجالس القضاء اليهودى وكيفية تشكيلها ، وحق اليهود فى اللجوء إلى القضاء الإسلامى ، بالإضافة إلى موقف فقهاء الإسلام من بعض المسائل الخاصة بهم ، وموقف القضاء الإسلامى من النساء اليهوديات ، وأبرزت كذلك أن مصر كانت من أهم الدول التى لجأ فيها اليهود إلى القضاء الإسلامى ربما بسبب رغبة بعض هؤلاء اليهود فى الحصول من خلاله على مكاسب لم يكن بإمكانهم الحصول عليها من خلال القضاء اليهودى خاصة فى مجال المواريث .

وخصصت الباب الرابع والأخير للحديث عن الأوضاع الاجتماعية لليهود فى العصر المملوكى من خلال فصلين ، تناولت فى الأول منهما أحوال الأسرة اليهودية من زواج وشروطه واحتفالاته ، وظاهرة تعدد الزوجات وموقف الشريعة اليهودية منها ، ودور الأم اليهودية فى تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتعرضت كذلك للمآتم والأحزان وما كان يتم خلالها داخل الأسرة اليهودي، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن ملابس اليهود فى العصر المملوكية الخاصة بالرجال والنساء والأولاد والبنات .

واستعرضت فى الفصل الثانى الأعياد والمواسم والاحتفالات عند اليهود ومدى سماحة الدولة المملوكية لهم بالاحتفال بها فى حرية تامة ، بل ومشاركة المسلمين لهم فى بعض هذه الأعياد، وتبادلهما للهدايا فى شتى المناسبات ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن موسم الحج ومدى أهميته بالنسبة للحياة الدينية الخاصة بيهود مصر .

وقد أثرت المؤلفة هذه الدراسة بالاستعانة بالعديد من المصادر القيمة والمتنوعة من وثائق ومخطوطات ومصادر ومراجع ، حيث استعانت بوثائق دير سانت كاترين ، ووثائق الجنيزة المنشورة ، بالإضافة إلى الوثائق الموجودة بين ثنايا المصادر العربية التى ترجع إلى عصر المماليك ، كما استعانت بالعديد من المخطوطات التى تتناول الحديث عن أهل الذمة من

يهود ونصارى ، ويأتى على رأسها مخطوط " شروط النصارى " لابن زين القاضى ، ومخطوط " المذمة فى استعمال أهل الذمة " لابن النقاش ، ومخطوط " المقصد الرفيع المنشا الحاوى إلى صناعة الإنشا " للخالدى ، كما استعانت بالكثير من المصادر التاريخية الهمة مثل : كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى ، وكتابا " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " للمقريزى ، وكتاب " صبح الأعشى فى صناعة الإنشا " للقلقشندى ، كما استعانت بالعديد من كتب الطبقات والتراجم ، منها على سبيل المثال كتاب " وفيات الأعيان وأنباء الزمان " لابن خلكان ، وكتاب " سير أعلام النبلاء " للذهبى ، وكتب الرحالة العرب واليهود ، مثل : كتاب " النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة " لابن سعيد المغربى ، وكتاب " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة ، وكتاب " رحلة طافور " للرحالة طافور ، وكتاب Travellers لأولد .

كما أثرت دراستها بالاستعانة بالكتب الفقهية مثل : كتاب " منهج الطالبين وعمدة المفتين " للنووى ، وكتاب " المدخل إلى الشرع الشريف " لابن الحاج ، كما استعانت بكتب الحسبة التى يأتى على رأسها كتاب " معالم القربة فى أحكام الحسبة " لابن الأخوة ، وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " لابن بسام .

يضاف إلى هذه الوثائق والمصادر استعانتها بمجموعة كبيرة من المراجع والأبحاث الحديثة باللغات العربية والأجنبية ، التى عاونت فى استجلاء غوامض هذه الدراسة .

وفى الحقيقة نجد بعد هذا العرض أن المؤلفة قد أسدت بإنجاز هذا العمل أهمية لا تنكر للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية ، اذ بدون هذه الدراسة يصعب على الباحث التعرف على حقيقة الدور الذى قام به اليهود طوال العصر المملوكى بشكل موضوعى ، حيث امتازت هذه الدراسة بوضوح الرؤية وتحديد المنهجية ، ومدى وضوح الحاجة لهذا العمل والهدف من إعداده .

بيد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التى ربما تحتاج (فى رأيى المتواضع) على الأقل إلى إعادة نظر ، ومن هذه الجوانب طول الفترة المعنية بالدراسة والتى نطمع من خلالها أن تخرج لنا دراسات عن أحوال اليهود فى مصر المملوكية تكون أكثر تخصصاً ، كأن تكون فى عهد أحد سلاطين المماليك مثلا ، كما نطمع أن تزين

دراستها المستقبلية عنهم بالوثائق غير المنشورة كى تكشف لنا أضواءً جديدة تضفى من خلالها المزيد عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية.

وأخيرا فلعلنا بعد قراءة هذا الكتاب ، سنلمس مدى الجهد الكبير الذى بذلته المؤلفة لإنجاز هذا العمل العلمى الجاد الذى هو ثمرة سنوات طويلة متصلة قضتها فى هذا العمل الشاق ، لذا فهو بلا أدنى شك يسد ركنا مهماً فى المكتبة العربية كانت فى حاجة إليه، على اعتبار أنه وجبة علمية دسمة للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية .

أسعار بيع النسخة

❖ داخل جمهورية مصر العربية.

- للطلاب الجامعيين: (١٠ جنيهات مصرية).
- للأفراد: (١٥ جنيهات مصرية)
- للهيئات الرسمية والكليات الجامعية: (٢٠ عشرون جنيـــها مصريـــا متضمنـــا مصاريف الشحن).

❖ خارج جمهورية مصر العربية

- للأفراد: (عشرة دولارات أمريكية).
- للهيئات العربية والأجنبية: (٢٠ عشرون دولارا أمريكيا متضمنا الشحن).

Prices Pcr issue Out Side Egypt.

- Individuals: U.S.$ 10.
- Arab & Foreign Organizations: U.S.$ 20 including Freight Charges.

الجزء الثاني:
القسم الأجنبي

fait systématiquement au cours du livre avec beaucoup d'à propos, il pose une question de fond. Pourquoi l'Islam at-il favorisé ces formes d'expression et de quelques significations sont-elles les vecteurs? Sans entrer dans le detail, il offre quelques éléments de péponse, en définissant en deux pages puissantes (pp. 185 - 187) le système qui, selon lui, sous-tend ces formes. Le mode ornemental est ce système, épiphénomène qui confère à l'art de l'Islam toute son originalité au regard des autres arts. Il transfigure les choses et sert d'intermédiaire visule entre l'homme et l'objet créé, un intermédiaire qui établit aussi une relation affective entre ces derniers.

L'ouvrage de O. Grabar apparaît au final comme une efficace et utile mise au point sur l'étude de l'art islamique, non seulement par des propositions d'approches nouvelles et d'explications concernant certains points obscurs, mais également par une mise en garde contre les travers qui affectent cette étude. Nous lui sommes reconnaîssants, de surcroît, de poser des questions et de souligner systématiquement les aspects lacunaires de la dite étude, ayant ainsi balisé le terrain de la recherche future.

La seconde rubrique est consacrée aux arts associés au pouvoir . Les interventions successives des princes sur les grands édifices, telles la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée d'Isfahan, procèdnt de cette association et forment ce que O. Grabar appelle "la petite histoire" (p. 141), aussi riche de signification que la grande histoire. A travers celle-ci et celle-là, l'auteur cherche toujours une réponse à la question essentielle du facteur religieux comme constante dans la conception artistique en Islam. En effet, certains cas présentent une ambivalence dans le sens où des facteurs socio-culturels semblent avoir présidé leur conception artistique. Considérés sous cet angle, l'architecturale palatiale aulique et bourgeoise et les objets de luxe paraissent moins problématiques puisque clairement liés aux besoins des classes dirigeantes ou riches. O. Grabar, passant en revue les aspects fonctionnels, esthétiques et techniques de ces ouvrages, intime au lecteur de mettre l'accent sur deux niveaux d'analyse, comparatif et descriptif, lesquels font ressortir l'originalité de ces productions plus ou moins profanes. Par extension, il soulève un questionnement pertinent sur la signification du luxe en rapport avec le religieux en Islam, partant du phénomène particulier de l'adaption de nombre d'objets précieux par les chrétiens pour leur propres usages .

La dernière rubrique concerne l'ornement. Pour cerner les spécificités esthétiques de cet art en Islam, l'auteur propose une méthode d'interprétation originale, fondée sur les deux principales facultés de l'observateur, l'appréhension et la compréhension de l'objet. Cette méthode consiste à classer les différentes formes d'art étudiées en fonction de leurs propriétés, variables, à permettre à l'observateur d'exercer ces deux facultés. S'appuyant sur diverses oeuvres exemplaires, O. Grabar fait une démonstration très convaincante de son approche. On voit bien comment certaines de ces oeuvres présentent des signes visuels limpides autorisant une lecture immédiate, alors que d'autres possèdent des caractères plus ambigus, laissant l'observateur dans l'incertitude . L'auteur se penche, pour finir, sur l'écriture et la géométrie . Comme il l'a

monumentaux, telles les mosquées ottomanes à multiples coupoles . Le XIX^{eme} siècle, si négligé par les observateurs, s'avère pourtant très interessant remarque O. Grabar. Un environnement et un urbanisme se créent dans lesquels les musulmans d'aujourd'hui se reconnaissent. Enfin, le monde contemporain, est d'une grande richesse de documents, photographies, dessins, etc., dont l'exploitation reste à faire, peut-être sous l'angle particulier de la dialectique tradition et modernité .

A l'issue de ce panorama, O. Grabar réaffirme la necessite de constituer l'histoire spécifique de chacune de ces périodes pour valoriser les différentes séquences de l'art islamique, aussi complexe, de ce point de vue, que celui de l'Europe. Par là même, il se demande quels sont les facteurs de ces changements: sont-ils le fait des nouveaux peuples puissants ou de rythmes internes de la civilisasion islamique ? Enfin, une derniere reflexion doit etre retenue nous dit l'auteur: il est impératif de saisir l'équilibre entre les autorités civiles et religieuses et la masse des croyants, afin de déterminer les facteurs de formation du goût spécifique à chaque période .

Dans la seconde partie, les créations sont regroupées sous trois rubriques. O. Grabar aborde la première rubrique, "urbanisme et foi", en dénonçant le poncif - qui fait long feu- de la ville islamique type. Il n'en reconnaît pas moins un certain nombre de signes distinctifs dans lesquels la société musulmane se retrouve . Les grands sanctuaires de la Mecque, de Médine et de Jérusalem, commusns à tous les musulmans, comptent parmi ces signes, essentiellement exprimés dans l'architecture . En second lieu, il y a toutes les formes du bâti ayant servi de support à une piété diversifiée, liée aux cultures locales : les sanctuaires locaux, les grandes et les petites mosquées, les fondations sociales (*madrasa, ribât,* hopital, etc.) et les mausolées religieux. Ces édifices ont permis la conquête de nouvelles formules de construction, en particulier dans les coupoles. A propos de ce dernier thème, l'auteur s'interroge avec raison sur son caractère sacré intrinsèque ou seulement cironstanciel dans l'architecture de l'Islam .

hypothèse est que l'art de l'Islam émane inévitablement de ce qui l'a précédé car les conquérants ne connaissaient que ces oeuvres antéislamiques et la main d'oeuvre qu'ils employaient était formée à des pratiques également antéislamiques . Cependant, l'observation de la Coupole du Rocher, exemple type de monument ancré dans la tradition architecturale antique, O. Grabar met à jour un nouveau langage estétique et s'interroge sur sa nature. Loine d'être uniforme, ce langage s'est modulé d'une zone géographique musulmane à l'autre, en fonction des cultures locales plus ou moins riches et de l'empreinte plus ou moins forte qu'elles laissèrent dans la mémoire collective . A ce titre, l'auteur établit une hiérarchie de ce legs antique, dans laquelle l'Iran occupe le premier rang .

La dernière contrainte est la force de l'histoire. Là, l'auteur s'insurge d'emblée contre les préjugés ayant conduit à une vision uniformisante de l'art islamique . Et, brossant à grands traits les huit grandes étapes qui ont forgé cet art, il s'applique à en montrer les prinipales innovations apportées au cours du temps. Ainsi, sous les Omeyyades, se forment des pratiques artistiques répondant aux besoins de la nouvelle religion dans le cadre classisisant de la Syrie . L'époque des Abbassides voit la domination politique et culturelle de l'Iraq, mais aussi l'apparition de centres satellites comme Al-Andalus . Durant le "Moyen Age islamique " (1250 - 1500), l'arrivée en scène de nouveaux peuples, Berbères, Kurdes et Turcs, provoque une explosition artistique ; notamment, la réaction sunnite aména la création de l'institution de la *madrasa* . Entre 1250 et 1500, l'expansion mongole inaugure une séparation entre le monde arabe et le reste du monde musulman où une nouvelle culture artistique fleurit. C'est l'éclosion de la peinture persane, tandis qu' Al-Andalus disparaît et que le Maghreb se replie sur lui-même . L'Egypte des Mamelouks quant à elle, ne participe pas aux révolutions artistiques de l'Est affirme l'auteur. Nous ajouterons, pour notre part, que cela n'a pas empêché cette derniére de développer un style puissant et original. Avec les grands empires (1500 - 1800), s'érigent les célèbres programmes

O. Grabar rappelle ensuite que l'art islamique a été objectivé au XIX^ème^ siècle par les observateurs Occidentaux et non par les musulmans eux-mêmes; ce qui ne va pas sans conséquences qu'il met en évidence en vue d'élaborer une nouvelle manière de penser l'art islamique, inspirée des approches classiques historique et interprétative, et de l'appréhension idéologique, plus actuelle . Ses directions de réflexion ainsi tracées, l'auteur entrepend sa discussion autour de deux principaux pôles, les contraintes et les créations de l'art islamique .

Dans la première partie, O. Grabar pose la question fondamentale de l'existence d'une doctrine des arts en Islam. Pour y répondre, il recherche les fondements de cette doctrine dans les deux premiers siècles de l'Hégire et, bien sûr, dans le Coran . Si celui-ci ne fournit pas de développement doctrinal sur l'art, il n'en induit pas moins des valeurs qui ont été déterminantes pour la création artistique islamique. L'auteur illustre cette idée par l'analyse des exemples de la mosquée et surtout du prétendu iconoclasme de l'Islam . Ainsi, sans qu' un interdit de l'image ne soit explicitement formulé certaines formes plastiques liées à l'idolatrie sont dénonceés dans le texte saint et, par là, ont entraîné une méfiance généralisée envers la figuration . Cependant, O. Grabar démontre que ce phénomène a également des causes sociales . Dans un contexte où chrétiens et zoroastriens se trouvaient en proie à de complexes discussions sur l'image, le rejet de celle-ci par les musulmans s'inscrit en contre-poids; le thème discuté était jugé par eux d'une importance excessive . Par la suite, la vision islamique a évolué, mais on ne sait encore comment au juste. Pour mieux la saisir, l'auteur suggere une relecture des *hadith* et de divers textes susceptibles de contentir des indications sur l'esthétique islamique .

Autre contrainte examinée par l'auteur, l'héritage antique. Il dégage deux hypothèses concernant les modalités d'assimilation de cet héritage par les musulmans . Selon la premiére hypothèse, l'Antiquité classique méditerranéenne, dominante dans le premier art islamique, s'est imposée en raison de sa puissance d'expression du pouvoir . La seconde

Compte rendu de Oleg GRABAR, *Penser l'art islamique , Une esthétique de l'ornement*, Paris, Albin Michel, 1996, 211 pages.

Par V. Gonzalez

Après le brillant essai *The Mediation of Ornament*, publié en 1992, O. Grabar nous offre de nouveau la possibilité de prendre connaissance de ses exposés oraux en les consignant par écrit. Cet ouvrage reprend en effet un cycle de huit conférences données a L'Institut du Monde Arabe, à Paris. Par ce biais, l'auteur nous communique l'essence "brute" de sa pensée sur l'art islamique, dégagée des longues argumentations historiques qui permenttent une compréhension plus fine de celle-ci, mais rendent moins directement accessible son sens profond .

Dans une ample introduction, O. Grabar justifie son approche des formes visuelles islamiques en faisant une mise au point méthodologique. Il souligne la nécessité du recours a l'étude comparative avec les autres arts, afin de mettre en évidence les spécificités de la production en Islam, dans une perspective universelle . Puis il énonce les multiples autres possibilités d'appréhension de cette production, en exposant leurs avantages et leurs inconvénients. Un des problémes majeurs est de savoir si, pour définir tel ou tel type d'oeuvre, on doit retenir le critère national ou éthnique ou bien le critère dynastique. En l'absence de réponse consensuelle à cette question, O. Grabar constate à regret que l'art de l'Islam occupe toujours une place à part dans l'histoire générale des arts. Il se demande si cette spécificité n'est pas illusoire et simplement due à une connaissance encore embryonnaire du sujet. Isoler ainsi l'art islamique revient, aux yeux de l'auteur, à l'enfermer dans le cercle étanche d'une histoire interne réductrice, alors qu' à l'instar des autres arts, il a connu une évolution en plusieurs etapes distinctes. C'est pourquoi, il propose d'explorer la source sûre de l'historiographie des arts de l'Islam et, plus généralement, de mettre à profit la problématique contemporaine de l'histoire des arts.

domaine. Peut-être aurons nous plus de chance un jour pour les réaliser.

trois genres de chasse: la chasse au faucon , la chasse au chien et la chasse au guépard . Ce dernier n'était pas assez fréquent en Égypte, car, il nécéssitait beaucoup d'argent. Il était, alors , consacré à la classe règnante et aux riches .

Nous avons recherché , d'autre part , les jeux d'esprit qui était connus aux palais fâtimîdes soit pour les califes soit pour les femmes du harem royal .

Les gens du peuple se réunissaient, parfois , aux maisons pour prendre part à ces compétitions d'esprit , notamment , ceux d'échecs , des dés et des cartes .

On peut conclure, aussi , que malgré les disettes , les troubles intérieurs et l'apparition des croisades à la deuxième moitié de l'époque fâtimîde , le peuple égyptien avait , toujours, un esprit joyeux et cherchait , partout, le divertissemsnt et la distraction . Par ailleurs, le règne des califes fâtimîdes était assez mouvementé et prospère. Ils ont donné à l'Égypte une impulsion sociale, un nouveau aspect culturel, une vie de luxe et de magnificence . Les merveilles qui constituaient le trésor des califes, les tissus

somptueux, les remarquables planches en bois , les vases précieux , les inombrables plats de céramiques et les magnifiques aiguières en cristal de roche en sont la preuve . Ces objets nous ont gardé , en effet , les souvenirs de la vie princière à la cour fâtimîde .

Avant de terminer nos paroles à propos des moyens de divertissement , en Égypte , sous les Fâtimîdes , nous avons essayé de profiter de la marque d'élégance , du raffinement des objets fâtimîdes et des résultats de cette recherche pour encourager et aider à améliorer l'industrie de tourisme en Égypte . Nous avons enregistré quelques remarques et nous avons présenté de nouvelles suggestions qui peuvent aider à ce

s'agisserait d'éclairer que , parfois , les califes fâtimîdes se déplaçaient en compagnie de leur entourage, leur harem et leurs sujets pour se rendre aux belvédères édifiées aux banlieux et aux bords du Nil pour un but de promenade trés apprécié . On y assistait aux plaisirs de la vie. On y passait des soirées dansantes. Les gens du peuple sortaient , parfois , librement , aux parcs pour inspirer la simplicité de la nature . Lors du divertissement, la capitale était animée du soir au matin.

Il convient à mentionner que les séances musicales et les beuveries étaient , parfois , accompagnées de la représentation des clowns , des joueurs des ombres chinoises, de la danse acrobatique , les jeux des charmeurs de serpents et des sorciers . D'autres jeux d'animaux et d'oiseaux étaient représentés durant ces séances , et , aussi , durant le passage des cortèges des califes fâtimîdes . Les acrobates , les joueurs des ombres chinoises et les sorciers parcouraient les quartiers et les rues des villes pour que les plébeiens puissent en assister et s'amuser .

Les enfants , eux-aussi , éprouvaient un grand plaisir à participer avec les grands pour s'amuser et se divertir , surtout , lors de la célébration des fêtes . Ils avaient , en plus , leurs propres jeux qui prennaient , d'habitude , la forme des animaux et des oiseaux .

Il est évident , aussi , que les jeux sportifs avaient attiré l'attention des califes et des vizirs fâtimîdes pendant leurs loisirs . Ils ont pratiqué le jeu de polo , la course des chevaux et la natation . La danse aux triques et la lutte étaient , cependant , parmi les jeux les plus fréquents chez les plébeiens.

L'élévation d'animaux et d'oiseaux aussi bien que la chasse était un des moyens de distraction et de divertissement les plus en faveur , en Égypte , sous les Fâtimîdes . On s'amusait à ramasser les spécimens rares et bizarres des animaux, des remptils et du vol. Il y avait, aussi, autant que nous pouvons dire

Pour essayer d'être plus précis , nous avons vu qu'aux palais fâtimîdes se tenaient les séances de poésies et de littérature sous la supervision des califes , des vizirs et en présence des hauts fonctionnaires . Durant ces séances , on traitait divers sujets et les poètes récitaient leurs poésies . En se concourait à louer les califes et à exalter la gloire de leurs ascendants. Grâce à leurs habiletés et à leur ingéniosité , ils étaient comblés de faveur par les califes et leurs entourages . Il n'était pas, donc étonnant de voir arriver , en Égypte , un grand nombre de poètes de l'orient et de l'occident . Les califes , les princes et les vizirs étaient , eux - mêmes , parfois, des poètes et composaient des vers et des poèmes . Un grand nombre de princes , de hauts fonctionnaires et d'autres personnes choisies assistaient à ces séances littéraires .

Les gens du peuple avaient leurs propres séances de conversations et de poésies qui avaient lieu aux bords du Nil. On se rencontrait pour échanger les paroles , les idées et les dernières boutades . Il y avait une sorte de discussion ou de conversation durant laquelle on disait des anectodes , des plaisanteries et on parlait des nouveaux évènements . Les poétes et les narrateurs assistaient , parfois , à ces séances et récitaient aux gens des poèsies . Ces réunions éveillaient l'immagination et mettaient les gens en courant avec les évènements du pays .

Durant les séances musicales, les beuveries et les parties de plaisir tenues aux palais des califes fâtimîdes, une grande majorité des musiciens ,
des chanteurs , des danseuses , des buveuses et des buveurs étaient présents. Les califes y invitaient, parfois , leurs sujets . On se précipitait à assister à ces séances pour se libérer des charges quotidiennes , pour profiter de la bonté et de la générosité de la classe régnante . Ces séances augmentaient lors de la célération des fêtes, des mûlids et des festivals .Les califes ordonnaient de dresser les tables et de préparer les repas solennels . Il

Le cinquième chapitre a représenté l'importance de cette étude dans le domain de Guide Touristique .Quant à la conclusion , elle comprendra les résultats de cette recherche . Cette thèse est accompagnée, aussi, d'une liste des abbréviations et des périodiques. En addition, il s'agit d'une liste onomastique des califes Fâtimîdes , d'une bibliographie et d'un catalogue composé de quatre-vingt dix-sept photos .

Pour préparer cette étude , on a eu recours à plusieurs sources historiques qui étaient composées sous les Fâtimîdes et d 'autres qui furent composés sous les Mamlûks . Il fallait se servir de nombreuses références arabes et européennes ainsi que plusieurs périodes scientifiques .Il était naturel , aussi , de correspondre quelques musées mondials en Europes et aux États Unis pour se renseigner sur quelques objets fâtimîdes tels que la céramique à reflet métallique et les plaques d'ivoires qui y sont exposées .

Comme nous l'avons vu bien souvent , déjà , les principaux moyens de divertissement et de distraction chez les Fâtimîdes en Égypte étaient réparties en quatre catégories . On avait vu les différentes sortes de séances, les divers jeux sportifs , la chasse et les jeux de l'esprit ou les jeux calmes .

Il se peut que les Fâtimîdes avaient recours à d'autres moyens que les sources historiques ne nous avons pas mentionnés . Ces moyens étaient, probablement , fréquents qu'ils n'ont pas attiré l'attention des historiens qui étaient occupés , toujours , à enregistrer les détails de la vie politique du pays.

Grâce à l'activité économique qui avait pris un essor remarquable et dû à la prospérité et l'extansion de la civilisation, la ville du Caire est devenue le pôle d'attraction des poètes , des chanteurs , des musiciens et des savants . D'importants travaux d'urbanismes furent réalisés . D'immenses jardins et de superbes vergers furent ouverts au public pour satisfaire sa curiosité .

égyptien . Parmi ces jeux , on note le jeu de polo , la course des chevaux , le duel ou bien la danse aux triques , la lutte , la natation , le tir des flèches en plus des jeux des enfants.

On a traité , au troisième chapitre,l'idée de l'attention accordée par les califes et les hauts fonctionnaires à la chasse des cerfs , des gazelles , des lièvres , des lapins et des oiseaux à l'aide des chiens et des guépards aussi bien que les oiseaux sauvages tels que les aigles , les faucons et les vautours .

Ce chapitre s'attache, aussi, au grand soin prêté à l'élevage des oiseaux et des animaux qui étaient utilisés à la chasse ou bien qui représentaient quelques jeux pour rendre les califes et leurs sujets satisfaits durant leurs loisirs comme la lutte des coqs , les jeux des ours et des singes aussi bien que la représentation des girafes et des éléphants . Ce chapitre a comporté , également , plusieurs renseignements à propos des personnages qui étaient chargées d'entrainer , de dresser les animaux et les oiseaux de la chasse tels que les fauconniers , les guépardiers et les piqueurs de chiens ainsi que les sorciers et les charmeurs de serpents et de vipères .

Le quatrième chapitre a jetté la lumière sur les jeux de l'esprit pratiqués dans la sociète égyptienne sous les Fâtimîdes , comme les dés qui paraissent être d 'origine persane et qui ressemblent beaucoup à ce qu'on appelle , en arabe , al- nard . Il fut inventé par Ardašîr ibn Bâbik d ' où il est connu sous le nom de nardašîr . Les gens du peuple négligeaient , parfois , leurs travaux pour aller jouer à d'autres jeux de pari tels que le jeu d'échecs et les jeux aux cartes qui étaient , aussi , parmi les moyens de divertissement les plus fréquents sous les Fâtimîdes. Nous ne devons pas omettre de citer que quelques - uns de ces jeux étaient destinés à la classe régnante telle que les vizirs , les émîrs et les notables de la sociètè . D'autres jeux étaient consacrés aux gens du peuple .

dans la socièté égyptienne , sous les Fâtimîdes , c'est la raison pour laquelle , j'ai opté pour cette idée comme sujet de ma thèse .

Après avoir fondé leur califat à maìrib au cour de l'an 297 H. / 909 , et , après avoir assuré leur puissance en Afrique du Nord , les Fâtimîdes réussirent à conquérir l'Égypte , et ce fut le général en chef de l'armée du calife fatimide al-Mu'izz , Ğauhar al-Saqlabî , qui arriva à Ğîza le 17 Ša'bân 358 H. / 6 Juillet 969 .Ces Fâtimîdes régnèrent en Égypte , deux siècles environ (358 - 567 H. / 969 - 1171) . Durant cette longue période , ils ont réussi à vaincre leurs ennemis et à stabiliser leur pouvoir en Orient . Ce fut la plus grande puissance au monde islamique à ce moment . Ce fut , aussi , l'apogée du progrés politique , économique et culturel. Mais dés le début de l'époque des vizirs , il y a eu des troubles intérieurs et des crises économiques qui allaient mener à la chute de la dynastie en 567 H. / 1171 .

Bien qu'ils aient été occupé par les affaires du pays , les Fâtimîdes avaient entrepris des moyens de divertissement . Ils permirent à leurs sujets de se distraire et d'être fières pour compenser la dureté de leurs responsabilités quotidiennes .

Le sujet de cette thèse est , donc , traité à travers un avant-propos , cinq chapitres et une conclusion . Le premier chapitre a englobé l'étude de différents genres de séances qui avaient lieu aux palais Fâtimîdes comme les séances de littérature et de poésie , de chant , de danse et de musique en plus des beuveries .Ces séances étaient , d'habitude , accompagnées par les représentations des acrobates , des clowns et des ombres chinoises . Les hommes de lettres et les poètes étaient , habituellement , comblés de faveur par la classe régnante durant ces séances .

Le deuxième chapitre a compris l'étude des jeux sportifs qui jouissaient de l'attention des califes Fâtimîdes et du peuple

Al–Gindî, *S. S.*, *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fâtimîde en Égypte 358 -567 H./ 969 - 1171 ap.J.C.*,Thèse de Magistère dactilographiée, section Guide Touristique, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwân , (Le Caire, 1999).

Par Sîrîn Sâdiq al - Gindî

Le chercheur a essayé de jetter la lumière sur les moyens variés de divertissement et d'amusement qui étaient en vogue , à l'époque fâtimîde , en Égypte . Plusieurs sources historiques et quelques documents nous donnent des informations concernant ce sujet. Des objets fâtimîdes ornés de différentes scènes nous aident , aussi , à savoir quelques - uns de ces moyens d'agrèment .

Il est fort intéressant de savoir que ce sujet n'a pas attiré l'attention des chercheurs à l'exception de Ahmad 'Abd al-Râziq qui l'avait abordé, en général , dans son article " Wasâ'il al-taslîya 'ind al-muslimîn " , publié en 1985. On ajoute , aussi , l'ouvrage de 'Abd al-Mun'im Sultân " al-Muǧtama' al-misrî fî al-'asr al-fâtimî " dans lequel il nous mentionne , brièvement , ce sujet .

Signalons, aussi , Mahmüd Ibrâhîm Husain qui avait étudié les scènes concernant les moyens d'amusement à la cour fâtimîde dans sa thèse de Doctorat intitulée " Die Vergnügungen des Hofes und Alltagsleben ". Citons, en plus , Suma 'Abd al-Mun'im Ibrâhîm qui avait traité les scènes de la chasse - dés l'époque fâtimîde jusqu'à la fin de la dynastie mamlûke - dans sa thèse de Magistère présentée , en 1992 , à la Faculté d'archéologie à l'Université du Caire .

À part ces quelques ouvrages ,il n'y a eu aucune recherche exhautive concernant les moyens de divertissement

II: Book Reviews

centres or the capital, they attest the dynamism of the Byzantine economy at that time and have a bearing on the separate but related question of State finances. Even if the imperial authorities were unable to gain much fiscal benefit from silks exported directly to the West from minor centres such as Euripos or Patras, textiles carried by sea via the Bosphoros to the Rus lands were likely at some stage to pass through their fiscal net. This ambivalence seems to exemplify the effect on central government finances of the growth of regional production centres no longer geared solely to the demand and commands of Constantinople. Ultimately the proliferation of these and the growing allure of foreign markets facilitated political fragmentation but in the shorter term it probably contributed substantially to an increase in the revenues readily at the imperial authorities' disposal. Further work in collating the extant silks in Western church treasuries with the silk materials from archaeological excavations and the written evidence should illuminate this often paradoxical process and shed light on the growth of the Byzantine economy between the tenth and the twelfth centuries.

'Shelkovye tkani v srednevekovoi vostochnoi Evrope' , *Sovetskaia Arkheologiia*, 1982, no. 2, 69. See also M. A. Saburova and M.V. Sedova, 'Nekropol' Suzdalia', in I.P. Rusanova (ed.), *Kul'turai isskustvo srednevekovogo goroda* (Moscow 1984) 121- 7.

right direction. If, as seems to be the case, Thebes was second only to Constantinople in its ability to produce red samite and gold-interwoven silks, and if the attribution of Roger II's coronation mantle to its workshops can be confirmed,17 the task might prove feasible. Extant examples of medium-and lower-grade silks might also be submitted to investigation although, as Jacoby points out, their survival prospects are poorer than are those of the finest-quality silks18. Were it to prove possible to distinguish between Greekfinished and Constantinopolitan products, the quantitative data, however crude, would contribute to understanding of the relative roles of the provincial centres and the capital in exporting silks to the West. This would have a bearing on Jacoby's postulate of 'a progressive contraction in Constantinopolitan silk production since the late eleventh century or, at any rate ... [a reduction of] the capital's share in the overall supply of the Byzantine market in a period of rising demand'19 . This is a field where further collation of Muthesius' expertise with jacoby's analysis would be fruitful.

There is another corpus of extant material, which could be brought to bear on the debate, silks from the lands of the Rus. There, notably in the burial-grounds of the north-eastern settlements, excavations have revealed a considerable number of fragments of strips of gold braid and of monochrome silk; they served as the collars and yokes of garments of relatively well-to-do peasant women. These burials date from the twelfth to the beginning of the thirteenth century - roughly the period of expanding production in Greece highlighted by Jacoby - and the silks are reportedly for the most part of Byzantine origin20. Whether these silks were spun and woven in Greek

[17]- See Jacoby, 'Silk', 462 - 4, 483.

[18]- Jacoby, 'Silk' 473 - 4.

[19]- Jacoby, 'Silk' 498.

[20]- K.I. Komarov, 'Importnye tkani vo vladimirskikh kurganakh', *Kratkie Soobshcheniia Instituta Arkheologii* 210 (1993) 79, 81, 83 - 4 and map on 81. M.V. Fekhner estimated that 'over 70% of impotred silk [found in pre-Mongol Rus lands] is comnected with the production of Byzantium's silk-weaving workshops':

to the central administration. Jacoby points out that Thebes' high quality silks were denied to the Genoese and Pisans and 'judging by the evidence pertaining to Alexius III, imperial control over a portion of Theban silk production and trade remained surprisingly strong by 1195'16. This raises the questions of what proportion of Thebes' silks was reserved by the government for its own uses and of whether all the highest quality silks belonged to this category. One might suppose that a 'high-profile' production centre such as Thebes was relatively easy for the imperial authorities to regulate effectively, and thus that top quality Theban silks remained a governmental monopoly. This would imply that examples found in the West arrived there as diplomatic gifts rather than as traded commodities. In contrast, it may have been fairly straightforward and not unprofitable to put on the market medium- and lower-grade silks, especially those manufactured in other, poorer, production complexes. The latter may have escaped close government scrutiny, being at once less capable of really high-quality product, less fiscally remunerative and more dispersed. It was the easier to avoid taxation on such silks in that much of the carrying-trade was in the hands of the Venetians who, unlike the Genoese and Pisans, were allowed to buy costly textiles. And in Northern Italy the Greek silk-producers were assured of a robust market, accessible yet well beyond the reach of imperial fiscal officials and thus more lucrative than markets within the empire.

To hypothesise thus is, of course, to make large assumptions about the degrees of intrusiveness and venality of government officials in Thebes and the other western provincial centres. Even the highest-quality silks may have found their way from Thebes onto the market in Italy and one will never be able precisely to chart the volume of production in twelfth-century Thebes or the relative importance of government commissions and the internal Byzantine and foreign markets for it. But systematic identification of the extant products of Theban workshops would be a step in the

[16]- Jacoby, 'Silk' 492.

they might well exemplify economic expansion, with production of high-quality but not hugely expensive silks opening up in provincial centres.

Attention to economic growth and its periodisation is paid in one of the most recent papers incorporated in Muthesius' Studies14. But this aspect needs to be integrated more fully with the technical issues of which she shows such mastery. A wide-ranging investigation of the silk industry in Byzantium's western provinces is offered by Jacoby. He points to firm evidence of production on Andros as well as in Thebes and Corinth from the later eleventh century onwards, while noting much earlier hints of the Peloponnese's connections with the silk industry: already in the ninth century its north-western part was known as 'Morea' for its mulberry-trees, when the widow Danelis disposed of weavers and precious textiles of some sort in the neighbourhood of Patras15. Jacoby emphasises that Theban private manufacturers received commissions from the central administration to make very high-grade silks, dyed with murex purple. However, as Jacoby suggests, this was essentially a twelfth-century phenomenon. Moreover, Thebes seems to have been rather exceptional, benefiting from a particular combination of natural resources, easy communications and the capital and organisational skills of the *archontes*, members of the local landed *élite* . The latter seem to have been the driving force in the formation of a large-scale manufacturing industry, producing for the market. Thebes' elaborate nexus of production ranged from mulberry growing to dyeing with purple produced in Athens.

The quality of Theban fabrics was well-known to Western Europeans and Turks in the twelfth century as well as

[14]- Mention is also made there of developments in the provinces in the eleventh and twelfth centuries: 'Constantinople and its Hinterland: Issues of Raw Silk Supply' (27th Spring Symposium of ByzantineStudies, Oxford, March 1993), in *Studies* 315 - 35.

[15]- Jacoby reserves Judgements as to whether the *silken* sendes despatched by Danelis to Basil I had actually been made in workshops under her control: 'Silk' 458 - 60; *Vita Basilii*, in Theophanes Continuatus, V.74, ed. I. Bekker (Bonn 1838) 318.

course, this development is just one facet of the general upswing in population-size, economic exchanges and wealth-formation, which Alan Harvey has documented, and Jacoby himself draws attention to it[12]. But it is very probable that the silk industry, already possessing close ties with the Islamic world, was peculiarly sensitive to the greater security in eastern border areas and the Aegean which set in from the later tenth century onwards. Muthesius offers evidence of the identity - rather than just similarity - of the techniques of Byzantine and Moslem weavers in changing from single to paired main warp twills from the ninth century onwards and Cairo Genizah documents attest the sale of raw silk to Byzantine merchants in the 1060s and 1070s. A Byzantine presence in Syria, with Byzantine agents reportedly levying taxes on the silks traded in Aleppo, is likely to have further encouraged cross-border exchanges - including, perhaps, migration of craftsmen. One possible witness to burgeoning collaboration comes from the eleventh-century Griffin Silk from St. Trond, whose stylistic features are fairly distinctively Byzantine, but whose use of cotton selvedge points to a Moslem workshop. Muthesius considers Syria to be a possible location for it. A still more significant mark of contacts is what Muthesius calls 'a technical breakthrough', the development of the 'lampas' weave and the related incised twill silks, both types being monochrome[13] . This took place c. 1000 in both Byzantine and Islamic production centres, seemingly without an appreciable time lag between the two milieux . The monochrome silks required a high level of skills to produce, but they did not call for expensive dyes or the dyeing process and this, together with the relatively large number of examples found in the West, suggests that they may have been made in non-imperial workshops. In other words,

[12]- Jacoby, 'Silk' (as in n. 1 above), 452 - 500; A. Harvey, *Economic Expansion in the Byzantine Empire, 900 - 1200* (Cambridge 1989) 148 - 4, 213 - 20. I have not had access to Jacoby's study 'Silk crosses the Mediterranean' (in S. Origone (ed.) *Le vie del Mediterraneo, idee, uomini, oggetti)* reported as 'in press' in Lexikon des Mittelalters, VII (Munich 1995) S.V. *Seide . B. Byzantinisches Reich,* col. 1709.

[13]- Muthesius, Studies, 107, 112, 136, 290; Plate 83.

maintaining a massive over-capacity in its own, imperial workshops. Close collaboration involving a high degree of flexibility in arrangements and mobility of skilled labour is understandable against a background of shortages of raw materials and skills, military insecurity, uncertain communications and a concentration of wealth in constantinople. Such was, essentially, the empire's condition at the turn of the ninth and tenth centuries, when the *Book of the Eparch* was being drafted.

The collaboration between the imperial authorities and the private sector was wary, at least from the State's viewpoint. But the forementioned constraints weighed against private production rivalling imperial workshops in terms of sustainable quality or becoming very large-scale. There was, above all, the problem of finding a market for one's products and although the *Book of the Eparch's* injunctions against sales outside the City imply that such things were done, they could scarcely have been risk-free or very profitable. Constant, flagrant breaches of the restrictions would have attracted the attention of the Eparch's officials or other functionaries, venal as these may have been. So long as purchasing-power was concentrated in the capital and was more or less directly connected with the palace, an alternative nexus of sericulture and manufacturing far from Constantinople was unlikely to be a going concern. The fact that the main foreign source of raw silk was formally in a state of permanent warfare against Byzantium put a further constraint on illicit private enterprises. The number of authorised trading emporia was small and fairly easily supervisable by the authorities. Those traders attempting evasion risked interception by both Byzantine patrols and Moslem raiders.

One might expect an improvement in the empire's strategic situation and an easing of communications to have lifted some of the foresaid constraints on private silk production outside Constantinople. That this seems to have happened, albeit gradually, is suggested by David Jacoby's study of silk production and trade in what is now Greece. Of

leaves and close liaison was necessary between the providers of the leaves and the rearers of the worms. At the other end of the process, a top-quality piece such as the Aachen Elephant Silk 'required 1.440 manipulations of the pattern making device' for just one roundel (p. 290). Time, as well as skill and equipment was needed for this and sudden shortages of raw materials further increased the risks, while restrictions on prices curbed producers' ability to recoup their losses. To these constraints, noted by Muthesius, needs to be added the question of the strength and geographical location of the demand. The highest-quality silks were very costly indeed and presumably even the lower-grade fabrics came within purchasing range only of the well-to-do. To master difficult skills or to invest heavily in an industry where one did not enjoy fairly constant demand would have been quixotic. There are hints as to the vagaries of the market in the Book *of the Eparch's* stipulation that workmen should be hired by the *metaxopratai* on *monthly* contracts (*Eparchenbuch, 6.2; ed. Koder, pp. 96 - 7)*. Perhaps fluctuating supplies of materials made it imprudent to take on wage-earning workers for long, while the imperial workshops themselves may have needed to take on skilled hands at short notice. These circumstances not only make it overwhelmingly probable that (as Muthesius argues) the highest quality silks were produced exclusively in the imperial workshops; they also suggest that the state was the purchaser of many of the lesser quality textiles woven by the guilds. That such purchases were common is clear from the treatise on the imperial baggage-train's specifications11 .

The demands some assurance of sales to those engaged in production or trading. On the other hand the State officials could not entirely foresee sudden expenditure needs - gifts of *skaramangia* to buy off menacing Bulgarians or Hungarians, for example. To be able to resort to a market in privately produced or imported silks was therefore highly desirable and it gave the State a keen interest in quality control. It was thereby freed from the cost and organisational strain of

[11]- Constantion Porph, *Three Treatises*, ed. Haldon 108 - 9, 112 - 13, 126 - 7; 219, 230 (commentary).

for the produciton of silks: the number of Syrian merchants resident in Constantinople for ten or more years was substantial enough for provision to be made for them in the *Book of the Eparch*9. These were, presumably, distributors distinct from the visiting Syrian exporters who were only allowed three months in the city. Further, the government's ambivalence towards silk produced in workshops not under its direct supervision gains in perspective. As the *Book of the Eparch* attests, the authorities were apprehensive, issuing, for example, injunctions against private production of the 'forbidden' categories of textiles, unauthorised sales to foreigners and covert purchases by raw silk traders on behalf of a '*dynatos* or wealthy man' (*Eparchenbuch*, 6.10; ed. Koder, pp. 98 - 9). But, as Muthesius argues, it was in the state's interest to maintain standards of quality and general order among the silk-producers and to maintain levels of production. The government benefited from taxes on transactions so long as they took place in easily supervisable places. And it needed to draw on the silk supplies and the silk-making skills of the 'private sector'. Hence the *Book of the Eparch's* note that officials and private persons were permitted to manufacture purple garments of high quality if they were ordered to do so 'for supplies (*choregian*) for the *eidikon*10'. It may well have been fear of loss of skills rather than of transmission of them to foreigners that underlay the penalty for selling a slave from a silk workshop 'to outsiders or foreigners' (*Eparchenbuch*, 8.7; ed. Koder, pp. 104 - 5). The picture which emerges for the tenth century is one of, essentially, cooperation between the private and imperial sectors, the degree of collaboration being rather higher them the *Book of the Eparch* expressly acknowledges.

This leads to a further consideration. Muthesius rightly lays emphasis on the sheer complexity of silk manufacture: the delicate worms had to be fed on finely chopped mulberry

[9]- *Eparchenbuch*, 5,2,5; ed. Koder 94 - 7; Muthesius, *Studies* 307.

[10]- *Eparchenbuch*, 8.2; Koder 104 - 5; Lopez, Industry' 15; (Muthesius, *Studies* 259 - 60, 286.

slaves and also paid workers; these slaves could themselves open workshops7.

Some important themes emerge from 'Muthesius' investigations. Firstly, there seems to have been an endemic shortage of raw silk before the eleventh or twelfth centuries. As she points out, much of Asia Minor was unsuitable for growing mulberry trees. While accepting N. Oikonomides' interpretation of the seals of *kommerkiarioi* to the extent 'the seals most plausibly do have a relationship to sericulture', she justly doubts do whether they necessarily attest mulberry growing or silk-worm rearing in all the places mentioned on the seals8. In any case, the amount and quality of the silk yarn produced seems to have been unequal to demand. An underlying condition of shortage helps explain the government's interest in trade with Syria, an important region

[7]- *Eparchenbuch* 8.7, 10, 12, 13; ed. Koder, 140 - 70. Muthesius, *Studies* 285 .

[8]- Muthesius, *Studies* 323. That *kommerkiarioi* became 'mainly related to silk production' in the seventh century was suggested by N. Oikonomides ('Silk trade and production in Byzantium from the sixth to the ninth century: the seals of *Kommerkiarioi*' *DOP* 40 (1986) 43 - 4). It seems most probable that *kommerkiarioi* then possessed special links with the silk-trade, as they had done in previous centuries. But in an era of demonetarisation and slackening economic exchanges their role is likely to have broadened out into one of buying up, selling and stockpiling other valuable manufactures and commodities which became available in their districts, as well as performing a fiscal function. Their functions were probably multiple and variable and they could well have dealt in or accepted as revenue 'agricultural and other primary products', as A. Dunn proposed ('The *Kommerkiarios*, the *Apotheke*, the *Dromos*, the *Vardarios* and *The West,*' *BMGS* 17 (1993) 10). However, it seems likely that their 'depots' *(apothekai)* mostly contained higher-value commodities rather than run-of-the-mill, perishable, agrarian produce. The high insecurity and need for constant improvisation of the mid-seventh to mid-ninth-century provinces will have created an acute need for regional stores of valuables and related supply networks under the care of officials who had some competence as valuers of, and dealers in, them. The *kommerkiarioi* could well have performed the role of local 'fix-its', having powers to buy up valued manufactured goods as they came on the market, to commission production of them, to tax and also to sell or dispense them gratis, according to circumstances. Silks, being highly valued and highly portable, would have ranked prominently but by no means exclusively among these 'big ticket' commodities and instruments of manipulation. See the critique of Oikonomides and comparable suggestions made by J.F. Haldon, *Byzantium in the Seventh Century. The Transfomation of a Culture* (Cambridge 1990) 232 - 4.

reconstructed drawloom . Data on the raising of the worms has been adduced from Chinese sources, notabley the twelfth-century *Geng Zhi Tu.* Muthesius' scope extends beyond the finished products to the uses to which they were put. She underlines the similarities of usage in the Christian East and West, arguing from abundant evidence that the eighth - and ninth-century papacy seems to have played a key role in displaying, distributing, and arousing Western appetites for, eastern silks.

Muthesius' expertise gives weight to her reappraisal and redating of a number of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlinnumber of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlin Dusseldorf' Imperial Lion Silk, which should probably be re-assigned to the co-emperorship of Basil II and Constantine VIII from that of Basil I and his son Constantine . From a different perspective, she rebuts the estimate of raw silk yield in Calabria made by the editor of the sole text to specify the location of mulberry plantations in the Byzantine lands: it 'seems one hundred times too greal' and may exaggerate the importance of Southern Italy as a source of raw silk for Byzantium5. Muthesius also casts doubt on some general conclusions drawn about the organisation of silk production from the *Book of the Eparch*. It is highly unlikely that the *serikarioi* could personally have engaged in prepating the raw silk and dyeing it as well as weaving6. For the degumming process alone occupies one man and perhaps an assistant, while the boiling of the gum creates dirt incompatible with the high standards of cleanliness required in a weaver's workshop. Muthesius suggests that the *serikarioi* were 'factory owners with a series of workshops' rather them manual workers. This suggestion is compatible with the evidence of the *Book of the Eparch* that the *serikarioi* had

[5]- *Le brebion de la metropole byzantine de Region (vers 1050)*, ed. A. Guillou (Corpus des actes grecs d'Italie du Sud et de Sicile 4) (Vatican City 1974) e.g. 17 - 33, 63 – 70; cf. Idem, 'production and profits in the Byzantine province of Italy (tenth to eleventh centuries) : an expending society', *DOP* 28 (1974) 92 - 5, repr. in his *Culture et societe en Italie byzantine (VI-XI s.)* (London 1978), no. 13.

[6]- As proposed by D. Simon 'Die byzantinischen Seidenzunfte', *BZ* 68 (1975) 34.

starting with some heroic feats of cataloguing. A catalogue of 120 silks found in the West has been prepared, together with a handlist of many other examples, including some related Islamic ones. She had to prepare her own preliminary catalogues of the contents of major holdings such as Sens Cathedral Treasury, in default of detailed local catalogues, and this led to important acts of identification. Thus she tracked down the famous Siegburg Loin silk, falsely supposed to have been destroyed during the Second World War. Such feats highlight the fact that the lack of a corpus of surviving silks has been a serious weakness of Byzantine studies as a whole and the imminent publication of the forementioned full catalogue is to be warmly welcomed3.

Mutherius' technical expertise has enabled her to determine the likely origins of silks by the nature of their weaves. There are limits to this method: Byzantine and Islamic workshops favored some identical types of twill in the ninth to twelfth centuries, as we shall see below (p. 253f.). Even so, certain techniques were characteristic of particular regions, for example, grège - textiles with silk threads which had not had their coating of gum removed and which had not been twisted. Detecting these traits in the Lion Silk of St. Servatius, Maastricht, Muthesius proposes Central Asia as the likely place of manufacture: the manufacturers may have been imitating an authentic Lion Silk, made in imperial workshops. Her suggestion is very plausible, seeing that imperial interest stretched as far as Central Asia and guardsmen from Ferghana played a part in tenth-century palace ceremonial4. Muthesius' familiarity with all the technical aspects of silk production reaches back to the grub, which makes it possible. She has studied the organisation and methods of silk worshops in modern Indian villages and paid close attention to the looms, to the point of attempting to weave textiles from a

---

[3]- A. Muthesius, *Byzantine Silk Weaving A.D. 400 to A.D. 1200*, J, Koder and E. Kislinger (eds.) (Vienna, forthcoming).

[4]- Constantine Porphyrogenitus, *De cerimoniis aulae byzantine*, II. 15, ed. I.I. Reiske, I (Bonn 1829) 576 .

use as, for example, chasubles, wrappings of relics, cushions and bindings of Gospel-Books2. But it is worth noting that the numerous examples of Silks, Fragmentary or more less whole, found in Church treasuries probably represent only a small fraction of those originally sent to Western Europe. Many ended up in lay hands and those of top quality would often have been put on display, probably retaining something of their original form. To that extent they were likely to impress more foreign beholders, and to be more readily comprehensible as imperial Byzantine products, than were other items, including gold and silver coins. The value of silks to the emperor in terms both of domestic patronage and diplomatic gifts is indicated by Constantine VII'S treatise on imperial expeditions. It provides for various types of silken garments and cloths, specifying which sorts were brought 'for distinguished refugees and for sending to distinguished and powerful foregners'3. That all this effort made its mark was inferred by R.S. Lopez; the borrowing of Byzantine ceremonial by the Western rulers is the best acknowledgement of Byzantine "hierarchy through clothing"3.

Lopez's classic study might have been expected to prompt many publications on aspects of Byzantine silks. Yet this did not happen. As the late John Beckwith observed, 'the study of medieval woven textiles is highly complex and is, perhaps, the most difficult discipline in the entire field of art history', in that it calls for competence in the art of weaving, ability to read inscriptions in Coptic, Greek, Latin and Arabic and wide-ranging historical knowledge. For some time after Beckwith made this remark textiles continued to be appraised primarily in terms of iconography and style. But Anna Muthesius has taken a major step towards the kids of inter-disciplinary investigation for which Beckwith appealed,

[2]- A. Muthesius, *Studies in Byzantine and Islamic Silk Weaving* (London 1995) 21 - 4, 29 - 30, 36 - 42, 77 - 80. See also Jacoby, 'Silk' 473. The celebrated Gunthertuch, a huge silk originally measuring 210cm by 260cm and showing a triumphant emperor, was re-used intact as a bishop's shroud, most probably just after its arrival in the West: G. Prinzing, 'Das Bamberger Gunthertuch in neuer Sicht', *BS* 54 (1993) 219 - 20 and n.8.

Silks, skills and opportunities in Byzantium : some reflexions

Jonathan Shepard
Faculty of History,Cambridge University

Silks gave visible form to Byzantium's political culture and, being light to carry, could circulate widely. Many of the garments issued to recipients of offices and titles were made of silk and the *Book of the Eparch* takes for granted the close connection between imperial prerogatives, silken vestments of various shades of purple and restrictions, on foreigners access to them 1. Through whetting appetites for silks and maintaining a monopoly over the finest quality products, the emperor could hope to arouse in his own subjects and foreigners alike the desire to gain them through some form of 'Servia'. These 'class' when cut up into pieces. That products simultaneously expressed his wealth, superior knowledge and - by the symbols on them - the antiquity and unsurpassable legitimacy of his rule.

Gold and silver coins could likewise attest these qualities, but they were easily melted down and re-used as ornaments or for other purposes unrelated to the emperor. Large-scale sumptuous silks manufactured in imperial workshops and the silks bestowed as vestments on title-holders and others in favor might appear less likely to be re-used in a form which wholly effaced their origins. The former category of silks tended to bear characteristic marks of imperial authority such as eagles; the latter lost 'class' when cut up into pieces. That re-use and fragmentation did in fact often occur after the silks left Byzantine soil is shown in Anna Muthesius' collection of studies. She discusses their eventual

---

[1] - *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, 4.1, 3, 4; 8.1, 2; ed. J. Koder (Vienna 1991)" 90 - 3, 102 - 5. See also D. Jacoby, "Silk" in Western Byzantium before the Fourth Crusade' *BZ* 84/85 (1991 - 92) 456 - 7. Now repr. in Jacoby's *Trade. Commodities and Shipping in the Medieval* Mediterranean (Aldershot 1997), no. 7.

I : The Papers

The Contributors

- Abdul-Hamid, R., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Fatah, S., Demonstrator of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Karim, N., Associate Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Al-Mnoufia University, Egypt.
- Al-Gindi, S., Assistant Lecturer of Islamic Civilization, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Al-Tahry, A., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts and Humanities, Al-Mohammadia University, Morocco.
- Atya, H., Assistant Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Tanta University, Egypt.
- Gonzalez, V., Lecturer in History and Aesthetics of Islamic Art, Marsille, France.
- Iskander, F., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
- Ismaiel, M., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Magani, B., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Mentory University, Constantina, Algeria.
- Mohammed, T., Associate Prof. of Byzantine History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Shepard, J., Prof. of Medieval Russian History, Faculty of History, Cambridge University, Britain.

II: Book Reviews

Part II: The Foreign Section

I: The papers

II: Book reviews

Contents

Part I : The Arabic Section

I : The Papers

Journal of Medieval and Islamic History
Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Dept. of History, Faculty of Arts, Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow:
  Text's size is 12,5 x 19,5 cm.;
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 14 Traditional Arabic for the Arabic papers.
  Footnotes font is 10;
  Main titles font is 16 Bold.
- Correspondences: Editor-in-chief: *Prof. Dr. Raafat Abdul-Hamid* or *Dr. Tarek Mansour Mohammed.*
  on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202-2854079. E.mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies
(*JMIH*)

Volume I
Pt. II
The Foreign Section
2000-2001

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History, History Department, Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt, Postal code 11566.

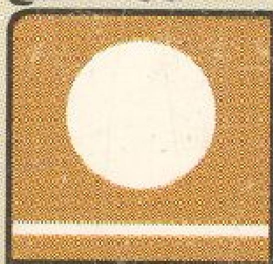
Publisher: Misr el-Arabia
13A *Islam St., Hammamat Al-Koubba,*
Cairo, Egypt.

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 1 / 2000 -2001

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies. Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History,History Department , Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo,Egypt



الغلاف:عماد حليم